مستدركات

أعيان الشيعة

المجلد الرابع

حسن الأمين

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م



المكتب : شارع سوريا - بناية دوريش - الطابق الثالث
الادارة والمعرض - حارة حريك - المنشية - شارع دكاش - بناية الحسنين
تلفون ٨٣٧٨٥٧ - ٨٢٣٠١٠ - ٨٢٣٦٨٥
ص. ب ٨٦٠١ - ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا هو المجلد الرابع من (المستدركات) نقدمه للقراء ، وبذلك نكون قد وفينا لهم بالوعد ، وإذا كانت الشدائد تعاورتنا في إخراج هذا المجلد ، كما كان حالها في المجلد الذي تقدمه ، فقد كنا مصممين ـ بعد الإتكال على الله ـ على أن نصمد لها فلا نجعلها تنال من عزائمنا . وهكذا تجاوزناها محققين للمخلصين ما كانوا يتمنونه من مواصلة العمل ومتابعة السير . وسنظل على عهدنا لهم أن نلتقي بهم في المجلد الخامس إن شاء الله .

حسن الأمين

بيروت ٩ جمادى الأولى ١٤١١

٢٦ تشرين الثاني ١٩٩٠

الأميرة آرام جان بيكم

توفيت بعد سنة ٨٥٥

ملكة جليلة ذات عقل راجح ورأي صائب وجمال بارع . فتن بجمالها السلطان محمد ميرزا بن جلال الدين ميران شاه بن الأمير تيمور فتزوجها فاستولت على جميع مقاليد الحكم وشؤون الدولة والسلطان وكانت تدير أمور الدولة بأحسن وجه . ذكرها الوزير الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة في كتابه خيرات حسان بما تعريبه : (آرام جان بيكم زوجة السلطان محمد ميرزا بن جلال الدين ميران شاه بن الأمير تيمور ملكة جليلة ذات جمال بارع وحسن باهر ومن ربات الفصاحة والبلاغة طلقة اللسان وبعقلها وذكائها وفطنتها تمكنت في مدة قليلة أن تكسب اعتماد السلطان فتسلمت جميع مقاليد الحكم وكانت في أكثر الأحيان تلبس التاج الملوكي وتحضر في البلاط وتدير أمور الدولة والسلطان . .)[١] ، حكمت مع زوجها من سنة ٨٣٠ إلى ٨٥٥[٢] .

آرده خاتون بنت ترمشيرين خان

توفيت حدود سنة ٨٠٨

من أبرز نساء عصرها ذات عقل راجح وحزم ودهاء وإرادة ، مصلحة حكيمة . وهي أم زوجة الأمير حسين والد زوجة الأمير تيمور المتوفى سنة ٨٠٧ وكانت من مستشاري الأمير تيمور .

يقول الوزير الإيراني الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة في كتابه خيرات حسان ما تعريبه : (. . . كانت محل اعتماد ووثوق الأمير حسين وفي أكثر الأحيان التي كانت تحدث فيها بعض الخلافات في وجهات النظر بين الأمير تيمور والأمير حسين كانت تتوسط بين الاثنين لرفع الخلاف ويؤخذ برأيها . . .)[٣] وهي من ربات الشجاعة والفروسية تشهد الحروب والغزوات وتبدي آراءها فيحترمها الجميع خاصة الأمير تيمور وكان يشاورها في بعض أمور الدولة[٤] .

(١) الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة : خيرات حسان ج ١ ص ٦ الطبعة الحجرية الأولى طهران سنة ١٣٠٤ هجرية .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي عن كتابه المخطوط (رياحين الشيعة) .

(٣) الميرزا محمد حسن خان : خيرات حسان ج ١ ص ٦ الطبعة الحجرية الأولى طهران ١٣٠٤ هجرية .

(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي عن كتابه المخطوط (رياحين الشيعة) .

آفاق بيگه بنت الأمير علي الجلائرية الهراتية ويقال آقا بيگه الهراتية الجلائرية

توفت بعد سنة ٩٠٥

أديبة شاعرة فاضلة من ربات البر والإحسان ومشاهير نساء عصرها محبة للعلم والعلماء ، ترعرعت في بلاط أبيها وأخذت العلم وفنون الأدب على كبار علماء عصرها ولما بلغت سن الرشد زفوها إلى الأمير درويش علي كتابدار شقيق الوزير الأمير علي شير نوائي المتوفى سنة ٩٠٦ وترجمها في كتابه مجالس النفائس الذي ألفه في سنة ٨٩٥ هجرية[٥] .

كما ذكرها المير شير علي خان اللودي في كتابه مرآة الخيال الذي ألفه في سنة ١١٠٢ وذكر فيه شعراء عصره وأثنى عليها بما تعريبه (. . . كانت من الشاعرات المعاصرات للسلطان حسين بايقرا في بلدة هرات ومرجعاً للخاص والعام ومن أهل الثراء والجاه ولها ديوان عامر وخدم وحشم وأملاك وأسواق ومقاطعات زراعية ، ينفق من مالها الخاص على العلماء والشعراء وأهل الفضل . . .)[٦] .

وذكر ديوانها شيخنا الأستاذ في موسوعته الذريعة إلى تصانيف الشيعة القسم الأول من الجزء التاسع صفحة ٩ وقال (ديوان آفاق بيگه جلاير الشاعرة الهراتية معاصرة السلطان حسين بايقرا ترجمها مير علي شير اللودي في مرآة الخيال لكن سماها آقا بيگه غلطاً والصحيح ما عبر عنه مير علي شير النوائي في مجالس النفائس . .) وهي من أبرز نساء الشيعة في عصر السلطان حسين بايقرا (٨٧٥ ـ ٩١٢) وكانت دارها في مدينة هرات مجمع الأدباء والشعراء والعلماء وأهل الفضل ، تحب مجالستهم ومعاشرتهم وقد عينت رواتب شهرية تدفع لبعض شعراء وعلماء هرات وكان والدها من أمراء الدولة الجلائرية وأخوها الأمير حسين الجلائري من رؤساء القوات الجلائرية وهو أديب شاعر متكلم ، وهي من أسرة عريقة معروفة في التاريخ الشيعي جاء ذكر رجال هذا البيت الجليل في محله من أعيان الشيعة[٧] .

(٥) المير نظام الدين علي شيرنوائي : مجالس النفائس ص ١٦٤ تحقيق على أصغر حكمت طهران الطبعة الأولى .

(٦) المير شير علي خان اللودي : مرآة الخيال ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ الطبعة الحجرية الأولى بمبئي .

(٧) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

آغا بيگم بنت السيد محمد علي بن السيد عابد بن السيد علي بن السيد محمد الطباطبائي النجفي الأصفهاني البروجردي .

توفيت سنة ١٣٢٣

من أفاضل نساء عصرها فقيهة محدثة عابدة زاهدة متكلمة خطيبة أخذت المقدمات والعربية على أفاضل علماء عصرها ثم تفقهت على رجال أسرتها ولما بلغت سن الرشد زفوها إلى السيد علي الطباطبائي البروجردي ورزقت منه السيد حسين البروجردي المرجع الشهير المتوفى سنة ١٣٨٠ هجرية .

وأسرتها آل الطباطبائي من أسر العلم والفضل الجليلة في بروجرد التي لها مكانتها السامية ونبغ منها علماء أعلام مذكورون في محالهم من أعيان الشيعة .

توفيت في بروجرد ونقلت رفاتها إلى النجف الأشرف حسب وصيتها ودفنت في وادي السلام[١] .

آغا سلطان بنت طهماسب قلي بيك الأصفهانية

توفيت بعد سنة ٩٣٨

عالمة فاضلة جليلة صالحة عابدة زاهدة من ربات البر والإحسان نشأت وترعرعت في بلاط السلاطين الصفوية وأخذت العلم والفنون الإسلامية والأدب عن أفاضل علماء أصفهان وكان أبوها طهماسب قلي بيك من أمراء الدولة الصفوية لها آثار ومآثر في مدينة أصفهان منها تعمير وتأسيس جناح في مسجد جامع أصفهان وتعمير وتزيين الجناح الذي أسسه الصاحب بن عباد[٢] ذكرها السيد مصلح الدين المهدوي في كتابه تذكرة القبور صحيفة ٢٨ ووصفها بأنها عالمة فاضلة صاحبة مبرات وخيرات[٣] .

آمنة بيگم ويقال آمنة خاتون بنت الشيخ محمد تقي المجلسي الأول ابن الشيخ مقصود علي المجلسي الأصفهاني .

توفيت بعد سنة ١١١١ ودفنت قريباً من قبر أخيها المجلسي

تكررت ترجمتها في المجلد الثاني من أعيان الشيعة صفحة ٩٥ باسم آمنة بيگم ثم في المجلد الثالث صفحة ٦٠٧ تحت عنوان بنت المولى محمد تقي المجلسي ونزيد هنا ما يلي : عالمة فاضلة فقيهة محدثة محققة أديبة شاعرة من ربات الفصاحة والبلاغة والورع كانت شديدة الزهد لم أقف على تاريخ ولادتها ووفاتها أخذت العلم وفنون الأدب والعربية وعلم النحو والصرف والبديع والمنطق على أفاضل رجال أسرتها وتخرجت في الفقه والحديث والتفسير على والدها الشيخ محمد تقي المجلسي الأول المتوفى سنة ١٠٧٠ وهي شقيقة الشيخ محمد باقر المجلسي الثاني صاحب البحار المتوفى سنة ١١١١ وربما أخذت عن أخيها المذكور أيضاً فنون العلوم الإسلامية ولما بلغت سن الرشد زفوها إلى الشيخ ملا محمد صالح المازندراني المتوفى سنة ١٠٨٦ فرزقت منه ستة أولاد كلهم من العلماء والشعراء وهم : ١ ـ الشيخ محمد حسين[٤] . ٢ ـ الشيخ محمد سعيد المتخلص بأشرف من شعراء عصره هاجر إلى الهند[٥] . ٣ ـ الشيخ هادي ٤ ـ الشيخ ملا نور الدين محمد ٥ ـ الشيخ ملا حسن علي ٦ ـ الشيخ ملا عبد الباقي .

تصدرت للتدريس والإفادة والإرشاد فكانت من نوابغ نساء عصرها وكان زوجها مع فضله يستفسر منها في حل بعض المسائل العلمية والفقهية المستعصية . يقول الشيخ محمد علي المدرس التبريزي في كتابه ريحانة الأدب ما هو تعريبه (. . . صادف زوجها الشيخ محمد صالح المازندراني في مسألة فقهية مشكلة مستعصية عجز عن حلها وتركها إلى اليوم الثاني فكتبتها آمنة بيگم مشروحة ومبسوطة وحلت ابهاماتها ووضعتها في غرفة زوجها . وعند رجوع زوجها ليلاً شاهد شرح المسألة المستعصية ففرح فرحاً شديداً وسجد للّه يشكره على نبوغ زوجته آمنة بيگم . . .)[٦] .

ترجمها معاصرها الميرزا عبد الله أفندي الأصفهاني المتوفى سنة ١١٣٠ تلميذ شقيق المترجم لها المجلسي صاحب البحار في كتابه رياض العلماء قال : (آمنة خاتون بنت المولى محمد تقي المجلسي فاضلة عالمة صالحة متقية وكانت تحت المولى محمد صالح المازندراني وسمعنا أن زوجها مع غاية فضله قد يستفسر عنها في حل بعض عبارات قواعد العلامة وهي أخت الأستاذ الاستناد مد ظله)[٧] .

تركت مؤلفات منها : ١ ـ شرح على ألفية ابن مالك ٢ ـ شرح على شواهد السيوطي ٣ ـ مجموعة المسائل الفقهية ٤ ـ ديوان شعر : وكُتب من شعرها على لوحة قبرها[٨] .

السيد أحمد ابن السيد سلطان علي المرعشي

ولد سنة ١٣٠٤ وتوفي سنة ١٣٦٠ في سامراء ودفن فيها عند عتبة الحرم العسكري .

نشأ وترعرع في النجف الأشرف في بيت علمي عريق ثم استقر في سامراء ونظم فيها أمور الدراسة فازدهرت في عهده بالأساتيذ والطلاب ، وكان منزله فيها ملتقى الوفاد . وكان في شبابه يتردد على أفريقيا الشرقية للإرشاد فيقصد زنجبار ودار السلام ومقديشو وجزيرة مدغسكر .

وبعد وفاته أقام مرجع الشيعة في عصره السيد أبو الحسن الأصفهاني مكانه ولده السيد كاظم فتولى الشؤون العلمية في سامراء حتى وفاة الإمام الأصفهاني فاضطربت الأمور وغادر سامراء الكثير من الفضلاء والطلاب فغادرها السيد كاظم إلى إيران .

وعدا السيد كاظم ولده الأكبر فقد ترك المترجم أربعة بنين أكبرهم السيد إسماعيل الذي سلك طريق أهله في طلب العلم والعمل به ، فبعد تخرجه من معاهد سامراء والنجف استقر في مدينة الأهواز مرشداً هادياً وشيد فيها مدرسة ومسجداً ومكتبة ، إلى أن قامت الحرب العراقية الإيرانية وصارت الأهواز عرضة للقصف المدفعي والجوي فتركها إلى طهران . له من المؤلفات : عنوان الطاعة في إقامة الجمعة والجماعة ـ إجماعيات فقه الشيعة ، الأصول الوجيزة .

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي عن كتابه المخطوط (رياحين الشيعة) .
(٢) أنظر گنجينه آثار تاريخي أصفهان صفحات ٩٢ و ١٠١ .
(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي عن كتابه المخطوط (رياحين الشيعة) .
(٤) أنظر الذريعة إلى تصانيف الشيعة القسم الأول من الجزء التاسع صفحة ٢٤٨ بيروت دار الأضواء .

(٥) انظر تذكرة نصر آبادي : الميرزا محمد طاهر النصر آبادي ص ١٨١ طهران مكتبة فروغي .
(٦) الشيخ محمد علي المدرس التبريزي : ريحانة الأدب ج ٥ ص ١٤٨ الطبعة الثانية تبريز مطبعة شفق .
(٧) الميرزا عبد الله الأصفهاني : رياض العلماء ج ٥ ص ٤٠٧ قم منشورات المكتبة المرعشية .
(٨) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

وهي خلاصة من مباحث أصول الفقه كانت بعض دراساته لطلابه في مدرسته بالأهواز .

وشقيق المترجم السيد محمود عمّر مئة سنة وكان من الاعلام في النجف الأشرف ثم مدينة قم .

الميرزا أحمد بن الميرزا كاظم بن الميرزا صادق الكشميري المتخلص بآزاد كان حياً سنة ١٢٣٥

أديب متضلع وشاعر فنان وخطاط مبدع . من أدبائنا المنسيين .

لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته هـاجر من إيـران إلى الهند وسكن بلدة كشمير له-آثار-ونفائس من الفن الإسلامي الخالد منها نسخة من القرآن المجيد بخط ثلث جميل وتفسير الكاشفي كتبه بخط ثلث ونسخ ورقاع ونستعليق . والنسخة من مخطوطات مكتبة جامعة استانبول وجاء في آخره : (تم كلام الملك العلام من التفسير على يد أحمد بن ميرزا كان بن ميرزا صادق آزاد تخلص . . . سنة ١٢١٧ هجرية) .

ذكره الأستاذ محمد علي كريم زاده التبريزي في كتابه أحوال وآثار نقاشان(١) وقال أنه إيراني الأصل سكن في الهند وكان من أساتيذ صنع الميناء (فسيفساء) في أواسط القرن الثالث عشر للهجرة ومن صنعه يد جنجر وغلافه مطلياً بالميناء (الفسيفساء) بألوان زاهية تم صنعه سنة ١٢٣٥ . . . الموجود في متحف البريطاني . . .

أقول : ان آثاره الخطية وفنونه الإسلامية الخالدة موجودة في أروقة المتاحف في العالم والمكتبات العامة والخاصة وذكره الدكتور مهدوي في كتابه أحوال وآثار خوشنويسان ج ١ ص ٣٦(٢) .

شهاب الدين أحمد بن ماجد المشهور بابن ماجد

هو الربّان العربي الشهير الذي كان في الوقت نفسه شاعراً مؤلفاً ، وقد كتبت عنه باللغة العربية دراسات قيمة ، منها الدراسة الواسعة التي كتبها عبد الله بن علي الماجد عن حياته ، وتحقيق مؤلفه (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) ، والدراسة التي نشرها الدكتور أنور عبد العليم بعنوان (ابن ماجد الملاح) في سلسلة (اعلام العرب) الحلقة الـ ٦٣ منها . وما كتبه حسن كامل الصيرفي بعنوان : (الملاح الشاعر) ، وما نشره الديوان الأميري في رأس الخيمة من الدراسات الخاصة .

تشيع ابن ماجد

وابن ماجد من أفذاذ الشيعة وأعلامهم التاريخيين ، ولم يشر بعض من كتبوا عنه باللغة العربية إلى تشيعه ، في حين أن مجلة (الموسم) في عددها السابع (١٩٩٠) في الصفحة ٧٨٦ تقول : وقد سبق لعدد من الباحثين التأكيد على مذهب آل البيت الذي كان يعتنقه العبقري الخالد ابن ماجد ومنهم المستشرق الفرنسي غبريبل فرّان في المجلد الثالث من كتابه (المدخل إلى الفلك الملاحي العربي) اهـ .

ونقول : أن تشيع ابن ماجد واضح لا سيما فيما نظمه من الشعر . قال الدكتور عبد الهادي التازي المغربي في مجلة البحث العلمي سنة ١٩٨٦ :

ان ابن ماجد بما يحمله معه من تاريخ حافل كان جديراً بهذا البروز . . وجديراً برد الاعتبار إليه ، ومن هو مؤهل في العالم كله ليقوم بهذا الواجب غير ابناء خلدته من أبناء المنطقة الذين يظلون مدينين لابن ماجد فيما كتب عن ديارهم ، عن سواحلهم ، عن بحورهم ، وعن علومهم . . عن عبقريتهم بما فيهم المتواجدون على شاطىء خليج فارس أو خليج عمان والمحيط الهندي . . وسائر افريقيا الشرقية . ومن كل أولئك الذين تظل جغرافيتهم بتراء شوهاء ان لم تعتمد على افادات ابن ماجد . . من هو جدير في العالم ليقوم بهذا الواجب غير الرجال الذين يعيشون على نفس الأرض التي نشأ فيها ؟ غير الذين يستظلون بنفس السماء التي كان بها يستظل ، وغير الرجال الذين نبهتهم صيحات ابن ماجد وانذاراته للخطر المحدق بهم من الطامعين في خيراتهم .

وان من حقنا فعلاً أن نطالب المسؤولين عن التربية والثقافة في هذه البلاد أن يخصصوا يوماً من السنة نطلق عليه : « يوم ابن ماجد » يمكن أن يكون « منتصف شهر شتنبر من كل سنة » لأن ذلك التاريخ يصادف بالضبط اليوم الذي أتم فيه ابن ماجد مؤلفاً له مهماً بعنوان : « السبعية » كتبه وهو في جلفار :

تمت لشهر الحج في جلفار	أوطان أسد البحر في الأقطار
يوم الغدير أبرك الأيام	إذ خص بالإحسان والصيام
وكان في الهجرة يا مولاي	ستة وستين وثمان مائة

يكون ذلك اليوم ملتقى للمبدعين والفنانين والكتاب والمحققين والذين ينشدون الحقيقة من كل مكان . . ملتقى للمهتمين بعلوم البحر وتطور الأساطيل .

علينا أن نعرف بقدر ابن ماجد فنرفع عنه ما ألحق به خطأ أو قصداً . . يكفي أنه عاش في حياته مهضوم الحق ، علينا أن نستحضره وهو يخاطب مواطنيه بالأمس :

فان تجهلوا قدري - حياتي فانما سيأتي رجال بعدكم يعرفوا قدري!

د . عبد الهادي التازي

باريز - فال دوكراص - مجلة البحث العلمي

ص ٧١ ع ٣٦ (١٩٨٦)

هذا ما كتبه الدكتور عبد الهادي التازي ، ولم ينتبه وهو ينقل أبياتاً من أرجوزة ابن ماجد الذي يعلن فيها تاريخ انتهائه من كتابه (السبعية) إلى ما ذكره ابن ماجد من أن تاريخ هذا الانتهاء يصادف (يوم الغدير أبرك الأيام) ، وما دام لم ينتبه لهذا فمن البدهي أن لا ينتبه لما وراء هذا الذكر من تشيع ابن ماجد الذي لم تنسه مشاغله الكبرى أن يحصي الأيام ليصل إلى (يوم الغدير) الذي هو عنده (أبرك الأيام) .

وكيف لا يكون هذا اليوم عند ابن ماجد (الشيعي) العريق أبرك الأيام وهو اليوم الذي جمع فيه النبي (ص) المسلمين في (غدير خم) وقال لهم : من كنت مولاه فعلي مولاه . فكان ذلك إيذاناً بأن علياً هو خليفته من بعده .

وسنرى في الآتي من القول أن الدكتور أنور عبد العليم وهو يذكر

(١) انظر أحوال وآثار نقاشان قديم إيران : محمد علي كريم زاده ج ١ ص ٥١ لندن ١٣٦٣ هجرية شمسية .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

مؤلفات ابن ماجد يذكر من بينها : (الأرجوزة المنسوبة إلى علي بن أبي طالب) ، وقد ذكرها بهذا الشكل لأنه رأى بين ما ألفه ابن ماجد شعراً أرجوزياً باسم علي بن أبي طالب عليه السّلام ، فلم يدرك أن هذا الشعر هو في مدح الإمام ، لذلك اكتفى بالقول : (الأرجوزة المنسوبة إلى علي بن أبي طالب) ، في حين أن هذه النسبة هي نسبة المدح .

وبعد هذا نترك الكلام للدكتور أنور عبد العليم ، ثم للمؤرخ البحراني علي التاجر الذي توسع في الحديث توسعاً مفيداً لا بد منه في هذا المجال :

سيرة ابن ماجد وحياته

في مكتبة باريس مخطوط عربي قديم يرجع عهده للمائة التاسعة الهجرية يحمل رقم ٢٢٩٢ يحتوي على تسعة عشر مؤلفاً ملاحياً للربان العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد أولها « كتاب الفوائد » وهو أكبرها ومنشور ، أما باقي المؤلفات فأغلبها منظوم من بحر الرجز . وفي نفس المكتبة أيضاً مخطوط آخر تحت رقم ٢٥٥٩ يحتوي على مؤلفات ملاحية أيضاً للشيخين أحمد بن ماجد وسليمان المهري . وقد نشر هذين المخطوطين وعلق عليهما المستشرق الفرنسي جبرييل فران Gabriel Ferrand في الثلث الأول من هذا القرن .

ويعتبر هذان المخطوطان في نظر الكثيرين أهم وثيقة في الجغرافيا الفلكية والملاحية وصلتنا من العصور الوسطى ، وتنحصر أهميتها في أنها أقدم الوثائق الجيدة التي دونت عن الملاحة في البحار الجنوبية بين الساحل الشرقي لافريقيا وبلاد الصين بلغة من اللغات ، ولذلك أثره في تاريخ العلوم ، كما أنها تلقى كثيراً من الضوء على مقدار ما بلغه العرب من تقدم في فنون البحر والملاحة في ذلك الوقت وعلى مدى تأثر البرتغال بالتعاليم الملاحية العربية . وفضلاً عن ذلك فالمخطوطان الآنفا الذكر يحتويان على كثير من المصطلحات العلمية والفنية التي تعتبر في حد ذاتها ثروة للغة العربية .

هذا وتوجد أيضاً ثلاث أراجيز (راهنامجات أو راهمنجات أو رهمانات أو راهنامات أو رهمنات)[١] أخرى لابن ماجد في مكتبة الاستشراق بلينينجراد نشرها وعلق عليها باللغة الروسية الأستاذ تيودور شوموفسكي عام ١٩٥٧ . وقد أتيح لنا الاطلاع على بعض أعمال ابن ماجد في لينينجراد عام ١٩٦١ وعلى نسخ مصورة من مخطوطي باريس السالفي الذكر بالإضافة إلى مصادر أخرى . وإذ نحن بسبيل تقديم دراسة علمية جديدة عن هذا الربان العربي من واقع مخطوطاته فقد آثرنا أن نعرف به أولاً بهذا البحث في «تراث الإنسانية » .

وسنتناول فيه تقديم كتاب « الفوايد » ولا يسعنا إلا أن ننوه أيضاً بمقال كتبه قبلنا الأستاذ حسن كامل الصيرفي في مجلة « المجلة » عام ١٩٥٧ عن هذا الربان تحت عنوان « الملاح الشاعر »[٢] .

أما مؤلف كتاب « الفوايد » فرئيس علم البحر وفاضله وأستاذ هذا الفن وكامله الشيخ شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين ابن أبي معلق السعدي ابن

(١) عن الفارسية بمعنى راه (طريق) ونامه (كتاب) أي كتاب الطريق وهي هنا بمعنى المرشد الملاحي .

(٢) انظر أيضاً محمد ياسين الحموي بعنوان « الملاح العربي » طبعة دمشق سنة ١٩٤٧ .

أبي الركاب النجدي (نسبة إلى نجد) حاج الحرمين الشريفين المكنى بالمعلم وبأسد البحر وليث الليوث ، شيخ ربابنة المحيط الهندي والبحر الأحمر وخليج عمان والخليج الفارسي وبحر الزنج وبحر جاوة وبحر الصين في القرن الخامس عشر الميلادي غير منازع ، وأوسعهم علماً وتجربة وفضلاً .

يقول المؤلف في سبب تأليفه لهذا الكتاب : « ألفته وصنفته لركاب البحر ورؤسائه وفيه ما اشتبه من الحاوية يعني « حاوية الاختصار » وهي مؤلف سابق له) وغيرها على الطالبين وسميناه كتاب « الفوايد » وهو مشتمل على فوايد كثيرة غوامض وظواهر ويضيف في موضع آخر من الكتاب سبباً آخر . . . « فهو يخاف أن يدركه الموت ونوادر الحكم في القلوب » .

ولا يعرف على وجه التحقيق تاريخ ميلاد هذا الربان الماهر والمعلم القدير ولا تاريخ وفاته ، إلا أن الثابت أن نشاطه ينحصر في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي (أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجري) كما أنه درس الحساب وهو بعد صبي صغير . وقد ذيّل المؤلف مخطوطه هذا بقوله « وختمنا هذا الكتاب في عام خمس وتسعين وثمان ماية[٣] على الاختصار بقولي أوصيكم بتقوى الله وقلة الكلام وقلة المنام وقلة الطعام ونستغفر الله من التقصير والزيادة والنقصان » . وهذا التاريخ يوافق عام ١٤٨٩ - ١٤٩٠ م .

ومن الثابت أيضاً أن مؤلفنا قد تجاوز الستين من عمره وشهد أوائل القرن العاشر الهجري ، وقد وجدنا في أرجوزته المسماة « ضريبة الضرايب » ما يعزز ذلك من قوله :

شباب برأسي أعجب الناس من أمري	أتاني عقيب الشيب في آخر العمر
وأي شباب بعد ستين حجة	سما في السما فوق السماكين والنسر[٤]

ومنها قوله :

أنا فرحتي في ليلة قد ترتبت	كأني أعطيت المنى ليلة القدر
مهذبة في تسع ماية قد أتت	إذا هي تمت وفيت لها نذري

والبيت الأخير يدل بوضوح على أنه قد دخل في عام ٩٠٠ هجرية ويتمنى أن يوفي نذره بتمامه ولربما كان ذلك النذر هو حج بيت الله كما تعوَّد أن يفعل ، ويوافق هذا التاريخ عام ١٤٩٤ - ١٤٩٥ م .

كما نستشف من كلام ابن ماجد في « الفوائد » الذي يرجع تاريخ النسخة التي تحت يدينا منه إلى خمس سنوات قبل هذه الأرجوزة أنه تولى قيادة المركب في سن مبكرة ربما في الثانية عشرة أو الخامسة عشرة من عمره ويتضح ذلك من قوله : (وما صنفت هذا الكتاب إلا بعد أن مضت لي خمسون سنة وما تركت فيها صاحب السكان (الدفة) وحده إلا أن أكون على رأسه » . وللأبيات التي اخترناها دلالة أخرى فمنها نستشف أيضاً أن ابن ماجد على الرغم من تجاوزه الستين من عمره كان جم النشاط متوقد الذهن والقريحة صحيح البنية باعترافه مما أدى إلى عجب الناس ، وأغلب الظن أنه عاش لسنوات عديدة بعد هذا التاريخ ، وليس ذلك بمستبعد في الأحوال الطبيعية على شخص قضى أغلب حياته في البحر يعيش في بساطة وهدوء يتنفس الهواء

(٣) من المرجح أن ابن ماجد قد نسخ كتاب الفوائد أكثر من مرة على سنوات مختلفة (انظر جبرييل فران ١٩٢٨ .. وفي النسخة المشار إليها في مكتبة باريس يذكر المؤلف حوادث وقعت عام ٨٩٤ هـ .

(٤) السماكين والنسر الطائر من النجوم الملاحية المشهورة .

النقي ، متفرغاً لعمله لا يشغل باله بعرض الدنيا وزينتها . ثم أنه كان عفيف النفس ورعاً تقياً مخلصاً لربه ولمهنته زاهداً في المال ، كما يتضح من كتاباته . ولهذا كله مغزى خاص سنورده فيما بعد . ونحن نؤيد ما نقول بفقرات من كتاب الفوايد مثل قوله : وينبغي أنك إذا ركبت البحر تلزم الطهارة فإنك في السفينة ضيف من أضياف الباري عزَّ وجلَّ فلا تغفل عن ذكره) .

على أن عدم تقيد ابن ماجد بالوزن والقافية في شعره أو بقواعد الإعراب لا يعني بحال من الأحوال أنه كان قليل الحظ من الثقافة ، فهو رجل بحر مجرب موهوب خبير بالنجوم وبمسالك الملاحة وبالبحر وعواصفه وأنوائه وتقلب أحواله ، مشغول بقياساته الفلكية وتجاربه التي أنفق فيها عمره . ثم يجب ألا ننسى أنه ربان يخاطب أهل فنه ومهنته بلغة المهنة ، كما يجب ألا ننسى أيضاً أن العصر الذي عاش فيه كان عصر اضمحلال أدبي أنفقد فيه السجع المفتعل كثيراً من بهجة اللغة والتعبير . وبهذه المناسبة يرى بعض المستشرقين أن كتابات ابن ماجد صعبة شاقة كالرموز تحتاج إلى مفاتيح لحلها ، وهم يقصدون بذلك بالطبع أراجيزه التي ضمنها قياساته الفلكية وتعبيراته الملاحية ولهم عذرهم في ذلك . والواقع أن دراسة ابن ماجد دراسة مجدية تحتاج إلى المام بالكثير من فنون الملاحة والبحر ، كما أنها تحتاج في نفس الوقت إلى معرفة بأصول مثل هذه الكلمات والمصطلحات التي استعملها واشتقاقها من اللغات الفارسية والهندية والسواحلية وغيرها ، وقد يسر هذا الأمر الأخير للباحثين تلك الدراسات القيمة التي أجراها جبرييل فران[1] أثناء إقامته الطويلة في مدغشقر وجاوا وجزر الكومور وغيرها من جزر المحيط الهندي . ثم إن دراسة ابن ماجد تحتاج أيضاً إلى تحقيق لمواقع الأمكنة والبلدان التي ورد ذكرها في كتاباته ، وعلى سبيل المثال عندما يتكلم عن « جوزرات » فإنما يعني « كجرات » بالهند ، وإلى معرفة أيضاً بآلات الملاحة وأدواتها التي كانت مستعملة في وقته وكذلك إلى معرفة أسماء النجوم التي رصدها ومدلولاتها الحديثة .

وتدل كتاباته على اطلاع واسع وإلمام بكتب وآثار من سبقوه ليس فقط بالنسبة لمؤلفات الجغرافيا الفلكية والجغرافيا الرياضية بل أيضاً بالنسبة لكتب الأدب والأشعار . فهو يستشهد في كتاب « الفوائد » مثلاً بأبيات من معلقات امرىء القيس وعمرو بن كلثوم والمهلهل ابن أبي ربيعة من شعراء الجاهلية وكذلك بأبيات من عمر ابن أبي ربيعة والطغرائي وأبي نواس وغيرهم . وفي موضع آخر من كتاب « الفوائد » يعدد كتباً متخصصة يجدر « بمعاملة البحر » قراءتها فيقول « بل أنا نقول للمعالمة ونعرف الغافلين منهم وندلهم على الكتب الكبار التي لم تتم صنعتهم إلا بها مثل كتاب المبادىء والغايات تصنيف رجل مغربي من أهل مراكش ومثل كتاب التصاوير فإن فيه جميع الكواكب بصورهن وبمرهن وبعدهن ودرجاتهن وطولهن وعرضهن وكذلك في كتاب تقويم البلدان وفي الإختصار الشحبتية (؟) وزيج الفتيك بن شارخ بن تمرلنج[2] . . وكان بليغاً في علم الفلك عمدة جميع العجم . وفي هذا الفن (أيضاً) كتاب المجسطي لبطليموس وهو كتاب يوناني عرب منه المأمون بن هرون بعض أجزائه .

ومن كتب هذا الفن كتاب البتاني وزيج ابن الشاطر المصري وعليه أكثر كلم الديار المصرية ، وكتاب أبو حنيفة الدينوري وكتاب الطوسي وكتاب أبو المجد إسماعيل بن إبراهيم الموصلي ويسمى مزيل الإشتباه عن مشتبه الأنساب وكتاب المشترك لياقوت الحموي وكتاب ابن سعيد وكتاب ابن حوقل فإنه مستوفي العرض والطول والدرج والبلدان والجبال والمدن والبحيرات والأنهار . . فأني وقفت على أكثر مما ذكرت » .

ونحن نميل إلى الإعتقاد بأن ابن ماجد كان ملماً بلغة الهند السنسكريتية وبلغة فارس وبلغة ساحل الزنج وربما بلغة جاوة كذلك لاختلاطه بعمالة من هذه البلاد وطول إقامته بينهم ولاستخدامه في كتاباته كثيراً من المصطلحات المشتقة من تلك اللغات وبخاصة من الفارسية التي يستشهد منها ببيت للفردوسي في كتاب الفوايد ثم يعربه بقوله :

خف من الله ولا تؤذ أحد   هذا طريق الحق لا تخش أحد

وهو ان كان قد نشأ في جلفار في عمان ، إلا أنه كان دائم التنقل بين الساحل الأفريقي والعربي وللمحيط الهندي ، ولربما قضى في البحر أكثر مما قضى على البر من عمره .

على أن ابن ماجد على الرغم من ذلك كان شديد الثقة بنفسه دائم الاعتداد بعلمه عن يقين ، ويتضح ذلك في مواضع كثيرة من مؤلفاته المنظومة والمنثورة ، ولطالما نعت نفسه بأنه « رابع الليوث » أو « رابع ثلاثة » من جهابذة هذا العلم ولكنه يستكثر على نفسه أن يسبقه هؤلاء فيستدرك بقوله ونهاية المتقدم بداية المتأخر ، وقد عظمنا علمهم وتآليفهم وجللنا قدرهم - رحمة الله عليهم - بقولنا أنا رابع الثلاثة ، وربما في العلم الذي اخترعناه في البحر ورقة واحدة تقيم في البلاغة والصحة والفائدة والهداية والدلالة بأكثر مما صنفوه » .

وكأنه رحمة الله عليه ، كان علياً حين اختتم قصيدته المساة (ضريبة الضرائب) بقوله :

فإن تجهلوا قدري حياتي فإنما   سيأتي رجال بعدكم يعرفوا قدري

وقد تحققت نبوءته بعد نصف قرن من موته تقريباً على يد الأميرال التركي « سيدي علي كاتب رومي » كما سيرد ذكره ثم مرة أخرى في القرن العشرين على أيدي العلماء من المستعربين من روسيا من أمثال كراتشكوفسكي وشوموفسكي ومن فرنسا من أمثال فران ومن سويسرا من أمثال دي سوسير وغيرهم ممن أجهدوا أنفسهم في التعرف عليه ودراسة مؤلفاته . ناهيك بملاحي الشراع من أهل عدن أيها الشيخ الذين يقرأون لك الفاتحة كل يوم كلما خرجوا إلى عرض البحر[3] .

ولا ترجع شهرة ابن ماجد إلى كونه ملاحاً قديراً فحسب ، لا يزال أهل عدن يقرأون له الفاتحة كل يوم ، ولا إلى مؤلفاته الغزيرة في علوم البحار والملاحة التي لم تكتشف إلا في القرن العشرين ، وإنما أكتسب هذا الملاح

---

(١) انظر : G. Ferrand: Relations des voyages et textes geogr. arabes etc., relatifs à l'ex-tréme orient du VIII au XVIII siècles, paris. في جزئين

(٢) يقصد « زيج الغبيك » لا ولوج بيك بن تيمورلنك وربما كان هذا التحريف في الأصل من الناسخ .

(٣) يقرر ذلك الرحالة الإنكليزي ريتشارد بيرتون في كتابه « السبيل إلى أفريقيا واستكشاف هرر » طبعة لندن عام ١٨٥٦ م عن رؤيته لبحارة عدن يقرأون الفاتحة للشيخ ماجد « مخترع البوصلة البحرية » .

فضلاً عن ذلك ، شهرة دولية حين ثبت أنه هو نفسه الربان الذي قاد سفينة فاسكودي گاما البرتغالي من ساحل أفريقيا الشرقي إلى الهند لأول مرة في عام ١٤٩٨ م . ولقد استغرق هذا الموضوع جانباً كبيراً من اهتمام المؤرخين والمحققين الأجانب في عصرنا الحاضر ، وأخيراً أقرت حكومة البرتغال بهذا الفضل للملاح العربي فأقامت له في ميناء ملندي في كينيا نصباً تذكارياً يخلد هذه الواقعة . ولما لهذه القصة من طرافة فإننا نوردها هنا ببعض التفصيل .

يرجع أول عهد البرتغال بجنوب أفريقيا ثم بالمحيط الهندي بعد ذلك لعام ١٤٨٧ ـ ١٤٨٨ م أي قبل دي جاما بعشر سنوات تماماً حين نجح ربانهم المسمى برتليمو دياز في اجتياز رأس العواصف (رأس الرجاء الصالح) في ديسمبر عام ١٤٨٨ م مستعيناً طول الوقت بالملاحة الساحلية .

فالقول اذن بأن ابن ماجد قد دار بأسطول دي جاما حول رأس الرجاء الصالح كما يتبادر إلى ذهن العامة لأول مرة مردود من أساسه إذ أن أي ملاح ماهر يستطيع أن يدور حول هذه الرأس محتصناً الساحل طول الوقت . والأصعب من ذلك والأهم أن يحاول ملاح أن يصل إلى الهند من ساحل أفريقيا الشرقي مجتازاً محيطاً مجهولاً له تماماً دون أن يرشده خبير بأصول الملاحة في هذا المحيط . . ومن ثم لم يجرؤ فاسكو دي گاما أن يفعل ذلك وحده ومكث أسابيع على الساحل الشرقي لأفريقيا في انتظار هذا الملاح الذي يرجح البعض أنه لم يكن سوى ابن ماجد كما سنعرف عما قليل . وجدير بالذكر أن البرتغال كانوا يسعون للوصول إلى الهند لاحتكار تجارة التوابل كما هو معروف ، بيد أنهم لم يفصحوا عن غرضهم بادىء الأمر .

وقد تمت رحلة دي گاما إلى الهند في أول عهد الملك مانويل الثاني الذي حكم البرتغال بين سنوات (١٤٩٥ ـ ١٥٢١ م) . أما دي گاما نفسه فقد ولد في عام ١٤٦٠ م وقام برحلته الأولى إلى الهند بين أعوام ١٤٩٧ ـ ١٤٩٩ م،أي وهو في سن السابعة والثلاثين وكان رجلاً متوسط الذكاء والتعليم ولكنه يتميز بعزيمة قوية . أما أسطوله فكان يتكون من ثلاث سفن من نوع عرف باسم « كرافل » Caravelle وكان العرب يطلقون على مثل هذه السفن باسم « غراب »[1] . أما هذه السفن فقد كانت تحمل أسماء قديسين فسفينة القيادة التي كان عليها دي جاما سميت باسم « سان جبرائيل » . وتولى شقيق دي جاما ويدعى بولو قيادة السفينة « سان رافائيل » وقد غرق هذا المركب بين كلوة وممباسا حين عودة الحملة من الهند ، كما تولى نقولا كولحا قيادة القطعة الثالثة من الأسطول وهي السفينة « بريو » أو « سان ميجيل » . واصطحب دي جاما معه على هذه السفن الثلاثة ١٥٠ من البحارة وبدأ الرحلة من البرتغال في يوم ٢٥ مارس سنة ١٤٩٧ م بعد أن قضى ليلته يتعبد .

وصل دي گاما إلى رأس العواصف في جنوب أفريقيا يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٤٩٧ ثم إلى ساحل (ناتال) يوم عيد الميلاد وسميت الأرض بهذا الإسم تيمناً بميلاد المسيح . وفي يناير عام ١٤٩٨ فقد دي گاما السفينة (بريو) على الساحل الأفريقي الشرقي نتيجة العواصف ، وحمل بحارتها على السفينتين الأخريين . ثم أنه واصل سيره شمالاً بعد ذلك على الساحل حتى بلغ ثغر ملندي في كامبايا (كينيا الآن) على خط عرض ٣° جنوب خط الاستواء . وذلك في شهر مارس من نفس السنة . وهنالك ألقى مراسيه في ذلك الثغر لأسبوعين أو أكثر يتقصى الأخبار عن الهند ويبحث عن مرشد يقوده إليها . وفي قوله أن سلطان البلاد وقد تصادق معه فاسكو دي گاما وغمره بالهدايا هو الذي أرسل في طلب الملاح العربي وكلفه بارشاد سفينة البرتغال إلى الهند فأوصله الأخير إلى كلكتا في أواخر أبريل عام ١٤٩٨ م[2] .

ومن المعروف أن فاسكو دي گاما نفسه لم يترك لرحلته مذكرات بخط يده ، وقد أرخ لهذه الرحلة الكتاب البرتغاليون القدامى من أمثال لوبيز كاستنهيدا عام ١٥٥٤ م .

F. L. Castenheda: Historia do descobrimento ecoquista da India - pelos Portugueze, 1554.

ودي باروش عام ١٥٥٣ م . Joao de Barros: Da Asia, 1553

ويلاحظ أن الطبعات الأولى لهذه الكتب تمت بعد الرحلة بنحو نصف قرن تقريباً مما أدى إلى اختلاف الروايات حول اسم الملاح الذي أرشد فاسكودي گاما إلى الهند ، فمن المؤرخين من قال أنه « المعلم كانا » Malem Cana أو Mullemo المسلم من جوزرات ومنهم من قال أنه المعلم كاناكا Canaque وجدير بالذكر أن لفظ معلم وجمعه « معالمة » كان هو الإصطلاح الملاحي المرادف للربان أو القبطان أما لفظ « كانا » أو « كاناكا » فيعنى بلغة السنسكريت (الحاسب) أو (المنجم) والمقصود به هنا الخبير بالملاحة الفلكية . ومن أقوال ملاحي المحيط الهندي المسلمين المأثورة في ذلك الوقت : أن المعلم كالإمام كلاهما عاهد الله على القيادة فكما لا يستطيع الأخير ترك الصلاة فإن المعلم لا يستطيع أن يترك سفينته .

ويرجع الفضل في الواقع في التعرف على أن ابن ماجد كان هو المرشد الذي قاد أسطول دي گاما إلى الهند إلى جهود المستشرق الألمعي جبريل فرّان عام ١٩٢٢ كما ذكرنا من قبل .

(G. Ferrand: Le pilote arabe de Vasco do Gama au XV siéle. Annales de geographie. tom 31 P. 289 - 307).

وقد اهتدى « فران » إلى المصدر الأصلي الذي ورد فيه ذكر ابن ماجد صراحة وذلك في مخطوط لقطب الدين النهروالي بعنوان « البرق اليماني في الفتح العثماني »(*) ليرجع تاريخ تأليفه إلى عام ١٥٧٧ م وتوجد النسخة الثانية المتداولة من هذا المخطوط في الخزانة التيمورية بالقاهرة وقد أطلعنا عليها ونحن نورد هنا مقالة النهروالي عن هذا الملاح تحت باب (في ذكر انتقال الدولة باليمن من بني طاهر إلى الأمير حسين من الجراكسة) (وقع في أول القرن العاشر (الهجري) من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرتقال اللعين من طايفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند وكانت طائفة منهم يركبون زقاق سبته (مضيق جبل طارق) في البحر ويلجون في الظلمات ويمرون خلف جبال القمر بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر أي أبيض وهي مادة أصل بحر النيل ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل عند مضيق على أحد جانبيه جبل والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفائنهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون

(١) قال ابن جحلة وهو من شعراء القرن الثامن الهجري :
غربانها سود وبيض قلوعها يصفر منهن العدو الأزرق

(٢) في روايه أخرى أن فاسكو دي گاما أبحر من ملندي في ٦ أغسطس سنة ١٤٩٨ ووصل قاليقوط في ٢٦ أغسطس سنة ١٤٩٨ .

(*) طبعته « دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر » وهو الحلقة الـ ٦ من سلسلة : (نصوص وأبحاث تاريخية وجغرافية عن جزيرة العرب) .

في ذلك المكان ولا يخلص من طايفتهم أحد إلى بحر الهند إلى أن خلص منهم غراب (مركب) إلى الهند فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنجة وكان يقال له الملندي (الأميرال) وعاشره في السكر فعلمه الطريق في حال سكره ، وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا في البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج . فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا في بحر الهند وبنوا في كوه (جوا) بضم الكاف المعجمة وتشديد الواو وبعدها هاء اسم لموضع من ساحل الدكن هو تحت الفرنج الآن من بلاد الدكن قلعة يسمونها كوتا ثم أخذوا هرموز وتقووا هناك وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتقال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ويأخذون كل سفينة غصباً إلى أن كثر غدرهم على المسلمين وعم أذاهم على المسافرين فأرسل السلطان مظفر شاه[1] بن محمود شاه بن محمد شاه سلطان كجرات يومئذ إلى السلطان الأشرف قانصوه الغوري[2] يستعين به على الأفرنج ويطلب العدد والآلات والمدافع لدفع ضرر الأفرنج على المسلمين ولم يكن أهل الهند إذ ذاك يعرفون المدافع والمكاحل والبندقيات يومئذ ومن أرسل إلى السلطان الغوري يطلب منه النجدة على الأفرنج السلطان عامر بن عبد الوهاب لكثرة ضرر الأفرنج بالمسلمين في بحر اليمن واستعمال المدافع ونحو ذلك فجهز السلطان قانصوه من كبار مقدميه الأمير حسين الكردي وأصحبه طايفة كبيرة من اللوند كبيرهم سليمان الريس وجهز لهم عمارة عظيمة وأغربة نحو الخمسين بمدافع كبيرة وضربانات وولاه نيابة جدة . . فأول ما جاء بنى على جدة سوراً محيطاً بها في عام سبع وعشر وتسعماية (٩١٧ هـ) .

هذه هي رواية النهروالي أوردناها بنصها . ويرى أغلب المستشرقين أن الموضوع الخاص بسكر ابن ماجد مبالغ فيه ، ونرى معهم ذلك وقد سبق أن دللنا على ورع الرجل وتمسكه بالدين والفضيلة وبخاصة وقد تجاوز الستين من عمره في ذلك الوقت ، ولا تسمح له هيبته أن يجالس في السكر رجلاً من أبنائه ، ثم كيف يطمئن دي گاما على سلامة أسطوله إذ ما قاده رجل في حالة سكر ! ولربما كان الدافع على هذه الرواية أن أرشد ربان مسلم سفينة للفرنجة إلى الهند ثم ظهرت نياتهم السيئة فيها بعد . هذا ولم يرد في رواية المؤرخين البرتغال أي إشارة لموضوع السكر هذا وكان أجدر بهم أن يفعلوا لو حدث .

بل ويذكر دي باروش مؤرخ الرحلة أن الأميرال البرتغالي قد اطلع المرشد العربي في ماليندي على أسطرلاب خشبي كبير قطره نحو ٦٠ سنتمتراً وعلى بوصلات و « كواردنت » ولم يبد الملاح العربي أي دهشة لما رأى بل الذي أخذته الدهشة هو دي گاما نفسه حين أطلعه ابن ماجد على خارطات عربية ممتازة موضح بها خطوط الطول والعرض وعلى آلات ملاحية عربية . ووضح من هذه المقابلة أن الربابنة العرب كانت لديهم طرق مختلفة لحساب خطوط العرض تتفوق على تلك التي كان يستعملها البرتغال ، فبينما كان هؤلاء يتبعون بطليموس في الاستعانة بحساب ارتفاع الشمس بالاسطرلاب ويستعملون دائرة محيطها ٣٦٠ كان العرب يستخدمون الحساب الليلي بقياس ارتفاع النجوم ومواقعها بالنسبة للنجم القطبي وهي طريقة أكثر دقة كما كانوا يستعملون وحدة « الأصبع » في الحساب « والزاما » للمسافات ويقسمون حقتهم (بوصلتهم) إلى ٢٢٤ درجة وطريقتهم كانت المثلى في الملاحة في المحيط الهندي .

وسرعان ما وضح لفاسكودي گاما من مقابلته لابن ماجد أنه أمام ند خطير ، وأن تحت يديه كنز ثمين في شخص هذا الربان العربي مما دفعه إلى الإبحار فوراً إلى الهند دون تباطؤ وبعد يومين من مقابلة ابن ماجد ، فترك ماليندي يوم ٢٤ أبريل عام ١٤٩٨ فوصل كلكته بعد ٢٢ يوماً على حد قول المؤرخ دي باروش البرتغالي . وحالما وصلت البعثة إلى كلكتا بعث فاسكودي گاما بأحد أعوانه مع ابن ماجد لمقابلة رجال الجمارك واعلامهم بمجيئه وقضى الاثنان الليلة ضيوفاً على أحد عمال الجمارك في كلكتة ويدعى أبو سعيد في مكان بالقرب من الميناء يسمى « كايوكات » . وإلى هنا تنتهي أخبار المرشد العربي في المصادر البرتغالية وان كانت هذه المصادر لتذكر أيضاً أن دي گاما أرسل بمخطوطات عربية ملاحية وبخارطات بحرية من المحيط الهندي إلى الملك عمانويل ملك البرتغال ، كما ينص المؤرخ دي باروش أيضاً على أن البرتغال قد أفادوا من تلك المخطوطات والخارطات العربية في وصفهم لمنطقة الخليج الفارسي والساحل العربي وفي ذلك يقول في كتابه الكبير عن آسيا : (أن جميع ما كتب عن هذه المنطقة في كتبنا الجغرافية مستمد من المعلومات الجغرافية العربية والفارسية التي تملك منها خمسة مؤلفات . .) .

الآثار العلمية لابن ماجد

أما كيف وصلتنا آثار ابن ماجد العلمية فيرجع ذلك أولاً إلى مصادر تركية ولو لم تعلن فيها صراحة أن بعض ما كتبه الأميرال التركي « سيدي علي ريس » بعد نحو نصف قرن من ابن ماجد في كتابه « محيط » هو ترجمة حرفية لبعض كتابات ابن ماجد نفسه . وقد لاقى هذا الكتاب رواجاً كبيراً واهتماماً من الغربيين فيما بعد .

ذلك أنه في عام ١٥٥٤ م جهز العثمانيون حملة بحرية في السويس بقيادة سيدي علي كاتب رومي الملقب أحياناً بالحلبي (نسبة إلى حلب) لاسترداد قطع الأسطول المصري التي آوت إلى البصرة بعد معركة مع البرتغال في الخليج الفارسي . وتمكن سيدي علي بالفعل من الوصول بتسع سفن منها (وكان عددها ١٥ سفينة) إلى ديو سورات بالهند بعد أن شتت عاصفة أسطوله واضطر لالقاء مدافعه في البحر لتخفيف حمولة المراكب . وقد اشترى أمير سورات هذه السفن وتم تسريح بحارتها وآثر سيدي علي البقاء بعض الوقت بالمنطقة قبل أن يعود إلى تركيا براً عن طريق الهند وخراسان في عام ١٥٥٧ م . وخلال هذه المدة أتم سيدي علي الجانب الأكبر من كتابه « محيط » بالتركية وقد ضمنه مقالات بعضها من مؤلفات ابن ماجد وسليمان المهري عثر عليها أثناء إقامته بالهند والخليج الفارسي . وقد أشار سيدي علي في مقدمة كتابه بأنه اعتمد في تأليفه على محادثات مثمرة مع المعالمة المهرة الذين التقى بهم في الخليج الفارسي وعلى خمسة مصنفات عربية أثنان منهما لابن ماجد وثلاثة لسليمان المهري . وقد حقق العالم النمساوي توماشك[3] Tomaschek كتاب « محيط » وقدم له باللغة الألمانية عام ١٨٩٧ م كما قدم أجزاء منه قبله المستشرق همر Hammer في الثلاثينيات من القرن الماضي . هذا وتوفي سيدي علي ريس عام ١٥٦٢ م .

---

(١) حكم بين سنوات (٩١٧ - ٩٣٤ هـ = ١٥١١ - ١٥٢٥ م) .
(٢) حكم بين سنوات (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ = ١٥٠١ - ١٥١٦ م) .
(٣) Die topographischen Capital des Indischen Seespiegels «Mohit» وقام بالترجمة من التركية لهذا الكتاب المستشرق ماكس بيتنر (Max Bittner)

وعلى الرغم من أن اسمي ابن ماجد وسليمان المهري كانا معروفين للعلماء الأوربيين عن طريق هذا المصدر التركي منذ القرن الماضي إلا أننا ندين للمستشرق الفرنسي جبريل فران (١٩٢١ - ١٩٢٣) في اكتشاف ابن ماجد من جديد ونشر المخطوطتين اللذين أشرنا إليهما في أول هذا المقال والذين ظلا بمكتبة باريس مدة طويلة دون أن يفطن أحد قبله إلى أهميتهما . ومن ثم أمكن الربط بين كتاب « محيط » ومؤلفات « ابن ماجد » . وبظهور المصادر العربية لكتاب « محيط » فقد فَقَدَ هذا المرجع الأخير كثيراً من قيمته . ويرى البعض أن أغلب ما ورد في كتاب محيط هو ترجمة حرفية لآثار المعلمين العربيين[١] ، بينما يرى كراتشكوفسكي[٢] ويؤيده في ذلك آخرون بأن كتاب « محيط » به إضافات جديدة قيمة تدل على اطلاع مؤلفه على فنون المعالمة (الأفرنج) أيضاً بالإضافة إلى المصادر العربية .

ويقال أن مؤلفات ابن ماجد تقرب من الأربعين مؤلفاً بينما يحصرها آخرون في نحو الثلاثين ولا شك أن بعضاً مما كتب ربما فُقِد ولم يرَ النور حتى اليوم .

وباستثناء كتاب « الفوائد » فإن أغلب مؤلفات ابن ماجد الأخرى كتبها بالشعر ، بعضها قصائد طويلة والأخرى قصيرة وكثير منها يصف المسالك الملاحية في المحيط الهندي وبحاره وأطرافه وخلجانه ، وكذلك في أرخبيل الملايو وبحر الصين . ونحن نورد قائمة من المعروف منها كما يلي :

١ - كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد .
٢ - حاوية الإختصار في أصول علم البحار .
٣ - الأرجوزة المعربة التي عربت الخليج البربري من رأس حافوني إلى باب المندب .
قبلة الإسلام في جميع الدنيا .
٥ - أرجوزة كنز المعالمة في علم المجهولات في البحر والنجوم والبروج .
٦ - أرجوزة في النتخات لبر الهند وبر العرب .
٧ - الأرجوزة المسماة بميمية الأبدال .
٨ - أرجوزة مخمسة .
٩ - أرجوزة في عدة الشهور الرومية .
١٠ - الأرجوزة المسماة « ضريبة الضرائب[٣] » .
١١ - الأرجوزة المنسوبة لعلي بن أبي طالب .
١٢ - الأرجوزة الملكية (من مكة لجدة إلى فرتك لكالكوت ودابول وكنكن وجوزرات والأطواح وهراميز) .
١٣ - الأرجوزة المسماة نادرة الأبدال في الواقع وذبان العيوق .
١٤ - أرجوزة بر العرب في خليج فارس .
١٥ - أرجوزة قسمة الجمة على أنجم بنات نعش(*) .
١٦ - القصيدة الذهبية .
١٧ - الأرجوزة المسماة بالفائقة في قياس الضفدع(*) .
١٨ - البليغة في قياس السهيل الرامح(*) .

(١) يرى فران أنها ترجمة غير دقيقة في بعض الأحيان
(٢) الأدب الجغرافي عند العرب ترجمة الأستاذ صلاح الدين عثمان (ح ٢ سنة ١٩٥٧) .
(٣) يرى المستشرق فران وعنه ينقل آخرون أن هذه الأرجوزة غير مؤرخة ولكننا استطعنا تأريخ كتابتها بخمس سنوات على الأقل بعد « كتاب الفوائد » وذلك من أبيات فيها .
(*) نجوم ملاحية مشهورة .

١٩ - فصل في معرفة قياس المارزة(*) .
٢٠ - فصل في معرفة النتخة الجاه(*) عشرة في أرض جوزرات .
٢١ - فصل في معرفة البلدة في أرض جوزرات .
٢٢ - فصل في معرفة البلدة على جاه عشرة .
٢٣ - فصل في معرفة المنتخ .
٢٤ - فصل في معرفة البلدة إذ كان من داخل الباب .
٢٥ - فصل في معرفة البلدة جوزرات على جاه عشرة وربع من المارزة .
٢٦ - فصل في معرفة ديرة القطب من روس بحر العرب .
٢٧ - ٢٩ - ثلاثة أزهار وهي « الراهنامات » التي حققها شوموفسكي عام ١٩٥٧ وهي على الترتيب : الأرجوزة السفالية وأرجوزة بر الهند وسيلان والصين والأرجوزة التائية في وصف المجاري من جدة إلى عدن .

أما كتاب الفوائد[٤] فيقع في ١٧٦ صفحة بكل صفحة ١٩ سطراً وفي كل سطر نحو ١٣ كلمة ويحتوي بدوره على اثني عشر فصلاً « فائدة » نلخصها فيما يلي : ١ - الفائدة الأولى : في منازل للقمر وبروجه ونجوم اخنان الحقّة « أي البوصلة » .

٢ - الفائدة الثانية : في ركوب البحر وأسبابه .

٣ - الفائدة الثالثة : في تعريف النجوم الملاحية ومجموعاتها وقياسها وهي : الشرطين ، البطين ، الثريا ، الدبران ، الهنعة ، الهنعة ، الذراعين ، النثرة ، الطرف ، الجبهة ، الزبرة ، الصرفة ، العواء ، السماك ، الغفر ، الزبانيان ، الأكليل ، القلب ، الشولة ، النعائم ، البلدة ، سعد الذابح ، سعد بلع ، سعد السعود ، سعد الأخبية ، الفرع المقدم ، الفرع المؤخر ، بطن الحوت .

٤ - الفائدة الرابعة : في معرفة الاخنان وتشمل : الجدي ، الفراقد ، النعش وسهيل ، الناقة والحمارين ، العيوق والعقرب ، الواقع ، الأكليل ، السماكين والتير ، الثريا والجوزاء ، الطائر .

٥ - الفائدة الخامسة : في تركيب المغناطيس على الحقة وغيره .
٦ - الفائدة السادسة : في الديرات الثلاث .
٧ - الفائدة السابعة : في الباشيات والقياسات . قياس الفرقدين ، قياس النعوش .

الفائدة الثامنة : في الاشارات والسياسات وترتيب المرتب والعسكر ومناتخ جوزرات .

٩ - الفائدة التاسعة : في بعض المرشدات الملاحية والمسالك وأصناف المعاملة .

١٠ - الفائدة العاشرة : في الجزر الكبار المشهورات المعمورات وهنَّ : جزيرة العرب وجزيرة القمر (مدغشقر) وهي مدكسكر وشمطرة وجاوة والغورو سيلان وزنجبار والبحرين وجزيرة ابن جاوان وسوقطرة .

١١ - الفائدة الحادية عشرة : في المواسم الملائمة للسفر في البحر .

(٤) منه نسخ في الظاهرية بدمشق ، وفي مكتبة باريس ، ولدى الأستاذ علي محمد التاجر ، ويقوم الأستاذ إبراهيم الخوري بدمشق بتحقيق الكتاب وغيره من مؤلفات ابن ماجد للنشر .

١٢ ـ الفائدة الثانية عشرة : في صفة البحر القلزم العربي وجزره وشعبانه (المرجانية) .

ويعتبر كتاب الفوائد في نظرنا دستور الملاحين في جميع العصور لما فيه من حكم وصفات وأسرار للمهنة يجب أن يتصف بها قائد السفينة ، وإرشادات للملاحين تنفعهم في كل وقت ، فهي تعتبر بالنسبة لهم بمثابة قسم « أبقراط » بالنسبة للأطباء . فضلاً عن أن هذا الكتاب يعتبر أيضاً أوفى موسوعة ملاحية وصلتنا عن المحيط الهندي والبحار الجنوبية حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي .

وفي هذا الدستور الملاحي يتطلب ابن ماجد في المعلم أو الربان الماهر مستوى أخلاقياً وإنسانياً معيناً ، وقدراً معيناً من المعرفة بالبحر قبل أن توكل إليه قيادة السفينة . ويصلح هذا الدستور لكل العصور كما ألمحنا ولا يقتصر في الواقع على عصره فقط . أنظر إلى قوله :

« اعلم أيها الطالب أن لركوب البحر أسباباً كثيرة فافهمها : فأولها : معرفة المنازل والأخنان (أخنان البوصلة) والدير والمسافات والباشيات[1] والقياس والاشارات وحلول الشمس والقمر والأرياح ومواسمها ومواسم البحر وآلات السفينة وما يحتاج إليه وما يضطر إليه في ركوبها . وينبغي تعرّف المطالع والإستواءات وجلسة القياس وترتبّه ومطالع النجوم ومغاربها وطولها وعرضها وبعدها وممرها إن كان معلماً ماهراً ، وينبغي أن تعرف جميع البرور وندخاتها (مداخلها) وإشاراتها كالطين والحشيش (النبات) والحيّات والحيتان والمواوز والأرياح وتغيُّر الأمواه (خواص المياه) ومَدّ البحر وجَزْره في كل طريقه ، ويكمل (المعلم) جميع الآلة ويتفقد في أحضان السفينة وآلاتها ورجالها . ولا يشحنها غير العادة ولا يطلع في مركب لا يطاع فيه ، ولا مركباً بغير اعتداد ، ولا في موسم ضيق (أي في وقت لا تكون فيه الريح مواتية) ، ويعني اتجاه الرياح الموسمية (في المحيط الهندي) ويحترز عن الأخطار في مثل عدة ورجال (أي لا يعرّض رجاله وآلات سفينته للخطر) وغيره ، وينبغي للمعلم أن يعرف الصبر من التواني (أي يعرف كيف يتصرف بحكمة في الوقت المناسب) ويفرّق بين العجلة والحركة عالماً بالأشياء ، عزّاماً فتّاكاً ، ليّناً في قوله ، عادلاً لا يظلم أحداً لأحد ، مقيم على الطاعة لربّه متّق لله تعالى ، لا يعصب (يظلم) التجار على حقوق إلا على شيء وقع عليه القول (الإتفاق) أو جرت به العادة ، كثير الإحتمال عالي الهمة ، صبّاراً مقبولاً بين الناس ، لا يسعى فيما لا يصلح له ، أديباً لبيباً وإلا فليس هو معلم بالقاعدة » .

وأيّ شروط أحسن من هذه يمكن أن يتطلبها أحد في الربان الذي يأمنه الناس على أرواحهم وأموالهم في البحر .

وابن ماجد يولي انتباهاً كثيراً لطريقة القياس قبل أن يحدد الربان اتجاهه في البحر فيقول بأن القياس . « يكون من مقدمة السفينة يؤيده بقياس من المؤخرة » وللقياس جلسة خاصة وينبغي أن يكون الربان يقظاً في كل الأحوال . أنظر إلى دقته في القياس من قوله « وأكثر الباشات فيها كسور فلذلك قالوا أن الغلط من القياس بين المعلمين ربع أصبع ليس بغلط ، ولكنه (في نظري) فضاح في التنخات خصوصاً في ديرة الشقاقات في مثل من فرتك إلى عدن أو من الكرازي للسند » .

أو قوله « شرط القياسات أن تكون ضيقة بين النجم والخشبة خيط وبين الخشبة والماكدك خيط كحدّ السكين يراه الذي يقيس » .

ثم إن علمه كان مبنياً على التجربة وقلما كان يثق في قياسات لم يحققها هو بنفسه حتى ولو كانت قياسات أبيه ، وفي ذلك يقول :

« كان جدّي عليه الرحمة محقق فيه ومدقق ولم يقر لأحد فيه وزاد عليه الوالد ـ رحمة الله عليه ـ بالتجريب والتكرار وفاق علمه علم أبيه . فلما جاء زماننا هذا وكررنا قريباً من أربعين وقد حررنا وقدرنا علم الرجلين النادرين وورخناه وجميع ما جربناه أرخناه ـ انكشف لنا عن أشياء وحكم لا يجمعها في زماننا شخص واحد إلا أن يكون عنده شخوص متفرقة . فنخاف أن يدركنا الموت ونوادر الحكم في القلوب » .

ويحث ابن ماجد الربابين دائماً على زيادة العلم والتحصيل وينصحهم بالبعد عن الخيلاء ودوام المساءلة فيقول « فانه علم نفيس لا يتم إلا بتمام العمر ومن لا يدرك كله لا يترك كله » ، أو « ينبغي ألا يتكبر فيه الإنسان وينبغي البعد عن الخيلاء عند كمال العلم » أو قوله « لعارف هذا العلم أن يسهر الليل ويجتهد فيه غاية الإجتهاد ، لأنه علم عقلي ، وكثرة السؤال فيه ترقية لباقيه » .

ولابن ماجد فوق ذلك « اختراعات » كثيرة في علم الفلك والملاحة ومن ذلك قوله « ومن اختراعنا في علم البحر تركيب المغناطيس على الحقة بنفسه ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع في كتاب . . . أنه لم يقابل الجاه (القطب الشمالي) إلا سهيلية (القطب الجنوبي) فميزوا في هذه النكتة فإذا كان أحد يعرف فنحن مسبوقون ، كذلك ورتبنا المنكاب وأدركناه في الذهبية وشرحها » . ومعنى هذا أن ابن ماجد استعان بنجوم نصف الكرة الجنوبي وبالقطب الجنوبي أيضاً في قياساته وهي أصلح القياسات للمحيط الهندي . ولا ريب في أنه ابتكر طريقة لتعليق الإبرة المغناطيسية فوق قرص « وردة الرياح » الذي عليه تقسيمات دائرة الأفق وفقاً للجهات الأصلية تمتاز عن الطريقة القديمة التي كانت تعتمد على قطعة رقيقة من المعدن المطروق على شكل سمكة تطفو فوق الماء فيشير فمها إلى القطب[2] .

هذا وقد تمكن بعض المحققين من تقدير وحدات القياس التي ورد استعمالها في كتابات ابن ماجد فعلى ذلك تنقسم الحقة (الدائرة أو وردة الرياح) العربية إلى ٣٢ خنا (والخن الزاوية التي تحددها المسافة أو القوس بين مطلع نجمين متجاورين أو مغيبهما على الدائرة) وبكل خن سبعة أصابع (الأصبع وحدة قياس أو درجة على الدائرة) .

وعلى ذلك يكون تقسيم الدائرة العربية مساوياً ل ٣٢ خنا × ٧ أصابع = ٢٢٤ أصبع وعلى ذلك أيضاً يكون « الأصبع » مساوياً لـ ١٣٧° باعتبار تقسيمنا للدائرة إلى ٣٦٠ درجة بدل ٢٢٤ أي أن الأصبع أكبر من الدرجة المعتادة .

إذن يكون الأصبع مساوياً لـ ٩٧ ميلاً بحرياً من أميال الملاحة = ١ ترفا (وحدة تغير الإرتفاع) = ٨ زاما (وهي وحدة طولية للطريق الملاحي)

(١) الباشي هو ارتفاع نجم معين بالنسبة للنجم القطبي عندما يكون الأخير على أقل ارتفاع له فوق الأفق .

(٢) انظر مقال المقريزي في الخطط .

وإلزاماً على الأساس تعادل مسيرة ثلاث ساعات في البحر في المتوسط بالشراع أي ١٢ ميلاً بحرياً .

ولابن ماجد فضلاً عن تحقيقاته وقياساته الفلكية والملاحية إضافات جديدة كثيرة عن الريح وتغير المياه ومناطق دخول « البرور » وعلاماتها وعن الحيوان البحري والمد والجزر « والمحذورات » التي تعوق الملاحة كالشطوط المرجانية والأقاصير الرملية (ويسميها التقاصير) وعن الأعماق فضلاً عن وصف الجزر ومسالك الملاحة مما لا يمكن حصره جميعاً في مثل هذا المقال . ونعتقد أننا استشهدنا في متن هذا البحث بالكثير من الفقرات التي توضح طريقة تفكير هذا الملاح العربي العظيم والمعلم القدير .

الدكتور أنور عبد العليم

دفاع وتقويم

وقد علق المؤرخ علي التاجر على ما تقدم بهذا البحث :

الأرضية التاريخية

١ - لم يأت وصول البرتغاليين إلى الهند عن طريق الصدفة ، وإنما جاء نتيجة لجهود متواصلة استمرت أكثر من سبعين سنة من الزمن ، فما هي صلة أحمد بن ماجد بها ؟ لا صلة له بها البتة ، اللهم إلا ما يقال من أنه هو نفسه الربان الذي قاد سفينة فاسكو دي گاما البرتغالي من ساحل أفريقيا الشرقي إلى الهند لأول مرة عام ١٤٩٨ م فما صحة هذا القول ؟ .

كان البرتغاليون حينما وصلوا إلى أفريقية الشرقية لأول مرة ، على بينة من أمرهم ، ويعرفون أن أي ربان من عشرات الربابنة الذين يقطعون المحيط الهندي سنوياً ، ما بين السواحل الأفريقية والسواحل الهندية ، قادر على قيادتهم إلى الهند ، فقد سبق للجاسوس البرتغالي كوفلهام أن « اكتشف » هذا الطريق من قبل ، ووصفه وصفاً دقيقاً ، عرّف البرتغاليين معالمه بصورة شاملة ، كما وصف الأوضاع السياسية والإجتماعية والإقتصادية التي كانت سائدة آنذاك في المحيط الهندي .

٢ - إننا لا نجد مؤرخاً برتغالياً واحداً ممن عاصروا فاسكودي گاما ، وعنوا بتأريخ رحلاته ، أو ممن جاؤوا على آثارهم ، قد مر على لسانه اسم « أحمد بن ماجد » ولو بصورة محرفة ، كما هو شأنهم بالنسبة للاعلام العربية . أما الربان الذي قاد سفينة دي گاما من ملندي إلى كليكوت ، فيطلقون عليه لقب كانا أو كاناكا ، ويجمعون على كونه « هندياً » من كجرات .

صحيح ان مؤلفات هؤلاء المؤرخين لم تطبع إلا بعد نصف قرن تقريباً من رحلة دي گاما[1] ، وربما تأخر طبع بعضها أكثر من ذلك ، ولكننا لا ندري كيف يؤدي ذلك « إلى اختلاف الروايات حول اسم الملاح الذي أرشد فاسكو دي گاما إلى الهند »[2] . ثم إن تلك الروايات لا تختلف على اسم ذلك الملاح . إنها لم تذكر اسمه قط ، فكيف تختلف فيه ؟ وإنما اكتفت بذكر لقبه ، أو مهنته فقط . « وجدير بالذكر أن لفظ معلم ، وجمعه « معالمة » ، كان هو [الإصطلاح] الملاحي المرادف للربان ، أو القبطان . أما لفظ « كانا » أو « كاناكا » ، فيعني بلغة السنسكريت « الحاسب » أو « المنجم » ، والمقصود به هنا الخبير بالملاحة الفلكية[1] » .

(١) الفوائد ، العرب س ٤ ص ٨٤ . انظر كذلك « ابن ماجد الملاح » ص ٤٩ .

(٢) الفوائد ، العرب س ٤ ص ٨٤٠ . انظر كذلك « ابن ماجد الملاح » ص ٤٩ .

أورد الدكتور أنور عبد العليم ، إسمَي مؤرخين من مؤرخي البرتغال ، الذين عنوا بالكتابة عن رحلات فاسكو دي گاما ، وهما كاستنهيدا F. L. Castenheda ودي باروش Joao de Barros وكلاهما من كبار المؤرخين البرتغاليين الذين عاصروا دي گاما ، وأقاموا بعض الوقت في الهند . ويعتبر دي باروش المرجع الأصيل في الموضوع . أما كاستنهيدا ، فيمتاز بالدقة فيما كتبه عن الأحداث التي شهدها بنفسه .

وبالإضافة إلى هذين المؤرخين ، فهناك ثمة عدد من مؤرخي البرتغال ممن عاصروا دي گاما ، ومن أهمهم جاسبر كوريا Casper Correa . وكان كوريا قد ذهب إلى الهند ، واشتغل كاتباً لألبو كرك في سنواته الأخيرة ، فتسنى له بذلك الإطلاع على بعض المعلومات التي لم تتوفر لغيره . وقد وضع تاريخاً لأعمال البرتغاليين في الهند خلال الثلاث والخمسين سنة الأولى من وصولهم إلى تلك البلاد . ولكتابه أهمية خاصة ، فقد امتنع عن نشره في حياته حتى تتوفر له الحرية الكاملة للكتابة بصراحة تامة ، وتسجيل الوثائق البشعة على علاتها عمن يتصدى للكتابة عنهم من غير تشذيب أو تزويق ، دون أن يعرض نفسه لانتقام الزبانية الموكلين بديوان التفتيش . كما اطّلع على أجزاء من مذكرات كتبها جون فيجويريا João Figueria ، وهو راهب كاثوليكي كان في حملة فاسكو دي گاما الأولى . وقد ترجم هنري ستانلي Henry E. J. Stanley ما كتبه كوريا عن رحلات دي گاما الثلاث إلى الهند ، ونشرته في سنة ١٨٦٩ م جمعية هكلويت Hakluyt Society الإنجليزية الشهيرة في صورة كتاب بعنوان « رحلات فاسكو دي گاما الثلاث » The Three Voyages of Vasco de Gama .

وهناك ثمة مذكرات ثانية وضعها مؤلف مجهول من رجال فاسكو دي گاما في رحلته الأولى ، وتعتبر من أوثق ما كتب عن تلك الرحلة[2] ، وتنص بكل وضوح على أن الربان الذي قدمه ملك ملندي لفاسكو دي گاما من المسيحيين[3] . وكان البرتغاليون في أوائل عهدهم بالمحيط الهندي يعتبرون الهنود إما مسلمين أو مسيحيين . فمن لم يكن مسلماً فهو مسيحي في نظرهم ، حتى ولو كان من الهندوكيين . وعلى هذا فالترجمة الصحيحة « لمسيحي » في هذه المناسبة ، هي « هندوكي » ، بصورة مؤكدة .

٣ - عاصر وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي عدد من المؤرخين العرب فيما يعرف اليوم باليمن الجنوبية ، منهم شنبل ، مؤلف تاريخ شنبل ، والمتوفي سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ، وهو من أهل تريم ؛ وعبد الله بامخرمة مؤلف كتابي « قلادة النحر » ، و « تاريخ ثغر عدن » ، والمتوفي سنة ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م وينتهي كتابه بسنة ٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م ؛ وابن أخيه عبد الله بن عمر الطيب بامخرمة ، مؤلف « رشف الزلال الراوي في التكميل والتذييل على طبقات الأنساوي » ، والمتوفي سنة ٩٧٢ هـ / ١٥٦٤ م ، وينتهي كتابه بسنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م[4] .

٤ - وعاصر وصولهم أيضاً إلى المحيط الهندي ، أحمد بن محمد بن أياس

(٣) H. J. Wood, Exploration & Discovery; C. D. Ley, Portuguese Voyages 1498 - 1663, P. Xi.

(٣) Charles David Ley, Portuguese Voages 1498 - 1663, P. xi

(٤) نحيل من أراد التوسع في معرفة مؤرخي جنوب الجزيرة العربية إلى ما كتبه عنهم الأستاذ سرجنت مؤلف كتاب « البرتغال أمام الساحل العربي الجنوبي » .

المصري ، مؤلف « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، وقد عني بتسجيل بعض النبذ عن القرصنة البرتغالية وتصدّى المصريين لها في البحر الأحمر والمحيط الهندي .

٥ ـ وقبل أن تتلاشى أصداء الأحداث التي وقعت في المحيط الهندي نتيجة لقرصنة البرتغاليين ، جاء رعيل آخر من مؤرخي جنوب الجزيرة العربية ، بحيث يمكننا اعتبارهم من معاصري تلك الأحداث ، مثل بافقيه الشحري ، وعبد الله بن محمد سنجله ، ومؤلف النور السافر ، ومؤلف السنا الباهر ، ومؤلف روح الروح ، وغيرهم كثيرون[١] .

٦ ـ وفي الهند كتب عبد الله بن محمد الأوغخاني Ulughkhani تاريخاً لكجرات ، احتوى على معلومات قيّمة وموثوقة عن جنوب الجزيرة العربية[٢] .

وجميع هؤلاء المؤرخين من معاصري أحمد بن ماجد ، أو ممن جاؤوا على آثارهم ، في الجزيرة العربية وخارجها ، لا يذكر أي واحد منهم أية صلة لأحمد بن ماجد بالبرتغاليين ، بل لا يكاد اسمه يجري على لسان أحدهم .

٧ ـ و « في عام ١٥٥٤ م جهز العثمانيون حملة بحرية في السويس ، بقيادة سيدي علي كاتب رومي الملقب بالحلبي (نسبة إلى حلب) لاسترداد قطع الأسطول المصري التي أوت إلى البصرة بعد معركة مع البرتغال في الخليج الفارسي ، وتمكن سيد علي بالفعل من الوصول بتسع سفن منها (وكان عددها ١٥ سفينة) إلى ديو وسورت بالهند ، بعد أن شتت عاصفة أسطوله واضطر لإلقاء مدافعه في البحر لتخفيف حمولة المراكب . وقد اشترى أمير سورت بالهند هذه السفن ، وتمّ تسريح بحارتها ، وآثر سيد علي البقاء بعض الوقت بالمنطقة ، قبل أن يعود إلى تركيا برّاً ، عن طريق الهند وخراسان في عام ١٥٥٧ م . وخلال هذه المدة أتمّ سيد علي الجانب الأكبر من كتابه « محيط » بالتركية ، وقد ضمنه مقالات بعضها من مؤلفات ابن ماجد ، وسليمان المهري[٣] ، عثر عليها أثناء إقامته بالهند والخليج وقد أشار سيد علي في مقدمة كتابه بأنه اعتمد في تأليفه على محادثات مثمرة مع المعالمة المهرة الذين التقى بهم في الخليج ، وعلى خمسة مصنفات عربية ، اثنان منها لابن ماجد ، وثلاثة لسليمان المهري » .

وربما كان من المستحسن أن نستمع إلى سيد علي نفسه ، يحدّثنا عن بعض انطباعاته وتجاربه في الخليج والمحيط الهندي آبّان تلك الفترة . قال :

« في عام ١٥٥٤ م أقمت خمسة أشهر في مدينة البصرة ، حتى بدأت الرياح الموسمية ، ثم أقلعت إلى الهند . وقد دامت رحلتي هذه ثلاثة أشهر ، تبتدىء من أول شهر شعبان ، وتنتهي في سلخ شوال ، أي من ٢ تموز ـ ٢٧ أيلول ١٥٥٤ م . وكنت خلال هذه الأشهر الثمانية أثناء إقامتي ورحلتي لا أدع فرصة تمرّ دون أن أشغل نفسي في الحديث بأمور الملاحة مع نوتية السواحل ، أو ملاحي مختلف البلدان ، ممن كانوا على ظهر سفينتي ، وبذلك علمت كيف عبر الربابنة الأقدمون هرمز وهندستان ، أمثال : (الليث بن كهلان ، ومحمد بن شاذان ، وسهيل بن أبان) . وكذلك جمعت الكتب التي ألّفها البحارة المحدثون ، أمثال : (أحمد بن ماجد) من جلفار من مقاطعة عمان ، و (سليمان بن أحمد المهري) من الشحر من عرب الجنوب . كما جمعت الكتب المعروفة بـ « الفوائد والحاوية » لأحمد بن ماجد ، و « تحفة العقول والمنهاج وقلادة الشموس » لسليمان المهري ؛ وتعمقت في دراستها كلها ، إذ الملاحة في المحيط الهندي بدون هذه الكتب جد متعذرة ، فالربابنة والقواد الغرباء لا يعرفون سبيل هذا البحر ، ولا بد لهم من ربان يدلهم على الطريق ، ما دامت تنقصهم المعلومات الضرورية ؛ ولذا وجدت من اللازم اللازب قراءة أفضل المؤلفات ، ونقلها إلى اللغة التركية في كتاب يكون دليلاً للربابنة الذين تهمهم معرفة مثل هذه الأمور . . . وترجمتي لهذه الأسفار العربية انتهت بمعونة الملك القدير جل شأنه ، وقد حوى كتابي هذا أشياء غريبة كثيرة تتعلق بالملاحة ، وسميته « المحيط »[٤] . . . » .

وقد خص سيد علي ، أحمد بن ماجد بالمديح والإطراء ، وقال عنه أنه « الباحث عن الحقيقة بين البحارين . . . » وأنه « أفضل ربابنة الشاطىء الهندي الغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر مقدرة ونزاهة »[٥] .

وكان في استطاعة سيد علي أن يضيف على هذا المديح لأحمد بن ماجد ، الجملة التالية ، أو ما يماثلها :

« وهو الذي قاد البرتغاليين ، أو قاد فاسكو دي گاما ، إلى الهند » .

ولكن هذه الأسطورة لم تكن قد برزت إلى الوجود بعد ، ولذلك فإن سيد علي ، لا يعزو في كتابه أية صلة لأحمد بن ماجد بالبرتغاليين .

٨ ـ عاصر ابن ماجد ربان آخر من جنوب الجزيرة العربية ، هو سليمان المهري (توفي سنة ٩٦١ هـ / ؟) . وقد ترك لنا عدداً من المؤلفات العلمية عن البحر ، وصلنا خمسة منها ، ليس فيها أي ذكر لأحمد بن ماجد على الإطلاق .

فما السر في تآمر كل هؤلاء المؤرخين ، عرباً كانوا أو أتراكاً أو برتغاليين ، على عدم الإشارة إلى تلك الصلة المزعومة لأحمد بن ماجد بالبرتغاليين ؟

٩ ـ وأحمد بن ماجد نفسه ؟ إننا لا نجد في جميع ما وصل إلينا من مؤلفاته ، أية إشارة لاتصاله بالبرتغاليين ، حتى ولا مجرد ذكر للقاء عابر بأحدهم في إحدى الموانىء التي كان يتردد عليها في شرق افريقية والخليج والهند . ولكننا على النقيض من ذلك نحس شدة حنقه عليهم ، وغيظه منهم ، كلما مر ذكرهم على لسانه ، كقوله :

وساحل البر وكل جمزره	فحكمها للبرتغال الفجره
والبرتغالي حكم الجميعا	كفيت كل الشر والتصديعا
وجا لكاليكوت خذ ذي الفائدة	لعام تسعمية وست زائدة
وباع فيها واشترى وحكما	والسامري برطله وظلما

(١) انظر الحاشية السابقة .

(٢) R. B. Serjeant, The portuguese off the South Arabian Coast, P. 39.

(٣) يقول حسن الأمين : عرف عن المعلم سليمان المهري أنه ربان ماهر ومؤلف صرف علمه لفنه دون الخروج منه إلى مجال آخر، وهوينتمي إلى قبيلة مهرة التي تمتد مساكنها على طول الساحل الجنوبي للجزيرة العربية حتى عُمان . ولم يتضح متى ولد سليمان بن أحمد المهري . ويعتقد أمير البحر سيد علي أنه لم يكن في عدادالأحياءسنة ٩٦١هـ(١٥٥٤م) . والمهري أتم كتابه العمدة المهرية سنة ٩١٧ هـ (١٥١٠ م) فيكون قد عاش بعد تأليفه لكتابه هذا اربعا وأربعين سنة . ومن الجائز أن يكون قد عاش قبل تأليفه لهذا الكتاب أربعين سنة . وعلى هذا الإفتراض يكون ميلاده سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧١ م) .

(٤) محمود ياسين الحموي ، « أحمد بن ماجد الملاح العربي » ، ص ١٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣ .

وسـار مـنهـا مـبـغض الإسـلام والـنـاس في خـوف وفي اهتـمام
وخـبرتي بـحـملـة الـفـرنـجي من جـانب السـودان شط اللجي
وهـو الـذي قـد قهـر المغـاربـة وانـدلس في حكمـه منـاسبـة

وقد نزعم أن هـذا الشعور المعادي للبرتغاليين ، من جانب أحمد بن ماجد ما هو إلا ترجيع لإحساسه بالخيبة ، وشعوره بالمرارة للنتيجة التي أدت إليها قيادته البرتغاليين إلى الهند ، « إذ لم يكن بخلده أن هذه الحملة ستعود على الملاحة العربية بالدمار والخراب »[١] . ولكن مثل هـذا الزعم لا ينسجم مع المنطق ، إلا إذا ثبت أولاً أن أحمد بن ماجد قد قاد البرتغاليين فعلاً إلى الهند .

النهروالي

ثم جاء النهروالي بعد ثمانين سنة تقريباً على زيارة فاسكو دي گاما للمحيط الهندي ، فاختلق تلك الأسطورة عن تعاون أحمد بن ماجد مع البرتغاليين . فمن هو النهروالي ؟

هو الشيخ محمد بن أحمد النهروالي ، نسبة إلى نهروالة ، وهي بلدة صغيرة من كجرات ، تسمى اليوم « بتن » وعدد سكانها ٣٠,٠٠٠ نسمة . ولد في « لاهور » في سنة ٩١٣ هـ ، وتربى في الهند ، ثم هاجر إلى الحجاز وهو ما يزال صغيراً دون البلوغ ، وتعلم على والده ، ثم اتصل برجاله الدولة العثمانية ، وكانت قد استولت على الحجاز بعد هجرته إليها ، وتوثقت صلته بهم ، وتعلم التركية واتقنها حتى صار يؤلف وينظم بها ، ويترجم عنها . وتعددت أسفاره إلى مصر والشام وبلاد الأتراك .

وكانت صلاته بالحجازيين سيئة في الغالب . وقد احترق بيته ، واحترقت مكتبته ، وكان الحريق مدبّراً كما يقولون . أما صلاته بالأتراك فكانت على أحسن ما يرام : غمروه بالعطاء ، وخصصوا له راتباً سنوياً يوازي راتب شيخ الحرم المكي ، ورتبته لديهم تلي رتبة شريف مكة . ولما أنشئت المدارس السليمانية بمكة ، عهدوا إليه الإشراف على بناء مدرسة الأحناف منها . وكان هذا الإشراف يدر على القائمين به مالاً كثيراً . ثم تولى التدريس فيها بعد إتمام إنشائها ، براتب مقداره ٦٠ عثمانياً في اليوم . أما من جانبه فقد قابل إحسانهم هذا بالتفاني في حبهم ، والمغالاة في الدعوة إليهم والإشادة بذكرهم ، فطفحت مؤلفاته بالمبالغة في مدح سلاطينهم ورجال دولتهم ، وهو ما تجب ملاحظته عند قراءة كتبه ، وخاصة كتابه « البرق اليماني » ، الذي يزخر بالتحامل الشديد على العرب وذمهم في أغلب الأحيان .

« ومع أن القطبي حنفي المذهب ، إلا أنه كثيراً ما يخالف مذهبه ، والمخالفة إذا كانت جارية على أساس من الدليل فهي محمودة ، غير أنه ـ والله يغفر له ـ قد يفتي بعض الرؤساء بفتاوى يؤاخذ عليها » .

البرق اليماني

وللنهروالي عدد من المؤلفات ، يهمنا منها بصفة خاصة ، كتابه « البرق اليماني في الفتح العثماني » ، فقد انطلقت تلك الأسطورة عن علاقة أحمد بن ماجد بالبرتغاليين . « ويتضمن هذا الكتاب مجمل تاريخ اليمن ، من أول القرن العاشر الهجري إلى آخر سنة ٩٧٨ هـ ، ويفصل ما قامت به الدولة العثمانية من أعمال عنيفة لمحاولة الإستيلاء على ذلك القطر ، ويصور أول صراع بين قوات أجنبية محاربة وبين العرب في جنوب الجزيرة »[٢] .

« وأصل هذا الكتاب أن القائد سنان باشا ، بعد عودته من غزو اليمن [سنة ٩٧٨ هـ] ، طلب من القطبي [النهروالي] أن يؤلف كتاباً عن فتوحاته هناك . وقدم له كتاباً عنها منظوماً ومؤلفاً باللغة التركية ، نظمه مصطفى بك الرموزي ، أمير اللواء ، و « دفتر دار اليمن »[٣] . وقد انتفع النهروالي بذلك الكتاب التركي انتفاعاً كبيراً »[٤] .

مثال على تخليطه التاريخي

والنهروالي قليل الإهتمام بتحري الحقيقة ، عديم العناية بصحة ما يكتب ، وخاصة بالنسبة للتاريخ .

اهتم السلطان قانصوه الغوري ، اهتماماً كبيراً بوصول البرتغاليين للمحيط الهندي ، والمجال لا يتسع هنا لشرح الأسباب ؛ فجهز عمارة بحرية في السويس ، وعهد بقيادتها إلى حسين الكردي . وقد أبحرت تلك العمارة من السويس في الأيام الأولى من جمادى الثانية سنة ٩١١ هـ / سبتمبر ١٥٠٥ م ، وكان الحجاز يعيش آنذاك فترة عصيبة من جراء الصراع على الحكم بين أفراد البيوت الحاكمة فيه ، وتوالي الثورات على أرضه . وقد انغمس أمراء الحج من المماليك في ذلك الصراع ، مما اضطر الغوري إلى تجريد أكثر من حملة حربية لإعادة الأمن والاستقرار إليه . وكان الحجاز من الأمكنة الحساسة بالنسبة إلى حكم المماليك . فبالإضافة إلى ما كان يضفيه عليهم من الفخار والشرف في أنظار العالم الإسلامي بوصفهم حماة البلد الأمين ، وخدام الحرمين الشريفين ، فقد كان لميناء جدة أهمية خاصة بالنسبة للإقتصاد المصري ، نظراً لما كان لها من أهمية تجارية ، ناشئة من كون الجزء الشمالي من البحر الأحمر مليئاً بالصخور المغمورة ، والشعب المرجانية ، مما يجعل الملاحة فيه محفوفة بالأخطار . ولذلك فقد كانت السفن الكبيرة تتجنب السفر فيه ، وتفضل أن تفرغ ما تحمل من بضائع إلى مصر في جدة ، وتتوسق فيها بالبضائع المصرية المرسلة إلى الهند والشرق الأقصى . وكانت تتولى نقل البضائع من جدة إلى السويس ، ومن السويس إلى جدة ، سنابيك[٥] صغيرة جداً في الغالب ، لأنّ قلة الغاطس في هذه السنابيك يجعلها أقل عرضة للأخطار ، من السفن الكبيرة ، ولأن الخسارة التي تنجم عن فقد أحد هذه السنابيك ضئيلة جداً إذا ما قورنت بالخسارة الكبيرة التي تنجم عن فقد إحدى السفن الكبيرة . ومن هنا كانت أهمية جدة بالنسبة للإقتصاد المصري .

بعد سفر الحملة المصرية من السويس بثلاثة أشهر ، « جاءت الأخبار من مكة [من أوائل سنة ٩١١ هـ] بأن الأحوال فاسدة ، وان عربان بني إبراهيم قد التفوا على يحيى بن سبع أمير الينبع ، ومالك بن رومي ، أمير خليص ، وقد اشتد الأمر في ذلك جداً فلما تحقق السلطان [قانصوه الغوري] ذلك أمر بابطال التوجه إلى الحجاز في هذه السنة من مصر والشام وسائر الأعمال قاطبة ، وكانت هذه الواقعة من أعظم المصائب والثلم في

(١) د. الله الماجد ، « العرب » س ٣ ص ٧٣ .

(٢) الجاسر ، ص ٦٠ - ٦٨ . في مقدمة البرق اليماني .
(٣و٤) الجاسر ، صفحة ٦٨ .
(٥) نوع من السفن الشراعية ما يزال واسع الإنتشار في الخليج العربي والبحر الأحمر الواحد منها سنبوك .

الدين . وقد حضر الركب التكروري ، والركب المغربي ، ولم يحج منهم أحد في تلك السنة . ثم إن السلطان أرسل كسوة الكعبة الشريفة ، وصرر الحرمين ، والزيت ، من البحر المالح في مراكب من الطور ، ويتهوجهون من هناك إلى جدة . . . ولم يسمع من مبتدإ دولة الأتراك [المماليك] وإلى الآن ؛ بأن الحجاج امتنع خروجهم إلى مكة سوى في هذه السنة ، وهي سنة إحدى عشرة وتسعمائة »(١) .

وقد ورطت الحملة المصرية نفسها في ذلك الصراع الحجازي ، ثم ما كانت تفرغ منه حتى شرع حسين الكردي في بناء أبراج وسور على ساحل جدة ، وذلك في أواخر سنة ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ ـ ٧ م ، فأضاعت الحملة وقتاً ثميناً جداً .

وأخيراً أبحر الأسطول المصري إلى الهند في سنة ٩١٣ هـ ، ١٥٠٧ م ، وحينما وصل إليها ، أرسل الميدا Almeida حاكم الهند البرتغالي ، وولده لورنزو Lourenco لمنازلة الأسطول المصري . والتقى الأسطولان في شاول Chaul (يناير ١٥٠٨ م) ، واشتبكا في معركة ضارية ، استمرت يومين كاملين ، عزم البرتغاليون في نهايتهما على الفرار ، ولكن المصريين ضربوا نطاقاً حول الأسطول البرتغالي ، وتمكنوا من اقتحام سفينة القيادة البرتغالية وقتل قائدها واغراقها . ولم ينج من الأسطول البرتغالي ، سوى سفينتين صغيرتين انتهزتا فرصة الفوضى التي اعقبت اغراق سفينة القيادة البرتغالية ، فأنسلتا من الحصار ، وفرتا إلى القاعدة البرتغالية في كوشين Cochin تحملان إلى البرتغاليين أنباء الفاجعة التي حاقت بأسطولهم(٢) .

ولكن حسين الكردي لم يتابع هجومه على البرتغاليين ، وتلكأ طويلاً في ديو Diu حتى هاجمه الميدا في ٣ فبراير سنة ١٥٠٩ م ، ٩١٤ هـ . وكان الأسطول البرتغالي مؤلفاً من ١٩ سفينة ، بينما لم يتجاوز عدد الأسطول المصري ١٠ قطع فقط . ومع ذلك فلم تسفر المعركة عن نتيجة حاسمة ، ولم يستطع أحد الطرفين أن يدعي النصر لنفسه(٣) وعلى الرغم من الخسائر الفادحة التي تكبدها الطرفان . ولكن الأمير حسين الكردي اضطر إلى الإنسحاب من الهند ، فأبحر إلى البحر الأحمر بثلاث سفن محملة بالتوابل والبضائع الثمينة ، قدمها إليه ملك كجرات ، كيما يستعمل ثمنها في تحصين جدة وإكمال سورها ، حماية لها من قرصنة البرتغاليين ، إذا ما سولت لهم أنفسهم مهاجمتها .

وما كاد حسين الكردي يصل إلى جدة ، حتى شرع في إتمام « عمارة الصور والأبراج » . وهذا ما يؤكده ابن إياس في عبارة يشوبها شيء من الإضطراب(٤) ، ويؤكده المؤرخون البرتغاليون الذين كانوا يتتبعون من الهند حركات حسين الكردي بدقة بالغة(٥) .

---

(١) أحمد بن محمد بن إياس : « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، ج ٤ ص ٨٩ .

(٢) Panikkar, Asia and wester Dominane, P. 45; F. B. Eldridge, The Background of Eastern S[illegible] PP. 116-7.

Panikk[illegible] 45 (٢)

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط . دار المعارف بالقاهرة ، ج ٤ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٤) De Barros, D[illegible]adas (Dec III., KK. i ch. 3, quoted by Mansel Longworth Dames, (The Book of Duarte Barbosa, Vol PP. 48 - 50 n).

ثم توجه حسين الكردي إلى القاهرة ، فوصلها يوم الخميس سلخ رمضان المبارك سنة ٩١٨ هـ ، ١٥١٢ م بعد غيبة دامت « سبع سنين وثلاثة أشهر » وكان الغوري أثناء ذلك يعمل جاهداً على اعداد أسطول ثان في السويس ، على الرغم من الأزمات العصيبة التي كانت تكتنفه من كل ناحية ، والعقبات الكبيرة المثبطة التي اعترضت سبيله . وقد ساعده على ذلك السلطان بايزيد الثاني ، فأمده بكثير من المعدات وأدوات القتال . وقد وصلت أحدى امداداته إلى مصر في أواخر شوال سنة ٩١٦ هـ ، ١٥١٠ م(٥) ، ووصلت أخرى في رمضان سنة ٩١٨ هـ ، ١٥١٢ م(٦) . ثم أمده بـ ٢،٠٠٠ مقاتل من العثمانيين ، وعلى رأسهم الرئيس سليمان للعمل في الأسطول(٧) . لم أهتد إلى تاريخ مجيء الرئيس سليمان ورجاله إلى مصر ، ولا أدري هل جاءها مع الامدادات العثمانية الأولى ؟ أم مع الثانية ؟ أم جاء مع رجاله على حدة ؟ ولكنه كان في السويس عندما زارها السلطان الغوري في أوائل سنة ٩٢٠ هـ ، ١٥١٤ م للكشف على سفن الأسطول المصري التي كان يجري انشاؤها هناك(٨) . وكان سليمان هو الذي أشرف على أعداد ذلك الأسطول وتجهيزه(٩) . وقد انفق عليه الغوري ، « نحو اربعمائة ألف دينار وكسور »(١٠) بالإضافة إلى الإمدادات التي جاءت من بايزيد . وقد عهد الغوري إلى الرئيس سليمان قيادة ذلك الأسطول ، فخرج وجنوده من القاهرة في ١٠ رجب سنة ٩٢١ هـ ، ١٥١٥ م ، وكان الأسطول مؤلفاً من ٢٠ مركباً . وقد أبحر إلى جدة للإنضمام إلى الأمير حسين الكردي الذي كان قد سبقه إليها في ١٤ جمادى الأخرى سنة ٩١٩ هـ ، ١٥١٣ م . وليس من غرضنا أن نتتبع أثر الحملة بعد أن أبحرت من السويس ، ويكفي أن نشير إلى أنها انحرفت عن غايتها الأولى ، وهي التصدي لمقاومة البرتغاليين في المحيط الهندي ، إلى محاربة اليمنيين .

استغرقت هذه الأحداث فترة من الزمن تمتد من سنة ٩١١ هـ ، ١٥٠٥ م إلى ٩٢١ هـ ، ١٥١٥ م . أي أكثر من عشر سنوات . فكيف عالجها النهروالي ؟ لنستمع إليه :

« . . . فجهز السلطان (قانصوه) من كبار مقدميه الأمير حسين الكردي ، وأصحبه طائفة كبيرة من اللوند ، كبيرهم سليمان الريس ، وحجز لهم عمارة عظيمة ، وأغربة نحو الخمسين ، بمدافع كبيرة ، وضربزانات وولاه نيابة جدة ، وعظم شأنه . وكان مقداماً شجاعاً فاتكاً ، كثير الظلم ، شديد السياسة . فأول ما جاء بنى على جدة سوراً محيطاً بها في عام سبع عشر وتسعمائة ، حمل فيها التجار التراب والأحجار ، وهدم ما أراد من بيوت المسلمين ، وغصبها وأدخلها في البناء ، ووضع بعض التجار في وسط البناء ليبني عليه ، فخلص نفسه بمال كثير ، بعد الشفاعة فيه . . .

« ولما فرغ الأمير حسين من بناء سور جدة ، توجه بأغربته إلى الهند ، ودخل « ا. ير » ، واجتمع بالسلطان مظفر شاه ، وحصل منه امداد كبير غير أن الفرنج ارتفعوا إلى كوَّة (جوَّة) ، وما أمكن الأمير حسين أن يستمر في

---

(٥) ابن أياس ، ج ٤ ص ٢٠١ .

(٦) المصدر نفسه ص ٢٨٥ .

(٧) المصدر نفسه ص ٣٦٥ ؛ ٤٥٨ .

(٨) المصدر نفسه ص ٣٦٥ .

(٩) المصدر نفسه ص ٣٦٦ .

(١٠) المصدر نفسه ص ٣٦٦ .

الهند ، فعاد من غير عمل ، فوصل إلى بندر كمران[١] ، ومعه العدد والآلات ، وكثير من عسكر اللوند ومنهم الأمير سليمان الريس ، وكان فاتكاً شجاعاً ، ذا معرفة بالحروب ، خصوصاً بالمدافع والبنادق »[٢] .

وأحسبني لست في حاجة بعد كل هذا إلى تفصيل ما في حديث النهروالي عن تلك الأحداث من تخليط وتخبيط ، حتى ليصح فيه قول العامة : « من معرفته بالصحابة صلى على عنتر » ، فذلك أوضح من أن يحتاج إلى بيان .

أسطورة النهروالي

ذلك هو النهروالي ، وهذه أسطورته :

« وقع في أول القرن العاشر ، من الحوادث الفوادح النوادر ، دخول الفرتقال اللعين ، من طائفة الفرنج الملاعين ، إلى ديار الهند . وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة في البحر ، ويلجون في الظلمات ، ويمرون بموضع قريب من جبال « القمر » ، بضم القاف وسكون الميم ، جمع أقمر ، أي أبيض ، وهي مادة أصل بحر النيل ، ويصلون إلى المشرق ، ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق ، أحد جانبيه جبل ، والجانب الثاني بحر الظلمات[٣] ، في مكان كثير الأمواج ، لا تستقر به سفائنهم ، وتنكسر ، ولا ينجو منهم أحد . واستمروا على ذلك مدة ، وهم يهلكون في ذلك المكان ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند ، إلى أن خلص منهم غراب إلى الهند . فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر ، إلى أن دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج ، وكان يقال له « الملندي »[٤] وعاشره في السكر ، فعلمه الطريق في حال سكره ، وقال لهم ، لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ، ثم عودوا ، فلا تنالكم الأمواج . فلما فعلوا ذلك ، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا في بحر الهند ، وبنوا في كوّة من بلاد الدكن قلعة يسمونها « كوتا » ، ثم أخذوا هرموز ، وتقووا هنالك ، وصارت الامدادات تترادف عليهم من البرتغال ، فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ، ويأخذون كل سفينة غصباً ، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين ، وعم آذاهم على المسافرين »[٥] .

مناقشة أسطورة النهروالي

وبغض النظر عما في هذه الأسطورة من خلط وتشويش واضطراب ، وأخطاء تاريخية وجغرافية ، فإنها لا تزعم أن أحمد بن ماجد هو الذي قاد البرتغاليين إلى الهند . بل أنها على النقيض من ذلك تؤكد أن وصولهم إليها قد تم دون معونة من أحد ، وهو ما لا يتفق مع الواقع التاريخي . كما تؤكد أن ابن ماجد لم يلتق بـ « الملندي » إلا بعد أن « خلص منهم [من البرتغاليين] غراب إلى الهند » واستمروا يترددون عليها . وان كل ما عمله أحمد بن ماجد ، هو أنه ، بعد رجوع « الملندي » من الهند ، « علمه الطريق وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ثم عودوا ، فلا تنالكم الأمواج » .

وأعتقد ، والله أعلم ، أن الأستاذ نجاتي صدقي ، كان محقاً كل الحق ، حينما قرر « إن الوصف الذي ورد على لسان المؤرخ العربي النهروالي ، ينطبق على رحلة دياز ، وليس على رحلة فاسكو دي گاما »[٦] ولا نعني بهذا أن كبير الفرنجة الذي صاحبه أحمد بن ماجد وعلمه الطريق في حال سكره ، كما يزعم النهروالي ، هو دياز ، وليس فاسكو دي گاما . فإن ابن ماجد لم يجتمع بأي منهما ، ولا بأي برتغالي آخر ، وخاصة في التاريخ الذي تمت فيه زيارتاهما . وإنما نعني أن ذلك الوصف ، بغض النظر عن مصدره وتاريخه ، أقرب انطباقاً على رحلة دياز ، منه على رحلة دي گاما ، لأن منطقة رأس الرجاء الصالح ، هي المنطقة الوحيدة على الطريق فيما بين البرتغال والهند ، التي يستلزم الوصول إليها ، اتباع تلك النصيحة : « لا تقربوا الساحل في ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ، ثم عودوا ، فلا تنالكم الأمواج » . فليس صحيحاً أن برثلميو دياز « نجح في اجتياز رأس العواصف (رأس الرجاء الصالح) في ديسمبر ١٤٨٨ م ، مستعيناً طول الوقت بالملاحة الساحلية »[٧] ، وليس صحيحاً ، أن أي ربان ماهر ، يستطيع أن يدور حول هذه الرأس ، محتضناً الساحل طول الوقت »[٨] . أو على الأقل لم يكن الوضع في رأس الرجاء الصالح بهذه الصفة حينما بدأ البرتغاليون يترددون عليه . فعندما أصبح دياز على مقربة من نهر البرتغال Orange River أثناء محاولته الوصول إلى طرف القارة الجنوبي ، عاكسته التيارات والرياح المضادة مدة خمسة أيام كان يجاوش[٩] خلالها دون جدوى ، ثم طوحت به الرياح جنوباً مدة ثلاثة عشر يوماً متوالية لم ير البر خلالها ، حتى تغيرت حرارة الجو ، وأخذ البرد يشتد كلما تقدموا نحو الجنوب ولما هدأت الرياح ، اتجه نحو الشرق ، وكان يعتقد أنه ما يزال بمحاذاة الساحل الأفريقي الغربي ، ولكنه لما لم ير البر بعد مدة ، اتجه شمالاً ، فجاء إلى ما عرف بعد ذلك بخليج اللحم Flesh Bay في جنوب القارة الأفريقية ويقع إلى الشرق من رأس الرجاء الصالح ، ثم واصل مسيره شرقاً إلى أن بلغ ما سمي بنهر السمك الكبير Creat Fish River فجار بحارته بالشكوى وأجبروه على الرجوع . وأثناء عودته إلى الغرب ، جاء إلى رأس الرجاء الصالح الذي كان قد تجاوزه من قبل دون أن يراه حينما طوحت به الرياح .

أمّا فاسكو دي گاما ، فقد أفاد من تجارب دياز ، فلم يحاول الاقتراب

(١) وهذه أخرى من تخليطات النهروالي . فإن احتلال المصريين لكمران لم يقع بعد عودة حسين الكردي من الهند (حوالي سنة ٩١٥ هـ) أو بعد سنة ٩١٧ هـ كما يزعم النهروالي ، وإنما في بدء قيام الحملة المصرية الثانية ، وعلى التحديد في ١٧ ذي القعدة سنة ٩٢١ هـ . وفي هذه الحملة لم يذهب حسين الكردي إلى الهند .

(٢) البرق اليماني ص ٢٠ .

(٣) كيف يكون مضيقاً وأحد جانبيه بحر ؟

(٤) Almirante نائب أمير البحر .

(٥) البرق اليماني ص ١٩ .

(٦) عبد الله الماجد ، العرب س ٣ ، ص ٧٠ ، عن الأديب عدد أبريل ١٩٦٨ ص ٣٠ - ٣٢ - لم يسعفني الحظ بالإطلاع على مقال الأستاذ نجاتي صدقي ، ولم استطع الحصول على نسخة منه في دبي حينما شرعت في كتابة هذا المقال .

(٧) الدكتور عبد العليم ، الفوائد . .

(٨) المصدر السابق ص ٨٣٩ .

(٩) جاوش ، يجاوش ، مجاوشة . من الإصطلاحات البحرية في الخليج : يعني التحايل على الريح . فمثلاً إذا كان هدف سفينة ما في مهب الرياح ، فانها تجاوش حتى تصل إلى غايتها ، أي تتحايل على الرياح بالإنحراف إلى اليمين أو إلى الشمال ، والتوغل في البحر ، ثم العودة إلى الجهة التي بدأت فيها انحرافها ، مع انحراف نحو الجهة المضادة لانحرافها السابق ، مشكلة بذلك ما يشبه المثلث ، حتى إذا أصبحت محاذية لنقطة انحرافها الأول ، أصبح هدفها خلف ظهرها ، فتتجه إليه ، وتكون الرياح عندئذ وراءها ، بدلاً من أن تكون في وجهها . ويمكن ترجمتها ترجمة دقيقة إلى الإنجليزية بكلمة Tack .

من البر أثناء رحلته إلى رأس الرجاء الصالح ، وإنما أبحر رأساً من البرتغال إلى جزائر الرأس الأخضر Gape Verde Islands ومنها اتخذ لنفسه طريقاً في وسط المحيط الأطلسي ما بين جزيرة اسنشن Ascension Island والبرازيل ، تجنباً للرياح العنيفة عند السواحل الأفريقية . ولما ظن أنه أصبح بمحاذاة رأس الرجاء الصالح ، بعد سفر استغرق ثلاثة أشهر لم ير البر خلالها ، اتجه نحو الشرق ، ولكنه أخطأ التقدير ، فقصر عن بلوغ هدفه بمسافة غير كبيرة نسبياً . وعندما اقترب من البر ، تعرض لعاصفة شديدة ، أشرف من جرائها على الغرق . فتذمر رجاله ، وطالبوه بالعودة إلى البرتغال ، ولكنه أصر على مواصلة السفر ، وهدد كل من يتحدث عن العودة بالقائه في البحر ؛ فتآمر بعض بحارته على التمرد والقاء القبض على قادتهم وسجنهم ، والعودة بالسفن إلى البرتغال ، غير أن أحد المتآمرين وشى بزملائه ، فألقى دي جاما القبض على قادة المتآمرين وسجنهم . وأخيراً ، وبعد جهود مضنية ، استطاع الوصول إلى رأس الرجاء الصالح . ومع أن المسافة بينه وبين نهر البرتغال ، لا تزيد على ثلاثة وثلاثين فرسخاً ، فقد استغرق اجتيازها أسبوعاً كاملاً ، من ١٦ إلى ٢٢ نوفمبر .

ثم جاء بعده بيدرو الفارس كبرال Pedro Alvarez Cabral وكان معه عدد من القادة المجرمين من ضمنهم برتلميو دياز ، مكتشف رأس الرجاء الصالح ، وكثيرون ممن رافقوه ، أو رافقوا دي گاما . وحاول كبرال أن يستفيد من تجارب سلفيه ، دياز ودي گاما ، فأبحر رأساً إلى جزر الرأس الأخضر ، ومن ثم اتخذ الطريق التي اتخذها قبله دي گاما ، وسط المحيط الأطلسي . ولكنه بالغ في التطرف نحو الغرب ، فاكتشف ساحل البرازيل عن غير قصد . ثم اتجه رأساً إلى رأس الرجاء الصالح ، فلما اقترب منه صادفته عواصف هوجاء ، أغرقت أربعاً من سفنه ، وكان برتليمو دياز نفسه من بين الغرقى .

تلك هي طبيعة الأنواء في رأس الرجاء الصالح ، كما وجدها رواد الكشوف الاستعمارية البرتغاليون ، ولا أدري إذا كانت تغيرت الآن ، فأصبح أي ربان ماهر يستطيع أن يدور حول هذه الرأس ، محتضناً الساحل طول الوقت ، أم لا ؟ .

ولكن ماذا يعني صاحب تلك النصيحة ، كائناً من كان بـ « الساحل من ذلك المكان » .

إذا كان يعني به الساحل الأفريقي الغربي ، أو أي جزء منه ، أو رأس الرجاء الصالح ، فقد جاءت نصيحته متأخرة جداً . لأن فاسكو دي گاما ، كان على علم تام بها قبل سماعها منه ، وقد سبق أن طبقها عملياً ، كما رأينا ، تطبيقاً كاملاً ، عن وعي وإدراك ، فلم يقترب من الساحل إلا في المرحلة الأخيرة لخطأ في التقدير . ومع ذلك فحتى تلك المسافة القصيرة التي بقي عليه أن يقطعها حتى يصل إلى رأس الرجاء الصالح ، لم يحاول اجتيازها عن طريق الملاحة الساحلية ، وإنما كان يخرج إلى عرض البحر أولاً ، ثم يقوم بمحاولاته لاجتيازها . وقد فعل ذلك مرة بعد أخرى . وعلى الرغم من فشله المتكرر في محاولاته الأولى ، فانه لم يجرب الملاحة الساحلية لقطع تلك المسافة .

وإذا كان يعني بـ « الساحل من ذلك المكان » ، السواحل الأفريقية الشرقية ، فإن الوصول إلى أي من موانئها في الأحوال العادية ، لا يستلزم الابتعاد عن الشاطيء ، واتخاذ مثل تلك الاجراءات التي يوصى بها . وقد جرب فاسكو دي گاما ذلك بنفسه .

أما إذا كان يعني به الطريق من ملندي إلى كليكوت ، فهناك ثمة طريقان طريق ساحلي ، يساير السواحل الأفريقية إلى رأس حافون ، بل إلى باب المندب ، ومنه إلى عدن ، ثم يسير محاذياً لسواحل الجزيرة العربية إلى رأس الحد ، وينعطف شمالاً إلى رؤوس الجبال عند مضيق هرمز ، فيعبر البحر إلى الضفة الشمالية من المضيق ، وينعطف شرقاً فيساير السواحل الفارسية فالمكرانية ، حتى سواحل السند الشمالية . أما إذا كان هدف الرحلة في جنوب الهند ، كما كان الأمر بالنسبة لفاسكو دي گاما ، فيجب أن يواصل سيره فيقطع السواحل الهندية الغربية من الشمال إلى الجنوب . ومن الممكن اختزال هذا الطريق بعض الشيء ، بالإنتقال من رأس حافون إلى جزيرة سقطرة ، ومنها إلى سواحل الجزيرة العربية ، ثم من رأس الحد إلى سواحل السند . وهذا الطريق في حالتيه شاق وطويل ولا تسلكه في العادة حتى السفن المتجهة إلى شمال الهند . ولكن السفر فيه لا يستلزم الابتعاد عن الساحل والايغال في البحر . وقد شاهدت في جنوب الجزيرة اعداداً غير يسيرة من السفن ، على مقربة من الساحل ، وهي في طريقها من البحر الأحمر ومن افريقية الشرقية ، إلى الخليج العربي .

أما الطريق الأخرى ، فتتجه من ملندي رأساً ، عبر المحيط ، إلى الميناء الهندية المعنية . ولكن ليس ما يدعو إلى تطبيق تلك النصيحة : « لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ، ثم عودوا ، فلا تنالكم الأمواج بالنسبة إليها . والأرجح أن النهروالي ترامت إليه اصداء بعيدة مشوشة ومختلطة عن وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي فاستغلها ، دون تمحيص في تلفيق هذه الحكاية السخيفة ، للتشهير بأحمد بن ماجد ، لغاية في نفسه .

وجاء فران

انتشر كتاب النهروالي « البرق اليماني » انتشاراً واسعاً ، فقل أن تخلو مكتبة عامة في العالم العربي منه ، في مصر والحجاز والعراق . أما في تركية فيوجد في مكتبات اصطنبول العديد من نسخه(١) . وقد نقله إلى التركية مصطفى بن محمد المعروف بخسرو زاده ، المتوفى سنة ٩٩٨ هـ . ومع ذلك فإن أحداً من المؤرخين الذين جاؤوا بعد النهروالي ، عرباً وغير عرب ، ممن اهتموا بتاريخ تلك الفترة ، والصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي ، لم يهتم بأسطورة النهروالي ، أو يعيرها التفاتاً . حتى الذين اعتمدوا على كتابه من هؤلاء المؤرخين عندما عنوا بالكتابة عن تصدي الغوري لقرصنة البرتغاليين وتوجيهه حملة حسين الكردي ضدهم ، كابن العماد الحنبلي ، أهملوا الاشارة إلى أسطورة النهروالي اهمالاً تاماً(٢) . ولهذا الاهمال دلالته المعبرة ولا شك . ثم جاء المستشرق فران Ferrand في سنة ١٩٢٢ م فباضت تلك الأسطورة وفرخت على يده . كانت كما وضعها النهروالي ، مجرد نصيحة من شخص سكران ، وهو أحمد بن ماجد ، زعموا ، لكبير الفرنجة « الملندي » أما متى وأين أدلى هذا السكران بتلك النصيحة ، ومن هو هذا « الملندي » الذي ألقيت إليه ، فأمور على أهميتها ، لم يكن النهروالي ليهتم بها . فلما جاء فرّان استكمل تلك النواقص الهامة ، فحدد مكان اللقاء في

(١) الجاسر ص ٦٩ .
(٢) شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ط مصر ، ١٣٥١ ج ٨ ص ١١٥ .

« ملندي » ، وحدد تاريخه بـ ٢٢ من ابريل سنة ١٤٩٨ م . أو خلال زيارة فاسكو دي گاما لملندي في ذلك الشهر ، وحدد شخصية الملندي على أنه فاسكو دي گاما ذاته . ولكنه حاول ، مشكوراً ، أن يدفع تهمة السكر عن أحمد بن ماجد ، ليثبت عليه اقتراف ذلك العمل الذي « بعده مسلمو مكة خيانة عظمى »[١] ، وزاد على كل ذلك هاماً جداً ، لم يرد في نص النهروالي ، ولو تلميحاً ، وهو أنه جعل أحمد بن ماجد يتولى قيادة اسطول دي گاما من ملندي إلى كليكوت .

مناقشة فران

فإذا تدبرنا جيداً أسطورة النهروالي ، واستعرضنا وقائعها على ضوء الواقع التاريخي ، وجدنا ما استنتجه فرّان منها ، لا يستقيم بحال من الأحوال . يقول النهروالي :

« وكانت طائفة منهم [من البرتغاليين] يركبون من زقاق سبتة في البحر ويلجون في الظلمات . . في مكان كثير الأمواج فلا تستقر به سفائنهم ، وتنكسر ولا ينجو منهم أحد . واستمروا على ذلك مدة ، وهم يهلكون في ذلك المكان ، ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند ، إلى أن خلص منهم غراب إلى الهند ، فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر ، إلى أن دلهم شخص ماهر ، يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج ، وكان يقال له « الملندي » ، وعاشره في السكر ، فعلمه الطريق في حال سكره ، وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ، ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج .

إن هذا المكان الكثير الأمواج ، الذي لا يستقر به السفائن ، هو على ما يبدو الطرف الغربي الجنوبي من القارة الأفريقية ، فهو المكان الوحيد الذي تنطبق عليه تلك الصفات . وأول من حاول الوصول إليه ، ووصله فعلاً ، من البرتغاليين ، دياز ، في أواخر سنة ١٤٨٦ م كما مر بنا . وقبله لم تقترب أية سفينة برتغالية من رأس الرجاء الصالح ، ولم تنكسر في مياهه بطبيعة الحال . ودياز أيضاً ، هو أول من خلص إلى الطرف الغربي من المحيط الهندي حيث يلتقي المحيطان . ولكنه لم يصل إلى السواحل الافريقية الشرقية ، ولم يفقد ولا سفينة واحدة في تلك السفرة . وإذا افترضنا أنه اجتمع بأحمد بن ماجد ، فلا بد أن يكون ذلك الإجتماع قد تم في جنوب أفريقية ، فهذا أقصى ما بلغه في تلك السفرة . ولكننا لا نجد فيما وصل إلينا من كتب أحمد بن ماجد أية إشارة لتلك المنطقة . ولا يعقل أن يهمل الحديث عنها ، لو كان قد وصل إليها ، لميله القوي إلى التظاهر بالعلم والمعرفة . كما اننا لا نجد أي ذكر لمثل هذا الاجتماع فيما نشر من وثائق البرتغاليين .

وثاني من اجتاز رأس الرجاء الصالح ، هو فاسكو دي گاما . ولكنه لم تنكسر له ولا سفينة واحدة أيضاً ، إلا بعد أن اجتاز ذلك المكان الكثير الأمواج الذي تنكسر فيه سفائنهم . فقد شتّر[٢] إحدى سفنه في ناحية ما من جنوب افريقية ، بعد أن نقل أمتعتها ورجالها إلى سفنه الأخرى . ولم يفقد أحداً من رجاله .

وأول نكبة مني بها البرتغاليون عند رأس الرجاء الصالح ، هي تلك التي حلت بحملة بيدرو الفارس كبرال في ٢٤ مايو سنة ١٥٠٠ م ، حيث غرقت له أربع سفن بجميع من كان على ظهرها .

فإذا أردنا أن نحمل كلمات النهروالي على محمل الجد ، فلا يمكن أن يكون خلوص ذلك الغراب البرتغالي إلى بحر الهند ، لأول مرة ، إلا بعد أن توالت النكبات على البرتغاليين في ذلك المكان الكثير الأمواج ، أي بعد نكبة بيدرو الفارس كبرال في سنة ١٥٠٠ م على الأقل ، ولا يمكن أن يكون اجتماع « الملندي » بأحمد بن ماجد ، قد تم على افتراض وقوعه ، إلا بعد خلوص ذلك الغراب البرتغالي إلى الهند وعودته منها بزمن ما ، قد يكون في تلك السنة نفسها ، وقد يكون بعدها . فكيف يمكن أن يكون أحمد بن ماجد هو الذي قاد فاسكو دي گاما إلى الهند ، مع أنه لم يجتمع به إلا بعد عودته من الهند كما تقول تلك الأسطورة ؟

ثم اننا نعلم بصورة مؤكدة ، أن فاسكو دي گاما ، كان قد خلص إلى بحر الهند ، ووصل إلى ملندي ، قبل ذلك التاريخ بسنتين على الأقل ، وعلى التحقيق في ابريل سنة ١٤٩٨ م . فكيف نوفق بين هذه المتناقضات ؟

الواقع أن النهروالي كان يتحدث عن موضوع يجهل ملابساته كلها جهلاً تاماً ، فلفق وخلط ، كما هي عادته . ومع ذلك فنصه لا يحتمل كل هذا التعسف في التحريف .

ونعود إلى اسطورته مرة أخرى ، نضعها تحت المجهر ، ونتفحص كلماتها ، كلمة كلمة ، علنا نلمح في ثناياها ما قد يساعدنا على الإهتداء إلى ما اهتدى إليه المستشرق فران ، فلا نجد إلا سراباً يتمثل في بضع كلمات مراوغة هي : « إلى أن دلهم شخص ماهر » ، و « فعلمه الطريق » . ولكنها لا يمكن أن تعني أكثر من أنه وصف له الطريق ، كما يؤكد ذلك سياق الحديث الذي جاء على الصورة التالية :

« إلى أن دلهم شخص ماهر يقال له الربان أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج . . . وعاشره في السكر ، فعلمه الطريق في حال سكره ، وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان . . . فلما فعلوا صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم » .

فأي عربي يمكن أن يفهم من هذا الحديث أكثر من أن أحمد بن ماجد قد وصف الطريق لكبير الفرنجة ، على افتراض الصحة في رواية النهروالي ؟

أي عربي يفهم من هذا الحديث أن أحمد بن ماجد تولى فعلاً قيادة فاسكو دي گاما إلى كليكوت ؟

دليل من التاريخ

« يقول باروس . . . أنه بينما كان فاسكو دي گاما في ملندي ، جاء لزيارته بعض البانيان Banyans[٣] من مملكة كنباية من كجرات . فظن فاسكو دي گاما ، إن هؤلاء المنادكة الذين يقدسون صورة العذراء (ظناً منهم أنها إحدى آلهات الهندو)[٤] ، هم من طوائف المسيحيين الذين كانوا في الهند في أيام القديس ثوماس St. Thomas وجاء معهم مسلم من كجرات

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، الإنجليزية ، مادة شهاب الدين أحمد بن ماجد .

(٢) شتر ، يشتر ، تشتيرا : حطم السفينة . وتشترت السفينة : تحطمت ، إصطلاح بحري مستعمل في الخليج .

(٣) طائفة من التجار الهندوس . ويطلق لقب البانيان في الخليج على جميع المنادكة بغض النظر عن مهنهم وأعمالهم .

(٤) الكلمات والجمل المحصورة بين الأقواس في هذه النبذة . هي لفران ، ادخلها لتوضيح النص الأصلي ، حسب تفسيره له .

(كذا !) يسمى معلمو : (معلم) كانا Cana : (كاناكا Kanaka) . وقد وافق هـذا المعلم على السفـر مع رجـالنـا (ليـدلهم عـلى الـطريق إلى الهنـد) لسروره بصحبتهم ، ولـرغبته في إرضـاء الملك (ملك ملنـدي) الـذي كـان يبحث عن ربان للبرتغاليين وحينها تبادل فاسكو دي گاما الحديث معه ، اقتنع بمعرفته ، وخاصة عندما أطلعه على خريطة للسـاحل الهنـدي كله ، وضعت حسب خـرائط المسلمين ، ورسمت فيهـا خطوط الـطول والعـرض ، بـدقـة بالغة ، دون الإشارة إلى مهاب الرياح . ولما كانت المربعات (التي تتـألف من تقـاطع) خـطوط الطول والعـرض ، صغيرة جـداً ، فإن (اتجـاه) الساحـل بالنسبة لخطي الشمال والجنوب ، والشرق والغرب ، كـان دقيقاً جـداً ، دون أن [يؤدي ذلك] إلى ازدحام الخارطة بكثرة (العلامات التي تشير إلى اتجـاه) الرياح والإبرة المغناطيسية ، كما هو شأن خريطتنا البرتغـالية التي تعتمـد عليها الخرائط الأخرى . وقد أطلع فاسكـو دي گامـا ذلك المسلم عـلى الأسطرلاب الخشبي الكبير الذي كان معه ، وعلى غيره من الاسـطرلابات المعـدنية ، التي كـان يقيس بها ارتفـاع الشمس ، فلم يـدهش المسلم لـرؤيـة تلك الآلات ، وقـال أن الربـابنة (العـرب) في البحر الأحمـر يستعملون آلات من النحـاس مثلثـة الشكل ، أو مؤلفـة من أقواس قـائمـة الـزوايـا مقسمـة إلى ٩٠ درجـة Quadrants لقيـاس ارتفاع الشمس والنجم (القـطبي) الذي يهتـدون به في أسفارهم . وأضـاف أنه وملاحي كنبـاية والهنـد جميعها ، يسـترشدون ببعض النجوم الجنوبية والشمالية وغيرهـا من النجوم التي تعـبر قبة السماء من الشرق إلى الغرب ، وأنهم لا يقيسون خطوط العرض بمثـل تلك الآلات (التي أراها له فاسكو دي گاما) بل بآلة أخرى يستعملها هـو أيضاً . وأظهـرها في الحـال وأراهـا له (. . .) وكـانت مصنوعـة من ثـلاث صفـائـح . . . وبعـد هـذا الحـديث وغـيره من الأحـاديث التي جـرت بينهم [الـبرتغـاليـين] وهـذا الربان[1] ، شعر فاسكو دي گاما أنه عثر على كنـز عظيم (. . .) ، ولكي لا يفقده ، أبحر بأسرع ما يستطيع إلى الهند في ابريل ١٤٩٨ م »[2] .

هذا الحديث وحده ، يفصح عن هـوية ذلـك الربـان بما لا يـدع مجالاً للشك في أمرها . لنتدبر جيداً تصنيفـه ربابنـة المحيط الهندي . لقـد قسمهم إلى قسمـين : ربابنـة (العرب) في البحـر الأحمر ، الـذين يهتـدون في الليـل بنجم واحـد معين ، هـو النجم القطبي الشمـالي ، ويسمونـه الجـاه ، أو كـما ينـطقها الكثـيرون في الخليج « اليـاه » ، أي الاتجاه ؛ وبحـارة كنبايـة وجميـع الهند ، الذين يتسعينون ليلاً ، « ببعض النجوم الجنوبية والشمالية وغيرهـا من النجوم التي تعبر قبة السماء من الشرق إلى الغرب » . فأين وضع نفسه ؟ مـع الصنف الثاني بالطبع . أي مع الهنود . لأنه هندي . لأنه ليس أحمد بن ماجد العربي . حتى الآلات التي يستعملها لرصد النجوم ، لم تكن من الآلات التي يستعملهـا ربابنـة العرب في البحـر الأحمر ، وإنمـا من الآلات التي يستعملهـا الهنود .

(١) ترجم الأستاذ محمود ياسين الحموي (الملاح العربي ص ٨ ـ ١٠) هذه النبذة عن فـران كما يبدو ، بشيء من التصرف والزيادات التي يخلو منها النص الإنكليزي . ولا أدري إذا كانت تلك الزيادات موجودة في الأصل الفرنسي أم لا . من ذلـك أنه وصف هـذا الربـان في هذا الموضع بـ « العربي » بينما هـو في النص الإنجليزي ربـان فقط ، مجرد من أي وصف . أما صفته فيما سبق من هذا الحديث فمسلم من كجرات ، كما مر بنا .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة الإنجليزية ، ط . الأولى ، مادة شهاب الـدين أحمد بن ماجد .

تبعيتنا للمستشرقين

ولكن أي سحر لهؤلاء المستشرقين على قلوبنا وعقولنا ؟ إن أكـثرهم غير خليق بالثقة ولا يمكن الاطمئنـان إلى أمانتـه العلمية ؛ ومـع ذلك ، فـما يكاد أحدهم يجترح ما يسيء إلى تاريخنا ، أو ديننا ، أو ثقـافتنا ، أو مـا يمس كياننـا الروحي والفكري في الصميم ، حتى نعتد عمله منة علينا ، نشكره عليهـا ، ونقدم إليه جزيل الحمـد ووافر الثنـاء من أجلها ، ثم نعتـبر صنيعه جـزءاً من تراثنا القومي ، ندافع عنه ، وندعو إليه ، ونعلن عنه بجميع الوسائل المتـاحة إلينا . وقلَّ منا من يحاول أن يلقي نظرة مستقلة على حقيقة تلك « المنة » ، أو يعـالجها بشيء من النقـد والتمحيص . بينما يـركبنا الشيـطان ، عنـدمـا يتعلق الأمر بمصادرنا المأثورة ، فنتخذ من « الشك » في تلك المصادر صنـماً نعبده من دون الله .

ولدت أسطورة النهروالي ميتة في أواخر العشر التاسع من القرن العاشر الهجري (حوالي سنة ١٥٧٠ م) وبقيت مدفونة في قبرها منذ ذلك التـاريخ ، لا يجـري اسمها عـلى لسان ، أو يمـر ذكرهـا عـلى خـاطـر ، حتى جـاء فـران (١٩٢٢ م) بعـد أكـثر من أربعـة قـرون ونصف عـلى دفنهـا ، فنبش عنهـا الـتراب ، ثم جبل رفـاتها بمـا درب عليه المستشرقـون ، من تحـريف للكـلام الواضح المستقيم ، وصاغ منه مسخاً جديـداً لا يمت إلى الأسطورة النهـروالية بسبب ، إلا بنسبتـه المزورة إلى صـاحبهـا ؛ فتلقينـا ذلـك المسخ الـدعي ، بـالتأهيـل والترحيب ، وأفسحنـا لـه في صـدور مجـالسنـا ، وذهبنـا نستبق في تكريمه ، والتغني بفضائله ، دون أن يتوقف أحـدنا لحظة ، يتساءل فيهـا عن حقيقة ذلك النسب ، وهل هو صريح كما يقـولون ؟ أم من قـوارير ، كنسب صاحب بشار ؟ لقد رفضنا الأصل ونبذناه ، وتهنا غراماً بالدعي الممسوخ .

الدكتور أنور عبد العليم

وفي كل هذا الزمن الطويل ، منذ سنة ١٩٢٢ م ، لم تساور الشكوك في ذلـك النسب المنحول ، سـوى واحـد منـا فقط ، كـما أعلم ، هـو الـدكتـور الفاضل أنور عبد العليم ، ولكنه ما لبث أن أغفل تلك الشكوك ، ولا أدري هل نسيها ، أم رأى أنه لا يجوز الشك فيما يصنع المستشرقون ، أم اتضـح له أن الحق فيـما شك فيـه ، فرجـع عن شكه ؟ أن للدكتـور دراسات قيمـة عن أحمد بن ماجد ، منها كتابه « ابن مـاجد المـلاح » ، وقد قـدمه إلى المطبعة في يـوليو سنـة ١٩٦٦ م . والدكتـور غني عن التعريف ، لا في الـبلاد العـربيـة وحدها ، بل وفي الدوائر العلمية في الغـرب كذلـك . في هذا الكتـاب يكرر الدكتور ، أولاً ، ما شاع منذ سنة ١٩٢٢ م ، من أقوال مبتسرة ، لا تمت إلى الحقيقـة بصلة ، عن علاقـة أحمد بن مـاجد ، بفـاسكو دي گـاما ، فـيرددها بصيغة المطمئن إليها ، الواثق منها ، المعول عليها ، كقوله :

« ولا ترجع شهرة الربان العربي ، إلى كـونه مؤلفـاً ترك للتراث العـربي ذخيرة هامـة من المؤلفات العلميـة والتكنولـوجية ، عن البحـر وفنون المـلاحة فحسب ، بل أنه كان أيضاً المرشد لسفينة فاسكو دي گاما البرتغالي ، من ثغر مـاليندي ، عـلى خط عرض ٣ درجـات جنوب خط الاستـواء على السـاحل الشرقي لافريقيا إلى كلكتا[3] عام ١٤٩٨ م »[4] .

(٣) ليست كلكتا calcutta بل كليكـوت callcut وتقع في الجنوب الغربي من السـواحل الهندية .

وقوله :

« لا ترجع شهرة ابن ماجد إلى كونه ملاحاً قديراً فحسب ـ لا يزال أهل عدن يقرأون له الفاتحة ، ما خرجوا إلى البحر ـ ولا إلى مؤلفاته الغزيرة في علوم البحار والملاحة ، والتي لم تكتشف إلا في القرن العشرين . وإنما اكتسب هذا الملاح ، فضلاً عن ذلك ، شهرة دولية حين عرف أنه هو نفسه الربان الذي قاد سفينة الملاح البرتغالي الشهير ، فاسكو دي گاما Vasco de Gama لأول مرة من ثغر ماليندي في مملكة كامبايا (كينيا الآن) »[١] .

ولكن الدكتور الفاضل ، بعد هذه الأقوال الواضحة الحاسمة ، عن علاقة أحمد بن ماجد بالبرتغاليين ، يطلع علينا ، في الكتاب ذاته ، ولأول مرة منذ عام ١٩٢٢ م ، بموقف جديد ، يتميز بالشجاعة والاستقلال ، فيعلن عن تشككه « في صحة الرواية التي أوردها فران ، وأقرها معه علماء السوفييت » . فهو يقول في معرض تعليقه على الأبيات التالية من أرجوزة لأحمد بن ماجد تسمى السفالية (نسبة إلى سفالة) :

ويعد ذا في عام تسعمايه   وست جاءوا الهند يا اخايه
واشتروا البيوت ثم سكنوا   وصاحبوا وللسوامر ركنوا
والناس تضرب فيهم الظنونا   ذا حاكم أو سارق مجنونا

« وإذا كان ابن ماجد قد دوّن هذه الوقائع في أرجوزته ، فلا يتضح من كلامه أنه أرشد البرتغال إلى الهند ، مما يجعلنا نشكك في صحة الرواية التي أوردها فران ، وأقرّها معه علماء السوفييت . وعلى أي حال ، فإن هذا الأمر ، يحتاج إلى مزيد من التحقيق ، وربما أفردنا له بحثاً مستقلاً »[٢] .

ثم يكرر الدكتور هذا الشك مرة أخرى ، أثناء حديثه عن كتاب « محيط » ، لسيدي علي ، فيقول :

« ومما يسترعي النظر ، أن كتاب « محيط » ، وقد كتبه صاحبه بعد ابن ماجد بنحو خمسين سنة (وقبل النهروالي) ، وهو في نفس الوقت ملاح قدير ، تهمه أخبار الملاحة ـ هذا الكتاب لم يرد فيه إشارة إلى قصة إرشاد ابن ماجد لفاسكو دي گاما إلى الهند . ولو أن « سيدي علي » ، قد سمع من ربابنة بحر فارس أية إشارة لقصة الإرشاد المذكورة ، لما تردد في ذكرها »[٣] .

ونرجو أن يعذرنا الدكتور ، إذا سألناه عن مغزى أقواله السابقة عن علاقة أحمد بن ماجد بفاسكو دي گاما ، ما دامت لديه مثل هذه الشكوك « في صحة الرواية التي أوردها فران وأقرها معه علماء السوفييت » ؟

على أن الدكتور الفاضل ما لبث أن عاد إلى سابق عهده ، واطمئنانه المطلق إلى رواية فران ، وذلك بعد أقل من عشرة أشهر على تاريخ تلك الشكوك ، فقد نشر في مجلة « تراث الإنسانية » ، بتاريخ ٥ ابريل ١٩٦٧ م ، مقالاً قيماً عن كتاب ابن ماجد ، « الفوائد في أصول علم البحر والقواعد » ، جاء فيه :

« ولا ترجع شهرة ابن ماجد إلى كونه ملاحاً قديراً فحسب ، لا يزال أهل عدن يقرأون له الفاتحة كل يوم ، ولا إلى مؤلفاته الغزيرة في علوم البحار والملاحة ، التي لم تكتشف إلا في القرن العشرين ، وإنما اكتسب هذا الملاح فضلاً عن ذلك ، شهرة دولية ، حين ثبت أنه هو نفسه ، الربان الذي قاد سفينة فاسكو دي گاما البرتغالي ، من ساحل أفريقيا الشرقي إلى الهند ، لأول مرة عام ١٤٩٨ م »[٤] .

وجاء فيه :

« ويرجع الفضل في الواقع في التعرف على أن ابن ماجد ، كان هو المرشد الذي قاد أسطول دي گاما إلى الهند ، إلى جهود المستشرق الألمعي ، جبرييل فران ، عام ١٩٢٢ »[٥] .

ولا ندري بعد هذا ما الذي استقر عليه رأي الدكتور الفاضل في هذا الصدد ؟ هل ما يزال على تشككه « في صحة الرواية التي أوردها فران ، وأقرها معه علماء السوفييت » ، فنتطلع إلى بحثه المستقل الذي وعدنا به ؟ أم « ثبت [عنده أن ابن ماجد] هو نفسه الربان الذي قاد سفينة فاسكو دي گاما البرتغالي ، من ساحل افريقيا الشرقي إلى الهند ، عام ١٤٩٨ م » ؟

أهدافهم

ولكن ما الغاية من الاصرار على أن أحمد بن ماجد هو الذي أرشد فاسكو دي جاما إلى الهند ؟ .

= الغربية ، بينما تقع كلكتا في أقصى الشمال من السواحل الهندية الشرقية ، على رأس خليج البنغال . ولم تكن للبرتغاليين علاقة فيها ، وبالتالي فإن فاسكو دي گاما لم يرها في حياته . لقد تكرر هذا الخطأ أكثر من مرة ، وإلا لما أعرناه اهتماماً (راجع كتاب ابن ماجد الملاح ص ٤٨ و ٥٤ ؛ والفوائد في أصول علم البحر والقواعد « العرب » س ٤ ، ص ٨٤٠ و ٨٤٣) ، وقد وقع فيه عدد من كتابنا الذين تصدوا للحديث عن أحمد بن ماجد ، منهم الأستاذ محمود ياسين الحموي الذي ترجم calicut بـ « كالكوتا » أي « كلكتا » (الملاح العربي ص ١٠) ؛ والدكتور السيد يعقوب بكر ، في ترجمته القيمة لكتاب فضلو الحوراني « العرب والملاحة الهندي » ص ٢٣٧ .

(٢) ابن ماجد الملاح ، ص ٧ .

(١) الذي أعرفه ، وما أقله ، ان كامبايا ، كنباية ، كما تسميها المراجع العربية ، كانت جزءاً من كجرات بالهند ، وتقع في الجزء الشمالي من الساحل الغربي ، على الخليج المعروف بهذا الاسم نفسه إلى اليوم . وكانت لها صلات تجارية وثيقة جداً بالإمارات العربية في أفريقية الشرقية ومنها ملندي ، وبالبلاد العربية في الخليج الفارسي والبحر الأحمر ومصر ، وأخشى أن يكون الدكتور قد اعتمد على ترجمة الأستاذ محمود الحموي لحديث دي باروس عن لقاء فاسكو دي گاما بالمعلم كانا في ملندي ، الذي ترجمه ، عن فران كما يبدو . فترجمة الأستاذ الحموي ، إذا اعتمدنا النص الإنكليزي لدائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى) غير دقيقة فقد ترجم الفقرة التالية :

[While vasco da Gama was at Malindi some Banyans from the Kingdom of cambay in gujrat came to visit the Admiral... With then came a Moor (= Muslim) of gujrat (sic.!) called Mulemo (= Muallim) came (= Kauaka)].

بما يلي :

« أثناء إقامة فاسكو دي گاما في ملندي من مملكة كامبايا ، زاره بعض الهندوس على ظهر السفينة . . . وكان يرافقهم مسلم من مسلمي (جزرات) [كجرات] ويدعى معلم (كاناكا) .

بينما ترجمتها الحرفية هي :

« بينما كان فاسكو دي گاما في ملندي ، جاء لزيارته بعض البانيان من مملكة كنباية من كجرات . . وجاء معهم مسلم من كجرات (كذا) [كلمة « كذا » وعلامة التعجب ، لفران] ، يسمى معلمو (= معلم) كانا cana (= كاناكا canaka) .

أما إذا كنت مخطئاً في ظني ، وبعض الظن أثم ، وان ما يعرف الآن بكينيا ، كان يطلق عليه اسم كامبايا ، فأنا أعتذر منه الآن ، وأرجو أن يتكرم الأستاذ المذكور بذكر اسم المرجع المذكور الذي اعتمد عليه ، لأنني مهتم بتاريخ افريقية الشرقية .

(٢) ابن ماجد الملاح ص ٦٥

(٣) ابن ماجد ص ٦٣ .

(٤) الفوائد ، العرب ، س ٤ ص ٨٣٨ .

(٥) المصدر نفسه ص ٨٤٠ .

أما المستشرقون فقد أفصح فران عن بعض أهدافهم بصراحة تامة ، أثناء محاولته دفع تهمة السكر عن أحمد بن ماجد ، فزعم أن قصة السكر مختلقة من أساسها ، للتجاوز عن عمل يعتبره مسلمو مكة ، الذين كان قطب الدين يعيش بينهم ، خيانة (عظمى) وأن المعلم العربي ، على العكس من ذلك ، وافق على أن يتولى قيادة سفينة القيادة في الأسطول البرتغالي ، لقاء وعد بمكافأة سخية(١) . أي أن ابن ماجد أقدم على اجتراح تلك الكبيرة التي يعدها مسلمو مكة وجميع العرب خيانة عظمى ، عامداً معتمداً ، وهو في غاية الوعي والإدراك ، أو مع العمد وسبق الاصرار ، كما يقول رجال القانون .

إن سنة ١٩٢٢ ، التي توصل فيها فران إلى « اكتشافه العلمي » الهائل ، عن علاقة أحمد بن ماجد بالبرتغاليين ، من السنين التي اشتد فيها سعار الاستعمار الفرنسي في أعقاب الحرب العالمية الأولى ؛ فقد سبق قبل ذلك التاريخ بسنتين أن بسط الافرنسيون ظلمهم الثقيل على الشام ، بقوة الحديد والنار . ولكنهم جوبهوا بمقاومة صامدة من قبل السوريين ، أجبرتهم على الاستعانة بالجواسيس والعملاء ، للعمل ضد المقاومة السورية . غير أن حاجتهم إلى العملاء والجواسيس كانت دائماً أكبر مما يستطيعون تجنيده منهم ؛ فجاء هذا « الكشف العلمي » كأنما ليوحي للمترددين في العمل للافرنسيين خوفاً من وصمة الخيانة : بأن الخيانة عند العرب لا أهمية لها ؛ فهذا أحمد بن ماجد ، أحد الأعلام العربية الضخمة ، لم يتورع عن التعاون مع البرتغاليين رواد الاستعمار الغربي في البلاد العربية . ومع ذلك فإنه يتبوأ في التاريخ العربي منزلة سامية ، ويحظى من علماء العرب بالتبجيل والاحترام .

وهذا « الكشف العلمي » ، بعد ، حيلة ماكرة . فقد قدروا أن نتبناه ، ونعتبره من مآثرنا الحضارية الباهرة ، وهو ما حصل فعلاً . ثم يأتي بعد ذلك ولا بد من يقارن بينه وبين ما حققه البرتغاليون وحدهم من اجتياز للمحيط الأطلسي ، وطواف برأس الرجاء الصالح ، ووصول إلى افريقية الشرقية . والنتيجة المحتومة لتلك المقارنة ، ستكون ، ولا شك ، في صالح البرتغاليين ؛ وهو ما حصل فعلاً كذلك ، مع فارق بسيط ، هو أن الذي قام بتلك المقارنة ، لحسن الحظ ، يعتقد أن الربان الذي « تولى ، عملياً ، ارشاد القائد العام [فاسكو دي گاما] في عبور المحيط ، ربان هندي ، وضعه تحت تصرفه ملك ملندي »(٢) .

تقول تلك المقارنة :

« علينا أن نتذكر ، أن المحيط الهندي ، ومن ضمنه الساحل الافريقي كله ، كان قد تم اكتشافه قبل قرون ، على أيدي الملاحين الهنود ، وكانت السفن الهندية ترتاد الموانىء الافريقية ، وتعرف مدغشقر بصورة مؤكدة . . وعلى هذا فإن المحيط الهندي بحر قد تم ارتياده ، وعرفت مسالكه ، وان وصول دي گاما إلى كليكوت ، كإنجاز ملاحي ، لا يمكن أن يضاهي ما حققه أولئك القادة الذين كانوا أول من اجتاز سواحل الصحراء الكبرى ، وعبر خط الاستواء ؛ أو ما أنجزه دياز ، بوصوله إلى رأس الرجاء الصالح »(٣) .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة الإنكليزية ط . الأولى ، مادة شهاب الدين أحمد بن ماجد .

(٢) panikkra, Asia and Western Dominance, p. 32

(٣) Ibid 32 - 3

فإذا كانت رحلة فاسكو دي گاما كلها لا تضارع ما حققه البرتغاليون قبلها ، مع ما فيها من اكتشاف الجزء من السواحل الافريقية كان ما يزال مجهولاً للعالم أجمع ، إلا لعرب السواحل الأفريقية الشرقية ، وهو ذلك الجزء الممتد من آخر نقطة وصل إليها برثلميو دياز في جنوب القارة الأفريقية إلى سفالة ؟ فما بالك ببعضها الذي يعرفه كل ملاح في المحيط الهندي ؟ .

إن صاحب هذه المقارنة ، دبلوماسي ومؤرخ هندي من الملبار ، هو الأستاذ بانكيار ، الذي كان ذات يوم سفيراً للهند في القاهرة . ان له أكثر من دراسة عن البرتغاليين في المحيط الهندي . وكانت الوثائق البرتغالية في لشبونة ، عن الغزو البرتغالي للشرق ، من ضمن المصادر التي اعتمد عليها في تلك الدراسات . وهو مطلع ، ولا شك ، على مزاعم فران ، وتهمة الخيانة العظمى التي طوق بها عنق الربان الذي تولى قيادة فاسكو دي گاما إلى الهند . وبناء على تقييمه لسفرة فاسكو دي گاما ، فإن دور ذلك الربان فيها قليل الأهمية ، ولا يمكن أن يحقق لبلاده شيئاً من المكاسب الأدبية ؛ بل ربما عاد عليها بالخسران . ولذلك فقد كان المتوقع من بانيكار ، أن يحاول استغلال مزاعم فران ، لخلق جو من الشك حول هوية ذلك الربان ، كيما يدفع تلك التهمة عن أحد مواطنيه ، أو يثير حولها سحابة من الغبار على الأقل ، لو أنه رأى في تلك الزاعم ذرة من الحق . ولكنه تجاهلها تجاهلاً تاماً ، يوحي بما لها من قلة الاعتبار في نظره .

ذلك بعض ما كانوا يهدفون إليه من الترويج لتلك الخرافة .

وأهدافنا

أما نحن فماذا نحقق ، حتى ولو ثبت بصورة قاطعة لا تقبل الجدل ، أن أحمد بن ماجد هو الربان الذي قاد سفينة فاسكو دي گاما إلى كليكوت ؟

لا شيء غير خفي حنين .

كان المحيط الهندي على امتداده من السواحل الأفريقية الشرقية ، إلى السواحل الصينية ، بحيرة عربية منذ عشرات القرون . وقد ارتاد ملاحونا جميع سواحله وجزائره ، وخلجانه ، وخيرانه ، وكتب أحمد بن ماجد شاهدة على ذلك . وكان السفر بين السواحل الأفريقية والسواحل الهندية ، متواصلاً منذ أقدم الأزمان ، يقوم به سنوياً عشرات الربابنة من العرب ، وغير العرب . فلو افترضنا أن أحمد بن ماجد ، قد قاد فعلاً سفينة فاسكو دي گاما ، من ملندي إلى كليكوت ، فليس في عمله ما يدعو إلى الزهو والفخر ، حتى ولو حاولنا تجريده من مدلوله السياسي ، واعتبرناه عملاً ملاحياً ليس إلا . فقد سبقه إلى القيام به أعداد لا حصر لها من الربابنة على امتداد التاريخ . بينما انجازاتنا الملاحية أجل من ذلك وأعظم . وقد مر بنا حديث الملاح العربي ابن فاطمة . ودورانه حول افريقية من الغرب إلى الشرق . وكنا نعرف طول الوقت ، امكانية العبور من المحيط الهندي إلى المياه الغربية ، فمنا عرف الجاسوس البرتغالي كوفلهام في سفالة ، أنه من الممكن الابحار بمحاذاة الساحل إلى الغرب »(٤) . أما لماذا لم نستغل ذلك الطريق مع معرفتنا به ؟ فقضية أخرى . إن الإنسان لا يتنكب الجادة القصيرة المطروقة إلى جادة أخرى طويلة وعرة مهجورة ، إلا لسبب من اثنين : أما لحائل يحول بينه وبين

(٤) F. C. Danvers, portuguese in India vol. I. P: 30; Panikkar, Asia and Western Dominance, P 33.

الجادة الأولى ، أو لما تنطوي عليه الثانية من مغريات ، كالأرباح الهائلة التي يمكن أن يحققها إذا ما حول طريقه إليها . وكلا السببين لم يكن له وجود بالنسبة إلينا . فيوم كانت أسبانيا والبرتغال في أيدينا كانت جميع الطرق مفتوحة أمامنا ، من الصين إلى ما وراء جبل طارق . وكانت قوافلنا التجارية ، برية وبحرية ، تتهادى غادية رائحة ، بين سواحل البحر الأبيض المتوسط ، وسواحل الصين ، في أمن واطمئنان ، وهي تتجر أثناء سيرها في تلك الطرق ، فتضاعف أرباحها ؛ وهو لم يكن ليتسنى تحقيقه ، لو أنها سلكت طريق المحيط الأطلسي .

أما غرب افريقية ، فلم يكن ثمة ما يغري بالسفر إليه ، لا من الناحية التجارية ، ولا من أية ناحية أخرى . لقد كانت أسواق الاستهلاك الأفريقية مقصورة على الشمال والشرق من القارة . أي في الاطار الحضاري الذي صنعه العرب على السواحل الأفريقية . ولسنا بسبيل الحديث عن الشمال الأفريقي ، فأمره معروف مشهور . أما السواحل الشرقية فقد استوطنها عرب الخليج واليمن منذ أقدم العصور . وحينما جاء البرتغاليون كان يحكم الشقة الساحلية - الممتدة من جنوب بلاد الصومال في الشمال ، إلى حدود سفالة الجنوبية في الجنوب - حكومات عربية . وكانت التجارة الأفريقية كلها ، باستثناء الأجزاء الشمالية ، في يد هذه الحكومات العربية ، فهي التي تزود إفريقية بما تحتاجه من منتجات البلاد المتحضرة ، وخاصة الأقمشة التي كانت تستوردها من كنباية ، مقابل الذهب والعاج من مناجم روديسيا وجنوب افريقية وغاباتها . ويصور لنا بربوزا duarté barbosa حجم تلك التجارة عند وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي ، وما كانت تدره على أصحابها من خير ورخاء . كما يصور لنا ما كان للعرب من نفوذ في تلك المناطق الأفريقية ، وذلك خلال حديثه عن مدينتي كلوة وممباسة .

أما كلوة ، « فتقوم على جزيرة قريبة جداً من الساحل . وهي مدينة عربية كثيرة البيوت الجميلة المبنية بالحجارة والملاط . ولهذه البيوت نوافذ كثيرة تشبه النوافذ التي يتخذها البرتغاليون في بيوتهم . وشوارع المدينة منسقة تنسيقاً جيداً وأسقف البيوت مسطحة ، وأبوابها الخشبية جميلة النقش ، ممتازة الصنع . وتحيط بكلوة الجداول والبساتين وحدائق الفاكهة الكثيرة القنوات ، المترعة بالمياه الحلوة . وعليها ملك عربي . ويتجر أهلها مع سفالة ، فيأتون منها بالذهب ، ويوزعونه في جميع أنحاء البلاد العربية السعيدة[1] Arabia Felix ونحن نطلق عليها هذه التسمية منذ اليوم وان كانت تقع في الحبشة (افريقية) ، لأن الساحل كله آهل بالعرب ومساكنهم . . وفي هذه المدينة كمية عظيمة جداً من الذهب ، لأن السفن المتجهة إلى سفالة ، لا بد وأن تمر أولاً بها ، وعربها بعضهم من البيض وبعضهم من السود . وهم حسنو البزة . ولباسهم من الأقمشة الثمينة المصنوعة من الذهب والحرير والقطن ؛ وكذلك ثياب النساء اللواتي يستعملن مقادير كبيرة من الذهب والفضة على هيئة قلائد وأساور ودمالج ، ويكثرن من الأقراط الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة . وهم يتكلمون اللغة العربية ، ويتبعون شريعة القرآن ، ولهم إيمان عظيم بمحمد[2] .

وأما ممباسة فمدينة جميلة جداً ، وتشبه كلوة في تخطيطها وبنائها وسكانها » . وكانت تجارتها مزدهرة ، وميناؤها طيبة ، يرسو فيها دائماً ، عدد كبير من أنواع السفن الصغيرة المختلفة ، والمراكب الكبيرة ، سواء تلك التي تقصدها من سفالة ، أو تأتي إليها من كنباية وملندي ، أو تمر بها أثناء سفرها إلى جزيرة زنجبار . . . »[3] .

فما حاجتنا إذاً إلى أفريقية الغربية ، ولم تكن لها في ذلك التاريخ ، أية أهمية اقتصادية ، لا من الناحية التجارية ولا من الناحية الانتاجية على الاطلاق !

إن عدم استعمالنا للمحيط الأطلسي ، لم يكن عن جهل به ، أو عجز عن ارتياده ، وإنما لمعرفتنا بالأوضاع الإقتصادية في السواحل الأفريقية الجنوبية والغربية ولو تأتت للبرتغال الطرق التي تأتت لنا ، لما فكرت في سلوك المحيط الأطلسي يوماً من الأيام .

النصب التذكاريُّ

استشهد الدكتور أنور عبد العليم ، دعماً لمزاعم فران عن قيادة أحمد بن ماجد لسفينة فاسكو دي گاما ، من ملندي إلى كليكوت ، بنصب تذكاري يقال أن حكومة البرتغال أقامته مؤخراً في ميناء ملندي ، تخليداً لتلك المناسبة ، وذكر أن أستاذاً في جامعة شرقي أفريقية أخبره بذلك ، وأطلعه على صورة فوتوغرافية للنصب المذكور ، عام ١٩٦٦ م .

ونظن أن الأمر تشابه على الأستاذ الأفريقي ، وان النصب الذي تحدث عنه لم يكن لأحمد بن ماجد ، ولم تقمه حكومة البرتغال : وإنما هو لعيسى بن طريف ، شيخ قبيلة آل بن علي ، البحرانية - القطرية ، « الذي فتح بمباسة [ممباسة] [١٨٣٦ - ١٨٣٩ م] من جنوب [شرق] افريقية مع عشيرته (آل بن علي) مساعدة حاكم مسقط وزنجبار ، السيد سعيد بن سلطان آل أبي سعيد »[4] [١٧٩١ - ١٨٤٤ م] ؛ وان ذلك النصب أقامته حكومة زنجبار العربية العمانية ، وليس البرتغال التي كانت قد طردت نهائياً من جميع الأراضي الواقعة في الشمال من موزمبيق ، على يد الأسطول العماني فيما بين عامي ١٦٩٦ و١٦٩٨ م ، في أيام الامام سيف بن سلطان قيد الأرض اليعربي ، أمام عمان وانقطعت بذلك صلتها بتلك البلاد .

إن لدينا في دبي عدداً كبيراً من عرب افريقية الشرقية ، وبينهم خريجو جامعات ، وحملة شهادات عليا ، ويعرفون عن أحمد بن ماجد ما يعرفه أي مثقف عنه . وقد رجعنا إليهم ، وبعضهم حديثو عهد بكينيا ، فلم يعرف أحد منهم شيئاً عن ذلك النصب ومع ذلك ، وحتى ولو صحت رواية الأستاذ الافريقي ، فيبقى أن نسأل عن الأسس التاريخية ، وعن الوثائق الثابتة ، التي اعتمدت عليها حكومة البرتغال في إقامة ذلك النصب ، فقد تكون إقامته اعتماداً على مزاعم فرّان .

السيد أحمد الصافي النجفي

ولد في النجف سنة ١٣١٤ وتوفي في بغداد عن عمر ناهز الثمانين ودفن في النجف . نشأ في النجف وفيها درس . ولما احتل الإنكليز العراق في نهاية الحرب العالمية الأولى وثارت النجف ثورتها الأولى عليهم ، وشنق الانكليز

(١) نفس التسمية التي أطلقها الكتاب اليونان والرومان على اليمن .
(٢) The Book of Barbosa, pp. 17 - 8.
(٣) Ibid. P. 19 - 20.
(٤) الشيخ خليفة ابن حمد النبهاني ، تاريخ البحرين ، ص ١٦٢ ؛ انظر كذلك لوريمر . دليل الخليج ، الترجمة العربية ، حكومة قطر ، ص ٧٠١ .

من شنقوا من النجفيين وسجنوا من سجنوا خاف المترجم على نفسه فهاجر إلى إيران وبقي في عاصمتها طهران ثماني سنين اتقن فيها اللغة الفارسية ودرس آدابها ، ثم ترجم إلى اللغة العربية رباعيات الخيّام ، فكانت ترجمته لها أفضل الترجمات .

وبعد قيام الحكم الوطني في العراق واستقراره عاد إلى النجف سنة ١٣٤٦ . وفي سنة ١٣٤٨ ساءت صحته فآثر السفر إلى سوريا ولبنان للإصطياف والاستشفاء ، فكان أن استقر في دمشق متنقلاً أحياناً بينها وبين وبيروت وغيرها من البلدات اللبنانية ، وطبع خلال ذلك رباعيات الخيام المعربة فلاقت اقبالاً واشتهر هو في الأوساط الأدبية ولقي فيها تقديراً ، وطبع عدة دواوين صغيرة .

وكان يعيش حياة بسيطة في مسكنه ومأكله وملبسه ، حتى كانت أحداث سنة ١٩٧٥ م في لبنان وامتدت حربها وطالت ، فاصيب مرة برصاصة طائشة كادت تقضي عليه وحيداً ، وكان قد صار شبه أعمى فآثر العودة إلى بغداد حيث عني به أحد ارحامه فنزل منزله حتى وفاته .

شعره

قال يصف حال العراق بعد الاحتلال الإنكليزي :

ما للفرات يسيل عذباً سائغاً ... عجباً وشرب بني الفرات اجاج
الفقر أحدق في بنيه وإنما ... ماء الفرات العسجد الوهّاج
جاءته حوت البحر ضامئة له ... أو ما كفاها بحرها العجاج
النفط شبَّ بجوفه ناراً فهل ... يطفي سناها ماؤنا النجاج
النفط يجري في العراق ومالنا ... ليلاً سوى ضوء النجوم سراج
قد أثقلوه من القيود برهفٍ ... وأحاط فيه من العداة سياج
زعموه مختاراً وقد وضعت له ... تحت الصوارم والقنا أوداج
أيكون ذا رشد بعقد عهودهم ... وبغير ذاك لقيّم يحتاج
نمُّ الخداع بما تكن صدورهم ... إن الخداع لدى اللبيب زجاج
سروا العراق فكم فدينا آنفاً ... عنه فهل لأسيرنا افراج
أن الأدلة ليس تقرن طامعاً ... حتى يقرّن بالدليل هياج
أضحى عراقي للمطامع كعبة ... فيها لمختلف الورى حجاج
لم ترحل الأفواج خصماً حله ... إلا دهته غيره أفواج
حتى النعاج طمعن في استعماره ... ما حال من يطمعن فيه نعاج
داء المطامع إن تأصّل لم يفد ... فيه سوى قطع الوريد علاج
طعنوا فؤادك في الصميم ولم تهج ... فبأيّ شيء يا هزبر تهاج
ما صفقت أمواج نهرك عن هنا ... هزّاً عليك تصفق الأمواج
لا يعرفونك أن حقولك أجدبت ... بل يعرفونك إذ يحين خراج
كم من عدوّ بالتجنس داخل ... بحشى العراق وحكمه الاخراج
كثر الخليط به فان لم يبتعد ... أخلاطه لم يشف منه مزاج
سوق السياسة كم تروج وهل ترى ... فيه لسوق التضحيات رواج
لا يستقر على السياسة مبدأ ... إن السياسة زئبق رجراج
النبت صوح بالعراق وبدلت ... بالفقر منه تلكم الأفواج
والنهر يجري كاللجين وحوله ... الأرض ترب والسماء عجاج
والجهل زوّج بالنفاق فأولدا ... بؤساً فبئس العرس والانتاج
لا تيأسن من اللجاج فإنما ... سبل النجاح شجاعة ولجاج
الغرب سار وما عرفنا قصده ... ولنا على آثاره أدراج
خير المدارس ما تخرّج فتية ... ما بينها الحدّاد والنسّاج
لا ما تخرّج معشراً كل لدى ... توظيفه لتذبذب محتاج

وقال يخاطب الفلاح العراقي :

رفقاً بنفسك أيها الفلاح ... تسعى وسعيك ليس فيه فلاح
لك في الصباح على عنائك غدوة ... وعلى الطوى لك في المساء رواح
هذي الجراح براحتيك عميقة ... ونظيرها لك في الفؤاد جراح
في الليل بيتك مثل دهرك مظلم ... ما فيه لا شمع ولا مصباح
فيخرُّ سقفك ان همت عين السماء ... ويطير كوخك إذ تهب رياح
حتى الحمَام عليك رقّ بدوحه ... فله بحقيلك رنة ونواح
هذي ديونك لم تسدد بعضها ... عجزاً فكيف تسدّد الأرباح
بغضون وجهك للمشقة أسطر ... وعلى جبينك للشقا ألواح
عرق الحياة يسيل منك لثالثاً ... فيزان منها للغنيّ وشاح
أتصد جيش الطامعين ولم يكن ... لك في الدفاع سوى الصياح سلاح
قد كان يجديك الصياح لديهم ... لو فجّر الصخر الأصم صياح
يتنازعون على امتلاكك بينهم ... ولهم عليك تشاجر وكفاح
كم دارت الأقداح بينهم ولم ... تملأ بغير دموعك الأقداح
حسب الولاة الحاكمون على القرى ... أن ثم أجساد ولا أرواح
كيف التفاهم بين ذينك نائح ... يشكو العذاب وسامع مرتاح
قد أنكروا البؤس الذي بك محدق ... أفينكرون الحق وهو صراح
عجباً أيشكو بؤس سكان القرى ... إلا وجوه كالصفيح وقاح
يا غارس الشجر المؤمّل نفعه ... دعه فإن ثماره الأتراح
أقلعه فالثمر اللذيذ محرّم ... للغارسين وللقويّ مباح
أصبحت تورثك الحقول أسى فما ... يهتاج أنسك نشرها الفيّاح
ترتاع من مرأى النخيل كأنما ... سعف النخيل أسنّة ورماح
يا واهب الخير الجزيل لشعبه ... أكذا يجازي بالعقاب سماح
أفنت حقولك آفة أرضية ... عبثت بها وشعارها الإصلاح
طير السعادة طار عنك محلقاً ... وعلى ولاتك رفّ منه جناح
قد أقسم البؤس الذي بك نازل ... ان لا تمرّ بدارك الأفراح
تقضي حياتك بالعناء ولم تكن ... في غير أيام السقام تراح
سرّ ببؤسك فاضح لذوي الغنى ... لو أن سرّك في البلاد يباح
حتام يا هذا لسانك ألكن ... وإلى م ألسنة الطغاة فصاح
كل الجناح على الضعيف إذا عدا ... أما القوي فما عليه جناح
با ريف ان كتاب بؤسك مشكل ... يعيي بحلّ رموزه الشرّاح
أطيار أرضك غالها باز العدى ... وعداً على أسماكك التمساح
الورد قد خنقته أشواك الربى ... ظلماً وفرّ البلبل الصدّاح
أفرات مالك شرب أهلك آجن ... رنق وشرب ولاة أمرك راح
صرنا كآلات بكفّ عدوّنا ... فبلادنا بسيوفنا تجتاح

وقال :

جرس النهضة قد دقّ فلم ... نتيقظ حين دقّ الجرس
سرق الطامع أبهى مجدنا ... ومضى يعدو فأين العسس
قد رقدنا أملاً في حرس ... ولقد نمنا ونام الحرس

سهروا في أول الليل ومذ ... نهض السارق يسعى نعسوا
قد حصدنا الشوك مما زرعوا ... وجنينا المرّ مما غرسوا
باسم هذا الشعب نالوا ثروة ... ثم باعوا الشعب لما أفلسوا
كرماء لم يردّوا طامعاً ... وأجابوا كل من يلتمس
كم قشور ما ترى لباً بها ... لا يغرّنك هذي الأرؤس
قرروا نصرك لما اجتمعوا ... وعلى سحقك فض المجلس
لم تراقب فرساً اركضته ... ثم ألقاك وفرّ الفرس
مرضاء نقهوا من علةٍ ... فعرتهم نهمة فانتكسوا
أخذوا رأي شياطين لهم ... همسوا في أذنهم ما همسوا
ما أرى المجلس إلا حاكياً ... صوته عن مجلس منعكس
ضمّ آلات بسلك وصلت ... فإذا حرك يوماً تنبس
إن دعاها لدفاع شعبها ... رجفت ثم اعتراها الخرس
أصبحت ترساً عليها طعننا ... واختفى من خلفها المفترس
تحسب الحزم رضى اعدائها ... ومن الذلة لا تحترس
يطمع الظالم في كل امرء ... أن يلن منه لديه الملمس
ما عرفنا سهونا إذ ضحكوا ... وعرفنا السهو لما عبسوا
اخرسوا الشعب لساناً فغدا ... بالشفا ينطق هذا الأخرس
إن صمت الحر كالحبس له ... فإذا فاه بأمر يحبس

* * *

نسمة الاخلاص هي نحونا ... فلقد ضاق علينا النفس
هل نرى يوماً سنا حريّة ... فلقد ساد علينا الغلس
في ظلام الشرق نار لمعت ... وعلى الغرب نهار مشمس
ان ضوء النار يطفي عاجلاً ... هل لنا من ضوء شمس قبس
لا أضاءت في دجانا شمعة ... نورها من خصمنا مقتبس

* * *

لا ترم أن ترتقي الاخلاص في ... أمة يرقى بها المختلس
تغسل الأوساخ من ثوب الفتى ... وبثوب النفس يبقى الدنس

وقال :

ان الشعوب إذا ما كان جوهرها ... الماس صلداً فلا تخشى لظى الفتن
فالنار تحرق ما في التبر من خشب ... والخطب يغسل ما في النفس من درن
والكون بحرمتي أمواجه التطمت ... فليس يحطم إلا واهي السفن
فدع سكوتك فالحاكي بنغمته ... ينبيك أن الحجى ينقاد للسنن
لا تنتظر أن يرد الحق منك أذىً ... فالحق في محبس القانون والسنن
الدهر يملي دروساً في حوادثه ... للناس والخطب فيها خير ممتحن
فالنار تتلو اصطدام الزند في حجر ... والعزم يتلو اصطدام النفس بالمحن
الضغط يجمع منّا كل مفترق ... والضغط يوقظ منّا كل ذي وسن
لا تشكو للعدل ضيماً واشكه لظباً ... فالعدل أصبح في الدنيا بلا اذن
ما في المدينة من عدل تلوذ به ... فالعدل فرّ إلى الصحراء من المدن
لا تنتظر أن يرد الحق منك أذىً ... فالحق في محبس القانون والسنن
ضعف الخراف دعى ذئب الفلاة لها ... فالذنب للضعف ليت الضعف لم يكن

* * *

يا من جهلت من الأوطان قيمتها ... ادخل حمى الليث تعرف قيمة الوطن
حتى الثعالب تحمي عن مغائرها ... والطير يدفع مهتاجاً عن الوكن
يا خائناً لبلاد قد نشأت بها ... ما خنت بالأرض بل بالأهل والسكن
ما ذقت إذ خنت للاخلاص لذته ... ومن يذق لذة الاخلاص لم يخن
المال صادك للأعداء لا شبك ... والحب علة صيد الطائر الفطن
إن كان ديناً ولوع المرء في وطن ... فقد كفرت به يا عابد الوثن
حتام تعلن اخلاصاً لتخدعنا ... والسرّ ينقض ما تبديه في العلن
كم أوجد الخصم من ثلم بسوركم ... وأنتم توسعون الثلم بالإحن
من مات روحاً فلا تحسب ملابسه ... مهما تنوعن أزياءً سوى كفن
يسعى العدوّ لنزع الروح من وطن ... ماذا انتفاعي بعد الروح بالوطن
كم قدسها مستشار وهو مؤتمن ... فكيف في - مستشار - غير مؤتمن
لكل غال عزيز قدروا ثمناً ... ولم يقدر لغالي العزّ من ثمن
افتح طريقك بالبيض الرقاق وسر ... وإن عجزت فخل الليث للسجن
فالورق تشكو هموماً وهي مطلقة ... والصقر في الأسر لا يشكو من الحزن

أحمد بن عبد الله أبو العلاء المعري :

مرت ترجمته في مكانها ، ومرت دراسات عنه في المجلد الثاني من (المستدركات) ، كما مرت في المجلد الثالث دراسة عن أوجه التشابه والإختلاف بين (غفران) أبي العلاء و (كوميديا) دانتي . وننشر هنا دراسة عن علاقة (الكوميديا) بما سمي رسالة (المعراج) الأندلسية ، بما لذلك كله من ارتباط برسالة الغفران :

وهي بقلم الدكتور نذير العظمة :

١ - مقدمة :

في مؤتمر جمعية الإستشراق الأميركية المنعقد في جامعة جنوب كاليفورنيا بتاريخ ٢ - ٣ نيسان ١٩٧٩ كنت ألقي كلمة عن رسالة الغفران وأثرها في الأدب العربي الحديث ، وكنت قد ألزمت نفسي ألا أخرج عن دائرة البحث التي حددتها ألا وهي مؤثرات الرسالة في الأدب الحديث ، وتو انتهائي من القاء الكلمة جاء دور الأسئلة والأجوبة ، استوقفني سؤال منها جاء بصيغة التقرير : طبعاً أنت واع لمؤثرات رسالة الغفران على الأدب الغربي وخاصة الكوميديا الإلهية ؟! مشيراً إلى دراسة آسين بلاسيوس في هذا الخصوص التي تناولت مؤثرات المصادر الإسلامية في الكوميديا وخاصة الرسالة والمعراج وصوره الكثيرة التي لم ينحصر أثرها في دوائر الآداب العربية والفارسية والتركية بل تعدتها لتقترن بنشوء الأدب الأوربي في عصر النهضة وبزوغه وخاصة الكوميديا الإلهية لدانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١) الأمر الذي يطرحه بلاسيوس في كتاب مستقل اعتمدنا هنا ترجمته الإنجليزية في هذه الدراسة سنتناول مصادر جديدة للبحث لم يعرفها بلاسيوس رغم أنها تؤيد أطروحته ومقولته ، أما لأنها لم تنشر في عهده أو لم تكتشف . ومن المؤسف ألا تنقل القضية التي طرحها بلاسيوس في كتابه الإسلام والكوميديا الإلهية إلى القارىء العربي نقلاً موضوعياً أميناً فلم يترجم الكتاب إلى اللغة العربية . وعلق عليه تعليقات مبتسرة مجتزاة عتمت على طرحه العلمي وأضاعت على القارىء فرصة المعرفة السليمة .

يتسم عرض بلاسيوس بفهم القضية فهماً شمولياً فهي ليست قضية شكلية لمؤثر ومتأثر بقدر ما هي تعبير عن تمازج حضاري أوسع تتناول كل الأشكال الدينية والأدبية والصوفية لنوع المعراج وتسربها إلى أوروبا النهضية

ومظاهر تـأثيرهـا في الكوميـديا الإلهيـة مضمونـاً وشكلاً ، رمـزاً ورؤيا صـوراً ودلالات في مقـابلات ومقـارنات رائعـة فرضت سلطانها عـلى ثقـافـة القـرن العشرين لأكثر من ستة عقود وما زالت .

لقد استنفر الكتاب عدداً غير يسير من الاستجابات على أطروحتـه التي ترسخت مع مرور الزمن وأيدتها حركة البحث المتأخر .

وقد صنف بلاسيوس روايات المعراج ومطبوعاته والمؤلفات التي تتصـل بهـذا النوع الأدبي الفـذ ، وأحصى كل مـا وقعت يـده عليـه حتى زمن تـأليف الكتاب ونشره (١٩ ـ ١٩١٨ م) ورتب ذلك في دوائر ثلاث :

الأولى : دائرة الإسراء .

الثانية : دائرة المعراج .

الثالثة : دائرة تدمج الدائـرتين الأولى والثـانية معـاً ، مبتدئـاً بالقـرآن فالسنة فالقصص الإسلامي المتعلق بها منتقلاً إلى الأشكال الأدبية التي تتصـل بـالقصة وجـذورها في الفلسفـة الإسلاميـة وتشكلها تشكـلاً جديـداً في إطار الرموز الصوفية .

وقد استوفى المؤلف مصادره المتنوعة وتناولها تناولاً مقارناً يعتبـر الأول في هذا الباب .

ولما كانت الأوساط الأدبية عندنا لم تتعرف حقيقة على المعراج كنوع أدبي متميـز ، ومحصولهـا من البحث في هذا الإتجـاه فقير وأنها واقعـة تحت سيـطرة العصرنـة والتحـديث ومـا يستتبـع ذلـك من تصنيف ، فلم يحظ هـذا النـوع باهتماماتها وأدرجتـه في باب القصص الـديني وأهملته جـاهلة أهميته الفلسفيـة والفكرية وخطورته الأدبية .

لذلك تشوهت القضية التي تناولها بلاسيوس في كتابه وانتقل التركيز من الأصل وهو المعـراج إلى الفرع كـرسالـة الغفران ، وأخـرجت الأطروحـة من محورها الأساسي وتشتت في ذهن القارىء العربي على الأقل .

إن (المعراج) هو النموذج الأصل للرسالة ، احتـذاه المعري واستعـار إطاره وتركيبه ليطرح من خلالها نقده الفكري والأدبي والإجتماعي .

وليس مبالغة القول : إن المطبعة العربية لم تطبع كتابـاً واحداً للمعـراج يمكن أن يأنس له القارىء العربي وتركت طبعات الرصيف الصفراء تنتظر من ينفض عنها الغبار وينقلها إلى دوائر الوعي .

ورغم أن آسـين بلاسيـوس قد أفـرد حيزاً خـاصاً في كتـابه (الإسـلام والكوميديا الإلهية) ناقش فيه مؤثرات (الرسالة) على (الكوميديا) في إطـار الفرضية والتخمين الذي يستند على المقـابلة والمقارنـة بين المـواضيع والأفكـار والصور والأساليب لكل من المؤلفين غير أنه لم يستطع أن يؤيد مقارناته المقنعة وتحليله الأدبي الآسر بالوثـائق الفعلية مفـترضاً أنـه لا بد للرسـالة وقـد سبقت الكوميديا بما لا يقل عن خمسة قرون من أن تتسلل إلى أوساط الثقافة الأوروبيـة النـاشئة بـدءاً من القرن الثـالث عشر عـبر الـوسـائط الحيـة الشفهيـة إن عـبر الأندلس أو صقلية وجنوب إيطاليـا أو الفترة الصليبيـة أو عبر تـرجمات مكثفـة لمصـادر تفسير القـرآن والسنة . ونحن مـع الأستـاذ عيسى النـاعـوري وبنت الشـاطىء من أن نقاط الالتقـاء بين (الـرسالـة) و (الكوميـديا) لا تتعـدى الإطار العام والحوار بين صاحب الرحلة وسكان الجحيم والجنة .

أضف إليه أن فلسفة كل من المعري ودانتي وخلفياتها ومزاجها تختلف اختلافاً أساسياً بل إنها ليتقاطعـان أيضاً في نـظرتيهما للوجـود والحياة والمـوت والعقائد الدينية .

٢ ـ الكوميديا وإشاراتها الإسلامية

الكوميديـا الإلهية هي ملحمـة شعريـة قصصية لمؤلفهـا دانتي الأجيري الذي كتبها في مطالع القرن الرابع عشر الميلادي ، وتتـألف هذه الملحمـة من ثـلاثة أقسـام : الأول الجحيم والثاني المطهر والثـالث الفـردوس ، وهي من ملاحم الرحـلات في العالم الآخر كالمعراج ورسالـة الغفران اللذين سبقـاها والفردوس المفقود لملتون .

وتعتـبر الكوميـديا الإلهيـة مع ملحمـة « أغنيـة رولان » نقـطة انـطلاق الآداب الأوربية الحديثة لتحولها عن التعبير باللاتينية إلى اللغات الرومانسية . وتكتسي الكـوميديـا الإلهية أهميـة خاصـة بالنسبـة لنـا نحن العـرب للعـلائق التاريخية والـموضوعيـة بينها وبـين قصص المعراج ، هـذه العلائق التي درسهـا آسين بلاسيـوس بالتفصيـل في كتاب بـالأسبانيـة نشره في مدريـد عام ١٩١٩ وترجم إلى عدد من اللغات الأوربية .

وللكوميديا مستويـات متعددة أدبيـة ودينية وفقهيـة ورمزيـة وحضاريـة وتصوفية . وتعتبر الكوميديا قصة رمزية Allegory لخبرة دانتي الروحية ومساره من عالم المادة إلى عـالم الروح وعـروجه من الجحيم إلى النعيم مـروراً بالـمطهر حيث تتطهر الأرواح من أدرانها وتستحق الإنتقال إلى النعمة الإلهية .

والـذي يؤكد إعجـاب دانتي بمآتي الحضـارة الإسلاميـة كونـه أحل ابن رشد وابن سينا في « الليمبو » كأعظم مفكري اليونان وفلاسفتهم لكونهما حازا على فضائل العقل وحرمانهما نعمة الروح فما هما في الجحيم ولا هما في الجنة بل في منزلة بين المنزلتين .

ويتنـاقض مـع هـذا التقـديـر الـذي يحمله دانتي لـلأخـلاق العـربيـة والإسـلامية وللخـدمات الفكـرية والحضـارية التي أداهـا العرب والمسلمـون للغرب مع موقفه من الإسلام كدين وعقيدة .

مهـما يكن فإن اهتـمام دانتي بالأفكـار والعقائـد والأخـلاق الإسـلاميـة وموقفه من رجالها سلباً أو إيجاباً يعكس لنا ولو بإيجاز معرفته الأكيدة بـالإسلام ومصادره الأساسية .

هذه الإشارات الرمزيـة التي لا يمكن أن تكون إشـارات عابـرة لمعرفـة سطحية .

٣ ـ مخطوطة المعراج الأندلسية والترجمة

كان الدانتيون يحتجون دائماً على نظرية المؤثرات العربية الإسلاميـة على شـاعرهـم بكـونه لا يعـرف اللغة العـربية ، فليس من المعقـول إذن أن يتأثـر بـالمعراج ومـا يتصل بـه من قصص ديني وصوفي وأدبي . وعـلى فرض أنـه قرأ بعض ترجمات القـرآن والسيرة إلى الـلاتينية ، فـما ورد فيهما من وصف النعيم والجحيم وما جاء في السيرة المترجمة من ذكر الاسراء والمعراج لا يشكل خلفيـة كافية أو أرضية صلبة لنظرية خطيرة كنظرية آسين بلاسيوس[1] .

لكن محاربة واقع التاريخ بالمـنطق لا يؤدي إلا إلى نتائج منطقيـة بعيدة

(1) Asin Palacios, Islam And The Divine Comedy, Translatel Byharold Sutherland N. Y. 1968. PP. 54 - 67.

عن الحقيقة والواقع الذي لا ينكره دارس منصف .

كانت العلوم الإسلامية تُدرَّس في مدارس - رعاها الفونسو العاشر (٨٤ - ١٢٢١) - للأسبان والأوروبيين والمسلمين الأندلسيين على حد سواء وقد استمر حكمه قرابة ثلث القرن (١٢٨٤ - ١٢٥٢) .

إن مؤسسة الترجمة التي رعاها هذا الملك الحكيم كانت قبلة أنظار المهتمين بفلسفة المسلمين وعلومهم وآدابهم . وتسرب هذه الترجمات إلى أوروبا وخاصة فرنسا وإيطاليا أصبح حقيقة واقعة كشفت عنها بحوث كثير من المستشرقين على اختلاف أجناسهم وحضاراتهم .

ونحن الآن على يقين من أن قصة كاملة من قصص المعراج وأكثرها سعة وتفصيلاً قد ترجمت إلى اللغات الكاستيلية الأسبانية واللاتينية والفرنسية في وقت واحد من القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٦٤ م) أي بما لا يقل عن أربعين سنة من إنجاز دانتي الألجيري للخطة العامة للقسم الأول من كوميدياه الإلهية (١٣٠٥ م)[(١)] .

كما أن بعض المترجمين الذين تعاونوا مع الفونسو المار ذكره كانوا من الطليان وأن برونيتو لاتيني صديق دانتي وأستاذه ومستشاره الأدبي الذي تحلى بثقافة موسوعية كان سفيراً في كاستيل (١٢٦٠ م) حوالي التاريخ الذي ترجمت فيه النسخة الأندلسية للمعراج إلى اللغات الثلاث المذكورة آنفاً . وكان مستقره في طليطلة وأشبيلية حيث تمركزت مؤسسات التربية والتعليم والثقافة والترجمة وقد لعب العرب دور المؤثر والمحرض أن بالتماس المباشر أو عبر الترجمة ، فتلقف منهم الطليان والأسبان والفرنسيون علوم الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والكيمياء وغيرها من العلوم .

وإذا كان يسهل على الباحث أن يحدد المؤثرات في تلك العلوم ويحدد المصادر التي ترجمت إلى اللغات اللاتينية والرومانسية فإنه من الصعوبة بمكان أن يحسم ويقرر في قضية المؤثرات في العلوم الإنسانية والآداب لقلة الترجمات منها بالنسبة إلى الترجمات العلمية والفلسفية ، إلا أنه واضح في أذهان المستشرقين أن القرآن والسيرة وجزءاً هاماً من الحديث قد نقلت إلى اللاتينية منذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي . والخلاف بين الدانتيين وأخصامهم لا يتناول المؤثرات العلمية والفلسفية الإسلامية على الحضارة الغربية بقدر ما يتناول قضية الكوميديا الإلهية بالذات ومصادرها والمؤثرات الإسلامية عليها وبكونها عملاً شعرياً إبداعياً فإن مسألة الحسم فيها أكثر صعوبة ولكونها أيضاً تعتبر نقطة إنطلاق الآداب الأوروبية الحديثة في عصر النهضة واستقلالها عن اللاتينية وتوسل الرومانسية في التعبير بدلاً عنها .

مهما يكن ، لقد أصبح ثابتاً لدى الباحثين المنصفين من المستشرقين أن قصص المعراج بالذات لم ينتقل إلى الغرب بالوسائط الحية أو بترجمات مجتزأة تتضمن خلاصات عنها كتفاسير القرآن والسيرة وكتب الحديث والتاريخ فحسب بل أن هناك ترجمة فعلية لما وصفناه بالنسخة الأندلسية لقصة المعراج إلى اللغات الفرنسية واللاتينية والأسبانية الكاستيلية) وهي من أطول القصص وأكثرها اسهاباً وتفصيلاً وأحسنها بناء وتركيباً وأغناها بصور الضوء والعطر واللون وألصقها بالتعبير الأدبي المبدع وأبعدها عن الفقه وعلوم التفسير والحديث مع حسن الإقتباس والإستشهاد من القرآن والسنة وتنزهها عن النزعة التعليمية وشفافية رموزها وإشاراتها .

وقد كنت إلى أمد قريب غير مقتنع بنظرية بلاسيوس حتى وقعت على هذه الترجمة لأنها تشكل في نظري برهاناً وثائقياً ثابتاً كانت هذه النظرية بأمس الحاجة إليه .

وقد نشر هذه الترجمة الثلاثية وحققها مع مقدمة مستفيضة وتعليقات بالأسبانية خوزي مونوز سندينو Jose, Munos Sendino في مدريد عام (٤٩ - ١٩٤٧) بواسطة المديرية العامة للعلاقات الثقافية ورعاية وزارة الخارجية في كتاب تضمن دراسة مسهبة لهذه المخطوطة بالأسبانية وتعليقاً على ترجماتها الثلاث ، وينوف الكتاب على (٦٦٠) صفحة من القطع الكبير .

ومن حسن الحظ أن الترجمة الفرنسية كانت متضمنة في هذا العمل النفيس فاعتمدت عليها اعتماداً أساسياً رغم أن فرنسيتها هي فرنسية القرن الثالث عشر فذللت صعوبتها بالجهد والصبر المتواصلين وقرأت المخطوطة قراءة كاملة واكتفيت هنا باختزال أبوابها العامة آملاً أن يعثر الباحثون على أصل المخطوطة العربي أو يترجمها المهتمون إلى اللغة الأم . أما الأسبانية فاضطررت إلى الإلمام بها لاتمام كتابة هذه الدراسة ، ولفهم جزء غير يسير من مداخلات الأستاذ سندينو وتعليقاته وشروحه آملاً ممن يجيد الأسبانية من العلماء العرب أن يترجم هذه الدراسة النفيسة ودراسة آسين بلاسيوس على السواء لما لهما من أهمية تتصل بتراثهم وأدبهم .

٤ - أبواب مخطوطة المعراج الأندلسية وأقسامها العامة

الفصل الأول : الكلام عن مجيء الملك جبرائيل إلى محمد (ص) وما قاله له .

الفصل الثاني : الكلام عن الدابة التي قادها جبرائيل إلى محمد (ص) وأسرى عليها إلى المسجد الأقصى في القدس .

الفصل الثالث : الكلام عن الأصوات التي نادت محمد (ص) وما قاله جبرائيل عنها له .

الفصل الرابع : الكلام عما فعله محمد (ص) في المسجد ووجده قبل أن يؤدي صلاته ويتلوها .

الفصل الخامس : الكلام عن شكل المعراج الذي عرج عليه محمد (ص) إلى السماء .

الفصل السادس : الكلام عن صعود محمد (ص) المعراج ورؤيته ملاكاً عظيماً في الفضاء وعما قاله لمحمد عنه وعن أمته .

الفصل السابع : الكلام عما سمعه محمد (ص) من الملاك قبل أن يرى ويسمع ملاك الموت وعن الأمور التي سأل عنها وأجابته عليها .

الفصل الثامن : الكلام عن ملاك الموت وكيف يقبض أرواح النفوس الصالحة والشريرة .

الفصل التاسع : الكلام عن محمد (ص) ورؤيته ملاكاً على هيئة ديك

---

(١) La Escalade Mahoma, Traduccion Delarabe
Al Castellano, Latın Y. Fraences, Ordenda Por
Al Fonso x El Sabio, Edicion, Introduc cion - y Notes por Jose Munoz Sendıno
Madrid 1949.
أنظر أيضاً Palacios ، الهامش رقم ١ .

وملاكاً آخر نصفه من نار ونصفه الآخر من ثلج وعما أوكل إليه .

الفصل العاشر : الكلام عن محمد (ص) ورؤيته خازن الجحيم وعما قاله له عن أمته .

الفصل الحادي عشر : الكلام عن محمد (ص) وسؤاله مالك خازن النار وعن الأمور الكثيرة التي قالها له وكيفية الجواب عليها .

الفصل الثاني عشر : الكلام عن محمد (ص) ودخوله السماء الأولى وما رآه فيها .

الفصل الثالث عشر : الكلام عن السماء الثانية .

الفصل الرابع عشر : الكلام عن السماء الثالثة .

الفصل الخامس عشر : الكلام عن السماء الرابعة .

الفصل السادس عشر : الكلام عن السماء الخامسة .

الفصل السابع عشر : الكلام عن السماء السادسة .

الفصل الثامن عشر : الكلام عن السماء السابعة .

الفصل التاسع عشر : الكلام عن السماء الثامنة .

الفصل العشرون : الكلام عن خطاب الله تعالى لمحمد (ص) ورؤيته للعرش .

الفصل الواحد والعشرون : الكلام عن محمد (ص) ورؤيته للملائكة الذين يحملون عرش الله تعالى .

الفصل الثاني والعشرون : الكلام عن رؤية محمد وأصناف الملائكة في السماء أو حيث العرش الذي تكلم عنه فيما سبق .

الفصل الثالث والعشرون : الكلام عن محمد (ص) ورؤيته ملائكة وعن كيفية صورهم .

الفصل الرابع والعشرون : الكلام عن محمد (ص) بين الملائكة ورؤيته أنواع الأنهار المختلفة وجبال الثلج .

الفصل الخامس والعشرون : الكلام عن محمد (ص) ورؤيته بحراً عظيماً حيث الملائكة والسماء المحاطة بالأنهار .

الفصل السادس والعشرون : الكلام عن الله تعالى وخلقه كائنات كثيرة وأنواعاً مختلفة من المخلوقات .

الفصل السابع والعشرون : الكلام عن أرض بيضاء خلقها الله تعالى لأوليائه ومخلوقات فيها .

الفصل الثامن والعشرون : الكلام عن محمد (ص) كيف رأى في لحظة واحدة كل ما لم يره من قبل .

الفصل التاسع والعشرون : الكلام عن محمد (ص) ورؤيته للديك وعما يفعله .

الفصل الثلاثون : الكلام عن محمد (ص) ورؤيته جدار الفردوس (الأعراف) ومما هو وكيفية المجيء إليه .

الفصل الواحد والثلاثون : الكلام عن محمد (ص) وسؤاله جبرائيل عن الفردوس المار ذكره وعن إجابته عليه .

الفصل الثاني والثلاثون : الكلام عن محمد (ص) وسؤاله جبرائيل عن المسافة بين السماء الأولى والأرض وأمور أخرى .

الفصل الثالث والثلاثون : الكلام عن الجنة حيث خلق الله آدم والأنهار التي تجري فيها .

الفصل الرابع والثلاثون : الكلام عن الجنات وعن أسماء كل منها ونعمها .

الفصل الخامس والثلاثون : الكلام عن الحور العين التي في الجنة المار ذكرها وعما تحسنه .

الفصل السادس والثلاثون : الكلام عن وصف الفردوس المسمى بجنة النعيم .

الفصل السابع والثلاثون : الكلام عن مسرات ومحاسن جنة النعيم المار ذكرها .

الفصل الثامن والثلاثون : الكلام عما يصنعه أهل الجنة وعما يأكلونه .

الفصل التاسع والثلاثون : الكلام في وصف شجرة في الجنة اسمها طوبى .

الفصل الأربعون : الكلام عن شجرة أخرى من أشجار الفردوس التي حدثه عنها الملاك والنعم التي يسبغها الله .

الفصل الواحد والأربعون : الكلام عما يظهره الله تعالى لهم ويريه ويقوله ويعطيه .

الفصل الثاني والأربعون : الكلام عن كيفية ذهابهما إلى الجنة وكيف دخلاها .

الفصل الثالث والأربعون : الكلام عن أنهار وجبال وبساتين وعيون الجنة .

الفصل الرابع والأربعون : الكلام عن أشجار البساتين المار ذكرها وقصور وحور فيها .

الفصل الخامس والأربعون . الكلام عن محمد (ص) رؤيته رضوان حارس الجنة وعما قاله له وأبداه .

الفصل السادس والأربعون : الكلام عن نهر يتخلل الجنة جميعاً وقصور وحور عليه .

الفصل السابع والأربعون : الكلام عن الملائكة يدلون الحور العين على أزواجهن في الجنة .

الفصل الثامن والأربعون : الكلام عن شجرة من اللؤلؤ وعن عين تجري تحتها .

الفصل التاسع والأربعون : الكلام عن محمد (ص) وتلقيه القرآن من الله تعالى .

الفصل الخمسون : الكلام عن فرض الله تعالى الصلاة على محمد (ص) وتكليفه بها .

الفصل الواحد والخمسون : الكلام عن صلاة محمد لله تعالى وعلى الصيام الذي كلفه به وفرضه عليه .

الفصل الثاني والخمسون : الكلام عن الاقداح الأربعة التي قدمت لمحمد (ص) ليشربها وعن أهمية كلٍّ منها

الفصل الثالث والخمسون : الكلام عن ذهاب محمد (ص) إلى أسفل الجنة وعما رآه فيها .

الفصل الرابع والخمسون : الكلام عن زيارة محمد لأرض الجحيم الأولى وعما رآه فيها .

الفصل الخامس والخمسون : الكلام عن أرض الجحيم الثانية .

الفصل السادس والخمسون : الكلام عن أرض الجحيم الثالثة .

الفصل السابع والخمسون : الكلام عن أرض الجحيم الرابعة .

الفصل الثامن والخمسون : الكلام عن أرض الجحيم الخامسة .

الفصل التاسع والخمسون : الكلام عن أرض الجحيم السادسة .

الفصل الستون : الكلام عن أرض الجحيم السابعة .

الفصل الواحد والستون : الكلام بعد ذلك عن سهل كله من النار قرب الجحيم عن عذاب النار عندما يقترب يوم الحساب .

الفصل الثاني والستون : الكلام عن خلق الله تعالى (طبقات) أراضي الجحيم السبع التي سبق ذكرها وعن اسم كل منها .

الفصل الثالث والستون : الكلام عن محمد (ص) وسؤاله جبرائيل عن القدرة وعن الأمور التي في يوم الحساب وإجابته عليه .

الفصل الرابع والستون : الكلام عن سؤال آخر وجهه محمد (ص) إلى جبرائيل حول طبقات الجحيم السبع السابق ذكرها وإجابته عليه .

الفصل الخامس والستون : الكلام عن سيدنا تعالى وخلقه اللوح والقلم .

الفصل السادس والستون : الكلام عن كيفية جمعه للبشر في يوم الحساب وصفة حشرهم .

الفصل السابع والستون : الكلام عن يوم الحساب وقضاء الله تعالى .

الفصل الثامن والستون : الكلام عن محمد وسؤاله جبرائيل عن السموات والأراضي وأمور أخرى مرئية وغير مرئية وإجابته عليها .

الفصل التاسع والستون : الكلام عن محمد (ص) وسؤاله جبرائيل عن جبل (قاف) فيما إذا كان مأهولاً أم لا وعن أمور أخرى وإجابته على ذلك .

الفصل السبعون : الكلام عن هبات الله تعالى وقسمته لمخلوقاته .

الفصل الواحد والسبعون : الكلام عن محمد (ص) وزيارته الجحيم ببواباته وأشياء أخرى .

الفصل الثاني والسبعون : الكلام عن وصف جبرائيل لمحمد (ص) أنواع العذاب ومراتبه في الجحيم .

الفصل الثالث والسبعون : الكلام عن حيوان عجيب يجعله الله يسير أمامه في يوم الحساب .

الفصل الرابع والسبعون : الكلام عن محمد (ص) وسؤاله جبرائيل عن الحيوان السابق ذكره وإجابته على ذلك .

الفصل الخامس والسبعون : الكلام عن إجابة جبرائيل لمحمد (ص) عن سؤال سأله إياه عن يوم الحساب أكبير هو أم صغير .

الفصل السادس والسبعون : الكلام عن صفة السراط وما يجب على المرء لاجتيازه وواجبات المرور عليه .

الفصل السابع والسبعون : الكلام عن جبال حول السراط المار ذكره وأنهار من النار وأشياء أخرى كثيرة .

الفصل الثامن والسبعون : الكلام عن أمة محمد وكيف سيتفرق شملها وكيف ستجتاز حد السراط .

الفصل التاسع والسبعون : الكلام عن محمد (ص) ورؤيته أنواع العذاب المختلفة التي يعذب بها الخطاة في الجحيم .

الفصل الثمانون : الكلام عن جبرائيل يترك محمد (ص) ويودعه وعودته إلى منزله .

الفصل الواحد والثمانون : الكلام عن محمد (ص) ووصفه لبني قريش العجائب التي شاهدها .

الفصل الاثنان والثمانون : الكلام عن محمد (ص) يعدد كل الأمور التي رآها لبني قريش وتكذيبهم إياه .

الفصل الثالث والثمانون : الكلام عن تكذيب القريشيين لمحمد وسؤالهم إياه ليصف لهم القافلة .

الفصل الرابع والثمانون : الكلام عن محمد (ص) وإجابته على القريشيين وادعاءاتهم وقوله لهم الحقيقة .

الفصل الخامس والثمانون : الكلام عن تدوينه كل الأمور التي سبق ذكرها وهكذا ألف كتاب أسماه بالمعراج(١) .

٥ ـ بعض نقاط الإلتقاء بينها وبين الكوميديا

للذين يودون أن يتوسعوا في موضوع مؤثرات المصادر الإسلامية في ملحمة دانتي ليس لهم إلا أن يرجعوا إلى كتاب آسين بلاسيوس الذي أثبتت البحوث الحديثة صلب نظريته رغم الخلاف على جزء كبير من التفاصيل وهي أن شاعر النصرانية الأكبر مدين لهذه المصادر .

والأبحاث المقارنة اليوم لا تعنى بالمؤثر والمتأثر من الأدب تحت طائلة الأخذ أو النقل المباشر فالأواصر بينهما قد تقتصر على الإيحاءات الغامضة التي يوحيها مؤلف لمؤلف أو عمل أدبي على عمل أدبي آخر دون معرفة اللغة الأصلية بالضرورة ، وفي حال كهذه قد يكون التأثير أبلغ فعلاً وأعمق أثراً لأن المتأثر يذعن للتصورات والخيالات التي يثيرها هذا العمل أو ذلك في مناخات من الإيحاءات لا ترتبط عضوياً بالأصل المؤثر .

أو تتعدى علاقة المؤثر بالمتأثر إلى عناصرها بعينها من الأدبين أو المؤلفين أو العملين أو المدرستين أو العصرين كالموضوع والأسلوب وما يرافقهما من بنى فكرية ونفسية وفنية .

ورغم إصرار بلاسيوس على التفاصيل من حيث العلاقة بين ملحمة دانتي والمصادر الإسلامية فأنا أميل إلى الإعتقاد بأن المؤثرات الإسلامية تتناول التصور العام أكثر ما تتناول الجزئيات في ملحمة الشاعر الألجيري .

كما أعتقد أن هذا التصور انعكس أكثر ما انعكس في قسم الجحيم من

ملحمة الشاعر أما المطهر الذي يذكرنا بالاعراف فيكاد يكون رمزاً منفصلاً عن قصص المعراج وألصق بالمصادر القرآنية كالتفاسير وغيرها .

فالأعراف وهي جدران تفصل بين النار والجنة لا يمكن أن تشكل أصلاً لمفهوم المطهر ، كما أن « الموقف » الذي ينتظر فيه ابن القارح ستة أشهر ليدخل الجنة في رسالة الغفران لا يمكن أن يوحي بمفهوم المطهر أيضاً .

وأقرب شيء في نظرنا لهذا المفهوم من الناحية الفكرية والفلسفية لا من الناحية الفنية هو مفهوم المعتزلة من أن مرتكب الكبيرة هو في منزلة بين المنزلتين لا في الجنة ولا في النار حتى يحكم الله فيه يوم القيامة .

أما أن يكون دانتي قد ركب أقانيم « الاعراف » والمفهوم المعتزلي الفلسفي وظاهرة « الموقف » الفنية في رسالة المعري في كل واحد هو « المطهر » فهو أمر يستبعده البحث الرصين مع كونه ممكناً .

أما القسم الثالث والأخير من ملحمة دانتي وهو « الفردوس » فالمؤثرات تتناول البناء الفني والخيال العام لا المفهوم الروحي أو الفلسفي ، وأياماً كان الأمر أمر الجزئيات والتفاصيل وعناصر المؤثر والمتأثر فإن الكوميديا الإلهية ككل ولدت في مناخات الحضارة العربية ورحم آدابها مع كونها كائناً مستقلاً متميزاً يعبر عن تصور روحي مغاير للموت والحياة والعالم الآخر .

إن (المعراج) بتمايز أقسامه وتنوع نماذجه وكثرتها واستمراره كنوع أدبي قائم بذاته ودخوله في الطقوس الدينية والصوفية هو السابق ، هو النموذج للكوميديا الإلهية .

ويؤكد الأستاذ سنديتو على أهمية النسخة الأندلسية للمعراج وترجمتها ويستمر مستفيضاً بدقة وموضوعية على خطة بلاسيوس في الكشف عن التقابل بينها وبين الكوميديا الإلهية متوسلاً منهجه في تحليل الرموز والصور والأفكار ومقابلاتها في نص المعراج والكوميديا . نخص بالذكر منها الأمور الآتية :

أولاً : لقد قاد دانتي عبر رحلته كل من « فرجيل » و « ماتيلد » و « بياتريس » و « سان برناردو » بالتتابع وقد اسبغ الشاعر على كل من هذه الشخصيات أهمية خاصة ورمز بها إلى مستوى من مستويات الروح ففرجيل يمثل التراث كما يمثل العقل وماتيلدا وهي صديقة بياتريس حبيبة دانتي تمثل الحياة المجسدة الحية وبياتريس تمثل الحب الإلهي وسان برناردو يمثل النعمة السماوية وهكذا .

أما الرسول العربي فقد قاده في صعوده كل من جبريل ملك الوحي معرجين إلى عزرائيل ملك الموت ومالك خازن الجحيم ورضوان حارس الجنة . ولا يخفى ما بين هذه الشخصيات وشخصيات دانتي من تقابل في الرؤيا والرمز .

ثانياً : يطول بنا الكلام إذا أردنا الوقوف عند الصور الجزئية التي تناولها سنديتو بالتحليل والمقارنة لذلك نكتفي منها بالإلماع إلى صورة النسر العظيم الذي يتشكل من أفواج من الملائكة في ملحمة دانتي ، وهي من أعظم الصور الإبداعية التي خبلت عقول الدانتيين . هذه الصورة بالذات تذكر كلا من بلاسيوس وسنديتو بصورة ديك العرش في المعراج ، رأسه تحت العرش وقدماه في الأرض السابعة ، وهو ملاك ضخم على صورة الديك يسبح الله في ضوء الألوهة ويصيح فتردد معه ديوك الأرض وخلائقها في السموات والأرض هذا التسبيح جوقة واحدة .

ثالثاً : الأمر الذي استرعى انتباه سنديتو وادهشنا هو أن كثيراً من أوصاف الجبال والوديان والأنهار في النسخة الأندلسية المترجمة للمعراج وتركيبها الطوبوغرافي وبنية التصور العام لا يتشابه مع الكوميديا الإلهية فحسب بل يكاد يتطابق في أقسام كثيرة منها .

وتتمايز نسخة المعراج الأندلسية عن باقي المعاريج بكونها تناسب بين الصعود في السماوات السبع ، مخصصة سماء ثامنة منفصلة لله العلي الأعلى ، والهبوط في الأرضين كجزء من الرحلة إلى النار .

فالسماء الأولى وهي من الحديد هي كرسي يحيى وعيسى .

والسماء الثانية من الرصاص وهي ليوسف .

والسماء الثالثة من الفضة وهي كرسي الياس وإدريس .

والسماء الرابعة من ذهب وهي لهارون .

والسماء الخامسة من لؤلؤ وهي لموسى .

والسماء السادسة من فيروز أخضر وهي لإبراهيم .

والسماء السابعة من عقيق فهي لآدم .

أما السماء الثامنة فهي من الياقوت وهي كرسي العرشي .

ويقابلها طبقات الأراضين السبع في الهبوط إلى الجحيم :

الأرض الأولى وهي أرض الجلادة .

والأرض الثانية وهي الأرض العرقاء أو الأرقى «Arka» .

والأرض الثالثة وهي الأرض الخرباء .

والأرض الرابعة هي أرض الملطع .

والأرض الخامسة وهي الأرض الزاهقة .

والأرض السادسة وهي الأرض الحاجب .

والأرض السابعة وهي الأرض الفلق .

وكذلك تتناسب وتتقابل أبواب الجحيم مع بوابات النعيم تقابلاً ملحوظاً أما أبواب الجحيم فهي سبع وتجري كما يلي :

باب جهنم ، وباب اللذعة وباب الحطمة وباب الظاهر أو الزائر ثم باب سقر وباب الجحيم وباب الكاوية .

تقابلها فراديس النعيم السبع ، وهي كما يلي :

فردوس عدن ، فردوس الجلال ، فردوس السلام ، فردوس المأوى ، فردوس الخلد ، دار الفردوس ، النعيم .

فالتصور العام والخيال المعماري لكل من النسخة الأندلسية للمعراج والكوميديا الإلهية يتلاقيان في العديد من سماتها البارزة أن نحن تجنبنا الإغراق في التفاصيل والأمور الجزئية .

ذلك كله كان في متناول المتنور الأوروبي لا عبر الوسائط الحية والشفهية بل باللغات المكتوبة عبر الترجمة التي رعتها المؤسسات العلمية للدولة فكانت هذه الترجمة المثلثة البركات .

أما أن يريد الدانتيون التمحل في وصول أو عدم وصول هذه الترجمة إلى شاعرهم فهو أمر تنفيه القرائن . ان النسخة الأندلسية للمعراج بما تحتويه من نقاط التقاء مع الكوميديا الإلهية في البناء العام أو الشخصيات والتصوير الفني

وكون هذه النسخة متداولة في دور العلم باللغات الحية للثقافة الأوروبية في مطالع عصر النهضة لا تدعم نظرية بلاسيوس فحسب بل بحسمها حسماً أكيداً في صالح المؤثرات الإسلامية . وللأستاذ سنديو الشكر الجزيل على جهوده العلمية الرائعة لا على نشره هذه المخطوطة النفسية La Escala de Manama فحسب بل على دراسته المصاحبة ومداخلاته ومقدماته وحواشيه وتوثيقه التي لا تقل قيمة عن اسهام بلاسيوس وانجازه[1] .

ويهمنا أن نؤكد في هذه الخاتمة أن الحضارات لا تلد من الفراغ والنهضات لا تنشأ من العدم وان الحضارة الإنسانية كل لا يتجزأ وللبشرية جمعاء أن تعتز بهذه الحضارة ومشاركاتها فيها كائناً ما كان حجم هذه المشاركات . أما الذين يريدون أن يقسروا المقولات العرقية أو المذهبية أو الدينية على هذه الحضارة ويطوبونها لهذا العرق أو هذا الشعب أو يخرجون من شرف إنشائها وبنائها هذه الأمة أو تلك فانهم لا يزالون يعيشون في ربقة أفكار سلفية بالية أوجدتها عهود منقرضة من الإستعمار الفكري والسياسي نادت بتفوق جماعات من البشر على جماعات أخرى من أجل السيطرة والهيمنة الإقتصادية على ثرواتها وخبراتها وإبقاء الفكر الإنساني في عتمة الإستئثار والإحتكار بعيداً عن روح التحرر التي أخذت تنهض الشعوب من كبواتها وجعلتها تدرك مكانتها من حضارة الإنسان المتكاملة الواحدة أن عمقاً في التاريخ من حيث السياق الزمني أو من حيث المكان على هذه الأرض .

وهذه حضارات ما بين النهرين ووادي النيل انفتح بعضها على بعض اقتباساً وتمثيلاً وتوليداً ، ثم هذه حضارات اليونان والرومان التي تمثلت حضارات الشرق وأضافت عليها ثم جاء العرب والإسلام وجاءت معهم أكبر حركة استيعاب فكري وثقافي في التاريخ فهضموا في آن تراث الهند واليونان وفارس والرومان كما هضموا تراث ديانات التوحيد هضماً كلياً تكشف لنا في فقههم وأدبهم وعلم كلامهم وتصوفهم وفلسفتهم ثم أضافوا إلى ذلك كله مولدات فكرهم واختباراتهم في شتى الحقول وقدموه لأوروبا فنهضت شعوبها بحيوية جديدة تجلت في حركة اكتشاف رائعة في المكان والزمان والتراث والإكتشاف العلمي آخذة بيد البشرية صوب الأزمنة الحديثة .

ولم يتم ذلك كله عفواً أو عن طريق المصادفة بل غالباً ما كان يأخذ شكل المؤسسة المنظمة الواعية لدور العقل والحضارة في أسباغ نعمة التقدم على الأمم ، فهذه مدرسة الحكمة في بغداد ترث مدارس السريان فتنظم عملية الترجمة والتمازج التراثي برعاية المأمون يقابلها مدرسة طليطلة وأشبيلية التي رعاها الفونسو الحكيم ، وتمت عن طريقها ترجمات عديدة في كثير من الميادين ومن بينها ترجمة ما أسميناه بالنسخة الأندلسية للمعراج ترجمة كاملة إلى لغات ثلاث هي الوسائط الأساسية في عمليات التمازج العلمي والثقافي والفكري بين أوروبا والعرب .

ويهمنا أن نؤكد هنا أن ولادة الآداب الأوروبية كولادة فنون عصر النهضة وحركات اكتشافه الجغرافي والعلمي والفلسفي لا يمكن أن تفهم فهماً كاملاً إن هي عزلت عن مؤثراتها العربية والإسلامية وان حركة بحث منظم في الآداب يقود إلى ما قادت إليه حركة البحث المنظم في الفلسفة والعلوم وهي أن فنون أوروبا وآدابها في عصر النهضة والتكوين تنفست الحياة في رحم الإنجازات الحضارية العربية والإسلامية .

وهذه ملحمة رولان (Chamon de Rollan) كتبها الشاعر استجابة لحركة الفتوح الإسلامية بين جيوش شارل مارتل والجيوش الإسلامية ، ثم هذه حركة شعراء « التروبادور » وبزوغ الشعر الغنائي في اللغات الأوروبية وخاصة شعر الحرب لا يمكن عزلها عن حركة الموشحات وشعر الغزل ووصف الطبيعة وهو أمر لم يغفله المختصون من المستشرقين في دراساتهم المسؤولة المنزهة .

وملحمة الكوميديا الإلهية لدانتي التي تعتبر منعطفاً مهماً في نشأة الآداب الأوروبية لم تكن لتشذ عن عملية التمازج الثقافي هذه بل أن نشأتها لتتصل اتصالاً مباشراً بمؤثرات المعراج وتصوراته الفكرية والغيبية وبنيته الفنية .

٤ ـ أحمد بن يزيد القُشيبي :

كان أبرز شعراء اليمن في مطلع القرن الثالث وجاهةً وفروسيةً ، وقد قال الهمداني في « أكليله » أنّه ومحمد بن أبان وعلقمة بن ذي جدن وآل المفرّغ أشعر شعراء بني « الهميسع » .

وأحمد بن يزيد بن عبد الرحمن هذا قد مثّل في زمنه أيضاً دور الفارس اليمني المتعصّب إلّا أنه كان قد انفعل بأحداث شمال الجزيرة ، والعراق والشام ، والخصومة الدينيّة والسياسية والفكرية بين البيتين القرشييّن « أمية » و « هاشم » ، فذهب كما قال الهمداني « مذهب الكميت والسيد الحميري في التشيّع » ، وامتزجت نعراته العرقية والقبلية بعقيدة حب أهل البيت ، وقاسى صراعاً نفسياً مريراً عندما فتك بقومه وأهله الداعية « العلوي » إبراهيم بن موسى « الجزّار » وهو الذي ألب عليه أهل اليمن ، وقلب عليه البلد سنة ٢٠١ / ٨١٧ م بعد مجزرة « ريدة » .

وقد ضاع الكثير من أشعار القشيبي هذا ، وابادته تعصبات ذوي النعرات العرقية ، والتشنجات المذهبية عبر العصور فحُجب عنا شعر بديع ، وذهب الشاعر وشعره ضحية مواقفه المتضاربة حين لم يمنعه « تشيعه » من أن يؤلّب على قاتل قومه ، وهو علويّ الدعوة والنسب ؛ ولم يطق في نفس الوقت وفي تأليبه وثورته على ذلك الداعية النزق السيف ، أن يكتم هواه الشيعي فانفجر في أصوات شجية فحيحُ حقدها وغضبها ينصهر في تمتمات ودٍ جريح . !

ومما قاله في ذلك :

ولله عينا من رأى مثل عُصبةٍ	أبيروا على خُلقٍ وليس لهم ذنب
سوى أنهم جاؤوا بسمعٍ وطاعةٍ	على أنهم حيث انتهت بهم صَحْب
فأركبتهم حَدّ السيوفَ تبذّخاً	فأفنتهمُ منك القَساسيّة الشهب
بلا ترةٍ كانت لديهم طَلَبْتَها	فأعجبني ما جئت وازداد بي العُجْب
تشافى بك الأعداء منهم فأصبحت	مَغَادر كم فيهم يسيرُ بها الراكبُ
وأنت رفيع البيت من «آل هاشم»	وصلبكَ خير الناس إن ذكر الصلبُ
فهلا بعفو منك كنتَ انتقذتهم	فكان لك العفو المغمد والذنب؟
فليسَ بعيداً منك ما فيك يُرتجى	لأنك ذو الأفضال والسيد الندبُ

وإنه لعتابٌ صادرٌ عن مرارةٍ تذيب الضلوع ، كيف لا ينسى الشاعر أو يتناسى وهو في عنفوان غضبه أن هذا السفّاح ، رفيع البيت ومن ذريّة خير

[1] Dorthee Methtski, The Matter of Araby In Medieval England, Yale 1977.
وصفت مخطوطة اكسفورد المعراج واغفلت ذكر سنديو .

البشر ، بل أنه لا يتحاشى من أن يصف قاتل ذويه وأهله بأنه ذو الأفضال والسيد الندب ، وانّ منه كانت ترتجى السماحة والعفو ، ثم يَوَدُّ أن يغالط نفسه فيذهب ملتمساً له الأعذار ليخفف من صدمته وخيبة أمله فيقول :

سمعت بهم قول الأعادي فأصبحوا   وكلهمُ في شخب أوداجه يحبو

وتتجسم المأساة وتكبر وتستنزف عبراته الدّامية ، ويتذكر بطولتهم وهم الصيد الغطارف ، ويذكّر « إبراهيم » بمواقف قومه وتشيعهم ومؤازرتهم للرسول وآل بيته :

فيا أسفا من بعد صيدٍ غطارفٍ   جسام المعالي ليس زندهم يكْبوُ
بكل غداةٍ تُسْتَفَاض جيادهم   من الماء قرناً بعد قرنٍ لهُ سكبُ
ويُحْجِنَ من علك الشكيم بها دَما   فذو شُكْلةٍ منه، ومُعتبط عَضبُ
ولو أنهم خافوا التي نلْتَ منهمُ   لضَاقتْ بك الأرض العريضةُ والرحبُ!
ولكنهم قالوا شريفٌ وسيدٌ   وذو ثقةٍ محض أبوّتُهُ طَبُّ
فمهلاً لك الخيرات لا تَبْر عظمها   فشعْبُكُمْ من يوم كان لنا شَعْبُ
ونحن لكم كفٌ على كلّ مُلحدٍ   ونضرب من يُخفي الحقيقة أو يصبُو
ونحن لكم حصنٌ حصينٌ وشِيعَةٌ   فأصغيت أذناً للوشاة وقد دَبُّوا

* * *

ثم يلتفتُ التفاتة رهيبة إلى تلك الأفعى التي دبت ماكرة تنفث سمومها ، إلى يعلي بن عمرو بن يزيد الذي وشى بقومه إلى إبراهيم بن موسى وحرضه على قتلهم :

فمن مبلغٍ يعلي بن عمرو رسالةً   تخِبُّ بها نوق مخيسة صُهب
بأن دمانا طوقتها رقابكم   وان لنا نجماً يلوح ولا يخبو
هنيئاً بما طوقت من دم ثائرٍ   جسور على الغارات ما سيفه ينبو
ولولا ابن موسى ما ظفرت بطائل   ولا نيل منهم وَيكَ هضم ولا عصب
ولكن إبراهيم ملناً لعدله   وقد نبريت منه الخيانة والكذب

إلى آخرها وله قصيدة عينية رائعة في نفس الموضوع ، ويقول الهمداني أن شاعرنا هو الذي خلف « إبن أبان » في الرياسة وأنه كان مكيناً عند « يعفر بن عبد الرحيم الحوالي » [٢٥٩ هـ / ٨٧٣ م] وله فيه شعر يعاتبه على ما صنع بعبّاد بن محمد من تنكيل وسجن[١] .

ميرزا تقي خان ، أو ميرزا محمد تقي خان ، ابن مشهدي قربان الهزاوي الفراهاني ابن طهماسب بيك خادم ميرزا حسين وفا . المعروف بالأمير الكبير[٢] .

كان « مشهدي قربان » في أول أمره طاهياً يتردد إلى بيوت المتمولين والأشراف يعمل في مطابخهم . ثم اختص بمطبخ « ميرزا عيسى » المعروف بـ « الميرزا الكبير القائمقام » . ثم حج إلى مكة فعرف باسم « الحاج قربان بك أشيز باشي » (آشبز باشي : رئيس الطهاة) .

وكان ابنه « تقي » أو « محمد تقي » يلازمه في بيت القائمقام ويساعده في عمله ويتعلم منه أصول مهنته . ولكن ذكاءه واستعداده الفطريين لم يلبثا أن رفعاه من منزلة أجير لأبيه إلى منزلة زميل دراسة لأبناء مخدومه القائمقام ، فتعلم القراءة والكتابة . وكان شديد التيقظ في خدمة « الميرزا أبو القاسم » القائمقام الثاني . ولذلك ما إن بلغ سن الرشد حتى دخل في خدمة الحكومة من هذا المحيط الذي نشأ فيه ، بين حاشية القائمقام وحاشية « محمد خان زنكنه » أمير العسكر .

فقد تبين القائمقام مقام في حالات الميرزا تقي خان دلائل الرشاد وشمائل الشهامة فجعله في عداد كتبته . ثم أصبح من كتبة « محمد خان زنكنه » أمير العسكر ، فلم يلبث أن تفوق على أقرانه بمواهبه وخبرته ، ووصل إلى المناصب العالية . فأصبح من كتاب العسكر مدة من الزمن . وفي سنة ١٢٥١ هـ عين محاسباً عسكرياً في جيش أذربيجان . فقام بعمله بصدق وإخلاص فرفعه أمير العسكر إلى منصب «وزير العسكر» ولقبه بهذا اللقب . وهو منصب كان يعهد إلى صاحبه يومئذ برئاسة تنظيم المخصصات العسكرية لجيش أذربيجان ، وتهيئتها ، والمحاسبة ، وتنظيم أمور المواصلات والنقليات للعسكر .

وفي سنة ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م) سافر إلى تفليس وإيروان بأمر محمد شاه بمعية ولي العهد « ناصر الدين ميرزا » لملاقاة أمبراطور الروس « نيقولا الأول » ، وكان قد جاء إلى القفقاس ، ورافق ولي العهد في هذا السفر أيضاً « محمد خان » أمير العسكر و « الحاج ملا محمود نظام العلماء » و « عيسى خان » خال « ناصر الدين شاه » .

وسأل الأمبراطور « محمد خان » عن أحوال الميرزا « تقي خان » فأجابه : كان في السابق محاسب العسكر ، وبعد قليل وزير العسكر ، وها هو حين سفارة صاحب السمو الملكي ، في حضرة الأمبراطور ، فقال الأمبراطور : الحمد لله على أني التقيت صديقي مرة أخرى . ثم أهداه الأمبراطور مسعطاً من ذهب مرصع .

وفي سنة ١٢٦٠ هـ سافر من تبريز إلى « أرزنة » الروم ، بدلاً من « الميرزا جعفر خان مشير الدولة » ، لتعيين الحدود بين إيران وبلاد العثمانيين ورفع ما بين الدولتين من اختلافات ، ونجح في مسعاه وعقدت معاهدة بين الدولتين في جمادى الثانية سنة ١٢٦٢ هـ ، بعد صعوبات كثيرة قاساها وثبت لها ، ومنها ثورة قامت عليه وكاد يقتل فيها .

بعد وفاة « محمد خان زنكنه » أمير العسكر في سنة ١٢٥٧ هـ لم يعط هذا اللقب والمنصب أحداً ، إلى أن كانت سنة ١٢٦٤ ، وهي السنة التي توفي فيها محمد شاه وخلفه على العرش ابنه ولي عهده ناصر الدين شاه . في تلك السنة .

أراد الشاه الجديد السفر من تبريز إلى طهران العاصمة ليتولى منصبه . وكانت الخزانة خالية لا مال فيها لسد نفقات هذا السفر ، وعجز وزير أذربيجان عن تهيئة المبلغ اللازم . فقام « الميرزا تقي خان » بتهيئة المال بالجهد من هنا وهناك حتى استطاع توفير ما يلزم منه لسفر لائق بالشاه .

وسار ناصر الدين شاه من تبريز قاصداً طهران ، وفي معيته « الميرز تقي خان » . فلما بلغوا بلدة « أوجان » من محافظة تبريز أنعم عليه ناصر الدين شاه بلقب « أمير العسكر » وعهد إليه بعمل صاحب هذا اللقب .

وبعد جلوس ناصر الدين على العرش أضاف إلى ذلك اللقب وذلك العمل إنعاماً آخر أيضاً . فلقبه ليلة ٢٢ ذي القعدة سنة ١٢٦٤ هـ بلقب

---

(١) تاريخ اليمن الفكري .

(٢) يعرف في إيران باسم (أمير كبير) ، لأن (ألف لام) التعريف غير موجودة في اللغة الفارسية .

« الأمير الكبير » وهو اللقب الذي اشتهر به ، كما لقبه بلقب « الأتابك الأعظم » وعهد إليه بمنصب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) . فنشر العدل والنظام وإطاعة القانون ، ونظم الضرائب وشؤون الجيش .

وكان الطامعون في منصب الصدارة العظمى كثيرين ممن يرون أنفسهم أولى به منه لاعتبارات كثيرة ، فكادوا له كثيراً ، قبل حصوله على هذا المنصب وبعد حصوله عليه ، حتى أنهم أثاروا عليه بعض الأفواج العسكرية من الفرسان في سنة ١٢٦٥ هـ ، واشترك في هذه المؤامرة « الميرزا آقا خان » و « مهد عليا » أم ناصر الدين شاه وفريق من الأجانب ، وطالبوا بعزله من هذا المنصب ولكن الشاه رفض طلبهم . واستطاع « الميرزا تقي خان » بماله من خبرة ولياقة أن يقهر منافسيه ويخمد الثورة فوراً .

والظاهر أن « إسماعيل خان » رئيس الفراشين في البلاط كان المحرك لهذه الثورة . وكان العسكر الثائر يقصد احتلال منزل (الأمير الكبير) وقتله . ولكنهم لم يجرؤوا على ذلك إذ كان الأمير صهر الشاه على أخته « عزة الدولة » . وأمر الشاه « الميرزا آقا خان اعتماد الدولة » وزير الجيش بتدبر الأمر فصرفهم عن متابعة الثورة .

وكان لقب « أتابك » يطلق على مربي أبناء الملوك ، ولكنه كان قد ترك استعماله فلم يطلق على أحد تقريباً بعد عهد السلاجقة . وأعيد استعماله في عهد ناصر الدين شاه إذ أطلق على « الميرزا تقي خان » . وكان هذا الأمير هو الذي أحياه مرة ثانية وتسمى به ملاحظاً بذلك أمرين : معنى الرعاية الأبوية للشاه الحدث ومعنى أهليته للإستقلال .

وأصبح مطمئن الخاطر بعد زواجه بأخت الشاه ، فانصرف إلى إصلاح ما خرب في أواخر عهد محمد شاه وصدارة « الحاج ميرزا آقاسي » ، بسبب من ضعفها وعدم كفاءتها . أخضع ملوك الطوائف المتمردين وأعاد الأمور في مجاريها القانونية وجمع الحكم في حكومة مركزية واحدة ، بعد أن كانت ممزقة منقسمة ، ورتب ميزانية الدولة . وحصل له توفيق يناسب ما بذله من جهود في هذا السبيل .

كان يرى أن زواجه بأخت الشاه يجعله مرتاح البال من كل جهة ، فيتابع أعماله الإصلاحية . إلا أنه لما استحكمت أموره إلى حد ما بعد هذا الزواج بدأ الكيد له بشدة من الداخل والخارج .

وأول عمل أقدم عليه « الأمير الكبير » كان إصلاح أمر خراسان وإخماد فتنة « حسن خان سالار » ابن « الله يار خان آصف الدولة القاجاري » وذلك أنه حين وعك محمد شاه بعث الصدر الأعظم « الحاج ميرزا آقاسي » بالسالار « حمزة ميرزا حشمة الدولة » أخي الشاه إلى خراسان والياً عليها لإبعاده . ولكن « حسن خان سالار » وأمراء خراسان عصوا على الوالي الجديد ، وعجز هذا عن تطويعهم . فلم يجد بداً من الذهاب إلى « هرات » مع حاكمها « محمد خان الكوزائي » ، وكان هذا قد جاء إلى مشهد مدداً له ، وأن ينتظر هناك مترقباً الفرصة . وبقي في « هرات » إلى أن توفي محمد شاه وتولى الملك بعده ناصر الدين شاه .

عندئذ بعث « الأمير الكبير الميرزا تقي خان » بـ « سليمان خان » رئيس عشيرة « أفشار » وقائد فرسانها إلى خراسان ومعه جماعة من الفرسان . وأمره بمفاوضة « حسن خان سالار » لإرجاعه عن هذا العصيان الذي لا مسوغ له ولا فائدة منه . والتقى الرجلان ودارت بينهما مفاوضة سلمية لم تؤد إلى النتيجة المطلوبة إذ رفض « حسن خان » الصلح والدخول في الطاعة رفضاً باتاً ، وازداد عناداً وتمرداً .

عندئذ بعث « الأمير الكبير » بـ « سلطان مراد ميرزا » ، وهو ابن « عباس ميرزا نائب السلطنة » الثالث عشر وعم الشاه إلى خراسان لمحاربة « حسن خان » وإخضاعه . ووقعت بين الجيشين حرب شديدة كثر فيها القتلى من الطرفين . وانتهت بتفرق الرؤساء المحليين عن « حسن خان سالار » واستسلامه مع ابنيه وأخيه إلى « سلطان مراد ميرزا » فبادر هذا إلى قتلهم فوراً لا ينتظر بهم أمراً ، ودفنوا في محلة « خواجة ربيع » ، وكان ذلك في سنة ١٢٦٦ هـ . وفي هذه السنة لقب « سلطان مراد ميرزا » بحق بلقب « حسام السلطنة » .

والعمل الثاني الذي أقدم عليه « الأمير الكبير » بعد الفراغ من إخماد ثورة « حسن خان سالار » هو قمع البابيين أتباع « علي محمد الشيرازي » في « مازندران ـ نيريز » و « زنجان » . يقول البهائيون ، وهم إحدى الفرق البابية ، في هذا الموضوع في كتاب منسوب إليهم اسمه « ظهور الحق » : « اشتغل (أي الأمير الكبير) بإطفاء أنوار هذا الأمر وقتل البابيين بكل أشكال القهر » .

ففي السنة الثانية من توليه منصب الصدارة العظمى حسم غائلة « قلعة الطبرسي » في مازندران ، حصن البابيين وملاذهم ، ورئيسهم فيها « الملا حسين البشرويهي » و « الملا محمد علي قدوس » . وفي تلك السنة نفسها أخمد أيضاً فتنة « الآخوند الملا محمد علي حجت » في زنجان . وفي السنة الثالثة من صدارته أخمد فتنة « نيريز » التي قام بها « السيد يحيى دارابي » . وفي هذه الأثناء كان « الميرزا علي محمد الشيرازي » قد هلك .

وتلخص أعمال « الأمير الكبير » في صدارته على هذا النحو :

١ ـ إدخال ناصر الدين شاه إلى طهران على وضع لائق آمن .

٢ ـ إصلاح شؤون الضرائب والجيش والميزانية ، والمعادلة بين واردات المملكة ونفقاتها .

٣ ـ قمع « حسن خان سالار » في خراسان .

٤ ـ إخماد ثورة البابيين .

٥ ـ رفع الراية الإيرانية في الدول الأجنبية ، مع التهديد بالمعاملة بالمثل لمن لا يستجيب .

٦ ـ تأسيس دار الفنون وإقامة بنائها .

٧ ـ إصدار جريدة « وقائع اتفاقية » في سنة ١٢٦٧ هـ . وقد فرض على موظفي الدولة أن كل من بلغ راتبه السنوي ألفي ريال يؤدي منها عشرين ريالاً في السنة إلى ميزانية الجريدة . وصدر العدد الأول منها في الخامس من ربيع الثاني سنة ١٢٦٧ هـ . ثم غُير اسمها إلى « جريدة إيران الرسمية » ثم « جريدة دولة إيران العلية » ثم « جريدة إيران » وظلت تصدر بهذا الإسم إلى عهد مظفر الدين شاه .

٨ ـ تعميم التطعيم ضد الجدري في إيران كلها .

٩ ـ إيجاد إدارة بريد منظمة .

١٠ ـ منع رشوة الموظفين والتشدد في محاربتها .

١١ ـ إقامة بناء للمدفعية . وهو بعض خدماته للجيش . فقد كانت شؤون الجيش الإيراني قبل عهده مشوشة متفككة ، فنظمها وجمعها في كيان عسكري صحيح البناء والمظهر .

١٢ ـ من جملة أعمال « الأمير الكبير » : تأسيس مصانع للسكر والغزل والزجاج والنسيج والسلاح . واستخدم المعلمين الأجانب لتدريس الطب والجراحة والصيدلة والطبيعيات والهندسة وعلم التعدين والفنون العسكرية . وكان يختارهم من إيطاليا وفرنسا والنمسا ، وأكثرهم من النمسا ، إذ هي دول ليست لها مطامع سياسية في إيران .

وقد أجمع المؤرخون من الإيرانيين ومن الأجانب على أن « الميرزا تقي خان الأمير الكبير » كان من نوادر عصره في الوطنية والنزاهة وبعد النظر والسعي إلى كل ما فيه الخير لإيران . ولكن هذه الطريق ، طريق الصلاح والإصلاح ، التي سلكها كانت تعاكس الإتجاه العام إلى الخيانة والرشوة والفساد والإفساد والإنتهازية والوصولية ، فقامت عليه الدسائس ونصبت له المكائد من الداخل والخارج . فنقم عليه الإنكليز اختياره الخبراء والمعلمين الأجانب من دول محايدة لا تقع في نفوذهم ، فأشاعوا عنه ، بواسطة عملائهم ، أنه يطمع في عرش إيران وعزل الشاه . وكان في مقدمة هؤلاء العملاء منافسه « الميرزا آقا خان نوري » و « مهد عليا » أم ناصر الدين شاه .

وأثمرت الدسائس والمكائد . وكان لنفوذ الوزير الإنكليزي المفوض الدور الأول في إنجاحها . فتغير ناصر الدين شاه على « الميرزا تقي خان » وعزله من وظائفه كلها ونفاه إلى قرية « فين » بالقرب من مدينة « كاشان » ، وعهد بمنصب الصدارة العظمى إلى عدوه ومنافسه « الميرزا آقا خان نوري » . ثم أمر « حاجي علي خان فراش باشي » ـ ويلقب أيضاً « حاجب الدولة » ـ بقتله فذهب إليه إلى « فين » فقتله وهو في الحمام يفصده في عضده سنة ١٢٦٨ هـ الموافقة سنة ١٨٥٢ م . ويروي مؤرخ إيراني أن « الميرزا آقا خان نوري » جعل قتل « الأمير الكبير » شرطاً لقبوله منصب الصدر الأعظم .

وتبعت قتله ردة كبرى إلى الفساد فعمت الرشوة واختلت أمور الجيش وفتحت أبواب الدولة للتدخلات الأجنبية . وندم ناصر الدين شاه على قتله . وكان يذكره بالأسف والحسرة . ويردد هذين البيتين من الشعر إذا ذكره :

المرء الذكي الكيس
يحتاج إلى عمرين اثنين في هذه الحياة
يقضي أحدهما في التجربة
ثم يقضي الآخر في الاتعاظ بالتجربة[1] .

تيمورلنك

مرت ترجمته في مكانها ، ونلحق هنا بترجمته ما يلي :

الملحق الأول من هذه الملاحق منقول من كتاب « ظفر نامه » تأليف صلاح المؤرخ الفارسي شرف الدين علي يزدي (حـ ١ : ص ٦٤٢ ـ ص ٦٤٣) وهذا الملحق كتاب باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان برقوق وتاريخه سنة ٧٩٥ هـ . ويبدو منه أنه أول خطاب بعثه إلى السلطان برقوق يدعوه فيه إلى مراعاة حسن الجوار ، وإقامة العلاقات الطيبة لتأمين طرق المواصلات والتجارة .

والملحق الثاني منقول من المؤرخ المصري أحمد بن علي المقريزي : « السلوك لمعرفة دول الملوك » (صورة شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤ تاريخ حـ ٣ ص ٢٣٧ ـ ص ٢٣٨) وهذا الملحق الثاني كتاب ثان من عند تيمورلنك إلى السلطان برقوق و يرجع تاريخه إلى ٧٩٦ هـ وهو يختلف عن الكتاب الأول من حيث اللهجة والتطويل اللفظي ، ويحتوي على تهديد بالحرب من تيمورلنك إلى السلطان برقوق إذا هو لم يعلن طاعته له .

أما الملحق الثالث فهو جواب السلطان برقوق على الكتاب الثاني من تيمورلنك وهو منقول كذلك عن أحمد بن علي المقريزي : « السلوك لمعرفة دول الملوك » (صور شمسية بدار الكتب المصرية حـ ٣ ص ٢٣٧ ـ ص ٢٣٨) وتاريخه سنة ٧٩٦ هـ ، وفي هذا الجواب حرص السلطان برقوق على الظهور بعدم الإكتراث لتهديدات تيمورلنك .

والملحق الرابع كتاب باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان فرج بن برقوق وتاريخه ٨٠٣ هـ ، وهو منقول من كتاب « ظفر نامه » تأليف شرف الدين علي يزدي (حـ ٢ ص ٢٦٧) ، واشتمل هذا الكتاب على تهديد من تيمورلنك إلى السلطان فرج إذا هو لم يطلق أسيراً تترياً كبيراً من أسرة تيمورلنك ، هو القائد أطلمش الذي وقع في يد السلطان برقوق سنة ٧٩٥ هـ .

ويشتمل الملحق الخامس على تهديد ثان من تيمورلنك للسلطان فرج ، ومطالبته بإعلان الطاعة ، والدعاء له في خطبة الجمعة بالقاهرة . وهذا الكتاب مكتوب بالفارسية ، وهو منقول كذلك من كتاب « ظفر نامه » تأليف شرف الدين علي يزدي (حـ ٢ ص ٣١٥ ـ ص ٣١٦) وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ وهو خطاب جاف مختصر ، ويبدو أن تيمورلنك أمر بكتابته ، وهو في الطريق إلى دمشق ليلحق بها كارثته المروعة .

ويشتمل الملحق السادس على جواب السلطان فرج على هذا الكتاب التيموري الجاف وهو منقول من كتاب « ظفر نامه » (حـ ٢ ـ ص ٣١٧) وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ ، ويتضح من هذا الكتاب استعداد السلطان فرج لإعلان الطاعة لتيمورلنك بشرط قيام تيمورلنك من جانبه بالإعتذار عما قام به من هجوم على دمشق .

والملحق السابع كتاب ثان باللغة الفارسية من السلطان فرج إلى تيمورلنك ، وهو منقول من كتاب « ظفر نامه » (حـ ٢ ص ٣٢٧) ، وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ ويبدو أن السلطان فرج أمر بكتابة هذا الكتاب وهو في داخل دمشق وتيمورلنك محيط بأسوارها ، وفيه يؤكد السلطان فرج وعده السابق ويطلب وقف القتال .

والملحق الثامن منقول من مخطوط ، « كتاب روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء » (مكتبة جامعة القاهرة رقم ٩٧٨ فا حـ ٦ ص ٢٤٦) ، وهو من تأليف محمد بن خواندشاه ميرخواند ، وهذا الكتاب بالفارسية كذلك ، وتاريخه سنة ٨٠٥ هـ ؛ وهو خطاب من تيمورلنك إلى السلطان فرج بعد انتصار تيمورلنك على السلطان بايزيد العثماني في واقعة أنقرة ، وفيه طلب تيمورلنك من السلطان فرج سك نقود مصر والشام باسمه

(١) مهدي بامداد .

والدعاء له في خطبة الجمعة .

أما الملحق التاسع والأخير فهو كتاب منقول من ذيل كتاب « برلام ويواصف » ، وهو مخطوط بمكتبة بطريركية الأقباط الأرثوذكس بالقاهرة (رقم ٤٢ تاريخ ص ٣٣١ - ٣٣٩) ، وهو كتاب من النجاشي داوود ملك الحبشة إلى السلطان برقوق يشرح ما عليه المسلمون في الحبشة من رغد العيش ورعاية ملكيّة ، وينفي النجاشي ما نقله بعض الرسل إلى السلطان برقوق من أخبار عن سوء معاملة النجاشي للرعايا المسلمين في بلاده ، ثم يدعو السلطان برقوق إلى رعاية النصارى في بلاده ويهدد بقطع مياه النيل ، وإساءة معاملة المسلمين الذين تحت حكمه إذا حدثت إساءة من جانب السلطان للنصارى في مصر .

ويود كاتب هذه السطور أن يختتم هذه المقدمة القصيرة بكلمة شكر كبيرة للسيد الدكتور عبد النعيم حسنين أستاذ الأدب الفارسي بكلية الآداب بجامعة عين شمس لتفضله بالقيام بترجمة النصوص الفارسية المتقدمة إلى اللغة العربية ، وهي نصوص أضافت إلى قيمة هذا الكتاب معلومات جديدة بصدد مراحل العلاقات بين السلطانين برقوق وابنا فرج وتيمورلنك .

وأرجو أن يجد القارىء الكريم في هذه الملاحق بعض ما ينشده من معرفة لأحوال الشرق الأوسط في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي .

كتاب من تيمورلنك إلى السلطان برقوق سنة ٧٩٥ هجرية (شرف الدين علي يزدي : ظفر نامه ، حـ ١ ، ص ٦٤٢ - ٦٤٣) .

النص الفارسي :

« مضمون رسالت آنكه بيش ازين بادشاهان كامكاركه ازنسل جنكيزخان بودند باملوك آن ممالك منازعت داشتند وبدان واسطه بسى زحمت وتشويش باهالى شام وسكان آن نواحي مىرسيد ودر آخر ميان ابشان رسل ورسايل متوا ترشد وقضية بمصالحت انجاميد وآن معنى موجب امن وأمان عالم وعلميان كشت وجون بادشاه سعيد أبو سعيد بها درخان انار الله برهانه بجوار رحمت حق بيوست وازنسل جنكيزخان با دشاهى صاحب شكوت نافذ فرمان در إيران نماند وملوك طوايف بديد آمدند هرج ومرج بحال عالم راه يافت ابن زمان جون سابقة عنايت بي غايت مالك الملوك جل وعلا تمام ممالك إيران تا عراق كمدر جوار آن مملكت واقع است مسخر فرمان ماكودانيد خير اندبشي ونيكو خواهي خلايق اقتضاى آن مى كندكه حق همسايكي رعايت كوده أبواب مراسله ومكاتبه مفتوح كرد دوايلجيان ازهرد وجانب در آمد وشد باشندتا راهها ايمن شود وتجار جانبين بامن وحضور تردد توانند نمود وابن معانى هرابنه مستلزم معمور مى بلاد وآسايش عباد تواند بود والسلام على من اتبع الهدى والحمد لله رب العالمين » .

ترجمة الكتاب :

« لما كان بيت جنكيزخان في حروب مع أسلافكم السلاطين الذين ظلموا شعب الشام ، وأن هذه الحروب أنهت بسلام اختلاق الرسل ، عاد الأمن والتعاون بين الدولتين ؛ غير أنه منذ وفاة الايلخان العظيم سعيد أبو سعيد بهادر لم يحكم في بلاد فارس حاكم من نسل جنكيزخان الذي نظم أمور الناس ، ولكن على العكس قام حكام في كل الإمارات في هذه الأمبراطورية الكبيرة مكان ملوكها ، وسببوا متاعب لا نهاية لها لشعوب هذه الأمبراطورية .

أما وقد اختارنا الإله الواحد بفضل من عنده لإصلاح ما فسد ، وأدان لسيفنا المظفر كل بلاد فارس والعراق العربي الذي تتاخم حدوده حدود بلادكم ، فإن المحبة التي ندين بها لشعبنا تتطلب بحكم الجوار أن نتبادل الكتب ، وأن يأتي الرسل ، ويعودوا في يسر بين بلدينا ، وأن ينتقل تجار البلدين في أمن حتى تنتعش البلاد ، ويكثر السكان ، ويعيشوا في سلام . ولهذا السبب أرسلنا رسولنا إليكم ضارعين إلى الله أن يكلأكم بعنايته إن سلكتم حسب هذا . والسلام على من اتبع الهدى والحمد لله رب العالمين » .

الملحق (٢)

كتاب تيمورلنك (الكتاب الثاني) إلى السلطان برقوق في سنة ٧٩٦ هـ (المقريزي ، أحمد بن علي : السلوك صور شمسية حـ ٣ ص ٢٣٧ - ٢٣٨) .

« قل اللهم مالك الملك »[١] ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[٢] . اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه ، ومسلطون على من حل عليه غضبه ، لا نرق لشاكي[٣] ، ولا نرحم لباكي[٤] ، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا . قد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد ، وأظهرنا في الأرض الفساد ، وذلت لنا أعزتها ، وملكنا بالشوكة أزمتها ، فإن خيل ذلك على السامع وأشكل وقال إن فيه عليه مشكل[٥] فقل له :

﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾[٦] ، وذلك بكثرة عددنا وشدة بأسنا ، فخيولنا سوابق ورماحنا خوارق وأسنتنا بوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وجيوشنا كعدد الرمال ، ونحن أبطال وأقيال ، وملكنا لا يرام ، وجارنا لا يضام - وعزنا أبدا لسؤدد منقام ، فمن سالمنا سلم ، ومن رام حربنا ندم ، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جُهل . وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم وعلى بغيكم تماديتم ، فلا تلوموا[٧] إلا أنفسكم ، فالحصون منا مع تشديدها لا تمنع ، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا ولا يسمع ، فكيف يسمع الله دعاءكم ، وقد أكلتم الحرام ، وظلمتم جميع الأنام ، وأخذتم أموال الأيتام ، وقبلتم الرشوة من الحكام ، وأعددتم لكم النار وبئس المصير : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾[٨] ، فلما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك ، وقد قتلتم العلماء وعصيتم رب الأرض والسماء ، وأرقتم دم الأشراف ، وهذا والله هو البغي والإسراف ، فأنتم بذلك في النار خالدون ، وفي غد ينادى عليكم : ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾[٩] ، فأبشروا بالمذلة

(١) ما بين الحاصرتين من ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ، ص ٥٠ (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦) .
(٢) القرآن الكريم : سورة الزمر : ٤٦
(٣) ، (٤) كذا في الأصل .
(٥) كذا في الأصل .
(٦) القرآن الكريم . سورة النمل : ٣٤ .
(٧) كذا في الأصل .
(٨) القرآن الكريم سورة النساء : ١٠ .
(٩) القرآن الكريم سورة الأحقاف : ٢٠ .

والهوان ، يا أهل البغي والعدوان ، وقد غلب عندكم أننا كفرة ، وثبت عندنا أنكم والله الكفرة الفجرة ، وقد سلطنا عليكم الإله . له أمور مقدرة وأحكام محررة ، فعزيزكم عندنا ذليل وكثيركم لدينا قليل ، لأننا ملكنا الأرض شرقاً وغرباً ، وأخذنا منكم كل سفينة غصباً ، وقد أوضحنا لكم الخطاب ، فأسرعوا برد الجواب ، قبل أن ينكشف الغطاء ، وتضرم الحرب نارها ، وتضع أوزارها ، وتصير كل عين عليكم باكية ، وينادي منادى الفراق : ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾(١) ، ويسمعكم صارخ الفناء بعد أن يهزكم هزاً ، ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾(٢) . وقد أنصفناكم إذ راسلناكم فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين ، فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين وتعصوا رب العالمين ، ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾(٣) ، وقد أوضحنا لكم الكلام فأرسلوا برد الجواب والسلام » .

الملحق (٣)

جواب السلطان برقوق على هذا الكتاب وتاريخه سنة ٧٩٦ هـ :

(المقريزي ، أحمد بن علي : السلوك ، صور شمسية ، حـ ٣ ص ٢٣٨) .

« بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾(٤) حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية ونزعاتكم الشيطانية ، وكتابكم يخبرنا عن الحضرة الجنابية وسيرة الكفرة الملائكية ، وأنكم مخلوقون من سخط الله ، ومسلطون على من حل عليه غضب الله ، وأنكم لا ترقون لشاك ولا ترحمون عبرة باك ، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم ، فذلك أكبر عيوبكم ، وهذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين ، وتكفيكم هذه الشهادة الكافية ، وبما أوقفتم به أنفسكم ناهية ، ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾(٥) ، ففي كل كتاب لعنتم ، وعلى لسان كل مرسل نعتم ، وبكل قبيح وصفتم ، وعندنا خبركم من حين خرجتم ، أنكم كفرة ، ألا لعنة الله على الكافرين ، من تمسك بالأصول فلا يبالي بالفروع . نحن المؤمنون حقاً لا يدخل علينا عيب ، ولا يضرنا ريب ، القرآن علينا نزل ، وهو سبحانه بنا رحيم لم يزل ، فتحققنا نزوله ، وعلمنا ببركة تأويله ، فالنار لكم خلقت ، ولجلودكم أضرمت ، ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾(٦) ، ومن أعجب العجب تهديد الرتوت(٧) بالتوت(٨) ، والسباع بالضباع ، والكماة بالكراع ، نحن خيولنا برقية وسهامنا عربية ، وسيوفنا يمانية ، وليوثنا مضرية ، وأكفنا شديدة المضارب ، وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب ، إن قتلناكم فنعم البضاعة ، وإن قتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٩) . وأما قولكم : قلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فالقصاب لا يبالي بكثرة الغنم ، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم ، ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(١٠) . الفرارا الفرار من الرزايا ، وطول البلايا ، واعلموا أن هجوم المنية عندنا غاية الأمنية ، إن عشنا عشنا سعداء ، وإن قتلنا قتلنا شهداء ، ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾(١١) . أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ، تطلبون منا طاعة ، لا سمع لكم ولا طاعة ، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء ، ففي نظمه تركيك ، وفي سلكه تلبيك ، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان ، أكفر بعد إيمان ، أم اتخذتم إلهاً ثانٍ ، وطلبتم من معلوم رأيكم أن نتبع ربكم ، ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾(١٢) ، قل لكاتبك الذي وضع رسالته ووصف مقالته ، وصل كتابك كضرب رباب أو كطنين ذباب ، ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ، وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾(١٣) ، إن شاء الله تعالى [لقد خلطتم في الأمر في الذي أرسلتم](١٤) ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾(١٥) والسلام » .

الملحق (٤)

كتاب تيمورلنك إلى السلطان فرج كتبه من ملطية في شهر المحرم سنة ٨٠٣ هـ (شرف الدين علي يزدي : ظفر نامه حـ ٢ ، ص ٢٧٦) .

النص الفارسي :

« أزبدرت أنواع حركات نابسنديده بظهور آمد ازا نجمله بقتل ابلجيان ابن جانب بى موجبي فرمان داد واتلمش راكه ازبند كان دركاه ماست محبوس كردانيد وبازنفرستاد وجون أولباس حبات عاريتي بازسپردة، برسش وجزاى اوبديوان قيامت افتاد وتومى بايدكه برخود وأهالي مملكت رحم كنى واتلمش رادوزمان روانه ابن طرف سازى تا از ظلام قهر وانتقام سباه خون آشام ماروز سلامت أهل مصر وشام بشام نرسد واكربوسوسه شيطان لجاج وعناد خلاف ابن معنى بخاطر راه دهى جميع آن ديار وبلاد ازمرور وعبور عساكر منصور وبران هدشد ووزر ووبال خون ومال مسلمانان بكردن توخوا هدبود » .

ترجمة الكتاب :

« لقد بدرت من والدك حركات مستهجنة من جملتها قتله رسلنا دون سبب ، وحبسه أطلمش الذي كان من رجال بلاطنا وعدم إرجاعه . ولما أسلم والدك وديعة الحياة فإن سؤاله وجزاءه قد أوكل إلى الباري يوم القيامة . وينبغي عليك أنت أن ترحم نفسك وأهل مملكتك ، وأن تعيد أطلمش إلينا

(١) القرآن الكريم سورة الحاقة : ٨ .
(٢) القرآن الكريم سورة مريم : ٩٨ .
(٣) القرآن الكريم سورة النور : ٥٤ .
(٤) القرآن الكريم سورة آل عمران : ٢٥ .
(٥) القرآن الكريم : سورة الكافرون .
(٦) القرآن الكريم : سورة الانفطار : ١ .
(٧) الرتوت جمع رت وهو الرئيس والسيد (المعجم الوسيط) .
(٨) كذا في الأصل .
(٩) القرآن الكريم : سورة آل عمران : ١٦٩ - ١٧١ .
(١٠) القرآن الكريم : سورة البقرة : ٢٤٩ .
(١١) القرآن الكريم : سورة سورة المائدة : ٥٦ .
(١٢) القرآن الكريم : سورة مريم : ٨٩ - ٩٠ .
(١٣) القرآن الكريم : سورة مريم : ٧٩ - ٨٠ .
(١٤) ما بين الحاصرتين من ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٥٢ (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦) .
(١٥) القرآن الكريم : سورة الشعراء : ٢٢٧ .

حتى تنجي أهل مصر والشام من انتقام جيشنا الذي يتحرق إلى الثأر . وإذا سلكت غير هذا الطريق بدافع من وسوسة شيطان اللجاج وعناد الخلاف ، فإن جميع تلك الديار والبلاد سوف تصير خراباً بمجرد مرور عساكرنا المنصورة وعبورها فيها . وسيكون وزر ووبال دماء المسلمين وأموالهم في عنقك » .

الملحق (٥)

كتاب تيمورلنك إلى السلطان فرج في جمادي الأولى سنة ٨٠٣ هـ حين تقدم تيمورلنك لحصار دمشق (شرف الدين علي يزدي : ظفر نامه ، جـ ٢ ص ٣١٥ - ٣١٦) النص الفارسي :

« اثار حزم وعزم مادر كارها دانسته ايد وعلو همت مادر تحصيل مطالب واتمام ما قصد ومآرب شناخته وعاقلان دانندكه دا من كبر مردان درامور غيرت است وحميت اكرباد شاه است واكر رعيت ومقصود اصلى بادشاهان از كشيدن لشكر وكشادن كشور با آن همه خوف وخطر رعايت ناموس است درحال وبقاء ذكر جميل در مآل نه مجرد جمع مال وتكثير منال « بيت » .

« همه كار جهان ناموس ونام است »

« وكرنه نيم نان روزى تمام است »

بكرات أتلمش را طلب داشتيم ونفر ستاديد ودران جزرى قضيه جندان تعلل وتأخير كرديد كه دست حميت عنان عزيمت ما باينجانب تافت وبسى خرابى وخلل باحوال وأوضاع مردم اين مملكت راه يافت « بيت » .

كراز كوه برسى بيابى جواب كه شاخ خطا ميوه ندهد صواب

با ابن همه اكر أتلمش را ارسال نماييد وسكه وخطبه بالقاب ما بيار ايبدتا بساط نزاع درنور ديده شود وبرخود رحم كرده باشيد وبراهالى ابن ديار وكرنه لشكر جرار خونخوار مارا قتل مخالف وقهر دشمن وشهر كرفتن وكندن رسم معهود داست وغايت مقصود « نظم » :

« طريق مدارا وراه ستيز »

« كزان امن خيزد وزين وستخيز »

« نمودم بتو عقل را كار بند »

« وزين هردوره كن يكى رابسند »

ترجمة الكتاب :

« لقد علمت آثار حزمنا وعزمنا في الأمور ، وعلو همتنا في تحصيل المطالب ، وإتمام المقاصد والمآرب ، وإن العقلاء ليعلمون أن تشبث الرجال بالأمور هو نزع من الغيرة والحمية ، سواء كان الرجال ملوكاً أو من أفراد الشعب . وإن الهدف الأصلي للملوك من قيادة الجيوش وفتح الممالك مع كل هذا الرعب والخطر هو رعاية الناموس في الحال وبقاء الذكر الجميل في المآل ، وليس هو مجرد جمع المال وتكثير المنال .

إن أهم الأعمال في الدنيا رعاية الناموس وإبقاء الذكر الطيب ، وإلا فإن المرء يكفيه نصف رغيف من الخبز .

وقد طلبت أطلمش مرات ، ولكنكم لم ترسلوه وتعللتم بعلل واهية لتأخير إرساله ، حتى ثارت فينا النخوة لنسير إلى بلادكم ، وننزل أنواع الخراب والدمار بالناس والأحوال في دياركم .

« إذا نطق الصخر ، فسيجيب بأن شجرة الخطأ لا تعطي ثمراً » .

ويرغم هذا كله فإنك إذا أرسلت أطلمش ، وزينت السكة والخطبة باسمنا وألقابنا ، وطويت بساط النزاع بيننا ، ورحمت نفسك وأهل ديارك ، لانتهى كل شيء ، وإلا فإن جيشنا الجرار المتعطش إلى احتساء الدماء سوف يعصف بالمخالفين ، ويقهر المعاندين ، ويستولي على الديار ويقتلع الرسم المعهود ويبلغ غاية المقصود .

« هناك طريقان طريق المداراة وطريق اللجاج »

« الأول يؤدي إلى الأمن والثاني يؤدي إلى الحرب »

« وقد أظهرت لك العقل فانتصح »

« واختر طريقاً من الطريقين »

الملحق (٦)

جواب السلطان فرج على كتاب تيمورلنك السابق وتاريخه جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ (شرف الدين علي يزدي : ظفر نامه جـ ٢ ص ٣١٧) .

النص الفارسي :

« ما بند كان در مقام اطاعت وانقياديم واتلمش راتاينج روز ديكر بفرستيم واكر انحضرت ازسر جرايم ما دركذرد بعد إيزن در اقامت وظايف فرمان بردارى وطاعت كذارى تقصير واهمال جايز نداريم وبآنجه در مكنت وتوان ما كنجد رضاى شريف بند كان ايشان بدست آريم عواطف بادشاهانه » .

ترجمة الكتاب :

« نحن عبيد في مقام الطاعة والإنقياد . وسنرسل أطلمش في خلال خمسة أيام . فإذا تجاوز السلطان الأعظم عن جرائمنا فإننا لن نهمل أو نقصر في أداء وظائفنا وإطاعة الأوامر ، وإظهار الخضوع وسنفعل كل ما في مكنتنا ومقدورنا لإرضاء خاطركم الشريف ومشاعركم السلطانية » .

الملحق (٧)

كتاب من السلطان فرج إلى تيمورلنك كتبه من دمشق وقت حصار تيمورلنك لها وتاريخه جمادى الأولى ٨٠٣ هـ (شرف الدين علي يزدي : ظفر نامه ، جـ ٢ ص ٣٢٧) .

النص الفارسي :

« آنجه دى روز واقع شد غوغاى عام بودبى اختيار ما جمعى جهال وأوباش ازنادانى جسارت نمودند وسزاى خود ديدند ما برهمان عهديم كه عرضه داشت كرده ايم أكر لشكر امروز مصاف موقوف دارند وبسلامت فرود آيند فرداً هرجه فرمان انحضرت باشد كارند شويم وبعذر تقصيرات كذشته حسب المقدرو قيام نماييم » .

ترجمة الكتاب :

« إن ما حدث أمس كان من فعل بعض الغوغاء دون رغبة منا ، إذ أن جمعاً من الجهال والأوباش قد تجرأوا عن جهل للهجوم فلقوا جزاءهم . ونحن باقون على العهد الذي عرضناه ، فإذا أوقف الجيش القتال اليوم ،

فإننا سوف ننفذ غداً كل ما تأمرون به ، ونقوم بتقديم العذر عن التقصيرات السابقة حسب المقدور » .

الملحق (٨)

كتاب من تيمورلنك بعد واقعة أنقره إلى السلطان فرج وتاريخه ٨٠٥ هـ (ميرخواند : روضة الصفا ، جـ ٦ ، ص ٢٤٦) .

النص الفارسي :

« بنصرت إلهي وعنايت بادشاهي تمام مملكت روم درتحت تصرف وتسخير بند كان دركاه ما قد اركرفت بايدكه سكه وخطبه ولايت شام ومصر به ولقب هما يون زيت ما وزينت دهد واتلمش رادر زمات بدركاه عالميناه روان سازد واكردسين أبواب تغافل جايز دانديفين داندكه رايت نصرت مال بعد إذ مراجعت ازديار روم متوجه مصر وان مرزوبوم خواهد شد هرجه دردل اشتم كفتم تودانى بعد ازاين وقد أعذر من أنذر » .

ترجمة الكتاب : « أصبح ملك جميع بلاد الروم بنصرة الله ، وعناية السلطان تحت حكم أتباعنا فينبغي أن تزين سكة بلاد الشام ومصر وخطبتها باسمنا ولقبنا العظيم ، وأن تطلقوا سراح اطلمش في الحال ، وترسلوه إلى بلاطنا الذي هو ملجأ للعالم ، وإذا تغافلتم في هذا الأمر أدنى تغافل فتيقنوا أن راياتنا المظفرة ستتجه بعد عودتها من بلاد الروم إلى مصر وترفرف على ربوعها . وقد قلت كل ما في نفسي وأنت تعرف ما بعد ذلك . وقد أعذر من أنذر » .

ميرزا جاني عزتي .

من شعراء القرن الحادي عشر الهجري .

كان ممن عملوا للشاه عباس في فارس ، ثم عمل له في دار الانشاء الملكية في أصفهان عدة سنين . ثم ترك عمله وسافر إلى مشهد الرضا وسكنها منشغلاً بالعبادة والزهد إلى حين وفاته فيها .

ويصفه نصر آبادي بأنه كان ملاكاً في لباس البشر .

له عدة دواوين شعرية منها ديوان في المكتبة الوطنية بباريس يحتوي على مئة وألف بيت من الشعر ، فيها الغزل والرباعيات والمفردات والمقطعات .

كان عرفاني المشرب جيل البيان سلس الشعر[1] .

السيد جعفر الرضوي العاملي :

ولد في جبل عامل حدود سنة ١١٠٠ وتوفي بقزوين حدود سنة ١١٨٥ .

من أعيان العلماء مجتهد نحرير مشارك في أنواع العلوم متبحر في الفقه محقق بالأصول شاعر أديب حسن البديهة شديد التقوى كثير الورع .

ولد في جبل عامل ونما هناك وأخذ العلم وفنون الأدب على علمائه ثم هاجر إلى العراق فاتفق وروده إلى كربلاء والنجف مع زيارة نادر شاه الافشارى للعتبات المقدسة في العراق ، فاجتمع المترجم مع نادر شاه المتوج في سنة ١١٤٨ والمقتول سنة ١١٦٠ فاحترمه نادر شاه واعجب به ودعاه إلى إيران فأجاب الدعوة وحل في مدينة قزوين ولقبه الشاه بلقب صدر الصدور ،

(١) تاريخ أدبيات إيران .

وهو أبو الأسرة المعروفة بآل صدر الصدور في قزوين . قال شيخنا الأستاذ الإمام الرازي : (. . . السيد جعفر من سادات جبل عامل واشرافها الأجلاء هاجر إلى إيران وسكن قزوين في عصر السلطان نادر شاه فأحترمه ويجله وأحله مكانة سامية وأنعم عليه بلقب صدر الصدور . . .)[2] وأصبح لقبه صدر الصدور عنوان هذا البيت الجليل ونبغ من ذريته وأحفاده علماء أعلام وشعراء أفذاذ منهم نجله السيد الحسن بن السيد جعفر العاملي آل الصدر الصدور وحفيده السيد أحمد بن السيد الحسن بن المترجم له والسيد عبد الكريم بن السيد أحمد بن السيد الحسن بن السيد جعفر المتوفى سنة ١٣٠٣ الآتي الذكر والسيد جمال الدين بن السيد عبد الكريم المتوفى سنة ١٣٣٣ الآتي الذكر وغيرهم ممن ستذكر كلاً منهم في محله إن شاء الله ، تصدر المترجم له كرسي التدريس والفتوي في قزوين وبث الأحكام الشرعية ، وكانت قزوين منقسمة على نفسها بين الأصوليين والاخباريين[3] وكان المترجم له من أكابر علماء الأصوليين وأئمة الفتوى والتقليد ولا تزال داره موجودة حتى اليوم في شارع سپه خلف مدرسة شيخ الإسلام يتوارثها أحفاده . له مؤلفات منها ديوان شعر ، وكتاب في الفقه ، ورسالة الزينبية ، وكلها موجودة في مكتبة أحفاده بقزوين[4] .

الشيخ جعفر النقدي ابن الحاج محمد .

ولد في العمارة (العراق) سنة ١٣٠٣ وتوفي سنة ١٣٦٩ في الكاظمية ودفن في النجف الأشرف درس في العمارة ثم انتقل إلى النجف لمتابعة الدراسة فكان من اساتذته فيها كل من السيد كاظم اليزدي والشيخ كاظم الخراساني والسيد هبة الدين الشهرستاني . ثم عاد إلى العمارة سنة ١٣٣٢ . وفي سنة ١٣٣٧ عين قاضياً شرعياً في العمارة . وفي سنة ١٣٤٣ نقل إلى بغداد ، ثم إلى البصرة ثم إلى كربلا ثم إلى الحلة .

ثم طلب احالته على التقاعد فعاد إلى العمارة . وفي سنة ١٣٦٤ أعيد إلى القضاء في البضرة ثم صار عضواً في مجلس التمييز الشرعي في بغداد . ثم انتهى إلى التقاعد .

له عدة مؤلفات منها : ١ ـ أحوال الأئمة الإثني عشر .

٢ ـ تاريخ الكاظميين . ٣ ـ اباة الضيم في الإسلام . ٤ ـ ضبط التاريخ بالأحرف . ٥ ـ منن الرحمان في شرح القصيدة الموسومة بالفوز والأمان في مجلدين . ٦ ـ مواهب الواهب في إيمان أبي طالب . وغير ذلك من كتبه المطبوعة .

ومن كتبه التي لم تطبع كتاب : (الروض النضير) في شعراء وعلماء القرن المتأخر والأخير . وكتاب (خزائن الدرر) .

وكان إلى ذلك شاعراً فمن شعره قوله يصف طيارة طارت ليلاً :

زهت بجمالها بنت الفضاء — مجلببة بجلباب البهاء
على الغبراء قد درجت وطارت — بأجنحة البخار مع الهواء
يضاء بها ظلام الجو ليلاً — فتسري وهي ساطعة الضياء

(٢) انظر نقباء البشر في القرن الرابع عشر ج ٣ ص ١١٥٧ .

(٣) أنظر مستدركات أعيان الشيعة ج ٢ ص ٣٠٤ ودائرة المعارف الإسلامية الشيعية م ٤ ص ٥٤٦ .

(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

كأن أشعة الأنوار فيها ... شموس وهي تسطع في المساء
لها لما في الفضا يعنو صغاراً ... وقد سحبت رداء الكبرياء
ترد الريح عنها وهي حسرى ... ويهفو البرق منخمد السناء
سفين والنجوم لها شراع ... تسير على الهواء بغير ماء
إلى العلوي طوراً باستواء ... وللسفلي طوراً بانحناء
بها ابن الأرض حلق مطمئناً ... يريع ببطشه طير السماء
أهذا ابن الثرى قصد الثريا ... من الغبراء يصعد بارتقاء
تضلله الكواكب وهو يعلو ... إلى الجوزاء منشور اللواء
أم الأقمار طار بها عقاب ... ترينا في الظلام سنا ذكاء
تشق بضوئها ستر الدياجي ... فيا عجباً لفعل الكهرباء
لقد نورتنا يا علم فيها ... كشفت عن العيون من الغطاء
فكم من غامض بك قد تجلى ... وكم أظهرت سراً ذا خفاء
وقد حيرتنا يا علم فيما ... يراه من العجائب كل رائي
بني الغرب أفخروا بذوي المساعي ... الذين سعوا لكم لا بالذكاء
فان مفاخراً حصلتموها ... لقد كانت بسعي الأولياء

وله يصف السيارة :

طفقت تنتهب الارض انتهاباً ... وغدت تطوي الفيافي والشعابا
وعلى لوح الثرى آثارها ... بيراع السير قد خطت كتابا
كلما الغاية عنها ابتعدت ... أخذت منها دنواً واقترابا
هي صرح حين تبدو وإذا ... ما جرت تحسبها ليثاً مهابا
صوتها الرعد إذا ما زجرت ... وهي كالثعبان تنساب انسيابا
أدهشت وحش الفلا هيبتها ... فانثنى للبيد عنها مسترابا
وتولى لافتاً مذعراً ... يقطع الأغوار جرياً والهضابا
وإذا ما صرخت ليث الشرى ... فر ينحو فزعاً غاباً فغابا
راعه وسط البراري هيكل ... لا يضاهي الأسد شكلاً والذئابا
يا لها سيارة أبدي بها ... قلم الفن لنا أمراً عجابا
جمعت في جوفها ماءً وناراً ... فهي ريا والحشى يشكو التهابا
ولها عينان مهما حدقت ... بهما شقت من الليل حجابا
ودوي يملأ الكون صدى ... وبه يضطرب الدو اضطرابا
يقف الوهم لديها حاسراً ... كلما تجري انخفاضاً وانتصابا
ويظل الطير في الجو على ... حيرة يهفو ذهاباً وإيابا
فعلى الغاية تنقض عقاباً ... وعلى الظلماء تمتد شهابا

وقال متشوقاً إلى النجف الأشرف :

خفقت على ذكرى الغري ضلوعه ... فغدت تسيل على الخدود دموعه
وإلى ربوع العلم بات فؤاده ... يشكو الغرام وأين عنه ربوعه
بعدت ودون ربوعها بيد الفلا ... والركب شق على المشوق نسوعه
لله برق لاح من وادي الحما ... ليلاً فأثر في حشاي لموعه
هتكت حجاب الأفق ومضة نوره ... ومضت وصبري لم تصنه دروعه
يا منزلاً قد أبعدته يد النوى ... حياك من غيث السماء مريعه
بين الضلوع هواك سر كامن ... لولا الدموع الجاريات تذيعه
إني لينعشني بربعك صيفه ... وشتاؤه وخريفه وربيعه
يا حبذا شمس السماء غروبها ... بحماك والبدر المنير طلوعه
أدرت مهاد العلم أن وليدها ... بلغ الفطام من السلو رضيعه
يا جيرة الذكوات أذكى بعدكم ... قلباً لقربكم شجاه ولوعه
ما أطيب النشر الذي من حيكم ... ريح الخزامى في الفضاء تضيعه
وحمام أيكٍ أرقته نوائحي ... فغدا ينوح فراقني تسجيعه
نح يا حمام كما تشاء فكلنا ... من دهره مضنى الفؤاد وجيعه
عيناك ما هجعت وعيني لم تنم ... من كان ذا قلق فكيف هجوعه
هيهات أن يدنو الرقاد لناظر ... جفت مدامعه وسال نجيعه
ما هذه الدنيا بدار مسرة ... فيها الفتى يهنى ويسكن روعه
لكنها دار الهوان وكلما ... فيها يؤول إلى الشتات جميعه

السيد جمال الدين بن السيد عبد الكريم بن السيد أحمد بن السيد الحسن بن السيد جعفر الرضوي العاملي الأصل القزويني المولد والمسكن والمدفن .

ولد في قزوين سنة ١٢٦٦ وتوفى بها سنة ١٣٣٣ ودفن في ايوان الشاه زاده حسين بن الإمام الرضا عليه السّلام .

من أعيان العلماء وأئمة الفتوى والتدريس جامع المعقول والمنقول .

وآل صدر الصدور : من أعرق الأسر العلمية العاملية العلوية القزوينية التي بزغ نجمها في أفق قزوين في القرن الثاني عشر للهجرة منذ عهد جدهم السيد جعفر الرضوي العاملي الذي هاجر من جبل عامل في عصر السلطان نادر شاه الافشاري المتوج في سنة ١١٤٨ والمقتول في سنة ١١٦٠ وانعم عليه السلطان نادر الشاه بلقب صدر الصدور وأصبح هذا اللقب عنوان هذا البيت الجليل . وهم غير أسرة آل شيخ الإسلام العلوية العاملية الحسينية في قزوين الذين هاجروا من جبل عامل في أوائل الحكم الصفوي إلى قزوين الآتي ذكرهم . نبغ من هذا البيت الجليل جمع من العلماء الأعلام والشعراء الأفذاذ منهم والد المترجم له السيد عبد الكريم آل صدر الصدور القزويني المتوفى سنة ١٣٠٣ الآتي ذكره والشاعر العارف السيد محمد آل صدر الصدور القزويني المتخلص بـ « خاك » وغيرهم ويأتي ذكر كل منهم في محله إن شاء الله .

قال شيخنا الأستاذ آغا بزرك الطهراني في وصف هذه الأسرة : (. . . السيد جعفر من سادات جبل عامل وأشرافها الأجلاء هاجر إلى إيران وسكن قزوين في عصر السلطان نادر شاه فاحترمه وبجله وأحله مكانة سامية وأنعم عليه بلقب صدر الصدور)(١) .

ولد المترجم له في قزوين في بيت علم ورياسة وأخذ المقدمات والمنطق والصرف والنحو والعلوم العربية والفنون الأدب على رجال أسرته منهم والده السيد عبد الكريم وغيرهم ثم حضر في الفقه والأصول والحكمة والفلسفة على الشيخ الميرزا عبد الوهاب البرغاني المتوفى سنة ١٢٩٤ والشيخ محمد علي بن الشيخ محمد صالح البرغاني القزويني وغيرهم من قزوين ثم هاجر إلى أصفهان والتحق بحوزة الشيخ محمد باقر الفشاركي والشيخ محمد باقر الأصفهاني وصدرت له الإجازة من مشايخه المذكورين فتوجه إلى العراق قاصداً الحوزة العلمية الكبرى في العتبات المقدسة فحضر في كربلاء على الشيخ زين العابدين المازندراني الحائري ومدرس الطف الشيخ ميرزا علي تقي البرغاني آل الصالحي وأخذ الفلسفة والعلوم العقلية عن حوزة الشيخ الميرزا علامة البرغاني الحائري آل الصالحي ثم استقر في النجف الأشرف والتحق

(١) أنظر نقباء البشر في القرن الرابع عشر ج ٣ ص ١١٥٧ .

بحوزة الميرزا حبيب الله الرشتي والشيخ لطف الله المازندراني النجفي ومنها هاجر إلى سامراء مستفيداً من بحث الإمام الشيرازي السيد محمد حسن حتى برع وكان ذو حافظة غريبة واستحضار لرؤوس المسائل الفقهية مما أهله لأن يعد في مصاف فحول العلماء الأعلام فعاد إلى قزوين في سنة ١٣٠٤ فاستقبلته كافة الطبقات استقبالاً شعبياً قل نظيره وأخذ يشتهر يوماً فيوماً حتى أصبح من علماء قزوين الأكابر وأساطين الدين وتصدر للتدريس والفتوى ورجع إليه جمع من المؤمنين في أمر التقليد وذكره شيخنا الأستاذ الإمام الطهراني في طبقات أعلام الشيعة وقال : (السيد جمال الدين بن السيد عبد الكريم بن السيد أحمد بن الحسن بن جعفر الرضوي العاملي الأصل القزويني المولد والمسكن والمدفن عالم جامع وفقيه متبحر هاجر جده الأعلى السيد جعفر من جبل عامل وسكن قزوين أيام السلطان نادر شاه وتعاقب فيها أولاده وأحفاده إلى اليوم ولد المترجم حدود سنة ١٢٧٠ هجرية ونشأ في قزوين ثم هاجر إلى أصفهان . . . ثم ذكر مشايخه وقال ورجع من العراق إلى قزوين في سنة ١٣٠٤ هجرية مقيماً بها للوظائف الشرعية إلى أن توفي حدود سنة ١٣٣٠ وله تصانيف منها كتاب المصابيح في الفقه ورسالة في القراءة خلف الإمام . . .)[١] .

أقول : وان نجله السيد محيي الدين كان من أبرز علماء قزوين وذوي الرئاسة فيها ، وصفه السيد محمد علي گلريز قائلاً : والسيد محيي الدين بن السيد جمال الدين من العلماء البارزين ووجهاء قزوين[٢] .

ترك المترجم له مؤلفات ورسائل منها : ١ - كتاب المصابيح في الفقه من الطهارة إلى الديات في أربع مجلدات ، رسالة في حدوث العالم ، رسالة عرفانية ، رسالة في القراءة خلف الإمام ، تقريرات درس استاذه الشيرازي في الأصول مجلدين ، تقريرات درس الشيرازي في الفقه في مجلد واحد ، ديوان شعر صغير[٣] .

السيد جواد بن السيد جمال الدين حسن بن السيد محمد باقر بن السيد عبد المطلب الحسيني العلوي العريفي البشروي الحائري .

توفي في كربلاء حدود سنة ١٢٦٠ ودفن في الروضة الحسينية .

كان من كبار العلماء وأهل الفضل والمحققين ولد ونشأ في كربلاء وأخذ المقدمات والعلوم الإسلامية على أفاضل الحائر الشريف ثم تخرج في الفقه والأصول على الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وشريف العلماء المازندراني الحائري المتوفى سنة ١٢٤٦ وشغل كرسي التدريس والفتوى والإمامة في الحائر الشريف وهو نجل السيد جمال الدين حسن البشروي الخراساني الحائري الذي ذكر في أعيان الشيعة (الجزء الخامس صفحة ٢٤١) .

من مؤلفات المترجم له حواشي على كتاب الكافية في الأصول لوالده والنسخة الأصلية بخط المؤلف في المكتبة الرضوية في خراسان[٤] .

حسن علي ميرزا شجاع السلطنة ابن فتح علي شاه القاجاري السادس وأخو حسين علي ميرزا فرمانفرما الأصغر .

عين حاكماً على طهران سنة ١٢١٨ هـ وهو في الخامسة عشرة من عمرة . وهذا أول عمل تولاه من الأعمال الحكومية . وفي سنة ١٢٢٤ هـ كان يحكم ، مع طهران ، بسطام وجاجرم ، ويتولى تدبير شؤون القبائل التركمانية .

وفي تلك السنة خطب أبوه لنفسه « طاوس خانم » الأصفهانية الكرجية الأصل الملقبة بـ « تاج الدولة » ، وأمره بتهيئة أمور الاحتفال بالعرس . وأهدى ، لهذه المناسبة ، « الحاج محمد حسين خان صدر » الأصفهاني إلى فتح علي شاه عرشاً سماه « تخت خورشيد » (تخت الشمس) إذ كان على متكئه صورة للشمس . وفي ليلة العرس جلس « فتح علي شاه » على هذا التخت إلى جانب عروسه ، وغير اسمه إلى « تخت طاوس »[٥] باسم العروس .

وفي سنة ١٢٢٩ هـ كان « محمد ولي ميرزا » ابن فتح علي شاه الرابع والياً على خراسان . فوقع بينه وبين خاناتها وأمرائها خلاف شديد فاستدعي إلى طهران ، وفي النية إرسال « حسن علي ميرزا » والياً على خراسان بدلاً منه . ولكن صرف النظر عن هذا التدبير بالنظر إلى بعض المصالح الملكية . وأعيد « محمد ولي ميرزا » نفسه إلى عمله في خراسان ، وأرسلوا معه « الميرزا عبد الوهاب خان نشاط معتمد الدولة » و « فرج الله خان نسقجي باشي » . وفي مقابل ذلك ضمت يزد أيضاً إلى حكم « حسن علي ميرزا » على طهران وبسطام . فأرسل من قبله « الميرزا موسى منجم باشي » الرشتي حاكماً على يزد . فقد كانت العادة في عهد القاجاريين ، وفي عهد غيرهم أيضاً ، أن يكون في عهدة أبناء الشاه ، ومثلهم بعض الوزراء ، أكثر من عمل واحد . فإذا خلت يد أحدهم من عمل كان لديه عمل آخر بمنزلة « الاحتياطي » .

وفي أواخر سنة ١٢٣١ هـ عُزل محافظ خراسان الأمير محمد ولي ميرزا عن حكومة خراسان وعهد بها إلى حسن علي ميرزا ولقب (شجاع السلطنة) . وكان سبب هذا التدبير وقوع فتنة في خراسان[٦] ، ومقتل إسحق خان قرائي وابنه حسن علي خان[٧] بأمر محمد ولي ميرزا . وكانت نتيجة هذا العزل والتعيين أن قرّ خانات خراسان في أماكنهم ، ونشر شجاع السلطنة الأمن في ربوع خراسان ، وأطلق حاجي فيروز الدين ميرزا[٨] حاكم « هرات » سراح مبعوث الحكومة المركزية المؤرخ محمد صادق المروزي[٩] بعد أن حبسه في سجن « هرات » تسعة أشهر ، وجلا عن « غوريان »[١٠] ، وكان ابنه « الملك قاسم ميرزا » قد سبق أن احتلها ، فعادت إلى حكم مأمورين من قبل والي خراسان .

بعد شهرين من وصول شجاع السلطنة إلى مشهد عزم على غزو

---

(١) انظر نقباء البشر في القرن الرابع عشرج ١ ص ٣١٤ .

(٢) انظر مينودرج ١ ص ٣٤٠ الطبعة الأولى طهران منشورات جامعة طهران .

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٥) هو غير « تخت طاوس » الشهير الذي حمله نادر شاه إلى إيران من الهند لما فتحها .

(٦) هي فتنة عظيمة اشترك فيها فريق من خانات خراسان وأسرة « سدوزائي » الحاكمة يومئذ في أفغانستان . بدأت الفتنة في سنة ١٩٢٩ هـ .

(٧) هما من كبار خانات خراسان . وكانا يخالفان الأمير محمد ولي ميرزا ويكيدان له ولا يعتنيان به . وكلماه مرة في مجلس بكلام غير لائق ، فأمر بقتلهما فقتلا

(٨) هو أخو الشاه محمود السدوزائي ملك أفغانستان يومئذ .

(٩) من موظفي وزارة المالية ، بعثت به الحكومة المركزية من طهران إلى « هرات » للتحقيق فى شكاوى رفعت إليها .

(١٠) كان من وقائع تلك الفتنة أن هاجم فيروز الدين ميرزا « غوريان » فاحتلها وطرد حاكمها المعين من قبل والي خراسان .

« هرات »[1] واحتلالها . فخرج من مشهد يقصدها . فاحتل قلعة « محمود آباد جم » حرباً . ثم تابع سيره إلى « هرات » فالتقى جيش « حاجي فيروز الدين » عند نهر « إنجيل » فهزمه وضرب الحصار على « هرات » . وانتهى الأمر إلى دخول « حاجي فيروز الدين » في طاعته وضرب السكة باسم فتح علي شاه وخطب باسمه . وظل « حسن علي ميرزا » في تلك النواحي قريباً من ثلاثة شهور يحارب المتمردين فأخضع أكثرهم . ثم عاد إلى مشهد في شهر رمضان من تلك السنة .

وفي سنة ١٢٣٢ هـ ، إذ كان « حسن علي ميرزا شجاع السلطنة » قد احتل « هرات » ونصب حاجي فيروز الدين ميرزا حاكماً عليها بشرط أن يكون تابعاً لإيران في كل شيء ، ثم عاد إلى مشهد ، أرسل حاجي فيروز الدين ميرزا ابنه الملك حسين ميرزا إلى « قندهار » إلى أخيه شاه محمود وأرسل معه أحد رجاله ، يطلب من أخيه مساعدته على استرجاع « غوريان » . وكان « شاه محمود » يترقب سنوح مثل هذه الفرصة فاغتنمها ، وأرسل إليه وزيره « فتح خان » ، وكان رجلاً مغامراً مدبراً ، وأرسل معه بعض إخوته وثلاثين ألف فارس .

وكان الظاهر من هذه البعثة هو مساعدة أخيه حاجي فيروز الدين ميرزا بناء على طلبه ، ولكنه كان ينوي في الباطن احتلال « هرات » واعتقال أخيه . ولما وصل « فتح خان » بجيشه إلى « فراه » ، قال حاجي آقا خان وزير فيروز الدين ميرزا ، وكان امرءاً محنكاً بصيراً بالعواقب ، لفيروز الدين : لا أرى صلاحاً في أن تسمح لفتح خان بدخول المدينة بهذا الجيش الذي معه . والصلاح في أن يعسكر خارج المدينة .

وبعد ذلك خف حاجي آقا خان بنفسه إلى استقبال فتح خان وانزله في مكان خارج المدينة ، وأبلغه عن لسان فيروز الدين ميرزا أن الغاية من مجيئه إلى « هرات » إنما هي استرداد « غوريان » . وعلى هذا يترتب عليه أن يبدأ أولاً بالسير إليها ، فإذا استردها جاء إلى « هرات » فيستقبل فيها بما يجب من إكرام وإجلال .

وأراد الوزير « فتح خان » أن يبعد فيروز الدين ميرزا ورجاله عن كل سوء ظن به وأنه مطيع لأوامره وسيمضي عن « هرات » إلى استرداد « غوريان » . فأظهر الإنصياع لطلب فيروز الدين ميرزا ، ومكث في خارج « هرات » بضعة أيام بدعوى التهيؤ للحرب . ثم دعا بعدها فيروز الدين ميرزا إلى معسكره لمشاورته وتوديعه قبل الذهاب . فأجاب دعوته مطمئناً إلى قوله . وبعد التشاور والتوديع ، أمر « فتح خان » باعتقاله ثم أرسله مخفوراً إلى « قندهار » إلى « شاه محمود » ، وقتل وزيره حاجي آقا خان ومستشاره عبد الرشيد خان . ثم دخل مدينة « هرات » سنة ١٢٣٣ هـ ونهب أمواله وأموال ابنه « الملك قاسم ميرزا » وخزائنها . وظل مقيماً في المدينة . ثم شرع يرسل رسلاً وكتباً إلى خانات خراسان ورؤسائها و « محمد رحيم خان الخوارزمي » خان « خيوه » فحالفهم . ثم بعث بأخيه « كهندل خان » لاحتلال « غوريان » ، وسار هو في تلك السنة من « هرات » بثلاثين ألفاً إلى خراسان يقصد احتلالها . وسار محمد رحيم خان أمير خوارزم برجاله حتى بلغ أراضي « سرخس » .

وسار « شجاع السلطنة » من مشهد في ٨ رجب من تلك السنة في طريق « هرات » إذ رأى أن الأنسب البدء بدفع الأفاغنة . والتقى الجمعان ، عسكر « فتح خان » وعدته ثلاثون ألفاً وعسكر « حسن علي ميرزا » وعدته عشرة آلاف ، في أراضي « كوسويه » (كوهستان) . فأرسل « فتح خان » رسولاً إلى « شجاع السلطنة » يقترح عليه الصلح والإنصراف عن الحرب وسفك الدماء في مقابل شروط مجحفة بحق إيران . فلم يلتفت إليه « شجاع السلطنة » . ووقعت حرب شديدة استبسل فيها الإيرانيون ، وبلغ أحد قوادهم « ذو الفقار خان » السمناني الغاية من الشجاعة والثبات حتى انتصروا ، يقول المؤرخ الإنكليزي « آر . جي . واتسون » في كتابه « تاريخ القاجاريين » :

« في هذه المعركة رأى ذو الفقار خان قائد الفوج السمناني أن جنوده أخذوا يفرون إذ رأوا كثرة عدوهم . فترجل عن حصانه وعقره ، وصاح بجنده : أتفرون وتتركونني وحيداً ! فأخذتهم النخوة وثبتوا معه حتى تم لهم النصر » ا هـ .

وفي هذه المعركة أصيب « فتح خان » برصاصة في فمه . إصابة شديدة ، فكان ذلك باعثاً على انكسار معنويات جنوده ، فتفرقوا عنه منهزمين . ولو لم ينتصر الإيرانيون في هذه الحرب لوقعت إيران في صعوبات عظيمة .

وكان « كامران ميرزا » ابن « الشاه محمود » حاكماً على « هرات » . فلما بلغه نبأ هذه الحرب وما حدث فيها أراد الإعتذار إلى دولته إيران فتبرأ مما فعله « فتح خان » وأعلن أنه إنما أقدم على محاولة غزو مشهد من تلقاء نفسه بدون علم منه ومن أبيه . ومن أجل أن يثبت ذلك أمر بسمل عيني « فتح خان » وكان ذلك في سنة ١٢٣٣ هـ . وفي سنة ١٢٣٤ هـ قتله[2] .

وانصرف « شجاع السلطنة » ، بعد هذا النصر ، إلى قمع المتمردين من خانات خراسان . فما حلت سنة ١٢٣٥ هـ حتى كان قد أخمد فتنهم ، وعزم على غزو « هرات » لقمع « الشاه محمود السدوزائي » . وإذ كان هذا على علم سابق بذلك فقد بادر إلى تدارك أمره بأن أرسل من قبله رسولاً إلى طهران إلى « فتح علي شاه » . فذهب الرسول أولاً إلى « تربت حيدرية » حيث كان « شجاع السلطنة » ، فاجتمع به وقدم إليه مقداراً كبيراً من الهدايا والمال وصرفه بهذه الرشوة عن السير إلى « هرات » . ثم تابع سيره إلى طهران ، فدخل على « فتح علي شاه » ورشاه كما رشا ابنه « شجاع السلطنة » بوافر من الهدايا والمال ، وبذلك سلم « الشاه محمود » من الغزو والحرب . وعاد « شجاع السلطنة » إلى مشهد .

وفي سنة ١٢٣٨ عُزل « شجاع السلطنة » عن ولاية خراسان واستُدعي إلى طهران . وكان السبب في ذلك أن خانات خراسان تواطأوا على الوشاية به إلى أبيه « فتح علي شاه » . فحذروه سرياً من أن من الممكن أن يتمرد ابنه

---

(١) إحدى مدن خراسان الأربع .

(٢) أغضب إعماء هذا الوزير ثم قتله إخوته ، وعددهم تسعة عشر ، فثاروا على « الشاه محمود » ، وأدت ثورتهم إلى زوال أسرته ، أسرة « سدوزائي » ، بعد أن حكمت أفغانستان ٩٤ عاماً ، من سنة ١١٦٠ هـ إلى سنة ١٢٥٤ هـ ، وحلت محلها في الحكم أسرة « محمد زائي » ، ومؤسسها « دوست محمد خان » أخو الوزير « فتح خان » المذكور . وهي الأسرة التي ظلت تحكم أفغانستان إلى يوم الإنقلاب الجمهوري الذي وقع في سنة ١٩٧٣م والأسرتان كلتاهما من طائفة الأبداليين .

ويخرج عليه . فلما سمع « شجاع السلطنة » بهذا الخبر ذهب إلى طهران واستقال من الولاية على خراسان . وعين « فتح علي شاه » ابنه الثامن « علي نقي ميرزا » في مكانه ولقبه بـ « حجة السلطان » ، وكان قبلها حاكماً على قزوين .

ولكن « علي نقي ميرزا » عجز عن تطويع خانات خراسان فعاد إلى طهران في سنة ١٢٣٩ هـ واستعفى من ولاية خراسان . فأعاد الشاه « شجاع السلطنة » إليها مرة ثانية في تلك السنة .

وفي سنة ١٢٤٠ هـ ، وكان « رحمن قلي توره » والي خوارزم الأزبكي قد هاجم خراسان ووصل إلى قرب مشهد ، خرج « شجاع السلطنة » إلى حرب هذا الوالي فهزمه هزيمة شديدة ورد الأزابكة عن خراسان .

وفي سنة ١٢٤١ هـ كان « الشاه محمود » الأفغاني حاكماً على « هرات » . وكان يخشى أن يعتقله ابنه « كامران ميرزا » ويحبسه . فخرج من « هرات » وهيأ جيشاً من البلدان التي في نواحيها ، وهاجم به « هرات » وأوشك أن يحتلها ويقبض على ابنه . فأرسل الابن إلى « شجاع السلطنة » يستنجد به . فقدم « شجاع السلطنة » من مشهد إلى إنجاده بجيش كامل التجهيز في شهر ذي الحجة من تلك السنة . وكان قدومه بنفسه إلى « هرات » سبباً في انكسار « الشاه محمود » ودفعه عنها ، وتغلب الابن على أبيه .

وأقام « شجاع السلطنة » في « هرات » شهراً وبعض الشهر ، ثم عاد إلى مشهد وترك في « هرات » ابنه الثالث « أرغون ميرزا » مع خمسة آلاف فارس .

وظل « شجاع السلطنة » والياً على خراسان إلى سنة ١٢٤٣ هـ ، وهي السنة التي أوقع الروس فيها بإيران هزيمة شديدة في الحرب الثانية التي وقعت بين الدولتين ، وانتهت إلى عقد معاهدة « تركمان شاي » ، واحتلال الروس « إيروان » وتبريز .

في ذلك الحين أمر « فتح علي شاه » جميع الولاة بتهيئة الجيوش والحضور بها إلى العاصمة لمتابعة محاربة الروس . وجاء « شجاع السلطنة » بجيش عظيم من خراسان متهيئاً للحرب . ولكن وقع خلاف بينه وبين أخيه ولي العهد « عباس ميرزا » ، فقد كان هذا يرى الصلح و « شجاع السلطنة » يرى الحرب . وشاع في أوساط العسكريين والبلاطيين يومئذ أن « فتح علي شاه » أخذ يرتاب في « عباس ميرزا » ويظن به الخيانة ، وأنه ينوي عزله من ولاية العهد وتولية « شجاع السلطنة » مكانه . وشاع أيضاً أن « شجاع السلطنة » اقترح على أبيه أن ينحّ « عباس ميرزا » وأقمني في مكانه آمراً على الجيش فأسير إلى أذربيجان وأتابع محاربة الروس . ولكن السياسة الإيجابية التي اتبعها « عباس ميرزا » في معاملة الروس قربته منهم وأوجدت بينه وبينهم رابطة صداقة وثقة ، فأيدوه . وإذ كانت كلمتهم مسموعة لأن الغلبة كانت لهم ، فقد رُد اقتراح « شجاع السلطنة » ، ومضى « عباس ميرزا » في إنفاذ رأيه حتى تم الصلح وعقدت معاهدة « تركمان شاي » . وأوقع هذا الخلاف عداء شديداً بين الأخوين .

ومع أنه شاع شيوعاً واسعاً أن « عباس ميرزا » قد خان بلاده باتباعه هذه السياسة ، فإن فريقاً من كبار المؤرخين يرى أن الحق كان في جانبه وأن « شجاع السلطنة » كان مخطئاً في سياسته ، لأن إيران كانت يومئذ عاجزة عن متابعة الحرب بسبب تفوق الروس عليها تفوقاً عظيماً ، فهي لا قبل لها بمقاومتهم . ولن تجني من متابعة الحرب غير متابعة الروس احتلال أقسام أخرى من أرضها . وسبب آخر هو أن رضوخ إيران لمعاهدة هي المغلوبة فيها لن يدفع الروس إلى إثارة حرب أخرى في المستقبل على إيران . لأن انكلترا ، وهي حليفة روسيا ، لن تسمح لهم بالتقدم أكثر مما تقدموا لأن خطتها في المحافظة على طريقها إلى الهند تقتضيها ذلك ، وأن إيران قد ضعفت وتمزقت بيد الروس، إلى الحد الذي تريده إنكلترا . وهنا يجب أن تتوقف روسيا . ومن ثم لم يبق وجه لأن تتابع إيران محاربة روسيا ، فعقدت معاهدة « تركمان شاي » .

استمرت الحرب الثانية بين روسيا وإيران من سنة ١٢٤١ هـ إلى سنة ١٢٤٣ هـ ، وانتهت إلى انكسار إيران انكساراً تاماً ، والإضرار بها إضراراً عظيماً ، حتى يمكن القول إن إيران أصبحت بعد هذه الحرب وعقد تلك المعاهدة بلا حول ولا قوة .

في سنة ١٢٤٣ هـ ، إذ كان أبناء الشاه وحكام الولايات في طهران بدعوة من « فتح علي شاه » للتشاور في أمر الحرب تمرد « عباس قلي خان » حاكم كرمان وبلوشستان وخرج على الدولة بتحريض من وزيره « محمد قاسم خان » الدامغاني . وكان « محمد ولي ميرزا » ابن « فتح علي شاه » يومئذ حاكماً على يزد . فلما بلغه نبأ الثورة في كرمان ذهب إلى طهران لتقديم تقرير عنها وتدبر أمرها ، وأناب عنه على حكومة يزد وزيره « عبد الرضا خان » ابن « تقي خان » حاكم يزد السابق .

فلما وصل « محمد ولي ميرزا » إلى طهران صادر نائبه « عبد الرضا خان » كل أمواله لنفسه ، وأخرج نساءه وأبناءه وأقرباءه ، وعدتهم ثلاثمائة ، من يزد وبعث بهم إلى طهران وأعطاهم مبلغاً من المال نفقة الطريق . وفيما « محمد ولي ميرزا » عائد من طهران إلى يزد التقى بهم في « نايين » فاضطر أن يقطع سفره ويعود معهم إلى طهران .

وكان والي خراسان « حسن علي ميرزا شجاع السلطنة » حينئذ في طهران مشغولاً بالمشاورات القائمة في موضوع الحرب الروسية الإيرانية . فأمر « فتح علي شاه » بتعيينه حاكماً على يزد وكرمان ، وبعث به مع جيشه إليهما لإقرار النظام فيهما . وبعث معه بأحد رجاله اسمه « آقا إسماعيل » ليسترد من حاكم يزد المتمرد أموال « محمد ولي ميرزا » . فلما وصل « شجاع السلطنة » إلى يزد قاومه حاكمها المتمرد ، وتوسل بالعلماء ليكونوا واسطة بينه وبين الشاه فالتمسوا من الشاه إقرار « عبد الرضا » في حاكمية يزد وإرجاع « شجاع السلطنة » عن محاصرة يزد . وقدم « عبد الرضا » إلى الشاه هدايا كثيرة ، فأجابهم إلى طلبهم ، وسار « شجاع السلطنة » من يزد إلى كرمان . وهناك قوبل أيضاً بمقاومة شديدة انتهت بعد اثني عشر يوماً من الجدال والمنازعة والحرب إلى انتصاره بحسن تدبير « آقا محمد حسن » المازندراني أحد رجال خاصته . وبعد مدة قليلة ثار أهالي المدينة مرة ثانية على « شجاع السلطنة » فأخمد ثورتهم وأخضع رؤساءهم .

وفي سنة ١٢٤٥ هـ اضطر « فتح علي شاه » إلى السفر إلى فارس ، لقمع بعض حركات التمرد . فاستدعى إليه « شجاع السلطنة » من كرمان فصحبه إلى شيراز ، ثم عاد منها إلى كرمان وفي خدمته « محمد زكي خان » .

وفي سنة ١٢٤٦ هـ اتصل « شفيع خان » حاكم نواحي كرمان بـ « عبد

الرضا خان » حاكم يزد فحرضه هذا على الخروج على « شجاع السلطنة » . وبلغ ذلك إلى « شجاع السلطنة » فغضب غضباً شديداً وقام بمحاصرة يزد يريد اعتقال « عبد الرضا خان » . وإذ كان قد قام بهذا العمل على خلاف ميل أبيه وبدون إجازة منه ، فقد عين « فتح علي شاه » حفيده « سيف الدولة ميرزا » حاكماً على يزد . إلا أن « شجاع السلطنة » شدد حصاره عليها مندفعاً بما في نفسه من حقد ونقمة . فلما رأى « فتح علي شاه » ذلك منه أمر نائبه وولي عهده « عباس ميرزا » بالمسير إلى يزد لاستخلاصها وإخماد الثورة فيها . فلما علم « شجاع السلطنة » بذلك عاد عن يزد إلى كرمان . واحتل « عباس ميرزا » يزد واعتقل « عبد الرضا خان » ثم سار إلى كرمان . فلما علم « شجاع السلطنة » بقدومه إليها أرسل ابنه الأكبر « هلاكو ميرزا » الملقب بـ « بهادر خان » إلى استقباله ، ودخل « عباس ميرزا » نائب السلطنة إلى كرمان سلماً بلا مقاومة . ودخلها أيضاً حين دخوله « آقا محمد كريم » أحد رجال « فتح علي شاه » مرسلاً من قبل الشاه لإحضار « حسن علي ميرزا » إلى طهران .

وفي أواخر سنة ١٢٤٦ هـ أرسل نائب السلطنة « شجاع السلطنة » إلى طهران ، ومعه مائتا فارس ، وعليه « محمد زمان خان قاجار دولو » رقيباً . وفي تلك السنة ذهب « فتح علي شاه » إلى أصفهان ، وأحضر إليه أبناء « شجاع السلطنة » وأحضر أيضاً « حسين علي ميرزا » الملقب بـ « فرمان فرما » (الحاكم) وهو ابنه الخامس من شيراز قاعدة ولاية فارس ، وكان والياً عليها ، فحقق في أمور كان قد أقدم عليها ، ثم أذن له بالعودة إلى شيراز وسلم إليه أبناء « شجاع السلطنة » يصحبهم معه إلى فارس ويحتفظ بهم عنده هناك .

وفي أواخر سنة ١٢٤٨ هـ أرسل الشاه « شجاع السلطنة » إلى شيراز إلى أخيه « حسين علي ميرزا » لإخماد فتنة وقعت في أراضي « كوه كيلويه » و « دشتستان » ، ومنها يذهب إلى كرمان حاكماً عليها .

وفي أوائل سنة ١٢٤٩ هـ توفي ولي العهد « عباس ميرزا » في مشهد ونصب ابنه « محمد ميرزا » ولياً للعهد خلفاً له ، إذ كانت معاهدة « تركمان شاي » التي عقدت بين إيران وروسيا سنة ١٢٤٣ هـ قد نصت على أن يكون الملك له ولأعقابه من بعده . ولم تمانع إنكلترا كذلك تعيينه لهذا المنصب .

وفي سنة ١٢٥٠ هـ توفي « فتح علي شاه » في أصفهان ، فأصبح حفيده هذا خلفاً له على العرش . وكان الصدر الأعظم « عبد الله خان أمين الدولة » يريد أن يكون منصب الشاه لـ « حسين علي ميرزا فرمان فرما » خامس أبناء « فتح علي شاه » . وقد ترك الشاه المتوفى من بعده ستين من الأبناء ، كان كثيرون منهم يشغلون مناصب الحكام والولاة في مختلف الإيالات والولايات . ومنهم « حسن علي ميرزا شجاع السلطنة » كان حاكماً على كرمان . فلما سمع بنبأ وفاة أبيه « فتح علي شاه » وتولي ابن أخيه « محمد ميرزا » منصب جده استاء أشد الإستياء . فذهب إلى فارس إلى أخيه « حسين علي ميرزا فرمان فرما » . ونادى هذا بنفسه شاهاً وعين « شجاع السلطنة » قائداً لجيشه .

أما « محمد شاه » فقد عمل بمشورة وزيره الكفء القائمقام « الميرزا أبو القاسم » فبعث بأخيه « فيروز ميرزا » ومعه أحد خاصة « منوجهر خان معتمد الدولة » وبعض الضباط الإنكليز بجيش إلى فارس لإخضاع الأخوين العاصيين .

والتقى الجيشان ، جيش « حسين علي شاه » بقيادة « شجاع السلطنة » وجيش « محمد شاه » بقيادة الضابط الإنكليزي « ليندزي » ، ووقعت بينهما معركة في ناحية تدعى « شولكستان » ، انهزم فيها « شجاع السلطنة » هزيمة مروعة ، فتراجع ، بل فر ، إلى شيراز .

وانتهى أمر الأخوين إلى التسليم ، فأسرهما « معتمد الدولة » وبعث بهما مع « منصور خان الفراهاني » إلى طهران . وقبل وصولهم إلى العاصمة سمل « محمد باقر خان قاجار دولو » محافظ طهران عيني « شجاع السلطنة » في قرية « كناركرد » بالقرب من طهران بأمر من « محمد شاه » . وسجن الأخ الأكبر « حسين علي ميرزا فرمان فرما » في عمارة « برج نوش » . وبعد بضعة أشهر توفي بالكوليرا في أوائل سنة ١٢٥١ هـ .

وأوقف « حسن علي ميرزا شجاع السلطنة » الأعمى مدة في طهران . ثم سجنوه مع عشرة من أبناء « فتح علي شاه » في قلعة أردبيل . وظل مسجوناً فيها إلى سنة ١٢٥٣ هـ ، إذ استطاع أربعة من المسجونين الفرار من القلعة من ثغرة فتحها لهم في أحد جدران القلعة رجل من حافري الأقنية ، بعد أن هيئت لهم جميع وسائل الفرار اللازمة ، ولجأوا إلى روسيا . وبعد هذه الحادثة نقل بقية الأمراء المسجونين إلى تبريز لكيلا يتمكنوا من الفرار ، وأقيمت عليهم حراسة دقيقة .

وولد « شجاع السلطنة » سنة ١٢٠٤ هـ وتوفي سنة ١٢٧٠ هـ في طهران وله من العمر ٦٧ عاماً . وكان ينظم الشعر ، مثل كثير من أبناء « فتح علي شاه » . واسمه الشعري المستعار « شكسته » أي : الضعيف[١] .

الحاج حسين بن علي قصفة

ولد في قرية السلطانية التي كانت تسمى (اليهودية) بجبل عامل سنة ١٣٠٥ وتوفي فيها سنة ١٣٨٥ .

نشأ في قريته وتتلمذ على أحد شيوخها فتعلم مبادىء القراءة .

وكان ذا ولع بالشعر العامي ومارسه في صغره حتى مالت نفسه إلى العلم ولكن وسائل التعليم كانت مفقودة ببلدته في ذلك الزمن فتتبع الكتب والشيوخ إلى أن أصبح له إلمام باللغة العربية .

سافر مرتين إلى الولايات المتحدة الأميركية الأولى من سنة ١٣٣٠ هـ إلى سنة ١٣٣٧ هـ . والثانية من سنة ١٣٣٨ هـ إلى سنة ١٣٤٨ هـ . ونظم في المهجر قسماً كبيراً من شعره أكثره في الحنين إلى وطنه ، ثم عاد إلى قريته واستقر فيها حتى أدركته الوفاة .

من مؤلفاته : تصحيح نخبة المحدثين في كتاب صفين لنصر بن مزاحم مع إضافات هامة طبع في مدينة « ديترويت » الولايات المتحدة عام ١٩٢٥ ومن مؤلفاته التي لم تطبع :

١ - شرح القصيدة الافريقية التي مطلعها :

مهلاً على رسلك حادي الاينق ولا تكلفها بما لا تطق

(١) مهدي بامداد .

٢ ـ شرح القصيدة البائية للسيد حسن محمود الأمين في مديح أمير المؤمنين عليه السّلام التي مطلعها :

فرقان مدحك يجلو ظلمة الريب وآية الصدق تمحو آية الكذب

٣ ـ منتخبات من الشعر العربي .

فمن شعره مراسلاً أحد أصدقائه المهاجرين :

ذهبت بصفو حياتنا الأيام ومضت بعاطر ذكرنا الأعوام
فمن الزمان وحادثات صروفه لا الكر ينقذنا ولا الأحجام
أعمارنا مرت سراعاً وانقضت فكأنها بمرورها أحلام
فعلى الحياة وما مضى من عيشنا والذكريات وما تضم سلام
بالأمس كنت إذا مررت بربعها لا العين تصبيني ولا الآرام
أمشي كما شاء الغرام ولم أقل هذا الحمام إلى النفوس حمام
يا نازحاً عن داره منذ الصبى الدار يحيي ذكرها الإلمام
لا الدار دار في الربوع ولا الحمى هو ما عهدت ولا الخيام خيام

السيد حسين فخر الدين ابن السيد علي

ولد سنة ١٨٨٠ م في قرية (اليهودية) بجبل عامل التي استبدل باسمها هذا أخيراً اسم (السلطانية) وتوفي فيها سنة ١٩٦٤ م .

درس قواعد اللغة العربية في مدرسة شقراء تمهيداً لاكمال الدراسة بعد ذلك في النجف الأشرف ، ولكن حالت الظروف دون ذلك ، فأقام في بلدته ملتزماً بعض الأعمال الدينية كأجراء عقود الزواج وقراءة مجالس التعزية بصوته الشجي الرقيق .

وكان ينظم شعراً فمن ذلك قوله في مطلع قصيدة مدحية :

جاءتك ترفل في قبا وبرود عذراء تهزأ بالعذارى الرود
تختال تيهاً في غلالة دلّها وتميل شبه البانة الأملود
وجبينها كالبدر ليلة تمه يبدو ويخفي في ظلام جعود
وسناء لو نظرت إليك لخلتها نشوانة أو كحّلت بهجود
وبقرطها شاد حكت نغماته عند التردد نغمتي داوود
هيفاء ترشق من نبال لحاظها وتصيد أفئدة الكماة الصيد
وبوجنتيها جمرة وبثغرها شهد ، فيسكر كابنة العنقود
وتريك برقاً إن تبسم ثغرها فكأنه عن لؤلؤ منضود
تهتز مثل الخيزرانة إن مشت تمشي الهوينا مشية المصفود

ويقول في قصيدة رثاء :

هوى اليوم ركن المجد والجو أظلما وطرف المعالي يمزج الدمع والدما
وسمر العوالي بالمنون تقصّفت وذا الصارم البتّار بات مثلما
لقد خُسف البدر الذي يهتدي به وقد كسفت شمس الظهيرة في السما

وفي قصيدة أخرى :

فطوبى لأرض قد حللت بتربها لقد سعدت، لكن لنا الهم والخسرُ
مضيت وخلفت العيون بواكياً تسيل من الآفاق أدمعها الحمرُ
وأضرمت في الأحشاء ناراً توقدت وفي كل قلب من توقدها جمرُ

ومن شعره قوله :

هجرتُ الكرى لما علمت بأنها، على غير جرم قد صفت للعواذل
وقد لامني الواشون فيها سفاهة وأنى لها بين الورى من مماثل
تصيد قلوب العاشقين بنظرة إذا ما رنت في طرف أحور ذابل
وما البيض إلا من سواجي جفونها ومن قدّها المياس سمر العوامل
وما الشعر إلا كوثر فيه لؤلؤ فذاك لأهل العشق عذب المناهل
وجيد كجيد الريم ليس بعاطل ولون كلون الورد وسط الخمائل
فإن لامني العذال فيها فإنني مدى الدهر، لن أصغي إلى قول عاذل

وقوله :

ولقد ذكرتُكِ عند آخر نظرةٍ كانت ختامَ الزادِ للمتزوِّدِ
وسواكِ لم أقصدْ ـ سَلمتِ ـ بدعوةٍ مني لقومي والحِمامُ مهدِّدي
فبكى الجميع وكنتُ أبْسُمُ بينهم جذلاً كأني منه في روضٍ ندي
وذُهِلْتُ عن يومي وما ألقى به أملاً بأُنْكِ حول نعشي في الغدِ
خالسْتُكِ النظر الأخير ومعشري حولي وجومٌ والحمام مهدِّدي
يبكون من حزنٍ عليَّ وإنّني فَرِحٌ بأُنْسِكِ بينهم من عُوَّدي

وقوله مادحاً :

أهلٌ أنت في ربع الأحبّة سائلُ فتُنبيكَ أطلالٌ لهم ومنازلُ
فإنَّ بذاك الحيِّ عذراءُ ناهدٌ لها من سواجي الطرْفِ بيضٌ قواتلُ
وفرعٌ كجنح الليل أسودُ فاحمٌ ووجهٌ كبدْرِ التمِّ في الأفقِ كاملُ
وجيدٌ تحلّى لا بعقدٍ وإنّما بحسنٍ تلألأ نورُهُ وهو عاطلُ
إذا خَطَرَتْ فالقرطُ أصبح ناطقاً وتخرس عند الخطْوِ منه الخلاخِلُ
تمشَّتْ إلى نحوي تجرُّ وراءها عقائص شَعْرٍ ما تمّتها الغلائلُ
تقولُ لقد أصبحت بالهجر مُتْلفي ممالك عن وصْلِ الأحبّةِ ذاهِلُ
فقلت لها كفّي الملامة واقصري فلي شُغُلٌ في نَعْتِ غيرِكِ شاغِلُ
همامٌ نَمَتْهُ للمعالي أكارمٌ وليثُ عرينٍ أنجبتْهُ بواسِلُ
تَسَلْسَلَ من أعراقِ قومٍ نداهُمُ بحورُ عطاءٍ ما لها قطُّ ساحِلُ
بلى أنت في ذا العصر سيِّدُ عاملٍ ومالك في ذا الدهر ندٌّ مماثلُ
فأنت عماد الفخر والعزِّ والعُلا وفي الجدْبِ للعافين عونٌ وكافِلُ
وأنت بأفقِ المجد بدرسنائه مقيماً على أنَّ البدور أوافِلُ
ويا من له فوق الأثير مضاربٌ تسامت على متنِ النهى ومنازلُ
نبتَّ على الجوزاء مجداً مُشَيِّداً دعائمه بيضٌ وسُمْرٌ عوامِلُ
تعاليْتَ أن يُحصي صفاتِك مادحٌ فكيف وقد شُدَّتْ إليك الرواحِلُ
لعمرك ما في الكون غيرك سيِّدٌ ولا خُلِقَتْ إلا إليك الفضائلُ

الوزير المغربي أبو القاسم الحسين بن علي :

مرت ترجمته في المجلد السادس . وننشر هنا عنه هذه الدراسة بقلم الدكتور إحسان عباس :

للوزير المغربي أبي القاسم الحسين بن عليّ دور كبير في العلم والأدب والسياسة : في العلم بما خلفه من مؤلفات مثل أدب الخواصّ والايناس وغيرهما من مؤلفات لم تصلنا ، وفي الأدب بديوان شعر رآه ابن العديم بخطه كما رآه ابن خلكان ، وديوان رسائل ، وفي السياسة بمحاولته الثورة لأن الحاكم بامر الله الفاطمي قتل أباه وعمه وأخويه ، وفي التنقل من وزارة إلى أخرى في المناطق العراقية ، حتى ليوصف بأنه أحد دهاة العالم . وإنك لتعجب بهذا العالم الذي بلغ حداً متميزاً في الدقة العلمية وسعة الإطلاع ، كما تعجب بالشاعر الرقيق والناثر اللبق ، ولكنك قد تتردد في الاعجاب بذلك

الرجل المغامر الذي خاض دنيا السياسة والمكايد والحروب بذكاء فذّ . وقد تحسُّ أن ذلك كله كان ذا جور على دوره العلمي والأدبي ، ومع ذلك فإنه كان مدفوعاً إلى ذلك بقوة الظروف التي عاش في ظلها .

ومنذ أنْ تعرفت إلى علاقته بأبي العلاء أثناء عملي المستمر في بعض آثار أبي العلاء ، حاولت أن أكتشف طبيعة تلك العلاقة ، وذلك التقدير الذي كان المعري يحمله للوزير . لقد وحدت بينهما المعرة - وحلب - في النشأة ، ولكن ذلك لا يكفي لتفسير علاقة ظلت مستمرة طوال العمر . وقد أدهشني حقاً أن يرثيه أبو العلاء في اللزوميات ، وهو كتاب متميز بالتأملات الفكرية ، جاء بعد عهد المدح والرثاء اللذين يمثلهما سقط الزند . وقد طال بي العهد وأنا أعايش ما أجده في المصادر من شعره ونثره ، وفي أثناء ذلك صدر كتاباه أدب الخواص والايناس ، وكان الأول منها مصدراً بدراسة قيمة للشيخ حمد الجاسر ؛ كما أن الأستاذ إبراهيم الأبياري نشر الايناس وقدم له بدراسة في المؤلف ، وقبل ذلك بكثير أصدر الدكتور سامي الدهان رسالة الوزير في السياسة ، وكتب لها مقدمة عرَّف فيها بالمؤلف بإسهاب ، كما جمع التراجم التي وردت في ما اطلع عليه من مصادر . وقد قرأت كل هذه المقدمات وأفدت منها ، حتى لقام في وهمي أنني لا أستطيع أن أتجاوز ما قدَّمه هؤلاء العلماء الأجلاء . وقد أدرت المسألة في نفسي طويلاً ، ثم قرَّ العزم على كتابة دراسة عن الوزير المغربي ، فمن يدري لعلني أستطيع أن أقول فيها أشياء لم يقلها الذين سبقوني إلى دراسته .

وقد كتبت كتابي في دراسة عبد الحميد الكاتب ، وحين درست الوزير المغربي وجدتني أدرس علماً كبيراً من أعلام النثر ، ذا علاقة معنوية ومادية بعبد الحميد ، فالعلاقة المعنوية هي إعجابه بشيخ الكتاب ومقدمهم ، حتى سمّى ابنه عبد الحميد وكناه أبا يحيى ، والعلاقة المادية هي أنه حلقة في السلسلة النضرة في تاريخ النثر الفني ، تلك السلسلة التي بدأت أولى حلقاتها بعبد الحميد .

هذا هو الوزير المغربي « صانع » الملوك والدول ، أقدّمه دون تزيد ، وقد كان همي الأكبر رسم سيرته حسب مراحلها الزمنية ، مع تقديم لمحة عن نشاطاته في حقول المعرفة .

١ - نسبه - جدّه وأبوه

الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن محمد المغربي لم يكن من أهل المغرب ، وإن أوحت هذه النسبة بذلك ، بل كان مشرقياً بعيد الجذور في الإنتماء المشرقي ، يرفع نسبه إلى الملك الفارسي بهرام جور[١] ، ويتناقل المؤرخون هذا النسب عنه دون شك أو إشارة لشك ، فالناس مصدقون في أنسابهم . وإنما نسب إلى المغرب لأن أحد أجداده (وهو علي بن محمد في سلسلة النسب) كان مسؤولاً في بغداد عما يعرف بديوان المغرب ، وقد تردَّدَ ابنُ خلّكان في قبول هذه الرواية لأن الوزير المغربي قال في كتابه « أدب الخواص » حين ذكر المتنبي « وإخواننا المغاربة يسمونه المتنبه . . . » ومن ثم استنتج ابن خلكان لقوله « إخواننا » أنه مغربي حقيقة[٢] . ولم يكن لهذا التردد أية ضرورة ، فإن ابن خلكان لو اطلع على إحدى رسائل الوزير لدفع الشك باليقين ، فالرجل صريح في تفسير هذه النسبة إذ يقول « وكان جد أبي وهو أبو الحسن علي بن محمد يخلف على ديوان المغرب فنسب به إلى المغربي »[٣] .

وقد ظل الجدّ الأعلى أبو الحسن علي بن محمد يعيش في البصرة إلى أن قام آل البريدي - وهم من إقطاعيي البصرة وممن شغل مناصب عالية في الدولة - بثورة سيطروا من خلالها على البصرة والأهواز وواسط[٤] ، وذلك في حدود العام (٣٢٤ - ٣٢٥) فانتقل عليّ إلى بغداد . وقد كان له بعض مشاركة في الأدب إذ روي له البيتان التاليان[٥] :

وأني على الإقتار أحملُ همةً ... لها مسلكٌ بين المجرَّةِ والنسر
أؤمّلُ نفسي لا أؤملُ غيرها ... من الناس أو يأتي الغنى وهو ذو صُغْر

وفي حيّ سوق العَطَش رُزِقَ بابنه الحسين - الجدّ الأدنى لمن أصبح يعرف من بعد باسم الوزير المغربي - وقد نشأ الجدُّ ببغداد ، وتقلّد فيها أعمالاً متنوعة ، وتزوج امرأة من بني الأوارجيّ كانت أخت هارون بن عبد العزيز الذي مدحه المتنبي بإحدى قصائده المبكرة[٦] ، أنجبت له ممن نعرف ولدين هما علي ومحمد .

وتحول الحسين الجدّ من بغداد يصحبه ختنه الأوارجي إلى حلب ، فاستكتبه (أي الحسين) سيف الدولة ابن حمدان ، ولم يصطحب ابنيه معه ، بل تركهما في بغداد ، وفيها كبرا وترعرعا ، واستولى الجدّ - حسبما يقوله حفيده - على سيف الدولة استيلاء « تشهد به مدائحُ أبي نصر ابن نباتة فيه » . فهو يتحدث عن « مدائح » - بصيغة الجمع - وعند الرجوع إلى ديوان ابن نباتة لم أجد له إلا قصيدة واحدة في مدحه هي القصيدة السابعة - حسب ترتيب الديوان[٧] - وقد جاءت في ستة وخمسين بيتاً ، وهي مصدرة بالعبارة الآتية : « وقال وكتب بها إلى أبي القاسم الحسين بن علي بن المغربي الكاتب وكان له صديقاً ، وسأله أن يعمل له قصيدةً يشرحُ بها حاله مع سيف الدولة لينشده إياها ، وذلك قبل إفضاء الوزارة إلى أبي القاسم » . وقد كشفت هذه المقدمة أن القصيدة لم يكن هدفها الحقيقي بأن تكون مدحاً في ابن المغربي ، ولم تكن وليدة مبادرة من ابن نباتة ، بل نظمت بطلب من ابن المغربي لتكونَ وسيلةً تلفتُ إليه إنتباه سيف الدولة ، وأن رابطة الصداقة - لا المنزلة التي بلغها ابن المغربي - هي التي سوّغت نظمها ، ولكن هذه المقدمة أفادت أن ابن المغربي الجدّ لم يبق كاتباً لدى سيف الدولة بل ترقّى إلى منزلة الوزارة . ومن المستغرب ألا نجد لابن نباتة مدائح أخرى فيه ، بعد أن اجتمعت الصداقة وعلو المنزلة في قَرَنٍ . نعم إنها تحتوي على مدح ابن المغربي في قوله :

فعاش لها ابنُ المغربيِّ فإنه ... نداهُ إلى حَمْدِ الرجالِ ذرائعُ
أخي وخليلي والحبيبُ وَجُنَّتي ... وسيفي ورمحي والفؤادُ المشايع
أكلُّ ظُباه للمنون مناصب ... وأدنى نداه للسحاب طبائع

(١) الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن محمد بن يوسف بن بحر بن بهرام بن المرزبان بن ماهان بن باذان بن ساسان بن الحرون (وقيل ساسان هو المعروف بالحرون) بن بلاش بن جاماسب بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور (ابن خلكان ٢ : ١٧٢ نقلاً عن ابن الصيرفي المصري ، وقد نقله غير ابن خلكان ، انظر بغية الطلب ٥ : ١٤) .

(٢) ابن خلكان ٢ : ١٧٧ .

(٣) بغية الطلب ٥ : ١٦ ، وانظر أيضاً ٥ : ١٢٤

(٤) تجارب الأمم ١ : ٣٦٦ .

(٥) أدب الخواص : ١٠٢ .

(٦) هي القصيدة التي مطلعها :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء ... إذ حيث أنت من الظلام ضياء

(٧) ديوان ابن نباتة ١ : ٢١١ - ٢١٨ .

فتيّ تأنسُ الدنيا به وهو موحشٌ وتدنو إلى أهوائه وهو شاسع

ولكنّ المقصود فيها هو سيف الدولة :

أعذني بسيف الدولة اليوم أن أرى أُخادِعُ أعدائي به وأصانع

على أنا وإن لم نجد قصائد أخرى لابن نباتة في مدح ابن المغربي الجدّ ، فذلك لا يعني أن حديث الحفيد عن جده ، كان مباهاة وتكثراً ، لأن بلوغه منزلة الوزارة يؤكد ما أحرزه من رفعة المكانة في مملكة حلب ، وهذا من شأنه أيضاً أن يطمئننا إلى أن ما نسبه الحفيد إليه من أنه « كان كاتباً مجيداً شاعراً ، حسن النظم والنثر »[1] ليس محمولاً كذلك على الاسراف في المبالغة ، وإن كنا لا نملك القدر الكافي من شعره ونثره للحكم على مدى جودته ، وقد روى له حفيده هذه الأبيات[2] :

إنّ شكوى المرءِ فيما نابه خَورٌ في نفسه مما نزل
واطّراح الفكرِ في رَفْعِ الأذى خَوَرٌ في عقل من عنه عدل
فانفِ عنك الهمَّ بالعزم وَدَعْ عقلك الجمّ مُعَدّاً للحيل

وهي أبياتٌ ذهنية خالصة ليس فيها رهافة شعر الكتاب . فأما نثره فقد احتفظ منه حفيده برسالة في وصف النخلة يقول في أولها[3] : « فأما ذوات الطول المديد ، والقوام بغير تأويد ، المخصوصات بالطلع النضيد ، والمزيّنات بالسَّعَفِ والجريد ، الممنوحات عمومة الأنساب[4] ، الباقيات على مرور الأحقاب ، المطعمات في المحل أنواع الرطاب ، فبدء خلقها من التراب . . . » . ويتحدث في هذه الرسالة ـ محافظاً على السجع فيها ـ عن تطور ثمر النخيل في مراحله المختلفة حتى يصبح رطباً جنياً ، وعن ما تمثله النخلة من مكانة معنوية رفيعة بذكرها مراراً في القرآن الكريم ، وتسخيرها لمريم تهزّها فيتساقط عنها الرطب . واختيار ابن المغربي وصفَ النخلة موضوعاً لرسالة يدلّ على أنه لم يكن كاتباً ديوانياً فحسب ، بل كان يمارس الكتابة الانشائية ، خارج نطاق الديوان . وخلاصة ما هنالك أن هذا الجد قد رسم لأبنائه وحفدته من بعده طريقاً لم يحيدوا عنها وهي طريق ذات شقين متصلين : خدمة الدولة والتمرس بفنون الكتابة . وقد ظلّ حياً حتى سنة ٣٥٤ ، ففي ذلك العام عقد سيف الدولة الفداء مع الروم واشترى أسرى المسلمين بجميع ما كان معه من المال ، ولم يفِ المالُ بفداء جميع الأسرى فرهن كاتبه ابن المغربي عليهم « بدنته الجوهر المعدومة المثل »[5] ، ولعله توفي في العام المذكور أيضاً .

وقبل وفاته كان ابناه اللذان تركناهما في بغداد قد كبرا ، وأرسل الإخشيد في استقدامها إلى مصر . أما لماذا يفعل الاخشيد ذلك فأمر يشبه اللغز ، نعم كان أبوهما قد تعرف إلى الاخشيد أثناء وجوده في الشام ، أول انتقاله إليها من بغداد ، ولكن ما هي المكانة التي بلغها الأخَوان في بغداد حتى تحمل الاخشيد على إرسال فاتك الملقب بالمجنون ـ ممدوح المتنبي من بعد ـ ليجيءَ بهما إلى مصر عن طريق الرحبة ؟[6] وبماذا كان ينوي أن يكلفهما ؟ أكبر الظن أن استدعاءه لهما إنما كان إستجابةً لرغبة الأب الذي نفترض أن معرفته بالاخشيد بلغت حد الصداقة ، ولكن يبقى السؤال وارداً ، لماذا لم يضمهما أبوهما إليه في كنف سيف الدولة وله منه تلك المنزلة ؟

ومن الواضح أن إقامة الأخوين بمصر لم تطل ، إذ نرى الابن علياً يخلفُ أباه في خدمة سيف الدولة (المتوفى سنة ٣٥٦) بحلب ، ويستولي على أمره ، كما استولى أبوه من قبل ، ومن بعد روى لأبي العلاء المعري ـ أو لغيره ونقل الرواية أبو العلاء ـ أنه كان مع سيف الدولة وهما خاليان ، فسأله سيف الدولة عن التزويج فقال له عليّ بن الحسين : لي بنتُ عمّ وأنا أنتظرُ قدومها عليّ . فتلفّتَ سيف الدولة يميناً وشمالاً هل بقربه من يسمعه ثم قال : لا تفعل ، بنتُ العم ثَبْتَ الغمّ [7] . ويبدو أنه لم يفعل إذ إنه تزوج ـ أثناء مقامه بديار الشام بنت محمد بن إبراهيم بن جعفر النعماني[8] ، وهي أم الحسين ـ موضوع هذه الدراسة ـ ولعلها أيضاً أم أخوين آخرين له . والنعماني نسبة إلى النعمانية ، وهي بليدة بين واسط وبغداد في نصف الطريق على ضفة دجلة ، وأهلها كلهم شيعة[9] ، فأمُّ الحسين عراقية شيعية ، ورث عنها أبناؤها في النعمانية أملاكاً[10] .

وبعد وفاة سيف الدولة استمر عليٌ في خدمة ابنه سعد الدولة أبي المعالي وشاركهُ الرأيَ في إدارة الدولة ، كما شاركه في مدائح أبي العباس النامي[11] ، ولم يصلنا من مدائحه فيه شيء ، كما لم يصلنا شيء من مدائح ابن نباتة فيه مع تصريح ابنه بذلك[12] ولعله في هذه الفترة اتصل به عبد المحسن الصوري (٣٣٩ ـ ٤١٩) ومدحه ، ومن مدائحه فيه قصيدة مطلعها[13] :

أترى بشارِ أم بذَيْنِ علقتْ محاسنها بعيني

ومنها في المدح :

كانت كذلك قبل أنْ يأتي عليُّ بن الحسين
فاليومَ حالُ الشعر ثا لثةٌ لحالِ الشعريين
أغنى وأعفى مدحه الـ ـعافين عن كَذِبٍ ومين

ولا ندري كم أقام عليٌ في صحبة سعد الدولة ، فقد تقلبت الأيام بأبي المعالي كثيراً ، بين سيطرة على حلب وفقدان لها ، وحروب مع الروم ، أو شراء للهدنة منهم بالمال ، ففارقه علي بن الحسين . ويوصف ما جرى بين الرجلين بأنه كان « نبوة أوجبت انفصاله »[14] ويقال عن هذا الانفصال في موضع آخر : « ثم شجر بينهما ما يتفق مثله بين المتصاحبين في الدنيا »[15] . ومما يدلّ على أن « النبوة » بين الرجلين كانت حادة أن سعد الدولة فيما يبدو لم يسمح لعليّ أن يصحب أهله معه . وهذا مما يوحي به قول الابن : « فإنا كنّا بحلب مُعَوَّقينَ من بعده » ، فإن لم يكن هذا هو معنى التعويق ، حملنا الأمر على أن علياً بادر إلى مفارقة حلب ، فراراً بنفسه دون أن يتمكن من

(١) بغية الطلب ٥ : ١٢٤ .
(٢) بغية الطلب ٥ : ١٢٦ .
(٣) بغية الطلب ٥ : ١٢٤ .
(٤) يشير إلى قول للرسول جاء فيه « عمتكم النخلة » .
(٥) بغية الطلب ٥ : ١٢٧ .
(٦) بغية الطلب ٥ : ١٢٧ .

(٧) الصاهل والشاحج : ٦٦٨ .
(٨) ابن خلكان ٢ : ١٧٢ .
(٩) معجم البلدان لياقوت ٤ : ٧٩٦ .
(١١) بغية الطلب ٥ : ١٧ .
(١٢) بغية الطلب ٥ : ١٧ .
(١٣) أدب الخواص : ٧١ .
(١٤) ابن خلكان ٣ : ٢٣٣ .
(١٥) بغية الطلب ٥ : ١٥ .
(١٦) بغية الطلب ٥ : ١٧ .

اصطحاب أهله معه ، فغادر الرحبة إلى الأنبار في طريقه إلى مدينة السلام . وفي رواية أن سعد الدولة أباح دمه ، فلجأ إلى مشهد عليّ بالكوفة ومن مقامه هنالك كاتب العزيز ، فرحّبَ بمقدمه[١] . ويبدو أن ذهابه إلى العراق كان في حدود سنة ٣٧٩ وهي السنة التي توفي فيها شرف الدولة البويهي وخلفه ابنه بهاء الدولة ، وشجر الخلاف بينه وبين فخر الدولة البويهي ، وغلبت الفوضى والأضطراب على العراق ، وجاء من يحذّر علياً بأن بقاءه في العراق محفوف بالخطر ، وكان يعلم أيضاً أن عودته إلى حلب تغرير بالنفس ، غير أن تَعَرُّفَ حال مَنْ خلَّفهم وراءه فيما يشبه الأسر ، حمله على ركوب الصعب ، فعاد إلى حلب ، ولكنه لم يُطِلِ الاقامةَ في ما يظهر ، ولم تبقَ له وجهة يؤمها ـ بعد أن أغلقت الشام والعراق بابيها في وجهه ـ إلا أن يؤم مصر ، وهكذا كان . وأغرته الحظوة التي لقيها هنالك باستقدام جميع من تخلفوا في حلب[٢] ، وكان دخوله إلى مصر في النصف من جمادى الأولى سنة ٣٨١ ؛ وفي مصر اتخذه العزيز كاتباً له[١] .

ولكي نستطيع أن نتصور ما كان يحدث حينئذ علينا أن نتذكر أن التنافس بين القوى الثلاث : الحمدانيين والفاطميين والروم كان يجعل ديار الشام لقمة متنازعة ، ويسمح لبعض الطامحين بالاستقلال ، وهكذا استطاع غلامٌ اسمه بكجور أن يستقلّ بدمشق ، ويعلنَ العصيان على سعد الدولة . ثم إن هذا الغلام أساء التصرف إلى الفاطميين فأخذوا منه دمشق ، فذهب إلى الرقّة وعاش فيها خاملاً ، غير أنه لم يَنْسَ أن الفرص قد تسنحُ للمرء إذا هو اهتبلها ، فكتب إلى العزيز يذكر له جلالةَ حلب ، وأنها « دهليز العراق » ويحرّضه على انتزاعها من يد سعد الدولة ، فأجيب بكجور إلى ما أراد ، وزُوِّدَ بكل ما طلب ، وجعل علي بن الحسين ابن المغربي كاتباً له ، وزحف بالجيش إلى حلب ونزل في الموضع المعروف بالنيرب ، وبدا أن الفوز محققٌ لسعد الدولة إذ تخلى عن بكجور من كان يؤمّل لديهم نصرته فاستدعى كاتبه ابن المغربي وقال له : « غررتني وأوهمتني أن العزيز يجيئني ويعاونني ، وأن العرب تُخْلِصُ لي وتناصحني . . . وما كان لشيء من ذلك حقيقة ، فما الرأي الآن فإن بإزائنا عسكراً عظيماً » . فنصحه ابن المغربي أن يرجع إلى الرقة ويكاتب العزيز يخبره بأن من بُعِثَ لنجدته تخلّف عنه . إلا أن بكجور أصاخ إلى نصيحة رجل آخر من رجاله أشار عليه بالثبات ، فما كان من ابن المغربي إلا أن بذل لبدوي من بني كلاب أن يوصله إلى الرقة مقابل ألف دينار ففعل[٤] . وقد كانت نتيجة المعركة بين بكجور وسعد الدولة هزيمة بكجور ثم مقتله ، وسار سعد الدولة إلى الرقة وفيها سلامة الرشيقي وأولاد بكجور ، ففاوضه سلامة على تسليم البلد شرط الإبقاء على أولاد بكجور وأمواله ما عدا آلات الحرب والعدد . وكان الذي كتب نصَّ اليمين ليرددها سعد الدولة هو ابن المغربي نفسه الذي كان قد هرب منه قبل حوالي سنتين ، ولم يؤاخذه سعد الدولة بما كان فعل[٥] .

وبعيد النصر الذي أحرزه سعد الدولة بقليل أدركته منيته ، وخلفه ابنه أبو الفضائل ، فما كان من ابن المغربي إلا أن كتب إلى العزيز « يعظّم أمرَ حلب عنده ، ويكبر في نفسه أحوالها ويهوّن عليه حصولها »[٦] فأرسل إليها قائداً اسمه منجوتكين وضمَّ إليه ابن المغربي ليقومَ بالأمر والتدبير ، وزحف جيش الفاطميين إلى حلب ، فاستنجد أبو الفضائل بالامبراطور بسيل ، فأمر بسيل البرجيَّ صاحب أنطاكية بأن يجمع جيشاً ويقصد حلب ويدفعَ جيشَ المصريين عنها ، فنزل البرجي في الموضع المعروف بجسر الحديد بين أنطاكية وحلب ، فتحوَّل منجوتكين وابن المغربي عن حلب لمناجزة الروم ، وواقفوا الروم ، والنهر المعروف بالمقلوب يفصلُ بين الفريقين ، وكان النصر في المعركة لمنجوتكين وابن المغربي .

هذه المعركة خلّدها أبو العلاء المعري في قصيدة له مطلعها[٧] :

هو الهجرُ حتى ما يُلِمّ خيالُ ... وبعضُ صدود الزائرين وصالُ

ويذكرُ أن المعركة كانت عند حارم ، وأن البحر جاش على حارم في صورة كتائب ، وتساقطت عليها الشهبُ في صورة نصال ، ويشير إلى النهر الفاصل بين الجيشين بقوله :

وقى الخيلَ من ماءِ المخاضة عفة ... وهنَّ إلى ماءِ النفوسِ نهالُ
يردن دماءَ الروم وهي غريضةٌ ... ويتركن وِرْدَ الماءِ وهو زلال

ثم يتوجه إلى ابن المغربي مادحاً :

فلا زلتَ بدراً كاملاً في ضيائه ... على أنه عند النساءِ هلال
فما الخميسُ لم تَقُدْهُ عرامةٌ ... ولا لزمانٍ لستَ فيه جمال

ها هنا يمكننا أن نتوقف قليلاً لنسأل : هل كانت هذه القصيدة أول علاقة بين المعري وآل المغربي ، وإذا كانت كذلك فكيف بدأ التعارف ، وماذا كان يريد أبو العلاء من هذا المدح ؟ للإجابة على هذه الأسئلة جميعاً علينا أن نتذكر أن أبا العلاء كان في العشرين من عمره يوم نظم القصيدة ، ولما لم يكن شاعراً طالبَ عطاء ، فإنه لا تفسيرَ لهذا المدح إلا أن يكون إشادةً بعلاقة سابقة بلغت حدَّ الصداقة الممزوجة بالاعجاب ، فإن لم تكن صداقةً شخصية فلا أقلَّ من أن تكون رعايةً للمعرة وأهلها يوم كان ابنُ المغربيّ وزيراً لسعد الدولة . ولدينا قصيدة أخرى يدل مستواها على أنها بقيةٌ من قصيدة حَذَفَ منها أبو العلاء الكثير ، لأنها كانت من ثمرات الصبا ، وفي هذه القصيدة يمدح عليّ بن الحسين المغربي ويشير إلى أصله الفارسي ويمجّد ذلك الأصل ثم يقول[٨] :

فهلّا تقلُّ بُغاةُ اللجين ... ونائلك الذهبُ الأحمرُ
ومن يطلبُ الدرَّ في لجةٍ ... ومن فيك أشرفُهُ يُنْثَرُ

إننا إذا قدرنا أن هذه القصيدة تم نظمها حين كان أبو العلاء في الخامسة عشرة أو قريباً منها ، فذلك قد يسمح بتصور فترة تمت فيها علاقةٌ متينة بينه وبين الكاتب الوزير لدى الحمدانيين ، وهي صلة تجعله يحملُ ذكرياتٍ طيبة عن تلك العلاقة . فإذا تذكر عليُّ بن الحسين من بعد قال : « كان ذلك الرجل سيداً ، ولمن ضَعُفَ من أهل الأدب مؤيداً ، ولمن قوي منهم وادّاً ، ودونه للنوب محادّاً »[٩] .

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٣٨ ونهاية الأرب ٢٦ : ١٥٨ وابن الأثير ٩ : ٨٨ .
(٢) ذيل تاريخ دمشق : ٣٨ ونهاية الأرب ٢٦ : ١٥٩ .
(٣) ذيل تاريخ دمشق : ٢٧ ـ ٣٤ وابن الأثير ٩ : ٨٧ ـ ٨٩ .
(٤) ذيل تاريخ دمشق : ٣٧ .
(٥) ذيل تاريخ دمشق : ٣٨ .
(٦) ذيل تاريخ دمشق : ٣٩ .
(٧) شروح سقط الزند : ١٠٤٦ .
(٨) شروح سقط الزند : ١٨٩ .
(٩) رسالة الغفران : ٥٢٤ .

وحين أيقن لؤلؤ الكبير الوصي على أبي الفضائل بأن مساعدة الروم له لم تعد ممكنة ، بعد تلك الهزيمة ، كاتب ابن المغربي والقشوري (كاتبَ منجوتكين) لعلهما أن يقنعا منجوتكين بترك حلب وشأنها ، والعودة إلى دمشق ، وبذل لهما على ذلك مالاً ، وصادف ذلك قلةً في الميرة والعلوفات والأقوات ، مما جعل منجوتكين يرحّبُ بالانسحاب والانكفاء إلى دمشق . غير أن العزيز لما عرف ذلك استاء ، وكان لابن المغربي في حضرته أعداء يكيدون له ، ويقعون فيه ، فأوغروا صدره عليه فعزله عن التدبير وولّى رجلاً آخر مكانه(١) .

ولست أعتقد أن هذا الاقصاء قد طال أمده وإن سكتت المصادر عن عودة ابن المغربي إلى سابق حظوته ، ولعل ذلك تمّ أيام العزيز إذ تقول إحدى الروايات إنه بلغ عند العزيز مرتبة عظيمة حتى صار يستشيره في عظائم الأمور ويأتمنه على الأسرار(٢) . ثم نجده في ظل الحاكم سنة ٣٩٠ أحد المقربين الذين يصاحبون الخليفة حين يبرز للناس ، أو يجلس في العشايا في قصره ، وهم خمسة عن يمينه وخمسة عن يساره ، وابن المغربي وأخوه في الخمسة الذين يجلسون في الجهة اليسرى(٣) .

ثم تسكت المصادر عن ذكر أي نشاط متميز لابني المغربي ، إذ يبدو أن الأمور جرت كالمعتاد وهما في منصبيهما ، حتى أمر الحاكم بقتلهما وقتل أبناء عليٍّ منهما .

٢ ـ نشأته ـ بين الشام ومصر

عند هذا الحدِّ يجب أن نعودَ قليلاً إلى الوراء : عندما كان علي بن الحسين المغربي يعيش في حلب ، رزق بابنه حسين ، وقد قيد تأريخ مولده بأقصى دقةٍ حين قال : « وُلِدَ سلّمه الله وبلّغه مبلغَ الصالحين أولَ وقت طلوع الفجر من ليلة صباحها يوم الأحد الثالث عشر من ذي الحجة سنة سبعين وثلاثمائة »(٤) ، ولا ريب في أن حلب كانت مسقط رأسه ، وأن ما قيل خلاف ذلك فهو خطأ كقول ابن الجوزي إنه ولد بمصر(٥) ، والشواهد على ذلك كثيرة منها قوله في أدب الخواص : « قال بعض عامة بلدنا الحلبيين . . »(٦) وحنينه إلى بابلا إحدى ضواحي حلب وتسميته إياها بـ « الوطن » ، وهو بعيد عنها :

ليس من لم يَسِلْ حنيناً إلى الأو طان إن شتت النوى بظريف

وحديثه عن هرب أبيه من الشام إلى العراق وبقاء أسرته بحلب ، قبل أن يعرف طريقاً إلى مصر مرة ثانية ، وحديث أبيه إلى سيف الدولة عن إزماعه الزواج وهو بحلب ، واليقين القاطع بأن أباه لم يفارق مدينة حلب إلا بعد سنة ٣٧٠ ، أي العام الذي ولد فيه الحسين ، وعدم تردد ابن العديم ـ وهو المؤرخ المدقق ـ في القطع بأن مكان مولده هو حلب ، ومتات ابن القارح الحلبي إليه برابطة البلدية(٧) وقد وصل أبوه إلى مصر في جمادى الأولى سنة ٣٨١(٨) ـ كما تقدم ـ وإذن كان عمر الحسين حين انتقل آل المغربي إلى مصر قرابة إحدى عشرة سنة . وأراني أرجّح أنه بدأ تحصيله العلميّ في سن مبكرة وهو بحلب ، إذ كانت ملكاته تؤهله لذلك حتى أن أكثر الناس بغضاً له يصفه بالذكاء(٩) ، وأنه بدأه على نحو مكثف . وهذا الفرض وحده هو الذي يفسر كيف استطاع قبل أن يستكمل أربع عشرة سنة ـ بشهادة أبيه نفسه ـ : « أن يستظهر القرآن وعدة من الكتب المجردة(١٠) في اللغة والنحو ونحو خمسة عشر ألف بيت من مختار الشعر القديم وأن ينظم الشعر ويتصرف في النثر ويبلغ من الخطِّ ما يقصّر عنه نظراؤه وكذلك من الحساب والجبر والمقابلة ما يزيد عن ما يحتاج إليه الكاتب »(١١) ونظرة واحدة إلى هذه العلوم التي بدأ بها وأتقنها تدلُّ على أن والده كان يريده أن يقتفي أثره وأثرَ جده ، فيتخرج وهو مزوّد بكلِّ الثقافة التي تتطلبها مهنة الكتابة . وليس في جريدة الشيوخ الذين درس عليهم من نعده أستاذاً له في الفترة الشامية سوى والده ومحمد بن عيسى النامي . وبعض الذين يحملون النسبة إلى حلب مثل علي بن لؤلؤ الحلبي وعلي بن محمد الحلبي وأحد التنوخيين وهو محمد بن الحسن التنوخي . ولكن الظن يذهبُ بي إلى أنه تعرف ، وهو صغير السن ، إلى أبي العلاء وزاره بصحبة أبيه في المعرة ، وأعجب الصبي بذلك الضرير الذي لا يكبره إلا بسبع سنوات أو ثمان ، ويعرف الكثير الكثير ، عن ظهر قلب ، وأعجب المعريّ بالصبي (وبرّك على رأسه) وتنبأ له بأنه سيبذّ أقرانه ، كل هذه فروضٌ حقاً ولكني لا أراها بعيدة عن الصواب ، فقد انتقل إعجاب الأب بالمعري إلى ابنه ، وكان ذلك الإعجاب عاملاً في إقباله على المعرفة بنهم ، وتوجُّهِ لإتقان اللغة ، ذلك الجانب الذي بلغ فيه تفوق أبي العلاء حداً يبهرُ كلَّ من عرفه وقاربه . ولنا أن نقول إن هذا الإعجاب بالمعري هو الذي كان له الدور الفعّال في نقل الحسين من دائرة ثقافة الكتاب ـ وهي المامّ بالضروريّ ـ إلى ثقافة العلماء ، وهي الغوصُ في كل علم ، وإتقانُهُ على حدة . وفي رسالة كتبها من مصر إلى أبي العلاء وأخيه ما يؤكد تلك العلاقة ، وأنها كانت قبل رحيله عن الشام . إن شخصاً يكتب « إني كتبتُ وما لي جارحةٌ إلا وهي جريحة حبّهما ، ولا جانحةٌ إلا وهي جانحة إلى قربهما » لا يمكن أن يقول مثل هذا القول إلا ولديه معرفة سابقة تسمحُ له بذلك . ومثل ذلك أيضاً قوله : « ولا غرو وإن بعد العهد إذا قرب الود ، ولا ضير إن تناءت الأشباح فقد تدانت الأرواح » ، وهذا يعني أن هناك عهداً كان موجوداً ثم مضى وتناءى ، وأن الأشباح ـ أي الأجسام ـ كانت متقاربة فتناءت كذلك . نعم إن الرسالة تمرين مبتدىء على حديثٍ عاطفيّ يراوح بين النثر والشعر لإظهار قدرة إنشائية نثراً ونظماً ، ولا تتحدث بشيء عن وجود صلة على أرض الواقع ولا تكشف عن شيء مهم إلا إذا صدقنا أن الشكوى التي يبثها تمثّل واقع الكاتب النفسي يومئذ . ولكن على ذلك كله فإنها تؤكد علاقة كانت قائمة تسمح بتلك الشكوى نفسها . وتشير رسالة من رسائله ضاعت وقصيدتان إحداهما ميمية والأخرى رائية إلى أن علاقته كانت واشجة لا بأبي العلاء وأسرته وحسب بل كانت بالمعرة نفسها وثيقة ، وهذا ما تصوره رسالة المنيح للمعري التي ردَّ بها على الرسالة الضائعة والقصيدتين ، إذ يقول « وإنما

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٤٢ .
(٢) نهاية الأرب ٢٦ : ١٥٨ .
(٣) اتعاظ الحنفا ٢ : ٣١ .
(٤) بغية الطلب ٥ : ١٧ والوافي ١٢ : ٤٤١ والبداية والنهاية ١٢ : ٢٣ .
(٥) المنتظم ٨ : ٣٢ وابن الأثير ٩ : ٣٣١ ومرآة الزمان ١٢ : ٤٧ والبداية والنهاية ١٢ : ٢٣ .
(٦) أدب الخواص : ٧١ .
(٧) رسالة الغفران : ٥٥ .
(٨) الاشارة إلى من نال الوزارة : ٤٧ .
(٩) لسان الميزان ٢ : ٣٠١
(١٠) في بعض الروايات : « المحررة » ، والمجرّدة هي التي تقتصر على المتون دون الحواشي .
(١١) بغية الطلب ٥ : ١٧ ـ ١٨ والوافي ١٢ : ٤٤١ وابن خلكان ٢ : ١٧٢ وروضات الجنات : ٢٤٠ ، وأعيان الشيعة ٢٧ : ٩ .

هـو في الرحيـل عنها كجسم ذي روح ، نُقِـلَ من الغِرْقِيء إلى اللُّوح ، وهي بعدُ كقسيمة الوسيمة ذهب عطرها وبقي نَشْرها ، وإنما شَرُفَتْ على سـواها ، وطالت على البلاد دون ما والاهـا ، لإقامتـه بها في تلك الأيـام ، وإنامَتِـهِ عن أهلها نواظرَ أزام ، فَعُرِفَتْ بـه ، ونالتْ خَيْـرَهَا من حسبـه . . . »[١] . ثم يحاول اعتياد حسن التعليل في انتقال الحسين عن المعرة بقوله : « ولعـل المعرَّة قد نظرت أصحَّ النظر ، وفكرت فيها لا ينتقض من الفكر ، فعلمتْ أنه عِقْـدٌ لا يصلحُ لمقلِّدها ، وسوارٌ يـرتفعُ لجلالته عن يـدها »[٢] ، لهـذا تخلَّتِ المعرةُ عن أنانيتها وسمحت بفراقه لهـا ولكنه « ظَعَنَ وأَرَجُهُ مقيم ، وارتحل وللثنـاء تخييم »[٣] ، وعـلى الرغم من التـواضع الجمّ الـذي يبديـه المعـري إزاء هـذا الشاب الناشيء ـ والتواضعُ من سماته الملازمة ـ (هل أَدَبي في أَدَبه إلا كالقطرة في المطرة)[٤] فإنـه صريحٌ في مـدى ما يحمله لـه من حبّ وتقديـر « فيعلم أن الرَّوعَ وجوانحَ الضلوع ، مفعمةٌ له بالإعـظام ، مترعـةٌ بمحبته إتـراع الجام » وهـذا الحبُّ غير مستمـد من إفضال المغـربي الأب على المعـري بل من تفـوق المغربي الابن وتميزه ونبله ، وقد ذهب المعري في ذلك مذهباً أثار النقد ضده : « حتى استجهلني الـذي لا يعلم ، وتكلَّم في فضيلتي مـن تكـلم ، لأني مـا اقتنعتُ بتفضيله على الأحداث ، دون سكّـان الأجداث »[٥] . فـإذا كان ابن المغربي حين اختصر إصلاح المنطق لم يطمئن إلى عرضـه إلا على أبي العـلاء ، فذلك يؤكد تلك الثقةَ والاعجاب المتبادلين . وقد يقال إنه فعل ذلك بنصيحةٍ من أبيه ، ولكن هذه الصلة الوثيقة بالمعرة والمعـري تجعلنا نتـأكد من أن تلك النصيحة كانت تـوكيداً لما في نفس الابن ، ولكن هذا الحـديث سابق لأوانـه وسيجيء في مكانه .

في مصر وجد ابن المغربي بيئةً علمية رحبة ، فاستكمل ثقافات ابتدأهـا في الشام ، وسلك اتجاهات ثقافية أخرى جـديدة : كـانت مؤسسات العلم ـ وفي مقـدمتها « دار العلم » متنـوعـة ، وكـانت المكتبـات ـ وبخـاصـة مكتبـة القصر ـ حـافلةً بصنوف الكتب في كـل علم . فوجـد في دار العلم جنادة بن محمـد الهزوي[٦] الـذي كان مكثـراً من حفظ اللغـة ونقلهـا ، ومعـه الحـافظ عبـد الغني بن سعيد المصري[٧] حـافظ مصر في عصره ، والمقرىء الأنـطاكي أبو علي الحسن بن سليمان[٨] أحفظ أهل زمانه للقراءات ، وكان هؤلاء الثلاثة يجتمعون في دار العلم وتجري بينهم المذاكرات والمطارحات ، ولسبب لا ندريه نقم عليهم (الحـاكم) من بعـد كـما نقم عـلى آل المغـربي ، فقتـل جنـادةَ والحسن ، واختفى عبد الغني . ولعل الشيـخ حمد الجـاسر على صـواب حين يقول : « لا أستبعدُ أنّ قتل جنادة شيخ ابن المغربي لـه صلة بقتل أبي المغـربي وعمّـه وأخويـه ، وإن كان المؤرخـون يفرّقـون بين زمن الحـادثتين »[١] وتلك مسألة لعلّني أعـود إليها عنـد الحديث عن مقتـل آل المغربي . وهؤلاء الثـلاثة متقاربو الثقـافة ويمكن أن نعـدّهم في من يحسنون اللغـة والنحو ، فـإذا أضفنا إليهم محمد بن الحسين اليمني وكـان نحويـاً ، ومحمد بن عبـد الملك التاريخي وكان كذلك ، وجدنا أن انصراف الحسين إلى اللغة والنحو استأثر باهتمامه في مـطلع حياتـه الثقافيـة . على أنـه اتصل في مصر بعلماء آخـرين من أهمهم أبو جعفر الطحاوي ، وسمع عليه كتاب المـزني[٩] . .ولعله في هذه الفـترة نفسها سمع موطـأ مالـك من جهتين عـلى شيخين ، كـما سمع صحيحي البخـاري ومسلم وجامعَ سفيـان ومسانيـدَ عدةً عن التـابعين[١٠] ، وقـد لقي في مصر عدداً من الشيوخ ، وعدّ له ابن العديم ثمانية عشر شيخاً ، ويمكن إضافـة أسماء أخـرى إليهم . وتعرف إلى الوزير أبي الفضل جعفـر بن الفضل بن الفـرات المعروف بابن حنزابة وحدّث عنه وروى عنه كتاب إصلاح المنطق باسناد يتصل إلى ابن السكيت ، كما رواه عن جنادة الهروي باسناد آخر ، ويخـبرنا أنـه كان يحـادث ابن حـنـزابة ويجـاريه شعـر المتنبي ، فكـان الـوزير يـظهر تفضيـل المتنبي ، بما يتجاوز إحساسه الحقيقي نحوه ، إذ كان المتنبي قد عرَّض به هـاجياً في بعض شعره[١١] .

ولكن الذي صاحبه بعيد الرحيل عن الشام وأقام ملازماً لـه ولأبيه هـو عـلي بن منصـور الحلبي المعـروف بـابن القـارح والملقب دوخلة ، فـإن أبـاه استدعاه فيما يقال إلى القاهرة ليكـون مؤدباً للحسـين[١٢] ، غير أن ابن القـارح يصرح بأن علياً ابن المغربي هو الذي ربّاه ، وأنه هو قام بتربيـة إخوة الحسـين ولا يذكر شيئاً عن تأديبه للحسين نفسـه ، وذلك إذ يقـول راوياً أحـد المواقف بينـه وبين الحسـين : « وقلتُ له عـلى أُنْسٍ بيني وبينه لي حُـرُمـاتٌ ثـلاث : البلديةُ وتربيةُ أبيه لي وتربيتي لإخوته » . ويذكر ابن القارح أن الحسين قال في جوابه : « هذه حُرَمٌ مهتّكة : البلديةُ نَسَبٌ بين الجدران ، وتربية أبي لـك منةٌ لنا عليك ، وتربيتك لإخوتي بالخلع والدنانير »[١٣] . وأنا أستبعد أن يكون ابن القارح قد قـام بتأديب الحسـين لأسباب منهـا أن التحصيل الأولي الـذي نالـه الحسـين قبل الـرحيل إلى مصر كـان يغنيه عن مؤدب ، وأنـه حين وصـل إلى مصر ـ فيما أقدر ـ كـان يتطلّع إلى لقـاء علماء يفوقـون ابن القارح في المستـوى العلمي . وإذا كـان والـده هـو الـذي ربى ابن القـارح في حلب حقـاً ، فـإن الحسين عرفه في دور مبكر من حياته ، واطلع عن كثب على مساوئه ، وأضمر له كراهيةً في نفسه . ولعلَّ فارقَ السن بينهـما لم يكن كبيراً ، بحيث يمكّن ابنَ القارح من أن يصبح لـدى الحسين مـوضعَ احـترام . ثم إن هذا التنـافر بـين قطبين يتجاوز العلاقـةَ بين المؤدب وتلميـذه ، لأنه خـرج إلى العلن على نحـو فـاضح ، إذ عـبر عنـه الحسـين بـالاحتقـار ، وعـبّر عنـه ابن القـارح بمحض الهجاء ، وذلك شيء تجاوز حدودَ مصر إلى أن تم اللقاء بمياقـارقين من بعـد ، وذاع حتى إن رجـلا كأبي العـلاء المعري حـين ذُكِـرَ ابن القـارح أمـامـه ميَّـزه بقوله : « هو الذي هجا أبا القاسم بن علي بن الحسـين المغربي »[١٤] . وتـورد المصادر من هجاء ابن القارح للحسين قوله[١٥] :

---

(١) رسائل المعري ١ : ١٦٢ ـ ١٦٣ والغرقيء : القشر الرقيق حول بياض البيضة ، واللُّوح : الجو ، والقسيمة : جونة العطار ، والوسيمة : المرأة الجميلة ، وأزام : السنة الشديدة .

(٢) رسائل المعري ١ : ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٣) رسائل المعري ١ : ١٧٥ .

(٤) رسائل المعري ١ : ١٧٦ .

(٥) ابن خلكان ١ : ٣٧٢ .

(٦) ابن خلكان ٣ : ٢٢٣

(٧) غاية النهاية ١ : ٢١٥ .

(٨) أدب الخواص (المقدمة) : ٢٢ .

(٩) بغية الطلب ٥ : ١٧ .

(١٠) المصدر نفسه .

(١١) ابن خلكان ١ : ٣٤٩ (نقلاً عن أدب الخواص ، وذلك من الفقرات الضائعة) وتعريض المتنبي به هو قوله :

بـهـا نـبـطـيٌّ مـن أهـل الـسـواد يـدرّس أنـسـابَ أهـل الـعـلا

(١٢) ذ٫ر الصفدي في الوافي (٢٢ : ٢٣٤) أنه كان مؤدباً له .

(١٣) رسالة الغفران : ٥٥ .

(١٤) رسالة الغفران : ٥١ .

(١٥) الوافي ٢٢ : ٢٣٤

لُقِّبْتَ بالكامل ستراً على نقصك كالباني على الخصّ
فصرتَ كالكُنْفِ إذا شُيِّدَتْ بُيِّضَ أعلاهنَّ بالجص
يا عُرَّةَ الدنيا بلا غُرَّةٍ ويا طُوَيْسَ الشؤم والحرص
قتلت أهليك وأنهبتَ بيـ ـتَ الله بالموصل تستعصي

وهذا الهجاءُ صدر بعد مقتل آل المغربي والهرب من مصر وما اتصل بذلك من أحداث ، أي أن الكراهية اتصلت واتصل بها الهجاء ، وتجمعت سيئاتٌ جديدة بين الرجلين تحجب إمكان التقارب ، ومع ذلك نجد ابنَ المغربيّ يستدعي ابنَ القارح حين صار في ميافارقين ، وذلك حديث نرجئه إلى أن يحين أوانه .

وكان قد مضى على إقامة الحسين بمصر أقلّ من ست سنوات ، حين وجد أنه يستطيع مبارحةَ التلقي إلى العطاء ، والتعلّمَ إلى التأليف أو ما يشبه التأليف ، فعمد إلى اختصار مؤلَّفٍ معروف مشهور ، لأن الاختصار يتيحُ له السيطرةَ على الكتاب ، ووقع اختياره أو اختيار والده ، على كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت . ويحدثنا أبوه بإيجاز عن ذلك الاختصار فيقول : « تناهى باختصاره ، وأوفى على جميع فوائده ، حتى لم يَفُتْهُ شيءٌ من ألفاظه ، وغيَّرَ من أبوابه ما أوجب التدبيرُ تغييرَه للحاجةِ إلى الاختصار وجمع كل نوع إلى ما يليق به »[1] .

كان كتاب إصلاح المنطق قد خضع للإختصار قبل ذلك مرات ، اختصره مؤلفه نفسه ، فأسقط منه أبواباً كثيرة لعله وجدها غيرَ ضرورية كثيراً لمن يرجعون إلى الكتاب ، ثم اختصره ثان وثالث ، فأخلّوا بمعنى الاختصار ، وتهمَّمَ آخرون باختصاره فنكلوا . أما الحسين فإنه في ردِّ النظائر إلى بعضها جعله في ثلاثة أقسام : أمثلة الأسماء ، وأمثلة الأفعال ، واللفيف . واضطره هذا التفريع إلى ما يجاوز حدَّ الاختصار وذلك بإضافة أبواب جديدة إلى الكتاب ، ووضع أسماء لأبواب الكتاب الأصلية مثل باب ليس ، وباب المذكر والمؤنث ، وباب العدد . . . وجعل الأبواب الطويلة منه مرتبة على حروف المعجم ، فجاءت أبواب الكتاب الأصلي ٢١٨ باباً والأبواب المزيدة ١٠٧ أبواب[2] ، ويبدو من هذا الوصف أن الشاب الناشىء اتبع في تقريب فوائد الكتاب منهجاً جديداً ، وأنه كان إلى التأليف أقرب ، فإذا تذكرنا في أي سن فعل ذلك أدركنا مدى تضلّعه في اللغة ، وثقته بنفسه في الاستدراك على عالم كبير مثل ابن السكيت ، وذلك أمرٌ لا يتأتّى بسهولة ، ولا بد أن الحسين الفتى كان قد ضَرَبَ في حفظ اللغة وأمهاتِ كتبها بسهمٍ وافر .

لهذا لا نستكثر أن يتعاظم إعجابُ المعري به ، ذلك أن رغبة الحسين أو رغبة أبيه ، شاءت أن يُعْرَضَ المختصر على أبي العلاء ، وكان كلٌّ منهما يعلم أنه لا يقدّم العمل لتقييم نقديّ ، فالإحسان الذي واكب العملَ ملأ نفس الأب إعجاباً والابن حبوراً ، وإنما كانا يتطلعان إلى شهادة رجل ثقة ، شهادةٍ تكفلُ للفتى السير على المحجة الواضحة ، وتضعه فوق نظرائه وتجعله مساوياً لكثير ممن سبقوه في المضمار ، ومن يستطيع أن يمنح مثل هذه الشهادة سوى حُجَّةِ اللغة في عصره ؟ وقد عرف أبو العلاء معنى ذلك التوجه ، واستشارته الصداقة القديمة للأب والإعجاب بالفتى إلى كتابة الرسالة الأغريضية .

(١) بغية الطلب ٥ : ١٨ .
(٢) أدب الخواص : ٢٠ (نقلاً عن طرة مخطوطة الاسكوريال رقم ٦٠٥)

وإنما سميت بالأغريضية لأنه ذكر فيها « الاغريض » ـ وهو الطلع ـ وتتألف هذه الرسالة من ثلاث دورات ، في الأولى ترحيبٌ بما تلقّاه المعري من شعر ابن المغربيّ والثانية احتفاءٌ بمَقْدَم اختصار إصلاح المنطق ، والثالثة في شؤون شتى ، ويهمنا منها الدورة الثانية التي يتحدث فيها المعري عن تلك المهارة التي استطاعت أن تُجْرِي نهرَ الفرات في خَرْتِ إبرة (يعني جودة الاختصار ودقته) « ودلَّت على جوامعِ اللغةِ بالايماء ، كما دلَّ المُضْمَرُ على ما طال من الأسماء » فقد أسقط ابنُ المغربيّ الشواهدَ من الكتاب وهي أحد عشر نوعاً ، وحقّ له ذلك فإن أبا يوسف بن السكيت غلا في التكثّر من الشواهد . وتحدث المعري عن معرفة يقينية بكتاب إصلاح المنطق ، فقد كان من محفوظاته ، وكيف أنه بُنِيَ على عشرين حرفاً (وَعَدَّ تلك الحروف) ، فلو أن أبا يوسف عاش ورأى ما صنعه ابن المغربي لفاظ كمدا ، إذ الإختصار كمرآة المنجم شَخْصُهَا ضئيلٌ ملموم ، وتستحضرُ القمرين والنجوم[3] . وإذا نحن وضعنا تشبيهات المعري وتصوراته جانباً لأنها جزء من طبيعته الأدبية ، وجدنا أن إطراءه لعمل ابن المغربي لم يكن مجاملةً أبداً ، وإنما كان وليدَ قراءةٍ دقيقة لما صنعه ذلك الفتى ، وحكمٍ نقديٍّ منصف .

على أنا يجب أن نتذكر شيئاً كان في صميم طبيعة المعري ، وهو أنه كان في رسائله يبتكر دائماً صعيداً جديداً ـ تعليميّ الغاية ـ يضعُ فيه ما يريد أن يسوقه من أفكار ، وكان يتحي منحىً غير مألوف في اللغة والتصوير والتمثيل ، ليرضي ذوقه الفنيّ ، ولم يكن ذلك كله مصحوباً بأي شعور بالاستعلاء . ولهذا فإنه في رسالة الاغريض (وفي رسالة المنيح على حدّ سواء) كان يوحي لابن المغربيّ بأن أمامه طريقاً طويلاً لبلوغ درجة الاتقان ، وليس من الضروري أن يكون ذلك بتقليد المعري ، بل بالرؤية الذاتية الواعية ، وقد فعل ابن المغربيّ ذلك بتوجيه أكبر أستاذٍ له ، وإن لم يتلقَّ العلم مباشرة على يديه .

سمّى ابنُ المغربي اختصاره لإصلاح المنطق باسم « المنخّل » ، معتمداً في الاختصار نسخةَ أستاذه جنادة الهروي ، وهي مقروءة على الأزهري صاحب تهذيب اللغة عن أبي الفضل المنذري عن أبي شعيب الحراني عن المؤلف . وقام بقراءة الأصل والاختصار على أستاذه جنادة نحو عشر مرات[4] . وقد عرف « المنخل لدى معاصريه فرووه عنه ، وكان ممن رواه عنه أبو ياسر الفرج بن إبراهيم البغدادي[5] الكاتب الشاعر . ويبدو أن الأديب الأندلسي أبا القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي اطلع عليه ، وصنع له خطبة[6] وأثنى عليه ابن بسام في الذخيرة بقوله : « فإنه غايةٌ لا يتعاطاها إلا من بَهَرَ عِتْقُهُ واشتهر سبقه ، وطريقةٌ لا يتوخّاها إلا من رَسَخَتْ في العلم قَدَمه ، وترامتْ به إلى معالي الأمور هممه »[7] . وما كاد يلقي القلم من تحبيره للمنخل حتى اقترح عليه أبوه أن ينظم الكتاب ، فابتدأ بذلك وعمل منه عدة أوراق في ليلة[8] ويبدو أنه لم يتم هذا العمل ، إذ لا نسمع عنه شيئاً بعد ذلك .

(٣) رسائل المعري ١ : ١٨٥ ـ ١٨٦ .
(٤) أدب الخواص (مقدمة المحقق) : ٢٠ (نقلاً عن طرة نسخة الاسكوريال رقم ٦٠٥) .
(٥) الذيل والتكملة ٨ : ٢٥٩ .
(٦) إحكام صنعة الكلام : ٢٨ .
(٧) الذخيرة ٤ : ٤٧٦ .
(٨) بغية الطلب ٥ : ١٨ .

وبعد ذلك النجاح الأول ـ في ميدان العلم ـ ظلّ ابن المغربي في مصر حوالي أربعة عشر عاماً ، فماذا تراه كان يعمل وفي أي الاتجاهات برز نشاطه ؟ هل عمل كاتباً في الديوان ؟ وإذا كان قد فعل فأين كان مقامه من أبيه وعمّه في هذا المجال ؟ إن المصادر لا تحدّثنا بشيءٍ دقيق في هذا الصدد ، ولهذا علينا أن نكوّن صورةً قريبة الشبه بالواقع اعتماداً على استقراء الظروف وبعض المعلومات القليلة المتناثرة في المصادر :

فاستقراء الظروف يقول لنا إن هذه الفترة هي فترة الاستقرار الوحيدة في حياة ابن المغربي ، وما بعدها كلّه تنقلٌ من بلد إلى بلد ، وملاحقةٌ للفرص حيث لاحت . وفترةُ الاستقرار تلك هي أصلحُ مراحلِ حياته للازدياد من العلم وللاقدام على مزيدٍ من التأليف . صحيحٌ أن رحيله وأهله من الشام جعلهم يفقدون الكتب التي جمعها أسلافه حين رحلوا إلى مصر ، ولكن مصر استطاعت أن تعوضهم عنها لما كانت تتمتع به من غنىً باهر في الكتب والمكتبات . ولذلك نظنه انصرف إلى تحصيل العلم بكلّ جدٍّ ودأب . ولعله يشير إلى هذه الفترة من حياته حين يقول : « فإني نشأتُ وغذيت بكتب الحديث وحفظ القرآن ، ومثافنة الفقهاءِ ، ومجالسة العلماء ، ووالله ما رأيتُ قطّ بتلك البلاد مأدبةً ولا وليمةً إلا لمقرئين ، ولا كنتُ متشاغلاً إلا بعلم أو دين . . وأما الأحاديث المنشورة التي كنت أبكّر بكورَ الغراب لاستماعها وأطّرح رتبةَ الدنيا في مزاحمة أشياعها ، فأكثر من أن تحصى »[١] . . فمثل هذا الحرص على الطلب يتلاءم وتلك المرحلةَ من حياته ، إذ كان البال مهيأ لذلك ، والعيش في رعاية الأهل يسعف عليه .

وهو يحدثنا أنه ألّفَ كتابه « أدب الخواص » وسنُّه خمسٌ وعشرون سنة أو نحوها[٢] ، أي في تلك الفترة نفسها ، في حدود ٣٩٥ . ولا ريب في أن خطته في هذا الكتاب تدلُّ على تمكّن متميز في معرفة الشعر والنسب والأخبار واللغة ، وقد كان الباعث على تصنيفه الدلالة على معجز القرآن « إذ كان بتَبَحُّرِ ألفاظِ هؤلاء القوم (أي العرب) والمعرفة بمعادن ألفاظهم ومنازع أغراضهم يُعْلَمُ معجز القرآن علماً حسياً ذاتياً . وأنا أرى أن علم العالم أن القرآن معجز من طريق القياس والاستدلال ومن طريق الحسّ والإدراك أشرفُ وأعلى من علم العالم باعجازه عن طريق القياس بالتقليد لغيره والاعتبار بالفصحاء الذين تقدموه وكانوا حجة عليه »[٣] . ويبدو لنا المدخلُ للكتاب بسيطاً لأول وهلة ، فهو في نواته جَمْعٌ للمختار من أشعار العرب ، ولكنَّ هذه النواة لا تلبث أن تتغير فتصبح جمعاً للمختار من أشعار الأربعة : امرىء القيس والنابغة وزهير والأعشى ، ومرتبطاً بهذا يجيء المختار لكلّ من اسمه امرؤ القيس ولكلّ النوابغ والأزاهر والعُشْي . ويجيءُ تحوُّلٌ آخر في الخطة إذ إن كل ذلك يتمُّ في إطار الحديث عن قبيلة كلّ شاعر ثم المختار من أشعار كل قبيلة . وذلك يعني أن الكتاب يضمُّ الشعرَ والأخبارَ والأنسابَ مع قِسْطٍ من غريب اللغة . وقد كان منهجه في اختيار الشعر أن ينتقيَ البارعَ من أبيات القصيدة ثم يلقيها جانباً مدة أيام ، ثم يعيدُ فيها النظر برأي مستأنَف ، ثم يختار من المختار أحسنه . واستكمالاً لخطته اقتصر في شرح الغريب على ما يتطلبه المتوسط في الأدب ، كما اقتصر في تبيان السرقات

(١) بغية الطلب ٥ : ١٧ .
(٢) أدب الخواص : ٨٦ .
(٣) أدب الخواص : ٨٣ .

الشعرية على ما يفيد في ذاته لا ما يفيد مَحْضَ العلم بأنه مسروق . ورغبةً في الايجاز ألغى الأسانيد إلا في ثلاثة مواضع : موضع خلاف في الرواية ، وموضع غفل لم يكن إسناده معروفاً فإيراد الاسناد يقوّي منه ، وأن يكون راوي الخبر ذا مقام خاصّ في نفس المؤلف وكان من أماثل من أدركه في زمنه . ذلك هو أدب الخواص ، فإن كان القارىء يحبّ الشعر عدَّه مختارَ أشعارِ القبائل ، وإن كان يحبُّ الأخبار تمثّله مؤلفاً في سير الجاهلية والإسلام ، وليس كلّ السير بل السير المستغربة ، وإن كان يحبُّ اللغة تصوّره معرضاً لعقائل اللغة والشواهد عليها ، وإن كان يحبُّ النسب ـ وهو أصعب علوم العرب ـ عدَّه سياقةً لجماهير الأنساب[٤] .

أحببت تبيان هذا النسق التصاعدي في خطة الكتاب لأدلَّ بذلك على أن مثل هذا التصور « المركّب » ليس وليدَ تجربةٍ مبتدئة بل وليد نضجٍ عميق يرفده اطّلاع واسع وقدرةٌ نقدية أصيلة ، وعكوف على الدقّة العلمية في التقييد والضبط ، ولذلك قلت إن ابن المغربي لم يكتف بالثقافة الصالحة للكاتب بل تجاوزها إلى ثقافة العالم الضليع في علمه . واختياره للصعوبتين ـ المتمثلتين في اللغة والنسب ـ دليلٌ على تمكنه من الأصول ، ونظرةٌ واحدة فيما وَصَلَنا من مؤلفاته ومروياته تدلنا على أننا نجدُ لديه من المرويات ، ومن الاحاطة بالدقة فيما يرويه ، ما لا نجده عند غيره . حتى ليمكن أن نلحظ لديه شَغَفَهُ بغرائب الأخبار ، ومحاسن الأشعار التي قلّما يلتفتُ إليها غيره . وبسبب من هذا التفرد في المعرفة والدقة وحسن الخطّ أصبح ابن المغربي لدى الأجيال التالية حجةً فيما يرويه في اللغة ، وما يقيّده من ضبط ، وما يورده من أنساب . وكان يزيد الخالفين اطمئناناً أن يروا المادةَ مكتوبةً بخطه . وإليك نماذج من الأخذ برأيه في اللغة والضبط للأسماء ، والاعتماد على خطه :

الجرجة ـ الخرجة : كان الوزير ابن المغربي يسأل عن هذه الكلمة على سبيل الامتحان ، ويقول ما الصوابُ من القولين ، ولم يفسّر[٥] .

شلا : ورأيت بخط الوزير ابن المغربي في بعض تصانيفه يذكر أنه قد أجاز الكسائي أشليتُ الكلبَ على الصيد ، بمعنى أغريته ، قال : لأنه يُدْعَى ثم يؤسد فوضع موضعه[٦] .

النكيثة : ذكر الوزير ابن المغربي أن النكيثة في البيت هي النفس :

وقربت بالقربى وجدِّك أنني ... متى يكُ عهدٌ بالنكيثةِ أشهدِ[٧]

النمّي : في قول الشاعر :

ولو شئتُ أبديت نمِّيَّهُمْ ... وأدخلتُ تحتَ الثيابِ الإبَرْ

قال الوزير المغربي أراد بالنمي هنا العيب ، وأصله الرصاص ، جعله في العيب بمنزلة الرصاص في الفضة[٨] .

الدهناء : بخط الوزير ابن المغربي : الدهناء عند البصريين مقصور وعند الكوفيين يقصر ويمد ، والدهان الأمطار اللينة ، واحدها دهن ،

(٤) أدب الخواص : ٨٣ ـ ٨٥ .
(٥) التنبيه والإيضاح ١ : ١٩٥ (واللسان جرج) .
(٦) مادة (شلا) في اللسان عن ابن بري .
(٧) التنبيه والإيضاح ١ : ١٩٠ واللسان (نكث) والبيت لطرفة .
(٨) اللسان (نجم) عن ابن بري .

وأرض دهناء مثل الحسن والحسناء ، والدهان : الأديم الأحمر(١) .

قسا : بالضم والمد ، قرأتُ بخط ابن مختار اللغوي المصري مما نقله من خطّ الوزير المغربي : قسا منون وقساء ممدوداً موضع ، وقسا موضع غير منون ، هذا نصّ عليه ولم يحتجّ (٢) .

جعفيّ : ذكر الوزير أبو القاسم المغربي في جُعفيّ أربعَ لغات فقال ، يقال جُعْفيٌّ منسوب منون مشدد ، وجُعفيّ مشدد غير منون ، ويقال جُعْفِي غير مشدد ، ويقال جُعْف بوزن فُعْل ثلاثياً من غير ياء النسبة (٣) .

ولو قلنا إن معظم ما ألفه ابن المغربي إنما كان نتاج هذه الفترة المصرية لم نبعد كثيراً عن الحقيقة ، وذلك هو ما يذهب إليه أيضاً الشيخ حمد الجاسر (٤) ، مستثنياً من ذلك أشعاره ورسائله ، لأنه لم يقتصر في كتابة الشعر والرسائل على هذه الفترة وحدها ، بل عاش الشعرُ والنثرُ معه حيثما اتجه . وقد رأينا أنّ المنخّل وأدب الخواص ينتميان إلى تلك المرحلة ، ونضيفُ إليهما « الايناس » وهو كتاب في الأنساب بناه على كتاب لمحمد بن حبيب عنوانه « مختلف القبائل ومؤتلفها » فالأنساب فيه نتيجةٌ لضبط الأسماء المتشاكلة مثل فَهْم وَفَهْم ، والتمييز بين ما تطابق دون اختلاف كبكر بن وائل من عدنان ، وبكر بن وائل من قحطان ، وإفراد الأسماء التي تتطلب ضبطاً مفارقاً مثل شُمْس (بضم الشين) ، وقد رُتِّبَ الكتاب على حروف المعجم ، وَوُجِدَ على ظهر الأصل بخطه : « متى ما نَسَخَ هذا الكتاب ناسخٌ غير ضابط انعكس الغرض ، فصار هُداهُ ضلالةً بالحقيقة ، ومتى ما كُتِبَ أيضاً بأجاً (٥) واحداً ولم يُفَرِّقْ بين فصوله مَرِجَ والتبس وَصَعُبَ إخراج ما يراد منه » (٦) . كما نضيف كتاباً له كبيراً في الأنساب أشار إليه في أدب الخواص (٧) ، والمأثور في ملح الخدور ، رآه ابن العديم بخطّه وأورد منه مقتبسات ألحقتُها بهذه الدراسة ، وتتميم كتاب الفهرست لابنُ النديم (٨) ، وأرجّح أن الزيادات فيه أوصلت الفهرست إلى عصر المغربي ، وذلك يتحمل الزيادة مع الزمن وربما لم يكن محدوداً بفترة واحدة . ويلحق بهذا النوع من الكتب كتاب النساء . أما كتب القبائل مثل كتاب بني ضبيعة وكتاب بني أسد وكتاب ذبيان وكتاب تغلب فالأرجح أنها فصول داخلةٌ في كتاب أدب الخواص ولم تكن كتباً منفصلة . وهناك كتب تُنْسَبُ إليه ولم يكن تأليفها يحتاج إلى اطلاع واسع أو تعدد في المصادر وهي كتب الاختيارات : اختيار شعر أبي تمام ، واختيار شعر البحتري ، واختيار شعر المتنبي والطعن عليه ، ومنتخب كتاب الأغاني (٩) وهي مما يمكن أن يُنْسَبَ إلى فترة التنقل والشتات . وهناك كتاب من هذا الصنف نفسه وهو الاختيار من نثر عليّ بن عبيدة الريحاني ، وإنما أفردته لأن الريحاني كان مكثراً من التأليف ، وكان لا بد لمن يريد أن يختار من نثره الاطلاع على عددٍ كبير من كتبه ، وليس الأمر هنا كالاعتمادِ على كتابٍ واحدٍ في الاختيار .

وهنالك عدد من كتبه لا نعرف منها إلا الأسماء ، ولم يذكرها إلا المتأخرون ككتاب الالحاق بالإشتقاق(١٠) والعماد في النجوم(١١) .

وقد عد له الشيخ حمد الجاسر ستة وعشرين مؤلفاً(١٢) تكرر منها مختصر إصلاح المنطق ، وَعُـدَّتْ فيها كتب القبائل (وسقط كتاب تغلب) وهي ليست كتباً مستقلة على وجه حاسم . ولحق الوهمُ ذكرَ كتبٍ أخرى ، فكتاب السيرة النبوية ليس سوى كتاب السيرة لابن هشام (تهذيب سيرة ابن إسحاق) مكتوباً بخطّ ابن المغربي . ويبدو لي أن اختصار الغريب المصنف ليس سوى وهم أيضاً ، وأن المراد هو اختصار إصلاح المنطق ، وما أرى كتاب المنثور الذي ذكره ابن حجر في الإصابة وتبصير المنتبه(١٣) إلا كتاب المأثور . ولا ريب في أن لابن المغربي ديواناً شعرياً ، لكنه لم يصلنا مجتمعاً ، وما يذكره بروكلمان من أن في الأمبروزيانا (رقم : ١٩ حسب الفهرسة القديمة) قطعة من شعره ، فإنه من الأوهام الكبيرة ، ولقد رحلت إلى الامبروزيانا بميلان سنة ١٩٨٣ بحثاً عن تلك القطعة من الديوان ، فلم أجد تحت الرقم المذكور إلا كناشة فيها مختارات من الأشعار من بينها ستة أبيات ـ في ثلاث قطع ـ لابن المغربيّ .

وانفرد الداودي بذكر مؤلفات أخرى لم تذكرها سائر المصادر وهي فضائل القبائل ، وكتاب أخبار بني حمدان وأشعارهم ، وكتاب الشاهد والغائب ، وهذا الأخير بيّنٌ فيه أوضاع كلام العرب والمنقولَ منه وأقسامه تبييناً يكاد يكون أصلاً لكلّ ما يسأل عنه من الألفاظ المنقولة عن أصولها إلى استعمال محدث . كما ذكر له المسبحي كتاب « الاماء الشاعرات » وكتاباً في « مقامات الزهاد » وهذا الثاني ينتمي إلى فترة متأخرة من حياته .

إلى جانب هذا النشاط في التأليف هل كان ابن المغربي يعمل عملاً آخر ، وبعبارة أدق هل كان ذا وظيفة (منصب) في الدولة ، وما هي تلك الوظيفة على وجه التحديد ؟ إن الذهبيّ حين يتحدث عنه يلقبه بـ « ناظر ديوان الزمان بها »(١٤) (يعني مصر) . دعنا نضع إزاء هذا الخبر خبرين آخرين أحدهما يقول إن أبا القاسم الحسين بن علي كان يتولّى ديوان السواد فَصُرِف عنه ووُلّي بدله رجلٌ نصراني اسمه منصور بن عبدون ، ومن ثم نشأت البغضاءُ بين الرجلين(١٥) ، والثاني يذهب إلى أن ابن المغربي الأب لما غضب عليه العزيز عزله وولّى مكانه صالح بن علي الروذباري ، واسترجع ابنَ المغربيِّ إلى مصر فلم يزلْ بها حتى قام الحاكم فكان هو وولده أبو القاسم حسين من جلسائه(١٦) . هذه ثلاثة أخبار أحدها يجعل ابن المغربي ناظرَ ديوان

(١) معجم البلدان لياقوت ٢ : ٦٣٥ .
(٢) معجم البلدان لياقوت ٤ : ٩١-٩٢ .
(٣) ابن خلكان ١ : ٤٥٢ نقلاً عن أدب الخواص .
(٤) أدب الخواص (مقدمة المحقق) : ٢٩ ويجب ألا نغالي في هذا ، فقد استطاع ابن المغربي أن يكوّن مكتبة وأن يجد بعض الفترات المسعفة على التأليف في المرحلة الأخيرة من حياته .
(٥) البأج : الطريق الواحد والوجه الواحد ، أي إيراده دون فصل بين الجمل .
(٦) الايناس : ٣٣ (صورة طرة مخطوطة تشستربيتي) .
(٧) أدب الخواص : ١٣٨ .
(٨) معجم الأدباء ٦ : ١٩٧ ، ٤٦٧ (١٦ : ٣١٧-٣١٨) .
(٩) معجم الأدباء ٥ : ١٥٠ (١٣ : ٩٧) .
(١٠) ذكره الزبيدي في التاج (أزد) وهداية العارفين ١ : ٣٠٧ .
(١١) هداية العارفين ١ : ٣٠٨ .
(١٢) أدب الخواص (مقدمة المحقق) : ٣٠-٣٧ .
(١٣) الإصابة ١ : ٣٥٥ والتبصير : ٢٧٠
(١٤) تاريخ الذهبي (مخطوطة المتحف البريطاني ٤٩ ، الورقة ٩ / أ) وبروكلمان ، التكملة ١ : ٦٠٠ .
(١٥) ذيل تاريخ دمشق : ٦١ .
(١٦) خطط المقريزي ٢ : ١٥٧ .

الـزمـان ، والثـاني يجعله صـاحبَ ديـوان السـواد ، والثـالث يجعله جليسـاً للحاكم ، فأين تقعُ الحقيقةُ من خلال هذه الأخبار ؟

لا معنى للخبر الأول في رأيي لأنـه ليس هنـاك ديـوان اسمـه « ديـوان الزمان » وأقربُ ما هنالك إلى تصويب هذا النص أن نقرأ « ديوان الـزمام » وهو ديوان نشأ في الدولة العباسية حوالي سنة ١٦٢ في خلافة المهدي إذ يـذكر الطبري أنّ المهدي وضع في ذلك العام دواوين الأزمة . وكـان عملُ ديـوان الزمام ـ في أصل نشأته ـ الاشراف والرقابة على أعمال الدواوين ذات العلاقـة بأمور الأموال من واردات ونفقات(١) ، ويبدو أن هذا الـديوان بهـذا الاسم لم يكن موجوداً في العصر الفـاطمي بمصر ، وأن الذهبي ـ إن صـحّ التصويب ـ يستعمل مصطلحـاً عراقيـاً للدلالة على شيء مشابـه ، وأقرب مصـطلح إليه « نـظر الدواوين » أو « ديـوان النظر »(٢) ، فـإن لم يكن الأمر كـذلك فلنـا أن نعتبر « ناظر ديـوان الـزمـان » لقبَ تشريفٍ وتعـظيمٍ كـأن نقـول في وصف أحدهم « ناظر عين الزمان » أو ما أشبه .

وأما الخبر الثـاني فيتحدث عن ولايـة « ديوان السـواد » وديوان السـواد يلحق بالعراق ، بل هو يعني ديوان العراق بعـد استحداث ثـلاثة دواوين هي ديـوان المشرق وديوان المغرب وديوان السـواد تنضوي تحتهـا فئات الـدواوين المختلفة . وليس من المعقول أن يكـون متولّي ديـوان السواد مـوجوداً بمصر ، وعلى هذا يكون اسم الديوان هنا محرفاً أيضاً . فإن لم يكن كذلك ، فهو ترجمة لمصطلح عراقيّ آخر ، ولعله يقابل « ديوان الضياع » أي هو ديوان يتولى أمورَ الاقطاعات الفاطمية ببلاد الشام ، التي يمكن أن يطلق على أجزاء منها « سواد الشام »(٣) .

ويتحدث الخبر الثالث عن مجالسة الحاكم دون الارتباط بوظيفة معينة ، وهذا شيء لا يتطلب توقفاً أو تفسيراً ، فقد كـانت علاقـة أبيه وعمـه بالـدولة الفاطمية طيبة ، وما كـان غضب العزيز على أبيـه إلاّ غضباً عـابراً ، وبحكم تلك العلاقة كان في إمكان الحسين أن يذهب إلى قصر الخلافة في صحبـة أبيه أو عمه ، وأن يتعرف إلى الخليفة ، وأن تقدمه إليه ثقافته وعلمه بالإضـافة إلى مكانته الإجتماعية . وقد احتفظت لنا المصادر بخطبة قام بها بين يدي الحـاكم (رقم : ١٥) وأكبر الظن أن هذه الخطبة كانت سنة ٣٩١ لأن فيها إشارة إلى ملك الروم الذي « خرق إزار السلم وهتك حجاب الأمن » . وذلك أن ملك الروم في أواخر سنة ٣٨٩ نزل على شيزر فـأخذهـا وانتقل إلى حمص فـأخذهـا أيضاً وسبى وأحرق(٤) . وفي سنة ٣٩١ وصلَ رسولٌ من ملك الروم ، وكـان له استقبالٌ حافل ، وإلى ذلك تشير الخطبة « فعاد يفتل حَبْلَ الهدنة ويمدُّ إليـك أمير المؤمنين كف الرغبة » ، وفي الخـطبة تحـريض على الجهـاد ، ولكن الأهم من ذلك في الحديث عن سيرة الحسين أنـه ختم الخطبـة بالالتفـات إلى نفسه « عبدك ووليك ابن أوليائك » وفيه يؤكد أن الحسين حتى ذلك التـاريخ كـان يـرنو إلى منصب في الـدولة كـان يعين مـذكـراً للجيش ، أو خـطيبـاً بحضرة الحاكم ، إن لم نفترض أنه كان يـطمح إلى الـترقي من منصب دانٍ إلى منصبٍ أسمى منه .

ومهما يكن من شيء فإن الروايات الثلاث أخذت تتقارب ، إذ يبدو أنه بعد هذه الخطبة نال منصباً في أحد الدواوين ، أيـاً كان ذلـك الديـوان ، أهو ديوان الزمام أو ديوان الضياع أو ديوان الخراج ، وأن المنافسة بدأت بينـه وبين ابن عبدون وشارك فيهـا أبوه ، وبـدأت المكايـداتُ والوقـائعُ تتصـل ، وظلَّ الأمر على ذلك حتى سنة ٣٩٩ ، ففي أول ذلك العام انفرد ابنُ عبدون بالنظر في ديـوان الخراج دون شريـك(٥) ، ومعنى ذلـك أنَّ ابن المغـربيّ فقـد منصبـه ولكنه لم يكفَّ عن « الوقيعة فيه (في ابن عبدون) والكلام عليه وعلى الكتّاب النصارى إلى أن قبض على جماعتهم ، فلما حصلوا في القبض أمر الحـاكم بأن يُضْرَبَ كلّ واحد منهم خمسمائة سوط ، فإن مات رُمِي به للكلاب وإن عـاش أعيد ضربه إلى أن يموت »(٦) .

وفي الـوقت نفسه لم يكن منصـور بن عبـدون أقـلَّ شراسـةً وحقـداً في تحريض الحاكم على بني المغربي وإغرائه بهم وحثّه على قتلهم ، فتقـدم الحاكم إلى السياف ـ وهو جعفر الصقلبي ـ وأمره أن يحضر عليـاً ومحمداً ابني المغـربي ويدخلهما الحجـرة ويضرب أعناقهمـا ففعل ، ثم أمره بقتل الحسـين وأخويـه محمدٍ والمحسّن ، فاستـتر الحسين وأُخِـذ أخواه وقتـلا(٧) ، وكان ذلـك لثلاثٍ خلون من ذي القعدة سنة أربعمائة(٨) .

هل كانت الخصـومة بـين آل المغربي وابن عبـدون هي السببَ الوحيـدَ الذي أدّى إلى هذه النهـاية الفـاجعة ؟ نستـطيع أن نفـترض عدةَ أسبـابٍ كأن نقول مثلاً إنّ طولَ العشرة جعل بني المغربيّ ذوي إدلال على الخـلافة ، يـرون لهم فضـلاً عليهـا ، وأن الـوشـايـات ضـدهـم أصبحت لـدى الخليفـة سهلةَ التصديق . وقد نقـول إن جانبـاً من التصريحات التي كـان يطلقهـا الحسين ، محمّلةً بطموحه المتصاعد كانت تُلْقَى عـلى أذن الخليفة ، وأنها حـين تكاثـرت ضاق بها ذرعـاً ، والخبر عن الغلو في الـطموح لـدى الحسين قـابلٌ للتصـديق بسهولة ، وإن رواه شخصٌ حاقد . فقد روى ابن القارح أن الحسـين قال لـه ذات يـوم : ما نـرضَى بالخمـول الذي نحن فيـه ، فقـال ابن القـارح : وأيّ خمـولٍ هنا ، تـأخذون من مـولانا ـ خلد الله ملكـه ـ في كل سنة ستة آلاف دينار ، وأبوك من شيوخ الدولة ، وهو معظّم مكرم ، فقال الحسين : أريد أن تُصار إلى أبوابنا (بغية الطلب : دواويننا) الكتائبُ والمواكبُ والمقـانب ، ولا أرضى بأن يُجْرَى علينا كالولدان والنسوان . وأبلغَ ابنُ القارح هذا الموقفَ إلى عليّ والد الحسين فقال : مـا أخوفني أن يخضب أبـو القـاسم هـذه من هـذه (وقبض على لحيته وهامته) . ويبدو أن تفجّر نفسِ الحسين بالتعبير عن هذا الطموح كـان ظاهـرة متكرّرة ، فقـد روى ابنُ القارح أن أبـاه قال في منـاسبة أخرى . « أنا أخافُ همّةَ أبي القـاسم أن تنزو بـه إلى أن يوردنـا وِرْداً لا صَدَرَ عنه »(٩) . وقد نقول إن هذا الطموح ارتقى ـ بعد الحرمـان من المنصب ـ إلى درجـة الثـورة ، ولعـلَّ هنـاك إشـارة إلى ذلـك في مـوقف تمّ بينـه وبـين ابن القارح ، حين استـدعاه ليلعنـه في وجهه ، فقـال ابن القارح : ولِمَ ؟ قـال :

(١) الدكتور مصطفى الحياري : الدواوين من كتاب الخراج (مقدمة المحقق) : ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) الموسوعة الإسلامية ٢ : ٣٢٩ (الطبعة الثانية بالإنجليزية) .
(٣) لنا أن نستأنس بقول ابن المغربي يخاطب الجيوش بـالرملة : « والـرأي أن تبادروا وتنـادوا في السـواد ، وتسمعوا الشراة في الجبال بـإباحـة النهب والغنيمـة » (ذيـل تجارب الأمم : ٢٣٥) .
(٤) اتعاظ الحنفا ٢ : ٣٢ .

(٥) اتعاظ الحنفا : ٢ : ٧٦ .
(٦) ذيل تاريخ دمشق : ٦١ ـ ٦٢ .
(٧) ذيل تاريخ دمشق : ٦٢ .
(٨) أخبار الدول المنقطعة : ٤٨ .
(٩) رسالة الغفران : ٥٣ وبغية الطلب ٥ : ١٨ .

لمخالفتك إياي فيما تعلم[1] . فهل كانت تلك المخالفة تتعلق بشيء من ذلك ؟ إن هنا غموضاً مقصوداً ، قد يقوّي الظن بأن الحسين كان يدبّر شيئاً ولكن مخالفة ابن القارح له أفسدتْ عليه خطته . وقد نربط بين مقتل آل المغربي ومقتل جنادة الهروي وصديقه المقرىء ، لاتصال أسبابهما بأسباب الحسين وأبيه ، ونتخيلُ وجودَ مؤامرة واسعة الأطراف قضى الحاكم على عناصرها تباعاً . أو لعلنا أن نردد ما قاله أحد المصادر وهو أن الحاكم إنما غضب من ابن المغربي وأمر بقتله « لأنه كان يضرب بينه وبين وجوه دولته »[2] . وإذا سلّمنا بذلك وجدنا أنه قد يعلل غضبه على الحسين ، فلم شمل الغضب سائر أهله ؟

٣ ـ الثورة في الرملة

بقي ابن المغربي مختفياً منذ الثالث من ذي القعدة حتى الثاني عشر منه[3] (عام ٤٠٠) حين أتيح له أن يخرج متنكراً في زي جمّال[4] ، برفقة قافلة من الأعراب ، مجتازاً شبه جزيرة سيناء إلى فلسطين ، وقيل إن الحاكم بعث من يطلبه فلم يُدْرَكْ[5] وحين وصل الرملة نزل بحلة حسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح واستجار به فأجاره ، وأنشده قصيدة يثني فيها عليه وعلى قبيلة طيء بعامة :

يا طيءَ الخيراتِ بين حلالكم أمنُ الشريد وهمّة الطلاّبِ
سمكت خيامكمُ بأسنمةِ الربى مرفوعةً لطارقِ المنتابِ

ثم يصف الذعر الذي تلبس به حتى ضاق به عليه إهابه ، وأنه مذ حلّ في ديار بني الجراح قد عرف معنى النوم والطمأنينة ، فلما سمع حسان منه هذه القصيدة هشّ له وجدَّد تعهده بحمايته ، وسكّن من روعه .

كانت قبيلة طيء تؤازر القرامطة في أول الأمر ، ولذلك فإن هؤلاء حين استولوا على الرملة سنة ٣٦٠ عينوا لها حاكماً منهم وجعلوا معه دغفل بن الجراح جدّ حسان ، ومنذ ذلك التاريخ وجدت الامارة الطائية التي تغلبت على معظم القسم الجنوبي من بلاد الشام ، ولهذا عملت الدولة الفاطمية على استمالة طيء وفصلها عن الحركة القرمطية وعلى ضمان ولاء طيء لتساعد الدولة في تثبيت سلطانها على ما استولت عليه من بلاد الشام ، وفي الوقت نفسه بذل الفاطميون كل جهد للحيلولة ، دون استقواء طيء ، بحيث تصبح قوة تهدّد الوجود الفاطمي في الشام . وكانت خطة الفاطميين اكتساب تلك القبيلة بالأموال والاقطاعات ، ولكن رغبة الدولة الفاطمية في إبقاء طيء في حدود التبعية والضعف كثيراً ما حفز تلك القبيلة إلى مساندة بعض الحركات المناوئة للفاطميين[6] .

لعل صورة هذا الوضع كانت واضحة تماماً في ذهن الحسين ، حين وجه وجهه صَوْبَ الرملة ؛ كان في طلبه الجوار يلوذُ بقيم عربية معروفة ، ولكن نفسه كانت تنطوي على ما هو أبعد من الإطمئنان الهادىء إلى حماية شيخ ذي نفوذ واسع ، كانت نفسه تجيشُ بالإنتقام ، والقضاء على الحاكم . وبعد أن كفكف من دموعه على إخوته وأبيه وعمه ، وأذكرته مصارعهم الطفَّ وكربلاء (المقطوعة : ٩٦) وكيف خَلَتْ منهم محاريب المساجد ، بعد هذا أخذ يفتلُ لأعدائه حبال مؤامرة كبيرة محكمة . ولعله لم تكن لديه خطة معدة مرتبة المراحل ، بل كان يستمد من حقده الشديد على الحاكم ما يستثير ذكاءه لاغتنام كل فرصة تلوح لإحكام المؤامرة وتوسيع نطاقها . كانت الخطوة الأولى ـ بطبيعة الحال ـ أن يكسب ثقة حسان بن المفرج ، وهو في الوقت نفسه يكتشف مواطن الضعف فيه ، ويتأتى بكل لباقة لإفساد نفسه على الحاكم . ولعله في بادىء الأمر استثار عاطفته ممتزجةً باستنكاره وامتعاضه لما ارتكبه الحاكم من فظائع وشرور ، لا بقتل آل المغربيّ وحسب ، بل بقتل الكثيرين من الناس ، وإذن فهو خليفة لا يؤمن جانبه ، وخطره على الإمارة الطائية وعلى حسان وأهله محقق وشيك .

وتضطرب الروايات بعض اضطراب في تسلسل الأحداث ، وفي كيفية استغلال ابن المغربي لها إعداداً للثورة وقطعاً لروابط التفاهم بين بني الجراح والفاطميين . هل كان الصدام بين بني الجراح وجيش الفاطميين أولاً ثم تبع ذلك اللجوء إلى سند جديد وخلافة جديدة ؟ أم كان الأمر بالعكس ، أي بدأ البحث عن خليفة بديل ، فاغتاظ الحاكم وأرسل جيشاً لتأديب العصاة ؟ إن هذا الإضطراب في الروايات سرعان ما يزول إذا أخذنا بالرأي القائل : إنَّ حملة يارُخْتكين لم تكن موجهةً ضد آل الجراح منذ البداية ، ولكن الظروفَ حولتها كذلك . وهذا يعني أن تسلسل الأحداث تمّ على الوجه الآتي :

١ ـ كانت الجيوش الفاطمية قبل بضع سنوات قد عانت كسرةً عند باب حلب على يد بسيل ملك الروم . ولهذا جهز الحاكم جيشاً بقيادة مملوك كان لأبيه العزيز اسمه يارختكين (يا روخ تكين) . فخرج هذا القائد من مصر في عدد قليل إذ كان معوله على الجيش الفاطمي في الرملة وعدده خمسة آلاف . وكان الحاكم قد أوصى وجوهَ القواد بإبداء كلِّ آيات التبجيل والإحترام ليارختكين وأن يترجلوا في موكبه . وكان من جملة من أُمروا بخدمته عليّ ومحمود ابنا المفرج بن الجراح وأخوا حسان ، فجاءا إلى أبيهما وعرّفاه أنهما يرفضان ذلك النوع من الإذلال في خدمة يارختكين ، وحذَّراه منه ، وأنه إذا عظمت قوته واستفحل أمره أصبح خطراً على بني الجراح ولم يَعُدْ لهم مقام في الرملة . إذن كان بنو الجراح كارهين لقدوم يارختكين ، متوجسين خيفةً من أن يوهن من قوتهم إلى حدّ طردهم من إمارتهم . فإذا جاءت مشورة ابن المغربي بالتصدي له فمعنى ذلك أنها صادفت هوى كامناً في نفوسهم . واقترب ابن المغربي من حسان وهمس في أذنه بأن التخلّص من يارختكين هو الرأي الأمثل ، فأخذ بنو الجراح يستعدون لمواجهته ، وتسربت الأخبار بذلك إلى يارختكين ، وكان قد وصل الجفار من جنوبي فلسطين ، فشاور أصحابه ، واستقر الرأي على أن يبعث رسولاً إلى الجيش المرابط في الرملة ، ويستدعي أحد القواد ومعه ألف فارس ، يلاقونه عند عسقلان ، وقدَّر أن يوافيه القائدُ في ثلاثة أيام ، إلا أن رسوله لم يصل إلى الرملة ، فقد جرى القبضُ عليه في الطريق . ولما انقضتِ المهلة ، سار يارختكين على طريق الساحل ففاجأته جموع حسان عند رفح والداروم ، ودارت معركة غير متكافئة ، أسر فيها يارختكين وأخذ ولده وحرمه ، وأُخذت أموال التجار ، وعادت الأعرابُ إلى الرملة ، إذ أصبحت المدينة هدفاً لأطماعهم لأن فيها الجيش الفاطمي ، فشنوا الغارة على الرملة ورساتيقها ، إلا أن عسكر الرملة

(١) رسالة الغفران : ٥٥ .
(٢) العقد الثمين ٤ : ٧٠ .
(٣) في طبقات الداوودي : ١٥٣ للثاني من ذي القعدة سنة أربعمائة ، وعلى هذا يمكن أن تكون الكلمة : للثامن ، للثاني عشر ، للثاني والعشرين .
(٤) هكذا في طبقات الداوودي ـ بالجيم ـ وورد في اتعاظ الحنفا ١٢ : ٨٢ في زي حال (بالحاء المهملة) وانظر التذييل .
(٥) العقد الثمين ٤ : ٧٠ وأخبار الدولة المنقطعة : ٤٨ .
(٦) الامارة الطائية : ٤٤ ـ ٤٨ (باختصار) .

استطاع صدّهم ، حتى فكروا في الارتحال عنها .

٢ ـ أصيب ابن المغربي بقلق شديد : إن ارتحال الأعراب يعني التخاذل أمام قوة الحاكم ، وفساد الخطة في أول مراحلها ، ولهذا وقف يقول لهم : « إن رحلتم على هذه الصورة وقع الطمعُ فيكم ، وإن صبرتم حتى تفتحوا البلد خافكم الحاكم وملكتم الشام ، والرأي أن تبادروا وتنادوا في السواد وتسمعوّا الشراة في الجبال بإباحة النهب والغنيمة » . فأصغوا إلى نصيحته وعمموا النداء فانثالت الجموع المتعطشة إلى النهب من كل صوب ، وزحفوا إلى الرملة فاستولوا عليها ونهبوا كل ما قدروا عليه وعاثوا فيها فساداً . وانزعج الحاكم لما حدث فأرسل رسالةً إلى المفرج بن دغفل يعاتبه ويحذره ويطالبه باطلاق يارختكين من يد ابنه حسان وإرجاعه إلى مصر ، ولم ينسَ أن يعده بمكافأة مالية ضخمة إذا هو فعل ذلك .

٣ ـ كان يارختكين يلقى على يد حسان أسوأ ما يمكن أن يعامَلَ به أسير ، إذ عامله بامتهان شديد وتفنَّن في إذلاله ، وتتحدث المصادر عن ذلك الاذلال تصريحاً وتعريضاً ، فتصرّح بأنه « سمع غناء جواريه وحظاياه وهو مقيّدٌ معه في المجلس » وَتُعَرِّض بأنه « ارتكب منه فواحشَ عظيمة » وتعود إلى الوضوح الكلي حين تصف مصيره . ولكنها تربط ذلك المصير بالحسين بن علي المغربي ، ففيما كان المفرج يتأمل رسالة الحاكم ووعوده ، فزع ابنُ المغربي إلى حسان وقال له : « إن والدك سيركب إليك ولا يبرح من عندك إلا بيارختكين ، ومتى أفرجتم عنه وعاد إلى الحاكم ردَّه إليكم في العساكر التي لا قِبَلَ لكم بها » ، وكان في رأس حسان نشوة ، ولعلها هي إحدى مواطن الضعف التي كان يستغلها ابن المغربي ، فانتفض حسان ، وأمر بإحضار يارختكين ، وذبحه صبراً بين يديه ، وأنفذ رأسه إلى المفرج أبيه[1] ، وأدرك المفرج أن الأحداث قد قطعت شوطاً بعيداً في تطورها ، فلم يفاتح ابنه بشيء .

٤ ـ بلغ بنو الجراح في علاقتهم بالحاكم نقطة اللارجوع . وكان ابن المغربي يدرك ذلك ، فتفتق ذهنه عن خطة بارعة ، وهي أن يوجد الخليفة البديل الذي يستند إليه بنو الجراح في استمداد « غطاء الشرعية » لسلطانهم ، ووجده . فاجتمع بالمفرج وأولاده وقال لهم : « قد كشفتم القناع في مباينة الحاكم ، ولم يبقَ من بعدُ للصلح موضع »[2] . والتفت إلى مكة ، ولفت إليها انتباههم قائلاً : هذا أبو الفتوح الحسن بن جعفر العلوي صاحب مكة لا مطعن ولا مغمز في نسبه (هذه إحدى فوائد علم الأنساب الذي أتقنه) وهو في بيته وفضله وكرمه بمكان رفيع ، والصواب أن ننصبه إماماً ونقوم معه على الحاكم . فاقتنع بنو الجراح بوجهة نظره ، وأمره حسان بالتوجه إلى أبي الفتوح بمكة وعرض الأمر عليه . ولما نزل على أبي الفتوح أطمعه في الرئاسة والخلافة وضمن له طاعةَ حسان وقومه ، وكانت العقبة الكبرى هي قلة ما في يد أبي الفتوح من مال ، يستميل به الأنصار والمؤيدين ، وحين شكا ذلك إلى ابن المغربي أشار عليه بأخذ ما في خزانة الكعبة من الأموال وانتزاع ما عليها من أطواق الذهب والفضة وضربها دراهم ودنانير ، ففعل ذلك ، وعرفت دراهمه بـ « الفتحية » وقيل بـ « الكعبية »[3] ، وإلى هذا يشير ابن القارح حين يعدد ذنوب ابن المغربي بقوله : « ويغضي له ـ شهد الله ـ حياً وميتاً أوجبه أخذُ محاريب الكعبة ، الذهب والفضة ، وضربها دنانير ودراهم ، وسماها « الكعبية »[4] .

ها هي السيئات تتوالد ، وتتكاثر ويعلو بعضها بعضاً لتقع جميعها على رأس المدبّر » . والروايات تطلب السهولة ، إذ ما أسهل نسبة كل شيء إلى رجل موتور لا همَّ له إلا تنغيص حياة الخصم أو القضاء عليه . ولم تكتف الروايات بنسبة تجريد الكعبة من ذهبها وفضتها إلى ابن المغربي ، بل تشاء المصادفات أن يموتَ رجلٌ ذو مال طائل بجدة ، فيوصي بمائة ألف من ثروته لأبي الفتوح ليستغلّها في تدبير أموره[5] ، ولكن ابن المغربي لا يقنع بذلك بل يحرضه على احتياز الثروة كلها[6] . وهكذا حُلَّت العقدة المالية . وعندئذ جمع أبو الفتوح بني حسن وشاورهم في الأمر ، فمالت بهم دواعي السيادة وأعطوه البيعة[7] ، فأظهر أبو الفتوح دعوته وبايعه سائر أهل الحرمين ، وتلقَّب الراشد بالله[8] .

٥ ـ لما تمَّ كل ذلك عاد الحسين إلى الرملة واجتمع بالمفرج وبنيه الثلاثة حسان ومحمود وعلي ، وأخذ بيعتهم لأبي الفتوح ، ويقال إنه قام خطيباً ، وذلك غير مستعد ، ولكنَّ الخطبة التي تنسب إليه في هذا المقام هي فاتحة خطبة لابن نباتة ، وسيجيء الحديث عنها فيما بعد . وبعد أن فرغ من أخذ البيعة لأبي الفتوح عاد إلى مكة ليكون في موكب الخليفة الجديد في مسيره إلى الرملة . وعجل أبو الفتوح في سيره ومعه نحو ألف فارس من بني حسن ، ونحو ألف عبد من قواده ، فلما اقترب الموكب من الرملة تلقاه حسان وأبوه المفرج وسائر وجوه العرب ، وقبّلوا الأرض بين يديه ، ونزل في دار بني الجراح ، وتوافد الناس للتسليم عليه بالخلافة ، وكان متقلداً سيفاً زعم أنه ذو الفقار ، وفي يده قضيب ذكر أنه قضيبُ الرسول صلوات الله عليه ، ونادى في الناس بأمان الخائفين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[9] .

٦ ـ ركب أبو الفتوح في يوم الجمعة ، والمفرج وأولاده بين يديه مشاة ، حتى دخل المسجد ودعا ابن نباتة عبد الرحيم بن محمد الفارقي الخطيب وأمره بالخطبة . فصعد المنبر ، واشرأبت إليه الأعناق ، فحمد الله وأثنى عليه وقرأ : ﴿ **طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحقِّ لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفةً منهم يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين . ونمكّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما**

(١) سياق الأحداث متابع لرواية أبي شجاع في ذيل تجارب الأمم : ٢٣٣ ـ ٢٣٥ وقارن أيضاً بالعقد الثمين ٤ : ٧٠ ، ٧٣ ، وأخبار الدول المنقطعة : ٤٩ ـ ٥٠ وبغية الطلب ٨ : ١٢٨ ـ ١٢٩ .

(٢) ذيل تجارب الأمم : ٢٣٥ .

(٣) رسالة الغفران : ٥٨ .

(٤) الإعتماد في التفصيلات هنا على تاريخ الإسلام للذهبي (حوادث : ٤٠٢) وعلى أخبار الدول المنقطعة : ٤٨ والعقد الثمين ٤ : ٧٠ وهو يجمع عدة روايات ولعل الفتحية هي الدراهم والكعبية هي الدنانير .

(٥) العقد الثمين ٤ : ٧٥ .

(٦) ذيل تجارب الأمم : ٢٣٦ .

(٧) ذيل تجارب الأمم : ٢٣٦ .

(٨) العقد الثمين ٤ : ٧٥ (عن الذهبي) وابن خلدون ٤ : ١٠١ .

(٩) العقد الثمين ٤ : ٧٥ (عن الذهبي) وذيل تجارب الأمم : ٢٣٦ وبغية الطلب ٨ : ١٢٩ ويختلف المؤرخون في السنة التي خلع فيها أبو الفتوح الطاعة للفاطميين ، انظر العقد الثمين ٤ : ٧٥ ـ ٧٦ حيث أورد روايات مختلفة .

منهم ما كانوا يحذرون ﴾ (القصص : ١ ـ ٦) . ولعل ابن نباتة كان يشير بيده نحو مصر . حيث يقيم « فرعون وهامان وجنودهما » ثم يشير إلى الجماهير وفيها أبو الفتوح وحسان وابن المغربي « الذين سيرثون الأرض » ، فقد وافقت الآيات واقع الحال . ولما انتهت الصلاة عاد أبو الفتوح إلى دار الامارة(١) .

٧ ـ وها هنا وقفة لا بد منها ، وإن كانت تقطع تسلسل الأحداث . لقد ذكر ابن الأزرق الفارقي في تاريخه أن ابن نباتة توفي سنة ٣٧٤ ونقل عنه ذلك ابن خلكان(٢) . فإذا صح ذلك استحال أن يكون ابن نباتة موجوداً لدى قدوم أبي الفتوح إلى الرملة ، ولم تصح نسبة الخطابة إليه في ذلك الموقف . والأرجح أن ابن نباتة عاش إلى ما بعد هذا التاريخ بكثير ، وكان في الرملة حين دخلها أبو الفتوح ، فقد جاء في مرآة الزمان أنه هو الذي غسل ابن المغربي حين توفي ، وعمل بوصيته حين وضع في تابوته ألف دينار لتكون علامة للنقيب الذي سيدفنه في مشهد عليّ حين يصل جثمانه إلى الكوفة ؛ وتتعارض هذه الرواية مع رواية أخرى جاء فيها أن ابن المغربي رآه في المنام وسأله : ما فعل الله بك ؟ (وهو سؤال يدل على أن الخطيب توفي قبل ابن المغربي ولكنه من ناحية أخرى يدل على علاقة بينهما ، كما يدل على اهتمامه بأمره ويومىء إلى أنه كان قلقاً على مصيره) فقال ابن نباتة : دفع لي صدقة فيها سطران بالأحمر وهما :

قد كان أمنٌ لك من قبل ذا ... واليومَ أضحى لك أمنانِ
والصفحُ لا يَحْسُنُ عن محسنٍ ... وإنما يحسنُ عن جاني

قال : فانتبهت من النوم وأنا أكررهما(٣) : والشطر الأخير في هذين البيتين حيث ترد لفظة « جاني » يصور سبب ذلك القلق ، الذي كان إسقاطاً من ابن المغربي على « صديقه » وشريكه في الثورة ، وهو ما يمثل حقيقةَ حاله هو .

٨ ـ وكان أبو الحسن التهامي شاعر الرملة في تلك الأحداث قد اتخذ من الرملة دار إقامة ، وتزوج بها ، وتقلّد فيها الخطابة(١) ، ووقف كثيراً من قصائده على المفرج الطائي وبنيه ، وأصبحت صلته بابن المغربي وثيقة ، ففي ديوانه أربع قصائد تتصل بالمغربي(٢) ، ومنها واحدة أثارها عتابُ ابن المغربي له لأنه تأخَرَ في مدحه . ترى هل كانت هذه القصائد حين كان اللقاء بالرملة ، أو كانت بعد ذلك ؟ إن اشتراك التهاميّ في الثورة على الحاكم مع ابن المغربي أبعده عن الرملة وحكم عليه بالتنقل من بلد إلى بلد ، وأغلب الظن أن لقاءهما تم من بعد في ميافارقين والموصل إذ نجد التهامي يمدح أبا نصر ابن مروان كما يمدح قرواش ابن المقلد العقيلي بقصائد كثيرة . ومما يرجّح هذا الفرض أن التهامي يخاطب المغربي بلقب « الوزير » و« الكامل » وهما لقبان حازهما من بعد ، ولا أرى أنه حازهما بمصر لأنه لم يكن حينئذ وزيراً . وتؤكد قصائد الديوان حقائقَ مهمة منها أن التهامي كان حقاً في الرملة لما وصلها ابن المغربي ، وأنه كان يعرف كيف تصرَّفَ حسان إزاء الحاكم وقتل يارختكين ، وإلى ذلك يشير بقوله(٣) :

وما زلت ذخراً للإمام وعدةً ... لكلِّ إمام عدةٌ وذخائرُ
فلما جرى ما كان، نفر قلبه ... لأنك نفّاعٌ إذا شئتَ ضائر
تولّى إماماً ثم تعزلُ مثله ... فإن تُدْعَ مأموراً فإنك آمر

ومما يؤكده الديوان ذلك الطموح لدى التهامي لنيل المجد ، شأنه في ذلك شأن ابن المغربي . وفي الديوان قصائد قالها وهو محبوس بخزانة البنود ، مما يؤكد النهاية التي تتحدث عنها المصادر التاريخية ، وفي إحدى تلك القصائد يقول وهو مسجون(٤) :

لعمري لقد طوَّفتُ في طلب العلا ... وحالفني برٌّ وحالفني بحرُ
أروم جسيماتِ الأمور وإنما ... قصاراي أن أبقى إذا بقي الدهر
ولو كنتُ أرضى بالقليل وجدته ... ولكنّ في نفسي أموراً لها أمر

ومما يلفت النظر في إحدى قصائده ما يردده من قالة الناس عنه ، وأنهم يقولون إنه سجن لطلبه الملك ، مع أنه أديب محارَفٌ في عيشه ، ويختم هذا بقوله(١) :

وكلٌّ بما قاله آثمٌ ... سيقرا الذي قال في صُحْفِهِ
وليس سوى نكبات الزمان ... ورأي يضلِّل من ضعفه

ومدائحه في ابن المغربي ، كسائر قصائد المدح ، في الثناء على الجود والإشادة بالنسب الرفيع ، وغير ذلك من الخصال ، ونموذجه قوله في إحدى قصائده(٢) :

طَلْقُ المحيّا للعفاةِ وإنما ... يلقى العبوس به على لوّامه
تتقاصر الأفهامُ دون صفاته ... وَيُغَضُّ عنه الطرفُ في إعظامه
يقظان في كسب العلاء فإن يَنَمْ ... فكأنه يقظانُ عند منامه
تُلْقى الوزارةُ وهي دونَ محلِّه ... وَيُرَى المخدَّمُ وهو من خدامه

وقد انضم إلى مواليه آل الجراح ، وإلى ممدوحه الجديد ، في الثورة على الحاكم ، وكان له دور هامٌ فيها ، وقد ذكر سبط ابن الجوزي أنه « طلب الخلافة بالشام وخرج معه جماعة ، فغدر به آل الجراح الطائيون وتقرَّبُوا به إلى الحاكم وحملوه إليه فحبسه في خزانة البنود إلى أن مات ، وقيل إن الحاكم عفا عنه وخلّى سبيله »(٣) . ولكن ابن خلدون يورد رواية أخرى ، إذ يذكر اثنين آخرين فرّا من الرملة حين أخفقت الثورة ، أحدهما اسمه سبابة ، فرَّ إلى ديار بكر مع ابن المغربي ، والثاني يقال له « التهامي » وقد فرَّ إلى الريّ(١) ، فإذا كان هو الشاعر ، فإن بني الجراح لم يسلموه إلى الحاكم . وبذلك يصبح مصيره غامضاً لأن أشهر الروايات في الحديث عن نهايته أن بني الجراح قاموا بثورة أخرى على الفاطميين ، واستعانوا بالتهامي ، وأرسل معه حسان رسائل كثيرة يستنفر فيها بني قرة ببرقة للثورة . فأخِذَ التهاميّ ، وسئل عن نسبته فانتسب إلى تميم ، ثم انكشف أمره فاعتُقِلَ بخزانة البنود في القاهرة ، وقُتِلَ

(١) ذيل تجارب الأمم : ٢٣٦ ـ ٢٣٧ وتنسب هذه الخطبة إلى ابن المغربي في العقد الثمين ٤ : ٧٣ وأنه قالها حين أراد أخذ البيعة لأبي الفتوح .
(٢) ابن خلكان ٣ : ١٥٧ .
(٣) ابن خلكان ٣ : ١٥٧ ـ ١٥٨ .
(٤) الوافي بالوفيات ٢٢ : ١١٦ .
(٥) ديوان التهامي : ١١٦ ، ١٥١ ، ٣٣٠ ، ٥٣٦ .
(٦) ديوان التهامي : ٢٥٢ .
(٧) ديوان التهامي : ٢٦١ .
(٨) ديوان التهامي : ٤١٣ .
(٩) ديوان التهامي : ٤٣٥ .
(١٠) مرآة الزمان (أحمد الثالث رقم ٢٩٠٧) ١٢ : ٣١ .
(١١) تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٠٢ .

سراً في سجنه سنة (٤١٦)(١) .

٩ ـ لم يلجأ الحاكم إلى القوة تجاه آل الجراح ، كما تحاول بعض الروايات أن تقول ، بل كان عليه أن يستنفد الوسائل الأخرى قبل ذلك ، فقد كان يعلم حقَّ العلم ما بين أفراد بني الجراح من خلاف ، كما كان خبيراً بالمغمز الضعيف في نفسياتهم ، ولهذا استغل سحر « الأصفر الرنان » ـ الذي يرّقص على الظفر ويدعو إلى الكفر ـ فأرسل أموالاً طائلة تُفَرَّقُ على الصغير والكبير من آل الجراح . وكانت حصة حسان وكل واحد من إخوته خمسين ألف دينار سوى هدايا وثياب وحظايا تُهْدَى إليهم . وفي الوقت نفسه طمأن الحاكم حسانَ حول مصرع يارختكين وسهَّله عليه(٢) كأنه يقول له إنه مستعدٌّ لنسيان تلك الحادثة إذا هو خدل أبا الفتوح . وتكشَّفَ شَرَهُ حسانَ الحقيقيّ حين سمع بالمال والحظية ، وأرسل أمه إلى مصر ومعها تذكرة بما يريده من حوائج ، وفي جملتها أن تُهْدَى إليه جارية من إماء القصر ، وأن ينال إقطاعاً وتقريراً ، فتكفل له الحاكم بكلِّ ما طلب ، وكتب له أماناً بخطِّه ، وجهَّز له جاريةً تحملُ كميةً طائلة من المال ، ولأبيه كذلك(٣) .

١٠ ـ لم يكن أبو الفتوح بحاجة إلى أن يرى حسان يرفل في الخلع التي بعثها الحاكم له حتى يستيقن بأن المسرحية قد قاربت النهاية ، فقد كانت نياتُ آل الجراح نحوه قد أخذتْ تتغير . فذهب إلى ابن المغربي وقال له : « أغويتني وأخرجتني من بلدي ونعمتي وإمارتي ، وجعلتني في أيدي هؤلاء ينفّقون سوقَهُمْ بي عند الحاكم ، ويبيعوني بيعاً بالدراهم ، فيجبُ عليك أن تخلّصني كما أوقعتني ، وتسهّلَ سبيلي بالعودة إلى الحجاز فإني راض من الغنيمة بالإياب ، ومتى لم تفعلْ اضطررتُ إلى أن أركب فرسي وأركب التغرير في طلب النجاة »(٤) .

حاول ابن المغربي تشجيعَ الخليفة المخذول وتقوية عزيمته لكي لا يتخاذل ، فقيل إنه ذهب معه إلى المفرج والد حسان ، وأخبراه بتحول أبنائه عن نصرة أبي الفتوح ، وقيل إن ابن المغربي لم يجد الحلَّ المناسب الذي يسعف به صاحبه على التوّ ، فلما طال الأمر على أبي الفتوح ذهب وحده لمقابلة المفرج سراً وقال له : « إني فارقت نعمتي وكاشفتُ الحاكم ، وذلك لركوني إلى ذمامكم ، وسكوني إلى مقامكم ، ولي في عنقك مواثيق ، وأنت أحقُّ مَنْ وفى لمكانك من قومك ورياستهم . وإن خير ما وَرَّثَهُ الإنسان ولده ما يكونُ له به الحمدُ والشكر وحسن الذكر ، وأرى حساناً ولدك قد أصلح نفسه مع الحاكم واتَّبعه أكثر أصحابه ، وأنا خائفٌ من غدره بي ، وما أريد إلا العودَ إلى الوطن »(٥) .

١١ ـ وسواء أأصبح أبو الفتوح العلوي في جوار المفرج فكتب فيه إلى الحاكم بالعفو والمسامحة ، وردّه إلى مكة ، أو كان هو الذي صحبه حتى أوصله إلى مكة ، أو بعث معه جماعة من طيء ساروا معه حتى أوصلوه إليها(٦) ، فالنتيجة في ذلك واحدة ، وهي : عودة أبي الفتوح إلى حجمه بعد انتفاخه ، وعودة آل الجراح إلى طاعة الدولة الفاطمية ، وخروج ابن المغربي من الوليمة « بغير حمّص » كما يقال في المثل العامي وإخفاقه في الثأر لنفسه ولأهله من « فرعون » الذي علا في الأرض . وينقل مؤلف العقد الثمين عن ابن خلدون أن بني الجراح قبضوا على أبي الفتوح وأسلموه إلى الحاكم وأنه راجَعَ الطاعة فعفا عنه(٧) ، وهذا خطأ مبني على وهم . فابن خلدون لم يقلْ إن بني الجراح قبضوا على أبي الفتوح ، وإنما يقول أنهم « أسلموه » ـ ومعنى ذلك أنهم خذلوه ؛ ومما يؤكد هذا المعنى قول ابن خلدون في موطن آخر « فردُّاه (أي أبا الفتوح) إلى مكة ، وراجعا طاعة الحاكم وراجعَ هو كذلك »(٨) .

١٢ ـ لم يكن المال هو العنصر الوحيد الذي أفسد على الشريف أبي الفتوح كلَّ تطلعاته ، ثم أفسد تخاذُلُهُ على ابن المغربي كلَّ ما كان يُعَلّقه من آمال على الثورة بل كانت خطة الحاكم مُرَكّبةً محكمة ، حاول من خلالها أن يقوض كل ما يمكن أن يمنحَ الثورةَ قوةً واستمراراً ، فعمل على إحباطها في الشام والحجاز في آن معاً ، أما في الشام فقد عرفنا كيف تولّى تحويل الثورة إلى الافلاس ، وأما في الحجاز ، فإنه قطع الميرة عن الحرمين(٩) ليمهّد بذلك لثورة الرعية على أبي الفتوح ، ودسّ إلى مولى أبي الفتوح الذي كان ينقل له أخبار الحاكم واسمه أحمد بن أبي العلاء مَنْ قتله بوشاية عطّارٍ عليه(١٠) وكتب كتاباً إلى ابن أبي الطيب وهو ابن عمِّ أبي الفتوح وقلّده الحرمين وأنفذ له ولشيوخٍ من بني حسن مالاً وثياباً . وأسرعت الرسل إلى أبي الفتوح تخبره بما حدث فازداد قلقاً وخافَ خروجَ الحرمين من يده(١١) ، وكان ذلك مما عجّل في عودته إلى الطاعة وطلب العفو .

٤ ـ بعد الثورة

ولنرجع إلى ابن المغربي نفسه بعد إخفاق ثورته : تقول بعض المصادر إنه فرَّ من الرملة إلى الموصل ، أو إلى ديار بكر ، وتتلطف بعض المصادر الأخرى في تصوير ذلك الفرار ، فهو لم يجمع عليه ثيابه متخفياً في النهار سارياً في الليل لئلا يكون ملاحقاً ، بل إن خوفه من إرجاعه إلى الحاكم على يد بني الجراح جعله يطلب منهم أن يسيروا به ـ في حمايتهم ـ إلى العراق ، فبعث المفرج معه طائفة من بني بُحْتُر الطائيين حتى أخرجوه من المناطق التي يشملها نفوذ المغاربة (أي الفاطميين)(١٢) ، ولكن كلا الأمرين فرارٌ نأى بابن المغربي عن كلِّ تفكير بالثورة أو الانتقام ـ بعد ذلك ـ من الحاكم .

لماذا لم يفكر ابن المغربي بطلب العفو من الحاكم وإصلاح حال الثرى الذي جفَّ بينهما : أليس حسان الذي قتل يارختكين ، وأباح الرملة للأعراب ، أكبر منه ذنباً ؟ ألم يكن أبو الفتوح الذي نازع الحاكمَ الخلافةَ ،

(١) الوافي بالوفيات ٢٢ : ١١٦ .
(٢) العقد الثمين ٤ : ٧١ .
(٣) ذيل تجارب الأمم : ٢٣٨ .
(٤) العقد الثمين ٤ : ٧١ ـ ٧٢ واقتصر في أخبار الدول المنقطعة : ٥٠ على قوله : « أنت أوقعتني فخلصني » وفي تاريخ أبي شجاع : « إنما فارقت نعمتي وأبديت للحاكم صفحتي سكوناً إلى ذمامك ، وأنا الآن خائف من غدر حسان ، فأبلغني مأمني وسيرني إلى وطني » .
(٥) العقد الثمين ٤ : ٧٢ وفي أخبار الدول المنقطعة : ٥٠ أن أبا الفتوح وابن المغربي ذهبا إلى المفرج معاً فقال لهما : وما تريدان مني ؟ فقال له العلوي : إن عليك حقاً وأودّ أن تجازيني عليه بأن تبعث معي من يوصلني إلى مكة ، ولا تحوجني أن أركب فرسي المسنّ وأهرب بنفسي فتتخطفني العرب ، وفي هذه الرواية في العقد (٤ : ٧٤) ولا تحوجني إلى أن أركب فرساً أملس .

(٦) العقد الثمين ٤ : ٧٤ ، ٧٥ .
(٧) العقد الثمين ٤ : ٧٦ .
(٨) تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٠٢ .
(٩) تاريخ ابن خلدون ٤ : ٥٧ .
(١٠) العقد الثمين ٤ : ٧٦ .
(١١) ذيل تجارب الأمم : ٢٣٨ ، وقارن به أعلام النبلاء ١٨ : ١٢٩ .
(١٢) أخبار الدول المنقطعة : ٥٠ .

وجرّد محاريب الكعبة من الذهب والفضة وسكّها نقوداً معلناً بذلك ولادة دولة مستقلة في الحجاز والشام أشد تورطاً منه ؟ نعم إنـه كان « المحرّض الأكبر » على تحقيق ما تمّ ضد الدولـة ، ولكنه في النهـاية يـظلُّ الإنسانَ المظلومَ الذي فقـد أهله وكاد يفقـد حياتـه ، وهو لا يعلم لهم ولا لنفسـه ذنوبـاً محدّدة . ألا يمكن أن يفيء الحاكم إلى الهدوء ، فيعفو عنه كما عفا عن الآخرين ؟

يقول ابن المغربي في إحدى قصائده مخاطباً الحاكم بعد قتله لأهله[(١)] :

وأنـت وحسبي أنـت تـعـلـمُ أن لي لســانـاً وراء المجـدِ يـبني ويـهـدمُ
ولـيس حليـماً مـن تُـقَـبَّـلُ كـفُّـهُ فــيرضى، ولكن من تُعَضّ فـيحـلم

ويـرى ابن العديم والمقـريزي أن ابن المغـربي كتب إلى الحاكم رسـالـةً وصـدّرها بـالبيتين لما عَلِقَ بنو الجـراح بحبال الاغـراء المـادي وتخلّوا عن أبي الفتـوح وانحلّ مـا عقده ابن المغـربي من أمره . وهـذا قد يفهم منـه أنه كـان يحاول استدراج الحاكم إلى العفو ، فكتب إليه الحاكم أماناً هذا نصه :

بسم الله الـرحمن الرحيم : هـذا كتاب كتبـه المنصور أبـو عـلي الإمـام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنـين ابن الامام العـزيز بـالله أمير المؤمنـين لحسين بن علي بن حسين المغربي : إنك آمن بأمان الله ورسوله محمد المصطفى وأبينا عليّ المرتضى والأئمة من آلهما مصابيح الدجى صلى الله عليهم وسلم ، وأمان أبينـا الأقـرب نزار أبي المنصـور العزيـز بالله أمـير المؤمنين قـدّسَ الله روحـه وصـلّى عليـه ، على النفس والجسم وجميـع الحواسّ والجـوارح والمال والحـال والأهل والأقارب والأسباب أماناً ماضياً لا يُتَعَقَّبُ بتاويل ولا يُتْبَعُ بفسخٍ ولا تبديل . وإن الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين آمن حسـين بن علي بهـذا الأمان بعـد أن تحقق له ذنوباً كبيرة وأجراماً عظيمة ، فصفح عن علم ، وتجاوز عن معرفة وحلم ، وجعـل هذا الأمـان كالإسـلام الذي يمحـو ما قبله ، ويمهّـدُ الخير لما بعده ، فكلُّ سعايةٍ ووشاية وذنب وجـريمة تنسب إلى حسـين بن علي هـذا قد تحقّق أمير المؤمنين أكثر منها وصفح عنه ، فـلا يدلـه عليه إلا الاحسـان إليه . وإن الحسين بن علي هذا اختياره عند وقوفـه على هـذا الكتاب في انكفـائه إلى الباب العزيز والتعرض للخدمة ، أو التـوفر عـلى العبادة لا يُكْـرَهُ على خـدمة يستعفي منها ولا تُقْبَلُ عليه الأقاويل في خدمة يتعلّق بها . وأقسم أمير المؤمنين الحاكم بأمـر الله على ذلـك بأيمـان الله وغليظ مواثيقـه وبيته الحـرام ومشاعـره العظام وآياته الكرام وحقوق جميع آبائه عليهم السّلام ، فمتى غيّر أو بـدل أو أمر أو أملى أو أسرّ أو أعلن أو دسّ أو اغتال فجميع المسلمين في شرق الأرض ومغاربها وفي الموقان والري وجدة وأذربيجان والدينور وهمذان والسهل والجبل والقريب والبعيد والعـراق والشام وديـار ربيعة وديـار بكر وديـار مضر وحلب ومصر والحجاز والمغرب في حلٍّ وسعة من بيعتـه ، وقد فسـح الله لهم وفسح لهم أمـير المؤمنين في النكث لهـا ، وبـرأ نفسـه ممـا أوجبـه عليهم والـتزموه في أعناقهم منها ، وقد برىء من الله ورسوله ، والله ورسوله منه بريئان ، وبريءَ إليه من حوله وقوته ، والتجأ إلى حـول نفسه وقـوتها ، وأشهـد الله وملائكتـه وصالحي خلقه على نفسه بـذلك كله : أمـاناً مؤكـداً وذمامـاً مؤيداً ، وعهـداً مسؤولاً وميثاقاً محفوظاً مرعياً ، وكفى بالله شهيداً ، وكتب المنصور بيده[(٢)] .

(١) القطعة رقم : ٩٢ من الشعـر ، وانظر بغية الطلب ٥ : ٢٥ ، وخطط المقريـزي : ٢ ١٥٨ .
(٢) بغية الطلب ٥ : ٢٥ (ولم يورده المقريزي) .

ها هنا رجـل خائف يخشى أن يسلمـه بنو الجـراح إلى الحاكم ، ثم هـو يكاتب الحاكم لعله يستعطف قلبه . هذا شيء قائم على التعارض ، والحقيقة بعد ذلك كله ، أن ابن المغربي لم يكتب مستعطفاً ، والبيتان الشـاهدان عـلى الإستعطاف ينطويان على التهديد « تعلم أن لي لساناً وراء المجـد يبني ويهدم » وفيهـما إيمـاء إلى طيش الحـاكم وجهله وعجـزه عن إظهـار الحلم في المـواطن الضرورية ، وسواء أفهم الحـاكم ذلك أم لم يفهم فـإنه كتب لـه أمانـاً وشحنه بالمواثيق المؤكـدة والأيمان المغلظة ، والتعهـدات المؤيدة ، ومـع ذلك فـالأمان شرك الصائد ، ولهذا لم ينتظر ابن المغـربي أماناً لأنه لم يكن يتـوقعه ، وغـادر الرملة فاراً بنفسه ـ أو في صحبة البحتريين من طيء ـ حتى وصل إلى بغداد .

وحين دخل بغداد كان الخليفة هو القـادر بالله (ـ ٤٢٢) الـذي تصفه المصادر بالدين والعلم والوقار وكثرة الصـدقات ، والقـائم بخلافتـه في بغداد بهاء الدولة وضياء الملة أبو نصر بن عضد الدولة (ـ ٤٠٣) وقد تزوّج القـادر بنته سكينة . وتـولى بعده ابنـه سلطان الدولـة (ـ ٤١٥) ، فاستخلف أخـاه مشرف الدولة ببغداد وجعل إليه إمرةَ الأتـراك خاصـة ، فحسّنُوا لـه العصيان فاستولى على بغداد وواسط وقطع خطبة أخيه سلطان الدولة[(٣)] فـانحاز أخـوه إلى أرجان ثم اصطلحا وتقاسما الملك ، فبقي مشرف الدولة في العراق وشيراز وكرمان ولأخيه سلطان الدولـة فارس وبخـارى . وتوفي مشرف الـدولة سنـة ٣١٦ وخلفه أخوه جلال الدولة ببغداد . وكـانت البطائـح تحت إمرة مهـذب الدولة علي بن نصر (ـ ٤٠٨) كما كانت الموصل ومعها أحيانـاً الكـوفة وسقي الفـرات تحت حكم قرواش بن المقلد العقيـلي (ـ ٤٤٣) وكانت ديـار بكر في يد بني مروان ، وأعـظم رجالهم الملك نصر الـدولة أحمـد بن مروان الكـردي الذي حكم إحدى وخمسين سنة (ـ ٤٥٣) .

في هـذا الجو الجـديد زج ابن المغـربي بنفسه أو زُجّتْ بـه الأقـدار لكي يعيش متنقـلاً من مكـان إلى آخـر طـوال البقيـة البـاقيـة من عمـره (٤٠٢ ـ ٤١٨) ، وكـان تنقله من منصب إلى آخر إمـا بـداعي الـطمـوح إلى مـا هـو أحسن ، وإما هرباً من وضع جديد لم يعد الركون إليه مـأمونـاً ، ومن العسير تتبع خطواته بتسلسل دقيق ، فما أعرضه هنا ليس إلا صـورة مقاربـة لا أظنها تسلم من الخطأ :

١ ـ حين وصل بغداد أَمَّ حضرةَ فخر الملك أبي غالب محمـد بن علي بن خلف[(٤)] ، وكان وزير بهاء الدولة ثم وزر من بعده لابنه سلطان الدولة ، فإن كان وصل بغداد وبهاءُ الـدولة حيٌّ ، فمعنى ذلـك أنه كـان هنالـك قبل سنـة ٤٠٣ [(٥)] ، وكان فخر الملك من أعظم وزراء آل بويه ، واسع النعمة ، جزيل العطايا ، مقصداً للشعراء من أمثال ابن نباتة ومهيار ، وأنشأ ببغداد بيمارستاناً عظيماً ، ولهذا ليس بغريب أن يقصـده ابن المغربي . وأقـدّر أنه كـان وزيراً ذا حولٍ وطولٍ واثقـاً من نفسه ولم يكن يـرى في ابن المغـربي إلا رجـلاً غريبـاً لجأ إليه ليستعين بجاهه ، فهـو يبذل لـه ما يستـطيعه من عـون . ولكن المشكلة ـ غير المتوقعة ـ هي أن الخليفة القـادر بالله لم يَـرْحُبْ بابن المغـربي صدراً ، بـل رأى أن وجوده في بغداد خطر على الدولة . كان القادر بـالله بين أمـرين : إما

(٣) سير أعلام النبلاء ١٧ : ٣٤٦ .
(٤) ابن خلكان ٥ : ١٢٤ (وفي الحاشية ذكر لمصادر أخرى) وسير أعلام النبلاء ١٧ : ٢٨٢ .
(٥) في بغيـة الطلب ٥ : ٢٦ فخـر الملك « وزير مشرف الـدولة » وهـذا إن كان دقيقـاً يعني أن وصول المغربي تأخر حتى ما بعد ٤٠٣ ، ولكني لا أظنه يتمتع بدقة كافية .

أن يرى في ابن المغربي رجلاً موتوراً من الحاكم ، فمن الخير استقباله والحفاوة به ليستقوي به وبمعرفته على مقاومة المدّ الفاطمي ، وإما أن يرى فيه دسيسةً بعثها الفاطميون لافساد الدولة العباسية ، وكان أن اختار الفَرْضَ الثاني مع أن الشواهد كانت ترجح الفرض الأول . ولم يستطع فخر الملك أن يُلين قلبَ الخليفة نحوه ، فخرج إلى واسط ، « وكتب فخر الملك بحراسته هناك ومعرفة حقه »(١) . فأقام في تلك المدينة أياماً في درب الواسطيين(٢) ، ولم يكن يحضر الصلاةَ في مسجد الحيّ ، فدخل عليه أبو بكر أحمد بن العباس الدوبنائي وقال : يا شيخ ، يا أستاذ ، يا وزير ، مهما شئتَ كُنْ ، إن كنت تحضر مسجدنا هذا في الصلوات الخمس وإلا فانتقل عنا ، فقال : السمع والطاعة أيها الشيخ ، ثم انتقل عنهم من يومه(٣) ؛ ولعله في هذه الفترة بواسط تعرف إلى أبي تغلب أحمد بن عبيد الله العاقولي الذي كان خليفة للسلطان والحكام على تلك المدينة ، وكان معظماً مفخماً ، فأصبح صديقاً للمغربي(٤) .

وتتصل بالتهمة التي وجهها إليه الخليفة رسالةٌ كتبها في الدفاع عن نفسه وفي دَحْض أمور ألصقت به . ويفتتح هذه الرسالة بالتعجب من الدهر وأموره ، ثم يثبت أنه بصري عراقي ، وأن النسبة إلى المغرب ليست نسبةً إلى بلد أو قطر ، ويتحدث عن جدّه وأبيه ، وهو شيء قد أفدنا منه في بناء سيرته ، فيما تقدّم . ولكن الاتهام الكبير كان منصباً على أنه قد اعتقد التشيع وتديَّن به ، ولهذا ألحّ في رسالته على ثقافته الحديثية ، وعلى إحاطته بكتب السنة مثل الموطأ والصحيحين وغير ذلك إحاطة رواية ودراية . ونحن نصدقه وإن كان ما قاله في معرض الرَّدِّ على التهم . ولكنا نجده حاول جاهداً أن يخفي كلَّ صلة له بالنسب الشيعي - من جهتي الأب والأم - وبالثقافة الشيعية ، وأظن أن موقف الدفاع لم يكنْ يسمحُ بذلك ، وإن كان الجوُّ من حوله في الدويلات المختلفة شيعياً .

هل اقترن وصول ابن المغربي بتلك الحملة الشعواء التي قام بها القادر بالله (سنة ٤٠٢) لكتابة محاضر يوقّع فيها الأشرافُ والقضاة والفقهاء والمعدّلون بالطعن في نسب الفاطميين ونسبتهم إلى ديصان ؟(٥) يبدو اقتران الأمرين أو على الأقل وقوعهما في جوٍّ واحد ، أما أن نقول إن وصول ابن المغربي هو الذي أثار الحملة ، فلعله يلحق بالمغالاة ، وذلك أن أحداثاً أخرى كانت تستدعي ذلك التجريح في النسب ، وأقربها ما كان فعله قرواش في العام السابق ، إذ أظهر طاعة الحاكم وحمل الخطيبَ على الدعاء لسيدنا ومولانا « إمام الزمان وحِصْن الإيمان وصاحب الدعوة العلوية والملة النبوية عبدك ووليك المنصور أبي علي الحاكم بأمر الله »(٦) . كل ذلك من أجل ثلاثين ألف دينار تسلّمها من الحاكم .

٢ - قتل الوزير فخر الملك أبو غالب سنة ٤٠٧ ، واستطاع ابن المغربي أن يصلح حاله ويبرىء ساحته عند الخليفة ، فعاد إلى بغداد وأقام فيها أياماً .

(١) بغية الطلب ٥ : ٢٦ .
(٢) بغية الطلب ٥ : ٢٧ .
(٣) المصدر نفسه ، وسؤالات الحافظ السلفي : ٩٧ - ٩٨ وفيه لما نزل الوزير المقرىء ولفظة « المقرىء » هنا تصحيف للفظة « المغربي » - أو هكذا قرأها ابن العديم في الأصل الذي نقل عنه . أما محقق السؤالات فيرى أن الوزير المقرىء هو أبو القاسم عيسى بن علي الوزير ويحيل على تذكرة الحفاظ : ١٠٢٣ .
(٤) معجم الأدباء لياقوت ٥ : ٢٢٦ .
(٥) المنتظم ٧ : ٢٥٥ .
(٦) المنتظم ٧ : ٢٥٠ - ٢٥١ .

في هذه الفترة زار البطيحة حيث مهذب الدولة ووزيره أبو القاسم هبة الله بن عيسى(٧) . ويبدو أن وزير البطيحة كان متضايقاً من زيارته ، ولهذا اتهمه ابن المغربي بأنه بعث إليه رجلاً اسمه سليمان بن الربيع ليسأله في بعض غريب اللغة وحوشيّها . وقد وصف ابنُ المغربي تلك الألفاظ بأنها « لا يتشاغلُ بمثلها أهلُ التحصيل ولا يتوفّر على تأملها إلا كلُّ ذي تأمل عليل » وعجب كيف يُسْأَلُ عنها رجلٌ غريب عن البطيحة ، وفيها « هبة الله بحر الأدب » (يعرض بأنه هو مرسلها الحقيقي) . وقد أجاب عن الألفاظ التي سئل عنها ، ثم قايضه بمثل بضاعته وأزيد ، فامتحنه في اللغة والنحو والنسب والسير والقرآن وعلومه وصناعة الخراج ، فدلَّ بذلك على تعمقه في كلِّ علم واطلاعه على مشكلاته وأسراره .

٣ - لم يقم في بغداد إلا أياماً ، ثم مضى إلى قرواش بن المقلد أمير العرب (وهو بالكوفة) وسار معه إلى الموصل ، وكان ابن أبي الوزير وزيراً لقرواش بها ، فخاف منافسة ابن المغربي له ، فحمل إليه مالاً كثيراً ، وأوحى له بالرحيل عن الموصل(٨) . وسوف يعود إلى الموصل في زيارة أو زيارات أخرى ، ولكن يبدو أن رسالته تمثل « الانطباع » الأوليّ لأول وروده إليها : « فوجدتُ هواءها يعطِّلُ سوقَ بقراط اعتدالاً وطيبة ، وماءها يسلّي عن مُجاج النحلِ استمراءً وعذوبة ، وصقعها قد « تبغدد » رقةً ولطفاً ، وجوّها قد تزندق تنعماً وظرفاً . . . ورأيت أرضها أطيبَ الأرض خِيماً ، وأزينها أديماً ، تُنْسَجُ بالسندس الأخضر ، وتفترُّ عن الأقحوان الأحمر » . وأما رجالها فقد « لطفوا عن بدوية الشام وغلظته ، وجمدوا عن ذَوْب العراق وخلابته » ولعله كان يرجو أن يقيمَ في الموصل إذ وجد من يتقن الكتابة فيها قليلين على خلاف حال الشعر ، ونوى أن يعينهم ببعض ما يستطيع تقديمه لهم ، ولكنه وجد المقام فيها متعذراً .

٤ - وكانت فترة إقامته في الموصل مُدَيْدَةً يسيرة ، وحين فارقها توجه إلى ديار بكر فأقام عند صاحبها نصر الدولة أبي نصر مدةً على سبيل الضيافة . ثم إن نصر الدولة أراد أن يكلَ إليه تصريفَ الأمور برسم الوزارة ، فتأبى كثيراً وأظهر تمنعاً شديداً ، ثم قبل بعد إلحاح كثير ، وكان زيه حينئذ زيَّ الصوفية أو الزهاد ، أي المرقعة والصوف ، فلم تمض إلا مدة يسيرة حتى عاد إلى أبهة الوزراء ، « وظهر أمره بعد الالتباس ، وانكشفت حاله عند جميع الناس »(٩) . وتورد المصادر هنا أبياتاً تنسبها إليه وتجدها مصورةً لما جرى له تمام التصوير لأنها تتحدث عن طَرْحِ المرقعة ولبس الشفوف ، والهيام في حبّ غزال لا يرضيه لبس الصوف .

هذه المرحلة من حياته في ديار بكر تسمى الدفعة الأولى ، لأنه وزر لنصر الدولة مرتين(١٠) ، وأقام في كل مرة مدة طويلة نسبياً في أعلى حال وأجل مرتبة وأعظم منزلة .

وفي تلك الدفعة الأولى توجّه الوزير إلى بدليس لانجاز بعض المهمات ، فأصابه مرض حادّ ، فقد معه قوته وانقطعت شهوته إلى الطعام ، فعاد من بدليس إلى ميافارقين ، لعله إذا وافاه الأجل أن يكون فيها أو قريباً منها ، وقد

(٧) بما أن هبة الله توفي سنة ٤٠٦ فقد جعلنا هذه الحادثة في هذه الفترة .
(٨) بغية الطلب ٥ : ٢٦ والذخيرة ٤ : ٤٧٧ .
(٩) خطط المقريزي ٢ : ١٥٨ .
(١٠) ابن خلكان ١ : ١٧٨ .

أتعبته الرحلة كثيراً وزادت في انحطاط قوته ، مع أنه في كلّ يوم كان يقطع مسافة غير طويلة ، وفي الطريق إلى ميافارقين نزل بدير مارماري وقد اضمحلت قوته أو كادت ، واستبد به الضعف والاعياء ، واستدعى لدى حلوله في الدير بشراب ، لكنّ معدته لم تسعفه بل دفعته خارجاً ، مما جعل من حوله نهباً للقلق وجعله آيساً من الشفاء . ثم إن الراهب الموكّل بالدير جاء له بشيء من الرمان ، وسأل بعض الغلمان هنالك أن « يفرطوا » بعض حبّ الرمان له ، فقيل له إنه لا يستطيع أن يتكلم ولا أن يسمع الكلام ، وأن إقهاءه عن الطعام قد بلغ حدَّ الامتناع الكلي ، وأن معدته لا يثبت فيها طعام أو شراب ، فألحّ الراهب على إعطائه شيئاً من حب الرمان « لعله ينتفع ببركة الدير » فتناول منه شيئاً يسيراً ثبت في معدته ، وجعل يأخذ منه بالتدريج شيئاً بعد شيء ، حتى عاد إليه بعض قوته وانتعشت نفسه بعضَ انتعاش . وكان الراهب قد طبخ لغلمان الدير عدساً ، فاشتهى الوزير بعضه ، وبعدما أكل نهض وتمشى على السطح متفرّجاً ، واعتقد أنه تماثل من مرضه .

وفي الفترة نفسها التقى به الشاعر أبو نصر المنازي[1] ومدحه ، وتاريخ مدحته له هو سنة ٤٠٦ ، وتجمع المصادر على أن المنازي وزر لنصر الدولة ولعل ذلك كان بعد وفاة المغربي . ومطلع قصيدته المشار إليها :

اصفح لطرفِ الصبِّ عن نظراته ... إن كنت آخذَهُ بما لم يأتِهِ

ومنها في المدح :

ولئن جَزَتْ نعمَ الحسينِ محامدٌ ... فليجزينّ الغيثُ عن هَطَلاته
أقنى وأغنى فانقلبتُ ولي به ... شُغُلان بين صفاته وصِلاته
حاولتُ عدَّ خلالِهِ فوجدتها ... تشقى الرواةُ لها شقاء عداته
أبصرتُ مُشْبِلَ المجدِ من لَحَظاته ... وأفدتُ حُسْنَ القولِ من لفظاته
وأرى الفصاحةَ والسماحةَ والغنى ... ومكارمَ الأخلاقِ بعضَ هباته
ورث المعالي عن عليٍّ وابتنى ... رُتَباً مشيّدة إلى رتباته
وكذاك لابن القَيْلِ إرثُ علائه ... فرضاً ولابن القَيْنِ إرثُ علاته[2]

٥ ـ توفي الكافي وزير قرواش ، وأصبح الجو ممهداً لعودة الوزير المغربي إلى الموصل ، فكتب إليه قرواش يعرض عليه الوزارة ، وما كاد يتسلم رسالة قرواش حتى وجد في نفسه نزوعاً شديداً إلى مبارحة بلاط نصر الدولة . وقد نظن لأول وهلة أن سحر الموصل الخلاّب قد ظلّ يداعبُ خياله ، وهذا إن صح فإنه لا يكفي لتعليل سرعة الإستجابة لديه ، وإذن فلا بد أن منزلته العظيمة عند نصر الدولة كانت قد أخذت تنحدر .

ويقصُّ علينا نصر الدولة قصةَ ما حدث فيقول :

« لما خدمني عند مجيئه من مصر ، وما جرى له مع الحاكم ، جاءني يوماً ومعه سدس كاغد فقال لي : قد أثبتُّ في هذا السدس أسماء أصحابك الذين قد أخذوا أموالك وأخلَوْا خزانتك من مالٍ يُعَدّ فيها لحاجة أو شدة ما قيمته ثلاثمائة وسبعون ألف دينار ـ شك الوزير في ذلك ـ وقال : إذا أخذتَ هذا القدر منهم لم تجحف بأموالهم وكان كلٌّ منهم مرتباً في خدمته ومركزه وولايته ، وتكون قد تقضّيْتَ من أموالك التي احتجنوها ما جعلتَهُ لكَ خزانةً وَعُدَّة »[3] .

عند هذا الحدّ ذكَّره نصر الدولة بأنه جعله وزيراً ليعمر البلاد ، فإذا عمرت درّ دخلها وكفته وكفتْ أصحابه ، ولم ينصبه ليقوم بمصادرة أصحابه ، وهذا شيءٌ سهل لا يحتاج إلى جهود وزير ، ويستطيع أن يقوم به على أكمل وجه أدْوَنُ خادمٍ عنده . عندئذ شعر الوزير المغربي أنه عثر عثرة ربما لا تستقال ، وأن نصر الدولة إذا سرَّبَ الخبرَ إلى أصحابه نقموا على الوزير ، ولذلك قال لنصر الدولة : « إذا كان هذا رأيك فاحرسني من أصحابك ، ولا تُطْلِعْهُم على ما قلتُهُ في معناهم فيفسدَ ما بيني وبينهم »[4] فضمن له نصر الدولة ما أراد . ولكن القلقَ لم يغادر نفس الوزير ، وأخذ يتحين الفرصة لمغادرة ديار بكر ، وكانت رسالة قرواش هي باب النجاة . ولكنه لم يشأ أن يكشف سرَّه لئلا يحول نصر الدولة بينه وبين الرحيل ، بل أخذ يُعْمِلُ الحيلةَ للهرب ، فقال لنصر الدولة : « قد جرى في الجزيرة خُلْفٌ بين الضامن لها وبين فلان وتفاقم الأمر فيه إلى أن احتاجَ إلى مشارفتي له وإصلاحه بنفسي . فتأذنُ في الانحدار إلى هناك ؟ »[5] ، وهذا ما عبَّر عنه ابن العديم في موطن آخر بقوله : « على سبيل اعتبارِ الأعمالِ وتصفُّحِ العمّال »[6] .

وحدَّد الوزير المغربيّ مدة الغياب بعشرين يوماً ، يستطيع أثناءها أن يحسمَ خلافاً ربما استشرى حتى يشغلَ قلبَ نصرِ الدولة ، وفهم نصر الدولة أنه يريد مفارقته ، بل يؤكد أنه أدرك أن الوزير يريد المضيَّ إلى قرواش أمير بني عقيل ، ولعلَّ عيونه كانت قد أطلعته على ذلك ، فقال له : افعل ما ترى . وانهمك الوزير في إعداد ترتيباته للرحيل .

يكمل نصر الدولة القصة فيقول : « فجاءني موسك خالي وقال لي : عرفت أن أبا القاسم المغربي على الانحدار إلى الجزيرة ، وكذبَ ، فإنه بنيّةٍ لمضيٍّ إلى الموصل ؟ فقلت : قد عرفتُ ذلك وعلمته ، ودعه يمضي إلى اللعنة ، فما في مقامه ها هنا لكم فائدة . قال : وتدعُهُ يمضي وقد أخذ أموالك وسرقها وحصَّلها واحتجنها ، ولم تقبض عليه ، وتأخذ ما أخذ ثم تصرفه إلى اللعنة وسوء المنقلب ؟ فضحكت منه وقلت : ليس كلُّ من يأخذ مالي أرتجعه منه ، ولعمري إنه خدمنا وانتفع منا وكسب معنا . وأخْذُ ذلك منه لؤم ، فامسك »[7] .

وكان موسك خالُ نصر الدولة أحد الضحايا لخطّة المصادرة التي رسمها المغربي ، لو انها نُفِّذَتْ ، ولذلك كان يترصَّد خطواتِ الوزير ويكيدُ له ويحرض عليه .

وسار ابن المغربي إلى الجزيرة متوجهاً نحو الموصل ، وظلّ يسير حتى شارف تلك المدينة ، وحطَّ رحاله على مقربة منها حتى إذا جنَّه الليلُ سرى إليها ووصلها مُصْبحاً ، واجتمع بقرواش ، وتقلَّد له الوزارة ، وأخذ يَسْفِرُ في شؤونٍ كلَّفه بها قرواش من وساطة بينه وبين السلطان البويهي ، ولم ينسَ الوزير أن يعمل لمقبل الأيام إذا عاد قرواش فتغير عليه ، فأخذ يُكْثِر من لقاءِ

(١) ترجمة المنازي أحمد بن يوسف في وفيات الأعيان ١ : ١٤٣ وسير أعلام النبلاء ١٧ : ٥٨٣ والوافي ٨ : ٢٨٥ (وكانت وفاته سنة ٤٣٧)
(٢) بغية الطلب ٢ : ١٥٧ ـ ١٥٨ والعلاة م السند . ، والقين : الحداد .

(٣) بغية الطلب ٢ : ٦٤ .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) بغية الطلب ٢ : ٦٤ .
(٦) بغية الطلب ٥ : ٢٦ .
(٧) بغية الطلب ٢ : ٦٤ .

رؤساء الأتراك والديلم ويعمل على استمالتهم ، ويتصل بمن يستطيع أن يمهد له نيل الوزارة في بغداد[١] .

ولا بد أن ذلك كله كان قبل عام ٤١١ ، ففي هذا العام يخبرنا ابن الأثير أن قرواش بن المقلد قبض على وزيره أبي القاسم المغربي وعلى شخص آخر اسمه سليمان بن فهد[٢] ، غير أن سبط ابن الجوزي يجعل حادث القبض عليهما في صفر من السنة التالية[٣] ، ويقصّ السبط علينا تقلّبَ الحال بسليمانَ الوزير حتى قيض له أن يلتقي بالمقلد والد قرواش ، ثم كيف خدم قرواشاً نفسه بالموصل فصادر الناس ووترهم ، حتى استوحش منه ابنُ أبي الوزير وزير قرواش ، فهرب من الموصل إلى بغداد ، فلما وزر ابن المغربي لقرواش بعد موت ابن أبي الوزير الملقب بالكافي وعد سليمانَ بخلاص أملاكه . وأقام سليمان في دار ابن المغربي بمنزلة الضيف ، ولم يفلح ابن المغربي في تخليص الأملاك ولا اليسير منها . وجرت أحداثٌ جعلت ابنَ المغربي يُوجس خيفةً من قرواش ، وينتظر الفرصة للخلاص منه ، فزيّن لقرواش مدَّ الأسباب إلى أبي نصر صاحب ديار بكر ومصاهرته ، وطلب العون منه ، وقال لقرواش : ما يقوم بهذا الأمر غيري ، فأذنَ له قرواش بالخروج ، فخرج واصطحب معه سليمان بن فهد ، ومضيا فنزلا بظاهر الموصل ، وفيما هما كذلك مرّ بهما بدران أخو قرواش وكان يمقتهما ، فرآهما يعدّان للرحيل ، فدخل على أخيه وقال له : بأيّ رأي تترك هذين الرجلين يخرجان من يدك ، وقد أخذا مالك ؟ فأرسل قرواش فقبض عليهما واعتقلهما ليطالبهما بالمال ، فأما سليمان فمات تحت الضرب ، وأما ابن المغربي فإنه أرسل إلى قرواش يقول له : إن كنت تريد نفسي فهي بين يديك ، وإن كنت تريد المال فمالي بمصر والكوفة وبغداد ، وتطيبُ نفسي بتسليمه إليك ، فإن حفظتَ نفسي أعطيتك المال . ثم بذل له ما حضره من مال ، وخدعه بالقول اللطيف وبالوعود ، فانخدع له ، وأخذ ما وجده معه وأطلقه[٤] .

٦ ـ هل بقي الوزير المغربي يعمل عند قرواش بعد أن أطلقه من الاعتقال ؟ ذلك مستبعد فيما أرى ، لأن بقاءَهُ هنالك سيظل يذكر قرواشاً بوعود لم تُحقَّق ، ولهذا أقدّر أنه غادر الموصل إلى بغداد ، لعل التغييرات في الحضرة البويهية تجيء في صالحه .

ومن الصعب أن نحدّد مدى تنقله بقية عام ٤١٢ والذي يليه ، ولعله في هذه الفترة دخل الأنبار ، وكان منذ هاجمه المرض في بدليس قد أصبح عرضةً لهجماته ، وللمرض صلة بالمعدة والأمعاء . وفي الأنبار عرض له قولنج صعب ، أقام لأجله في الحمام واحتقن عدة حقن ، وشرب عدة شربات ، ولكن ذلك كله كان غير ذي جدوى . عندئذ أرسل ابنه أبو يحيى إلى الطبيب أبي منصور صاعد بن بشر بن عبدوس (وهو أول من نبّه إلى تدبير الأمراض التي كانت تعالج بالأدوية الحارة باستعمال التدبير المبرّد) فجاء صاعد فوجد الوزير وجسمه شديد الحرارة من المكث في الحمام ومن استعمال المعاجين الحارّة والحقن الحادة ، وعندئذ استدعى الطبيبُ كوزَ ماءٍ مثلوج وأعطاه للوزير ، فشربه بعد توقف ، وأخذت نفسه تقوى ، ثم استدعى فاصداً أخرج له دماً كثيراً ، وسقاه أدوية مبردة ، ونقله من الحمام إلى غرفة مبردة بالخَيْش ، ونبهه إلى أنه سينام ويعرق ويستيقظ ويعاود المرحاضَ مرات . وحدث ما توقعه صاعد إذ نام الوزير حوالي خمس ساعات ، ثم صحا من نومه وأخذ يصيح بالفرّاش ، وكان الطبيب قد أوصى الفرّاش أن يجعله يستأنفُ النوم كي يستمرَّ نَضْحُ العرق ، ولما خرج الفرّاش من غرفته ذكر أن ثيابه كانت كأنما صُبِغَتْ بماء الزعفران ، وتردَّد إلى المرحاض بعد إفاقته ثماني مرات ، وأوصى له الطبيب بمزوّرة ، وسقاه ماء الشعير مدة ثلاثة أيام حتى اكتمل برؤه ، وكان الوزير يقول : طوبى لمن سكن بغداد داراً شاطئة ، وكان طبيبه أبو منصور ، وكاتبه أبو علي ابن موصلايا ، فبلغه الله أمانيه فيما طلب[٥] .

٧ ـ بين سنتي ٤٠٩ ـ ٤١٢ كان وزير مشرف الدولة البويهي ببغداد ذا السعادتين أبا غالب الحسن بن منصور ، وبينه وبين الوزير المغربي مراسلات ، وهي تورّي حيناً وتصرّح حيناً بما في نفس الوزير المغربي من ميل إلى خدمة ذي السعادتين . ولا يقلّ عنه ذو السعادتين مهارةً في استعمال التعابير الغائمة التي لا يستطيع المرءُ فيها أن يقبض على حقيقة ، وكلاهما يتباريان في سَوْقِ الثناء على ما أحرزه هذا أو ذاك من بلاغة وفصاحة . وفي إحدى الرسائل ذكر ذو السعادتين شيئاً يتصل بـ « التفويض والتعويض » فارتاح الوزير المغربي إلى هذا الوعد ، وعلّق على ذلك بقوله : « وجملة ما اقترحه أن يتصوَّر فيَّ ما يتصور في بعض الأقربين من خادم يُصْطَنَعُ فَيُجْرَى من الحنو عليه مُجْرَى خواصِّ الأهل وأداني الأصحاب . . . »[٦] ، غير أن مقتل ذي السعادتين حال دون نيل أيّ شيء من جهته . ومع أن الوزارة أصبحت تتطلب كفؤاً يخلف ذا السعادتين فإن مشرّف الدولة لم يتجه بنظره نحو المغربي ولم يفكّر فيه بل استوزر سنة ٤١٣ أبا الحسين الرخجي ولقب مؤيد الملك[٧] ، وبقي هذا في الوزارة سنتين وبضعة أيام . وفي السنة التالية استوزر مشرف الدولة أبا القاسم المغربي[٨] ، وكان ذلك بعون من الأثير أبي المسك عنتر الذي كان على صلة بالوزير المغربي من خلال المراسلات ، ومن خلال سفير بينهما هو أبو الحسين ابن وصيف[٩] .

ولما تربع على دست الوزارة البغدادية ، وكان ذلك حلماً طالما هجست به نفسه ، أصبح مقصداً للشعراء ، فمدحه عدد منهم من أشهرهم مهيار الديلمي ، ومن مدائحه فيه قصيدة له مطلعها :

عسى مُعْرِضٌ وجهُهُ يُقْبِلُ فيوهبَ للآخرِ الأولُ

ومنها في المدح :

فداك وتفعلُ ما لا تقولُ ممن يَقُولُ ولا يفعلُ
سللتَ على المال سيفَ العطاء فلاحيك في الجود مستقتلُ

فلما انتهى من الانشاد أبدى الوزير استحسانه للقصيدة وأشار إلى الناحية التي فيها الدنانير والدراهم ، فجلس مهيار إليها وملأ كميه منها تباعاً ، حتى لم يبق شيئاً ونهض فقبل الأرض وانصرف ، وكان مجموع ما

(١) بغية الطلب ٥ : ٢٦ .
(٢) تاريخ ابن الأثير ٩ : ٣٢١ .
(٣) مرآة الزمان (أحمد الثالث) ١٢ : ٣٣ .
(٤) مرآة الزمان ١٢ : ٣٣ (وهو موجز جداً عند ابن الأثير ٩ : ٣٢١) وجاء في مرآة الزمان ١٢ : ٤٧ أن قرواشاً لم يقتل سليمان بل خرج مع المغربي إلى نصر الدولة وأقام في ضيافته حتى أصلح حاله مع قرواش وعاد إليه .

(٥) ابن أبي أصيبعة ١ : ٢٣٢ والوافي بالوفيات ١٦ : ٢٣٧ .
(٦) انظر الرسالة رقم : ٧ .
(٧) ابن الأثير ٩ : ٣٢٩ .
(٨) ابن الأثير ٩ : ٣٣١ .
(٩) بغية الطلب ٥ : ٢٦

حصل عليه ـ بإقراره ـ ألفاً ونيفاً وعشرين ديناراً وسبعة آلاف وثلاثمائة درهم ، وذلك مبلغ كبير جداً إذا قيس بما كان يناله الشاعر حينئذ[١] .

ويؤرخ ابن بسام هذه القصة بعام ٤١٨ وأن أبا القاسم كان في داره في ذلك العام ، وهو إذ ذاك وزير بغداد ، وهذا وهم فإن أبا القاسم في ذلك العام كان وزيراً لنصر الدولة بديار بكر وميافارقين . ولدى ابن بسام بعض تفصيلات فإنه يذكر أن ذلك كان في يوم نوروز ، ودخل عليه وجوه أمراء الديلم والاسفهسلارية من الأتراك ، ووضعت الهدايا بين يديه على رَسْم الفرس ، وأن مهيار الديلمي استأذن عليه لما تَعَالَى النهار ، فأذن له ، فلما مثل بين يديه قال : أيدك الله ، هذه البضاعة التي معنا كانت كاسدةً وقد وجدنا لها نَفَاقاً عندك ، فأنشده القصيدة اللامية ، وكان ابن المغربي لدى الإنشاد يستعيد الأبيات النادرة فيها ويكثر إعجابه ويجمع كفيه ويبسطهما ويقول : أحسنت والله ، أجدت والله ، ثم أباح له جميع ما كان على الأرض من دراهم ودنانير[٢] .

وعلى الرغم من هذا العطاء الجمّ فإن مهيار يحكي أن الوزير المغربي لما تولى وزارة بغداد شمخ بأنفه وأظهر العسف والتجبر والاستعلاء ، ورهبه الناس ، فأحجم مهيار عن لقائه ـ هذا يتعين أن يكون قبل الحادثة السابقة ـ ثم إنه عمل فيه قصيدة بائية يقول فيها :

جاء بكَ اللهُ على فَتْرةٍ ... بآيةٍ مَنْ يَرَهَا يعجَبِ
لم تألفِ الأبصارُ من قبلها ... أن تطلعَ الشمسُ من المغربِ

فاستحسن الوزير ذلك وأعطاه مائتي دينار[٣] .

ولكن الوزير الذي أصبح قبلة الشعراء المادحين لم يسلم من السخرية والهجاء ، فقد استكثر عليه أحدهم أن يصبح « النحوي » وزيراً ، فقال فيه :

ويلي وويحي وويهي ... على ملوكِ بُوَيْهِ
يا ضيعة الملك جداً ... ويا بكائي عليه
يا مغربي رويداً ... كيف اهتديتَ إليه
سلبته كلَّ حَلْيٍ ... في صدره ويديه
سياسةُ الملكِ ليستْ ... ما جاء عن سيبويه[٤]

ثم إن هذا الشاعر ، ويقال إنه هو أبو عبد الله الخيمي ، لقيه من بعد عند قرواش بالموصل ، أو عند نصر الدولة بميافارقين ، فدخل عليه في جملة الشعراء مادحاً ، فقال له الوزير : بأيّ وجه تلقاني ؟ فقال : جوابي لك جوابُ أبي الهول الحميري للفضل بن يحيى وقد سأله مثل هذه المسألة فقال : بالوجه الذي ألقى به ربي ، وذنوبي إليه أكثرُ من ذنوبي إليك . وقال يمدحه :

يا معجزَ الله الذي ... قد حلَّ في أعلى محلّْ
لما رأيتَ الملكَ في ... هُونٍ ومضيعة وقُلّْ

(١) بغية الطلب ٥ : ١٩ (والنقل عن جزء فيه شيء من أحوال ابن المغربي جمعه القاضي الجليس ابن الحباب) .
(٢) الذخيرة ٤ : ٥١٤ ـ ٥١٥ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١٧ : ٣٩٥ .
(٤) بغية الطلب ٥ : ١٩ (وباختصار في مرآة الزمان ١٢ : ٣٨) .

أكبرتَ نفسك أن تدبِّـ ... ـرَ أمرَ ملك مضمحلّ[٥]

ومرة أخرى تفيد المصادر أنه تولى الوزارة ببغداد « بغير خلع ولا لقب ولا مفارقة للدراعة »[٦] . وتاريخ توليه الوزارة عند ابن الأثير هو شهر رمضان سنة ٤١٤[٧] ، وعند ابن العديم هو الشهر نفسه من السنة التالية[٨] ، ودامت وزارته هذه المرة عشرة أشهر وخمسة أيام[٩] . وحدثت وحشة بين الأثير أبي المسك عنبر الخادم ومعه الوزير المغربي وبين الأتراك ، فاستأذن الأثير وصاحبه مشرّف الدولة في أن يهاجرا إلى بلد يأمنان فيه على نفسيهما ، فقال لهما مشرف الدولة : أنا أسير معكما ، وهكذا كان ، فتوجه جميعهم إلى السندية وفيها قرواش ، فاستقبلهم فيها ، ثم ساروا جميعاً إلى أوانا ونزلوا على أبي سنان غريب بن محمد بن مقن[١٠] هنالك . فلما علم الأتراك بذلك انزعجوا وأرسلوا وفداً يقدم الإعتذار ، فكتب إليهم الوزير المغربي : « إنني تأملت ما لكم من الجامكيات ، فإذا هي ستمائة ألف دينار ، وعملت دخل بغداد ، فإذا هو أربعمائة ألف دينار فإن أسقطتم مائة ألف دينار تحملت الباقي » فوافقوا على ذلك[١١] وعاد مشرف الدولة والأثير إلى بغداد ، ولم يعدْ معهما الوزير المغربي .

ولدى ابن بسام روايةٌ تختلفُ في بعض تفصيلاتها عن هذه الرواية السابقة إذ تذهب هذه الرواية إلى أن مشرّف الدولة أوقعَ ببعض الأتراك على الرغم من نهي الوزير له عن ذلك ، فأبى مشرف الدولة إلا أن يركب رأسه ، فاضطرب العسكر اضطراباً اضطرهما إلى الهرب ، وأفضى بهما إلى استجارة أمير العرب . ولدى استعداد الوزير للهرب لبس ثياباً رثة ووضع على وجهه منديلاً ، واستقبل غلامه نحرير في الدهليز وهو يقول[١٢] :

تمرستْ مني العلا بامرىءٍ ... قد عَلِقَ المجدُ بأمراسِهِ
يستنجدُ النجدةَ من رأيه ... ويستقلُّ الكثر من باسه
أروعُ لا يرجعُ عن تيهه ... والسيفُ مسلولٌ على رأسه

وقيل أيضاً إن مشرف الدولة لم يقترح مصاحبة الوزير والأثير بل إن ابن المغربي دبّر إخراجه « لحاجةٍ في نفسه قضاها ، وخطة من مكره ألزمه إياها ، إبقاءً على جلالة المقدار ، وأنفةً من الانفراد بعيب الفرار »[١٣] .

توجّه الوزير المغربي إلى قرواش ، إذ يبدو أنه لم يطمئنّ للجند الأتراك ، أو لم يستطع أن يفي لهم بالجامكيات المطلوبة ، وحدث ما أبعده عن بغداد جملة ، إذ نشبتْ فتنةٌ في الكوفة بين العلويين والعباسيين وكان الذي جرَّ إليها خلافٌ بين أبي علي الزكي النهر سابسي صديق الوزير المغربي وعلي بن أبي طالب صهر الوزير المغربي من جهة ، وبين المختار أبي علي بن عبيد الله العلوي . واستعان المختار بالعباسيين لنصرته ، وسار بهم إلى بغداد

(٥) المصدر نفسه .
(٦) بغية الطلب ٥ : ٢٦ .
(٧) تاريخ ابن الأثير ٩ : ٣٣١ .
(٨) بغية الطلب ٥ : ٢٦
(٩) تاريخ ابن الأثير ٩ : ٣٣٥ .
(١٠) ابن خلكان ٢ : ١٧٦ والوافي ١٢ : ٤٤٣ وغير المحقق « مقن » إلى « معن » ، وذلك من تحكمات المحققين .
(١١) تاريخ ابن الأثير ٩ : ٣٣٥ .
(١٢) الذخيرة ٤ : ٤٧٨ والمقطوعة رقم : ٦٠ .
(١٣) المصدر نفسه .

وشكوا ما يفعله بهم النهر سابسي ، فرأى الخليفة القادر بالله أن يقوم بالإصلاح بينهم مراعاةً للوزير المغربي لأن النهر سابسي كان صديقه وابن أبي طالب كان صهره ، ولكنهم حين عادوا استعان كل فريق منهم ببني خفاجة ، ونشب بينهم قتال ظهر فيه العلويون وقتل من العباسيين ستة نفر وأحرقت دورهم . عندئذ أمر الخليفة بتنحية ابن أبي طالب عن نقابة الكوفة وولاها المختار ، فغضب الوزير المغربي لما حلَّ بصهره واستنكره ، وكان عندئذٍ بسرَّ من رأى عند قرواش ، وحاول أن يتعدّى على أرجاء كانت للخليفة ، فأرسل الخليفة رسولاً إلى قرواش يأمره بإبعاد المغربي ، ففعل[1] .

٨ - إلى أين توجه هذا الوزير الذي يثير المشكلات أينما حلّ ؟ لعلّ من أغرب الأمور أن وجد نفسه يعودُ إلى ديار بكر وإلى صحبةِ نصر الدولة . وموضع الغرابة لا أنه احتجن أموالاً كثيرة كما ذكر موسك ، فذلك أمر قد تسامح فيه نصر الدولة ، وإنما موطن الغرابة أن نصر الدولة كان يؤمن أن الوزير بارعٌ في الشرّ بل إنه لا يحسن غيره[2] ، وأنه كذب عليه ليؤمّن لنفسه الهربَ من عنده ، فبأيِّ وجه يلقاه الوزير وبأي وجه يتلقاه الأمير ؟ إن عودته إلى ديار بكر - إن كان قد عاد لتسلم الوزارة - لتؤكد شيئاً واحداً وهو أنه على الرغم مما كان يُؤْخَذُ عليه من تحيّل كان يتمتع بكفايةٍ تؤهله لمنصب الوزارة ، وكان من يعمل معهم يتجاوزون عن سيئاته بشفاعة فضائله . ولكن يبدو أنه في بادىء الأمر طرح نفسه على نصر الدولة لاجئاً أو ضيفاً وقد تلقاه هذا بالإكرام وأقطعه ضياعاً جليلة تكفيه وتكفي من وصل معه من الحاشية والاتباع[3] ، ولكن لم يلبث إلا قليلاً حتى تأكدت الحاجة إليه . ففي سنة ٤١٦ توفي وزير نصر الدولة أبو القاسم خواجا صاحب أرزن ، فاستوزر نصر الدولة أبا القاسم المغربي وردَّ الأمور إليه[4] ، وعلى الرغم من أنه أقام في هذه المرة قرابة ثلاث سنوات ، فإن أخباره بالنسبة للفترة التي أقامها تُعَدّ ضئيلة . وأوضح هذه الأخبار تردُّدُهُ على نصيبين ، والفضل في ذلك الوضوح يعود إلى تلك المحاورات بينه وبين مطران ذلك البلد .

وقد دخل الوزير المغربي إلى نصيبين لأول مرة يوم الجمعة ٢٦ جمادى الأولى (٤١٧ / حزيران ١٠٢٦) فزاره مطران نصيبين إيليا المعروف بابن السني للتهنئة ، فاستبقاه حين أراد أن ينصرف وأنسه ، وسأله عن أحواله ، ثم جرت محاورات بينهما في سبعة مجالس بين السبت ٢٧ جمادى الأولى ٤١٧ ، وحتى ١٠ جمادى الآخرة من السنة نفسها ، سأل فيها الوزير عن عقيدة النصارى في الأقانيم الثلاثة وكيف يمكن وصف ذلك بالتوحيد ، وكيف يمكن للنصارى أن يدفعوا قول الله فيهم ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ وعن علةِ الناس في محبة أديانهم ، وهل يتحقق المرءُ صحةَ دينه أو مذهبه من جهة العقل أو من جهة المعجزة . ويدور المجلسان السادس والسابع حول أسئلة عن المقارنة بين نحو السريان ونحو العرب وعلم اللغة عند الفريقين واستعمال المجاز عندهما ، والمفاضلة بين الخط السرياني والخط العربي ، وبين علم الكلام هنا وهنالك ، وعن اعتقاد النصارى في أحكام النجوم ، وعن اعتقاد النصارى في المسلمين ، وعن اعتقاد النصارى في النفس .

(١) تاريخ ابن الأثير ٩ : ٣٣٦
(٢) بغية الطلب ٢ : ٦٤ .
(٣) بغية الطلب ٥ : ٢٦ .
(٤) مرآة الزمان ١٢ : ٤٧ .

وبما أن مطران نصيبين هو الذي كان يتولى الإجابة فإنه أعطى نفسه دوراً كبيراً في الشرح والتوضيح مما يجعل الوزير يسلّم له معجباً ، فأما ما يتعلق بالأقانيم الثلاثة وما يتصل بها فمن الواضح أنه يشرح عقيدة النساطرة ، وهي قريبة الشبه بما عند المسلمين ، وأما في الأسئلة التي قد ينجم عن الإجابة عليها التورط فيما يَمَسّ السيادة الإسلامية فإن أجوبة المطران تنهج نهجاً بارعاً في حسن التأويل والتخلص من المآزق ، غير أنه واضح العصبية لكل ما هو سرياني من نحو ولغة وخط وعلم كلام .

وقد شمل الحوار أموراً لا تتصل بالدين ؛ كذلك تحدَّث معه في آخر ثلاثة أيام قضاها في نصيبين في الزيارة الأولى في مسائل تتعلق بأخلاق النفس وآداب الرهبان والزهّاد والعلوم العقلية ، وليت المطران دوَّنها إذ كان جُلُّ الفائدة فيها ، لا في الأمور الجدلية .

ثم عاد الوزير إلى نصيبين دفعتين أخريين كانت الأولى منهما يوم الخميس الثامن من ذي القعدة ، وفي هذه الزيارة أقام خمسة وعشرين يوماً[5] ، وكان في صحبة أبي نصر صاحب ديار بكر ، ولقي صاحبه المطران إيليا وباحثه في مسائل عدة تتناول اعتقاد اليهود وتاريخ آدم وغيره من التواريخ وتغيير اليهود لها والآثار العلوية . وكانت الزيارة الثالثة يوم الأحد ١٧ جمادى الأولى من العام ٤١٨ .

وقد أقام الوزير في زورته الثالثة لنصيبين عشرة أيام ثم عاد إلى ميافارقين وجاءته دعوة من بغداد للعودة إليها وتولي الوزارة فيها ، فاستأذن نصر الدولة في ذلك فأذن له . وهذه الرواية تبطل الرواية التي أوردها ابن الجوزي وكررها السبط وخلاصتها أن الوزير اعتزل السلطان وانقطع للعبادة فقيل له : لو تركت المناصب في عنفوان شبابك فقال : « كنتُ في سفرة البطالة والغيّ . . الأبيات » ولعلّ هذه الرواية نشأت بعد أن ذهب إلى ميافارقين وقضى مدةً وهو دون عمل .

غير أن اشتداد المرض عليه حال دون ذهابه لبغداد ، ووافته منيته في اليوم الحادي عشر من رمضان سنة ٤١٨ عن عمر بلغ ستة وأربعين عاماً .

ويقال إنه حين أحس بالموت كتب كتباً عن نفسه إلى كلِّ من يعرفه من الأمراء والرؤساء الذين بينه وبين الكوفة يعرّفهم أن حظيَّةً له توفيت ، وأنه قد أرسل تابوتها إلى مشهد الإمام علي ، وأنه يسألهم مراعاةَ من مشوا في صحبة التابوت . ولما توفي سار به أصحابه ، وسار من بلّغ الرسائل إلى أصحابها ، فلم يعرض أحد لتابوته ودفن بالمشهد كما طَلَب[6] في تربةٍ مجاورة للإمام علي ، وأوصى أن يكتب على قبره[7] :

كنت في سفرة الغواية والجهـ ـل مقيماً فحان منّي قدومُ
تبتُ من كل مأثمٍ فعسى يُمْحَـى بهذا الحديث ذاك القديم
بعد خمسٍ وأربعين لقد مـا طلتُ إلا أن الغريمَ كريم

وذكر صاحب تاريخ ميافارقين أنه كتب إلى النقيب بالكوفة ليدفنه في عتبة باب المشهد وقال للنقيب : قد أوصيتُ أن يجعل في التابوت ألف دينار

(٥) في النسخة الخطية : خمسة وخمسين يوماً .
(٦) وعند ابن خلكان ٢ : ١٧٦ في الثالث عشر من رمضان .
(٧) تاريخ ابن الأثير ٩ : ٣٦٢ ومرآة الزمان ١٢ : ٤٧ والمنتظم ٨ : ٣٣ .
(٨) ابن خلكان ٢ : ١٧٦ وانظر المقطوعة رقم : ٩٥ والمنتظم ٨ : ٣٣ .

في كيس ، فإذا وصل إليك التابوت فافتحه فهي العلامة . وكان الذي عهد إليه بوضع الكيس ، هو ابن نباتة الخطيب فعمل بما أوصاه به بعد أن قام بغسله ، فلما وصل التابوت إلى الكوفة قال النقيب : من هذا ؟ فقيل له : الوزير المغربي ، فقال : أين العلامة ؟ إن لي فيه علامة ، ففتح التابوت ووجد الكيس ، فأخذه ودفنه تحت العتبة وكتب عند رأسه : « يا جامعَ الناسِ لميقاتِ يومٍ معلوم اجعل الحسينَ بن علي من الفائزين »[١] .

وفي رواية أخرى أنه أوصى أن يُحْمَلَ إلى مشهد الحسين ويدفن تحت رجلي الحسين ، ويكتب عند رأسه هذان البيتان[٢] (والمصادر تكاد تجمع على الرواية الأولى) :

سقى الإلهُ الأزلي من السحابِ الهطلِ
قبرَ الحسين بن علي عند الحسين بن علي

ولقد شاع أنه سمّ[٣] ، وأن ذلك تمّ حين فصل من ميافارقين ذاهباً إلى بغداد[٤] ، والاقتران بين موته وبين رغبته في مفارقة ميافارقين إلى بغداد هو الذي يوحي بذلك التقدير والظنّ . وقد وجدنا أن المرض لم يكن يُغِبّ الوزير إلا ليعودَ إليه ، وأنه كان يلمّ بـ « أحشائه » . فإذا كان للسمّ دور في إثارته فلعله أن يكون سماً بطيئاً . ويصف ابنُ بسام هذا كله بقوله : « واستأذن نصرَ الدولة فخلّى بينه وبين مراده ، ولم يجد بداً من إسعاده ووفاء بإنجاز ميعاده ، فلما برزت قبابه ، وكادت تستقلّ ركابه ، خُوِّفَ نصرُ الدولة عاقبةَ مكره ، وأشير عليه بالرأي في أمره ، فسقاه شربةً كانت آخر زاده »[٥] .

ومهما يكن سبب وفاته ، فقد سكن ذلك القلق الطويل ، وهمدت تلك الحيوية المتفجرة . وذهب الوزير الكامل ذو الجلالتين بعد أن شغل الناس ، وأصبحوا في النظر إليه شيعاً .

وفيما كان الوزير المغربي يعالج سكرات الموت كان أبو العلاء يملي على كاتبه تأملاته في الحياة والموت والقدر والمذاهب في شكل لزوميات ، ولما وصله النبأ توقف عن التأمّل الخالص ليذرفَ دمعةً على صديق . ولا أعرف شخصاً آخر رُثِي في اللزوميات ، فإن يكن الأمر كذلك ، فهذا وحده دليلٌ على عظم المنزلة لصديقه الوزير في نفسه . وبما أن الوزير كان إنساناً غريباً ، وبما أنه عاش غريباً يتسلّمه بلد بعد آخر فقد نظم فيه أبو العلاء لزوميةً غريبةً[٦] :

ليس يبقى الضَّرْبُ الطويلُ على الدهر ولا ذو العَبَالةِ الدِّرْحَايَة[٧]
يا أبا القاسم الوزير ترحلتَ وخلَّفتني ثفالَ رحايه[٨]
وتركتَ الكُتْبَ الثمينةَ للنا س وما رُحْتَ عنهمُ بسحايه[٩]
ليتني كنتُ قبل أن تشربَ المو ت أصيلاً شربته بِضُحَايَهْ
إن نحتك المنون قبلي فإني مُنْتَحَاها وإنها منتحايه
أمُّ دفرٍ تقولُ بعدك للذا ئق لا طَعْمَ لي فأين فَحَايَه[١٠]
إن يحطُّ الذنبَ اليسيرَ حفيظا كَ فكم من فضيلةٍ مَحّايَهْ

هي سبعة أبيات لكنها جامعة لسيرة إنسان : فيها تأكيد بإيراد الكنية واللقب على الشهرة ، وفيها إشارة إلى الكتب الثمينة التي خلّفها الوزير وهي إما أن تكون مؤلفاته القيمة ، وذلك اعتراف بتميز ما كتبه ، وإما أن تكون الكتب التي وقفها بميافارقين وظلت تعرف من بعده بمكتبة المغربي . وفيها اعترافٌ بذنوب اقترفها الوزير إلا أنها ذنوب صغيرة وسوف يمحوها ما يوازيها لديه أو يفوقها من حسناتٍ وفضائل . ولكن القصيدة (أو المقطوعة) تقيم منذ أول بيت الموازاة بين إنسانين ، كما أقامت المساواة بين الطويل والقصير أمام الموت . وإذا كان الوزير طويلاً والمعرّي قصيراً وذهب أحدهما فإن الآخر لا حقٌ به . ولكن لماذا يترحل الوزير ويترك صديقه وراءه ، محطماً مبتذلاً كجلدة الرحى ؟ ليته وقد شرب صديقه كأس الموت قبل أن يبلغ مساء العمر شرب هو تلك الكأس في ضحى العمر ، واستراح من أم دفر ، التي تعلن للناس أن فَقْدَ الوزير أفقد الدنيا طعمها كأنها القِدْرُ الفقيرةُ إلى الأبزا والتوابل . كان المعري حين نظم هذه الأبيات قد بلغ الخامسة والخمسين أ تجاوزها بقليل ، وقد أصبحت الحياة على كتفيه عبئاً ثقيلاً ، وزادها ثقلاً فَقْدُ الوزير وغيره من أصدقائه ، ولذلك رثاه بأبيات تعلن قافيتها بسكونها انقطاعَ النَّفَسِ أو وَشْكَ انقطاعه . وإذا كانت حقاً تمثل بعض آخر ما نظمه المعري في اللزوميات ، فإن كل ما قبلها مباشرة وما بعدها يتنفس في جوٍّ واحد هو استطالة الحياة والدقّ برفق على باب الموت . وفي آخر لزومية يقول المعري[١١]:

إن يرحل الناسُ ولم أرتحلْ فعن قضاءٍ لم يُفَوَّضْ إليّ
خُلِّفْتُ من بعدِ رجالٍ مَضَوْا وذاك شرٌّ لي وشرٌّ عليّ

وهكذا فإن المعري حين رثى الوزير بصدق كان أيضاً يرثي نفسه .

شخصية الوزير المغربي

كل من شاء أن يدرس شخصية الوزير المغربي لا يستطيع أن يتخلص من أحكام ابن القارح على تلك الشخصية ، فقد أثار ابن القارح من حولها غباراً كثيراً ، وأطلق دخاناً كثيفاً ، لا يمكن طردهما . ولهذا ستظلّ الرؤية غير دقيقة . وقد كررت بعض المصادر ما قاله ابنُ القارح دون محاكمة فزادت انبهامَ الرؤية إلى حدّ كبير ، وهذا كله مهّدَ لجعل الحسين « محرك النار » في كثير من أحداث عصره ، حتى وإن كان بعيداً ، حتى لقد أصبح لدى كثير من المؤرخين « الوسواس الخنّاس » الذي يحرك إلى الشرّ ، ومن السهل أن تصف إنساناً بأنه كان مفرط الذكاء والدهاء بل أن تعده من دهاة العالم[١٢] ثم أن تربط به أعمالاً قائمة على الحيلة والجرأة ، وأن تصفه بخبث الباطن وارتكاب العظائم[١٣].

---

(١) مرآة الزمان ١٢ : ٤٨ .
(٢) مرآة الزمان ١٢ : ٤٨ والمقطوعة رقم : ٩٠ .
(٣) لسان الميزان ٢ : ٣٠٢ .
(٤) خطط المقريزي ١ : ١٥٨ .
(٥) الذخيرة ٤ : ٤٧٩ .
(٦) اللزوميات ٢ : ٦٥٢ ـ ٦٥٣ .
(٧) العبالة : السمنة والغلظ ، والدرحاية : القصير .
(٨) الثفال : الجلد الذي يبسط تحت رحى اليد ، والرحاية : الرحى .
(٩) السحاية : القطعة التي تؤخذ من القرطاس .

(١٠) الفحا : أبزار القدر .
(١١) اللزوميات ٢ : ٦٥٦ .
(١٢) ابن خلكان ٢ : ١٧٤ « من دهاة العارفين » ؛ سير أعلام النبلاء ١٧ : ٣٩٥ ـ ٣٩٦ له رأي ودهاء . . وذكاء وقاد ، وكان من دهاة العالم ؛ لسان الميزان : ٢ : ٣٠١ له الذكاء المفرط ؛ ذيل تاريخ دمشق : ٦٤ ذا علم وذكاء ؛ الداوودي ١ : ١٥٣ وإفراط ذكائه وفطنته ؛ الوافي ١٢ : ٤٤٢ من الدهاة العارفين .
(١٣) ابن خلكان ٣ : ١٣٤ خبيث الباطن ؛ لسان الميزان ٢ : ٣٠٢ الجرأة وارتكاب العظائم في

لقد رسم له ابن القارح صورة حالكة مقيتة حين حشد فيه الصفات الآتية :

١ ـ الملل : كان أبو القاسم ملولاً ، والملول ربما ملَّ الملالَ ، وكان لا يَمَلُّ أن يَمَلَّ .

٢ ـ الحقد : [كان] يحقد حقد من لا تلين كبده ولا تنحلُّ عقده .

٣ ـ العقوق : له رأي يزين له العقوق ، ويمقّتُ إليه رعايةَ الحقوق .

٤ ـ الكبر : كأنه من كبره قد ركب الفلك ، واستوى على ذات الحُبُك .

٥ ـ الحسد : (حسد ابن القارح لأنه استطاع أن يجمع سبعة أوصاف للشمعة في بيت واحد) .

٦ ـ الجنون : كان جنونه مجنوناً . . وأجنُّ منه لا يكون .

٧ ـ الجرأة على المقدسات : (أخذ محاريب الكعبة الذهب والفضة وضربها نقوداً) .

٨ ـ سفك الدماء وانتهاك الحريم والتقتيل والتخريب في سبيل الحصول على مآربه[١] . ولم يتوقف موقف التشكيك في هذه التهم إلا ابن العديم فإنه قال : وكان بين أبي القاسم ابن المغربي وبين عليِّ بن منصور ما يوجبُ ألاّ يُقْبَلَ قوله فيه[٢] . وقد بلغ فقدان الثقة بين الرجلين حداً بعيداً حتى إن الوزير المغربي قال في بعض ما يرويه : أنشدني علي بن منصور (ابن القارح) ـ إن صدق[٣] ـ وهذا الالحاق يدل على أسوأ ضروب الظن .

وقد استنتج كتاب التراجم خبثه وإزراءه بالفضلاء وشدة حسده على الفضائل التي يتمتع بها الآخرون من أنه كان « إذا دخل عليه الفقيه سأله عن النحو ، والنحوي سأله عن الفرائض ، والشاعر سأله عن القرآن قصداً ليسكتهم »[٤] ، ولست أرى في ذلك شيئاً مما استنتجوه ، إذ هذا التصرف إما أن يكون دعابة فهو يُخْرِجُ الفقيهَ إذا سأله في النحو ، ويتلعثم ، ويخرج إلى أمور مضحكة . وأشهد أنها دعابة ثقيلة غير مستملحة ، وإما أن يكون « تعليماً » للمسؤول ومحاولة لجرّه إلى التواضع كي لا يحسب لإتقانه أحدَ العلوم أنه قد أحاط علماً بكلِّ شيء ، فهو يردُّه إلى التواضع . كما يعبر عن تميزه الشخصي لأنه يتقن علوماً جمة ، وتلك طريقة أيضاً غير ضرورية فليس لأحدٍ أن ينصبَ من نفسه معلّماً لغيره ، وهي قد توحي بالغرور ، ولكنها لا تدلُّ على الخبث وشدة الحسد .

غاية ما هنالك أن الرجل كان شديد الذكاء ، وأهم من ذلك أن ذكاءه أوصله إلى النضج المبكر ، فبدأت تظهر لديه عقدة التفوق ، وزادها إعجاب أبيه به ـ وربما أضفت « وتدليله له » ـ ولعلّ المعري ـ دون أن يقصد ـ شارك أيضاً في ترسيخ تلك العقدة ، بذلك النوع من الخطاب في رسالتي المنيح والأغريض . وقد كان ذكاؤه في أول الأمر موجهاً إلى هضم كل ما يقرأ والتعمق في العلم والأدب ، وفي إتقان النظم والنثر ، فلما وضح له أنه يبذّ

حصول غرضه ؛ الوافي ١٢ : ٤٤٢ خبيث الباطن ؛ ابن الأثير ٩ : ٣٣٢ كان خبيثاً محتالاً .

(١) رسالة الغفران : ٥٥ ـ ٥٨ .

(٢) بغية الطلب ٥ : ١٩ .

(٣) بغية الطلب ٥ . ١٩ .

(٤) المنتظم ٨ : ٣٢ ـ ٣٣ وابن الأثير ٩ . ٢٣٢ وابن خلكان ٢ : ١٧٤ والوافي ١٢ : ٤٤٢ ولسان الميزان ٢ : ٣٠١ ومرآة الزمان ١٢ : ٤٧ .

معظم أقرانه تحولت عقدة التفوق لإرضاء طموحه إلى الشهرة ، وكفلت له مجالسة الحاكم ـ بصحبة أبيه وعمه ـ بدايةَ التوقّل في سلّم المجد ، وعرض على الحاكم أن يستغلَّ مواهبه فيما يرفعُ من ذكره وينشر صيته ، ويعودُ على الدولة بالخير .

غير أنه الحادثة التي لم يُعِر أثَرَها المؤرخون اهتماماً وإنما اكتفوا بذكرها على أنها محضُ خبرٍ هي المذبحة التي تعرَّض لها أهله ، وقلبت نفسيته ، ووجهت ذكاءه في وجهة جديدة . فإذا كان الإنتقام شراً ، فقد أصبح الذكاء موجهاً نحو الشرّ ، وإذا كان الحقد سيئاً فقد « وظِّف » في خدمة الإنتقام . وحين استطاع أن يورِّط آل الجراح بحيث تتطابق مشكلته ومشكلتهم بالنسبة للحاكم لم يكن يستشرف أن يكونَ الرجلَ الأول في الدولة المستحدثة ، بل كان كل همه أن يتحقق له الإنتقام . وفي سبيل ذلك استباح لنفسه كلَّ ما يمكن أن يتوقَّفَ عنه لو لم تكن سحابةُ الإنتقام قد غَشَّتْ عينيه ، وكان أهونَ ما هنالك نزعُ الذهب والفضة من الكعبة ، إذ الكعبة ليست بحاجةٍ إليهما . فأما تيتيم الأطفال وترميل النساء وقتل الرجال فتلك هي شرعة الحرب . وهي أمور تتم به وبدونه ، ومن شاء أن يقوِّضَ دولة لم يحسب حسابَ الخسائر في الأرواح وفي بنية العائلة وفي ضياع الأموال . لستُ أسوِّغ للوزير المغربي أن يفعل ذلك ، ولكنه حين فعل ذلك كان واحداً من آلاف ـ بل ملايين الطامحين ـ الذين أقاموا ذلك التمثال الأجوف الذي نسميه تاريخاً ، ولهذا فلا يجوز أن ينفرد باللوم ، وكل من حوله والغون في دماءِ الأبرياء وغير الأبرياء .

وبعد إخفاق الثورة أصبح يسعى للحصول على مصدر رزق : كان غريباً والغريبُ المنافس للطبقة البيروقراطية يلقى كل أنواع الكيد والدسائس والتكتل ضدّه ، وكان ذكياً والذكيُّ مخوفٌ لأنه يفضح الغباء الجماعيَّ الذي يتخذه الآخرون جُنَّةً ضد مغايرٍ لهم غريب ، وكان مريراً بسبب ما مُنِيَ به من إخفاقات متوالية ، والمرير إذا كان ساخراً يثير الغيظَ والحفيظةَ والخصام ، وكان تفرده في العلم والكتابة والشعر يؤهله لنيل ثقةٍ من يعمل معه بسرعة ، وذلك يثير الحسد ، فهو المحسودُ لا الحاسد ، لأن لديه من الفضائل ما يقنعه ويرضيه ، أما الحاسدُ فهو طامعٌ لما عند غيره ولا يعرف الرضى . وكان صارماً في الوظيفة دقيقاً فيما يجب على الآخرين أن يؤدوه ، وهذا النوع من الناس يُتَّهمون بالتكبر والتجبر ، لأن معظم من يعملون معهم يميلون إلى التراخي والإرجاء والتسويف والمماطلة . وليس غريباً إذا جعل من أهم القواعد للسائس في رسالته في السياسة أن يحذر « كلَّ الحذر من تأخُّرِ عملِ يومٍ إلى غد ، فإن لكلِّ وقتٍ شغلاً ، وهذا الخُلُقُ من المدافعاتِ بالمهماتِ أدهى الدواهي التي تتابع لها الخَلل ، وانهدمت لها الدول »[٥] . وكان سخياً بالمال ، وما أحرى ذلك أن يقربه إلى القلوب ، ولكن السخاء أحياناً يأتي بضدّ ذلك ، لأن استشعار علوِّ اليد يثير النقمة بدلاً من الشكران ، أو يضع المرءَ في شعور مختلط بين النقمة والشكران .

وتصفه المصادر بالجرأة والدهاء معاً ، وكلتا الخصلتين تشيران إلى دوره في الحياة السياسية العملية . والجرأة تؤدي إلى التهور ، وذلك يعني عدم حسبان النتائج ، وإذا حكمنا على المغربي بنتائج أعماله قلنا إنه كان متهوراً لا جريئاً وحسب ، إذ مني كل ما خططه بالاخفاق . فأما الدهاء فهو موصول لدى من يستعملون هذه الصفة بالحيلة القائمة على الذكاء ، وإخفاق النتائج

(٥) الرسالة رقم : ١٦ ، الفقرة : ١٤ .

لدى المتهور ينقصُ حظه من الحيلة البارعة ، وذلك في الأعمال الكبيرة ، أما في الأمور اليومية الصغيرة فلعل الوزير المغربي كان سيِّد من دبَّر « المقالب » وضحك على زملائه وضحك منهم . ومن حقِّ من تصدوا لترجمته أن يقولوا إنه كان داهية لأنه كان دائماً يدبر الخطط حتى لم ينسَ أن يدبّر كيف ينتقل الى مشهد علي متخذاً في ذلك احتياطات أكثر مما يتطلبه الموقف .

ورغم العقل المسيطر في توجيه خططه نجده امرءاً « عاطفياً » بل يمكن أن يقال فيه إنه كان يوقد الشمعة من طرفيها : كان كثير الإنقياد لشهوته ، حتى إذا أمعن فيها تذكر ثِقْلَ الآثام والذنوب وما يترتب عليها من حساب ، ولذلك فإن شعره يتراوحُ بين هاتين المنطقتين على نحو متكافىء . أعطى ريعانَ الصبا من المجون ما أحب ولكنه في قرارة نفسه يبغض الإثم . يذهب فنوناً هي هوى إلف له ثم يهجره ، ويموتُ الإلف وهما متهاجران ، فيحسُّ بالندم ويبكي بحرقة ثم يلوذ بكرم الباريء ـ جلَّ وعز ـ :

هو المحسنُ البرُّ فيما قضاهُ ... والحاكم العدلُ في ما حَكَمْ
وإني وإن حجبتني الذنوبُ ... فمني السؤالُ ومنه الكرم

بل تبلغُ به التوبة حدَّ التعلق بأستار الكعبة :

أستارُ بيتك أمنُ الخوفِ منكَ وقد ... عُلِّقتها مستجيراً منك يا باري
وما أظنّك لما أن علقتُ بها ... خوفاً من النار تدنيني من النار
وها أنا جار بيتٍ أنت قلت لنا ... حُجُّوا إليه وقد أوصيتَ بالجار

بل يمكن أن يقال إنه في هذا التردد ضيَّع نقطة الوسط ، وإن كان بتأرجحه المستمرّ يحاولُ التوسط . ولما قال له المطران إيليا إن الرهبان لا يدعون للإنسان بطولِ العمر أو زيادة المال أو كثرة النسل وإنما يسألون الله أن يصنع به ما له فيه الخيرة شرح المغربي كيف بارح البحث عن النقطة الوسط . ذكر أنه يفتش عن غاية العز (ورَّى بالعز هنا عن أشياء كثيرة) أو عن غاية الزهد . أما الزهد فغير ممكن في حال الوزير ، لأن الزاهد يخدم نفسه بنفسه والوزير يخدمه الكثيرون . وأما العز فهو يتمناه بلهفة ، ولكنه واقع بالنسبة له بين طمعٍ فيه وحرمان مؤقتٍ منه « ومع طمعي فإني لست مؤيساً منه »(١) ، فكل ما ناله من عزّ لم يكن مرضياً له ، ولذلك فهو يحسُّ أنه لم ينل كلَّ ما يريده ، أي هو واقع في نقطة وسطٍ لا يريدها . لا يريد أن يتجه نحو الزهد ، إنه لا يرضى إلا بالطرف الأقصى من العز ، وهذا الموقف الذي يمثل آخر مراحل حياته يدحضُ روايةً تنسب إليه أنه تزهد واعتزل العمل . وتذهب هذه الرواية إلى أنه كان بعايي من يدخل عليه بامتحانه وسؤاله في غير ميدانه العلميّ ، وأن شيخاً دخل عليه فسأله عن العلم فقال : ما أدري ولكني رجل يودعني الغريبُ الذي لا أعرفه الأموالَ العظيمة ويعودُ بعد سنين وهي مختومة . (ها هنا تعريض بالوزير) ، فخجل وآل الأمر أن زار أحد الصالحين (أو هو الشيخ نفسه) فقال له : لو صحبتنا لنستفيدَ منك وتستفيدَ منا ، فقال : ردَّني عن هذا بيت شعر :

إذا شئتَ أن تحيا غنيّاً فلا تكنْ ... بمنزلةٍ إلّا رضيتَ بدونها

فأنا أكتفي بعيشي هذا . فقال : يا شيخ ما هذا بيت شعر ، هذا بيت

(١) مجالس إيليا : ٤٣١ .

مال ، ثم قال : اللَّهم أغننا كما أغنيتَ هذا الشيخ واعتزل السلطان(٢) .

على أنه مهما استبد به استبحاره في الشهوات ، فقد كان ذا غَيْرةٍ على الإسلام ، وإيمان عميق به ، ولذلك تجده شديدَ السرور حينما أسلم رئيسُ اليعاقبة بتكريت ، ذلك هو أبو مسلم مشرف بن عبيد الله الذي كان يعرف بالمطران الكبير : « فهنأ الله الإسلامَ ما يزال يتولاه من إيضاح مناره ، وتبلج أنواره ، وإدامة صبحه ضاحكاً تتصدع عنه دياجير الشبهات ، وتنجلي منه ملابس الضلالات » ولعلّ مما زاده سروراً أن المطران رأى الإمام علياً بصحبة الرسول (ص) في المنام .

فقد كان الرجل شيعياً ، وكان إذا أَمِنَ أفصح عن حقيقة مشاعره ، وفي تلك اللحظات كان موقفه من رجالات الإسلام موقفاً شيعياً خالصاً ولذلك كان عليّ بطبيعة الحال هو خير الصحابة في نظره :

عرفنا علياً بطيب النجارِ ... وفصلِ الخطابِ وَحُسْنِ المخيلَهْ
تطلَّع كالشمس رأدَ الضحى ... بفضلٍ عميمٍ وأيدٍ جزيله
فكان المقدَّمَ بعدَ النبيِّ ... على كلِّ نفس بكلِّ قبيله

وهو القائل في علي (عليه السَّلام) :

صلَّى عليك الله يا مَنْ دنا ... من قاب قوسين مقامَ النبيهْ
أخوك قد خُولفتَ فيه كما ... خولف في هارون موسى أخيه
هل برسول الله من أسوةٍ ... لم يقتد القومُ بما سنَّ فيه

وحين فارق ابن المغربي مصر كان قد تجاوز الثلاثين ، وهي سن متأخرة للزواج في ذلك العهد ، ولذلك فإن زواجه وهو بمصر هو المرجح ، وحين رزق بابنه الأول سماه عبد الحميد ـ لإعجابه بإمام الكتابة ـ وكنّاه أبا يحيى . وكان الذي هنأه بمولده صاحب ديوان الجيش بمصر أبو عبد الله محمد بن أحمد فقال(٣) :

قد أطلع الفألُ معنىً ... يدركهُ العالمُ الذكيُّ
رأيت جَدُّ الفتى عليّاً ... فقلت جَدُّ الفتى عليّ

وقد كبر ابنه وروى عن أبيه ، وحدث ببعض أخباره(٤) . ويبدو أنه أصهر إلى عائلة علوية عراقية إذ يذكر أن أبا الحسن علي بن أبي طالب بن عمر كان صهره(٥) ، وقد كانت زوجته هي بنت العرموم ، ولا ندري أكانت هي أم عبد الحميد ، أم لا ، ولعلها كانت على جانب غير قليل من الثراء ، وكانت لها شخصيتها المستقلة أو حاول زوجها أن يمنحها ذلك المظهر ، إذ تذكر الروايات أنها أهدت أبا كاليجار البويهي لما طلع قلعة إصطخر « مذافَ أحمر بهرمان رماني ما يعرف قيمته »(٦) . ولا ندري هل كان عبد الحميد الابن الوحيد للوزير المغربي أو أنه رزق بأبناء آخرين .

وقد ظلت الأجيال من بعد تشير إلى الحسين بن علي باسم « الوزير المغربي » حتى أصبح اللقب غير منفصل عن نسبته عند ذكره ، ولكنه لم يكن

(٢) المنتظم ٨ : ٣٢ ـ ٣٣ ومرآة الزمان ١٢ : ٤٨ وانظر رواية أخرى من القصة رقم : ٢٦ . منقولة عن بغية الطلب .
(٣) ابن خلكان ٢ : ١٧٤ .
(٤) ابن أبي أصيبعة ١ : ٢٣٢ .
(٥) ابن الأثير ٩ : ٣٣٦ .
(٦) الذخائر والتحف : ٧٩ ، و « المذاف » ـ هكذا ورد ـ ولم أتبين ما هو .

« وزيراً » فقط ، بل كان « الوزير الكامل ذا الجلالتين » ، ولا ندري متى أحرز كل هذه الألقاب ، ومن لقبه بها ، والأرجح أن ذلك تمّ في الفترة العراقية .

بعض مجالات اهتمامه

١ ـ شعره ونثره :

لا تفتأ المصادر تردد أن للوزير المغربي نظماً فائقاً في الذروة ، وترسلاً فائقاً ، وأنه سيطر على صناعتي الشعر والنثر ، وأن له ديوان شعر ورسائل ، لعلهما كانا مجموعين معاً . وينفرد الثعالبي بقوله إنه « كان يجري في طريقة ابن المعتز نظماً ونثراً ويجاذبه طرفيها »(١) . وقد وصلنا من أشعاره مائة وخمس عشرة وحدة بين مقطوعة وقصيدة ، والمقطعات أغلب ، كما وصلنا من رسائله وأقواله خمس وعشرون وحدة . وليس في شعره أو نثره ما يشير من قريب أو بعيد إلى شركة بينه وبين ابن المعتز ، ولعل تباينهما في الشعر أوضح . فابن المعتز شاعر التصوير المتناوب في جماله بين الأصالة العريقة والصنعة ، بينما ليس من همّ الوزير طلب الصورة أبداً ، وإذا جاءت في شعره فإنما تجيء عارضة .

وشعره في المقطعات يدل على أنه كان يتعمد العبارة الحلوة والمعنى الجديد ، فمن العبارة الحلوة قوله :

زعم الفراق دعا به فأجابه ... ونعم دعاه فلم أراد يجيبهُ

ومن الجدة في المعنى قوله :

محاسنُ يأسي شخصَهُ من تذكري ... فلو أنني لاقيتُهُ ما عرفته

فهذا عكس للمعنى المألوف ، وهو آسر لأنه يفاجئك بغير المتوقع .

وفي شعره على الجملة نغمة من لوعة دفينة أسيانة . وإذا صحّ أن الأبيات التالية له ، فإنها تمثل قمة الوجد في نضارة تعبير :

أقول لها والعيسُ تُحدَجُ للسُّرَى ... أعدّي لفقدي ما استطعتِ من الصبر
سأنفقُ ريعانَ الشبيبة آنفاً ... على طلب العلياء أو طلب الأجر
أليس من الخُسْران أن لياليا ... تمرُّ بلا شيءٍ وتُحْسَبُ من عمري

ومن شدة تطلبه للمعنى الأخاذ يحمل كثيراً على التعمل الذهني ، ويبعد في طلب المعنى فلا يأتي بشيء جديد كقوله :

كان لي في انتظار شيبي حسابٌ ... غالطتني فيه صروفُ الدهور

وكذلك لا تعدم اللفتات المستملحة في مثل قوله :

فقال ليَ الحبيب وقد رآني ... سبوقاً للمضمَّرة العتاق
ركبتَ على البراق؟ فقلتُ كلا ... ولكنّي ركبتُ على اشتياقي

وهذا الإستملاح لائق بالمواقف الغزلية والعاطفية ، وهو يتحول إلى عمق عاطفي في شعر الرثاء . ولكنه لا يصلح للشعر التعليمي والحكمي ، ولهذا كان هذان اللونان من الشعر يتحملان لديه قسطاً من الفجاجة إذا قورنا بشعره العاطفي . وكذلك يمكن أن نقيم المقارنة بين مدائحه ومراثيه ، إذ كانت الأولى قائمة على الدعوى والثانية على المشاعر الصادقة . ومما يجسم الأمر بين هذين اللونين أنه لم يكن يرى لممدوحيه فضلاً عميق الجذور في نفسه ، بل لعله كان يرى نفسه فوق المدح ، بينما كان الذين رثاهم يتمتعون بمكانة عالية لأنهم علويون مثل الشريف الرضي والشريف أبي الحسن صهر الوزير . ولو قارنت مراثيه في أمثال هذين بمراثيه في إلْفٍ له فقده لوجدتَ درجةَ العاطفة واحدة ، وإنما يقع التمايز في إختلاف العلاقة .

ولعل أحفل نماذج شعره في التصوير القصيدة الأخيرة في هذا المجموع وفيها يصور سابحاً :

فكأنه في الموج قلبي بين أشواقي إليه

فتصوير الأشواق بالموج وفي وسطها القلب وهي تتلاطم من حوله صورة غير مألوفة :

والماء مثل السيف وهو فرنده في صفحتيه

تركيبٌ جديد لموادّ مألوفة في التصوير . أما الصورة البعيدة حقاً فهي نهيه الناس عن شرب ماء النهر الذي كان يخوضه ذلك السابح لأن الحسن ذاب فيه : أتراه يعني أن من شرب منه سحر ؟ وعلى هذا تقوى رواية من روى « قد ذاب فيه السحر » ولكن هذا اللون من الشعر غير كثير لديه .

وجملة القول في شعره أنه نموذج لشعر الكتاب في الرقة والطلب للمعاني .

أما رسائله فيبدو فيها التفاوت بحسب العمر والموضوع : فرسالته التي كتبها إلى أبي العلاء المعري وأخيه تُرَاوِحُ بين النثر والشعر بشكلٍ يكاد يكون متساوياً ، وهي طريقة تخلّى عنها عندما توفر له النضج . والموضوع في الرسالة الأولى مثلاً هو التحدي بالمعرفة ، ولذلك لم يهتمّ فيها بالنَّسق الأسلوبي قدر استعراضه لمعارفه المختلفة ، أما المطارحات الاخوانية فقد أصبحت قائمة على أسلوبٍ مسجوع من حيث الشكل وعلى تفنن في التعبير عن المشاعر . وخير ما يظهر براعته في الناحيتين رسالته إلى الشريف أبي طاهر في بازٍ كان يتصيد به وفرّ منه . هنا يمثل فرار البازي الغدرَ من يدِ مَنْ رضع الوفاء ، وبعد إقامة هذا التناقض يلتفت الكاتب إلى الدرّاج التي ارتاحت نفوسها لذلك الفرار ، ممن ؟ من الكوكب المنقض على مسارحها ، والسهم القاصد إلى مذابحها . وهكذا يفتح الكاتب المجال لتصوير ذلك « الغادر » الذي كان في الوقت نفسه وفياً لضحاياه من الطيور ، ثم يلتفت إلى المغدور الوفي الذي سيعدّ للطيور الفرحة شماتةَ ذواتِ ظفر جدد أشدَّ فتكاً . ثم يجد الأعذار لفرار ذلك الذي سماه غادراً ، وكلُّ أعذاره ترجع إلى علو همة صاحبه ، وهكذا يتنقل الكاتب في رسم المفارقة بين البازي وصاحبه وموقف الطيور الأخرى منها .

والحق أن المغربي كان إماماً في الكتابة بين كتاب عصره ، ولكن ما وصلنا من رسائله قليل ، إذ ضاع منها رسائل كثيرة . ومن رسائله التي ضاعت رسالة كلفه الخليفة القادر بالله كتابتها رداً على فئة من اليهود(٢) ، وهي رسالة تعرض ثقافة وجدلاً بأكثر مما تعرض أسلوباً فيما أعتقد .

ولا يقل أسلوبه الذاتي في كتبه عن رسائله جزالةَ سبكٍ وروعةَ عبارة ، والفرق بين أسلوبه في الحالتين هو اعتماد السجع في الرسائل وعدم اعتماده في

(١) تتمة اليتيمة ١ : ٢٥ .

(٢) اعتاب الكتاب : ٢٠٦ .

كتبه . وهذه قطعة من مقدمة أدب الخواص تصوّر مبلغ الإحكام في ذلك الأسلوب : « وقد عجب المتأملون من عاقل لا يمضي سلطانه على نفسه ، وهو يريغ نفاذَ أمره في غيره ، والإنسان يُسَفِّه القاصبَ له ، ويثرِّبُ على المولع بسبه ، ويزنّهُ بالكذب ، ويعزوه إلى قول ما لم يعلم ، وإلى المؤاخذة على الظنن ، وإلى إرسال اليد واللسان قبل اليقين والثلج ، ولا يحس أن الداء الذي أضرع خصمه للملامة ، وأحجَ عدوّه في التغليظ والمذمّة هو وَهْيُ سلطانِ العقل ، وانتقاصُ الجَلَد عن صَرْفِ اللسان وقد اشرأبَّ للقول ، وعن حبسه وقد تهيأ للبثّ »[1] .

٢ ـ النقد الأدبي :

يعد الوزير المغربي ناقداً للشعر والنثر ، منذ الجاهلية حتى عصره . فقد حدثنا كيف كان يختار الشعر : « كنت أختار البارع من أبيات القصيدة ، ثم ألقيها جانباً مدة أيام ، وأعاود النظر فيها برأي سالم ، وباختيار شابّ واع ، فأختار من ذلك المختار ما أرى إيراده فيكون إبريزَ نارين »[2] . وهذا التمحيص الشديد في الاختيار كان مقياسه الذوق الذاتي ، وقد استعمل الوزير المغربي هذا المقياس كثيراً لا في أدب الخواص وحسب ، بل في ذلك النسق من اختياره شعر أبي تمام والبحتري والمتنبي واختيار نماذج من نثر علي بن عبيدة الريحاني ، وهو لا يحكّم رأيه دائماً بل يعتمد أيضاً آراء أهل النقد ، فهو يأخذ ما يستحسنونه مثل قول ابن كناسة :

على حينَ أن شابت لداتي ولم أشِبْ ... فمنها الحيّ مبيضّةٌ وقرونُ
وناصيتُ رأسَ الأربعين وأقبلتْ ... قساوةُ جنيِّ الشبابِ تلين

أما هو نفسه فيعد ابن كناسة شاعراً محسناً ، وأن له شعراً سائراً مثل قوله :

فيَّ انقباضٌ وحشمةٌ فإذا ... رأيتُ أهلَ الوفاءِ والكرمِ
أرسلتُ نفسي على سجيّتها ... وقلتُ ما قلتُ غيرَ محتشمِ[3]

على أنه أحياناً يترك المقاييس النقدية جانباً ويحبُّ الشعر لأنه يوافق شَجَناً في نفسه ، لا لأنه كذلك في حقيقة النقد ، ولعل صراحته في ذلك هي التي تؤكد الايمانَ بسلامة ذوقه ، فمما أحبَّه وليس في حقيقة النقد مستحقاً للإعجاب قول ابن كناسة في نكبة أبي أيوب المورياني :

لا ترى زاجراً لهمِّ القلوبِ ... كالرضى بالموكّلِ المكتوبِ
فاتّقِ الله وارضَ بالقصدِ حظّاً ... لا تسيلنَّ في سبيل الذنوب
لا يَغُرَّنَّك الذي غرَّ قوماً ... شربوا من حتوفهم بذنوب
طلعت شمسهم عليهم نهاراً ... وأتتهم نُحُوسُهُمْ بغروب
قد رأيتَ الذي أدالتْ ونالت ... وقعةُ الدهرِ من أبي أيوب[4]

ومن الكلام « الذي يستحق قضية الحسن عنده » قول الشاعر :

يا سلمَ لا أقري التعذّرَ نازلي ... والذمُّ ينزلُ ساحةَ المتعذّرِ
ولقد علمتُ إذا الرياح تناوحت ... أطنابَ بيتك في الزمانِ الأغبر
أني لأبْسُطُ للضيوف تحيّتي ... وأشبُّ ضوءَ النار للمتنور

(١) أدب الخواص : ٦١ .
(٢) أدب الخواص : ٨٤ .
(٣) أدب الخواص : ٧٣ .
(٤) أدب الخواص . ٧٤ .

وتنالُ بالمال القليل براعتي ... قُحَماً تضيقُ بها ذراعُ المكثر[5]

ولو شئنا أن نبحث عن الأسباب التي استحق بها هذا الشعر « قضية الحسن » لوجدناها تبدأ بهذا السبك البدوي الذي يرنو إلى نماذج مألوفة في الشعر الجاهلي ، ثم يتجلّى الحسن في القيم التي يعبّر عنها الشعر ، لا في الشعر نفسه ، وهذه قيمة أخلاقية جعلت الناقد لا يستطيع الفصل بين ما هو جميل في ذاته وما هو جميل لأنه يوافق « هوىً أو شجناً أو « قيمة » ترتاحُ إليها نفسه . وإنما أحكم هذا الحكم لأن أبيات هذا الشاعر لا تخرج في مضمونها عن قول الوزير المغربي نفسه :

فلهامتي بالأريحيةِ سَكْرَةٌ ... تهتزُّ بي في ثروةٍ وتصعلكِ

ولعل الوزير كان يرتاح إلى ما يشابه فلسفته في الحياة ، وكانت خلاصة فلسفته قوله :

ولقد بلوتُ الدهر أعجمُ صَرْفَهُ ... فأطاع لي عصيانُهُ وليانُهُ
ووجدتُ عقلَ المرءِ قيمةَ نفسه ... وَيجدّه جدواهُ أو حرمانه
فإذا جفاه المجدُ عيبتْ نفسُهُ ... وإذا جفاه الجَدُّ عيبَ زمانه

إننا لا نملك شواهد كثيرةً على الممارسات النقدية لدى الوزير المغربي ، ولكني أعتقد أنها لو وجدت للاحَ ناقدٌ يتردد بين ثلاثة مقاييس متفاوتة : الجمال في العبارة ، والقيمة الأخلاقية ، والغرابة (أو عدم الذيوع) . وحين روى لامرىء القيس قوله : « اسقيا حُجْراً على علاّته » علّق على ذلك بقوله « وإني لأستقبح أن يقول قائلٌ لأبيه « على علاّته » وأظن ذلك هو الذي غاظ حجراً ، فلما سمعه أمر الساقي بلطم وجهه وإخراجه . . . »[6] . إن البحث عن عيون الشعر والنثر قد عوّد الوزير المغربي أن يكون ناقد البيت الجميل ، أو ناقد العبارة الجميلة ، ولكنه لم يحاول أبداً أن يبصر مدى الجمالِ في القصيدة أو في الرسالة .

٣ ـ إعجاز القرآن :

قد تقدم القول إن من أهداف تأليفه كتاب أدب الخواص الدلالةَ على معجز القرآن لأن التبحر في ألفاظ العرب ومعرفة معادنها وأغراضهم فيها يوصلُ المرءَ إلى أن يعرفَ معجز القرآن معرفةً حسية ذاتية . وهذا في رأي الوزير المغربي هو المنهج الصحيحُ للتوصل إلى إدراك الاعجاز لأنه يتم عن طريق القياس والإستدلال لا عن طريق التقليد لمن يقول ذلك من الفصحاء السابقين . أما الاقتصار على القول بالصرفة ـ كما يعتقد قليل من الناس يذهبون مذهب المعتزلة ـ فإنه لا يفسر حقيقة الإعجاز ، وإن كان مقبولاً . وينضمُّ الوزير المغربي إلى الفريق الذي يرى أن الإعجاز في نوعية النظم ، وأن ذلك مؤيد بالصرفة . وقد كان يدور في ذهن الوزير أن يجرّد كتاباً مفرداً لقضية الاعجاز ولكن يبدو أنه لم يحقق ذلك[7] . وكانت قضية الاعجاز لديه تمثل مدخلاً لامتحان مدى الاطلاع والمعرفة ، ولذلك نراه يقول لبعضهم على سبيل المعاياة ، « صفْ لنا كيف وقع التحدي بهذا المعجز ليتمّ بوقوعه الإعجاز ، وأخبرنا عن صفة التحدي ، هل كانت العرب تعرفه أم لا ، أم

(٥) أدب الخواص : ٧٩ .
(٦) بغية الطلب ٣ : ٢٩٣ .
(٧) أدب الخواص : ٨٣ .

كان شيئاً لم تجرِ عادتها به فكان إقصارها عنه ، بل لأنه التماسُ ما لم تجرِ المعاملةُ بينهم بمثله . ثم يسأل عن التحدي : هل لُقِيَ بمعارضة بانَ تقصيرها عنه أو لم تكن بمعارضة ، ولكن القوم عدلوا إلى السيف كما عدل المسلّمون مع تسليمهم ولم يعارضوه »[٢] ولا يمكن أن يلقي مثل هذه الأسئلة إلّا وهو يعرف أجوبة دقيقةً مقنعة لها ، ولعلّ في ما كتبه في تفسير القرآن ما يجلّي هذه النواحي .

٤ ـ تفسير القرآن :

كان للوزير المغربي إملاءات عدة في تفسير القرآن العظيم وتأويله[٣] وربما جُمِعَتْ في كتاب مفرد ، لقول ابن العديم : « وله كتاب في تفسير القرآن أحسنَ فيه على اختصاره »[٤] ، وقيل إن اسمه « المصابيح في تفسير القرآن »[٥] وقيل « خصائص علم القرآن »[٦] ، ولعلهما أن يكونا كتابين لا كتاباً واحداً . ولم يصلنا شيء في تفسير القرآن للوزير ، ولكنا نستطيع أن نتصور مذهبه فيه من حواره مع مطران نصيبين . فعندما ذكر المطران له أن المسلمين يقولون إن لله يدين خَلَقَ بهما آدم ، قال الوزير إن يدي الله تعالى هما نعمته وقدرته ، وهذا التأويل شبيهٌ بتأويل أهل الإعتزال . وفي موقف آخر قال الوزير : « العلة في قول المسلمين إن لله عينين ويدين ووجهاً وساقين يكشفها وأنه يأتي في ظُلَلٍ من الغمام هي أن القرآن نَطَقَ بذلك ، والمراد فيه غيرُ ظاهر اللفظ ، فكلُّ من يحمل ذلك على ظاهره ويعتقد أن لله عينين ويدين ووجهاً . . . الخ ، وأن ذاته تنتقل من مكان إلى مكان وغير ذلك مما يقتضي التجسيمَ والتشبيهَ فهم يلعنونه ويكفرونه . . . »[٧] ، فمذهبه واضح في رفض كل ما يوحي بالتجسيم والتشبيه .

ونقل عنه في تفسير قوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا ﴾ إن المعنى : إذا عزمتم على الصلاة وهممتم ، واستشهد على ذلك ببيتي شعر ، فالقيام هنا قيامُ عزمٍ لا قيام جسم[٨] .

وأكبر الظن أنه توقف في تفسيره في مواضع مختلفة لتوجيه بعض الآيات مثل « وغرابيب سود » والسود هي الغرابيب ، فما الغاية من ذكرها ؟ ولو قال القائل إن ذلك تأكيد خرج عن المألوف من مذهب العرب ، لأن العرب تقول : أسود غربيب ، فتقدم ذكر السواد . كذلك ما الحكمة في قولهم : « من فوقهم » في وصف السقف والسقف لا يكون إلا فوق في قوله تعالى : ﴿ فخرَّ عليهم السقف من فوقهم ﴾ ومثل قوله تعالى ﴿ إلهين اثنين ﴾ والعدد في إلهين واضح . وما التناسب بين الأخذ الشديد والرحمة في مثل قوله تعالى ﴿ أو يأخذهم على تخوّف فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾[٩] . ونحن لا نعرف ما موقف المغربي من هذه القضايا وأشباهها ولا ما هي تفسيراته ، ولكنا نعتقد أنه أولى هذا الجانب عناية خاصةً في تفسيره .

(١) الرسالة الأولى من رسائله في هذا المجموع .
(٢) طبقات الداوودي ١ : ١٥٣ ولسان الميزان ٢ : ٣٠١ « في تفسير القرآن والإحتجاج في التنزيل » .
(٣) بغية الطلب ٥ : ١٦
(٤) أعيان الشيعة ٢٧ : ١٨ .
(٥) هداية العارفين ١ : ٣٠٧ .
(٦) مجالس إيليا : ٤٢ .
(٧) مجالس إيليا ١١٨ ـ ١٢٢ .
(٨) أعيان الشيعة ٢٧ : ١٨ (نقلاً عن القطب الراوندي في فقه القرآن) .
(٩) الرسالة الأولى في هذا المجموع .

ويجمل رأيه في بلاغة القرآن وضعه على النحو التالي : « رجحان بلاغة القرآن إنما هو ببلوغ المعنى الجليّ المستوعب إلى النفس باللفظ الوجيز ، وإنما يكون الاسهاب البليغ في كلام البشر الذين لا يتناولون تلك الرتبة العالية من البلاغة »[١٠] ولو مضينا مع هذا الرأي إلى نهايته لاستنتجنا أن الوزير المغربي ينكر وجودَ الاسهاب في القرآن .

٥ ـ الطب :

في سياسة المرء (السائس) لبدنه آراء كثيرة حصّلها المغربي من ثقافته الطبية ومن تجربته الذاتية ومن نصائح طبيبه « صاعد بن بشر البغدادي » له . وتتركز هذه الثقافة والتجربة حول الطعام والشراب ، فالإستمراء أساسٌ في الفائدة المرجوة من الطعام . وعلى هذا لا بدّ أن يكون الغذاء لوناً أو لونين متجانسين ، لأنّ عدم التجانس يؤدي إلى ضعف الاستمراء ، ومع ذلك كله يجب عليه أن يحذر الكظة . وهذا هو رأي صاعد الذي يقول « استعمل الرياضةَ اللائقةَ بك ولا تكظ المعدة ، وقد أمنتَ الأمراضَ كلها » .

أما الشراب فيجب على السلطان أن لا يبلغ فيه حدَّ السكر ، بل يشرب في أول المجلس الكميةَ التي يتحملها ، ثم يتعلل بما يملأ وقتَ المنادمة والمؤانسة . ويجب ألا يشرب باستمرار ، بل يخصص لشربه يوماً معيناً . ومن الغريب أن المغربي يوصي الملك أو السائس بالسهر ، والتعويض عن ذلك بنوم النهار . ويرى أن الحمام ألزم للملك منه للرعية ، لأن الرعية تنفي الفضولَ عنها بالحركة ، والملك قليل الحركة فكأنَّ في الحمام تعويضاً عن ذلك . وعليه أن يدخل البيت الثالث من الحمام بقدر احتماله ، ثم يصبّ على نفسه ماءً فاتراً ، ليجففَ المسام ، ولا يجوز تناول الأكل والشرب مباشرةً بعد الحمام ، وإنما يستحسن النوم بعده .

فإذا راعى الوصايا المتعلقة بالطعام والشراب والاستحمام كان تتويج ذلك اهتمامه بالرياضة ، وأصلحُ أنواعها للملوك اللعبُ بالصولجان[١١] .

وهو يعرف من ثقافته الطبية رأيَ جالينوس في أنَّ قوى النفس تابعةٌ لمزاج البدن ، إلا أنه وجد أن مزاج البدن تابعٌ لقوى النفس أحياناً[١٢] .

٦ ـ السياسة :

أراد الوزير المغربي في رسمه حدودَ السياسة أن يستمدَّ قواعدها من الحياة الواقعية ، فهو لا يفرض حكماً أخلاقياً إلا إذا كان ذلك ممكناً . وأوضحُ مثلٍ على ذلك تقديره الشُرْبَ للملك ، فلو أنه نظر إلى الأمر من زاويته المثالية ، لنصح الملكَ بأن لا يشربَ ، ولكنه كان يعاشر ملوكاً يشربون ، فهو يضع لهم القواعد التي تضبط سيطرة الشراب عليهم . وكذلك هو موقفه من اللذات فهي في رأيه يمكن أن تُسْرَقَ من زمان الشغل ، ولكن اللذة الحقيقية للسائس هي : رتبةُ العز ونفاذُ الأمور أو رضى سلطان إن كان فوقه سلطان ، فاللذات التي يتصورها في السياسة ، ربما عُدَّتْ معنوية ولكنها في الوقت نفسه حصيلةُ التصرّف العمليّ الحصيف .

وفيما عدا ذلك لا يخرج المغربي في آرائه السياسية عن مستوى غيره ممن كتبوا في هذا الموضوع ، فهو يوصي بأن تكونَ الطاعة للملك قائمةً على المحبة

(١٠) المصدر نفسه .
(١١) أنظر الرسالة رقم : ١٦ .
(١٢) أدب الخواص : ٦٩ .

لا على الرهبة ، ثم يقول إن رأسَ السياسة إنجازُ الوعد والوعيد ، ولو طبقنا القاعدة الثانية إلى نهايتها لتعارضَتْ مع السابقة ، فإن تطبيق الوعيد ـ حتى في حدود العدل ـ لا يُخْلِقُ طاعةَ محبةٍ ، وإنما يبعث الرهبة . فأما الفضائل من علم وعفة وحلم وسخاء وشجاعة فهي القواعد الخلقية المألوفة ، ولكن اتصال كلٍّ منها بالسائس قد يُحَدِّد معناها تحديداً ذا خصوصية متميزة . فكلنا يعرف أن السخاء هو بذلُ المال والجاه ، ولكن السخاء لدى السائس في نظر الوزير المغربي هو « أن لا يَمْطُلَ حقاً ولا يخيّب آملاً ، ولا يؤيس قاصداً » . ومن اللافت للنظر أن يفرد ابن المغربي السخاء لابن السبيل خاصة ، فهذه لفتة مستوحاة من التنقل والضرب في الأرض . كذلك هو مفهوم الشجاعة لديه فإنه يحمل معنىً خاصاً غيرَ المعنى الذي يعرفه الناس من الشجاعة ، وذلك أن الشجاعة في السائس هي « أن يُشْعِرَ قلبه أن لا يجوز أن يكون الجبانُ ضابطاً لأمره ولا حارساً لرعيته . . . وأن يجعل وكده كله جمع الرجال والأسلحة والخيل والعدد » ـ وهذه كلها آلة الشجاعة وليست الشجاعةَ نفسها .

إن قسمة السياسة إلى ثلاثة فروع : سياسة السلطان لنفسه ، وسياسة الخاصة ، وسياسة العامة ، لهي قسمةٌ من باب التسهيل والإيجاز معاً ، وإلا فإن الحديث في السياسة متسع ، والفروع تزيد كثيراً على ثلاثة ، فمن ذلك مثلاً سياسة الخاصة للعامة ، وسياسة السلطان للإثنتين ، من غير فصل بينهما حين تشترك المصالح وتتحد . كما أن توصّل السلطان إلى تألف الخاصة بالإحسان إليهم وبسط آمالهم بالعفو ، وعدم الاستقصاء عليهم ، وتأمينهم إسراعه إلى قبول كثير من ثقل الأصحاب ، أمورٌ تصلح لهم ولغيرهم .

وقد وضح أن الخاصة في مفهوم الوزير المغربي هم أصحاب الوظائف في الدولة كالكاتب والحاجب والجابي وقائد الجيش وصاحب الشرطة والحاكم والمحتسب والسفير ، وهذه مؤسسات الدولة ، ولا بد أن يبحث في كل مؤسسة ، فأما الإكتفاء بالقول إن الحاجب يجب أن يكون طَلْقَ الوجه ، وصاحب الشرطة يجب أن يكون مهيبَ المنظر عبوساً لهو تبسيطٌ شديد لما من حقه أن يُبْحَثَ بالتفصيل . ولا يزال المغربيّ يرى أننا إذا جعلنا السلطان جانباً فالناس فئتان ، موظفون وغير موظفين (أو خاصة وعامة) ولكن ماذا يحدث حين يتبادل هؤلاء أدوارهم فينتقل الخاصيّ ليعود من العامة ، وينتقل العامي ليصبح من فئة الخاصة ؟

والعامة أقسام أيضاً بحسب مهنهم وأهميتها في العمران ، كما أنهم قسمان كبيران بالنسبة للسلطان ، فمنهم من يُسْمَحُ لهم بالسعي إلى بابه ، ومنهم من لا يُسْتَحَبُّ لهم ذلك لأن فيه فساداً قد شرحه أردشير في عهده . ومن هنا يتبين تأثر الوزير المغربي ببعض آراء السياسة الفارسية ، وهو بشيء من الإلتفات حول الموضوع يلمحُ إلى التثبيت الطبقي وعدم تمكين الفرد من الإنتقال من طبقة إلى أخرى ، وذلك هو الأمر الذي جعله أبو الحسن العامري السمةَ الفارقة للمفهوم الفارسي بالمقارنة بالنظام الإسلامي الذي ينكر هذه الحتمية الجائرة ولا يعترف بها .

وعلى مقتضى تفكير المغربي يستطيع السلطان أن يصنع خاصة جديدة بعد خاصة الموظفين ، من ذوي الأخطار والعلماء ، أما كيف تكون العلاقات بين الخاصة الجديدة والأخرى التقليدية فلم يُعِرْهُ الوزير اهتماماً .

وقد خلط الوزير المغربي عند الحديث عن سياسة العامة بين أمور لا تدخل في هذا الموضوع ، فبدلاً من أن يتحدث عن الرّشا في باب فساد الخاصة ، تحدَّث عنها وهو يعالج سياسة العامة . وبدلاً من أن يفرد للسياسة الخارجية وللعلاقات بالدول والممالك الأخرى باباً مستقلاً تحدَّث عن هذه الناحية تحت عنوان سياسة العامة . وكذلك فعل في حديثه عن ضبط المدن والطرق والمياه والسيطرة على الأجانب الداخلين إلى مملكته ، وضبط الأخبار عما يجري في الداخل وما يجري في الخارج . وبذلك يبين مدى الضيق في القسمة الثلاثية التي اعتمدها المغربي .

ما تبقى من شعره

قال :

قال الطبيبُ وقد تأمَّل عِلَّتي   هذا الفتى أَوْدَتْ به الصفراءُ
فعجبتُ منه وقد أصاب وما دَرَى   لفظاً ومعنىً والمرادُ خطاء(١)

وقال :

إذا ما الأمورُ اضطربنَ اعتلى   سفيهٌ تُضَامُ العلا باعتلائِهْ
كذا الماءُ إن حَرَّكَتْهُ يدٌ(٢)   طفا عَكَرٌ راسبٌ في إنائه

وقال في الحاكم :

[أنت] أعطيتني كتاباً إلى رضوا   ن حتى أُجزتُ خيرَ الجزاءِ
وسقتني يداك من عَلَلِ الكو   ثر كأساً شَفَتْ غليلَ ظمائي
أتمنّى لو راسلَتْكَ الأعادي   ببليغٍ يُوفي على البلغاء
لترى موقفي هناك ، وسهلٌ   دون شأوي وواصلُ بنُ عطاءِ

وقال :

الليلُ ميدانُ الهوى   والكأسُ مجموعُ الأَرَبْ
يا رُبَّ ليلٍ قد قَصَرْ   نا طولَهُ فيها نُجِبّ
لما هززناه تلا   قى طرفاه بالطرب
يلعبُ في الخسران والطـ   ـاعةِ ساعاتِ اللعب
تحكي ثريَّاهُ لِمَنْ   يرنو إليها من كَثَبْ
خريطةً من أبيض الد   يباجِ ما فيها عذب
والدَّبرانِ خَلْفَها   كفتحٍ بركارِ ذَهَبْ
وهقعةُ الجوِّ كفسـ   ـطاطِ عمودٍ منتصب
ومنكبٌ كوجهِ مبـ   ـشورٍ للحظِ المرتقب
وهَنْعَةٌ كأنَّها   قوسٌ لندّافِ عَطَبْ(٣)
ثم الذراعُ شمعةٌ   تشعل رأساً وذنب
وَزُبْرَةٌ كأنها   رُنْحانِ في خَشْتٍ ذَرِبْ
ونثرةٌ كَوَسْطِ مقـ   ـلاعٍ كبيرٍ منتخب
والطرفُ طَرْفُ أسدٍ   في عينه كُحْلُ الغضب
وجبهةٌ بادية   كمنبرٍ لمختطب
وصَرفَةٌ تخالها   في الجوِّ مسماراً ضُرِب
وتحسبُ العوَّاءَ في   آفاقها لاماً كُتِب

---

(١) معجم : قولاً وظاهر ما أراد خطاء ؛ الأفضليات : لفظاً ومعنى ما أراد .
(٢) التتمة : كذاك إذا الماء حركته .
(٣) العطب : القطن .

ثم السماكُ مفرداً ... كَغُرَّةِ الطرف الأقَبّ(1)
كأنه والغفرُ ميـ ... ـزان إمامٍ يحتسِبْ
يدنو إليه عرشُهُ ... يريك تابوتاً نُصب
ثم الزُّبانَى عاشقاً ... ن ذا إلى هذاك صب
تكالما من بُعُدٍ ... وحاذراً من مرتقب
ونظم الإكليل والقلـ ... ـب جوارٍ تقترب
كمشعلين رُفِعَا ... مختلفين في النصب
وشولةٌ تخبر عن ... قُرْبِ الصباح بالعجب
كجانب من عَقْدِ أر ... جوحةِ حَبْلٍ مضطرب
وبعدها نعائمٌ ... مختلفاتٌ في الطلب
فهذه صادرةٌ ... وهذه تبغي القَرَب
كمضجعي غانيتيـ ... ـن يلعبان في الترب
فغادرا من بَلَدِ الـ ... ـحَلْي كجمرٍ ملتهب
وبلدةٌ مثل شِنَا ... نٍ فارغٍ لما يجب
كأنها صدرٌ سلا ... من بعد ما كان أحب
وجاء سعدٌ ذابحٌ ... وَبُلَّعٌ على العَقِبْ
كأن ذا قوسٌ وذا ... سهمٌ عن القوسِ ذهب
وذو السعودِ ثابتٌ ... عن ذابحٍ إذا غرب
وبعد ذو أخبيةٍ ... خُنْسٍ قصيراتِ الطنب
كجؤجؤ البطةِ مع ... منقارِها إذا انتصب
وأسفَرَ الفرغان عن ... أربعةٍ من الشهب
كأنها أركانُ قصـ ... ـرٍ عِزُّهُنَّ قد خرب
والحوتُ يطفو فإذا ... ما طفح الفجرُ رَسَبْ
والشَّرَطانِ الصولجا ... نُ عند لعَّابٍ دَرِبْ
ثم البُطَيْنُ بعده ... مثلُ أثافيِّ اللهب
كأنما الحادي له ... في صحةِ التقديرِ أب
تجزعها مَجَرَّةٌ ... من قُطُبٍ إلى قُطُب
كأنها جسرٌ على ... دجلةَ مبيَّضُ الخشب
أعطيتُ ريعانَ الصبا ... من المجونِ ما أحب
ثم رجعتُ سائلاً ... لذي المعالي والحجب
لمن يجيب من دَعَا ... فضلاً ويعطي من طلب
إذا استنيلَ لم يَهَبْ ... من الكثير ما يهب
سألته مغفرةً ... لما اجتنيتُ في الحقب
وكنتُ جهدي شرَّ ... عبدٍ فليكنْ لي خيرَ ربّ

وقال :

رأت الغزالةُ في السماء غزالةً ... في الأرض يبهرُ حُسْنُها الألبابا
فاستحسنتها في النقاب وقد بَدَتْ ... وقتاً فصيرتِ الكسوفَ نقابا

وقال :

وطنبورٍ مليحِ الشكلِ يحكي ... بنغمتِه الفصيحةِ عندليبا
روى لما ذَوَى نغماً فِصَاحاً ... حواها في تقلُّبه قضيبا
كذا من عاشر العلماءَ طفلاً ... يكون إذا نشا شيخاً أديبا

(1) الطرف : الفرس ؛ الأقب : الضامر .

وقال :

تمنَّع أن رأى زَغَبا ... بعارضِهِ قد التهبا
وتاه عليَّ أن أبدَتْ ... عقاربُ صُدْغِهِ ذنبا
وقدَّر أنه سَبَبٌ ... يقطِّعُ بيننا النسبا
ولا والله لا آلو ... لحقَّ عنده طلبا
ولا خلَّيتُ في كفَّيـ ... ـه قلباً طال ما انتهبا
أما عيناهُ عيناهُ اللـ ... ـتان أباحتا الرِّيبا

وقال في نهر قويق ، قال ابن العديم : قرأتها في ديوان شعره :

أما قويقُ فلا عَدَتْهُ مُزْنَةٌ ... من خِدْرِها بَرَزَ الغمامُ الصيِّبُ
نهرٌ لأبناءِ الصبابةِ مَعْشَقٌ ... فيه وللصادي الملوَّح مَشْرَبُ
لا زال يدرمُ تحت وَشْيٍ مكلَّلٍ ... عَمَمٍ يُقَدَّحُ منكبيه وينكب
مما تمناهُ الربيعُ لريِّه ... أيامَ ظِمءِ رياضِهِ لا تقرب
فردُ الرباب يقولُ شائمُ برقِهِ ... من أين رُفِّعَ ذا الغريقُ المهدب
والغيثُ في كِلَلِ السحابِ كأنه ... ملكٌ بقاصيةِ الرواقِ مُحَجَّب
صَخِبُ الرعودِ وإنما هي ألسنٌ ... فأمرُّهُنَّ اللوذعيُّ المسهب
راعي الضحى في حين غِرَّةِ أَمْنِهِ ... فسناه مخطوفُ الإضاءةِ أكهب
جذلان إن هتكَ اللثامَ بدا له ... خدٌّ بجاديُّ البوارقِ مُذْهَب
والأرضُ حاسرةٌ تودُّ لو أنها ... مما يحبِّرُهُ الربيعُ تجلبَبُ

وقال :

ولما احتوى بدرَ الدجى صحنُ خدِّهِ ... تحيَّر حتى ما دَرَى أين يذهبُ
تبلبلَ لما أن توسَّطَ خدَّهُ ... وما زال من بدرِ الدجى يتعجَّبُ
كأنَّ انعطافَ الصُّدْغِ لامٌ أمالها ... أديبٌ يجيدُ الخطَّ أيانَ يكتب

وقال :

دَنِفٌ بحمصَ وبالعراقِ طبيبُهُ ... يُضْنيه عنه بعادُهُ ويذيبُهُ(2)
ما ناله إلا الذي هو أهلُهُ ... إذ غاب عن بلدٍ وفيه حبيبه
لزم السهادَ تحيُّراً وتلدُّداً ... وتأسُّفاً إذ أوبقته ذنوبه
زعم الفراقَ دعا به فأجابه ... ونعمْ دعاه فلمْ أراد يُجيبه(3)

وقال :

الدهرُ سهلٌ وصعبُ ... والعيشُ مُرٌّ وعذبُ
فاكسبْ بمالك حمداً ... فليس كالحمد كسب
وما يدومُ سرورٌ ... فاختم وطينُكَ رَطْبُ(4)

وقال :

سأعرضُ كلَّ منزلةٍ ... تعرَّض دونها العطبُ
فإن أسلمْ رجعتُ وقد ... ظفرتُ وأنجحَ الطلب
وإن أعطبْ فلا عجبٌ ... لكلِّ منيةٍ سبب

وقال :

ولما دعوتُ الكأسَ تؤنسُ وحشتي ... لبعدك زادتني اشتياقاً إلى القربِ

(2) الشريشي : دنف بمصر . . . طول بعاده .
(3) الشريشي : فلا أراه .
(4) ابن عساكر : وطيبك ؛ ياقوت وابن عساكر : فاغنم وقلبك (ابن عساكر : وطيبك) .

ومـالـت بـأعـطافي لهـا أريحيّـةٌ فقربُكَ أحلَى من جَناها إلى القلب
فـأنت مزاجُ العيش إن كـان صافياً وأنت المعير الصّفوَ في كَدَرِ الشرب

وقال :

يـا من غـدا جبـلُ الجـوديّ يحجبُـهُ ليس التـذكُـر عن قلبي بمحجـوب
علّمتني الحـزمَ لكن بعد مـوجعـةٍ إن المصـائبَ أثمـانُ التجـاريب

وقال يتشوق إلى حلب :

يـا صـاحبيَّ إذا أعيـاكـما سَقَمي فلقّيـاني نسيمَ الـريـحِ من حَلَبِ
من الـديارِ التي كـان الصِّبـا وَطَري فيهـا وكان الهوى العذريُّ من أربي

وقال في حسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح :

أمّـا وقـد خيمتُ وَسْطَ الغـابِ فليقسُـوَنَّ عـلى الـزمـانِ عتـابي
يـتـرنَّـم الـفـولاذُ دون مُخَيَّـمي وَتُـزَعْـزِعُ الخـرصـانُ دون قبـابي
وإذا بـنيـتُ عـلى الثنيَّـةِ خيمـةً شُـدَّتْ إلى كِسَرِ الـقـنـا أطنـابي
وتـقـوم دوني فـتـيـةٌ مـن طـيّءٍ لم تـلـتبس أثـوابُهُـمْ بـالـعـاب
يتنـاثرون عـلى الصريـخِ كـأنهم يُـدْعَـوْنَ نَـحـو غنـائـمٍ ونهـاب
من كـلِّ أهـرتَ يـرتمي حملاقُـهُ بـالجمـرِ يـومَ تسـايُفٍ وضراب
يهـديهـم حسَّـانُ يحـمـلُ بـزّهُ جـرداءُ تُـعْليـهِ جنـاحَ عقـاب
يجـري الحيـاءُ عـلى أسِرَّةِ وجهـه جَـرْيَ الفرنـدِ بصـارمٍ قَضَّـاب
كَـرَمٌ يشقُّ عـلى التـلادِ وعـزمَـةٌ يغتـالُ بـادِرَهَـا الهزبـرَ الضـابي
ولقـد نـظرتُ إليـك يـا ابنَ مفرّجٍ في منـظرٍ مـلءِ الـزمـان عجـاب
والمـوتُ ملتفُّ الـذوائبِ بـالقنـا والحـربُ سـافـرةٌ بـغـير نقـاب
فرأيت وجهك مثل سيفك ضـاحكاً والـذعـرُ يُـلْبِسُ أوجهـاً بـتراب
ورأيت بيتَـكَ للضيـوفِ ممهّـداً فسِـحَ الـظلالِ مـرفَّـعِ الأبـوابِ
يـا طيءَ الخيراتِ بـين خـلالكم أمـنُ الشريـدِ وهمَّـةُ الـطلاب
سُمِكَتْ خيـامُكُم بـأسنمـةِ الربى مـرفـوعـةً لـلطارقِ المـنـتـاب
وتـدلُّ ضيـفَـكـم عليكـم أنؤُرٌ شُبَّتْ بـأجـذالٍ قُهِـرْنَ صعـاب
متـبرجـاتٌ بـاليَفَـاعِ وبعضهـم بـالجزعِ يَكْفُـرُ ضَوْءَهُ بحجـاب
كـلأتـكـم ممن يـعـادي هيبـةٌ أغنتـكـم عن رِقْبَـةٍ وجنـاب
فيـسـير جيشكُمُ بـغـيرِ طليعـةٍ ويـبيتُ حيكـمُ بـغـيرِ كـلاب
تـتهيبـون وليس فيكـمُ هـائبٌ وَتَـوثَّبُـونَ عـلى الردى الـوثّـاب
ولكم إذا اختصم الـوشيجُ لبـاقـةٌ بـالـطعن فـوق لبـاقـةِ الكتّـاب
فـالـرمـحُ مـا لم تـرسلوه أخـطلٌ والسـيفُ مـا لم تُعْـمـلوه نـاب
يـا معنُ قـد أقـررتمُ عينَ العـلا بي مـد وصلتُ بحبلكـم أسبـابي
جـاورتكم فمـلأتمُ عيني الكـرى وجـوانـحي بـغـرائبِ الأطـراب
من بعـدِ ذعـرٍ كـان أحفزَ أضلعي حـتى لـضـاقَ بـه عـليَّ إهـابي
ووجـدتُ جـارَ أبي النّـدى متحكماً حُكْمَ العـزيزِ على الذليـلِ الكـابي
فـليـهـنـه مِـنَـنٌ عـلى متـنـزّهٍ لسـوى مـواهبِ ذي المعـارجِ آبي
قد كان من حُكْمِ الصنائعِ شامساً فـاقتـاداه بصنيعـةٍ من عـاب
فـلأنـظمـنَّ لـه عقـودَ محـامـدٍ تبقى جـواهرهـا على الأحقـاب
لا جـاد غَيْـرَكُمُ الـربيـعُ ولا مَـرَتْ غُـزْرُ اللقـاحِ لغـيركم بجِـلابِ
أنـا ذاكـرُ الـرجـلِ المنـدد ذكـره كـالـطَّوْدِ حُـلِّيَ جيـده بشهـاب
ولـقـد رجـوتُ ولـليـالي دولـةٌ أني أجـازيـكـم بـخـيـرِ ثـواب

وقال وقد لسبت العقرب جارية كان يهواها :

كم تستحمُّ العـينُ فيـكِ بمـائِهـا حتى كـأنَّ بهـا جنـونَ المـذهـبِ
إن كـان نـالـكِ مؤلمٌ من عقـربٍ فـالبـدرُ ممتحَنٌ ببـرجِ العقـرب

وقال :

كـتب المشيبُ سجـلَّ أمـ ـنٍ لـلعيـون ولـلرقيـب
فـليـعـرفـنَّ بـه الأحـبّـ ـةُ حُسْنَ عهـدكَ بـالمغيب
أفـلـيس أولُ وَصْـلِه من يـومِ هجـرانِ الحبيب
يـا ويحَ مسكـةِ عـارضٍ خُضِبَتْ بكـافـورِ المشيب
وأحـالَ بـردُ مـزاجِـهِ نـارَ الصبـا بـعـدَ اللهيب

وقال في المروحة :

مـا فيك من دَفْـعِ كَـرْبٍ عن هـائم الـقلب صبِّ
فـمـنـك رَوْحَـةُ روحـي فـمـن يُـرَوِّح قـلـبي

وقال في كسوف الشمس :

قـالـوا كسـوفُ الشمسِ مقتـربٌ قلت ادخـرتُ لـدفـعِ نـائبهـا
ثِقَتي بـكـاسِـفِهـا وكـاشفهـا ويفضـلِ مـاحيهـا وكـاسبهـا
مـن لـو يشـاءُ أعـادَ مشـرقَهـا متبسِّـمـاً لـكَ من مغـاربهـا
هـي شـعـلةٌ مـن نـوره فـإذا مـا شـاءَ أظـلـم أو أضـاءَ بهـا

وقال :

حبيبٌ ملكتُ الصبـرَ بعد فـراقِهِ عـلى أنـني عُـلِّقْـتُـهُ وأَلِـفْـتُـهُ
محا حُسْنُ يأسي شَخْصَهُ من تذكّري[1] فـلو أنـني لاقيتُـهُ مـا عـرفتـه

وقال :

رغـبـتُ في مِـلَّةِ عيسى ومـا يخـيـبُ مـن يـرغـبُ في مِـلَّتِـهْ
رغْـبـيَ في ديـنـه شـادنٌ رأيـتـه يخـطرُ مـن بِـيـعَـتـه
صُـنْـعُ حكـيـمٍ مـا أرى أنـه يـسلُّطُ الـنـار عـلى حكـمـتـه
إن كـان ذا مـن سـاكـني نـارِهِ فـنـارُه أطـيـبُ مـن جـنـتـه

وقال في غلام حلق شعره :

حلقـوا شعـره ليكسـوه قُبْحَـا غـيـرةً منهـم عـليـه وَشُـحَّـا
كـان صبحـاً عليـه ليـلٌ بهيمٌ[2] فمحـوا ليـلَهُ وأبقـوه صبحـا

وقال :

لـو لم أُسْمْـكَ الـوصـلَ إلاّ لأنّـهُ أمـينٌ عـلى سرِّ المحبِّ شحيـحُ
يسرُّ قلوبَ العـاشقين فـلا تـرى عليهـم أمـاراتِ الفـراقِ تلـوح
ولم أرَ مثـلَ الهجـرِ للسرِّ هـاتكـاً يعلّم جفنَ العـينِ كيف ينـوح

وقال في إلفه أيضاً يرثيه ، وقد كتب إليه قبل وفاته رقعة يستودعه فيها العهد وأنفذ معها إزاراً كان كثير الالتحاف به :

تـركتُ بشطِّ النيـلِ لي سَكَناً فـردا حبستُ عليه الدمع أن يطأَ الخدا
غـزالٌ طواه المـوتُ من بعد هجـرةٍ أطعنـا فـلا كنّـا بهـا الأسـدَ الـوردا

(١) الذخيرة والتتمة : من تفكري .
(٢) الروضات والكناش : كان قبل الحلاق (الجلاء) ليلا وصبحاً .

فسقياً لمهجورِ الفِناءِ كأنني … أعدّ له ذنباً وأطوى له حقدا
أسميه من فرطِ الصبابةِ مضجعاً … ولو طاوعت نفسي لسميته لحدا
وآخر عهدي من حبيبيَ أنه … مضى يحسبُ الإعراضَ عن هجره قصدا
وزوّدني يومَ الحمامِ صحيفةً … وثني شعارٍ لا جديداً ولا جردا
أداوي به تخفاقَ قلبي كأنني … أضمُّ إليه صاحب البردِ لا البردا
وقد كنتُ بالتقبيلِ أمحو رقاعَهُ … فصرتُ بماءِ الدمع أغسلها وجدا
عدمتُ فؤادي كم أرجّي انصداعَهُ … ويبقى على غَدْرِ الزمان صَفاً جَلْدا
بكيتُ دفيناً ليته كان باكياً … عليَّ فقاسى دونيَ الشكل والفقدا
مضى والتقى والنسكُ حشوُ ثيابِهِ … ورحَّلَ عنها الحسنَ والظرفَ والحمدا
حرامٌ على أيدي الحِرامِ ممنَّعٌ … وإن كان أندى الحبِّ يشعله وقدا
فيا ليتَ شعري عنك والتربُ بيننا … وذاك وإن قربته نازحٌ جدا
منحتَ الثرى تلك المحاسنَ أم ترى … غُصِبتَ عليها أم سَمَحْتَ بها عمدا
أبَحْتَ الرضابَ العذبَ بعد تمنعٍ … وأبرزتَ ذاك الجيدَ والفاحمَ الجعدا
طوت بعدك الدنيا رداءَ جمالها … فلا روضها يُجْلَى ولا تُرْبُها يُنْدى

وقال :

حبيبٌ سرى يستقبلُ الليلَ وحدَهُ … ويسبقُ آرامَ الصريمِ وأسْدَهُ
فلا الأُنْسُ من أمثالِهِ الأدْمِ عاقَهُ … ولا الذعرُ من أعدائِهِ الغُلْبِ صدَّهُ
يخوضُ إليَّ الليلَ ما بُلَّ عِطْفُهُ … ويفرجُ غيلَ الدَّوحِ ما حُلَّ عقده
وقد طلعتْ في الرأس منيَ رايةٌ … ثكلتُ بها هَزْلَ النعيم وجِدَّه
كُلوحُ مشيبٍ لو يكون تبسماً … كما زعموا ما إنْ بكى القلب عنده
وما زَهَراتُ الشيبِ فيه ظوالمٌ … كذا العشبُ يأتي يانعُ الزهرِ بعده
أخذتُ من الدهر التجاريبَ جملةً … وقبل أشدِّي ما بلغتُ أشدَّه

وقال يرثي الشريف الرضي من قصيدة أولها
« رزء أغار به النعيّ وأنجدا »

أذكرتنا يا ابن النبيِّ محمدٍ … يوماً طوى عنّا أباك محمدا
ولقد عرفتُ الدهرَ قبلك سالياً … إلا عليك فما أطاق تجلُّدا
ما زلتَ نصلَ الدهرِ تأكلُ غِمْدَهُ … حتى رأيتُكَ في حشاهُ مُغْمَدا

وقال في المشورة :

لا تشاورْ من ليس يُصْفيك ودّا … إنه غيرُ سالكٍ بكَ قصدا
واستشر في الأمورِ كلَّ لبيبٍ … ليس يألوك في النصيحةِ جهدا

وقال في غلام تركي وسيم :

غزال لم ألابس قبْـ … ـلَهُ التبريحَ والكمدا
أظن عراه جانية … لعشقي مولداً رصدا

وقال :

أطعتُ العُلى في هجرِ ليلى وإنني … لأضمرُ فيها مثلَ ما يضمرُ الزَّنْدُ
صريمةُ عزمٍ لم يكنْ من رجالها … سواي من العشاقِ قبلُ ولا بعد
رأيتُ فراقَ النفس أهونَ ضَيْرةً … عليَّ من الفعلِ الذي يكرهُ المجد

وقال(١) :

مرضٌ بقلبك لا يُعادُ … وقتيلُ حبٍّ ما يقادُ
يا آخرَ العشّاقِ ما … أبصرتَ أولها يقاد
يقضي المتيم منهمُ … نحباً ولو رُدّوا لعادوا
ملكوا النفوس فهل لها … من بعدها ما يستعاد
ما خلت غزلان اللوى … كظباء مكة لا تصاد
بالعذل يوقد لوعتي … ويقدحه يورى الزناد
لم يستطع إطفاءها … دمع كما انخرق المزاد
لا أشكونْ جرحي فللعذ … ال ألسنة حداد
طمعٌ وأنت برامة … في من تضمنه النجاد
والحيُّ قد هبطت خيا … مهم وقعقعت العماد
والورد من زهر الخدو … د كمامه الكِلَلُ الوراد
لو يسمعون بوقعه … أتت المطايا والجياد
ولأجلها غبط الغبيـ … ـط حجاب قلبي والسواد
تعفو المنازل إن نأوا … عنها وتغبرُّ البلاد
والحيُّ أولى بالبلى … شوقاً إذا بَلِيَ الجماد
أو ما رأت قلبي قريـ … ـش وهو للجُلّى عماد
وله المعاني [والمبا … ني] والكلام المستفاد
فكأنه قس وها … شم حول منطقه إياد
يا مصعباً جرّته في … أرسانها اللمم الجواد
ولمن رضاب النحل يشـ … ـهد أن ريقته شهاد
قد كان قبلك في سبيـ … ـل الحب لي أبداً جهاد
حتى عفا ذاك الغرا … م وغاية النار الرماد
فإذا رأيت الكون فا … علم أن سيتبعه فساد
واعجب لقوم في الزما … ن على السفاهة كيف سادوا
لا عندهم كلم يعـ … ـزّ ولا نضار يستفاد
أستغفر الله العلي … لقد تذأبت النقاد

وقال وقد لجأ إلى مشهد الحسين بن علي (عليه السّلام) :

تحصّنْتُ من كيدِ العدوّ وآلهِ … بِمُجْنَبةٍ من حبِّ آلِ محمدِ
ودون يدِ الجبارِ من أن تنالني … جواشنُ أمنٍ صُنْتُها بالتهجد
أُلِحُّ على مولىً كريمٍ كأنما … يباكرُ مني بالغريمِ اليلندد(٢)
أيسلمني من بعد من أنا جارُهُ … وقد علقتْ إحدى حبائلِهِ يدي

وقال :

لو خَطْرَفَ الشيبُ عقداً كنت أعذِرُهُ … لكنما سهوه بالضّعفِ في العددِ
أعطى الثلاثين في ريعانِ شِرَّتها … ما لابن ستينَ من شَيْبٍ ومن كمد

وقال :

ما للمطيعِ هواهُ … من الملامِ مَلاذُ
فاختر لنفسك إمّا … عرضٌ وإمّا التذاذ

وقال مفتخراً :

فيا أُمّتا(٣) إن غالني غائلُ الردى … فلا تجزعي بل أحسني بعديَ الصبرا
فما متُّ حتى شيَّدَ المجدَ والعلا … فَعاليَ واستوفت مناقبيَ الفخرا

(١) هي في سبعة وثلاثين بيتاً ، ولكني لم أستطع قراءة أبيات كثيرة منها .

(٢) اليلندد : الشديد الخصومة .

(٣) الوافي : أيا أمتا .

وحتى شفيتُ النفسَ من كلِّ حاسدٍ   وأبقيت في أعقاب أولادك الذكرا

وقال :

تأمّلَ من أهواه صُفْرَةَ خاتمي   فقال بلطفٍ: لِمْ تجنبتَ أحمرَهْ(١)
فقلتُ لعمري كان أحمرَ لونُهُ   ولكنْ سقامي حلَّ فيه فغيَّرَهْ(٢)

وقال :

خاف المشيبُ تعتّبي فأجاره   طَلُّ الهموم وعزَّ ذاك مجيرا
فمضى الشبابُ مظلّماً متعسفاً   وأتى المشيبُ مجاملاً معذورا

وقال :

يا ربَّ ظبيٍ قد طرقـ   ـتُ وساده في الليل سرّا
ففششتُ قفلاً من عقيـ   ـقٍ أحمرٍ وسرقتُ درّا

وقال لما تغيرت عليه الوزارة وتغرب ، وكان معه غلام اسمه داهر :

كفى حَزَناً أنّي مقيمٌ ببلدةٍ   يعلّلني بعدَ الأحبةِ داهرُ
يحدّثني مما يجمّعُ عقلُهُ   أحاديثَ منها مستقيمٌ وجائر

وقال :

من بعد ملكي رمتمُ أن تغدروا   ما بعد فرقةِ بائعين تخيّرُ(٣)
ردّوا الفؤادَ كما عهدتمْ للحشا   ولطرفيَ الساهي الكرى ثم اهجروا(٤)
وزعمتمُ أن الليالي غيّرت   عهدَ الهوى لا كان من يتغير

وقال :

قَمَرٌ ببغدادٍ وقفتُ له   فرجعتُ عنه ومذهبي الجَبْرُ
قالوا ضللتَ فقلتُ ويحكمُ   أيضلُّ سارٍ قادَهُ البدر

وقال :

وغرّدتْ في الأيكِ قمريّةٌ   نوّاحةٌ أقلقها الفجرْ
تقول ستّي أنتِ قومي ارقدي   مَنْ لي بأن يُمْتَثَلَ الأمر
كأنها قد حَذِرَتْ فهي لا   تأمن [من] أن يَرْجِعَ الجِذْرُ

وقال : (٥)

أقولُ لها والعيسُ تُحْدَجُ للسُّرَى   أعدّي لفقدي ما استطعت من الصبر
سأنفقُ ريعانَ الشبيبةِ آنفاً   على طلب العلياءِ أو طلبِ الأجر
أليس من الخُسْرانِ(٦) أنّ لياليا   تمرُّ بلا نفعٍ وتحسب من عمري

(١) البغية وابن عساكر : فقال حبيبي .
(٢) البغية وابن عساكر : فقلت له من أحمر كان لونه . البغية : ولكن غرامي .
(٣) ياقوت وابن عساكر : فرقة ما ملكت . والإشارة إلى الحديث : البيعان بالخيار ما لم يتفرقا .
(٤) البغية والمرآة : ردّوا الهدو (الفؤاد) كما عهدت إلى الحشا ، والمقلتين إلى الكرى ؛ ابن عساكر : والمقلتين إلى الكرى .
(٥) رواية الذخيرة :
ومحجوبة في الخدر عن كلّ ناظر   ولو برزت بالليل ما ضلّ من يسري
أقول لها .....
سأنفق ريعان .....
أليس من الخسران .....
وأنا لفي الدنيا كراكب لجة   نظنّ قعوداً والزمان بنا يجري
(٦) الشريشي : الحرمان .

وقال يصف الشمعة :

وصفرٍ كأطراف العوالي قُدودُها   قيامٍ على أعلى كراسٍ من التبر
تلبَّسْنَ من شمس الأصيلِ غلائلاً   وأشرقن في الظلماءِ في الخِلَعِ الصفر
عرائسُ يجلوها الدجى لمباتها   وتحيا إذا أذرتْ دموعاً من الجمر
إذا ضُرِبَتْ أعناقُها في رضى الدجى   أعارتْهُ من أنوارها خِلَعَ الفجر
وتبكي على أجسامها بجسومها   فأدمعها أجسامها أبداً تجري
عليها ضياءٌ عاملٌ في حياتها   كما تعملُ الأيامُ في قِصَرِ العمر

واعتل إلفه بعد هجرةٍ بينهما ومات فقال يرثيه :

لقد بؤتُ من دينِ المروءةِ بالكفرِ   وأصبحتُ أغشى صفحةَ الغدرِ بالغدرِ
عصيتُ الهوى العذريَّ في هجرِ شادنٍ   أضعتُ بهجراني له فرصةَ الدهر
تَمنّى في حُجُورِ الملكِ ثم ملكتُهُ   بظلِّ شبابٍ حازه لي وما أدري
فقيّدَ فتكي في هواه إنابةٌ   إلى الله خلّتْ دمعَهُ واكفاً يجري
يهونُ عليه أن تُساعِفَهُ المنى   وأرْجَمَ يومَ البعث في لَهَبِ الجمر
وما زال هجرانيه حتى تركتُهُ   جديثاً برغمي مودَعاً أضلعَ القبر
لقد كاد ذاك القبرُ يومَ أزورُهُ   يعلّقُ ثوبي شاكياً ألمَ الهجر
بنفسيَ مَنْ خوفي من الإثم قادني   إلى الإثم فاستوفيتُ من قتله وزري
مضى والتقى والحسنُ حشوُ ثيابهِ   وأورثني منه الأسى آخرَ العمر

وقال في طول الليل :

عهدي به ورداءُ الوصلِ يجمعنا   والليلُ أطولُهُ كاللمحِ بالبصرِ(٧)
فالآن ليليَ مذ غابوا فديتهمُ   ليلُ الضريرِ وصبحي غيرُ منتظر

وقال :

أستارُ بيتِكَ أمنُ الخوفِ منكَ وقد   عُلّقتها مستجيراً منكَ يا باري
وما أظنّك لمّا أنْ علقتُ بها   خوفاً من النارِ تدنيني من النار
وها أنا جارُ بيتٍ أنت قلتَ لنا   حُجّوا إليه وقد أوصيتَ بالجار

وقال :

إذا ما الفتى ضاقتْ عليه بلادُهُ   وأيقن أن الأرضَ واسعةُ القُطْرِ
ودام على ضيقِ المعيشةِ صابراً   على الذلِّ والحالِ الدنيّةِ والفقر
ولم يحترمْ للنفس عزّاً يصونها   فلا فَرْقَ بين العبدِ والرجلِ الحرّ

وقال :

اللّهُ يعلمُ ما إثمٌ هممتُ به   إلّا وبغْضُه(٨) خوفي من النار
وأنّ نفسيَ ما هامتْ بمعصيةٍ   إلّا وقلبي عليها عاتبٌ زار(٩)

(٧) قال ابن العديم : قرأت في بعض الفوائد أن الوزير أبا القاسم الحسين بن علي بن المغربي أرق ذات ليلة أرقاً شديداً فكان لا يزداد إلا قلقاً ، ولا يزداد الليل إلا طولاً ، فقال لبعض ندمائه : أي شيء تعرف من الشعر في طول الليل والسهر والقلق ؟ فقال : قول بشار بن برد :
جفت عيني عن التغميض حتى   كأن جفونها عنها قصار
أقول وليلتي تزداد طولاً   أما لليل عندكمُ نهار
فقال صدقت وأحسنت ثم قال على البديه : « عهدي به .. الخ » وورد البيتان في ديوان المعاني ١ : ٣٤٨ والذخيرة ٣ : ٦٩٦ وسرور النفس : ٢٣ (دون نسبة) وفي حلبة الكميت : ٣٠٤ لسيدوك الواسطي وفي لطائف اللطف : ١٢٨ لكشاجم ، وانظر من غاب عنه المطرب : ٥٤ ـ ٥٥ ورسالة الطيف : ١١٢ ، ١٥٨ .
(٨) الشريشي : إلا ونقّصه .
(٩) الشريشي : همت ... غائب .

وقال يتعصب للأنصار على المهاجرين ، قال ابن أبي الحديد :

« وقد أوردت ها هنا بعضها ، لأني لم أستجز ولم أستحل إيرادها على وجهها :

نحن الّـذين بنا استجار فلم يَضِعْ — فينـا، وأصبـح في أعـزّ جـوارِ
بسُيـوفنـا أمستْ سَخينـةُ بُـرَّكـاً — في بَـدْرِهـا كـنحـائـرِ الجُـزّار
ولنحـن في أُحُـدٍ سمحنـا دونـه — بنفـوسنا للمـوتِ خـوفَ العـار
فنجـا بمـهجتـه، فلولا ذبُّنـا — عنـه تنشّبَ في مخـالب ضـار
وحمية السّعدين بـل بحماية السـ — ـدين يـوم الجحفـل الجـرّار
في الخنـدق المشهـور إذ ألقى بهـا — بيـدٍ، ورام دفـاعـهـا بـشـار
قـالا: معـاذَ الله إن هضيمـةً — لم نُعْـطِهـا في سـالفِ الأعصـار
مـا عندنـا إلا السيـوفُ، وأقبـلا — نحـو الحتـوف بهـا بَـدارِ بَـدارِ
ولـنـا بيـوم حنـينَ آثـارٌ متى — تُـذْكَـرْ فَـهُـنَّ كـرائـمُ الآثـار
لمـا تصـدّعَ جمعُـهُ فغـدا بنـا — مستصرخـاً بـعقـيـرةٍ وَجُـؤار
عـطفتْ عليه كمـاتُنـا، فتحصَّنَت — منـا جمـوعُ هـوازنٍ بـفـرار
وَفَـدَتْـهُ من أبنـاءِ قَيْلَةَ عُصْبَـةٌ — شَـرْوَى النقـيرِ وَجِـنَّـةِ البـقـار
مـا الأمر إلا أمْـرُنَـا وَبِسَعْـدِنـا — زُفَّـتْ عـروسُ الملكِ غـيرَ نَـوار
لكنـا حسـدُ النفـوسِ وشُحُّهـا — وتـذكُّـر الأذحـال والأوتـار
أفضى إلى هَـرْجٍ وَمَـرْجٍ فـانبرتْ — عـشـواء خـابـطـة بـغـيرِ نهار
ثم ارتـدى المحرومُ فضـلَ ردائها — فَـغَـلَتْ مـراجـلُ إحنـةٍ ونـفـار
فتـأكّلَتْ تلك الجُـذَى، وتلمَّـظَتْ — تلك الـظُّبا، ورقى أجيـجُ النـار
تـالله لـو أَلْقَـوْا إليـه زمـامَـهـا — لمشى بهم سُجُحـاً بـغـيرِ عثـار
ولـو أنها حلّت بساحـةِ مجـده — بـادي بـدا سكنتْ بـدارِ قـرار
هـو كـالنبيّ فضيـلةً، لكنّ ذا — من حظّه كـاسٍ، وهـذا عـار
والفضـلُ ليس بنـافـعٍ أربـابَـهُ — إلا بمُسْـعِـدَةٍ مـن الأقـدار
ثم امتطاها عبـدُ شمس فـاغتـدتْ — هـزؤاً، وَبُـدِّلَ ربحهـا بخسـار
وتنقّـلت في عصبـةٍ أمـويّـةٍ — ليـسـوا بـأطـهـارٍ ولا أبـرار
مـا بـين مـأفـون إلى متـزنـدق — ومـداهـن ومـضـاعَـفٍ وحمـار

وقال :

كن حـاقـداً مـا دمتَ لستَ بقـادرٍ — فـإذا قـدرتَ فخلِّ حقـدَكَ واغفـرِ
واعـذر أخـاك إذا أسـاء فـربمـا — لجَّـتْ إسـاءَتُـهُ إذا لم تَـعْـذِرِ

وقال:

سيـان عـنـدي ميّتٌ في قبـرِهِ — يُحْنَى عليـه ونـائـمٌ في سُكْـرِهِ

وقال :

قـلـبي أسـيرٌ في يَـدَيْ مـقـلةٍ — ضـيّـقـةٍ ضـاق لهـا صبري
كـأنها في ضـيـقـهـا عُـرْوَةٌ — لـيس لهـا زرٌّ سـوى السـحـرِ

وقال :

مـا لي أرى قـلبي تـنـازعُـهُ — وطـنـايَ مـن حـلـبٍ ومـن مصرِ
لا عـيشَ إلا كـورُ نـاجـيـةٍ — لا ظـلَّ غـيرُ ذوائـبِ الـسُّـمْـرِ

وقال في الشيب :

عجبتْ هنـدٌ من تسـرُّعِ شيبي — قلتُ هـذا عُقْبَى فـطامِ السّرورِ
عـوّضتني يـدُ الثـلاثـينَ من مسـ — ـكِ عـذاري رشّـاً من الكـافـور
كـان لي في انتـظارِ شيبي حسـابٌ — غـالـطتني فيـه صروفُ الـدهـور

وقال في غلام مجوسي :

صـادني ظـبـي مجـوسـ — ـيٌّ بـطـرفٍ واحـورارهْ
وجـهـهُ قِـبـلةُ بـيـتي — وفـؤادي بـيـت نـاره

وقال :

يـا رُبَّ خَصْمٍ قـد تـركتُ ذَمـاءَهُ — وكـأنمـا شُـقَّـتْ لـه أرمـاسُـهُ
من بعـدِ ما قـد كـان يطفحُ قـولـه — بـدداً وَيُنْغَصُ في المقـادمِ راسـه
بجـدالِ ذي غَـرْبٍ ألـدَّ كـأنمـا — يُـذكى بشعلةِ قـولـه نـبراسـه
في مـوقفٍ كـالحـربِ تهضمُ الفتى — فيـه جبـانَـتُـهُ وينفـعُ بـأسُـهُ

وقال :

يـومُ الكسـوفِ جـلا على بصري — قـمـراً أحـار الجـنَّ والانـسـا
قـامتْ فـأرخـتْ من ذوائبهـا — وتجللتْ من شعـرهـا لـبسـا
فسـألتـهـا لمَ قـد لبستِ دجىً — قـالت أسـاعـدُ أُختيَ الـشمسـا

وقال :

لمثـلِ ذا اليـومِ يـا مـعـذّبتي — كـانت تُـرَجِّيـكِ أختُـكِ الشمسُ
قـومي اخلفيها في ذا الكسوف ففي — وجهـكِ إن أوحشتْ [لهـا أنس]
وغـالطي حـاسبَ النجومِ فـإن — لحـتِ وغـابـتْ أصـابـه لَـبْسُ

وقال مفتخراً :

قـارعـت الأيـامُ مني امـرءاً — قـد أعلق المجـدَ بـأمـراسِـهِ(1)
تُـسْـتَـنْـزَلُ الـنـجـدةُ من رأيـه — وَيُسْتَـدَرُّ العـزُّ من بـأسـه(2)
أرْوَعَ لا ينحطُّ عن تيـهـهِ — والسيفُ مسلولٌ على راسـه(3)

وقال في غلام مَلّاح :

وَمُصْعِـدٍ سُفْنُـهُ قـلبي ومنحـدرٍ — بـالماءِ والريح من دمعي وأنفـاسي
إذا انحنى حثَّ قلبي نحـوه طـربـاً — أو مـدَّ مـدَّ إليـه أعـينَ النـاس
وافتْ مَـلاحتُـهُ فيهـا مِـلاحَتَـهُ — فـأفتنَ النـاسَ في قَلْسٍ ومقـلاس
لأشـكـونَّ إلى سُكَّـانـه وإلى — خَنّيه إن خان عهـدي قَلْبُهُ القـاسي

وقال :

ومـا ظبيـةٌ أدمـاءُ تحنو على طـلا — ترى الإنسَ وحشاً وهي تأنسُ بالوحشِ
غَـدَتْ فارتعتْ ثم انثنت لِـرَضَاعِهِ — فلم تلقَ(4) شيئاً من قوائمه الحُمْشِ
فطافت بذاك القاعِ وَلْهَى فصادفتْ — سبـاعَ الفـلا يَنْهَشْنَـهُ أيمـا نهش
بـأوجعَ مني يـوم ظلَّتْ أنـامـلٌ — تُـوَدِّعني بـالـدرِّ من شبك النقش
وأجمالُهُمْ تُحْدَى وقـد خيَّل الهوى — كـأنَّ مطايـاهم على نـاظري تمشي
وأعجبُ ما في الأمرِ أنْ عشتُ بعدهم — على أنهم ما خلَّفوا فيَّ من بطش(5)

---

(1) الذخيرة : تمرست مني العلا بامرىء ؛ الذخيرة والمعاهد : قد علق المجد .
(2) الدمية والمعاهد والوافي : يستنزل الرزق باقدامه ؛ الذخيرة . يستنجد النجدة من رأيه ، ويستقل الكثر .
(3) الذخيرة : لا يرجع ؛ هامش أدب الخواص : عن كبره .
(4) ابن الأثير وبغية الطلب : تلف .
(5) جاء في مرآة الزمان بعد هذه الأبيات :
أيـا وطـني إن فـاتني بـك فـائـت — من الـدهـر فلينعم لسـاكنـك البـال

وقال :

خفِ اللّهَ واستدفع سُطَاهُ وَسُخْطَهُ ... وسائله فيما تسألُ الله تُعْطَهُ
فما تقبضُ الأيامُ في نيلِ حاجةٍ ... بنانَ فتىً أبدى إلى الله بسطه
وكنْ بالذي قد خطَّ باللوحِ راضياً ... فلا مَهْرَبٌ مما قضاهُ وخطّه
وإنّ مع الرزقِ اشتراطَ التماسِهِ ... وقد يتعدّى إن تعديتَ شَرْطَه
ولو شاء ألقى في فمِ الطيرِ قوتَهُ ... ولكنَّه أَوْحَى إلى الطيرِ لقطه
إذا ما احتملت العبءَ فانظر قبيل أن ... تنوء به ألا ترومَ تَحَطُّه
وأفضلُ أخلاقِ الفتى العلمُ والحجى ... إذا ما صروفُ الدهرِ أخلقن بِرْطَه(١)
فما رفعَ الدهرُ امرءاً عن محلّه ... بغيرِ التقى والعلمِ إلا وَحَطُّه

وقال :

نَمْ عن معاداةِ الرجا ... لِ فإنما حَسْبُكَ المضاجعْ
وإذا أُذِيتَ فحامِ عن ... دِ الضَّيْمِ مجتهداً ومانِعْ

وقال :

ولقد يميلُ بناظري عن مسجدٍ ... غُصُنٌ من الرمانِ أَكْمَلَ يُنْعَهُ
مُتَبَرِّجٌ نهداه يكتُمُ حسنه ... خفراً فطبعهما يخالفُ طَبْعَهُ
أبداً يشقُّ صدارَهُ بنهودِهِ ... ولو انني صيّرتُ درعي دِرْعَهُ

وقال :

أرى الناسَ في الدنيا كراعٍ تنكَّرتْ ... مراعيه حتى ليس فيهنّ مرتعُ
فماءٌ بلا مرعىً ومرعىً بغيرِ ما ... وحيثُ ترى ماءً ومرعىً فَمَسْبَعُ

وقال :

ولو سلوت لنفسي عن طِلابِ غنىً ... لما سلوتُ لأتباعي وأشياعي
من كلِ سامٍ بعينيه يؤمّلني ... تأميلَ ضرّارِ أعداءٍ ونفّاعِ
ولو جنيتُ لأعواني سلامتهم ... حتى يراني رحباً بالندى باعي

وقال في بابلّا :

حنَّ قلبي إلى معالم بابـ ... ـلاّ حنينَ المولّهِ المشغوفِ
مطلبُ اللهوِ والهوى وكناسُ الـ ... ـخرّدِ العينِ والظباءِ الهيفِ
حيث شطّا قويقَ مَسْرَحُ طرفي ... والأسامي مؤانسي وأليفي
ليس مَنْ لم يَسِلْ حنيناً إلى الأو ... طانِ إن شطّتِ النوى بظريف
ذاك من شيمةِ الكرامِ ومن عهـ ... ـدِ الوفاءِ المحبّبِ الموصوف

وقال(*) :

تبدّلَ من مرقّعةٍ ونسكٍ ... بأنواعِ الممسّكِ والشفوفِ
وعنَّ له غزالٌ ليس يحوي ... هواه ولا رضاه بلبس صوفِ(٢)
فعاد أشدَّ ما كان انهتاكاً ... كذاك الدهرُ مختلفُ الصروفِ

وقال :

كأنّ قلبي إذا عنَّ ادّكاركمُ ... ظلُّ اللواءِ عليه الريحُ تخترقُ

فإن أستطع في الحشر آتك زائراً ... وهيهات لي يوم القيامة أشغال
وقد نسبا له سهواً ، وهما لأبي العلاء المعري .

(١) ابن عساكر : أنهجن .

(*) قال الشريشي : وكان أبو القاسم قد نسك زماناً ولبس الصوف وترهب وحج ، فعشق غلاماً تركياً وهام به ، وتقلد الوزارة ببغداد وغيرها ، وانتهى في الجاه إلى الغاية ، وتملك الأحرار ، واشترى الغلام التركي فقال : تبدّل . . . الأبيات .

(٢) المسبحي : رضاه ولا هواه .

وقال :

غزالٌ حبُّهُ للصبرِ غربٌ ... ولكنْ وجهه للحسنِ شَرْقُ
رددتُ وقد تبسّم عنه طرفي ... وقلتُ له تَرَى لي فيك رزق
سأرجو الوصلَ لا أني جديرٌ ... ولا قدري لقدرك فيه وَفْقُ
ولكنْ لستُ أوّلَ من تمنّى ... من الدنيا الذي لا يستحق

وقال وقد اجتاز بهيت وزار قبر عبد الله بن المبارك :

مررتُ بقبرِ ابنِ المبارك زائراً ... فأوسعني وعظاً وليس بناطقِ
وقد كنتُ بالعلم الذي في جوانحي ... غنياً وبالشيبِ الذي في مفارقي
ولكنْ أرى الذكرى تُنَبِّهُ عِبْرَةً ... إذا هي جاءتْ من رجالِ الحقائقِ

وكتب إلى إلف له كانت بينه وبينه مخالفة على مذهب التصوّف :

يا مَنْ لقلبِ هائمٍ لم يستطعْ ... ذِكْرَ اسم مَنْ يهواهُ من إشفاقِه
ولعاشقٍ غلبتْ عليه خَجْلَةٌ ... فكأنه المعشوقُ في إطراقِه
يَنْهَى عن البثِّ المريحِ لسانَهُ ... فيموتُ مطويّاً على أشواقِه
سمعَ الغناءَ فردَّ سَيْلَ دموعِهِ ... من بعدِ ما ذابتْ على آماقِه
عبثٌ من الأشواقِ لو هُزَّتْ به ... أعطافُ غُصْنٍ سُلَّ من أوراقِه
كَتَمَ الهوى من بعد ما نَمَّتْ به ... ريّا كنشرِ الروضِ من أخلاقِه
ولدى الهوى العذريّ طيبُ شمائلٍ ... ما مثلها يَخْفَى على ذواقِه
وأرى اللقاءَ مع الحياءِ مقابلاً ... مني ومنه مثلَ بعدِ فراقِه
أو يجمع الشوقُ المبرّحُ طالباً ... ما بين مركزِ دُمْلُجَيْهِ وساقِه

وقال(٣) :

قطعتُ الأرضَ في شَهْرَيْ ربيعٍ ... إلى مصرٍ وعدتُ إلى العراقِ
فقال ليَ الحبيبُ وقد رآني ... سَبُوقاً للمضمّرةِ العتاقِ
ركبتَ على البراقِ فقلتُ كلّا ... ولكني ركبتُ على اشتياقي

وقال :

ويح روحي من ذا يدلّ عليها ... مهجتي يوم روّعت بالفراق
فاطلبوها بحيث كنا افترقنا ... فلعلي نسيتها في العناق

وقال (٤):

الله يعلمُ أنني ... التذُّ فيكمْ باشتياقي
وأكادُ من أنسِ التذكـ ... ـرِ لا أذُمُّ يدَ الفراق
وأغضُّ طرفي بعدما ... مَلأتْهُ غزلانُ العراق
وأفرُّ من خَجَلِ العتا ... بِ إلى مخالطةِ العناق

وقال :

طيفٌ ألمَّ ثنى عزيمَ النُّسْكِ ... وجلا صوابَ الحبِّ بعد تَشَكُّكِ
أكْرِمْ به يجفو وحشوُ وسائدي ... وردٌ ويعطفُ إذ وسادي مَوْرِكي
عجبتْ أنيسةُ بَيْتِنا إذ أبصرتْ ... طغيانَ جودٍ للثناءِ مُمَلِّكِ
قالتْ فهبك بمصرَ كنتَ مغازلاً ... وجهاً من الدنيا أنيقَ المضحكِ

(٣) ورد قبل الأبيات الثلاثة في طبعة التونجي من الدمية (١ : ١١٨) بيت هو :
ألا حييت يا يوم التلاقي ... ولا حييت يا يوم الفراق

(٤) ارتجلها عندما أنشده صاحب البدائع قول شداد بن إبراهيم المعروف بالظاهر :
يا منكراً شغفي به ... ومكذباً طول اشتياقي

فالآن قد أصبحتَ جارَ أباعرٍ   حُدْباً شوائلها خفاف المبرك
قلتُ ازْبعِي فضمينُ رزقي واحدٌ   في يوم إقتارٍ ويوم تملُّك
فلهامتي بالأريحيةِ سَكْرَةٌ   تهتزُّ بي في ثروةٍ وتصعلُكِ

وقال :

أوحى لوجنته العذارُ فما   أبقى على ورعي ولا نُسُكي
وكأن نملاً قد دَبَبْنَ بها   غُمِسَتْ أكارِعُهُنَّ في مسك

وقال :

يا أهل مصرٍ قد عاد ناسككُمْ   بالكرخ بعد التقى إلى الفتكِ
جَمَّشَ قلبي مُقَرْطَقٌ غَنِجٌ   بدا لقلبي فيه من النسك
رمى فؤادي بسهم مُقْلَتِهِ   وكيف يُخْطي مولَّدُ الترك

ومن أحسن ما وقع إليّ في وصفها (أي المعرة) أبيات قالها الوزير أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن المغربي :

ما على ساكني المعرةِ لو   أنّ دياراً نبتْ بهمْ أو طلولا
يسكنون العُلا معاقلَ شُمّاً   ويرون الآدابَ ظلّاً ظليلا
منزلٌ شاقني أنيسٌ وما كا   ن رسوماً نواحلاً وطلولا
حيثُ يُدْعى النسيمُ فظّاً وَيُلْفى   سَبَلُ الغادياتِ شكساً بخيلا
أينما تلتفتْ تجدْ ظلَّ طوبى   وتجدْ كوثراً أغرَّ صقيلا
تربها طيِّبَ الشبابَ فما يَصْحَبُ إلا السرورَ فيها خليلا
فترى اللهوَ إن أردتَ طليقاً   والتقى إن أردته مغلولا
وإذا ما اعترى بها الأدبُ العذ   ريُّ جاءوا عمارةً وقبيلا
ليتَ لا يعنفُ السحابُ عليها   ليته جادها عليلاً كليلا
وسلامٌ على بنيها ولا زا   ل نعيمُ الحياةِ فيهم نزيلا

وقال في الإمام عليّ (عليه السّلام) :

أيا غامضين المزايا الجليلَهْ   من المرتضى والسجايا الجميلَهْ
ويا غامضين عن الواضحاتِ   كأنّ العيونَ لديها كليله
إذا كان لا يعرفُ الفاضلين   إلا شبيههمُ في الفضيله
فمن أين للأمةِ الإختيارُ   عفاً لعقولكمُ المستحيله
عرفنا عليّاً بطيبِ النجارِ   وَفَضْلِ الخطابِ وَحُسْنِ المَخيلَه
تطَّلع كالشمس رأدَ الضحى   بفضلٍ عميمٍ وأيدٍ جزيله
فكان المقدَّمَ بعد النبيِّ   على كل نفسٍ بكلِّ قبيله

وقال :

يا ابنَ الذي بلسانِهِ وبيانِهِ   هُدِيَ الأنامُ وَنُزِّلَ التنزيلُ
عن فضله نطق الكتابُ وَبَشَّرَتْ   بقدومِهِ التوراةُ والإنجيلُ
لولا انقطاعُ الوحي بعدَ محمدٍ   قلنا محمدٌ من أبيه بديلُ
هو مثلُهُ في الفضلِ إلا أنه   لم يأتِهِ برسالةٍ جبريلُ

وقال :

بعدوا فلا مستخبرٌ عن حالهم   غيري ولا مستخبَرٌ مسؤولُ
لم يبقَ غيرُ العذلِ من أسبابهم   فأحبُّ من يدنو إليَّ عذولُ
الليلُ عندي والنهارُ كأدْهَمٍ   لا غُرَّةٌ فيه ولا تحجيلُ

وقال :

ترنَّمَ جاري والمدامُ تهزُّه   ترنُّمَ قمريٍّ بفرعةِ ضالِ
فجاوبتُهُ من زفرتي بمغرِّدٍ   وناويته من أدمعي بسجال
وقلتُ له يا جارُ هل أنتَ آمنٌ   تفرُّقَ أحبابٍ وحربَ ليال
يَهيجُ ليَ الذكرى هزاجُكَ كلّما   هزجتَ فَيَشْقى في نعيمك بالي
لئن جمعتْ بيني وبينكَ حليتي   لقد فرَّقتْ بيني وبينك حالي
تذكرتُ دارَ الحيِّ إذ أنا باسطٌ   ظلالي ومجموعٌ لديَّ رجالي
وإذ أنا بين الناس منزعُ آملٍ   لبثِّ نوالٍ أو بناءِ معالي
لعمري لقد أسهلتُ في الأرض بعدما   تزحزحَ عن ريب الزمانِ جبالي

وقال :

أدرْ كاسَ المدامِ فإنَّ قلبي   أتيحَ له عن التقوى ارتحالُ
حللتُ ببابلٍ وأردت ألّا   أهيمَ بسحرهمْ ، هذا محالُ(1)

وله من قصيدة في حسان بن مفرج الطائي :

فإني أتيتُ ابنَ الكريمِ مُفَرِّجٍ   فأطلق من أسرِ الهمومِ عقالي

وقال :

وأعتسفُ الخصمَ الألدَّ بمنطقي   فيبلغُ ما لا يبلغُ الحقُّ باطلي
بحيث جفاني الأقربون وكلُّهُمْ   شهيدٌ وأضحى ناصري مثلَ خاذلي
لدى مَلِكٍ يكمي لخصميَ نُصْرةً   وأعيا عليه خَتْلُ ثبتٍ مُماحِلِ
إذا انصلتتْ آراؤه سَهْمَ حجةٍ   تمهَّلَ أو يرمي به في المقاتلِ
فلا عند إكثاب الرميَّةِ صامتٌ   ولا في ضجاجِ اللغوِ أولُ قائلِ

وقال مادحاً :

حتى إذا ما أراد الله يُسعدني   رأيتُهُ فرأيتُ الناسَ في رجلِ

وقال :

كساني الهجرُ ثوباً من   نحولٍ مُسْبَلِ الذَّيْلِ(2)
وما يعلمُ ما أُخفي   من الدمعِ سوى ليلي(3)
وقد أرجفَ بالبين   فإنْ صحَّ فوا ويلي

وأوصى أن يحمل إلى مشهد الحسين بن علي (عليه السّلام) ويدفن تحت رجلي الحسين وأن يكتب عند رأسه هذان البيتان ، وهما له :

سقى الإله الأزلي   من السحاب الهطل
قبر الحسين بن علي   عند الحسين بن علي

وقال :

ولي جارةٌ لا يُلِمُّ الكَرَى   بأجفانها الدُّعْجِ فيما يُلِمْ
تردُّ فضولَ أحاديثِها   إلى ضَحِكٍ لم يُعَوِّقْهُ هم
وآوي بوجدي إلى زفرةٍ   تكادُ تبلُّ لهاتي بدم
فيا جارتي بُعْدَ ما بيننا   وما كان بيتُكِ منّي أَمَمْ
فأقسم لو في يدي مهجتي   لأعفيتُها من مِطالِ الألم
ولكنّها في يديْ مالكٍ   إليه الشفاءُ ومنه السقم
هو المحسنُ البَرُّ في ما قضاهُ   والحاكمُ العدلُ في ما حكم
وإني وإن حجبتني الذنوبُ   فمني السؤالُ ومنه الكرم

---

(1) المسبحي : وطمعت ألا .
(2) الوافي : كساني الحب .
(3) المسبحي : وما يعلم إلا الدمع ما أحببت من ليلي (اقرأ : ما أخفيت في ليلي) .

وقال مادحاً :

ويعدلُ في شرقِ البلادِ وغربها … على أنه للسيفِ والمالِ ظالمُ

وكتب إلى الحاكم يقول ـ بعد أن قتل الحاكم أباه علياً وعمه محمداً :

وأنت، وحسبي أنت، تعلم أنَّ لي … لساناً وراءَ المجدِ يبني ويهدمُ(١)
وليس حليماً من تُقبَّلُ كفُّه … فيرضى ولكنْ من تَعَضُّ فيحلم(٢)

وقال في سوداء :

يا ربَّ سوداءَ تَيَّمَتْني … يَحْسُنُ في مثلها الغرامُ
كالليلِ تُستَشهَلُ المعاصي … فيه وَيُسْتَعْذَبُ الحرام

وقال في التوبة :

كنتُ في سَفْرَةِ البطالةِ والغيـ … ـي زماناً فحان مني قدومُ(٣)
تبتُ عن كلِّ مأثمٍ فعسى يُمْـ … ـحَى بهذا الحديثِ ذاك القديم
بعد خمسٍ وأربعين لقد ما … طلتُ إلا أنَّ الغريمَ كريم(٤)

وقال يرثي أباه وعمه وأخاه :

تركتُ على رغمي كراماً أعزَّةً … بقلبي وإن كانوا بسفحِ المقطَّمِ
أراقوا دماهم ظالمين وقد دَرَوْا … وما قتلوا غيرَ العلا والتكرم
فكم تركوا محرابَ آيٍ معطَّلاً … وكم تركوا من ختمةٍ لم تُتَمَّمِ

وقال في مقتل أبيه وإخوته :

إذا كنتَ مشتاقاً إلى الطفِّ تائقاً … إلى كربلا فانظرْ عراصَ المقطَّمِ
تجدْ من رجالِ المغربيِّ عصابةً … مضرَّجةَ الأوداجِ تقطرُ بالدم(٥)
فكم خلَّفوا محرابَ آيٍ معطَّلاً … وكم تركوا من ختمةٍ لم تتمَّمِ

وقال :

ولقد بلوتُ الدهرَ أعجمُ صَرْفَهُ … فأطاعَ لي عصيانُهُ وَلَيانُهُ
ووجدتُ عقلَ المرءِ قيمةَ نفسِهِ … وبجدِّهِ جدواهُ أو حرمانُه
فإذا جفاه المجدُ عِيبتْ نفسُهُ … وإذا جفاه الجدُّ عِيبَ زمانُه

وقال :

لي كلَّما ابتسمَ النهارُ تعلَّةٌ … بمحدِّثٍ ما شانُ قلبي شانُهُ
فإذا الدجى وافَى وأقبلَ جُنْحُهُ … فهناك يدري الهمُّ أينَ مكانُهُ

كان بين سليمان بن فهد وبين أبي القاسم المغربي عداوة ، وقتل سليمان نفسه في نكبة ومصادرة طلب بها فقال المغربي يرثيه(٦) :

يا ابنَ الكرامِ أرى الغما … مَ تمرُّ بي ولها حنينُ
وَلْهَى فتلتدمُ الرعو … دُ لها وتسودُّ الدجون
أترى لها بالمَوْصِلِ الـ … ـغراءِ مفقودٌ دفين
قَبْرٌ جفاهُ الأقربو … نَ وباعَ خُلَّتَهُ القرين
عجباً له ضمُّ البلا … غةَ وهو أخرسُ ما يُبين
نَصَرَ المنونَ ولو يشا … ءُ لما تجاسرتِ المنون
وتحكَّمتْ فيه يميـ … ـنٌ لا يجاريها يمين
لو غيرُ كفِّكَ ساوَرَتْـ … ـكَ لردَّها كيدٌ زَبُون
وعزائمٌ يعيا اللبيـ … ـبُ بها أعقلٌ أم جنون
وهواجسٌ كانت طلا … ئِعَها على الغيبِ الظنون
تبكي عليكَ ولو تعيـ … ـشُ إذن بكت منك العيون

ثم أثارته العداوة فقال :

إيهاً سليمانُ بنَ فهـ … ـدٍ والحديثُ له شجونُ
أفمالكٌ لكَ مالكٌ … أم أنت موقوفٌ رهين
أم أنت منتظرٌ فأنـ … ـتَ لنارِهِ نعمَ الزبون

وقال في أول ليلة في القبر :

إني أبثُّكَ من حديـ … ـثي والحديثُ له شجونُ
فارقتُ موضعَ مرقدي … ليلاً ففارقني السكونُ(٧)
قلْ لي فأوَّلَ ليلةٍ … في القبرِ كيف تُرَى أكونُ(٨)

وقال في قلة الأصدقاء :

أَنِسْتُ بوحدتي حتى لو آنّي … رأيتُ الإنسَ لاستوحشتُ منه
ولم تدعِ التجاربُ لي صديقاً … أميلُ إليه إلا مِلْتُ عنه
وما ظفرتْ يدي بصديقِ صدقٍ … أخافُ عليه إلاّ خفتُ منه

وقال :

لو كنتُ أعرفُ فوقَ الشكرِ منزلةً … أعلى من الشكرِ عند الله في الثمنِ
إذاً منحتكها مني مُهَذَّبَةً … حذواً على حَذْوِ ما واليتَ من حَسَنِ

ومما وجدَ بخطّه وكان شديدَ العصبية للأنصار ولقحطان قاطبة على عدنان ، وكان ينتمي إلى الأزد ـ أزد شنوءة :

إنَّ الذي أرسى دعائمَ أحمدٍ … وعلا بدعوته على كيوانِ
أبناءُ قيلةَ وارثو شَرَفِ العلا … وعراعرُ الأقيالِ من قحطان
بسيوفهم يومَ الوغى وأكفِّهم … ضُرِبَتْ مصاعبُ مُلْكِهِ بجران(٩)
لولا مصارعهم وصدقُ قِراعِهِمْ … خرَّتْ عروشُ الدينِ للأذقان

وقال في الصديق ذي الوجهين :

أيّ شيءٍ يكونُ أقبحَ مرأىً … من صديقٍ يكونُ ذا وجهين

(١) البغية (٢٥) : أمام المجد .
(٢) البغية (٢٥) : من تباس يمينه .
(٣) ياقوت وابن خلكان والوافي والداودي : كنت في سفرة الغواية والجهل مقيماً ؛ المنتظم : البطالة والجهل .
(٤) الذخيرة والبداية : بعد سبع ؛ ورام : لولا أن .
(٥) ياقوت : مضرجة الأوساط والصدر .
(٦) قد تقدم الحديث عن سليمان بن فهد وكيف طالبه قرواش بالمال ، وفي إحدى الروايات أنه مات تحت الضرب ، وفي أخرى أنه هرب إلى نصر الدولة ثم أصلح حاله مع قرواش ولم يكن فيما أخبرت به الروايات عدواً للوزير أبي القاسم .

(٧) ابن عساكر والمرآة والمستطرف : غيرت ؛ طراز وابن عساكر والمرآة والتتمة : فنافرني السكون ؛ المستطرف : يوماً ؛ البغية : موضع موطني .
(٨) المستطرف : في حفرتي أني أكون .
(٩) المصعب : الفحل من الجمال يعفى من الركوب ؛ وضرب البعير بجرانه : برك .

من ورائي يكونُ مثلَ عدوّي وإذا يلقني يقبّلُ عيني

وقال :

ديونُ المكارمِ لا تُقتضى كما تقتضى واجباتُ الديونِ
ولكنها في صدورِ الكرامِ تجولُ مجالَ القذى في العيونِ

وقال :

صلّى عليكَ الله يا مَنْ دنا من قابِ قوسين مقامَ النبيهْ
أخوكَ قد خولفتَ فيه كما خولفَ في هارونَ موسى أخيه
هل برسولِ الله في أسوةٍ لم يقتدِ القومُ بما سنَّ فيه

وقال في الخمر :

كأسُ مُدامٍ صددتُ عنها لله ، والنفسُ تشتهيها
قال عليٌّ وكان عدلاً قد طُبِخَتْ قلتُ فاسقنيها
فالآن إذ عُذِّبَتْ قليلاً فَدَتْ من النارِ شاربيها

وقال :

وكل امرئٍ يدري مواقعَ رُشْدِهِ ولكنه أعمى أسيرُ هواهُ
هوى نفسِهِ يعميهِ عن قُبْحِ عيبه وينظرُ عن حِذْقٍ عيوبَ سواه

وقال :

ولاعبٍ بالهوى يؤمِّلُ أن يُظْهِرَ لي جفوةً وأهواه
قلتُ لقلبي وقد تتبّعَهُ يا قلبُ إما أنا وإما هُوْ

وله من مرثية في صهره الشريف أبي الحسن :

يا ناعيَ الدينِ والدنيا أشِدْ بهما من حيثُ سالَ بآلِ الله واديهِ
هذي معالي قريشٍ غاض آخرها ومجدُ هاشمَ زار التربَ باقيه
قل يا أبا حسنٍ والقولُ ذو سعةٍ لولا حجابٌ من الثرياءِ يثنيه
أآخرُ الدهرِ أم تحيى عواطفه وفيصلُ البينِ أم يُرْجَى تلافيه
كلا لقد فات منك الوصلُ آملَهُ مذ شيّد الجدثَ المأمولَ بانيه
هنّيت ربعاً برغم المجدِ تسكنُهُ تلقى أباك علياً في مغانيه
إنْ أخْلُ بعدك بالدنيا أروِّضها فقد خلا بضميرِ النبعِ باريه
هل كنتَ تعلمُ إذ عوّدتني أبداً حُسْنَ التصبرِ أني فيك أفنيه

وقال :

عجباً لقلبي وهو نارٌ كيف لا يؤذيكَ مع طولِ الإقامةِ فيهِ

وله في دولاب :

عَبْدُكَ يا عبدونُ في نعمةٍ صافيةٍ أذيالُها ضافيَهْ
نديمتي جاريةٌ ساقيةْ ونزهتي ساقيةٌ جاريةْ

وقال :

صيّرني حبُّكَ يا غزالَ أهلِ الجابيةْ
أبا نواسٍ بعد ما كنتُ أبا العتاهيةْ

وقال متغزلاً :

عُلِّمت منطقَ حاجبيهِ والبينُ ينشرُ رايتيهِ

وعرفتُ آلاتِ النعيمِ بقبلةٍ في عارضيه[١]
فكأنَّه في الموجِ قلبي بين أشواقٍ إليه[٢]
ولقد أراهُ في الخليجِ يشقُّهُ من جانبيه[٣]
والماءُ مثلُ السيفِ وهو فِرِنْدُهُ في صفحتيه[٤]
لا تشربوا من مائِهِ أبداً ولا تَرِدُوا عليه
قد ذاب فيه الحسنُ من حَرَكَاتِهِ أو مقلتيه[٥]
والسلمُ أسلمُ فاحذروا من فَتْرَةٍ في ناظريه
صبغتْ بياضَ النيلِ حمـ ـرة وردةٍ في وجنتيه[٦]
ها قد رضيتُ من الحيـ ـاةِ بنظرةٍ مني إليه[٧]

رسالة له في الردّ على من تحداه
في معاني بعض الألفاظ الغريبة[٨]

قال ابن بسام : لما دخل البطيحةَ وبها أبو القاسم هبةُ اللّهِ بن عيسى[٩] [وزير] مهذّبِ الدولة ، وكان من أفاضل أهلِ وقتِهِ ، فدخل إلى ابنِ المغربيّ رجلٌ يُعْرَفُ بسليمانَ بن الربيع ، وسلّم إليه قصيدةً قد بُنِيَتْ على السؤالِ عن ألفاظٍ من اللغة على جهةِ الامتحان لمعرفته ، فلما وقف عليها امتعضَ في الحال ، وأحفظه ما لقيَ من التعدّي والسؤال ، ونَسَبَ ذلك إلى فعل أبي القاسم وزير مهذّب الدولة البطيحيّ ، فكتب عَقِبَ الوقوف[١٠] على ذلك لوقته جواباً أثبتُ بعضَ فصوله ، لطوله ، بعدَ هذه الأبياتِ المذكورة :

يا أفضلَ الأدباء قو لاً لا تعارضُهُ الشكوكْ
لا العلمُ ناءٍ من حجا ك إذا نطقتَ ولا فَرُوكْ
عرضتْ مسائلُ أنت لـلـ ـفتوى بمشكلها دَرُوكْ
ما الحيُّ والحيّوتُ أم ما جِلّبحُ نِضْوٌ بَرُوكْ
أمْ ما ترى في بِرْقِعٍ رقشاءَ مجهدها حبيكْ
أم ما الصِّرَنْقَحُ والزّري ـرُ وما الملمّعةُ النّهوكْ
ولك الدرايةُ والبصيـ ـيرةُ في مداحيها السّهوكْ
وأبنْ لنا ما خمطُ أبداً بأمرغةٍ معيكْ
أو ما اعتنانةُ فَرْهَدٍ فيه الملامةُ لا تحيكْ
أم ما ترفُلُ [هَبْرَجٍ] ترتبُ بِرْسَنَهُ هلوكْ
ولربَّ ألفاظٍ أتتـ ـك وفي مطاويها حلوكْ
فارفقْ بنشرك طيَّها وانظر بذوقك ما تلوكْ
هذا وقد لَذِمَتْ فُوا دي خِرْمِلٌ هِرْطٌ ضحوكْ
دعكنّةٌ نظرنّةٌ في خِيْسِ غانظها شكوكْ
تغدو وخرفعها المذيّـ ـلُ في طوائفِهِ سُدُوكْ
وأراكَ ما لك مشبهٌ في ما علمتَ ولا شريكْ

(١) الريحانة : أسباب النعيم .
(٢) الريحانة : في الماء .
(٣) الشريشي : في الغدير
(٤) الدمية والوافي : والنهر مثل السيف .
(٥) الدمية والوافي : قد دب فيه السحر من أجفانه ؛ الريحانة : ذاب فيه السحر .
(٦) الريحانة : بياض الماء صبغة حمرة .
(٧) الريحانة : إني رضيت . . . بأسرها نظري إليه .
(٨) الذخيرة لابن بسام ٤ : ٤٧٩ - ٤٩٦ .
(٩) ذكر ابن الأثير (٩ : ٢٥٢) أنه توفي سنة ٤٠٦ وقال فيه « كان من الكتاب المفلقين ، ومكاتباته مشهورة . وكان ممدحاً ، وممن مدحه ابن الحجاج » .
(١٠) ص : عقب الدولة .

حـقـاً لـقـد حُـزْتَ الـعـلـو   مَ حـيـازةَ الـعـلـم الضريـك

فأجابـه ابنُ المغربيّ بـرقْعةٍ قـال فيها : وقفتُ عـلى ما ذكـرت أنّ بعض أهلِ الأدب كلّفكَ المسألةَ عن شعـرٍ وجدتـهُ ، لا أحبُّ أن أقولَ في صنـاعته شيئاً ، مشتملاً على ألفاظٍ من حوشيّ اللغةِ لا يَتَشاغلُ بمثلها أهلُ التحصيل ، ولا يتوفَّرُ على تأمّلها إلاّ كلُّ ذي تأمُّلٍ عليل ، لخروجها عما ينفعُ في الأديان ، ويعتـرضُ في القرآن ، ولمباينتهـا مـا يجري في المذاكـرة ، وتُستخـدم فيـه المحاورة . وزاد في عجبي منها صَدَرُها عن البطيحةِ وفيها الأستاذ(١) الفـاضلُ هبةُ الله بحرُ الأدبِ الـذي عَذُبَتْ مـواردُهُ ومصادرُهُ ، وريُّ العقـول الظماء ، وطبُّ الجهلِ المستغمر الداء(٢) ، والبابُ الذي يفتحُ عن الدهر تجربةً وعلماً ، والمرآةُ التي تُتَصَفَّحُ بها أوجُهُ الأيام إحاطةً وفهماً .

وفي فصـل : فإن كـانَ العرضُ في هـذه الأبياتِ الخـرابِ ، المقفرةِ من الصواب ، طلبَ الفائدةِ ، فقد كان يجبُ أن يُناخَ عليه بمُقْفلها ، ويُقْصَدَ إليه بمُعْضلها ، فعندهُ مفتاحُ كلِّ مسألةٍ مُقْفَلة ، ومصباحُ كلِّ داجيةٍ مُشْكِلَه ؛ بل لستُ أشُكُّ أنَّ هذا السائلَ لو جاوره صامتاً عن استخباره ، وعكفَ على ذلك الجَنَـابِ كأنَّمـا لجأ في طيِّ إضمـاره ، لأعـداهُ رقـةُ نسيمِ أرضـه ، وهـذَّب(٣) خـاطرَهُ التقـاطُ لفظه ، حتى يغنيَـهُ الجوارُ عن الحِـوار ، والاقترابُ عن رَجْـع الجـواب ، وإن كـان قصـدَ الامتحـانَ للمسؤول ، وتعـرُّض لهـذا المـوقفِ الزُّحُول ، فـذلك أعجبُ : كيف لم يتـأدَّبْ بآدابـه الصـالحـة ، ويَعْتشي إلى هدايتِهِ الواضحة .

وفي فصل : وكيف لم يعلمْ هذا العِرِّيضُ المكلَّف ـ بما أُعطِيَ من سعاده مكـاثَرَتِـهِ ، وسيق(٤) إليه من بَـرَكـة صحبتـه ـ أن هـذا التعـريض كـما قـال المخزوميّ لعبد الملك بن مـروان وقد(٥) لقيـه في طريق الحجـاز : بئستْ تحيةُ الغريبِ من القاطنين ، ولؤُمَتْ هديّـةُ الوافـدِ من المقيمين ، وقـد كـان حقُّ الغريب بينكم أن يكثرَ قليلُهُ ، ويُسَـدَّ ذريعه ، ويُعـارَ من معالي الصفـاتِ ما يُؤْنِس غُرْبَتَه ، ويصدِّقُ مخيلَتَهُ . وعلى أنَّه لو كان قد احتبى للجدال ، وركبَ للنزال ، لما كان في غروب(٦) كلماتٍ من حوشيّ اللغةِ عن ذكره ، ما يدلُّ على قِصَرِ باعه ، وقلّةِ اطلاعه ، ويا عجباً للفراغ كيف يسوّغ لهذا المغترّ أن يجاريَ بخلوّ ذَرْعِهِ تَقَسُّمَ أفكاري ، وكيف أنساهُ اجتماعُ شمله بُعْدَ دياري ، وكيف أذهلَهُ حضـورُ أحبّته عن مغيبِ أفـلاذِ كبدي ، وكيف طـرفت نواظـرَهُ سكرةُ الحظِّ عن تصـوّر ما يُجِنُّ خلدي ، وكيف لم يـدر مـا لي من الحـاظٍ مُقَسَّمـة ، وظنـونٍ مُرَجَّمـة ، وقد تكلّفتُ الإجـابةَ لمـا تَضَمَّنَتْهُ الأبيـاتُ انقيـاداً لمرادك ، ومقتصرَ الرأيِ على إسعادك ، أجرُّ أقلامي جرّاً وهنَّ نـواكل ، وأنبّـهُ قرائحي وهنَّ في غَمَراتِ الهموم ذواهل :

قال السائل : « إن المسؤولَ دَرُوكٌ لتلك الفتوى ، ومستحقٌ بهـا للرتبة العليا » وَدَرُوكٌ لا يجوز هنا لأنَّ فعولاً يكـونُ من أفعل ، ولـو جاز ذلـك لجاز « حَسُـون » من « أحسن » و « جَمُـول » من « أجمـل » . ومـا نحبُّ استيفـاءَ القولِ في هذا الزلل ، ولا نستفتحُ كلامنا بالمناقشة في السُّهْوِ والخَطَل ، ولعلَّ القـائـلَ أوهم حَمْـلاً عـلى قـراءةِ حَفْص ﴿ في الـدَّرْكِ الأسْفَـلِ مِنَ النَّـارِ ﴾ (النساء : ١٤٥) فظن أن الدَّرْك بوزنِ فَعْل ، وأنّ فَعْلاً مصدرُ فَعَلَ يفعل ، ولم يجعله من الـدَّرَك ، لأن الفتح عنـدهم لا يخفف ، لا يقـولـون في جَمَـل « جَمْـل » ، وذهب عنه أن يكـون إسماً مبنياً مثله وإن لم يكن مخففاً منـه كـما قالوا : « دِرَكَةٌ وَدِرْكَةٌ » في حَلْقَةِ الوتر التي تقع في فُرْضَةِ(٧) القوس ، فخففوا وحـرّكوا ، وعـلى أنهما لو كـانا مصـدرين لجاز أنْ يبنيـا على الشـذوذ ولا يحمل عليهما ما يُبْنَى من الفعل ، لأن الشذوذَ ليس بأصْلٍ يقاس عليه . ولعله اغـترَّ بقولهم : « درَاكِ » ـ بالشدِّ ـ وهو شاذٌ لأنهم قد [بنوا] أفعل من فعَّـل ، وهو قليل ، قالوا فطَّرته فأفطر ، وبشَّرْته فـأبْشَرَ ، فجاز عـلى هذا درّكتـه فأدْرَكَ ، قـال سيبـويـه : وهـذا النحـو قليـل في كـلامهم . ولعله ذهب إلى قـولهم : « دَرَاكِ » مثـل « نَزَالِ » فـظنَّ أنه يقـال منـه « دَرَكَ » كـما يقـال من « مَنَـاع » و « نَزَالِ » : مَنَعَ وَنَزَلَ . وذهب عنه [أنه] قد جاء الرباعي في هذا الباب ، قالوا : قـرقار وعـرعار ، في معنى قـرقر وعـرعر . فـأما الفـرق بين الـرباعي والثلاثي ، فسيبويه يرى إجازة « فَعالِ » في موضعِ فعلِ الأمر الثلاثيّ كله ، ويمنعه في الرباعيّ إلا مسموعاً ، وقال غيره من النحويين : بل هما ممنوعان إلا مسموعين ، واعتمـد سيبويـه في الفرق عـلى كثرةِ الثـلاثيّ ، وقلّةِ ما جـاء في الرباعي . أو لعله أصغى إلى قول الآخر(٨) :

إن يـكـشِـف الله قـنـاعَ الـشـكِّ   فـهـو أحـقُّ مـنـزلٍ بِـدَرْكِ

فـذهب إلى أن « دَرْكـاً » مصـدرٌ ، ولم يعتقـدْ أنـه كـما قـرأ حَفْصٌ بالاسكان . أو لعله عَلِقَ سمعه [قول] العتبي :

إذا قـلت أوفى أدركـتْـهُ دروكَـةٌ   فيـا مـوزعَ الخيراتِ بـالعُـذْرِ أقْصِرِ

وما أعرفُ له حجةً أقوى منه . أو لعله أراد بقـوله : دروك من الـدَّرْك مثل : لغوب ، وهي لغة تكلَّمتْ بها العرب .

ثم بـدأ السائـل فسأل عن « الحيّ » ، ولم أقِفْ عـلى صحّة سؤالـه لأني وجـدتُ الأبياتَ مكتـوبةً بخطٍّ عليـل ، وإن كان سـأل عن « الحِيّ » ـ بكسر الحاء ـ فقد أنشدَ أهلُ العلم قولَ العجاج(٩) :

وقـد نـرى إذ الحـيـاةُ حِـيُّ   وإذ زمـانُ الـنـاسِ دَغْـفَـلِيُّ

فقال الحِيُّ من الحياة ، والحُيُّ جمعُ حيّ ، وأما كـونُهُ عـلى معنى الحياةِ فوزنه على فِعْلٍ باختلاف .

قال ابن بسام : ومدَّ أبو القاسم في هذا الجـواب أطنابَ الإصنـاب ثم قـال : « والحيُوت » الحية وَزْنُهُ فَعْلوت ، والتاءُ فيه زائـدة ، وكثيراً مـا تُزَادُ خامسةً مثل عفريت ، وإنما هو عفريّ .

و « الجلبَّـحُ » العجـوزُ الكبيـرةُ ، وأنشـدوا : « إنّي لأقـلي الجلْبَـحَ العجوزا » و « بِرْقِعُ » : السماءُ الدنيا ، قال أمية بن أبي الصلت(١٠):

---

(١) ص : من الأستاذ ، ولعلها « مثل الأستاذ » .

(٢) ص : المستعمل اللاآء .

(٣) ص : وهذبت .

(٤) ص : وساق .

(٥) ص : ولقد .

(٦) ص : غروب

(٧) ص : فرص .

(٨) ورد في اللسان (درك) :

بـظفـر مـن حـاجـتي ودرك   فـذا أحـق مـنـزل بـترك

وفي التاج :

ان يـكـشـف الله قـنـاع الـشـك   بـظفـر مـن حـاجـتي ودرك

فـذا أحق منزل [بترك]

(٩) ديوان العجاج : ٤٨٦ واللسان والتاج (دغل) : والدغفلي من العيش : المخصب الواسع .

(١٠) ديوان أمية : ٣٥٨ واللسان (سدر) وتجيء قافية البيت أحياناً « أجرد » و « أجرب » وقال

وكـأنَّ بِـرْقِـعَ والمـلائـكُ حـولهـا ... سَـدِرٌ تَـوَاكَـلَهُ قـوائـمُ أربـعُ[(١)]

و « الصَّرَنْقَح » : الشديدُ الخالصُ ولا يكونُ فَعَنْلَل إلا وصفاً لا إسماً ، قال جِران العود[(٢)] :

ومـنهنّ غـلٌ مُـقْـمِـلٌ لا يـفـكُّـهُ ... من القومِ إلا الشُّحْشَحَانُ الصَّرنقحُ

و « الزَّرِيرُ » الـذكيُّ والمتحدِّر[(٣)] ، وكـان شيخنا أبـو أسامـة[(٤)] يخالفُ جميعَ اللغويين فيه ويقـول : هو الـزِّرِّير ، ومنـه اشتق اسم « زُرَارَة » ، وقولُ أبي أسامة أصحّ .

و « الملمعة » الفلاةُ التي يَلْمَعُ فيها الآل ، وفي مَثَـل : « أكْـذَبُ من يَلْمَع »[(٥)] وهو السراب ، ومنه الألمعيُّ ، كأنه يلمعُ العـواقب بدقـة فطنتـه ، وأما اللوذعيّ فهو الذي يتلذّعُ من شدة ذكائه : ويقال الُمعتِ الوحشيّةُ وغيرها إذا بان لِضرْعها سِقَالٌ وبريقٌ باللبن ، قال الأعشى[(٦)] :

مُـلْمِـعٌ لاعَـةُ الـفـؤادِ إلى جحـ ... ـشٍ فَـلاهُ عـنهـا فبئسَ الـفـالي

ويقـال إن « لاعة » فَعْلة ومـذكرهـا لاعٌ ، وفي الحديث : هـاعٌ لاعٌ ، وقيل بل لاعـة بوزن فـاعلة ، كان الأصـل « لاعية » من اللعـو ، وهو أشـدُّ الحرص ، وبين الخليل وأهلِ النحو فيه خلاف يشقّ إحصاؤه .

و « النَّهوك » و « النَّهيك » و « النهاكة » معروفة .

و « البصيرةُ » الترسُ ، قـال الأسعـر الجعفي[(٧)] وليس بـالأسعـر[(٨)] المازنيّ :

راحـوا بصـائـرُهُمْ عـلى أكتـافِهِمْ ... وبصـيـرتي يعـدو بهـا عَتَـدٌ وَأَى[(٩)]

والبصيرة : الدم ؛ [والبصيـرةُ : الديـة] ومعنى البيت على هـذا أنهم أخذوا الدياتِ ولم آخذْ ، فـركبتُ يعدو بي فـرس لطلبِ الثـار ، ويكونُ هـذا مشبهاً لقولهم :

ابن بري · صوابه « أجرد » والقصيدة دالية . والجرد : الملاسة .

(١) السدر : البحر . ولم يسمع به إلا في شعر أمية . تـواكلتـه : تـركتـه ، والقـوائم هنـا : الرياح .

(٢) ديوان جران العود : ٨ .

(٣) في اللسان والتاج أن الزرير هو الذكي الخفيف .

(٤) هو جنادة بن محمد بن الحسين الأزدي الهروي (ـ ٣٩٩) كان مكثراً من حفظ اللغة . أخذ عن الأزهـري وغيره ، وقتله الحـاكم العبيدي (انـظر ابن خلكـان ١ : ٣٧٢ ومعجم الأدباء : ٧ · ٢٠٩ وبغية الوعاة ٢ : ٤٨٨ .

(٥) انظر المثل في الدرة الفاخرة : ٣٦٢ (وفيها تخريجه) .

(٦) بيت الأعشى في اللسان والتاج (لوع) وديوانه : ٨ .

(٧) قال الأصمعي : الملمع التي قد استبان حملها في ضرعها فأشرق ضرعها باللبن ؛ وقال أبـو عبيـدة : ملمع : نتوج مقرب ، لاعـة الفؤاد أراد لائعة الفؤاد أي مستخفـة من الحـزن ، ورجل هاع لاع وهائع لائع مشتاق إلى الشيء . والفالي : الطارد .

(٨) في ص : الأعسر ؛ والأسعـر الجعفي ـ ضبطه الآمـدي بالسين المهملة ـ هو مـرثـد بن أبي حمـران ، وأورد له بيتـين من قصيدتـه التي منهـا هـذا البيت التـالي وهي قصيـدة أصمعيـة (الأصمعيات : ١٥٦) وانظر اللسان (عتد . وأي) والمعاني الكبير : ١٠١٣ والوحشيات رقم : ٥٧ .

(٩) العتد : الفرس الحاضر المعدّ للركوب ؛ الوأى : السريع المشدّد الخلق ؛ وقـال ابن قتيبة في شرح البيت : البصيرة ، الدفعـة من الدم أي دمـاؤهم قد خـرجت فصارت عـلى أكتافهم وبصيرتي في جوفي يعدو بها فرسي ، يريد أنهم جرحوا . ويقال بل أراد أن الذي طلبـوه من الذحول على أكتافهم لم يدركوه بعد ، فهو ثقل عليهم ، وبصيرتي أي ذحلي قد أدركت به .

. . . .[(١٠)] ... ورحـتُ أجـرُّ ثـوبيْ أرجـوانِ

كـلانـا اختـار فـانـظرْ كيف تَبْقى ... أحـاديثُ الـرجـالِ عـلى الـزمـانِ

والبصيرة في هذا الموضع : الحق .

و « المداحي » مُفاعِلُ من الدَّحْوِ وهو البَسْط ، والدَّحْوُ أيضاً النكاح .

و « السَّهوك » من السَّهْكِ وهـو السَّحْقُ ، ويقـال : ريـح سَيْهُـوكٌ وسَيْهُوجٌ ، إذا كانت شديدةَ المرور والهبوب .

و « الخمطط »[(١١)] هو الكِحْكِحُ ، وهو الشيخُ الكبير .

و « المَرْغُ » الريقُ ، يقال أحمق ما يجـافي مَرْغَـهُ ، أي ما يمسك ريقه ، والمرغ : التراب ، في غير هذا .

و « مَعِيك » فعيلٌ بمعنى مفعول من المَعْكِ ، وهو كالكَلى .

وسـأل عن الفَوْهَـدِ ، والفَوْهَـدُ والثَّوْهَـدُ : الغـلامُ الممتلـىء شبابـاً ، وأنشدوا[(١٢)]:

تحـبُّ منّـا مُـطْرَهِـفّـاً فَـوْهَـدا ... عَجْـزَةَ شيخـين غـلامـاً أمـردا

ينشد بالثاء والفاء .

و « القِلْفِعُ »[(١٣)] الطينُ الذي يتقلّعُ عن الكمأة ، وفيها خلاف .

و « الهَبْرَجُ » من صفة بقر الوحش .

و « يرتبُّ » يفتعل ، من ربَّ الأمرَ ، أصلحه .

و « المِرْسَن » موضع الرسن .

و « الهَلوك » الفاجرةُ لأنها تتهالك في مشيتها أي تتمايلُ وتتهادى .

و « لَذِمَ » بالمكانِ والذم ، مثل لزم والزم .

و « الخِرْمِلُ » المرأةُ الفاجرة ، وقيل الحمقاء ، قال مزرِّد[(١٤)] :

* إلى خِرْملٍ شرُّ النساءِ الخراملُ *

و « الهَرْطُ » النعجةُ المسنّةُ و[اللحم المهزول] في غير هذا ، والهـرْدُ : الشقُّ .

و « دعكنّة » أصله السِّمَنُ والفتوة ، وهو ما لا يُسأل عنه ، لأن كـلَّ ما زيدت فيه النون في هذا الموضع يدلُّ لفظه على اشتقاقِهِ كما تدل سمعنّة ونظرنَّة على السمع والنظر ، ودعكنّة من الجلادة ، كأنه من الدعاك[(١٥)] .

و « الخِيسُ » الغابة ، وفي غير هذا الموضع اللحية .

و « الغانظُ » فاعلٌ من الغنظ وهو الكَرْبُ ؛ قال عمر بن عبد العزيز : في الموت غنظ ليس كالغنظ وكظّ ليس كالكظّ ، وهما الكربُ .

و « الخِرْفِعُ »[(١٦)] القليلُ من كل شيء .

(١٠) لم أستطع قراءة هذا الشطر ، وصورته في ص : عدا دل داء لهن حجة .

(١١) لم أجد هذه اللفظة وأقرب الصور إليها « لطلط » وهي بمعنى الكحكح .

(١٢) اللسان (طرهف . فهد) والمطرهف : الحسن التام ، والفوهد والثوهد والفلهد : الغلام السمين الذي قد راهق الحلم .

(١٣) لم ترد في الأبيات ، فلعل فيها سقطاً .

(١٤) روايته في ديوان مزرد : ٤٨ .

إلى صبيـةٍ مثـل المغـالي وخـرمـلٍ ... رواء ومـن شر النـسـاء الخـرامـل

(١٥) ص : الدعاء .

(١٦) الخرفع : القطن وقيل ثمر العشر .

و « المذيّل » المكمّل .

و « الطوائفُ » الأيدي والأرجل .

و « السُّدوك » لا أُومِنُ به لأنه يقال سدك سَدَكاً وسَدْكاً ، فإن جاء فيه سدوكاً فهو شاذٌ قليل ، وهو اللزوم .

قال ابن المغربي : هذا ما حَضرنا من القول ، ولولا أننا لا نودّ أن نَنْهَى عن خُلقٍ ونأتيَ مثله[1] لسألنا مستفيدين ، نثراً لما فيه من شفاءِ البيان ، لا نظماً لما فيه من التعاطي والطغيان ، فسألناه عن اللغة إن كان عُنِيَ بها : عن العُلاَفِق بالعين ، فهو بالغين معروف[2] ، وعن المِصمَّةِ بكسر الميم ، فهو بفتحها مشهور ، وعن هندٍ لا تضافُ إلى الأحامس[3] فإن ذلك معروف ، وسُكَّرَى بضم السين فهو بفتحها معروف . وعن الدّون بالواو فهو بالياء معروف ، وعن الفَرْنِ بالفاء فهو بالعين مذكور ، وكم في الكلام أفعلة أسماء فهو في الصفات معروف ، وما النديمُ في الناس فإنه في الجهاد معروف ، وما الشاهدُ على جوازِ أفلج بالجيم فإنه بالحاء معروف .

هذا إن كانت اللغةُ عنده مهمّةً ، فإن قال إنّ النحو هو المهمُّ عنده قلنا : فما جمعٌ على أَفْعِلَةٍ أَغفَلَهُ سيبويه فلم يُلْحِقْهُ بكتابه أحدٌ من النحويين ، وهل ذلك الجمعُ إن كنت عارفاً به مطَّردٌ أو محمولٌ على مكانه في اللفظ ؟ وعلى أيّ شيء خفض ﴿ وقيله يا ربِّ ﴾ في قراءة حَفْص ، لا على ما أورده أبو علي الفارسي ، فإنه لم يسلكْ مذهبه في التدقيق عليه ؟ ولِمَ منعَ سيبويه من العطفِ على [عا] ملين ، وهو في سورةِ الجاثيةِ بنصب ﴿ آياتٍ ﴾ ، ورفعُهُ لا يتّجِهُ إلا عطفاً على عاملين ، فإن كان أخطأ الأخفشُ فمن أين زلَّ ؟ وإن كان أصاب فكيف تجوزُ له مخالفةُ الكتاب ؟ وهل قولُ سيبويه في النسبة إلى أُميَّةَ أمويّ - بفتح الهمزة - صوابٌ أو سهوٌ استمرَّ عليه وعلى جميع النحويين بعده ؟ ولِمَ قيل معدي كرب ، ولم تحمل الياء في لغةٍ من أضاف ولا من جعلها اسماً واحداً إلا على ما أورده النحويون ، فلهم فيه أقاويل غير متجهة . وهل مذهبهم في أنَّ سُدًى وهُدًى مصدران صحيحٌ أم لا ؟ وهل بيض في قولهم : حمزة بن بِيض اسم أم جَمْعٌ ، وما معناه في اللغةِ ووزنه في النحو مسموعاً لا مقيساً على ما ذكرناه نحن في هذه الرسالة ؟ ولِمَ اختاروا « أنْ » مع عسى وكرهوه مع كاد ؟

فإن قال : لست أتشاغلُ بعلوم المؤدبين ، وإنما آخذُ بمذهب الحافظ ، إذ يقول : علمُ النسبِ والخبرِ علمُ الملوكِ ، قلنا له : فمن أبو خَلْدة[4] فإن أبا جِلْدَةَ[5] معروف ، ومن العاصُ وما اشتقاقه[6] فإن العاص معروف ، ومن حَبْشِيَّةُ - مفتوح الأول مخفف - فإنه بالتشديد وضم أوله معروف ؟[7] ومن عمرو بن معدي كرب غير صاحب : « أَمِنْ ريحانةَ الداعي السميعُ »[8] فإن هذا معروف ؟ وما اسم امرىء القيس على الصّحة لا على هذا الظاهر وعلى أن في اشتقاقه كلاماً طويلاً فإن هذا معروف ؟ ومن الزُّبَيْرُ غير الأسدي واليهودي فكلاهما معروفان ؟ ومن الزَّبير بفتح الزاي فإنه بضمها معروف ؟[9] ومن القائل :

وقابلة لجلجتها فرددتها لدى الفرش لو نهنهتها قطرت دماً

أرجلٌ أو امرأة ؟ وهل صفية الباهلية قلب أم مولاة ؟ وهل المستشهد بشعره في « غريب المصنّف » أبو كعب بالباء أو التاء ، وفي أيّ زمان كان ، وأيّها كان اسمه ومن أي شيء اشتقاقه ؟ ومن النّطفُ الذي يُضْرَبُ به المثل فيقال : كنز النطف ؟[10] ومن العكمّص ، لا أسأل عن تفسيره فإنه في اللغةِ معروف ؟[11] وكذلك ذو طلال[12] ، وما خَوْعَى فإنَّ جَوْعَى معروف ، وهل أخطأ ابن دريد في هذه اللفظة أم أصاب[13] وما تقول في عدنان غير الذي ذكره محمد مولى بني هاشم فإنه معروف[14] ، وهل يخالَفُ فيه أم لا ؟ وحبيب والد ابن حبيب العالم رجل أو امرأة ، وهل هو لغيَّةٍ أم لرشدة ؟[15] ومن أجمد بالجيم فهو بالحاء كثير ؟[16] ومن زَبْد بالباء فهو بالنون معروف ؟[17] ومن روى عنه عليه السّلام : « لا يمنع الجارُ جارَهُ أن يجعل خشبَهُ في حائطه »[18] وقال « خشبة واحدة » وقالوا كلهم : خَشَبَهُ مضافاً ؟ ومن يكثر ذكر الحضرمي في شعره من العرب ؟[19] والنبيذ المشروب : هل كان معروفَ الاسم أم لا عند

---

(١) فيه إشارة إلى قول الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

(٢) ذكر ابن دريد في الجمهرة (٣ : ٣٩٦) الغلافق وقال إنه اسم موضع ، ولم يذكر العلافق .

(٣) يقال لقي هند الأحامس إذا مات أو وقع في الداهية ، وإضافتها إلى غير الأحامس مثل هند الهنود ، وهند بني سعد وما إلى ذلك ، ولكني أعتقد أن ابن المغربي يشير إلى ما هو أدق من ذلك .

(٤) الخاء غير معجمة في ص ؛ وخلدة هي بنت طلق اليمامي ، حدثت عن أبيها ، وخلدة بنت العرباض بن كلاب ، روت عن عمها (الاكمال ٣ : ١٨٢) .

(٥) أبو جلدة بكسر الجيم مسهر بن النعمان ، وشاعر يشكري وآخر عجلي (الإكمال ٣ : ١٨٢) .

(٦) العاص بن ثعلبة بن سليم الدوسي ، وقال الوزير المغربي هو بلا تشديد (تبصير المنتبه : ٨٩٠) وهو من عضا يعضو الجرح أي كان بصيراً بالجراح .

(٧) هنالك حبشية بن كعب بن ثور من مزينة (تبصير : ٤٨٦) وحبشية بن سلول ، وهذا الثاني يقرأ أيضاً بفتح الحاء وتخفيف الياء (تبصير : ٤٠١) .

(٨) صدر بيت لعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، وعجزه : « يؤرقني وأصحابي هجوع » (ديوانه : ١٣٦) ؛ وهناك رجل آخر بهذا الاسم وهو عمرو بن معد يكرب الزبيدي الأكبر جاهلي قديم (المؤتلف : ٢٣٣) .

(٩) الأسدي هو الزبير بن العوام ، واليهودي هو الزبير بن باطا من بني قريظة أسلم ابنه عبد الرحمن (الأكمال ٤ : ١٦٦) وهناك الزبير بن عبد الله الكلابي وقد عاش آخر خلافة عمر (الاستيعاب : ٥١٠) ؛ وأما الزبير - بفتح الزاي - فهو ابن عبد الله بن الزبير شاعر ابن شاعر (الاكمال ٤ : ١٦٥ - ١٦٦) .

(١٠) هو النطف بن خيبري أحد بني سليط بن الحارث (انظر قصة احتيازه الكنز في ثمار القلوب : ١٣٩ وسرح العيون : ٥٤ - ٥٥) .

(١١) العكمص : الحادر من كل شيء أو الكثير أو الشديد الغليظ وبه كني أبو العكمص التميمي (التاج : عكمص) .

(١٢) ص : ذو أطلال ؛ ولم يبين ما يريده هنا ، وذو طلال : ماء قريب من الربذة وقيل هو واد لغطفان (معجم البكري : ٨٩٢) .

(١٣) جوعى المعروف هو مؤنث جائع وقال ابن دريد في الجمهرة (٢ : ١٠٥) إن جوعى موضع وأثبتها البكري عنه ، وذكر أنها خوعى بالخاء المعجمة في شعر امرىء القيس (معجم البكري : ٤٠٤) .

(١٤) محمد مولى بني هاشم هو محمد بن حبيب نفسه وهو يذكر أن في الأزد عدنان بن عبد الله بن الأزد وقال غيره إنه عدثان (الاكمال ٦ : ١٥٣ - ١٥٥) .

(١٥) حبيب اسم أمه ويقال إن أباه غير معروف .

(١٦) أجمد بن عجيان شهد فتح مصر (تبصير ١ : ٣) .

(١٧) زبد بن سنان بفتح الزاي ، وزند بن الجون أبو دلامة وزند في نسب عدنان (الاكمال ٤ : ١٦٨ - ١٦٩) .

(١٨) ورد الحديث في البخاري (مظالم : ٢٠ وأشربة : ٢٤) ومسلم (مساقاة : ١٣٦) وسنن أبي داود (أقضية : ٣١) وابن ماجة (أحكام : ١٥) والموطأ (أقضية : ٣٢) ومسند أحمد ١ : ٣١٣ ، ٣ : ٤٨٠ ؛ قلت : خشبة (بالافراد) هي رواية أبي ذر ورواه غيره (خشبه) بالهاء - بصيغة الجمع ؛ وقال عبد الغني بن سعيد : كلّ الناس يقولونه بالجمع إلا الطحاوي (وانظر مزيداً من التفصيلات في إرشاد الساري ٤ : ٢٦٦) .

(١٩) الحضرمي : النعلُ المصنوعة بحضرموت ، وأراها ترد كثيراً في شعر كثير « إلى مرهفات

العرب ؟ (١)، ومن روى عن ظئرِ رسولِ اللّه (ص) وأنها قالت في شارفها : « وكانت لا تغذي أحداً » وما معناه ؟(٢) ومن تفرَّد من أهل العلم بنصر ذي الرمة وتغليط الأصمعي في قوله : إيه عن أمِّ سالم ، لا على ما قاله النحويون من التعريف والتنكير ، فإن ذلك معروف ؟(٣) ومن قال عن المتنبئة إنها سَجاحِ مثل قطامِ ومن قال سجاح مثل غمام غيرُ مبني ؟(٤) ولِمَ سمّيَ خليد الشاعر : خليد عينين ؟(٥) ومن عُمَيّ التي تنسب إليها الصَّكة فيقال « صكَّةُ صكَّة عُمَيّ » ، وهل ذكر في شعر ومن ذكره ؟(٦) ومن هو الذي تنسب إليه العرب الصلال ومن ذكره من أصحاب رسول الله (ص) ؟ ومن كرب المنسوب إليه معدي كرب ؟(٧) وهل أصاب المبرد في نسبة الأبيات الجيمية :

لما دعا الدعوة الأولى فأسمعني أخذتُ بُرْدَيَّ واستمررتُ أدراجي

أم أخطأ ؟(٨) .

فإن قال إنه صاحبُ سِيَرٍ وآثارٍ وأحكام ، قلنا : أرشدك الله ، وما معنى قوله عليه السّلام : « من سعادة المرء خفة عارضيه » وهو عليه السّلام لم يكن خفيفَ العارضين ، لا على ما فسَّره المبرد فإنه لم يأت فيه بشيء ؟(٩) ومعنى قوله عليه السّلام : « تسحَّروا فإنَّ في السحور بركة »(١٠)ونحن نرى [أنه] ربما أماض وأتخم ، وأضرَّ وأبشم ؟ ومعنى قوله عليه السلام : « اتقوا النار ولو بشقّ تمرة »(١١) ولو سرق سارق [كيلجة] تمر فتصدق بنصفها كان مستحقاً للنار عند أكثر المسلمين ؟ وما معنى قوله عليه السّلام : « لا يزال الأنصار يقلّون ويكثر الناس »(١٢)؛ ولو شئنا لعددنا أشخاصهم أكثر مما كان في البادية والحاضرة ؟ ومعنى قوله « إن امرأ القيس حاملُ لواءِ الشعراءِ إلى النار »(١٣)وهل يثبت الخبر أم لا ؟ ولِمَ قال : « إن من الشعر لحكمة »(١٤)، ثم قال عليه السلام : « أوتيت جوامع الكلم »(١٥)وهل تخرج الحكمة من جوامع الكلم ؟

فإن قال : إنما أفنيت عمري في القرآن وعلومه ، وفي التأويل وفنونه قلنا : إذن يكون التوفيقُ دليلك ، والرشادُ سبيلك : صفْ لنا كيفَ وقعَ التحدّي بهذا المعجز ليتم بوقوعه الإعجاز ، وأخبِرْنا عن صفةِ التحدّي : هل كانت العربُ تعرفه أم لا ، أم كان شيئاً لم تجرِ عادتُها به فكان إقصارها عنه ، بل لأنه التماس ما لم تجرِ المعاملة بينهم بمثله ، ثم يُسألُ عن التحدّي هل لقي بمعارضة بان تقصيرها عنه أو لم تكن بمعارضة ، ولكن القوم عدلوا إلى السيف كما عدل المسلّمون مع تسليمهم ولم يعارضوه ، ثم يسأل عن قوله تعالى ﴿ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (النساء : ٨٢) وفيه من الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه ما لا يكون أشدَّ اختلافاً منه(١٦)؛ ويسأل عن قوله تعالى ﴿ وغرابيب سود ﴾ (فاطر : ٢٧) وما معنى الزيادة في الكلام ، والغرابيبُ السودُ هي الغرابيب ، فإن قال تأكيداً فقد زلَّ ، لأنَّ رجحانَ بلاغةِ القرآن إنما هو إبلاغ المعنى الجليّ المستوعَبِ إلى النفسِ باللفظ الوجيز ، وإنما يكون الاسهابُ البليغُ في كلامِ البشر الذين لا يتناولونَ تلك الرتبةَ العاليةَ من البلاغة ؛ على أنه لو قال تأكيداً لخرج عن مذهب العرب ، لأنَّ العربَ تقول : أَسْوَدُ غِرْبيب ، وأسودُ حالكٌ وحُلكوكٌ ، فتقدم السواد الأشهر ثم تؤكده ، وهذه الآيةُ تخالفُ ذلك ، فإذاً بطل التأكيد في المعنى(١٧)؛ وما معنى ﴿ فَخَرَّ عليهم السَّقفُ من فوقهم ﴾ (النحل : ٢٦) وهل يكون سقف من تحتهم فيقع لبسٌ يحتاج إلى إيضاحه بذكر فوق وتحت ؟(١٨)ونحوٌ منه قوله تعالى

الحضرمي المعقرب » (ديوانه : ٢٦٥) ، و « بأقدامهم في الحضرمي الملسّن » (ديوانه : ٢٥٢) الخ . . .

(١) التسمية معروفة ولكن الدلالة مختلفة ، إذ كانت اللفظة تدل على كل ما نبذ في الدباء والمزفت فاشتد ، ولكنه كان شيئاً غير الخمر ولهذا نجد القلمس يقول في الخمر :

أروي بها نفسي فتحيا بشربها ولا أشتهي شرب النبيذ من التمر

(٢) ذلك هو حديث عبد الله بن جعفر عن حليمة السعدية وكانت قدمت المدينة تطلب ولداً ترضعه ومعها شارف ـ وهي ناقة مسنة : فلما قدر لها أن تكون مرضعة للرسول درّ ثدياها ودرّت الشارف « وقام صاحبي إلى شارفي تلك فإذا بها حافل فحلب ما شرب وشربت حتى روينا » وذلك بعد أن قالت : « ما يجد في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذيه » (أسد الغابة ٥ : ٤٢٧) .

(٣) قال ذو الرمة « وقفنا فقلنا إيه عن أم سالم » ـ بكسر الهاء ـ قال الأصمعي : أخطأ ذو الرمة إنما كلام العرب إيهٍ (بالتنوين) وقال يعقوب بن السكيت أراد إيه (بالتنوين) فأجراه في الوصل مجراه في الوقف وكذلك قال ثعلب ، كما قال الزجاج إنه ترك التنوين للضرورة ولكن أبا علي الفارسي انتصر لذي الرمة وقال : أما هذا فالأصمعي مخطىء فيه . . ديوان ذي الرمة : ٧٧٩ واللسان والتاج (إيه) .

(٤) يقول الأزهري وابن دريد والجوهري وغيرهم من اللغويين أنها « سجاحِ » مثل قطام ؛ ولم أعثر على من أجاز أن تكون مثل « غمام » .

(٥) قيل سمي بذلك لأنه كان يسكن أرضاً بالبحرين تعرف بعينين (الشعر والشعراء : ٣٧٣) .

(٦) الصكة : شدة الهاجرة ، يقال · لقيته صكة عمي وصكة أعمى وهو أشد الهاجرة حرّاً . وقال بعضهم : عمي اسم رجل من العماليق أغار على قوم في وقت الظهيرة فاجتاحهم . ويقال هو تصغير أعمى مرخماً وأنشد ابن الأعرابي :

صك بها عين الظهيرة غائراً عمّي ولم ينتعلن إلا ظلالها

(٧) معد يكرب اسم يمني يرد في النقوش ، وهو سبأي محض . ولا تنطبق عليه التفسيرات التي يوردها لغويو عرب الشمال .

(٨) نسب المبرد هذه الأبيات للراعي (الكامل ١ : ٢٨١) وفي ظنه أنها للراعي النميري ، وبيّن الأمدي الأمر في المؤتلف : ١٧٧ إذ قال إنها للراعي الكلبي واسمه خليفة بن بشير بن عمير بن الأحوص .

(٩) أورد المبرد هذا الحديث في الكامل (٢ : ١٢٩) وقال : ليس هذا بناقض لما جاء في إعفاء اللحى وإحفاء الشاربين .

(١٠) ورد الحديث في النسائي (صيام : ١٨) وابن ماجة (صيام : ٢٢) والدارمي (صيام : ٩) ومواضع متعددة من مسند أحمد ، منها ٢ : ٣٧٧ ، ٤٧٧ ، ٣ : ٣٢ ، ٩٩ (انظر معجم ألفاظ الحديث) .

(١١) ورد في البخاري (أدب : ٣٤ ، زكاة : ١٠ ، رقاق : ٥١ ، توحيد · ٣٦) ومسلم (زكاة : ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٠) والترمذي (قيامة : ١ ، زهد : ٣٧) والنسائي (زكاة : ٦٣ ، ٦٤) وابن ماجه (مقدمة : ١٣ ، زكاة : ٢٨) والدارمي (زكاة : ٢٤) ومسند أحمد ١ : ٣٣٨ ، ٤٤٦ ، ٤ : ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣٧٧ ، ٦ : ٧٩ ، ١٣٨ .

(١٢) الحديث في البخاري (الجمعة : ٢٩ ومناقب : ٢٥ ومناقب الأنصار : ١١) .

(١٣) تورده الكتب الأدبية ، انظر مثلاً الشعر والشعراء : ٦٧ وليس في الأحاديث المتعلقة بامرىء القيس ما هو قوي مقبول منها .

(١٤) ورد في البخاري (أدب : ٩٠) والترمذي (أدب : ٦٩) وابن ماجة (أدب : ٤١) والدارمي (استئذان : ٦٨) ومواضع كثيرة من مسند أحمد منها ١ : ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ . . . الخ .

(١٥) حديث « أعطيت جوامع الكلم » في مسلم (مساجد · ٥ ـ ٨ وأشربة : ٧٢) والبخاري (تعبير : ١١) والترمذي (سير : ٥) ومسند أحمد ٢ : ١٧٢ ، ٢١٢ ، ٢٥٠ ، ٢٦٤ . . . الخ وحديث « بعثت بجوامع الكلم » في البخاري (جهاد : ١٢٢ وتعبير : ٢٢ واعتصام : ١) والنسائي (جهاد : ١) .

(١٦) يرى الزمخشري أن عدم الإختلاف هنا معناه عدم التناقض والتفاوت في مستوى النظم والبلاغة والمعاني ، وصدق الخبر . . (الكشاف ١ : ٥٤٦ ـ ٥٤٧) .

(١٧) قال الزمخشري : فإن قلت : الغربيب تأكيد للأسود ، يقال أسود غربيب وأسود حلكوك . . ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك أصفر فاقع وأبيض يقق وما أشبه ذلك قلت : وجهه أن يضمر المؤكد قبله ويكون الذي بعده تفسيراً لما أضمر كقول النابغة « والمؤمن العائذات الطير » وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريقي الاضمار والاظهار جميعاً (الكشاف ٣ : ٣٠٧) .

(١٨) الوجه في « فوق » هنا في قوله « وهو القاهر فوق عباده » أي أنهم يخافون ربهم عالياً قاهراً

﴿ يخافونَ رَبَّهُمْ من فوقهم ﴾ (النحل : ٥٠) وهل لهم ربٌّ من تحتهم ؟ وما معنى فـوق ها هنـا ، وهل تـدلُّ على اختصـاص مكان ؟(١) ومـا معنى قـولـه ﴿ كَلَمْحِ البَصرِ أوْ هُوَ أقْرَبُ ﴾ (النحل : ٧٧) ومـا هذا الأقـرب ؟(١) وما معنى قوله ﴿ فهي كالحجارة أو أشدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة : ٧٤) وهل شيء أشـدُّ قسوةً من الحجارة ؟(٢) وما معنى قوله ﴿ إلهين اثنين ﴾ (النحل : ٥١) وهـل بعد قوله (إلهين) إشكال بأنهم أربعة فيستفيد بقوله اثنـين ثباتَ المعنى ؟ ومـا معنى قوله ﴿ أنْ تضلَّ إحداهما فَتُذَكِّرَ إحداهمـا الأخرى ﴾ (البقـرة : ٢٨٢) هَـلَّا كان أوجـز وأشبه بـالمذهب الأشـرفِ في العربيـة ؟ وما معنى قـولـه ﴿ أو يأخذهم عـلى تخوّفٍ فـإن ربَّكُمْ لَرَؤوفٌ رحيم ﴾ (النحـل : ٤٧) ومن أين تُناسِبُ الرأفـةُ والرحمـةُ هذا الأخـذَ الشديـد على الخوف الذي يقتضي العفـوَ والغفران ؟(٢) .

وعلى أن هذا السائل لو علم لسأل عن الصناعة التي أنـا بها مُـرْتسِمٌ ، وبشروطها مُلْتَزِمٌ ، لا في الترسّل فإني ما صَحِبْتُ به ملكاً ؛ ولكن في صنـاعة الخراج ، فكان يجبُ أن يقـولَ : ما البـابُ المسمّى المجموع من الجـماعـة(١) وأين مـوضعُهُ منهـا ، وأيّ شيء قد يكـون فيه ولا يحسن ذكـرُهُ في غيره ؟ وأن يقول : ما الفائدة في إيراد المستخرج في الجماعة ومن كم وجه يتطرّق الامتثـال عليها بالغاية منها ؟ وأن يقول : ما الحكم في متعجَّلِ الضمـان قبل دخـول يدِ الضّـامن ، وأي شيء يجبُ أن يـوضـعَ منـه إذا أراد الكـاتبُ الاحتسـابَ بـه للضـامن من النفقات ، وخـاصةً من جـاري العامـل ، وفيه أقـوالٌ تحتاجُ إلى بحثٍ ونظر ؟ وأن يقول : إنَّ عاملاً ضمنَ أن يرفعَ عمله بارتفاع مـالٍ إلاّ أنه لم يضمنْ استخراجَ جميعه ، وضمنَ استخـراجَ ما يُـريدُ عـلى ما استخـرج منه خمسَ سنين إلى سنته بالقسط ، كيف يصحُّ اعتبارُ ذلك . ففيه كمين يُحتاجُ إلى تقصيّه وتأمله ؟ وأن يقول : لِمَ يُقدَّمُ المبيعُ على المستخرج ، والمبيعُ إنّما هو من المستخـرج ، وكيف يصحُّ ذلـك ؟ وأن يقـول : أيّ غلطٍ يلزمُ الكتـاب وأيّ غلطٍ لا يلزمه ؟ وأن يقول : متى يجبُ الاستظهارُ للسلطانِ في صناعة الخـراج ومتى لا يجوزُ الاستظهارُ له ؟ وأن يقول : متى يكون النقصُ في مـال السلطان أسدَّ في صناعةِ الكتابة من الزيادة ، ولست أعني نقصَ الارتفاع مـع العدل ، وعادلَ زيادةٍ مع الجور ، فـذلك مـا لا يُسْأَلُ عنـه ، وأن يقول : مـا بابٌ من الارتفـاع إذا كَـثُرَ دلَّ عـلى قلّةِ الارتفـاع ، وإذا قـلَّ دلَّ عـلى جمـام الارتفـاع ووفوره ؟ وأن يقول : متى تكونُ مشاهدةُ الغلطِ أحسنَ في صناعة الكتابـة من

لهم (انظر الكشاف ٢ : ٤١٣) ؛ وقوله « كلمح البصر أو هو أقرب » أي كما تبالغون أنتم حـين تستقربـون شيئاً (نفسـه : ٤٢١) ؛ وقولـه « إليهن اثنين » الـوجه فيـه : أن الاسم الحـامل لمعنى الإفـراد والتثنية دال عـلى شيئين عـلى الجنسية والعـدد المخصوص فـإذا أريـد التأكيد على أن المقصود هو العدد شفع بما يؤكـده فقيل إلهين اثنين أو رحـل واحد . . الـخ (نفسـه : ٤١٣) ويأخـذهم على تخـوف أي وهم متوقعـون وقيل هـو أن يأخـذهم على أن ينتقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم وبدلك تكون الـرأفة والـرحمة حيث يحلم عنهم ولا يعاجلهم مع استحقاقهم (نفسه : ٤١١) .

(١) إن قلت لم قيل أشد قسوة وفعل القسوة مما يخرج منه أفعـل التفضيل وفعـل التعجب قلت : لكونه أبين وأدل على فرط القسوة ؛ ووجه آخر وهـو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصـد وصفـ القسوة بالشدة كأنه قيل اشتدت قسوة الحجـارة وقلوبهم أشد قسـوة (الكشاف ١ : ٢٩٠) ولم يـورد الزمخشري تـوجيهاً لتكـرير كلمـة « احـداهمـا » في الآيـة ٢٨٢ من سـورة البقـرة . وذهب أبو حيـان إلى أنه أبهم الفـاعل في أن تضـل بقولـه « إحداهمـا » ولهذا أبهم الفاعل في « فتذكر » فكرر إحداهما . إذ كل من المرأتين يجـوز عليها الضـلال والأذكار فلم يرد باحدهما معينة (البحر المحيط ٢ : ٣٤٩) .

(٢) الموافقة والجماعة حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل . ولا يسمى موافقة ما لم يرفع باتفاق ما بين الـرافع والمـرفوع إليـه ، فإن انفـرد به أحـدهما سمي محـاسبة (مفـاتيح العلوم : ٣٨) .

عديه ؟ وأن يقولَ : كم نسبةُ جاري العمل من مبلغ الارتفـاع وأوّل من قرَّره ورتّبه ؟ وأن يقول : ما رتبتانِ من رُتَبِ الكتابة إذا اجتمعنا لكاتبٍ بطلت أكثرُ حججه في احتساباته ؟ وأنْ يقـول : هل يـطّرِدُ في أحكام الكتـابة حملهـا على منـاصبة أحكـام الفقه أم لا ، وهـل يذهب [إلى ذلـك] أحـدٌ من متقـدّمي الكتاب ، وما الحجّةُ فيه ، وبالله التوفيق .

فصل له من رقعة
في الرد على كتاب وصله(٣)

وقفتُ على كتابِكَ ولم أزلْ أَلْثُمُهُ ، كـأنّي قد ظفـرتُ باليـد التي بَعَثَتْهُ ، وأضمُّـهُ كأنّي أضمُّ الجـوانحَ التي نَفَثَتْـه ، وكأني كلّما أدنيتُـهُ إلى الكبدِ المعـذّبةِ بِبُعْـدِكَ ، وأمْرَرْتُـهُ عـلى العينِ المطروفـةِ بفَقْـدك ، سحبتُ عـلى النـار ذيـلَ السحاب ، وَسقيتُ عَطشَ الحبِّ كأسَ الرُّضاب ، وأعَرْتُ أخـا سبعينَ ظـلَّ الشبـاب ، فأَرَّخْتُ يـومَ قدومِـهِ لأجعلَهُ موسماً للسرور ، وعيـداً بـاقيـاً عـلى الدهور ، أرتقبُ السَّعْدَ عنده كـلَّ عام ، وأنتـظرُ الفرجَ منـه من كلِّ غـرام ؛ واتّفَقَ ورودُهُ في أشْـرَفِ فصولِ الـدَّهْرِ حَسَباً ، وأكرَم مفـاخرِ الأيـام نَسَباً ، حين ابتدأ(٤) الربيعُ يزخرفُ بُـرودَه ، والروضُ ينـظمُ عقوده ، وكنتُ أعـرفُ هذا الفصلَ باعتدالِ منهاجه ، وصحّةِ مزاجـه ، وأنّه لـو كان الـزمنُ شخصاً لكـان له مُقَبَّلاً ، ولو أنّ الأيـام غوانٍ لكـان لهـا حُلِيّاً وَحُللاً ، لأنّ الشمسَ تخلصُ فيـه من ظلماتِ حُـوْتِ السماءِ ، خـلاصَ يونسَ من ظلمـاتِ حـوتِ الماءِ ، فإذا وَرَدَتِ الحملَ وافتْ أحبَّ أوطانِها إليها ، وأعزَّ مساكنها عليها .

وفي فصل منها : فيـا حُسْنَ تلك الصحيفةِ ومـدادُهَا يُنْتَهَبُ بـالأفواه ، ويزيدُ بـالتقبيل لَعَسـاً في الشّفاه ، ويـا عجباً كيفَ حَفِظَ مـع بُعْدِ العهـد نَشْرَ عَرْفِك ، وكيف علقَ مع تراخي الأيام طيبَ كفّك ، وكيف جاءَ كأنّـكَ كتبتَهُ من أَمَم ، وأنْفَـذْتَهُ وبيننا خطوةُ قَـدَم ، وكيف لم يغيره مـا قـطعَ من مهـاولِ قفار ، وليلٍ ونهار ، وعدوٍّ كاشح ، ورقيبٍ لامح ، فأنْعِمْ به من ريحانةِ ألفاظٍ دامتْ لـدونتها ، وبـاكورةِ وصـالٍ سلمتْ غضوضَتهـا(٥) ، ومسحةِ يـدٍ بَقِيَ أثرُهَا أرِجَا ، وروضةِ كلم دام على الصيف بهجتها(٦) .

وفي فصل منها : فامّا سُؤالُكَ عنّي فما يُشْبِهُ سيرتَـكَ الحسنى ، ولا يليقُ بطريقتك المثلى ، كيف تسألني والإجابةُ معـك ؟ وكيف تستخبرُني ومحـلُّ الخَبَرِ والاستخبـار عندك ؟ ومتى سمعتَ بجـوابِ جَسَدٍ رهينـة ؟ وأين رأيتَ طِماحَ عينٍ لواحظها مقيّـدةٌ كليلة ؟ ألم أفارقْـكَ وقلبي عندك أعشـار ، وأضلعي منه قفار ؟

ومن فصل له يصف الموصل حين وردها

وردتُ الموصل التي خالف اسمُها معنـاهـا ، وكـانـت مَقْطَعـاً بيننا لـولا خُدَعُ الأماني ، وَفَصْلاً لولا المرجوُّ من عفو الليالي ، فـوجدتُ هـواءَهَا يعـطِّلُ سـوقَ بقـراطَ اعتـدالاً وطيبـة ، ومـاءَهـا يُسْلِي عن مُجـاجِ النَّحـلِ استمـراءً وعذوبة ، وصقعها قد تَبَغْدَدَ رقةً ولـطفاً ، وجـوُّها قـد تزنـدق تنعّماً وظـرفاً ، تكادُ تُثْقِلُهُ عقودُ الغـانيات ، وَيُخْجِله تتـابعُ اللحـظات ، كلُّ شمـاله نسيم ، وكـلُّ جَنُـوبِــه حيـاً عميم ، ورأيتُ أرضَهـا أطيبَ الأرض خِيـماً ، وأزْيَنَهـا

(٣) الذخيرة : ٤٩٦ .
(٤) ابتدأ : مكررة في ص .
(٥) ص : غضاضتها ، وهو عند بعض اللغويين جائز ، وأنكره عليّ بن حمزة ، والإلتزام به هنا غير ذاهب مع السجع .
(٦) كذا وردت العبارة في ص ، ولعلها « دام على الصيف زهرها بهجاً » أو ما أشبه .

أديماً(١) ، تُنْسَجُ بالسُّنْدس الأخضر ، وتفترُّ عن الأقحوانِ الأحمر ، والفيتُ بنيانَها هو الذي حمده اللّهُ في تنزيله(٢) ، وأحبَّه لنا أن نكونَ مثلَهُ جهاداً في سبيله ، مَرْصُوصاً بِوَقَاحِ الجلمد ، ملاءَماً بينه بالشَّيد المرَّد ، قد حُصِّنَ ظاهره على باطنه عن تداخل الإبر ، ومساكنِ الذرّ ، يزلُّ عنه ظُفْرُ الطائر ، وتتدحرجُ عليه أحداق(٣) الناظر ، وتَغْنَى به العروسُ عن الماويِّ المنير(٤) ، وتستبينُ به الجفونُ منابتَ الشكير من أهدابها والغمير ، متلاقيةً أقطارُهَا على رجالٍ كأنهم أنْسِلاءُ عادٍ وَثَاقَةَ أجسام ، وصلابةَ أحلام ، وبُعْدَ مَرام ، لطفوا عن بدويةِ الشام وغلظته ، وجدوا عن ذَوْبِ العراقِ وخلابته ، قد عُقِدَتْ ألسنَتُهُمْ بالصّدقِ فما ينتثرُ الباطلُ من عَذَباتها . وصحَّتْ غرائسُهُمْ في المودّة فما يُجْتَنَى الغَدْرُ من ثمراتها ، إنْ سلماً فسلماً وإنْ حرباً فحرباً ، لا يعرفون تدليسَ الأخلاق ، ولا تمويهَ النفاق ، وشعراؤهم(٥) ملءِ اليدين ، وكتّابهم أثرٌ بعد عَيْنٍ ، أديهم [حسن](٦) على قلة الملوكيِّ فيه ، وعلمهم مُتْقَنٌ لمن تأمَّلَ أدقَّ مسربٍ(٧) في فِتَنِ معانيه ، قد محّص تهذيبُ المحنِ شرارَهُمْ وأوْهَنَ خيارهم ، بَلَدُهُمْ أطلالٌ ، وأحوالهم آل ، قويّهُمْ يئنّ ضعفاً ، وضعيفُهُمْ يماطلُ حَتْفاً ، بَقِيَتْ عليهم أسمالُ النعم وذهب الدهرُ بأجسامها ، وانجلت عنهم ظُلَلُ المحنِ وهم يتأوهون من غير آلامها ، إلا أنّ فيهم بقيّةً نقيّة ، وفيهم موضعُ تداركٍ إن رُزِقوا سيرةً مرضيّةً ، فلولا ما أرْجُوهُ من مداواةِ أسقامهم ، وإعادةِ صالحِ أيامهم ، لقضاني الإنتهاء بمعايشتهم قبل معاناتهم ، وبملاحظتهم قبل مقاساتهم ، لكنّي أعلمُ أنَّ من يحيي العظامَ وهي رميم ، ويبعث(٨) الروضَ وهو هشيم ، وينشيء [. . .] بعدما كانت قفاراً ، ويجعلُ من الشجرِ الأخضر ناراً ، قادرٌ على أنْ يجعلَ ثوابَ نيّتي فيهم معونتي على ما أنويه لهم ، وجزاءَ تأمّلي بهم بلوغَ الغرضِ في تداركِ رَمَقِهِمْ .

وفي فصل من رسالة له(٩)

لو أطَقْتُ تفصيلَ المجمل ، وإيضاحَ المُشْكِلِ ، لجرتْ لك به يدي طَلَقَ الجموح ، ولأغْنَتْكَ أسمارُهُ عن الوترِ الصُّدوح ، إلا أن القلبَ عليل ، والخاطرَ كليل ، والزمانَ ببلوغِ الأملِ بخيل .

فصل من رسالة بعث بها إلى ذي السعادتين(١٠)

للرياسةِ كُلَفٌ لا يستقلُّ بها إلا المهذَّبُ الكاملُ ، ولا يخطو تحتَ أثقالِهَا إلاّ الأوحدُ الفاضل ، ولا يبلغُ ذوائبَ أعاليها ، إلاّ مَنْ شَرِبَ الأجاجَ من ماءِ واديها ، ولا يلذُّ بملكها إلا من أغلى المهرَ من كريم مساعيه ، ولا يفضُّ ختامَها إلا من جعل منازلةَ الخطوب سلكاً لعقود أيّامِهِ ولياليه ، ولذلك قيلَ ما أُنْشِدُهُ استبصاراً ، وأنا إلى إيراده أبينُ إصراراً :

لا تحسبِ المجدَ تمراً أنتَ آكلُهُ ... لن تبلغَ المجدَ حتى تلعقَ الصَّبِرَا(١١)

* * *

وإنَّ سياسةَ الأقوامِ فاعلمْ ... لها صَعْداءُ مَطْلَعُهَا طويلُ(١٢)

* * *

ويظلموا فنرى الألوانَ مسفرةً ... لا خوفَ ذلٍّ ولكن فضلُ أحلامَ

ويحتاجُ الرئيسُ إلى أعوانٍ يُظْهِرُ بهم كمينَ مكارمِهِ ، وَيُمْضي فيهم وبهم ماضي عزائمه ، فلولا الطالبُ لعاش الكريمُ مطوياً على حَسَرَاتِ أوطارِهِ ، ولولا الخاطىءُ لما وجد الحليمُ لذَّةَ حلمه ووقاره ، وكلّما كان التابعُ أبعد مذهباً في معناه ، كان المتبوعُ أشدَّ جَذَلاً بظهورِ مناقبِهِ وعلاه .

وفي فصل : وقد كانت مني كبائرُ تكنَّفَتْها معاذيرُ لا أشينُ وَجْهَ العفوِ بإيرادها ، ولا أنتقصُ جملةَ الصَّفْحِ والغفران بتعدادها ، في أنْ لم أفْتَتِحْ مناسكي بالسَّعْي إلى حَضرتِهِ ، ولم أبدأ من مطالبِ شَرْعي بالتوفُّرِ على خِدْمَتِهِ ، وقد عَلِمَ اللهُ أنَّ ذلك ليس من اعتلالٍ بصيرةٍ بشرف الانتماء إليه . ولا انخفاض همَّةٍ عن سعادةِ المثولِ بين يديه ، ولا إمعانٍ في البدويّةِ ـ وإن كنت من أهلها ـ حتى أذهلَ عن مطلع النيّر الأعظم من الأفقِ الذي سكنتُ ظلّه ، ومفيض الفراتِ الأعذب من البلد الذي استوطنتُ محلَّه ، ولا أنَّ ذِكْرَهُ لم يكنْ في تلك الأوطانِ زينةَ الأعياد ، وحليةَ البلادِ ، وأُنْسَ الحاضرِ والبادي ، وَبُلْغَةَ المسافرِ والحادي ، ولا أني لم أكنْ ذكيَّ الخاطر بتلاوةِ مآثِرِ آلائِهِ ، ومستشفياً بنسيم الريح من أرضِهِ وسمائه ، ومُعْجَباً بما جمع الله فيه لِعُفَاةِ أهلِ الأدب ، بل السَّراةِ أهلِ الرتب ، ومعنى قول القائل :

يأتيك عن فهم الثناء عطاؤُهُ ... عَفْواً وتلك عطيةُ المستبصِرِ
كرمٌ تكشَّفَ عن حُلَى آدابِهِ ... كالبحرِ يكشفُ غَمْرُهُ عن جوهرِ

كتابه إلى رئيس اعتنق الإسلام(١٣)

وكان في ذلك الأوان بمدينة [تكريت ، رئيس](١٤) ممن يتنار إليه ، ويعوِّلُ قومُهُ عليه ، فرأى في منامه(١٥) النبيَّ عليه السَّلام مع عليِّ بن أبي طالب ، وحضّاه على الإسلام ، ووجد في الانجيل ما دَلَّهُ على البشارةِ بمحمّدٍ عليه السَّلام ، فاستدعيَ إلى الحضرةِ ببغداد ، وطيفَ به في سائر البلاد ، فكتب إليه ابنُ المغربيِّ رقعةً قال فيها :

ويعلمُ الله ما ورد عليَّ وعلى كافَّةِ مَنْ حضر من المسلمين من السرورِ بما أبانَ الله(١٦) من آية قطَعَتْ عُذْرَ الجاحدين ، و[حجة](١٧) استهلكتْ شُبَهَ

(١) ص : ديماً .
(٢) يعني أنه بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً (انظر الآية ٤ من سورة الصف) .
(٣) ص . أكداه .
(٤) الماويّ : حجر البلور أو المرآة .
(٥) ص : وسفراؤهم .
(٦) ليس في موضعها بياض في ص .
(٧) ص : متقن من . . . مسرباً .
(٨) ص : ويبلي (دون اعجام) .
(٩) الذخيرة ٤ : ٤٩٨ .
(١٠) الذخيرة ٤ : ٤٩٩ وذو السعادتين هو الحسن بن منصور أبو غالب وكان وزيراً للسلطان البويهي بهاء الدولة ثم وزر بعده لسلطان الدولة (٤٠٩) ثم ثالثة لمشرف الدولة (سنة ٤١٢) وتوفي في هذه السنة نفسها .

(١١) من أبيات تنسب لرجل من بني أسد (شرح المضنون : ٤٧٣) .
(١٢) ورد البيت غير منسوب في اللسان والتاج (صعد) ؛ وأكمة ذات صعداء : يشتد صعودها على الراقي .
(١٣) الذخيرة ٤ : ٥٠٥ .
(١٤) بياض في ص ، وزدته من تاريخ المسبحي : ٢٣٥ ب والرئيس المشار إليه هو أبو مسلم مشرف بن عبيد الله ، وكان يعرف بالمطران الكبير ، رئيس اليعاقبة ؛ ويذكر المسبحي أن إسلام الرجل تمّ يوم الخميس السابع من جمادى الأولى سنة سبع [. . .] وأربعمائة وأن الوزير المغربي أرسل إليه هذه الرسالة من ميافارقين ؛ وقد أورد المسبحي جانباً من الرسالة لم يورده ابن بسام ، وانقطع فيها بضياع الأوراق ما أورده صاحب الذخيرة ما عدا سطرين منها .
(١٥) ص : مناها .
(١٦) المسبحي : سروراً بما آتى الله جلت قدرته .
(١٧) زيادة من المسبحي .

العانـدينَ الجـاهلين ، لا أنَّ هـذا الـدينَ ـ بحمـد الله ـ مفتقـرٌ من بعضِ حواشيه ، إلى بيِّنةٍ تزيدُ فيه ، ولا أنَّ الإستدلالَ الصادقَ كـان تَرَكَ شُبْهَـةً إلا فضحها ، ولا معجزةً إلا أوضحها ، وزائغاً إلا قـوَّمَهُ ، وجـاهلاً إلا علَّمـه ، وركناً للباطلِ إلا خفضه ، وعقـداً للشرك إلا نقضه ، إلاّ أنَّ المخـالفين قـد شغلت الـدنيـا أكثـرَهُمْ عن التـأمّـل ، وحجبتِ العـاداتُ خـواطِـرَهُمْ عن التـأوّلِ ، فَبَعُدَ بـالحجج السـالفةِ ذكرهم ، واشتدَّ إلى البراهين المستحدثة فَقْرُهُمْ ، فكان أبلغ [برهان] إقبالُ مثلِهِ إلى المحجّةِ عن غير رغبةٍ استفزَّته ، ولا رهبةٍ هَزَّته ، ولا محاسدةٍ أغْرَتْهُ ، ولا مناظرةٍ عزَّته ، بل أطلقَ عنـانَ عَقْلِهِ ومدَّ به راشداً حتى وقفه عـلى الصراط المستقيم ، واستتلاه قـاصداً حتى أوردَهُ إلى المنهج السليم ، فوردت النعمـةُ بتخيُّرهِ صـافيةً غـير مكدَّرة ، والمنحـةُ في استثنائه وافيةً غيرَ مقصرة ، فهنأ اللهُ الإسلامَ ما لا يزال يتولاَّهُ به من إيضـاحِ مَنَارِهِ ، وتبلُّج أنواره ، وإدامةِ صبحه ضاحكاً تتصدَّعُ عنه دياجيرُ الشبهات ، وتنجلي منه مـلابسُ الضلالات ، وهنـأ الله الشيخَ مـا رآه له أهـلاً من هـذا السناء الذي تقفُ دونـهُ هممُ المعالي ، وتضيءُ بـه ظُلَمُ الليالي ، وغـرس عنده التوفيقَ الذي يسترهن لواءَ النعمة ، ويضمنُ بقاءَ العصمة .

رسالته إلى أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري وأخيه(١)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي

هذه أطال الله لسيديَّ الشيخين في سبـوغ النعمة البقـاء ، وأدام لهما في ذروة المجـد الإرتقـاء ، وجعلني لهـما من كـل سـوء الفـداء والـوقـاء ، نفثـةُ مصدور ، وضجرةُ مأسور ، بَعَثَتْها صبَابَةٌ هوى تذكيها نارُ الغرام ، في صبابة لقاء تُقِلُّها أيدي السلام :

بـقيـةُ شِـلْوٍ كَسَّر البَـيْنُ عَـظْمَـهُ ... ومـزَّقَ جلداً كـان يسـتر مـا بقي
أقـام فـلا تلك الخـوافي تـطيعـهُ ... نهوضـاً ولا تلك القـوادم تـرتقي

ولا بدَّ للمصدورِ أن ينفث ، ولا غرو للمأسور أن يتلهث ، وجملتها أني كتبتُ وما لي جارحةٌ إلا وهي جريحةٌ حبهما ، ولا جـانحةٌ إلاّ وهي جـانحة إلى قربهما ، ولا قلبَ إلا وهو كيفما تردَّد وتقلَّبَ ففي مرضاتهما ، ولا نَفَسَ إلاّ وهو كيفما تَصَعَّدَ وتصوَّب ففي موالاتهما ، فالله يحـرس على مُـوقِدَيْ جَـزْلِ الغضا بين جنبيّ ، وَمُوفِـدَيْ جيش الصبابـة كلَّ يـومٍ إليَّ ، اللذين إن واجهتُ بهما المروءةَ أسفر مربدُّهـا ، وسرّ مكمدُهـا ، وإن قابلت بهـما الفتوة طلع سَعْـدُها وأورى زَنْدُها :

أردِّدُ فـيـهـما فـكـري ... فـترجـعُ حُـسَّـراً فِـكَـري
كـذاك الـشـمسُ تـثـني الـعَـيْـ ... ـنَ مُـعْـشَـاةً عـن الـنـظـر

فـإذا هاجتْ بـلابـلي ذكراهما ، وإن كنت لا أنساهما ، واشتقت أن أراهما ، ولم أجد عوضاً ممن سواهما :

أرومُ بـالـذكـر شـفـاءَ الـذي ... يُـقْـلقـني مـن لـوعـةِ الـذكـرِ
ولـسـتُ بـالحـاصـل إلاَّ عـلى ... إطـفـاءِ جمـرٍ بـلظى جمـر
وعـلـةُ الـكـون إذا طـولِـبَـتْ ... بـالجـري في الإفـسـادِ لَمْ تجـرِ

مثلت نفسي لديهما ، وقرَّرت مكانها بين أيديهما :

وخـلـوتُ أجْتَلِبُ الـرُّقـادَ لـعـلني ... ألْـقـى خـيـالاً منهـما فـأراهمـا
فـإذا عـدمتُ النومَ لُـذْتُ بفكـرتي ... فـانجـاب لي من ليلتي فجـراهمـا

وإذا سئلتُ بمـن تهيـم صبـابـةً ... قلتُ اللذان همـا اللذان همـا همـا

الموفيان بعهـدي بالغيب ، والسـاتران لما فيَّ من عَيْب ، والمحسنان إليَّ إذا أسأت ، والمصيبان في أمري إذا أخطأت :

دلـيـلاي إن جـار بي مُـهْـتَـدٍ ... وعـوْنَـايَ إنْ خَـذَلَ الـنـاصرُ
ولـولا تـردد فِـكْـرَيْـهـما ... لمـا كـان لي في الـدجى سـامـر

من أجْتلي غُرَرَ محاسنهما من جَبَهات الـدهـر ، وأقرأ فضـائلهما في صحـائف العصر وأطالعُ طلعتيهما في مرآة التخيل وأشـاهـد سمتيهما بعـين التفكـر والتأمّل ، ولا غرو وإن بعـد العهد ، إذا قـرب الـودّ ، ولا ضـيرَ إن تناءت الأشباحُ ، فقد تدانت الأرواح :

ولـكنْ إذا حـاسبتُ نـفسي تـأمَّلَتْ ... فلم تَـرَ إلاّ فكـرةً قـلَّ مـا تجـدي
فلا العين تـرعى غيرمـا كان من نـوىً ... ولا القلب يلقى غـيرَ ما كـان من وجدِ
وإنّي لجـاني البعـدِ والبعـدُ قـاتـلي ... وشـاحِذُ حـدِّ البينِ والبـينُ لي مـردي
فـوا أسفـا من ذا ألُـومُ عـلى النـوى ... ومن قِبَـلي كـان الفـراقُ ومن عنـدي
وكم قَـدْ أقَلْتُ الـدهـرَ من خطأٍ ثُنيَ ... فهـلاّ أقـال الـدهـر من خـطإٍ فـرد
فـنفَّسَ مـن كـربٍ وفـرَّجَ مـن أسىً ... وجمَّـعَ مـن شتٍّ وقـرَّبَ مـن بـعـد

وهيهات هو الدهر الذي يسرُّ نادراً ويسوء مبادراً ، ويحسن مبتدئاً ويسوء آخراً :

ويجـودُ ثـم يُجيـدُ أخْـذَ صـلاتـه ... مستـدركاً خـطأ الجميل فَمُـدْرِكا
فـإلى الـزمـانِ أذمُّ مـا ألـقـاه مـن ... غِـيَرِ الـزمـانِ وأستنيمُ إلى البكـا
وإذا شكـوت إلى سـواهُ صنيـعَـهُ ... لم يُشْكِـني فـإليـه منـه المشتكى

فلعلّه أن يغلطَ بـاجتمـاع ، لا يكـدّره انصداع ، أو تـلاق لا ينغصه افتراق ، وهو المرجوّ من طول الله تعالى . ولولا ما أرجوه من عَوْدِهِ إلى ما عوَّدَ من جمع الفريقـين ، ولمَّ ذات البين ، لمتُّ كمداً ، ولم أجد عـلى ما أقـاسيه جَلَداً . فأما حالي وما أنا عليه ، فجملتها أني أصبح وأمسي في غـلِّ التدبـير ، وأروح وأغدو في سجنِ المقادير ، هَدَفاً لسهام الليالي والأيام ، وغرضاً لأسنَّةِ الأحوالِ والأعوام ، أجِدُ ما لا أريدُ ، وأريد ما لا أجد :

ولـيـتـني مـن زمـاني خـرجـتُ راسـاً بـراسِ
فـلـم يـنـلـني بـخـيرٍ ولم يـصـبـني بـبـاسِ
وكـنـت أصـبـح حـراً بـين ارتجـاءٍ ويـاسِ

وهما يريان ذلك في اضطراب خطي ، ورجوع ألفاظي شيئاً فشيئاً إلى خُطّي ، فإذا هما صرفا التأمّلَ إليّ ، وأقبلا بكليّة فهمهما عليّ ، وجداني :

وقـد استحـال الهـمُّ بي فتخـالني ... من طـول مـا أجـد الجـوى مسرورا
وقـد انطوتْ منّي الضلوعُ عـلى أسىً ... لـو كـان محسـوسـاً لكـان سعيراً

وأُخْلِقْ بمن كـانت هذه صفتـه ، أن تتساوى عنده الصحّة والسقم ، وأحْرِ بمن كان هذا نعته أن يتماثل لديه الراحةُ والألم :

بـأيِّ فـؤادٍ أقـاسي الهـمـومَ ... وفي أيِّ جَـفْـنٍ أُحِسُّ الـسـهـادا
ومـا تـرك الـدمـعُ لي مـقـلةً ... ولا خـلَّفَ الـبـينُ عـنـدي فـؤادا

وأنا مع كمال هذه الأحوالِ أخاشِنُ الحجر ، وأحاسن القمر وأفاضل الهجانَ بالهَجَن ، وأُفَضِّلُ الغَثَاثَةَ على السِّمَن :

أتعـاطى نـزح الـركيِّ وقـد قصُّـ ... ـر عـن أن يـنـالَ مـاءً رشـاءُ

(١) انظر رسائل المعري ١ : ٢٥١ ، تحقيق إحسان عباس .

ولعهـدي بفكـرتي وهي تنجـا ... بُ بهـا عـن صبـاحهـا الـظلماءُ
غـيرَ أني وإن تـعَـاوَرني الهـمُّ ... وشـاء الـزمـانُ مـا لا أشـاء
ورمـاني مـسـتـيـقـنـاً أن قـلبـاً ... بـين جـنـبـيَّ صـخـرةٌ صـمَّاء
لا أبـالي بـالليـل طـالَ أم اليـو ... م، كـلا الـرتبتـين عنـدي سـواء
والمغـادي هـو المـراوح مـن هـمٍّ ... في فهـذا الصبـاحُ ذاك المسـاء
وإذا العـينُ لم تعـاينْ سـوى السُّو ... ءِ فـسـيَّـان ظـلمـةٌ وضـيـاء
وابني الهمّ لا ابنـه أنـا إذ كـلّ ... ابـن هـم بـليَّـةٌ عـمـيـاء

وبعد فهذا ـ أدام الله عزَّ سيديّ الشيخين ـ قولٌ أستغفرُ الله منه ، وأسأله التجاوز عنه ، وأسلم للمحتوم في أمره ؛ وأرضى بقدره في خيره وشرّه ، وأسأله الجمع بيني وبينها على حال تسرُّ الوليّ وتسوء العدو بحوله وطوله ، إنه ولي الإجابة والقادر عليها ، إن شاء الله تعالى .

خطبة له بين يدي الحاكم

وقف أبو القاسم الحسين بن علي المغربي خطيباً بين يدي الحاكم فقال[1] : السلام على أمير المؤمنين بقدر استحقاقه من ربّه ، لا بقدر مقال عبده ، ولا زالت الدنيا بعزّه حاليةَ الأجياد ، والأعوامُ ببناء دولته مصقولةَ الأطراف ، حتى تعودَ الأعيادُ بين أيامه في عموم المسرّة وإشراقِ نور الخلافة ، وحتى أقفَ بين يديه خطيباً بنعمةِ الله جل وعزّ في إنجاز ما وعده من مُلْكِ المشرقين والمغربين ، وحتى أرى سيوفَ انتقامه تشكو الظماء وتتعلّلُ بالأماني ، لا عدوّاً أبقت بتلهلها علقاً (؟) ولا عن باغٍ ذهلت ، رويت برويها دماً صبيباً . (كذا) .

هذا الطاغي ملك الروم بقسطنطينية قد كان خرَّقَ إزارَ السلم ، وهتكَ حجابَ الأمن ، وأطلقَ مقال الحرب ، وظنّ ما أجرى من الحديد ، وصوَّبَ من مجاري الجنود ، عاصماً له من جُنْدِ الله وملائكته المسوّمين ، وستراً على ما أنزله الله من الفتح المبين ، حتى ضعضعه زلزالُ الحروب ، وأذابته نارُ الوقائع ، فعاد يفتلُ حَبْلَ الهدنة ، ويمدُّ إليك أميرَ المؤمنين كفَّ الرغبة ، فلمّا أفرشته مراقدَ الامهال ، وأسكنته تحت ظلّ القرار ، عاد يستري ويمتري ، فهبَّ يشغب قصد القنا ، ويستنُّ فلولَ القضب ، فكيف بنبش الرسم وإحياء الموتى ، ألا وإني أقول لكم يا قومنا معشرَ أنصار أمير المؤمنين ، كما قال أخو خزاعة :

قـاتـلوا الـقـومَ يـا خـزاعَ ولا ... يـدخـلْكُـمْ مـن قـتـالهـمْ فَـشَـلُ
الـقـومُ أمـثـالـكـم لهـم شَـعَـرٌ ... في الـرأس لا يُـنْشَرون إنْ قُـتـلوا

﴿ قاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ كُلُّهُ لله ﴾ (البقرة : ١٩٣) .

﴿ ولا تَهِنُوا في ابتغاءِ القومِ إنْ تكونوا تألمون فإنَّهمْ يألمونَ كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ (النساء : ١٠٤) و﴿ عسى أن يكونَ رَدِفَ بكم بعضُ الذي تستعجلون ﴾ (النمل : ٧٢) .

هلمّوا رحمكم الله ، هلمُّوا نصركم الله ، هذا بابُ الزلفى مفتوح ، هذا رواقُ الجنةِ ممدود ، هذا أمير المؤمنين لكم أمير ، هذا جبريلُ وفتنه لكم ظهير ونصير ، ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ ينصرهُ ﴾ (الحج : ٤٠) ﴿ فإنَّ حزبَ الله هم الغالبون ﴾ (المائدة : ٥٦) وآيم الله يا أميرَ المؤمنين ، لو لم يكنْ لك إلا هيبتَكَ جندٌ ، وإلاّ فَرَسَكَ مَعْقِل ، وإلا ذا الفقارِ سَلَّة ، وإلا عَذَبتي لوائك ظلال ، لدمغهم سلطانُ الحقّ ، ورشقتهم سهامُ النصر ، والتقت عليهم خيلُ الله بالظفر ، ولكان الرعبُ في القلوب خليفةَ سيفك في قِصَرِ الهامات ﴿ وإن لكَ موعداً لن تخلفه ﴾ (طه : ٩٧) و﴿ إنَّ نصر الله قريب ﴾ (البقرة : ٢١٤) .

ثم إني يا أميرَ المؤمنين عبدك ووليُّك ابنُ أوليائك ، إن شئتَ كنتُ جمرةً تَسْعَرُ في صدورهم ، أو سحابةً تفيض على القتال ، فأجلوَ عن بصائرهم بالمواعظ ، وأحلَّ عُقَدَ صدورهم بسحرِ البيان ، وإن شئتَ فأقمني بحضرةِ سرير عزّك خطيباً بنعم الله عليك ، وناظماً بسيرة أيامك ، وسناناً تدرأ به نَحْرَ كلِّ خطيب أشرقَ في ملكٍ غيرِ ملكك ؛ فوالذي أقامك بالحقِّ إماماً ، ما سرّني بنظرةِ نظرتُها إليك ملءَ الأرض ذهباً ، ولئن كنتَ نعمَ الامام ونعم الراعي ، لأنا بئسَ المؤتمّ وبئسَ الرعيّة ، وإني لأصْدَقُ الناسِ قولاً حيث أقول فيك يا أمير المؤمنين :

[أنت] أعطيتني كتاباً إلى رضوا ... نَ حتى أُجِزْتُ خيرَ الجزاءِ

رسالة في السياسة

١ ـ حقٌ على من رسم رسماً في السياسة أن يجعله في غاية الاختصار . لأن المقصود بفائدته العظماء ، وهم مخصوصون بكثرة الأشغال ، والتسرع إلى الملال . على أن أفضلَ ما في الناس عموماً ، وفي السلطان خصوصاً ، محبَّةُ العلم والتشوقُ إلى استماعه والتقريبُ لحملته ، فإن ذلك دليلٌ على قوة الإنسانية ومن أعظم ما يَتَحَبَّبُ به إلى الرعيّة . ثُمَّ فيه مع ذلك ، استعراضٌ للتجارب ، واستعدادٌ للنَّوائب ، إذ كانت أخبارُ الأوّلين تدلُّ على آراء تجلَّتْ لهم أوائلُها ، واحتجبتْ عنهم عواقبُها . ونحن بتأملنا ما آلت إليه أمورُهم ، وأثمرَ لهم تدبيرُهم ، نعلمُ من آرائهم الأول والآخر ، والهوادي والصدور .

٢ ـ والسياسات ثلاث : سياسةُ السلطان لنفسه ، وسياسته لخاصته ، والثالثة لرعيته . فالسائسُ الفاضل إنما يُصْلِحُ نفسَه أوّلاً . ثم يصلح بسياستها رعيته ، وما يحملها عليه من الآداب الصالحة لرعيته ، فينشأ الصلاح على تدريج وتسود الاستقامة على تدريج .

باب
اصلاح السايس نفسه

٣ ـ فمن إصلاح نفسه : إصلاحُ بدنه ؛ لأنه كالقالِب لنفسه ، والوعاء لجنسه : وأول ما يلزمه من إصلاح جسمه تمرينُه على أذى القرِّ والحرِّ ، فإنَّ الإنسانَ في هذه الدنيا على جناحِ سفر ، وبإزاء غَرَرٍ وغِيَر . والرئيسُ متى اتصل نعيمُه ، ورَقَّ أديمُه ، بانَ أثرُ المشقةِ عليه ، وظهر الجورُ والعجزُ منه .

٤ ـ ومن مصالح الجسم تجويد صنعة الطعام ؛ فإنّ استطابةَ المآكل تُقَوّي الطبيعة على الاستمراء والهضم ، وبالضد أن لا يتناول منه شيئاً إلا بعد استمراءِ ما أكلهُ قبله ، ونقاء المعدة منه .

وقال لنا « صاعد » : استعمل الرياضَةَ اللائقة بك ، ولا تَكُظَّ المِعِدَةَ ، وقد أمنتَ الأمراضَ كلها .

٥ ـ ومن الحكمة في الغِذاء أن يكون لوناً أو لونين متجانسين فإنَّ

(١) الدواداري : الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية (الجزء السادس من كنز الدرر) تحقيق صلاح الدين المنجد (القاهرة ١٩٦١) ص ٣٠٩ ـ ٣١٢ ، وقال المؤلف : وهذه الخطبة لم تثبت في رسائل أبي القاسم إلا أنها ثابتة في سيرة الحاكم . قلت : والنصّ فيه اضطراب وتصحيف كثير .

اختلافَ الألوان يؤدّي إلى سوء الاستمراء ، ويجب أن يعتمد الحكيمُ على ذلك ، ويوفر غيرَه مما تُزَيّنُ بهِ الموائدُ على ندمائه وجلسائه .

ومن الحكمة فيه أن لا يستوفيَ نَهْمَتَهُ كلّها منه حتى يملأ المعدةَ ، لأن الطعام إذا بدأ بالنّضج رَبا وانتفخ ، فإن لم يجدْ في تجويف المعدة متّسعاً أعقبَ الكِظَّةَ .

٦ ـ ومن الحكمة في الشراب أن لا يبلغ الحكيم منه مبلغاً يزيل العقلَ ويُصدىء الذّهنَ ، بل ما يُكسِبُ هِزَّة وأَرْيحية . وأقبح ما بالسلطان أن يبلغ آخر أمد السكر ، فيبقى سلطانُهُ في ذلك الوقت مهملاً ، بل يجعل لنفسه وظيفةً يتعلل يشربها ولا يتعدّاها ، ويتناول منها في أول مجلسه كؤوساً وافرةً ، توقد نار الطبيعة وتذكيها . ثم يتعلَّلُ بعدها بما يستديم المؤانسة إلى أن ينقضي وقتُ الشراب ، وهو ثَمِلُ طيب النفس ، غير زائل العقل . وليحذر النهوضَ عن مجلسه وقد انهتك السِّتْرُ بينه وبين خَدَمِهِ وحاشيته .

٧ ـ ومن الحكمة في الشرب إغْبَابُه ، وإفرادُ يوم له ليتناوله على جَمَام له ونشاط إليه ، فتتوفر لذته ويكون أكثرُ زمانِهِ لما يهمه .

٨ ـ ومن الحكمة فيه إخلاء المجلس له إلا من أخص الندماء [و] قد اطُّرحت الحشمة معه ؛ وأن لا يحضر خدمته إلا العدد اليسير الذي لا يستغنى عن خدمتهم .

٩ ـ والصبر على السَّهر من أشرف صفات الملوك ، وغلبة النوم من ادونها ، ويجب أن يسهر ربعَ الليلِ الأوّل ، ويستيقظ وقد بقيتْ منه بقيةٌ صالحة ، وأن يستعين بنوم النهار ، لأنه لا يخاف من طروق حوادثه وفوتِ تلافيها . [و] مما يخاف من حوادث الليل جلب الحوادث الهائلة ، ولذلك وُجد في الحيوان المخلوق للحراسة كالكلاب والإوَزِّ طبيعةُ السهر .

* * *

١٠ ـ ومن حفظ الصحّة الحمّام ، وفيها استفراغُ فضولِ الأطعمة والأشربة . والملوكُ إلى ذلك أحوجُ من الرعيّة ، لأنَّ الرعيَّة تنفي ذلك عنها بالحركاتِ والصنائع الشاقة . ومن احتاج إلى تنقية بدنه من الفضول بالحمّام ، فليدخل البيتَ الثالث ، بمقدار ما تحتملُهُ طبيعته . ثم يصبّ على جسده بعده ماءً فاتراً ، ليجفف المسامّ ، ويردُّ الحرارة إلى قعر البدن ويمنع من كثرة التحلل . وإذا خرج منه فليحذر كلَّ الحذرِ ، مبادرة الأكل والشرب ، إلا بعد استراحة ونومة يُسَكِّنُ بها ما عرض في بدنه من التموج والإضطراب ، فإنَّ ذلك خطرٌ وجالبٌ لكثيرِ من العلل .

١١ ـ والرياضة من أعون الأمور على حفظ الصحة ، فلتكن أمراً قصداً ، وبحسب العادة والإحتمال . ومن أصلحها للملوك اللّعب بالصَّوْلجان ، لأنه مع الرياضة تخفيف للحركات ، وتعوُّد للمثاقفات .

١٢ ـ وأول سياسة الملك لنفسه : استعمال تقوى الله تعالى ، وأن لا يخلي وقته من ذخيرة يَدّخِرُها بينه وبين ربه . ثم الإكثار من تذكّرِ نعمة الله عليه في أن رفعَهُ وَخَفضهم ، وملَّكَهُ تدبيرَهم ، وفضَّلَهُ عليهم . فليواصل حَمد الله تعالى عليه ، ويجعل من مجازاة نعمة الله عليه العدلَ فيما ولاه ، والإحسانَ إلى من استرعاه ، والسَّهَرَ لنومهم ، والتعبَ لحراستهم ، وأن لا يظن أن غرضَ الوالي تحصيلُ الراحةِ والدّعَة ، بل هو أحقُّ الناس بالتّعب ، وأولاهم بالنَّصَب .

١٣ ـ واللذات إما مباشرةٌ للأعمال ببدنه ، أو تفكرٌ فيها بقلبه ، والسائس الفاضل لا راحة له بالحقيقة ، ولا طريق له إلى اللذة ، إلا بمقدار ما يُجِمُّ نفسَه في أوقاتٍ يسرقها من زمان شُغْله . فيجب أن يوازنَ بها ما يتعوضه عنه من جميل الذكر ، وجليل الذُّخْر ، ثم رضى سلطان له إن كان فوقه . ولا رتبةَ أَبْهى من رتبة العزّ ، ولا زينةَ أجلُّ من زينة المقتدر النافذ الأمر ، ولا حليةَ أَحْسَنُ من حلية الثناء والشكر .

فهذه لذاتُ الساسة الحكماء ، وأَعْوَاضُهم من الكدّ والعناء ، وإنْ هم حفظوا الأصول فقد ينالون الفروع ، التي هي اللذات ، في أوقات لا تخلُّ بأشغالهم ، فيجتمع لهم الأمران .

١٤ ـ ثم ليحذر كلَّ الحذر من تأخر عمل يوم إلى غد ، فإن لكلِّ وقتٍ شغلاً . وهذا الخُلُقُ مِنَ المُدَافعَات بالمهمات أدهى الدَّوَاهي ، التي تَتَابعَ لها الخلل ، وانهدمتْ لها الدُّول .

١٥ ـ ثم ليجتهد أن يجعل طاعةَ الخاصةِ والعامةِ لهُ طاعةَ محبة لا طاعة رهبة . فإذا أطاعوه محبة حرَسوه ، وإذا أطاعوه رهبةً احتاج إلى الإحتراز منهم . وشتان بين حالين : إحداهما تجعلُ الناسَ حراساً ، والأخرى تحوجه إلى الإحتراس منهم . ولسنا نعني بزوال الرهبة خلوَّ قلوب الرعيّة منها بالموجدة وإنما نعني أن يكونوا في حالِ رهبتهم له ، واثقين بعدله آمنين من تعسفه وظُلْمِهِ ، فتكون الرهبة حينئذ كمخافة الولدِ لوالده ، بفَرقٍ أو بأدب ، وهو يَعْلَمُ أنه لا يريدُ إلاّ خيراً له .

١٦ ـ ورأسُ السياسة إنجازُ الوعد والوعيد ، ومكافأةُ المحسن والمسيء ، والوفاءُ في الجد والهزل ، والاستخدام بالكفاية لا بالغاية ، والتيقظ للأخبار في القرب والبعد . فَمَن أحرَزَ هذا الفصل ، وأحاطَ بمعانيه أحاطَ بالسياسةِ كُلِّها ، وبالله تعالى الثقة .

١٧ ـ وليجتهدْ في إحراز الحظ الجزيل من فضائِل النفس وهي : العلم والعفة والحلم والسخاء والشجاعة :

فمن العلم معرفته بما يأتي ويذر ، وشدةُ بحثه عن كل ما جَلَّ ودَقَّ .

ومن العفة تنزهه عن المكاسب التي فضلتها الرعية ، ويجتهدُ أن تكون وجوهُ دخله مناسبةً لجلالة قدره وعلوِّ منزلته ، لا يَهْتِكُ فيها للدين ولا للمروءة ستراً ، ولا يبعثُ بها على أحدٍ من الرعيّة انتقاصاً وظلماً .

ومن الحلم تأخيرُ عقاب المُقصِّر إلاّ بعد تكرير تنبيهه ، والإغضاءُ عن أول وثان من جرمه ؛ فإذا انقطع العذرُ أوقع العقوبة بموقع السياسة لا التشفي ، والعدل لا التعدّي .

وأما السخاء فأن لا يمطلَ حقاً ، ولا يخيِّبَ أملاً ، ولا يُؤْيس قاصداً ، فإنه يستعيض بعزِّ الولاية وجاه القدرة خَلَفاً من كلِّ ما ينفقه . وليعلمْ كلُّ والٍ أنّه وكيلُ الله على ماله ، وأن عليه حقاً واجباً لكلِّ ابن سبيل ، ومنقَطِعٍ به . فليخرج إلى موكّله مما يلزمه له ، وإلا لا يأمن من استبداله به وحفظه عليه .

ومن الشجاعة أن يُشْعِرَ قلبَهُ أنه لا يجوزُ أن يكونَ الجبان ضابطاً لأمره ، ولا حارساً لرعيته ، وأنه إذا استشعر أعداؤه وأولياؤه ذلك طمعوا في عطفه ، وتدرّجوا إلى اطّراح مراقبته ، وأن يجعل وُكْدَه كلّه جمع الرجال والأسلحة والخيل والعدد .

١٨ ـ وإنْ وثق السائس بتحصيله فليدرسْ أخبار الماضين ، ليجتنب

أقبحَها ويعتمدَ أصلحَها ، فإنه بابٌ عظيمٌ من أبواب السياسة .

باب
سياسة الخاصة

١٩ ـ اعلمْ أنَّ سياسةَ الخاصة ليست كسياسة العامة ، لأن سياسة العامة استحفاظُ طاعتها ، وإقامةُ الرغبةِ والرهبة فيها ، وإفاضةُ المَعْدَلةِ عليها ، من غير أن يحدّثَ نفسه إلزامها الآداب الصالحة ، فإن ذلك عسيرٌ لا يرام . لكنَّ الخاصة يجب أن يعتنى بإصلاح أخلاقها ، وتهذيب آدابها ، لتقوى على حقوق الخدمة التي تلزمها . وإذ كانت للرئيس ، فهي كالأعضاء للبدن ، فمتى لم تكن الأعضاءُ على الهيئة الفاضلة ، أو عرض لها أمرٌ يثني كلها أو بعضها عن فعلهِ الأصليّ الموظَّفِ له ، وقع الإضطرابُ في جملةِ البدن .

٢٠ ـ وأول ما يجبُ اعتقاده في هذا الباب أن السائسَ لا يستغني عن تثقيفِ خاصَّته ، وتفقُّدِ أحوالهم ، وتقويم زَيْفهم ، وإن كانوا حصفاء أسداداً . مَثَلُهُ في ذلك كالصانع الذي يحتاج في صنعته إلى آلات ، وتلك الآلاتُ لا يجوز أن تبقى على حالها مستقيمةً بل منها ما يكلُّ فيشحذه ، ويعوجُّ فيقومه ، ويفسد فيصلحه . وكذلك السائس يجب أن تكون له عينٌ راعية ، تتفقد أصحابه ليتلطفَ في تثبيت صلاحهم ونفي فسادهم بما يتهيأ .

ومما يحتاج إليه في هذا المعنى أن لا يعتقد أنه إن استغنى أو استكفى كافياً أمراً يهمه ، فقد استغنى عن تفقده وتعهده ، بل يجب أن يتصورَ أنه مضطرٌ إلى مراعاته ، وملاحظته بنفسه ، كالأستاذ في الصنعة ، الذي يكِلُ إلى تلاميذه ما يصنعونه ، إلا أنّه يراعيهم ليأمنَ خللاً يجري فيه .

وهذا أصلٌ عظيم ينبغي أن يوقف الفكر عليه والإهتمام به .

٢١ ـ ويجب أن يستخدم خواصَّه على المخالصة والمحبة الصرف بلا مزاج ، وطريقة أن يستعمل معهم أربعَ خصال .

أولها : الإحسان إليهم ، فقد « جُبِلَتْ القُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا » ، وأن يتفقد أحوالهم فيلمّ شَعَثها ابتداءً قبل المسألة ، ليدلَّ على خلوص الإهتمام ولطف العناية . فإن قليل الابتداء أهنأ وأحسنُ موقعاً من كثير العطاء بعد السؤال .

وثانيها : بسط آمالهم بالعفو عن الزلل .

والثالث : أن لا يستقصي عليهم في أزمنة خدمتهم ، حتى لا يجدّد ترحة لراحة نفوسهم ولذاتهم . ولكلِّ إنسان وطرٌ يجب أن يقضيه ، ويتنغص عيشهم بمناقشته فيه ، ويلحقهم بالإستقصاء ضجرٌ وملال ، يُفْسِدُ الخدمة . فإذا سَاهَلَهم الرئيس بعضَ المساهلة كانوا في خدمته أنشطَ ، ومحبته أبداً في قلوبهم تنمي وتتجدد .

والرابع : أن يُؤَمِّنَهم إسراعَهُ إلى قَبُولِ كثيرٍ من ثِقَلِ الأصحاب . وأقلُّ ما يوجد في الناس الكافي الأمين ، فإذا اجتمعا فهو الجوهر الثمين :

١ ـ فأما كاتب الرسائل فمن يوثق بكتمانه ، بليغ في بيانه ؛ فإن العبارة الحسنة تؤثر آثاراً عجيبة في القلوب ، ويكون مُتَفَنِّناً في العلوم ، وأن يطالَبَ فيوجدَ عنده علمُ كلِّ ما ورد إليه وصدر عنه ، في أوقاته .

٢ ـ وأما الحاجب فطلق الوجه مقبول الشمائل محبَّبٌ ، ليوصلَ من يصلُ بإكرام ، ويصرفَ من لا يؤذَنُ له برفق ولطفِ كلام . ويجب أن يعرفَ طبقاتِ الناس كلِّها ، لينزلهم منازلهم ، ويُطالب بإنهاء كلِّ من يحضر في وقته .

٣ ـ وأما جابي الأموال فَحَسَنُ المعاملةِ للرعية ، منصفٌ منتصف ، مع طَلَق نَفْس ، وطبيعة في التمشية والرفق ، وأن يعتبر في كل وقت بمسألته عن دخله وخرجه .

٤ ـ وأما قائد الجيش فيكون شجاعاً فارساً عارفاً بآلات الجندية ، ذا حظٍّ من الرأي ، ويُطالبُ بمعرفةِ أحوالِ الجند المضمومين إليه ، ليعرفَ الحاضرَ من الغائب ، ويلزمهم الباب ، في أكثر الأوقات ، بالعُدَدِ التامة ؛ ليُرْهِبَ بذلك رسل الملوك ، وجواسيسَ الأعداء .

٥ ـ وصاحب الشرطة مهيب المنظر عبوس ، جليل في العيون ، غير ذي دعابة معروفة ، ويؤخَذُ بالإشتداد على أهل الريب ، ويتتبعهم في مكامنهم ، صاحب ثقة معروف بالصدق ، ناصح أمين ، معتدل الطبائع ، قليل العُلَقِ في المعاملات ، ولا يقيل عثرةَ من كَذَّب بنهيه ، فإن التدبير كله على قوله :

٦ ـ والحاكم يجب أن يكون عالماً عاقلاً مأمون الباطن غنيَّ النفس .

٧ ـ والمحتسب أمين ثقة حميد السيرة عارفٌ بوجوه المكاسب والغشوش ومصالح الرعية .

ومظالم الناس صنفان : صنفٌ ظاهرٌ كالفسق المجاهر به ونحوه ، وصاحبُ الشرطة يتولاه . وصنفٌ مكتومٌ ، والمحتسب يتولاه . وربما كانت مظالم هذا النوع أعظمَ ضرراً من النوع الآخر لأنها خافيةٌ لا يُهْتَدَى إليها .

٨ ـ والمختار المتوجه في الرسائل حسن الرواء ، مقبول ناصع اللسان حافظ لما يقوله ولما يُقالُ له ، يؤمن في التحريفِ والتمويه .

باب
سياسة العامة

٢٢ ـ العامّة هي الموضوع الذي بكثرته يتسع الملك ، وكلما كثروا كان الملك أوسع . وإصلاحُ العامَّةِ عسيرٌ لكثرتهم ، وقلةِ التمكن من مداواة الفساد العارض فيهم . فإنَّ الملك ، عند اضطرابهم ، إنْ رامَ شفاء غيظه منهم لم يتمَّ له ذلك ، إلا بخرابِ بعض العمارة ، وبلوغ ما زعزع من أركان السياسة . فليجتهد في حفظ نظامهم ، وأن لا يحوجوا إلى بلوغ هذه الغاية فيهم .

٢٣ ـ ويستدل على حزم الملك بحسن سياسة الرعية ، وجمع كلمتهم على طاعته ، للتباين الموجود في أهوائهم . وإنَّ الشّدة والعنف لا تصلحهم ، واللين والمساهلة لا تجوز في معاملتهم ، فمنهم من تفسده الكرامة ، ومنهم من تفسده الإهانة .

٢٤ ـ وأول ما يجب في سياستهم : معرفة طبقاتهم ، وتمييز سرواتهم ، فيطالبهم بالخدمة له ، والسعي إلى بابه ، إلاّ مَن ظهر عُذْرُهُ وبانَ عجْزُه . ولا يجوز للزهّاد والعلماء الإنقطاع عنه ، إلا مَنْ وقعتْ اليمينُ الخالصةُ بانقطاعه إلى الله تعالى بالكليّة واعتزال الكافة . ويترك ما تختلط به الرعيّة ، كأبي عليّ ابن أبي الهيش على شأنهم ، والتبرك بدعائهم والحذر من الإثم فيهم .

وأما من دونهم ، من المتشبهة بهم ، فليوسعوا عدلاً واستخداماً ، ولا يكونوا من التصوّن عن مجالس الملوك ، والسعي إلى أبوابهم ، فإن في ذلك

فساداً ، قد شَرَحَهُ « أَرْدَشير » في « عَهْدِهِ » ، يغنينا عن ذكره .

وهؤلاء الذين يطالبهم الملك بقصد بابه ، فلهم عليه حقٌّ يقتضي تعرف أخبارهم ، وصيانة جاههم ، وترتيبهم في مراتبهم ، واختصاص كل واحد منهم من ذلك ، بما يقتضيه طبعه في الخير والشر والنفع به والضر .

ثم يبالغُ في إكرامِ الأخيارِ من الطبقات التي دون ذلك وقمعِ الأشرار ، وقصدِ مَنْ يتحقق بطاعته بمجازاة تزيد في بصيرته ، والانحاء على من ينحرف عن موالاته بما ينكّله وينكّل غيره عن مثل طريقته ، ثم إفاضة العدل العام الذي ينال كلٌّ منهم نصيبَه الموفورَ منه . ثم تسهيل الإذن بقلع الظلم من أصوله ، وغرس محبّةِ الوالي في قلوب الرعيّة . ثم حفظ أطرافهم وأمان سبيلهم ، لتتوفر معايشهم ، وتدرَّ متاجرهم ؛ واستعمال العقوبة الناهكة بأهل الدّعارة واللصوص من القتل المُبير والحبس الطويل ، فهم كالشوك بين الزرع ، لا ينمي ولا يصلح إلا بتنقيته منه . ثم التعطف على الضعفاء وترفيههم عن الكلف السلطانية ، من تسخير لهم أو استعانةٍ بهم .

٢٥ ـ وليعلم أن كثيراً من الفتن تهيج بشكاية الضعفاء ، وحقد الأغنياء . ويجب أن يتناولَ ما بَعُدَ منهم من السياسة والعدلِ بمثل ما يتناولُ به القريبَ أو أكثر ، وليس بسائسٍ من خصَّ بحزمه بعضَ ملكه . وَمَثَلُ العارضِ البعيد ، إذا لم يستدركْ عاجلاً ، كمثلِ العضوِ يسقمُ من البدن ، فإن تلوفي وإلا سرى فسادُه في الجسد .

٢٦ ـ ولا يكوننَّ الملك لشيءٍ أنكر منه لِرُشَا العمال والأصحاب ، فإنها رأسُ الجورِ والفساد ؛ وصلاحُ الأطرافِ البعيدة بشيئين : رفعُ الحجّاب للمتظلمين ، وبعثه في كلِّ وقتٍ الأمناءَ الثقات المتعرفين .

٢٧ ـ ومما يحتاج إليه ـ وقد مَرّ نبذ منه ـ : تعهدُ ذوي الأخطار والعلماء وأهل الأبواب بالتقريب ، واختصاص الواحد منهم بعد الواحدِ بالتأنيس والإكرام والمؤاكلة والمنادمة . ولا يجعل أنسه كلَّه مقصوراً على خاصته ، وليكن ما يفعله من أمر هؤلاء الأماثل بَدَداً غير محصور ، والغرضُ فيه الإيناس وإزالةُ النفور .

٢٨ ـ ثم إحسان مجاورة جيرانه في الممالك التي تلي مملكته ، فحالُه معهم كحال الواد من السُّوقة مع جيرانه ، لما أُسستْ عليه الدنيا من الحاجة إلى التعاضد . وأن يُبَالغَ في برِّ الواردين عليه من رسلهم ، وأن يتصنّع لهم بتفخيم مجلسه ، وإظهار جماله وزينته ، ومظاهَرةِ بِرِّه لهم وتكرمته . والله الله أن يُطيل حبسَهم عنده ، ففي ذلك من الفساد ما يطولُ شرحُه ، والمدةَ التي يقيمونها ، فليكونوا محروسين ملحوظين من مخالطةِ أحدٍ من الخاصّة والعامة إلا من عرفه الملك .

٢٩ ـ ثم يتفقد مدينته بل مدنه كلَّها بضبط طرقها ، ومعرفة من يدخلها ويخرج منها ، والوقوف على الكتب المختلفة إلى أهلها من التجار وغيرهم ؛ وليضبط مدينَته ضبطَ الرجل من الرعيّة داره ، ولا يخرج عنها أحدٌ إلا بجواز ، ولا يدخلها إلا بإذن .

٣٠ ـ ثم يوكل فكرَه بالأخبار ، والبحثِ عن الأسرار فيما قرب منه وبعد عنه ، وجاوره من وليٍّ وعدو ، ومبلغ ما عندهم من عُدَّة ، وما يتجدد لهم من عزيمة . وهذا أمر يجب أن يسمح به بكلِّ نفيس ، ولا يضنُّ عنه بمالٍ ولو كثر ، فربما دهمه من مجاوريه ، على غفلة ، ما يودُّ لو سبق به علمه ولو أنفق الأموال الجزيلة عليه ، وبالله التوفيق .

وكتب إلى بعض الرؤساء : ثقتي بكرمك تمنع من اقتضائك ، وعلمي بأشغالك يبعث على إذكارك .

وكان يقول : لا تعتذر إلى من لا يحب أن لا يجد لك عذراً ، ولا تستعن إلا بمن يجب أن تظفر حاجتك .

ومر بمكتب والمعلم يضرب صبياً ضرباً مبرحاً ، فالتفت إلى من معه وقال : إن الله تعالى أعان على عرامة الصبيان برقاعة المعلمين .

ومن كلامه : العمر علق نفيس لا ينفقه العاقل إلا في ما هو أنفس منه .

قال الحسن بن أسد أبو نصر الفارقي[٢] : مرَّ بي الوزير المغربي فوقف عليّ وقال : نحن بالأشواق إلى لقائك ، لما ينتهي إلينا من تلقائك ، فلو زرتنا لأنسنا بك ، فقلت له : قد كففتُ ذيلَ مطامعي ببيت قلتُهُ ، فقال : وما هو ؟ فأنشدته :

إذا شئتَ أن تحيا عزيزاً فلا تكنْ ... على حالةٍ إلا رضيتَ بدونها

قال : فصفق المغربي وقال : أيها الشيخ هذا بيت تبرٍ لا بيت شعر .

قلت [ابن العديم] : وجدت هذا البيت في بعض الكتب منسوباً إلى شاعر قديم[١] .

نصوص من أدب الخواص

أنشد[٢] يوماً سيف الدولة أبو الحسن بن حمدان في مجلسه القافية التي أولها : « إن الخليطَ أجدّ البينَ فانفرقا » يعني من شعر زهير بن أبي سلمى ، فأبدى استحساناً لها ، فقال النامي المصيصي أبو العباس أحمد بن محمد الدارمي : أراك كلفاً بها أفتحبُ أن أمدحك بخير منها ؟ قال : نعم أشدَّ الحبِّ ، فلما كان بعدَ أيامٍ لقيه راكباً على نهر حلب المسمّى قويق ، قال : فترجّلَ ووقف عليه سيف الدولة ، وأخذ ينشدُ قصيدة في غاية الحسن أولها :

ما أنت مني ولا الطيفُ الذي طرقا ... رُدَّا الكرى واستردَّا منّيَ الأرقا

فأراد سيف الدولة كيادَهُ والعبثَ به ، فأعرض عنه وأظهر استنقاصاً لشعره ، فقطع الانشادَ في وسطِ القصيدةِ وركب ومضى ، وسيفُ الدولة يراه ، إلى شاطىء النهر ، فخرّقها وغَسَلها ، فاحتمله سيفُ الدولة ولم ينكرْ ما كان منه ، ودرستْ آثارُ هذه القصيدة فليس توجد في ديوانه .

امرؤ القيس[٣] بن السمط بن امرىء القيس بن عمرو بن معاوية بن الحارث ، وهو الولادة ، سمي بذلك لكثرة ولده ، ابن معاوية بن ثور بن مرقع الكندي ، وفيه يقول امرؤ القيس بن حجر :

ألا هل أتاها والحوادث جمة ... بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا

وذلك أنه كان قد صحبه حين خرج من عند المعلى يريد قيصر فلم يزل

---

(١) فيما رواه الحميدي (جذوة المقتبس : ١١٨) عن ابن حزم أنه قال ، أنشدني الوزير أبي في بعض وصاياه لي :

إذا شئت أن تحيا غنياً فلا تكن ... على حالة إلا رضيت بدونها

ووالد ابن حزم توفي قريباً من أربعمائة ، وحوار الحسن بن أسد الفارقي والوزير المغربي تمّ في ميافارقين وذلك بعد سنة ٤١٥ ؛ فمن المستبعد أن يكون هذا البيت للفارقي ، بل هو أقد عصراً منه ، ووصل الأندلس قبل الأربعمائة .

(٢) بغية الطلب ٢ : ٣٦ .

(٣) بغية الطلب ٣ : ٣١١ .

معه إلى أن فارقه بأرض الروم ، فلذلك قال : « بيقر » أي سافر ، وقيل أتى أرض العراق ، وتملك : والدة السمط ؛ وقال آخرون من أهل النسب ثقات : الذي عناه امرؤ القيس هو امرؤ القيس بن المنذر بن امرىء القيس بن السمط والله أعلم [ذكر هذا كله أبو القاسم المغربي في كتاب أدب الخواص] .

أول[1] ما سمع حجر من شعر ابنه امرىء القيس قوله :

اسقيا حجراً على علاته ... من كميت لونها لون العلق

وإني لأستقبح أن يقول قائل لأبيه : « على علاته » وأظن ذلك هو الذي غاظ حجراً ، فلما سمعه أمر الساقي بلطم وجهه وإخراجه ونهاه عن قول الشعر ، ثم سمعه يوماً وهو يشرب من فضلة أبيه وهو يقول :

وهو تصيد قلوب الرجال ... وأفلت منها ابن عمرو حجر

يعني هر بنت سلامة بن عبد الله بن عليم من بني كلب ، وابنها الحارث ، وهو الملقب بالخرساء ، وقيل إن هراً جارية كانت لأبيه ، والأول أصح ، فوثب إليه أبوه فضربه ، وأمر مولىً له أن يقتله فلم يقتله ، وأظهر قتله ، ثم ندم على ذلك . . .

وقيل إنه لما قتل حجر تنازع امرؤ القيس ابنه وثعلبة بن مالك أحد بني عمرو بن معاوية بن الحارث بن معاوية بن كندة في الملك بعده ، فأجمعا للحرب ، فأكمن امرؤ القيس أصحابه وبرز إلى ثعلبة وحده وطعن فيهم فحملوا عليه فولى هارباً وهم في طلبه ، فخرج عليهم أصحاب امرىء القيس فكسروهم وأسر ثعلبة وقتله صبراً وقال :

لا وأبيك ابنة العامريّ ... لا يدعي القوم أني أفرّ[2] . . .

[و] بعض الناس يظن أن وفادة امرىء القيس إلى الروم كانت للإستجاشة على بني أسد وليس كذلك ، وإنما سببها أن المنذر بن ماء السماء اللخمي لما عاد إلى الملك أيام أنوشروان أنفذ في طلب بني آكل المرار جيشاً من بكر وتغلب ، فأسر منهم ستة عشر رجلاً وقيل اثني عشر فضرب أعناقهم بالحيرة في دور بني مرينا ، وهي تسمى لذلك تل الأملاك ، ولذلك قال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا ... وأبنا بالملوك مصفدينا

ونجا امرؤ القيس بالهرب ولجأ إلى هانىء بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان فاستجاره فلم يجره ، فأتى سعد الضباب الإيادي وكان سيد قومه في وقته فأجاره زمناً فمدحه وهجا هانىء وقيل إن أم سعد كانت تحت حجر فطلقها وهي حامل فتزوجها الضباب فولدت عنده سعداً فنسب إليه . ثم تنقل في الأحياء في طيء [وذكر الوزير كثيراً ممن نزل عليه ثم قال] : إنه نزل على المعلى بن تيم بن ثعلبة بن جدعان بن مقصور واسمه لوذان بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعدٌ بن فطرة بن طيء ، فلما تغيب المعلى عن بيته اغتنمها المنذر وقصد بيته وفتشه فأدخل ابنه امرأ القيس إلى نسائه فلم يجده عندهم ، وعاد فمدحهم امرؤ القيس :

كأني إذ نزلت على المعلى ... نزلت على البواذخ من شمام

فما ملك العراق على المعلى ... بمقتدر ولا الملك الشآمي

أصد نشاص ذي القرنين حتى ... تولى عارض الملك الهمام

أقر حشا امرىء القيس بن حجر ... بنو تيم مصابيح الظلام

فسموا مصابيح الظلام لهذا القول . ثم خرج امرؤ القيس من فوره يريد قيصر .

[وذكر أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ في تقدير ما بين رسول الله (ص) وبين امرىء القيس أنه نحو مائتي سنة أو مائة وخمسين سنة وأورده في الحيوان] وقال الوزير ابن المغربي : والصحيح الذي يوجبه التقريب في التقدير أن بين مولد النبي (ص) وبين موت امرىء القيس خمساً وخمسين سنة ، وبين مولد النبي (ص) وبين هجرته ثلاثاً وخمسين سنة .

وقيل إن امرأ القيس لما حصل عند الملك مستغيثاً به على من قتل أباه من العرب زوجه الملك بابنته وأعطاه الرجال وخرج من عند الملك ، فتخلفه الطماح قبيحاً وأوغر عليه قلب الملك وقلب ابنته فأعطاه خلعة مسمومة وقال : الحق امرأ القيس وادفع إليه هذه الخلعة وقل له : إن الملك أكرمك بهذه الخلعة من جسده ، ففعل ، فأعطاه الحلة فلبسها ، وعلم أنها مسمومة فقال :

وقد طمح الطماح بي من بلاده ... فلبسني من دائه ما تلبسا

وبدلت قرحاً دامياً بعد نعمة ... فيا لك من نعمى تبدلن ابؤسا

[و] إن امرأ القيس بن حمام الكلبي تبع امرأ القيس بن حجر حين قصد ملك الروم حين خرج من عند المعلّى يريد قيصر ومرَّ بكلب ، فتبعه منهم امرؤ القيس بن حمام الشاعر ، وكان من المعمرين وعاش مائتي سنة فيما قالوا :

نصوص من كتابه
المأثور في ملح الخدود

- ١ -

حدثت[3] عن أبي علي أحمد بن نصر المعروف بابن البازيار الأديب الكاتب الظريف ، وكان قد صحب سيف الدولة رحمه الله دهراً فذكر الحكاية [حكاية أعرابي قدم على عير وشكا إليه أنه أفقر عشيرته فقال له عليك بالإستغفار] .

- ٢ -

[بعد أن ذكر الحسين بن سعيد بن حمدان قال][4] : وأخواه أبو الهيجاء حرب ابن سعيد كان بالعراق وتلك الديار ، وكان جليلاً ممدحاً ، وفيه يقول سري بن أحمد بن السري الكندي :

ولو لم أكن جار الأمير لكان لي ... أديم بظفر النائبات ممزق

بجود أبي الهيجاء ألبست نعمة ... مجددة تضفو علي وتشرق

(١) بغية الطلب ٣ : ٢٩٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ .
(٢) علّق ابن العديم عند هذا الموضع بما موجزه أن هذا البيت قاله بعد مقتل أبيه ، مع أنه من القصيدة التي جاء منها « وهو تصيد قلوب الرجال » وقد أفاد أنه قاله وأبوه حيّ ، وهذا تناقض .

(٣) بغية الطلب ٢ : ٨٨ .
(٤) بغية الطلب ٤ : ٩٥ .

وفيها يقول :

إذا ما اعتنقنا خلت أن قلوبنا ... تناجي بأفعال النوى وهي تخفق

وله فيه :

أنت سعد الكفاة يا ابن سعيد ... وكفاهم بأن تراءوك سعدا
أنا حرٌّ إذا انتسبت ولكن ... جعلتني لك الصنائع عبدا

- ٣ -

ومن(١) ولد أبي الهيجاء أبو محمد الحسن وأبو الحسن علي : ناصر الدولة وسيفها رحمها الله ، المتجاذبان ملاءة المجد ، والجاريان على ساقة الكرم والفضل ، وفي مدحهما يقول أبو العباس أحمد بن محمد الدارمي النامي المصيصي رحمه الله :

بجبلي وابل ركني عزها ... وعارضي أفق نداها المنهمل
توازن القسمان في المجد اعتلا ... تساوي العينين في اللحظ اتصل
يا حسن ابن المحسنين دعوة ... للمجد تدعاها وأخرى للوهل
ويا علي كم دعاء بك من ... ثغر مخوف ورجاء مبتهل
هذا مقامي بين بحرين فلا ... ثمداً منحت ظمأي ولا وشل

- ٤ -

قال الوزير(٢) : وحدثني أبي قال : سألت الحسين بن بكر الكلابي النسابة قال : وكان أحفظ خلق الله لأنساب العرب وأخبارها ومثالبها ومناقبها عن السبب في استرذال العرب غنياً وباهلة فقال : والله إن فيهما لفضلاً غزيراً وفخراً كثيراً ، غير أنه غمرهما فضل أخويهما فزارة وذبيان من غطفان بن سعد بن قيس عيلان ، وكذلك أصغر من في ولد حمدان أكبر من كبراء غيرهم .

- ٥ -

سعيد بن حمدان(٣) بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن الرشيد بن المثنى بن رافع بن الحارث بن غُطَيف بن مُحَرِّبة بن حارثة بن مالك بن عبيد ابن(٤) بن عدي بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، واسم تغلب دثار ؛ وبعض حساد هؤلاء القوم يرميهم بالدعوة ويقول إنهم موالي إسحاق بن أيوب التغلبي ، وذلك باطل ، وأصله أن كثيراً منهم أسلموا على يد إسحاق هذا ، فتطرق القول عليهم لأجل ذلك ، وقد قال الشاعر :

إن العرانين تلقاها محسدة ... ولن ترى للئام الناس حسادا . . .

كان أبو العلاء سعيد بن حمدان ملازماً ببغداد وخاصاً بحضرة المقتدر ، قالوا : فكانت أكثر مواقفه على بابه [وكان أمر الرجالة قد عظم] وكانوا في بعض الأوقات ساروا إلى قصر المقتدر مشغبين عليه فهزموا محمد بن ياقوت والحجرية والساجية ، وكان أبو العلاء في دار المقتدر على غير أهبة ، فأمره بالخروج إليهم ودفع إليه جوشن المعتضد بالله ودرع وصيف الخادم ، فظاهر بينهما وخرج مع من حضر من غلمانه ، فضرب فيهم بالسيف وغشوه من كل باب وأثخنوه بالجراح فثبت حتى هزمهم ، فقال فيه هوبر الكناني من ولد هوبر صاحب تغلب في حرب قيس وتغلب قصيدة يمدحه فيها ، منها :

يبرزون الوجوه تحت ظلال الموتِ والموت منهم يستظل
كرماء إذا الظبا واجهتهم ... منعتهم أحسابهم أن يزلّوا . . .

وكان أبو العلاء شاعراً يعد من شعراء بني حمدان ، وكان أوقع ببني عقيل بموضع يقال له شرج من أرض العالية ، وراء نجد ، فظفر بهم بعد قتال شديد وقال :

نبئتها تسأل عن موقفي ... بأرض شرج والقنا شُرَّعُ
وعن عُقَيل إذ صبحناهُمُ ... وقد تلاقى الحُسْر والدرّع
وقد أتانا منهم فيلق ... حام حماه ما له مدفع
شددت فيهم شدَّ ذي صولة ... قد جربته الحرب لا يخدع
إذ فلقت هام أسود الوغى ... وَقُطِّعتِ الأسوقُ والأذرع

[ووجدت في هذه الأبيات زيادة قرأتها بخط الوزير أبي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين وهي بعد البيت الثالث] :

حتى إذا ما كشرت نابها ... وعيف كأس الموت لا يكرع
تجني نفوساً بين سمر القنا ... فهي ككر الطرف أو أسرع

وبعد بقية الأبيات ختمها بقوله :

لا تزجريني عن طلاب العلا ... ما إن ينال العزّ من يضرع
أنا سعيد وأبي أحمد ... بالسيف ضرّي وبه أنفع

أراد بقوله : وأبي أحمد « حمدان » لأن اشتقاقهما واحد .

وغزا أبو العلاء سنة تسع عشرة وثلاثمائة فأوغل في بلاد الروم وقتل وسبى وغنم ، وكان معه خمسة آلاف فارس من العرب ، كل ألف بلون من الرايات والعذب على أرماحهم ، وهذا منظر عجب إذا تصورته ؛ وأبو العلاء فيها قالوا ضمن عن بني البريدي ستمائة ألف دينار ثم أمرهم بالهرب ، ودارى السلطان عنهم حتى أصلح أمرهم وأقرهم على أعمالهم فما دخلوا مدينة السلام إلا مالكيها ، وأهدوا إلى أبي العلاء هدية بألف ألف درهم فلم يقبل منها إلا عمامة خز .

- ٦ -

خالد بن الحارث بن أبي خالد قيس بن خلدة بن مخلد ، وقد قيل مخلد بن عامر بن رويبل بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد واسمه دراء بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان الأنصاري [هكذا نقلت نسبه من خط الوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ، قال : وفي صلة نسب قحطان كلام ليس هذا موضعه](٥) .

قرأت بخط الوزير أبي القاسم المغربي ، قال أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمارة النسابة المعروف بابن القداح مولى بني ظفر من الأوس في كتابه الذي صنفه لنسب الأوس والخزرج : كان أبو خالد الحسن بن قيس هذا

(١) بغية الطلب ٤ : ٢٦٠ .
(٢) بغية الطلب ٥ : ٢٧٤ .
(٣) بغية الطلب ٥ : ٢٧٤ ، ٨ : ٢٩٣ ، ٢٩٤ .
(٤) قال ابن العديم (٥ : ٢٧٤) ونقلت نسبه (أي حمدان) هكذا من خط الوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ، وبيض ما بين عبيد وبين عدي وضبب عليه ، إما لأنه لم يعرف اسم من بينهما ، وإما لأنه شك في ذلك .
(٥) بغية الطلب ٦ : ٣ .

بـدرياً عقبياً وابناه خـالـد ومخلد صحبـا النبي (ص) وحضرا صفـين فقتـلا يومئذ ، وأمهما أميمة امرأة من بني زريق من قومهما فقالت :

أعـيـنـيَّ جـودا بـدمـعٍ سرب عـلى فـتـيـةٍ مـن خـيـارِ الـعـربْ
ومـا ضرَّهم غـيرحـين النفـوس أيّ أمـيـريَّ قـريشٍ غـلـب

تذييل

- ١ -

أنفذ الوزير إلى أبي العلاء المعري قصيدة فعلق عليها أبو العلاء بقوله : « والله لـولا أن يقـال غـاليت ، لكتبت تحت كـل بيت ، فليعبـدوا رب هـذا البيت » .

- ٢ -

الرجل الذي توفي بجـدة وصادر أبـو الفتوح أمـواله يـدعى : المطوعي وهو من الفرس ، وكان عنده أموال الهند والصين (أي كان تاجراً يتعامل مـع الشرق الأقصى) وخلف مـالاً عـظيـماً وأوصى لأبي الفتـوح بمـائـة ألف دينـار ليصون بها تركته والودائع التي عنده .

- ٣ -

كان للوزير المغربي مملوك ، وكان شديد المحبة له ، وكان رومياً ، وكان أحد أولاد بطارقة الروم ، فبلغ خبره أباه ، فسـأل ذلك البـطريقُ ملكَ الروم أن يـرسلَ من يستخلصُ ولـده ففعل ، وأنفـذ رسولاً إلى ابن مـروان صاحب ديار بكر ، فلما وصل الرسول استدعاه الوزير المغربي وسقاه الخمر عنده تكرمةً له ، فلما عملت الخمر في الوزير قال ذلك الـرسول : أريـد من إنعام الـوزير يبيعني هذا الغلام ، فقال : هو لـك هبةً ، فـأخذه من سـاعته ، ونفـذه على خيلٍ قد أُعِدَّت في كلِّ فرسخ فـرسٌ ، فلما أصبح الـوزير استـدعى الغلام ، فقيل له : إنك قد وهبته من رسول ملك الروم ، فاستدعاه من ساعته وطلب منه الغلام فقال : أيها الوزير ، ذلك قد قارب بلادَ أبيـه ، بلى ، مهـما أردت من الثمن أعطيتك ، فقـال الوزيـر : ما كنت لأُذهِب محبـوبي ومروءتي ، قـد وهبتُهُ منكَ خالصاً ، ثم قال :

يـا من غـدا جبـلُ الـريّـان يحجبُـهُ ليس التصـبرُ عن قلبي بمحجـوب
أفلتَ قلبيَ من صـدري وأطلبُـهُ من بعد ما صار في الشمِّ الشناخيب
فـاشمتْ ولا تَـرْثِ لي ممـا أكـابـده يـدي لعمرك كـانت أصـلَ تعـذيبي
علمتني الـحـزمَ لكـن بعـد مُـؤْلمـةٍ إن المصـائبَ أثمـانُ التـجـاريب

[قلت : انظر المقطوعة رقم : ١٤] .

- ٤ -

حدث العطوي الشاعر قال : دخلت يوماً على الوزير المغـربي بالمـوصل وهو جالسٌ على ضفة نهر يخرقُ عَرْصَةَ داره ، وبين يديه حا[illegible]ا فلقةُ قمـرٍ تسقيه وتنادمه وهو يقول :

نـديمـتي جـاريـةٌ سـاقـيـةْ ونـزهـتي سـاقـيـةٌ جـاريـةْ(١)

فحكيتُ هذه الحكايةَ لأبي العلاء المعري وأنشدتـه البيتَ فقال : هـذا هو الطبع لا ما ينعقه ذلك الرجل الذي يقول :

أبـى ريـقـه أبـاريـقـه ، أو كـارهـا أو كـارهـا

يعني البستي .

- ٥ -

حَدَّث الصاحب الوزير جمال الدين الأكرم ، وناهيك به معرفةً لأخبـار الأيام ، خصوصاً ما يتعلق بحـوادث مصر قال : لمـا قدم أبـو الحسن علي بن الحسين وولده أبـو القاسم إلى مصر وبهـا الحاكم تلقـاهما وأنـزلهما وأكـرمهما ، وعرف لهما حقَّ الكفـاية والبيتِ والأدب ، وعـيَّن لأبي الحسن علي بن الحسين خدمة . واتفق أن دخل أبو القاسم يوماً إلى الحاكم وكـان أبو القـاسم ذا هيئة ورواءٍ وجسمٍ وشارة مستحسنة ، فأعجبَ الحاكمَ ما رآه من فخامـة منظره ، فخاطبه فـوجده لَسِنـاً حسنَ المحاورةِ أديبَ الألفـاظ ، فخفَّ على قلبـه ونَفَقَ عليه وأمره بملازمة مجلسـه ، فتكلم أبو القـاسم يومـاً بشيء استحسنه الحـاكم فقـال له : يـا أبا القـاسم احتكم فيـما شئتَ حتى أبلِّغكـه ، فقـال : نعم يـا مولانا ، أحبُّ أن تهبَ لي نفسي ولا تقتلني ، فتبسم الحاكم وقال : ما موجبُ هـذا الاقتراح ؟ فقـال : يعلم مولانـا أنَّ العصمةَ تفـرَّد بها الأنبيـاء وأنا فبشرٌ أخطيء وأصيب ، فأخافُ بادرةَ خطاء يكون فيها حتفي ، وقد رأيتُ ذلك في جماعة من أولياء مولانا ، والسعيدُ من وُعِظَ بغيره ، فقال : لك ذلك ، فقـال أبو القاسم : أحبُّ أن يكتبَ مولانا خطَّه بذلـك ، ويعطيني تـوثقةً من نفسـه به ، فقد أوجبَ هذا الإنبساطَ سـوءُ الأدب في لحظاتِ تحكيم مـولانا إيـاي . فـوجد من الحـاكم وقفةً في ذلـك ، فقال لـه : لا بأس ، نحن عبيـدٌ والمـولى مالك ، وأرجو أن لا آتي بما يكـره مولانـا ، وأعيشَ في نعمته عـلى رضاه ومـا يهواه ؛ ولكنْ لي أختٌ لها من قلبي منزلةٌ أخـافُ عليها من الـريح إذا هبَّتْ ، إن رأى أمير المؤمنين أن يكتبَ لها أماناً على نفسها ، وموثقـاً على بقـاء مهجتها وصيـانتها ، فعـل . فقال لـه لك ذلـك على أن تعـطيني مـوثقـاً أن لا تفـارق حضرتي إلا باذني ، فقال له : لك ذلك ، وكتب كلُّ واحد منهما بـذلك خـطَّه وأيَّدَهُ بيمينٍ حلفها .

وخرج أبو القاسم من مجلسه وتهيأ من وقته للاستتار ، فـأحضر عجوزاً ممن يـوثق بعقلها وديـانتها ، وأمرها أن تكـتري داراً في بعض المحالِّ النـائيـة وتترددَ إليها وتبيتَ فيها تارةً وتنقـطع أخرى ، ولا تخـالط أحداً من الجيران ، ورتب ذلـك مدةَ سنتـين أو ثلاث . فـاتفق أنـه استـدعي يـومـاً إلى القصر ، فدخل والحاكمُ جالسٌ في مستشرف الدار لم يره أبو القاسم ، وكان في اجتيازه قـد وطيء نواةَ تمـرةٍ ، فلما صار بجنب الحـاكم جعل ينفضُ نعله عِـدَّةَ نُوَبٍ حتى سقـطت النواة ، ثم التفت فـرأى الحاكم ، فقبَّـل الأرضَ بـين يـديـه ، فـوجـد التغـيرَ في وجهـه ، والانكـارُ بـادٍ في نـطقـه ، وإن أظهـر التجمـلَ والانبساط ، فعلم أبو القاسم أن الحاكم قـد ظنَّ أن نَفْضَ نعلِهِ كان استهـانةً بـه واحتقاراً لـه ، وعلم أن الحاكم لا يقبـلُ المعذرة ، فلما خـرج من حضرته مضى إلى الدار التي أعدتها تلك المرأة واستتر فيها . وطلبه الحاكم فلم يوجد ، و[استفسر] من أبيه فأنكـر أن يكون عَـرَفَ له خبـراً أو وقف منه عـلى أثر ، فاعتقل أباه وجميع أهله وأوقع بهم ، وجاء بأخته المـذكورة فعلَّقهـا وطلب منها أخاها وضربها ضرباً موجعاً ، ونادى في البلد بالتماسه فلم يوقف له على خبر ، فـأخرج أبـاه وأخاه وجماعةً من أهله إلى المقـطم ـ جبل مـطلّ على القـاهـرة ـ وضرب أعنـاقهم صبـراً ، ثم خـرج بنفسـه حتى وقف عليهم وأمـر بـرفعهم

(١) انظر المقطوعة رقم : ١١٣ .

وغسلهم وتكفينهم ودفنهم ، ورجع إلى داره بالقصر ، وجلس للعزاء بهم ، وحصرهم الناس وعليهم ثيابُ الحزن . وهذا من أعجب تلوُّنِ هذا الرجل ـ يعني الحاكم ـ فانه كان متناقضَ الأحوال متباينَ الأقوال والأفعال .

واتفق أن حضر بمصر جماعةٌ من شرفاءِ الحجاز على عادةٍ لهم كانت لهم بالحضور بمصر للإستجداء وطلبِ الصلة ، فوصلهم الحاكم بما جرت عادتهم ، وخرجوا إلى ظاهر القاهرة مبرزين قصداً للعود إلى بلادهم ، وبلغ ذلك أبا القاسم فسيَّر من اشترى له مَهْرِيّاً مثلَ جمالهم ، ولبس لبسهم ، وخرج حتى اختلط بهم وهو متلثّم ، وخرج الحاكم لوداعهم ، فتقدموا إليه وخدموه واستأذنوه في الرحيل ، فقال لهم : امضوا على بركة الله . وكان في من تقدم إليه أبو القاسم ، فلما رأى مشيته قال لواحد من جانبه : ما أشبهَ مشيةَ هذا الشريف بمشية ابن المغربي ، ورحلوا ورحل معهم .

قال الصاحب : فبلغني أن ابن المغربي فارق الجماعة وجلس في جبل المقطم بموضع يقال له الجبل الأحمر ، حتى ركب الحاكم على عادةٍ كانت له منفرداً مع غلامين له إلى ذلك الجبل ، فلقيه أبو القاسم في جماعة ممن كان يثقُ إليهم ، وقد خرجوا إليه مُعِدّين ، فلما رآهم الحاكم خاف واستشعر ، وعرف أبا القاسم المغربيّ فقال له : يا أبا القاسم ، غدرتْ بك ، فقال : لا بأس عليك ، وإنما أحببتُ أن لا أفارقك حتى أُواقِعكَ على غدرك ، ما أعطيتني موثقاً من الله أن لا تسيء إلى تلك الحرمةِ المسكينة ؟! فقال : حملني الغضبُ عليك لكونك فارقتني بغير إذن ، وقد حلفتَ ألا تفعلَ إلا بأمري وإرادتي : فقال له : أما أنا فما فارقتك حتى استأذنتك ، فقال له : ومتى استأذنتني ؟ قال : في يوم كذا لما أذنتَ للشرفاء ، فأني تقدمتُ حتى سمعتُ خطابك وأنت تقول : امضوا مُصَاحَبين على بركة الله ، فدخلتُ في العموم ، فقال له الحاكم : إذا كنتَ قد خرجتَ من هذه بحجّةٍ ، فلك عليَّ عهدُ الله أن أطلقَ أختك وألحقها بك ، فتركه المغربيّ وتوجه إلى العراق ، ورجع الحاكم إلى القاهرة ، وجهز خلفه من يردّه فلم يظفر به حتى لحق ببني الجراح وأغراهم بخلع الحاكم . . .

[قلت : وهذه قصة تنطوي على عجائب وغرائب ، ولعل للخيال نصيباً وافياً فيها] .

ـ ٦ ـ

يستفاد مما ذكره ياقوت أن ابن المغربي تسلّم الأمان من الحاكم فكان أن أخذ رقعة وكتب فيها :

أأُنْشِبُ كفّي في الرحى ثم أرتجي ... خلاصاً لها إني إذنْ لرقيعُ

ـ ٧ ـ

أنشد أبو القاسم المغربي حال خروجه من مصر :

ونفسكَ فُزْ بها إن خفتَ ضيماً ... وخلِّ الدارَ تندبْ من بكاها

فانك واجدٌ أرضاً بأرضٍ ... ولستَ بواجدٍ نفساً سواها

[قلت : ولعله تمثل بهما ، فلم أجد من نسبهما إليه] .

ـ ب ـ

سقط من الرسالة التي كتبها إلى رئيس اليعاقبة حين أسلم ، وهذا نصّها :

بسم الله الرحمن الرحيم : كتبتُ إلى الشيخ الجليل ـ أطال الله بقاءه ـ وهذا دعاءٌ من حقّقَ الله رجاءه إذ كان مَنْ سبقتْ له الحسنى ، وأدرك من شرف الآخرةِ المنى ، فكلُّ يومٍ من أيامه دهرٌ سعيد ، وكلُّ وقتٍ من أوقاته أمَدٌ بعيد ، ولأنّ من كان اهتداؤه تذكرةً للمهتدين فهو شريكٌ في أجورِ أعمالهم وقسيمٌ في ثواب أفعالهم ، وكان عمره قد اتسع لعبادة طالتْ أيامها ولياليها ، وكان أمَدُهُ قد انفسح لطاعةٍ أنجحتْ أسبابُها ودواعيها ، فهو لذلك مكتهلٌ في أول فَتّائه ، ومذكورٌ بالتعميرِ منذ ابتداءِ زمانه ، حتى إذا تهادتْ به خطى المَهَلِ المعلوم ، إلى غايةِ الأجَلِ المحتوم ، كان الحيَّ المرزوقَ عند بارئه ، المخلَّدَ المحبوَّ بما قدَّمَ من مساعيه ، وكان : حبلُ حياته مبرم ، وسلكُ بقائه منظوم لم ينتثر ، وأثره جديدٌ لم تُعْفِهِ الأيام ، وخبره قريبٌ لم تَنْسَهُ الأفهام ، وشخصُهُ ملموحٌ بأعين البصائر ، وحديثُهُ مُلْتَقَطٌ بأسماع الضمائر ، وعهدُهُ دانٍ وإن بَعُدَ ميقاتُهُ ، وزمنُهُ مستقبَلٌ وإن مَضَتْ أوقاته ، والصالحاتُ عنه باقيةٌ نوراً في وَجْهِ الزمان ، وسروراً في قلبِ الإيمان ، وتلك صفاتُ الشيخ الجليل ـ أطال الله بقاءه ـ إذ كان من لزمه حقٌّ رامَ قضاءه ، وتعيَّنَ عليه فرضٌ حاول أداءه ، وحدثت له منه ـ أدام الله تأييده ـ أخوَّةٌ لطيفةٌ بادر إلى وصالها ، ونشأت بينه وبينه رحمٌ سريعةٌ قابلها بِبِلالها ، وجمعته وإياه أنسابٌ لا يُجْمُلُ عقوقُها ولا تُضاعُ حقوقها ، وأدنته إليه أواصرُ أحكمتْ يدُ الإسلام عقودها ، وأكرمت ذمَّةُ الإيمان عهودها ، فاسكن بها التقى روحيهما جسماً ، واستودع الهدى قلبيهما صدراً ، وصارت كلمتاهما متفقتين وإن بعدت الديار ، ودعوتاهما مؤتلفتين وإن اختلف النجار ، وسقياهما من ماءٍ واحدٍ وإن تباين المحتدان ، ومصدرهما عن نميرٍ واحدٍ وإن تشعَّبَ الموردان ، ورتوعهما في رياضِ الملكوت ، ورجوعهما إلى موعدِ الجزاء الموقوت . وعلى أني لو وفَّيتُ هذه الأواخي حقَّها ، وأعطيتُ هذه الوسائلَ وفقها ، لكان السفرُ أقلَّ ما يقتضيه الدين لمشاهدة نعمة الله تعالى على الإسلام وأهله بمكانه ، وأدلة الحق على الكرم وذويه ببرهانه ، فإن التكرمةَ في ذلك لو وُفِّرت عليه لكان لها موضعاً ، ولما يزيد عليها مجمعاً ، فكيف وهي مقسومةٌ بين أهلِ الملة ، وموزعةٌ على أعيان هذه النحلة ، إذ كان مكانُهُ ـ أدام الله تأييده ـ من عموم الشرف عليهم ، وانتشارِ الفضيلةِ فيهم موضعَ الدليل من إطلاق لسانِ المستدلّ ، والبرهانِ من إعلاء كلمة الخصم المدل . ويعلم الله ما ورد عليَّ وعلى كافّةٍ من حضرني من المسلمين . . . إلخ[1] .

الشيخ حميد السماوي ابن الشيخ أحمد .

ولد في السماوة (العراق) سنة ١٣١٥ ونشأ فيها ، ثم هاجر إلى النجف الأشراف للدراسة ثم عاد إلى السماوة مرجعياً دينياً فيها ، فكان ذا أثر محمود في سيرته وتوجيهه . ومن هنا غلبت عليه الصفة الدينية وتوارت شاعريته وراء مسلكه في التعامل مع الناس في شؤونهم اليومية ومشاكلهم الحياتية ، فلم يشتهر شاعراً مع أنه كان في الطليعة من شعراء العراق المبدعين في عصره . توفي سنة ١٣٨٤ .

شعره

قال بعنوان . الطائرة :

قيثارة العلم الصريح ... ودمية الفن الصراح

(١) تتمة ذلك قد ورد قبلاً ، انظر الرسالة رقم : ٩ .

هوجي على متن الأثير وهيمي فوق الرياح
شق الطريق فلا جناح عليك يا ذات الجناح
وتدافعي فوق الفضاء الرحب مطلق السراح
فإلى النطاح قد انبرى متكافئاً كبش النطاح
تجليّ فأما للضريح غداً وأما للضراح
يشدو وقد بدرت على شفتيه بادرة الطماح
من ليس يطربه غنائي فسوف يزعجه صياحي

* * *

شحوّا عليه بالعبور ضحى وليسوا بالشحاح
حتى تقصفت القنا وتحطمت بيض الصفاح
ولطالما سمحوا فلم يتفيئوا حلل السماح

* * *

فيها التلاحي والسما مرصودة فيها التلاحي
تلك ابنة الأفلاك ترسل وحيها لابن البطاح
عبرت عبور الفكر راح تروضه ذات الجماح
وسمت سمو الفن في دنيا التقدم والنجاح
وتكتلت باسم الصلاح على مناوأة الصلاح
هبطت فحي على البلا وسمت فحي على الفلاح

* * *

تنقض من كبد السما بأشاوس ريد كلاح
فتصب أنواع البلاء على الحواضر والضواحي
فبكل آن تنجلي الضو ضاء عن حرم مباح
ومجزرين على الرمال تخالهم مثل الأضاحي

* * *

طبلت يا بنت البخار ضحى فعربد كل صاحي
وصدحت في الست الجهات وكان يطربها صداحي
ليست لغاتك كاللغات ولا اصطلاحك كاصطلاحي
لا بد من يوم أغر به تنوحي أو تناحي
تأسى جروح المصلحين وأنت دامية الجراح
أتغالب القدر المتاح فريسة القدر المتاح

* * *

يا أجدل الأفق المطل على الروابي والبطاح
أنى تدوي في الغدو كما تدوي في الرواح
أتحن للفتح المؤمل أم تئن من الرزاح
أم في ضميرك حاجة تحنو بها شتى المناحي
أفصح فما برح القوي مثار ألسنة الفصاح
وارو عن الست الجهات صداك لا الست الصحاح
فلقد يحدث عن جهينة من يندد عن سجاح
فلدى الصباح سينجلي ما دبروا قبل الصباح
أرسلت ليثاً للصراع وألف كلب للنباح

* * *

عصرت أحلامي على جاماتكم وسكبت راحي
أيغص من مص البحار بنهلة الماء القراح
إن لم يكن قلبي لكم فلكم يدي ولكم سلاحي

* * *

فإليك يا أخت الملاح تعج من شطط الملاح
أودت بجائلة القنا فتكات جايلة الوشاح
باتت مشعشعة الرجا في ظل مظلمة النواحي
قلبان قلب للخداع لها وقلب للكفاح
كتبوا لها صك الطلاق فوقعت عقد النكاح
فغدت تعلل نفسها بنتاجها قبل اللقاح

* * *

أنا لست ممن يشرئب لطلعة الخود الرداح
أما سفرن عن الشقائق أو بسمن عن الاقاح
هل تحت برقعك المدبج غير ألحاظ وقاح

* * *

أمن الخيال حقايق لكم وجدّ من مزاح
فلقد علمتم والمخادع عرضة للافتضاح
إنا إذا أزف اللقا وتراقصت سمر الرماح
نبني على هام القرون دعامة المجد المطاح
أو ليس عن دور الختام يشف دور الإفتتاح

وقال عام الفيضان ١٣٦٦ :

عربدت والطاغي المدّل يعربد ونهدت والأمواج فوقك تنهد
وهدرت واللجج الزواحف كلما تزداد في استعصافها تتمرد
وعلوت متن الرافدين مزمجراً والسحب تهطل والعواصف ترعد
فقضمت ناتئة الحقول فهل على شدقيك من تيار موجك مبرد
وشدوت والنفس الطروبة كلما ضربوا على وتر الحياة تغرد
وغذوت جرف الشاطئين برشحة من فيض صدرك فهو بحر مزبد
متحدراً والموج يضرب بعضه بعضاً فتحسبه يحل ويعقد
مهلاً أبا الأمواج مهلاً إنها شعل على أمثالها تتوقد
جاشت بمعناك اللغات فهذه تثني وتلك بما فعلت تندد
لا تذهبن بك الظنون فان من أخنى عليه اليوم يسعده غد
يقسو فؤادك وهو ماء سائل ويسيل جرفك وهو صخر جامد
بسطت لموكبك الشواطىء ظهرها فشأوت منصلتاً تغور وتنجد
فترى العروش إذا غشاها تنحني لجلاله وإذا علاها تسجد
فلئن أتاها بالخوارق فهي لا تنفك في أيامها تتصمد
أمليت ما يملي المدّل بنفسه وفعلت ما لا يفعل المستعبد
ونفخت أوردة الحياة فأصبحت خطراً به قلب الحياة مهدد
وطفقت تحدو للمنون قوافلا تاه الدليل بها وضلّ المرشد
لم تدر أيان المصير ونفسها بين الخناجر واللهى تتردد
مستنجدات ما هنالك من صدىً أصواتهن وما هنالك منجد
يحسبن اثباج الحياة زوارقاً جاءت تصوّب نحوها وتصعد
شهدتك فارتاعت ولم يك راعها من قبل ذلك في الحوادث مشهد
شهدتك جبار الإرادة طامحاً تزهو لك الدنيا ووجهك مزبد
ولرب مرضعة جرفت رضيعها فتركتها هلعى تقوم وتقعد
وقفت ونبراس الرجاء أمامها يبدو لها طوراً وطوراً يخمد

متضائل الأنوار رامت قصده ... فنأى بها التيار عما تقصد
ترنو لمرضعها يعوم بجنبها ... والموت جاثٍ حوله يترصد
أغفى فما انطبقت له عين ولا ... امتدت له ممن تؤمله يد
تدنو به الأمواج من رشفاتها ... حتى إذا حدبت عليه يبعد
فتحت له الأهوال ثغراً موصداً ... فهوى وما ثغر المنية موصد
أيعوم تحت الماء جسم كلما ... يغليه تيار الحوادث يبرد
وتذوب في الأمواج نفس حيثما ... يطفو مذاب الموج فيها يجمد
وتموت بادية الشحوب يظلها ... من رائع الأيام يوم أسود
ويروح هذا الكون يبسم هازءاً ... منها وشحرور القضاء يغرد
كم دولة للموج أم كم جولة ... يشقى بها قطر وقطر يسعد
خضدت حقول الرافدين وكم على ... الأمواج من كف هنالك تخضد
تربت يد الفلاح منها إنه ... ما أنفك يبذر في الحقول ويحصد
أيساعد الفلاح تهزأ أم على ... ما أعوج من مسحاته يتجعد
تثرى بطون الأرض من ثمرات ما ... غرست يداه وهو ضاح أجرد
متوسلاً يدعو وهل يغني الدعا ... والماء في بقراته يتزأد
فكلابه تعوي أساً وشياهه ... تثغو شجاً وبناته تستنجد
وكأنما الأرض السما وكأنما ... في كل أفق من بنيه فرقد
لماعة الجنبين لكن افقها ... بالرغم من لمعانه متلبد
فلقد هوى من نجمه ما قد هوى ... وأضاع من أحلامه ما ينشد
ذهبت سدى تحت الظلام جهوده ... والقوم ما بين الأسرّة هجد
حيران تجهش نفسه فيصدّها ... وتخونه في الحادثات فيسعد
رباه أن يدي غدت مشلولة ... جذا وكفك بالعطية أجود
ما للغيوم تبددت عن افقها ... وسحاب هذا الأفق لا يتبدد
فالقوم بين أكلّة وأسرّة ... متنعمون وطرفه المتسهد
هل أن لون الصبح لون حالك ... أم أن هذا الليل ليل أسود

وله يرثي الحسين (ع):

لمن النواهد لابرحن نواهدا ... يفني الزمان ولا تزال رواكدا
طفقت تصعد في الفضاء كأنها ... اتخذت بآفاق السماء قواعدا
نتئت على هام القرون فخلتها ... في مبسم الدهر الجديد نواجدا
ومشت تحيي الفرقدين فاطلعت ... بالرغم من وضح النهار فراقدا
نطحت بصخرتها الوجود واصحرت ... لتظل من بعد الحدوث أوابدا
ركدت كرابعة الكرات على الثرى ... فهوت لها الست الجهات سواجدا
تستشرف العهدين في لفتاتها ... عهداً تغشاها وعهداً بائدا
وتساجل الجيلين في همساتها ... لتشد بالمجد الطريف التالدا
نهضت شواهق كالعروش فأصبحت ... منها عروش الفاتحين هوامدا
لم تحووهي الشامخات أنوفها ... نحو السماء إلا ملاكا صاعدا
كحلت بها عين الزمان ولم أخل ... من قبل أن من الصخور مراودا
ضربت لابعاد الفضاء مقايساً ... وبنت بجوزاء السماء مراصدا

* * *

أمواقد الأنوار في الحجب التي ... كانت لأنوار الإله مواقدا
ومعاقد الأسرار في الكون الذي ... لا زال للمجد المنيف معاقدا
وأريكة الوحي التي من حولها ... للسمع تتخذ العقول مقاعدا
جبلتك الطاف المشيئة هيكلا ... أضحى ملاك العقل فيه ساجدا
وافى ليرتاد الرواء ميمما ... حفلاً بأقطاب الهواشم حاشدا
رقدت به السفراء من عمرو العلى ... وكفى سمواً أن يكون مراقدا

* * *

قيثارة المجد القديم ترنمي ... فلطالما نبهت جيلاً راقدا
وتدافعي فوق العقول وركزي ... فوق المدارك للمدارك عاقدا
ما قدس القوم الدمى ولو أنهم ... رفعوا لهن هياكلا ومعابدا
لكنما انجفلوا مع الزمن الذي ... استجلى من الصخر الأصم خرائدا
جلى وما جلى الشعور وراءه ... متكاثفاً إلا ليرجع جاهدا
فلو استوينا في المدارك لاستوت ... هذي الشعوب مبادئاً وعقائدا
أو ليس جبار العقول هو الذي ... حشد الطريق كنائساً ومساجدا
قد كنت أحسبه شهاباً ثاقباً ... فانقض شيطاناً وحلق مارداً

* * *

فهلم يابن الرافدين وان همى ... جفن افاض لك الشعور روافدا
لازلت مضطرب الهواجس صامت الأ ... عضاء تستوحي خيالاً شاردا
خفض عليك فلا أراك بحاجة ... حتّى تقيم على نبوغك شاهدا
أتعج خلف المدلجين وطالما ... ابتعثتك جالية العوالم رائدا
كم صرخة صعّدتها فتقاطرت ... خطباً يرن بها الصدى وقصائدا
وكم استفزّت ثائراً منا وكم ... خلقت من الجو الملبد قائدا
خفت فخفف العلم يتبع خطوها ... فمشت به متضامناً متضامدا
فتصفحته جوامعاً ومجامعاً ... وتخللته مدارسا ومعاهدا
فاحبس يراعك ما استطعت فانه ... أضحى يسيل لها شعوراً جامدا
ويروح يبسطها يداً مشلولة ... ويظل يوقدها سراجاً خامدا

* * *

لم لا نسير كما نشاء لنا العلى ... صفاً يشق طريقه متساندا
ما ضرنا والمجد مجد واحد ... لو كان هذا الشعب شعباً واحدا
قد وزعوه عوائلا وقبائلا ... وتجاذبوه أزمة ومقاودا
عقمت مساويهم ويا لك أمة ... أضحى الطريق أمامها متباعدا
فطفقت انضجها حصاة لم تزل ... صما وأضربها حديداً باردا
جذاء تدفعها الخطوب وطالما ... احتيلت فكانت اذرعا وسواعدا
أودى بها جشع الطباع فقدمت ... للدهر أشلاء الكرام موائدا
فكم استحلت من دم زاك وكم ... جزرت بمأدبة الطفوف أماجدا

* * *

هذا أبي الضيم أصحر مرقلا ... يطأ الطريق جنادلا وجلامدا
جلّى فأما أن يعيش مهيمنا ... فوق الحوادث أو يموت مجاهدا
فاقتادهن أعنة وأسنة ... واجتازهن سباسبا وفدافدا
حتى تغشته الصوارم فانحنت ... تردي عليه بوارقا ورواعدا

* * *

إيها أبا الشهداء لست مرزءاً ... فأقول صبراً أو أقوم مجالدا
وقفت بموكبك الحياة وسجلت ... لك في جبين الدهر رمزاً خالداً
وتنهدت لك عن غرام صامت ... لما رأتك إلى المنية ناهدا
ضلت مقاييس العقول ولم تزل ... ما بين أمواج الحقيقة صامدا
بسمت لمطلعها فكنت لها فماً ... وهوت لمصرعها فكنت لها فدا

وله يرثي الحسين (ع):

سيري بموكبك المنضد سيري ... فلقد غلا بالنور أفق النور
ولقد تجلى الله فوق شعاعك ... الهادي فكلمنا بغير سفير
فالدهر بين يدي ركابك جاثم ... والكون تحت لوائك المنشور
سجدت لمطلعك العوالم وانحنت ... لجلال هيبتك ابنة الديجور
سيْري فما يدريك ما يلد القضا ... وتجول فيه يراعة التقدير
فالمرء للأرماس مهما استعصمت ... أدواره والشمس للتكوير
فلقد تداعى عرش طاغية الدجى ... وهوت دعامة بيته المعمور
ومحا صحيفته الزمان فلم يدع ... إلا بقايا أحرف وسطور

* * *

أسليلة الأحقاب قد طفحت على ... قسمات وجهك دهشة المذعور
اعراك ما يعرو الوجود من الأسى ... وشجاك ما يشجي من التغيير
مجت عناصرك الخلوك وإنما ... تتدحرجين إلى فنى ودثور
فقفي إذا اسطعت الوقوف وحدثي ... ما في خلايا كونك المغمور
ما أروع الصور التي تطفو على ... وجه الأثير وأبرع التصوير
فلقد ترامى العقل نحوك فانثنى ... متخاذل الهمسات كالمسحور
وتكادمت فيك الظنون فراعها ... ما راع من صنع ومن تدبير

* * *

تقف الحوادث نصب عينك برهة ... وتخب نحو الصور بنت الصور
حتى إذا انصلت القضاء بحادث ... كالسيف تصلته يد الموتور
جلىّ ابن طه فوق كاهل طرفه ... فأراك فوق الطور نار الطور
وأراك كيف يثور عاهل هاشم ... غضباً لوجه العدل والدستور
حتى إذا أدى رسالته هوى ... جذلان ملتحفاً بكل وثير
ماذا تريد به المنون وإنما ... هي نهلة من بارد مقرور
ولرب قائلة وقد مسح الأسى ... وجهي براثعة من المقدور
ما لي أراك أبا البيان مقطبا ... وبني أبيك بغبطة وسرور
فأجبتها وقد استفز حديثها ... فحوى حديث غامض التفسير
إيها أميم فان بين صوامت الآ ... لام ما يغني عن التعبير
أنا مثل قومي لو حبست مشاعري ... وخدعت في معنى الحياة ضميري
قد كنت مبتهجاً كما شاء الهوى ... فجنت عليّ مداركي وشعوري
ما راق لي التفكير لكن لم أطق ... إرجاءه إلا إلى تفكيري
ما كنت اختار الشقاء بنظرة ... فيها تزاحم مصدري ومصيري
قطعت مجاهيل الحياة وجهجهت ... لترود مطلع عالم مستور
سلخت عن اللب القشور واصحرت ... للعقل عارية بغير قشور
وتألقت لي في الظلام وهل ترى ... غير الظلام يشق أفق النور؟

* * *

ما أسعد الرجل الذي ازدلفت له ... صور الحياة تخب فوق الكور
لم يله عن ذكر المرابع والحمى ... إلا بذكر شويهة وبعير
نشوان طول الدهر يسمع نفسه ... مدح الفرزدق من هجاء جرير
تهب الطبيعة ما يشاء فتنجلي ... خضراؤها عن سندس وحرير
فيرى الوجود كما يشاء خياله ... ما بين مهبط روضة وغدير
ويرى رعاة الحي خلف بيوتهم ... جاثين بين جلامد وصخور
يتهامسون فلا يشق حديثهم ... بعد الصدى إلا رغاء العير

* * *

أحمامة العقل المقدّس حلقي ... فوق الأثير بنا لخير أثير
فلقد خلا الوادي فتلك سماؤه ... جرداء من صقر ومن عصفور
كم تسجعين أمام جيل لم تزل ... تجنى عليه عوامل التأثير
لك رعشة المقرور في الكون الذي ... طفحت عليه نفثة المصدور
طيري فقد أزف الصباح وربما ... بسط الصباح جناحه لتطيري
ولربما وقف الطليق معبراً ... عما يجول بخاطر المأسور
كم حرّة للوحي شق حجابها ... بغي الأمير وقسوة المأمور
ضربت عليها الحادثات رواقها ... فبدت وراء أكلة وستور
تملي على الأجيال ما يملي لها الـ ... ـحدثان من ذلٍ ومن تحقير
أتبات آل الله في ذل السبا ... وتبات آل أمية بحبور
ذهبت تطبل بالبشائر بعد أن ... ذهب الحسين ضحية التبشير

وقال :

هلا اتقيت وفي الأنباء مزدجر ... خطب تزاحم فيه الرأي والقدر
فظلت تغرس آمالاً وتحصدها ... جرداء لا ورق فيها ولا ثمر
أنى يصيخ إلى الأرجاز متعظاً ... من وقرت سمعه الآيات والسور
فراح ينبش مرموساً قد انجرفت ... به السنون فلا عين ولا أثر
اني أعيذك والأيام فاغرة ... فاها وجنح ظلام الخطب معتكر
واستميحك والأقلام ساغبة ... تلوك ما تنضج الآراء والفكر
من كل ساحرة الألفاظ تحسبها ... عصى ابن عمران لا تبقي ولا تذر
فللسياسة أبطال تنادمها ... والنظم والنثر أبطال له أخر
حسبينا الله مسحورين تدفعنا ... أغراضهم فكأنا بينهم اكر
مسخرون تزجينا مطامعهم ... بحيث لا ماء يروينا ولا شجر
تخدرت حسبما شاءوا مشاعرنا ... حتى تساوى لديها النفع والضرر
أنعمت جامك بالعتبى على فئة ... فازوا بمعترك الأيام وانتصروا
واستشعروا الصمت حتى لا تحس لهم ... ركزاً كأنهم في دورهم قبروا
شقوا طريقاً على ضوء الهدى يبسا ... فلتكسف الشمس أو فليخسف القمر
هم هم مثلما قد كنت تعهدهم ... ما رنقت صفوهم من بعدك الغير
وما برحت ولوجاً في ضمائرهم ... وان تشقلت الأشباح والصور
لا تطمئن إلى السلوى قلوبهم ... أنى وقلبك بالآهات منذعر
لكن بالرغم قد بتت علائقهم ... كف السياسة لما أحدق الخطر
كيف ادكارك والأنفاس شاهدة ... والحاكم العدل فينا الصارم الذكر
وكم رقيب على قولي وكم رصد ... فالسمع يهتز بالتهويل والبصر
لا تضجرن إذا مستك نائبة ... من يوقد النار قد ينتاشه الشرر
ومن يهدم ذرى صرح بمعوله ... تلقى الغبار على عطفيه ينتثر
فكم تصليت والأيام قاسية ... كأنني تحت أسنان الردى حجر
كن حيث أنت ودع من آزروك ومن ... أزرى فسيان إن لاموا وان عذروا
حسبتهم صبراً في كل حادثة ... حتى إذا امتد خرطوم القضا جأروا

وقال في عيد الغدير :

بلبل الوحي في ضفاف الغدير ... صادح باسم موكب التأمير
يتحدى الأجيال مهما ترامت ... في مجاهيل عالم مستور
هيكل من تعطف وحنان ... مائل فوق هيكلٍ من شعور
جوهري الوجود لم تتفاعل ... فيه شتى عوامل التغيير

عدسات التصوير تجلوه لو لم تنعكس فيه جامة التصوير
أنجبته عوامل القدس لما لقحتها أشعة التأثير
يقطع النص في عليّ بنص ويشد الدستور بالدستور
ما تلاشى صوت الحقيقة حتى ارتعش الحق في فم الجمهور
حيث ساد الصموت لولا هناة طبلت للقفول قبل المسير
همسات تذوب في همسات وسطور تنحل فوق سطور
رقمته يراعة الكون رمزاً فوق أثباج بيتها المعمور
عبرت حين عبّرت عنه لو لم يتسامى عن حيّز التعبير
فسرته كما تشاء ولكن تشكل الواضحات بالتفسير
هيمنت فوق مستوى الحس لما أن تخطت عوالم التفكير
فهي برهان صورة الفتح إن لم تك عنوان آية التطهير
فسماء الوجود تعزف فيها نغمات التهليل والتكبير
ورياض الخلود تعقد فيها حفلات الاكبار والتقدير
وعلى منبر الجلالة يملي بلبل الوحي لوحة التأمير
منبر إن يكن كما قيل عنه إنه كور ناقة أو بعير
فهو رمز المجد الذي سجلته فوق أرقامها يد التحرير
وتراث العرب الذي حملته بين أكتافها ثوان الدهور
وقفت عندها المشاعر خرساً ومشى العقل مشية المخمور
فاستفاضت عواطفي وتناجت بعد لأي هواجسي وضميري
قطعت شوطها إلى الحق لما نحرت غمرة الغنا والدثور
فلتجل حلبة الظلام وتغدو حيث شاءت طلايع الديجور
فستنشق عن ضواحي شموس آمنت من طوارق التكوير
عارضت موجة الأثير بوجه يتلاشى له ظلام الأثير
كلما راد مارد الوهم افقاً رجمته ببارق مستنير
يا أخا المصطفى تعاليت شأناً عن مقام التمثيل والتنظير
أنا لم أدر كيف اثني فحسبي من ثنائي الشعور بالتقصير
(أنت في منتهى الظهور خفي) ولدى منتهى الخفا في ظهور
ليس بدعاً إن أخروك وجاشت نزعات النفوس بالتأخير
وتعاموا عن مظهر النور لما أغدق الكون جامه بالنور
فعلى الشمس برقع من قتام وعلى اللب حاجب من قشور
زعم القوم والمزاعم شتى وانتحال الألقاب غير عسير
إنما قدمت سواك أمور قبح الله شأنها من أمور
كذبتهم أحلامهم فليسدوا مطلع الشمس عن جبين البصير
وليردوا موج الأثير ويمحوا هالة البدر عن جبين العصور
ان تعالت إلى الحضيض أمي واستطالت بمجدها المبتور
فلقد سجلت على كل دور من علاها صحيفة من فجور
عبرت كونها إلى حيث شاءت لكن الخطب في طريق العبور
زقزقي في الفضاء جو بي فليست ترهب الصقر ثورة العصفور

وقال :

خذي في ضروب اللحن يا ورق أودع فسيان أن رجعت أو لم ترجع
أصم رنين الخطب سمعي فكيف لا تحس به آذان قومي ولا تعي
ترامت بنا الأيام وهي حوائل زماناً فعادت بين حبل ومرضع
وطاف علينا الدهر وهو موكل بجامين منزوف وآخر مترع
حنانك لا تجحف بحكمك بيننا فليس كريم الطبع كالمتطبع
سرينا وساروا فابتدرنا واحجموا فأودى خفيف العدو بالمتضلع
أتدرك شأو المدلجات ضليعة إذا نهضت قال الحداة لها قع
وتبلغ أسرار الحياة وليدة إذا برزت قال الحياء لها ارجعي

* * *

اطارح قومي بالأهازيج علماً يهز طروب الحي صوت مرجع
هتفت بهم مستنجداً في سراتهم وما استنجد المشلول إلا بأقطع
هلموا بنا فالخطب قد صرّ نابه فحتام حتام الأناة معي معي
نبث الأسى في حفلة بعد حفلة وندعوهم في مجمع بعد مجمع

وله قصيدة عنوانها (النفس) :

لا بقاً حتى أمنيك البقا فاغدقي جامك فيمن أغدقا
كيف استبقى حياتي وعلى ضفتيها عدمان استبقا
عارضي موج المنايا تجدي أسعد الساعات ساعات الشقا
ما وجوم الأرض إلا صرخة أفعمت كل وجود رهقا
فناحلبي شطريه دراً ودماً لبناً ضرعاً وضرعاً علقا
أيها النفس وفيك اتسقت نظم العالم حتى اتسقا
ما تشائين فقد شاء الهوى للخليطين بأن يفترقا
هل ترجين ربيعاً قادماً فلقد حت الخريف الورقا
مرت والعالم يسري أفهل شاءت الأكوان أن تتفقا
ليت شعري والدجى يسمعني زجل الوهم إذا الوهم رقى
إن بعدما كان لا شيء كما كان قبلاً فلماذا خلقا
حلقات كلما فصمها ثاقب الرأي استدارت حلقا
طفقت تستصرخ العقل فلم يعل صوت العقل حتى اختنقا
فوجودي ليس إلا لحظة وحياتي ليس إلا رمقا
فارتقي حيث وجدت سلما أو تواري أن وجدت نفقا
كبرياء الدهر يندك لدى كبرياء الحق مهما بسقا
وثبات النفس قد أودت به وثبات الموت لما اعتنقا
فتحت لي فمها فازدحمت حوله الآهات حتى انطبقا
فهي لا تقبض من مشفرها شدقاً إلا ومدت شدقا
لست أدري ووجودي لم يزل تتحاماه نواميس البقا
هل أنا أمس أنا اليوم وهل عهدنا الراهن عهد سبقا
عزفت نفسي من مرقدها واستفزت لكراها الأرقا
وترامت بي إلى مشرقها فاللقا قبل تنائينا اللقا
احتبكت موجاً ففي تيارها قد طفى نجم ونجم غرقا
سمعت دريا قها واستسلمت للرقا لو كان في الكون رقا
طالما قد خلعت أعراضها فاستقلت جوهراً فأتلقا
وتعرّت كيف شاءت بعد أن تركت للأرض ثوباً خلقا
وتسامت بي إلى مبدئها وأنا ما بين أطماري لقا
لاكها الموت وكم لاكت له بين لحييها لساناً ذلقا
فهوت تحسبها صامتة وهي بعد الموت أجلى منطقا
حملت قلبين قلباً موثقاً بين جنبيها وقلباً مطلقا
وشأت يومين يوماً تتقي شطط الوهم ويوماً تبتقى
هبطت إذ هبط الجسم وقد حلقت عنه فهلا حلقا

ارتفعت كـالـروح عيسى فـهـوى   بعـدهـا الجسم كـمـوسى صعقـا
كيف والإنسـان مـن جـوهـره   كـان صدر الكـون صدراً نـزقـا
وسعتـه الأرض فيـمـن وسعـت   وسقـاه حتـفـه فيـمـن سـقـى
فـهـوى فيـه إلى حيـث هـوى   وارتـقـى مـنـه إلى حيـث ارتـقـى
كم شؤون قـد أمـطنـا سجفهـا   وتجـاذبـنـاه حـتى انـخـرقـا
طـرقت والـدهـر من رقـدتـه   كـاد لا يـشـعـر فـيـها طـرقـا
فـتجـاهـلت وكـم طـارقـة   قـد رأيت الحلم فيهـا حمـقـا
وجنـون المـرء عـقـل عنـدمـا   يصبـح العقل جنـونـاً مـطبقـا

وقال :

ثـابـت ومـلء كلوم المصلحـين دم   مهـزولـة الـرأي لا شحـم ولا ورم
خـرقـاء ثـاويـة حيث الهـوان فـلا   هـمّ يـزاحـم مـثـواهـا ولا همـم
وسيمـة الـوجـه تستصبيـك غـرتهـا   لـو كـان في ذلـك الـوجـه الـوسيم فم

* * *

كم أصحـرت واشرأبت غـير آبهـة   أهي الحقيقـة كـانـت أم هي الحلم
تمـوج زاخـرة بـالـترهـات فـما   يجـيش تـيـارهـا إلا ويحـتـدم
أن تـطيق دفـاعـاً بعـد مـا وقـفت   بـين الحـوادث لا قـرن ولا قـدم
وقـد تمـرّ مـع الأكـوان هـادنـة   غـداة تـعلق في أشـداقهـا الـلجـم

* * *

طـافت على الملأ الأعلى فـما بـرحت   طـوراً تئن وطـوراً منـه تـبـتـسـم
نـامـت ونـور جبـين الحق منـطلق   واستيـقـظت وظلام الجهـل منسجم
مغلولـة الساق مـا دبت ولا درجت   والكـون تـرفـل في أعـماقـه الأمم

* * *

حنت إلى هـرمي مصر فـقلت لهـا   هنـاك مصر ولكـن هـاهـنـا الهـرم
في كـل زاويـة عـجـل تـؤلهـه   وكـل دست لهـا في صـدره صنـم
فـأصبحت كلما قـامـت دعـامتهـا   عـلى شفـا جـرف الآمـال تنهـدم

* * *

تسـاقـطت فـوقهـا آطـامهـا فـإذا   مـا قـومت اطـماً منها هـوى اطـم
أفي تصـيـخ إلى وعظ الـقـضـا أسـم   في مسمع الدهر من ضوضـائها صمم
فهـل تـلبيـك أشـلاء مبـعـثرة   أم هـل تحييك من أرمـاسهـا الـرمم
تـطوي السنـين ولا تنفك حـائـلة   كـأن من أولـدوهـا المجد قـد عقـمـوا
هـذي صفـائحهم لـو أنها انصلتت   وذي صحـائفـهـم لـو أنهم رقـمـوا

* * *

أقـول والنفس قـد جـاشت زوابعهـا   خـفض فـان لـذاذات الهـوى ألم
كم مـاثـل نصب عيني لا وجـود لـه   أن الـوجـود عـلى عـلاتـه عـدم
تـوحـدت حولنا الأقـطار وازدوجت   ولم يـكن بـيـنـهـا قـربى ولا رحـم
شـدت بحاضرهـا الماضي فـراح على   متن الهـواء يقـوم الهيكـل الضخم

* * *

يـابن الفضيلة قـد وافيت مضـطلعـاً   بحمـل مـا عنـه بعض النابهـين عمـوا
هـل نظرة بعـد طول الفحص تـرسلهـا   مـع الشعـاع فقـد أودت بنـا الـظلم
وخـطرة تـتخـطاهـا بحـاضرنـا   إلى الامـام كـما شـاءت لـنـا الأزم

* * *

ألم تـر الحق مدحـوضـاً بحجتـه الـ   ـمثـل وعـاصفـة الأهـواء تحتكم
فـالـنجـم يشرق إذ تخشـاه داجيـة   والحـزم يشتد إمـا اشتـدت الحـزم

* * *

أسـل يـراعـك لا جفت محـابـره   فـقـد تـدفـق مـن تيـاره الـكـلم
يـوحي فينبعث الجيش اللهـام فـما   يـقـعـقـع السيف حتى يهمس القلم
فـالحكم للسيف أمـا اهـتز منصلتـاً   ولـليراع يـراع الكـاتـب الحكـم
مستنـزفـاً صفـوة الآراء مـرتضعـاً   در العـواطف فهـو الساغب النهم
يلهـو كـما بـين لحييـه فليلفـظهـا   فـظل يـرزح جـوعـاً وهـو يلتهم

* * *

حـدّث فـان حـديث اليوم عن وطن   سيعلم الغـد عنـه غـير مـا علمـوا
وأنت أنت لـســان الـدار إن وجمت   وأنت أنت خـطيب القـوم إن وجمـوا
مـا أوصدت دونك العليا منـاهجها   ولا تـغشـاك في مضـمارهـا السأم
فـالـوقت أضيق من أن تستبـين بـه   حقـايق القـوم إن قـالـوا وان وجمـوا
هـل أنهم سـادة رغـم استكـانتـهم   أم أنهم رغـم مـا اعـتزوا بـه خـدم
مـا كـان أغنـاك عن ايغـار صـدر بني   أبيـك والمـرء مهـما احتـج يتـهـم
فـللحقيـقـة مـهـما همـهـمت لـغـة   في فهمهـا يستوي الخصـمان والحكم
والنفس مهما استفـزت من عناصرهـا   أمـام عـاصـفـة الآراء تـنهـزم
دعـهـا تنير طـريقاً طـالمـا ارتعشت   قـوائم العقـل وانـدكـت بـه القمم
جم المـزالق مـا انفكـت بجـانبـه   طـلائـع الكفـر والإيمـان تـزدحم
فهـل يشـوقـك أن تلقى أسـاورهـا   عنهـا فتصحـر لا قـلب ولا خـدم
هم أنت إن فـاضت الـدنيـا بنـائلهم   ذكـرى وان كـانت الأخرى فـانت هم
فـالـدار دارك ان شحت وان منحت   والقـوم قـومـك ان بـرّوا وان أثمـوا
أغلوا مـراجـل صـدر الـدولتـين أسىً   هـم ومـلء فـمـي لمـا أقـول همـو
هـم دعـامـة قحـطان وسـاستهـا   ومجـدهـا الـنـاصع الجنبـين مجدهم
مـا بـالهـا في حضيض الـذل خـاضعـة   وكـان يخضـع جبـاراً لهـا العلم
فـان تيجـان مجـد العرب تعـوزهـا   مفـارق الغـر من عـدنـان والقمم
حيث الشجـاعـة في مجـرى أواصرهـا   تجـري ويضرب في أعيـاصهـا الكرم

وله قصيدة وعنوانها - بغداد - نظمها عام ١٩٤١ :

سـاد الـوجـوم فسـاد كـل متمتم   فتكلمي ان شئت ان تـتـكـلـمي
وتـرنمي فعسى يجس بـك الهـوى   أوتـار قـلب الشـاعـر المـترنـم
فـيروح يعـرب عن مشـار شعـوره   بـفـم أمـام الجـور لم يـتـلعـثـم
قد اعجمت عنك اللغات وفي الهوى   لا يحسن الافـصـاح غـير الأعجم
وجمت وكـم مـن شـاعـر في جنبهـا   ختمت عـلى فمـه وكـم من ملهم
خـطت لـه في صـدر كـل صحيفـة   من فـوق سـطر النـور سطراً من دم
فقـرأت منـه كـل سفـر غـامض   فـمترجـم منـهـا وغـير مـترجم
حم القضـاء وهـل تـراني نـاقضـاً   مـا أبـرمتـه يـد القضـاء المبرم
كم رحت أبحث عن شؤون أسدلت   مـن دونها حجب الـزمـان المظلم
فـلمستهـا في جنـب قـلب بـائس   وسـمـعـتـهـا في أنـة المـتـظلم
ورجعـت لا صـول ولا قـول فهـل   شدت يدي بالعدل أوسدت فمي
ولـطالمـا استهـدفـت منها جـانبـاً   فجعلت أهـداب الحـوادث سلمي
مـا في الـوجـوم عن الحقيقـة من عنـاً   ان العـنـاء خـطاب مـن لم يـفـهـم
كم مـدلـج رصـد الصباح بـطرفـه   حتى إذا لاح الـصـبـاح لـه عـمي
ومـعـوّه كـره الـزمـان حـديثـه   فـأشـاح عنـه بـوجهـه المتجهـم
مـا راح يـدغـم لـفـظه إلا لـكي   منـا يفـكك كـل حـرف مـدغم

ومعظم في نفسه انجرفت به   الأهواء حتى عاد غير معظم
قد أرغمته على الرضوخ وأيما   حرّ على علاتها لم يرغم
ذهبت متاعبه سدىً فكأنه   يقظ أهاب من الغواة بنوم
ولقد هممت بما يهم بمثله   مثلي وعدت إليك غير مذمم
وصرخت في وجه الحوادث صرخة   يندك منها كل صرح محكم
وشققت اثباج الخطوب إليك في   قلب بأنوار الحقيقة مفعم
كالت لي الدنيا مواعيداً فما   انطبقت يدي إلا على متوهم
رعناء ما كادت تصيخ لواعظ   حتى ضربنا عرسها بالمأتم
طفقت تجشمني المسير بها وقد   حمل الزمان على سنامي منسمي
إن ساءني عنت الطريق فطالما   قدساه هوجاء العواصم مقدمي
ذهبت بواحدة تنوء وأقبلت   من سوء طالعها تنوء بتوأم
طفحت على وجه الردى وتجردت   لتقوم في صدر السنين القوّم
لم تبق رائعة الخطوب لها سوى   شلو بأظفار الزمان مخذم
أنت كما أن السليم ولم تكن   وضعت يديها بين لحيي أرقم
ولقد وقفت أمامها متبرماً   لو كان يجديني هناك تبرمي
فوجدت دست الحكم أجوف فارغاً   لا ابن الفرات به ولا ابن العلقمي
رامتك يا أم الحواضر صرخة   تسمو إليك من السواد الأعظم
دوّت بأقطار البلاد وجلجلت   للرافدين بكل معنى مبهم
فاضت شوارعك الفسيحة بالثرى   فاستنزفت قلب الشقي المعدم
وجرت رصابك بالأشعة فامتلت   حتى النوافذ بالشعاع المظلم
ولقد وجدت بكل صرح قائم   انقاض قلب من بنيك مهدم
وسمعت فيك بكل جوف أنّة   قطعت أواصر مجدك المتصرم
كم زحت تسمعني الأغاني في الدجى   صوت الضعيف وأنّة المسترحم
صوت له ارتجف الفضا واهتزمن   نبراته سمع الزمان الأبكم
صوت الضعيف ولا أخاًلك هامساً   إلا ليعلو صوت كل مهمهم
لا تبتئس بالحادثات أو أبتئس   فلربما مني المظلوم بأظلم
ما يطرب المظلوم من قيثارة   صدحت بجنب الظالم المتلثم
ذابت على أنغامها حسراته   فتشاءمت بالطارق المتشأم
ولقد جهلتك إذ جهلت وطالما   قد كنت أعلم منك ما لم تعلمي
ما كنت لما كنت حاضرة الألى   حلم الزمان لهم بما لم تحلمي
إلا شعار سوابغٍ ونوابغ   ومثار ذكرى سابق ومطهم
ولقد نسجت لك القوافي حلة   موشية بالدم لا بالعندم
وفرشت قلبي دون جنبك واثقاً   أني فرشت له حشاشة ضيغم
ووقفت فيك كما يكيفني القضا   ما بين معوّج وبين مقوّم
فإذا انتصبت يميل هذا أكثري   وإذا انحنيت يقيم هذا معظمي
أتميمة النهرين قد جذ القضا   والدهر بين معوّذ ومتمم
أودى فصيلك فارأميه فما عسى   يجدي حنان الأم ما لم ترأم
أو كلما اقترفت يداك خطيئة   كبرى يؤاخذ فيك غير المجرم
نقيّ يديك من الخضاب فانه   قد راح يزعم عنك ما لم تزعمي
إن الجميلة كيف كيفها الشقا   لجميلة تبدو بغير موشم
خادعت فيك صبابتي فتناحرت   شططاً عليّ مع الليالي لومي
ووهبت قلبي للجمال وطالما   ملك الجمال فؤاد غير المغرم
هل بين جسرك والرصافة تعبر   الأملاك أم بين الحطيم وزمزم
ملئت شواطي دجلة ورحابها   وتبعثرت في الهيكل المتنظم
فتمر ضاحية كما شاء الضحى   وتناط داجية مناط الأنجم
لم أدر ما سر انحدارك بعدما   دوّى صدى الأجيال فيك الا أقدمي
أحجية بفم الزمان تعقدت   وطلاسم رقمت بغير مطلسم
ما في كتاب الأرض من وحي السما   إن السماء كتاب كل منجم
لم يبق من معناك سر غامض   إلا فحصناه بألفي معجم
شقي بآفاق السعادة مطلعاً   إن الشقاء عليك غير محتم
ماذا وقوفك في طريق لم يزل   بالركب يضرب معرقاً في مشئم
لا بد من إحدى اثنتين ففي الغد   الآتي ستنهزمين إن لم تهزمي

فالأفق أما وجه صبح مفعم   بشعاعه أو جنح ليل مسدم
لا تحجمي أن الطريق معبد   ولربما ردم الطريق لتحجمي

سيري مع الأمم البعيدة وامسحي   ببنانها وجه الشعاع المعلم
ان وزعتك الحادثات فطالما   جمعت شظايا قلبك المتقسم

ولربما بلت أوامك قطرة   تنهل من ضرع السحاب المرزم
فتجشمي البيداء واعتسفي الدجى   إن الظلام مطية المتجشم
لا تدفع الجلي سوى الجلي ولا   يخشى مناجاة الكمي سوى الكمي
متهابك الأهوال وحشاً ضارياً   عرك الأسنة لهذما في لهذم
لم يدر من قد ذاق من أري الجنا   ما الشهد حتى ذاق طعيم العلقم
أو يحتفي الغربي فيك وما رأى   من وجهك الشرقي غير المبسم
فلها على شفتيك بسمة خائف   وعلى لسانك لهجة المستسلم
عضت على كلتا يديك ولم تزل   من قبل تبسم عن ثنايا الأهتم
واستدرجتك إلى الشقاء وما الذي   يرضي من العصفور ام القشعم
لا مرهف صافي الفرند تهزه   في وجه قادتها ولا أنف حمي
ولأن تكن قد قلمت أظفارنا   منها فظفر الدهر لم تتقلم
أنى تجود لها البلاد بدرها   ورضيعها في حجرها لم يفطم
هلا نظرت إلى ملامح هذه الد   نيا الجديدة نظرة المتوسم
جاشت وما شقت سماك بمطلع   زاه ولا وسمت ثراك بميسم
فكأن جنب الأفق غير مكوكب   وكأن وجه الروض غير منمنم
ما فاتها القلب الجريء وإنما   قد فاتها القلب الذي لم يرحم
عبثاً تمنيها الشواب وانها   لتبيّع كلتا الجنتين بدرهم
هرمت وشابت فيك كل فضيلة   والدهر في ريعانة لم يهرم
لم يبق من ربع لديك ولا حمىً   فلمن تمنين العوالم في حمى
محجوجة بلسان عدل صامت   مأخوذة بوجوب شكر المنعم
فعلام رحت أقول باكرك الحيا   وإلى م أنشد فيك يا دار اسلمي
لا في الظعون هوادج منا ولا   في الظاعنين ربيعة بن مكدم
إيها عباقرة البيان وقادة الـ   شعب المهان إلى المقام الأكرم
من يمتطي ظهر الخطوب ويرتمي   فيه إلى حيث المكارم ترتمي
هل منجد منكم يثور لشعبه   فيرد عادية الزمان المتهم
أو مصلح يهب البلاد شعوره   فيحل عقدة وضعه المتأزم
نضت القيود ولم تزل مكتوفة   وسرت مهرولة فلم تتقدم
قد أدركت عهد البلوغ ولم تزل   بالرغم خاضعة لأمر القيم
طافت على عهد المغول ولم تكن   غسلت يديها من دم المستعصم
نشرت بني سلجوق نشر مؤمل   وطوت بني العباس طي مؤلم
أنى يجيش لها القضاء (بمالك)   والدهر يسمعها رثاء (متمم)

سدوا فراغاً لا يسدّ بغيركم واملوا خلاء سوارها بالمعصم
فالسيف تعوزه اليمين وماعسى يجدي المهند في يمين الأجذم
والصرح لا يرسو على وجه الفضا العادي ولا يسمو إذا لم يدعم
والنفس مهما حلقت آمالها واستعصمت في حيز مستعصم
لا يزال يعوزها الطموح بقصدها فالنفس عند القصد ما لم تسأم

خديجة سلطان خانم بنت الشيخ محمد صالح بن الشيخ محمد الملائكة ابن الشيخ محمد تقي بن الشيخ محمد جعفر بن الشيخ الملا محمد كاظم البرغاني القزويني آل الصالحي .

توفيت حدود سنة ١٣٢١

فقهية محدثة بصيرة بالكلام ، حافظة للقرآن الكريم عالمة بتفسيره زاهدة عابدة أخذت المقدمات والعربية وفنون الأدب على أختها الشهيرة قرة العين وسائر رجال أسرتها وتخرجت في الفقه والأصول والتفسير والحديث على والدها الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وعمها الشهيد الثالث المستشهد سنة ١٢٦٣ وأخذت العرفان عن عمها الملا علي البرغاني والفلسفة عن الأخوند الملا آغا الحكمي القزويني ولما بلغت سن الرشد زفوها إلى الميرزا مفيد بن السيد الميرزا حسن القزويني ورزقت منه خمسة أولاد ذكوراً أشهرهم السيد الميرزا مسعود القزويني المعروف بشيخ الإسلام . وأسرته شيخ الإسلام في قزوين من أسباط المحقق الكركي العاملي وكان ولدها السيد الميرزا مسعود شيخ الإسلام المقتول على يد المطالبين بالمشروطة (الحكم الدستوري) سنة ١٣٢٧ من فحول علماء عصره ومن آثاره في قزوين مدرسة دينية كبيرة ومسجد ضخم يعرف كلاهما حتى اليوم باسمه (المدرسة المسعودية ويقال مدرسة شيخ الإسلام) وساهمت المترجم لها بقسم من نفقات بناء المدرسة والجامع من مالها الخاص[١] وتصدرت كرسي التدريس في قسم النساء في المدرسة الصالحية وكانت من ربات الاحسان والكرم وملجأ للأرامل واليتامى والمنقطعين وتفتي في المسائل الفقهية والعلمية . لها مؤلفات منها مجموعة المسائل ، رسائل في الفقه ، بعض الرسائل العرفانية الموجودة كلها في مكتبة احفادها آل شيخ الإسلام بقزوين . ومن آثارها جامع ضخم والمدرسة الدينية المعروفة باسم ولدها الميرزا مسعود شيخ الإسلام[٢] .

الدكتور داود العطار

ولد في الكاظمية (العراق) سنة ١٣٤٩ وتوفي في طهران سنة ١٤٠٣ .

أتم دراسته الابتدائية والثانوية في الكاظمية ثم نال إجازة الحقوق من جامعة بغداد والماجستير في الشريعة الإسلامية ثم دبلوم الدراسات العليا فالدكتوراه في الحقوق من جامعة القاهرة .

تولى التدريس في كلية أصول الدين في بغداد ، والإشراف على مدارس الجواد الأهلية التابعة لجمعية الصندوق الخيري في بغداد . وبعد قيام حكم الطغيان التكريتي في العراق قبض عليه ثلاث مرات . وعندما شعر أنه ملاحق اضطر للهجرة أولاً إلى مصر ثم إلى الكويت ثم إلى إيران حيث استقر فيها حتى وفاته مشرفاً على دار للنشر سماها دار البلاغ . وكان السيد محمد حسين الطباطبائي صاحب كتاب (الميزان) في تفسير القرآن قد عهد إليه بتلخيص هذا الكتاب بحيث لا يتجاوز ١٤ جزءاً ولكن المرض العضال الذي أصابه حتى أودى به لم يمهله لاداء هذه المهمة .

ترك عدة دراسات منها : (١) موقف الفقه الإسلامي من مبدأ الرضائية وسلطان الإدارة في العقود مقارناً بالفقه الغربي . (٢) مبدأ قانونية الجرائم والعقوبات في الشريعة الإسلامية والقانون . (٣) الدفاع الشرعي في الشريعة الإسلامية ، وهو بحث مقارن بين الشريعة والقوانين العربية والأجنبية (٤) تجاوز الدفاع الشرعي في القانون المقارن ، وهو الرسالة التي نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة القاهرة بدرجة جيد جداً ، مع تبادل الرسالة مع الجامعات الأجنبية .

وله دراسات قرآنية منها : (١) تفسير سورة النساء . وهي دروس ألقيت على طلاب الليسانس في كلية أصول الدين في النظام الإجتماعي والإقتصادي والسياسي والدولي في الإسلام . (٢) التجويد وآداب التلاوة . (٣) موجز علوم القرآن ، وقد ترجم إلى الفارسية .

كما إن دراسة في علم الأصول بعنوان (وظيفة المجتهد عند تعارض الأدلة) . كما نشر مقالات وأبحاثاً في الأدب والتاريخ الإسلامي .

وكان إلى ذلك شاعراً فمن شعره قوله من قصيدة في ذكرى علي بن أبي طالب عليه السّلام :

عذراً ولي الله إن أنشدت عن قلب حميد
طافت بنا ذكران عابقة بتاريخ مجيد
ذكرى العدالة والتقى ذكرى البطولة والخلود
ناشدت قلبي ان يطيب بها ويهزج بالنشيد

السيد راحة حسين بن طاهر الحسني الرضوي القمي البهيكپوري الهندي

ولد في سنة ١٣٠٦ وتوفي بعد سنة ١٣٨٠ .

أخذ المقدمات والعلوم الإسلامية على جماعة من الأفاضل ، ثم حضر الفقه والأصول على علماء مدينة لكهنو وتولى كرسي التدريس والفتوى وله مؤلفات منها المطبوعة لكهنو ذكره شيخنا الأستاذ آغا بزرك الطهراني في موسوعة الذريعة إلى تصانيف الشيعة ، منها كتاب پروانة جنت في الأدعية وأعمال السنة والزيارات ، كتاب تاريخ أبي الخليل في سير وتواريخ وفضائل أهل البيت عليهم السّلام ، كتاب جهارده معصوم ، في سوانحهم عليهم السّلام باللغة الأردوية ، رسالة الإسلام والتمدن ، رسالة انتخاب الراحة في الأخلاقيات ، وغيرهما[٣] .

ربابة خانم بنت الشيخ محمد صالح ابن الشيخ الملا محمد الملائكة ابن الشيخ محمد تقي ابن الشيخ محمد جعفر ابن الشيخ محمد كاظم البرغاني القزويني .

توفيت حدود سنة ١٢٩٧

عالمة فاضلة محدثة واعظة خطيبة متكلمة فصيحة من ربات الدهاء والفطنة وفواضل نساء عصرها . قرأت المقدمات والعربية وفنون الأدب على رجال أسرتها وأختها قرة العين وأخذت الفقه والأصول والتفسير والحديث عن

(١) انظر تفصيل تاريخ المدرسة والجامع في كتاب مينودر ص ٥٧٢ ـ ٥٧٤ طبعة طهران منشورات جامعة طهران .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

والدها المفسر الشهير الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وعمها الشهيد الثالث المستشهد سنة ١٢٦٣ وتخرجت في الحكمة والفلسفة على الآخوند الشيخ الملا آغا الحكمي القزويني وتلمذت في العرفان على عمها الشيخ ملا علي البرغاني وأخيها الشيخ الميرزا عبد الوهاب البرغاني القزويني ولما بلغت سن الرشد زفوها إلى الميرزا هبة الله الرفيعي القزويني .

تصدّرت للتدريس والإفادة والوعظ والإرشاد وكانت تستنبط الأحكام الشرعية وتتباحث مع العلماء وتجادلهم وتفتي في المسائل الفقهية والعلمية ويأخذ برأيها وأحكامها ، كما كانت ملجأ للفقراء والمنقطعين وفي خطاباتها ومجالسها كانت كثيرة التشنيع على السلطان ناصر الدين شاه القاجاري ومظالم البلاط الإيراني والأمراء ولم يتعرض لها الشاه القاجارى بشيء[١] .

الشيخ رشيد بن الشيخ طالب البلاغي

توفي بعد سنة ١٢٨٠

عالم شاعر متفنن له تضلع في النحو واللغة والتاريخ عظيم الخبرة في فنون الأدب أخذ العلم وفنون الأدب على أفاضل علماء جبل عامل ونبغ في النحو والشعر واشتهر في العلوم العربية ذكره شيخنا الأستاذ آغا بزرك الطهراني في طبقات أعلام الشيعة فقال : (كان عالماً جامعاً وأديباً فذاً تفنن في العلوم وحصل على كثير منها إلا أنه اشتهر بالبراعة في العلوم العربية والتضلع في النحو واللغة والتاريخ . . .)[٢] .

ذكره السيد حسن الصدر في تكملة أمل الآمل فقال : (أديب أريب شاعر لبيب عالم فاضل بالعربية حسن الانشاء جيد الخط حسن التحرير عارف بالنحو واللغة وسائر العلوم الأدبية والتاريخ جاء للزيارة في سنة ١٢٨٠ تقريباً ورجع إلى بلاده وتوفي هناك .

وكان أبوه من وجوه تلك البلاد واجلاء العلماء في الفصاحة والبلاغة والتكلم وسائر المحاضرات الأدبية حسبما سمعته من بعض أهل تلك البلاد)[٣] .

ذكره أيضاً الشيخ جعفر محبوبة في ماضي النجف وحاضرها[٤] نقلاً عن تكملة السيد حسن الصدر ثم أضاف نقلاً عن كشكول السيد محمد الهندي مع اختلاف في اسم الأدب والنسب ثم استدرك قائلاً ولعله غير المترجم له .

أقول والمترجم له من ذرية الشيخ إبراهيم البلاغي النجفي في جبل عامل المترجم في أعيان الشيعة الجزء الثاني ص ١٣٤ وسكن جبل عامل راجعاً من الحج عن طريق الشام ومكث في جبل عامل بطلب من أهلها وله ذرية باقية هناك حتى اليوم[٥] .

الشيخ سالار ويقال سلار تخفيفا ابن حبيش البغدادي .

لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته أخذ العلم من فضلاء عصره ويروى عنه السيد أبو طالب محمد بن الحسن بن محمد بن معية الديباجي الحسني الحلي ويروى عنه السيد فخار بن معد الموسوي الحائري المتوفى سنة ٦٣٠ بواسطة السيد أبو طالب محمد الديباجي المذكور كما جاء في كتابه (حجة الذاهب إلى إيمان أبي طالب) ويقول السيد فخار بن معد الموسوي الحائري في كتابه المذكور : حدثني الشريف النقيب أبو طالب محمد بن الحسن بن محمد بن معية في سنة ٥٩٩ قال : حدثني الشيخ سلار بن حبيش البغدادي ، وقد رأيت سلار هذا وكان رجلاً صالحاً قال حدثني الأمير أبو الفوارس بن الصيفي الشاعر المعروف بالحيص بيص ، قال حضرت مجلس الوزير يحيى بن هبيرة . . . وقال في طبقات أعلام الشيعة : (. . . توفي فخار بن معد في ٦٣٠ وألف كتابه بعد الستمائة ويظهر منه أنه رآه قبل تاريخ الرواية ومن توصيفه بالشيخ أولاً ثم الرجل الصالح أنه من فضلاء الخاصة . والحيص بيص توفي ٥٧٤ . . .)[٦] .

سيدة بيگم فخر النساء الخراسانية

توفيت قبل سنة ١١٠٢

فاضلة أديبة من شاعرات خراسان لها نظم رائع لم أقف على تاريخ ولادتها ووفاتها إلاّ أنها كانت من بلدة نسا من توابع خراسان ذكرها المير شير علي خان اللودي في كتابه مرآة الخيال الذي ألفه في سنة ١١٠٢ والذي ذكر فيها شعراء عصره ووصفها قائلاً ما هو تعريبه : (سيدة بيگم من الأسر العلوية في خراسان ولدت في بلدة نسا المحروسة كانت تتخلص في شعرها بـ (نسائي) وكانت لها اليد الطولى في النظم وعلو الفكر في بيانها . . .)[٧] ثم أورد نموذجاً من شعرها ونقل عنه شيخنا الأستاذ في موسوعته الذريعة إلى تصانيف الشيعة القسم الرابع من الجزء التاسع صحيفة ١١٨٤ ، كما ذكرها جماعة من المحققين منهم السيد علي حسن خان الحسيني البخاري في صبح گلشن صفحة ٥١٦ والأستاذ علي أكبر المشير سليمي في زنان سخنور ج ٢ ص ٣٢٢ وقال صاحب جواهر العجائب أن اسمها فخر النساء[٨] .

أبو النجيب شداد بن إبراهيم بن حسن الملقب بالطاهر الجزري .

توفي سنة ٤٠٠ أو ٤٠١ .

من شعراء الشيعة ونوابغ أدباء عصره مر ذكره في أعيان الشيعة الجزء السابع صفحة ٣٣٣ نقلاً عن الطليعة للشيخ محمد السماوي ونزيد على ذلك ما يلي : ذكره ابن شهراشوب المازندراني في معالم العلماء من شعراء أهل البيت المجاهرين[٩] وقال ياقوت الحموي في معجم الأدباء : (أبو النجيب الملقب بالطاهر الجزري شاعر من شعراء عضد الدولة بن بويه ومدح الوزير المهلبي . كان دقيق الشعر لطيف الأسلوب مات سنة إحدى وأربعمائة . . .)[١٠] وقال الثعالبي : (عالي السن أدرك سيف الدولة . . .)[١١] ومن شعره :

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .
(٢) انظر الكرام البررة : ج ٢ ص ٥٤٠ ـ ٥٤١ .
(٣) السيد حسن الصدر : تكملة أمل الآمل ص ٢٠٦ .
(٤) الشيخ جعفر آل محبوبة : ماضي النجف وحاضرها ج ٢ ص ٧١ نجف المطبعة العلمية ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م .
(٥) الصالحي .
(٦) الشيخ عبد الحسين الصالحي .
(٧) المير شير علي خان اللودي : تذكرة مرآة الخيال ص ٣٣٨ الطبعة الحجرية الأولى بمبئي .
(٨) الشيخ عبد الحسين الصالحي عن كتابه المخطوط (رياحين الشيعة) .
(٩) انظر معالم العلماء الطبعة النجفية ص ١٤٩ عام ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١ م .
(١٠) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١١ ص ٢٧٠ مصر مطبوعات دار المأمون الطبعة الأولى .
(١١) أبو منصور عبد الملك الثعالبي : تتمة اليتيمة تحقيق عباس اقبال ص ٤٦ طهران سنة ١٣٥٣ هجرية .

وحـاجـة قيـل لي نبـه لهـا عمـراً ... ونـم فـقـلـت عـليٌّ قـد تـنـبـه لي
حسبي عليّان أن ناب الزمـان وان ... جاء المعاد بما في القـول والعمـل
فـلي عـليٌّ بن عبـدالله منتجـع ... ولي عـلي أمـير المـؤمـنـين عـلي

وله في فتى تأدب بأدبه :

هـذا عـليٌّ بـالمشـاكـلة الـتي ... مـا بيننـا لي مـالـكٌ مستـأثـر
قـالوا صـديقك قلت بـل ولدي وقد ... أعـداه طبعي فهـو مثـلي شـاعـرُ

وقوله في قوس قزح :

السـت تـرى الجـوّ مسـتعـبراً ... يـضـاحـكـه بـرقـه الخـلّبُ
وقـد لاح مـن قـزح قـوسـةُ ... بـعـيـداً رتحـسـبـه يـقـربُ
كـطاقـي عـقـيـق وفـيروزج ... وبـيـنـهـمـا آخـرٌ مـذهـبُ

ومن شعره :

إذا المـرءُ لم يـرض مـا أمـكـنـه ... ولم يـأتِ مـن أمـره أحـسـنـه
فـدعـه فـقـد سـاء تـدبـيره ... سيضحـك يـومـاً ويـبكي سنـه

وله :

أيـاجيـل الـتصـوف شرجيـل ... لـقـد جئتم بـأمـرٍ مسـتحـيـل
أفي الـقـرآن قـال لـكـم إلهـي ... كلوا مثـل البهـائـم وارقصـوا لي

وله :

قـلت لـلقـلب مـا دهـاك ابـن لي ... قـال لي بـائـع الفـراني[1] فـراني
نـاظـراهُ فـيـما جنـت نـاظـراه ... أودعـاني أمـت بمـا أودعـاني

وله :

بـلاد الله واسـعـة فـضـاهـا ... ورزق الله في الـدنـيـا فـسـيـح
فـقـل للقـاعـدين عـلى هـوان ... إذا ضـاقـت بكـم أرض فسيحُـوا

وله :

أفـسـدتُمْ نـظـري عـليّ فـما أرى ... مـذ غبتم حسنـاً إلى أن تقـدمـوا
فـدعوا غـرامي ليس يمكن أن تـرى ... عـين الرضـا والسخط أحسن منكم

وله :

انـظـرإلى حظّ ابـن شبـل في الهـوى ... إذلا يـزال لـكـل قـلب شـائـقـا
شغـل النسـاء عن الـرجـال وطـالما ... شغـل الرجـال عن النسـاء مـراهقـا
عشقـوه أمـرد والتحى فعشقنـه ... الله أكـبر لـيس يـعـدم عـاشـقـا

حدث أبو النجيب قال : كنت كثير الملازمة للوزير : أبي محمد المهلبي المتوفى سنة ٣٥٢ . فـاتفق أن غسلت ثيابي وأنفـذ إلي من يدعـوني فاعتـذرت بعذر فلم يقبله وألح في استدعائه فكتب إليه :

عبـدك تحت الحبـل عـريـان ... كـأن لا كـان شـيـطان
يـغـسـل أثـوابـاً كـأن البـلا ... فـيـهـا خـليطٌ وهـي أوطـان
أرقّ مـن ديـني ان كـان لي ... ديـن كـما لـلـنـاس أديـان
كـأنها حـالي مـن قـبـل أن ... يـصـبـح عـنـدي لـك إحـسـان
يـقـول مـن يـبـصرني مـعـرضـاً ... : هـذا الـذي قـد نسجت فـوقـه عـنـاكـب الحـيـطان إنـسـان

فأنفذ لي جبة وعمامة وسراويل وكيساً فيه خمسمائة درهم .

وذكره ديوانـه شيخنا في الـذريعة ج ٩ القسم الثاني ص ٦٤١ والشيخ عبد الحسين الأميني مـع شعراء الغـدير ولـه ترجمة في أكثر كتب المـتراجم منها فـوات الـوفيـات للكتبي ص ١٦٧ ودميـة القصر ص ٥٠ وذكـره أيضـاً ابن شهراشوب في كتابه المناقب ج ١ ص ٥٢٨ وغيرهم[2] .

السيد عز الدين شرف شاه بن محمد الحسيني الأفطسي النيسابوري المعروف بزبارة .

توفي بعد سنة ٥٧٣ في النجف الأشرف .

ذكر في الجزء السابع من (الأعيان) الصفحة ٣٣٧ ونزيد هنا ما يلي : من أكـابر علماء عصره وأعـلام المحدثـين في النجف الأشرف أخـذ العلم عن رجال أسرته وأفاضل علماء نيسابور ثم هـاجر إلى النجف الأشرف فكـان من كبار المدرسين وفيها ذكـره منتجب الدين في الفهـرست صفحة ٧٠ ونقـل عنه الحر العاملي في أمل الآمـل ج ٢ ص ١٣١ وقـال شيخنـا في طبقـات أعـلام الشيعة : وقد قرأ الشيخ محمد بن جعفر المشهدي على صـاحب الترجمة كتاب « المفيد في التكليف » في رمضان سنة ٥٧٣ وقد قرأ عليه أيضاً في هذا التاريخ الشيخ أبو الحسن علي بن أبي طالب بن محمـد بن أبي طالب التميمي المجـاور كتاب « عيون الأخبار » كما في صـدر سند بعض نسخـه . قـال التميمي : حدثني الأمير السيد الأوحد الفقيه العالم عـز الدين شرف السـادات أبو محمـد شرفشاه بن أبي الفتوح محمـد بن الحسين بن زبـارة العلوي الحسيني الأفطسي النيسابوري أدام الله رفعته في شهور مجاورته بمشهـد الأمير عليـه السّلام سنة ٥٧٣ قال شرفشاه : حدثني الشيخ الفقيه العالم أبـو الحسن علي بن أبي الحسن عـلي بن عبد الصمـد التميمي في داره بنيسابـور في سنة ٥٤١ وهـو يروي عن والده الفقيه وعن الشيخ أبي علي الطوسي .

وأشار إلى المترجم لـه جماعة من أصحابنـا منهم الشيخ محمـد الأردبيلي الحائري في جامع الرواة ج ١ ص ٣٩٩ وشيخنا المـامقاني في تنقيح المقال ج ٢ ص ٨٣ وغيرهم[3] .

الشيخ شريف البهشتي القزويني .

توفي سنة ١٣٠٨ في قزوين ودفن فيها .

من كبـار الفقهـاء وأسـاتـذة العلم والأدب شـاعـر نحـوي من أكـابر المـدرسين المعـروفين في قـزوين وآل البهشتي : من الأسر العلميـة التي بـزغ بدرها في أفق قزوين في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة ، مؤسس كيان هذا البيت الاخـوان المترجم لـه وأخوه الشيخ عبد الـوهاب البهشتي المتـوفى سنة ١٣٠٠ وهي غير الأسرة الأخرى آل البهشتي العلوية في قزوين .

ولد المترجم لـه في قزوين ونشـأ بها نشـأة علمية واتجـه إلى طلب العلم ونال منه قسطاً وافراً ، وقد أخذ الفقـه والأصول والحديث عن الشيخ محمـد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وشقيقه الشهيد البرغاني المستشهـد في سنة ١٢٦٣ ثم حضر في الفلسفة والعرفان على الشيخ الميرزا عبد الـوهاب

(١) الفراني : مفردة فرنى : وهو نوع من الخبز يروى لبناً وسمناً وسكراً .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

البرغاني الصالحي ثم توجه إلى العراق قاصداً الحوزة العلمية الكبرى فحضر على الشيخ حسن البرغاني الصالحي وغيره من علماء كربلاء والنجف الأشرف ثم رجع إلى موطنه قزوين وتصدر كرسي التدريس والفتوى والإمامة وكان قوي البيان حلو التعبير فكثر الإقبال عليه والتف حوله طلاب العلوم وكان من أشهر المدرسين في المدرسة الصالحية ، يدرس المقدمات والسطوح واشتهر في قزوين بـ (مطول گو) لمهارته في تدريس المطول . ذكره شيخنا الأستاذ الإمام الطهراني في طبقات أعلام الشيعة ضمن ترجمة شقيقه الشيخ عبد الوهاب البهشتي[١] وأشار إليه السيد محمد علي كلريز في كتابه مينودر[٢] في ترجمة مختصرة . له مؤلفات منها ديوان شعر ، حواشي على كتاب المطول ، حواشي على حاشية ملا عبد الله في المنطق ، حواشي على شرح اللمعة للشهيد الثاني وغيرها[٣] .

الشيخ شكر بن أحمد بن شكر البغدادي .

ولد في كرخ بغداد سنة ١٢٧٢ وتوفي أواخر شهر صفر سنة ١٣٥٧ في داره ببغداد ونقل جثمانه إلى النجف الأشرف ودفن في الميدان في مقبرة خاصة أعدها لنفسه وهي مشهورة في النجف .

نشأ على حب العلم فقرأ المبادىء والعلوم العربية وفنون الأدب على جماعة من أفاضل علماء بغداد ثم هاجر إلى النجف الأشرف حدود سنة ١٢٩٠ فأتم السطوح ثم حضر على الشيخ محمد طه نجف والشيخ محمد حسين الكاظمي والسيد محمد بحر العلوم والسيد مهدي بن السيد صالح الحكيم المعروف بالتنتجي وغيرهم حتى برع في المعقول والمنقول والحكمة والكلام والأدب وغيرها واشتغل بتدريس السطوح مدة في النجف الأشرف وتخرج عليه جماعة من أهل الفضل منهم السيد محمد صادق آل بحر العلوم وغيره ، وكان من أخص أصدقائه السيد محمد سعيد الحبوبي . وكان يؤم الناس في مقبرة الحبوبي أيام غياب الشيخ باقر القاموسي وهو الذي رشحه للإمامة عند غيابه وكان يصلي خلفه جمع كثير من الناس في المقبرة والايوان .

ذكره شيخنا الأستاذ شيخ الذريعة في كتابه طبقات أعلام الشيعة وترجم له تلميذ الأستاذ توفيق الفكيكي في مجلة (الغري) النجفية في جمادي الثانية عام ١٣٦٥ صفحة ١٠ ـ ١١ ترجمة مفصلة اثنى عليه فيها ثناءاً بليغاً منه قوله (. . . كان من أئمة أهل اللغة وحجة المناطقة وقدوة المتكلمين بلا ريب ومن أعلام الأصوليين والفقهاء وسندهم الوحيد في دار السلام وذخيرة الأدباء والشعراء . . . يحل لك الغوامض العويصة من المسائل العلمية والمشكلات المعضلات في أي ناحية من نواحي الحكمة أو علم البرهان وهو يسير معك على قارعة الطريق ويكشف لك القناع عن وجه أدق القضايا الأصولية أو الفقهية بكل سرعة وسهولة مع الدليل الواضح والبرهان الساطع في كل مذهب من المذاهب الإسلامية مع بيان المراجع والموسوعات التي تناولت تلك الآراء الخلاف على اختلاف طبقات فقهاء التشريع الإسلامي . . .) .

ومن آثاره تأسيس (المدرسة الجعفرية) في بغداد على عهد الدولة العثمانية وترغيب أبناء الشيعة على الدراسة الحديثة وقد عارضه الولاة العثمانيون ، وقد كافح كفاح المصلحين الغيارى حتى أثمرت جهوده وكانت من أحسن المعاهد العلمية القائمة بتثقيف الشباب في بغداد وقد تولى إدارتها بنفسه فتخرج عليه المئات من الشباب الذي اشغل بعضهم مناصب رفيعة ووظائف عالية في عهد تأسيس الحكومة العراقية بعد خروج العثمانيين من العراق .

ومن خدماته الجليلة اقناع الحكومة العثمانية بالغاء رسوم ضرائب الدفن عن جنائز العراقيين التي تدفن في العتبات المقدسة ومنها أيضاً ترغيبه للحكومة العثمانية بصرف الأموال الطائلة على تعمير المساجد والمعاهد الدينية التي كانت خربة وعندما تأسست المحاكم الشرعية الجعفرية بعد جلاء الأتراك عن العراق اشغل منصب القضاء الجعفري وهو أول من أقدم على ذلك من علماء الشيعة وفي عهد الحكومة الوطنية رفع إلى رآسة مجلس التمييز الشرعي الجعفري .

ومن آثاره تجديد بناء عمارة (مسجد الزركشي) في محلة الشواكة بجانب الكرخ وكان يقيم فيه صلاة الجماعة وحلقات للتدريس وكانت مجمعاً لأهل الفضل والأدب والشعراء وكان له مكتبة نفيسة تفرقت بعده أيدي سبا[٤] .

مير شمس الدين شاه جهان آبادي المشهور بفقير .

ولد في دهلي بالهند سنة ١١١٥ وتوفي سنة ١١٨٣

يقال أن نسبه يتصل بالعباس بن عبد المطلب ، ولكون والدته علوية النسب لقب نفسه بلقب مير الدالة على النسب العلوي .

درس في دهلي وسافر إلى الدكن وبقي في أورنك آباد خمس سنين وفيها تعرف على ميرزا محمد رضا الهمذاني ثم رجع معه إلى شاه جهان آباد دهلي ، وكانت له صداقات مع ملوك وأمراء الوقت كعماد الملك فيروز ابن نظام الملك آصف جاه ، وعلي قلي خان ظفر ، وكانوا يحترمونه ويقدرونه . ثم آثر العزلة في أكبر آباد منصرفاً عن الدنيا . وفي أواخر أيام حياته سافر إلى الحج ورجع عن طريق البصرة ومنها ركب البحر قاصداً الهند سنة ١١٨٣ فمات غرقاً في البحر .

من آثاره كتاب في العلوم البلاغية الفارسية وديوان في القصائد الغزلية ومنظومة (الواله والسلطان) طبعت سنة ١٩٧١ في لاهور .

وهو من صانعي القصيدة في ذلك القصر . وقد سجل السيد خان آرزو في (مجمع النفائس) جميع قصائده المصنوعة ، وهي بطرق متعددة .

أما مثنوي (الواله والسلطان) فهي قصيدة حب أبوي ، إذ كان علي واله الداغستاني مؤلف كتاب التذكرة المشهور قد تعلق بابنته الحزينة خديجة سلطان بعد أن افترقا أثر الاضطرابات التي قامت في انتهاء الحكم الصفوي واضطرار الأب (واله) للإفتراق عن ابنته والإغتراب في الهند ، بينما كانت ابنته تعيش مأساتها في وطنها ، وأبوها يعاني الفقر بعيداً عن الوطن .

وقد كان المترجم يصغي لأحاديث (واله) المؤثرة خلال لقاءاتهما في الهند ، فأوحى له ذلك بمثنوي (الواله والسلطان) التي استغرق نظمه سنة

(١) انظر الكرام البررة : ج ٢ ص ٨٠٥ .

(٢) السيد محمد علي گلريز : مينودر أو باب الجنة قزوين ص ٣،٤٠ طهران من منشورات جامعة طهران الطبعة الأولى .

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

كاملة هي سنة ١١٦٠ والمحتوي على ٣٢٣٠ بيتاً من الشعر باللغة الفارسية ، وقد تضمن هذا المثنوي مدحاً للنبي (ص) وللإمام علي (ع) مع مقدمة موجزة ، ثم ذكر المأساة الأبوية البنوية ، متطرفاً إلى الحديث عن ابتداء الأحداث مما يجعل منه تاريخاً لتلك الفترة بما فيها من هجوم الأفغانيين على إيران ، وما تعرض له الناس على أيديهم من فجائع ، واصفاً عهد الدولة الصفوية ومآثرها ، وما قام فيه من عمران ورفاه .

الشيخ الميرزا ضياء الدين بن الشيخ أسد الله بن عبد الله البروجردي .

توفي حدود سنة ١٣٠٠ .

من أعلام الشريعة وأئمة الدين وأفاضل علماء بروجرد أخذ المقدمات على علماء بروجرد ثم حضر في الفقه والأصول على والده المتوفى سنة ١٢٧١ ثم توجه إلى العتبات المقدسة في العراق فسكن كربلاء والتحق بحوزة السيد محمد المجاهد المتوفى سنة ١٢٤٢ وعندما هاجم الروس حدود إيران أفتى أستاذه المذكور بالجهاد وحضر مع استاذه الجهاد وعند رجوعه من الجهاد سكن قزوين وأخذ الفقه والأصول والحديث والتفسير عن الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ . وشقيقه الشهيد المستشهد سنة ٢٦٣ وتلمذ في الحكمة والفلسفة والعرفان على الشيخ ملا آغا الحكمي القزويني والميرزا عبد الوهاب البرغاني آل الصالحي ورجع إلى موطنه بروجرد . ذكره الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة في كتابه المآثر والآثار من كبار علماء عصر ناصر الدين شاه القاجاري[١] وهو أصغر من شقيقه الشيخ الميرزا داود المار الذكر وأمهم غير بنت الميرزا أبو القاسم القمي صاحب القوانين المتوفى سنة ١٢٣١ . وهم من زوجته الأولى ذكر المترجم له الشيخ ملا أسد الله البروجردي في أعيان الشيعة المجلد الثالث صفحة ٢٨٦ وقال عن والده الشيخ أسد الله البروجردي تزوج ابنة صاحب القوانين وخلف ثلاثة أولاد ذكور من ابنة الميرزا القمي صاحب القوانين وهم المحدون الثلاثة الميرزا محمد فخر الدين وجمال الدين محمد ونور الدين محمد وأجازهم أبوهم باجازة واحدة وصرح باجتهادهم . . .) .

يقول عبد الحسين الصالحي وقد خلف الشيخ أسد الله البروجردي ستة أولاد ذكور ثانيهم المترجم له وهو من زوجته الأولى غير ابنة الميرزا أبو القاسم القمي صاحب القوانين[٢] .

طالب الآملي المشتهر بـ (طالبا) .

توفي سنة ١٠٣٥ أو ١٠٣٦ .

من مشاهير الشعراء الإيرانيين في القرن الحادي عشر الهجري ، اشتهر كثيراً في الهند وصار في عصره من أوائل الشعراء .

ولد في آمل ودرس فيها ، ونظم الشعر في مطالع شبابه ، ومدح حاكم مازندران وهو في العشرين من عمره .

خرج من آمل سنة ١٠١٠ وبقي فترة في أصفهان ثم انتقل إلى كاشان وظل فيها ما يقارب الأربع أو الخمس سنوات ، وفيها تزوج ، وكان له هناك أقرباء من جهة أمه ، فالحكيم نظام الدين علي كاشي طبيب ديوان كل من الشاه طهماسب وخدابنده كان زوج خالته ، والحكيم ركناي مسيح الشاعر المشهور كان ابن خالته .

ومن كاشان عاد إلى آمل ثم انتقل إلى خراسان ، وفي مرو الشاه جهان لازم كنش خان استاجلو حاكم المنطقة ، ونظم المثنوي (خسرو شيرين) باسمه . ثم استأذن الحاكم في العود إلى موطنه لزيارة أهله وأقربائه ، ولكنه بدلاً من السفر إلى آمل أخذ طريق الهند (سنة ١٠١٧) . وبعد فترة من الضياع في الهند استقر في قندهار ولازم فيها غازي خان ترخان سنة ١٠٢١ وعاش فيها ينظم الشعر في مدحه مشيراً إلى ضياعه في الهند بين اگره ولاهور ومولتان ودهلي إلى أن حمله الحظ الحسن إلى قندهار .

وبعد وفاة ميرزا غازي ترخان عاود المترجم السفر إلى الهند ، وكان ذلك في عهد جهانگير (١٠١٤ - ١٠٣٧) ، فمن قندهار مضى إلى اگره ، وفيها زار فخر الزمان مؤلف (ميخانه) الذي أعجب به ، ومن اگره مضى إلى سورات قاصداً الملك چين قليچ خان فمدحه بشعره ، وبقي فترة عاد بعدها إلى اگره وفيها اتصل بمحمد حسين دبانت خان دشت بياضي وأخذ منه رسالة توصية لحاكم گجرات عبد الله خان فيروز جنك (١٠٥٤) ، فاستقبله الحاكم بحرارة وعطف عليه ، ولكن الشاعر لم يطل المكث عند القائد السفاك ، بل عاد إلى اگره ومنها إلى لاهور ، وفيها التقى الشاعر آقاشاپور الطهراني ابن عم اعتماد الدولة غياث الدين محمد الطهراني ، فعرّفه هذا بابن عمه اعتماد الدولة الوزير الأديب الذي أوصله إلى قصر جهانگير . ومن ذلك الحين أخذ نجمه يسطع ، وفي سنة ١٠٢٨ أصبح بمنزلة أمير الشعراء بالغاً كمال العزة ، وظل كذلك سبع سنوات أو ثمانية ، ثم تعب وتملكه النسيان حتى وفاته .

وقد ترك بنتين يبدو أن أمهما كانت قد ماتت قبله لذا تكفلهما ابن خالته الحكيم ركناي مسيح ونقلهما إلى بيته معتنياً بتربيتهما وتنشئتهما ، كما أنه رثاه بقصيدة من الشعر .

يتضمن ديوان طالب ما بين تسعة آلاف إلى خمسة عشر ألف بيت من الشعر على ما قاله كتّاب السير . وهناك نسخة من الديوان مطبوعة في طهران سنة ١٣٤٦ تشتمل على ٢٢٩٦٨ بيت شعر ، ما بين القصيدة والتركيب والترجيعات والمثنوي والغزل والرباعيات والمفردات ومعظمها في مدح الحكام المازندرانيين ، وميرزا غازي خان ترخان ، وديانت خان ، وعبد الله خان فيروزجنگ ، واعتماد الدولة ، وجهانگير ، وقسم منها في مدح الأئمة عليهم السّلام ، وقسم في مختلف المناسبات . ومن مثنوياته : القضاء والقدر . وله : الحرف والأنين ، ومثنوي باسم جهانگير[٣] .

السيد أبو منصور ظفر بن أبي الحسين محمد الذي إدعى الخلافة بنيسابور وبويع له أربعة أشهر وتوفي سنة ٣٣٩ ابن أبي جعفر أحمد الملقب بزبارة « لأنه إذا غضب يقال قد زبر الأسد » ابن محمد الأكبر ابن عبد الله المفقود ابن الحسن المكفوف ابن الحسن الأفطس بن علي الأصغر ابن الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السّلام البيهقي النيسابوري وأمه طاهرة بنت الأمير علي بن الأمير طاهر ابن الأمير عبيد الله بن طاهر بن الحسين[٤] .

(١) الوزير ميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة : المآثر والآثار ص ١٧٣ طهران الطبعة الحجرية الأولى .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٣) تاريخ أدبيات إيران .

(٤) انظر عمدة الطالب الطبعة النجفية ص ٣٤٧ .

من علماء الشيعة وأكابر المحدثين ، أخذ العلم والمعارف الإسلامية في نيشابور وبيهق ثم هاجر إلى الكوفة ومنها إلى بغداد وسمع الحديث من أكابر مشايخه حتى بلغ فيه درجة عالية .

وتصدر كرسي الحديث في بغداد وحدث بها : ذكره ابن الفندق البيهقي في تاريخ بيهق وقال (السيد أبو منصور ظفر بن محمد بن أحمد الزبارة العلوي من أكابر السادات حسباً ونسباً وذكرته في كتابنا لباب الأنساب وألقاب الأعقاب وكان من أكابر علماء العلويين محدث غازي وهو شقيق السيد الأجل شيخ العترة نقيب النقباء بخراسان أبو محمد الزبارة وحج وسكن الكوفة وأخذ الحديث ويروي الكثير سماعاً من مشايخه في الكوفة وبغداد . . .)[١] ثم ذكر أحاديثه مسنداً إلى رسول الله (ص) . وذكره شيخنا في طبقات أعلام الشيعة في ترجمة مختصرة نقلاً عن تاريخ بيهق وقال (. . . وقد فات ذكره الخطيب البغدادي)[٢] . يقول عبد الحسين الصالحي ليس ذلك بالغريب من الخطيب البغدادي لقد تجاهله عمداً لتشيعه لأن الخطيب البغدادي كان منحرفاً عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعن أهل بيته عليهم السّلام وكثير التعصب على الشيعة وتجاهل الكثيرين من علماء الشيعة البغداديين ولم يذكرهم في كتابه تاريخ بغداد أمثال أبي جعفر محمد الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ هجرية مع أنه كان معاصره وعاش معه في بلدة واحدة بغداد وشاهد مقامه الشامخ وعظمته العلمية وكان تاريخ وفاة الخطيب البغدادي سنة ٤٦٣ أي بعد وفاة الشيخ الطوسي بثلاث سنوات .

الشيخ أبو منصور ظفر بن حمدون البادرائي .

من علماء الشيعة في القرن الرابع للهجرة وأكابر المحدثين في عصره .

لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته أخذ العلم والفنون الإسلامية على فطاحل عصره وتصدر للتدريس والإفادة ومن تلامذته الشيخ أبو القاسم علي بن شبل بن أسد الذي كان من مشايخ أبي العباس النجاشي والشيخ الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ وقرأ عليه الطوسي سنة ٤١٠ وذكره أبو العباس النجاشي في رجاله قال : (ظفر بن حمدون أبو منصور البادرائي من أصحابنا له كتب منها أخبار أبي ذر قرأته على أبي القاسم علي بن شبل بن أسد قال أخبرني به أبو منصور ظفر بن حمدون البادرائي)[٣] ذكره شيخنا في طبقات أعلام الشيعة وله مؤلفات لم أقف على غير كتاب أخبار أبي ذر[٤] .

الشيخ عباس بن الشيخ إبراهيم بن الشيخ حسين بن الشيخ عباس بن الشيخ حسن بن الشيخ عباس بن الشيخ محمد علي بن محمد البلاغي .

توفي في عام الطاعون سنة ١٢٤٦ .

ذكر في أعيان الشيعة المجلد السابع صفحة ٤١٠ بما يلي : (كان من أهل العلم والفضل ولم يصل إلينا شيء من أحواله) .

يقول عبد الحسين الصالحي : أخذ المقدمات على أفاضل علماء النجف الأشرف وتخرج في الفقه والأصول على الشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء المتوفى سنة ١٢٢٨ ، ذكره السيد حسن الصدر في تكلمة أمل الآمل فقال : (الشيخ عباس بن الشيخ إبراهيم بن الشيخ حسين البلاغي العاملي عالم عامل فاضل فقيه كامل والد الشيخ طالب المتقدم ذكره كان من تلامذة الشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء وأظن أن وفاته سنة ست وأربعين ومائتين بعد الألف)[٦] وذكره شيخنا الأستاذ في طبقات أعلام الشيعة ووصفه بقوله : عالم جليل كان من الفقهاء الأبرار والأعلام الأفاضل ومن أهل الصلاح والتقوى وأهل الشأن والمكانة . . .)[٧] ونقل عنهما الشيخ جعفر محبوبة في ماضي النجف وحاضرها الجزء الثاني صفحة ٧٥ والمترجم له والد الشيخ حسن والشيخ طالب والشيخ عبد الله كلهم من العلماء الأبرار وكان الشيخ طالب من أشهر شعراء العراق وهو جد الشيخ محمد جواد البلاغي النجفي المتوفى سنة ١٣٥٢[٨] .

الشيخ عباس بن الشيخ محمد علي بن محمد البلاغي الحائري .

توفي في أصفهان سنة ١٠٨٥ ونقلت رفاته بعد سنوات حسب وصيته إلى النجف الأشرف . ذكر في أعيان الشيعة المجلد السابع صفحة ٤٣٢ ونضيف على ما هنالك ما يلي :

أخذ المقدمات والعلوم الأولية وفنون الأدب على أفاضل علماء كربلاء المقدسة ثم تخرج في الفقه والأصول على والده الشيخ محمد علي البلاغي الحائري والشيخ جواد الكاظمي ثم انتهى إليه كرسي الفتوى والتدريس في كربلاء ومنها هاجر إلى أصفهان والتف حوله فضلاء تلك البلاد مستفيدين منه حتى توفي بهائم نقلت رفاته بعد سنوات إلى النجف الأشرف .

ذكره السيد حسن الصدر في تكملة أمل الآمل فقال : (الشيخ عباس بن محمد علي بن محمد البلاغي هو والد الشيخ حسن بن عباس بن محمد علي صاحب (تنقيح المقال في علم الرجال) المتقدم ذكره .

عالم فاضل ابن عالم فاضل أبو علماء أفاضل قرأ على أبيه الآتي ذكره وصنفا ، ومات بعد الألف من الهجرة)[٩] .

يقول عبد الحسين الصالحي : ذكره ولده الشيخ حسن في تنقيح المقال وأثبت تاريخ وفاته في أصفهان سنة ١٠٨٥ ثم نقلت رفاته إلى النجف الأشرف ، ونقل عن تنقيح المقال الشيخ جعفر محبوبه في كتابه ماضي النجف وحاضرها الجزء الثاني صفحة ٧٧ وقال في تنقيح المقال : (والدي وأستاذي ومن عليه في أكثر العلوم الشرعية استنادي ثقة عين صحيح الحديث مستحضر لأكثر العلوم له في العربية والفقه وأصوله يد طولى وله على أغلب الكتب التي في تلك العلوم حواشي جيدة حسنة نقية وله حاشية حسنة جيدة مدونة على تهذيب الحديث من أوله إلى آخر كتاب الحج)[١٠] .

(١) أبو الحسن علي البيهقي : تاريخ بيهق : تحقيق أحمد بهمنيار . ص ١٦٨ طهران الطبعة الأولى .
(٢) انظر نوابغ الرواة في رابعة المئات .
(٣) الصالحي .
(٤) أبو العباس أحمد النجاشي : رجال النجاشي ص ١٤٧ الطبعة الحجرية الأولى بمبي سنة ١٣١٧ هجرية .
(٥) الشيخ عبد الحسين الصالحي .
(٦) السيد حسن الصدر تكملة أمل الآمل ص ٢٥٠ تحقيق السيد أحمد الحسيني قم المكتبة المرعشية .
(٧) الشيخ آغا بزرك الطهراني الكرام البررة ج ٢ ص ٦٨٦ .
(٨) الشيخ عبد الحسين الصالحي .
(٩) السيد حسن الصدر الكاظمي : تكملة أمل الآمل ص ٢٥٢ - ٢٥٣ تحقيق السيد أحمد الحسيني قم مكتبة المرعشية .
(١٠) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

الميرزا عباس الإيرواني

« الحاج الميرزا ، أو الملا ، عباس الإيرواني » . اسمه المستعار « فخري » واشتهر باسم « الحاج ميرزا آقاسي » ابن « حاجي ميرزا مسلم الإيرواني » ، وقيل اسم أبيه « الميرزا قاسم » وقيل « الميرزا سليم » .

كان الصدر الأعظم لـ « محمد شاه قاجار » مدة أربعة عشر عاماً . ويذكره الناس في غيابه باسم « حاجي » أو « حاجي آقا » .

هاجر أبوه مع عشيرته وأقاربه من « إيروان » إلى مدينة « ماكو » وسكن فيها . وكان يتعاطى مهنة الزراعة . وولد « الحاج ميرزا آقاسي » في « ماكو » سنة ١١٩٨ هـ . فلما بلغ سن الرشد سافر إلى « خوي » وأقام فيها . وقضى هناك بضع سنوات في طلب العلم . فتعلم القراءة والكتابة الفارسية ودرس العلوم المرسومة في ذلك الزمان .

وسافر من « ماكو » إلى بلدان أخرى من أذربيجان وغيرها ، حتى انتهى به المطاف إلى همذان . وفيها اتصل بـ « الآخوند ملا عبد الصمد » الهمذاني صاحب كتاب « بحر المعارف » ، وكان يعد من كبار شيوخ التصوف . فتتلمذ له واختص به .

وكان أحد مريدي « الآخوند » قد استطاع حج البيت ولكنه مات قبل أن يتهيأ له سفر الحج . فناب عنه « الملا عباس » في أداء هذه الفريضة . وأصبح « حاجي ملا عباس » . وعاد إلى همذان واشتغل بتحصيل علوم التصوف وأسراره ، يقضي أوقاته ملازماً خدمة أستاذه ومرشده المذكور .

وسافر الآخوند « الملا عبد الصمد » إلى كربلاء للمجاورة فيها . فتبعه الحاج « ملا عباس » ولازمه فيها ، إلى أن قتل الأستاذ المرشد سنة ١٢١٦ هـ في فتنة الوهابيين يوم إغارتهم على كربلاء . فعاد الحاج « ملا عباس » من العراق إلى إيران وأعاد معه عائلة مرشده وأوصلهم إلى همذان ، ثم سافر إلى أذربيجان وسكن في تبريز ، وأخذ يعلم طريقة أستاذه ويرشد إليها ، واشتهر باسم « الحاج ميرزا آقاسي » و « الحاج ملا آقاسي » .

وبعد مدة قليلة عهد إليه بتعليم أبناء « عباس ميرزا نائب السلطنة » ولي عهد « فتح علي شاه » ، وكان منهم « محمد ميرزا » الذي توج فيما بعد شاهاً على إيران .

وأخذ الأستاذ المرتاض الإيرواني في أثناء التعليم والتدريس يؤثر في تلميذه الأمير شيئاً فشيئاً حتى رسخت مكانته في نفسه وأصبح قدوة له ، والشيخ يوجهه ويربيه على طريقته الخاصة ، وتحامت بينهما خصوصية ووحدة حال تامة . وقيل إن الشيخ بشره يوماً ، كما اعتاد المرشدون أن يكشفوا لمريديهم عن مصائرهم ، بأنه سينال منصب السلطان على إيران .

وكانت هذه النبوءة يومئذ أمراً لا يصدق لأنه غير معقول . فقد كان لـ « فتح علي شاه » ستون ولداً ، فكيف يصل حفيده من دونهم إلى عرش الملك . وكانت جماعة من أبنائه قد بلغوا من المقام والعظمة بحيث أن « محمد ميرزا » لم يكن يحق له الجلوس في محضر أعمامه هؤلاء ما لم يأذنوا له ، فضلاً عن أن يتخطاهم إلى أريكة الملك . ولكن « محمد ميرزا » ، مع ذلك صدق نبوءته لاعتقاده به أنه من أهل الكرامات والمقامات . واشتهر بين العامة أن « محمد ميرزا » أعطاه وثيقة ممهورة بخاتمه وتوقيعه بأنه إذا جلس على العرش الشاهاني اختاره لمنصب عظيم الدولة وجعل أمور الحل والعقد في يده .

ولعل « حاجي ميرزا آقاسي » بنى نبوءته هذه على مفاد المادة السابعة من معاهدة « تركمان شاي » التي عقدت بين روسيا وإيران سنة ١٢٤٣ هـ بعد حرب وقعت بينهما وانهزمت فيها إيران .

وفي تلك المادة أجبر الروس إيران على أن تكون ولاية العهد في إيران منحصرة في « عباس ميرزا » وأعقابه . وكان « حاجي ميرزا آقاسي » مطلعاً على مضمون هذه المعاهدة اطلاعاً كاملاً ، على حين كان اطلاع « محمد ميرزا » وأعمامه على تفاصيلها قليلاً ، فكانوا غافلين عن مضمون المادة السابعة هذا . وقد اشترطت روسيا هذا الشرط لأن « عباس ميرزا » ولي العهد خالف يومئذ غيره من إخوته وغير إخوته فكان من القائلين بمصالحة روسيا ومسالمتها والتوقف عن متابعة محاربتها(١) . وأيد الإنكليز الروس أيضاً باشتراط هذا الشرط . وظلت المادة السابعة هذه معمولاً بها ، مع سائر مواد تلك المعاهدة ، إلى آخر عهد الأسرة القاجارية .

وتوفي « عباس ميرزا » في سنة ٢٤٩ هـ . فأراد أبوه « فتح علي شاه » نصب أحد أبنائه ولياً للعهد في مكانه . ولكن الروس ذكروه بمضمون المادة السابعة من معاهدة « تركمان شاي » وأجبروه على صرف النظر عن أبنائه ونصب حفيده « محمد ميرزا » ابن « عباس ميرزا » الأكبر وتلميذ « حاجي ميرزا آقاسي » ولياً للعهد . وفي سنة ١٢٥٠ هـ توفي « فتح علي شاه » في أصفهان ، فخلفه « محمد ميرزا » هذا على العرش متخطياً أعمامه الستين أبناء « فتح علي شاه » على خلاف السنة المتبعة .

واختار « محمد شاه » في مطلع حكمه لمنصب الصدارة العظمى « الميرزا أبو القاسم » المعروف بـ « القائم مقام الثاني » ، رجل من أعظم رجال إيران وأقدرهم . ولم يطل به المقام في هذا المنصب أكثر من ثمانية أشهر ، من رجب سنة ١٢٥٠ هـ إلى آخر صفر سنة ١٢٥١ هـ . ومع ذلك استطاع أن يؤدي خدمات عظيمة لتثبيت « محمد شاه » واستقراره على العرش ، إذ كان كثير من أبناء « فتح علي شاه » يرون أنهم أحق بهذا المنصب منه ويسعون إليه بقوى يحسب حسابها ، وأقر أمور البلاد الداخلية ونظمها . فلم تعجب هذه السيرة سياسة الأجانب ومطامع المنافسين في الداخل . فقامت عليه الدسائس والمؤامرات ، وما زالوا بـ « محمد شاه » يغرونه بهذا الرجل العظيم ويحرضونه على قتله حتى قتله .

وبعد قتله تنافس للحصول على منصب الصدارة العظمى كثيرون من الكبار ، ومنهم « حاجي ميرزا آقاسي » . وكانت النتيجة أن اختار « محمد شاه » لهذا المنصب معلمه ومرشده هذا ، وهو يجهل كل شيء عن السياسة والإدارة . فكان اختياراً سيئاً ، آذى به « محمد شاه » أكثر أهل المرتبة الأولى من رجال الدولة وأغضبهم ، خصوصاً أن هذا الرجل الذي لا دراية له ولا خبرة عنده جاء خليفة لذلك الصدر الأعظم الخبير الماهر المحنك . ولكن الشاه كان يعده قطب الفلك ومدار الشريعة والطريقة ومصدر الكشف والكرامة ويعايشه بعقيدة حسنة ونية صافية ! ومن ثم اختلت أمور المملكة وانقطعت رواتب الموظفين .

ولم يلبث أن نفر منه الخاص والعام . نفروا من صورته ومن سيرته ، وكلتاهما عجيبة غريبة . فقد كان شكل وجهه منفراً وكان طبعه حاداً ، دائم

---

(١) راجع ترجمة « حسن علي ميرزا شجاع السلطنة » وترجمة « عباس ميرزا » نائب السلطنة

الهياج ، وفيه وقاحة وتلون وشراسة ، وله لسان جافٍ شتام يستعمل ألفاظاً قبيحة وقحة . وقد يغضب في مجلس يجمع أعاظم الدولة والأمة على أحد الرؤساء أو العلماء فيأمر بنزع قلنسوته أو عمامته عن رأسه وإلقائه في الخارج ، وهو يتفوه بألفاظ بذيئة . وعين أكثر الولاة ومن بيدهم إدارة شؤون المملكة من أقاربه وأتباعه .

وظل الحاج « ميرزا آقاسي » مدة صدارته ، وهي أربعة عشر عاماً ، مطلق اليد يفعل ما يشاء مسيطراً على عقيدة الشاه وإرادته ، ويتلقب بلقب « الرجل الأول » إذ كان يرى أن الصدارة العظمى دون شأنه ومرتبته . ومن ثم كان يكسره ، بل كان يمنع ، أن يخاطبه أحد بلقب الصدر الأعظم ، ولا يرضى لقباً غير لقب « الرجل الأول » .

ونبه رجال الدولة « محمد شاه » أكثر من مرة إلى أن وضع هذا الرجل في منصب الصدارة وإطلاق يده على هذا النحو يجر إلى الخراب والبوار . ولكن الشاه لم يصغ إليهم . وكانوا أحياناً يكتبون إليه مجتمعين بهذا الشأن ، فيطلع « حاجي آقا » على رسائلهم مخالفاً بذلك ما يقتضيه منصب الملك في مثل هذه الحالات . ومن ثم كان الصدر الأعظم يعرف خصومه معرفة تامة .

وفي سنة ١٢٦١ هـ تآمر جماعة من كبراء الدولة ، كان بينهم « ملك قاسم ميرزا » ابن « فتح علي شاه » .

وهو أيضاً زوج أخت القائمقام « الميرزا أبو القاسم » الصدر الأعظم القتيل ، و « الميرزا آقاخان نوري » وزير الشؤون العسكرية و « الميرزا نظر علي حكيم باشي » القزويني طبيب « محمد شاه » القديم وأحد ندمائه من يوم كان أميراً قبل جلوسه على العرش وزوج إحدى بنات « فتح علي شاه » ، هؤلاء وغيرهم تآمروا على أن يجيئوا بـ « منوجهر خان معتمد الدولة » والي أصفهان وينصبوه في منصب الصدر الأعظم بدلاً من « الحاج ميرزا آقاسي » . وعرف هذا بالمؤامرة فاستصدر أمراً من الشاه بإبعاد « ملك قاسم ميرزا » إلى أذربيجان ، وتغريم « الميرزا نظر علي حكيم باشي » ألف تومان وإبعاده إلى قم ، ووضع رجلي « الميرزا آقاخان » في الفلق وضربهما وتغريم عشرة آلاف تومان وإبعاده مع أخيه « الميرزا فضل الله » أمير الديوان إلى « كاشاف » . فنفذت هذه الأوامر وطال إبعادهم أربع سنوات . ومع أن « الحاج ميرزا آقاسي » لم يكن على صلة حسنة بـ « منوجهر » المذكور فإنه عجز عن أن يناله بسوء ، إذ كان هذا قوياً مقتدراً فظل ، على رغم الصدر الأعظم ، حاكماً على أصفهان و « لورستان » وخوزستان .

لما وصل « الحاج ميرزا آقاسي » إلى منصب الصدر الأعظم ، أو منصب « الرجل الأول » حسب ما كان يهوى أن يقال له ، اقترح عليه الشاه أن يتزوج بعمة له إحدى بنات « فتح علي شاه » ، واسمها « عزت النساء خانم » ، وصادف هذا الإقتراح هوى في نفسه فتزوجها . وكانت أرملة . وزوجها الأول ابن عمها « موسى خان » ابن « حسين قلي خان » أخي « فتح علي شاه » .

وبعد وفاة زوجها هذا ذهبت إلى مكة لأداء فريضة الحج . واتفق أن كان في قافلتها « الحاج ميرزا آقاسي » ، وذلك قبل أن يعرف بهذا الإسم إذ كان اسمه لا يزال « الحاج ملا عباس » ، وهو في لباس الفقر والدروشة . فسمع أن هذه الأميرة خالية لا زوج لها فخطبها لنفسه . فما كان من الأميرة إلا أن أمرت خدمها بتأديبه بالعصا ، فإنهالوا عليه ضرباً موجعاً حتى أنهكوه ، ثم أمرت بإخراجه من القافلة فأخرجوه .

ودار الزمان دورة من دوراته فأصبح « الحاج ملا عباس » الصدر الأعظم لإيران وأصبح يعرف باسم « الحاج ميرزا آقاسي » وزوجه « محمد شاه » بعمته « عزت النساء خانم » هذه نفسها . ويقال إنه لما خلا بها في ليلة الزفاف قال لها هل عرفتني قط ؟ وهل رأيتني قبل أن تصبحي اليوم زوجة لي ؟ فقالت : لا . لم أعرفك قط وهذه أول مرة أراك . فذكرها بقصة الدرويش الذي كان في قافلتها في سفر الحج وخطبته لها وضربه بالعصا وطرده من القافلة . ثم قال : أنا هو ذلك الدرويش المسافر إلى مكة الذي اتفق أن كان رفيق قافلتك . وها أنت ترين أنك ، مع ما زجرتني وأدبتني به من ذلك العقاب القاسي ، قد انتهيت إلى الزواج بي !

واشتهرت « عزت النساء خانم » هذه بقوة الساعد . قال أخوها « أحمد ميرزا عضد الدولة » في تاريخه : اشتهرت الحاجة الأميرة عزت النساء خانم بقوة القبضة . وكانت تباري أكثر إخوتها في الحضور الخاقاني بقوة القبضة فتغلبهم . ويقال إنها راهنت مرة أخاها الأمير سليمان ميرزا ، وكان معروفاً بأن له قبضة فائقة القوة ، فأخذت صينية قهوة من الفضة فقطعتها بيديها قطعة قطعة كما تمزق الورق .

ولم تلد « الحاجة عزت النساء خانم » من الحاج « الميرزا آقاسي » . وكان لها من زوجها السابق ثلاثة أولاد ، صبي وبنتان .

وأصبح الدرويش المعدم الصوفي المنعتق العالم العارف الزاهد في الدنيا الحاج « ميرزا آقاسي » في مدة صدارته المتمادية صاحب ملك وافر حتى صار في زمانه أول ملاك في إيران . وقدروا ما حصل عليه من أملاك بثمانية وثلاثين وأربعمائة وألف قرية ومزرعة في مختلف نواحي إيران . وذكروا أنه تخلى عن هذه الأملاك في أواخر حياة الشاه ، أي في أواخر عهد صدارته قبل وفاته بسنتين تقريباً ، وجعلها هدية للشاه سنة ١٢٦٣ هـ .

قبل وفاة « محمد شاه » ببضعة أيام أرسل الحاج « ميرزا آقاسي » رسولاً إلى تبريز إلى ولي العهد « ناصر الدين ميرزا » يخبره بسوء حالة الشاه ويدعوه إلى الحضور إلى طهران .

وحين اشتد المرض بـ « محمد شاه » لم يعده الحاج « ميرزا آقاسي » ولا حضر احتضاره وتجهيزه وتكفينه ، بل أخذ يقلب في ذهنه مخططات مختلفة ، ولجأ إلى الوزير المفوض الروسي والوزير المفوض الأنكليزي يستشيرهما .

في أول الأمر أراد أن يقيم في قلعة « عباس آباد » الواقعة في شمال طهران يرعى شؤون المملكة إلى أن يحضر الشاه الجديد . ولكنه انصرف عن هذه الفكرة وأقام في مسكنه الرسمي الخاص في طهران ، وأرسل إليه أنصاره ، ومنهم صنيعة له كان آمر المدفعية وكان من أخلص أنصاره وفي عهدته حراسة مسكنه ، رسالة قالوا له فيها إنهم عاجزون عن حمايته بسبب نقمة الأكثرية من الناس عليه ، وأن عليه أن يتدبر أمره بنفسه .

فعزم على ترك منزله الخاص والذهاب في طريق أذربيجان لاستقبال الشاه الجديد . فلما وصل إلى « يافت آباد » الواقعة على بعد بضعة كيلو مترات في الجنوب الغربي من طهران ، وهي من أملاكه المستحدثة ، أراد أن يبيت فيها . ولكن أهل القرية رفضوا أن يفتحوا له أبواب القلعة حيث أراد أن ينزل وأهانوه . فهمّه ذلك هماً شديداً وعدل عن المضي إلى أذربيجان

ولجأ إلى مقام عبد العظيم الحسني (رض) ذليلاً منكسراً . ونـزل في حجرة من مدرسة تقوم إلى جانبه . ويقال إن « الحاج ميرزا آقاسي » لما دخل الحجرة ووقع نظره على الحصير البسيط المفروش في أرضها عاودته ذكرى من أيام صدارته الماضية فقال : « وي ! ما أعجب حلماً طويلاً رأيته ! » .

وخشي جماعة من عظماء الدولة ومشاهيرها أن يعود « الحاج ميرزا آقاسي » مرة ثانية في العهد الجديد إلى مكانته من الحكم والسيطرة . فتعاهدوا على أن يرفضوا صدارته رفضاً باتاً ، وأن لا يحجموا عن بذل الأرواح والأموال إذا اقتضى الأمر ذلك ، للوصول إلى مرادهم . وكانت « مهد علياً » أم ناصر الدين شاه ، يومئذ ، من العوامل المهمة في توجيه أمور الدولة ، فجلبوها إلى جانبهم وأصبحت حليفة لهم في هذه القضية .

وبعد وفاة « محمد شاه » وقعت ثورات وفتن في كثير من الإيالات والولايات كخراسان وفارس وكرمانشاه ولورستان ، إذ ثار الناس على حكامهم من أتباع الحاج « ميرزا آقاسي » وطردوهم شر طردة من بلادهم .

وقام الحاج « ميرزا آقاسي » أيام صدارته ببعض الأعمال الزراعية المهمة . منها شق نهر من نهر « كرج » أوصل الماء إلى عدة مزارع وقرى فازدهرت وعمرت ولا تزال ترتوي من هذا النهر إلى اليوم . وقد سخر الحاج « ميرزا آقاسي » لشقه جند فوج من أفواج الجيش .

وأقام الحاج « ميرزا آقاسي » ذليلاً في تلك الحجرة من تلك المدرسة إلى أن وصل ناصر الدين شاه من تبريز إلى طهران ، وأذن له بالسفر إلى العراق وبعد سنة من إقامته في العراق توفي في شهر رمضان سنة ١٢٦٥ هـ وهو في الثامنة والستين من عمره .

عباس قلي آغا المشهور بباقي خاناي ، وفي الروسية بباقي خانوف . وكان يوقع كتاباته بتوقيع : قدسي .

ولد في ١٠ حزيران سنة ١٧٩٤ م في قرية أميرحاجيان بخانية باكو . وتوفي سنة ١٨٤٧ م في قوبا مؤرخ وشاعر وفيلسوف آذربيجاني . وهو ابن محمد خان حاكم باكو الذي أطاح به عن عرشه أخوه محمد قلي خان . تلقى دراسته بالعربية والفارسية . وفي سنة ١٨٢٠ عين ضابطاً مترجماً في تفليس بمركز قيادة الجنرال إرمولوف Ermolov القائد العام للجيوش الروسية في القوقاز ، وهناك تعلم الروسية ، وبفضلها أصبح على معرفة جيدة بالأدب الغربي . ولم يلبث أن خرج في رحلة طويلة أدت به إلى شيروان وأرمينية وداغستان وبلاد الكرج وتركيا وإيران .

وفي الحربين اللتين نشبتا بين الروس والترك ، وبين الروس والإيرانيين ، كان عباس ضابط أركان حرب في مركز قيادة الجنرال باسكيفيج Paskievich . وفي سنة ١٨٣٣ خرج في رحلة أخرى زار فيها شمال القوقاز وروسيا ودول البلطيق وبولندة .

ومنذ سنة ١٨٣٤ انقطع للأدب ونشر عدداً كبيراً من آثاره بالآذرية والفارسية والعربية . وأهم آثاره : گلستان إرم (١٨٤١ م) يتتبع فيه تاريخ داغستان وشيروان من أقدم الأزمنة حتى معاهدة گلستا . وفي سنة ١٩٢٩ م نشرت جمعية دراسة آذربيجان في باكو ترجمة روسية لهذا الكتاب القيم مع مقدمة بقلم سيسويف Sisoev وسيرة للمؤلف بقلم باخرني . وقد ظهرت النسخة الآذرية منه سنة ١٩٥١ م في باكو (طبعة أكاديمية العلوم بآذربيجان SSR) .

وآثاره الأخرى هي : (رياض القُدُس) بالآذرية ، وهو كتاب في التراجم ، و (قانون قدسي) وهو في نحو اللغة الفارسية و (كشف الغرائب) ، وهو بالفارسية يشمل وصفاً لاكتشاف امريكا و (تهذيب الأخلاق) بالفارسية ، وهو رسالة في الأخلاق والفلسفة الأخلاقية مستقاة من الكتاب العرب واليونانيين والأوربيين ، و (عين الميزان) ، وهي رسالة في الكلام والمنطق بالعربية و (أسرار الملكوت) بالفارسية والعربية ، وهي رسالة في علم الفلك نشرت في تفليس ، و (نصيحتنامه) بالفارسية ، وهي مجموعة من المبادىء الأخلاقية .

وقد كان شاعراً نظم بالعربية والفارسية والآذرية ، ونشر بعض قصائده في جريدة (فيوضات) بباكو (العدد ٢٨ الصادر سنة ١٩٠٧ م) ، وترجمة بالآذرية لخرافات كريلوف .

عباس ميرزا ملك آرا

« عباس ميرزا » لقبه « نائب السلطنة » و « ملك آرا » (مزين الملك) هو ثاني أبناء « محمد شاه قاجار » . ولد في رجب سنة ١٢٥٥ هـ . وقد اشتهر أن أباه أراد في أواخر أيامه تنحية ولي عهده « ناصر الدين ميرزا » عن منصبه ونصب أخيه « عباس ميرزا » هزاً في مكانه ولياً للعهد . ولكن العمر لم يمهله لتحقيق هذا الأمر . فقد كان « عباس ميرزا » أحب إليه من أخيه « ناصر الدين ميرزا » ، ومن ثم حباه بلقب « نائب السلطنة » .

وكان « ناصر الدين ميرزا » يلاحظ بدقة إهمال أبيه له وانصراف عطفه إلى أخيه من دونه . وبعد وفاة « محمد شاه » وتولي « ناصر الدين ميرزا » منصبه عزم على قتل أخيه « عباس ميرزا » إذ كان حاقداً عليه من زمن أبيه وكانت « مهد علياً » أم « ناصر الدين » لا تنفك توغر صدره عليه من ذلك الزمن . ولكن « عباس ميرزا » نجا من القتل بوساطة الإنكليز وحمايتهم له . واكتفى الشاه الجديد بنفيه إلى العراق في شهر ذي الحجة سنة ١٢٦٨ هـ ، وخصص له راتباً سنوياً مقداره ثلاثة آلاف تومان ، فسافر إلى العراق وسكن في بغداد . وأقام أيضاً مدة قليلة في إسلامبول . وطال نفيه مدة سبعة وعشرين عاماً أذن له بعدها « ناصر الدين شاه » بالعودة إلى طهران فعاد في شهر المحرم سنة ١٢٩٥ هـ . وأنعم عليه الشاه بلقب « ملك آرا » وخصص له راتباً سنوياً مبلغ ستة آلاف تومان وخصص لابنه « محمد ميرزا » خمسمائة وألف تومان .

ثم توسط له قائد الجيش « الحاج ميرزا حسين خان » فعينه الشاه حاكماً على زنجان . ولكنه لم يمكث طويلاً في هذا المنصب ، إذ أوقعه الوهم في الخوف على نفسه ففر إلى القفقاس . وعاد قائد الجيش إليه فطمأنه وضمن له الأمان فرجع إلى طهران سنة ١٢٩٦ هـ . وفي سنة ١٢٩٨ هـ عين حاكماً على قزوين .

كان الإنكليز يناصرون « عباس ميرزا » ويرغبون في تقوية مكانته ومعاونته على أخيه ولكنه لم يستجب لهم . وشاع أنهم طلبوا إليه أن يسافر إلى لندن فرفض . وفي الحرب التي وقعت بين إنكلترا وإيران سنة ١٢٧٣ هـ وصل الإنكليز إلى « برازجان » من طريق « بوشهر » وإلى « الأهواز » من طريق « خرمشهر » . وأرادوا إخافة « ناصر الدين شاه » وتهديده فأصروا على

نقـل « عباس مـيرزا » من بغـداد إلى جنـوب إيـران . ولكن هـذا لم يستجب لهم . فاغتنم الصدر الأعظم « الميرزا آقـاخان نـوري » هذه الفـرصة لايقـاع الصلح بين الشاه وأخيـه . وكان « نـاصر الدين شـاه » قد قـطع عنه راتبـه ، فأراد أن يتحبب إليه ويكافئه فأعاد إليه راتبه وزاد فيـه خمسمائـة تومـان ، وعفا عنه . وبهذا يكـون « عباس مـيرزا » قد جـرد الإنكليز من سـلاح قوي كـانوا يشهرونه على « ناصر الدين شاه » .

أمـا الأمراء الآخـرون فلا يهتم الإنكليـز بـاستمـالتهم إليهم إذ لم يكن فيهم من لـه مؤهلات « عبـاس ميرزا » فيستـطيعوا أن يسخـروه للوصـول إلى مآربهم .

وبعـد عودة « عبـاس ميرزا » إلى إيـران سعى الإنكليز كثيـراً إلى حمـل « ناصر الدين شاه » على تعيينه ولياً للعهد ، خصوصاً بعد وفاة اثنين من أبنائه كانا قد عينا لولاية العهد واحداً بعد آخر ، فلم يحصلوا على نتيجة .

وفي سنـة ١٢٩٧ هـ ثار في كـردستان « الشيـخ عبيد الله النقشبنـدي » أحـد رؤساء الصـوفيين وجماعة من رؤسـاء العشائـر الكرديـة على الحكـومـة المركزية . وإذ كان « عبـاس ميرزا » أحسن وسيلة يتقـوى بها خصـوم « ناصر الدين شاه » عليـه ، فقد أراد النقشبنـدي هذا استغـلاله ، كـما أراد الإنكليز استغلاله قبـلاً ، خصوصـاً أنه كـانت بينهما أيضـاً صلة ومعرفـة . فكتب إليه « الشيخ عبيد الله » رسالة أرسلها مع اثنين من رجاله يدعوه فيها إلى الحضـور إلى « ساو جيلاغ مكري » لمشاركتهم في محاربة القـوات الحكوميـة ، وبعدهـا يرفعونه إلى عرش الملك . فما كان من « عباس ميرزا » إلا أن بـادر إلى إطلاع « ناصر الدين شاه » على أمر هذه الـرسالـة . فكافـأه الشاه عـلى هذه الخـدمة بنصبـه حاكـماً على قـزوين . وفي سنة ١٣٠٣ هـ عـين وزيراً للتجـارة ورئيساً فخرياً لمجلس شورى الدولة .

وفي الـرابع عشر من ذي القعـدة سنة ١٣١٤ هـ تـوفي بسكتة قلبيـة في أثنـاء سباق للخيـل في طهران ، وهـو في التـاسعـة والخمسـين ، بعـد مقتـل « ناصر الدين شاه » بسنة واحدة . وكان جثمان « ناصر الدين شاه » قـد أودع قبـراً موقتـاً في طهران ريثما ينتهي بناء قـبر له بـالقرب من مقـام عبد العـظيم الحسني (رض) . واتفق أن كـان نقل جنـازة « ناصر الـدين شاه » من القـبر الموقت في نفس الوقت الذي شيعت فيه جنـازة « عباس مـيرزا » . ولذلـك لم يشيـع هـذا التشييـع الـلائق بـه . وفي أواخـر السنـة التي تـوفي فيهـا أنعم « مظفر الدين شاه » على ابنه « محمد ميرزا » بلقب « ملك آرا » .

الشيخ أبو محمد عبد الباقي بن محمد بن عثمان الخطيب البصري .

من علماء الشيعـة وأكابـر المتكلمين فيهم في القـرن الخامس للهجـرة ، خطيب محقق لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته إلا أنه يستفـاد من ذكر تـلاميذه أنـه كان من طبقـة السيد المـرتضى المتوفى سنـة ٤٠٦ والشيخ أبي جعفـر محمد الطوسي المولود ٣٨٥ والمتوفى سنة ٤٦٠ والخطيب البغدادي المتوفى سنـة ٤٦٣ صاحب تاريخ بغداد .

أصله من البصرة وقـدم إلى الري ثم تصـدر للتدريس والفتـوى وتخرج عليه الشيخ المفيد عبد الرحمن النيسابوري الذي كان من تلاميذ شيخ الـطائفة الشيـخ أبي جعفر الـطوسي والسيدين الشريف الـرضي والمرتضى فيستفـاد من ذلك أن المترجم له من طبقتهم . ذكره الشيخ منتجب الدين بن بابويه الرازي ولم يـذكـر تـاريـخ وصله إلى الـري وقـال في وصفـه : (الشيـخ أبـو محمد عبد الباقي بن محمد بن عثمان الخطيب البصري شيخ من وجـوه أصحابنـا ثقة ورد الري وقرأ عليه المفيد عبـد الرحمن النيسـابوري . تصـانيفه منهـا الحجج والبراهين في إمامة أمير المؤمنين عليـه السّلام وأولاده الاحـد عشر أئمة الـدين صلوات الله وسـلامه عليهم أجمعـين والمـذهب في المـذهب ورسـائـل البصرة وكتاب الدلائل)[1] وذكره الشيخ الحر العاملي في أمل الأمل[2] ونقل ما ذكـره الشيخ منتجب الدين بن بـابويـه في الفهرست ومـيرزا عبد الله الأصفهـاني في رياض العلماء ج ٣ ص ٦٤ وذكره شيخنا في طبقات أعـلام الشيعة وأشـار إلى مؤلفاته عن منتجب الدين في الذريعة[3] .

الشيخ الآغا عبد الحسين بن الشيـخ الآغا محمـد باقـر بن الشيخ محمـد أكمل البهبهاني الحائري .

توفي في همذان سنة ١٢٤٥ .

من أكـابـر علماء الشيعـة ومفـاخـر فقهـائهم وأئمة التقليـد والفتـوى أصولي محقق عابد زاهد قال في المجلد التاسع صفحة ١٨٢ من أعيـان الشيعة في ترجمة والده الآغا محمد باقر البهبهاني ما نصه (خلف ولدين عالمين فاضلين ورعـين تقيين أكـبرهما الآقـا محمد عـلي الذي سكن كـرمانشـاه والثـاني الآقـا عبـد الحسين ذكـرا في بابيهـما) . يقول عبـد الحسين الصـالحي لقد جـاء ذكر الشيخ الآغا محمد علي في المجلد العاشر صفحة ٢٥ من أعيان الشيعة ولم أجد ذكراً للشيخ الآقا عبد الحسـين في محله من طبعة دار التعـارف لذا نـذكره كـما يلي : ولد ونشأ في كربـلاء وأخذ المقدمات والعلوم الإسـلامية وفنـون الأدب على أفاضل علماء الحائر الشريف وتخرج في الفقه والأصول على والده المؤسس المجـدد الآغا بـاقر البهبهـاني المتوفى سنـة ١٢٠٥ وأجازه والـده إجازة مفصلة وعامة وأمر الناس بـالرجـوع إليه وتصـدر كرسي التـدريس والفتوى بـأمر من والده في كربلاء وبعد وفـاة والده الـح عليه السيـد ميرزا مهـدي الشهرستـاني المتوفى سنة ١٢١٦ وجمع غفير من العلماء وتلامذة والده بالصلاة في مقام والده فأجاب وصلى لمدة قصيرة ثم ترك الإمامة وبعد حملة الوهابيين عـلى كربـلاء في عام ١٢١٦ ترك الحائر الشريف متوجهاً إلى إيران واستقر مدة في كرمـانشاه ثم توجه إلى همذان ومنها إلى أصفهان ثم استقر في خـراسان وظهـر في تلك الأيام على مسرح النزاع في يـزد الشيخ أحمـد الاحسائي المتـوفى سنة ١٢٤١ مؤسس الفـرقة الشيخيـة فبطلب من علماء المتشرعة في يـزد تـوجـه إلى هـذه المـدينـة لنصرتهم ضد الشيخية حيث كانت مدينة يزد كسائر المدن الإيرانيـة والعراقيـة منقسمة على نفسها بين شيخية أنصار الشيخ أحمد الاحسائي ومتشرعة خصوم الاحسائي فوقف المـترجم له قبـالهم موقفـاً باسـلاً وأبدى معـارضته للشيخيـة وأعلن ضلالهم ما اضطر البلاط الإيراني لاستدعاء الشيخ أحمد الاحسائي من يـزد إلى طهران خشيـة مغبة النـزاع . ثم سكن الاحسائي في كـرمانشـاه بناء لدعوة ولي العهد محمد علي ميرزا دولتشاه المتوفى سنـة ١٢٣٧ وفي حدود سنـة ١٢٣٠ توجه المترجم له إلى همذان وتصدر كرسي التدريس والفتوى والزعـامة وكان من مراجع التقليد في همذان وأئمة الـدين ومحول العلماء حتى تـوفي بها . ذكره ابن أخيه الشيخ أحمد في كتابه (مرآة الأحوال) الذي ألفه في سـنة ٢٢٣

(١) الشيخ منتجب الدين الـرازي : الفهرست تحقيق الـدكتـور سيد جـلال الـدين المحدث ص ٧٦ قم منشورات مكتبة المرعشية .

(٢) أنظر أمل الامـل تحقيق السيد أحمـد الحسيني ج ٢ ص ١٤١ ـ ١٤٢ النجف الطبعـة المحقق الأولى ١٣٨٥ هـ .

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

وأثنى عليه ثناءً كثيراً وترجم له صاحب روضات الجنات في ذيل ترجمة والده وقال (. . . وأما أخوه الأصغر الذي هو الولد الآخر لصاحب الترجمة ـ أعلى الله مقامه ـ فهو أيضاً من أعاظم العلماء والمجتهدين وأفاخم الفقهاء والأصوليين يسمى بالآقا عبد الحسين وهو الذي كتب لأجله والده المعظم حاشية أصول المعالم وله أيضاً شرح على المعالم مبسوط مشتمل على تحقيقات أنيقة قلما توجد في شيء من كتب الأصول بلغ فيه إلى مباحث الإستصحاب وكان ـ ره ـ متوطناً ببلدة همذان العجم طول حياته مجتنباً عن العشرة التامة والسلوك مع قاطبة الخلق بحسن الخلق وقد أدركناه برهة من زمانه وتوفي بعد نيف وأربعين ومئتين فوق الألف ـ أفاض الله على روحه المطهرة شآبيب الغفران)(١) .

تزوج المترجم له ببنت الميرزا محمد جعفر الذي كان صهر الميرزا الشيرواني وخلف ثلاثة أولاد ، هم : ١ ـ الشيخ الآقا عبد العلي والد الشيخ الآقا محمد البهشتي والشيخ الآقا أحمد البهشتي . ٢ ـ الشيخ الاقا محمد مهدي الذي كان له ولد باسم الشيخ الاقا عبد الحسين عميد أسرة آل الاقا في طهران . ٣ ـ الشيخ الاقا محمد تقي البهبهاني والد الشيخ الاقا محمد باقر عميد أسرة آل الاقائي في همذان وجميع الأولاد والأحفاد ثم من العلماء الاعلام والفقهاء في إيران وهم منتشرون اليوم في كل من طهران وهمذان وكرمانشاه .

ترك المترجم له مؤلفات في الفقه والأصول ومنها كتاب شرح المعالم في مجلدين كبيرين ، وله أيضاً حاشية المعالم ، وكتاب الفقه .

وترجم له مفصلاً الميرزا محمد علي الكشميري في نجوم السماء ص ٣٣٧ والسيد مصلح الدين المهدوي في الجزء الأول من كتاب العلامة المجلسي صفحة ٣٣٤(٢) .

السيد عبد الحسين ابن السيد محمد بن السيد عبد الحسين بن السيد أحمد بن السيد الحسن بن السيد جعفر العاملي الأصل القزويني المولد والمنشأ والمدفن المعروف بصدر الصدور .

ولد في قزوين سنة ١٣١٠ وتوفي سنة ١٣٧٥ ودفن عند والده في الخانقاه الذي أسسه والده عند « دروازه راكش » في قزوين .

حكيم عالم عارف متصوف أديب شاعر أخذ المقدمات وفنون الأدب والعربية على والده السيد محمد صدر الصدور القزويني وتخرج في الفقه والأصول على الشيخ فتح الله الشهيدي والشيخ ميرزا هداية الله الشهيدي والسيد هبة الله التلاتري ثم توجه إلى قم وحضر سنين على الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي وأجازه مشايخه المذكورون ثم عاد إلى قزوين وهو من آل صدر الصدور العامليين الذين هاجر جدهم الأعلى السيد جعفر العاملي في عصر نادر شاه إلى قزوين ولقبه الشاه بصدر الصدور .

له مؤلفات منها ديوان شعر وكتاب سير وسلوك في التصوف وتقريرات درس استاذه الحائري في الأصول وتقريراته في الفقه وغير ذلك(٣) .

(١) ميرزا محمد باقر الموسوي الخوانساري : روضات الجنات ج ٢ ص ٩٨ طبعة مكتبة اسماعيليان (طهران) .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

عبد الرحمن الخازن أو الخازني :

توفي حوالي سنة ٥٥٠ .

حكيم فلكي مهندس ، قال البيهقي : كان غلاماً رومياً لعلي الخازن المروزي فنسب إليه . من مؤلفاته : (الزيج) المسمى بالمعتمر السنجري نسبة إلى السلطان سنجر . و (ميزان الحكمة) .

كان زاهداً بالدنيا متقشفاً ، بعث إليه السلطان سنجر ألف دينار فأخذ منها عشرة ورد بقيتها وقال : يكفيني كل سنة ثلاثة دنانير وليس معي في الدار الا سنور .

وقال القفطي في أخبار العلماء بأخبار الحكماء / ٢٥٩ (مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ) : أبو جعفر الخازن كنيته هذه أشهر من اسمه . . . خبير بالحساب والهندسة والتيسير ، عالم بالأرصاد والعمل بها ، مذكور بهذا النوع في زمانه وله تصانيف منها : كتاب زيج الصفائح وهو من أجل وأجمل كتاب صنف في هذا النوع . وكتاب المسائل العددية .

وقالت مجلة الموسم في العدد (١ ـ ٢) من السنة الأولى ما يلي :

بين أيدينا مخطوط عربي علمي نادر كُتب بموضع على ساحل بحر عمان ، يرتقي عمر المخطوط إلى أكثر من ثمانية قرون ونصف القرن ، وقد دوّن الناسخ اسم المخطوط ومؤلفه على وجه غلافه الأول وقد جاء فيه :

« كتاب ميزان الحكمة وهو الجامع للموازين ووجوه الوزن بها وما يتعلق به ، تولى جمعه وتدوينه الشيخ الأجلّ السيد عبد الرحمن الخازني مولى الشيخ العميد الماضي أبي الحسن علي بن محمد الخازن رحمهما الله مما أشار إليه الحكماء المتقدمون وبسطه المتأخرون في شهور سنة خمس عشرة وخمسمائة هجرية » .

وفي آخر الكتاب جاء ما يلي :

. . . تمت المقالة الثامنة وتم بها الكتاب ولله الحمد والشكر وبه الحول والمنة والصلاة على خير خليقته محمد النبي وعترته الطاهرين الأبرار . وقد فرغ من تحريره أبو نصر أحمد بن محمد الطرقي صبيحة يوم الجمعة غرة ربيع الآخر سنة خمس وثمانين وخمسمائة وهو اليوم الثاني والعشرون من تيرماه القديم سنة خمسمائة وثمانية وخمسين يزدجردية بساحل بحر عمان في موضع يقال له . . . هرمز حامداً لله تعالى ومصلياً على نبيه المصطفى وآله .

لهذا الأثر النفيس أهمية كبيرة لكونه من الكتب العربية النادرة في الموضوع العلمي الهام الذي طرقه مؤلفه وتتلخص نتائج البحث التي توصل إليها بما يلي :

لقد وجد علماء العرب في البحث في إيجاد الثقل النوعي للمعادن المخلوطة من نوع أو أكثر من نوع ، وتوصلوا إلى إيجاد كمٍّ مقدّر من كل نوع في ذلك المعدن المخلوط .

ولقد تقدم فلاسفة العرب الطبيعيون في القرن الحادي عشر والثاني عشر إلى حدٍ بعيد في فكرة التجاذب ، ولو أنهم لم يعرفوا تجاذب الأجسام المتبادل كما عرفه كيلو ونيوتن ، ولكنهم قالوا أن جميع الأجسام تنجذب إلى مركز العالم ـ ويعنون بذلك الأرض ـ لأن الفكرة السائدة آنئذٍ هي أن الأرض مركز الكون . ولقد عرفوا أن القوة الجاذبة هي بنسبة بعد الجسم عن مركز

الجذب وقدّروا أن القوة الجاذبة هي بنسبة طردية للمسافة .

وقد عرف العرب قوانين ووسائل مضبوطة فيما يخص القوانين الميكانيكية ، فهم عرفوا المعادلة التي تربط بين السرعة والمسافة المقطوعة مع الزمن الذي في أثنائه قطعت تلك المسافة ، كما عرفوا قوانين مراكز الثقل ، والروافع وغيرهما .

وعرفوا أن للهواء وزناً وذلك بالتأثير الذي يحدثه الهواء على وزن الأجسام .

وفهموا فعل الشرقة وسببها ، ووضع الماء في أنابيب شعرية لها فتحة واحدة .

واستعمل العرب الأريوميتر Areometer الذي ورثوه عن اليونانيين فحسّنوه وقدّروا بواسطته قياس حرارة الماء وذلك عند تقدير الكثافة التي هي بنسبة عكسية للحرارة .

ووضعوا جدولاً للأثقال النوعية لجميع الأجسام الصلبة والمائعة التي كانت معروفة لديهم .

وعرفوا أيضاً أن هنالك قوة جاذبة على جميع جزيئات الأجسام وهذه القوة هي التي تبيّن لنا صفة الأجسام ، وهذه نظرية جدّ مفيدة في التحليل الكيميائي وهي مفتاح لعديد من خفايا الطبيعة .

يبرهن الكتاب على مقدار ما توصل إليه العلماء العرب من الدقة في صنع الموازين لقياس كثافة الأجسام حيث عرفوا بواسطتها الأحجار الكريمة وميّزوها عن أشباهها وملوناتها مما يعجز عنه اليوم كثير من العلماء .

السيد عبد الرحمن الكواكبي .

مرت ترجمته في المجلد الثالث من (المستدركات) ، وقلنا هناك أن صاحب (طبقات الاعلام) يؤكد أن تشيع والده كان معروفاً ، وأن من الطبيعي أن يرث التشيع عن والده .

وذكرنا هناك أيضاً أنه سليل أسرة شيعية معروفة التشيع منذ القدم ، وقد أصابها بسبب ذلك ما أصابها من النكبات ، وذكرنا تفاصيل إحدى تلك النكبات ، وقلنا أن الكواكبي كان كجمال الدين الأفغاني حكيماً في كتمان تشيعه في عصر التعصبات الذهبية العمياء ، ولو أظهر تشيعه لاستغل ذلك في محاربته في دعوته الإصلاحية التحررية .

وقد عثرنا بعد ذلك على ما لا يدع شكاً في تشيع السيد عبد الرحمن الكواكبي تشيعاً عريقاً أصيلاً يربّي عليه من يختصه من تلاميذه ومريديه الذين يطمئن إليهم ، وهذا الذي عثرنا عليه هو مقال للكاتب الحلبي سامي الكيالي نشره في الصفحة ١١٨ من العدد ١٠٣ من مجلة العربي الصادر في (يونيو ١٩٦٧) ، وفيه عدا ذلك ما يحل لنا لغزاً عجزنا كما عجز غيرنا عن حله وهو أن الشاعر عبد المسيح الأنطاكي كان ـ على نصرانيته ـ مولعاً ولعاً عجيباً بآل البيت ومعجباً أعظم الإعجاب بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام ، حتى لقد نظم فيه ملحمة شعرية فريدة ، تتدفق حباً بأبي الحسن وتفيض حماسة له وإشادة به . ولقد كنا نعجب من ذلك ونتساءل من أين استقى هذا الشاعر معلوماته الغزيرة عن آل البيت لا سيما عن أمير المؤمنين ، هذه المعلومات التي جعلته يتفانى في حبهم ويندفع هذا الإندفاع بالإشادة بالإمام العظيم حتى ليقضي شطراً من حياته في نظم ملحمته التي بلغ عدد أبياتها ٥٥٩٥ بيتاً بقافية واحدة ، فإذا بمقال الكيالي ينبئنا بأن مصدر ذلك كله كان السيد عبد الرحمن الكواكبي الذي تتلمذ عليه الأنطاكي في حلب وفي مصر . وإليك الجزء المتعلق بهذا الموضوع من مقال الكيالي :

قال سامي الكيالي متحدثاً عن عبد المسيح الأنطاكي (١٨٧٥ ـ ١٩٢٢ م) :

أديب شاعر ليس له شهرة كبار الأدباء ولا فحول الشعراء وان حذا حذوهم وسار على نهجهم .

تتلمذ على الرائد العربي الحر عبد الرحمن الكواكبي فأخذ عنه الكثير من مبادئه ونزعته العربية .

نشأ في حلب ، ثم هجرها إلى مصر ، وقام برحلات إلى الجزيرة العربية يتصل بأمرائها وشيوخها فيمدحهم ويلقى منهم الرعاية والمال .

وكلما ازدادوا عطاء ازداد مدحاً وثناء .

وفي سيرته الكثير من المفارقات لعل أظهرها تعلق هذا الأديب المسيحي بآل البيت تعلقاً حفزه أن ينظم ملحمة في الإمام علي رضوان الله عليه ، قاربت أبياتها الستة آلاف بيت مما لم يبلغه كبار الشعراء من غلاة التشيع .

وقد عبر تعبيراً صادقاً عن حبه لآل البيت ، وإيمانه العميق برسالة العرب التي تستمد عناصرها الأصيلة من مبادىء الإسلام .

أديبنا الحلبي هذا يمت إلى الأغريق بنسب عريق ، فقد نزح أجداده من اليونان إلى أنطاكية فسكنوها مدداً طويلة . ثم انتقلت عائلته إلى حلب سنة ١١٦٣ هـ ، وما يزال أحفادها يعيشون إلى اليوم بين دمشق وحلب وبينهم الأساتذة والمحامون والتجار .

ولد عبد المسيح سنة ١٨٧٥ م فلم يكد يترعرع ويأخذ حظه من القراءة والكتابة حتى تعلق بالأدب العربي وأخذ يحفظ دواوين الشعر ، وقد وصف لنا نشأته بتجرد مطلق فقال :

نشأت في حلب الشهباء في وسط كله تعصب وجهل ، ومن حسن حظي أن بيتنا في حلب كان في شارع أكثر أهله عرب مسلمون يدعى « قسطل المشط » ، فكنت أجد من حسن معاملة العرب المسلمين لأهلي ورعايتهم لجوارنا غير ما كنت أسمع من النفرة منهم من أفواه عشرائي المسيحيين ، فشببت وأنا على غير رأيهم في هذه الأمة الكريمة .

ثم عندما اتسعت مداركي ، صرت أعرف وأعتقد أن هؤلاء المسلمين العرب الذين يجاوروننا ونجاورهم هم شركاؤنا في الوطن ، ومشتركون معنا في منافعه ومضاره ، وفوق هذا أن بيننا وبينهم صلة قربى بلحم ودم . لأن المسلمين عندما دخلوا سورية كان أهلها مسيحيين ويهوداً ومجوساً فأسلم منهم من أسلم وبقي على دينه من بقي . وربما انقسمت العائلة الواحدة إلى مسلمين وغير مسلمين . .

وهكذا أصبحت متعصباً للعرب أعد نفسي واحداً منهم ، يسرني ما يسرهم ، ويسيئني ما يسيئهم ، ويصفني واحداً منهم بات همي أن أعتني بمصلحتهم ، وتوفقت إلى أصدقاء منهم أهل علم وساسة متعصبين للعرب ، يرمون إلى استعادة مجدهم فتربيت على أيديهم وعلى رأسهم أستاذي المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي الشهير .

ولخدمة العرب أنشأت مجلتي « الشذور » في حلب سنة ١٨٩٧ - ١٨٩٨ م ، فحاربتني الحكومة ، فهجرت وطني وأتيت مصر وأنشأت جريدتي « الشهباء » ، ثم حولتها إلى اسم « العمران » .

وتبعني إلى دار هجرتي أستاذي الفيلسوف الكواكبي سنة ١٨٩٩ م ، فلذت به ، وقضيت في صحبته كل المدة التي أقامها في مصر إلى أن استأثرت رحمة الله تعالى بنفسه الطاهرة في سنة ١٩٠٢ فأخذت على عاتقي الضعيف استئناف الجهاد في سبيل العرب الذي كان يجاهده وأنا في خدمته[1] .

وفي مصر تفتحت مواهبه ورأى عالماً ينعم بالحرية خلافاً لما كان عليه وطنه الذي كان يئن من الجور الحميدي .

ولا شك أن لاتصاله الوثيق بأستاذه الكواكبي وبالشيخ كامل الغزي ، ومَنْ عرفهم من زعماء التفكير الحر في القاهرة - أثره في هذه الوجهة التي اتجه إليها - اتجاه عربي إسلامي يعيد للأمة العربية مكانتها وسؤددها بين الأمم ويختلف عن النهج العثماني الذي كانت تسير عليه بعض صحف مصر الكبرى التي كانت تجد في « الخلافة العثمانية » سنداً لمصر ضد الإحتلال الإنكليزي .

ورأى في الجزيرة العربية التي لم تخضع لحكم أجنبي - رآها بيئة صالحة لتلعب نفس الدور الذي لعبه الأجداد الميامين في صدر الإسلام ، وكانت بعض المناطق لم ترتبط بمعاهدات فعلق على شيوخها وأمرائها وسلاطينها كبريات الآمال . .

ومن أقواله بهذا الصدد :

« كان للمسلمين ملك واسع امتد ظلاله على الثقلين ، وكانوا سادات الدنيا بغير جدال بهمم الأسلاف الأبطال وذكاء من نبغ منهم من أعاظم الرجال » .

« وكان ذلك من معجزات الرسول والقرآن » .

وبعد أن أشار إلى مراحل المجد والفتوحات ووضع المسلمين الذين فقدوا الملك الواسع وأضاعوا المجد والعلم قال :

« وطمع الأوربيون بأملاك المسلمين طمع القوى بالضعيف ، وتوجهوا بأساليبهم السياسية واستعداداتهم القوية لمحاربة المسلمين حرباً صليبية ، فملكوا أكثر بلاد المسلمين بالوسائل السلمية ، بين ملك صراح أو استعمار ، حتى لا يكاد يقع نظرك على بلد إسلامي الا وللأجنبي فيه نصيب ، إلا البلاد العربية ، سكن آل الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأنصاره وقومه ، فهم وحدهم لم يخضعوا للذل الأجنبي ، ولم يجازفوا باستقلالهم ، ولا يجازف بالإستقلال إلا صغار النفوس الأنذاك » .

رحلته إلى جزيرة العرب

حبه للعرب دفعه أن يقوم برحلة إلى جزيرة العرب ، فترك مصر وفيها أهله ومكتبه وأشغاله ، وسار متجولاً في الأقطار العربية فزار عدن ولحج وحضرموت ومسقط ولينجه والبحرين والمحمرة والكويت ووقف على أبواب نجد والبصرة وبغداد ، وقد دون الشيء الكثير عن هذه الرحلة التي تركت في نفسه الكثير من الإنطباعات وهزته الشمائل العربية فوصفها وصفاً دقيقاً بقصيدة طويلة منها قوله :

وأمة خير ما تسمّى به عرب ... إن رام تمجيدها يوماً مُسمّيها
وأنفس حرة ما استُعبدت وأبت ... أن تُستذل لغير الله باريها
وهمة تنشد العليا وتطلبها ... ما الدهر يقعدها عنها ويثنيها

ويقول في الجزيرة العربية :

مهامه امحلت محلاً وما خصبت ... الا بمن قد أقاموا في مواميها
ما انبتت شجراً ، ما أثمرت ثمراً ... لكن عقولاً تناهت في تساميها
هي الجزيرة لا أرض تحاكيها ... إذ كان مجد الأراضي في أهاليها
سادت وصالت وأبقت من مفاخرها ... اوابداً ليس كرُّ الدهر ماحيها
كانت لعمرك تأبى أن تعيش على ... هون . وأن تتصافى مع مهينيها
يثور ثائرها ان نال واحدَها ... سوء وكان الذي يؤذيه يؤذيها
فإن يَصِح «وانصيراه» رأى أُسُدا ... سلَّت لقهر أعاديه مواضيها
تضامن بين أفراد القبيلة لا ... يُبقى على الضيم فردا من مواليها

رحلته إلى الجزيرة العربية تركت في نفسه ، كما قلت ، الكثير من الإنطباعات وهزت مشاعره نظماً ونثراً ، فدوَّن الكثير عنها .

هذا وقد ترك الأنطاكي عدة آثار منها كتاب « نيل الأماني في الدستور العثماني » و « النهضة الشرقية » وديوان « عرف الخزام » و « رحلة السلطان حسين في رياض البحرين » و « الرياض المزهرة بين الكويت والمحمرة » عدا مجلدات من مجلتيه « الشذور » و « العمران » .

على أن أهم آثاره في نظرنا « القصيدة العَلَوية المباركة » وهي في ٥٥٩٥ بيتاً تناولت سيرة الإمام على وما جرى له مع الخلفاء الراشدين وملامح من الفتنة الكبرى ، وقد اعتبرها أولى القصائد التي ظهرت في الشعر العربي فكانت ، كما قال ، نسيجاً وحده ما عرفت قصيدة عربية مثلها تناولت تاريخاً أو قصة فجاءت عليها من أولها إلى آخرها بقافية واحدة ووزن واحد ، كما أنها أطول قصيدة في لغة العرب على الإطلاق .

وقد قسمها إلى فصول جعل لكل فصل عنواناً يعين المطلع على إدراك مراميها واستقراء معانيها . وهي تقسم إلى قسمين أولهما تاريخ أمير المؤمنين منذ ولادته إلى أن امتدت إليه يد الشقي ابن ملجم ، والثاني خصه بمناقبه وفضائله وحكم أمير المؤمنين .

وقد دعاها مَلْحمة ، وهي أقرب الأسماء إليها . وذيَّلها بحواش كانت تاريخاً صميماً لصدر الإسلام . وبلغت مع شروحها ستمائة صفحة من كتاب متوسط الحجم .

وهي وأن لم تبلغ مبلغ الشعر الجيد إلاَّ أنها تنم عن قريحة وقادة ولا سيما والموضوع إسلامي تاريخي معضل أقحم الناظم نفسه فيه حتى جاءت فريدة في بابها تصور البطولات في أروع مظاهرها . . .

وحين أطلق على قصيدته « ملحمة » أراد المعنى اللغوي وقال :

« أما لفظة « ملحمة » التي أطلقها على هذه القصيدة المباركة أتباعاً للمغاربة ، فمعناها اللغوي « الوقعة العظيمة » ولعلها مأخوذة من قولهم التحم القوم للقتال ، أي اشتبك بعضهم ببعض ، أو ربما قصد المغاربة باسم « الملحمة » الذي أطلقوه على القصائد التي لا ذكر فيها للقتال أيضاً « الأحكام » من قولهم لحم الأمر أي أحكمه . ويصح أن نقول أن لفظة « الملحمة » مشتقة من قولهم ألحم فلان الشعر وحاكه ، أي نظمه ، وذلك

(١) القصيدة العلوية ص ٣٧ .

لتشبيههم ببيت الشعر أو بالثوب المحوك ، ومن هذا اشتقت لفظة « الملحمات » التي أطلقوها على القصائد المعروفة المشهورة للفرزدق وجرير والأخطل وذي الرمة والكميت والطرماح وأرادوا بها الإشارة إلى أن هذه القصائد كانت محكمة النظم متآلفة الأجزاء ، حسنة السبك » .

عبد الرزاق اللاهيجي القمي المشهور بالفياض .

مرت ترجمته في المجلد السابع ونزيد عليها هنا : أن له ديوان شعر في اثني عشر ألف بيت محفوظ في المكتبة الأهلية بباريس ، وفيه التوحيد ومناقب النبي (ص) والأئمة (ع) لا سيما علي (ع) ورثاء الحسين (ع) . وعدا ذلك ففيه الغزل العرفاني الاشراقي ، كما تبدو فيه الظاهرة الكلامية والفلسفية(١) .

أبو أحمد عبد السلام بن الحسين بن محمد بن عبد الله البصري ويقال عبد السلام الأديب أو أبو أحمد عبد السّلام البصري .

ولد سنة ٣٢٩ وتوفي يوم الثلاثاء ١٩ محرم الحرام سنة ٤٠٥ ودفن في مقبرة الشونيزي عند قبر استاذه أبي علي الفارسي ببغداد .

ذكره في أعيان الشيعة ج ٨ ص ١٢ بترجمة مختصرة ولم يذكر تاريخ ولادته ووفاته وسائر خصوصياته ونضيف على ما هنالك ما يلي :

كان من أكابر محدثي الشيعة وأئمة النحويين ، أديب متبحر لغوي متضلع قارىء للقرآن ، عارف بالقراآت .أخذ العلم والفنون الإسلامية على جماعة من علماء عصره منهم محمد بن عمران وأحمد بن عبد الله بن أحمد بن جُلين الوراق الدوري ومحمد بن إسحاق بن عباد التمار وجماعة من البصريين ، وهو من مشايخ أبي العباس النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ كما يستفاد من ترجمة جعفر بن محمد المؤدب وغيرها . وقال النجاشي في ترجمة أحمد بن عبد الله بن أحمد بن جلين الوراق الدوري (دفع إليّ شيخ الأدب أبو أحمد عبد السّلام بن الحسين البصري رحمه الله كتاباً بخطه قد أجاز له فيه جميع روايته)(٢) والمترجم له أيضاً من مشايخ أحمد بن عبدون المعروف بابن الحاشر المتوفى سنة ٤٢٣ .

أقوال العلماء فيه

ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد فقال (عبد السلام بن الحسين بن محمد ، أبو أحمد البصري اللغوي سكن بغداد وحدث بها عن محمد إسحاق بن عباد التمار وجماعة من البصريين ، حدثني عنه عبد العزيز الأزجي وغيره وكان صدوقاً عالماً أديباً قارئاً للقرآن عارفاً بالقراءات وكان يتولى ببغداد النظر في دار الكتب واليه حفظها والاشراف عليها سمعت أبا القاسم عبيد الله بن علي الرقي الأديب يقول : كان عبد السّلام البصري من أحسن الناس تلاوة للقرآن وانشاداً للشعر وكان سمحاً سخياً وربما جاءه السائل وليس معه شيء يعطيه فيدفع إليه بعض كتبه التي لها قيمة كثيرة وخطر كبير . حدثني علي بن المحسن التنوخي أن عبد السّلام البصري توفي في يوم الثلاثاء التاسع عشر من المحرم سنة خمس وأربعمائة . قال غيره : ودفن في مقبرة الشونيزي عند قبر أبي علي الفارس ، وكان مولدهُ في سنة تسع وعشرين وثلاثمائة)(٣) .

وقال ابن القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ : (عبد السّلام بن الحسين بن محمد أبو أحمد البصري اللغوي سكن بغداد وحدث بها عن محمد بن إسحاق بن عباد التمار وجماعة من البصريين حدث عنه عبد العزيز الأزجي وغيره وكان صدوقاً عالماً ديناً قارئاً للقرآن عارفاً بالقراءات وكان يتولى ببغداد النظر في دار الكتب واليه حفظها والإشراف عليها ذكره أبو العلاء بن سليمان في كتاب شرحه للحماسة فقال : كان يلقب بالوجكا(٤) وقال أبو القاسم عبيد الله بن علي الرقي الأديب : كان عبد السّلام البصري من أحسن الناس تلاوة للقرآن وانشاداً للشعر . قال وكان سخياً ربما جاءه السائل وليس معه شيء يعطيه فيدفع إليه بعض كتبه التي لها قيمة كبيرة وخطر كبير .

قال علي بن المحسن التنوخيّ أن عبد السّلام البصري توفي في يوم الثلاثاء التاسع عشر من المحرم سنة خمس وأربعمائة . قال غيره : ودفن في مقبرة الشونيزي عند قبر أبي عليّ الفارسي وكان مولده في سنة تسع وعشرين وثلاثمائة)(٥) .

قال ابن مكتوم : (لما وصل أبو العلاء المعري إلى بغداد اجتمع بعبد السلام البصري بدار الكتب واستعار منه (ديوان تيم اللات) ونسي أن يعيده إليه ولم يذكره حتى عاد إلى المعرّة فأعاده إليه ومعه قصيدة مدحه بها وهي مشهورة من شعره مطلعها :

هات الحديث عن الزوراء أوهيتا ومـوقد النار لا تكرى بتكريتا

ومنها :

أقر السلام على عبد السلام فلي جيد إلى نحوه ما زال ملفوتا

ووصفه ابن تغري في النجوم الزاهرة في حوادث سنة ٤٠٥ وقال (وفيها توفي عبد السلام بن الحسين بن محمد أبو أحمد اللغوي كان رجلاً فاضلاً عارفاً بالقرآن سمحاً جواداً)(٦) .

وقال السيوطي بعد ذكر اسمه : (. . . ويلقب بالواجكا كان عالماً باللغة والأدب والقرآن صدوقاً أديباً سخياً قرأ على الفارسي والسيرافي وسمع محمد بن إسحاق التمار وغيره ومنه عبد العزيز بنْ علي الأزجي وغيره ومات في المحرم سنة تسع وعشرين وثلثمائة أسندنا حديثه في الطبقات الكبرى)(٧) .

يقول عبد الحسين الصالحي : أن ما ذكره السيوطي من أن عام وفاته كان سنة ٣٢٩ هو خطأ قطعاً وربما من سهو الناسخ لأن هذا العام هو سنة ولادته لا وفاته بإجماع المؤرخين كان عام وفاته سنة ٤٠٥ كما اثبتناه وضبطه ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ ج ٩ ص ٢٥٢ في حوادث سنة ٤٠٥

(١) تاريخ أدبيات إيران .

(٢) الشيخ أبو العباس أحمد النجاشي : رجال النجاشي ص ٦٢ الطبعة الحجرية الأولى بمبئي سنة ١٣١٧ هجرية .

(٣) أبي بكر أحمد الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١١ ص ٥٧ ـ ٥٨ بيروت دار الكتاب العربي .

(٤) الوجكا : لفظة فارسية وهي (أوچ كاه) بمعنى السيد .

(٥) الوزير ابن الحسن علي القفطي : انباه الرواة على انباه النحاة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ج ٢ ص ١٧٥ ـ ١٧٦ الطبعة الأولى القاهرة دار الكتب المصرية ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م .

(٦) أبي المحاسن يوسف بن تغري الأتابكي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٤ ص ٢٣٨ الطبعة الأولى ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٣ م .

(٧) عبد الرحمن السيوطي : بغية الوعاة من طبقات اللغويين والنحاة ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ بيروت دار المعرفة .

وغيره . وكان المترجم له من مشايخ أبي العباس النجاشي المولود سنة ٣٧٢ والمتوفى سنة ٤٥٠ وينقل عنه بدون واسطة كما صرح في غير موضع من رجاله ، منها في ترجمة الشيخ أبو هفان عبد الله بن أحمد بن حرب بن مهزم بن خالد بن الفزر العبدي من شعراء أصحابنا في البصرة فقال : (أخبرنا أبو أحمد عبد السلام بن الحسين الأديب البصري عن محمد بن عمران قال حدثنا يحيى بن علي بن يحيى بن أبي منصور . . .) إلى آخر الحديث[١] .

ويروى عنه شيخ الطائفة الشيخ أبو جعفر محمد الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ بواسط الشيخ أبي عبد الله أحمد بن عبد الواحد بن أحمد البزاز المعروف بابن عبدون وابن الحاشر المتوفى سنة ٤٢٣ المذكور في الفهرست في ترجمة محمد بن جرير العامي حيث كان ورود شيخ الطائفة الشيخ الطوسي إلى بغداد في عام ٤٠٨ بعد وفاة المترجم له بثلاث سنوات ولم يدركه .

وذكر المترجم له جمع من المحققين والمؤرخين منهم في تلخيص ابن مكتوم ص ١٠٨ وطبقات ابن قاضي شهبة ج ٢ ص ٨٣ ـ ٨٤ وطبقات القراء ج ١ ص ٣٨٥ ونزهة الألبا ص ٤١٢ ـ ٤١٣ وطبقات أعلام الشيعة وغيرهم ووصفوه بنفس العبارات والأوصاف[٢] .

عبد العزيز الجواهري ابن الشيخ عبد الحسين .

مرت ترجمته في المجلد الثالث من المستدركات ، ولم ننشر هناك شيئاً من شعره مما نأخذ منه هنا ما يلي :

قال يرثي أخاه علياً :

بزغ الهلال فأين عهد وفائه ... أن لا يخون بوده وإخائه
أترى أخاه مغيباً تحت الثرى ... قمراً ويشرق زاهراً بسمائه
هلا توارى بالصعيد جماله ... حتى يشارك أهله بعزائه
قمر بدا ليل المحاق هلاله ... رسما فقارن خسفه بجلائه
ثكلت به زهر النجوم فخرقت ... بالنور ثوب الحزن من ظلمائه
سيف جلاه أبوه أبيض ناصعاً ... قد فل جوهر حده بمضائه
برزت نواجذه فقلت بشارة ... لليل قد كثرت نجوم سمائه
أواه غصني لفه شوك الردى ... وذوت خميلته أوان روائه
لم يدوه لثم الشفاه وإنما ... ذبلت اقاحة ثغره في مائه
اني خضبت أناملي بمدامعي ... وطلبت طوق الحزن في ورقائه
وعكفت حول أزاهر من قبره ... نبتت تسبح في ضريح ثوائه
نذر علي لئن زها ريحانه ... لأروين الورد في أندائه
يا لهف أيار تفرط ورده ... بيد المنون وجف قبل نمائه
يا بلبلا قد حل في قفص الثرى ... طربت له الأيام قبل غنائه
جاء الكنار مبشراً بقدومه ... فرحاً وعاد مصوتاً بنعائه
فشربت منه سرابي حين الظما ... ورعيت يأسي فيه بعد رجائه
أهلال عيدي أين غيبك الردى ... فحرمتني من بشره وهنائه
أغنته عن جدد الحلل أكفانه ... وكفاه صبغ الدمع عن حنائه
وتركت قلبي حول قبرك حائماً ... شبه الفراش يحوم حول ضيائه
إن شع لي قبس الحياة فانه ... لهب السراج يلوح في أطفائه
لو يترك الموت استنارة بحمه ... زمناً لكان البدر في أهدائه
ولأصبح الطل السقيط على الربى ... غيثاً يرش الورد في أنوائه
أأخي ياقوسي ونبل كنانتي ... ومدير جيشي بل أمير لوائه
أبقيت قلبي للزمان دريئة ... ونصبتني غرضاً إلى أنبائه
أرسلت جفني في ضريحك آملاً ... أن يصحبن الطيف في أغفائه
حملته في نعش الغماء وانشدت ... سفر الظلام قصيدة لرثائه
خفقت بأجنحة الفراشة روحه ... لكنها احترقت بجمر ذكائه
فكست رقيمة قبره وبودها ... لو انها نثرت على حصبائه
نزعتك من كفي المنية صارماً ... لمعت بروق الموت في أنضائه
حلم فرشت له الجفون فزارها ... ليلاً ومتع ناظري بلقائه
فصل الورود كثيرة أثوابه ... ويخص أيار بثوب بهائه
ورسمت شبحك فوق مرآة المنى ... حتى طمعت اليوم في أحيائه
رضوان يا ملك الجنان تنح عن ... ملك طيور الخلد من وزرائه

وقال :

تطلب في شبابك للصعاب ... فما عمر الفتى غير الشباب
وسل حسام عزمك للمعالي ... فإن السيف يصدأ بالقراب
ودع طلب الهوان لمبتغيه ... فإن المجد أجدر بالطلاب
وكرر لو خطأت المجد يوماً ... فكم خطأ يؤول إلى الصواب
إذا ما الجهل ارتج منه باباً ... فإن الجد مقلد كل باب
ولا تجدي الشجاعة في غبي ... تقاعس عزمه عند الغلاب
إذا انعكس السنان لدى طعان ... فليس يفيد مطرد الكعاب
وإن غصن الشبيبة راق حسناً ... فما للشيب فرع للشباب
ولا ينقصك قولهم فتيٌّ ... فإن السيف يقطع بالذباب
وكم قمر تولد من هلال ... وكم شهر توقد في شهاب
وإن الدهر كالميزان يعلو ... إذا يخلو وينزل وهو رابي
(ولو لم يعل إلا ذو محل ... لما شمخت على الروض الروابي)
ولو معنى الجهالة صيغ طوقاً ... تبرأت النفوس من الرقاب
ولو رهن البطالة حاز فخراً ... لما افتخر الحسام على القراب
وليس ابن النقيبة في هوان ... أعز علي من بنت النقاب
فأصل أرومة الأخلاق منها ... يمت بكل فرع مستطاب
وينمو من عوائدها ربيباً ... كما تنمو الرياض من الرباب
إذا روح الحياة بها تسرت ... فما تلد العقاب سوى عقاب
لأنت أجل مدرسة تسامت ... لدرس بنيك يا صدر الكعاب
وانك للحياة أجل بيت ... منيع الركن مرعي الجناب
وإنك للوليد أجل سفر ... يطالع فيه شاكلة الصواب
وانك في ارتجافك خير درس ... تردد فيه ألسنة الخطاب
وما ضرب النوابض فيك إلا ... لتحريض الصبي على الطلاب
أيا من ضلهم صبح التراقي ... وشع لديهم ليل التغابي
سكنتم فوق مهد من خمول ... يهز حراكه شم الهضاب
بليل مغدف الأرجاء داج ... أحم الوجه غربيب الاهاب
تشع لغيركم شمس المعالي ... وشمسكم توارت بالحجاب
ألا فلتغنموا فرصاً إليها ... تمر عليكم مر السحاب

(١) الشيخ أبو العباس أحمد النجاشي : رجال النجاشي ص ١٥١ الطبعة الحجرية الأولى ببمبئ سنة ١٣١٧ هجرية .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

فمن طلب الفضيلة في هوان   كمن طلب الفريسة تحت ناب
وما معنى الكمال سوى رموز   تزين برسمها صدر الكتاب
تطلس جذر مفخرنا وأبقى   لنا شبه الأصم من الحساب
وما اندرست معارفنا ولكن   خفي حسن السبيكة بالتراب

وقال :

أرى عمر الحياة شواظ نار   من الأجسام تكمن في زناد
وما ليل الشباب سوى دخان   وما صبح المشيب سوى رماد

وقال :

حياتي وإن أضحت رماداً على جلدي   بها شرر الآمال يلهب كالوقد
ونفسي وإن طارت شعاعاً من الأسى   لها من خيالي جذوة سعرت زندي
واني إذا ما الدهر فلّ تميمتي   أكرر آمالي فتوثق بالشد
لئن أصلتوا للحرب سيفاً فانني   أصول بسيف لا يسل من الغمد
جزى الله مرآة الأماني فإنها   جلية سبك الوجه مصقولة الخد
أرى فوقها شخص المحال مصوراً   لدى الطرف والأوهام معكوسة الطرد
تبيت معي إن ضاف أجفاني الكرى   وتؤنسني إن شفها ألم السهد
وضعنا أمانينا بحجر من الصبا   وعشنا سواءً نمرث الوعد في المهد
وما عاطفات المرء إلا حديقة   بها زهر الآمال تنبت كالورد
إذا لمحت عيني سراباً من المنى   رويت ولم أظمأ إلى ترع الورد
واني إذا ما الرأس جنح نمله   وأودع جسمي في ضريح من اللحد
نعم تصبح الآمال عني بعيدة   ولكنني أفني ولي أمل العود
أراني وقد رمت الحقايق طالباً   طليقاً من الآمال أرسف في قيد

* * *

تقريت سفر الكون درساً فلم أبن   حقايق ما أن زلن مخفية عندي
أصورها فوق الخيال فلا أرى   سوى شبح يغوي المناظر من بعد
أرى شيعاً شتى وطرقاً كثيرة   بها غدت الأعلام وافرة العد
يزجر كل نادباً لطريقه   ويهتف كل طالباً واضح القصد
حنانكم رفقاً لينتشر الهدى   ونعرف في أي الأدلاء نستهدي
خذوا بيدي عن ذا الضجيج فانه   مغبة جهل ضيعت مذهب الرشد
فما كل برق ضاحك بارق الحيا   ولا كل صوت في السما زجل الرعد
هلموا لنستجلي الحقيقة علناً   تراها وإن أمست مشققة البرد
فمن عرف العنقاء أين محلها   يهون له لو رامها شرك الصيد

* * *

ألا ليت عقبى الموت ترجع للدنا   بجملة أعمالي فابصر ما تسدي
فأما الشقا كيما أزوده الشقا   وأما إلى رشد فارغب للرشد
هرمت ولم تقطع ركابي تهامة   وما طرقت عيسي المفاوز من نجد
ولم أستلم ركن الحطيم وزمزم   ولم أتضرع في منى خاشعاً وحدي
عبدت إلهي لست راهب ناره   ولا رغبت نفسي إلى جنة الخلد
ولكن نور الحق جليّ بصيرتي   فأيقنت أن الحكم للواحد الفرد

وقال :

إن كنت تأمل نيل العز والظفر   فاصدع بعزمك جنب الحادث الخطر
فآية الحمد تمحو كل منقصة   عن العيون وتخفيها عن النظر
والفضل كالصبح لا تخفى أشعته   ولا تضر سناه غضة البصر
والمرء يذهب فيه حد عزمته   كالسهم تذهب فيه سورة الوتر
وربما عميت أبصار مطلع   فيشتري الصدف الوضاح بالدرر
يا من يريد العلى صفواً بلا كدر   الورد يزحم دون المورد الخصر
بادر إلى الأمر واستقبل بوادره   بعزم حر إلى العلياء مبتدر
وكرر الجد لو أخطأت صائبه   ولو تكر على جيش من الغير
فإنما المرء من نشتد سورته   على الخطوب وتسليه يد الضرر
مثل السبيكة تسري في نضارتها   يد التراب وتحليها يد السعر
فأحزم الناس من ينظر عواقبه   بناظرين سواد القلب والبصر
وأتعب الناس من يسعى على قدم   تردد الجري بين الورد والصدر
والسهد يعذب في جفن غدا قلقاً   معلق الطرف بين النوم والسهر
ولا يردك أن تمضي على صغر   فالنار مبدؤها قدح من الشرر
لولا التقدم لم ينجح لذي صغر   لما تقدم ذكر (الحمد) في السور
قد يعرف الشيء فيما لا يلابسه   وتثمر النفع يوماً دوحة الضرر
وربما تمنح الآمال قدرتها   فينبت الروض في صلد من الحجر
قل للذين أضاعوا العمر في كسل   ناموا عن الأمر تفويضاً إلى القدر
حتى كأن المعالي في ملاعبهم   عنقاً بغير جناح الذل لم تطر
فأصبح الفرد منهم حيثما ظهرت   له التقية يرخى كف مستتر
فراح يخبط في تيهاء قائمة   عشو المذاهب ضاهت جنح معتكر
بميسم الجهل يفلي كل ناصية   من العماية تاهت في دجى الخطر
ألستم أسرة العرب الألى ندبوا   حياتهم لحياة الكتب والسير
تلك التي انعكست فيها مآثرهم   مثل انعكاس شعاع الشمس في القمر
زانت مناقبهم زاهي صحائفها   كما يزان بياض العين بالحور
لا ينزل الحمد إلا في منازلهم   كالروح ليس لها مأوى سوى الصور
ما إن روى الذكر عن علياهم خبراً   كفى العيان دليلاً شاهد الخبر
كم قد نطيل الأماني كي نلم بها   ومنتهى الطول فيها مبدأ القصر
أدعوكم لمراح العز منتدباً   دعوى الفريسة بين الناب والظفر
إذا تقصف عود النبع من وهنٍ   فليس ينفع جبر غير منكسر
وليس كل سحاب أثره لمعت   صوالج البرق يهدي صيب المطر

وقال عند خلع السلطان العثماني عبد الحميد من قصّيدة :

بعيشك كم تحن إلى السرير   وكم ترنو بطرفك للقصور
هلالياً أراك نحلت جسماً   أما تشفيك آفلة البدور
طواك الرعب قبل الموت ميتاً   وأحيتك المنى قبل النشور
أهانتك القصور وكنت ملكاً   تهيب منه سكان القبور
قريت الوحش من جثث البرايا   ورويت الربا بدم النحور
بكت منك الثغور دماً مراقاً   وتضحك عند باسمة الثغور
فأقسم أن عود الدست لو لم   يكن من حر بأسك في سعير
لأثمر في رؤوس الجند روضاً   وأزهر من دماها في غدير
تنوح عليك أقفار الموامي   وتهتف فيك ساغبة النسور
وتنديك العذارى حاليات   بموشي الدمقس مع الحرير
بكتك الغانيات بدر دمع   بكاء الورد بالطل النثير

* * *

أتاك نذير يلدز مستطيراً   وكنت تظنه وجه البشير
يخاف الطفل من رؤيا أبيه   وتخشى المرضعات من الحجور

لقد عبر النجوم إليك جيش ... بغير سراه في الشعري العبور
لقد ذعرت به الأنفاس حتى ... كأن الجسم يرصد بالضمير
يسد الجو منه غبار نقع ... ويقذى دونه طرف البصير
أراك أسير أحزان وقيد ... وكنت أراك ترسف في السرور
وقد كنت الأمير على السرايا ... فكيف رسفت في قيد الأسير
غريب لو جزيت الخير لكن ... جزيت الشر يا شر الدهور
لقد أوغرت صدر الجند حتى ... أراك الدهر عاقبة الغرور

وله يرثي الشيخ كاظم الخراساني من قصيدة :

أناصر دين الله هل لك نهضة ... تجند للأعداء جنداً مظفراً
تحوك لهم ثوب الوقيعة أسوداً ... وتلبسهم ثوب المنية أحمرا
بفتية صدق أن توازر جمعها ... تردى ثياب الموت في الحرب مئزرا
إذا أوقدوا في الحرب نار كريهة ... تموج بها البيض الصفايح أبحرا
تهيبك الموت المقدر يقظة ... فزادك تحت الليل في سنة الكرى
وإن خطيباً فوق كفك ناطقاً ... قد اتخذ الخمس الأنامل منبرا
رضيع بمهد الكف ينشي حديثه ... ورقّ لوجه الرق أمسى محررا
يشع كوجه الصبح كافور طرسه ... فتجري به من حالك الحبر عنبرا
يصد جميع الجيش بالنصر سالماً ... ويرجع جمع المال جمعاً مكسرا
عجبت له كيف استزارك طارقاً ... حماك ولما ينثني متحيرا
بلى كنت للإسلام والدين ناظراً ... فجاءتك في شخص الرقاد مصورا
واخرس إن حل السؤال بسمعه ... جزى بفصيح اللفظ ينطق مخبرا
أصم لأسرار البرية سامع ... وأعمى بليل المشكلات تبصرا
إذا ارتجفت أسلاكه داخل الحشا ... أتاك مقيماً يسبق البرق في الثرى
أتاك بصدر الليل ينشد حاسراً ... عجيج نساء تستشيط تزفرا
أعارته أحشاها فأوقد جمرة ... واهدته صبغ الدمع فانصاع أحمرا
يحدث عن قول يحرره الأسى ... وينطق عن لفظ له الوجد عبرا
فيا من غدت للناظرين صفاته ... أشع من الشمس المنيرة منظرا
حديقة ورد كلما جف ناضر ... بروضتها أهدت إلى الطرف أنضرا
وشهب سماء كلما غاب زاهر ... أتى آخر منهن أزهى وأزهرا
أريحانة الوادي التي فاح طيبها ... وعبق رياها الرياض وعطرا
لقد كنت للداجي سراجاً منوراً ... سناه وللمرتاد روضاً منورا
وإن صعيداً قمت فيه مجاوراً ... جدير بأن يمسي بنعماك أخضرا
سقاك الحيا أو صوب كفك لا الحيا ... فقد كان أوفى منه جوداً وأكثرا

وقال يصف ثوار طرابلس الغرب على الغزو الإيطالي لبلادهم :

سد الثغور بعزمة الاسكندر ... جيش يقاد من النهي في جوهر
لبس الحديد مضاعفاً من عزمه ... ومشى على حسك الوشيج الأسمر
زرع القنا فوق العداة فأورقت ... زهراً بغير نفوسها لم تثمر
يسقيه من حمر الدماء ويجتني ... ثمر المنون من الحديد الأخضر
فكأن سيف النصر فوق يمينه ... برق يشع بعارض متعنجر
وكأن أعواد الوشيج بنقعه ... روض عليه سحابة من عنبر
وكأنما البيض الصفاح جداول ... زهرت بريحان القنا المتعطر
يجري بشهباء يصك رنينها ... وجه الكتيبة باليباب المقفر
أمن السماك به فباع قناته ... طرباً وحن إليه قلب المشتري
تروي بضحضاح المجرة خيله ... وترود في أس السماء المزهر
ضاق الفضاء بعزمه من بعدما ... سد البسيطة بالعديد الأكثر
من كل أبلج ذي عذار أخضر ... يسقي بجنة صدغه من كوثر
يغزو بسورة عزمه وجفونه ... في بأس ضرغام وفتكة جؤذر
قوم إذا ما الشر أسدف مظلماً ... طلعوا نجوماً في سماء العثير
أو أجدب الوادي وصوّح نبته ... زهرت حدائق جودهم في مرمر
وإذا السماء تزلزلت أفلاكها ... دعموا الكواكب بالقنا المتكسر
برقت مواضيهم وسحب أكفهم ... تجري بمنهل الغمام الممطر
أبناء رامة إن مشوا نحو الردى ... دفنوا التمائم في الكثيب الأعفر
تبني على حسك الرماح قصورهم ... وقبورهم فوق الجياد الضمر
لبسوا الصباح مفاضة محبوكة ... وتسربلوا ليل العجاج الأكدر
بعدت تمائمهم وهن صفايح ... ففشت ببرقراق النجيع الأحمر
خطت بأطراف الرماح حروفها ... وبغير أشلاء العدى لم تسطر
ذعروا الفضاء فلاذ في أرواحهم ... وثوت جسومهم لحفظ العسكر

* * *

فتيات رومة نظمي درر البكا ... سمطاً يزان بلؤلؤ متنثر
وصغي القلائد للرجال مدامعاً ... وذري تمائمهم مكان الجوهر
ودعي الخدور لهم فقد نهبتهم ... بيض السيوف بكل ليث مخدر
قد فاجأت غاب الليوث فاصبحت ... مثل الفريسة تحت ناب غضنفر
رصد المحيط جسومها فسلو انها ... نزعت لتفحص في الثرى لم تقدر
ترصد الأجفان سطوة هدبها ... وتخاف مقلتها عداء المحجر
ترنو الصباح مقلداً بصوارم ... وترى الظلام مجنداً في عسكر
وتكاد تهرب أرضها من تحتها ... لو كان تبصر مأمناً في مقفر

وقال :

خليلي ما معنى الشعور فإنني ... أرى كل شيء شاعراً مترنما
أرى الكون في لوح الوجود قصيدة ... تخط عليها الخلق شعراً منظما
هو الشعر باق ليس تفنى حياته ... نقيم احتفالاً أو نشيد مأتما
تصوره روح الخيال فلو بدا ... إذاً لرآه الطرف شخصاً مجسما
وتنشر أسفار الطبيعة شعرها ... رموزاً فيمليها الهزار مترجما
هل النجم إلا روضة حسية ... أرى البدر فيها شاعراً متبسما
فداً لدموع العاشقين فانها ... قصيدة شعر بينها الحب نظما
عرائس حب إن تجلت بدورها ... لدى الصب ليلاً زفها الوجد أنجما
تقبل خد الجلنارة وجنة ... وتلثم ثغر الأقحوانة مبسما
وزاهرة ما روض الحفل مثلها ... عليها خيال البدر شعراً مجسما
فرشت بيوت الشعر فوق رياضها ... بساطاً وسامرت الخيال المسلما
لقد نسجت أيدي الفراقد فوقها ... من الليل وشياً بالنجوم منمنما
نظرت به طوق الهلال مفضضاً ... كنصف سوار زان لليل معصما
ولم أر مثل الروض في الأرض شاعراً ... ولوعاً بأشعار الطبيعة مغرما
وما الشعر تمليه الرياض حقائقاً ... لكالشعر يمليه الخيال توهما
تقريت أسفار الخلائق في الثرى ... وفتشت أسرار العوالم في السما
فلم أر فيها روضة أو خريدة ... ولم ألف إلا شاعراً أو متيما
ألا كل صوت طارق صوت شاعر ... وسيان فينا من بكى أو ترنما

وقال :

هـذي المجرة بـارتجـاف نجـومهـا تحكي الصفيحـة في يمـين جبـان
فكـأنها والنجم روضـة نـرجس غـرست بفيض العـارض الهتـان

وقال :

أخو الحزم من يستقبـل الأمر مـاضياً فـأمـا مـنـايـاه وأمـا الأمـانيـا
يهـم فـلم تـثـن الأمـور عـنـانـه بـأن لا يـرى في أول المجـد ثـانيـا
ويـعـلقـه عـزم بـهـيـج ضرامـه إبـاء أبي إلا الـعـلى والمعـالـيـا
فـيرسلهـا عيـديـة قـد تعـودت متى تنشر الأخفـاف تطوي الفيـافيا
يقـرطس قلب البيد منهـا بـأسهم وإن كـن أمثـال الـقسي حـوانيـا
ويخـترق الخرق المخـوف كـأنمـا أعـد هـواديهـا دليـلاً وهـاديـا
ويـدرع الـظلماء سـار بجنحهـا ولم يعتمـد حتى النجـوم الســواريا
ويكتـمـه اللـيـل البـهـيم ولم يـكن ليظهر سراً في حشا البيـد خـافيا
إذا مـا اعتـلى يعلو الهضـاب تمثلهـا أو انحط قلت السيـل صادف واديـا
ويستـوقف ابن المـزن يخفق قلبـه وإن كـان سبـاقـاً إذا كـان وانيـا
يرى العار أن يكسى الرياش ملابساً إذا لم يكن فيهـا من العار عـاريـا
يميـل عن المـرعى الـوخيم وينثني عن المـاء مطروقـاً وإن كـان ظـاميـا
إلى حيث ظـل المجد يخلص ضـافيـاً عليـه ومـاء الجـود يغـدر صـافيـا
إذا مـا الليـالي الخـاليـات اغتضبتـه حقـوقـاً لـه استبقى الليـالي البـواقيـا
لـيـنـفـع عـلـماً أو لـيـنـقـع غـلة ليعتق رقـاً أو لـيـطلق عـانيـا
فـذاك ابن عـزم كم تمثـل قـائـلاً (أخو الحزم من يستقبـل الأمر مـاضيا)

السيد المير عبد الفتاح ويقال المير فتاح الموسوي المراغي التبريزي .

توفي في مراغة سنة ١١٧٥ ودفن بها .

من فحول شعراء الشيعة في عصره عارف متصوف .

أخذ المقدمات وفنون الأدب في مسقط رأسه مراغة وحضر على أعلامها ثم هاجر إلى المشهد الرضوي والتحق بحوزة المير محمد تقي المشهدي المعروف بالشاهي . ثم رجع إلى موطنه مراغة وعين شيخ الإسلام بهـا وكان من أكـابر علماء تلك البـلاد . كان ينـظم الشعر بـاللغة الفـارسية ويتخلص بـإشراق ، وبـاللغة الـتركية بـاسمه (فتـاح) ترجمه الأستاذ محمـد علي تـربيت في كتابه دانشمندان آذربايجـان ص ٤١ ـ ٤٢ عن رياض الجنة للزنوزي ، وتـرجمه في مطلع الشمس . له مؤلفات أشار إلى بعضها في الذريعة منها ديـوان فارسي ، ديـوان تركي قيـامت نامـه منـظوم بـالـتركيـة في رحلة النبي (ص) وشهـادة الحسين (ع) ، رياض الفتـوح منظوم فـارسي منه نسخـة في مكتبة الـروضة الرضوية في خراسان ، ساقي نـامه وديـوان في مدح أمـير المؤمنين عـلي بن أبي طالب (ع) .

اشعاره التركية معروفة في آذربيجان ويتنـاقلها خـطباء المنبر الحسيني في تلك البلاد[١] .

السيد عبد القاهر بن السيد كاظم بن السيد حسين بن السيـد عبد القـاهر بن الحسين التوبلي البلادي البحراني .

توفي سنة ١٣٣٥ في بندر لنجة ودفن بها .

فقيه أديب شاعـر من بيت علم وزعامـة وكان جـده السيد الحسـين بن السيـد عبد القـاهر من أفـاضل علماء عصره في البصرة وجـده الأعـلى السيـد عبد القاهر بن السيد الحسين كان من أجـلاء تلاميـذ الشيخ حسـين العصفور البحـراني ذكره الشيـخ علي البحـراني في أنـوار البـدرين صفحـة ٢٤٨ وقـال (السيـد التقي الفاخـر المعاصر السيـد عبد القـاهر بن السيـد كاظم التـوبـلي البحراني المقابي كان (قدس سره) من العلماء الأخيـار والنجباء الأبـرار خرج من البحـرين وسكن بلاد القـطيف ثم مسقط ثم لنجة وبهـا توفي (قـدس الله سره ونور قبره) رأيت له رسالة في شرح أسماء الله الحسنى وخواصها ومنـافعها حسنـة ، ولا أدري هل لـه غـيره أم لا . من المعـاصرين ولم أره وسمعت لـه بعض المراثي على الحسين بن علي عليه السّلام جيدة بليغة ولم يحضر في تـاريخ وفاته ضاعف الله حسناته) ذكر شيخنا الأستاذ كتابه في موسوعته الذريعـة إلى تصانيف الشيعة الجزء ١٣ ص ٨٩ وترجم لـه في طبقات أعـلام الشيعة نقـلاً عن الشيخ علي البحراني[٢] .

السيد عبد الكريم بن السيد أحمد بن السيد الحسن بن السيد جعفر الرضوي العاملي الأصل القزويني المولد والمنشأ آل صدر الصدور القزويني .

ولد في قزوين سنة ١٢٢٠ وتوفي بها سنة ١٣٠٣ .

من العلماء البارزين وأئمة الفتـوى والتقليد ولـه اليد الـطولى في العلوم العقلية والنقلية والخطابة وهو أديب شاعر .

آل صـدر الصـدور القـزويني : من الأسر العلمية العلويـة العـاملية الرضوية نبغ منها علماء أعلام وشعراء أفذاذ وهي غير أسرة آل شيخ الإسـلام العلوية العاملية الحسينية في قزوين هاجر جد هذا البيت الجليل السيـد جعفر الذي كان من سادات جبل عـامل وأشرافـه الأجلاء إلى قـزوين في عهد نـادر شـاه الافشاري المـولود في سنـة ١١٠٠ الـذي تسلم السلطنـة في إيـران سنـة ١١٤٨ ثم قتل في سنة ١١٦٠ مؤسس السلسلة الافشـارية فـاحترمـه احترامـاً سامياً وأنعم عليـه بلقب صدر الصـدور وقد مـر تاريخ هذه الأسرة في تـرجمة نجل المترجم له السيد جمال الدين آل صدر الصدور القزويني .

ولد المترجم له في قزوين ونشأ بها نشأة صالحة وأخذ المقـدمات وفنـون الأدب والعربية عـلى أعلام أسرتـه منهم والده السيـد أحمد آل صـدر الصـدور وغـيرهم ثم تخرج في الفقـه والأصول والحـديث والتفسير عـلى الشيـخ محمـد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وشقيقـه الشهيد الثـالث المستشهد سنة ١٢٦٣ وأخذ الفلسفـة والعرفـان عن الشيخ مـلا آغا الحكمي القـزويني والشيخ ملا علي البرغاني والشيخ الميرزا عبد الوهاب البرغاني القزويني . وكان من أسـاطين الـدين ومتكلمي الشيعة وزعيـماً دينيـاً كبيـراً في قـزوين وتصـدر للتدريس والفتوى ونبغ في الخطابة . ذكره شيخنا الأستاذ آغا بزرك الـطهراني في كتابه طبقات أعلام الشيعة ووصفه بقوله : (كان جد أبيه السيد جعفر من سادات جبل عامل وأشرافها الأجلاء هـاجر إلى إيـران وسكن قزوين في عصر السلطان نـادر شاه فـاحترمـه وبجله وأحله مكانـة ساميـة ، وأنعم عليه بلقب صدر الصدور .

والمترجم له أحد أساطين الفضل ورجال العلم الأجلاء كان فقيهاً بارعاً ومتكلماً خبيراً وحكيماً كاملاً ومن المنبرين الكبار والوعاظ المشاهير توفي في نيف وثلثمائة وألف للهجـرة وله تصـانيف لا تحصرني اسماؤهـا وهو والـد العلامـة

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

السيد جمال الدين القزويني)(١) .

أقـول : وله ولـد آخر من العلماء الأعـلام وهو السيـد رضـا آل صـدر الصدور القزويني العاملي . ومن مؤلفات المترجم له رسالـة في المبدأ والمعـاد ، مراتب الوجـود ، ديوان شعـر يحتوي عـلى مجموعـة مراثي ومـدائح بـالعربيـة والفـارسية ، تقـريرات في الأصـول لأستاذه الشيـخ محمد صـالح الـبرغاني ، تقريرات في الفقه(٢) .

الشيخ عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبـد الرحمن بن أحمـد بن أبي بكر القضاعي البلنسي الأندلسي :

ولـد بـأنـده مـن بـلاد الأنـدلس في سـنـة ٥٧١ هـ ـ ١١٧٥ م وتـوفي ببلنسيـة عنـد الـظهـر من يـوم الـثلاثـاء الخـامس من شـهـر ربيع الأول سنة ٦١٩ (٢١ مـارس سنة ١٢٢٢ م) ودفن بعـد صلاة العصر من يـوم الأربعـاء بمقـبرة بـاب بيـطالـة في بلنسيـة من بـلاد الأنـدلس . هـو من أعيان علماء الشيعة في الأندلس وأكابر المحدثين في عصره أخذ العلم عن أجلاء أهل الفضـل في الأندلس منهم الشيـخ أبو عبـد الله بن نوح الأنـدلسي وغيرهم . والمترجم له هو والد ابن الابار الأندلسي الشهير . وكتب ابن الأبار عن تاريخ حياة والده وهـو أدق تحديـد وجدنـاه عن تاريـخ المترجم لـه قال : (كان من أهل العلم والدين ، درس على أجـلاء أهل العلم في عصره وأجـاز له الكثيرون منهم روايـة كتبهم ورواياتهم وكتب إليـه القاضي أبـو بكر بن أبي حمـزة يجيز لـه ولي معه جميـع روايته مـرتين إحداهما في غـرة رجب سنة ٥٩٧ والثانية في منتصف ذي القعدة من العام المذكور وأنا إذ ذاك ابن عامين وأشهر مولدي عند صلاة الغداة من يوم الجمعة في أحد شهري ربيع سنة ٥٩٥ وكان رحمه الله ـ ولا أزكيه ـ مقبلاً على ما يعنيه شديد الإنقبـاض بعيداً عن التصنـع حـريصـاً عـلى التخلص مقدمـاً في حملة القرآن كثـير التلاوة لـه والتهجد بـه ، صاحب ورد لا يكاد يهمله ذاكراً للقراءات مشاركاً في حفظ المسائل آخـذاً فيها يستحسن من الأدب معـدّلاً عند الحكـام وكان القـاضي أبو الحسن بن واجب يستخلفه على الصلاة بمسجد السيـدة من داخل بلنسيـة . قرأت عليـه القرآن بقراءة نافـع مراراً وسمعت منـه أخباراً وأشعـاراً واستظهـرت عليه مـراراً أيام أبخلي على الشيوخ ، يمتحن بذلك حفظي ، ونـاولني جميع كتبـه وشاركتـه في أكثر من روى عنه وسمعته يقول : حضرت شيخنا أبا عبد الله بن نوح ، وقد زاره بعض معارفه فسأله عن أحواله وبـالغ في سؤالـه فجعل يحمـد الله ويردد ذلك عليه ثم أنشد متمثلاً :

جـرت عـادة النـاس أن يسـألـوا   عـن الحـال في كـل خـير وشر
فـكـل يـقـول بـخـير أنـا   وعـنـد الحـقـيـقـة ضـد الخـبر

حدثني أبي رحمه الله غير مرة أنه ولد بأنده سنة ٥٧١ وتوفي ببلنسية وأنا حينئذ بثغر بطليوس عند الظهر من يوم الثلاثاء الخامس لشهر ربيع الأول سنة ٦١٩ ودفن لصلاة العصر من يوم الأربعـاء بعده بمقـبرة باب بيـطالة وهـو ابن ثمان وأربعون سنة ، وحضر غسله أبو الحسن بن واجب وجماعة معه ، وكانت جنازته مشهودة والثناء عليه جميلاً ، نفعه الله بذلك) .

ومـرت ترجمـة ولـده ابن الأبـار في أعيـان الشيعـة ج ٩ ص ٣٨٤ وان أسرته من البيوت العلمية الشيعيـة المعروفـة في بلنسية وكـان لها الـدور الخطير ضـد الحروب الصليبية في الأنـدلس ونشاط ولـده أبي عبد الله محمـد المعروف بـابن الأبار وتحركاته في تحريض المسلمين ضد الجيوش الأسبانية معروف(٣) .

الشيـخ أبـو محمـد عبـد الله بن أحمد بن أحمـد بن أحمـد بن عبـد الله بن نصر البغدادي المعروف بابن الخشاب .

ولد في بغداد سنة ٤٩٢ وتوفي بهـا عشية الجمعـة ٣ رمضان سنـة ٥٦٧ بباب الأزج بدار أبي القاسم بن الفتراء وصـلى عليه يـوم السبت أبو النجم بن القابلة في مسجد السلطان ودفن بمقبرة باب حرب ببغداد .

من أكـابر العلماء ، مشـارك في الحكمـة والفلسفـة والمنـطق والحسـاب والهنـدسة والتفسـير والفقه والنسب ومن أعلم معـاصريه بـالعربيـة نحوي ، لغوي ، أديب ، شاعر ، محدث ، فقيه .

ذكره في أعيان الشيعة ج ٨ ص ٤٦ في ترجمة مختصرة نقلها عن ريـاض العلماء(٤) دون أن يذكر تاريخ ولادته ووفاتـه وسائـر خصوصيـاته ونـزيد عـلى ذلك ما يلي :

أخـذ النحو عن أبي بكـر بن جوامـرد القطان وقـرأ اللغة عـلى أبي عـلي الحسن بن عـلي المحولي وعـلى أبي منصور مـوهوب الجـواليقي وتلمـذ في علم الحساب والهندسة على أبي بكـر بن عبد البـاقي الأنصاري وفي الفـرائض على أبي بكـر المرزوقي وسمـع الحـديث من أبي الغنـائم النرسي وأبي القـاسم بن الحصين وأبي العز بن كادش وغيرهم من مشايخ عصره .

أقوال العلماء فيه

ذكره الوزير جمال الدين علي القفـطي المتوفى سنـة ٦٤٦ في كتاب انبـاه الرواة ووصفه قائلاً : (كان أديباً فاضلاً عالماً له معرفـة جيدة بـالنحو واللغـة والعـربيـة والشعـر والفـرائض والحسـاب والحـديث ، حـافـظاً لكتـاب الله عزّ وجلّ ، قد قرأه بالقراءات الكثيرة .

أخذ النحو عن أبي بكر بن جوامرد القطان ، ثم عن أبي الحسن علي بن أبي زيـد الفصيحيّ الأسترابـادي ثم عن الشريف أبي السعادات الشجـري ، وقاطعه وردّ عليه في أماليه . وقرأ اللغـة على أبي عـلي الحسن بن علي المحـوّلي وعلى أبي منصور الجواليقي وغيرهما .

وسمع الحديث من مشايخ وقته وأكثر ، وكـان حريصـاً على السـماع ، مداوماً بالقراءة على المشايخ في علق سنه أقرأ الناس مدة ، وتخرج به جماعة في علم النحو وحدّث الكثـير ، ووصف بالفضـل والعلم والمعرفـة وكان مـطرحاً للتكلف في مأكله وملبسه وحركاته فيه بذاذة وكان يكثر لعب الشطرنـج ويقعد لذلك أين وجده ولا يراعي خسـة اللاعب والموضع ويقف عـلى حلق الطرق والمشعـوذين وغير ذلـك وكان كـلامه في حلق الإفـادة أجود من قلمـه . وكان ضيّق العطن ضجوراً ما صنف تصنيفاً فكمله . . .

وكانت له دار عتيقة ولأخ له ومن شاركهما في ورثـة أبيه ولـه منها صفّـة كبـيرة منفردة وبهـا بـواري قصب مفـروشـة وفي صـدرهـا ألـواح من الخشب مرصوص عليها كتب له أقامت عدّة سنين ما أزيـل عنها الغبار ، وكانت تلك

(١) انظر نقباء البشر في القرن الرابع عشر ج ٣ ص ١١٥٧ .
(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .
(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي .
(٤) الميرزا عبد الله أفندي الأصفهاني : رياض العلماء ج ٣ ص ١٨٤ قم المكتبة المرعشية سنة ١٤٠١ هجرية .

البواري قد اشترت بما عليها من التراب يقعد في جانب منها والباقي على تلك الحالة وقيل أن الطيور عششت فوق الكتب وفي أثنائها ، وكان إذا تكلم على مسألة في النحو منفردة ربما أجاد في بعض الأوقات إذا خلا من ضجره ، وكان لا يقتني من الكتب إلا أردأها صورة وأرخصها ثمناً وله وظيفة في بعض الأماكن ببغداد وتدل كتبه على صحة ما ذكرته . وله شعر كشعر النحاة . . .)(١) .

ثم قال : (قال عبد الكريم بن محمد المروزي : عبد الله بن أحمد بن أحمد بن الخشاب أبو محمد من ساكني باب المراتب الشريفة شاب كامل فاضل له معرفة تامة بالأدب واللغة والنحو والحديث ويقرأ الحديث قراءة سريعة حسنة صحيحة مفهومة سمع الكثير بنفسه وجمع الأصول الحسان)(٢) .

(قال الإمام أبو شجاع عمر بن أبي الحسن البسطامي ببخارى : لما دخلت بغداد قرأ عليّ أبو محمد الخشاب كتاب غريب الحديث لأبي محمد القتيبي قراءة ما سمعت قبلها مثلها في الصحة والسرعة وحضر جماعة من الفضلاء سماعها وكانوا يريدون أن يأخذوا عليه فلتة لسانه فلم يقدروا على ذلك)(٣) .

(أنبأنا محمد بن محمد بن حامد في كتابه خريدة القصر ص ٨٢ قال : (عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن عبد الله الخشاب من أهل بغداد شيخنا في علم الأدب أعلم الناس بكلام العرب وأعرفهم بعلوم شتى من النحو واللغة والتفسير والحديث والنسب ، الطور السامي ، والبحر الطامي كان فضله على أفاضل الزمان كفضل الشمس على النجوم والبحر على الغدراك وله المؤلفات العزيزة والمصنفات الحريزة والكتب المفيدة والفكر المجيدة وإذا كتب كتاباً بخطه يشتري بالمثين وتتنافس عليه بواعث المستفيدين وهو ألين سجية من الماء العذب وأخشن حمية من الغرار العضب وما أظن أن الزمان يسمح بمثله وأن الدهر العقيم ينتج أحداً في فضله كان كثير الإفادة غزير الإجادة غير أنه ينبو عن جواب سؤال الممتحنين نبوة المستحقر المهين ويعز على المتكبر ويذل للمتكرم متواضع عند العامة مرتفع عند الملوك والخاصة توفي ببغداد سنة ثمان وستين وخمسمائة فرأيته ليلة في المنام كأني أقول له : ما فعل الله بك فقال خيراً فقلت وهل يرحم الله الأدباء ؟ قال : نعم ، قلت : وان كانوا مقصرين قال : يجري عتاب كثير ثم يكون النعيم .

ووصفه ياقوت الحموي في معجم الأدباء فقال : (. . . كان أعلم أهل زمانه بالنحو حتى يقال أنه كان في درجة أبي علي الفارسي وكانت له معرفة بالحديث والتفسير واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة وما من علم من العلوم إلا وكانت له فيه يد حسنة وقرأ الأدب على أبي منصور موهوب الجواليقي وغيره والحساب والهندسة على أبي بكر بن عبد الباقي الأنصاري . . . ولم يزل يقرأ حتى علا على أقرانه وقرأ العالي والنازل وكان يكتب خطاً مليحاً وجمع كتباً كثيرة جداً وقرأ عليه الناس وانتفعوا به وتخرج به جماعة وروى كثيراً من الحديث .

سمع منه الحافظ أبو سعد السمعاني وأبو أحمد بن سكينة وأبو محمد بن

(١) جمال الدين أبي الحسن علي القفطي : انباه الرواة على أنباه النحاة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ج ٢ ص ٩٩ ـ ١٠١ مصر القاهرة سنة ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م .
(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٠١ ـ ١٠٢ .
(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ١٠٢ .

الأخضر وكان ثقة في الحديث صدوقاً نبيلاً حجة إلا أنه لم يكن في دينه بذاك وكان بخيلاً متبذلاً في ملبسه وعيشه قليل المبالاة بحفظ ناموس العلم يلعب بالشطرنج مع العوام على قارعة الطريق ويقف في الشوارع على حلق المشعبذين واللاعبين بالقرود والدباب كثير المزاح واللعب طيب الأخلاق سأله شخص وعنده جماعة من الحنابلة أعندك كتاب الجبال فقال له : يا أبله أما تراهم حولي . . .)(٤) .

وذكره صاحب النجوم الزاهرة فقال : (وفيها توفي عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد العلامة أبو محمد المعروف بابن الخشاب النحوي اللغوي حجة العرب يرع في فنون العلوم وانفرد بعلم النحو والعربية حتى فاق أهل عصره)(٥) .

وذكره السيوطي(٦) ونقل ما قاله ياقوت الحموي في معجم الأدباء وذكره أيضاً شيخنا الطهراني في طبقات أعلام الشيعة(٧) وموسوعة الذريعة إلى تصانيف الشيعة(٨) وله شعر كثير ومن شعره ملغزاً في كتاب :

وذي أوجه لكنّه غيرُ بائحٍ ... بسرٍ وذو الوجهين للسر مُظهِرُ
تُناجيكَ بالأسرارِ أسرارُ وَجْهِهِ ... فَتفهمُهَا ما دُمتَ بالعينِ تنظُرُ

وله :

لَذَّ خمولي وَحَلا مُرهُ ... إذ صانني عن كلِّ مخلوقِ
نَفسي معشوقي ولي غيرة ... تمنعني من بذل معشوقي

وله في شمعةٍ :

صفراءُ لا من سَقَمٍ مَسُّها ... كيفَ وكانت أمها الشافِيَة
عُريانة باطنها مكتس ... فأعجَب لها كاسِيةً عارِية

وله أيضاً :

إذا عَنَّ أمر فاستشر فيه صَاحِباً ... وإن كنت ذا رأيٍ يشير على الصَّحبِ
فَإني رأيت العَينَ تَجهَلُ نَفْسَها ... وَتُدرِكُ مَا قَد حَلَّ في مَوضعِ الشُّهبِ

يقول عبد الحسين الصالحي : كان معلم أولاد الخلفاء العباسيين ويتقاضى راتباً شهرياً من البلاط العباسي وكان يصرف جميع وارداته على شراء الكتب لذا أسس مكتبة ضخمة ثم أوقفها على طلاب العلوم وكانت من أهم مكتبات الشيعة في بغداد ووصف حاله ياقوت الحموي فقال : (. . . كان يتعمم بالعمامة فتبقى مدة على حالها حتى تسود مما يلي رأسه وتتقطع من الوسخ وترمي عليها الطيور ذرقها ولم يتزوج قط ولا تسري وكان إذا حضر سوق الكتب وأراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه ورقة وقال : انه مقطوع ليأخذه بثمن بخس وإذا استعار من أحد كتاباً وطالبه به قال : دخل بين الكتب فلا أقدر عليه . . .) .

(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١٢ ص ٤٧ ـ ٥١ قاهرة مطبوعات دار المأمون .
(٥) جمال الدين أبي المحاسن يوسف بردى الأتابكي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٦ ص ٦٥ الطبعة الأولى سنة ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م .
(٦) جلال الدين عبد الرحمن السوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص ٢٧٦ بيروت دار المعرفة .
(٧) الشيخ آغا بزرك الطهراني الثقات العيون في سادس القرون ص ١٦١ بيروت دار الكتب العربي .
(٥) الشيخ آغا بزرك الطهراني الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج ٢٣ ص ٢٣٣ بيروت دار الأضواء .

ترك مؤلفات منها : كتاب مواليد أهل البيت عليهم السّلام وهو من مصادر كتاب كشف الغمة وكتاب بحار الأنوار للمجلسي وكتاب حاشية على درة الغواص للحريري ، الرد على بابشاذ في شرح الجمل ، كتاب الرد على تهذيب الإصلاح للتبريزي ، كتاب الرد على الحريري في مقاماته وكتاب شرح مقامات الحريري ، كتاب شرح مقدمة النحو لابن هبيرة ، كتاب اللامع في النحو ، كتاب المجمل في شرح الجمل الصغيرة ، كتاب المرتجل في شرح الجمل الكبيرة[١] .

وجيه الدين عبد الله لساني ابن محمد مشك فروش الشيرازي .

توفي سنة ٩٤٢ كما جاء في ديوانه المطبوع . وفي كتاب أحسن التواريخ أن وفاته كانت سنة ٩٤٠ . وقيل ٩٤١ ودفن في مقبرة سرخاب في تبريز .

من شعراء النصف الأول من القرن العاشر الهجري ، وبداية حكم الصفويين . وكان مولده في شيراز وعاش معظم حياته بين بغداد وتبريز . وفي تبريز كان موضع احترام كبار ولات الشاه إسماعيل الصفوي ومنهم ابنه العالم سام ميرزا ووزيره المعروف أمير نجم ثاني . ولأنه شاعر أهل البيت كان مهاباً محترماً .

كتب القاضي نور الله الشوشتري في كتابه (مجالس المؤمنين) في أحوال لساني أنه نظم مئة ألف بيت من الشعر في مدح أئمة أهل البيت عليهم السّلام . والظاهر أن نظمه القصيدة المشهورة في مدح أمير المؤمنين علي عليه السّلام جعل القاضي الشوشتري يبالغ في هذا القول معتقداً ذلك .

لم يقتصر لساني في شعره على مدح الأئمة (ع) ، بل نظم القصائد والرباعيات في مناسبات وقضايا متنوعة ، وكانا اشعاره مشالاً يحتذى لشعراء آخرين مثل : الهجري ووحشي وغيرهما من قلدوه ونظموا على طريقته في الشعر .

له رباعيات في وصف تبريز وبيشه وران ، ووصف الحب . ومن ذلك رباعياته في ٥٤٠ بيتاً المساة (مجمع الأصناف) .

له ديوان شعري يحتوي على ثمانية آلاف بيت غزلي موجود في مكتبة المتحف البريطاني . كما أن له ديواناً فيه اثنا عشر ألف بيت رآه وتحدث عنه آذريكلي . وله أيضاً ألف بيت مع ديوان الشاعر أهلي خراساني موجود في مكتبة سپهسالار .

ومن تلاميذه المشهورين شريف التبريزي الذي جمع بعض أشعار استاذه وزاد عليها من عنده وسمى المجموع (سهو اللسان) .

وتلميذه الثاني حيدري نظم أشعاراً جمعها في ديوان سماه (لسان الغيب) يحامي بها عن استاذه)[٢].

الشيخ عبد المنعم الفرطوسي ابن الشيخ حسين .

ولد سنة ١٩١٥ م في النجف الأشرف وتوفي سنة ١٩٨٣ في أبو ظبي بالأمارات العربية المتحدة .

نشأ في النجف ودرس فيها ، واختلف على حلقة الشيخ محمد علي الخراساني كما لازم حلقة السيد أبو القاسم الخوئي .

وقد تحدث عنه الشيخ جعفر محبوبة قائلاً : هو أشهر رجال أسرته في عصرنا ومن الشعراء المجيدين والأدباء النابغين سريع البديهة كثير الحفظ ينشد القصيدة بنفسه على ظهر القلب وتعاد مرّات ويعيدها ويرجع إلى محل الاعادة ، وشعره قوي السبك حسن الأسلوب طري الديباجة ، تهش لاستماعه النفوس ، وتقبل عليه القلوب ، وهو من أهل الفضل والنبوغ في الأدب وقد طرق في شعره كثيراً من أنواعه وفنونه وبالإضافة إلى ذلك فهو من أهل التقى والصلاح ويكاد يكون المثل الأول من الشباب النجفي في إيمانه واخلاقه .

أسرته

تحدثت عنها مجلة الموسم قائلة :

آل فرطوس فصيلة عربية كثيرة العدد منتشرة في دجلة والفرات ترجع بنسبها إلى آل غزي القبيلة المعروفة وجل آل فرطوس يقطنون في العمارة ومنها نزحوا إلى الناصرية والشنافية وغيرها ، ولهم بيت مشهور في النجف يعرف بهذه النسبة (آل الفرطوسي) نزحوا إلى النجف من العمارة في أواخر القرن الثاني عشر وهم من البيوت العربية المحتفظة بمكانتها العلمية ، والمحافظة على سمعتها واعتبارها ، وأول من هاجر من هذه الأسرة إلى النجف جدها الأعلى الشيخ حسن على عهد الشيخ صاحب كاشف الغطاء .

وورد في بعض التواريخ أن الفرطوسيين ينتسبون إلى الظوالم (عشيرة من فزارة) وان من فروعهم فيهم : العكش ، والحسان ، والهزي ، والهديان ، والمحايطة ، والحمود ، والشمود ، والشنشول ، وكان زعيمهم يعرف بالشيخ عذافه الشاهر .

وقال العزاوي في كتابه (عشائر العراق) : آل فرطوس فخذ من آل خزيم من آل شبل بالعراق ، وعدّ بعضهم أصله من خفاجة وآخرون من غزيّ وهو الأشبه بالصواب وسكن معهم ، وقسم كبير منه عاش بين ربيعة والمياح .

ومن فروعه في آل شبل : آل حمد ، آل حمود ، آل شتيوي ، ومنه مع ربيعة : البو جابر ومنه الرؤساء ، والبو خليفة ، والحجية ، والجروخ ، والبو حسين ، والبو ملوح ، وبيت وريد ، والبو مويعز ، والبو حامد ، والبديرات ، والبو شكة ، والكوامات (القومات) ، والسمران وهم تبع السراي ويسكنون (علي الغربي) و (الكوت) و (العمارة) ويزرعون في الشلب والدجن (الحنطة والشعير) وهم غنامة ومجموعتهم كبيرة .

وذكر العزاوي في موضع آخر أن آل فرطوس فخذ من الغزي من بني لام بالعراق يسكن في أراضي العبد الجبايش ، ومنه في لواء العمارة ، وفروعه : آل عطاس ، والبو زبارة ، والبو راسي ، والعبادة ، وآل سلمة .

وعلى كل حال فان الثابت من نسب العشيرة انها تنتسب إلى آل غزي حسبما أكّده المترجم له في حياته وانه من الفرع الذي يسكن العمارة وقد نزح جدهم الأعلى من العمارة إلى النجف في القرن الثالث عشر الهجري .

شعره

قال في ذكرى مولد الإمام علي عليه السّلام من قصيدة ألقيت في احتفال في مدينة كربلا :

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .
(٢) تاريخ أدبيات إيران .

لمولد الحق شق البيت فالتهبا / نجم بأفق الهدى قد أحمد الشهبا
وهزت الآية الكبرى بمعجزها / دنيا قريش وقد عجت بها لجبا
فماج بالنور من أم القرى أفق / طلق الضحى سال بالأضواء منسكبا
وكبر المجد إعلاماً بمولده / في حين أبصر من آياته العجبا
وأقبلت فيه والقرآن طلعته / أم العلا وهداه يخرق الحجبا
وافت مبشرة والطهر بردتها / شيخ الأباطح بالنور الذي وهبا
قد شرف الله منها القدر إذ وضعت / في بيته بعلي فارتقت رتبا
يا مصدر الحكم فصلا في عزائمه / ومورد العلم نهلا سائغاً عذباً
وروعة الحق تجلى كل غاشية / من نورها بيقين يمحق الريبا
ونفحة القدس تطغى من شمائله / بعابق هو روح يخمد اللهبا
أكبرت عقلاً تبنى كل ناشئة / من المعارف أوحاها فكان أبا
فيض من الذهن عذب النبع ما نضبا / تقري مواهبه الأجيال والحقبا
وشعلة من شعاع الفكر مشرقة / تمشي العقول على أنوارها خببا
وروضة من حقول العلم مخصبة / من أصغريه بما أوحى وما كتبا
صنو العقيدة غذاها فكان لها / أصلاً وكانت له من بعده عقبا
يا منطق الحق في التاريخ قص لنا / روائعاً عجت الدنيا بها طربا
حدث فأنت لسان قد روى العجبا / ومسمع قد وعى الأسفار والكتبا
عن سيرة القائد الأعلى وسيرته / قد أحرز المجد في مضمارها القصبا
وخطها في جبين المجد حين جرى / دم الشهادة في محرابه ذهبا
أوحى بها ألف باب من معارفه / (مدينة العلم) أوحتها له نخبا
وشيد العدل إذ أرسى قواعده / على ضفاف قضاء عادل نصبا
فاقصص على مسمع الأجيال ملحمة / للعلم ضجت بها ساحاتها صخبا
عن منشئات صدور تحمل الكتبا / وألسن تثمر العرفان والأدبا
ومشرقات عقول بالهدى كشفت / عن كل سر بقلب الغيب قد حجبا
فمسجد الكوفة الغراء مدرسة / ومنبر (لعلي) قد روى الخطبا

* * *

مدينة السبط يا مهداً به ولدت / من العواطف دنيا رفرفت حدبا
وتربة خط قلب المجد من دمه / مثوى البطولة فيها عزة وإبا
ومصرعاً من أبيّ الضيم فيه هوى / جسم مقطعة أوصالها إربا
أحيى الحسين به الإسلام حين رأى / أبناء حرب وقد أودت به حربا
أبو الأئمة أو في نجمه صعدا / حتى هوى كل نجم دونه صببا
غرس أرومته الزهراء فاطمة / والمرتضى حيدر أعظم به نسبا
من أهل بيت كتاب الله طهرهم / وأذهب الرجس أماً عنهم وأبا

* * *

وقال من قصيدة ألقيت في البصرة في احتفال بذكرى مولد الحسين عليه السّلام :

قرآن فضلك فيه يفتتح الفم / حمداً وبالاخلاص ذكرك يختم
وبأفق مهدك من جهادك أشرقت / للفتح آيات بوجهك ترسم
فلقد ولدت مطهراً في بردة / من طهر فاطمة تحاك وتلحم
ولقد قتلت بمصرع يسمو به / مجد الممات على الحياة ويعظم
والحق من عينيك ينبع نوره / والصدق في شفتيك جمر مضرم
وضحى جبينك وهو فرقان الهدى / بدم الشهادة والسعادة يوسم
يا قبلة الزهراء مشرقة على / قسمات وجه الحق يرسمها الفم
يا مصحفاً بفم النبي محمد / ما زال في آياته يترنم
يا ثورة الحق الجريء تحدرت / من قلب حيدرة فأغرقها الدم

* * *

يا مولد الأنوار مهدك للهدى / أفق تموج بصفحتيه الأنجم
مثلت شخصك صورة قدسية / في القلب يطبعها الولاء فترسم
وجلوت طلعتها وأنت خواطر / في مهدها بروىء الإمامة تحلم
فتحرقت شفتاي وقداً من دم / حر على شفتيك قبله الفم
ولمحت في شفق الجبين غمامة / منها على عينيك ظل معتم
ولمست من روح البطولة والأبا / شمماً يثور وعزة تتقحم
وقرأت للفتح المبارك سورة / بالسهم في صفحات قلبك ترقم
فخضبت ناصيتي بمذبح جثة / في نحرها الدامي يحز المخذم

* * *

بنت الضحى احتجبي بأفق كآبة / منها يمد عليك ظل مقتم
وسماؤك الزرقاء صوني وجهها / بغلائل سود بها تتلثم
فشعاع شمس الحق أختك قد خبا / والفجر من شفق الدماء مجهم
وأخوك بدر المجد وهو مضرج / بدم الوريد وبالسيوف معمم
أخفى لجين جبينه ذهب الوغى / وأغام منه الصبح وهو المبسم
والفرقدان تعانقا فوق الثرى / جيداً إلى جيد يضرجه الدم
والطائر المذبوح وهو مرفرف / بيديه من دمه سقته الأسهم
ومباسم الشهداء تنثر كالندى / منها اللئالىء في الصعيد وتنظم
أكبرت في الإسلام مثلك فاتحاً / من عزم هاتيك الأضاحي يغنم
ويزيد وهو يهز في أعطافه / للنصر مغلوب بفتحك يهزم

* * *

بعداً يزيد لراحل قد أثكلت / أم الفجور عليه فهي الأيم
أيتمت أقداح الخمور فأعولت / نغم القيان وكل طبل يلطم
ومواكب الشهوات لف لواؤها / مذ غاب قائدها الجريء المعلم
فالمغريات الثاكلات نوائح / والموبقات بها يقام المأتم
تعست خلافتك التي قد أبرمت / بيد العمى وهي البلاء المبرم
أعوام شؤم جلجلت أحداثها / بالمسلمين ونحسها المتجهم
أكدى على غرس النبوة جدبها / فغدا بأشداق المظالم يخضم
والحرة السوداء كم هتكت بها / من حُرة وكم استحل محرم
والبيت قد حرقت بها أستاره / فبكى المقام لها وضجت زمزم

* * *

يا ساسة الوطن المفدى أصلحوا / وضع البلاد فوضعها متأزم
وطن هو الثكل فكل مفوه / فيه ينوح وكل حفل مأتم
ما أبقت الأحداث فيه ذبالة / تزهو ولا قيثارة تترنم
حكمت عليه فارهقته سياسة / بالعنف من أرهابها تتحكم
وعدت عليه فمزقته طرائقاً / أحزابه وهي البلاء المبرم
واستنزفت منه القوى وقضت على / ثرواته الشهوات فهو المعدم
لا القرض أشبعها ولا وفى بها / ذهب المنابع وهو سيل مفعم

* * *

ماذا أبث من الشجون وبعض ما ... في القلب من ألم يضيق به الفم
ماذا أخط وألف لون للأسى ... في لوحة النفس الحزينة يرسم
فاستعرضوا وضع البلاد فوضعها ... من كل ناحية يسيء ويؤلم
حرية الأفكار رهن رقابة ... سوداء يفرضها نظام مظلم
والحكم بالأرهاب يوصد بابه ... فإذا تنفس فهو صل أرقم
وأماتت الفوضى النظام بهده ... فالأمن للعنقاء فيها توأم
أن المناصب غاية منشودة ... وطريقها هذا الصراع المؤلم
وطن يباع وأمة منكوبة ... فيه تراع وفيىء شعب يقسم
صونوا الحقوق فكل حق ضائع ... للشعب وهو وراؤه لا يهضم

وقال مفتتحاً ملحمته الشعرية :

هاك قلبي مضرجاً بدمائي ... قطعاً في سلاسل من ولائي
هي من منبع العقيدة وحيٌ ... لم يكدّر منه معين الصفاء
وهي أغلى من كلّ عقد نفيس ... ذهبي مهما ارتقى في الغلاء
جوهر من معادن القدس باقٍ ... أين منه أعراض دار الفناء
نفحات من الهداية تذكو ... عبَقاً من شمائل الأزكياء
بُدئت بالتوحيد وهو أساسٌ ... واستطالت بالعدل خير بناء
وتجلت فيها نبوة حقٌ ... شُفعت في إمامة الأوصياء
وتلاها المعاد فهي أصولٌ ... خمسة في شريعة الحنفاء
ودليل الإعجاز في ذكر طه ... يقتفيها وعصمة الأنبياء
وبإثر التفويض والجبر أمر ... بين بينٍ يأتي ومعنى البداء
وسواها من التوابع ممّا ... تقتفي نهجها بخير اقتفاء
وجميع الأركان وهي فروع الـ ... ـدين فيها بانت بغير خفاء
وتراءت كبائر الإثم فيها ... وسواها صغائر الأخطاء
وعليها باليمن رفرف أمناً ... من حياة النبيّ خير لواء
وحياة السبطين بعد عليّ ... والبتول الصديقة الزهراء
وعليّ وباقر العلم والصا ... دق قولاً وكاظم الصلحاء
والرضا والجواد ثم عليّ ... وابنه ثم قائم الأمناء
قد تبدّت منها النجوم اهتداءً ... وأماناً لنا بخير سماء
أهل بيت الهدى أئمة حق ... ألسن الصدق خيرة الأولياء
والأدلّاء لا يحيدون زيغاً ... بالبرايا عن منهج الإهتداء
ومصابيح حكمة قد أضاءت ... بسناها مدارك الحكماء
كلّ نجم للخلق منهم إمامٌ ... يُقتدى فيه أحسن الإقتداء
أذهب الله عنهم الرجس طهراً ... واصطفاهم بأكرم الإصطفاء
أنا مولىً لهم محبٌّ وهذي ... آية الحبّ من كتاب ولائي
وهي تُهدى لفاطم وعليّ ... وبنيها وخاتم الأصفياء

مؤلفاته

١ - ديوانه الشعري في جزأين مطبوعين .

٢ - رواية الفضيلة للمنفلوطي ، نظمها شعراً .

٣ - منظومة في الأشكال والضابطة من علم المنطق في حاشية الملا عبد الله .

٤ - شرح شواهد المطول توسع به على طراز معاهد التنصيص وشرح الآيات الكريمة التي وقعت فيه واعرابها والشاهد منها يقع في ٥٠ صفحة بالقطع الكبير .

٥ - شرح مقدمة المكاسب وصل به إلى كتاب المعاطاة .

٦ - شرح الجزء الأول من كفاية الأصول (في علم أصول الفقه الإسلامي) ٨٠٠ صفحة .

٧ - شرح الاستصحاب من رسائل الشيخ مرتضى الأنصاري يقع في ألف صفحة .

٨ - شرح مجموعة الرسائل وهو نتيجة المدة التي قضاها تحت اشراف استاذه لراحل السيد محمد باقر الشخص .

٩ - الوجدانيات : ديوان شعر يحتري على ألوان وصفية وغزلية من شعره .

١٠ - ملحمة أهل البيت : ملحمة شعرية .

عبد مناف أبو طالب بن عبد المطلب .

مرت ترجمته في المجلد الثامن من (الاعيان) . وننشر هنا بحثا عن إسلامه بقلم وجيه بيضون :

أبو طالب ، واسمه عبد مناف ، وهو ابن عبد المطلب جدّ النبي (ص) ، وفرع من الأرومة التي طالما ملكت السيادة على الناس إلى جانب سيادتها في الأخلاق والمكارم ، فكانت سماءً على الأرض لا يغيب فيها نجم إلا أعقبه نجم ، فيتصل ضياؤها متعاقباً ممتداً ، ويتصل معه تفردُها متميزاً متجدداً ، كأنما خُصَّ بها من دون أهل الجزيرة طراً .

وهو الذي جرت في عهد أبيه واقعة الحبشة وعُرفت بعام الفيل ، فكان قريباً منها ومن معجزتها حيث انهال الأحباش على الحجاز بجيشهم المتراص المتماسك كالقلعة جارفاً ممتداً كالسيل ، يحملهم شوق الغزو والفتح والغُنم ، ويزدهيهم هوى النصر والغَلَبة ، وقد جعلوا في مقدمتهم أفواج الفيلة الجبارة كالقلاع المتحركة لا عهد بمثلها للعرب ، ولها من أصواتها المنكرة وخراطيمها المتطاولة المهتزّة وأنيابها من تحتها كرؤوس الرماح ، وأقدامها كأنها الركائز من الصخر أو الحديد ، ما يبعث الرعب ، ويتعاظم به الخطب ، ويذهب بشجاعة الفرسان مهما أوتوا قوةً بأس وثباتَ جنان . وكانت المعجزة ، معجزة الطبيعة في نواميسها - بشخير الله - ، كأن لها من خفي بصيرتها وحسِّها ما استثار كوامن غضبها وحفيظتها حتى جُنَّ جنونها ، فراحت تُرعد وتُبرق في سمائها ، وتنوح وتعصف بريحها ، وتُمطر العداة الغزاة بسجّيل من الحجارة كأنها القنابل قذفت بها أفواه المدافع ، ثم ما هو إلا القليل حتى اندحر الأحباش مولين الأدبار يبؤون بالخزي والعار ، وكأن فيَلتهم وقد ارتدَّت عليهم تطاردهم وتدوسهم ، لم يأتوا بها إلا لتأتي عليهم ، ولم يلحقوها إلا لتلحقهم بكل مهلكة وهزيمة .

وكما تميَّز عهد عبد المطلب بهذه الواقعة التي كان من خطرها في أثرها أن راح القوم يؤرخون بها وقائعهم وأحداثهم ، فقد تميز عهد ابنه أبي طالب بأن انبثقت فيه تباشير الدعوة الإسلامية بظهور الرسول الكريم محمد (ص) وبتجديد الكعبة بعد الذي أصابها من هدم وحريق . وكما أن عبد المطلب كان أول من كفل حفيده محمداً بعد يتمه من والده ، وهو ما برح حدثاً في

مطلع أيامه ، لكذلك كفله أبو طالب بعد وفاته ولما يمض على كفالته غير العامين ، وما زال لأبن أخيه راعياً ، ولدعوته مناصراً وداعياً ، يلفُّ عليه ويحوفه ، ويتحمل المكاره في سبيله وخصومة الناس من حوله ، واقفاً منه كالمِجَنّ يحميه من كل أذى يصل إليه ، إلى أن فارق دنياه وهو في الخامسة والثمانين أحوج ما تكون الدعوة الإسلامية إلى عونه ، وأشجى ما يكون الرسول لفقده وفقد زوجه خديجة من بعده ، وقد لحقت به لأيام معدودة ، أي قبل أن يهاجر صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة بثلاثة أعوام وأربعة أشهر .

وكان في خَلْقه أبلج اللون ، متين الكاهل ، قويَّ الشكيمة ، عضب المَهَز . ومن خلائقه السخاء والوفاء والعفة والنخوة والشجاعة . ومن خصائصه أيضاً أنه كان شاعراً حكيماً مدح النبي (ص) بقصائد عدة ، وكانت له السقاية في مكة ، كما أن له ولقومه في الكعبة الباب وللناس الجدران والظهور . ولد له من الذكور أربعة هم : طالب وعقيل وجعفر وعلي . وكانت زوجه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف القرشي ، وقد أسلمت بعد عشر من المسلمين .

بيد أن الروايات في اسلامه متضاربة ، ففريق على أنه مات غير مسلم ، وفريق على أنه لم يلفظ أنفاسه الأخيرة إلا والشهادة ملءُ فيه إيماناً بالله ورسوله ، وهو ما عليه الشيعة قاطبة ، لا تأخذهم فيه أي شبهة أو ريبة . وللفريقين قبائلُ من الرأي بين التأييد والانكار ، والتدليل والتعليل ، بما لا يرتجع بغير الغموض والابهام ، ثم الشك والحيرة ، والبعد عن مطلب الصواب في حقيقته ، والحقيقة في صوابها . وما أقبح العصبية إذ تنتهي من تعنُّتها والإصرار على عنادها إلى أن يغلب الهوى على العقل ، فإذا المُمْتَحَن بها كالأعمى ، إذا أفادته عصاه منعاً من التسكع فما تفيده تبصراً بالطريق اللاحب القويم .

والذي عندنا هو أن البحث في إسلام أبي طالب أو عدم إسلامه ، ما كان يستلزم ما استُفْرِغ من مداد في سبيله ، ولا انهماكَ الأفكار فيه في مثل حرب مستعرة الأوار ، ثم قطعَ الوقت في غير مرتجع وتوسيع شقة الخلف في غير طائل ، فقد كان من سداد الرأي تعلُّقه من وجهته العامة حيث تكمن حقيقته ويستبين مقطع الحق ، لا أخذه بأضعف ما فيه فيؤدي إلى الحكم ضعيفاً لا يُخيل بالصواب إلا مثل ما يُخَيِّل اشراق الشمس حجبت عليها السحب ، فهي في مثل الغسق الفاحم .

وان من شروط البحث في صحته أن تُقدر النتائج بمساقها من سابقها ، فيحكم عليها بروح مما لابسها وأثرَّ فيها ، لا أن تُجْعَل هي الحكم الجزم ، ثم تُعْتَسَف الأسباب إليها اعتناقاً لتُورد غيرَ موردها ، وتُحَمَّل كلَّ معنى إلا معناها ، ويُهوَّل بأنها محط الصواب وهي الخطأ الذي لا صواب فيه .

فإن أخذنا بهذه الخطة القويمة وإليها التجرد الفكري السليم ، لا يميل مع العاطفة المذهبية حيث تميل ، فما شك في أننا نقف من قضية اسلام أبي طالب الموقف الذي يدنينا من الصواب في واجب حكمه وحكم يقينه ، وينأى بنا عن مواطن الشبهات لا دليل يقطع فيها بالرأي الجازم ، حتى إذا بقي ثمة شيء من الشك مسحناً عليه بما يفرضه العقل ترجيحاً هو الأصوب والأوجب .

إننا نقطع بإسلام أبي طالب إذ كانت الأدلة على ذلك أقوى وأبين منها على خلافه . وهاك بادىء بدء الحجة التي يستمسك بها المنكرون وهي عدم اعلان إسلامه وإيمانه ، وهي أكبر حججهم ، تجدها أوهن من أن تنهض دليلاً على أنه لم يكن مؤمناً ، إذ كان من شأن الإيمان أن يصح فيه الكتمان والاعلان على سواء ، وبخاصة فيما يتحرَّج به الدين ويستلزم التقيَّة ضرورة من ضرر . وما أكثر ما نعتقده جزماً ونؤمن به قطعاً ثم نتعمد فيه الخفية والأسرار من غير أن يكون ثمة معنى للإنكار ، وما أكثر ما نصدر عن مآتٍ وأحوال لو أُخذت على علاّتها من ظاهرها لما تُرجمت بمكنونها من مُغَيَّبها ، ولا حقيقتها من سببها ، فالظاهر لا تنمُّ أبداً عن الحقائق ، والحقائق تتلبَّس غير صورها حتى كأنها صورة هي بعينها . وليست العبرة إلا في الأثر يترجم عن الأصل كالكهرباء إذا لم نكتنهها بدليلها فإن آثارها تدلُّنا عليها . وآثار أبي طالب في جملتها شاهد على إيمانه وصدق إسلامه ، تنفي عنه كل النفي أيَّ تهمة بالشرك أو الكفر بدعوة الرسول والإسلام . وأنى له غير ذلك وهو الذي طالما اشتهر بالصدق في حياته لم يُجرَّب عليه الكذب ، وعَرَفَ كذلك في ابن أخيه الصدق آمن ما يكون على قول الحق ، لا تأخذه فيه لومة لائم ، وليس في كل ما تقع عليه عينه ويصافح سمعه إلا ما يشير أبلغ إشارة إلى تمخض الزمن عن الحديث الجديد ، يطهر أرض الحجاز من أرجاس الجاهلية التي بلغت غايتها من الوثنية والعادات المستوخمة ، بعد إذ آن لليلها الطويل أن ينفرج عن الفجر المُرتقَب المبين .

وإذا فُسِّر عدم اعلانه الإسلام بظاهرة من معناه دون معانيه الأخرى من حمى ابن أخيه ونصرتهِ والأخذ بيده ومحاسنة قريش في ذلك باعتبار أن الدعوة غضَّة أول عهدها وأن الأعداء والمناوئين الب ضدها ، فكيف نفسِّر سماح أبي طالب لزوجه فاطمة بنت أسد بأن تُسارع إلى الإسلام ، ثم لابنه علي بأن يسلم وهو ما يزال حدَثاً غضَّ العود ، ثم لابنه جعفر بأن يصل جناح ابن عمه في الصلاة على يساره ، ثم لبنيه وأخوته وبني عمه بأن يرقدوا وهم في (الشعب) على فراش محمد تعمية على المشركين أن يصيبوه إذا ما حاولوا أذاه ؟! . فهل تراه فيما فعل غير الصادق في طويَّته على الإيمان ، والصادقِ في إيمانه في الدعوة ، والصادقِ في عقيدته يترجمها ماثلةً في عمله ؟ . . . وهل لمثله وهو شيخ قريش وسيدها وصاحب الرأي فيها أن ينحرف مخالفاً أو ينفرد متعسفاً وأنه ليرى حمزة يسارع إلى الانضواء تحت لواء النبي ، وكذلك عماته ، واليهم آل عبد المطلب جميعاً ، ومن ورائهم عبد مناف ، أيخرج على مثل هذه الإرادة المجتمعة والخطة الجامعة ليعود من نهاية الشوط الذي قطعه رفداً وعوناً وتضحيةً إلى حيث يكذب نفسه ، ويكذب عشيرته ، ويكذب من أحبه وآثره حتى على بنيه ؟

وإذا نحن تدبرنا موقف أبي طالب حين جاءه سادات قريش وأشرافها ساخطين متوعِّدين يستعدونه على ربيبه وحبيبه بقولهم : « انا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين » ، ثم خطابه لابن أخيه بقوله : « أي بني ، أبقِ علي وعلى نفسك ، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق » ، ثم ما أجاب به النبي ساعتئذ مستعبراً : « يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » ، ثم قول أبي طالب : « والله لن أسلمك أبداً » . . . قلنا إذا نحن تدبرنا هذا الموقف بحق معانيه وأبعدنا النظر في مطاويه ، اذن لخلصنا منه إلى حديث مبطَّن خفي قد استتر لشدة ما ظهر ، حديث بلفظه لا يستوي صحيحاً بغير

معناه من غايته ، ولا يُدرك بغايته إلا بأنه مزيج عقل وقلب أُلِّف بينهما الحب ، فجاء امتحاناً للمحنة في أوجها ، واستطلاعاً للقوة بلغت النهاية من طاقتها ، لم يبق إلا أن تؤول معجزة . فليس هو الحرص على الحياة لا ولا العجز عن تحمل المشاق ما حدا أبا طالب إلى قول ما قال ، بدءاً واستدراكه آخراً ، ثم ما هو تخذيل لابن أخيه وقت في عضده لتحويله عن مقصده ، وإنما هي الأبوة الحادبة ، مع العصبية الغالبة ، في الشيخوخة المتقدمة تريغ الطمأنينة على المعجزة المرتقبة لا طاقة بحمل رسالتها لبشر إلا أن يكون فوق البشر ، ولا بدّ فيها من العون وان كانت ممتدّةً بأسباب من السماء .

ان من يتدبر مواقف أبي طالب من الدعوة وما بذل من ذات نفسه وماله في سبيلها ، لا يسعه إلا أن يعترف له بجميل الفضل ورجاحة العقل ، فقد أبلى خير بلاء في المنافحة عن الرسول (ص) ، ولطالما كان سنادَه وعمادَه يردُّ عنه عوادي قريش ، ويأبى أن يسلم به ولو كانت في ذلك حياته ، ويُعينه وينصره ويشدُّ من أزره حتى كأنه أمينه في تحقيق دعوته كما كان هو رسولَ ربه في أداء رسالته . وما هو بالبِدْع بعد هذا إذا بكاه النبي (ص) بالشخين من عبراته عند وفاته ، واستشعر من حوله الفراغ لفقده ، ثم أجمع العزم على الهجرة إلى المدينة في عامه من حزنه . وما كان به ذلك لولا أن فقد من كان يصل جناحه ويؤثره بعطفه وعونه . وان أمراً هذا شأنه ، وتلك مآتيه ومآثره ، لحري والله بالمحمَدَة كفاء إحسانه ، لا بالغض من كرامته وتغليب الشبهات في حقه ، ثم هو حريٌّ بألاّ يُعْرَف إلا بإسلامه وفاق ما عَرَفَ الإسلام من كريم بلائه في الذّب عن حوزته ، وعظيم ولائه في نصرته .

ومن يدري ما قد عسى يعترض الرسول (ص) لو عجّل أبو طالب كغيره في كشف اللثام عن إسلامه والإنضمام إلى القلة التي لاذت به مؤمنةً بدعوته ؟ . . . أما كان من منطق الحوادث وطبيعة الحال أن يتورَّد النبي من البلاء فوق ما توردَّه ، وينزل به ما يباعد بينه وبين غايته ؟ فإن قيل ما للدين ربٌّ يحميه فعلام لا تقول أن الله جلَّت حكمته هو الذي خصَّ أبا طالب بهذه الحماية ؟ وان قيل أن أبا طالب ما كان له مثل موقفه من الدفاع عن ابن أخيه لولا عصبية القربى وطولُ الزمن في تبنيه حتى كأنه أحد بنيه ، فما بالنا لا نعكس الآية لنقول أن عوامل العصبيَّة والتبني خليقة بأن تجعله أول المؤمنين ؟

. هذا ومما فات الباحثين أن ينتبهوا إليه من أدلة إسلام أبي طالب أن الحرب الكلامية كانت سجالاً بين الإمام علي عليه السّلام ومعاوية ، وقد نَثَلَ كلاهما ما في كنانته مما يغتمض الآخر ويغض منه ، ولقي ابن أبي سفيان من خصمه مثل المطارق تنديداً وتعريضاً ، سواء بأبيه الذي أسلم والسيف في محز عنقه ، أو بأمه آكلة الأكباد ومشوهة الأجساد ، وعلى ذلك لم نعثر فيما أورده معاوية من الردود ذوداً عن نفسه وخفضاً من شان خصمه على أي تعريض ، بل أي إشارة ، بل أي إيماءة ولو خفية مما يتّصل بأبي طالب والد علي ، فلو صحّ أنه كان على غير الإسلام لما فات مثل معاوية أن يعرضَ لذكره ويُعَرِّض بكفره ، ويُسقط عن نفسه اللائمة تبكيتاً بأبيه بمثلها عدلاً عند أبي عاذلة ، فيستوي حسابُها واحداً ، وتستوي به الضربة عند أحدهما مرتدة على الآخر .

وهنا نحب أن نسأل : ترى ما الذي يضير مثل علي (ع) وهو هو في كرامته وفخره من جلال قدره ، ـ تنقُّصُ أبيه بعدم إسلامه ؟ ماذا يضيره وكل من اعتنق الإسلام كان إلى آباء وأجداد غارقين في سبات الجاهلية والوثنية ؟ أما أن الخطر لأقل مما يُتصور ، وفضل علي لأكبر من أن يستصغر ، إذ كان المرءُ بهمته لابرمَّته ، كالورد هو من الشوك ولكنه بأريجه ونضرته ، وكالسيف يُنظر إلى مضائه وصليله لا إلى أنه من الحديد ، وكل امرىء بما كسب رهين .

ونردف بسؤال آخر : فليس منا من لا يؤمن بصدق الرسول الأمين (ص) ، ولا يقطع بأمره حجةً هي برهان نفسها ، فلو استوحيناه بروحه سؤالاً عن عمه الذي حضنه ورباه ، وكفله ورعاه وذاد عنه وحماه : أترانا نستلهم الجواب إلا مؤيِّداً إسلامه ، موثِّقاً إيمانه ، شاهداً بفضله ومكرماً مثواه ؟ . . . أما وهو كذلك عند نبي المرسلين وأصدق الصادقين فهل من الرأي وحكمة القول أن نتكذَّبه نحن ؟ . . . ثم ماذا نقول أيضاً بمثل علي (ع) وقد اشتهر بالحق يدور معه حيثما دار ، لا يصانع ولا يوارب حتى في أحرج المواقف والمطالب حيث تقتضيه السياسة بعض الملاينة والمداهنة ، ماذا نقول في شهادته وقد شهد لأبيه بأنه لفظ الشهادة وكان من المؤمنين .

الشيخ عبد المولى الطريحي ابن الشيخ عبد الرسول .

ولد في النجف سنة ١٣١٧ وتوفي فيها سنة ١٣٩٥ .

هو من أسرة عربية استوطن أجدادها الحلة ، والنجف . اشتهرت بالعلم ، والأدب ، والفضل . والتقوى . ترجع في نسبها إلى قبيلة بني أسد .

وعرف من هذه الأسرة أجلّة العلماء والأدباء والشعراء والباحثين ، خلال العصور القديمة والحديثة . وكان من أبرزهم في القرن الحادي عشر الهجري الشيخ (فخر الدين الطريحي) (٩٧٩ هـ ـ ١٠٨٥ هـ) صاحب كتاب (مجمع البحرين) في اللغة وقد ترجمه أحد النجفيين في مجلة (لغة العرب) عام ١٩٢٨ م . وأشار إلى أن الأسرة استوطنت (النجف الأشرف) في القرن السادس الهجري . وكانت لهم سدانة المشهد العلوي ، والولاية العامة في القرن الثامن الهجري ، وسكن جدهم الأقدم الشيخ (داود الأسدي) النجف الأشرف ، بعد نزوحه من (الحلة) ، في الجانب الشرقي من مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السّلام وهي محلة من (جبل النور) وتدعى اليوم (محلة البراق) ، وشيّد فيها جامعاً يسمى حتى الآن باسم (جامع الطريحي) » .

درس المترجم على والده ، وجماعة بارزين من أهل العلم ، واللغة ، والفقه ، والأدب . في مدينته النجف .

وحضر مجالس الثقافة والأدب في بلده . وساهم في أندية النجف الثقافية . ولما قامت (جمعية الرابطة العلمية الأدبية) ، التي تأسست سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) . كان من أعضائها النشيطين . كما أنه دخل معترك الصحافة ، فأصدر مجلة تراثية ، أدبية تاريخية ، في النجف ، اسماها (الحيرة) سنة ١٩٢٧ م . ولم تدم طويلاً ، دخل بعدها مهنة التعليم ، واستمر يخدم طلاب العلم بثقافته ، وسعة اطلاعه ، وحسن معاشرته ، حتى أحيل على التقاعد .

ولم ينقطع عن صلاته الفكرية الصحفية بالمراسلة والكتابة ، لأمهات المجلات العراقية والعربية . أمثال (لغة العرب) و (الهاتف) والاعتدال) و (المرشد) و (النجف) و (الغري) في العراق . و (العرفان) في لبنان .

كما كانت له ملاحظات تاريخية وأدبية وشعرية ، لما كان يكتبه كبار المستشرقين في مجلة (لغة العرب) .

آثاره المخطوطة والمطبوعة

ترك مجموعة من المؤلفات المخطوطة ، ولا بد أنها لدى أولاده ، أو أقاربه من أفاضل الطريحيين في النجف ـ والكوفة . وهذا بعض ما وقفت عليه من أسماء كتبه :

١ ـ تاريخ آداب اللغة العامية الدارجة : « أو كنوز العرب الخفية ، في تاريخ آداب اللغة العامية » في مجلد واحد .

٢ ـ شرح موالية ابن الخلفة الحلي .

٣ ـ كتاب الأنساب ـ جمع فيه أنساب القبائل والعشائر العراقية .

٤ ـ نوادر النساء . (أو الأدب النسائي) .

٥ ـ تاريخ الخيول العربية وأوصافها .

٦ ـ الأمثال الشعبية ، حسب الحروف الهجائية .

٧ ـ كتاب (القوارير) عن النساء العربيات .

٨ ـ اللؤلؤ والصدف في مشاهير علماء الحلة والكاظمية والحائر والنجف .

٩ ـ شعراء الثورة العراقية .

١٠ ـ الرياض الأزهرية في تاريخ أنساب الأسر العلوية (مجلدان) نشر منه في مجلة المرشد البغدادية .

١١ ـ تاريخ الأقمار الصناعية .

١٢ ـ تاريخ الصواريخ والحوادث الكونية ٣ أجزاء .

١٣ ـ تاريخ الإكتشافات الأثرية في البلاد العراقية (جزآن) .

١٤ ـ المآخذ الشعرية (في النقد الأدبي) .

١٥ ـ الغرويات في تراجم شعراء النجف نشر منه في مجلة العدل الإسلامي النجفية ومجلة الفرزدق العمارية واعتمد عليه الخاقاني في شعراء الغري .

١٦ ـ الحائريات في شعراء كربلاء . اعتمد عليه سلمان هادي الطعمة في (شعراء من كربلاء) .

١٧ ـ الحليات في شعراء الحلة .

١٨ ـ وفيات الأعلام ثلاث مجلدات كبيرة سجل فيه وفيات طائفة كبيرة من العلماء والأدباء والشيوخ ووجوه الناس أكثرهم من النجفيين .

١٩ ـ بعض العقائد الفاسدة نشر تباعاً في جريدة الهاتف .

٢٠ ـ التربة الحيدرية وما نظم فيها من الشعر .

٢١ ـ مجموع كبير في تاريخ آل الطريحي .

٢٢ ـ مباحث عن الأقطار العربية .

٢٣ ـ النوادر والفكاهات .

٢٤ ـ كتاب الأوائل (مجلدان) .

٢٥ ـ وحي الفكر في المطبوعات الحديثة والقديمة (نشر منه في مجلة لغة العرب البغدادية) .

٢٦ ـ تاريخ البنود الشعرية .

٢٧ ـ الأدب الحديث والقديم .

عبد الواحد بن أحمد بن محمد الثقفي الكوفي نزيل بغداد :

كان حياً سنة ٥٥٤ .

من فحول محدثين الشيعة وأكابر فقهائهم في القرن السادس للهجرة أخذ العلم عن جماعة من أفاضل عصره منهم الشيخ العدل أبو سعيد عبد الجليل بن محمد الساوي الذي سمع عنه في المسجد الأعظم بالكوفة سنة ٤٩٢ ثم هاجر المترجم له إلى بغداد وكان من أكابر الفقهاء وتصدر للتدريس والفتوى والقضاء وكان قاضي القضاة بها وتخرج عليه جماعة منهم عميد الرؤساء أبو منصور هبة الله بن حامد اللغوي الحلي المتوفى سنة ٦١٠ الذي سمع عنه بمنزله في بغداد سنة ٥٥٤ كما يظهر من صدر سند نسخته من (غريب القرآن) للسجستاني ذكره شيخنا الطهراني في طبقات أعلام الشيعة(١) .

الشيخ عبد الوهاب البهشتي القزويني .

توفي سنة ١٣٠٠ في قزوين ودفن بها .

من أكابر الفقهاء المدرسين في قزوين ، أديب نحوي .

ولد في قزوين ونشأ بها على حب العلم فاشتغل بدرس العلوم العربية والمقدمات ثم تلمذ في الفقه والأصول والحديث على الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ والشهيد البرغاني المستشهد في سنة ١٢٦٣ وأخذ الفلسفة والعرفان عن الشيخ الميرزا عبد الوهاب البرغاني آل الصالحي حتى نال درجة عالية في العلوم العقلية والنقلية ثم تصدر كرسي التدريس في المدرسة الصالحية وكان من أشهر المدرسين في قزوين وتخرج عليه جماعة كثيرة من العلماء وأهل الفضل . ذكره الوزير الإيراني الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة بين فحول علماء عصر ناصر الدين شاه القاجاري(٢) وذكره شيخنا الأستاذ آغا بزرك الطهراني في موسوعته طبقات أعلام الشيعة في ترجمة مختصرة فقال (كان من الفقهاء المدرسين في قزوين وهو من الأدباء الأفاضل والعلماء المحترمين وأئمة الجماعة الموثقين . . .)(٣) .

والمترجم له شقيق الشيخ شريف البهشتي القزويني المار الذكر .

ترك المترجم له مؤلفات لم أقف عليها بل سمعت عنها وإنما رأيت له بعض الحواشي منها حواشي على مقامات الحريري ، وحواشي على الشرائع ، وحواشي على شرح اللمعة للشهيد الثاني(٤) .

ملا عظيما النيسابوري ابن ملا قيدي وأخو ملا فقيها الفوجي .

عندما عين الشاه سليمان الصفوي ميرزا سعد الدين راقم وزيراً لخراسان اصطحب المترجم معه فكان من الميرزين هناك ، وظل حتى توفي سنة ١١١١ .

يحتوي شعره على مدائح في الشاه عباس الثاني وميرزا سعد الدين وصفي قلي خان وبعض الحكام وكبراء كشمير ، وفيه الغزل والمراثي . هذا عدا ما احتواه من مديح في الأئمة عليهم السّلام .

(١) الصالحي .
(٢) الميرزا حسن خان اعتماد السلطنة : المآثر والآثار ص ١٦٥ طهران الطبعة الحجرية الأولى .
(٣) الشيخ آغا بزرك الطهراني : الكرام البررة ج ٢ ص ٨٠٥ الطبعة الثانية مشهد سنة ١٤٠٤ هـ .
(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

وأكثر شعره غزلي في العرفان والحكمة[(١)] .

علي نقي كمره أي المشهور بنقي :

ولد سنة ٩٥٣ في كمره بإيران وتوفي سنة ١٠٢٩ أو ٣٠ أو ٣١ .

كان فاضلاً مدققاً له في التصوف والعرفان تحقيقات وبحوث .

نشأ وتعلم في كاشان وعاشر فيها الشعراء المرموقين مثل محتشم ووحشي ثم سافر إلى أصفهان والتقي فيها بأوحدي صاحب التذكرة وكثير ما تناقشا وتناظرا أدبياً وشعرياً وصارا صديقين حميمين ، وعاش المترجم في أصفهان عيش الشعراء ، كما يقول بعض مترجميه ، وتعرف على حاتم بيك اعتماد الدولة صافي الأوردوبادي الذي كان من كبار رجال البلاط الصفوي في عهد الشاه عباس ، وكان في أول أمره حاكماً لكرمان ، ثم تقلب في عدة مناصب ثم أصبح وزيراً[(٢)] وكان كثير من الشعراء يعيشون في كنفه كالمترجم وميرزا ملك المشرقي .

وفي سنة ١٠١٥ فجع المترجم بوفاة ابنه أبو الحسن فرثاه بشعر كثير ، وكان لهذه الفاجعة أثر بالغ على حياته ، وكما يقول صديقه تقي أوحدي : لم يرفع ظهره بعد تلك المصيبة . وانتقل على أثر ذلك إلى كمره حيث قضى فيها أكثر حياته ، وفيها توفي .

وجميع من كتبوا عنه وصفوه بالسيرة الحميدة والصفاء والإنصاف ، واثنوا على شعره وأنه سلس بعيد عن العقد والابهامات اللفظية والمعنوية .

له قصائد وغزليات ، ومدائح في النبي (ص) والأئمة (ع) والشاه عباس الأول وحاتم بيك والمرشد قلي خان وإمام قلي خان وآخرين من بارزي عهد الشاه عباس .

ترك ديواناً فيه القصائد والتركيبات والغزليات والرباعيات ، ويحتوي على خمسة آلاف بيت .

وقد اشتبه بعض من ألفوا في التراجم كصاحب (روضات الجنات) ، وصاحب (الذريعة) ، وصاحب (ريحانة الأدب) ، فخلطوا بين المترجم وبين عز الدين علي النقي المشهور بالشيخ علي نقي ابن الشيخ أبو العلاء محمد هاشم الطغائي الكمره أي في حين أن هذا توفي سنة ١٠٦٠ أي بعد وفاة المترجم بثلاثين سنة ، وكان من كبار العلماء في عهد الشاه صفي ، وبطلب من قلي خان حاكم فارس سافر إلى شيراز وصار فيها قاضياً وفي عهد الشاه عباس الثاني رجع إلى أصفهان ، وله مؤلفات في الكلام والحكمة والدراسات المذهبية . ونسب له في روضات الجنات أشعاراً ، وربما كانت للمترجم لا له .

وديوان المترجم توجد منه عدة نسخ في إيران ، ومنه نسخة في المكتبة البريطانية ، وفيه مقدمة نثرية يخاطب بها إمام قلي خان والي فارس بأنه لكبر سنه لا يستطيع أن يكون قريباً منه لذلك يبعث إليه بديوانه .

وفي هذا دليل آخر على اختلاف الرجلين : المترجم ، وعز الدين علي النقي لأن الثاني كان قاضياً في شيراز وقريباً من إمام قلي خان[(٣)] .

---

(١) تاريخ أدبيات إيران

(٢) توفي سنة ١٠١٩ قرب مدينة ارومية .

(٣) تاريخ أدبيات إيران .

الميرزا علي أصغر خان :

الميرزا « علي أصغر خان » صاحب ألقاب « صاحب جمع »[(٤)] و « أمين الملك » و « أمين السلطان » و « الأتابك الأعظم » . هو الابن الثاني لـ « آقا إبراهيم أمين السلطان » . كان الصدر الأعظم لـ « ناصر الدين شاه » و « مظفر الدين شاه » و « محمد علي شاه » القاجاريين . ولد سنة ١٢٧٥ هـ . وقتل يوم السبت ٢١ رجب سنة ١٣٢٥ هـ بعد الغروب ، وهو في سن الخمسين ، إذ كان خارجاً من المجلس النيابي . قتله رجل من أذربيجان اسمه « عباس آقا » .

كان « الميرزا علي أصغر خان » من أذكى حكام إيران ومن أقدرهم على التمكن من السيطرة والنفوذ ومن أبرعهم في الإدارة وتصريف الأمور . له دور كبير في الأحداث العظيمة التي وقعت في أيام أولئك الشاهات الثلاثة . وحصل في أثناء تقلبه بين مختلف المناصب على ثروة ضخمة وأصبح من كبار المتحولين .

حصل « علي أصغر خان » على لقب « صاحب جمع » في حياة أبيه . وفي سنة ١٢٩٩ هـ حصل رئيس دار الشورى العليا[(٥)] « الميرزا علي خان أمين الملك » على لقب « أمين الدولة » فانتقل لقبه السابق (أمين الملك) إلى « علي أصغر خان » . وكان ساعد أبيه الأيمن في أعماله الحكومية المتعددة حتى أصبح على درجة فائقة من البراعة والخبرة في العمل .

وفي رمضان من سنة ١٣٠٠ هـ توفي أبوه فعهد « ناصر الدين شاه » بكل مهامه إلى ابنه « الميرزا علي أصغر خان » هذا . وهي مهام كثيرة تدر دخلاً ضخماً وضم إليها وزارة البلاط ولقبه بلقب « أمين السلطان » . وبلغ عدد المناصب التي أسندت إليه ٤٤ منصباً كبيراً . وكان عمره يومئذ ٢٤ سنة .

يوم كان يساعد أباه في أعماله ويحمل لقب « صاحب جمع » كان يخاطب باسم « آقا علي أصغر » . وبعد سنة ١٢٩٩ هـ ، إذ لقب بـ « أمين الملك » أصبح يخاطب باسم « آقا علي أصغر خان » . وبعد وفاة أبيه في سنة ١٣٠٠ هـ ، إذ انتقل إليه لقبه وجميع أعماله ، أصبح « الميرزا علي أصغر خان أمين السلطان » .

لم يحصل « أمين السلطان » هذا في طفولته ولا في شبابه على ثقافة عميقة ، إذ كان يلازم ويساعد أباً أمياً . ولكن كان ، لقوة حافظته وذكائه ، أهلاً لأن يتعلم كل ما يمر به من معارف وتجارب . وعند اللزوم كان يستفيد من معارفه وتجاربه في معالجة الأمور كما يجب أن يستفاد . وكانت تكفيه نظرة واحدة يلقيها على عريضة ، مهما كانت رديئة الخط ، ليتبين فوراً مدار الأمر الذي يدور عليه موضوع العريضة . ثم يعين ببضع كلمات قليلة يخطها على حاشيتها ما يترتب على العريضة من قبول أورد فلا يعدو الصواب .

وأصبح وهو في الخامسة والعشرين من عمره من أقرب المقربين إلى

---

(٤) « صاحب جمع » لقب كان يطلق على من في عهدته إدارة بيوت دواب النقل من جمال وبغال خاصة بالدولة . وكان هذا المنصب من الأعمال البلاطية المهمة . وصاحبه يعد من أعيان الحكم ، بحسب حسابه .

(٥) أو « دار شورى الدولة » أو « مجلس شورى الدولة » . هو مجلس للشورى أنشأه « ناصر الدين شاه » سنة ١٢٧٥ هـ ، وكان الشاه هو الذي يعين أعضاءه .

الشاه وموضع عنايته حتى تنبأ القريبون من البلاط أنه سيخلف الصدر الأعظم « الميرزا يوسف أمين السلطان »[١] بعد وفاته وقد صحت نبوءتهم . فقد توفي هذا الصدر الأعظم سنة ١٣٠٣ هـ فتولى « الميرزا علي أصغر خان » مهامه كلها من غير أن يعين رسمياً لمنصب الصدر الأعظم . وظل يقوم بها إلى سنة ١٣٠٦ هـ إذ أصدر الشاه مرسوماً بتعيينه في منصب « الوزير الأعظم »[٢] (رئيس الوزراء) ، وكان عمره يومئذ ٣١ سنة . وفي سنة ١٣١٠ هـ عين صدراً أعظم . وفي سنة ١٣١٨ هـ في عهد مظفر الدين شاه حصل على لقب « الأتابك الأعظم » . وكان السبب في هذا التأخير هو أن « ناصر الدين شاه » كان متردداً في اختيار واحد من ثلاثة لهذا المنصب أحدهم « الميرزا علي أصغر خان » هذا . فاستخار وجاءت نتيجة الإستخارة نهياً عن تعيين « الميرزا علي أصغر خان » وموافقة على تعيين أحد الرجلين الآخرين . ولكن هذه النتيجة كانت مخالفة لرأي الروس والإنكليز . إذ كانوا يرغبون في تعيين « الميرزا علي أصغر خان » دون ذنيك الرجلين ، والشاه لا يستطيع مخالفة رغبتهما ويخشى مخالفة الإستخارة .

عرف « الميرزا علي أصغر خان » من حين اتصاله بـ « ناصر الدين شاه » ، كما عرف أبوه من قبله ، موضع الضعف في هذا الشاه ، وهو حبه للمال ، فكان لا ينفك يوالي إرسال المال والتحف إليه بـاسم الهدية . وذلك بتحويل الأموال والهدايا إلى « أمين أقدس » إحدى زوجات الشاه الأثيرات ومنها إلى الشاه . ومن ثم أطلق عليها اسم « أمين » أو « أمينة » إذ كانت الأموال التي ترسل إلى الشاه تحول إليه بواسطتها .

جمع « الميرزا علي أصغر خان » زمام الأمور في يده في عهد « ناصر الدين شاه » وعهد « مظفر الدين شاه » ، قبل حصوله على منصب الصدر الأعظم وبعد حصوله عليه ، حتى أصبح يحسب حسابه في أمور الحل والربط أكثر مما يحسب حساب الشاه نفسه ، إذ كان الشاه طوع رغبته ينفذ مطالبه بلا تردد . وخص إخوته وأقاربه بـالمراكز والوظائف الكثيرة المختلفة التي يقتضيها ما في عهدته من المناصب والمسؤوليات المتعددة ، حتى إنه عين أخاً له في منصب « صاحب جمع » وهو في العاشرة من عمره . وكان يتعالى على الجميع فلا يرى أحداً فوقه ولا يبالي أن يذكر علناً على رؤوس الأشهاد رجال الدولة بالإهانة والسوء ، بل بلغ به الأمر إلى التمرد أحياناً على أوامر « ناصر الدين شاه » نفسه وإساءة الأدب في حضوره . وفعل شيئاً من هذا مرة ثم أراد أن يسترضي الشاه فأهدى إليه مبلغاً من المال وعلبة سعوط مرصعة بالماس .

كان من أول مرة يؤثر الإنكليز ، وكان لذلك أثر في تقديمه وترقيه في المناصب . ويوم كان في منصب « الوزير الأعظم » (رئيس الوزراء) في عهد « ناصر الدين شاه » أعطى الإنكليز في سنة ١٣٠٦ هـ امتيازاً بحق الملاحة في نهر « قارون »[٣] ، وامتيازاً بإنشاء بنك في إيران وامتيازاً باستخراج المعادن من أرضها . وفي سنة ١٣٠٧ هـ أعطاهم امتياز حصر التبغ والتنباك ، ذلك الامتياز الذي أثار الإيرانيين وحمل « الميرزا حسن الشيرازي » مرجع الشيعة الديني الأكبر يومئذ[٤] على إصدار فتوى بتحريم تدخين التبغ والتنباك وأطاع الناس فتواه فاضطرت الحكومة الإيرانية إلى إلغاء الإمتياز سنة ١٣٠٩ هـ .

وإذ كان بين الروس والإنكليز تنافس شديد على النفوذ في إيران فقد أغضبت هذه الامتيازات الحكومة الروسية واعتبرت « أمين السلطان » معادياً لها مناقضاً لمصالحها . وقامت مظاهرة كبيرة في طهران اعتراضاً على هذه الإمتيازات ، وطوق المتظاهرون مقر « أمين السلطان » ودخلت مئات منهم إلى المقر ، وهم يشتمون الشاه ويصيحون : أخرج إلينا أمين السلطان لنقتله ! .

ظل « أمين السلطان » يمالىء الإنكليز وهم يدعمونه في البلاط إلى سنة ١٣٠٨ هـ . وكذلك كان « ناصر الدين شاه » يساير سياستهم ويمالئهم . وفي تلك السنة بدأت فتنة امتياز التبغ والتنباك إلى أن اضطر الشاه و « أمين السلطان » إلى إلغائه سنة ١٣٠٩ هـ ، واضطرت إيران إلى التعويض على الشركة الإنكليزية صاحبة الإمتياز بغرامة مالية ضخمة . وكان إلغاؤه يعد انتصاراً للروس على الإنكليز . وعندئذ نفض « أمين السلطان » يده من الإنكليز وانحاز إلى الروس واقتدى به « ناصر الدين شاه » أيضاً . وزاد « أمين السلطان » السفارة الروسية مصالحاً وعاهد الروس وأقسم لهم أنه لن يخالفهم بعد اليوم . وضمن الشاه للسفير صدق قول « أمين السلطان » . وأصبح « أمين السلطان » بعدها العامل الأول في تفوق السياسة الروسية على السياسة الإنكليزية في إيران يومئذ . والظاهر أن هذه المصالحة هي التي أدت بـ « ناصر الدين شاه » و « أمين السلطان » ، فيما بعد إلى القتل ، واحداً بعد الآخر .

وفي سنة ١٣١٤ هـ ، في عهد « مظفر الدين شاه » اضطر الإنكليز الشاه إلى عزل « علي أصغر خان أمين السلطان » من منصب الصدارة العظمى ونصب آخر من الموالين لهم في مكانه . فعزله وأبعده محترماً إلى مدينة قم فأقام فيها منزوياً . وضايق الصدر الأعظم الجديد إخوة الصدر الأعظم المعزول وأقاربه الذين كان قد عينهم في مناصب مختلفة ، فسجن بعضهم وصادر أموال بعضهم .

ولم يرض تعيين هذا الصدر الأعظم الروس إذ كان مخالفاً لهم موافقاً لمنافسيهم الإنكليز . فألحوا على الشاه مطالبين بعزله وإعادة « أمين السلطان » إلى منصبه . فرضخ لهم وعزله في سنة ١٣١٦ هـ ولما يمض على صدارته غير سنة وبعض السنة . وكان السبب في انصياع الشاه لهم ومخالفته بذلك للإنكليز أنه احتاج إلى قرض ليسافر إلى أوروبا للسياحة والمعالجة والخزينة خالية . فطلب القرض من الإنكليز فرفضوا إقراضه وعجز الصدر الأعظم الجديد عن تدبر الأمر . فعزله ليعيد « أمين السلطان » إلى منصبه على أمل أن يستطيع هذا الإستقراض من الروس . وأحضر « أمين السلطان » من قم إلى طهران سنة ١٣١٦ هـ وعين صدراً أعظم .

وسعى « أمين السلطان » إلى الحصول على القرض من الروس فاستجابوا له وأقرضوه في سنة ١٣١٧ هـ (١٩٠٠ م) اثنين وعشرين مليون

---

(١) من كبار رجال السياسة والحكم في عهد « محمد شاه قاجار » وعهد ابنه « ناصر الدين قاجار » .

(٢) في سنة ١٢٧٥ هـ أنشأ « ناصر الدين شاه » هيأة وزارية باسم « مجلس شورى الوزراء » تتألف من ستة وزراء لست وزارات . وأنشأ مجلساً آخر باسم « مجلس شورى الدولة » مؤلفاً من احد عشر عضواً . وينظر المجلسان في مختلف شؤون المملكة ثم تعرض قراراتهما على الشاه للموافقة عليها . ومنصب « الوزير الأعظم » غير منصب « الصدر الأعظم » .

(٣) يقع في جنوب إيران ويصب في شط العرب .

(٤) كان يقيم في العراق في سامراء .

ونصف المليون من الروبلات بفائدة خمسة بالمائة ، بشرط أن تكون عائدات الجمارك الإيرانية ، ما عدا جمارك الجنوب ، رهناً في يد الحكومة الروسية إلى مدة ٧٥ عاماً في مقابل هذا القرض . واستخدمت روسيا جماعة من البلجيكيين لإدارة جمارك إيران . وفي سنة ١٣١٨ هـ أنعم « مظفر الدين شاه » على « أمين السلطان » بلقب « الأتابك الأعظم » .

وفي سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) أراد « مظفر الدين شاه » أن يقوم بسفر آخر إلى أوروبا ، فاحتاج إلى قرض آخر فحصل له « أمين السلطان » على قرض من روسيا مقداره عشرة ملايين روبل بفائدة أربعة بالمائة . وإعطائها امتيازاً بمد سكك الحديد في بعض الطرق من إيران .

ومع أن « أمين السلطان انحاز كلياً إلى الروس بعد فتنة امتياز التبغ والتنباك فقد كان يحاول التقرب إلى الإنكليز أيضاً . من ذلك أنه هيأ لهم امتياز نفط الجنوب سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) في عهد « مظفر الدين شاه » إلى مدة ستين عاماً بالمجان تقريباً . إلا أن ذلك لم ينفعه وظلوا على حذرهم منه لا يطمئنون إليه ويطلبون من « مظفر الدين شاه » عزله . وصدرت أيضاً في هذه الأثناء فتوى بتكفيره من علماء النجف بسبب إهداره مصالح إيران للأجانب ، فلم يجد « مظفر الدين شاه » بداً من عزله فعزله سنة ١٣٢١ هـ ، وعين أحد الموالين للإنكليز في مكانه وهو « عبد المجيد ميرزا عين الدولة » أحد أحفاد « فتح علي شاه قاجار » . ولم يكن على شيء من مقدرة « أمين السلطان » ونفوذه .

وأراد الإنكليز أن يرتاحوا كلياً من شر « أمين السلطان » فحملوا الشاه على أن يوعز إليه بالسفر إلى خارج إيران ففعل . وسافر « أمين السلطان » إلى مكة للحج . ثم أقام في خارج إيران أربع سنوات تقريباً قضاها في السياحة في أوروبا والشرق الأقصى وأميركا .

وفي ٢٤ ذي القعدة سنة ١٣٢٤ هـ خلف محمد علي شاه أباه « مظفر الدين شاه » على العرش . واقتضت مصلحته إحضار « أمين السلطان » إلى إيران . فعاد إليها ، بعد امتناع وأخذ ورد بينه وبين الشاه ، في ٥ ربيع الأول سنة ١٣٢٥ هـ .

عاد « أمين السلطان » إلى إيران من طريق روسيا . وفيها حمله الروس على سفينة حربية في بحر الخزر بين مظاهر الإحترام والتشريفات الرسمية الفائقة إلى مرفأ « أنزلي » . فلما وطىء اليابسة أطلقت السفينة مدافعها تحية له والأعلام ترفرف عليها .

ولما قارب طهران أرسل « محمد علي شاه » أحد رجال البلاط يستقبله . يقول هذا الرجل : لما رآني همس في أذني : لقد أحضرتموني لتقتلوني !

وقوبلت عودته إلى إيران بالسخط من الناس ، وظهرت منهم حركات تمرد . فتدخل السيد عبد الله البهبهاني فأصلح الأمور وهدأ الناس . وفي أواسط شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٥ هـ عين « أمين السلطان » رئيساً للوزارة ووزير دولة .

وكانت أوضاع إيران يومئذ قد بلغت غاية بعيدة من الفساد والوهن . فبدأ بعمل ذكي ناشط للإمساك بزمام الأمور . وأثار خصومه ، من محليين وأجانب ، عليه الناس في مختلف الولايات . وكان أهم هذه الثورات ثورة « أبو الفتح ميرزا سالار الدولة » أحد أبناء « مظفر الدين شاه » . فقد خرج على أخيه « محمد علي شاه » يطالب بالعرش لنفسه . ولكن « أمين السلطان » أخمد هذه الثورة بعد ثلاثة أيام من قيامها وأوشك أن يعتقل الأمير الخارج لولا أنه لجأ إلى القنصلية الإنكليزية في كرمانشاه . ثم أمنوه فاستسلم إلى حاكم كرمانشاه .

وكان « محمد علي شاه » على نهج « أمين السلطان » في موالاة الروس . فلما عاد « أمين السلطان » إلى كرسي الحكم في عهده وأخذ يدير أمور المملكة بحنكته ودهائه وصبره واقتداره ويجمع أزمة الأمور في يده شيئاً فشيئاً علا شأن السياسة الروسية ووقع الإنكليز في الحرج والخيبة . والظاهر أن هذا الأمر كان سبباً في تقرير الإنكليز التخلص منه بقتله . واتفق أن توصل الإنكليز والروس في ٣١ آب سنة ١٩٠٧ م الموافق ٢١ رجب سنة ١٣٢٥ هـ إلى اتفاق بينهما على تقاسم النفوذ في إيران ، وإنهاء عهد التنافس على السيطرة على إيران بينهما . فقلّت ، من ثم ، حاجة الروس إلى وجود أمثال « أمين السلطان » من الأنصار والعملاء في الحكم .

وفي يوم السبت ٢١ رجب سنة ١٣٢٥ هـ ، أي في نفس اليوم الذي وقعت فيه روسيا وانكلترا على تلك المعاهدة ، حضر « أمين السلطان » جلسة لمجلس النواب ليبلغ المجلس مرسوماً بتعيين وزير للحربية ووزير للعدلية . وبعد الجلسة عقد « أمين السلطان » وبعض النواب جلسة خاصة للمذاكرة في بعض الأمور . وطالت الجلسة إلى الساعة الثامنة والنصف مساء . وبعد انتهاء الجلسة توجه « أمين السلطان » ومعه « السيد عبد الله البهبهاني » ، وكان من أشد أنصاره ، إلى باب المجلس الخارجي للإنصراف ، وفي أثناء الطريق دنا سيد من « السيد عبد الله البهبهاني » وناوله رسالة وطلب منه قراءتها ، فتوقف السيد عبد الله ليقرأ الرسالة وتابع « الأتابك » طريقه . وكانت العادة أن تقف عربة « الأتابك » في حذاء الباب . ولكنهم أوقفوها في هذه المرة بعيداً عنه . فوقف « الأتابك » عند باب المجلس ينتظر جلب العربة إليه . وكان رجل تبريزي اسمه « عباس آقا » يتعاطى مهنة الصرافة في طهران ، وقبلها كان صانع بنادق ، يكمن له قريباً بقصد اغتياله فتمكن في هذه المهلة من تسديد سلاحه تسديداً دقيقاً إلى « الأتابك » وأطلق عليه ثلاث رصاصات فأصابته وخر صريعاً . فبادر الحاضرون إليه ولفوه بعباءته وحملوه إلى منزله . وبعد نصف ساعة من وصوله توفي . ودفن في مدينة قم في مقبرة خاصة . أما القاتل ففر وتبعه جندي ورجل سيد ليقبضا عليه ، فقُتِل السيد وجُرح الجندي . وحوصر القاتل فانتحر بإطلاق رصاصة في فمه . وقيل قتله الإرهابي القفقاسي « حيدر عمو أوغلي » إذ كان هو المخطط والدافع إلى اغتيال « الأتابك » في رأي بعضهم .

كان « علي أصغر خان أمين السلطان » شديد الحيوية خارق الذكاء قوي الذاكرة بعيد النظر متسامحاً سخياً جذاب الشخصية جريئاً . وكان إذا غضب لا يبالي بأن يقول ما يحضره من بذاءة وجسارة وأن يوقع ما يخطر بباله من ظلم وقسوة ، سواء في ذلك عنده الكبير والصغير والأمير والوزير ، حتى الشاه نفسه ، فلا يجسر أحد على معارضته . رويت عنه بعض الوقائع شتم فيها « ناصر الدين شاه » (في غيبته بالطبع) شتماً مقذعاً بحضور بعض الكبار من رجال الدولة والبلاط .

كان في أوقات العمل ينكب عليه بصورة متواصلة مدة خمس عشرة ساعة أو عشرين ساعة لا يلتفت إلى شيء غير العمل . فإذا انصرف إلى لهوه

أقبل عليه أيضاً يواصل الليل بالنهار لا يبالي لشيء ولا يلتفت إلى شيء غير اللهو ، حتى أوامر الشاه كان يلقي بها جانباً لا يعتني بها في أوقات لهوه .

وكثر عليه العمل حتى عجز عن النظر في جميع الرسائل الواردة والصادرة لكثرتها فسلم خاتمه إلى كتابه يتداولونه كلاً في نوبة عمله ويوقعون به نيابة عنه على العرائض والرسائل على هواهم . وكانوا أحياناً يناقض بعضهم بعضاً في التوقيع على الأوراق .

وروى بعض معاصريه أنه كان أكولاً أكل بحضوره مرة سبعين خيارة ، وأكل مرة مائة خيارة .

أما سبب اغتياله فاختلفت الأقوال فيه . قيل إن مستندات وقعت في يد « اللجان الشعبية »[(١)] ، وهي رسائل كانت تكتب بأمر منه إلى معارضي النظام البرلماني في مختلف الإيالات يدعوهم فيها إلى العمل للقضاء على هذا النظام ، فكان ذلك سبباً في إقدام أنصار النظام البرلماني على اغتياله . وقيل أيضاً إن هذه المستندات زورها على لسانه بعض أعدائه ثم وشوا به إلى اللجان الشعبية . بل قيل إن « محمد علي شاه » نفسه هو الذي زورها ثم تعمد ، من وراء ستار ، إيصال أمرها إلى هذه اللجان ليستفزهم إلى التخلص من « أمين السلطان » بالقتل ، إذ كان الشاه قد أصبح يحسده على نفوذه المتزايد يوماً بعد يوم . فبعض رجال الدولة من المتصلين بالبلاط يعتقدون أن « محمد علي شاه » هو الذي أمر بقتله لهذا السبب . وقيل إن المخطط لمقتل « أمين السلطان » إنما هو الإرهابي « حيدر خان عمو أوغلي »[(٢)] .

الشريف المرتضى علي بن الحسين .

مرت ترجمته في مكانها من (أعيان الشيعة) وننشر عنه هنا الدراستين الآتيتين :

قال الشيخ محمد رضا الشبيبي :

حسب المؤرخ الذي يعنيه الوقوف على سيرة المرتضى معولاً على النظر في كتب التاريخ أن يرجع إلى ما كتب عنه قديماً في المصنفات الآتية :

١ ـ تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي .

٢ ـ تتمة اليتيمة : لأبي منصور الثعالبي .

٣ ـ التاريخ المعروف بالمنتظم : لأبي الفرج ابن الجوزي .

٤ ـ معجم الأدباء : لياقوت الحموي .

٥ ـ وفيات الأعيان : لابن خلكان وغير ذلك .

ويبدو لمن يتصفح تاريخ المنتظم أن مؤلفه ابن الجوزي أو بعض مشايخه نظر ملياً في كتب المرتضى ، وخصوصاً ما صنفه في الفقه والأصولين ، فعُني بنقل بعض آراء الشريف عن كتبه المذكورة ، ثم عقّب بالردّ على بعضها ، لذلك جاءت ترجمته في تاريخ ابن الجوزي منصبة على هذه الناحية حسب .

وقد قال في آخر الترجمة : « لولا أنّ هذا الكتاب لا يصلح للتطويل فيه الردّ لبيّنت عَوار كلامه » . وقال قبل ذلك : « كان يقول الشعر الحسن ويميل إلى الاعتزال ويناظر في كل المذاهب » .

هذا ولا بدّ لنا من القول أن هناك جانباً لا يستهان به من سيرة هذا الإمام لم يتطرق إليه هؤلاء المؤرخون ولا غيرهم حتى اليوم ؛ لأنّ هذه الناحية من سيرته كما تبدو لنا من خلال ديوان شعره تحتاج إلى تصفح هذا الديوان بأسره وقراءة كلّ قصيدة من قصائده وكل بيت من تلك القصائد والإكباب على نفهمها بدقّة .

وديوان المرتضى ـ كما لا يخفى ـ من أكبر الدواوين الشعرية حجماً ، والوقت أضيق من استيعابه ، أو استبطان أغراض صاحبه ومطالبه ، والغور على معانيه ومقاصده ، وهي كثيرة ومتنوعة ؛ هذا من جهة ، والشريف المرتضى من جهة أخرى كان إماماً في علوم الشريعة وفنون الأدب ، له مكانته ومنزلته الرفيعة في عصره ، وبالخاصة لدى خلفاء بني العباس وملوك الديالمة من البهويهيين .

وكان له أصدقاؤه ورفاقه وأصحابه الكثر من أمراء الدولة ووجهاء البلاد والصدور والأعيان والأئمّة في مختلف العلوم والفنون .

ولا حاجة إلى القول بأن الشريف المرتضى الشاعر في غنىً عن الإسترفاد أو الإستجداء بشعره .

ولا شك أنه نظم بعض القصائد في المديح والرثاء ، مديح الخلفاء والسلاطين ورثائهم ، وكان الباعث له على طرق هذه الأبواب من النظم ، وفاؤه وصداقته لكثير من القوم ، لذا جرَّد الشريف المرتضى كثيراً من شعره في معانٍ إخوانية يذكر فيها الصديق والصداقة ، أو في مقاصد اجتماعية ، أو خوالج نفسية ، أو مشاعرات أو منافثات أدبية .

ويلاحظ أن جل أصحابه ، حتى من طبقة الأمراء والسلاطين والخلفاء كانوا على منزلة عالية من المشاركة في فنون الأدب والشعر واللغة ، فكانوا يثيرون قريحته ، وينبهون عاطفته ، فيجود بما تجود به من الشعر .

من ذلك أن الوزير أبا علي الحسن بن حمد ، رغب إلى المرتضى أن يعمل أبياتاً تتضمن نقض المعنى الذي قصده جرير بقوله :

تقول العاذلاتُ عَلاكَ شيبٌ ... أهذا الشيبُ يمنعني مَراحِي؟

فجادت قريحته بمقطوعة مطبوعة يقول في أوّلها :

وما مَرَحُ الفتىٰ تَزْوَرُّ عنه ... خدودُ البيض بالحَدَقِ المِلاحِ

منها :

وقالوا: لا جُناحَ، فقلت كلّا ... مشيبي وحده فيكم جُناحِي
مَشيبٌ شُنّ في شَعَرٍ سليمٍ ... كشنّ الغُرّ في الإبل الصّحاحِ
كأنّي بعد زَوْرَتِه مَهيضٌ ... أدِفُّ على الوظيف بلا جَناحِ
سقى اللّهُ الشّباب الغضّ راحاً ... عتيقاً أو زلالاً مثلَ راحِ
ليالِيَ ليس لي خُلُقٌ مَعيبٌ ... فلا جِدّي يُذَمّ ولا مِزاحِي
وإذْ أنا من بطالات التصابي ... ونشوات الغواني غيرُ صاحِ
وإذْ أسماعُهنّ إليّ ميلٌ ... يُصِخن إلى اختياري واقتراحي
فدونَكَها ابنَ حَمْدٍ ناقضاتٍ ... لقول فتىً تجلّد للّواحي
فقال وليس حقّاً كلُّ قولٍ ... «أهذا الشيب يمنعني مَراحي»؟

---

(١) في أوائل قيام النظام البرلماني في إيران ظل هذا النظام مترجرجاً بين أنصاره وخصومه . وكان في حملة وقائع هذا الصراع أن تشكلت في مختلف الولايات لجان باسم « اللجان الشعبية » لمواصلة الدعم لهذا النظام ومكافحة خصومه .

(٢) راجع ترجمته .

هكذا نزل المرتضى عند اقتراح الوزير المذكور ، ومن ذلك يستفاد أن الوزير يشارك مشاركة حسنة في الأدب ، ويروي شعر الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين ، وأكثر من ذلك أن هذا الوزير خبير بمزاج الشريف المرتضى وبفنون الأدب والشعر التي يحسنها .

والمعروف أن الشريف يحسن القول في الشيب والشباب وله في ذلك مجموعة معروفة ، ويحسن النظم في طيف الخيال ، وله في ذلك أيضاً مجموعة متداولة .

وقد تعاطى النظم في هذه المعاني بعض فحول الشعراء قبل الشريفين المرتضى والرضي ، ومن أشهرهم أبو عبادة البحتري ، وقد بلغت هذه الصلة الأدبية بين الوزير أبي الحسن علي بن حمد والمرتضى حداً من الوثاقة جعلته « أعني الوزير » يقترح على الشريف نظم قصيدة على لسانه يبعث بها إلى بهاء الدولة[1] .

فهي قصيدة قيلت على لسان وزير مرسلة إلى ملك ، والاثنان من أصدقائه فلا مناص من التجويد فيها ، وقد جاءت من محاسن شعره لفظاً ومعنىً يقترحان .

ويلاحظ أن مقترحات هذا الوزير على المرتضى غير قليلة كما يبدو لمن بتصفح ديوان المرتضى ، وقد سأله مرّة إجازة قول أبي دهبل الجُمَحي[2] :

وأبرزها من بطن مكّة بعدما   أصات المنادي بالصّلاة وأعتما

وأن يجعل الوصف الذي قصد به أبو دهبل إلى ناقة مصروفاً إلى امرأة ، فقال مرتجلاً في الحال :

فطيّب «ريّاها» المقام وضوّأت   بإشراقها بين الحطيم وزَمْزَما[3]
فيا ربّ إنْ لقّيت وجهاً تحيّةً   فحيّ وجوهاً في المدينةِ سُهَّمَا
تجافين عن مسّ الدّهان وطالما   عصمن عن الحنّاء كفاً ومعصما
وكم من جليدٍ لا يخامره الهوىٰ   شنَنَّ عليه الوجد حتّى تتيّما
أهان لهنَّ النّفسَ وهي كريمةٌ   وألقىٰ إليهنَّ الحديثَ المكَتَّما
تَسفّهتَ لمّا أنْ مررتَ بدارها   وعوجلتَ دون الحلم أن تتحلّما
فعُجْتَ تقرّى دارساً متنكّراً   وتسأل مصروفاً عن النّطق أعجما
ويوم وقفنا للوداع وكلُّنا   يعدّ مطيعَ الشّوق مَنْ كان أحزما
نُصرتُ بقلبٍ لا يعنّف في الهوىٰ   وعينٍ متى استطمرتُها مطرتْ دما[4]

كما يلاحظ أيضاً كثرة المقترحات التي ترد عليه من هذا القبيل ومن غير هذا الوزير ، فطوراً يُسأل إجازة أبيات على وزن مخصوص وقافية ، وتارة يطلب إليه إجازة قول النوّاح المرادي[5] أو غيره ، إلى هذا وأمثاله .

ولا غرو ، فإنّ الدولة البويهية كانت دولة الأدب والشعر ، وكان شعر المرتضى كشعر أخيه الرضي يعرض بديوان بهاء الدولة ويُقرأ في مجلسه .

ومن الخلفاء الذين ورد ذكرهم في شعره أكثر من مرة ، القادر بالله العباسي . وله فيه قصيدة بمناسبة إفضاء الخلافة إليه[6] ، وفي هذه القصيدة يتمدّح المرتضى بأنه من عشيرة الخليفة ، ويقصد بذلك أن الأرومة الهاشمية تجمع بينهما ، وأنه لا غرض له إلا بقاؤه ودوام صلته به .

وفي هذهَ القصيدة أشار إلى تعذر الوصول إلى سدة هذا الخليفة بعد البيعة ، فمن ذلك قوله :

وأنا الذي يُنمى إليك ولاؤه   أبداً كما يُنمى إليكم مولدي
أثني عليك وبيننا متمنّعٌ   صعبُ المرام على الرّجال القصّدِ
ولئنْ تحجّب نور وجهك برهةً   عنّي فهاتيك المناقبُ شُهّدي
ما حاجتي إلاّ بقاؤك سالماً   تُعلي مقاماتي وتدني مشهدي

والظاهر أن المرتضى كان قبيل البيعة وثيق الصلة به كثير الإجتماع معه .

ولم يكن الشريف المرتضى وحده قريباً من هذا الخليفة ينوّه به في عدة من قصائده ، بل كان أخوه الرضي مثله في الاتصال بالقادر وله في بيعته وصيرورة الخلافة إليه « سنة ٣٨١ هـ » قصيدة مشهورة نذكر منها قوله :

شرف الخلافة يا بني العباس   اليوم جدّده أبو العباس
هذا الذي رفعت يديه بناءها الـ   ـعالي وذاك موطّد الأساس
والطود أبقاه الزّمان ذخيرة   من ذلك الجبل الأشم الراسي

وفي هذا الشعر ما فيه من الصناعة البديعية ، فأبو العباس الوارد ذكره في مطلع القصيدة هو القادر بالله ، وأبو العباس هي أيضاً كنية السفاح مؤسس دولة بني العباس المشار إليه في البيت الثاني .

هذا ولأبي شجاع صاحب كتاب « ذيل تجارب الأمم » تعليق لطيف على أبيات الرضي أكّد فيها رأي الرضي بالقادر بالله في تجديد معالم الخلافة - على ما يقول - ، وكشف الغمّة وإزاحة العلل والفتن عن البلاد ، ويعده أبو شجاع رابع أربعة من بني العباس هم : السفاح ، والمنصور ، والمعتضد ، ورابعهم القادر ، ووصفه بالورع والزهد وأنه راهب بني العباس[7] .

ولا تخلو هذه المقالة وغيرها من مقالات بعض المؤرخين في هذا الصدد من مبالغة .

والخلاصة كان أفراد هذه الأسرة - أسرة السيدين المرتضى والرضي - من أكثر أعيان عصرهم في العراق اتصالاً بدار الخلافة العباسية ، ودار السلطنة البويهية ، وحسبنا أن الشريف أبا أحمد الموسوي وليّ عقد الأميرة سكينة ابنة بهاء الدولة على القادر بالله « سنة ٣٨٤ هـ » ، جاء في حوادث هذه السنة من

---

(١) مطلع القصيدة :

«إياباً أيها المولىٰ إياباً   فعبدٌ إنْ أساء فقد أنابا»

(٢) أبو دهبل : إسمه وهب بن زمعة بن أسيد بن أحيحة بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح ، وكان اسم جمح تيماً واسم أخيه زيداً ، وهما ابنا عمرو بن هصيص فاستبقا إلى غاية ، فمضى تيم عن الغاية فقيل : جمح تيم ، ووقف عليها زيد فقيل : سهم زيد فسمي سهماً ، فأما كنيته فهي مشتقة من الدهبلة ، وهي المشي الثقيل ، والجمحي من شعراء قريش المطبوعين المجودين . راجع « ج ١ ص ١١٦ » من كتاب أمالي السيد المرتضى ط . مصر سنة ١٣٧٣ هـ .

(٣) في الأمالي : « مسراها » بدل « رياها » .

(٤) في الأمالي : « قطرت » بدل « مطرت » .

(٥) وهذه الأبيات للنواح المرادي الواردة في الديوان :

يا إبلي روحي على الأضياف   إنْ لم يكن فيك غبوق كافِ
فابشري بالقدر والأثافي   وغارفٍ ومغرفٍ جرّافِ

فأجابه المرتضى بالقصيدة التي أولها :

يا إبلي كوني قِرى الأضياف   فليس عند الجود بالإنصاف

(٦) مطلع القصيدة :

قرّت عيون بني النبيّ محمّدِ   بالقادر الماضي العزيمة أحمدِ

(٧) ذيل تجارب الأمم لأبي شجاع ط . مصر سنة ١٣٣٤ هـ « ص ٢٠٧ » .

ذيل تجارب الأمم ما يأتي :

وفيها عقد القادر على ابنة بهاء الدولة بصداق مائة ألف دينار بحضرته ، والولي الشريف أبو أحمد بن موسى الموسوي ، وتوفيت قبل النُقلة(١) .

هذا ما ذكره أبو شجاع في ذيل تاريخ مسكويه ، والشريف المذكور أبو أحمد هو والد الشريفين المرتضى والرضي كما لا يخفى ، وكانت لهذا الشريف مساعٍ مشكورة في الإصلاح بين رجال الدولة في ذلك العصر ، والأمثلة على ذلك غير قليلة في كتب التاريخ خصوصاً في التاريخ المسمى بتجارب الأمم لمسكويه ، فلما شجر الخلاف بين أبي القاسم علي بن أحمد وبين السلطان بهاء الدولة وترددت الرسائل بينهما في العودة إلى الوزارة كان السفير بينهما الشريف أبو أحمد الموسوي .

جاء في التاريخ المذكور نقلاً عن الأستاذ أبي نصر « جاءني في أثناء ذلك الشريف أبو أحمد الموسوي وكان يتهمني بالميل إلى الشريف أبي الحسن محمد بن عمر ويستوحش مني لأجله فقال : بلغني أنك تصعد الليلة إلى بغداد ، وما كنت أوثر البعد عن سلطانك ، ولو وقفتَ وتركتني أتوصف ما بينك وبين الوزير الوارد وأتوثق بكل واحد من صاحبه لكان أولى ، فقلت : قد كنت على العزم الذي بلغ الشريف وإذ قد رأى الصواب لي في المقام أقمت يومين ، أو ثلاثة ، معولاً على تفضّله فيما يقرره ، وأردت بهذا القول كتمان حقيقة أمري إشفاقاً من أن يعرف الوزير خبري ، فراسله بهاء الدولة فيما يعرفني به وانصرف الشريف أبو أحمد ولم تقلّني الأرض حتى مضيت إلى المضرب ودّعت بهاء الدولة فبكيت وبكى ببكائي وقال : لا تشغل قلبك فإنّي لك على أجمل نيّة ، وما أنفذتك إلاّ إلى مملكتي ، وأين كنت فإنك على بالٍ من مراعاتي وملاحظتي »(٢) .

ويلي ذلك تفصيل هذه القضية ، وجاء في آخرها ، أن الأمر فسد بينهم بعد ذلك ، وعوّل بهاء الدولة على اعتقال وزيره ، فذكّره الشريف أبو أحمد العهد الذي استقر مع مهذب الدولة فعند ذلك فسح في عوده مع الشريف أبي أحمد إلى بغداد .

ومن الخلفاء الذين ورد لهم ذكر ديوان المرتضى ؛ الطائع وهو من الخلفاء الذين توثقت بينهم وبين الشريف المرتضى أسباب المودة ، ونَفَسُ الشريف المرتضى في القصائد التي قيلت فيه طويل منها القصيدة التي مطلعها :

مـا الحبّ إلاّ مـوئـلُ المتـعـلّلِ ... وبـراعـة الـلاّحي وطَوْلُ العُـذَّلِ

وفي هذه القصيدة الطويلة يشير المرتضى إلى الترفع عن الإسترفاد بالشعر ويذم الإنتجاع به :

أنـي ومـا هـذا الثنـاء لمجتـدٍ ... فلذاك أُبعـدُ عن مقـال المبـطلِ

على أنه يذكر فيها إحساناً للطائع أسداه إليه ، وهناك أبيات في هذا الخليفة التمس فيها زيارته واستأذنه في ذلك ، ولا يخفى أن الوصول إلى الخليفة في عصر الشريف وما إليه كان صعب المنال .

(١) ذيل التجارب « ص ٢٥٤ » .

(٢) ذيل التجارب « حوادث سنة ٣٨٥ » .

مأساة الطائع

وللطائع مأساة معروفة في تاريخ بني العباس في القبض عليه على صورة فيها شيء كثير من الهوان والصّغار ، وخلعه وأخذ خطه بالتنازل عن الخلافة « سنة ٣٨١ » واستخلاف القادر بالله وقد تم ذلك في أيام الملك بهاء الدولة الديلمي ، وفي هذه الحادثة أفاض رشاش من ذلك الهوان والصّغار من شهد الحادثة في دار الخلافة ، وكان بحضرة الخليفة المخلوع ، والحاضرون الذين أصيبوا من أعيان بغداد ووجهائها ؛ والقصة مشروحة في كتب التاريخ ، ومهما تفنن المؤرخون والمنشئون في وصف هذا الحادث فإنهم لا يلحقون شأو الشريف الرضي شقيق المرتضى الذي بزّهم جميعاً في وصف ما حدث يوم الدار ، أو يوم خلع الطائع ، وكان الرضي حاضراً ذلك اليوم فخلّد الحادث بنونيته البليغة السائرة ، ويقول صاحب ذيل تجارب الأمم(٣) ليس في قضية الطائع ما هو خليق بالرواية إلاّ أبياتاً للرضي أبي الحسن الموسوي ـ رحمه الله ـ فإنه كان من جملة من حضر ، فلما أحسّ بالفتنة أخذ بالحزم وبادر الخروج من الدار ، وتلوّم من تلوّم من الأماثل ، فامتهنوا وسلبت ثيابهم وسلم هو فقال :

أعجب لمسكة نفسي بعد ما رُميت ... من النـوائب بـالأبكـار والعـونِ
ومن نجاتي يـوم الـدّار حين هوىٰ ... غـيري ولم أخـل من حـزمٍ ينجّيني
مَرقتُ منها مروق النّجم منكدراً ... وقـد تلاقت مصاريع الـرّدى دوني
وكـنـت أوّل طـلاّعٍ ثـنـيّـتـهـا ... ومـن ورائـيَ شرٌّ غـير مـأمـونِ
من بعد ما كـان ربُّ الملك مبتسماً ... إليَّ أدنيـه لـلنجـوى ويـدنـيـني
أمسيت أرحم من أصبحت أغبـطه ... لقـد تقـارب بـين العـزّ والهـونِ
ومـنـظرٍ كـان للسّراءِ يـضحكـني ... يـا قـربَ مـا عـاد للضرّاء يبكيني
هيهـات أغـترّ بـالسلطان ثـانـيـةً ... قـد ضـلّ ولاّجُ أبـواب السّلاطـينِ

ومن المفيد أن نقول إن للشريف الرضي مرثية يرثي بها الطائع المذكور عند وفاته سنة ٣٩٣ هـ .

وللشريف المرتضى مدائح كثيرة ومراثٍ في ذويه وأهله وبالأخص منهم والده وخاله ، وقصائده من هذا القبيل لا تخلو من حماسة وفخر ، ولكن هذا الباب أعني الفخر والحماسة في شعره قليل بالنسبة إلى ما جاء في شعر أخيه الرضي .

ومن قصائده السائرة في مدح خاله الشريف أبي الحسين أحمد بن الحسن الناصر ، القصيدة التي نذكر منها هذه الأبيات المفعمة بالرّقة والعذوبة(٤) :

يـا خـليـليّ مـن ذؤابـة قـيسٍ ... في الـتصـابي ريـاضـة الأخـلاقِ
غـنّيـاني بـذكـرهـم تـطربـاني ... واسقيـاني دمعي بكـأسٍ دهـاقِ
وخـذا الـنـوم من جفـوني فـإنّي ... قـد خلعت الكـرى عـلى العشّاقِ

وهناك غير هؤلاء عدد من الطالبيين والعلويين توثقت رابطة الصداقة والمودة بينه وبينهم ، منهم من مدحهم غير مرّة أو رثاهم ، منهم النقيب أبو الحسن محمد بن علي الزينبي المتوفى « سنة ٤٢٧ » فله فيه مرثية عصماء طويلة نذكر منها :

ألا بـكّـهـا أُمّ الأسى والمصـائـب ... بـدمعك سحّاً بـين سارٍ وساربِ

(٣) ذيل تجارب الأمم : (ص ٢٠١ ـ ٢٠٢) .

(٤) مطلع القصيدة :

مـا رأتـي عـيـنـاك يـوم الـفـراقِ ... أخـدع الـقلب بـاذّكـار الـتّـلاقي

وعاصٍ الذي لم يهمِ ماءَ جفونه على فقد ماضٍ أو على إثر ذاهبِ
ولا تغروني بالصّبر ، فالصبر ماله طريقٌ إلى ما في الحشا والترائبِ

منها :

مصاب هوى بالشم من آل هاشمٍ وضعضع ركناً من لؤي بن غالبِ
ولمْ يمضِ إلّا بالشّواة عن الشّوىٰ ولم يرضَ إلّا بالطُّلى والذّوائبِ
وناعٍ نعىٰ نفسي ولم يدرِ أنه نعاها فأغراها بلدم ترائبي

منها :

تمنّيت لّما أن أتى وهو صادقي على الرّغم منّي أنه كان كاذبي

منها :

ولما تُوُفّي الزينبي «محمّدٌ» وسارت بما لاقاه أيدي الرّكائبِ
نفضت من الخلّان كفّيّ بعده ولـوّيتُ عن دار الأخوّة جانبي
وغاضت دموعي في الشؤون فلم تسلْ على الذّاهبين بعده والذّواهبِ

وآل الزينبيّ أسرة كبيرة يتردد ذكرهم كثيراً في تلك الحقبة من الزمن ، كما ورد ذكرهم في ديوان كلّ من الشريفين المرتضى والرضي وهم بيت من بيوت العراق في أواسط الدولة العباسية ، نعتوا على لسان المؤرخين بالنبل والشرف والإمارة وأسندت إلى غير واحد منهم نقابة النقباء .

فمن هم آل الزينبي ؟ وما معنى هذه النسبة ؟ وهل هي نسبة إلى مكان ؛ أم إلى شخص ؟ وهل هؤلاء النقباء عباسيون أم علويون ؟

سكت جل المؤرخين عن التفصيل واكتفوا بالإجمال ، ولم يزيدوا على قولهم : فلان الزينبي ، أو الشريف الزينبي ؛ وهكذا عاد الباحثون بخفيّ حنين من مسائلة غير واحد من المؤلفين والمؤرخين ومناشدتهم أيضاً في إيضاح ما غمض من نواحي هذه المسألة حتى خامرهم شيء من اليأس .

بقي علينا أن نستطلع رأي السمعاني مصنف كتاب الأنساب ، وقصدنا هذا المؤرخ الكبير فلم يخيب لنا أملاً ، والواقع أن السمعاني حقق رغبتنا بل أجابنا جواباً شافياً ولم يكتف ببيان حقيقة هذه النسبة ولا بتعيين أصل آل الزينبي ؛ بل أوضح لنا جوانب غير قليلة من سيرة القوم وأحوالهم وقال لنا إنّ له في أهل هذا البيت أصحاباً وأصدقاء ومشائخ أخذ عنهم لما دخل بغداد ، فلله درّ محدثنا السمعاني ، ما أبرعه وأكثر فوائد كتابه في الأنساب : ودونك ما ورد عن آل الزينبي في الكتاب المذكور وهذا نصه[١] :

الزينبي هذه النسبة إلى زينب بنت سليمان بن علي ، وظني أنها زوجة إبراهيم الإمام أم محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي والمنتسب إليها بيت قديم ببغداد ، منهم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الهاشمي الزينبي يروي عن أبي طاهر المخلص وابن زنبورْ الورّاق ، روى لنا عنه أبو نصر الغازي بأصبهان وإسماعيل بن أبي سعد ببغداد ، وشبيب بن الحسين القاضي ببروجرد ، وأبو القاسم (فسل[٢]) بمكة ، وجماعة وتوفي سنة نيّف وسبعين وأربعمائة ، وأخوهما[٣] أبو الفوارس طراد بن محمد بن علي الزينبي النقيب يلقب بالكامل ، يروي عن هلال بن محمد الحفار[٤] ، وأبي الحسن بشران وغيرهما . روى لنا عنه أبو الحسن محمد بن طراد الزينبي وأبو القاسم علي بن طراد الزينبي الوزير وسمعت منهما ببغداد .

وكان مولده بشوال « سنة ٣٩٨ » وتوفي في ذي القعدة « سنة ٤٩١ » ، وأخوهم الرابع نور الهدى أبو طالب الحسين بن محمد بن علي الزينبي ، يروي عن ابن المقتدر بالله ، وأبي علي الشافعي ، روى لنا عنه جماعة بالشام والعراق وخراسان ، وأبو العباس أحمد بن الهاشم الزينبي من أهل باب البصرة ، يروي عن أبي نصر الزينبي ، كتبت عنه ببغداد ، ومات بالبصرة « سنة ٤٢٤ »[٥] وجماعة بهذه النسبة لا أدري نسبوا لأيّ الزيانب ، منهم علي بن هارون الزينبي ، يروي عن مسلم بن خالد (الريحي)[٦] ، روى عنه عبد الله بن محمد بن موسى ، ويوسف بن سعيد بن مسلم ، وأبو العباس بن الوليد . . . الزينبي ، روى عن عدة وهو آخر من حدّث عنه وعن عوذة بن خليفة ، روى عنه عبد الله بن محمد بن موسى الكعبي النيسابوري ، وذكر عنه أنه سمع منه بمكة محمد بن موسى الزينبي .

فلا عجب أن تتوثق مثل هذه الصلاة بينه وبين هؤلاء النقباء العلويين . فإنه أمر يقتضيه مركزه من القابة الذي تقلده أكثر من مرة .

على أن المرتضى مُنِيَ بعدد غير قليل من الخصوم والحسّاد ، وبعضهم من أسرته ، ومن أشهر قصائده التي يعرض فيها بخصومه وحساده قصيدة معروفة استهلها بقوله :

علَّ البخيلة أن تجود لعاشق ما زال يقنع بالخيال الطارق

وله قصيدة أخرى تعد من عيون شعره الجزل قالها في هذا المعنى أيضاً التي مطلعها :

(خليليّ ألّا عجتما بالقلائص)

والتي يقول فيها :

بني عمّنا كم نكظِمُ الغيظ منكم على لاذعاتٍ بيننا وقوارصِ
وددتمْ بأنّ المجد أصبح شارداً وليس لنا فيه اقتناصٌ لقانصِ

الشاعر العالم

ويأبى شعر المرتضى وأدبه إلّا أن ينمّ على خلقه ومسلكه في الحياة ، وهو كما لا يخفى مسلك أحد أئمة العلم والديانة ، وهو صاحب مدرسة تخرج فيها كثير من الفقهاء والمتكلمين ، ونلاحظ أن شعره من بعض النواحي مرآة تنطبع على صفحتها أخلاق العالم الخبير بأمور الدنيا ، المرشد المبصر بأمور الآخرة ، ومن المعاني التي تطرق إليها في قصائده ، ذم الدنيا ، وشكوى الزمان ، وذكر المصائب التي تعرض لكثير من ذوي الأقدار والفضيلة فيها ،

(١) أنساب السمعاني « ص ٢٨٤ و ٢٨٥ » ، وتجد ترجمة لزينب بنت سليمان العباسية في قسم تراجم النساء للخطيب البغدادي « ج ١٣ ص ٤٣٤ » .

(٢) كذا في الأنساب .

(٣) جاء في مختصر الأنساب « لبعض الأفاضل » أن هنا نقصاً في كتاب أنساب السمعاني . فإنه لم يذكر إلا زينبياً واحداً هو إبراهيم بن محمد بن سليمان ، فلا يصح قوله : « وأخوهما » ثم إن الثاني هو طراد بن محمد بن علي ، فجده علي لا سليمان .

(٤) هو أبو الفتح هلال بن محمد الحفار ، قال الخطيب البغدادي : كتبنا عنه ، وكان صدوقاً ينزل بالجانب الشرقي قريباً من الحطابين ، وسألته عن مولده . فقال : ولد في شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ، بعد قتل المقتدر بسنة ونصف ، لأن المقتدر قتل في سنة عشرين (وثلاثمائة) ، مات هلال الحفار في يوم الجمعة الثالث من صفر « سنة ٤١٤ » « الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ـ ج ١٤ ص ٧٥ » .

(٥) في المختصر المذكور « سنة ٥٣٣ » .

(٦) كذا في الأنساب للسمعاني « ورقة ٢٨٤ » .

ويأخذ عليها تنكرها ، وتقلب أحوالها من مكاشفة إلى صداقة ، ومن رفاهية إلى إضافة ، ومن فرج إلى إعسار ، وما إلى ذلك .

ويستوحي معانيه الشعرية من هذا الباب من نظره إلى القبور الدوارس ، وقد أثارت شعوره مرة مرأى المقبرة العتيقة المجاورة لمسجد براثا فاستوحى خشوعها ودثورها ، ومظهر العبرة فيها بقصيدة حسنة فإذا هو في هذا الموقف ذلك الإمام الذي يأبى إلّا أن ينم عليه شعره ، فكم من شاعر يا ترى مرّ بهذه المقبرة ـ مقبرة مسجد براثا ـ قبل الشريف المرتضى وبعده فلم يستوحها ولو ببيت واحد من الشعر ، وفي هذه القصيدة يقول :

إني مررت على جنا   دل فوق أرماس دروس
فكأنهنّ من البِلىٰ   آثارُ نِقْسٍ في طُروس
كم ضمّنت من ضَيغم   قَرِمٍ إلى قنص النّفوس
وغرير ماء الوجنتين   كريم ناحية الجليس
وكأنّهم لخفوتهمْ   شَرْبٌ تساقوا بالكؤوس
تخذوا الثرى فرشاً لهمْ   وتوسّدوا قلل الرؤوس
يا للثرىٰ كم فيه من   عِلْقٍ يُضَنّ به نفيس!

وشعره من هذا القبيل يذكرنا ببعض خطب الإمام عليّ عندما كان يزور المقابر ، ولا شك أن الشريف المرتضى ورث هذه النظرة إلى الحياة فيما ورث عن أجداده عليهم أفضل الصلاة والسلام .

مدفن المرتضى

قال الدكتور مصطفى جواد :

ذكر أبو العباس أحمد بن علي بن العباس المعروف بالنجاشي في كتابه « رجال الشيعة » ـ ص ١٩٣ ـ أن الشريف المرتضى صلى عليه ابنه في داره ودفن فيها ، قال : « وتوليت غسله ومعي الشريف أبو يعلى محمد بن الحسن الجعفري وسلار بن عبد العزيز » .

وقال ابن عنبة في « عمدة الطالب » ـ ص ١٨٢ ـ : « ودفن المرتضى في داره ثم نقل إلى كربلاء فدفن عند أبيه وأخيه وقبورهم ظاهرة مشهورة » .

ونقل أبو علي في كتابه « منتهى المقال في أحوال الرجال » ـ ص ٢٢٤ ـ ما ذكره النجاشي في كتابه من دفن المرتضى في داره قول صاحب « تنزيه ذوي العقول » : « ثم نقل إلى جوار جده الحسين ـ عليه السّلام ـ » .

وقد أُظهرت في العصر الأخير في الكاظمية خارج سور المشهد الكاظمي تربة كتب عليها أنها تربة الشريف المرتضى ثم أُظهرت بالقرب منها تربة سميت تربة الشريف الرضي ، مع أن أكثر المؤرخين الذين ترجموهما ذكروا نقلهما من داريهما إلى المشهد الحسيني بكربلاء . ولا تخلو تسمية التربة في الكاظمية بتربة المرتضى من أمرين أحدهما أنه كان هناك في التربة ضريح غير معروف دفينه ، فانبرى لها أحد البعيدين عن التحقيق والتدقيق فنسبها إلى المرتضى ، والآخر أن التربة كانت تسمى « تربة المرتضى » أو « تربة ابن المرتضى » فحذفت لفظة « ابن » من التسمية .

فإن كان اسمها « تربة المرتضى » فليس دفينها الشريف المرتضى بل « إبراهيم المرتضى » قال مؤلف غاية الإختصار « ٥٠ ـ ٥٤ » في ترجمة موسى بن إبراهيم الموسوي : « كان صالحاً متعبداً ورعاً فاضلاً يروى الحديث . . . توفي ببغداد وقبره بمقابر قريش « يعنى الكاظمية أو المشهد الكاظمي) مجاوراً لأبيه وجدّه ـ عليهما السّلام ـ فحصت عن قبره فدللت عليه وإذا موضعه في دهليز حجرة صغيرة ملك مبارك الجوهري الهندي[1] . وأبوه « إبراهيم المرتضى » كان سيداً جليلاً عالماً فاضلاً روى الحديث عن آبائه ـ عليهم السّلام ـ ومضى إلى اليمن وتغلب عليها في أيام أبي السرايا ، ويقال إنه ظهر داعياً لأخيه الرضا ـ عليه السّلام ـ فبلغ المأمون ذلك فشفعه فيه وتركه . توفي في بغداد وقبره بمقابر قريش عند أبيه ـ عليه السّلام ـ في تربة مفردة معروفة ـ قدس الله روحه ونور ضريحه ـ » .

وعلى هذا تكون تربة المرتضى القائمة اليوم عند المشهد الكاظمي خارج السور للسيد إبراهيم المرتضى بن الإمام موسى بن جعفر ـ عليهما السّلام ـ ولا يخفى على اللبيب قول مؤلف الغاية « وقبره في تربة مفردة معروفة » .

وعلى القول الثاني أعنى أن تسمية التربة كانت « تربة ابن المرتضى » تكون للسيد علي بن المرتضى الحسني المعروف بالأمير السيد ، قال مجد الدين محمد بن محمود المعروف بابن النجار المؤرخ المحدث المشهور :

« علي بن المرتضى بن علي بن محمد ابن الداعي زيد بن حمزة بن علي بن عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد السيلقي بن الحسن بن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أبو الحسن بن أبي الحسين بن أبي تغلب العلوي الحسني المعروف بالأمير السيد . ولد جده بنيسابور وكذلك والده المرتضى ونشأ بأصبهان ثم قدم بغداد ، وولد له عليّ هذا بها وقرأ الفقه على مذهب أبي حنيفة حتى برع فيه وفي الخلاف ، وقرأ الأدب وحصل منه طرفاً صالحاً ، وسمع الحديث ، ثم ولي التدريس بجامع السلطان[2] وانتهت إليه رئاسة أصحاب الرأي . وكان عالماً بالمذهب متديناً زاهداً في الرتب والولايات المنيفة كريم النفس ، كانت داره مجمعاً لأهل العلم والأدب وكان يكتب خطاً مليحاً وله كتب كثيرة أصول بخطوط العلماء سمع . . . وحدث باليسير ، سمع منه القاضي أبو المحاسن عمر بن علي القرشي وعمّر حتى أدركناه ولم يتفق لنا منه سماع . قرأت في الخريدة لأبي عبد الله الكاتب [الإصبهاني] بخطه للأمير السيد علي بن المرتضى :

صُن حاضر الوقت عن تضييعه ثقةً   أنْ لا بقاء لمخلوقٍ على الدّوم
وهَبْكَ أنك باقٍ بعده أبداً   [فلن يعوّد علينا عين ذا اليوم]

وله أيضاً :

---

(١) اسم جده « هندي » لا أنه من الهنود ، قال مؤلف الغاية المذكور في ص ٩٠ ـ : « وبيت هندي منهم نجم الدين أبو جعفر النقيب الطاهر تولى النقابة بمقابر قرش زمن ابن الجويني ثم رتب كاتب السيب ثم عزل وكان يقيم بالحلة ، وللفقر عليه أثر ظاهر ، يكتب خطاً ويقول شعراً لا بأس بها » .
ومبارك الهندي ورد ذكره في حوادث سنة « ٦٧٤ » من التاريخ الذي سميناه الحوادث الجامعة ، قال مؤلفه ـ ص ٣٨٥ ـ : « وفيها عزل أمين الدين مبارك الهندي الجوهري من نقابة مشهد موسى بن جعفر ـ عليهما السلام ـ وعين في النقابة نجم الدين علي بن الموسوي . ولما كان مبارك المذكور نقيباً قال فيه بعض الشعراء .

رأيت في النوم إمام الهدى   موسى حليف الهم والوجد
يقول ما تنكبني نكبة   إلا من الهند أو السند
تحكم السندي في مهجتي   وحكم الهندي في ولدي
فلعنة الله على من به   تحكم السندي والهندي

(٢) هو جامع السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي وكان في محلة درب السلطنة السلجوقية بالمخرم أي محلة العلوازية الحالية ، وقد ذهب ولم يبق من آثاره وأطلاله شيء ، وكان مدرسة للفقه الحنفي ، وكان مُدرّسه ذا رتبة سامية .

واغـنـم لـنـفـسـك حـظّهـا في البين من قبل الفواتِ (كذا)(١)

قرأت بخط القاضي أبي المحاسن [عمر] القرشي قال : سألته ـ يعني الأمير السيد علي بن المرتضى ـ عن مولده فقال : في ليلة الثلاثاء ثاني عشر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ببغداد بدرب الشاكرية . توفي الأمير السيد علي بن المرتضى في ليلة الجمعة لثاني عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ودفن من الغد بمقابر قريش(٢) .

وقال جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي :

« علي بن المرتضى . . . العلوي الحسني أصبهاني الأصل ، بغدادي المولد والدار ، يعرف بالأمير السيد ، كانت له معرفة بالفقه على مذهب أبي حنيفة . درس بجامع السلطان مدة ، وكان من أعيان الناس وأماثلهم . سمع شيئاً من الحديث . . . سمع منه القاضي عمر القرشي وروى عنه في معجمه . . . سألت الأمير السيد أبا الحسن العلويّ عن مولده فقال : في ليلة الثلاثاء ثاني عشر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ببغداد . قلت : وتوفي ليلة الجمعة ثاني عشر رجب سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ودفن يوم الجمعة بمقابر قريش »(٣) .

وقال كمال الدين بن الفوطي في تلخيص معجم الألقاب : « أبو الحسن علي بن المرتضى بن محمد العلوي الأصفهاني البغدادي ، يعرف بالأمير السيد المدرس بجامع السلطان ، ذكره عماد الدين الكاتب في كتاب الخريدة . وقال : كان والده من أصفهان في خدمة الخاتون جهة المقتفي ، وتفقه ولده هنا على مذهب أبي حنيفة ، ووجد الكرامة الكلية من الخليفة ، وأُهّل للرتب الشريفة ، والمناصب المنيفة ، فلم يَمِلْ إلاّ إلى العلمِ ونشره ، ولم يرغب إلاّ في الفقه المؤذن برفع قدره ، ومن شعره :

صُن حاضر الوقت عن تضييعه ثقةً أنْ لا بقاء لمخلوقٍ على الدّوم
وهبك أنّك باقٍ بعده أبداً فلن يعود إلينا عين ذا اليوم

درس بجامع السلطان مدة ، وتوفي ليلة الجمعة ثاني عشر رجب سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ودفن بمقابر قريش » .

وقال شمس الدين الذهبي في تاريخ الإسلام في وفيات سنة ٥٨٨ : « علي بن مرتضى بن علي بن محمد بن الداعي الشريف الأجل أبو الحسن بن الشريف أبي الحسين المرتضى الحسني الأصبهاني الأصل ، البغدادي ، الفقيه الحنفي المعروف بالأمير السيد . ولد سنة ٥٢١ وتفقه وحدّث . . . ودرس مدة ، وكان من سراة الناس وأعيانهم ، روى عنه عمر بن علي القرشي وغيره . . . » .

وذكره ابن الأثير في وفيات السنة المذكورة من الكامل ، وغير مستبعد أن تكون له تربة مفردة لو ثبتت نسبتها إليه ، لجلالته في العلم والنسب ولأن ابنه هاشم بن علي بن المرتضى المعروف بابن الأمير السيد تصدّر في مناصب الدولة العباسية فولي صدريّة المخزن ـ وهي كوزارة المالية الحالية ـ « سنة ٦٣٤ » من خلافة المستنصر بالله ورتّب صدر البلاد الواسطية ، ولما كان في صدريتها صنف له أبو طالب عبد الرحمن بن عبد السميع الهاشمي كتاب « المنتخب من مناقب الدولة العباسية ومآثر أئمتها المهديّة » .

ولما عزل عن صدرية واسط جعل عارضاً للجيوش العباسية أي مديراً لأمورها ، ثم أنفذ رسولاً إلى الملك الصالح ابن الملك الكامل بمصر ، فتوفي هناك في شهر ربيع الأول سنة ٦٤٠ »(٥) .

وخلاصة القول أن التربة المجاورة لمشهد الإمام موسى بن جعفر ـ عليه السّلام ـ المعزوّة إلى الشريف المرتضى ليست له البتّة وأنها إما تربة السيد إبراهيم المرتضى بن موسى بن جعفر ـ عليه السّلام ـ ، وإما تربة علي بن المرتضى المعروف بالأمير السيد .

دار المرتضى

وأما دار المرتضى بدرب جميل فكانت في محلة الكرخ(٦) ، وكانت محلة الكرخ في غربي محلة الجعيفر الحالية ، وبينها وبين مقابر قريش التي هي الكاظمية الحالية محلة العتيقة ومحلة باب البصرة ومحلة باب محوّل ومحلة دار القزّ ومحلّة العتابين ومحلة الحربيّة ، فضلاً عن مدينة المنصور التي اتصلت بباب البصرة فصارتا محلة واحدة .

وأما داره على نهر الصّراة(٧) فيكون تقديرها فوق أرض المنطقة المعروفة قديماً بالعتيقة وهي سونايا القديمة الزمان ، قال ابن عبد الحق البغدادي في « مراصد الإطلاع على الأمكنة والبقاع » : « سونايا . . . قرية قديمة كانت ببغداد ، ينسب العنب الأسود إليها ، الذي يبكر على سائر العنب مجناه ، ولما عمرت بغداد دخلت في العمارة وصارت محلة من محالها ، وهي « العتيقة » وبها مشهد لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يعرف بمشهد المنطقة » .

فإن كانت الدار على مصب الصّراة ، فهي على دجلة أيضاً من الجانب الآخر الشرقي . قال ابن حزم في نسب « إبراهيم بن موسى الكاظم » : « ومن ولده كان المرتضى والرضى النقيبان ببغداد ، واسم الرضى [محمد] واسم المرتضى منهما على ابنا الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى المذكور ، وكان المرتضى رئيس الإمامية ويقول مع ذلك بالإعتزال ، وكان متكلماً وكانا جميعاً شاعرين . مات المرتضى سنة ٤٣٧ (كذا) وله نيف وسبعون سنة ، وكان يسكن على الصّراة إلى أن هدمت الحنبلية داره في يوم كان لهم فيه الظفر على الشيعة ، فرحل إلى الكرخ . وكان عليّ هذا يُكنى أبا القاسم » .

الشيخ فضل الله نوري

مرت ترجمته في موضعها من (الأعيان) ونعيدها هنا بتفاصيل أوسع :

ومصادرنا فيها : نهضت روحانيون ايران ، ورهبران مشروطة ، وشرح حال رجال ايران .

الشيخ « فضل الله الكجوري »(٨) ابن « الملا عباس الكجوري » . وإذ كان شاعراً واتخذ اسم « نوري » اسماً مستعاراً لشعره فقد اشتهر بهذا الاسم . ولد في الثاني من ذي الحجة سنة ١٢٥٩ .

من كبار العلماء الإيرانيين ، بل أجمع الناس ، حتى خصومه ، على أنه

(١) البين هنا : الوصل ، والفوات : موت الفجأة (الصفار) .
(٢) أصول التاريخ والأدب ، ج ٢٢ ص ٤٩ ، نقلاً من تاريخ ابن النجار .
(٣) أصول التاريخ والأدب ، ج ٢٢ ص ٣٠ ، نقلاً من تاريخ ابن الدبيثي .
(٤) أصول التاريخ والأدب ، ج ٢٧ ص ٢٧ » .
(٥) أصول التاريخ والأدب ، ج ٢٧ ص ١٧٥ » .
(٦) المنتظم لابن الجوزي ، ج ٨ ص ٧٣ ـ ٧٤ » .
(٧) جهة أنساب العرب لابن حزم ، ص ٧٥ ، وقد تصحف فيها الصراة إلى « الفرات » .
(٨) نسبة إلى « كجور » من بلدان إيران .

كان أعلم وأتقى علماء زمانه في إيران . درس المقدمات في إيران ثم سافر إلى العراق فأتم الدراسة العالية على الميرزا « محمد حسن الشيرازي » المرجع الديني الأول . وكان في الطبقة الأولى بين تلاميذه .

ولما عاد إلى إيران أهلته معارفه الواسعة وتبحره في العلم وجمعه لشرائط الإجتهاد وتقواه لبلوغ مكانة عالية من النفوذ والشهرة ، وأصبح من أعظم المراجع في الأمور الشرعية . وظل على هذه المكانة السامية مدة من الزمن إلى أن نسبت إليه أمور أنزلت من مقامه .

ففي سنة ١٣٠٨ (١٨٩٠ م) في عهد « ناصر الدين شاه » أعطت الحكومة الإيرانية اثنين من الروس ، أحدهما اسمه « رافلو فيتش » والآخر « بالياكوف » امتيازاً بإنشاء بنك لهما في إيران . وأراد الروس إقامة بناء للبنك في أرض موقوفة فيها مدرسة خربة ومقبرة دارسة . ولكنهم لم يحصلوا على إذن باستئجارها من أحد ممن راجعوهم بهذا الشأن من المراجع الدينية . إلا أن الشيخ « فضل الله نوري » أذن لهم بإقامة بناء للبنك فيها ، باعتبار التبديل بالأحسن ، وفي مقابل ذلك دفعوا تعويضاً من المال[1] . وقيل إن الشيخ نفسه وبعض حاشيته خصهم أصحاب الإمتياز بشيء من المال لأنفسهم فوق التعويض . فحط ذلك من شأنه .

وأمر آخر هو أنه نسب إليه أنه طلق إحدى بنات « مظفر الدين شاه » من زوجها في غياب الزوج وبدون موافقته .

وتفصيل هذا الأمر هو أن « موقر السلطنة »[2] كان متزوجاً من « شكوه الدولة » بنت « مظفر الدين شاه » السادسة . وكان زوجها هذا مسجوناً . وأراد أبوها ، أو أخوها « محمد علي ميرزا » ولي العهد ، تطليقها منه ، فراجع بهذا الشأن اثنين من المراجع الدينية هما السيد « علي أكبر تفرشي » والسيد « عبد الله البهبهاني » فأجاباه بأن لا بد من إطلاق سراح الزوج وسماع موافقته على الطلاق منه ، وإلا فالطلاق غير ممكن بوجه من الوجوه . فقيل إن البلاط راجع الشيخ « فضل الله نوري » بهذا الشأن فقبل أن يطلقها ، وطلقها من زوجها وهو في السجن بدون الحصول على موافقته . ثم أجبروها على الزواج من السيد « أبو القاسم » إمام الجمعة في طهران ، فعقد لها الشيخ « فضل الله » عليه . وزاد بعضهم أن العقد جرى في جلسة الطلاق نفسها من غير عدة ، فزاد هذا العمل في انحطاط شأنه .

هذا ما نسب إليه . ولكن إذا نظرنا في ملابسات حياة الشيخ « فضل الله » السياسة والإجتماعية ، وهي ملابسات عنيفة عاتية قامت على منعطفات تاريخية حاسمة ، وإذا نظرنا في انعقاد إجماع الناس ، حتى خصومه ، إلى يومنا هذا على تفوقه العلمي وورعه وتقواه وغيرته على الإسلام ، لا نتردد في الجزم ببراءة سيرته من كل شائبة دينية وأخلاقية ، وأن نحكم بأن خصومه رموه بمخالفات شرعية وأشاعوها بين الناس افتراء للحط من شأنه . والإشاعة الكاذبة سلاح قديم بيد المبطلين .

لقد شهر هذا الرجل العظيم حرباً بلا هوادة على خصوم عتاة جبابرة كحرب « الطاشناق » الأرمني والبابيين والماسونيين والاستعمار والهراطقة وغيرهم . فهل يستكثر على مثل هؤلاء الخصوم نسج إشاعة كاذبة عنه ؟!

فيوم هب أحرار إيران يطلبون الخلاص من الحكم الإستبدادي الفردي وإقامة النظام الدستوري النيابي في بلادهم - وكان الشيخ فضل الله نوري من رواده الأوائل - هاله أن رأى أولئك الخصوم يندسون في هذه الحركة المباركة لينحرفوا بها عن غايتها النبيلة إلى غاياتهم الخاصة ، ومن ثم إيقاع إيران في بلاء شر من الحكم الإستبدادي الفردي . فهب ناهياً عن المنكر آمراً بالمعروف يبتغي صيانة الحركة الدستورية النيابية من التخريب والإنحراف . وهب خصومه هؤلاء يبتغون كسر شكوكته وإخماد صوته . وكان من ذلك تشويه سمعته بنشر مثل هذه الإشاعات عنه .

وكيف يرتكب مخالفة شرعية في مثل هذه الأمور من اختار الموت على الحياة إذ كانت نجاته من الموت متوقفة على قبوله الحماية من أعداء دينه أو أعداء بلاده ؟! فقد أرسلت إليه السفارة الروسية في طهران ، ساعة كان ينتظر الجلادين ليقودوه إلى المشنقة ، راية روسية ، واقترحت عليه ، بالإلتماس والإصرار ، أن يلجأ إليها أو أن يرفع الراية الروسية فوق منزله فيصبح في الأمان ، فرفض وقال ما معناه : لا أستظل براية أعداء ديني .

ومهما تكن الحقيقة في قضية الوقف فإن فتوى يفتيها « الشيخ فضل الله نوري » بشأن وقف من الأوقاف لا يمكن أن تكون مخالفة للشرع . هذا مع العلم أيضاً بأن السلطات لم تكن بحاجة إلى فتاوى شرعية للإستيلاء على مدرسة خربة ومقبرة دارسة . ومثل هذه القضية قضية طلاق بنت « مظفر الدين شاه » .

وما أشيع عنه من مخالفات في هاتين القضيتين كان القصد منه الإساءة إلى سمعته بين الناس وإسقاط منزلته فيهم . ويبدو أن مروجي هذه الشائعات قد نجحوا في ذلك .

ونحن حين ننظر بعين الإنصاف إلى هاتين التهمتين ، مضافاً إليهما التهمة الثالثة الفظيعة ، وهي عقد زواج المطلقة قبل انقضاء عدتها ، بل في مجلس الطلاق نفسه ، ندرك حالاً أنها تهم باطلة ، وأن الشيخ النوري في علمه وورعه لا يمكن أن يقدم على ارتكاب أمور محرمة .

والذي يفضح مطلقي التهم هو تهمتهم الثالثة التي تزعم أنه زوج المطلقة قبل انقضاء عدتها ، بل في مجلس الطلاق نفسه . وهو أمر لا يمكن أن يقدم عليه حتى الفاسق المتجاهر بالفسق ، فضلاً عن مجتهد ورع تقي كالشيخ فضل الله . وذلك أن الفاسق المجاهر بالفسق إنما يستحل المحرمات إذا كان له فائدة من استحلالها . فأي فائدة تناله من مثل هذا العمل وهو غير محتاج إلى تعجيل الزواج ، بل يستطيع الإنتظار إلى ما بعد انقضاء العدة وتجنيب نفسه سوء القالة من ارتكاب محرم لا يستطيع له اصطناع تخريج ولا تكلف

(١) في رجب سنة ١٣٢١ هـ ، في عهد « مظفر الدين شاه » ، عزل هذا الشاه الأتابك « علي أصغر خان » (أمين السلطان) من منصب الصدارة العظمى وعين في مكانه « سلطان عبد المجيد ميرزا » الملقب بـ « عين الدولة » ، وهو من الأمراء القاجاريين . وفي عهد هذا الصدر الأعظم هاجم الناس في شهر رمضان بناية هذا البنك وهدموها .

(٢) هو « حبيب الله خان قاجار دولو موقر السلطنة » من موظفي البلاط في عهد « ناصر الدين شاه » وعهد « مظفر الدين شاه » . صهر « مظفر الدين شاه » على ابنته « شكوه الدولة » . كان على صلة سرية بطلاب النظام البرلماني الدمقراطي . وكان هؤلاء يكتبون رسائل يدعون فيها إلى إقامة هذا النظام ويرهبون بها الشاه ورجال البلاط ، وذلك بأن يسلموها إلى « موقر السلطنة » هذا في الخفاء فيلقي بها سراً على سرير نوم « مظفر الدين شاه » أو بمكتبه . واتفق أن رآه الشاه مرة من المرات يفعل ذلك ، فأمر بالقبض عليه ، وضرب حتى أقر على رفاقه فاعتقلوا ونفوا من طهران . وألقي بموقر السلطنة في السجن ، وظل فيه مدة ثم أطلق سراحه . وانتهى أمره إلى أن حكم عليه طلاب النظام البرلماني ، بعد انتصارهم ، بالموت فقتل ، إذ كان متلوناً وصولياً لا يثبت على خطة . وقد انقلب عليهم بعد أن كان معهم طلباً لمنفعته الخاصة .

تأويل ؟! فهل في الدنيا من يصدق أن الشيخ النوري يمكن أن يفعل ذلك ، إذا استثنينا العامة العمياء التي تنعق مع كل ناعق ؟

ثم من تزوج المرأة المطلقة ؟ لقد تزوجها رجل دين يشغل منصباً دينياً رفيعاً هو إمامة الجمعة في طهران ! . .

ونحن على بعد الزمان والمكان نحكم بأن طلاقاً يجريه « الشيخ فضل الله نوري » ويتزوج المطلقة به إمام جمعة طهران السيد « أبو القاسم » هو طلاق وزواج فوق الشبهات .

ثم إنه مهما كان رأينا سيئاً في « مظفر الدين شاه » وفي ابنه « محمد علي ميرزا » فإننا لا يمكن أن نعتقد بأن الأول يقبل بأن تعيش ابنته ولا الثاني بأن تعيش أخته زانية طول حياتها . .

في أوائل حركة المطالبة بالنظام النيابي الدستوري كان الشيخ « فضل الله نوري » رفيق السيد عبد الله البهبهاني[1] في العمل على إقامة هذا النظام في إيران . ولكن سبق أن تخالفا يوم أعطى « ناصر الدين شاه » شركة إنكليزية امتياز حصر التبغ والتنباك في إيران وأفتى الميرزا « حسن الشيرازي » تلك الفتوى الشهيرة بتحريم التدخين وأدت فتواه إلى إلغاء الإمتياز . فقد خالف السيد « عبد الله البهبهاني » فتوى الميرزا الشيرازي وأيد الإمتياز وظل يدخن علناً . فلما سئل عن ذلك أجاب : أنا أيضاً مجتهد ولي رأيي . أما الشيخ « فضل الله نوري » فقد أيد فتوى الميرزا الشيرازي وحرم التدخين وشارك معارضي الإمتياز في المقاومة .

كان الشيخ « فضل الله نوري » أحد ثلاثة من المجتهدين كانوا من كبار القادة لحركة المطالبة بالنظام النيابي في إيران . والآخران هما السيد « عبد الله البهبهاني » والسيد « محمد الطباطبائي » . إلا أن الشيخ « فضل الله » كان أرجح منهما بمراتب في العلم والمعرفة . ويعد من أركان هذا النظام ومؤسسيه . وقد أدى خدمات جليلة في النهضة التي انتهت إلى صدور مرسوم بإقامته في ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٤ هـ في عهد « مظفر الدين شاه » .

ولكن الشيخ « فضل الله » انفصل عن رفيقيه في سنة ١٣٢٥ هـ ، في عهد « محمد علي شاه » ، واعتزلها في ناحية « شاه عبد العظيم » (الري) وانحاز إلى معارضي المجلس النيابي ، وأعد هناك مطبعة وأصدر جريدة واجتمع حوله جماعة كبيرة من الطلاب وغيرهم وأكثرية الخطباء والمنبريين ، وأصبح عائقاً كبيراً في وجه أنصار هذا المجلس .

ويعزو بعضهم هذا الإنشقاق إلى أن الشيخ « فضل الله » حسد صاحبيه على أن نفوذهما فاق نفوذه ، وهو الأعلم والأفضل ، وهما دونه علماً وفضلاً . ويدعي آخرون أنه تناول رشوة من الشاه . ويذكرون أن الحكومة أرسلت ، قبيل تحصنه في « شاه عبد العظيم » قطعة عسكرية إلى هناك ظاهرها المحافظة على الأمن العام وحقيقتها تهيئة محيط آمن له ولجماعته . ويذكرون أنه زور هو واثنان من أعوانه العلماء وثائق تحتوي على عبارات كفرية ومخالفات للشرع الإسلامي ونسبوها إلى لجان أذربيجان والقفقاس الشعبية[2] لتشويه سمعة هذه اللجان ، وزوروا كذلك رسائل على لسان رؤساء البابيين فيها تمجيد وثناء على مشاهير أعضاء المجلس النيابي ليضعوهم في موضع الشبهة بأنهم على صلة بالبابيين .

ويذكرون أن السيد « عبد الله البهبهاني » والسيد « محمد الطباطبائي » بعثا برسالة إلى النجف شكوا فيها الشيخ « فضل الله نوري » إلى المرجع الديني « الآخوند الملا محمد كاظم الخراساني » والمرجعين الآخرين « الآخوند الملا عبد الله المازندراني » و « الميرزا حسين ابن الميرزا خليل الطهراني » ، وكانوا ثلاثتهم من مؤيدي النظام الدستوري النيابي . فجاء الجواب منهم برقية بأن الشيخ فضل الله مفسد يحرم الرجوع إليه .

ولكن هذه التهم والإستنتاجات والتحليلات مردودة كلها . فالشيخ « فضل الله نوري » ظل ثابتاً على رأيه في وجوب قيام النظام النيابي إلى آخر لحظة من حياته . والذي نهض إلى معارضته إنما هو انحراف المجلس عن غايته النبيلة وصيرورته أداة تخريب بيد الإنكليز وعملائهم وأهل البدع والهراطقة والإباحيين . وكان أهم مطالبه هو إضافة بعض المواد إلى القانون الأساسي لحفظ المجلس من الإنحراف . وإذ امتنعت الصحف ـ وكلها كانت مخالفة له ـ عن نشر بياناته ودأبت على تشويه مقاصده ، وأصم المسيطرون على المجلس آذانهم عن سماع نداءاته وأهملوا مطالبه وتعذر عليه إيصال صوته إلى الرأي العام ودفع الإشاعات الكاذبة التي كان ينشرها خصومه عنه ، فقد اضطر إلى التحصن في ناحية « شاه عبد العظيم » قريباً من طهران وإصدار نشرة يجلو بها الحقيقة ويوصل صوته إلى الرأي العام . وهذا بعض التفصيل :

في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٢١ عزل « مظفر الدين شاه » الميرزا « علي أصغر خان أمين السلطان »[3] من منصب الصدر الأعظم رضوخاً منه لإصرار السفارة الإنكليزية على طلب عزله . وفي جمادى الآخرة سنة ١٣٢٢ . نصب « سلطان عبد المجيد ميرزا عين الدولة » ، وهو من الأمراء القاجاريين ، صدراً أعظم في مكانه .

وكان هذا على قدر كبير من الصلف والكبرياء وحب الإستبداد وسوء التدبير . وكان الفساد السابق لا ينفك يتمادى حتى بلغ في عهده غاية بعيدة من شيوع الرشوة والظلم والفقر .

وأبعد « عين الدولة » أنصار سلفه « أمين السلطان » وأصدقاءه الذين كانوا من أصحاب النفوذ في عهده ، ومنهم السيد « عبد الله البهبهاني » ، فقد كان من أقرب المقربين إلى « أمين السلطان » ، وكان يحول إليه الدعاوى المتعلقة بالدولة ليفصل فيها . ولكن « عين الدولة » أهمله وأوقف إرسال الدعاوى إليه ، وأخذ يرد طلباته وتوسطاته بجفاء واحتقار حتى قطعه عن كل نفوذ في شؤون الدولة .

وصرف « عين الدولة » عنايته إلى من كانوا يخالفون « أمين السلطان » . فإذا احتاج إلى مراجعة أحد من رجال الدين في أمر من الأمور رجع إلى الشيخ « فضل الله نوري » إذ كان أعلم من البهبهاني وسبق أن كان مخالفاً لـ « أمين السلطان » . وكان « عين الدولة » يرجع أيضاً إلى عالم آخر هو السيد « علي أكبر تفرشي » أحد كبار رجال الدين .

وهكذا وقعت الخصومة بين السيد « عبد الله البهبهاني » و « عين

(١) مجتهد من تلاميذ الميرزا « حسن الشيرازي » أيضاً . كان من كبار زعماء المطالبين بالنظام النيابي . وأصبح نائباً في أول مجلس نيابي انتخب بعد إقرار هذا النظام .

(٢) في أثناء حركة المطالبة بالنظام الدستوري النيابي وبعد إقامته تألفت في مختلف نواحي إيران لجان باسم « اللجان الشعبية » بعنوان العمل على إقامة هذا النظام والمحافظة عليه .

(٣) راجع ترجمته .

الدولة » . وتمادى هذا في جبروته وطغيانه . وتحرك خصومه بزعامة البهبهاني لمقاومته .

ووقعت حوادث أخرى زادت في نقمة الناس على « عين الدولة » . منها وقوع عراك بين طلاب مدرستين من المدارس الدينية ، كان أصله اختلافاً بين إمام الجمعة والبهبهاني . وجرح في هذا العراك بعض الطلاب فأمر « عين الدولة » باعتقال بعض الطلاب[1] فاعتقلوا ونفوا مصفدين إلى أردبيل . ورد « عين الدولة » شفاعة البهبهاني بهم على نحو مهين . وأحدث هذا العمل استياء عاماً في نفوس الناس . وهكذا أعلن « عين الدولة » بعدائه لرجال الدين . وكانت هذه الحادثة ابتداء تصرفاته التي أثارت عليه الخواطر . واعتصم جماعة من التجار في مقام « عبد العظيم الحسني » (رض) مدة قليلة ، تعبيراً عن استيائهم منه .

وفي شهر شعبان سنة ١٣٢٣ . راجع السيد « عبد الله البهبهاني » فريقاً من العلماء رجال الدين واقترح عليهم التعاون في القيام بحركة معارضة قوية للحكومة . وكان أكثرهم استجابة له « السيد محمد الطباطبائي » ، أحد مجتهدي طهران » ، وكان شديد التحمس في طلب الحرية ورفع الإستبداد . ولكنه نبه السيد البهبهاني إلى أن القضية ليست قضية استبدال أشخاص بأشخاص ، بل يجب أن يكون الطلب أبعد من هذا ، وهو إنشاء « دار العدل » من ممثلين لمختلف الطبقات ، لتقوم بتحقيق الإنصاف ودفع الظلم والإستبداد . وتعاهد الرجلان على هذا الأمر على أن يكون الشعار المطالبة بعزل « عين الدولة » وإنشاء دار العدل . ومن ذلك الحين أعلن البهبهاني والطباطبائي ، ومعهما جماعة كبيرة من العلماء والخطباء بمعارضتهم للسلطة .

وكثر الحديث على المنابر وفي المجالس عن الحرية والعدالة والقانون . وتحرك أنصار « أمين السلطان » كما اغتنمت السفارة الإنكليزية والسفارة العثمانية الفرصة ، يناصرون حركة المعارضة هذه ويؤيدونها بكل ما يقدرون عليه من مناصرة . فأما الإنكليز فلأن نفوذهم الإقتصادي والسياسي في إيران كان قد أخذ في التقلص من أواسط عهد « ناصر الدين شاه » إلى أن تلاشى تقريباً في عهد « مظفر الدين شاه » . وحل محله النفوذ الروسي . فأراد الإنكليز إضعاف الجهاز الحاكم والأسرة القاجارية إذ تمادوا في الإستسلام إلى الروس ، واكتساب مودة زعماء حركة المطالبة بالنظام النيابي ومن ورائهم أكثرية الإيرانيين الغالبة ، ومن ثم توجيه الحكم في إيران بما فيه مصلحتهم . وأما العثمانيون فناصروا الحركة للحط من قدرة الدولة الإيرانية باستهلاك هذه القدرة في المنازعات والإنشقاقات الداخلية فيسهل على العثمانيين الإستيلاء على الأقاليم الحدودية المختلف عليها بين الدولتين . وكان تدخل الإنكليز ومساعدتهم بالقول وبالمال أمراً علنياً صريحاً .

وكان رئيس الجمارك في إيران بلجيكياً اسمه « نوز » استخدم في هذا العمل سنة ١٣١٦ . ومعه معاونون من البلجيكيين . وكان عميلاً للروس ، أفاد اقتصادهم كثيراً في تعيين مقدار التعرفات الجمركية والعمل على تهيئة قروض منهم لإيران في مقابل امتيازات ، وأضر بالإنكليز . وعثر السيد « عبد الله البهبهاني » على صورة لـ « نوز » هذا وأحد معاونيه وهما في لباس رجال الدين الإيرانيين ، وكانا قد ارتديا هذا الزي في حفلة رقص تنكرية . فجعل السيد البهبهاني يعرض هذه الصورة من على المنابر على أنظار الناس فيهيج خواطرهم استنكاراً لإهانة الدين ورجاله بهذا العمل ، ويذكر ما ألحقه « نوز » بالإقتصاد والإيراني من أضرار ، فكان لبياناته أثر كبير في نفوس الناس ، وقامت مظاهرات مضادة لـ « نوز » تطالب بعزله[2] في شهر المحرم سنة ١٣٢٣ .

وأرسل « السيد محمد الطباطبائي » رسائل إلى « مظفر الدين شاه » بين له فيها ما يحل بالناس من ظلم وفقر وانحطاط ، وناشده إنقاذ بلاده من هذا الشر . ولكن « عين الدولة » كان يمنع وصول هذه الرسائل إلى الشاه .

واتفق أن غلا سعر السكر في تلك الأيام وانقطع وروده من روسيا بسبب حربها واليابان واحتكر التجار ما عندهم منه ووقع الناس في ضيق وشكوا أمرهم إلى « علاء الدولة » حاكم طهران . فأمر هذا بجلد ثلاثة من تجار السكر جلداً شديداً وأمر موظفيه بمصادرة ما عند التجار من السكر . فاستغل أيضاً هذا الحادث واستياء التجار منه مخالفو الدولة . وأضرب السوق في اليوم الثاني ، يوم ١٤ شوال سنة ١٣٢٣ . وتقاطر التجار إلى « مسجد الشاه » ، وهو من أكبر مساجد طهران ، وانضم إليهم فريق من العلماء ، وأعلنوا بصوت واحد مطالبتهم بعزل « علاء الدولة » حاكم طهران . ولكن الحكومة ازدادت عتواً وتمسكاً بخطلها . فذهب « السيد عبد الله البهبهاني » وجماعة من العلماء إلى مقام « عبد العظيم الحسني » (رض) القائم في بلدة « الري » بظاهر طهران فتحصنوا فيه ، وصحبهم جمع كبير من الطلاب . وقام التجار بمظاهرات متصلة تأييداً لهم . وأضرب السوق . وما زال عدد المتحصنين يزداد يوماً بعد يوم بمن يلحق بهم . وهناك دأبوا على مهاجمة السلطات الحكومية بخطب نارية وإثارة الخواطر بذكر أعمال « نوز » البلجيكي ومظالم موظفي الدولة . وكانوا يطلبون عزل حاكم طهران « علاء الدولة » وطرد « نوز » وإنشاء « دار العدل »[3] وثبت « عين الدولة » في موقفه لا يهادن ولا ينفك يهدد ويتوعد وأحياناً يعد ويطمّع ، ولكن ذلك لم ينفعه بشيء .

وأرسل إليهم « مظفر الدين شاه » مندوباً عنه يفاوضهم على المصالحة فلم يحصل على نتيجة[4] . وبعد انقضاء شهر على تحصنهم حصلوا من الشاه على جواب إيجابي فعادوا إلى طهران في ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٢٣ . وكانت عودتهم في العربات الملكية الخاصة بالشاه . واجتمعوا بالشاه و « عين الدولة » في أحد القصور الملكية . وزينت طهران لهذه المناسبة . وبادر الشاه إلى عزل « علاء الدولة » من حكومة طهران . ولم يلبث « نوز » أن استقال وعاد إلى بلاده .

---

(١) كان عدد الذين صدر الأمر باعتقالهم ثلاثة عشر طالباً . وقد تشاءم الجنود المأموورون باعتقالهم من هذا الرقم فأضافوا إليهم طالباً آخر بريئاً لا ذنب له ليتخلصوا من الرقم المنحوس .

(٢) لا بد هنا من ذكر ما نبه إليه أحد المؤرخين ، وهو أن « نوز » مضى عليه ست سنوات في هذا المنصب ، إذ تولاه في أوائل صدارة « أمين السلطان » الثالثة . وفي كل هذه المدة كان يضر بالإقتصاد الإيراني وينفع الإقتصاد الروسي ، ومع ذلك لم يحرك أحد ممن ثاروا عليه اليوم ساكناً للإعتراض عليه ! هذا وقد استقال « نوز » من عمله بعد مدة قليلة من هذه الحوادث وعاد إلى بلاده .

(٣) عدالت خانه .

(٤) لما سمع « مظفر الدين شاه » أن ذلك الفريق من رجال الدين يطلب إنشاء « دار العدل » قال : السيد محمد والسيد عبد الله ورفاقهم الروحانيون يطلبون إنشاء دار العدل . ولكن دار العدل إذا أنشئت فسيكون أول أعمالها إلزامهم بيوتهم وإغلاق أبوابها عليهم . .

ولكن الشاه و « عين الدولة » سكتا عن موضوع « دار العدل » ومضت شهور وهما يتجاهلان هذا الموضوع . فبعث العلماء برسالة إلى الشاه يطلبون الوفاء لهم بوعده فلم يجبهم . فبعث « السيد عبد الله البهبهاني » برسالة إلى السفارة الإنكليزية يستنجد بها .

• وفي يوم ١٨ جمادى الأولى سنة ١٤٢٤ تكلم على منبر أحد المساجد خطيب شهير محمود السيرة اسمه « الشيخ محمد سلطان المحققين » فانتقد « عين الدولة » انتقاداً شديداً ، فاعتقل وأوقف في إحدى الثكنات ، فهاجم الطلاب وغيرهم من الأهالي الثكنة ، وأطلق الجند عليهم الرصاص فقتل اثنان من الطلاب أحدهما اسمه « السيد عبد الحميد » والآخر « الشيخ محمد » وجرح آخر اسمه « أديب المجاهدين » . فضجت المدينة بالثورة وأغلقت الأسواق وتقاطر التجار وغيرهم أفواجاً إلى المسجد الجامع . وحضر « السيد محمد الطباطبائي » والسيد « عبد الله البهبهاني » و « الشيخ فضل الله نوري » وغيرهم من العلماء وقرروا التمسك بطلب إنشاء « دار العدل » وعزل « عين الدولة » .

وفي العشرين من جمادى الأولى من تلك السنة كانت طهران مجللة بمظاهر الحداد على الطالبين القتيلين ومواكب العزاء تتوالى طائفة في أنحاء المدينة تلطم الصدور . والعسكر الحكومي منتشر فيها يراقب الأوضاع . ثم تصادم الأهالي والعسكر في عراك شديد قتل وجرح فيه أكثر من مائة وعشرين رجلاً . فعم المدينة غضب عظيم . وقرر « السيد محمد الطباطبائي » و « السيد عبد الله البهبهاني » وغيرهم من كبار العلماء المهاجرة إلى قم فغادروا طهران في ٢٤ جمادى الأولى من تلك السنة . وبعد يومين لحق بهم « الشيخ فضل الله نوري » . وكان لإلتحاقه بهم أثر كبير في تقويتهم وإضعاف موقف الحكومة . وأرسل السيد البهبهاني ساعة سفره رسالة أخرى إلى السفارة الإنكليزية طلب فيها إدامة المساعدة منها لهم . فأرسلت إليه السفارة جواباً إيجابياً مطمئناً . وأمر مشيعيه من الطلاب والتجار بالتحصن في السفارة الإنكليزية . فبتدأوا التحصن يوم ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٤ . مساء ، وهم تسعة نفر . ولكنهم أخذوا يزدادون شيئاً فشيئاً من جميع الطبقات حتى بلغ عدد المتحصنين خمسة آلاف في خلال بضعة أيام ، يطلبون كلهم عزل « عين الدولة » .

وفي أثناء هذه الأحداث كان الإضراب العام والتظاهرات تشمل المدينة يومياً ، مطالبة بعزل الصدر الأعظم . وكان فريق كبير من العلماء قد لحق بالمهاجرين إلى قم من النجف وأصفهان ونواحي أخرى من إيران . فاضطر « عين الدولة » إلى الرضوخ ونشر مرسوماً ملكياً بإنشاء « دار العدل » التي يطالب بها الرأي العام . ولكن المعارضين كانوا قد بلغوا من القوة بحيث تجاوزوا هذا الطلب إلى أبعد منه ، إلى طلب النظم النيابي الدستوري ، فلم يقنعوا بهذا المرسوم واستمروا في المعارضة حتى يحصلوا على طلبهم الأبعد . وكان لتأييد السفارة الإنكليزية لهم أثر كبير في تثبيتهم وإصرارهم . من ذلك برقية أرسلت باسم المتحصنين في السفارة إلى ملك إنكلترا وجاءهم الجواب عليها بتأييد الملك لهم وعطفه على حركتهم وأن السفارة أُمرت بمساندتهم وتشجيعهم .

وكذلك رأى فريق من أصحاب النفوذ ورجال البلاط أن مصلحة الشاه في عزل « عين الملك » . منهم « محمد علي ميرزا » ولي العهد و « كامران ميرزا » أخو الشاه و « حضرت عليا » زوجة الشاه . وأرسل الأول من تبريز برقية إلى أبيه نصحه فيها بالاستجابة لمطالب العلماء . وقال فيها : لا يجوز القضاء على أمة إكراماً لرجل واحد ! وأطلعته زوجته على ما أخفاه عنه « عين الدولة » من وقائع . وأقدم أخوه « كامران ميرزا » ، بدون علم الشاه ، على إرغام « عين الدولة » بالتهديد والخشونة على الإستقالة فاستقال في التاسع من جمادى الآخرة سنة ١٣٢٤ ونصب الشاه « الميرزا نصر الله خان مشير الدولة » صدراً أعظم في مكانه . وأذاع هذا نبأ موافقة الشاه على إنشاء المجلس النيابي . وعاد المهاجرون من قم وخرج المتحصنون من السفارة الإنكليزية . ثم أقيم النظام النيابي واستمر قائماً إلى يوم الثلاثاء ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٢٦ . إذ ألغاه « محمد علي شاه » وضرب المجلس بالمدافع . ثم انتصر طلاب النظام النيابي ودخلوا طهران بالحرب يوم الثلاثاء ٢٤ جمادى الآخرة . سنة ١٣٢٧ . وعادت الحياة النيابية مرة أخرى .

في أثناء هذه الأحداث العامة انفسح المجال للمنظمات الإرهابية والحركات السرية المشبوهة وعملاء الإستعمار الإنكليزي والهراطقة وأهل البدع لاستغلال حركة المطالبة بالنظام النيابي والإنحراف بها عن غايتها إلى غاياتهم . فاندس في أوساط الحركة البابيون والأزليون (فرقة من البابيين) والماسونيون وأنشئت جمعيات سرية تناصر الحركة بعناوين مختلفة . وتطوع فيها مسلحون من حزب « الطاشناق » ، الحزب الأرمني الإرهابي الشهير ، ومسلحون من اليساريين الإرهابيين الروس والقفقاسيين والكرج . وناصرها خانات البختياريين ، لا حباً بالدستور والنظام النيابي فمثل هؤلاء أبعد الناس عن الدمقراطية ومفاهيمها ، بل انسياقاً مع الإرادة الإنكليزية ، إذ كان الإنكليز قد رشوهم بمنحهم أسهماً في شركة النفط الإنكليزية التي حصلت في زمن « مظفر الدين شاه » على امتياز باستنباط النفط في جنوب إيران وغربها ، فجعل البختياريون يغيرون على منشآتها ومعداتها ، وهي قائمة في أرضهم ، يسرقون ويخربون . فرشتهم الشركة بمنحهم أسهماً فيها لتأمن شرهم . ومن ثم انقادوا في طريق الإنكليز . يضاف إلى هذا حقد البختياريين على القاجاريين واعتقادهم أنهم أحق بالملك منهم .

وحسبك دليلاً على انحراف حركة المطالبة بالنظام النيابي هذه أن كان « يفرم »[1] الأرمني من أكبر قادتها وفي رأس الموجهين لها ، ومثله الإرهابي « رستم » ممثل حزب الطاشناق الأرمني أيضاً ، والجاسوس الإنكليزي « بانف »[2] والإرهابي القفقاسي « حيدر عمو أوغلي » .

و « يفرم » الأرمني هذا ظل مدة ثلاث عشرة سنة (من قدومه إلى إيران سنة ١٣١٧ إلى مقتله سنة ١٣٣٠) دائباً على تمكين حزب الطاشناق في إيران وصنع الأسلحة والمتفجرات سراً وتدبير أعمال الإغتيال والقتل والإرهاب .

وفي سنة ١٣٢٧ ، حين بدأت حركة الثورة على « محمد علي شاه » بعد ضربه المجلس النيابي سنة ١٣٢٦ ، قام « يفرم » بأعمال فظيعة من القتل والنهب والسلب والحريق ، بدأها من رشت . وأوقع بأهالي قزوين مذبحة

(١) أحد زعماء حزب الطاشناق . جاء إلى تبريز سنة ١٣١٧ بأمر من حزبه وأقام فيها ، وأسس فروعاً لحزبه في نواحي مختلفة من إيران . قتل في ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٣٠ وهو يقوم بإحدى المجازر التي كان يوقعها بالأبرياء .

(٢) « بانف » بلغاري الأصل روسي الجنسية ، عضو « الحزب الإشتراكي الدمقراطي » الروسي الثوري . وكان أيضاً جاسوساً للإنكليز . كان يقيم في « بطرسبورغ » . فلما بدأت حركة الثورة على « محمد علي شاه » ، بعد ضربه المجلس النيابي ، غادر « بطرسبورغ » مسرعاً إلى « جيلان » ، وشارك « يفرم » في حركات الإرهاب .

عظيمة وأحرق ونهب وخرب شيئاً كثيراً من الدور والأموال فيها . وهو الذي أمر بقتل المجتهد السيد مسعود شيخ الإسلام في قزوين . وبعد استشهاد « الشيخ فضل الله النوري » ببضعة أشهر سار « يفرم » إلى زنجان لإخضاع أنصار الشاه المخلوع ، قائداً لجيش يتألف من خمسمائة فارس من البختياريين ومائتين من عسكر القوزاق ومائتين من الأرمن والقفقاسيين والكرج ، ومعه أيضاً ضابطان المانيان . فلما تغلب على المعارضين أراد أن يقتل عالم زنجان المجتهد « الملا قربان علي » ولكن الحكومة ، وقد أحست بالنقمة العامة التي أحدثها مقتل « الشيخ فضل النوري » ، منعته من قتله وأمرت بإرساله إلى طهران . إلا أن « يفرم » ، مع ذلك ، قتل جماعة من رجال « الملا قربان علي » وقتل معهم بضعة رجال آخرين بتهمة معارضة النظام النيابي .

وبعد خلع « محمد علي شاه » وسيطرة « المجاهدين »[1] على طهران عُين « يفرم » رئيساً لشرطة طهران . فجمع فيها أتباعه ورجاله وتجبر وطغى في التنكيل بمخالفي المجلس النيابي فسجن فريقاً منهم وقتل فريقاً آخر . وأصر على قتل « الشيخ فضل الله نوري » أعلم وأتقى علماء المسلمين الإيرانيين يومئذ . فقتل بحكم محكمة تشكلت من جماعة من المستهترين والإمعات والجبناء ، حكمت عليه بأنه « واجب القتل مفسد في الأرض » ، انصياعاً منها لإصرار « يفرم » .

ولو كان قتل « الشيخ فضل الله » غيرة من رئيس شرطة طهران « يفرم » ورفاقه على النظام النيابي ، لما أطلق سراح الإرهابي المأجور « حيدر عمو أو غلي » بعد أن اعتقل لقتله « السيد عبد الله البهبهاني » ، والبهبهاني لم يكن « واجب القتل » ولا « مفسداً » في الأرض بحسب مقاييس « المجاهد «يفرم» وأعضاء محكمته ، بل كان أبرز شخصية بين مؤيدي النظام النيابي وفي رأس المكافحين لتحقيق هذا النظام ؟! . . وهو ، إلى ذلك ، نائب في المجلس[2] !

وهنا يتضح جانب من حالات التشويش والتشعت في حركة المطالبة بالنظام النيابي ، تلك الحالات التي أدركها « الشيخ فضل الله النوري » واستنكرها ثم بذل حياته من أجل تفاديها . فالبهبهاني ، مع كل أخطائه ، يظهر أنه كان يسعى إلى قيام نظام نيابي صحيح . ومن الأدلة على ذلك قيام حركة مناهضة له من النواب المشبوهين في داخل المجلس . ولكنه بقوة بيانه وحيوية نشاطه وماضيه الحافل كان يقدر غالباً على اكتساب الأكثرية إلى جانبه وإلزام معارضيه حدودهم وصدهم عن غاياتهم التخريبية . فالمؤامرة على البهبهاني لم تبدأ من « حيدر عمو أو غلي » بل بدأت من المجلس نفسه ، وكان « يفرم » شريكاً فيها ، أو ، على الأقل ، عالماً بها . وقد قيل هذا القول صراحة في المظاهرات التي قامت استنكاراً لحادث الإغتيال . ووقعت حوادث انتقام قتل فيها بعض أنصار النائب « السيد حسن تقي زادة » ، وهو المتهم الأول بتدبير المؤامرة . وكان هذا قبل عشرين يوماً من حادث الإغتيال قد طلب من المجلس إجازة بالتغيب ثلاثة أشهر ، وبعد ذلك لم يجرؤ على الظهور

(١) أطلق المسلحون من طلاب النظام النيابي على أنفسهم اسم « المجاهدون » . حتى الأرمن والكرج كانوا يسمونهم ويتسمون بهذا الاسم ، فيقال « المجاهدون الأرامنة » و « المجاهدون الكرج » الخ . . ونحن نستعمل هذا الاسم حكاية .

(٢) السيد عبد الله البهبهاني اغتاله الإرهابي القفقاسي « حيدر عمو أوغلي » وثلاثة آخرون من رفاقه ، في منزله بين صلاة المغرب والعشاء ، يوم الجمعة ٨ رجب سنة ١٣٢٨ واعتقل « حيدر » هذا ولكن « يفرم » سعى في إطلاقه ومنع محاكمته فأخلي سبيله !

واختبأ في منزل أحد أصدقائه بضعة أسابيع ثم سافر إلى تركيا ومنها إلى أوروبا .

إن « حيدر عمو أو غلي » وحاميه « يفرم » الأرمني كانا معدودين من رؤساء « المجاهدين » وقادتهم وأبطالهم . و « السيد حسن تقي زاده » نائب مرموق في المجلس . و « السيد عبد الله البهبهاني » ركن شامخ من أركان الحياة النيابية ، ورائد شجاع من روادها . فما عدا مما بدا حتى تآمر أولئك عليه وقتلوه ؟!

أصبح « يفرم » في رئاسة الشرطة دكتاتور طهران يفعل ما يشاء . وكان من جملة أعماله أنه ألغى بضع إدارات من دوائر الشرطة وأغلق أبوابها وطرد موظفيها منها بالركل والصفع . فعل ذلك من نفسه من غير أن يراجع رؤساءه .

وأمر أحد الوزراء الشرطة بإغلاق بعض مؤسسات العدلية . فأرسل « يفرم » جماعة من رجال الشرطة لإغلاقها . وطلب قضاة المؤسسة إطلاعهم على الأمر الرسمي بالإغلاق . فغضب « يفرم » وعد طلبهم وقاحة وأمر بتوقيفهم وأغلق المؤسسة بالقوة .

وفي أثناء هذه الأعمال وأمثالها كان « يفرم » لا ينفك مهتماً بتشكيلات حزب « الطاشناق » وجلب أعضاء جدد إليه يختارهم من رفاقه المجربين في مجال الإرهاب والطاعة العمياء .

وجاء إلى دائرة الشرطة مفتش من وزارة المالية يوماً ومعه أمر رسمي خطي من الوزير بالتفتيش في حساب صندوق الشرطة . فأخذ « يفرم » ورقة الأمر فمزقها وضرب المفتش وطرده فخرج وقد أصيب بجروح ورضوض في جسمه .

وأخذت صحف ونشرات مختلفة تهين صراحة المقدسات الدينية وتسخر بالإسلام ، وكلها تدعي لنفسها نسباً يتصل بالنظام النيابي والمطالبة بالنظام النيابي .

لم تقتصر الحركة الدستورية النيابية على طلاب الإصلاح والشبان البريئين المتعطشين إلى الحرية والعدالة بل شارك فيها جماعات من المغرضين ومتهني الإرهاب وعملاء الأجانب والماسونيين والبابيين والأزليين . وكان في جملة أغراض البابيين الإنتقام من الأسرة القاجارية لسابقة مقاومتها لهم وانتقام « ناصر الدين شاه » منهم بعد أن حاولوا اغتياله . وكانوا أيضاً يتلهفون متطلعين إلى أن تحقق هذه الحركة ما وعدهم به مؤسس بدعتهم « علي محمد الباب » في كتابه المسمى « البيان » ، وهو كتابهم المقدس . وهو أن أعداء « البيان » سيصيرون إلى الذل وينتصر أتباع الباب ويتحقق سلطان « البيان » قبل انقضاء خمس وستين سنة على ظهور « البيان » (ظهر سنة ١٢٦٣ هـ . ق) .

هذه هي ، بالإجمال ، الملابسات التي جعلت « الشيخ فضل الله نوري » ينفصل في سنة ١٣٢٥ . في عهد « محمد علي شاه » عن رفيقيه « السيد عبد الله البهبهاني » و « السيد محمد الطباطبائي » والإعتزال في ناحية

(٣) بعد مقتل « يفرم » لم يلبث حزب « الطاشناق » أن انحل وتلاشى وأخذ رجال « يفرم » يغادرون إيران شيئاً فشيئاً حتى لم يبق منهم أحد فيها .

« شاه عبد العظيم » (الري) . ولم تكن حركته هذه ارتداداً عن المطالبة بالنظام الدستوري النيابي ، بل خطة تصحيح لهذه الحركة وصيانة لها من الإنحراف بها إلى ما يخالف غايتها النبيلة .

ولم يكن هو وحده من رأى هذا الرأي بل تابعه عليه آخرون من كبار المجتهدين المؤيدين للنظام النيابي العاملين على تحقيقه ، منهم « السيد ريحان الله البروجردي » و « السيد علي آقا اليزدي » من علماء طهران . وتابعه أيضاً عالم شهير آخر عرف بالشجاعة والإقدام ، اسمه « مير هاشم شترباني » من علماء آذربيجان ، وكان من السابقين إلى المطالبة بالنظام النيابي والعمل على إقامته وأصبح نائباً عن تبريز . ولكن هؤلاء الثلاثة وغيرهم من كبار العلماء لم يلبثوا أن تبينوا ما خالط هذه الحركة من انحرافات منكرة فاتخذوا سبيل الشيخ النوري لوقايتها وصيانتها .

بل إن مراجع التقليد الثلاثة في النجف ، وقد كان لهم السهم الأوفى في إقامة النظام الدستوري النيابي في إيران ، وهم « الآخوند الملا محمد كاظم الخراساني » و « الملا عبد الله المازندراني » و « الميرزا حسين الطهراني » ، عادوا فاستدركوا تأييدهم لهذا النظام بالتنبيه إلى ما نبه إليه « الشيخ فضل الله النوري » واستنكار ما استنكره ، وأبدوا تخوفهم من مستقبل النظام النيابي في إيران . ويظهر هذا الأمر جلياً من بيان أرسلوه من النجف إلى إيران ، وهذا نصه :

« إذ أن بعض فرق المملكة الفاسدة اغتنمت الفرصة فأظهرت مقاصدها الفاسدة في لباس دستوري نيابي بدعوى أنها من طلاب النظام الدستوري النيابي ، فنحن نعلن ، توضيحاً للواضح ، أن حقيقة النظام الدستوري النيابي هي عدم تجاوز الحكومة والشعب للقوانين المنطبقة على الأحكام العامة والخاصة المستفادة من الكتاب والأحكام الإلهية ، وتقييد الإرادة الفردية ، والمنع من المنكرات التي بينها الإسلام ، وصيانة حوزة المسلمين ، وإنفاق الضرائب في سبيل مصالح المسلمين » .

وجاء في هذا البيان أيضاً تأكيد بأن « نواب الأمة يجب أن يكونوا ممن عرفتهم الأمة ، بالأختبار الطويل ، بالأمانة والديانة والوثاقة والدراية » .

وفي الرسالة التي أصدرها « الشيخ فضل الله النوري » في هذا الموضوع نبه صراحة إلى ما نبه إليه بيان المراجع الثلاثة من مداخلات أهل البدع الدينية وتحريكات السياسة الأجنبية في شؤون حركة المطالبة بالنظام الدستوري النيابي .

ويتصل بهذا الموضوع أن « السيد محمد الطباطبائي » نفسه لما بلغه ، وهو مهاجر في قم ، نبأ تحصن التجار في السفارة الإنكليزية بأمر من السيد عبد الله البهبهاني ، استنكر هذا التحصن ولم يكن راضياً به .

اعتزل « الشيخ فضل الله نوري » وأنصاره في « شاه عبد العظيم » وأخذ يوزع نشرته ويلقي خطبه ليدفع عن الحركة الدستورية النيابية دسائس عملاء الأجانب والمخربين من أهل البدع والحركات السرية المشبوهة ويوضح [illegible]ه ومقاصده ما طمسه هؤلاء الخصوم . وهذا نص أحد البيانات التي صدرت في نشرته منقولاً عن كتاب « تاريخ مشروطه » تأليف « أحمد كسروي »[1] ، وهو من أشد خصوم الشيخ « فضل الله نوري » عداوة له :

باسمه تعالى شأنه

« ليكن معلوماً ظاهراً عند عموم أهل الإسلام أن لا أحد اليوم يرفض المجلس النيابي ، لا من المجتهدين ولا من غيرهم من سائر الطبقات . وما يقوله ويكتبه وينشره أرباب الحسد وأصحاب الغرض من أن جناب حجة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ فضل الله سلمه الله تعالى يرفض المجلس النيابي هو كذب . كذب . وقد كرر الجهر والإعلان بمراده من على المنبر في أيام إقامته هذه في الزاوية المقدسة ، وأخرج القرآن وأقسم بالأيمان الغلاظ الشداد . وقال :

« أيها الناس لست أرفض المجلس النيابي بوجه من الوجوه . بل أرى أن سعيي في تأسيس هذا الأساس قد فاق سعي الجميع . فقد كان علماؤنا الكبار الذين يجاورون العتبات العاليات والمقيمون في ممالك أخرى بمعزل عنا . ثم انضموا إلينا كلهم بما أقمته لهم من الدلائل والبراهين . ويمكنكم التحقق من هذا الأمر بسؤال أولئك السادة العظام أنفسهم . والآن لا أزال ذلك الرجل الذي كنته قبلاً . لم أغير ولم أبدل .

« أقولها صريحاً : ألا فاسمعوا وليبلغ الحاضر الغائب ، أن المجلس النيابي الذي أريده هو المجلس الذي يريده عموم المسلمين . والمسلمون يريدون مجلساً أساسه الإسلام ، لا يخالف القرآن ولا الشريعة المحمدية » .

وهذا مقطع من أحد بياناته في تلك النشرة منقولاً أيضاً عن كتاب عدوه اللدود « أحمد كسروي » :

« لا رضي الله تعالى عن امرىء أراد بالمجلس النيابي شيئاً غير التصحيح والتكميل والتنقيح . ولينزل السخط والغضب الإلهي بكل من أذاع مرادي على غير واقعه ، فدلس على المسلمين وضللهم ، وسد علينا من كل الجهات الطريق إلى رفع الشبهة ، ليحول دون إيصال كلامنا إلى أسماع المسلمين ، وليحمل الناس على التصديق بأني وسائر المهاجرين قد رفضنا أصل المجلس النيابي » .

والذي رمى الشيخ « فضل الله نوري » بالرجعية والإرتداد عن تأييد الحياة النيابية الدستورية إنما هو المستشرق الإنكليزي « إدوار براون »[2] مؤلف كتاب « ثورة إيران » . وقد ظل الشيخ « فضل الله نوري » في خطبه وتصريحاته وبياناته التي كان ينشرها في جريدته ، دائباً على الجهر بتأييده للحياة النيابية الدستورية والإفتخار والتذكير بأنه كان من أوائل المنادين بها العاملين على إقامتها . وقد ذكر « أحمد كسروي » في كتابه نصوص تلك الخطب والتصريحات والبيانات .

وأما قضية تزوير الرسائل على ألسنة أعضاء اللجان الشعبية والبابيين

---

(١) من مشاهير الشخصيات الفكرية والسياسية في إيران ومن مؤرخي تلك الحقبة ، كان شديد

التعصب لقوميته ، حرباً على الإسلام ورجال الدين المسلمين ولا سيما الشيخ « فضل الله نوري » .

وكان (كسروي) قبل ردته يوقع ما يكتبه باسم (سيد أحمد تبريزي) . وقد نشر بهذا التوقيع عدة مقالات باللغة العربية في مجلة (العرفان) وهي مجلة إسلامية كانت تصدر في صيدا (لبنان) . ثم انقلب من (تبريزي) إلى (كسروي) ومن سيد مسلم إلى ملحد هدام .

وكانت ردته هذه من عوامل دفع نواب صفوي إلى تكوين حركة (فدائيان اسلام) التي عزم مؤسسها (نواب صفوي) على اغتياله ، ثم نفذ هذا العزم .

(٢) أنشأ « إدوار براون » هذا في لندن « جمعية أصدقاء إيران » وكان رئيساً لها . وكان لهذه الجمعية نشاط سياسي واسع في تحقيق مآرب إنكلترا الإستعمارية في إيران .

فقد انفرد بـذكرهـا أيضاً « إدوار بـراون » في كتابـه « ثورة إيـران » . والشيخ « فضل الله » في عزة نفسه وشموخه وشجاعته وعرفانه وسمو مكانتـه أجل من أن يتـذرع إلى غايـة بمثل هـذه الـوسيلة التي لا يتـذرع بهـا غـير الـدسـاسـين العاجزين الجبناء .

وانفـرد « براون » أيضـاً بالقـول إن الشيخ « فضـل الله » انفصـل عن السيد « عبد الله البهبهاني » والسيد « محمد الطباطبائي » حسداً منه لهما . وهو قول مردود بقول « براون » نفسه . فهو يعترف بأن الشيخ النوري كـان أعلى منهـما مرتبـة وأسمى مكـانـة ، وسـابقتـه في الكفـاح من أجـل إقـامـة الحيـاة الدستورية النيابية لا تقصر عن سابقتهما . فإن يكن للحسـد حساب في هـذه القضية فالعكس هو الأقرب إلى الإحتمال . ولو كانت تطلعات الشيخ « فضل الله » إلى مغانم دنيويـة وغايـات وصوليـة انتهازيـة لما دانـاه أحد في الـوصول إليها .

لا شك في أن ما ذكره « براون » كان شائعاً على ألسن الناس . بل لعل ما ذكره « براون » إنما أخذه من ألسن الناس بدليل نقله في كتابه شيئاً من هذا القبيل عن إحدى الصحف المحليـة ، وبدليـل أن البيانـات التي كان الشيـخ « فضل الله » يصدرها في نشرته لا ينفك يتذمر فيها من نشر خصومه إشاعات كاذبة عنه بين الناس . ولكن ما ذكره « أحمد كسروي » عـدو الشيخ « فضـل الله » اللدود في كتابه « تاريخ مشروطه » من وقائـع تلك الأيام يثبت ، بمـا لا يدع مجالاً لشك ، أن نضال الشيخ « فضل الله » إنما كان يتوخى غايـة واحدة هي تنزيه المجلس النيابي من الإنحراف وصيانة الإسلام من شر أعدائه .

وأمـا الفتوى بـأن الشيخ « فضـل الله » مفسد يحـرم الرجـوع إليه التي نسبوها إلى مراجع الدين النجفيين فـالعكس هو الصحيـح . فقد كـان هؤلاء المراجع يطلبون ما يطلبـه الشيخ « فضـل الله » من صيانـة المجلس النيابي من الإنحراف . وقد ذكرنا آنفاً بيانهم الذي أرسلوه من النجف إلى إيران في هـذا المـوضوع . وقـد أرسلوا أيضاً بـرقية إلى المجلس ذكـروا فيها مـطلبهم هذا ، واختاروا الشيخ « فضل الله » نفسه واسطة لإيصالها إلى المجلس . وذلك قبل مهاجرته إلى « شاه عبد العظيم » . وقد استهلوها بهذه العبارة :

« من النجف الأشرف ـ بواسطة جناب حجة الإسـلام نوري ، دامت بركاته ـ المجلس النيابي المحترم شيد الله أركانه » .

وأرسـل الشيخ « فضـل الله » هذه الـبرقية إلى رئيس المجلس . ولكنـه أهملها ولم يعتن بها . وعلى أثر ذلـك اضطر الشيـخ « فضل الله » إلى التحصن في « شاه عبد العظيم » . وهذه الواقعة ذكرها أيضـاً « أحمد كسروي » خصم الشيخ النوري اللدود في كتابه . وذكر معها نص البرقية .

ولو صح أن المـراجع النجفيـين أرسلوا برقيـة حكموا فيهـا بأن الشيـخ « فضل الله » مفسد يحرم الرجوع إليه لما أغفل ذكرها قضـاته الـذين حاكمـوه وحكموا عليه بالموت . ولكانت أقوى سلاح بيدهم عليـه . فلماذا أغفلوها ولم يأتوا لها على ذكر ؟! .

وكانت أمثال هذه الإفتراءات تسبب لهذا الرجل الطاهر ألماً شديداً تجلى في صرخة أطلقها في بيان من بياناته التي كان يطبعها في نشرته ، وذكرها عدوه اللدود « أحمد كسروي » في كتابـه . قـال مخـاطبـاً خصـومـه مؤنبـاً لهم عـلى زورهم :

« يا أتباع الهوى والهوس لماذا تحرفـون صوت العلماء ، صـوت الحق ، وتلقونه إلى العوام باطلاً ؟! وتدخلون بـين الناس السـذج كالشيـاطين ؟! ولا تنفكون تخفون برقيات سادات النجف وحجج إسلامها أو تغيرونها وتطبعـونها مزورة ؟! » الخ .

وفي هذه الكلمة تصريح واضح بـالشكوى من افـتراء خصومـه عليه ، وتصريح بأن تلك البرقية التي نسبوها إلى علماء النجف وفيها فتوى بأنه مفسـد يحرم الرجوع إليه هي برقية مزورة .

أقـام « الشيـخ فضـل الله نـوري » وأتبـاعـه معتصمـين في « شـاه عبد العظيم » بضعة أشهر . فلما قتل رئيس الوزراء الأتابك « علي أصغر خان أمين السلطان » في ٢١ رجب سنة ١٣٢٥ . عنـد باب المجلس النيـابي ، عاد « الشيخ فضل الله » فوراً إلى منزله في طهران ، وكذلك عاد أتباعـه ، إذ كان لمقتـل الأتـابـك تـأثـير سلبي في معـارضي المجلس النيـابي خفف كثيـراً من اندفاعهم في المعـارضة ، فقـد كان الأتـابك متهـماً عند مؤيـدي المجلس بأنـه معارض له ، حتى أن أهله لم يجرؤوا على إقامة فاتحة عامة لـه ، على حـين قام فريق من طلاب بعض المـدارس وفريق من أعضـاء اللجان الشعبيـة بإظهـار التعظيم والتقدير لقاتله ونشروا الزهور على قبره . وشاع أن الأتابـك كان يمـد الشيـخ « فضـل الله » بـالمـال الـلازم لنفقـاتـه حـين كـان معتصـماً في « شـاه عبد العظيم » .

في الحقبـة التي انفصـل فيهـا الشيـخ « فضـل الله نـوري » عن أنصـار المجلس النيابي كان وضـع المجلس نفسه ومـا يلابسـه من حركـات المعارضـة للنظام النيابي وحركات التأييد له قد بلغت حـداً بعيداً من البلبلة والتشعب ، مـا بـين تنـافس كبـار النـواب عـلى الإستئثـار بـالسلطة ، ودسـائس الأمـراء وتنـافسهم على العـرش ، وغفلة العامـة وتخلفهم الفكـري ، ومن انـدس في أوساط هذا الصراع العنيف الدامي من أهل البدع الدينية كالبابيين والأزليـين والحركات السرية الأجنبية كالماسونيين وأصحـاب الغايـات الشخصيـة . كـل أولئك قد استغل موضوع النظام النيابي لإنفاذ مآربه الخاصة . وكان فريق من المفكرين يرى ، مخلصاً ، أن النظام النيابي ثمرة اقتطفت قبل نضجهـا ، وأنه أقيم في إيران قبل أوانه وقبل تهيئة مقدماته ، وأن قلة ضئيلة من النواب كانت عـلى درايـة بمقتضيـات هـذا النـظام ، وعلم بمجـرى الـوقـائـع من السيـاسـة العالمية . وأكثريتهم لا تفقه من ذلك شيئاً .

وفوق هذا كانت دسائس الإنكليز والروس والعثمانيين تزيد الفتنـة شدة وامتداداً . ومن ثم انحرف المجلس القائم كلياً عن غايته الأصلية .

كانت المنافسة القديمة بين الإنكليز والروس على النفوذ في إيـران يومئـذ على أشدها . وكان هـوى الشاه « محمـد علي قـاجار » وهـوى الأتابـك رئيس الوزارة « علي أصغر خان » مع الروس . وكان الإنكليز يؤيدون أنصار النظام النيـابي ، والروس يؤيـدون معـارضيـه . وكـان الشـاه غـير راض عن سلوك المجلس النيابي أما رئيس وزرائه فكان يداري موضوع هذا النـظام بتحركـات دبلوماسية بين مؤيدي المجلس ومعارضه لعله يجد مخرجاً من هذه الأزمـة يوفق بـين الطرفـين[1] . ولكنه كـان متهماً ، منـذ القديم ، عنـد مؤيـدي المجلس

(١) أنهت إنكلترا وروسيا ما بينهما من خلاف عـلى إيـران بمعاهـدة وقعتـاهـا في ٣١ آب سنـة ١٩٠٧ م الموافق ٢١ رجب سنة ١٣٢٥ هـ وتقاسمتا فيهـا إيران ، لكـل منهما قسم تستقـل

النيابي بأنه معارض له ، حتى أنه يوم استدعاه « محمد علي شاه » من أوروبا ليتولى رئاسة الوزارة ، ووصل في الخامس من ربيع الأول سنة ١٣٢٥ إلى مرفأ « أنزلي » الإيراني الواقع على بحر الخزر ، أراد مجاهدو « أنزلي » المجاهدون المؤيدون للنظام النيابي ، منعه من النزول إلى أرض إيران لولا أنه عاهدهم على المحافظة على هذا النظام .

وفي قلب تلك البلبلة والتداخل والتشعب بين مختلف الغايات والإتجاهات أنشئت جمعيات سرية بتدبير من الماسونيين وغيرهم وأبدى البابيون نشاطاً فائقاً في تأييد المجلس وتشكلت لجان ، بعناوين ظاهرية مختلفة ، في طول البلاد وعرضها .

وكان « الشيخ فضل الله نوري » يخشى عاقبة تدخل الإنكليز في قضية النظام النيابي ويعلم أن وراء مناصرتهم لهذا النظام غاية أخرى لهم غير إقامة الحياة النيابية في إيران . ويخشى كذلك من أن نفوذ أهل البدع آخذ في التزايد عن طريق استغلالهم لهذا النظام . ومن ثم كان يهاجم الإنكليز ويقول : الإسلام دين الشورى والمساواة . فما حاجتنا إلى الإنكليز يصنعون لنا النظام الشوروي وعندنا الآية الكريمة ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ ! وطرح شعار « المجلس النيابي الشرعي » مطلباً له لمعارضة أهل البدع والجمعيات السرية المشبوهة .

وهذا الموقف لم يكن موقف « الشيخ فضل الله نوري » وحده ـ كما ذكرنا ذلك من قبل ـ بل وقفه أيضاً جماعة أخرى غيره من العلماء والمجتهدين كانوا من أشد أنصار النظام النيابي ومن السباقين إلى العمل من أجل إقامته ، ودعوا إلى مقاومة الإستبداد الملكي . ولكنهم لما رأوا ما آل إليه أمر المجلس من انحراف واتجاهات غير سليمة عادوا يتحفظون ويدعون إلى الإستقامة . منهم « السيد ريحان الله البروجردي » و « السيد علي آقا اليزدي » من علماء طهران . ومنهم العالم الروحاني التبريزي الشجاع « مير هاشم شتر باني » أحد رواد النظام النيابي ونائب تبريز وعضو لجنتها الشعبية . فإنه لما رأى تدخل الأجانب في شؤون الحركة النيابية الدستورية ونشاط أهل البدع في استغلالها اتخذ الطريق « الشيخ فضل الله » في المعارضة ، وانفصل عن لجنة تبريز والجمعيات المرتبطة بها وأنشأ لجنة تعارضها باسم « اللجنة الإسلامية » . وآل أمره إلى أن حكمت عليه محكمة « يفرم » الأرمني بعد اقتحام الثوار طهران بالموت ، فقتل في الثاني من رجب سنة ١٣٢٧ أي قبل قتل « الشيخ فضل الله نوري » بأحد عشر يوماً .

ومنهم عالم قزوين « السيد مسعود شيخ الإسلام » فقد حدث أن مر « يفرم » الأرمني بقزوين في طريقه إلى مدينة رشت . فخرج المطالبون بالدستور من أهالي قزوين لاستقباله وهم يهتفون « زنده باد حامي اسلام يفرم خان أرمني » أي « عاش حامي الإسلام يفرم خان الأرمني » . فعارض « السيد مسعود شيخ الإسلام » مثل هذه الهتافات ، وقال : كيف يمكن للأرمن[1] أن يكونوا حماة الإسلام ! واشتد النزاع فكان أن انشق « السيد مسعود » عن الدستوريين .

وفي ربيع الثاني من سنة ١٣٢٧ . زحف الثوار من نواحي مختلفة من إيران لاقتحام العاصمة طهران والقبض على « محمد علي شاه » . وزحف الثوار من رشت ، بقيادة « يفرم » ، وهم من الأرمن والكرج والقفقاسيين والبختياريين ، وبدأوا بقزوين ففتحوها بالحرب ، وأوقعوا بها القتل والحريق والهدم والنهب بلا حساب . واعتقلوا « السيد مسعود شيخ الإسلام » فأمر « يفرم » بقتله فقتل قتلة يصفها المؤرخ « إبراهيم صفائي » بأنها كانت من أفظع وأقسى أشكال القتل .

بل إن « محمد علي شاه » نفسه ، وقد كان لتدخله أثر أساسي في حمل أبيه على إقالة الصدر الأعظم « عين الدولة » عدو الدمقراطية والنظام النيابي الأكبر ، والتمهيد لإقامة الحياة النيابية ـ إن « محمد علي شاه » نفسه لم يعارض المجلس النيابي ، وكل ما كان يريده من المجلس هو جمع السلاح من أيدي (الميليشيات) وحصر حمله بقوى الأمن الشرعية . وهذا هو أصل الخلاف بينه وبين المجلس ، إذ رفض المجلس طلبه لهيمنة النواب المشبوهين عليه . بل بلغ الأمر برجال (الميليشيات) ، وعلى قيادتهم الزعيم الطاشناقي الأرمني « يفرم » والجاسوس البلغاري الروسي « بانف » وأمثالهما من أعضاء الطاشناق والكرجيين والقفقاسيين والبختياريين ، أن أبلغوا المجلس النيابي أنهم لا يبالون بما يتخذه هذا المجلس بشأنهم من قرارات ، وسيستمرون في حمل السلاح شاء أم أبى !

وأما موقف « الشيخ فضل الله نوري » من الروس فيتبين من عمله حين انتصر الثوار في سنة ١٣٢٧ ، واقتحموا طهران وأصبح الحكم عليه بالموت أمراً محققاً . فقد اقترح عليه الروس يومئذ أن يرفع العلم الروسي على بيته أو يلجأ إلى سفارتهم فيصبح في حمايتهم آمناً من كل سوء ، فرفض ، وعد ذلك جبناً وعاراً عليه . ولو أنه فعل لنجا من الموت . ولكنه فضل الموت وتقبله بكل شجاعة على أن ينجو منه بيد أعداء بلاده .

حقاً لقد أيده « محمد علي شاه » والأتابك ، بل أيده الروس أيضاً ، في معارضته للمجلس النيابي ، ولكنه طرح شعار « المجلس الإسلامي » و « البرلمانية الشرعية » بدافع واحد هو عقيدته الإسلامية لا غير .

وفي الخامس من ذي القعدة سنة ١٣٢٥ . تظاهرت في ساحة « الطوبخانة » في طهران جماعة من القوزاق والجنود مع جماعة من الأهالي ، وانضم إليهم فريق من الأوباش والمشاغبين ، يعلنون بمعارضتهم لأنصار المجلس النيابي . وكان يقود المتظاهرين جماعة من رجال البلاط . وكان مظهرهم ينذر بالشر . وصدرت عنهم حركات وهتافات منكرة . وقتلوا شاباً من أنصار النظام النيابي ضرباً بالسيوف والحراب والسكاكين وكل ما وصلت إليه أيديهم .

وفي الثامن من ذي القعدة ذهبوا إلى منزل الشيخ « فضل الله نوري » وأحرجوه بالإلتماس والرجاء والتشديد حتى جاؤوا به إلى ساحة « الطوبخانة » . وخطب هناك جماعة من رجال الدين فهاجموا البابيين وحذروا

بالنفو: عا ، ں غير تنافس بينهما . ومن عجب أن توقيع هذه المعاهدة حدث في نفس اليوم الذي اغتيل فيه الأتابك « علي أصغر خان » رئيس الوزارة الإيرانية صديق روسيا . .
وفي يوم الثلاثاء ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٢٦ هـ وافق « محمد علي شاه » على ضرب المجلس النيابي بالقنابل وتعطيل الحياة النيابية وقام بهذا العمل بتحريض من السفارتين الإنكليزية والروسية كلتيهما وإصرار وزير الحربية « أمير بهادر » أحد رجال حاشيته والروسي « لياخوف » آمر فرقة « القوزاق » الإيرانية ، بعد أن رفض متطرفو المجلس النيابي تجريد الملشيات الأهلية من السلاح ووقف أعمال الإرهاب .

(١) في إيران جالية أرمنية كبيرة يعود تاريخ نزوحها إلى إيران إلى عهد الشاه عباس الكبير (٩٩٦ ـ ١٠٣٨ هـ) .

من انـدساسهم في أوسـاط الحـركـة النيـابيـة . وخـطب الشيـخ « فضـل الله نوري » ، ودار خطابه على موضوع « المجلس النيـابي الشرعي » ، فزاد هـذا الخطاب في حقد خصومه عليه .

وفي التاسع من ذي القعدة سارت جماعات هـذه المظاهـرة إلى المجلس النيابي ، وأطلقوا عليه الرصاص وقاموا بحوادث شغب . وبعد بضعة أسابيع أبعد رؤساء هذه المظاهـرات إلى « كلات » بـأمر من المجلس النيـابي وموافقـة « محمد علي شاه » .

وتفاقمت أعمال الإرهاب والشغب من كلا الطرفين ، أنصـار المجلس النيـابي ومعـارضيـه ، واشتـد انقسـام النـواب حتى اتهم « عـلا مـير احتشـام السلطنة » ، وهو رئيس المجلس النيابي ، بعض النواب بالخيانة والإرتشاء . وطلبت « اللجان الشعبية » من المجلس إصدار قانون يسمح للجـان بتشكيل جيش لها ، فإن لم يفعل أقدمت عـلى تشكيله بلا إذن منـه . وثارت خصـومة عنيفة بين النواب المؤيدين لطلب اللجان والنواب المخالفين .

وظلت البلاد تتخبط في قلب هذه الفتن ، وعجز المصلحون عن إيجاد مخرج منها حتى أقـدم « محمد عـلي شاه » عـلى ضرب المجلس بالمـدافع في ٢٣ جمـادى الأولى سنـة ١٣٢٦ ، فـانهزم أنصـار المجلس وتفـرقـوا وتـواروا عن الأنظار ، واستقر الحكم في يـد الشاه ورجـاله ، وأصبـح الشيـخ « فضـل الله نوري » الرجل الأول تقريباً في المملكة .

ولكن أنصار المجلس النيابي ثاروا في نواحي مختلفة من إيران واستـولوا على الحكم في بعض المدن منها ، ثم كروا عـلى طهران العـاصمة ففتحـوها في ٢٤ جمادى الثانيـة سنة ١٣٢٧ وخلعـوا « محمد عـلي شاه » عن العـرش . ثم عينوا هيأة إدارية من اثني عشر رجلاً من العسكـريين والمـدنيين والـروحانيـين تتـولى الحكم في غيـاب المجلس النيـابي . وعينت هـذه الهيئـة محكمـة بـاسم « المحكمة الثورية العليا » مؤلفة من عشرة .

واعتقلوا جمـاعـة من معـارضي المجلس النيـابي وأعـوان الشـاه ، فحـاكمـوهم وحكمـوا عليهم بـالمـوت وقتلوهم . أمـا الشيـخ « فضـل الله نوري » ، وهو المعارض الأكبر ، فقد سبق أن أشير عليه باللجـوء إلى إحدى السفارات الأجنبية . وألحت عليه السفارة الروسية خاصة أن يلجأ إليها فيقيم فيها عزيزاً مكرماً مصاناً ، فأبى أن يفعـل وظل مقيماً في منزلـه . فبعثت إليه المحكمة الثورية بضعة رجـال من المليشيات فـاعتقلوه وجاؤوا بـه إلى ساحـة « الطوبخانة » ، حيث أوقف في أحد المنازل . ثم قدم إلى المحاكمة فحكمت عليـه المحكمة ، بـإجمـاع الآراء ، بـالمـوت شنقـاً . وأيـدت الهيئـة الإداريـة حكمهـا . فشنق في ١٣ رجب سنة ١٣٢٧ في سـاحة « الـطوبخـانـة » وهو في التاسعة والستين من عمره .

وحين محاكمته قال : « يا ترى أيقوم هؤلاء ـ يعني قضاتـه ـ يوم القيـامة بجـوابي إذا سألتهم ؟ لا أنـا كنت رجعياً ولا السيـد عبد الله والسيـد محمد[1] كانا من أنصار النظام النيابي . وكل ما في الأمر أنهما يـريدان إذلالي وتنحيتي . والقضية بيني وبينهم ليست قضية رجعية وأصول نيابية دستورية » . ثم أشـار إلى الجلادين غير هياب ولا وجل قائلاً « إلى عملكم ! » .

وظل معلقاً مدة عشر دقائق فقط . ثم أنزلت جثته فسلمت إلى ذويه .

فيكـون عـدد من قتلهم « يفـرم » الأرمني الـطاشنـاقي من كبـار علماء المسلمـين المجتهدين أربعـة هم : السيد مسعـود شيخ الإسلام والسيـد مـير هاشم شتربانى والشيخ فضل الله النوري والسيـد عبد الله البهبهـاني . وكلهم من رواد الـنظام النيـابي الـدستـوري ومؤسسيـه في إيـران . قتلهم بمـا هـو « حامي » النظام النيابي الدستوري ! . .

ويقول مؤرخ إيراني عن إعدام النوري :

« لقد كان قتل هذا العالم الجليل المجتهد الجامع للشرائط الشجاع خطأً كبيراً » .

ولكننا نقول : لقد كان قتله جريمة كبرى .

إن الأيـام أعادت للشيـخ فضل الله الـنوري اعتباره ، ونـزهه التـاريخ الصحيح عن كل ما ألصق به من افتراءات ، واسمه اليوم يتصدر شـارعاً من أكبر شوارع طهران .

وكـان مما رثي بـه من الشعر العـربي الذي نـظمه فقهـاء إيرانيـون قول السيد أحمد الرضوي من قصيدة :

لا زال مـن فـضـل الآلـه وجـوده ... جـوديـفـيض عـلى ثـراك هـمـولا
روّى عـظامـك وابـل مـن سيبـه ... يـعـتـاد لحـدك بـكـرة وأصيـلا
آمـنـت اذ حـادوا بـرب محـمـد ... وصـبرت في ذات الآلـه جمـيـلا
أمسكت بـالـدين القـويم ولم يمـل ... بـك زيـغـة كـالمـارقـين محيـلا
كـالمشرفي مجـرداً مـن غـمـده ... يهـتز في أيـدي الكـماة صقـيـلا
هـل يـنفـع الـبر الـتقي بيـانـه ... في معشر نـطقـوا السفـاهـة قيـلا

وقال الشيخ محمد علي الأوردبادي من قصيدة :

خسرنـا مـنـه مشهـور المـواضي ... يـرف عـليـه مـنـشـور الـلـواء
أبـا (الهـادي) بكـاك الـدين شجـواً ... بمـأسـاة تجـل عـن الـبـكـاء
بـيـوم بـه شـاهـت وجـوه ... ووجهـك فيـه مؤتـلق الـبهـاء
وحيـا العـارض الـوسمي قبـراً ... يـقـل محط عـلم الأنـبـيـاء
وعـاهـده بـ (فضـل الله) سحـاً ... عـهـاد مـنـه ممدود الـرخـاء

كما رثاه شعـراً بالفـارسية كـل من الشيخ أسـد الله حكيم قمشه اي ، وميرزا الطف علي صدر الأفاضل ، وميرزا حبيب الله نير .

---

(١) يقصد رفيقيه القـديمين السيـد عبد الله البهبهـاني والسيد محمـد الطبـاطبائي . وقـد أصبحا كلاهما نائبين في المجلس الأول والثاني . فأما البهبهاني فبلغ من السيطرة والنفوذ شـأواً بعيداً حتى أصبح يسمى « الشاه عبـد الله » و « الشاه الأسـود» إذ كان أسمـ شـ يـد الـ ـمرة . وانتهى أمره إلى أن اغتالـه الإرهـابي القفقـاس « حيـدر عمـو أوغ ' وثلاثـة من رفـاقـه الإرهابيين في منزله ، مـدفوعـين من منافسيـه على النفـوذ من النواب وشـاركهم في المؤامرة « يفرم » ، ثم أطلق سراحه ومنـع محاكمتـه بعد أن اعتقـل . وكان « يفـرم » يومئـذ رئيساً لشرطة طهران . وأما الطباطبائي فقد ندم في أواخر عمره على ما كان منه من مناصرة للنظام النيابي الدستوري ، إذ جاءت النتيجة مخيبة لآماله . فكان يقول « سكبناه خلاً فصار خمراً » ويقول : لم نفعل شيئاً سوى أننا استبدلنا استبداداً باستبداد ! .

•ويجـدر بالـذكر أن البهبهـاني والطبـاطبائي كـانـا في المنفى يـوم حـوكم « الشيـخ فضـل الله النوري » وقتل . سبق أن نفـاهما « محمـد علي شـاه » بعد ضربـه المجلس بالمـدافع وإلغـائه النظام النيابي .

مؤلفاته

١ ـ تذكرة العاقل وارشاد الجاهل . ٢ ـ تقريرات درس السيد الشيرازي . ٣ ـ الدعوة الإسلامية ، وهي الجريدة التي أصدرها عند تحصنه في مقام عبد العظيم (رض) . ٤ ـ ديوان شعره بالعربية والفارسية ، وكان يتخلص في شعره بـ (نوري) ومنه اكتسب لقبه . ٥ ـ الصحيفة المهدوية . ٦ ـ رسالة عملية بالفارسية .

حركة المشروطة

وبما أن سيرة المترجم تدور حول أحداث الحركة الدستورية التي عرفت في تركيا باسم (مشروطيت) ، وفي إيران باسم (مشروطة) فإننا ننشر فيما يلي بحثاً عن تلك الحركة وامتداد آثارها من إيران إلى العراق . وهذا البحث مكتوب بقلم الدكتور علي الوردي :

المشروطة هي حركة المطالبة بالدستور التي ظهرت في تركيا وإيران ، وهي إنما سميت بهذا الإسم لأن القائمين بها اعتبروا مواد الدستور بمثابة « الشروط » التي يجب أن يتقيد بها الملك في حكم رعيته ، وهذه فكرة مستمدة من نظرية « العقد الإجتماعي » التي شاعت في أوروبا بعد قيام الثورة الفرنسية ومنها جاءت إلى تركيا وإيران .

إن المشروطية ظهرت في تركيا قبل ظهورها في إيران بما يزيد على ثلاثين سنة ، ويعود سبب ذلك إلى قرب تركيا من أوروبا وشدة تأثرها بالحضارة الأوروبية . يجب أن لا ننسى أن الصراع بين القديم والجديد بدأ في تركيا منذ منتصف القرن الثامن عشر ، أما في إيران فقد بدأ هذا الصراع منذ منتصف القرن التاسع عشر وذلك من جراء دخول بعض المخترعات والنظم الحديثة إلى إيران على عهد الشاه ناصر الدين .

المعروف عن الشاه ناصر الدين أنه كان معجباً بالحضارة الأوروبية ميالاً للتعرف عليها ومشاهدتها عياناً ، وقد سافر إلى أوروبا ثلاث مرات فقوبل فيها بحفاوة بالغة ، غير أنه كان يخشى تأثير الأفكار الأوروبية على رعاياه ويكره أن تنتشر بينهم فكرة المشروطية على منوال ما انتشرت في تركيا . وقد صرح ذات مرة : أنه يود أن يكون محاطاً بحاشية من الأغبياء لا يعرفون عن بروكسل هل هي مدينة أم نوع من الخس .

يمكن القول أن ناصر الدين كانت له يد كبرى في إدخال معالم الحضارة الحديثة إلى إيران ، وكان في الوقت نفسه شديداً تجاه كل من يتحدث عن القانون أو الدستور أو أية فكرة تحررية أخرى . وبعبارة أخرى أنه كان كمن يقدم الطعام اللذيذ للجائع ويمنعه من تناوله ، وقد أحدث في المجتمع الإيراني من جراء ذلك نوعاً من التوتر ، وبقي هذا التوتر كامناً يتحفز للظهور عند أول فرصة تتاح له . فلما مات ناصر الدين وتبوأ العرش من بعده ابنه الضعيف مظفر الدين ، انطلق التوتر الكامن وكأنه كان مستعداً للإنطلاق .

بدايات النظم الحديثة

لا بد لنا لكي نفهم جذور المشروطية في إيران أن ندرس كيف بدأت النظم والمخترعات الحديثة في الدخول إلى إيران في عهد الشاه ناصر الدين . والواقع أن ذلك جرى تدريجاً خطوة وراء خطوة على النمط التالي .

أولاً : في عام ١٨٥١ أسست في طهران كلية حديثة باسم « دار الفنون » ، وكان الغرض من تأسيسها تخريج موظفين أكفاء للدولة ودبلوماسيين . وجيء بأساتذة من أوروبا للتدريس فيها ، وقد ألف هؤلاء عدة كتب في العلوم التي كانوا يقومون بتدريسها ، فكانت تلك الكتب بذرة النهضة الفكرية الحديثة في إيران . وفي عام ١٨٥٨ أرسلت الحكومة الإيرانية اثنين وأربعين من متخرجي « دار الفنون » إلى أوروبا لإكمال دراستهم .

ثانياً : في عام ١٨٥٨ بدأ نصب أول خط للتلغراف في إيران ، ثم أخذت الخطوط التلغرافية تنمو مع الزمن ، حتى وصل عدد المحطات التلغرافية في إيران عام ١٨٨٤ إلى أربعة عشر ، وكانت هذه المحطات تدار من قبل فنيين بريطانيين يسكنون في دور بالقرب منها ، وقد جلب بعض هؤلاء الفنيين زوجاتهم معهم أو تزوجوا من فتيات أرمنيات ، وكان معهم أطباؤهم . وبذا كانت المحطات التلغرافية بمثابة مراكز اشعاع للقيم الحضارية في الكثير من أنحاء إيران القاصية .

ثالثاً : لم تظهر في عهد الشاه ناصر الدين سوى صحف أسبوعية تسيطر عليها الحكومة ، ولكن بعض الإيرانيين استطاعوا أن يصدروا صحفاً معارضة في خارج البلاد ويرسلوها إلى إيران بشتى الوسائل . وكان أهم تلك الصحف : صحيفة « اختر » التي كانت تصدر في اسطنبول ، وصحيفة « حبل المتين » في كلكتا ، وصحيفة « ثريا » في القاهرة ، وصحيفة « القانون » التي كان يصدرها المرزا ملكم خان في لندن . وكان لهذه الصحف تأثير بالغ في الشعب الإيراني ، وكثيراً ما كانت تهرب إلى إيران ضمن بالات البضائع المتسوردة ، وقد اتخذت الحكومة اجراءات شديدة لمنع تسللها إلى إيران فكان ذلك سبباً في ازدياد تهافت الناس عليها سراً .

عوامل مساعدة

عندما قتل الشاه ناصر الدين في عام ١٨٩٦ تبوأ العرش مكانه ابنه مظفر الدين ، وكان هذا الشاه الجديد على النقيض من أبيه متهافت الشخصية لا يخلو من غباء وفطارة ، وكان بالإضافة إلى ذلك عليل البدن ، ولم يكد يتولى الحكم حتى حفت به جموع من المتزلفين الذين كانوا يطمحون أن ينالوا في عهده الثروات بكل وسيلة تقع في أيديهم .

كان الشاه مظفر الدين مولعاً كأبيه بالسفر إلى البلاد الأوروبية غير أن الخزينة كانت في أيامه فارغة فاضطر إلى الإلتجاء إلى القروض الأجنبية ، وقد انتهزت روسيا الفرصة فصارت تمده بالقروض وتحصل منه على بعض المنافع والإمتيازات الكمركية مما أدى إلى انتشار التلمر بين التجار وأهل « البازار » أي الحرفيين وأصحاب الدكاكين .

كان أهل « البازار » ـ وما زالوا ـ يؤلفون في إيران طبقة ذات أهمية غير قليلة في الحياة الإجتماعية والسياسية إذ أن لهم رؤساءهم وتقاليدهم النقابية التي تسمى « قواعد الصنف » ، وإذا قرروا إغلاق دكاكينهم احتجاجاً على أمر من الأمور كان ذلك بمثابة نوع من الإضراب العام وأصابوا الحياة الإقتصادية بالشلل . أضف إلى ذلك ما كان لأهل « البازار » من تأثير في رجال الدين وصلة معاشية بهم ، فإذا اشتكوا من شيء فسرعان ما تسري شكواهم إلى رجال الدين .

ومما زاد في الطين بلة أن الشاه مظفر الدين كان قد ترك شؤون الدولة بيد صهره الأمير « عين الدولة » وكان هذا جاهلاً صلفاً ومكروهاً من قبل

الشعب الإيراني فكانت أعماله التعسفية من عوامل زيادة التذمر بين أهل « البازار » .

وفي عام ١٩٠٥ حدثت ثورة في روسيا ضد القيصر وقمعت بشدة ، فهرب بعض زعمائها القفقاسيين إلى إيران حيث أنشأوا الصحف وأخذوا يوجهون الشعب الإيراني نحو الأفكار الديمقراطية الحرة فكان ذلك عاملاً آخر في نشر التذمر بين الناس تجاه كل عمل تقوم به الحكومة ولو كان حسناً .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن التنافس بين روسيا وبريطانيا كان في تلك الآونة شديداً ، وكان الكل من هاتين الدولتين دعاة وعملاء يسعون لها بين أفراد الشعب الإيراني . ولا ننسى كيف اغتنمت روسيا قضية « التنباك » لكي تثير الإيرانيين على بريطانيا ، فكان ذلك سبباً في انهيار النفوذ البريطاني في إيران وارتفاع النفوذ الروسي . والظاهر أن البريطانيين أرادوا الإنتقام من الروس فأخذوا يشجعون حركة المشروطية في إيران نكاية بهم ـ حسب المثل القائل : « دقة بدقة » .

بداية الحركة

بدأت حركة المشروطية في إيران من جراء حادثة بسيطة حدثت في عام ١٩٠٥ ، وخلاصتها : أن نفراً من أهل « البازار » خالفوا بعض الأوامر الحكومية فأمرت الحكومة بشد أقدامهم في « الفلقة » وجلدهم بالسياط ، وكانت تلك عادة متبعة تقع بين حين وآخر في عهد الشاه السابق دون أن يعيرها الناس اهتماماً كبيراً ، أما الآن فقد أهتم الناس لها ، وتجمع عدد كبير منهم بينهم جماعة من رجال الدين فذهبوا إلى مسجد الشاه القريب من سوق « البازار » الكبير بغية « الإلتجاء » فيه .

إن « الإلتجاء » من التقاليد التي اعتاد الإيرانيون عليها منذ العهد الصفوي ، وهم يسمونه « البست » ، ومعناه أن يذهب الناس إلى أماكن معينة كالمساجد أو الأضرحة أو بيوت المجتهدين أو السفارات الأجنبية أو الاسطبالات الملكية أو ميادين المدفعية أو محطات التلغراف ، وهناك لا تستطيع الحكومة أن تلقي القبض عليهم .

استطاع الإمام في مسجد الشاه أن يطرد الملتجئين إليه بإيعاز من الحكومة وبمعونة جماعة من أعوانه ، فخرج الملتجئون من المسجد وهم أكثر حماسة من قبل ، وانضم إليهم أناس آخرون ، وتوجهوا إلى بلدة « الشاه عبد العظيم » على بعد بضعة أميال من طهران فالتجأوا إلى المرقد المقدس الموجود فيها ، وهناك أعلنوا أنهم لا يخرجون من مكانهم إلا بعد إجابة مطاليبهم ، وكان من بين مطاليبهم عزل « عين الدولة » من منصبه وتأسيس دار للعدالة أطلقوا عليها اسم « عدالة خانه » .

أخذ عدد الملتجئين في بلدة « الشاه عبد العظيم » يتكاثر يوماً بعد يوم ، وكأن الناس وجدوا في ذلك فرصة لشفاء غليلهم من الحكومة ، وصار الوعاظ والروضخونية ـ أي قراء التعزية ـ يصعدون المنابر ليندووا بالحكومة ويشجبوا أعمالها . ومما زاد في أهمية هذا « الإلتجاء » أن اثنين من أكبر علماء طهران كانا من بين الملتجئين وهما : السيد محمد الطباطبائي والسيد عبد الله البهبهاني ، كما كان بينهم الواعظ المشهور آغا سيد جمال الدين .

أرسل الشاه إليهم رسوله الخاص ليسترضيهم ، فقابلوا الرسول بجفاء وأرجعوه خائباً . واضطر الشاه أخيراً أن يرسل إليهم كتاباً مسجلاً بخط يده يتعهد لهم فيه بإجابة مطاليبهم . وعند هذا وافقوا على العودة إلى طهران ، وقد جهزهم الشاه بعربات ملكية فركب كبراؤهم فيها ، واستقبلتهم الجماهير في طهران استقبال الفاتحين . ولا حاجة بنا إلى القول بأن مكانة الطباطبائي والبهبهاني قد ارتفعت ارتفاعاً هائلاً في نظر الجماهير يومذاك .

تفاقم الحركة

يبدو أن الشاه لم يستطع تحقيق وعده حيث أخذ على يده صهره « عين الدولة » . وفي منتصف أيار ١٩٠٦ أصيب الشاه بالشلل فانتهز « عين الدولة » الفرصة ليضرب ضربته ، فقد أصدر أمره بإلقاء القبض على السيد محمد الطباطبائي ، وحين جاء الجنود للقبض على هذا المجتهد الكبير تجمع الناس لتخليصه من أيديهم ، فوقع من جراء ذلك اصطدام بين الجنود والأهالي سقط فيه واحد من الأهالي قتيلاً . وشاء القدر أن يكون هذا القتيل من طلبة العلم وسيداً من ذرية الرسول . ولما جرى تشييع السيد القتيل وقع اصطدام آخر سقط فيه خمسة عشر قتيلاً .

توتر الوضع في طهران إلى الدرجة القصوى . وغادر طهران كثير من المجتهدين حيث ذهبوا إلى بلدة قم المقدسة للإلتجاء فيها ، ثم أصدروا بياناً هددوا الشاه فيه أنهم سيغادرون إيران جميعاً إلى العراق ما لم يف بوعده لهم في تحقيق المطاليب الشعبية . وأغلق أهل « البازار » دكاكينهم تأييداً للمجتهدين ، فأصدرت الحكومة أمراً بنهب كل دكان يغلقه صاحبه .

وهنا حدث حادث له مغزاه العميق ، فقد ذهب فريق من أهل « البازار » إلى المفوضية البريطانية ينشدون معونتها ، وحين وجدوا منها تشجيعاً التجأوا إليها فخيموا في حديقتها الواسعة الواقعة في ضاحية قولهك ، وهناك أخذ عددهم يزداد يوماً بعد يوم ، وأعلنوا أنهم لن يرجعوا إلى فتح دكاكينهم حتى تجاب مطاليب المجتهدين .

يقول السيد هبة الدين الشهرستاني في مذكراته التي سجل فيها بعض أحداث المشروطية : أن التجاء التجار إلى المفوضية البريطانية أحدث فيهم تطوراً فكرياً ووعياً سياسياً جديداً ، فهم كانوا قبلئذ يطالبون بتأسيس مجلس الـ « عدالت خانة » ولكن زوجة المفوض البريطاني أخذت تفهمهم بأن طلبهم هذا لا قيمة له وأن هدفهم يجب أن يكون أوسع من ذلك وأهم وهو الحرية والمساواة والشورى . وقد كانت تلك السيدة مثقفة فاستطاعت أن تحدث فيهم التأثير المطلوب . . .[1]

مهما يكن الحال فإن التجاء أهل « البازار » إلى المفوضية البريطانية كان حدثاً مثيراً تحدثت عنه صحف العالم وأخذت تفسره تفسيرات شتى ، ونشرت جريدة التايمس اللندنية في عددها الصادر في ١٤ أيلول من عام ١٩٠٦ وصفاً للحادثة أرسله إليها مراسلها في طهران نذكر فيما يلي نبذة منه : (أن الإلتجاء إلى المفوضية بدأ في شهر تموز وأخذ عدد الملتجئين يتضخم بسرعة حتى بلغ في شهر آب اثني عشر ألفاً وأصبحت الأسواق كلها مغلقة ، وكانت حديقة المفوضية مليئة بالخيام وهي مزدحمة بشتى الفئات ، تجاراً وعلماء وحرفيين وغيرهم ، وأخذوا يضبطون أنفسهم ضبطاً دقيقاً فلم ينتج عنهم على الرغم

(١) شعراء الغري ج ١٠ ص ٨٥ .

من كثرة عددهم شيء كثير من الأذى ، وكانت مطابخهم وتحضير طعامهم في غاية النظام ، وكان منظرهم في الليل رائعاً حيث كان لكل خيمة روضخون خاص بها ، فيجتمع سكان الخيمة حوله ليستمعوا إلى قصة المقتل حيث يبكون على طريقتهم العجيبة ويضربون رؤوسهم من شدة الحزن . . .) .

اضطر الشاه أخيراً إلى الرضوخ لإرادة الشعب ، فعزل « عين الدولة » من منصبه ونصب في مكانه رجلاً من أنصار المشروطية هو نصر الله خان ، ثم أصدر أمره بإجراء الإنتخابات للمجلس النيابي الذي سمي بـ « المجلس الشوروي الملي » .

التجاء في كربلاء

لم يمض على حادثة التجاء أهل « البازار » في طهران إلى المفوضية البريطانية سوى مدة قصيرة حتى جرت في كربلاء حادثة مماثلة خلاصتها : أن الحكومة المحلية في كربلا فرضت على الإيرانيين الساكنين فيها ضرائب خاصة ، فأعلن الإيرانيون احتجاجهم على تلك الضرائب وتذمرهم منها ، وكان يشجعهم على هذا الإحتجاج والتذمر محمد حسن خان القندهاري الذي كان يتولى وظيفة نائب القنصل البريطاني في كربلا . فكان هذا الرجل يغريهم ويمنيهم . وقد وثقوا بوعوده فتجمعوا قريباً من دار القنصلية البريطانية الواقعة في محلة « الخيمكاه » وهم في حالة « الإلتجاء » على الطريقة الإيرانية ، ففرشوا البسط في الشارع وعلقوا خياماً على الجدران ليستظلوا بها من وهج الشمس ، واستمروا على ذلك أكثر من خمسين يوماً يأكلون وينامون في مكانهم لا يتحولون عنه حتى سدوا الطريق على المارة .

كان المتصرف في كربلاء يومذاك رشيد الزهاوي ، وقد حاول اقناعهم بالتفرق دون جدوى ثم وسط بعض رجال الدين في ذلك فلم يأبهوا لهم . وقد بعث المرزا حسين الخليلي والسيد كاظم اليزدي إليهم من النجف رسلاً ينصحونهم فلم يستمع أحد منهم للنصح ، واضطر المتصرف أخيراً أن يرسل إليهم مدير الشرطة لينذرهم فقابلوا المدير بالإستهزاء وكأنهم كانوا واثقين أن الحكومة في العراق كحكومة إيران لا تستطيع أن تنتهك حرمة « الإلتجاء » ، أو لعلهم ظنوا أن بريطانيا العظمى كلها تقف إلى جانبهم .

وجهت الحكومة إليهم ثلاثة إنذارات متعاقبة كان الأول منها لمدة أسبوع ، والثاني لمدة أربع وعشرين ساعة ، والثالث لمدة ست ساعات . وقد حلت نهاية الإنذار الثالث من منتصف ليلة القدر من شهر رمضان ١٣٢٤ هـ ـ الموافق ١٠ تشرين الثاني ١٩٠٦ ـ فأحاط الجنود بالملتجئين ووجهوا عليهم رصاص بنادقهم من كل ناحية . إن الملتجئين لم يكونوا يتصورون أن الأمر سيصل إلى هذا الحد ، وقال قائل منهم : « لا تخافوا أنه ليس رصاصاً حقيقياً » ، غير أنهم صاروا يتساقطون صرعى على الأرض ، فأسرعوا يستغيثون بالقنصلية يدقون بابها لتسمح لهم بالدخول فلم يجدوا منها غوثاً . وعند هذا أطلقوا سيقانهم للريح بعد أن سقط منهم سبعون قتيلاً وعدد كبير من الجرحى .

استطاع السيد علي الشهرستاني من علماء كربلا أن يذهب إلى بغداد وأن يتصل بالقنصل الإيراني ليخبره بما جرى ، وأبرق القنصل بتفاصيل الواقعة إلى طهران واسطنبول . ثم وصل إلى كربلا خبراء أرسلهم القنصل البريطاني من بغداد للتحقيق في الأمر ، فشهدوا محل الواقعة وأثر الرصاص في جدران القنصلية . وكان من نتيجة ذلك أن عزلت الحكومة العثمانية والي بغداد مجيد بك وعينت في مكانه أبو بكر حازم .

ان السؤال الذي يواجهنا هنا : هل كان هناك ارتباط سببي بين واقعة كربلا وأحداث المشروطية في طهران ؟ وهل أن محمد حسن خان حرض الإيرانيين على « الإلتجاء » من تلقاء نفسه أم هو فعل ذلك بإيعاز من الحكومة البريطانية ؟ إن في هذا سراً لا نعرفه ، وربما كشفت عنه الوثائق فيما بعد .

صياغة الدستور الإيراني

افتتح المجلس الملي في طهران في ٧ تشرين الأول من عام ١٩٠٦ ، وقد حضر الشاه مظفر الدين حفلة الإحتفال على الرغم من مرضه ، وكان أول عمل اهتم به المجلس الملي هو تأليف لجنة لصياغة مواد الدستور ، وقد تمت صياغة الدستور وصادق عليه الشاه في شهر كانون الثاني من عام ١٩٠٧ ، ثم مات الشاه بعد ذلك بأيام معدودة .

كان الدستور الإيراني في كثير من نصوصه عبارة عن ترجمة حرفية للدستور البلجيكي الصادر في عام ١٨٣٠ ، فهو يقوم على أساس المبادىء الديمقراطية التي كانت شائعة في أوروبا من حيث الإعتقاد بالقانون الطبيعي وحقوق الإنسان ، ولكن لجنة صياغة الدستور حرصت على أن يكون موافقاً للشريعة الإسلامية لا يخالفها في شيء . نجد هذا واضحاً في المادتين الأولى والثانية منه . وفيما يلي نصهما المترجم :

المادة الأولى : الدين الرسمي للدولة هو المذهب الجعفري الاثني عشري الحق من الإسلام ، ويجب على الشاه أن يقر بهذا المذهب ويحميه .

المادة الثانية : إن المجلس ، الذي تم تشكيله ببركة أمام العصر عجل الله فرجه ، وتفضل جلالة الشاه ، وسعي العلماء كثر الله أمثالهم ، والأمة الإيرانية ، لا يجوز له أبداً أن يسن أي قانون مناقض لشرائع الإسلام المقدسة . . . ومن الواضح أن العلماء هم الذين يقررون ذلك . ولهذا فالواجب رسمياً في كل دورة من دورات المجلس أن تكون فيه لجنة مؤلفة من خمسة أشخاص هم من المجتهدين والفقهاء الورعين ، والعارفين أيضاً لحاجات العصر ومقتضياته . . . وعلى المجلس أن يعتبر هؤلاء أعضاء فيه . ووظيفتهم هي أن يدرسوا جميع اللوائح التشريعية فإذا وجدوا فيها ما يخالف الشرائع الإسلامية المقدسة رفضوه . وأن قراراتهم في هذا الصدد واجبة التنفيذ ونهائية . وان هذا الشرط من الدستور لا يمكن تغييره إلى حين ظهور إمام العصر عجل الله فرجه .

الشاه محمد علي

بعد موت الشاه مظفر الدين تولى الحكم ابنه محمد علي ، وكان هذا طاغية سيء السيرة ، وأخذ منذ بداية حكمه يكيد للمجلس النيابي والحركة الدستورية ، ولهذا تميز عهده القصير بالصراع العنيف بين أنصار « الإستبداد » وأنصار « المشروطية » .

ومما زاد في شدة الصراع عقد المعاهدة الروسية البريطانية في ٣١ آب ١٩٠٧ . ففي هذه المعاهدة اقتسمت الدولتان النفوذ في إيران حيث حصلت روسيا على القسم الشمالي منها بينما حصلت بريطانيا على القسم الجنوبي ، فكان ذلك بمثابة ضربة قاسية على أنصار المشروطية إذ أصبحت طهران

ومناطق إيران الشمالية تحت النفوذ الروسي مما شجع الشاه محمد علي على التمادي في نزعته الإستبدادية ، وصار حراً يعمل ما يشاء دون أن يخشى من تدخل بريطانيا في دعم أنصار المشروطية .

كان الشاه محمد علي يحيط به مستشارون روس ، وهو يتأثر بآرائهم تأثراً كبيراً ولا سيما برأي رجل منهم يهودي اسمه شبشال . يقول المؤرخ لنشوفسكي : أن الروس كانوا يعتقدون بأن حركة المشروطية هي من تدبير بريطانيا ويعتبرونها مهددة لسطوتهم ونفوذهم في إيران ، فاستغلوا تقربهم من بريطانيا في عام ١٩٠٧ وشجعوا الشاه محمد علي على تعطيل الدستور .

صار الشاه محمد علي على أي حال يبذل الأموال ويحشد الأنصار في سبيل القضاء على حركة المشروطية في بلاده ، وكان الشعار الذي رفعه في ذلك هو أن الدستور بدعة مخالفة للشريعة الإسلامية . أما أنصار المشروطية فكان يتزعمهم السيد محمد الطباطبائي والسيد عبد الله البهبهاني . وبهذا انقسم الشعب الإيراني إلى حزبين متطاحنين ، وصار كل حزب منهم يكفر الحزب الآخر ويدعو إلى محاربته .

تألفت في طهران وأكثر المدن الإيرانية نواد أو مجالس محلية تشبه تلك التي ظهرت في فرنسا إبان ثورتها الكبرى ، وقد أطلق عليها اسم « الانجمن » . فكانت هذه النوادي تجمع التبرعات وتحشد الأنصار وتدربهم على السلاح بغية الدفاع عن المشروطية . وكثيراً ما شوهد رجال الدين بعمائمهم وهم يتدربون على استعمال البنادق معتقدين أنهم يقومون بواجب الجهاد في سبيل الله .

وبعد صراع عنيف بين الشاه والمجلس النيابي استطاع الشاه في حزيران ١٩٠٨ أن يوجه للمشروطية ضربة قاصمة ، فأعلن الأحكام العرفية ووجه جنود « القوزاق » بقيادة لياخوف الروسي لتطويق المجلس ، ثم أمر بإطلاق المدافع عليه . وأنتشر الرعب في طهران ، وأخذ أنصار المشروطية يلوذون بالفرار ، فاستطاع بعضهم أن يلتجىء إلى المفوضية البريطانية وينجو بنفسه بينما وقع البعض الآخر في قبضة القوات الحكومية . وقد شُنق من المقبوض عليهم اثنان أحدهما المرزا جهانكير خان صاحب جريدة « صور إسرافيل » الثورية ، والثاني هو المرزا نصر الله الأصفهاني الذي كان من أشد وعاظ المشروطية تأثيراً في الجماهير حتى كان يُلقب بـ « ملك المتكلمين » وهو الذي لا يزال تمثاله قائماً في أحد شوارع طهران .

وبعد أن انتصر الشاه في طهران أبرق إلى ولاته في أنحاء إيران يأمرهم بإلغاء المشروطية وتشتيت شمل أنصارها وسد نواديهم . وأخذ الولاة ينتقمون من أنصار المشروطية ، فكانوا يجلدون من يقع في أيديهم منهم أو يبعدونه أو يحبسونه . . .

لم يهنأ الشاه بانتصاره طويلاً ، فقد هبت الثورات عليه في بعض المدن ، وكان أهم هذه الثورات تلك التي نشبت في تبريز إذ استطاع أنصار المشروطية فيها أن ينظموا أنفسهم تنظيماً جيداً وتمكنوا من السيطرة على المدينة فترة غير قصيرة من الزمن ، وقد شجعت هذه الثورة أهل رشت لأن يقوموا بثورة مماثلة ، وتحركت القوات الرشتية نحو مدينة قزوين فاحتلتها ثم توجهت نحو طهران . وجاءت الضربة القاصمة أخيراً على يد الحاج علي قلي خان رئيس قبائل البختيارية في منطقة أصفهان وهو المعروف بلقب « السردار أسعد » ، فقد حشد هذا الرجل قوات مقاتلة بلغ عدد أفرادها الفين ومعها عدة مدافع . وفي حزيران من عام ١٩٠٩ توجه السردار أسعد بقواته نحو طهران ، والتقى على مقربة منها بالقوات القادمة من رشت ، وفي ١٢ تموز دخل طهران فاتحاً . وعند هذا أدرك الشاه حراجة موقفه فالتجأ إلى المفوضية الروسية طلباً للسلامة ، وأعلن الثوار عزله عن الملك وتتويج ابنه أحمد الذي كان في الثانية عشرة من عمره .

الشقاق في العراق

إن هذه الأحداث الصاخبة التي حدثت في إيران لا يمكن أن تمر دون أن يكون لها صداها في المجتمع العراقي . والواقع أن الرسائل والإستفتاءات أخذت تنهال من إيران على كبار المجتهدين في النجف تسألهم عن المشروطية هل هي حلال أم حرام . وكان جواب المجتهدين في أول الأمر أن المشروطية موافقة للشريعة الإسلامية ، غير أنهم انقسموا بعدئذ على منوال ما انقسم علماء إيران ، فأدى ذلك إلى ظهور الجدال والتنازع في أوساط العامة مما كان له أثره البالغ في المجتمع العراقي وتطور وعيه السياسي .

من أوائل الرسائل التي وردت إلى علماء النجف تستفتيهم في أمر المشروطية كانت هذه الرسالة نقلها بعد ترجمتها إلى العربية :

« إلى حضرات المجتهدين وحفظة الحكمة الإلهية ـ لا بد وانكم سمعتم بمجلس الشورى الشعبي وأنتم تعرفون جيداً أن هذا المجلس الذي يعمل على حفظ القوانين المستمدة من الطريقة الإثني عشرية المقدسة لمحو الظالمين والخائنين ونشر العدل على جميع البلاد وإعلاء شأن الراية الإيرانية ، ويؤسفنا أن عدداً من الانانيين المفسدين أخذوا ينشرون الإفتراءات والأكاذيب من أجل محو المجلس . فنحن ننتظر فتواكم في بيان تكليف المسلمين في هذا الشأن » .

وعلى أثر وصول هذا الإستفتاء إلى النجف اجتمع كبار علمائها للجواب عليه ، وكانت فتواهم التي اتفقوا عليها هي كما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ، ولعنة الله على القوم الظالمين إلى يوم القيامة . أما بعد فبالتأييدات الإلهية والمراحم السماوية وتحت توجيهات الهادي العالي الشأن حضرة صاحب الزمان روحنا فداه : إن قوانين المجلس المذكور على الشكل الذي ذكرتموه هي قوانين مقدسة ومحترمة وهي فرض على جميع المسلمين أن يقبلوا هذه القوانين وينفذوها . وعليه نكرر قولنا : إن الإقدام على مقاومة المجلس العالي بمنزلة الإقدام على مقاومة أحكام الدين الحنيف ، فواجب المسلمين أن يقفوا دون أي حركة ضد المجلس(١) .

وقد وقع على هذه الفتوى الملا كاظم الخراساني بالنيابة عن زملائه المجتهدين ، ولم يشذ عنهم في ذلك سوى مجتهد واحد هو السيد كاظم اليزدي إذ امتنع عن التوقيع . وكان امتناع هذا المجتهد بداية الإنقسام بين المجتهدين ، ثم أخذ الانقسام يشتد ويستفحل بمرور الأيام .

انقسم أهل النجف إلى فريقين متعادين : أحدهما يدعو إلى المشروطية

(١) محمد علي كمال الدين التطور الفكري في العراق ، ص ٢٣ - ٢٤ .

بزعامة الملا كاظم الخراساني ، والآخر يدعو إلى الإستبداد بزعامة السيد كاظم اليزدي . ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد ما في المجتمع النجفي من ميل مفرط إلى الجدل بوجه عام ، فلما جاءت قضية المشروطية كانت حافزاً جديداً فيه حيث انثال الناس يتجادلون حولها بعنف شديد إلى درجة لم يسبق لها مثيل من قبل . وقد أشار أحد الشعراء إلى ذلك حيث قال :

تغيرت الدنيا وأصبح شرها يروح بافراط ويغدو بتفريط
إلى أين يمضي من يروم سلامة وما الناس إلا مستبد ومشروطي

حدثني الكتبي النجفي عبد الحميد زاهد : أنه كان في تلك الأيام صبياً يلعب مع أقرانه في الأزقة ، فكان الصبيان عند اللعب يقسمون أنفسهم إلى فريقين : مستبدة ومشروطة ، ثم تنشب المعارك بينهم تقليداً لما يقع بين الكبار .

ومما زاد في الطين بلة أن الروس أسسوا في النجف قنصلية وعينوا لها رجلاً واسع الحيلة شديد الدأب في مقاومة المشروطية هو أبو القاسم الشيرواني ، فتم التعاون بينه وبين اليزدي . واستطاع اليزدي أن يستميل إليه الكثير من العامة ومغاوير المحلات من رجال « الزقرت » و « الشمرت » ، فكان إذا خرج إلى الصلاة حف به المسلحون من أعوانه وهم يهتفون بالصلاة على محمد وآل محمد ـ تحدياً لأنصار المشروطية . وصارت الإشاعات تروج في أوساط العامة حول المشروطية بأن المقصود منها هو هدم الدين وافساد الأخلاق .

وفي أحد الأيام ظهر على بعض الجدران في النجف إعلان فيه صورة يد تمسك مسدساً وفيه تهديد لليزدي بأنه سيقتل إذا لم ينزل على إرادة أنصار المشروطية ، فهاج العوام لذلك وصار أنصار المشروطية عرضة للاعتداء والضرب في الأسواق والطرقات بحجة أنهم زنادقة مارقين عن الدين .

الواقع أن الجدال حول المشروطية لم يقتصر على النجف وحدها بل سرى إلى كربلا والكاظمية وبعض المدن الشيعية الأخرى . حدثني أحد المسنين من أهل الكاظمية عما جرى في هذه البلدة من نزاع شديد وجدال حول المشروطية ، فقد كان أكثر العامة من دعاة الإستبداد ويعدون الملا كاظم الخراساني هو واتباعه كفاراً ولا يكادون يسمعون عن أحد العلماء أنه « مشروطة » حتى ينفضوا عنه ويلعنوه ويتركوا الصلاة خلفه . حاول أحد دعاة المشروطية ، وكان شاباً شديد الحماسة أن يجمع التواقيع في تأييدها ، فذهب إلى أحد العلماء في الصحن الكاظمي يطلب منه توقيعه ولما وجده يرفض إعطاء خاتمه للتوقيع سحب السجادة من تحته ومنعه من الصلاة ، وقد حدثت في الكاظمية ضجة من جراء ذلك وهب نفر من مغاوير المحلات فطاردوا الشاب ثم أمسكوا به في أحد الأزقة واعتدوا عليه اعتداءاً منكراً ، وحين علمت الحكومة بالأمر أرسلت قوة من الجنود لحماية الإستبداديين ، فأدى ذلك إلى انكماش المشروطيين وتضاؤل نفوذهم في البلدة ، وظل الوضع كذلك فيها حتى يوم إعلان الدستور في البلاد العثمانية حيث انقلب الوضع إلى عكسه .

من النوادر الأدبية التي تروى عن تلك الفترة أن أحد علماء الكاظمية وهو السيد محمد مهدي الصدر نظم بيتين من الشعر في ذم الإستبداديين ، فانبرى الشيخ عبد الحسين الأسدي يرد عليه حيث قام بتشطير البيتين مما أدى إلى قلب معناهما إلى النقيض منه . ننقل فيما يلي البيتين مع تشطيرهما ، وقد وضعنا التشطير بين قوسين تمييزاً له عن الأصل :

المستبدون قد تاهوا بغيهم (بذاك قد قال قوم وافتروا زورا)
(صم وبكم فهم لا يعقلون كما) لم يجعل الله في أبصارهم نورا
لو كان يمكنهم أن ينسخوا نسخوا (ما كان في لوحه المحفوظ مسطورا)
(مالوا لشورى الأولى قد حرفوا علناً) من الكتاب عناداً آية الشورى

عند إعلان الدستور العثماني

أعلن الدستور في البلاد العثمانية في ٢٣ تموز من عام ١٩٠٨ ، وانتشرت مظاهر الزينة والإبتهاج في العراق بتلك المناسبة ، فكان هذا التحول الفجائي في موقف الحكومة العثمانية من المشروطية عاملاً مهماً في تدعيم موقف الملا كاظم الخراساني وأعوانه وانخذال أعوان السيد كاظم اليزدي .

من طبيعة العامة أنهم يستأسدون في حالة الأمن من الخطر ، فإذا حل بهم الخطر انكمشوا في بيوتهم وأخذ كل منهم يتبرأ من عمل آخر ويزعم أنه لا دخل له في الأمور . وهذا هو ما حدث في النجف عند اعلان الدستور العثماني ، فقد انكمش العوام أتباع اليزدي وأصبح الجو ملائماً لأتباع الخراساني يصولون فيه ويجولون . ونظم الشيخ علي الشرقي قصيدة يهجو بها اليزدي ويتشفى به ، كما نظم السيد صالح الحلي بعض الأبيات اللاذعة من الشعر قارن في أحدها بين اليزدي ويزيد .

كان قائمقام النجف يومذاك ناجي السويدي ، وهو بغدادي أديب له صلات حسنة مع أنصار المشروطية ، وقد بذل جهده في تأييدهم . ثم زار النجف ثريا بك من زعماء الاتحاديين فاجتمع بالخراساني في إحدى المدارس الدينية ، فكان يوماً حافلاً في النجف ابتهج له الأنصار وابتأس الخصوم . ويمكن القول أن بعض الذين كانوا من أنصار اليزدي تحولوا عنه وأخذوا يتملقون للحكومة ويهتفون بأعلا أصواتهم « يعيش الدستور ! » ـ وليس هذا بالأمر الغريب !

انذار الخراساني إلى الشاه

عندما اشتد الصراع بين الشاه محمد علي وأنصار المشروطية في إيران وضع الملا كاظم الخراساني كل ثقله إلى جانبهم ، وبذل جهوداً كبيرة لتدعيم موقفهم ضد الشاه .

كان للخراساني كاتب نشيط اسمه الشيخ علي المحلاتي ، فكان هذا الكاتب يأخذ الفتاوى والمقالات التي يصدرها الخراساني ضد الشاه فيطبع منها آلاف النسخ ثم يرسلها تهريباً عبر الحدود إلى إيران لكي توزع هناك سراً . وكان لهذه المنشورات أثر لا يستهان به في تحريض الإيرانيين على الشاه وفي عزله أخيراً . ننقل فيما يلي ترجمة جزء من أحد تلك المنشورات حيث يخاطب الخراساني فيه الشاه بشدة وينذره ويتوعده :

« يا منكر الدين ويا أيها الضال الذي لا نستطيع مخاطبتك بلقب شاه . كان المرحوم أبوك أعطى الدستور ليرفع الظلم والتصرفات غير القانونية عن الشعب الذي كان في ظلام دامس قروناً عديدة حيث أنه لا يوجد في المشروطية شيء يخالف الدين . . . ولكنك من اليوم الأول الذي تبوأت فيه

عرش السلطة وضعت تحت أقدامك جميع الوعود والإيمان وعملت بجميع الحيل ضد المشروطية . وقد تجلى لنا خطأنا فيك حيث سعيت أن تجعلنا آلة بيدك ضد المجلس . . . والآن سمعنا أنك أرسلت إلينا أحد رجالك المقربين لشراء ذممنا بالذهب ، ولست تعلم أن سعادة الشعب أثمن كثيراً من ذهبك . . . إن ذكرك للدين والشريعة كذب وهراء أردت بكذبك هذا اغفال البسطاء المتمسكين بالدين لتمنع الدستور وتجعل الناس في ذل وفقر . وعلى هذا أنت عدو للدين المقدس وخائن للوطن وتشبه السارق الذي يسرق الناس باسم الدين والشريعة . . . إنك أنت والمجتهدون المرتزقة الذي يدعون بمخالفة المشروطية للشرع يتجاهلون حقيقة الدين بأن العدالة شرط حتى في الأمور الجزئية . . . وإذا حصل تأخر منك عما قلنا فإننا سوف نحضر جميعاً في إيران ونعلن الجهاد ضدك . ولنا في إيران اتباع كثيرون ، والمسلمون كثيرون أيضاً . فإننا أقسمنا على ذلك(١) .

الوضع في كربلاء

كان الوضع في كربلاء يختلف عن الوضع في النجف من بعض الوجوه ، فقد كان في كربلاء حينذاك واعظ إيراني من أنصار الإستبداد اسمه السيد أكبر شاه ، وكان خطيباً مصقعاً له لحية طويلة وتأثير قوي على العامة . إنه كان يعظ ضد المشروطية قبل اعلان الدستور العثماني ، وظل يخطب بعد اعلانه من غير أن يخشى أحداً .

وفي شهر آذار من عام ١٩٠٩ وصل إلى كربلاء واعظ إيراني من المشروطيين اسمه الشيخ جواد ، وبدأ منذ ذلك الحين نزاع شديد بين الرجلين من على المنابر . وانقسم أهل كربلاء إلى فريقين ، كل فريق التزم واعظاً ، وصار يكفر بعضهم بعضاً .

كان قتل الحسين (ع) من المواضيع التي اتخذها الفريقان مستنداً لهما في الجدل . فأنصار المشروطية يعتقدون أن الحسين إنما قتل بسيف الإستبداد وأنه لو كان نظام المشروطية سائداً في زمانه لاختاره المسلمون خليفة عليهم بدلاً من يزيد . أما أنصار الإستبداد فرأيهم أن المشروطية تعني الشورى وأن الشورى هي التي أدت إلى ضياع الخلافة من أهل البيت ووصولها إلى رجل مثل يزيد .

نشرت جريدة الرقيب البغدادية في ١ نيسان ١٩٠٩ وصفاً لما كان يحدث في كربلا من جدال بين الشيخ جواد والسيد أكبر شاه ، ومضمون ما ذكرته الجريدة هو : أن الأحرار الإيرانيين والعثمانيين استبشروا بوصول الشيخ جواد إلى كربلا ، فغص الجامع بالناس لسماع خطبه المؤثرة ، وقد ذكر الشيخ ما أمر به النبي من إجراء العدل والمساواة ، ثم أشار إلى أن الحسين لم يقتل إلا بسيف الإستبداد ، وعند هذا قام أحد أركان « المستبدين » يرد على الشيخ ويثلبه ، وهو لم يجرؤ على ذلك من تلقاء نفسه « لأنه أحقر من ذلك » بل كان مدفوعاً من قبل حزبه الذين « يريدون ليطفئوا نور الله » ولولا حضور وكيل المتصرف لحصل ما لا يحمد عقباه ، وفي اليوم التالي حضر الشيخ جواد « رغماً عن أركان حزب التقهقر » يحيط به الأحرار « إحاطة الهالة بالقمر . . . فرمى الله بالذل والخزي أولئك الأضداد لكل فضيلة ، وعند ذلك تهللت وجوه الأحرار . . . وتكلم الخطيب بما خطر له من مدح العدل وقدح الظلم ، والثناء على الأحرار والطعن في المستبدين الأشرار ، فلم يستطع من أولئك الظلمة أحد أن يفوه بكلمة . . . (٢) .

أمرت الحكومة السيد أكبر شاه أن يغادر كربلا إلى الكاظمية ، وقد علقت جريدة الرقيب على ذلك في ٥ نيسان حيث تساءلت عن الفائدة من نقل هذا الواعظ من مدينة إلى أخرى داخل العراق وهل أن ذلك سيرفع الضرر الناتج عن خطبه المثيرة الداعية إلى مبادىء الإستبداد والظلم ؟! يبدو أن الجريدة كانت تريد من الحكومة أن تبعد الواعظ إلى إيران وتنقذ العراقيين من شره .

الفوضى في إيران

كان الإيرانيون يعتقدون أن المشروطية عند تطبيقها في بلادهم ستكون علاجاً ناجعاً لجميع مشاكلهم فلا يشكون بعد ذلك من شيء ، ولكنهم وجدوا بعد انتصار حركة المشروطية وعزل الشاه محمد علي أنهم وقعوا في حالة هي أسوأ مما كانوا فيها .

أصبح كل من ساهم في الحركة طامحاً أن ينال أعظم المناصب مكافأة له على جهاده في سبيل « الملة » ، وظهرت عصابات اللصوص في كثير من الأنحاء يعبثون بالأمن ويقطعون الطرق ، وامتنع حكام الأقاليم عن إرسال ما عليهم من مبالغ للخزينة المركزية ، وانقسم الناس شيعاً وأحزاباً كل حزب يعتقد أن رأيه هو الذي يجب أن يتبع في إصلاح البلاد .

إن قبائل البختيارية حصلت من تلك الفوضى على حصة الأسد ، فقد احتلت مدينة أصفهان بحجة حماية الثورة ، واستحصلت من الخزينة المركزية مبلغاً شهرياً قدره عشرون ألف تومان بدعوى حراسة الطريق ، وذلك علاوة على ما كانت تجبي من الناس من ضرائب مباشرة . ومن الطرائف التي رويت في هذا الصدد أن لصاً من قطاع الطرق اسمه نائب حسين الكاشاني نهب ذات مرة أحد البختياريين وقال : إن هذه هي حصتي من الغنائم .

وكانت جلسات المجلس الملي تمثل أعجب المشاهد وأدعاها للسخرية ، فقد كان الجدال بين النواب عنيفاً والشتائم متبادلة ، وكثيراً ما شارك المستمعون فيها ، وكان كل نائب يريد أن يخطب بحماسة لينال إعجاب الغوغاء ، حتى إذا خرج من المجلس توقع أن ينال من أهل الأسواق حمداً وتقديراً . وإذا كان النائب شديد التعصب جهوري الصوت استطاع أن يغلب الآخرين ، في الجدال ، ثم يدعي بعدئذ أن الحكومة لم تأخذ برأيه ولو كانت قد أخذت به لارتقت إيران إلى مصاف الدول العظمى .

كتب الوزير المفوض البريطاني إلى حكومته يقول ما مضمونه . إن الإيرانيين سيبقون إلى مدى جيلين غير جديرين بالنظام الدستوري . وقد علق أحد البريطانيين الذي كانوا يسكنون في طهران يومذاك على هذا القول إذ وضع اللوم على بريطانيا واعتبرها مسؤولة عن نشر الديمقراطية في البلاد التي لا تصلح لها . . .

من الأعمال التي تورط بها أنصار المشروطية عند انتصارهم أنهم شنقوا المجتهد الكبير الشيخ فضل الله النوري ، وكان شيخاً وقوراً كبير السن ، وقد قام بشنقه على ملأ من الناس رجل أرمني اسمه يفرم كان مديراً للشرطة

(١) ن م ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) عبد الله الفياض (الثورة العراقية الكبرى ص ٩٩ ـ ١٠٠

حينذاك ، فأدى ذلك إلى شيوع التذمر في أوساط الكثيرين من الناس . وانتهز الخصوم الفرصة فجعلوا شنق الشيخ بمثابة « قميص عثمان » وأقاموا له مجالس الفاتحة وحفلات التأبين في كل مكان ، وأخذوا يبالغون في تمجيد الشيخ بغية التشهير بالمشروطية وأنصارها . ولم يقتصر ذلك على إيران بل سُرت عدواه إلى العراق فأخذ خصوم المشروطية فيه يكثرون من إقامة مجالس الفاتحة على روح الشيخ وينادون : « أويلاخ ، قتل شيخنا مظلوماً » .

إعلان الجهاد على روسيا

في عام ١٩١١ حصل اختلاف حول بعض الأمور المالية بين روسيا والحكومة الإيرانية ، فزحفت القوات الروسية نحو مدينة تبريز فاحتلتها ، ثم عمدت إلى شنق بعض رجال الدين فيها من أجل ارهاب غيرهم ، فأدى ذلك إلى الهياج العام في إيران فأعلن رجال الدين الجهاد وأمروا الناس بالتدريب على السلاح . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن سكان كرمان ، وهي بلدة تقع في الجنوب من إيران ، تحمسوا للجهاد أكثر من غيرهم وأخذوا يتدربون على السلاح تحت اشراف رجال الدين وهم عازمون عزماً أكيداً على غزو روسيا وعزل القيصر . ولم يمر على ذلك سوى مدة قصيرة حتى ظهرت بالقرب من البلدة عصابة من اللصوص وأخذت تقطع الطرق وتنهب القوافل حتى وصل مجال فسادها إلى أبواب البلدة . فاستنجد المسؤولون في البلدة بالقنصل البريطاني وطلبوا منه قوة لمحاربة العصابة ، وقد اعتذر القنصل لهم ثم سألهم متعجباً : لماذا لا يستطيع المجاهدون أن يحاربوا عصابة صغيرة من اللصوص بينما هم يستعدون لمحاربة روسيا كلها . فكان جواب المسؤولين : أن المجاهدين إنما يستعدون لمحاربة روسيا لأنها بعيدة عنهم ، ولكن اللصوص قريبون .

وكانت حركة الجهاد قد انتشرت في العراق أيضاً ، فقد أوعز الملا كاظم الخراساني بنصب الخيام في ظاهر النجف وتعبئة المجاهدين فيها استعداداً للزحف على روسيا . وقد نصبت الخيام فعلاً وتهيأ الناس للسفر ، وامتلأ الجو بأهازيج العشائر والخطب الرنانة .

وفي ليلة ١٢ كانون الأول من عام ١٩١١ بينما كان الخراساني على أهبة السفر شعر بتوعك مفاجىء في صحته ، فاصفر وجهه وانتابه العرق الغزير ، وقبل أن تشرق شمس الصباح التالي أدركته الوفاة . فاستدعى إليه طبيب الحكومة ، وقد قرر هذا بعد فحصه أنّه مات بالسكتة القلبية . ولكن الناس لم يصدقوا ذلك وأخذت الإشاعات تروج بينهم في أنه مات مسموماً بأيدي الجواسيس ، وانتشرت بينهم قصة مفادها أن رجلاً كان قد أهدى إليه قبيل وفاته تفاحة صفراء وهي التي جرت عليه البلاء[1] .

تفرق المجاهدون على أثر موت الخراساني ، وطويت الخيام ، وانشغل الناس بالنوح على الفقيد وإقامة مجالس الفاتحة وإلقاء القصائد الشعرية في تأبينه .

وفي أواخر آذار ١٩١٢ وصل إلى العراق خبر مفاده ان الجيوش الروسية قصفت بالمدافع مشهد الرضا (ع) في خراسان فانهدم جزء من القبة والسقف وأدى ذلك إلى قتل وجرح عدد من الزوار الذين كانوا يتهجدون فيه . وعند هذا ساد الهياج في مختلف أنحاء إيران والعراق ، ووجد المجتهدون في العراق أن من الضروري استئناف حركة الجهاد من جديد .

اجتمع في الكاظمية لفيف من المجتهدين كان فيهم : السيد مهدي الحيدري ، والشيخ مهدي الخالصي ، والسيد إسماعيل الصدر ، والشيخ عبد الله المازندراني ، والشيخ فتح الله الأصفهاني ، والشيخ محمد حسين القمشئي ، والسيد علي الداماد ، والسيد مصطفى الكاشاني ، وقرروا اعلان الجهاد على روسيا على منوال ما فعل الخراساني الراحل .

امتنع مجتهدان كبيران عن الحضور إلى مؤتمر الكاظمية وعن الإنضمام إلى حركة الجهاد وهما : المرزا محمد تقي الشيرازي في سامراء . والسيد كاظم اليزدي في النجف . فقرر الشيخ مهدي الخالصي أن يسافر بنفسه إليهما بغية اقناعهما بالإنضمام إلى الحركة ، ولم يجد الخالصي صعوبة في اقناع الشيرازي عندما ذهب إليه في سامراء ، غير أنه عند ذهابه إلى النجف لم يتمكن من الإجتماع باليزدي لمحادثته في الموضوع إذ كان هذا يتهرب من لقياه المرة بعد المرة .

وفي أحد الأيام بينما كان الخالصي في النجف يواصل مساعيه للإجتماع باليزدي وقع عليه اعتداء من قبل بعض الغامة ، وقد أسرع الخالصي إلى مغادرة النجف والعودة إلى الكاظمية درءاً للفتنة . وحين سمع أهل الكاظمية بالحادث تحفزوا لأخذ الثأر إذ لم يهن عليهم أن يعتدي أهل النجف على عالمهم دون أن ينتقموا له . وقد بذل الخالصي جهده لتهدئتهم .

كان والي بغداد يومذاك جمال بك ، وكان على صلة وثيقة بالخالصي ، فلما سمع بحادث الإعتداء عليه أمر بالقاء القبض على المعتدين وبسوقهم مكبلين إلى بغداد . وانبرى الخالصي يتشفع لهم عند الوالي حتى جعله يأمر باطلاق سراحهم . وفي زحمة هذه الأحداث نسي الناس جهاد الروس وانشغلوا بجهاد بعضهم بعضاً ! .

نظرة عامة

إننا حين ننظر إلى حركة المشروطية بوجه عام نستطيع أن نقول إنها على علاتها كانت ذات أثر اجتماعي وفكري لا يستهان به في تطوير المجتمع . ينبغي أن لا ننسى أن أنصار المشروطية كانوا في ذلك الحين يمثلون « الجبهة التقدمية » بالنسبة للمرحلة الإجتماعية التي عاشوا فيها .

فقير الله اللاهوري ، المشهور بآفرين .

توفي سنة ١١٥٤ .

من شعراء الهند ، له ديوان وهو محفوظ في مكتبة المتحف البريطاني وتاريخ كتابته سنة ١١٤٧ وهو يضم أربعة آلاف بيت من الشعر فيها الغزل والمخمس وقصائد في مدح النبي (ص) ورثاء الحسين (ع) . ومن آثاره منظومة قصصية باسم (ناز ونياز) تروي حب هير لبار انجها .

وهناك شاعران آخران مشهوران بآفرين ، أحدهما شمس الدين المشهدي وميرزين العابدين الأصفهاني (١١٢٥) .

---

(١) مجلة العلم النجفية ـ العدد ٦ سنة ٢ .

الشيخ قاسم حرج ابن الشيخ محمد الشهير بحرج الوائلي .

ولد في النجف سنة ١٣١٩ .

درس في النجف علوم اللغة العربية والأصول والفقه ، ثم ترك النجف متنقلاً بين البصرة والشطرة متردداً أحياناً إلى النجف . أراد أن يؤلف (مختصر الأغاني) ولكنه لم يكمله ، كما لم يكمل منظومة في المنطق .

له شعر منه قصيدة في رثاء الشيخ جواد الجواهري يقول فيها :

لسناً إذا اكتظ الندي … وعي فيه لداته
ثبتاً إذا رجفت بسا … حات النضال كماته
لم أنس نهضته غداة … أتى العراق غزاته
بفيالق من لندن … غصت بها فلواته
عاثت كأن لم تدر … ان الغاب فيه حماته
حتى إذا انتهكت بفعل … طغاتهم حرماته
سطرت فيالقهم حماماً … في الوغى عزماته
في معرك شوك الحديد … مصائداً حافاته
والجو قد رصدت بسر … ب الطائرات جهاته
والشمس فيه تنقبت … ونقابها هبواته
لله فصل ملاحم … قد مثلت مأساته
زرع بذرنا بذره … ولغيرنا ثمراته
دع ذكر معترك به … ذهبت سدى حركاته
للآن ماثلة أمام … عيوننا ويلاته
بقيت وتبقى في الـ … ـنفوس تحزها وخزاته

وقال :

خسر الغري مشايخاً لوجوههم … نور أضاء الخافقين تمامه
في رحمة الباري انطوت أرواحهم … فعليهم من ذاهبين سلامه
عبث الردى بنفوسهم فتبددت … كالماء مسكوباً تكسر جامه
وبغفلة العلم الجليل تعطلت … عرصاته فتعطلت أحكامه
كأن الندي يفيض روحانية … منهم ويطفح بالجلال نظامه
والجو من نشر الفقاهة منعش … كسماء ورد فتحت أكمامه
من بعدهم للشرع ينشر فقهه؟ … ومن يبين حلاله وحرامه؟
الله يحفظ من زمان مقبل … سور علينا بعدهم أيامه
بلد تعظمه الشعوب كأنه … تاج تألق في الشعوب وسامه
ضم النهي والوذعية والابا … وتقدست ذكواته وأكامه
من كل قطر بعثة في ربعه … لجب بنشء الطالبين زحامه
وحليمه يدعى لكل عظيمة … وتغيث إن خطب عرا أحلامه
الله آثره بمجد خالد … رأس على رغم الخطوب شمامه
قدر الخليفة فيه شرف قدره … وبيمنه لا يستباح ذمامه
إن دام فيه سلوككم في أمره … قحط الرجال يطول فيه دوامه
نشء يبذ بفطنة ونباهة … لو كان في يد مخلصين زمامه
ويح له قد شتته عصابة … نفعية أعيا عليه وئامه
بيد الضياع وحسبنا من قد بقي … فإذا أضيع على الرئيس أثامه

الشيخ كاتب الطريحي ابن الشيخ راضي .

ولد في النجف سنة ١٣٠٣ وفيها درس علوم اللغة العربية والأصول والفقه . أقام في الكوفة وساهم في حرب الإنكليز في أول احتلالهم للعراق في جبهة القرنة وجبهة الكون .

من شعره قوله يرثي الحسين عليه السّلام من قصيدة :

بنفسي ظمآن الحشاشة طاويا … قضى ظمأ والماء يطفح طاميا
بنفسي وحيداً والعدى عدد الحصا … ولولا القضا الجاري لأفنى الأعاديا
بنفسي بنات الوحي أضحت حواسرا … تجوب بها عجف النياق الفيافيا
بنفسي رأس السبط من فوق اسمر … بصبح محياه يجيل الدياجيا
بنفسي جسماً رملته يد العدى … فأصبح في وجه البسيطة عاريا

وقال يرثي مسلم بن عقيل من قصيدة :

قفا نسأل الربع الذي قد تهدما … متى آب من نور الإمامة مظلما
أما كان مثوى للعفاف وملجأ … أشطت أهاليه فأمسى مهدما
لقد كان للهلاك كعبة انعم … فهل يا ترى من كفه بعد انعما
هلما معي نسكب هنالك أدمعا … من القلب مجراها وننـدب مسلما
رسول ابن خير المرسلين وسيدا … به شيد الرحمن للدين أرسما
ونجعتها من آل غالب أصيدا … يعد الوغى عيداً إذا الجيش صمما
يصول عليهم مصلتاً سيف عزمه … فيوردهم بحر المنية مفعما
هزبر بصدر الجمع يركز رمحه … ومن دمهم يروي الحسام المخذما
كمي يري الأعداء سطوة حيدر … بيوم به ليث العرينة أحجما
فما كنت أدري كيف سلم مسلم … ولكن قضى الرحمن أمراً فسلما
فشلت يدا بكر بن حمران إنه … أطاح عماد الدين مذ جسمه رمى
بأسواقهم أضحى يجر وهانياً … فيا قلب ذب وجداً وحزناً عليهما

كمال الدين سحابي الأستر آبادي المشتهر بسحابي شوشتري أو سحابي نجفي .

توفي في النجف سنة ١٠١٠ .

من شعراء القرن العاشر وعرفائه . أبوه من استرآباد وولد هو في شوشتر ، وعاش أربعينيات آخر عمره في النجف حتى وفاته . وكانت دراسته في النجف معروفاً من فقهاء زمانه .

جعل من نفسه كناساً لمرقد أمير المؤمنين عليه السّلام ، وكان لا يملك من حطام الدنيا إلا حصيرة وإبريقاً ، وكان أكثر خدمة المرقد يحبونه ويحترمونه ويقولون إن له كرامات .

له : كليات سحابي . ورسالة العروة الوثقى المشتملة على النثر والشعر ، وفيها أربعة فصول : ١ - البصرة . ٢ - اللابصيرة . ٣ - كيفية طهور الشراب . ٤ - الرجوع إلى الله .

وله : ديوان غزل فيه ٢٨٠٠ بيت من الشعر . وله مجموعية رباعيات .

الشيخ لطف الله بن عطاء الله الحويزي :

ذكره الحر العاملي في أمل الآمل ، فقال : عالم فاضل متبحر معاصر ، له كتاب (شرح الشرائع) وغير ذلك . اهـ .

أقول وللشيخ الحويزي هذا كتاب اسمه (منتهى الوصول في شرح زبدة الأصول) مرقّم بـ (١١١٨) في مكتبة السيد شهاب الدين النجفي المرعشي في مدينة قم .

ونقل صاحب [أنوار البدرين] عن [تتمّة أمل الآمل] للسيد محمد بن علي بن أبي شبانة البحراني ، ترجمة للشيخ لطف الله بن عطاء الله بن علي بن لطف الله البحراني ، أثنىٰ عليه بما لا مزيد عليه وقال له شعر يقرأ في المجالس الحسينيّة والظاهر أنه من قرية جد حفص .

وقال العلامة الطهراني في الذريعة قسم الديوان ، صفحة ٩٤٤ : (ديوان الشيخ لطف الله) بن محمّد بن عبد المهدي بن لطف الله بن علي البحراني ، الذي صحّح بعض أجزاء شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد سنة ١١٦٤ هـ . وله رثاء في الإمام الحسين (ع) نقله حفيده وسميّة الشيخ لطف الله بن علي بن لطف الله الجد حفصي البحراني المذكور آنفاً في مجموعة كتبها سنة ١٢٠١ هـ وللحفيد هذا أيضاً ديوان ومراثي في الإمام الحسين (ع) .

أقول ويظهر من المقارنات الزمنية أنّ الشيخ لطف الله بن عطاء الله الحويزي متحد مع الشيخ لطف الله بن عطاء الله بن علي بن لطف الله البحراني وان الذّين ذكرهما صاحب الذريعة هُما من أقارب المترجم لأنّه متقدم عليهما ، إذ أنّه من معاصري صاحب الأمل فهو من رجال القرن الحادي عشر الهجري .

فمن شعر الشيخ لطف الله المترجم قوله من قصيدة :

وَصلنا السُّرىٰ بالسير نقطعها قفزاً … مهامه لا تهدي إليها القطا أثرا
يضلّ بها الخرِّيت أن حلّ أرضها … وترصدها الجربا فتقذفها سعرا
علىٰ يعملاتٍ كالقِسيّ تفاوضت … أحاديث من تهوىٰ فطاب لها المسرى
تسابق أيديها علىٰ السير أرجُلٌ … قدَحْنَ من الصّلد الصفاة لها جمرا
وما إن زجرناها ولكنّها متىٰ … تلهف ملهوف توهمه زجرا
وما اتّخذت منّاد ليلاً وإنّما … تخُبُّ وتستقري إذا انتشقت عطرا
إلىٰ أن أجازت ساحة الحي وانتهت … إلىٰ دارمن تهوىٰوقد أقفرت دهرا
فلمّا عرفنَ الدار حنّت وانهمت … فلم تنبعث في السير أرجُلها شِبرا
فملنا عن الأكوار للأرض سُجّداً … فسابقت الأجفان أفواهنا فخرا
وعدنا فسلّمنا سلاماً فسلّمت … ثلاثاً فسلّمنا عليها بها عشرا[1]

الشيخ محسن الجواهري ابن الشيخ شريف .

ولد في النجف سنة ١٢٩٥ وتوفي سنة ١٣٥٥ .

درس في النجف ثم قام برحلات إلى البحرين ثم خوزستان حيث استقر في مدينة الفلاحية . ولما قاد السيد محمد سعيد الحبوبي المجاهدين العراقيين في معارك الشعيبة خلال الحرب العالمية الأولى انضم إليه على رأس من ساروا معه من خوزستان . وبعد الهزيمة في الشعيبة عاد إلى النجف . ولما تم احتلال الإنكليز للعراق عاد إلى الفلاحية ، ثم انتقل إلى الأهواز سنة ١٣٤٨ فبقي فيها مرشداً دينياً حوالي سبع سنين . ثم مرض ولما اشتد عليه المرض قرر العودة إلى النجف ، فلما وصل البصرة توفي فيها ، فنقل جثمانه إلى النجف الأشرف فدفن فيه .

ترك عدة مؤلفات منها : الفرائد الغوالي في شرح شواهد الأمالي للسيد المرتضى في أربعة أجزاء . وشرح ديوان ابن الخياط (طبع) . والرد على ابن أبي الحديد ، لم يتمه .

(١) السيد هادي باليل الموسوي .

ومن شعره قوله مذيلاً :

(أما والله لو تجدين وجدي … لما وسعتك في بغداد دار)
ولا استعذبت بعدي صفو عيش … وعيشي قد أذيف به المرار
ولا أبقت لك الأفكار قلباً … وقلبي لا يقر له قرار
أبيت مسهداً أرعى الدراري … يؤرقني لمن أهوى ادكار
ويقلقني الأسى جزعاً كأني … أسير عض ساقيه الأسار
عجيب منك أن تحيى سعيداً … وجسمي قد أذابته القفار
وتنعم وادعاً بمراح أنس … وطي حشاي من ذكراك نار
وكيف هناء ذي ود صحيح … ومن أحبابه شط المزار

وقوله :

قفي يا نفس وقفة ذي اعتبار … فحتام انقيادك للصغار
إلى م وأنت شمس ذوي المعالي … خفاؤك تحت ابراد السرار
يغرك من ذوي القربى ابتسام … وقد طبعوا على الحقد المثار
إذا سمعوا جميل الذكر عني … حسبت وجوههم طليت بقار
أصافح منهم طلق المحيا … يود بأن أرى رهن الأسار
أروم علوه فيروم خفضي … وأجبره ويجهد في انكساري
لئن غطيتم فضلي فاني … سأكشف عنكم فضل الأزار
فدونك فاطرح قوماً بقوم … كرام واتخذ داراً بدار
فكل مقام ذي شرف مقامي … وكل جوار ذي عز جواري
أيرقد في مهاد الضيم هوناً … كريم ماجد زاكي النجار
تردى ثوب مكرمة وعز … غداة الفخر ليس بمستعار
يرد بعزمه صرف الليالي … وابيض تحت ليل النقع واري

وله مشيداً بفضل أبي طالب وذريته :

إلى كم أمني النفس بالعز والنصر … وافزع من جور الليالي إلى الصبر
وألقي خطوب الدهر فرداً ولا أرى … كريماً يذود الخطب بالأسل السمر
وأطوي حنايا أضلعي من حوادث … تهاوت على قلبي كصالية الجمر
وكم ذا أرى فيء النبي مقسماً … برغم حماة الدين بين ذوي الغدر
فلا تكفري النعمي لوي بن غالب … فإن رسول الله أجدر بالشكر
أليس الذي أدنى إلى الظل غالباً … واسكنها دون البرية في الصدر
وسن لها نهج الهدى وأحلها … محل على أربي على هامة النسر
به سلكت سبل المعالي فأصبحت … تهادى بفضل الدين في حلل الفخر
فكم خالفت دين النبي وضيعت … حقوقاً رعاها الله في محكم الذكر
فسل من حمى المختار كهلاً ويافعاً … ومن رد عند البيت عادية الكفر
ومن ذا أبات المرتضى في مكانه … مخافة بغي الكاشحين أولى الغدر
ومن ذا دعي للدين والنصر جعفراً … وحمزة والهادي من الكفر في حصر
وما زال يدعو للهدى ويحوطه … إلى أن قضى مستوجب الشكر والأجر
ولما قضى قامت بنوه مقامه … لرد الأعادي عنه بالبيض والسمر
فسل من فدى الهادي بمكة والعدى … ترقب في أوتارها مطلع الفجر
ومن فرق الأحزاب يوم تجمعت … قريش وطارت أنفس القوم من عمرو

محمد إبراهيم القزويني .

ولد في قزوين سنة ١٠٢١ وتوفي فيها سنة ١٠٩٠ .

ساح أيام شبابه في كثير من البلاد ثم عاد إلى قزوين ، وبعد فترة تركها

إلى أصفهان وخالط هناك الميرزا جلال الأسير ، ثم سافر إلى الهند وصاحب هناك كلا من كليم كاشاني والحاج محمد جان القدسي المشهدي ، وأثرى في الهند فعاد إلى قزوين فتوزعت ثروته بين الأقارب والأشراف ، فعاد إلى الهند ثم رجع إلى قزوين .

وفي موضع الذي توفي به أرسل له الشاه مبلغاً من المال فرفضه .

قدّر قلي بيك مجموع أشعاره وهو في السادسة والخمسين من عمره بعشرين ألف بيت ، ويقول خوشگو فيما دونه أنها ثلاثون ألف بيت . وله ديوان مخطوط في مكتبة مجلس الشورى الإيراني يحتوي على ١٠٨٠٠ بيت . وله المثنوي : (محيط الكونين) فيه ثلاثة آلاف بيت .

ووصف شعره بأنه سلسل مفهوم غير معقد لا سيما في المثنوي (محيط الكونين) .

وفي محيط الكونين مذكراته عن أسفاره من قزوين إلى تبريز ثم إلى بغداد فالعتبات المقدسة في العراق ، ثم رجوعه إلى قزوين عن طريق همذان ، ثم سفره إلى الهند بطريق أصفهان وشيراز . ووصف معالم البلاد ولقاء العلماء والأدباء والشعراء ، وذكر العرفاء . وقد انتهى من نظمه سنة ١٠٦١ .

ويعتبر في مجموع شعره من شعراء عصره المتوسطين ، على أنه في غزلياته لا سيما منها ما في محيط الكونين كان غزلياً بارزاً يساحق شعراء الغزل في القرن العاشر .

ولا بد كذلك من الإشارة إلى شعره في العرفان والأخلاق[1] .

الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أبي الثلج عبد الله بن إسماعيل الكاتب البغدادي المعروف بابن أبي الثلج .

ولد سنة ٢٣٧ وتوفي سنة ٣٢٢ أو ٣٢٣ أو ٣٢٥ .

ذكره في أعيان الشيعة الجزء التاسع صفحة ١٠١ من الطبعة الأخيرة في ترجمة مختصرة فبعد ذكر اسمه قال : (في طبقة سعد بن عبد الله له كتاب ذكر من قال بالتفضيل من الصحابة)[2] ودون عام وفاته سنة ٣٠١ وهو خطأ جزماً حيث أرخ سنة وفاته الشيخ أبو جعفر الطوسي في رجاله سنة ٣٢٥ [3] . وكذلك غيره من المتقدمين ، كما سمع منه التلعكبري من عام ٣٢٢ إلى ٣٢٥ كان المترجم له من أئمة الحديث وعلماء الشيعة المبرزين ، مفسر متكلم مؤلف مكثر أدرك في شبابه الإمام علي الهادي والإمام الحسن العسكري عليهما السّلام وأخذ العلم والفنون الإسلامية عن أكابر علماء الفريقين وحضر في الحديث والفقه على جده محمد بن أبي الثلج عبد الله ، وأبي عبد الله جعفر بن محمد بن جعفر الحسيني المتوفى سنة ٣٠٨ صاحب كتاب [التاريخ العلوي] ، وأبو زيد عمر بن شبة ، وقاسم بن محمد المروزي ومحمد بن همام الاسكافي وغيرهم .

تصدر المترجم له كرسي التدريس وتخرج عليه جماعة منهم أبو المفضل الشيباني والشيخ أبو محمد هارون بن موسى التلعكبري المتوفى سنة ٣٨٥ وسمع منه من سنة ٣٢٢ إلى سنة ٣٢٥ وفيها مات المترجم له والشيخ أبو نصر محمد بن الحسين المقري من مشائخ الشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣ والقاضي أبو الفرج معافى بن زكريا وأبو الحسن الدارقطني وأبو حفص بن شاهين وأبو بكر الدوري وغيرهم .

أقوال العلماء فيه :

ذكره ابن النديم في أكثر من موضع من كتابه الفهرست ووصفه بعد ذكر اسمه وشهرته قائلاً : (. . . خاصي عامي والتشيع أغلب عليه . وله رواية كثيرة من روايات العامة وتصنيفات في هذا المعنى وكان ديناً فاضلاً ورعاً ونحن قد ذكرناه قبل هذا وتوفي . . . وله من الكتب ، كتاب السنن والآداب على مذاهب العامة . كتاب (الفضائل) فضائل الصحابة ، كتاب الاختيار من الأسانيد)[4] قال أبو العباس النجاشي في رجاله (محمد بن أحمد بن عبد الله بن إسماعيل الكاتب أبو بكر يعرف بابن أبي الثلج وأبو الثلج هو عبد الله بن إسماعيل ثقة عين كثير الحديث له كتب . . . قال أبو المفضل الشيباني حدثنا أبو بكر بن أبي الثلج وأخبرنا ابن نوح قال حدثنا أبو الحسنْ بن داود قال حدثنا سلامة بن محمد الأرزني قال حدثنا أبو بكر بن أبي الثلج بجميع كتبه)[5] ونقل عنه الشيخ محمد الأردبيلي الحائري في كتابه جامع الرواة ج ٢ ص ٦٣ كما وثقه العلامة الحلي المتوفى سنة ٧٢٦ في رجاله ص ١٦١ الطبعة النجفية وقال شيخ الطائفة الشيخ أبو جعفر محمد الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ في رجاله (محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج الكاتب بغدادي خاصي يكنى أبا بكر سمع منه التلعكبري سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة وما بعدها إلى سنة خمس وعشرين وفيها مات وله منه إجازة)[6] وذكره في الفهرست أيضاً[7] وترجمه شيخنا الأستاذ آغا بزرك الطهراني في طبقات أعلام الشيعة وأشار إلى مؤلفاته في موسوعته الذريعة إلى تصانيف الشيعة وقال في مصفى المقال : (الشيخ الجليل أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل الكاتب المعروف بابن أبي ثلج المتوفى سنة ٣٢٥ هجرية يروي عنه أبو محمد هارون التلعكبري إلى التاريخ ، ويروي عنه أيضاً أبو المفضل الشيباني ، قال النجاشي : هو عين ثقة كثير الحديث وعد من تصانيفه كتاب تاريخ الأئمة وأخبار النساء المحمودات وأخبار فاطمة والحسن والحسين (عليهما السّلام) وكتاب من قال بالتفضيل من الصحابة وغيرهم وأبو الثلج كنية جده الأعلى عبد الله بن إسماعيل كما صرح النجاشي وغيره)[8] ذكره سيدنا الأستاذ السيد شهاب الدين المرعشي النجفي في مقدمة مجموعة نفيسة في تاريخ الأئمة ولم يتطرق إلى تاريخ حياته وطبع كتابه المذكور [تاريخ أهل البيت (عليهم السّلام)] بتحقيق السيد محمد رضا الحسيني الجلالي ولم يتطرق إلى حياة المؤلف وقال : (ونسب الكتاب إلى ابن أبي الثلج البغداديّ جزم بذلك جمع من الاعلام منهم شيخنا

---

(١) تاريخ أدبيات إيران .

(٢) أنظر أعيان الشيعة ج ٩ ص ١٠١ بيروت دار التعارف سنة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

(٣) انظر رجال الطوسي تحقيق السيد محمد صادق آل بحر العلوم ص ٥٠٢ الطبعة النجفية الأولى سنة / ١٣٨ هـ - ١٩٦١ م .

(٤) ابن النديم : الفهرست تحقيق رضا تجدد ص ٢٨٩ طهران الطبعة الأولى مطبعة جامعة طهران .

(٥) أبو العباس أحمد النجاشي : رجال النجاشي ص ٢٧٠ الطبعة الحجرية الأولى بمبي سنة ١٣١٧ هجرية .

(٦) الشيخ أبي جعفر محمد الطوسي : رجال الطوسي تحقيق السيد صادق بحر العلوم ص ٥٠٢ الطبعة النجفية الأولى / ١٣٨ هـ .

(٧) انظر الفهرست لشيخ الطائفة الشيخ الطوسي : ص ٦٣ مشهد جامعة مشهد .

(٨) انظر مصفى المقال في مصنفي علم الرجال ص ٣٩١ طهران الطبعة الأولى ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م .

الطهراني استناداً إلى الجهد البليغ الذي بذله في الكتاب وهو الظاهر من تكرر ذكره فيه فإنه كثيراً ما يستدرك على الفريابي وغيره ما فاتهم وكذلك جزم السيد الشهيد القاضي الطباطبائي بأن المؤلف هو ابن أبي الثلج فطبعه منسوباً إليه وكذلك جاءت هذه النسبة من غير ترديد في ما كتبه السيد المرعشي في مقدمة طبعته للكتاب لكن : أولاً : أن كثيراً من الطرق لم يرد فيها ذكر لابن أبي الثلج أصلاً وهي الطرق التالية . . .

وثانياً : أن الكتاب يحتوي على ما يتأخر عن عهد ابن أبي الثلج كما في فصل الأبواب والكلام عن وفاة السمري وسدّ باب النيابة في سنة ٣٢٩ بينما ابن أبي الثلج قد توفي سنة ٣٢٥ هجرية على أبعد تقدير . . .)[١] .

يقول عبد الحسين الصالحي : أن الشواهد التي ذكرها السيد الجلالي هذا لا تعني أن الكتاب لم يكن من مؤلفات ابن أبي الثلج وهناك احتمال ثاني وهو أن بعض علماء الشيعة أضاف إليه حواشي ثم أدرجه بعض الكتاب في متن الكتب وهذا ما حدث كثيراً في مؤلفات أصحابنا الامامية وذكرته في كتابي طبقات مفسري الشيعة الذي نقلت عنه هنا والمترجم له والد خديجة البغدادية المحدثة التي روت عن أبيها ابن أبي الثلج وذكرها الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٤٤٢ .

ومما يجدر ذكره هنا أن ابن أبي الثلج كان يعيش في عصر كانت فيه بغداد تمر في فترة تعصب أعمى لذا نرى أن ابن النديم يقول : (خاصي عامي والتشيع أغلب عليه . . .) . وهو من أسرة شيعية معروفة في بغداد .

ترك المترجم له مؤلفات منها : ١ - كتاب ما نزل من القرآن في أمير المؤمنين عليه السّلام . ٢ - كتاب البشرى والزلفى في فضائل الشيعة . ٣ - كتاب تاريخ الأئمة عليهم السّلام . ٤ - كتاب أخبار النساء الممدوحات . ٥ - كتاب أخبار فاطمة والحسن والحسين عليهم السّلام ، ٦ - كتاب من قال بالتفضيل من الصحابة ، ٧ - كتاب السنن والآداب على مذاهب العامة ، ٨ - كتاب الفضائل ، ٩ - كتاب الاختيار من الأسانيد . ١٠ - التفسير[٢] .

خواجة محمد بن إسحاق البخاري ، المشتهر بـ (شوكت) .

من شعراء أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الهجريين . وهو من أعقاب ملوك بخارا ، كان أبوه صرافاً في بخارا وقد عمل هو نفسه في أيام شبابه بالصرافة ، ثم بعد أن سرق الأوزبكيون أمواله سنة ١٠٨٨ سافر إلى مدينة هرات ، وبعد الإقامة فيها فترة تركها إلى خراسان ، ثم إلى العراق ، ثم إلى أصفهان . وفي أصفهان استقر وعاش في مقابر خارج المدينة منسوبة إلى الشيخ الكبير علي بن سهل بن أزهر الأصفهاني ، وكان قليلاً ما يخرج من غرفته إلى المدينة ، فإذا خرج فلكي يتصل بالشعراء وببعض أصدقائه . على أنه بعد فترة ابتعد عن الناس جميعاً .

توفي سنة ١١١٧ له دواوين وقصائد في مدح الإمام الرضا عليه السّلام ، وكذلك في مدح سعد الدين محمد راقم[٣] .

(١) مقدمة تاريخ أهل البيت عليهم السّلام بقلم السيد محمد رضا الحسيني ص ٥٤ - ٥٥ قم مؤسسة آل البيت عليهم السّلام .
(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .
(٣) تاريخ أدبيات إيران .

الشيخ فخر الدين محمد بن الشيخ الملا أسد الله بن عبد الله البروجردي .

توفي حدود سنة ١٣٠٦ .

من أكابر الفقهاء وأئمة الدين ومراجع التقليد في بروجرد أديب متفنن شاعر متقن أخذ المقدمات والعلوم العربية على أفاضل علماء عصره في بروجرد وحضر في الفقه والأصول على والده ملا أسد الله البروجردي المتوفى سنة ١٢٧١ ثم توجه إلى قزوين فحضر في الفلسفة على الملا آغا الحكمي وميرزا عبد الوهاب البرغاني الصالحي حيث كانت في قزوين آنذاك أهم المدارس الفلسفية . وحضر في الفقه والأصول على الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وشقيقه الشهيد البرغاني المستشهد في سنة ١٢٦٣ ثم رجع إلى موطنه بروجرد وأصبح من مراجع الأمور الشرعية قائماً بالوظائف الإسلامية ذكره في المجلد الثالث ص ٢٨٦ من أعيان الشيعة مع ترجمة والده الشيخ أسد الله وقال (. . . وخلف ثلاثة أولاد ذكور من ابنة الميرزا القمي صاحب القوانين وهم المحمدون الثلاثة الميرزا فخر الدين محمد (وهو المترجم له) وجمال الدين محمد ونور الدين محمد أجازهم أبوهم بإجازة واحدة وصرح باجتهادهم . . .)[٤] وذكره الوزير الإيراني الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة في كتاب المآثر والآثار على أنه من أكابر علماء العصر القاجاري ووصفه (. . . من أكابر المجتهدين ومن أهل الذوق والعرفان وكانت له رئاسة تامة في بروجرد وضواحيها وله اشعار . رأيت له ديوان شعر مثنوي وله ذرية وأولاد كثيرون . . .)[٥] .

من آثاره ديوان شعر ، وديوان مثنوي[٦] .

مير محمد أفضل الله آبادي المشهور بـ (ثابت) .

توفي سنة ١١٥١ في دهلي وكان مولده في الله آباد بالهند ، وفيها درس ، وما أسرع أن اشتهر بالشعر .

سافر إلى جهان آباد دهلي والتحق بقصر الملك ، ولم يطل الأمر حتى اعتزل هذه الحياة وبدأ بارشاد الأصحاب .

له ديوان يحتوي على ثلاثة آلاف بيت من الشعر وهو محفوظ في المكتبة البريطانية ، يتضمن قصائد في التوحيد ومدح النبي (ص) والأئمة عليهم السّلام وبعض معاصريه ، وفي أوله مثنوي في رثاء شهداء كربلاء ، وغزليات ورباعيات ومخمسات .

وفي سنة ١٢٢٨ طبع له ديوان في الهند ، لكن الظاهر أنه ليس له لأن فيه اشعاراً ركيكة ، ويبدو أنه وقع اشتباه بينه وبين شاعر هندي اسمه ثابت ، استنتج مير غلام علي آزاد .

للمترجم المطولات في استشهاد أبطال كربلاء ، وأيام شهر الحرم[٧] .

الشيخ أبو الفضل محمد بن الحسين الكاتب البيهقي .

توفي في صفر سنة ٤٧٠ .

من أعيان علماء الشيعة في بيهق مؤرخ كبير مؤلف محقق زعيم أخذ

(٤) انظر أعيان الشيعة ج ٣ ص ٢٨٦ بيروت دار التعارف للمطبوعات .
(٥) الميرزا حسن خان اعتماد السلطنة : المآثر والآثار ص ١٦١ الطبعة الحجرية الأولى طهران .
(٦) الشيخ عبد الحسين الصالحي .
(٧) تاريخ أدبيات إيران .

العلم عن جماعة من أفاضل بيهق ثم انخرط في سلك بلاط السلطان محمود حتى بلغ منصباً كبيراً في البلاط الملكي . كتب عنه أبو الحسن علي بن زيد البيهقي في كتابه تاريخ بيهق بما هذا تلخيصه وتعريبه : (الشيخ أبو الفضل محمد بن الحسين الكاتب البيهقي تزعم في بلاط السلطان محمود نيابة عن أبي نصر بن مشكان ثم ترأس في منصب كبير أيام السلطان محمد بن محمود وظل في البلاط السلطاني رئيساً للبلاط في عهد كل من السلطان مسعود والسلطان مودود والسلطان فرخزاد وبعد وفاة السلطان فرخزاد انعزل وانقطع إلى التأليف والتصنيف . ومن مؤلفاته كتاب (تاريخ ناصري) لأنه شرع بتأليفه من أيام السلطان ناصر الدين سبكتكين إلى أول عهد السلطان إبراهيم الغزنوي وهو يزيد على ثلاثين مجلداً رأيتها متفرقة في المكتبات وعند الأشخاص ولم أجدها مجتمعة في مكان واحد . . .)(١) ذكره شيخنا في موسوعته طبقات أعلام الشيعة وقال (. . . ورأيت له التاريخ العام المرتب على السنين من ٤٢١ إلى ٤٣٢ في نسخة عتيقة في مدرسة فاضل خان بمشهد خراسان جاء في خطبته : الصلاة على محمد وآله أجمعين . . .)(٢) .

طبع منه قسم من شوال عام ٤٢١ إلى آخر شوال عام ٤٢٦ هجرية الطبعة الأولى الحجرية في عام ١٨٦٢ م في كلكتا بالهند في ٨٦٨ صفحة والطبعة الثانية في طهران عام ١٣٠٧ هـ - ١٨٨٩ م بتصحيح الأديب النيشابوري ثم أعيد طبعه في عام ١٩٤٤ م بتصحيح الدكتور غني والدكتور فياض ثم أعيد طبعه عام ١٩٣٩ م وعام ١٩٥٣ م بتصحيح الدكتور سعيد نفيسي(٣) .

الشيخ محمد كاظم بن الشيخ محمد شفيع الهزار جريبي الأسترآبادي الحائري .

توفي في كربلاء سنة ١٢٣٧ ودفن في الرواق الشرقي من الحرم الحسيني المطهر عند قبر استاذه آقا باقر بهبهاني .

مرّ ذكره في أعيان الشيعة في الجزء العاشر صفحة ٤٢ نقلاً عن كتاب دار السلام ونزيد على ما هنالك ما يلي :

كان من أئمة التقليد والفتوى متبحراً مؤلفاً مكثراً . ولد في استراباد وأخذ المقدمات والسطوح في موطنه على أفاضل علمائها ومنهم والده الشيخ محمد شفيع ومنها هاجر إلى قزوين وكانت قزوين آنذاك منقسمة إلى شطرين بين الاخبارية والأصولية ويجري فيها بينهما صراع عنيف والتحق المترجم له بحوزة الأصوليين وأخذ الفقه والأصول والعلوم العقلية عن الشيخ محمد الملائكة البرغاني المتوفى سنة ١٢٠٠ زعيم الأصوليين في قزوين ثم توجه إلى أصفهان وحضر على الآخوند آغا محمد البيد آبادي المتوفى سنة ١١٩٧ ومنها توجه إلى العراق قاصداً الحوزة العلمية الكبرى وسكن كربلاء وحضر على الآغا باقر البهبهاني الحائري المتوفى سنة ١٢٠٥ والسيد علي الطباطبائي الحائري المتوفى سنة ١٢٣١ والسيد الميرزا مهدي الشهرستاني المتوفى سنة ١٢١٦ وأجيز منهم . كما صرح بذلك في كتابه تحفة المجاورين وبعد وفاة استاذه البهبهاني جلس للتدريس والفتوى وانتهت إليه المرجعية إلا أن أيامه لم تطل وكانت داره في محلة النقيب جنوب باب القبلة الحسيني ثم وقعت في الشارع التي أحدث حول الصحن الشريف عام ١٣٦٨ وترك مؤلفات علمية تربو على ستين كتاباً ورسالة ويقع بعضها في عدة مجلدات ضخمة وأشار إلى معظمها شيخنا في موسوعته الخالدة الذريعة إلى تصانيف الشيعة ، ومن مؤلفاته آداب الصلاة فارسية ، إرشاد المنصفين والزام الملحدين في الرد على الصوفية ، الأربعون حديثاً ، الافلاكية في النجوم ، الاقناعية في أصول العقائد ، البراهين الجلية في تفضيل آل محمد على جميع البرية ، البرهانية الكبرى في الإمامة ، تحفة الأخيار ، تحفة المجاورين وينقل فيه عن مشايخه وهو من مصادر كتاب دار السلام للنوري ، تنبيه الغافلين ، الجبر والإختيار وهو مرتب على أربعة فصول في تحقيق الجبر والإختيار ، والقضاء والقدر والخير والشر والهداية والضلالة ، جواهر الأخبار ومعتقد الأخيار فارسي ، حاشية المعالم ، حاشية على الحاشية الشيروانية على المعالم ، خواص القرآن فارسي في بيان خواص جملة من السور القرآنية ، الدرر الصافية في ترجمة وشرح بعض الكلمات القاصر لإمير المؤمنين علي عليه السّلام ، دعائم الإسلام يبحث في الإيمان والإسلام والشرك والكفر ، الرسالة الإحتجاجية ، السلمانية في فضائل سلمان الفارسي وأبي ذر وعمار والمقداد ، عقايد حيدرية ومعارف دينية فارسي في المبدأ والمعاد ، كاشف الغلو وهادي أهل العلو وهو رد على الشيخ أحمد الاحسائي المتوفى سنة ١٢٤١ ، كنز الفوائد في الإمامة ، مجمع الدرر في كرامات أمير المؤمنين عليه السّلام ، محك إيمان فارسي في أخلاق المؤمنين وأوصافهم ، مسائل العدل الأربعة الجبر والإختيار والقضاء والقدر والخير والشر والهداية والضلالة ، معارف الأئمة في عدة مجلدات ، معارف الأنوار في مجلدات عديدة ، منبه الجهال على وصف رئيس أهل الضلال في رد بعض العرفاء ، رسائل في الوضوء والصلاة وغيرها من كتب ورسائل عندنا أكثرها بعضها بخط المؤلف .

وكان والده الشيخ محمد شفيع المار الذكر من علماء عصره وتوفي بعد المترجم له عن عمر طويل في سنة ١٢٣٨(٤) .

السيد النقيب تاج الشرف محمد بن محمد بن أبي الغنائم المعروف بابن السخطة العلوي الحسيني البصري .

نقيب العلويين خلال القرن السادس للهجرة .

لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته . أخذ العلم عن جماعة من فحول علماء عصره ويروي عن أبي الحسن علي بن محمد العمري النسابة صاحب كتاب (المجدي) المتوفى بعد سنة ٤٤٣ ويروى عن المترجم له جماعة منهم النقيب محمد بن محمد بن أبي زيد الحسن العلوي الحسني البصري كما جاء في أسانيد كتاب (حجة الذاهب) للسيد فخار بن معد الحائري ذكره في طبقات أعلام الشيعة(٥) .

السيد النقيب أبو طالب محمد بن محمد بن أبي زيد الحسن الحسني البصري نقيب الطالبين في البصرة ومن أكابر علماء الشيعة في القرن السادس للهجرة .

---

(١) أبو الحسن علي بن زيد البيهقي : تاريخ بيهق تحقيق أحمد بهمنيار ص ١٧٥ طهران منشورات دانش .

(٢) الشيخ آغا بزرك الطهراني : النابس في القرن الخامس ص ١٦٣ بيروت دار الكتاب العربي .

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٥) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته . أخذ العلم عن أكابر علماء عصره منهم السيد النقيب تاج الشرف محمد بن محمد بن أبي الغنائم الحسيني العلوي البصري المعروف بابن السخطة المار الذكر والمترجم له والد النقيب أبي جعفر يحيى بن محمد الحسيني البصري وولده هذا هو استاذ ابن أبي الحديد الذي ينقل عنه الكثير في شرحه على نهج البلاغة وقد ترجمه مفصلاً في أعيان الشيعة[1] ويروى ولده المذكور يحيى عن والده المترجم له كما جاء في إجازته إلى النسابة السيد فخار بن معد الموسوي الحائري المؤرخة سنة ٦٠٤ هجرية والمذكورة في (حجة الذاهب) ذكره في طبقات أعلام الشيعة ولم أجد ذكراً للمترجم له في أعيان الشيعة .

الشيخ محمد باقر الهجري .

ولد في الاحساء عام ١٣٣٦ ونشأ وتعلم دروسه الأولى فيها ، ثم هاجر إلى النجف سنة ١٣٤٨ ودرس على علمائها .

من شعره قوله من قصيدة بعنوان في الطيارة :

خطرت فأرسلها اللسان خطاباً   وبدت فسجلها اليراع كتابا
توحي إلى الذهن الشر ودفينشي   وتجوب فيه فدافداً ويبابا
ورنت إلى جو الأثير بنظرة   لبست به هام السماك إهابا
ومشت إلى الأفق البعيد وقصدها   أتزيل عن دنيا الملاك حجابا
وسمت إلى خدر يعز مناله   والعلم قربه فأصبح بابا
نصبت لها المحراب فيه فأرسلت   نبغات آلهة الجمال عذابا
قرأت به سفر الوجود مرتلاً   عرفت به صنع الجميل مثابا
مزجت بها دنيا الطيور وراقها   دنيا الأنام غزت عليها الغابا
يتعاطيان من الأثير شرابه   يتبادلان من المنى أكوابا
دنيا الطيور وللجمال مسارح   فيها الجمال قد استحال وذابا
دنيا الطيور وللخيال معارض   توحي من الفن الجميل لبابا

* * *

دنياً من الآمال أثقل حملها   روح تمنت أن تنال طلابا
ورؤى من الآمال شع بها الفضا   مذ أرسلت نوراً أضاء شهابا
لعبت بها دنيا الجنون فقلصت   روحاً طموحاً للعلى وثابا
لولا بقايا من أماني عبقر   بقيت ثمالة كأسه تتصابى
رقصت له الآمال باعثة المنى   فتحت لعينيه المنى أبوابا
وصغى لصوت الروح يدوي في السما   فطغى به موج الأثير عبابا
دنيا الأماني والسدود تطلعت   لتنال من دنيا الزهور خضابا

فإذا بها في عمر لحظة عابر   تستاف من أرض الغري ترابا
بلد به الفن استطال ظلاله   قد مد أغصاناً له وأنسابا
مهد العلوم ترف فوق سمائه   روح من القدس استنار وطابا
مهد الفنون وشع في مصباحه   نور أضاء العالمين شهابا
بلد من الروح المقدس يرتوي   ما شاء علماً أو أراد جوابا
تهفو لذكراه النفوس فتنثني   كالفجر نسمته تجس مصابا
والساكنيه وان هم شحطت بهم   والقلب بعدهم يقطر صابا
أأبا الحسين وأنت نور لامع   ضاء الطريق لمن أراد صوابا
أأبا البلاغة والبيان قد ارتوى   من نهجك السامي البيان شرابا
أأبا الشجاعة والفروسة والندى   قد كان سيفك للعداة عذابا
أبا الهداة الطيبين ومن هم   كانوا لهذا العالم الأقطابا
هذي الملائك حوله قد رفرفت   زرفاً تود تقبل الأعتابا
والقبة الزرقاء ودت أنها   كانت لمثواه الكريم ترابا

وقوله :

ربة الفن والخيال العتيد   ابعثي الفن ملهماً في نشيدي
أنت آمالي العذاب ووحي   لحنته روح الهوى من جديد
أنت أحلامي اللذيذات فيه   بسمة القلب والخيال المديد
أنت أغنية مع الفجر تسري   من هتافات عاليات البنود
فابعثي ربة البيان شعوراً   واسكبيه منوراً في قصيدي
أين فكر عهدي به يرسل النور   شعوراً بملء صدر الوجود
ويطوف الحقول يسترق الحسن   من الغصن ناعم الأملود
يتخطى على الغدير ليقرا   في ضفافيه ناضرات الخدود
وبشيم الورود يقرأ فيها   بدعة الفن والجمال البديد
وإذا رف للبلابل ثغر   لعبت فيه نغمة الغريد
وإذا شم للزهور عطوراً   ضمخ الكون في أريج الورود
وإذا مادت الغصون وماست   لطف الحقل في بهاء البرود
ضج باللحن يرسل الشعر داو   جاوبته الطيور بالترديد
فإذا الكون فرحة والهتافات   تعالت لدى حداة البيد
همست وردة تقول لأخرى   أنه قلب شاعر مكدود

* * *

أين فكر عهدي به يرسل النور   شعاعاً مذوباً في نشيدي
يرسل الفكرة الطليقة خلواً   من أسار التقييد والتعقيد
ليرى الناس أن في القفر ماءاً   وسلافاً أحلى من العنقود
ويري الناس إن في الصمت نطقاً   يملأ الكون بالشعور العتيد
أخذ الناس بالقشور فتاهوا   وسط ثغر من العنا المنكود
نبذوا الدين فاستهانوا قواه   واستمالوا لبرقة ورعود
نسجت غشوة الظلام عليهم   وخبا النور مؤذناً بالشرود
صور ضاعت الحقائق فيها   فترامت وراء أفق بعيد
مذ رأى الشاعر المقاييس ضاعت   هجر الناس طالباً للنجود
مذ رأته الزهور في الحقل فرداً   وهو يوحي بحسنها المعهود
همست زهرة تقول لأخرى   أنه قلب شاعر مكدود

وله :

قلب يرف هوى إلى إخوانه   كالورد رف هوى على أغصانه

---

(١) انظر اعيان الشيعة ج ١٠ ص ٢٩٣ - ٣٩٥ بيروت دار التعارف للمطبوعات عام ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م . وهناك بعض الإضطراب في اسم والد يحيى ونسبه في أعيان الشيعة والصحيح هو (النقيب أبو جعفر يحيى بن السيد النقيب ابو طالب محمد بن محمد بن أبي زيد الحسن الحسني العلوي البصري نقيب النقباء في البصرة استاذ ابن أبي الحديد والراوي عنه في شرحه على نهج البلاغة والمعبر عنه (... كان النقيب أبو جعفر غزير العلم صحيح العقل منصفاً بالجدل غير متعصب فانه كان علوياً وكان يعترف بفضائل الصحابة وكان لا يجحد الفاضل فضله ...) يقول عبد الحسين الصالحي : وهو من مشايخ السيد فخار بن معد الموسوي الحائري كما نص في (حجة الذاهب) قال حدثني صاحب الترجمة بمدينة السلام سنة ٦٠٤ قال : أخبرني والدي ، قال : أخبرني تاج الشرف محمد بن محمد بن محمد بن أبي الغنائم المعروف بابن السخطة النقيب العلوي البصري ، قال أخبرني الشيخ الشريف الإمام العالم علي بن محمد بن الصوفي العلوي العمري النسابة (يعني صاحب كتاب المجدي) .

هم جـل منيتـه ومـطمـح بعثـه ... كـالـطير منيتـه لقـي أخـدانـه
تحلو الحيـاة بهـم فتبعـث بسمـة ... كـالـزهـر بسمتـه ربيـع زمـانـه
وهم الحيـاة سرورهـا وسعـودهـا ... وهم الـزمـان الحلو في نيسـانـه
وإذا الحيـاة وفت لهم بـوعـودهـا ... طفـح السرور ففـاض في تبيـانـه

* * *

يـا شعـر إذ الحفـل عني نفثـة ... من مكتـو ولـظاه من استجـانـه
وقـل الـسلام عليكم مـن شيق ... بـخـلائق كـالـغيث في تهتـانـه
قـل للشبـاب زمـانكم متحـرك ... هـل تـأخـذون القسط من دورانـه
نـادي الشباب ومن بهم يـرجى غداً ... والخـير مـوقـوف عـلى بنيـانـه
ونهضـتـم بـالحـي يـسـبـق طـيره ... طـير الـسـماء الحـر في طـيرانـه
فـاض النبوغ عـلى المدائن والقـرى ... كجـداول الفـردوس في جـريـانـه
قم وانـظر الجـارات تجـري سرعـاً ... وتـسـابق الـنسريـن في كـيـوانـه
سـترى المعارف آهـلات تـزدهي ... بـالـنـابغـين تنعـمـوا بجـنـانـه
الســاهـرين عـلى العلوم تشـوقـاً ... مـزقوا أحجـاب الجهل من أرسـانـه
من كـل غـرس للفضيلة والنهي ... بـعـلومـه وبـنـانـه وبـيـانـه
وأشـاد لـلأخـلاق أعـظم منـبر ... سجـدت لـه الـدنيا عـلى عيدانـه
ركن من الأخـلاق يـدعمـه النهي ... بـاق بـقـاء الـدهـر في دورانـه

* * *

يـا نخبـة الأدب الـرفيـع تشـوفـوا ... لـلنـجم يشرق في عـلي لمعـانـه
وتـطلعوا للصبـح فجـراً صـادقـاً ... في الجـو وانتشقـوا شـذا ريحـانـه
مـا قيمـة الأدب الـذي لا يـبتـي ... إلا عـلى ذكـر الـغضـا أو بـانـه
ليس الـزمـان زمـان ذكـرى دمنـة ... أو ذكـر نـاعـمـة العقيـق وآنـه
الـنشء أن الـنشء أعـظم ثـروة ... فـألـقـوا دروس الـعـز في آذانـه
آذانـه تهـفـو لمـقـول (جـرول) ... وفـؤاده يهفـو عـلى (سحبـانـه)
يهـفـو إلى الأفـق الـبـعـيـد لـعلـه ... يجـد الـذي يحنـو عـلى أوطـانـه
ويـود لـو طـلع الهـلال بـأفـقـه ... يمحـو ظـلام الجهـل من شـطآنـه
يـا وحي إلهـام الشعـور تحيـة ... مـن مخلص قـد زف ود جنـانـه

محمد حسن شهريار .

ولد في تبريز سنة ١٩٠٤ م وتوفي سنة ١٩٨٨ م .

أتم دراسته في مدرسة دار الفنون ، وانتسب إلى معهد الطب وظل يتابع دراسته فيه حتى السنة الأخيرة التي لم يتمها بعد أن تغلب عليه الاتجاه الشعري .

وقد اكتشف شاعريته شاعر إيران الشهيرهار . وعندما طبع باكورته الشعرية سنة ١٩٣١ م قدّم لها بهار نفسه واعتبره مفخرة إيران في المستقبل .

وحين بلغ الثانية والعشرين من عمره نظم مثنوياً بعنوان (روح بروانه) أي : روح الفراشة ، وعندما طبع وانتشر كان موضع الإعجاب والتقدير في الأوساط الشعرية الإيرانية ، على أنه انساق مع شعراء المديح الذين طالما كان يصغي إلى اشعارهم . وقد تُرجم إلى اللغة الإنكليزية بعض أشعاره ، وكذلك إلى اللغة الفرنسية .

وعند إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما أرسل رسالة شعرية إلى (انشتاين) أسماها صوت الله دعا فيها إلى السلام ونبذ الحرب .

وكان يتقن اللغة الآذرية فنظم بها منظومتين هما : (حيدر باب يه) و (سلام وساولان) كان لهما الأثر البالغ لدى الآذربايجانيين وانتشرتا في أوساطهم انتشاراً واسعاً .

وعندما قامت الحرب العراقية الإيرانية الأخيرة شارك فيها بشعره الحماسي الذي كان يذاع في الإذاعة والتلفزيون ويلقى في المجتمعات العامة .

نظم شهريار قرابة خمسة عشر ألف بيت من الشعر ، وكان شديد التعلق ببلدته تبريز ، وتقديراً له أقامت جامعة تبريز حفلاً لتكريمه سنة ١٩٨٤ م ساهم فيه صفوة من العلماء والأدباء .

ويمكن تلخيص خصائصه بأنه يعد شاعر الغزل مع أنه نظم في معظم الأغراض الشعرية ، وأنه يبدع في عرض الصور الفنية الجميلة فمن مثلاً قصائده) (مولانا في منتجع شمس التبريزي) (تخت جمشيد) و (قيدتا الفردوس) وغير ذلك مما يعد نموذجاً فائقاً لمنظوماته الإنشادية التي ابتعد بها عن التقليد والإبتذال .

كان شهريار عتيق المعرفة بالموسيقا الإيرانية ، وكان أيام شبابه يعزف على القيثارة ، كما كان على صلة بالفنانين أمثال (صبا) و (بنان) وغيرهما ، وربما كان تعمقه بالموسيقا وصلاته بالموسيقيين أثر في اختياره أرق التعابير في شعره ، حتى غدت كلماته ذات جرس موسيقي جذاب ، وكثيراً ما كان يترنم بأشعاره بمرافقة مجموعة موسيقية كان يتقن اللغة العربية وذا ثقافة فرنسية واسعة .

الشيخ محمد حسن بن الشيخ ملا صفر علي البارفروشي اللاهيجاني القزويني المعروف بالشيخ الكبير .

ولد في قزوين حدود سنة ١٢٤٠ هـ وتوفي في شهر شوال سنة ١٣٤٥ في بارفروش عن عمر طويل ودفن بمقبرة بارفروش .

من أكابر العلماء وأئمة التقليد والفتوى في عصره . مؤلف محقق من زعماء الدين المشاهير ، ولد في بيت علم وفلسفة ونشأ على حب العلم وكان والده من أكابر فلاسفة قزوين المشاهير ومر ذكره في الجزء الثالث من مستدركات أعيان الشيعة ص ١٠٥ .

أخذ الأوليات والعلوم العربية على أفاضل علماء قزوين ثم حضر في الفقه والأصول على الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وشقيقه الشهيد البرغاني المستشهد في سنة ١٢٦٣ وأخذ الفلسفة والعرفان الإلهي على والده الفيلسوف الشهير في عصره ، ثم هاجر إلى العتبات المقدسة في العراق وتوطن كربلاء وأخذ العلم عن العلمين الشيخ حسن البرغاني الحائري الصالحي والشيخ محمد تقي الهروي الحائري المتوفى سنة ١٢٩٩ . ثم رجع إلى موطنه قزوين وبعد مدة هاجر منها إلى مدينة بارفروش وتصدر هناك كرسي التدريس والفتوى وكان مرجع الأمور الشرعية في بارفروش والزعيم الروحي بها حتى وفاته. ذكره الوزير الإيراني الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة في مصاق أكابر علماء عصر ناصر الدين الشاه القاجاري في كتابه المآثر والآثار بما هذا تعريبه (الشيخ محمد حسن من أكابر العلماء في ناحية بارفروش والمشهور هناك بعنوان الشيخ الكبير وفي سنة ١٢٩٢ قابل السلطان ناصر الدين شاه القاجاري . . .)(١) .

---

(١) الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة : المآثر والآثار ص ١٧٧ طهران الطبعة الحجرية الأولى سنة ١٣٠٦ هجرية .

ترك المترجم له مؤلفات كثيرة بين مخطوط ومطبوع من مؤلفاته المطبوعة : ١ - نتيجة المقال في علم الرجال طبع في طهران سنة ١٢٨٤ طبعة حجرية . ٢ - حديقة الشيعة طبع في طهران . ٣ - حديقة العارفين طبعت الترجمة الفارسية في طهران سنة ١٣٢٣ . ٤ - سراج الأمة في شرح اللمعة طبع في طهران سنة ١٣٢٦ . ٥ - تعليقة على شرح التصريف للتفتازاني طبع في طهران سنة ١٣١٣ . ٦ - حاشية على فرائد الأصول للشيخ مرتضى الأنصاري طبعت في طهران في مجلدين سنة ١٣٣٢ طبعة حجرية . ٧ - الرسالة العملية باسم صراط النجاة وغيرها .

والمترجم له هو شقيق الشيخ الميرزا أحمد اللاهيجاني القزويني والشيخ الميرزا حسين اللاهيجاني القزويني المذكورين في المآثر والآثار أيضاً[١] .

الشيخ الميرزا محمد حسن بن محمد ولي بيك الافشار البكشلولي الأرومي .

توفي بعد سنة ١٢٦٠ .

من أئمة الدين والفتوى وأعلام عصره أديب متضلع وشاعر متكلم أخذ المقدمات وعلوم العربية على أفاضل علماء تبريز ومنها هاجر إلى قزوين وتتلمذ في الفقه والأصول والحديث على الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وشقيقه المستشهد سنة ١٢٦٣ وفي حدود سنة ١٢٤٣ هاجر إلى كربلاء والتحق بحوزة شريف العلماء المازندراني الحائري المتوفى سنة ١٢٤٦ وبعد وفاة أستاذه المازندراني رجع إلى إيران وكان من المعاصرين للسلطان محمد شاه القاجاري المتوفى سنة ١٢٦٤ وقد ترجم باسمه المجلد الثالث عشر من بحار الأنوار للمجلسي إلى الفارسية في حدود سنة ١٢٦٠[٢] وقد طبع مكرراً في سنة ١٣٢٩ .

وله مؤلفات وآثار منها ديوان شعر في مدح ورثاء الأئمة عليهم السّلام ، عقد الفرائد في شرح القصائد : قال عنه في الذريعة : (عقد الفرائد في شرح القصائد : وهي قصائد خمس نظمها المولى محمد حسن بن محمد ولي الأورمي ... كلها في مدائح أهل البيت (ع) وكلها خالية من الحروف المنقوطة فعمد إليها المولى علي بن علي رضا الخوئي الخاكمرداني من قرى خوى المولد في ١٢٩٢ - والمتوفى في ١٣٥٠ فخمس تلك القصائد أولاً ثم شرح المخمسات الخمس جمعاً فالأولى من المخمسات في مدح النبي والوصي ... وعناوين الشرح : اللغة ، الإعراب ، البلاغة ، العروض ، المعنى ، الترجمة الفارسية ...)[٣] .

وللمترجم له شرح قصيدة البردة للبوصيري المتوفى سنة ٦٥٦ هجرية شرحها باسم السلطان محمد شاه القاجاري[٤] .

محمد رضا ابن الخواجة ظهير الدين عبد الله الأصفهاني المشهور بـ (شكيبي) من أعقاب خواجة عبد الله الإمامي العارف ، لذلك اشتهر بالإمامي .

ولد سنة ٩٦٤ في أصفهان وتوفي سنة ١٠٢٣ بدهلي في الهند .

سافر إلى العراق وآذربايجان وخراسان ، وقضى معظم حياته على سفر ، وبقي مدة في مشهد الرضا (ع) . وفي مدينة هرات درس فنون

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .
(٢) انظر الكرام البررة : ج ١ ص ٣٦٠ ومؤلفين كتب جابي ج ٢ ص ٦٦٤ الطبعة الأولى .
(٣) انظر الذريعة إلى تصانيف الشيعة : ج ١٥ ص ٢٩٣ بيروت دار الأضواء .
(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

الأدب والشعر والمطالب العلمية ، ومن هناك سافر إلى شيراز ودرس عند مير تقي الدين النسّابة الشيرازي ، ثم تركها إلى أصفهان .

وفي سنة ٩٩٨ سافر إلى الهند بطريق البحر فوصل إلى ميناء جيول وذهب إلى كجرات للقاء الميرزا عبد الرحيم خان خانان ، وعندما وصلها بلغه أنه سافر إلى العاصمة فتبعه إليها ، فكان موضع احترامه ، ثم سافر معه إلى السند والدكن . ثم تركه وسافر إلى ولاية مالوه ، وهناك اشتد عليه المرض فنذر أن شافاه الله أن يزور الحرمين ، فلما شفي وفى نذره ، وظل ثلاث سنوات بين مكة والمدينة ، ثم عاد إلى الهند . وفي مدينة برهان پور لازم خان خانان ، ولم تطل إقامته هناك إذ سافر إلى دآگره) ، وعن طريق مهابت خان تعرف على الملك نور الدين محمد جهانگير سنة ١٠١٩ فقربه إليه كثيراً بحيث عين لولاية دهلي .

كان شاعراً متميزاً ، نظم (ساقي نامه) باسم عبد الرحيم خان خانان فأجازه بعشرة آلاف ربّيه . وكانت له مجالس ممتعة ، وترك عدة دواوين[٥] .

محمد بن هاني الأندلسي

مرت ترجمته في المجلد العاشر ، ومرت كلمة عنه في المجلد الأول من (المستدركات) وننشر هنا هذه الدراسة المكتوبة بقلم الدكتور منير ناجي :

لا يعرف السبب الذي من أجله أهمل مؤرخو الأدب الأندلسي القدماء هذا الشاعر ، ونحن لو تصفحنا كتب التاريخ الأدبي القديمة لا نكاد نظفر منها بما يغني ، لقد أهملوه في الأندلس ، وأهملوه بعيداً عن الأندلس ، ونتساءل عن سبب هذا الإهمال فلا نجد لهم عذراً[٦] مع اعترافهم بأنه من أحسن شعراء الأندلس ديباجة شعرية ، وأجوَدهم قريحة ، وأعجب من هذا أنهم لم يتفقوا على مكان ولادته ، وتاريخها فابن الأبار يؤرخ له على أنه محمد بن هانيء بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي ، غلب ذلك عليه من أهل البيرة ونشأ بقرطبة ، يكنى أبا القاسم ، وهو من ولد المهلب بن أبي صفرة . . وأبوه من قرية من قرى المهدية ، دخل الأندلس ، وولد له ابنه أبو القاسم بها ، وكان أكثر تأدبه بقرطبة[٧] . وواضح من هذا الكلام ، أن الشاعر ولد بالبيرة وتأدب في قرطبة ، ولكن متى ولد ؟ أمر لم يكن ليهم المؤرخ فلم يحقق به وذكر مؤلفو المغرب في حلي المغرب أن أصله بني المهلب الذين ملكوا أفريقيا وانتقل أبوه منها إلى جزيرة الأندلس وسكن البيرة فولد له بها محمد بن هانيء المذكور[٨] وصاحب بغية الملتمس لا يكلف نفسه عناء التحقيق ، فيكتفي بأن يذكر أنه محمد بن هانيء شاعر أندلسي ، خرج عن الأندلسي ، فشهر شعره في الغربة . . الخ[٩] ، دون أن يشير إلى تاريخ ولادته ، وكيفية نشأته ، بيد أن ابن خلكان ، يحدثنا شيئاً عنه وعن أبيه فهو كما يقول أبو القاسم وأبو الحسن بن هانيء الأزدي الأندلسي الشاعر المشهور قيل : أنه من ولد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة ، وقيل بل هو من ولد أخيه روح بن

(٥) تاريخ أدبيات إيران .
(٦) أن تشيع ابن هاني هو الذي دعا إلى إهمالهم هذا الشاعر العظيم ، وهكذا فعلت وستظل تفعل العصبيات السوداء (ح) .
(٧) ابن الأبار : تكملة ج ١ - ٩ ص ١٠٣ رقم ٣٥٠ . قال الحجاري : البيرة كانت قاعدة المملكة في القديم .
(٨) ابن سعيد المغرب في حلي المغرب ج ٢ ص ٩٧٠ .
(٩) الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ص ١٣٠ رقم ٣٠١ . ابن سعيد المغرب في حلي المغرب ج ٢ - ص ٩٣ .

حاتم ، وكان أبوه من قرية من قرى المهدية بأفريقية ، وكان شاعراً أديباً ، فانتقل إلى الأندلس فولد محمد المذكور بمدينة أشبيلية ، ونشأ بها واشتغل وحصل له حظ وافر من الأدب(١) وأما بالنسبة لياقوت الحموي فهو أبو القاسم الأزدي الأندلسي من ولد روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب : شاعر مفلق ، واشعر المتقدمين والمتأخرين من المغاربة ، وهو عندهم كالمتنبي عند أهل المشرق ، ولد بأشبيلية ونشأ بها ونال حظاً واسعاً من علوم الأدب وفنونه . . . الخ(٢) وصاحب الإحاطة يؤرخ له على أنه « محمد بن هانيء بن محمد بن سعدون الأزدي الغرناطي ، من أهل قرية سكون يكنى أبا القاسم ويعرف بالأندلسي ، وكأنها تعرفة بينه وبين الحكم أبي نواس . قال غير واحد من المؤرخين وهو من ذرية يزيد بن حاتم بن المهلب بن أبي صفرة وقيل من ولد روح بن حاتم . . . الخ(٣) . وأما صاحب المطمح فيكتفي بجمل مسجعة منمقة ، يقرظ فيها الشاعر ، دون أن يشير إلى ما يتعلق بولادته ونشأته ، فهو الأديب أبو القاسم محمد بن هاني ، ذخر خطير ، وروض أدب مطير ، غاص في طلب الغريب حتى أخرج دره المكنون ، وبهرج بافتنانه فيه كل الفنون . . الخ(٤) . نقل المقري قول ابن خلكان في المطمح نقلاً حرفياً دون زيادة ولا نقصان(٥) كما نقل صاحب شذرات الذهب ما جاء في وفيات الأعيان عن ابن هاني(٦) وينفرد عن بقية هذه المصادر بذكر قصة لا ترتكز على واقع تحدث فيها عن اجتماع ابن هاني بالمتنبي سنعرض لها فيما بعد .

هذا مجمل ما ذكره القدماء عن ابن هاني فماذا نستخلص منه ؟ أما أنه عربي فهذا لا شك فيه إذ أنه يقول :

فإني من العرب الأكرمين ... وفي أول الدهر ضاع الكرم (٧)

وهو أيضاً أزدي ، والأزد من القبائل اليمانية .

تسير القوافي المذهبات أحوكها ... فتمضي وان كانت على مجدكم وقفا
يمانية في نجرها أزدية ... أفصلها نظماً وأحكمها رصفا(٨)

وأما أن اسمه محمد بن هانيء ، وكنيته أبو القاسم ، فعلى هذا كل المؤرخين ، ولكن أين ولد ؟ ومتى ؟ فلنا في هذا رأي نميل إليه ولا نقطع به وذلك بالنسبة لهذا التضارب في الأقوال والإختلاف في الروايات .

ذكر أكثر المؤرخين أن ابن هاني ولد في أشبيلية إلا أن ابن الأبار في التكملة وابن الخطيب في الإحاطة فهو عند الأول من أهل البيرة Elvira ونشأ في قرطبة ، هو عند الثاني ، من أهل قرية سكون ، ونشأ في غرناطة ونحن بين هذا وذاك وغيرهما ، في حيرة من الأمر نحاول الإهتداء إلى نقطة ارتكاز نبني عليها آراءنا فلا نوفق ، بيد أنه إذا ما عدنا إلى هانيء والد الشاعر ، هذا الذي جاء من قرية من قرى المهدية في أفريقيا إلى الأندلس وهو شاعر أديب نجيز لأنفسنا أن نعتقد بأن هانيء لا بد وأن يكون قد مر بمدارس المهدية التي تعلم الأصول الشيعية فقال بما قال به الشيعة ولنا أن نفترض ، بأنه ربما يكون قد اختير للدعوة في أرض الأندلس التي كان الفاطميون يودون الإستيلاء عليها ، وطبيعي أن يبحث الداعي عن مكان يجد فيه شيئاً من الحرية في القول والعمل ، يساعده على ذلك طبيعة جميلة ، ومن الضروري أن يبتعد هاني عن البلد المتزمت الذي يسيطر فيه المتزمتون ، وهم في تزمتهم لا يسمحون بما لا يتفق مع آرائهم ، وقرطبة فيها المنذر بن سعيد وأمثاله ، لا يستطيع أن يعيش فيه من كان داعية لغير مذهبهم ؛ ولم تكن غرناطة بأقل حفاظاً على ذلك لذا لم يبق أمام هانيء بن محمد إلا اللجوء إلى أشبيلية البلد الجميل بطبيعته الغني بظرف أهله ، الميالين للمرح ، حيث يستطيع أن يعمل هناك بهدوء ، غير خائف ولا مترقب ، في هذا البلد يستطيع هانيء بعيداً عن تزمت أهل قرطبة ، وجمود أهل غرناطة ، وفي أحضان طبيعة أشبيلية ، أن يعمل آمناً لذا لا استبعد أن يكون هانيء هذا اختار هذه المدينة مقراً له ، وربما طوف في الأندلس كشأن الدعاة في كل زمن ، قبل أن يستقر في أشبيلية حيث ألقى عصا الترحال ، وهناك أبصر ابنه أبو القاسم النور ونحن لا نعتقد بأن هانيء هذا ، وقد جاء داعية كما نرجح ، يسكن قرية وهمّ الدعاة أن يكونوا حيث يكثر الناس وتتناقش الآراء .

لم يتحدث المؤرخون الذين ذكروا شيئاً عن ابن هاني عن تاريخ ولادته ، ولكنهم اتفقوا على أنه مات في سنة إحدى وستين أو اثنتين وستين وثلاثمائة(٩) والمؤرخون مع اجماعهم على أن وفاته كانت في حدود هذا التاريخ ، اختلفوا في عمره فمنهم من قال : أنه توفي وله من العمر اثنتان وأربعون سنة(١٠) ومنهم من لم يستطع البت في ذلك فقال : قيل توفي وهو ابن ست وثلاثين سنة أو اثنتين وأربعين(١١) ، ونحن لا سبيل لنا إلى الشك في تاريخ وفاته ـ مع أن صاحب كتاب شذرات الذهب نقل عن كتاب العبر القول الآتي : كان منغمساً في اللذات والمحرمات ، متهماً بدين الفلاسفة ، شرب ليلة عند ناس فأصبح مخنوقاً ، وهو في عشر الخمسين (انتهى) وعلى كل فنحن لا نشك بتاريخ وفاته .

شعر صباه

كنا نستطيع أن نغفر للمؤرخين إهمالهم لابن هاني لو أن الذين جمعوا ديوانه حفظوا لنا شيئاً من شعر صباه ، أي ما قاله في الأندلس ، ولكن ما أن نمسك بالديوان لنقلب صفحاته حتى نعرف أنهم ما جمعوا له إلا ما قاله في أفريقية مادحاً أو رائياً ، وهكذا لا نجد في ديوانه قصيدة واحدة تعود إلى عهده في الأندلس ، ولا نقع لأي ذكر لتلك الطبيعة الجميلة طبيعة أشبيلية التي نشأ بين أحضانها ، ولقد أصاب صاحب بغية الملتمس في قوله عنه ، « خرج عن الأندلس فشهر شهرة في الغربة »(١٢) .

إذن فنحن لا نظفر بطائل فيما يتعلق بشعر صباه مهما بذلنا من جهد ، وما أظننا نظفر بما ينقع الغليل ، بيد أني اعتقد أن شعره في صباه ، ما كان يخرج عن الإطار المفروض في شعر أمثاله من الشباب ، ولست أبعد إذا قلت أن ابن هانيء ككل شاب ، يحب الحياة بلهوها ومرحها ، ويقبل عليها إقبال

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٩ .
(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١٩ ص ٩٢٠ .
(٣) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ٢١٢ .
(٤) ابن خاقان : مطمح الأنفس ص ٧٤ .
(٥) المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ١٨٣ .
(٦) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ص ٤١ ـ ٤٣ .
(٧) ديوان ص ٧١٥ رقم ٥٠ بيت ٧٥ .
(٨) قصيدة ٣١ ص ٤٥١ بيت ٥٨ ـ ٦٠ .

(٩) إحاطة ج ٢ ص ٢١٢ . وفيات ج ٣ ص ٤٩ . تكملة ج ١ ص ١٠٣ ترجمة ٣٥٠ . معجم الأدباء ج ١١ ص ٩٢ شذرات الذهب ج ٣ ص ٤١ ـ ٤٣ تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٤٦ .
(١٠) إحاطة ج ٢ ص ٢١٢ . ياقوت ج ١٩ ص ٩٢ .
(١١) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٩ .
(١٢) الضبي ـ بغية الملتمس ص ١٣٠ رقم ٣٠٢ .

من يريد ان يروي غليلاً من لذائذها .

إن نظرة نلقيها على الكتب التي أرخت لابن هانيء ترينا أن الشاعر قد اضطهد فاضطر للهرب . ولكن لِمَ اضطهد ؟ هذا ما نريد أن نعرفه .

لو قرأنا ما قاله ابن الابار في هذا الصدد لرأيناه لا يعرض للسبب الذي من أجله اضطهد ، فهو يقول . . . ثم استوطن أبوه البيرة ، وخرج هو منها[١] أما لِمَ خرج ومتى وكيف فلم يهم المؤرخ ، لذلك ضرب عنه صفحاً . أما ابن خاقان فيرد سبب اضطهاده ، ونزوحه عن الأندلس ، إلى ما كان يقول به من غلو ، وذلك بجملة منمقة موشاة بالسجع والمحسنات البديعية ، فيقول : وأبدي من الغلو ، وتعدى الحق المجلو ، فمجته الأنفس ، وازعجته عن الأندلس[٢] أوابن خلكان يرى أنه كان كثير الإنهاك بالملاذ ، متهماً بمذهب الفلاسفة ، ولما اشتهر ذلك عنه نقم عليه أهل أشبيلية[٣] ولكن ياقوت الحموي يؤكد لنا أن ابن هانيء كان متهماً بالفلسفة ، يسلك في أقواله وأشعاره مسلك المعرى ، وما زال يغلو في ذلك حتى تعدى الحق ، وخرج في غلوه إلى ما لا وجه له في التأويل ، فازعجه أهل الأندلس[٤] ، وابن الخطيب لا يزيد على أن يصفه بأنه كان من فحول الشعراء ، وأمثال النظم ، وبرهان البلاغة ، لا يدرك شأوه ، ولا يشق غباره ، مع المشاركة في العلوم ، والنفوذ في فك المعمى[٥] ، ولسنا نرى أن فحولة الشعر ، وبلاغة المنطق ، والمشاركة في العلوم ، تسبب الإضطهاد . أما ما قاله المقري في هذا الموضوع فما كان إلا ما قاله ابن خاقان في مطمح الأنفس نقله نقلاً حرفياً ، لم يزد فيه ولم ينقص[٦] .

هذا مجمل آراء الذين أرخوله ، وهذا ما يجعلنا أكيدين من أن الشاعر لم يخرج مختاراً من الأندلس ، بل فارقها كارهاً ، أزعجه أهلها عنها ، لأنه يقول بمقالة الفلاسفة ، وينهمك بملذاته ويغلو في أقواله إلى ما لا وجه له في التأويل ؛ والقول بأن الإنغماس بالملذات سبب أساسي في حملة أهل الأندلس عليه ، قول فيه كثير من المبالغة إذ أن في الأندلس لذلك العهد وما بعده ، أناساً انغمسوا حتى آخر حدود الإنغماس في الملذات ، فهم يشربون الخمرة ويعاشرون النساء ، وربما انغمس بعضهم بحب الذكور ، وما رأينا الناس ، وإن كرهوهم ولاكت سمعتهم الألسن ، ازعجوهم عن ديارهم .

بقي علينا أن نناقش اذن السببين الأخيرين وهما القول بالفلسفة أو مشايعة الفلاسفة على آرائهم ، والغلو الذي لم يعد يمكن تأويله ، فكيف نفهم هذا ؟ وأي السببين كان العامل المباشر في طرده من الأندلس ؟

أنا لا أعتقد أن ابن هانيء كان مشايعاً للفلاسفة يقول بمقالتهم ويتبع آراءهم ، حتى ولست أرى أنه درس الفلسفة لا متعمقاً ولا متصفحاً ، وهذا الرأي نستند في دعمه إلى ديوان الرجل الذي لا نرى فيه خاطرة فلسفية ، ولا تفكيراً يدل على أن صاحبه عرف الفلسفة بمفاهيمها الشائعة في ذلك الزمن ، ولسنا نعتقد أن الإنسان يمكن أن ينسى ما كان قد اطلع عليه في سني دراسته من آراء مخالفة للمألوف الأكثرية ، ثم إنه لا بد أن يخرج عن لسانه أقوال فيها مظهر فلسفي إذا ما كان قد آمن بالفلسفة في شبابه ، وإذا لم يؤمن فلا بد من أن يلمح في بعض الأحيان إلى بعض هذه الآراء التي يمكن أن نعدها من قبيل الفلسفة ، أو من قبيل التفكير الحر على الأقل .

وديوان الشاعر الذي بين أيدينا لو تصفحناه لما وجدنا فيه فكرة فلسفية . ثم إن ابن هانئ لا يذكر في شعره أي علم من أعلام الفلسفة كما يفعل المتنبي مثلاً . بينما نراه يتحدث عن الحوادث والأحداث التي مرت على الطالبيين إلى كل ما يتعلق بالتاريخ الإسلامي كما يذكر بعض شعراء العربية القدامى كعلقمة الفحل ، وامرىء القيس أو بعض فرسانها كعمرو بن معدي كرب مثلاً ، وكثيراً غير هؤلاء .

من كل هذا نستنتج أن ابن هانيء لم يعرف الفلسفة كفن قائم بذاته ، دعامته التفكير الحر الطليق من كل قيد ، بل رأى أنه عرف التشيع بتعاليمه أما على أيدي رجال متخصصين ، أو أنه عرفه على أبيه وهذا ما نرجحه ، فقال به مجاهراً ولم يتستر كما كان يفعل أبوه ، فأغضب الأمويين ، وعمال الأمويين ، فكان من نتيجة هذا أن خرج إلى الأندلس ميمماً وجهه شطر أفريقية حيث دعامة المبدأ الفاطمي قوية هناك ، وحيث تمارس العقيدة بحرية تامة . ولنستمع إليه يشير إلى ذلك بنفسه :

دعاني لكم ود فلبت عزائمي	وعنسي وليلي والنجوم الشوابك
ومستكبر لم يشعر الذل نفسه	أبي ، بابكار المهاول فاتك
رلو علقته من أمية أحبل	لجب سنام من بني الشعر تامك
ولما التقت أسيافها ورماحها	شراعاً وقد سدت علي المسالك
أجزت عليها عابراً وتركتها	كان المنايا تحت جنبي آرائك
وما نقموا إلا قديم تشيعي	فنجى هزبرا شده المتدارك

والبيت الأخير إقرار أوضح ، بأنه كان شيعياً قبل خروجه ، وان هذا أثار نقمة الأمويين وعمالهم والأندلسيين المتعصبين فهرب الشاعر ناجياً بنفسه .

وهكذا كان ابن هانيء شيعياً ، يجاهر بعقيدته فيكرهه اتباع الإمويين ، فيغرون به صاحب أشبيلية ، ويضطر هذا إلى أن يطلب من الشاعر أن يتوارى عن أنظار الناس في أشبيلية ، فيهاجر ابن هانيء وهو موقن أنه لو علقت به حبال بني أمية لجب سنام من بني الشعر تامك .

خروجه من الأندلس = في عهد من وكم كان عمره

رأينا ابن هانيء ينزح عن مسقط رأسه بناء على رغبة حاكم أشبيلية الذي أشار عليه بالغيبة عن البلد مدة ينسى فيها خبره[٧] ، أو دراء للفتنة[٨] ، بل وربما تعرض الحاكم نفسه إلى مقت العامة وغضبهم لصحبته ابن هانيء[٩] ، فيمم وجهه شطر المغرب الأفريقي ، حيث حاضرة التشيع عامرة ، وحيث يدعى للعقيدة علانية .

ويهمنا الآن أن نعرف ففي عهد أي حاكم من حكام أشبيلية خرج ابن هانيء من الأندلس .

لقد رجعنا إلى كتب التاريخ القديمة والتراجم علنا نجد شيئاً شافياً بما يتعلق بمعرفة الحاكم الذي صحبه ابن هانيء ، وغادر الأندلس في عهده ، فلم نوفق إلى ما يغني ، غير أن ابن الأبار يذكر أن عبد الرحمن بن بدر ولي

(١ ، ٢ ، ٣ ، ابن الفرضي ـ تاريخ علماء الأندلس ج ١ ٣٢٦ ، ٣٣٧ ، ١٢٠ .
(٤) ابن الأبار ـ التكملة ج ١ ، ١٠٣ .
(٥) ابن خاقان ـ مطمح الأنفس ص ٧٤ .
(٦) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ج ٣ ، ٤٩ .
(٧) ياقوت الحموي ـ معجم الأدباء ج ١٩ ، ٩٢ .
(٨) ابن الخطيب ـ الإحاطة في تاريخ غرناطة ج ٢ ، ٢١٢ .
(٩) المقري ـ نفح الطيب ج ٥ ، ١٨٣ .

للناصر الوزارة والكتابة والعروض والخزانة وصرفه في عمارة كورة أشبيلية(١) . ولكن لا نعلم في أية سنة وليها ولا متى أعفي منها ، وهل لحق ابن هانيء عهده أم لا . ويذكر المؤلف رجلاً آخر كان مولى نعمة لبني أمية ، هو إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد أبو بكر « ولي أشبيلية للناصر عبد الرحمن بن محمد وكان أثيراً لديه ومنادماً له وعاش إلى دولة ابنه الحكم المستنصر بالله . . . ذكره ابن الفرضي في تاريخه وذكر أن صناعة الشعر غلبت عليه وهو أحد المكثرين وله الناصر .

لو كان يعبد دون الله من أحد ما كان غيرك في الدنيا بمعبود
قد فات قدرك وصف الواصفين فما ذكراك إلا بتحميد وتمجيد
لما ذكرتك يوماً قلت في جذل يا نعمة الله في أيامه زيدي(٢)

هذا الرجل الذي ولي للناصر أشبيلية ، وعاش إلى أيام الحكم ، حتى بعد خروج ابن هانيء من الأندلس ، وكان شاعراً هل كانت بينه وبين ابن هانيء صداقة تربط بينهما ، ثم هل جمعت بينهما صنعة الشعر فتصافيا وتحابا حتى لم يطلب منه إلا أن يتغيب حتى ينسى خبره ؟ قد يجوز ذلك ولا أرى مانعاً يحول دون هذه المصافاة ، فالرجل شاعر وهو أمير ، وللشعر والشعراء عنده مكانة ، وما أرى إلا أنه اصطحب ابن هانيء حتى ساءت مقالة الناس فيه ، فطلب الأمير من الشاعر أن يتغيب عن البلاد وقتاً ينسى فيه خبره . هذا رأي نميل إليه وإن كنا لا نستطيع الجزم به ثم إن بينهما تشابه في الإستعمالات الشعرية والمبالغات فأبيات إسماعيل بن بدر التي مرت معنا ، نجد لها شبيهاً عند ابن هانيء وزناً وقافية ومعنى .

وعند ذي التاج بيض المكرمات وما عندي له غير تمجيد وتحميد
اتبعته فكري حتى إذا بلغت غاياتها بين تصويب وتصعيد
رأيت موضع برهان يبين وما رأيت موضع تكييف وتحديد(٣)

فهل يكون هذا التشابه في التفكير والتعبير دليلاً على صداقتهما وعيشهما زمناً طويلاً معاً حتى أثر أحدهما في الآخر ؟ قد يكون ذلك وإن كنا لا نستطيع أن نجزم به مع ميلنا إليه .

وثمة نقطة أخرى نود أن نعرض لها بالتفصيل ـ كنا قد أشرنا إليها سابقاً ، وهي كم كان عمر شاعرنا عند خروجه من الأندلس ؟

يتفق صاحب الإحاطة في أخبار غرناطة وصاحب وفيات الأعيان على أن ابن هانيء لما خرج من الأندلس كان عمره سبعاً وعشرين سنة(٤) ولم أجد غيرهما تعرض إلى ذكر عمره عند خروجه من الأندلس .

بيد أن من يطالع ديوان ابن هانيء يجد فيه إشارات إلى وقائع معينة إذا عرف تاريخ حدوثها أمكن تحديد الزمن الذي قيلت فيه على وجه التقريب ، لا سيما وأن بعضها لا يحفل بأية إشارة شيعية ، أو أية تعابير عقائدية ، فلنأخذ مثلاً قصيدته التي مطلعها .

ارياك أم ردع من المسك صائك ولحظك أم حد من السيف باتك(٥)

وقد قالها في مدح المعز ، ونجد أن هذه القصيدة خالية من أية إشارة إلى معركة حربية بل فيها دعوة إلى موالاة الفتوحات .

ووال فتوحات البلاد كأنها مباسم ثغر تجتلى ومضاحك

وفيها أيضاً تعريض ببني أمية الذين نقموا عليه تشيعه ، وحاولوا الفتك به ، فانهزم ، ومما يؤلف في المديح أن يعدد الشاعر أعمال الممدوح المجيدة ، فإذا أغفل ذلك جاز لنا أن نعتقد بأن الخليفة لم يكن له بعد من جليل الأعمال ما يستحق الذكر ، وفي مثل هذه الحال كان لنا أن نرى أن اتصال ابن هانيء بالمعز كان عند توليه الأمور ، وتسلمه زمام الحكم في البلاد ، ولم تكن للمعز بعد غزوة تذكر . والمعروف أن المعز تسلم زمام الخلافة سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة(٦) . وفي قصيدة أخرى يشير إلى غزوة لجيوش المعز إلى أحد ثغور بني أمية بقيادة عامل المعز على صيقيلية الحسن بن علي ، حيث نزل في ساحل المرية ، فغنم وعاد منصوراً وقد وقعت هذه المعركة سنة ٣٤٤ ـ ٩٥٥ وفي هذه القصيدة يقول ابن هانيء .

لقيت بني مروان جانب ثغرهم وحظهم من ذاك خسر وتتبيبا(٧)

بينما يشير في قصيدة أخرى إلى فشل بني أمية في النزول على ساحل المغرب انتقاماً لما أصيبوا به من قبل جيش المعز ، وفي هذه المناسبة يقول ابن هانيء :

خابت أمية منه بالذي طلبت كما يخيب برأس الأقرع المشط

ويظهر أن بني أمية غضبوا لانتهاك حزمة بلادهم ، لذلك « أخرج سيد الأندلس . . . أسطوله مع غالب مولاه إلى ساحل أفريقية فمنعتهم العساكر »(٨) وقد حصلت هذه الواقعة في سنة ٣٤٥ إذ أنها كانت رداً على غزوة الفاطميين للأندلس .

ومما نلحظ هاتين القصيدتين أنهما خلتا من التعابير الشيعية ، والإشارات العقائدية ، إلا من مبالغات مألوفة لدى الشعراء .

كل هذا يحملنا على أن نقول بأن اتصال ابن هانيء بالمعز كان حوالي سنة ثلاثمائة وأربع وأربعين ٣٤٤ ، أي عندما كان عمره أربعاً وعشرين سنة على أبعد تقدير ، لا كما ذكر ابن الخطيب وابن خلكان من أنه كان ابن سبع وعشرين سنة لما خرج من الأندلس ، ذلك لأنا وضعنا ولادته في سنة ٣٢٠ (٩٣٢) ، ثم إننا نعرف أنه اتصل أولاً بجعفر بن علي بن حمدون وأقام زمناً يمدحه قبل أن يتصل بالمعز ، غير أننا لا نرى مانعاً من أن يتصل بالمعز في السنة التي اتصل فيها بجعفر بن علي ، إذ يقول ابن الخطيب أنه اتصل أولاً بجوهر قائد المعز ومدحه فلم يعجبه عطاؤه ، فسأل عمن يفضله ، فدل على جعفر بن علي ، فاتصل به وبقي عنده إلى أن وجهه جعفر إلى المعز(٩) ، وهنا نحار أمام التاريخ إذ أن جوهر لم يغزه المعز إلا سنة ثلاثمائة وسبع وأربعين ٣٤٧ كما يقول ابن خلدون(١٠) وأن أول قائد للمعز من غلمانه هو قيصر الصقلي الذي تركه في العساكر بعد جولته الأولى سنة ٣٤٢ ثلاثمائة واثنتين وأربعين ،

(١) ابن الأبار ـ الحلة السيراء ـ نشر دوزي ـ ص ١٣٧ .
(٢) ابن الأبار ـ الحلة السيراء ص ١٣٨ .
(٣) ديوان ق ١٢ ـ ٢١٠ .
(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ج ـ ٢ ـ ٢١٢ . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ـ ٣ ـ ٤٩ .
(٥) ديوان ق ٣٧ .
(٦) ابن خلدون تاريخ ج ٤ ـ ٤٦ .
(٧) ديوان ق ٣ ـ ٤٣ .
(٨) ابن خلدون تاريخ ج ٤ ـ ٤٦ .
(٩) ابن الخطيب إحاطة ج ٢ ـ ٢١٢ .
(١٠) ابن خلدون تاريخ ج ٤ ـ ٤٦ .

يوم خرج إلى بني كملان ومليلة وهوارة ، ثم ولاه المعز أعمال باغاية[١] . فهل يكون اتصال ابن هانيء بقيصر لا بجوهر أولاً ، ذلك أن جوهر كان كاتباً ووزيراً للمعز ، ثم إن ابن هانيء مدحه وعرض بمدحه في مدحه للمعز ، ولو أنه لم يعجبه لانصرف عنه ولما ذكره .

وهكذا نرى أن خروج ابن هانيء من الأندلس ، كان قبل أن يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر ، خرج منها شاباً لم تنضجه الخبرة ، ولم تعلمه الأيام ما يحتاج إليه في حياته من مداراة للناس ، ولين جانب ، وتستر على عقيدة ، وعمل بالتقية كما فعل أبوه ، فاضطر ، وهو الشاب المندفع أمام ضغط العامة ومقت الخاصة إلى الهرب ، قبل أن تنضجه خبرة السنين ، وتفيده الأيام حسن دراية ومعرفة بأصول معاشرة الناس .

موت ابن هانيء

أكثر المؤرخين الذين تحدثوا عن ابن هانيء متفقون على أن وفاته كانت في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ٣٦٢ (٩٧٢) وفي مدينة برقة ، ولكنهم لم يتفقوا على كيفية الموت ولا سببه ، فابن خلدون[٢] ، وأبو الفداء[٣] وابن الأثير[٤] يقولون بأنه كان مع المعز عندما توجه إلى مصر ولما وصل إلى برقة قتل ابن هانيء غيلة ، هذا ما لا تذكره كتب التاريخ الأدبي فتخالف هذا الرأي ، فيذكر ابن الخطيب أن ابن هانيء توجه إلى مصر ليلحق بالمعز الذي كان آنذاك فيها وعند وصوله إلى برقة ، سكر ونام عرياناً وكان البرد شديداً فأفلج وتوفي في سنة إحدى وستين وثلاثمائة[٥] ويخالف هذه الرواية ياقوت الحموي ، إذ يذكر أنه « وجد ملقى في سانية من سواني البلد مخنوقاً بتكة سراويله ، ولم يعرف سبب ذلك ، ولا فاعله ، وكانت وفاته كذلك يوم الأربعاء سنة اثنتين وستين وثلاثمائة »[٦] ويجمع ابن خلكان[٧] بين الروايتين دون أن يستطيع أن يرجح إحداهما على الأخرى .

من هذا نرى أن المؤرخين لم يتفقوا على كيفية موت الشاعر وأن اتفقوا على تاريخ هذه الوفاة واحب أن أشير إلى أن ابن هانيء لم يكن في صحبة المعز عندما قتل ، ذلك أن المعز كان قد سبقه إلى مصر وعاد الشاعر ليأخذ عياله ويلحق به ولما كان في برقة قتل غيلة فبلغ ذلك المعز فقال ـ هذا الرجل كنا نود أن نفاخر به شعراء المشرق ، فلم يقدر لنا ذلك[٨] .

ومن الجائز أن يكون جماعة من سكان برقة ، من المتعصبين على الفاطميين ، اغتنموا فرصة سفره بعيداً عن جيش المعز ، فاغتالوه[٩] .

شعر ابن هاني والحياة الإجتماعية

ابن هانيء ، ككل شاعر في كل عصر ، لا يمكن أن نفصله عن بيئته أو نطلب إليه أن يتناسى أو يتجاهل ما يدور حوله ، بل على النقيض من ذلك ، نتوقع أن نرى شعره مرآة عصره ومحيطه ، وسجلاً حافلاً للأحداث التي مر بها ، والعادات التي عرفها .

لقد قضى الشاعر ما يقرب من نصف عمره في بيئة غير البيئة التي أبصر فيها النور ، في البيئة الأفريقية ، وفي ظل دولة ناشئة هي الدولة الفاطمية ، القائمة على الإيمان بأن الخلافة الإسلامية حق من حقوق آل البيت من أبناء علي من زوجته فاطمة الزهراء ، وكان يؤيد هذه الدعوة أناس اختلفوا جنساً وتوحدوا غاية . هذا المجتمع الأفريقي لم يهمله ابن هانيء ، بل تحدث عنه وإن لم يسهب في الحديث . إن في شعر ابن هانيء ما يدل على أن في هذا المجتمع كان يعيش العربي والبربري والمولى ، ونحن إذا ما قرأنا شعره نراه يتحدث عن العرب بإعجاب واعتزاز ، ولا غرابة بذلك فالشاعر عربي ، والخليفة عربي ، بل ومن خيرة قبائل العرب ، بل ومن خيرة هذه القبيلة ، من هاشم بن عبد المطلب ؛ وإنا لنلاحظ أن الشاعر ما اتصل إلا بالعرب ، فقد اتصل بابناء علي بن حمدون وهم من جذام وجذام من عرب الجنوب كما اتصل بأبي الفرج الشيباني وهو من قبيلة بني شيبان . أما أبناء علي بن حمدون فيثبت الشاعر أنهم أقرباؤه إذ يفتخر بهم وبهذا يقول :

فمهلاً بني عمي وأعيان معشري وأملاك قومي والخضارم من نجري

وهؤلاء ينتسبون إلى جذام كما يتضح من قوله في مدح إبراهيم بن جعفر بن علي بن حمدون :

وإذا شاء قلدته جذام شرف البيت من أواخ وسمك

وأما في مدحه لأبي الفرج الشيباني فيفخر بالنسب العرب ، ويجعل هذا النسب سبباً لنيل الشرف :

أبلغ ربيعة عن ذي الحي من يمن أنا نؤلف شملاً ليس يفترق
إنا وإياكم فرعان من كرم قد بوركا وزكا الأثمار والورق

* * *

انا لتشرف أيام الفخار بنا حتى يقول عدانا إننا الفلق

وأما الخليفة فالشك لا يرقي إلى نسبه لأنه القطب الذي تدور حوله الدعوة الفاطمية .

وهناك طبقة أخرى هي طبقة غير العرب ممن ناصروا الدعوة الفاطمية وأيدوها ، وقد كان من بين هؤلاء قبائل عديدة أشهرها صنهاجة ، ومنها زيري بن مناد ، وابنه يوسف بلكين ، وكانا مقدمين عند المعز ، وقائدين يعول عليهما في الأمور الصعبة ، ونحن لا نرى أن ابن هانيء يذكر هذين القائدين في شعره ولم يمتدحهما أبداً ، وربما كان ذلك تعصباً منه للعرب أو لأن هذين كأمثالهما من غير العرب ، أو المستعربين لم يكونا يفهمان العربية ، لذلك انصرف عنهما الشاعر . وهناك قبائل أخرى كقبيلة كتامة وزناتة وبني وأسول ، ومن هذه القبائل من كان يثور على المعز ، فيرسل إليها الجيوش ، وقد أشار ابن هانيء إلى هذه المعارك ، وخاصة تلك المعارك التي جرت ضد الحروريين ـ وهم من الخوارج ـ ، فقد حاربهم جعفر بن علي ، وانتصر عليهم ، واستولى على قلعة كتامة التي كانت :

حرورية ما كبر الله خاطب عليها ولا حيي بها ملكاً وفد

كما أنه لما مدح أبا الفرج الشيباني لم ينس أن يذكر بلاءه في قتال هذه القبائل

(١) ابن خلدون تاريخ ج ٤ ـ ٤٦ .
(٢) ابن خلكان وفيات الأعيان ج ٣ ـ ٤٩ .
(٣) ديوان ق ٣٢ ـ ٤٦٦ .
(٤) ابن خلدون المصدر السابق ص ٤٩ .
(٥) أبو الفداء تاريخ ج ٢ ١١٨ .
(٦) ابن الأثير الكامل ج ٨ ـ ٢٢٣ .
(٧) ابن الخطيب الإحاطة ج ٢ ـ ٢١٢ .
(٨) ياقوت معجم الأدباء ج ١٩ ـ ٩٢ .
(٩) ابن خلكان وفيات الأعيان ج ٣ ـ ٤٩ .
(١٠) المصدر ذاته وفيات الأعيان ج ٣ ـ ٤٩ .
(١١) ما ذكره ابن الخطيب عن سبب موته لا يقصد به إلا التشنيع على ابن هاني ، فالشاعر اغتيل اغتيالاً لأنه أصبح لسان الدولة الفاطمية (ح) .

البربرية الخارجة على الخلافة الفاطمية :

لم يجهلوا ما تلاقى في التشيع من ... تحريض شارية أو بأس شاري
وما تذلل من أهل العناد لهم ... وما تدارى من الدين الأباضي

وهناك طبقة أخرى تسهم في بناء هذا المجتمع ، هي طبقة الموالي ولا سبيل إلى معرفة الكثير عنها ، غير أن من الواضح أن بعض هؤلاء الموالي ممن كانوا في خدمة الخلفاء ، استطاعوا أن يكسبوا ثقة أسيادهم فتوصلوا إلى مراكز مرموقة وما قيصر وجوهر قائدا المعز إلا من هؤلاء الموالي ، وابن هانيء عندما يمدح جوهر - إذ أننا لا نراه يمدح غيره من الموالي - ، لا يتعرض لنسب جوهر ، بل يتحدث عن شجاعته وكرمه ورزانته وحسن تصريفه للأمور ، وعن اجتهاده في محاربة الثائرين على المعز :

وأدركت سولا في ابن وأسول عنوة ... وزحزحت منه يذبلا فتزحزحا

وهو لا يتحدث عن نسب جوهر ، ذلك لأن جوهر مولى ، والموالي لا نسب لهم يفخرون به إلا نسب الولاء .

من كل هذا نستخلص أن ابن هانيء كان متعصباً للعرب ، فهو لم يمدح بربرياً ولم يذكر فضل هؤلاء على الخلافة الفاطمية ، إذ كانوا دعائم وجودها الأول ، وكذلك لم يمدح من الموالي إلا جوهراً فهل كان ابن هانيء يحتقر الموالي والبربر ويفضل عليهم العرب ؟ قد يكون ذلك وقد يجوز أن يكون الموالي والبربر لا يحسنون فهم العربية ، ولذلك انصرف عنهم الشاعر[1] .

المدح

المدح هو الفن الشعري الذي قامت عليه شهرة ابن هاني ، وأما الفنون الشعرية الأخرى فلم يولها أهمية .

كنا رأينا أن الشاعر خرج من الأندلس مضطراً ، وجاء الغرب هارباً - كما يقول هو - من الأمويين وعمالهم الذين نقموا عليه تشيعه ، خرج إلى عدوة المغرب حيث اتصل بجوهر قائد المعز ومدحه كما يقولون ، بيد أن ابن الآبار لا يذكر أن ابن هاني اتصل بجوهر عند خروجه إلى عدوة المغرب ، بل يقول : واتصل بجعفر بن علي بن حمدون الأندلسي وبأخيه يحيى . أما أنا فأرى أن ابن هاني لم يتصل أولاً بجوهر ، لأسباب منها أن جوهراً هذا لم يغزه المعز إلا عندما ثار ابن واسول محمد بن الفتح على المعز وتلقب بأمير المؤمنين[2] ، وهو من سلالة ميمون بن مدار بن اليسع من بني واسول المكناسي ، تغلب على سجلماسة ودعا لنفسه ، وأرى الناس أنه يدعو لبني العباس ، ورفض الخارجية ، ولقب نفسه بأمير المؤمنين الشاكر بالله ، واتخذ السكة باسمه ولقبه ، وبقي إلى أن قبض عليه جوهر سنة ٣٤٧ بعد أن تغلب على سلجماسة المدينة التي اتخذها الخوارج مركزاً لهم بعد أن اختطوها سنة ١٤٠ هجرية وإلى هذا الحدث يشير ابن هاني في قصيدته التي مدح بها جوهراً وقد كنا رأينا أن خروجه من الأندلس كان حوالي سنة ٣٤٤ ، فهل يعقل أن

يبقى ثلاث سنوات تائهاً قبل من الأندلس كان حوالي سنة ٣٤٤ ، فهل يُعقل أن يبقى ثلاث سنوات تائهاً قبل أن يتصل بجوهر ؟ لذلك اعتقد أن اتصاله كان أولاً بجعفر بن علي بن حمدون وأخيه يحيى قبل أن يتصل بجوهر بل ربما اتصل بقيصر الصقلي الذي خلفه المعز على الجيش بعد جولته الأولى في سنة ٣٤٢ إلى بني كملان ومليلة وهوارة[3] قبل أن يتصل بجعفر أو بيحيى ابني علي بن حمدون ، ولكن ليس في الديوان ما يثبت ذلك ، وعلى هذا فنحن سنقسم مدحه بالنسبة للممدوحين ، ونبتديء بمدح الشاعر لابناء علي بن حمدون على اعتبار أنه أول شعر له قاله في المغرب ، وربما كان أول مدح عرف ودون له ، غير أنه لا يجب أن نفهم من ذلك أن كل مدحه لهما كان قبل أن يتصل بالمعز ، بل أنه مدحهما أيضاً بعد اتصاله بالمعز ، لخلال أعجب بها كانت بهم ، من فهم للعربية ، وأريحية قحطانية ، وأبناء علي بن حمدون هم جعفر وأخوه يحيى وإبراهيم بن جعفر « وقد دخل جدهما الأندلس من الشام وسكن بكورة البيرة ، ثم تنقل حفيده حمدون جد جعفر هذا إلى بجاية ، وصحب أبا عبد الله الشيعي الداعي ، ودخل في مذهبه ، فلما تغلب الشيعي على أفريقية ، ظهر علي بن حمدون . . . ثم ازداد ظهوراً في أيام عبيد الله المهدي . . . وخرج معه إلى أرض المغرب فأمره ببناء مدينة المسيلة وولاه عليها وتولى ابنه جعفر المسيلة من بعده ، فلم يزل متولياً لها ، رفيع المنزلة عند سلطانه إلى أن قتل محمداً ابن خزر الزناتي القائم بدعوة بني أمية ، زيرى بن مناد ، فخاف جعفر من صاحب أفريقية ، فبادر إلى الفرار بنفسه مع أخيه يحيى وجميع أهله وماله سنة ٣٦٠ ، فصار عند بني خزر أمراء زناتة ، فشق جعفر الصحراء معهم قاصدين لزيري ، فالتقوا معهم ، ودارت بينهم حرب صعبة انجلت عن قتل زيري . . . ولما تم الأمر لأمراء زناتة ، وجعفر بن علي ، بادر جعفر بمراسلة الحكم إلى الأندلس ملقياً بنفسه عليه ، معتصماً بدعوته ، ثم أرسل إليه أخاه يحيى ثم سار إليه بنفسه . فحظي عنده[4] . وهنا لا بد لنا من الإشارة إلى خلاف تاريخي بين صاحب البيان المغرب ابن عذارى وابن خلدون إذ أن الأول يقرب بأن الذي قتل محمد بن خزر الزناتي الذي كان جباراً عاتياً طاغياً هو زيري بن مناد بينما يقول ابن خلدون بأن المعز أمر بلكين بن زيري بن مناد بغزوه فغزاه في بلاده . . . وذلك سنة ٣٦٠[5] وزيري من قبيلة أفريقية تعرف بصنهاجة ، استقدمه المعز إلى حضرته سنة ٢٤٣ فأكرمه واستخدمه في بعض المهام ، ونحن لا نستطيع أن نثبت أيهما الذي قتل محمداً بن خزر الزناتي إلا إذا اعتبرنا كتب التاريخ أصدق من كتب الأدب في النواحي التاريخية ، ونحن يهمنا فقط أن نؤكد أن جعفراً وأخاه يحيى انتقضا على المعز وأيدا بني أمية وذلك عندما بعد المعز عن المغرب وأصبح في مصر بعيداً عن المغرب ومتوجهاً بكليته إلى الشرق .

هذان الرجلان اتصل بهما ابن هاني فاجزلا صلته واحلاه منزلة طيبة ، فمدحهما .

الشاعر وابنا علي بن حمدون

عرفنا أن جدهما الأعلى جاء إلى الأندلس ، وسكن كورة البيرة ، وأن جدهما حمدون انتقل إلى أفريقية ، وصحب أبا عبد الله الشيعي ، واحتل مركزاً حسناً ، وكذلك ابنه علي من بعده ، وحفيده جعفر .

(١) مثل ابن هاني في إسلامه وكياسته لا يمكن أن يحتقر الشعوب لا سيما منها المناضل المخلص ، ولكن الحقيقة أن زعماء تلك الأقوام غير العربية لم يكونوا يفهمون العربية فهماً صحيحاً ، فإذا فهموها بعض الفهم ، فلم يكن لهم من هذا الفهم ما يجعلهم يتذوقون الشعر العربي ويدركون جمال أسلوبه وبعد مرامي معانيه ينفذ عندهم ويروج ، لذلك لم يكن لابن هاني فيهم شيء من الشعر (ح) .

(٢) ابن خلدون : تاريخ ج ٤ ٦٤ .

(٣) ابن خلدون : تاريخ ج ٤ - ٤٦ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج . - ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٥) ابن خلدون تاريخ ج ٤ - ٤٨

وفي جعفر يقول :

قد كنت قبل رضاك أزجي عارضاً فـاشيم منه الـزبـرج المنجـابـا
آليت أصـدر عن بحارك بعـدما قست البحـار بهـا فكن سرابـا

ونظراً لشجاعة جعفر وحنكته وقدرته على تسيير الأمور فقد اختاره الإمام لسد الثغور .

سـد الإمـام بـك الثغـور وقبله هـزم النبي بقـومـك الأحـزابـا
أنـتم ذوو التيـجـان من يمـن ذا عـد الشريف أرومـة ونصـابـا

ولـه في جعفر هـذا قصيدة جيلة ، فيها من نفس المتنبي الشيء الكثير وجمالها في هذه الألفاظ الفخمة والتراكيب الحلوة القوية مع دقة في الوصف وإصابة في تأدية المعنى :

القـائد الخيـل العتاق شـوازبـا خـزرا إلى لحظ السـنـان الأخـزر
شـعـث الـنـواصي حشرة آذانها قب الأيـاطـل ظـاميـات الأنسر
في فتيـة صـدأ الـدروع عبـيرهم وخلوقهم علق الـنجيـع الأحمـر
لا يـأكـل السرحـان شلو طعينهم مما عـليـه مـن الـقـنـا المتكسر
أنـسـوا بهجـران الأنيس كـأنهم في عبقـري البيـد جنـة عبقـر
قـوم يبيت على الحشـايـا غـيرهم ومبيتهـم فـوق الجيـاد الـضمـر
حـي مـن الأعـراب إلا أنهم يـردون مـاء الأمـن غـير مكـدر
وكـفـاك من حب السـمـاحـة أنها منـه بمـوضـع مقـلة من محـجـر
فـغـمامـه مـن رحمـة وعـراصـه من جـنـة ويمـينـه مـن كـوثـر

وفي جعفر يقول :

كـان لـواء الشمس غـرة جعفـر رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفـا
وقد جاشت الـدأماء بيضـاً صوارمنا ومـارنـة سمـرا وفضفـاضـة زعفـا
وجـاءت عتـاق الخيـل تـردى كـأنها تخط لهـا أقـلام آذانها صـحـفـا
هنـالـك تلقى جعفراً غـير جعفـر وقـد بـدلت يمنـاه من رفقهـا ضعفـا

ولم يقتصر ابن هـاني في مـدحـه عـلى جعفـر ككبير أسرة آل عـلي بن حمدون ، وكأمير للزاب ، بل راح يتصل بأخيه يحيى كما اتصـل بإبـراهيم بن جعفر ، يمدحها وهما شابان يقاربانه سناً .

ومن جميل ما قاله في مدح إبراهيم :

متهـلل والبـدر فـوق جبـينـه يـلقـاك بشر سـمـاحـه من دونـه
والـدين والـدنيـا جميعـاً والـنـدى والبؤس طـوع شـمـالـه ويمـيـنـه
جـذلان فـالآداب في حـركـاتـه والحـلم في أطـراقـه وسكـونـه
بـادي الـرضـاء حـذار منه معـاودا غضبـاً يـريك الموت بـين جفـونـه
لـين تـسـاس بـه الخـطوب وشـدة والنصـل شـدة بـأسـه في لـيـنـه

ولم يقصر ابن هانيء مدحه على هؤلاء فقط ، بـل راح يمدح غـيرهم من القادة والأمراء فقد اتصل الشاعر بجوهر ، وهـو مملوك رومي رباه المعـز لدين الله وكناه بأبي الحسين وأعلى قدره وسيره في رتبة الوزراء وجعله قـائد الجيـوش وبعثه في صفر سنة ٣٤٧ ـ ٩٥٨ ومعه عساكر كثيرة إلى المغرب فـافتتح مـدنها ودوخ بـلادها ثم جهـزه المعز إلى مصر ففتحهـا ولما تمكن بمصر سـير جعفر بن فـلاح الذي كـان معه إلى بـلاد الشام في العسـاكر ففتحهـا وبقي معززاً عنـد الفاطميين حتى توفي سنة ٣٨١ ـ ٩٩٢ . مـدح الشاعـر القـائـد وذلك بمناسبة انتصاره على ابن واسول الذي ثار على المعز فارسل هذا له جوهراً فانتصر على الثائر وهنأه الشاعر فقال :

وابيض من سر الخـلافـة واضـح تجلى فكان الشمس في رونق الضحى
أريـك بـه نهج الخـلافـة مهيعـا يبـين واعـلام الخـلافـة وضحـا
ولـما اجتبـاه والمـلائـك جنـده لمهلكهم درت عـلى قـطبهـا الـرحى
فقلدهـا جـم السيـاسـة مـدرهـا إذا شـاء رام القصـد أو قـال افصحا

وعندما غادرها القـائد القـيروان إلى مصر شيعه المعـز ومدحـه الشاعـر بقصيدة اعتبره فيها أنه سيف بني هاشم :

إلى أن تبـدى سيف دولـة هـاشم عـلى وجهـه نـور من الله يسـطع

وثمة رجل ثان هو محمد بن عمر الشيباني ، وكنيته أبو الفرج ، اتصـل به الشاعر ، وكان هـذا الرجـل صاحب أعمال الصعيد ـ كما يظهـر من قول الشاعر ـ قبل اتصاله بالمعز ، وفي هذا الرجل يقول ابن هاني :

الـواهـب الألـف إلا أنها بـدر والـطاعـن الألـف إلا أنها نـسـق
ومن مـواهبـه الـرايـات خـافقـة والعـاديـات إلى الهيجـاء تستبق
جـم الأنـاة الـعـفـو مـبـتـدر المعروف مـدرع بـالحـزم منتـطق

وفيه يقول :

ليث الكتيبـة والأبـصـار تـرمقـه وبيضـة الخدر في الليـل الدجـوجي
ثقفت منـه أديبـاً شـاعـراً لسنـا شتى الأعـاريض محـذور الأحـاجي
مستـطلعـاً لجـوابي من بـديهتـه فـما يجـاويـه مـثـل الـنـواسي
قـريب عهـد بـاعـراب الجـزيـرة لم ينـطق بـداراً ولم ينسب إلى عـي
لا يشرح القـوم وحشي الغـريب لـه ولا يـسـائل عن تـلك الأحـاجي

وعندما توجه جيش المعـز لفتح مصر بقيـادة جوهـر الصقلي ، كـان أبو الفرج في جملة القواد ، فمدحه الشاعر في هذه المناسبة قائلاً :

حلفت بـالسابغـات البيض واليلب وبـالأسـنـة والهنـديـة الـقضـب
أنت السبيـل إلى مصر وطـاعتهـا ونصرة الـدين والإسـلام في حلب
وأين عنـك بـأرض سستهـا زمنـاً وازدان بـاسمك فيهـا منبر الخـطب
ألست صـاحب أعمال الصعيـد بهـا قـدمـاً وقـائـد أهـل الخيم والـطنب

* * *

أن لا تقـدعـظم ذا الجيش اللهام فقـد شـاركت قـائـده في الـدر والحلب
فـالنـاس غـيرك اتبـاع لـه خـول وأنت ثـانيـه في العليـا من الـرتب
أيـدتـه عـضـداً فيـما يحـاولـه وكنتـما واحـداً في الـرأي والأدب
فـليس يسـلك إلا مـا سلكـت ولا يسـير إلا عـلى أعـلامـك اللحب
فـقـد سرى بسراج منـك في ظـلم وقـد أعـين بسبيـل منك في صبب
جـريتما في العـلى جرى السـواء معـاً فـجئتـما أولاً والخـلق في الـطلب
وأنـتـما كـغـراري صـارم ذكـر قـد جـردا أو كغـربي لهـذم ذرب

وقد عرف الشاعر رجلاً آخر كان عاملاً للمعز عـلى برقـة ، اسمه أفلح الناشب ، وهو الذي قد وطأ البلاد ، واستعمل الجهاد ، لمن خـالف المعز من البربر وغيرهم فمدحـه بقصيدة واحـدة يصفه فيهـا بـالعلم والكرم حتى أن الناس :

يـردون جـمـة عـلمـه ونـوالـه فـكـأنهم حيـث التقى البحـران

ويذكر إخلاصه للمعز فيقول :

وإذا الـذين أعـدهم شيعـاً إذا قيسـوا إليـه كعبـد الأوثـان
نـضحـت حـرارة قلبـه بمودة ضربـت عليـه سرادق الإيمـان

هذا هو مدح ابن هاني لمن كانوا عوناً للمعز ، وزراء أو عمالاً أو قادة ، وقد بقي علينا أن نرى مدحه للمعز ، علنا نستخلص لهذا صورة ، وأود أن أشير قبل ذلك إشارة خاطفة إلى أن ابن هاني لا يتوكأ على الآيات القرآنية في مدح هؤلاء ، مما سيجعلنا نستطيع التمييز بين مدحه للمعز ومدحه لغيره .

الشاعر والمعز لدين الله

اقترن اسم ابن هاني الأندلسي باسم المعز لدين الله الفاطمي ، ذلك لأنه كان شاعره الذي أراد أن يفاخر به شعراء المشرق .

ومن يتصفح ديوان ابن هـاني ، يعجب إذ لا يقع فيه إلا على إحدى وعشرين قصيدة من أصل ستين قصيدة في الديوان الذي نشره الشاعر ، زاهد علي ، مع بضع قصائد أخرى نسبت إليه وبعض المقاطع في موضوعات مختلفة في حين أن الشاعر عاش في أفريقيا ما يقرب من ثماني عشرة سنة .

لقد مدح ابن هاني المعز بقصيدة مطلعها :

أقول دمي وهي الحسان الرعابيب ومن دون أستار القباب محاريب

وفي هذه القصيدة يشير إلى معارك خاضها جيش المعز مع الروم وانكسار بني أمية أمام جيش المعز الذي أغار على بلادهم .

لقيت بني مروان جانب ثغرهم وحظهم من ذاك خسر وتتبيب

وقد وقعت هذه المعركة في سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ٣٤٤ (٩٥٥) عندما أغزى المعز عامله على صقلية ساحل المرية .

ولا مدح إلا للمعز حقيقة يفصل دراً والمديح أساليب
نجار على البيت الأمامي معتل وحكم إلى العدل الربوبي منسوب
ولم أر زواراً كسيفك للعدى فهل عند هام الروم أهل وترحيب
إذا ذكروا آثار سيفك فيهم فلا القطر معدود ولا الرمل محسوب
تشب لها حمراء قان أوارها سبوح لها ذيل على الماء مسحوب

ويعيب على بني أمية تقاعسهم عن الدفاع عن أراضيهم ضد الغزاة ويعيرهم بالتخاذل ويتطرق إلى بني العباس في الشرق فيرميهم بالقعود عن نصرة الدين وتخاذلهم أمام جيوش الروم التي تهاجم الثغور في البلاد الإسلامية وصرفهم أوقاتهم في الشرب والسماع :

ونوم بني العباس فوق جنوبهم ولا نصر الا قينة وأكاويب

لذا لا يبقى إلا المعز وحده يدافع عن الدين ، ويحفظ حرمة المسلمين ، ويرد عادية المغيرين .

ولا عجب والثغر ثغرك كله وأنت ولي الثأر والثأر مطلوب
وأنت نظام الدين وابن نبيه وذو الأمر مدعو إليه فمندوب

وفي قصيدة أخرى لاحقة في التاريخ إلى السابقة ، يشير إلى اخفاق بني أمية في النزول على الساحل الأفريقي :

خابت أمية منه بالذي طلبت كما يخيب برأس الأقرع المشط
وحاولوا من حضيض الأرض إذ غضبوا كواكباً عن مرامي شأوها شحطوا

تالله لو كانت الأنواء تشبهه ما مر بؤس على الدنيا ولا قحط
امام عدل وفى في كل ناحية كما قضوا في الإمام العدل واشترطوا
لا يغتدي فرحاً بالمال يجمعه ولا يبيت بدنيا وهو مغتبط
يا أفضل الناس من عرب ومن عجم وآل أحمد أن شبوا وان شمطوا
ليهنك الفتح لا أني سمعت به ولا على الله فيما شاء اشترط

وفي المعز يقول :

أفيقوا فما هي إلا اثنتان أما الرشاد وأما العمى
لكل بني أحمد فضله ولكنك الواحد المجتبى
وما لا يرى من جنود السما ء حولك أكثر ممن يرى
ليعرفك من أنت منجاته إذا ما اتقى الله حق التقى
كان الهدى لم يكن كائناً إلى أن دعيت معز الهدى
ولم يحكك الغيث في نائل ولكن رأي شيمة فاقتدى
شهدت حقيقة علم الشهيد بأنك أكرم من يرتجى
فلو يجد البحر نهجاً إليك لجاءك مستسقياً من ظما
إلى مثل جدواك تنضى المطي ومن مثل كفيك يرجى الغنى(١)

ونحن نلمس حرارة الإيمان في مدائح ابن هاني للمعز مما يرتفع بها عن المدح المبتذل الذي اعتاده الشعراء ، فهي تعبير قوي عن الإعجاب واليقين والإعتقاد ، وهي صدى لما يعتمل في نفس الشاعر من تمجيد لمواقف المعز في كفاح المعز للبيزنطيين وغيرهم من أعداء العروبة والإسلام .

الهجاء

ليس لابن هاني في هذا الفن إلا قصيدة واحدة قائمة بذاتها هجا بها الوهراني كاتب جعفر بن علي بن حمدون ، وهناك قصيدة أخرى يصف فيها أكولاً بشكل مضحك ، وفيما عدا ذلك فقد جاء الهجاء في معرض المدح ، وهذا في القصائد التي مدح بها المعز لدين الله الفاطمي ، إذ أنه كان مضطراً لأن يذكر خصوم الإمام ، بما يرضي عنه الإمام .

وابن هاني عندما يعرض للأمويين يهجوهم ، ويعتبرهم مغتصبي حق الفاطميين ، ويذكر مكانتهم في الإسلام ، ويتحدث عن عجزهم في حفظ ثغورهم .

إلا أن يوماً هاشمياً أظلهم يطير فراش الهام عن كل مجثم
كيوم يزيد والسبايا طريدة على كل موار الملاط عثمثم
وقد غصت البيداء بالعيس فوقها كرائم أبناء النبي المكرم
فما في حريم بعدها من تحرج ولا هتك ستر بعدها بمحرم

وقد حملهم على هذا الأمر ذلك الحقد الموروث من أيام الجاهلية ، والضغينة التي لم يستطع الإسلام أن يمحوها من صدورهم ، بل كبتها إلى زمن ، حتى إذا وجدت منفرجاً ، خرجت قوية ، وعملت فاتكة غير راحمة ، فهم ينتقمون لقتلاهم ببدر .

وبالحقد حقد الجاهلية أنه إلى الآن لم يظعن ولم يتصرم
وبالثأر في بدر أريقت دماؤكم وقيد إليكم كل أجرد شيظم

وأما بنو العباس فليسوا أقل إيذاء لأحفاد علي فقد كانوا يطالبون

(١) مرت مدائح ابن هاني في المعز في ترجمة ابن هاني في المجلد العاشر فلا نعيدها هنا (ح) .

بإرجاع الخلافة إلى أبناء علي ، حتى إذا انتصروا ، استأثروا بها دونهم ، وراحوا يتعقبونهم وينكلون بهم ، فشردوا في الأرض أو استكانوا على مضاضة ، ولذا راح الشاعر يطالبهم بإرجاع هذا الحق إلى أهله ، لأنهم ليسوا أهلاً له ، ويعيرهم عجزهم عن رد أعدائهم ، وتقاعسهم عن نصرة الدين ، واكتفائهم بشرب الخمرة وسماع الغناء كأنهم بذلك يرجون النصر .

ونوم بني العباس فوق جنوبهم ولا نصر إلا قينة وأكاويب

وفي هذا القول سخرية مرة ، إذ يطلبون النصر من كوب يشربون به ، أو قينة يسمعون إليها ، وهذا منتهى العجز ، بينما يذكر أن سيده المعز ، هو الذي يدافع عن الدين ، ويحفظ الشريعة ، ويعيرهم كون جدهم العباس من الطلقاء ، وان جدتهم أمة تدعى نثلة :

لستم كأبناء الطليق المرتدي بالكفر حتى عض فيه أسار
أبناء نثلة مالكم ولمعشر هم دوحة الله الذي يختار
ردوا إليهم حقهم وتنكبوا وتحملوا فقد استحم بوار
ودعوا الطريق لفضلهم فهم الالى لهم بجهلة الطريق منار
كم تنهضون بعبء عار واصم والعار يأنف منكم والنار
يلهيهم زمر المثاني كلما الحاكم المثني والمزمار

وليس لابن هاني في الهجاء المستقل ، إلا قصيدة واحدة ، وهناك أخرى في وصف أكول يصوره فيها تصويراً ساخراً .

وإذا كان الهجاء وصفاً للعيوب من تجسيمها حتى تظهر نافرة تحمل على الإشمئزاز أو الإحتقار ، فإن قصيدة ابن هاني في هجاء الوهراني تحوي الشروط التي يقتضيها فن الهجاء . والوهراني هو كاتب الأمير جعفر ، ممدوح الشاعر ، واسمه أحمد ، ويكنى بأبي جعفر ، ويعرف بالوهراني ، ويظهر أن أسباباً حدثت ، حملت الشاعر على هجاء هذا الرجل ، ولكننا لا نستطيع تحديدها ولم يتعرض إلى غير هذا الرجل بهجاء إلا ذلك الأكول ، الذي وصفه بشكل مضحك .

يبتدىء ابن هاني هجاء الوهراني بالفخر بنفسه ، فيصبغ عليها صفات حميدة كأنه يريد بذلك أن يبين الفرق بينه وبين المهجو حتى تظهر عيوب المهجو مجسمة :

طلب المجد من طريق السيوف شرف مؤنس لنفس الشريف
ان ذل العزيز أفظع مرأى بين عينيه من لقاء الحتوف
ليس غير الهيجاء والضربة الأخدو د فيها والطعنة الأخطيف
أنا من صارم وطرف جواد لست من قبة وقصر منيف
ليس للمجد من يبيت على المجد بسعي واني ونفس عزوف
وعدتني الدنيا كثيراً فلم اظفر بغير المطال والتسويف
كلما قلب المحدد فيها اللحـ ـظ ولي بناظر مطروف
علمتني البيداء كيف ركوب الخيل والليل كيف قطع التنوف

بهذه الأبيات الجميلة الجزلة يصف نفسه .

وبعد ذلك ينتقل إلى هجاء الوهراني الذي يسمّيه « أبا الجعر » والجعر نجو الحيوانات ، فيسب الأيام التي ساعدته على أن يصبح كاتباً للأمير ، ويدعي أن الأيام إنما تساعد السخفاء الأغبياء ، وتحارب الأذكياء ، وينعته بالخسة والدناءة ، وسخافة الرأي ، والجهل ، والعي ، والكذب ، والخنى ، إلى ما هنالك من الصفات البذيئة السيئة ثم لا يكتفي بذلك ، بل يحاول أن يثير التشاؤم في نفس الأمير جعفر من اصطحابه هذا الكاتب المشؤوم ، ليقيله من منصبه ، بل يحضه على ذلك مخافة أن يلحقه شؤم هذا الكاتب :

إن أيام دهرنا سخفات فهي أعوان كل وغد سخيف
زمن أنت يا أبا الجعر فيه ليس من تالد ولا من طريف
ان دهراً سموت فيه علواً لوضيع الخطوب وغد الصروف
إن شاوا طلبته في زمان الملك عندي لشاو بين قذوف
إن رأياً تديره لمعنى بضلال الإمضاء والتوقيف
ان لفظاً تلوكه لشبيه بك في منظر الخباء الجليف
كاذب الزعم مستحيل المعاني فاسد النظم فاسد التأليف
أنت لا تغتدي لتدبير ملك إنما تغتدي لرغم الأنوف
نلت ما نلت لا بعقل رصين في المساعي ولا برأي حصيف
أنت في دولة الحبيب إلينا فترفق بالماجد الغطريف
فإذا ما نعبت شر نعيب فعلى غير ربعه المألوف
لمت أخشى إلا عليه فكن بالأريحي الرؤوف جد رؤوف
كيف صاحبته بأخلاق وغد لا يني في يبوسة وجفوف
وخنى حالف بأنك ما أصبحت يوماً لغيره بحليف

ويفتش عن تهم يلصقها به تقوده إلى الموت ، فلا يجد أقوى من اتهامه بمخالفة العقيدة الشيعية ، ومروقه من الدين ، وتحالفه مع الأمويين ، وكرهه للفاطميين .

إن فيه لشعبة من بني مروان تنبي عن كل أمر مخوف
متخل من النتين بريء من إمام عدل ودين حنيف

ونشعر أن ابن هاني في هجائه يصدر عن حقد قوي ، ويرمي مهجوه بكل عيب ، ويلصق به أبشع التهم ، وأشدها على الإنسان ، وقد تقوده إلى الموت ، وعلى كل ففي القصيدة جمال في البناء ، وجمال في المعنى ، إذا ما نظرنا إلى فن الهجاء بمقاييسه الخاصة . وللشاعر قصيدة أخرى يصف فيها أكولا ، فيعطينا صورة واضحة مضحكة حتى يبدو وكأنه مصور « كاريكاتوري » هزلي يعني بالنواحي التي تثير الضحك ، فيبرزها بشكل مشوه فاسمع إليه يصف هذا الأكول :

أنظر إليه وفي التحريك تسكين كأنما التقمت عنه التنانين
تبارك الله ما أمضى اسنته كأنما كل فك منه طاحون
كأن بيت سلاح فيه مختزن مما أعدته للرسل الفراعين
كأنما الحمل المشوي في يده ذو النون في الماء لما عضه النون
لف الجداء بأيديها وأرجلها كأنما افترستهن السراحين
وغادر البط من مثنى وواحدة كأنما اختطفتهن الشواهين

الرثاء

ليس لشاعرنا في هذا الفن إلا ثلاث مرات في شخصين لا يمتان إليه بصلة قربى ، فقد رثى إبراهيم بن جعفر الذي مات صغيراً بقصيدة واحدة ، ورثى أم جعفر في القصيدتين الباقيتين ، ونحن لم نقع له على رثاء قريب ، ولذا لا نستطيع الحكم على عاطفته من رثائه لا باعد عنه ، إذ أن رثاء الأباعد لا يمكن أن يكون قوي العاطفة كرثاء الأقارب ، ويغلب على رثائه لابن إبراهيم بن جعفر وأم جعفر الإتزان العقلي ، والتأمل الفكري ، وكأنه ينظر

إلى البعيد البعيد من أغوار الحياة وأعماقها ، فيستخرج من ذلك حكماً جميلة ، وكذلك يغلب على رثائه نفحة من زهد في هذه الحياة التي لا ترعى ذماماً لأحد ، ولا تحفظ عهداً ، وكأنه يعزي بذلك السامعين من أهل الفقيد . والواقع أنه في مثل هذا الموقف يعود الإنسان إلى نفسه ليتأمل الحياة عارية من زخارف التصنع وبهارجه ، وإذا به يرى الراحل مثالاً سيحذو حذوه يوماً على كره .

لا رجاء في خلود كلنا وارد الماء الذي كان ورد

واجمل ما في رثاء ابن هاني ، هو حسن اختياره لهذه الأوزان الخفيفة الصالحة للغناء ، يحرك بانشادها أوتار نفسه ، وأوتار نفوس السامعين .

مات ابن إبراهيم بن جعفر وله من العمر خمس سنوات ، فرثاه ابن هاني قال :

مات من لو عاش في سرباله غلب النور عليه فاتقد
سيد قوبل فيه معشر ليس في أبنائهم من لم يسد
نافس الدهر عليه يعربا فرأى موضع حقد فحقد
هاب أن يجري عليه حكمه فنوى الغدر له يوم ولد
حيث لم ينظر به ريعانه إنما استعجله قبل الأمد
قصدته ترب خمس أسهم لو رمته ترب عشر لم تكد
ثما كان شهاباً ثاقباً صعق الليل له ثم خمد
جاورت روض ثراه ديمة تحمل اللؤلؤ رطباً لا البرد

ثم يعزي الشاعر الوالد ، فيقول :

لا ملوم أنت في بعض الأسى غير أن الحر أولى بالجلد

إلى أن يقول :

ان تسلنا ففريق ظاعن وليالينا بنا عيس تخد
فلقد أسرع ركب لم يعج ولقد أدبر يوم لم يعد

أما قصيدتاه في رثاء والدة جعفر فقد أكثر فيهما من الحكم وفيهما من البلاغة ما يدعو إلى الإعجاب ، قال يرثيها :

أعقيلة الملك المشيعها هذا الثناء وهذه الزمر
شهد الغمام وان سقاك حيا إن الغمام إليك مفتقر
كم من يد لك غير واحدة لا الدمع يكفرها ولا المطر
ولقد نزلت بنيّة علمت ما قد طوته فهي تفتخر

وبعد أن يعدد أياديها على الناس ، يصف بكاء الناس عليها ، وتأسفهم على فقدها ، فكأنهم يحملون بين ضلوعهم جمراً ، وكأنهم بفقدهم هذه المرأة الجميلة ، فقدوا الخبرة والرأي السديد ، والكرم وحسن الأخلاق ، فقد كانت يعتفيها الناس ، فتغمرهم عطاء :

فإذا سمعت بذكر سؤددها ليلاً أتاك الفجر ينفجر
ولقد تكون ومن بدائعها حكم ومن أيامها سير
انا لنؤتى من تجاربها علماً بما نأتي وما نذر
قسمت على ابنيها مكارمها ان التراث المجد لا البدر

وفي قصيدته الثانية يرثيها قائلاً :

إذا الودق في مثل هذا الرباب؟ وذا البرق في مثل هذا السنا؟
إلا أنهل هذا بماء القلوب وأوقد هذا بنار الحشا
وفي ذي النواويس موج البحا ر وما بالبحار إليه ظما
هلموا فذا مصرع العالمين فمن كل قلب عليه أسى

ثم يقول فيها :

فلو جاز حكمي في الغابرين وعدلت أقسام هذا الورى
لسميت بعض النساء الرجال وسميت بعض الرجال النسا

وهكذا نرى أن هذه المراثي الثلاث جميلة وحلوة معنى ومبنى ، فجمال الأسلوب ، لا يقل عن هذه المعاني جمالاً ، بيد أننا لا نحس أن الشاعر قد مس في عاطفته فبكى وان تباكى .

الحكمة

ليست الحكمة عند ابن هاني وليدة العلم والمعرفة الفلسفية ، ولكنها خلاصة خبرة ونتيجة تأمل ، وهي بسيطة للغاية ، لا يظهر عليها أثر التصنع الفلسفي ، ولا التعمل الفكري العميق ، وكأني بهذه الحكمة تساير ثقافة الشاعر العربية الخالصة ، التي لم تعقدها الفلسفة بأفكارها المتنوعة ، وهي حكمة مستمدة من تجارب الحياة ، ولا يعني هذا أن الشاعر قد مر بالضرورة في هذه التجارب كلها فخبر الحياة بحلوها ومرها ، بل نرى أنه جرب وقرأ وتأمل وأخذ من تجارب غيره ما يحتاج ، ومن تأملاته ما رآه صواباً ، فكانت حكمة لا تحتاج إلى تفكير عميق لأنها تنبع من صميم الحياة ، ولم يكثر منها كما أكثر المتنبي ، بل كانت له ومضات قليلة ، طال بعضها ، وقصر بعضها الآخر ، وقد ورد في قصائده أبيات متفرقة ، ولكنه تعمد الحكمة تعمداً في الرثاء وكأنه يود أن ينقل أهل الفقيد من التفكير بهول المصيبة ، إلى التفكير في الحياة ذاتها ، فيجدوا في ذلك عزاء ، ويبدو أن هذه التأملات هي التي صرفت ابن هاني عن الإتجاه العاطفي في الرثاء ، فظهر هادئاً رزيناً أمام المصيبة ، فهو رجل يرى ويفكر ويعلم أن غاية كل حي إلى هذه الحفرة من التراب ، ويعلم أن البكاء لا يرد ميتاً ، فما النفع اذن من كل هذا البكاء ، وماذا تعوضنا مداومة الأحزان غير الهم والكدر .

وثقافة ابن هاني العربية ثقافة واسعة ، فقد أخذت من القرآن وعلومه بأوفر نصيب ، وضربت في علوم اللغة بسهم وافر ، وكان له من تفكيره ما يقوده إلى هذه النتائج غير المفلسفة ولا المعقدة . وهذه الحكم المتفرقة في قصائده ، وإن كانت قليلة ، تدل على نضجه الفكري ، ونظرته الواقعية للأمور ، يرى الأيام في تقلباتها وتصرفاتها ، فإذا هي لا تقر إنساناً على حال ، تفرحه اليوم فتبكيه غداً . تمر هذه التأملات في ذهنه فإذا هي على لسانه أبيات من الشعر جميلة ، يتغنى بها لسانه ، ويحسها فؤاده . نقرأ له :

وما الناس إلا ظاعن ومودع وثاو قريح الجفن يبكي لراحل
فهل هذه الأيام إلا كما خلا وهل نحن إلا كالقرون الأوائل
نساق من الدنيا إلى غير دائم ونبكي من الدنيا على غير طائل
فما عاجل ترجوه إلا كآجل ولا آجل تخشاه إلا كعاجل[1]

فنحس روحاً تزهد في الحياة ، وتمل البقاء قبل أن تشبع من الحياة ، أو تتملى من مباهج الدنيا ، وهذه هي عملية الفكر الواعي ، يرى تصرفات الحياة فيعلم أنها لا ترضى إلا إذا مزجت لذائذ الحياة بمرارة الصاب .

(١) ديوان : ق ٤٢ .

وليس تـرضى الليـالي في تصرفهـا إلا إذا مـزجت صـابـا بقنـديـد

والأيـام لن تغفل عن أذيتنا ، وكـر الجـديـدين يبسط لنا الحبل حينـاً ويقبضه عنا حيناً آخر .

وللجـديـدين من طـول ومن قصر حبـلان منقبض عنـا ومنبسط

يرى بأم عينيه تقلبات الأيام ، وتغييرات الدهر ، ويعرف ما جبل عليه الناس من لؤم الطباع ، ونكرانهم للمعروف ، ويحز في نفسه هذا ، فيقول :

ويـا رب من تعليـه وهـو منـافس وتسـدي إليـه العـرف وهـو كنـود

وهـذه المعاني التي يـذكر فيهـا تقلبات الأيـام وتصرفات القـدر ، تتردد كثيراً في رثائه فتصبغه بصبغة الزاهد بالحياة ، العازف عن ملاهيها ومفـاتنها ، الضـارب في التقوى بـأوفر سهم ، وأنت لا شـك واجـده في هـذه المـرثيـات الثلاث واعظاً زاهداً ، وحكيماً يغلب عليه التأمل الفكري ببساطته وبعده عن التعقيد الفلسفي . إسمع إليه يدعو الناس إلى أن لا ينتظروا من هذا الـدهر المتقلب ، وهذه الأيام التي تحمل معها النكد ، خيراً وذلك حيث يقول :

مـن يـرجـو زمـانـاً دائـماً تعـرف البـأسـاء منـه والنكـد
فـإذا مـا كـدر العـيش نمـا وإذا مـا طـيـب الـزاد نـفـد
فـلقـد ذكـر مـن كـان سـهـا ولـقـد نـبـه مـن كـان رقـد
مـنـتـض نـصـلاً إذا شـاء مضى رائش سـهـمـاً إذا شـاء قـصـد
وهـي الأيـام لا يـأمـنهـا حـازم يـأخـذ مـن يـوم لـغـد
أن تـسـلـنـا فـفـريـق ظـاعـن ولـيـالـيـنـا بـنـا عـيس تخـد
فـلقـد أسرع ركـب لم يـعـج ولـقـد أدبـر يـوم لم يـعـد

ونحن لا نرى في هذه الأبيات المصطبغة بالـزهد ، والمكتسبـة حكمة ، أي أثر للعملية العقليـة ، أو التفكير الفلسفي ، إنمـا هي تجارب شخصيـة ، وتأملات واعية ، وإدراك لواقع الحياة . وفي مرثيته لأم جعفـر كثير من الحكم البسيطة التي تروقنـا بأسلوبهـا وبساطتهـا ، وهي بمجملها تصور لنا الشـاعر زاهداً ينصرف عن الحياة وزخارفها ، ويعـزف عن لذائـذها ، أو كـأنه ذلـك الواعظ الذي ينبه الناس لما هم فيه سادرون ، حيث يقول :

انـا وفي آمـال أنـفـسـنـا طـول وفي أعـمارنـا قصر
لـنـرى بـأعيـنـنـا مـصـارعـنـا لـو كـانـت الألبـاب تـعـتـبر
ممـا دهـانـا أن حـاضرنـا أجـفـانـنـا والـغـائـب الـفـكـر

وجـيـل به أن يلوم أولئك الذين يـرون بأعينهم تصرفـات الأيـام ثم لا يفكرون ، كأن على قلوب أقفالها ، تبصر أعينهم ، ولا تعي أفئدتهم .

فـإذا تـدبـرنـا جـوارحـنـا فـأكـلـهـن الـعـين والـنـظر
لـو كـان لـلألـبـاب ممتحـن مـا عـد منهـا السمـع والبصر
أي الحـيـاة ألـذ عـيـشـتـهـا مـن بـعـد عـلمـي أنـنـا بشر
خـرست لعـمـري الله ألسنـنـا لمـا تـكـلـم فـوقـنـا الـقـدر
هـل يـنـفـعـني عـز ذي يمـن وحجـولـه والـيـمـن والـغـرر
هـا أنها كـأس بـشـعـت بهـا لا مـلجـأ منهـا ولا وزر
فـانـبـذو شيحـا وارم ذا شـطـب لا الـبيض نـافـعـة ولا الـسـمـر
دنـيـا تجـمـعـنـا وأنـفـسـنـا شـذر عـلى أحـكـامـهـا مـذر
ولـكـل سـابـق حـلبـة أمـد ولـكـل وارد نهلة صـدر
وحـدود تـعـمـير المـعـمـران يـسـمـو صـعـوداً ثـم يـنـحـدر
والـسيـف يـبـلى وهـو صـاعـقـة وتـنـال مـنـه إلهـام والـقـصر
والمـرء كـالـظل المـديـد ضحى والـفـيء يحسره فـيـنـحسر
ولـقـد حـلبـت الـدهـر أشـطـره فـالأعـذبـان الـصـاب والصـبر

وفي قصيـدة أخرى يـرثي فيهـا أم جعفـر أيضـاً حيث تبـدو عليـه سيـاء الزهاد ، ووقار الحكماء ، وخبرة ذوي التجربة ، يقول :

إلا كـل آت قـريـب المـدى وكـل حـيـاة إلى مـنـتـهـى
ومـا غـر نفسـاً سـوى نـفسهـا وعـمـر الـفـتى مـن أمـاني الـفـتى
فـاقصر في الـعـين من لـفـتـة واسرع في الـسـمـع مـن ذا ولا
ولم أر كـالمـرء وهـو الـلبـيـب يـرى مـلء عينيـه مـا لا يـرى
ولـيـس الـنـواظـر إلا الـقـلوب وأمـا الـعـيون فـفيهـا الـعـمى
ومـن لي بمـثـل سـلاح الـزمـان فـأسـطـو عـلـيـه إذا مـا سـطـا
يجـد بـنـا وهـو رسـل الـعـنـان ويـدركـنـا وهـو داني الخـطـى
بـرى أسـهـمـاً فـنـبـا مـا نـبـا فـلم يـبـق إلا ارتهـاف الـظبى
تـراش فـترمـي فـتـنـمـي فـلا تحـيـد وتـصـمـي ولا تـدرى

وهذه الحكم في قالبهـا الجميل ، وأسلوبهـا السلس السهل ، ومعـانيها البسيطة ، تبدو متزنة وهينة لأن بها خبرة مكتسبة من الحياة ، وتجارب مـأخوذة من الحياة ، وتجارب مأخوذة من الأيام لا أثر فيها لعمل الفكر ، وكأني بها وقد خرجت من أعماق أحاسيسه ، وصـدرت عن قلبه الـوجل أمـام تقلبات هـذه الأيـام ، فأخـذت من جمال الشعـور ، وجمـال الأسلوب ، وسمـو المعنى مـع بساطته ، شيئاً كثيراً . وهذه الحكمة لا نراها كثيرة في شعره ، بـل هي قليلة جداً ، ولولا هذه المراثي الثلاث لما ظفرنا بهذا القدر من الحكم الجميلة .

الوصف

لم ينصرف ابن هاني لذاته فيصور أحاسيسه ، ويتحث عن وجدانياته ، لكنه سلك مسلكاً ابتعـد به عن نفسه فلم يفكر بهـا إلا لمحاً ، وهـو كشاعـر تـطرق إلى فنون شعـرية مختلفة بيـد أنها لم تكن مستقلة ، ومن هـذه الفنـون الوصف ، ونحن نعجب كثيراً إذ لا نرى أثراً للطبيعة في شعره حتى نحس أنه نسي الطبيعة الأندلسية الجميلة أو أنها لم تحـرك فيه أوتـار نفسه ، فلم يكن لهـا حتى انعكاسات بسيطة في شعره . ويبدو أن طبيعة أفريقية لم تثر اهتمامـه ، ولم تستهوه بجمالها ، وهو لم يفتش عن الجمال في الطبيعة ، وفيها كل الجمال الـذي يشعر به ذو الحساسية المرهفة ، أما إذا أراد أن يصف ما له علاقة بالممـدوح ، كمجلس أنس ، أو زهرة مثلاً ، جاء وصفه متكلفاً متعملاً .

وقـد اضطر بحكم المدح أن يصف عظمـة ممدوحـه ، فيصف جيشـه وخيله وأسطوله ، وأجاد كل الإجـادة في وصف الخيل ، بشكـل جعلنا نحس أنه مغرم باصائل الجياد ، كثير الإعجاب بجمـال خلقها ، وحسن منظرها ، ذلك أنه اندفع في وصفها وكأنه يصف شيئاً عـزيزاً عليـه ، يعجبه منهـا ألوانها وزينتها ، سيرها وركضها ، وكأنها في كل حـركة من حـركاتهـا تحرك وتـراً في نفسه وتلمس شعوراً في قلبه ، فتشعر وكأنه عـاشق لها ، ولـوع بها ، وهـو لا ينسى أن يتحـدث عن أولئك الـذين امتطوا صهـواتها ، وجـردوا سيـوفهم ، واشرعـوا رماحهم ، وتهيئـوا للزحـف ، وهكذا يصف الجيش . وهـو قد رأى أسطول المعز بعدده وعدته ، وشاهـد سيره في البحر فوصفـه أيضـاً ، وتصـور معارك المسلمين مـع الـروم ، فتحـدث عن ذلـك فكـان لـه وصف المعارك

البحرية ، لكنه إذا عرض لغير هذه الموضوعات ، جاء قوله متصنعا متكلفاً ، وقد وصف النجوم في قصيدته التي مطلعها :

أليلتنا إذ أرسلت وارداً وحفا ... وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شنفا

ولم يسمع في وصف النجوم أحسن من قصيدته هذه وهذا الشعر وان جمع من التشبيهات ما لم يجمعه غيره فإنك لا تجد فيه من حلاوة اللفظ وسهولة الحفظ[1] ما تجده في غيره . وهذا مقياس نقدي مقبول إذا ما أردنا أن نعرف جمال القصيدة من حيث المعنى والمبنى .

لقد وصف أن هاني الخيل ، هذه الأعوجيات التي إذا ما ركضت بدت طائرة أو سابحة ، وتبقى سابقة في ركضها ، فهي جرد عناجيج ، واجمل ما قال في وصف الخيل ، هي قصيدته التي يمدح فيها الخليفة ، ويتحدث عن هدية جوهر له ، وفيها الكثير من الخيل التي كأنها الغانيات تسير بزهو وكبرياء ، ثم هي مكحولة المدامع ، تنظر بمقلة أحوى وفيها يقول :

ألا هكذا فلتجلب العيس بدنا ... الا هكذا فلتجنب الخيل ضمرا
مرفلة يسحبن أذيال يمنة ... ويركض ديباجاً ووشياً محبرا
تراهن أمثال الظباء عواطيا ... لبسن بيبرين الربيع المنورا
يمشين مشي الغانيات تهاديا ... عليهن زي الغانيات مشهرا
وجررن أذيال الحسان سوابغا ... فعلمن فيهن الحسان تبخترا
ترى كل مكحول المدامع ناظراً ... بمقلة أخرى ينفض الضال أحورا

ويتحدث بعد ذلك عن ألوانها المختلفة ، إذ أن منها ما هو أبلق أو ورد أو أشقر ، ومنها الكميت والأدهم ، إلى غير ذلك من ألوان ، ويتحدث بعد هذا عن شعوره أمام هذه الجياد الجميلة ، الحسنة الخلق ، التامة التكوين ، وإذا به يعترف قائلاً :

يقر بعيني أن أرى من صفاتها ... ولا عجب أن يعجب العين ما ترى
أرى صوراً يستعبد النفس مثلها ... إذا وجدته أو رأته مصورا
أفكه منها الطرف في كل شاهد ... بأن دليل الله في كل ما برا
فأخلس منها اللحظ كل مطهم ... ألذ إلى عين المسهد من كرى

ويعجبه منظر الخيل وقد أعدت للركوب وهيئت للقتال فتطرب نفسه وتتفاعل مشاعره وإذا بلسانه يقول :

والخيل تمرح في الشكيم كأنها ... عقبان صارة شاقها الأوكار
من كل يعبوب سبوح سلهب ... حص السياط عنانه الطيار
لا يطبيه غير كبة معرك ... أو هبوة من مأقط ومغار
سلط السنابك باللجين مخدم ... وأذيب منه على الأديم نضار

ويتطلع إلى وفرته فإذا هي غدائر غادة جميلة لم تهمل شعرها ، ولم يمسها بؤس ولا اقتار :

وكان وفرته غدائر غادة ... لم يلقها بؤس ولا اقتار

ويراها تركض ، فيتساءل عن هذا الركض ونوعه لأنه يظن أنها تطير ،

مرّت لغايتها فلا/والله ما ... علقت بها في عدوها الأبصار
وجرت فقلت أسابح أم طائر ... هلا استشار لوقعهن غبار

وهل من غرابة في ذلك وهي :

من آل أعوج والصريح وداحس ... فيهن منها ميسم ونجار

ونقرأ له هذه الأبيات فنحس كأنه متيم بهذه الجياد :

من كل يعبوب يجيد فلا ترى ... الا قذالا سامياً وتليلا
وكأن بين عنانه ولبانه ... رشأ يريع إلى الكناس خذولا
لو تشرئب له عقيلة ربرب ... ظنته جؤذر رملها المكحولا
تتنزل الأروى على صهواته ... ويبيت في وكر العقاب نزيلا
يهوى بأم الخشف بين فروجه ... ويقيد الأدمانة المطبولا

وكثيراً ما يأتي الشاعر بمبالغات فيها شيء من الإغراق القوي في القول ، كقوله :

وأجل علم البرق فيها أنها ... مرت بجانحتيه وهي ظنون

وهو بحكم كونه شاعر المعز ، رأى الجيش يعده المعز ، ويزجيه كثيفاً ، حتى كأنه موكل بقضاء الله ، وهذه الفتية الشيعية التي نذرت نفسها لله ، وآل بيت رسول الله ، تعلو صهوات هذه الجياد الجميلة ، وقد تقلدت سيوفها ، وأشرعت رماحها ، ووطدت نفسها على الحرب والجهاد ، في سبيل العقيدة . يرى ابن هاني كل هذا ويروقه المنظر فيقول :

عليها المغاوير في السابغات ... ترفرف مثل متون الأضا
حتوف تلهى بأمثالها ... وأسد تغذ بأسد الشرى
تبختر في عصفر من دم ... وتخطر في لبد من قنا

ويرى الأعادي سيوف هؤلاء فيتوهمونها سرجاً أو ناراً تصطلي :

وقال الأعادي أأسيافهم ... أم النار مضرمة تصطلى
رأوا سرجاً ثم لم يعلموا ... أهندية قضب أم لظى
ومنتقدات تذيب الشليل من فوق لابسه في الوغى
من اللاء تأكل أغمادها ... وتلفح منهن جمر الغضا

أو يقول عن هؤلاء الشباب الذين علوا متن خيولهم :

وعلى مطاها فتية شيعية ... ما أن لها إلا الولاء شعار
من كل أغلب باسل متخمط ... كالليث فهو لقرنه هصار
قلق إلى يوم الهياج مغامر ... دم كل قيل في ظباه جبار
أن تخب نار الحرب فهو بفتكه ... ميقادها مضرامها المغوار
فأداته فضفاضة وتريكة ... ومهند ومثقف بتار
أسد إذا زأرت وجار ثعالب ... ما أن لها إلا القلوب وجار

وإذا ما عرض للأسطول وصفه بقطعه الكثيرة وقد نشرت أعلامه ، وراح يمخر عباب البحر ليلقى العدو :

مؤاخر فيّ طامي العباب كأنه ... لعزمك بأس أو لكفك جود
أنافت بها أعلامها وسما لها ... بناء على غير العراء مشيد
من الراسيات الشم لولا انتقالها ... فمنها قنان شمخ وريود
من الطير إلا أنهن جوارح ... فليس لها إلا النفوس مصيد
من القادحات النار تضرم للصلى ... فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج ... كما شب من نار الجحيم وقود
فأنفاسهن الحاميات صواعق ... وأفواههن الزافرات حديد

(١) ابن سعيد المغربي - رايات المبرزين وأخبار المميزين ص ٥٥ .

وهذه الأبيات تعطينا فكرة واضحة عن كيفية تجهيز هذه المراكب الحربية ، بمدافع تبصق اللهب ، صنعت من حديد ، وربما كانت تشبه المجانيق .

وتزيين هذه المراكب بنقوش مختلفة ، واستار مفوفة ، كثياب الخرد الكواعب ، مما يدل على العناية الزائدة بها :

لها من شفوف العبقري ملابس   مفوفة فيها النضار جسيد
كما اشتملت فوق الأرائك خرد   أو التفعت فوق المنابر صيد

وقد صفحت بالحديد لتصد الأمواج :

لبوس تكف الموج وهو غطامط   وتدرأ بأس أليم وهو شديد
فمنها دروع فوقها وجواشن   ومنها خفاتين لها وبرود

وقد كانوا يطلون هذه السفن بالقار لحفظها ، فتبدو سوداء :

وسفن إذا ما خاضت أليم زاخراً   جلت عن بياض النصر وهي غرابيب
تشب لها حمراء قان أوارها   سبوح لها ذيل على الماء مسحوب

وقد وصف النجوم في قصيدة أعجب بها القدماء ، ولكنهم لاحظوا أن لا حلاوة في لفظها ، ولا سهولة في حفظها ، ومما قاله في وصفه لإقبال الصباح وأفول النجوم :

وقد ولت الظلماء تقفو نجومها   وقد قام جيش الفجر لليل واصطفا
وولت نجوم للثريا كأنها   خواتيم تبدو في بنان يد تخفى

ثم يتحدث عن النجوم ، فيدهشنا بسعة معرفته لما كان يعرف في زمانه من أسماء النجوم ، من الشعرى العبور ، إلى الدبران ، فالسماكين وبنات نعش وسهيل والسهى والنسر ، وغيرذلك من أسماء .

وأما الحصري فرأيه في هذه القصيدة واضح من قوله : وقد احتذى طريقه - الضمير عائد إلى علي بن محمد الكوفي - أبو القاسم محمد بن هاني(١) وهذا يعني أن ابن هاني توكأ في معاني قصيدته على المعاني التي وردت في قصيدة علي بن محمد الكوفي التي مدح فيها علي بن داود حتى في وصف النجوم حتث ينتقل من الوصف إلى المدح قائلاً :

كأن نذير الشمس يحكى ببشره   علي بن داود أخي ونسيبي(٢)

وهذا يشبه تماماً انتقال ابن هاني في قصيدته تلك حيث يقول :

كأن لواء الشمس غرة جعفر   رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

وقد وصف أيضاً قصراً بناه إبراهيم بن جعفر في قصيدة هنأه بها فقال :

والقبة البيضاء طائرة به   تهوي بمنخرق الصبا أعنانها
ضربت بأروقة ترفرف فوقها   تهوي بفتح قوادم خفقانها
علياء موفية على عليائه   في حيث أسلم مقلة انسانها
نيطت أكاليل بها منظومة   فغدا يضاحك درها مرجانها
وتعرضت دور الستور كأنها   عذبات أوشحة يروق جمانها
وكأن أفواف الرياض نثرن في   صفحاتها فتفوفت ألوانها

(١) الحصري - زهر الآداب وثمر الألباب ج ٢ - ص ٧٥٥ .
(٢) الحصري - زهر الآداب وثمر الألباب ج ٢ - ص ٧٥٣ .

مير عماد الدين محمود بن مير رحمة الله الحسيني الأسد آبادي الهمذاني المعروف بآلهي أسد آبادي .

توفي سنة ١٠٦٤ .

من شعراء القرن الحادي عشر الهجري المعروفين . درس أيام شبابه في شيراز ثم سافر إلى العراق ، ثم انتقل إلى أصفهان وقضى فيها سنة أو سنتين واتصل هناك بالشعراء ومنهم حكيم شفائي .

ومما ذكره نصر آبادي في تذكرته نفهم أنه عمل مع الملاّ شكوهي الهمذاني في مقهى للشاي (قهوة خانه عرب) وان الشاه عباس دخل عليهما وتكلم معهما ، وسأل أولاً الملاّ شكوهي ما عملك ؟ فأجاب : إني شاعر ، فطلب منه أن ينظم الشعر فنظم بيتاً ارتاح له الشاه واستحسنه . ثم سأل إلّهي عن شهرته ، فقال إلّهي ، فوضع الشاه يده على رأسه وقال : إلّهي .

والظاهر أن عطف الشاه لم يتجاوز الثناء عليه ، لذا نراه يضطر لترك أصفهان والسفر إلى الهند ، وعرج في طريقه لمدة قصيرة على قندهار وكابل سنة ١٠٢١ .

وفي سنة ١٠٢٢ لازم (زمان بيك مهابت خان) . وفي سنة ١٠٣٣ لازم (ظفر خان أحسن الله تربتي) في كابل ، وكان هذا حاكماً فيها . ونجد في ديوان المترجم أشعاراً في مدح مهابت خان .

ولم يلبث ظفر خان أن ترك كابل إلى اكره في الهند ، فتركها المترجم إلى الهند أيضاً ، وكان ذلك في أواخر حياة جهانگير (١٠١٤ - ١٠٣٧) .

ويقول مير عبد الرزاق في كتابه (بهارستان سخن) أي : (ربيع الكلام) عن المترجم أنه كان عفيف النفس ذا همة عالية ، ولذلك استقبل من جهانگير بحفاوة بالغة .

عاشر في الهند الحاجي مهرجان قدسي المشهدي في عهد ملكية شاه جهان (١٠٢٧ - ١٠٦٨) وكان من الشعراء البارزين في بلاط شاه جهان ، كما أنه لم يترك ملازمة ظفر خان أحسن ، ولما عين هذا لحكومة كشمير ، وكان محباً للشعراء مغرماً بالشعر سافر معه مير إلّهي وعاش هناك من الراتب البسيط الذي كان يتقاضاه من البلاط . ثم اعتزل الناس حتى وفاته .

توجد نسخة من ديوانه في مكتبة المتحف البريطاني وفيها خمسة آلاف بيت من الشعر في قصيدة بمدح الأئمة عليهم السّلام ، ومدح شاه جهان ومهابت خان وبعض الأمراء والوزراء .

وفيه الغزل والتركيب والترجيح والقطعة ، ورسالة الساقي ، وعدة مثنويات صغيرة وبعض الرباعيات .

وله (كنز الخزائن) وفيه منتخبات من شعر أربعمائة شاعر من شعراء القرن الثامن والتاسع والعاشر مع تراجم للشعراء .

أجمع الكتاب الذين التقوا به في الهند على جمال شعره . ومن خلال أشعاره ندرك مدى علمه وحبه للعلوم(٣) .

الأمير فخر الدين محمود ابن الأمير يمين الدين الطغرائي المستوفي المشهور والمتخلص بـ (ابن يمين) .

(٣) تاريخ أدبيات إيران .

ولد في أواخر القرن السابع في قرية فريومد من قرى سبزوار .

وتوفي على ما رواه دولت شاه سنة ٧٤٥ وقبره في صومعة والده بقرية (فريومد) .

هو أحد كبار شعراء إيران في القرن الثامن الهجري ، وكان والده الأمير يمين الدين الطغرائي ـ على ما روى دولت شاه ـ رجلاً فاضلاً ، أصله من الترك ، استوطن في عهد محمد خدابنده (٧٠٣ ـ ٧١٦ هـ) قرية فرومد (فريومد) من قرى بيهق (سبزوار) واشترى فيها عقارات واستقر فيها ، وكان علاء الدين محمد فريومدي الذي عاش في عهد السلطان أبي سعيد وبعده في عصر طغا تيمور خان الذي كان صاحب ديوان ووزير خراسان يعطف عليه .

ويتحدث دولت شاه عن أهمية رسائل الأمير يمين الدين إلى ابنه الأمير محمود من الروم إلى خراسان ، وأجوبة الابن إلى أبيه الذي توفي سنة ٧٢٢ .

وكان المترجم منذ شبابه معدوداً بين الشعراء والكتاب ، وقد عهد إليه ، كما كان عهد إلى والده قبله استيفاء وتحرير الطغراء لدى الخواجة علاء الدين محمد الفريومدي وزير خراسان الذي قتل في ٢٧ شعبان سنة ٧٤٢ عند حدود مازندران على أيدي السربداريين .

قضى المترجم أيام شبابه في خراسان ، وسافر إلى تبريز ، وحضر لدى غياث الدين محمد بن رشيد الدين فضل الله ، الوزير الذي كان بيته ملتقى لأرباب الفضل في ذلك الزمان ، ولكنه لم يبق هناك طويلاً ، ونظم قصيدة طلب فيها من الوزير أن يسمح له بالرجوع إلى وطنه . ونفهم من خلال أشعاره أنه عاش فترة في العراق دون أن يستقر فيه ، كما نفهم منها أنه لم تطب له الحياة خارج خراسان ، فبعد ذهابه إلى مدينة (السلطانية) لم يطل فيها المقام . وكل ذلك يتجلى لنا من مطالعتنا لأشعاره .

وبعد رجوعه إلى خراسان عاش في قرية (فريومد) ، وكانت له اتصالات مع وزراء منطقة خراسان فيمدحهم في أشعاره لا سيما منهم علاء الدين محمد الفريومدي وزير خراسان . وبعد أن قتل السربداريون[١] هذا الوزير في حدود گرگان (جرجان) وطبرستان في حرب بينهم وبين الطغاتيموريين ، اتصل بالخواجة غياث الدين هندو الذي أصبح وزيراً بعد مقتل أخيه .

وفي سنة ٧٤٣ نشبت الحرب في قرية حيدري بين الملك معز الدين حسين محمد كرت[٢] والخواجة وجيه الدين مسعود السربداري والشيخ حسن الجوري ، وهرب الخواجة وجيه الذين مسعود . وفي معارك هذه الحرب شرق ديوان ابن يمين ، ويقول خواند مير إن جنود هرات أسروا إبن يمين ، وعندما أخذوه إلى الملك أراد تدبير أمره بمدح الملك معز الدين حسين كرت شعراً ، أملاً باسترداد ديوان شعره ، ولكنه لم يغز من ذلك بطائل ، والظاهر أن الديوان ضاع في الحرب . فراح يجمع شعره من هنا وهناك مرتباً ديواناً جديداً احتوى على ١٥ ألف بيت بين الغزل والرباعيات والمقطعات والترجيع والقصائد .

وقد قضى الشطر الأخير من حياته بين سبزوار وفريومد بقناعة كاملة واعتقادات أخلاقية ، بحيث تفرد من بين شعراء عصره بقصائده الأخلاقية ويقول خواندمير أن هذه القصائد كانت تكتب على الألواح والأبواب وتحفظ في القلوب .

وكان شعره بخلاف شعر معاصريه من الشعراء : سلساً بسيطاً من غير تكلف خالياً من الكلمات المتقعرة . وهذا هو سبب رواج شعره بين الجماهير في كل زمان .

وقد قام في هذا العصر الدكتور سعيد نفيسي بجمع شعره وآثاره حسب المستطاع[٣] .

المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمر الثقفي ، وكنيته أبو إسحاق :

ولد عام الهجرة وقتل سنة ٦٧ في حربه مع مصعب بن الزبير .

ما هي حقيقة المختار ؟ انه هو نفسه خير من يجيب على هذا السؤال . وقد أجاب فعلاً وهو في ساعاته الأخيرة من الحياة حين رد على تساؤل رفيقه السائب بن مالك الأشعري فقال : « انما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير قد وثب بالحجاز ، ورأيت ابن نجدة وثب باليمامة ، ومروان بالشام ، وكنت فيها كأحدهم ، إلا أني قد طلبت بثأر أهل البيت إذ نامت عنه العرب » .

ويقول عنه السيد محسن الأمين : « والله أعلم بحقيقة أمره وعلى كل حال فقد شفى النفوس وأدرك الثأر وانتقم الله به من الطغاة الفجرة » .

وإذا كنا نحن لا يمكن أن نزيد شيئاً على ما قاله هو عن نفسه وما قاله عنه السيد محسن الأمين فإننا ننشر هنا قصة أخذه بثأر الحسين مما لا يخرج عن موضوع (المستدركات) مهما كان أمره وأمر الناس معه :

لما بعث الحسين مسلم بن عقيل إلى الكوفة نزل في دار المختار ، فبايعه المختار في جملة من بايعه من أهل الكوفة وناصحه ودعا الناس إليه ، فلما خرج مسلم كان المختار في قرية له خارج الكوفة ، لأن خروج مسلم كان قبل ميعاده بسبب ضرب ابن زياد لهاني بن عروة وحبسه فجاء الخبر إلى المختار عند الظهر بخروج مسلم فأقبل المختار في مواليه حتى دخل الكوفة وأتى إلى باب الفيل وهو من أبواب المسجد بعد المغرب وكان ابن زياد قد عقد لعمرو بن حريث راية وامره على الناس واقعده في المسجد فمر بالمختار رجل من أصحاب ابن زياد يسمى هاني بن أبي حية الوداعي فقال للمختار ما وقوفك ههنا لا أنت مع الناس ولا أنت في بيتك فقال له المختار أصبح رأيي مرتجاً لعظم خطيئتكم فدخل هاني على عمرو بن حريث واخبره بذلك فأرسل عمرو إلى المختار رجلاً يأمره أن لا يجعل على نفسه سبيلاً فقال زائدة ابن قدامة بن مسعود لعمرو يأتيك المختار على أنه آمن قال عمرو أما مني فهو آمن وان بلغ الأمير عبيد الله عنه شيء شهدت عنده ببراءته وشفعت له أحسن الشفاعة فجاء المختار إلى ابن حريث وجلس تحت رايته حتى أصبح ، وجاء عمارة بن عقبة بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط فاخبر ابن زياد بأمر المختار فلما اذن ابن زياد للناس دخل عليه المختار في جملة من دخل فقال له ابن زياد أنت المقبل في الجموع لتنصر

(١) راجع عن السربداريين ترجمة عليّ بن المؤيد في المجلد الثاني من المستدركات .

(٢) آل كرت دولة نشأت اثناء القرنين السابع والثامن في الركن الشمالي الشرقي من إيران وكان مقرها في مدينة هرات ولكن نفوذها كان يمتد إلى الولايات القريبة فيشمل بعض بلاد الغور وإقليم غرجستان وولاية سجستان . ومعز الدين حسين هذا هو الملك قبل الأخير من ملوكهم ، إذ انتهى ملكهم بابنه غياث الدين الذي قتله تيمورلنك سنة ٧٨٥ .

(٣) تاريخ أدبيات إيران .

ابن عقيل فقال لم أفعل ولكني أقبلت وقعدت تحت راية عمرو بن حريث إلى الصباح وشهد لـه عمرو بن حريث بذلك فضربه ابن زياد بالقضيب على وجهه حتى أصاب عينه فشترها[1] وقال والله لولا شهادة عمرو لك لضربت عنقك وأمر به إلى السجن فلم يزل المختار محبوساً حتى قتل الحسين (عليه السّلام) فأرسل المختار رسولاً إلى عبد الله بن عمر يطلب منه أن يكتب إلى يزيد ليكتب إلى ابن زياد باطلاق المختار . فلما جاء الرسول إلى عبد الله بن عمر وعلمت زوجته صفية بحبس أخيها بكت وجزعت فرق لها عبد الله وكتب إلى يزيد يطلب منه أن يكتب إلى ابن زياد باطلاقه فكتب يزيد إلى ابن زياد : أما بعد فخل سبيل المختار ابن أبي عبيد حين تنظر في كتابي . فدعا ابن زياد بالمختار فأخرجه ثم قال له قد اجلتك ثلاثاً فإن أدركتك بالكوفة بعدها فقد برئت منك الذمة . فلما كان اليوم الثالث خرج المختار إلى الحجاز فلقيه ابن العرق مولى ثقيف وراء واقصة فسلم عليه وسأله عن عينه فقال خبطها ابن الزانية بالقضيب فصارت كما ترى ثم قال : قتلني الله إن لم اقطع أنامله واعضاءه إرباً إرباً ، ثم قال : إذا سمعت بمكان قد ظهرت به في عصابة من المسلمين اطلب بدم الشهيد المظلوم المقتول بالطف سيد المسلمين وابن سيدها وابن بنت سيد المسلمين الحسين بن علي فوربك لأقتلن بقتله عدة القتلى التي قتلت على دم يحيى بن زكريا عليهما السّلام فجعل ابن العرق يتعجب من قوله : ثم سار المختار حتى وصل إلى مكة وابن الزبير يدعو إلى نفسه سراً فكتم أمره عن المختار ففارقه المختار وغاب عنه سنة فسأل عنه ابن الزبير فقيل له انه بالطائف ثم حضر المختار وبايع ابن الزبير على شروط شرطها وأقام عنده وحارب معه أهل الشام وقاتل قتالاً شديداً وكان أشد الناس على أهل الشام . فلما هلك يزيد وأطاع أهل العراق ابن الزبير أقام المختار عنده خمسة أشهر وأياماً فقدم هاني بن أبي حية الوداعي إلى مكة يريد العمرة في رمضان فسأله المختار عن أهل الكوفة فأخبره أنهم على طاعة ابن الزبير إلا أن طائفة من الناس هم عدد أهلها لو كان لهم من يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض فقال المختار : أنا أبو إسحاق أنا والله لهم أن أجمعهم على الحق وألقى بهم ركبان الباطل وأهلك بهم كل جبار عنيد . ثم ركب راحلته وأقبل نحو الكوفة حتى وصل إلى نهر الحيرة يوم الجمعة فاغتسل وادهن ولبس ثيابه واعتم وتقلد سيفه وركب راحلته ودخل الكوفة وجعل لا يمر على مجلس إلا سلم على أهله وقال ابشروا بالنصرة والفلج آتاكم ما تحبون ولقيه عبيدة بن عمرو البدائي الكندي وكان من أشجع الناس وأشعرهم وأشدهم تشيعاً وحباً لعلي عليه السّلام فقال له : أبشر بالنصر والفلج . وكان سليمان بن صرد وأصحابه في ذلك الوقت يستعدون للطلب بثأر الحسين عليه السّلام فلما خرج سليمان وأصحابه نحو الشام قال عمر بن سعد وشبث بن ربعي ويزيد بن الحارث بن رويم وهم من قتلة الحسين عليه السّلام لعبد الله بن يزيد الخطمي وهو والي الكوفة من قبل ابن الزبير وإبراهيم بن محمد بن طلحة وهو أمير الخراج : أن المختار أشد عليكم من سليمان بن صرد إن سليمان إنما خرج يقاتل عدوكم وان المختار يريد أن يثب عليكم في مصركم فاوثقوه واسجنوه فأتوا وأخذوه بغتة وأراد إبراهيم أن يقيده ويمشيه حافياً فلم يقبل عبد الله وأتي ببغلة دهماء فحمل عليها وقيل بل قيده . ولما قدم أصحاب سليمان بن صرد إلى الكوفة كتب إليهم المختار من الحبس : أما بعد فإن الله أعظم لكم الأجر وحط عنكم الوزر بمفارقة القاسطين وجهاد المحلين أنكم لم تنفقوا نفقة ولم تقطعوا عقبة ولم تخطوا خطوة إلا رفع الله لكم بها درجة وكتب لكم حسنة فابشروا فاني لو خرجت إليكم جردت فيما بين المشرق والمغرب من عدوكم السيف باذن الله فجعلتهم ركاماً وقتلتهم فذاً وتوأماً فرحب الله لمن قارب واهتدى ولا يبعد الله إلا من عصى وأبى والسلام يا أهل الهدى . وأرسل إليهم الكتاب مع رجل يقال له سبحان قد ادخله في قلنسوته بين الظهارة والبطانة ، فلما جاء الكتاب ووقف عليه جماعة من رؤساء القبائل أعادوا إليه الجواب مع عبد الله بن كامل وقالوا : قل له قد قرأنا كتابك ونحن حيث يسرك فان شئت إن نأتيك حتى نخرجك من الحبس فعلنا فأتاه فأخبره فسر لذلك وأرسل إليهم لا تفعلوا هذا فإني أخرج في أيامي هذه . وكان المختار قد بعث غلاماً له إلى عبد الله بن عمر زوج أخته وكتب إليه : أما بعد فإني قد حبست مظلوماً وظن بي الولاة ظنوناً كاذبة فاكتب فيّ يرحمك الله إلى هذين الظالمين يعني إلى والي الكوفة وأمير خراجها كتاباً لطيفاً عسى الله أن يخلصني من أيديهما بلطفك وبركتك ويمنك والسلام . فكتب إليهما عبد الله بن عمر : أما بعد فقد علمتما الذي بيني وبين المختار من الصهر والذي بيني وبينكما من الود فأقسمت عليكما بحق ما بيني وبينكما لما خليتما سبيله حين تنظران في كتابي هذا والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته . فلما أتاهما كتاب ابن عمر طلبا من المختار كفلاء فأتى أناس كثير من أشراف الكوفة ليكفلوه فاختار عبد الله ابن يزيد منهم عشرة من الأشراف فضمنوه فدعا به عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة وحلفاه أن لا يخرج عليهما فان خرج فعليه ألف بدنة ينحرها لدى رتاج الكعبة ومماليكه كلهم أحرار فحلف لهما بذلك وخرج إلى داره . وكان يقول بعد ذلك : قاتلهم الله ما أحمقهم حين يرون أني أفي لهم بأيمانهم هذه ، أما حلفي بالله فإني إذا حلفت على يمين فرأيت خيراً منها أكفر عن يميني وخروجي عليهم خير من كفي عنهم وأما هدي ألف بدنة فهو أهون علي من بصقة وأما عتق مماليكي فوالله لوددت أنه تم لي أمري ثم لم أملك مملوكاً أبداً . ولما استقر المختار في داره أخذت الشيعة تختلف إليه واتفقوا على الرضا به وكان أكثر من استجاب له همدان وقوم كثير من أبناء العجم الذين كانوا بالكوفة وكانوا يسمون الحمراء لحمرة وجوههم وكان منهم بالكوفة زهاء عشرين ألف رجل . وكان قد بويع للمختار وهو في السجن ولم يزل أصحابه يكثرون وأمره يقوى حتى عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة وبعث عبد الله بن مطيع والياً على الكوفة . فلما قدمها جاءه إياس بن مضارب وقال له : لست آمن المختار أن يخرج عليك وقد بلغني أن أمره قد تم فابعث إليه فاحبسه ، فبعث إليه ابن مطيع زائدة بن قدامة وحسين بن عبد الله من همدان فقالا له : أجب الأمير فدعا بثيابه وأمر باسراج دابته وهم بالذهاب معهما . فلما رأى ذلك زائدة قرأ قوله تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ . ففهمها المختار فجلس ثم نزع ثيابه وقال : ألقوا علي القطيفة ما أراني إلا قد وعكت إني لأجد قفقفة شديدة وتمثل بقول الشاعر :

إذا ما معشر تركوا نداهم ولم يأتوا الكريهة لم يهابوا

وقال للرسولين : ارجعا إلى ابن مطيع فاخبراه بحالتي فرجعا فإذا أصحابه على بابه وفي داره منهم جماعة كثيرة ، وقال حسين لزائدة : اني قد فهمت قولك حين قرأت الآية ، فانكر زائدة أن يكون أراد شيئاً . فقال له حسين : لا تخف فما كنت لأبلغ عنك ولا عنه شيئاً تكرهانه ، فأقبلا إلى ابن

(١) الشتر انقلاب جفن العين .

مطيع فاخبراه بعلته فصدقها وتركه . وقيل ان ابن مطيع بعث إلى المختار ما هذه الجماعات التي تغدو وتروح إليك ، فقال المختار : مريض يعاد ، وبعث المختار إلى أصحابه فأخذ يجمعهم في الدور حوله وأراد أن يثب بالكوفة في المحرم ، فجاء رجل من شباح حي من همدان اسمه عبد الرحمن بن شريح وكان شريفاً فاجتمع مع أربعة من الشيعة وقال لهم أن المختار يريد أن يخرج بنا ولا ندري أرسله ابن الحنفية أم لا فاتفق رأيهم على أن يأتوا ابن الحنفية فإن أمرهم باتباع المختار اتبعوه وان نهاهم عنه اجتنبوه فأتوا المدينة وأخبروا ابن الحنفية بذلك ، فقال لهم : والله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه فخرجوا من عنده وهم يقولون قد أذن لنا ولو كره لقال لا تفعلوا .

قال ابن نما رحمه الله تعالى : وقد رويت عن والدي أن ابن الحنفية قال لهم : قوموا بنا إلى إمامي وإمامكم علي بن الحسين عليهما السّلام فلما دخلوا عليه وأخبره الخبر قال يا عم لو أن عبداً زنجياً تعصب لنا أهل البيت لوجب على الناس موازرته وقد وليتك هذا الأمر فاصنع ما شئت فخرجوا وهم يقولون اذن لنا زين العابدين ومحمد ابن الحنفية ا هـ وروى المسعودي في مروج الذهب أن المختار كتب إلى علي بن الحسين السجاد عليه السّلام يريده على أن يبايع له ويقول بإمامته ويظهر دعوته وانفذ إليه مالاً كثيراً فأبى علي عليه السّلام أن يقبل ذلك منه أو يجيبه عن كتابه وسبه على رؤوس الاشهاد فلما يئس المختار من علي بن الحسين كتب إلى محمد بن الحنفية بمثل ذلك فأشار عليه علي بن الحسين أن لا يجيبه إلى شيء من ذلك وأن يتبرأ منه كما فعل هو فاستشار ابن عباس فقال لا تفعل لأنك لا تدري ما أنت عليه من ابن الزبير فسكت عن المختار ا هـ . وكان المختار علم بخروج من خرج إلى المدينة فشق ذلك عليه خوفاً من أن لا يجيبهم ابن الحنفية بما يحب فيتفرق عنه الناس فكان يريد النهوض بأصحابه قبل قدومهم من المدينة فلم يتيسر له ذلك فلم يكن إلا شهر أو زيادة حتى قدموا الكوفة فدخلوا على المختار قبل دخولهم إلى بيوتهم فقال لهم ما وراءكم ؟ قد فتنتم وارتبتم . فقالوا له : إنا قد أمرنا بنصرك فقال : الله أكبر أنا أبو إسحاق اجمعوا لي الشيعة فجمع منهم من كان قريباً إليه فقال لهم أن نفراً قد أحبوا أن يعلموا مصداق ما جئت به فرحلوا إلى إمام الهدى والنجيب المرتضى ابن خير من مشى حاشا النبي المجتبى فاعلمهم اني وزيره وظهيره ورسوله وأمركم باتباعي وطاعتي فيما دعوتكم إليه من قتال المحلين والطلب بدماء أهل بيت نبيكم المصطفين فقام عبد الرحمن بن شريح وأخبرهم أن ابن الحنفية أمرهم بمظاهرته ومؤازرته وقال فليبلغ الشاهد الغائب واستعدوا وتأهبوا وقام أصحابه فتكلموا بنحو من كلامه وكان أول من أجاب المختار إلى ذلك عامر الشعبي وأبوه شراحيل . وقال جماعة للمختار أن أشراف أهل الكوفة مجتمعون على قتالك مع ابن مطيع فان أجابنا إلى أمرنا إبراهيم بن مالك الأشتر رجونا القوة على عدونا فانه فتى رئيس وابن رجل شريف له عشيرة ذات عز وعدد فقال لهم المختار فالقوه فادعوه واعلموه الذي أمرنا به من الطلب بدم الحسين عليه السّلام وأهل بيته فخرجوا إليه ومعهم الشعبي فأتوه واعلموه عزمهم على الطلب بدماء أهل البيت عليهم السّلام وسألوه مساعدتهم على ذلك وذكروا له ما كان أبوه عليه من ولاء علي عليه السّلام وأهل بيته فقال لهم أني قد أجبتكم إلى الطلب بدم الحسين عليه السّلام وأهل بيته على أن تولوني الأمر فقالوا له أنت أهل لذلك ولكن ليس إلى ذلك سبيل هذا المختار وقد جاءنا من قبل إمام الهدى ومن نائبه محمد بن الحنفية وهو المأمور بالقتال وقد أمرنا بطاعته فسكت إبراهيم ولم يجيبهم، فانصرفوا عنه، واخبروا المختار فمكث المختار ثلاثاً ثم دعا جماعة من أصحابه فدخلوا عليه وبيده صحيفة مختومة بالرصاص فدفعها إلى الشعبي وقال لأصحابه انطلقوا بنا إلى إبراهيم بن الأشتر فسار في بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه وفيهم الشعبي وأبوه فدخلوا على إبراهيم فألقى لهم الوسائد فجلسوا عليها وجلس المختار معه على فراشه ، فقال له المختار : إن الله أكرمك وأكرم أباك من قبلك بموالاة بني هاشم ونصرتهم ومعرفة فضلهم وما أوجب الله من حقهم وهذا كتاب محمد بن علي أمير المؤمنين وهو خير أهل الأرض اليوم وابن خير أهل الأرض كلها قبل اليوم بعد أنبياء الله ورسله يأمرك أن تنصرنا و توازرنا فان فعلت اغتبطت وان امتنعت فهذا الكتاب حجة عليك وسيغني الله محمداً وأهل بيته عنك . ثم قال للشعبي ادفع الكتاب إليه فدفعه إليه الشعبي فدعا بالمصباح وفض خاتمه وقرأه فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو أما بعد فإني قد بعثت إليكم وزيري وأميني الذي ارتضيه لنفسي وقد أمرته بقتال عدوي والطلب بدماء أهل بيتي فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك فانك أن نصرتني وأجبت دعوتي كانت لك بذلك عندي فضيلة ولك أعنة الخيل وكل جيش غاز وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام . فلما فرغ إبراهيم من قراءة الكتاب قال : قد كتب لي ابن الحنفية قبل اليوم وكتبت إليه فلم يكتب إلي إلاّ باسمه واسم أبيه قال المختار ذلك زمان وهذا زمان قال إبراهيم فمن يعلم أن هذا كتابه ؟ فشهد جماعة ممن معه بذلك منهم يزيد بن أنس وأحمر بن شميط وعبد الله بن كامل وسكت الشعبي وأبوه فتأخر إبراهيم عند ذلك عن صدر الفراش وأجلس المختار عليه وبايعه إبراهيم . فقال المختار أتأتينا أو نأتيك في أمرنا فقال إبراهيم بل أنا آتيك كل يوم ودعا بفاكهة وشراب من عسل فأكلوا وشربوا وخرجوا فخرج معهم ابن الأشتر وركب مع المختار ثم رجع إبراهيم ومعه الشعبي إلى دار إبراهيم ، فقال له : يا شعبي إني قد رأيتك لم تشهد أنت ولا أبوك فترى هؤلاء شهدوا على حق ؟ قال له الشعبي : قد شهدوا على ما رأيت وهم سادة القراء ومشيخة المصر وفرسان العرب ولا أرى مثل هؤلاء يقولون إلا حقاً . قال الشعبي : قلت له هذه المقالة وأنا والله لهم على شهادتهم متهم غير أنه يعجبني الخروج وأنا أرى رأي القوم وأحب تمام ذلك الأمر فلم اطلعه على ما في نفسي . ثم كتب إبراهيم اسماءهم وتركها عنده . وكان إبراهيم ظاهر الشجاعة واري زناد الشهامة نافذ حد الصرامة مشمراً في محبة أهل البيت عن ساقيه متلقياً غاية النصح لهم بكلتا يديه فجمع عشيرته وأخوانه ومن أطاعه وأقبل يختلف إلى المختار كل عشية عند المساء في نفر من مواليه وخدمه يدبرون أمورهم فيبقون عامة الليل . وكان حميد بن مسلم الأسدي صديقاً لإبراهيم بن الأشتر فكان يذهب به معه إلى المختار . واجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لاربع عشرة بقيت من ربيع الأول وقيل لآخر سنة ست وستين . فلما كانت ليلة الثلاثاء وقيل الأربعاء عند المغرب قام إبراهيم فأذن وصلى المغرب بأصحابه ثم خرج يريد المختار وعليه وعلى أصحابه السلاح وكان أياس بن مضارب صاحب شرطة عبد الله بن مطيع أمير الكوفة فأتاه فقال له أن المختار خارج عليك في إحدى هاتين الليلتين فخذ حذرك منه ثم خرج إياس فبعث ابنه راشداً إلى الكناسة وأقبل يسير حول السوق في الشرط ثم دخل على ابن مطيع فقال له أني قد بعثت ابني إلى الكناسة فلو بعثت في كل جبانة عظيمة بالكوفة رجلاً من أصحابك في جماعة من أهل الطاعة لهاب المختار وأصحابه الخروج عليك فبعث ابن مطيع إلى الجبانات من شحنها بالرجال وأوصى كلاً منهم أن

يحفظ الجهة التي هو فيها ، وبعث شبث بن ربعي إلى السبخة وقال إذا سمعت صوت القوم فوجه نحوهم وكان ذلك يوم الاثنين وخرج إبراهيم بن الأشتر يريد المختار ليلة الثلاثاء وقد بلغه أن الجبانات قد ملئت رجالاً وأن إياس بن مضارب في الشرط قد أحاطوا بالسوق والقصر فأخذ معه من أصحابه نحواً من مائة رجل عليهم الدروع وقد لبسوا عليها الأقبية وتقلدوا بالسيوف . وقال له أصحابه : تجنب الطريق فقال والله لأمرن وسط السوق بجنب القصر ولأرعبن به عدونا ولأرينهم هوانهم علينا فسار على باب الفيل ثم على دار عمرو بن حريث فلقيهم إياس بن مضارب في الشرط مظهرين السلاح فقال إياس ما هذا الجمع الذي معك وما تريد والله أن أمرك لمريب وقد بلغني أنك تمر كل عشية من ها هنا وما أنا بتاركك حتى آتي بك الأمير فيرى فيك رأيه . فقال إبراهيم خل سبيلنا ، فقال لا أفعل . وكان مع إياس بن مضارب رجل من همدان يقال له أبو قطن وكان يصحب أمراء الشرطة فهم يكرمونه وكان صديقاً لابن الأشتر ومن عشيرته . فقال له ابن الأشتر : أدن مني يا أبا قطن فظن أنه يريد أن يطلب منه أن يشفع له عند إياس فدنا منه وكان مع أبي قطن رمح طويل فتناوله منه ابن الأشتر وهو يقول : أن رمحك هذا لطويل وحمل به على إياس فطعنه في ثغرة نحره فصرعه وأمر رجلاً من قومه فاحتز رأسه وانهزم أصحاب إياس ورجعوا إلى ابن مطيع فأخبروه ، فبعث راشد بن إياس مكان أبيه على الشرط وبعث مكان راشد سويدا المنقري إلى الكناسة ، وأقبل ابن الأشتر إلى المختار وقال له انا اتعدنا الخروج في الليلة القابلة وقد عرض أمر لا بد معه من الخروج الليلة قال ما هو؟ قال : عرض لي إياس في الطريق فقتلته وهذا رأسه مع أصحابي على الباب فاستبشر المختار بذلك وتفاءل بالنصر والظفر وقال هذا أول الفتح إن شاء الله تعالى ، ثم قال قم يا سعيد بن منقذ واشعل النار في القصب ثم ارفعها للمسلمين وأمر مناديه أن ينادي يالثارات الحسين ثم دعا بدرعه وسلاحه فلبسه وهو يقول :

قد علمت بيضاء حسناء الطلل ... واضحة الخدين عجزاء الكفل
اني غداة الروع مقدام بطل ... لا عاجز فيها ولا وغد فشل

ثم قال له إبراهيم إن هؤلاء الذين في الجبابين يمنعون أصحابنا من اتياننا فلو سرت إلى قومي بمن معي فيأتيني كل من بايعني من قومي وسرت بهم في نواحي الكوفة ودعوت بشعارنا لخرج إلينا من أراد الخروج فمن أتاك أبقيته عندك فإن جاءك عدو كان معك من تمتنع به فإذا فرغت انا عجلت الرجوع إليك فقال له المختار افعل وعجل وإياك أن تسير إلى أميرهم تقاتله ولا تقاتل أحداً إذا أمكنك أن لا تقاتله إلا أن يبدأك أحد بقتال ، فخرج إبراهيم في الكتيبة التي جاء بها حتى أتى قومه واجتمع إليه جل من كان أجابه فسار بهم في سكك الكوفة طويلاً من الليل وهو يتجنب المواضع التي فيها الأمراء الذين بعثهم ابن مطيع فلما وصل إلى مسجد السكون أتاه جماعة من خيل زحر بن قيس ليس عليهم أمير فحمل عليهم إبراهيم فكشفهم حتى ادخلهم جبانة كندة . فقال إبراهيم من صاحب الخيل في جبانة كندة ؟ فقيل له زحر بن قيس فشد إبراهيم وأصحابه عليهم وهو يقول ، اللّهم أنك تعلم انا غضبنا لأهل بيت نبيك وثرنا لهم فانصرنا على هؤلاء وتمم لنا دعوتنا حتى انتهى إليهم هو وأصحابه فكشفوهم وركب بعضهم بعضاً كلما لقيهم زقاق دخل منهم طائفة . فقال إبراهيم لأصحابه انصرفوا بنا عنهم وسار إبراهيم حتى أتى جبانة أثير فوقف فيها وتنادي أصحابه بشعارهم فأتاه سويد بن عبد الرحمن المنقري ورجا أن يصيبهم فيحظى بذلك عند ابن مطيع فلم يشعر إبراهيم إلا وهم معه فقال إبراهيم لأصحابه : يا شرطة الله أنزلوا فإنكم أولى بالنصر من هؤلاء الفساق الذين خاضوا في دماء أهل بيت نبيكم فنزلوا ثم حمل عليهم إبراهيم حتى أخرجهم إلى الصحراء وولوا منهزمين يركب بعضهم بعضاً وهم يتلاومون فقال قائل منهم إن هذا لأمر يراد ما يلقون لنا جماعة إلا هزموهم ، فلم يزل إبراهيم يهزمهم حتى أدخلهم الكناسة فقال له أصحابه اتبعهم فاغتنم ما دخلهم من الرعب فقال ولكن نأتي صاحبنا أي المختار يؤمن الله بنا وحشته ويعلم ما كان من نصرنا له فيزداد هو وأصحابه قوة ولا آمن أن يكون جاءه ، اعداؤه . فسار إبراهيم حتى أتى باب المختار فسمع الأصوات عالية والقوم يقتتلون ، وكان قد جاء شبث بن ربعي من قبل السبخة فعبى له المختار يزيد بن أنس ، وجاء حجار بن أبجر فجعل المختار في وجهه أحمر بن شميط فبينما الناس يقتتلون إذ جاء إبراهيم من قبل القصر فبلغ حجاراً وأصحابه أن إبراهيم قد جاءهم من ورائهم فتفرقوا في الأزقة قبل أن يأتيهم إبراهيم وجاء رجل من أصحاب المختار اسمه قيس بن طهفة النهدي في قريب من مائة رجل من بني نهد فحمل على شبث وهو يقاتل يزيد بن أنس فخلى لهم شبث الطريق حتى اجتمعوا جميعاً . وجاء عبد الله بن الحر الجعفي في قومه لنصرة المختار ، ثم إن شبثا ترك لهم السكة وأقبل إلى ابن مطيع فقال له أجمع الأمراء الذين في الجبابين وجميع الناس ثم أخرج إلى هؤلاء القوم فقاتلهم فإن أمرهم قد قوي وقد خرج المختار وظهر وقوي أمره فلما بلغ المختار قوله خرج في جماعة من أصحابه حتى نزل في ظهر دير هند في السبخة وخرج أبو عثمان النهدي من أصحاب المختار فنادى في بني شاكر وهم مجتمعون في دورهم يخافون أن يظهروا لقرب كعب الخثعمي منهم وهو من أصحاب إياس وكان قد أخذ عليهم أفواه السكك فلما أتاهم أبو عثمان في جماعة من أصحابه نادى بالثارات الحسين ، يا منصور أمت ، يا أيها الحي المهتدون إن أمين آل محمد ووزيرهم قد خرج فنزل دير هند وبعثني إليكم داعياً ومبشراً فاخرجوا رحمكم الله فخرجوا ينادون يالثارات الحسين وقاتلوا كعباً حتى خلوا لهم الطريق فاقبلوا إلى المختار فنزلوا معه وخرج عبد الله بن قتادة الخثعمي في نحو من مئتين فنزلوا مع المختار وكان قد تعرض لهم كعب فلما عرف أنهم من قومه خلى عنهم وخرجت شبام وهم حي من همدان من آخر ليلتهم فبلغ خبرهم عبد الرحمن بن سعيد الهمداني فأرسل إليهم أن كنتم تريدون المختار فلا تمروا من ناحيتنا فلحقوا بالمختار حتى اجتمع عنده ثلاثة آلاف وثمانمائة قبل الفجر وكان قد بايعه اثنا عشر ألفاً وكان ممن خرج معه حميد بن مسلم ، فاصبح المختار وقد فرغ من تعبئة جيشه فصلى بأصحابه في الغلس (أي الظلمة) وأرسل ابن مطيع إلى من بالجبابين أن يأتوا المسجد . وأمر راشد بن إياس صاحب شرطته فنادى في الناس برئت الذمة من رجل لم يأت المسجد الليلة ، فاجتمعوا فبعث ابن مطيع شبث بن ربعي في نحو ثلاثة آلاف إلى المختار وبعث راشداً أيضاً في أربعة آلاف من الشرط ، هكذا ذكر الطبري وغيره وزاد ابن نما رحمه الله أنه بعث حجار بن أبجر في ثلاثة آلاف وثلاثة آخرين في ثلاثة آلاف وتتابعت العساكر إلى نحو من عشرين ألفاً فلما صلى المختار الغداة سمعوا أصواتاً مرتفعة فقال المختار من يأتينا بخبر هؤلاء ؟ فقال له رجل أنا اصلحك الله ، قال المختار فألق سلاحك واذهب حتى تدخل فيهم كأنك متفرج وائتنا بخبرهم قال الرجل فلما دنوت منهم إذا مؤذنهم يقيم وإذا شبث بن ربعي ومعه خيل عظيمة فصلى بهم فقرأ إذا زلزلت الأرض زلزالها فقلت في نفسي أما والله أني لأرجو أن يزلزل الله بكم ثم قرأ

والعاديات ضبحا . فقال له أناس من أصحابه لو كنت قرأت أطول من هاتين السورتين شيئاً . فقال ترون الديلم قد نزلت بساحتكم وأنتم تقولون لو قرأت سورة البقرة وآل عمران ، مما دل على وقوع الرعب في قلبه . فأقبل الرجل إلى المختار وأخبره بخبر شبث وأصحابه وأتاه أيضاً سعر الحنفي يركض وكان ممن بايع المختار فلم يقدر على الخروج معه ليلة خرج خوفاً من الحرس فلما أصبح أقبل على فرسه فاعترضه راشد بن إياس وأصحابه فركض على فرسه وأفلت منهم حتى أتى المختار فأخبره بخبرهم ، فبعث المختار إبراهيم بن الأشتر إلى راشد بن إياس في تسعمائة وقيل في ستمائة فارس وستمائة راجل ، وبعث نعيم بن هبيرة أخا مصقلة بن هبيرة إلى شبث بن ربعي في ثلاثمائة فارس وستمائة راجل وأمرهما بتعجيل القتال وأن لا يقفا مقابلة عدوهما لأنه أكثر منهما وقال لا ترجعا حتى تظهرا أو تقتلا ، فتوجه إبراهيم إلى راشد وتوجه نعيم بن هبيرة إلى شبث وقدم المختار أمامه يزيد بن أنس في تسعمائة ، فأما نعيم فجعل سعر الحنفي على الخيل ومشى هو في الرجالة وقاتل شبثا قتالاً شديداً حتى أشرقت الشمس وانبسطت وضربهم أصحاب نعيم حتى ادخلوهم البيوت منهزمين فناداهم شبث وحرضهم فرجع إليه منهم جماعة فحملوا على أصحاب نعيم وقد تفرقوا فانهزم أصحاب نعيم وصبر هو فقتل وأسر سعر ومعه رجلان أحدهما مولى فقتله شبث وأطلق الآخرين لأنهما عربيان فأتيا المختار . فاغتم أصحاب المختار لذلك غماً شديداً وأخبره أحد الرجلين بما كان من أمره فقال له اسكت فليس هذا بمكان الحديث ، وجاء شبث حتى أحاط المختار ويزيد بن أنس وبعث ابن مطيع يزيد بن الحارث بن رويم في الفين فوقفوا في أفواه السكك وولى المختار يزيد بن أنس على الخيل وخرج هو في الرجالة فحملت عليهم خيل شبث حملتين فلم يبرحوا من مكانهم ، فقال لهم يزيد بن أنس : يا معشر الشيعة قد كنتم تقتلون وتقطع أيديكم وأرجلكم وتسمل أعينكم وترفعون على جذوع النخل في حب أهل بيت نبيكم وأنتم مقيمون في بيوتكم مطيعون لعدوكم فما ظنكم بهؤلاء القوم إن ظهروا عليكم اليوم إذاً والله لا يدعون منكم عيناً تطرف وليقتلنكم صبراً ولترون منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموت خير منه والله لا ينجيكم منهم إلا الصدق والصبر والطعن الصائب في أعينهم والضرب الدراك على هامهم فتيسروا للشدة وتهيأوا للحملة فإذا حركت رايتي مرتين فاحملوا ، فتهيأوا وجثوا على الركب وانتظروا أمره . وأما إبراهيم بن الأشتر فإنه أقبل نحو راشد ابن إياس فإذا معه أربعة آلاف فقال إبراهيم لأصحابه لا يهولنكم كثرة هؤلاء فوالله لرب رجل خير من عشرة ولرب فئة قليلة قد غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، ثم قال لخزيمة بن نصر سر إليهم في الخيل وأخذ هو يمشي في الرجالة ويقول لصاحب رايته تقدم برايتك امض بها قدماً قدماً واقتتل الناس قتالاً شديداً وحمل خزيمة بن نصر العبسي على راشد فطعنه فقتله ثم نادى قتلت راشداً ورب الكعبة وانهزم أصحاب راشد واقبل إبراهيم بن الأشتر وخزيمة بن نصر ومن معهما بعد قتل راشد نحو المختار وارسل البشير إلى المختار بقتل راشد فكبر هو وأصحابه وقويت نفوسهم ودخل أصحاب ابن مطيع الفشل ، وأرسل ابن مطيع حساناً العبسي في نحو من ألفين ليعترض إبراهيم بن الأشتر فتقدم إليهم إبراهيم فانهزموا من غير قتال وأقبل إبراهيم نحو المختار وشبث بن ربعي محيط به فلما رآه يزيد بن الحارث الذي كان على أفواه السكك مقبلاً نحو شبث أقبل نحوه ليرده عن شبث وأصحابه فبعث إبراهيم إليه طائفة من أصحابه مع خزيمة بن نصر وسار هو نحو شبث فيمن بقي معه فلما أقبل إبراهيم نحو شبث جعل شبث وأصحابه ينكصون إلى الوراء قليلاً قليلاً فلما دنا منهم إبراهيم حمل عليهم وأمر يزيد بن أنس أن يحمل عليهم ففعل فانهزموا حتى وصلوا إلى بيوت الكوفة وحمل خزيمة بن نصر على يزيد بن الحارث فهزمه وأصحابه وازدحموا على أفواه السكك وكان يزيد بن الحارث قد وضع الرماة على أفواه السكك فوق البيوت ، وأقبل المختار فلما انتهى إلى أفواه السكك رمته الرماة بالنبل فصدوه عن دخول الكوفة من ذلك الوجه ؛ ورجع الناس منهزمين إلى ابن مطيع وجاءه قتل راشد بن إياس فسقط في يده ، فقال له عمرو بن الحجاج أيها الرجل لا تلق بيدك واخرج إلى الناس واندبهم إلى عدوك فان الناس كثير وكلهم معك إلّا هذه الطائفة التي خرجت والله يخزيها وأنا أول منتدب فانتدب معي طائفة ومع غيري طائفة فخرج ابن مطيع فقام في الناس ووبخهم على هزيمتهم وأمرهم بالخروج إلى المختار وأصحابه . وأما المختار فانه لما منعه الرماة من دخول الكوفة عدل إلى بيوت مزينة واحمس وبارق وبيوتهم منفردة فاستقبلوه بالماء فشرب أصحابه ولم يشرب هو لأنه كان صائماً ، فقال أحمر بن شميط لابن كامل أترى الأمير صائماً قال نعم قال لو أفطر كان أقوى له قال هو أعلم بما يصنع قال صدقت استغفر الله ، فقال المختار نعم المكان للقتال هذا فقال له إبراهيم قد هزمهم الله وفلهم وادخل الرعب في قلوبهم وتنزل ههنا سر بنا فوالله ما دون القصر مانع فترك المختار هناك كل شيخ ضعيف وكل ذي علة وثقلهم واستخلف عليهم أبا عثمان النهدي وقدم إبراهيم أمامه وبعث ابن مطيع عمرو بن الحجاج في ألفين فخرج عليهم فبعث المختار إلى إبراهيم أن اطوه ولا تقم عليه فطواه إبراهيم وأمر المختار يزيد بن أنس أن يصمد لعمرو بن الحجاج فمضى نحوه وسار المختار خلف إبراهيم ثم وقف المختار في موضع مصلى خالد بن عبد الله وأمر إبراهيم أن يمضي على وجهه حتى يدخل الكوفة من جهة الكناسة فمضى فخرج إليه شمر ابن ذي الجوشن في ألفين فسرح إليه المختار سعيد بن منقذ الهمداني فواقعه وأرسل إلى إبراهيم أن أطوه وامض على وجهك فمضى حتى انتهى إلى سكة شبث فإذا نوفل بن مساحق في ألفين وقيل خمسة آلاف قال الطبري وهو الصحيح وكان ابن مطيع أمر منادياً فنادى في الناس أن الحقوا بابن مساحق وخرج ابن مطيع فوقف بالكناسة واستخلف شبث بن ربعي على القصر فدنا ابن الأشتر من ابن مطيع فأمر أصحابه بالنزول فنزلوا فقال قربوا خيولكم بعضها من بعض ثم امشوا إليهم مصلتين بالسيوف ولا يهولنكم أن يقال جاء آل فلان وآل فلان وسمى بيوتات أهل الكوفة ، ثم قال إن هؤلاء لو وجدوا حر السيوف لانهزموا عن ابن مطيع انهزام المعزى من الذئب ففعلوا ذلك وأخذ ابن الأشتر أسفل قبائه فادخله في منطقته وكان قد لبس القباء فوق الدرع ثم قال لأصحابه شدوا عليهم فدى لكم عمي وخالي فلم يلبثوا أن انهزموا يركب بعضهم بعضاً على أفواه السكك وازدحموا وانتهى ابن الأشتر إلى ابن مساحق فأخذ بلجام دابته ورفع السيف ليقتله فسأله أن يعفو عنه فخلى سبيله وقال اذكرها لي فكان يذكرها له ودخلوا الكناسة في آثارهم حتى دخلوا السوق والمسجد وحصروا ابن مطيع ومعه الأشراف غير عمرو بن حريث فانه خرج إلى البر وجاء المختار حتى نزل جانب السوق وولى إبراهيم ابن الأشتر حصار القصر ومعه يزيد بن أنس وأحمر بن شميط فحصروا القصر من ثلاث جهات ثلاثة أيام ، وأشرف رجل من أصحاب ابن مطيع عشية على أصحاب المختار فجعل يشتمهم فرماه رجل منهم بسهم فأصاب حلقه فقطع الجلد فوقع ثم برأ بعد ذلك وجعل ابن مطيع يفرق على أصحابه الدقيق وهو محصور واشتد عليهم الحصار وأقبلت همدان

حتى تسلقوا القصر بالحبال فلما رأى ابن مطيع وأصحابه ذلك أشار عليه شبث أن يأخذ لنفسه أماناً فكره ذلك فأشار عليه أن يخرج خفية إلى دار من دور الكوفة ثم يلحق بابن الزبير فقبل وخرج ليلاً فدخل دار أبي موسى وخلى القصر ففتح أصحابه الباب ، وجاء ابن الأشتر فطلب من بالقصر الأمان فأمنهم فخرجوا فبايعوا المختار وجاء المختار حتى دخل القصر فبات فيه وأصبح الأشراف في المسجد وعلى باب القصر . وخرج المختار فصعد المنبر وخطب الناس وقال : انا المسلط على المحلين الطالب بدم ابن نبي رب العالمين ، إلى أن قال ادخلوا فبايعوا بيعة هدى فوالله ما بايعتم بعد بيعة علي بن أبي طالب عليه السّلام وآل علي عليهم السّلام أهدى منها ثم نزل فدخل عليه أشراف الكوفة فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله (ص) والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا ، وأحسن المختار السيرة جهده وفي ذلك يقول الشاعر :

ولما دعا المختار جئنا لنصره ... على الخيل تردى من كميت واشقرا
دعا يالثارات الحسين فأقبلت ... تعادى بفرسان الصياح لتثأرا

وبلغه أن ابن مطيع في دار أبي موسى فأرسل إليه مائة ألف درهم وقال تجهز بها وكان بينهما صداقة فأخذها ومضى إلى البصرة ، ووجد المختار في بيت المال تسعة آلاف درهم . وفرق العمال على أرمينية وأذربايجان والموصل والمدائن وحلوان والري وهمذان وأصبهان وغيرها ودانت له البلاد كلها إلا الحجاز والجزيرة والشام ومصر والبصرة واستعمل على شرطته عبد الله بن كامل الشاكري وعلى حرسه كيسان أبا عمرة مولى عرينه وصار يجلس للقضاء بين الناس ثم أقام شريحاً للقضاء وكانوا يقولون أنه عثماني وأنه ممن شهد على حجر بن عدي وأنه لم يبلغ عن هاني بن عروة ما أرسله به وأن علياً عليه السّلام عزله عن القضاء فأراد المختار عزله فتمارض فعزله وجعل مكانه غيره ، وقال عبد الله بن همام يذكر المختار وأصحابه ويمدحهم :

وفي ليلة المختار ما يذهل الفتى ... ويلهيه عن رؤد الشباب شموع
دعا يا لثارات الحسين فأقبلت ... كتائب من همدان بعد هزيع
ومن مذحج جاء الرئيس ابن مالك ... يقود جموعاً أردفت بجموع
ومن أسد وافى يزيد لنصره ... بكل فتى حامي الذمار منيع
وجاء نعيم خير شيبان كلها ... بأمر لدى الهيجا أحد جميع
وما ابن شميط إذ يحرض قومه ... هناك بمخذول ولا بمضيع
وسار أبو النعمان لله سعيه ... إلى ابن إياس مصحراً لوقوع
بخيل عليها يوم هيجا دروعها ... وأخرى حسوراً غير ذات دروع
فكر الخيول كرة ثقفتهم ... وشد بأولاها على ابن مطيع
فولى بضرب يشدخ الهام وقعه ... وطعن غداة السكتين وجيع
فحوصر في دار الامارة بائياً ... بذل وارغام له وخضوع
فمن وزير ابن الوصي عليهم ... وكان لهم في الناس خير شفيع
وآب الهدى حقاً إلى مستقره ... بخير إياب آبه ورجوع
إلى الهاشمي المهتدي المهتدى به ... فنحن له من سامع ومطيع

قتل المختار قتلة الحسين عليه السلام
والمشايعين على قتله

كان مروان بن الحكم بعد أن بويع له بالشام أرسل عبيد الله بن زياد في جيش إلى الجزيرة فإذا فرغ منها سار إلى العراق وجعل له كل ما غلب عليه وأمره أن ينهب الكوفة إن ظفر بأهلها ثلاثاً ثم كان من أمره مع التوابين ما كان وكان زفر بن الحارث الكلابي ومعه قبيلة تسمى قيس عجلان بالجزيرة على طاعة ابن الزبير فلم يزل ابن زياد مشتغلاً بهم عن العراق نحو سنة فهلك مروان وولي بعده ابنه عبد الملك فأقر ابن زياد على ما كان أبوه ولاه فلما عجز ابن زياد عن زفر ومن معه بالجزيرة أقبل إلى الموصل وهي للمختار فتنحى عامل المختار إلى تكريت وكتب إلى المختار يخبره بذلك فكتب إليه المختار يصوب رأيه ويأمره أن لا يفارق مكانه حتى يأتيه أمره وأرسل المختار يزيد بن أنس الأسدي وانتخب معه ثلاثة آلاف فارس ووعده المدد متى احتاج وشيعه وقال إذا لقيت عدوك فلا تناظرهم وإذا أمكنتك الفرصة فلا تؤخرها وليكن خبرك كل يوم عندي وكتب إلى عامل الموصل أن يخلي بينه وبين البلاد فسار حتى أتى أرض الموصل فبلغ خبره ابن زياد فقال لأبعثن إلى كل ألف ألفين فأرسل إليه ستة آلاف ثلاثة مع ربيعة الغنوي وثلاثة مع عبد الله بن جمة الخثعمي فسار ربيعة قبل عبد الله بيوم حتى لقي يزيد بن أنس فخرج يزيد بن أنس وهو مريض شديد المرض راكب على حمار يمسكه الرجال فوقف على أصحابه وعباهم وحثهم على القتال ثم وضع بين الرجال على سرير وقال قاتلوا عن أميركم إن شئتم أو فروا عنه وجعل يأمر الناس بما يفعلونه ثم يغمى عليه ثم يفيق واقتتل الناس عند فلق الصبح يوم عرفة فاشتد القتال إلى ارتفاع الضحى فانهزم أهل الشام وأخذ عسكرهم ووصل أهل العراق إلى أميرهم ربيعة وقد انهزم عنه أصحابه وهو يناديهم ويحرضهم على القتال ويقول إنما تقاتلون من خرج من الإسلام فاجتمع إليه جماعة فقاتلوا معه واشتد القتال وخرج رجل من أهل العراق يعترض الناس بسيفه وهو يقول :

برئت من دين المحكمينا ... وذاك فينا شر دين دينا

ثم انهزم أهل الشام وقتل أميرهم ربيعة فسار المنهزمون ساعة فلقيهم عبد الله الخثعمي الأمير الثاني لأهل الشام في ثلاثة آلاف فرد معه المنهزمين وجاء إلى الموضع الذي فيه أصحاب المختار فباتوا ليلتهم يتحارسون فلما أصبحوا يوم عيد الأضحى خرجوا إلى القتال واقتتلوا قتالاً شديداً ثم نزلوا فصلوا الظهر ثم عادوا إلى القتال فانهزم أهل الشام هزيمة قبيحة وقتلوا قتلاً ذريعاً وحوى أهل العراق عسكرهم حتى انتهوا إلى أميرهم عبد الله فقتلوه وأسروا منهم ثلاثمائة أسير فأمر يزيد بن أنس بقتلهم وهو في آخر رمق فقتلوا ثم مات آخر النهار فدفنه أصحابه وكسر قلوبهم موته وكان قد استخلف عليهم ورقاء بن عازب الأسدي فقال لأصحابه ماذا ترون أنه بلغني أن ابن زياد قد أقبل إليكم في ثمانين ألفاً وإني لا أرى لنا بأهل الشام طاقة فلو انصرفنا من تلقاء أنفسنا لقالوا إنما رجعنا عنهم لموت أميرنا ولم يزالوا لنا هائبين فقالوا نعم ما رأيت فانصرفوا فبلغ ذلك المختار وأهل الكوفة فارجف الناس بالمختار وقالوا ان يزيد قتل ولم يصدقوا أنه مات فأرسل المختار إلى عامله بالمدائن يسأله عن ذلك فأخبره بموته وان العسكر انصرف من غير هزيمة ولا كسرة فطاب قلب المختار فدعا إبراهيم بن الأشتر وأرسله وقال إذا لقيت جيش يزيد بن أنس فأنت الأمير عليهم فارددهم معك حتى تلقى ابن زياد وأصحابه فتقاتلهم ثم ودعه وانصرف ، فخرج إبراهيم فلما سار اجتمع أشراف الكوفة عند شبث بن ربعي وقالوا أن المختار تأمر علينا بغير رضا منا ولقد أدنى موالينا أي عبيدنا فحملهم على الدواب وأعطاهم فيأنا فقال لهم شبث دعوني حتى

ألقاه فذهب إليه فلم يدع شيئاً أنكروه إلا ذكره له والمختار يقول أنا أرضيهم وأفعل كلما أحبوا ولم يكن أصعب عليهم من مشاركة الموالي أي العبيد المعتقين لهم في الفيء فقال المختار إن أنا تركت مواليكم وجعلت فيأكم لكم تقاتلون معي بني أمية وابن الزبير وتعطوني العهد على ذلك فقال شبث حتى أرجع إلى أصحابي فأخبرهم فخرج ولم يرجع إلى المختار فأجمع رأيهم على قتاله وكان بقي مع المختار أربعة آلاف ، فقال عبد الرحمن الأسدي لأهل الكوفة لا تخرجوا على المختار فإني أخاف أن تختلفوا وتتفرقوا ومع الرجل شجعانكم ومواليكم وكلمتهم واحدة فانتظروا قليلاً يكفكم ذلك أهل الشام وأهل البصرة فلم يقبلوا وخرجوا على المختار بعد مسير إبراهيم بالجبانات كل رئيس بجبانة وجاهروا بالعصيان ولم يبق أحد ممن شرك في قتل الحسين عليه السّلام وكان مختفياً إلا ظهر فلما بلغ ذلك المختار أرسل رسولاً مجداً إلى إبراهيم فلحقه وهو بساباط المدائن قريب بغداد وكتب إليه المختار أن لا تضع كتابي من يدك حتى تقبل إلي بجميع من معك وبعث إليهم المختار أن أخبروني ما تريدون فإني أصنع كلما أحببتم قالوا نريد أن تعتزلنا فانك زعمت أن محمد بن الحنفية بعثك ولم يبعثك قال فأرسلوا إليه وفداً من قبلكم وأرسل إليه أنا وفداً وهو يريد أن يطاولهم حتى يقدم عليه إبراهيم وأمر أصحابه أن يكفوا أيديهم وقد أخذ عليهم أهل الكوفة بأفواه السكك فليس يصل إليهم من الماء إلا القليل ، ولما سار رسول المختار وصل إلى ابن الأشتر في عشية ذلك اليوم فرجع ابن الأشتر بقية عشيته تلك ثم نزل عند المساء فتعشى أصحابه وأراحوا دوابهم قليلاً ثم سار ليلته كلها واليوم الثاني حتى وصل إلى الكوفة عند العصر وبات في المسجد ومعه من أصحابه أهل القوة والجلد ، ثم إن المختار عبأ أصحابه وأرسل ابن الأشتر إلى مضر وخشي أن يرسله إلى أهل اليمن فلا يبالغ في قتالهم لأنهم قومه وسار المختار إلى أهل اليمن وقدم بين يديه أحمر بن شميط وعبد الله بن كامل وأمر كلا بلزوم طريق مخصوص وأسر إليهما أن شباما قد أرسلوا إليه يخبرونه أنهم يأتون القوم من ورائهم فمضيا إلى أهل اليمن واقتتلوا أشد قتال رآه الناس ثم انهزم أصحاب أحمر وأصحاب ابن كامل ووصلوا إلى المختار فردهم وأقبل بهم نحو القوم ثم أرسل عبد الله بن قراد الخثعمي في أربعمائة إلى ابن كامل وقال له إن كان قد هلك فأنت مكانه فقاتل القوم وإن كان حياً فأترك عنده ثلاثمائة وامض في مائة حتى تأتي جبانة السبيع فمضى فوجد ابن كامل يقاتلهم في جماعة قد صبروا معه فترك عنده ثلاثمائة وسار في مائة وبعث المختار مالك بن عمرو النهدي وكان شجاعاً وعبد الله بن شريك النهدي في أربعمائة إلى أحمر بن شميط فوصلوا إليه وقد غلبه القوم فاشتد قتالهم عند ذلك (وأما ابن الأشتر) فانه مضى إلى مضر فلقي شبث بن ربعي ومن معه فقال لهم ويحكم انصرفوا فما أحب أن يصاب من مضر على يدي أحد فلا تهلكوا أنفسكم فأبوا فقاتلهم إبراهيم فهزمهم وأرسل إلى المختار يبشره بذلك فأرسل المختار إلى أحمر بن شميط وابن كامل يبشرهما فاشتد أمرهما ، واجتمعت شبام ليأتوا اليمن من ورائهم كما أرسلوا إلى المختار ورأسوا عليهم أبا القلوص فقال بعضهم لو جعلتم جدكم على مضر أو ربيعة لكان أصوب فقال أبو القلوص قال الله تعالى قاتلوا الذين يلونكم من الكفار فسار نحو أهل اليمن فلقيهم الأعسر الشاكري فقتلوه ونادوا يا لثارات الحسين فأجابهم أصحاب ابن شميط يا لثارات الحسين فنادى يزيد بن عمر يا لثارات عثمان فقال لهم رفاعة بن شداد البجلي وكان معهم على المختار لا أقاتل مع قوم يبغون دم عثمان ثم رجع عنهم فقاتل مع المختار وهو يقول :

أنا ابن شداد على دين علي ... لست لعثمان بن أروى بولي
لأصلين اليوم فيمن يصطلي ... بحر نار الحرب غير مؤتلي

فقاتل حتى قتل .

وانهزم أهل اليمن هزيمة قبيحة واستخرج من دور الوداعيين خمسمائة أسير فأتي بهم المختار مكتفين فقال أعرضوهم علي وانظروا كل من شهد قتل الحسين عليه السّلام فاعلموني به فقتل كل من شهد قتل الحسين عليه السّلام وقتل منهم مئتين وثمانية وأربعين رجلاً في مجلس واحد وأطلق الباقي (ونادى) منادي المختار من أغلق بابه فهو آمن إلا رجلاً شرك في دم آل محمد .

هدم دور من شرك في قتل الحسين (ع)

وأمر المختار صاحب شرطته أبا عمرة أن يجمع ألف رجل من الفعلة بالمعاول ويتبع دور من خرج إلى قتال الحسين عليه السّلام فيهدمها وكان أبو عمرة بذلك عارفاً فجعل يدور بالكوفة على دورهم فيهدمهم الدار في لحظة فمن خرج إليه منها قتله حتى هدم دوراً كثيرة وقتل المختار أناساً كثيرين من قتلة الحسين عليه السّلام وجعل يطلب ويستقصي فمن ظفر به منهم قتله وجعل ماله وعطاءه لرجل من أبناء العجم الذين كانوا معه (وتجرد) لقتلة الحسين عليه السّلام وقال ما من ديننا أن نترك قتلة الحسين عليه السّلام أحياء بئس ناصر آل محمد (ص) أنا ؛ أنا إذاً الكذاب كما سموني وأني أستعين بالله عليهم فسموهم لي ثم اتبعوهم حتى تقتلوهم فإنه لا يسوغ لي الطعام والشراب حتى أطهر الأرض منهم .

قتل الذين رضوا جسد الحسين عليه السّلام

فأول من بدء به المختار الذين رضوا جسد الحسين عليه السّلام بخيولهم فأخذهم وطرحهم على ظهورهم وضرب سكك الحديد في أيديهم وأرجلهم وأجرى الخيل عليهم حتى قطعتهم ثم أحرقهم بالنار .

قتل عمرو بن الحجاج الذي كان موكلاً بالمشرعة

وكان عمرو بن الحجاج الزبيدي ممن شهد قتل الحسين عليه السّلام فركب راحلته وأخذ طريق واقصة فلم يعلم له خبر حتى الساعة وقيل أدركه أصحاب المختار وقد سقط من شدة العطش فذبحوه وأخذوا رأسه وقيل أنه هرب يريد البصرة وكان من رؤساء قتلة الحسين عليه السّلام فخاف الشماتة فعدل إلى شراف فقال له أهل الماء إرحل عنا فإنا لا نأمن المختار فارتحل عنهم فتلاوموا وقالوا قد أسأنا فركب جماعة منهم ليردوه فلما رآهم ظن أنهم من أصحاب المختار فسلك الرمل بمكان يدعى البيضة وذلك في أشد ما يكون من حرارة القيظ فيما بين بلاد كلب وبلاد طيء فقال فيها فأهلكه ومن معه العطش ، وعمرو بن الحجاج هذا هو الذي كان على المشرعة يمنع الحسين عليه السّلام من الماء فأهلكه الله تعالى عطشاً في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

قتل خولي بن يزيد الذي جاء برأس الحسين عليه السّلام

وبعث المختار أبا عمرة فأحاط بدار خولي بن يزيد الأصبحي الذي حمل رأس الحسين عليه السّلام إلى ابن زيادفاختبأ في بيت الخلاء ووضع على رأسه قوصرة وهي ما يصنع من ورق النخل ليوضع فيه التمر فدخلوا الدار ليفتشوا عليه فخرجت امرأته إليهم وهي العيوف بنت مالك وقيل اسمها النوار وكان محبة لأهل البيت عليهم السّلام وكانت قد نصبت له العداوة من يوم جاء برأس الحسين عليه السّلام فقالت ما تريدون فقالوا لها أين زوجك فقالت لا أدري أين هو وأشارت بيدها إلى بيت الخلاء فوجدوه وقد وضع على رأسه القوصرة فأخرجوه وكان المختار يسير في الكوفة فجاء في أثرهم فأرسلوا إليه يخبرونه فرده حتى قتله إلى جانب أهله ثم أحرقه بالنار ولم يبرح من مكانه حتى عاد رماداً .

قتل حكيم بن الطفيل

وبعث المختار عبد الله بن كامل إلى حكيم بن الطفيل وهو الذي سلب العباس عليه السّلام ثيابه ورمى الحسين عليه السّلام بسهم فكان يقول تعلق سهمي بسرباله ولم يضره فأتاه ابن كامل فأخذه فذهب أهله إلى عدي بن حاتم ليشفع فيه فلحقهم في الطريق فقالوا ليس أمره إلينا إنما أمره إلى المختار فمضى إلى المختار وكان المختار قد شفعه في جماعة من قومه أسروا يوم قتال المختار مع أهل الكوفة لم يكونوا نطقوا بشيء من أمر الحسين عليه السّلام وأهل بيته عليهم السّلام فقال أصحاب ابن كامل له إنا نخاف أن يشفعه الأمير في هذا الخبيث وله من الذنب ما قد علمت فدعنا نقتله قال نعم فأتوا به وهو مكتوف وقالوا له سلبت ابن علي ثيابه والله لنسلبنك ثيابك وأنت حي تنظر فنزعوا ثيابه وقالوا له رميت حسيناً واتخذته غرضاً لنبلك وقلت تعلق سهمي بسرباله ولم يضره والله لنرمينك كما رميته بنبال ما تعلق بك منها أجزأك فجعلوه غرضاً للنبل ورموه رشقاً واحداً حتى صار كالقنفذ فخر ميتاً ، ودخل عدي على المختار فشفع فيه فقال له المختار أتستحل أن تشفع في قتلة الحسين عليه السّلام فقال أنه مكذوب عليه قال إذاً ندعه لك فدخل ابن كامل فأخبر المختار بقتله فأظهر لومهم على ذلك ولكنه سر بقتله فقال ابن كامل غلبتني عليه الشيعة فقال عدي كذبت ولكنك ظننت أن من هو خير منك سيشفعني فيه فقتلته فسبه ابن كامل فنهاه المختار .

قتل مالك بن النسر ورجلين معه

ودل المختار على عبد الله بن أسيد الجهني ومالك بن النسر البدائي وحمل بن مالك المحاربي فبعث إليهم المختار مالك بن عمرو النهدي وكان من رؤساء أصحابه فأتاهم وهم بالقادسية فأخذهم وأقبل بهم حتى ادخلهم على المختار عشاء فقال لهم المختار يا أعداء الله وأعداء كتابه وأعداء رسوله وأهل رسوله ابن الحسين بن علي أدوا إلي الحسين قتلتم من أمرتم بالصلاة عليه في الصلاة فقالوا بعثنا ونحن كارهون فامنن علينا واستبقنا فقال فهلا مننتم على الحسين ابن بنت نبيكم واستبقيتموه وسقيتموه ، ثم قال لمالك بن النسر أنت صاحب برنس الحسين فقال له ابن كامل نعم هو هو فأمر بقطع يديه ورجليه وتركه يضطرب فلم يزل ينزف الدم حتى هلك وأمر بالرجلين الآخرين فقتلا وعجل الله بأرواحهم إلى النار .

قتل شمر لعنه الله

وكان شمر لعنه الله قد هرب من الكوفة ومعه جماعة ممن شرك في قتل الحسين عليه السّلام على خيول لهم مضمرة فأرسل إليه المختار عبداً له أسود يقال له زربي وكان شجاعاً وقيل أنه مولى بجيلة ومعه مائة فارس على الخيل العتاق فجعل يجد السير حتى انقطع عن أصحابه إلا عشرة فوارس فقال شمر لأصحابه تباعدوا عني لعل العبد يطمع فيّ فتباعدوا عنه ولحقه العبد حتى إذا انقطع عن أصحابه حمل شمر فقتله وانهزم أصحابه العشرة حتى لحق به الباقون ثم مضى شمر وأصحابه حتى نزلوا قرية يقال لها الكلتانية قريباً من البصرة على شاطيء نهر إلى جانب تل ثم أخذ شمر علجاً من القرية ودفع إليه كتاباً وقال عجل به إلى مصعب بن الزبير بالبصرة وكتب عنوانه للأمير مصعب من شمر بن ذي الجوشن فمضى العلج حتى دخل قرية فيها أبو عمرة صاحب المختار وكان قد أرسله المختار إلى تلك القرية في خمسمائة فارس ليكون مسلحة بينه وبين أهل البصرة فلقي ذلك العلج علجاً آخر من تلك القرية فجعل يشكو إليه ما لقي من شمر فبينا هو يكلمه إذ مر به رجل من أصحاب أبي عمرة فرأى الكتاب مع العلج وعنوانه إلى مصعب من شمر فسألوا العلج عن مكان شمر فاخبرهم فإذا ليس بينه وبينهم إلا ثلاثة فراسخ فأقبلوا يسيرون إليه وكان أصحاب شمر قالوا له لو ارتحلت بنا من هذه القرية فانا نتخوف منها فقال كل هذا فزعاً من الكذاب يعني المختار والله لا اتحول منها ثلاثة أيام ملأ الله قلوبكم رعباً فبينما شمر وأصحابه نيام إذ سمع رجل من أصحابه كان بين النائم واليقظان وقع حوافر الخيل فقال في نفسه هذا صوت الدبى وهو الجراد الصغير وكان بذلك المكان دبى كثير ثم سمعه أشد من ذلك فانتبه ومسح عينيه وقال والله ما هذا بالدبى وذهب ليقوم فإذا بالخيل قد أشرفت عليهم من التل فكبروا وأحاطوا بالبيوت فهرب أصحاب شمر وتركوا خيلهم وقام شمر وهو عريان مؤتزر بإزار وكان أبرص وبرصه يبدو من تحت الإزار وأعجلوه عن لبس ثيابه وسلاحه فجعل يقاتلهم بالرمح ثم ألقاه وأخذ السيف وجعل يقاتلهم به فلما بعد عنه أصحابه سمعوا التكبير وقائلاً يقول قتل الله الخبيث وقتله عبد الرحمن بن أبي الكنود وهو الذي وجد الكتاب مع العلج ذبحه ذبحاً كما ذبح الحسين عليه السّلام وأوطأوا الخيل صدر شمر وظهره ثم ألقيت جثته للكلاب وباء في الدنيا قبل الآخرة بالذل وسوء العذاب وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى المختار فأرسله المختار إلى محمد بن الحنفية بالمدينة وقيل جاءه من أصحاب المختار خمسون فارساً وأمامهم نبطي يدلهم على الطريق وذلك في ليلة مقمرة فلما أحس بهم شمر دعا بفرسه فركبه وركب من كان معه ليهربوا فأدركهم القوم فقاتلوهم فقتل شمر وجميع من كان معه واحتزوا رؤوسهم وأتوا بها أميرهم فأرسلها إلى المختار فنصبها المختار في رحبة الحذائين حذاء الجامع .

(وفي البحار عن أمالي الشيخ قدّس سرّه) أن المختار لما طلب شمراً هرب إلى البادية فخرج إليه أبو عمرة في نفر من أصحابه فقاتلهم قتالاً شديداً واثخنته الجراحة فأخذه أبو عمرة أسيراً وبعث به إلى المختار فضرب عنقه وأغلى له دهناً في قدر فقذفه فيها فتفسخ ووطىء مولى لآل حارثة بن المضرب وجهه ورأسه .

قتل حرملة بن كاهل

وعن المنهال بن عمرو قال دخلت على زين العابدين عليه السّلام أودعه وأنا أريد الإنصراف من مكة فقال يا منهال ما فعل حرملة ابن كاهل وكان معي بشر بن غالب الأسدي فأخبره أنه حي بالكوفة فرفع يديه وقال اللّهم أذقه حر الحديد اللّهم أذقه حر النار ، قال المنهال وقدمت الكوفة وقد ظهر المختار وكان لي صديقاً فركبت إليه فلقيته خارجاً من داره فقال يا منهال لم تشركنا في ولايتنا هذه فعرفته أني كنت بمكة فمشى حتى أتى الكناسة ووقف كأنه ينتظر شيئاً فلم يلبث أن جاء قوم فقالوا أبشر أيها الأمير فقد أخذ حرملة فجيء به فقال لعنك الله الحمد لله الذي أمكنني منك ثم قال الجزار الجزار فأتي بجزار فأمره بقطع يديه ورجليه فقطعها ثم قال النار فأتي بنار وقصب فأحرقه فقلت سبحان الله سبحان الله فقال أن التسبيح لحسن لم سبحت فأخبرته بقول زين العابدين عليه السّلام فقال لي اسمعت علي بن الحسين عليهما السّلام يقول هذا فقلت والله لقد سمعته فنزل عن دابته وصلى ركعتين وأطال السجود وركب وقد احترق حرملة وسار فحاذى داري فطلبت منه أن ينزل ويأكل من طعامي فقال تعلمني أن علي بن الحسين عليه السّلام دعا بأربع دعوات فأجابه الله على يدي ثم تدعوني إلى الطعام هذا يوم صوم شكر الله تعالى فقلت أحسن الله توفيقك .

قتل الذين نهبوا الورس من رحل الحسين عليه السّلام

وبعث المختار أصحابه فأتوه بجماعة من الذين كانوا نهبوا من الورس الذي كان مع الحسين عليه السّلام وهم زياد بن مالك الضبعي وعمر بن خالد العنزي وعبد الرحمن بن أبي خشكارة البجلي وعبد الله بن قيس الخولاني فجاءوه بهم حتى أدخلوهم عليه فقال لهم يا قتلة الصالحين وقتلة سيد شباب أهل الجنة ألا ترون الله قد أقاد منكم اليوم لقد جاءكم الورس بيوم نحس ثم أمر بهم فاخرجوا إلى السوق وضربت أعناقهم .

قتل جماعة آخرين ممن شرك في قتل الحسين عليه السّلام

وأرسل المختار خيلاً فأتوه بعبد الله وعبد الرحمن ابني صلخت وحميد بن مسلم وعبد الله بن وهب ابن عم أعشى همدان فقبضوا عليهم إلا حميد بن مسلم فإنه هرب وجيء بهم إلى المختار فأمر بهم فقتلوا في السوق .

قتل من اشترك في قتل عبد الرحمن بن عقيل

وبعث المختار عبد الله بن كامل في خيل إلى عثمان بن خالد الدهماني وبشر بن سوط وكانا ممن شهد قتل الحسين عليه السّلام واشتركا في دم عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب وسلبه فأحاط عبد الله بن كامل عند العصر بمسجد بني دهمان وأقسم أن يضرب أعناقهم عن آخرهم أن لم يأتوه بعثمان بن خالد فقالوا أمهلنا حتى نطلبه فخرجوا مع الخيل في طلبه فوجدوه هو وبشر بن سوط جالسين في الجبانة وكانا يريدان أن يهربا إلى الجزيرة فأتي بهما عبد الله بن كامل فقال الحمد لله الذي كفى المؤمنين القتال لو لم يجدوا هذا مع هذا لأتعبنا بالذهاب إلى منزله في طلبه فالحمد لله الذي أمكن منك فخرج بهما وضرب أعناقهما في الطريق ورجع فأخبر المختار فأمره أن يرجع إليهما ويحرقهما بالنار وقال لا يدفنان حتى يحرقا فأحرقهما .

قتل عمر بن سعد

وكان عمر قد اختفى حين ظهور أمر المختار وكان عبد الله بن جعدة بن هبيرة ابن أخت أمير المؤمنين علي عليه السّلام أكرم الناس على المختار لقرابته من أمير المؤمنين علي عليه السّلام فطلب عمر بن سعد من عبد الله بن جعدة أن يأخذ له أماناً من المختار ففعل وكتب له المختار أماناً وشرط فيه أن لا يحدث حدثاً (قال الطبري) وغيره فكان أبو جعفر محمد بن علي الباقر يقول إنما أراد المختار بقوله إلا أن يحدث حدثاً هو أن يدخل بيت الخلاء ويحدث فلما كتب المختار الأمان لابن سعد ظهر ابن سعد فكان المختار يدنيه ويكرمه ويجلسه معه على سريره . وأتى يزيد بن شراحيل الأنصاري محمد بن الحنفية رضي الله عنه فجرى ذكر المختار فقال محمد يزعم أنه لنا شيعة وقتلة الحسين عليه السّلام عنده على الكراسي يحدثونه فلما قدم يزيد الكوفة أخبر المختار بذلك فعزم على قتل عمر بن سعد ثم أن المختار قال يوماً لأصحابه لأقتلن غداً رجلاً عظيم القدمين غائر العينين مشرف الحاجبين يهمز الأرض برجله يسر قتله المؤمنين والملائكة المقربين وكان عنده الهيثم النخعي فوقع في نفسه أنه يريد عمر بن سعد فبعث ولده العريان إلى ابن سعد يعرفه ذلك فقال ابن سعد جزى الله أباك خيراً كيف يقتلني بعد العهود والمواثيق ثم إن عمر بن سعد خرج ليلاً فأتى حمامه[1] وأخبر مولى له بما كان من أمانه وبما بلغه عن المختار فقال له مولاه وأي حدث أعظم مما صنعت تركت أهلك ورحلك وأتيت إلى هنا ارجع ولا تجعل للرجل عليك سبيلاً فرجع إلى منزله . وجاء الخبر إلى المختار بخروجه فقال كلا أن في عنقه سلسلة سترده وقال المرزباني أن ابن سعد لما بلغه قول المختار عزم على الخروج من الكوفة فاحضر رجلاً من بني تيم اللات اسمه مالك وكان شجاعاً فأعطاه أربعمائة دينار وقال هذه معك لحوائجنا وخرجا فلما كانا عند حمام عمر أو نهر عبد الرحمن وقف عمر وقال أتدري لم خرجت قال لا قال خفت المختار قال هو أذل من أن يقتلك وان هربت هدم دارك وانتهب عيالك ومالك وخربت ضياعك وأنت أعز العرب فاغتر بكلامه ودخل الكوفة مع الغداة وقيل أن عمر نام على الناقة فرجعت به وهو لا يدري حتى ردته إلى الكوفة فأرسل عمر عند الصبح ابنه حفصا إلى المختار ليجدد له الأمان فقال له المختار أين أبوك فقال في المنزل ولم يكن عمر بن سعد وابنه حفص يجتمعان عند المختار فإذا حضر إحدهما غاب الآخر خوفاً أن يجتمعا فيقتلهما فقال حفص أبي يقول أتفي لنا بالأمان قال أجلس وطلب المختار أبا عمرة كيسان فأقبل رجل قصير يتخشخش في السلاح فأسر إليه المختار أن يقتل عمر بن سعد وبعث معه رجلين آخرين وقال له إذا دخلت ورأيته يقول يا غلام علي بطيلساني فإنه يريد السيف فبادره واقتله فذهب أبو عمرة إلى ابن سعد وقال له أجب الأمير فقام عمر فعثر في جبة له فضربه أبو عمرة بسيفه فقتله وقطع رأسه وحمله في طرف قبائه حتى وضعه بين يدي المختار . فقال المختار لابنه حفص أتعرف هذا الرأس فاسترجع وقال

---

(١) كذا وجدناه في بعض الكتب وسياتي بعد اسطر فلما كان عند حمام عمر والظاهر أنه اسم موضع والذي كتب حمامة ظن أن المراد بعمر في قولهم حمام عمر هو عمر بن سعد فأضاف حمام إلى ضميره ولكنا لم نجد مكاناً يسمى حمام عمر ويمكن كونه حمام أعين فصحف أعين بعمر ففي معجم البلدان حمام أعين بالكوفة ذكره في الأخبار مشهور منسوب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص ا هـ .

نعم ولا خير في العيش بعده فقال له المختار صدقت وإنك لا تعيش بعده فأمر به فقتل وإذا رأسه مع رأس أبيه . وقال المختار هذا بالحسين وهذا بعلي بن الحسين ولا سواء والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله .
ثم بعث المختار برأسي عمر بن سعد وابنه إلى محمد بن الحنفية وكتب إليه يعلمه أنه قد قتل من قدر عليه وأنه في طلب الباقين ممن حضر قتل الحسين عليه السّلام فبينما محمد بن الحنفية جالس مع أصحابه وهو يتعتب على المختار فما تم كلامه إلا والرأسان عنده فخر ساجداً شكراً لله تعالى ثم رفع رأسه وبسط كفيه وقال اللّهم لا تنس هذا اليوم للمختار واجزه عن أهل بيت نبيك محمد خير الجزاء فوالله ما على المختار بعد هذا من عتب .

ما جرى لمرة بن منقذ قاتل
علي بن الحسين عليهما السلام

ويعث المختار عبد الله بن كامل إلى مرة بن منقذ قاتل علي بن الحسين عليهما السّلام وكان شجاعاً فأتاه ابن كامل بخيله فأحاط بداره فخرج إليهم وبيده الرمح وهو على فرس جواد فطعن رجلاً من أصحاب المختار فصرعه ولم يضره وضربه ابن كامل بالسيف فاتقاها بيده اليسرى فاسرع السيف فيها وعدا به الفرس فأفلت وهرب إلى البصرة إلى مصعب بن الزبير وشلت يده بعد ذلك .

قتل زيد بن رقاد قاتل
عبد الله بن مسلم

وبعث المختار عبد الله بن كامل إلى زيد بن رقاد قاتل عبد الله بن مسلم بن عقيل الذي رماه بسهم وهو واضع كفه على جبهته فسمرها فلم يستطع تحريكها ثم رماه بسهم فقتله وجاءه وهو ميت فنزع السهم من جوفه وجعل ينضنض السهم الذي في جبهته حتى نزعه وبقي النصل في جبهته لم يقدر على نزعه فأحاط ابن كامل بداره واقتحم الرجال عليه الدار فخرج إليهم بالسيف وكان شجاعاً فقال ابن كامل لا تضربوه بسيف ولا تطعنوه برمح ولكن ارموه بالنبل وارجموه بالحجارة ففعلوا ذلك به فسقط فأحرقوه حياً .

قتل بجدل بن سليم الكلبي الذي
أخذ خاتم الحسين عليه السّلام
وقطع أصبعه مع الخاتم

وأتى المختار ببجدل بن سليم الكلبي وعرفوه أنه أخذ خاتم الحسين عليه السّلام وقطع أصبعه فأمر بقطع يديه ورجليه فلم يزل ينزف الدم حتى مات .

قتل الذين أكلوا من لحوم
إبل الحسين عليه السّلام

وكان شمر بن ذي الجوشن لعنه الله نهب من الإبل التي كانت مع الحسين عليه السّلام فلما قدم الكوفة نحرها وقسم لحومها على قوم من أهل الكوفة فأمر المختار فأحصوا كل دار دخلها ذلك اللحم فقتل أهلها وهدمها ولم يزل المختار يتتبع قتلة الحسين عليه السّلام حتى قتل منهم خلقاً كثيراً وقتلت العبيد مواليها الذين شركوا في قتل الحسين عليه السّلام وجاءوا إلى المختار فاعتقهم وكان العبد يسعى بمولاه أنه ممن شرك في قتل الحسين عليه السّلام فيقتله المختار حتى أن العبد كان يقول لسيده احملني على عنقك فيحمله ويدلي رجليه على صدره إهانة له لخوفه من سعايته به إلى المختار بأنه من قتلة الحسين عليه السّلام .

قتل عمرو
ابن صبيح

وطلب المختار عمرو بن صبيح وكان يقول لقد طعنت فيهم يعني في أصحاب الحسين عليه السّلام وجرحت وما قتلت منهم أحداً فأتوه ليلاً وهو على سطحه بعد ما هدأت العيون وسيفه تحت رأسه فأخذوه وأخذوا سيفه فجيء به إلى المختار فحبسه فلما أصبح اذن للناس فدخلوا وجيء به وهو مقيد فقال المختار علي بالرماح فأتي بها فقال اطعنوه حتى يموت فطعن بالرماح حتى مات .

قتل قيس بن الأشعث بن قيس الذي
أخذ قطيفة الحسين (ع)

قال أبو حنيفة الدينوري في كتاب الأخبار الطوال أن قيس بن الأشعث الذي أخذ قطيفة الحسين عليه السّلام حين قتل فكان يسمى قيس القطيفة أنف من أن يأتي البصرة فيشمت به أهلها فأتى الكوفة واستجار بعبد الله بن كامل وهو من أخص أصحاب المختار فأقبل ابن كامل إلى المختار وأخبره بأنه استجار به وأجاره فسكت المختار وشغله بالحديث ثم قال أرني خاتمك فناوله إياه فجعله في أصبعه ثم دعا أبا عمرة فدفع إليه الخاتم وقال له سراً أن ينطلق إلى امرأة عبد الله بن كامل فيقول لها هذا خاتم بعلك علامة لتدخليني إلى قيس بن الأشعث فأني أريد مناظرته فيما فيه خلاصه من المختار فأدخلته إليه فانتضى سيفه فضرب عنقه وأخذ رأسه فأتى به المختار وألقاه بين يديه فقال المختار هذا بقطيفة الحسين عليه السّلام فاسترجع ابن كامل وقال للمختار قتلت جاري فقال له المختار لله أبوك اسكت اتستحل أن تجير قتلة ابن بنت نبيك .

قتل سنان بن أنس النخعي

وطلب المختار ابن أنس النخعي فوجده قد هرب إلى البصرة فهدم داره ثم خرج من البصرة نحو القادسية وكان عليه عيون فأخبروا المختار فأرسل إليه فأخذه بين العذيب والقادسية فقطع أنامله ثم قطع يديه ورجليه وأغلى له زيتاً في قدر ورماه فيها .

ذكر الذين هربوا من المختار فهدم
دورهم من قتلة الحسين (ع)

وكان محمد بن الأشعث بن قيس في قرية له إلى جنب القادسية فبعث المختار إليه حوشبا في مائة فخرج حتى أتى قصره فأحاط به وهرب محمد من القصر وهم لا يعلمون به فلحق بمصعب ثم دخلوا القصر فوجدوه قد هرب فرجعوا إلى المختار فأخبروه فأمر بهدم داره وقصره وأخذ ما فيها وبنى بلبن داره وطينها دار حجر بن عدي الكندي وكان زياد بن سمية قد هدمها وطلب المختار أيضاً عبد الله بن عروة الخثعمي الذي كان يقول رميت فيهم يعني في أصحاب الحسين عليه السّلام باثني عشر سهماً فهرب ولحق بمصعب بن الزبير

فهدم المختار داره وطلب المختار عبد الله بن عقبة الغنوي قاتل أبي بكر بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السّلام فوجده قد هرب إلى الجزيرة فهدم داره وبلغ المختار أن شبث بن ربعي في أناس من أشراف الكوفة قد أخذوا طريق البصرة فأرسل خيلاً في طلبهم فقاتلوها ثم انهزموا وكان اسماء بن خارجة الفزاري ممن سعى في قتل مسلم بن عقيل فقال المختار يوماً أما ورب السماء ورب الضياء لتنزلن نار من السماء دهماء حمراء سمحاء تحرق دار اسماء فبلغ ذلك أسماء فقال سجع بي أبو إسحاق ليس ههنا مقام بعد هذا وكان المختار يستعمل السجع في كلامه يذهب في ذلك مذهب الكهان وخرج اسماء من داره هارباً إلى البادية فهدم داره ودور بني عمه (وهرب) أشراف أهل الكوفة والوجوه فلحقوا بمصعب بن الزبير بالبصرة .

قتل عبيد الله بن زياد

ولما فرغ المختار من قتال الذين خالفوه من أهل الكوفة بعد رجوع إبراهيم بن الأشتر بقي إبراهيم بن الأشتر بعد ذلك يومين ثم وجهه المختار لقتال عبيد الله بن زياد وأهل الشام فسار إبراهيم لثمان بقين من ذي الحجة سنة ست وستين وبعث معه المختار وجوه أصحابه وفرسانهم وذوي البصائر منهم ممن قد شهدوا الحروب وجربوها قال الشيخ رحمه الله في الأمالي أنه خرج في تسعة آلاف وقيل في اثني عشر ألفاً ا هـ ، وقال ابن نما أنه كان في أقل من عشرين ألفاً وخرج المختار مع إبراهيم يشيعه وأنشأ المختار يقول :

أما ورب المرسلات عرفا ... لنقتلن من بعد صف صفاً
وبعد ألف قاسطين ألفا
أنا وحق المرسلات عرفا ... حقاً وحق العاصفات عصفا
لنعسفن من بغانا عسفا ... حتى نسوم القوم منا خسفا
زحفاً إليهم لأمثل الزحفا ... حتى نلاقي بعد صف صفا
وبعد ألف قاسطين ألفا ... نكشفهم لدى الهيجاء كشفا

ثم إن المختار ودع إبراهيم وقال له خذ عني ثلاثاً خف الله عزّ وجلّ في سر أمرك وعلانيتك وعجل السير وإذا لقيت عدوك فعجل القتال ساعة تلقاهم ليلاً كان أو نهاراً ثم رجع المختار وسار إبراهيم يجد السير ليلقي ابن زياد قبل أن يدخل أرض العراق وكان ابن زياد قد سار في عسكر عظيم من الشام حتى وصل إلى الموصل وملكها فسار إبراهيم حتى وصل إلى أرض الموصل وجعل لا يسير إلاّ على تعبية حتى وصل إلى نهر الخازر فنزل قرية يقال لها باربيثا بينها وبين الموصل خمسة فراسخ وجاء ابن زياد حتى نزل قريباً منهم على شاطىء نهر الخازر في ثلاثين ألفاً على رواية سبط ابن الجوزي وعلى رواية ابن نما أنهم كانوا ثلاثة وثمانين ألفاً وأرسل رجل من رؤساء أصحاب ابن زياد يسمى عمير السلمي إلى ابن الأشتر أني أريد ملاقاتك الليلة وكانت عشيرة عمير هذا حاقدة على بني مروان من أجل بعض الوقائع فأتى عمير إلى ابن الأشتر ومعه رجل يسمى فرات بن سالم وكانا يمران بمسالح أهل الشام فيقولون لهما من أنتما فيقولان طليعة للأمير الحصين بن نمير فأتيا إبراهيم وقد أوقد النيران وهو قائم يعبىء أصحابه وعليه قميص أصفر هروي وملاءة موردة متوشحاً بها متقلداً سيفه فدنا منه عمير فصار خلفه واحتضنه من ورائه فلم يعبأ به إبراهيم ولا تحلحل عن موضعه غير أنه أمال رأسه وقال من هذا قال أنا عمير فقال أجلس حتى أفرغ فجلس فقال عمير لصاحبه هل رأيت رجلاً أربط جأشاً وأشد قلباً منه تراه تحلحل من مكانه أو اكترث بي وأنا محتضنه من خلفه فقال صاحبه ما رأيت مثله ثم بايعه عمير وأخبره أنه على ميسرة ابن زياد ووعده أن ينهزم بالناس عند الحرب بعد أن اختبره إبراهيم وعرف نصحه ثم انصرف عمير ، وبث ابن الأشتر الحرس تلك الليلة ولم يدخل عينه النوم فلما كان وقت السحر الأول عبأ أصحابه وكتب كتائبه وأمر أمراءه فلما انفجر الفجر صلى بأصحابه صلاة الصبح وقت الغلس ثم خرج بهم فصفهم والحق كل أمير بمكانه ونزل وهو يمشي وقال للناس ازحفوا فزحفوا وجعل يحرضهم ويمنيهم الظفر وسار بهم رويداً حتى أشرف على تل عظيم مشرف على أهل الشام وإذا هم لم يتحرك منهم واحد بعد فأرسل إبراهيم فارساً من أصحابه يأتيه بخبرهم فلم يلبث إلا يسيراً حتى عاد إليه وقال له قد خرج القوم على دهش وفشل لقيني رجل منهم وليس له كلام إلا يا شيعة أبي تراب يا شيعة المختار الكذاب فقلت ما بيننا وبينكم أجل من الشتم ودعا ابن الأشتر بفرس له فركبه ثم مر بأصحاب الرايات كلها فكلما مر على راية وقف عليها ثم قال يا أنصار الدين وشيعة الحق هذا عبيد الله بن مرجانة قاتل الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته وبين ماء الفرات أن يشربوا منه وهم ينظرون إليه ومنعه من الذهاب في الأرض العريضة حتى قتله وقتل أهل بيته فوالله ما عمل فرعون بنجباء بني إسرائيل ما عمل ابن مرجانة بأهل بيت رسول الله (ص) الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً فوالله أني لأرجو أن يشفي الله صدوركم بسفك دمه على أيديكم فقد علم الله أنكم خرجتم غضباً لأهل بيت نبيكم فسار فيما بين الميمنة والميسرة وسار في الناس كلهم يرغبهم في الجهاد ويحرضهم على القتال ثم رجع إلى موضعه ، وتقابل الجمعان فخرج من عسكر ابن زياد رجل يقال له ابن ضبعان الكلبي ونادى يا شيعة المختار الكذاب يا شيعة ابن الأشتر المرتاب وجعل يرتجز ويقول :

أنا ابن ضبعان الكريم المفضل ... من عصبة يبرون من دين علي
كذاك كانوا في الزمان الأول

فخرج إليه الأحوص بن شداد الهمداني وهو يقول(1) :

أنا ابن شداد على دين علي ... لست لعثمان بن أروى بولي
لأصلين اليوم فيمن يصطلي ... بحر نار الحرب حتى تنجلي

فقال للشامي ما أسمك فقال منازل الأبطال قال له الأحوص وأنا مقرب الآجال ثم حمل الأحوص عليه وضربه فسقط قتيلاً ثم نادى هل من مبارز فخرج إليه داود الدمشقي وهو يقول :

أنا ابن من قاتل في صفينا ... قتال قرن لم يكن غبينا
بل كان فيها بطلاً حرونا ... مجرباً لدى الوغى مكينا

فأجابه الأحوص يقول :

يا ابن الذي قاتل في صفينا ... ولم يكن في دينه غبينا
كذبت قد كنت بها مغبونا ... مذبذباً في أمره مفتونا
لا يعرف الحق ولا اليقينا ... بؤساً له لقد قضى ملعونا

ثم التقيا فضربه الأحوص فقتله ثم عاد إلى صفه ، وزحف ابن زياد

(1) قد تقدم أن رفاعة بن شداد ارتجز بهذه الأبيات بعينها سوى قوله في البيت الأخير حتى تنجلي فذكر بدلها غير مؤتلي والله أعلم لأيها هي .

إلى ابن الأشتر فلما تدانى الصفان حمل الحصين ابن نمير في ميمنة أهل الشام على ميسرة إبراهيم وعليها علي ابن مالك الجشمي فثبت له هو بنفسه فقتل فأخذ رايته ولده قرة بن علي فقتل في رجال من أهل البأس وانهزمت ميسرة إبراهيم فأخذ الراية عبد الله بن ورقاء فاستقبل أهل الميسرة حين انهزموا فقال إليَّ يا شرطة الله فأقبل إليه أكثرهم فقال هذا أميركم يقاتل ابن زياد ارجعوا بنا إليه فرجعوا فإذا إبراهيم كاشف عن رأسه ينادي إلي يا شرطة الله أنا ابن الأشتر أن خير فراركم كراركم ليس مسيئاً من اعتب فرجع إليه أصحابه وحملت ميمنة إبراهيم على ميسرة ابن زياد وهم يرجون أن ينهزم عمير صاحب ميسرة ابن زياد كما وعدهم فقاتلهم عمير قتالاً شديداً وانف من الفرار فلما رأى ذلك إبراهيم قال لأصحابه اقصدوا هذا السواد الأعظم فوالله لئن هزمناه لا نجفل من ترونه يمنة ويسرة انجفال الطير إذا ذعرته فمشى أصحابه إليهم فتطاعنوا بالرماح ثم تضاربوا بالسيوف والعمد وكان يسمع ضرب الحديد على الحديد كأصوات القصار وجعل إبراهيم يحمل على عسكر ابن زياد ويضرب فيهم بسيفه وهو يقول :

قد علمت مذحج علماً لاخطل أني إذا القرن لقيني لا وكل
ولا جزوع عندها ولا نكل أروع مقداماً إذا النكس فشل
اضرب في القوم إذا جاء الأجل واعتلي رأس الطرماح البطل
بالذكر البتار حتى ينجدل

وكان إبراهيم يقول لصاحب رايته انغمس برايتك فيهم فيقول لا أقدر على التقدم فيقول له إبراهيم بلى فيتقدم فإذا تقدم شد إبراهيم عليهم بسيفه فلا يضرب رجلاً إلا صرعه وجعل إبراهيم يطرد الرجال بين يديه كالمعزى وحمل أصحابه حملة رجل واحد واشتد القتال حتى صلوا صلاة الظهر بالتكبير والايماء وقتل من الفريقين قتلى كثيرة وانهزم أصحاب ابن زياد ، وكان أول من أن انهزم عمير الذي وعد إبراهيم أن ينهزم كما تقدم وإنما قاتل أولاً حتى يكون معذوراً وحمل إبراهيم على عبيد الله بن زياد وهو لا يعرفه فضربه إبراهيم ضربة قده بها نصفين وذهبت رجلاه في المشرق ويداه في المغرب وعجل الله بروحه إلى النار ، فلما انهزم أصحاب ابن زياد قال إبراهيم اني قتلت رجلاً تحت راية منفردة على شاطىء نهر الخازر فالتمسوه فاني شممت منه رائحة المسك شرقت يداه وغربت رجلاه فطلبوه فإذا هو ابن زياد قتيلاً بضربة إبراهيم فقد قدته نصفين فذهبت رجلاه في المشرق ويداه في المغرب كما قال إبراهيم فاحتزوا رأسه وأخذوه واحرقوا جثته .

وكانوا قد احتفظوا بجسده طول الليل فلما أصبحوا عرفه مهران مولى زياد فلما رآه إبراهيم قال الحمد لله الذي أجرى قتله على يدي (وفي رواية) أن إبراهيم رحمه الله صلبه منكوساً ، وحمل شريك التغلبي على الحصين بن نمير وهو يظنه عبيد الله بن زياد فاعتنق كل واحد منهما صاحبه فنادى التغلبي اقتلوني وابن الزانية فقتلوا الحصين وكان من قتلة الحسين عليه السّلام ، وقيل أن الحصين خرج وهو يقول :

يا قادة الكوفة أهل المنكر وشيعة المختار وابن الأشتر
هل فيكم قرم كريم العنصر مهذب في قومه بمفخر
يبرز نحوي قاصداً لا يمتري

فخرج إليه شريك التغلبي وهو يقول :

يا قاتل الشيخ الكريم الأزهر بكربلا يوم التقاء العسكر
أعني حسيناً ذا الثنا والمفخر وابن النبي الطاهر المطهر
وابن علي البطل المظفر هذا فخذها من هزبر قسور
ضربة قرم ربعي مضري

فالتقيا بضربتين وجدله التغلبي سريعاً ، وقتل شرحبيل ابن ذي الكلاع الحميري من رؤساء أهل الشام ولما انهزم أصحاب ابن زياد تبعهم أصحاب إبراهيم فكان من غرق منهم أكثر ممن قتل وانتهبوا عسكرهم وكان فيه من كل شيء ، وارسل إبراهيم البشارة إلى المختار وهو بالمدائن فكاد المختار يطير فرحاً ، وكانت الوقعة يوم عاشوراء سنة سبع وستين في اليوم الذي قتل فيه الحسين عليه السّلام ولم يقتل من أهل الشام بعد صفين مثلما قتل في هذه الوقعة (قال ابن نما رحمه الله تعالى) وجعلوا يعدون القتلى بالقصب يضعون عند كل قتيل قصبة فكانوا سبعين ألفاً ؛ وفرق إبراهيم عماله على بلاد الموصل وأقام هو بالموصل وقال سراقة بن مرداس البارقي يمدح إبراهيم بن الأشتر وأصحابه في قتلهم لعبيد الله بن زياد .

أتاكم غلام من عرانين مذحج جري على الأعداء غير نكول
فيا ابن زياد بوء باعظم هالك[1] وذق حد ماضي الشفرتين صقيل
ضربناك بالعضب الحسام بحدة إذا ما أبأنا قاتلاً بقتيل
جزى الله خيراً شرطة الله أنهم شفوا من عبيد الله أمس غليلي

وقال أبو السفاح الزبيدي في ذلك أيضاً[2] :

أتاكم غلام من عرانين مذحج جري على الأعداء غير نكول
أتاه عبيد الله في شر عصبة من الشام لما أن رضوا بقليل
فلما التقى الجمعان في حومة الوغى وللموت فيهم ثم جر ذيول
فأصبحت قد ودعت هنداً وأصبحت مولهة ما وجدها بقليل
وأخلق بهند أن تساق سبية لها من أبي إسحق شر حليل
تولى عبيد الله خوفاً من الردى وخشية ماضي الشفرتين صقيل
جزى الله خيراً شرطة الله أنهم شفوا بعبيد الله كل غليل

يعني بقوله هند بنت أسماء بن خارجة زوجة عبيد الله بن زياد وكانت معه فلما قتل حملها عتبة أخوها إلى الكوفة وأبو إسحاق هو المختار .

وقال عبيد الله بن الزبير الأسدي بفتح الزاي وقيل عبد الله بن عمرو الساعدي يمدح إبراهيم أيضاً ويذكر هذه الوقعة :

الله أعطاك المهابة والتقى وأحل بيتك في العديد الأكثر
واقر عينك يوم وقعة خازر والخيل تعثر بالقنا المتكسر
من ظالمين كفتهم آثامهم تركوا لعافية وطير حسر[3]
ما كان اجرأهم جزاهم ربهم شر الجزاء على ارتكاب المنكر

(١) (مالك خ ل) .

(٢) هكذا ذكره ابن نما رحمه الله تعالى ولا يخفى أن فيها بعض أبيات سراقة ولعله توهم من الرواة .

(٣) لحاجلة وطيراً عثرخ ل .

وقال يزيد بن المفرغ في قتل ابن زياد :

إن المنـايـا إذا مـازرن طـاغيـة هتكن أستـار حجـاب وأبـواب[1]
أقـول بعـداً وسحقـاً عنـد مصرعـه لابن الخبيثة وابن الكودن[2] الكابي
لا تقبـل الأرض مـوتـاهم إذا قـبروا وكيف تقبـل رجسـاً بـين أثـواب
إن الـذي عـاش غـداراً بـذمتـه ومـات هـزلاً قتيـل الله بـالـزاب
مـا شق جيب ولا نـاحتـك نـائحـة ولا بكتـك جيـاد عنـد أسـلاب

وقـال عمير السلمي الـذي كـان عـلى ميسرة ابن زيـاد يـذم جيش ابن زياد .

ومـا كان جيش يجمـع الخمر والـزنا محـلاً إذا لاقـى العـدو لـينصرا

وأنفـذ إبـراهيم بـرأس عبيـد الله بن زيـاد ورؤوس قـواده وفيهـا رأس الحصين بن نمير إلى المختـار وفي آذانهم رقاع فيهـا اسماؤهم فقـدموا عليـه وهو يتغدى فحمد الله على الظفر فلما فرغ من الغـداء قام فـوطىء وجه ابن زيـاد بنعله ثم رمى بها إلى غلامه وقال اغسلها فاني وضعتها على وجه نجس كافر ، والقيت الرؤوس في القصر بين يديه فألقاهـا في المكان الـذي وضع فيـه رأس الحسين عليه السّلام ورؤوس أصحابه ونصب المختار رأس ابن زياد في المكان الذي نصب فيه رأس الحسين عليه السّلام ثم ألقاه في اليـوم الثاني في الـرحبة من الـرؤوس ، ولمـا وضـع رأس ابن زيـاد أمـام المختـار جـاءت حيـة دقيقـة فتخللت الرؤوس حتى دخلت في فم عبيد الله بن زياد ثم خرجت من منخـره ودخلت في منخـره وخرجت من فيـه فعلت هذا مـراراً فقال المختـار دعـوهـا دعوها .

قـال ابن الأثير أخـرج هذا الـترمـذي في جـامعـه ، وعن أبي الـطفيـل عامر بن واثلة قـال وضعت الرؤوس عنـد السدة بـالكوفـة عليها ثـوب أبيض فكشفنـا عنهـا الثـوب وحيـة تتغلغـل في رأس عبيـد الله ونصبت الـرؤوس في الرحبة قال عامر ورأيت الحية تدخل في منافذ رأسه وهو مصلوب مـراراً ، قال سبط ابن الجـوزي وفي رواية فعلت ذلـك ثـلاثـة أيـام ، ثم إن المختـار بعث بـرأس عبيـد الله بن زيـاد ورأس الحصين بن نمـير ورأس شراحيـل بن ذي الكلاع إلى مكة إلى محمد بن الحنفية ومعها ثلاثون ألف دينار وكتب إليه ، إني بعثت أنصاركم وشيعتكم إلى عدوكم فخرجوا محتسبين آسفين فقتلوهم .

فالحمد لله الذي أدرك لكم الثار وأهلكهم في كـل فج عميق وشفى الله صدور قوم مؤمنين فلما قدمت عليه خر سـاجداً لله ودعـا للمختار وقـال جزاه الله خـير الجـزاء فقـد أدرك لنـا ثـأرنـا ووجب حقـه عـلى كـل من ولـده عبـد المطلب بن هـاشم ودعا لابن الأشـتر أيضـاً ، وبعث بـرأس عبيد الله بن زياد ورأس آخر معه إلى علي بن الحسين عليه السّلام وكان يومئذ بمكة فادخل عليـه وهو يتغـدى فسجد شكـراً لله وقال الحمـد لله الذي أدرك لي ثـأري من عـدوي وجزى الله المختـار خيراً أدخلت عـلى عبيد الله بن زيـاد وهو يتغـدى ورأس أبي بـين يديـه فقلت اللّهم لا تمتني حتى تـريني رأس ابن زيـاد ، وعن الصادق عليه السّلام أنه قـال ما اكتحلت هـاشمية ولا اختضبت ولا رئي في دار هاشمي دخان خمس سنين حتى قتل عبيد الله بن زياد ، وعن فـاطمة بنت علي أمير المؤمنين عليه السّلام أنها قالت ما تحنأت امرأة منا ولا أجالت في عينها مروداً ولا امتشطت حتى بعث المختار برأس عبيد الله بن زياد .

نهاية المختار

لما هرب أشرافُ الكوفة من وقعـة السَّبيع أتى جماعةٌ منهم إلى مصعب فـأتاه شَبَثُ بن رِبْعيّ عـلى بغلة قد قـطع ذنبها وطـرف أذنها وشقّ قبَـاءه وهـو ينادي : يا غزوتاه ! فرفُع خبره إلى مُصعب ، فقال : هـذا شَبَث بن رِبعيّ ، فأدخل عليه ، فأتاه أشرافُ الكوفة فدخلوا عليـه وأخبروه بمـا اجتمعوا عليـه وسألوه النصرَ لهم والمسير إلى المختار معهم .

وقـدم عليه محمّـد بن الأشعث أيضـاً واستحثّـه عـلى المسير ، فـأدنـاه مصعب وأكرمه لشرفه ، وقال لأهل الكوفة حين أكـثروا عليه : لا أسير حتى يأتيني المهلّبُ بن أبي صُفْرَة . وكتب إليه ، وهو عامله على فارس ، يستدعيـه ليشهد معهم قتال المختـار ، فأبـطأ المهلّب واعتل بشيء من الخـراج لكراهيـة الخـروج ، فأمـر مُصعبٌ محمّدَ بن الأشعث أن يـأتي المهلّب يستحثّه ، فـأتـاه محمّد ومعه كتاب مصعب ، فلمّا قرأه قال له : أمّا وجد مصعب بريداً غيرك ؟ فقـال : ما أنـا ببريـد لأحد ، غـير أن نساءنـا وأبناءنـا وحَرَمنـا غَلبَنـا عليهم عبيدنا .

فأقبل المهلّب معـه بجموع كثيرة وأموال عـظيمة فقـدم البصرة ، وأمر مصعب بالعسكر عند الجسر الأكبر ، وأرسل عبدَ الرحمن بن مِخْنَف إلى الكوفة فأمره أن يُخـرج إليه مَنْ قـدر عليه وأن يثبّط النـاس عن المختار ويـدعوهم إلى بيعـة ابن الزّبـير سرّاً ، ففعـل ، ودخل بيتـه مستتراً ، ثمّ سـار مصعب فقدّم أمامه عبّاد بن الحُصَين الحَطَميَّ التميميَّ ، وبعث عمرَ بن عبيـد الله بن مَعْمر عـلى ميمنته ، والمهلّبَ عـلى ميسرته ، وجعـل مالـك بن مِسْمـع عـلى بكـر ، ومالك بن المُنْـذر على عبـد القيس ، والأحنف بن قيس على تميم ، وزيـاد بن عمرو العَتَكيَّ على الأزد ، وقيسَ بن الهَيْثم على أهل العالية .

وبلغ الخبرُ المختار فقام في أصحابه فأعلمهم ذلـك وندبهم إلى الخـروج مـع أحْمر بن شُمَيْط ، فخـرج وعسكـر بحـمّام أعْـين ، ودعـا المختـار رؤوس الأرباع الذين كانـوا مـع ابن الأشتر فبعثهم مـع أحمر بن شُمَيْط ، فسـار وعلى مقدّمته ابنُ كامل الشاكريُّ ، فوصلوا إلى المَذاو ، وأتى مصعب فعسكر قريبـاً منه ، وعبّأ كلّ واحد منهما جنده ثمّ تزاحفا ، فجعل ابنُ شُمَيط ابنَ كامل على ميمنتـه ، وعلى الميسرة عبـد الله بن وُهَيب الجُشَميَّ ، وجعل أبـا عَمْرَة مـولى عُرَيْنة على الموالي .

فجاء عبد الله بن وُهَيب الجُشَميُّ إلى ابن شُمَيط فقـال له : إنّ الموالي والعبيد أولو خور[3] عند المصدوقة ، وإنّ معهم رجالاً كثيراً عـلى الخيل وأنت تمشي فمُرْهم فليمشوا معك فإنّي أتخوّف أن يطيروا[4] عليها ويسلموك . وكان هذا غشّاً منه للموالي لمـا كانـوا لقوا منهم بـالكوفـة ، فأحبّ إن كـانت عليهم الهزيمـة أن لا ينجو منهم أحد . فلم يتّهمه ابن شُمَيط ، ففعل مـا أشار بـه ، فنزل الموالي معه .

وجاء مصعب وقد جعل عبّادَ بن الحُصَين على الخيـل ، فدنـا عبّاد من أحمر وأصحابه وقال : إنّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة رسوله وإلى بيعة المختار

(١) هتكن عنه ستوراً بعد أبواب خ ل .
(٢) الكودن الفرس الهجين أي غير العتيق .

(٣) جور .
(٤) يطردوا؟ .

وإلى أن نجعل هذا الأمر شورى في آل الرسول . فرجع عبّاد فأخبر مصعباً ، فقال له : ارجعْ فاحملْ عليهم . فرجع وحمل على ابن شُميط وأصحابه ، فلم ينزل منهم أحد ، ثمّ انصرف إلى موقفه ، وحمل المهلّب على ابن كامل ، فجال بعضهم في بعض ، فنزل ابن كامل فانصرف عنه المهلّب ، ثمّ قال المهلب لأصحابه : كرّوا عليهم كرّةً صادقةً ، فحملوا عليهم حملةً منكرة ، فولّوا ، وصبر ابن كامل في رجال من همْدان ساعة ثمّ انهزم ، وحمل عُمر بن عبيد الله على عبد الله بن أنس ، فصبر ساعةً ثمّ انصرف ، وحمل الناسُ جميعاً على ابن شُميط ، فقاتل حتى قُتل ، وتنادوا : يا معشر بَجيلة وخَثْعَم الصبرَ! فناداهم المهلّب : الفرار اليوم أنجى لكم ، علامَ تقتلون أنفسكم مع هذه العبيد ؟ ثمّ قال : والله ما أرى كثرة القتل اليوم إلاّ في قومي .

ومالت الخيل على رَجّالة ابن شُميط فانهزمت ، وبعث مصعبٌ عبّاداً على الخيل ، فقال : أيّما أسيرٍ أخذته فاضربْ عنقه . وسرّح محمّدَ بن الأشعث في خيل عظيمة من أهلِ الكوفة فقال : دونكم ثاركم . فكانوا أشدّ على المنهزمين من أهل البصرة لا يدركون منهزماً إلاّ قتلوه ، ولا يأخذون أسيراً فيعفون عنه ، فلم ينجُ من ذلك الجيش إلاّ طائفة أصحاب الخيل ، وأمّا الرجّالة فأُبيدوا إلاّ قليلاً .

قال معاوية بن قرّة المُزَنيُّ : انتهيتُ إلى رجل منهم فأدخلتُ السنان في عينه فأخذتُ أخضخض عينه به . فقيل له : أفعلتَ هذا ؟ فقال : نعم ، إنّهم كانوا عندنا أحلّ دماء من التُّرك والديلم . وكان معاوية هذا قاضي البصرة .

فلمّا فرغ مصعب منهم أقبل حتى قطع من تلقاء واسط ، ولم تكن بُنيتْ بعد ، فأخذ في كسكر ، ثمّ حمل الرجالَ وأثقالهم والضعفاء في السفن فأخذوا في نهر خرشاد ثمّ خرجوا إلى نهر قُوسان ثمّ خرجوا إلى الفرات .

وأتى المختارَ خبرُ الهزيمة ومَنْ قُتل بها من فرسان أصحابه ، فقال : ما من الموت بُدّ ، وما من ميتة أحبّ إليّ من أن أموت ميتة ابن شُميط . فعلموا أنّه إن لم يبلغ ما يريد يقاتل حتى يُقْتَل .

ولما بلغه أنّ مصعباً قد أقبل إليه في البرّ والبحر سار حتى وصل السَّيْلَحِين ونظر إلى مجتمع الأنهار : نهر الحيرة ونهر السيلحين ونهر القادسيّة ونهر يوسف ، فسكّر الفرات فذهب ماؤها في هذه الأنهار وبقيت سفن أهل البصرة في الطين ، فلمّا رأوا ذلك خرجوا من السفن إلى ذلك السكر فأصلحوه وقصدوا الكوفة ، وسار المختار إليهم فنزل حَرُوراء وحال بينهم وبين الكوفة ، وكان قد حصّن القصر والمسجد وأدخل إليه عُدّة الحصار .

وأقبل مُصعَب وقد جعل على ميمنته المهلّب ، وعلى ميسرته عمر بن عبيد الله ، وعلى الخيل عبّاد بن الحُصَين ؛ وجعل المختارُ على ميمنته سُلَيم بن يزيد الكِنديّ ، وعلى ميسرته سعيد بن مُنْقذ الهمدانيّ ، وعلى الخيل عمرو بن عبد الله النهديّ ، وعلى الرّجالة مالك بن عبد الله النهديّ . وأقبل محمّد بن الأشعث فيمَنْ هرب من أهل الكوفة فنزل بين مُصعب والمختار . فلمّا رأى ذلك المختارُ بعث إلى كلّ جيش من أهل البصرة رجلاً من أصحابه ، وتدانى الناس ، فحمل سعيد بن منقذ على بكر وعبد القيس وهم في ميمنة مصعب فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فأرسل مصعب إلى المهلّب ليحمل على مَنْ بإزائه ، فقال : ما كنتُ لأجزرَ الأزد خشيةَ أهل الكوفة حتى أرى فرصتي .

وبعث المختارُ إلى عبْد الله بن جَعدة بن هُبَيرة المخزوميّ ، فحمل على مَنْ بإزائه ، وهم أهل العالية ، فكشفهم ، فانتهوا إلى مصعب ، فجثا مصعبٌ على ركبتيه وبرك الناس عنده فقاتلوا ساعةً وتحاجزوا .

ثمّ إنّ المهلّب حمل في أصحابه على مَنْ بإزائه فحطموا أصحاب المختار حطمة منكرة فكشفوهم . وقال عبد الله بن عمرو النهديّ ، وكان ممّن شهد صِفّين : اللهمّ إنّي على ما كنتُ عليه بصِفّين ، اللهمّ أبرأ إليك من فعل هؤلاء ، لأصحابه [حين انهزموا] ، وأبرأ إليك من أنفس هؤلاء ، يعني أصحاب مصعب ، ثمّ جالد بسيفه حين قُتل .

وانقصف أصحاب المختار كأنّهم أجمة قصب فيها نار ، وحمل مالك بن عمرو النهديّ ، وهو على الرَّجّالة ، ومعه نحو خمسين رجلاً ، وذلك عند المساء ، على أصحاب ابن الأشعث حملةً منكرةً ، فقُتل ابن الأشعث وقُتل عامّة أصحابه .

وقاتل المختار على فم سكّة شَبَث عامّة ليلته وقاتل معه رجال من أهل البأس وقاتلت معه همْدان أشدّ قتال وتفرّق الناس عن المختار ، فقال له مَنْ معه : أيّها الأمير اذهبْ إلى القصر ، فجاء حتى دخله .

فلمّا أصبح مصعب أقبل يسير فيمَنْ معه نحو السَّبْخة ، ثمّ نزل السبْخة فقطع عنهم الماء والمادّة وقاتلهم المختار وأصحابه قتالاً ضعيفاً ، وأجترأ الناس عليهم فكانوا إذا خرجوا رماهم الناس من فوق البيوت وصبّوا عليهم الماء القذر ، وكان أكثر معاشهم من النساء ، تأتي المرأة متخفية ومعها القليل من الطعام والشراب إلى أهلها . ففطن مصعب بالنساء فمنعهنّ ، فاشتدّ على المختار وأصحابه العطش ، وكانوا يشربون ماء البئر يعملون فيه العسل فكان ذلك ما يروي بعضهم .

ثمّ إنّ مصعباً أمر أصحابه فاقتربوا من القصر واشتدّ الحصار عليهم ، فقال لهم المختار : ويحكم إنّ الحصار لا يزيدكم إلاّ ضعفاً فانزلوا بنا فنقاتل حتى نُقتَل كراماً إن نحنُ قُتلنا ، فوالله ما أنا بآيس إن صدقتموهم أن ينصركم الله . فضعفوا ولم يفعلوا . فقال لهم : أمّا أنا فوالله لا أعطي بيدي ولا أحكّمهم في نفسي ، وإذا خرجتُ فقُتلتُ لم تزدادوا إلاّ ضعفاً وذلاّ ، فإن نزلتم على حكمهم وثبت أعداؤكم فقتلوكم وبعضكم ينظر إلى بعض فتقولون : يا ليتنا أطعنا المختار ، ولو أنّكم خرجتم معي كنتم إن أخطأتم الظفر مُتّم كراماً .

فلمّا رأى عبد الله بن جَعْدَة بن هُبَيرة ما عزم عليه المختار تدلّى من القصر فلحق بناس من إخوانه فاختفى عندهم سرّاً . ثمّ إن المختار تطيّب وتحنّط وخرج من القصر في تسعة عشر رجلاً ، منهم السائب بن مالك الأشعريّ .

فلمّا خرج المختار قال السائب : ماذا ترى ؟ قال : ما ترى أنت ، قال : ويحك يا أحمق إنّما أنا رجل من العرب رأيتُ ابنَ الزبير قد وثب بالحجاز ، ورأيتُ ابنَ نَجْدة وثب باليمامة ، ومروان بالشام ، وكنت فيها كأحدهم ، إلاّ أنّي قد طلبتُ بثار أهل البيت إذ نامت عنه العرب ، فقاتلْ على حسبك إن لم يكن لك نيّة . فقال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، ما كنتُ أصنع أن أقاتل على حسبي . ثمّ تقدّم المختارُ فقاتل حتى قُتل .

فلمّا كـان الغـد من قتله دعـاهم بَحير بن عبـد الله المسكيُّ ومَن معـه بالقصر إلى مَا دعاهم المختار فأبَوا عليه وأمكنوا أصحاب مصعب من أنفسهم ونزلوا على حكمه ، فأخرجوهم مكتَّفين ، فأراد إطلاق العرب وقتل الموالي ، فـأبَى أصحابُـه عليه ، فعُـرضـوا عليـه فـأمـر بقتلهم ، وعُـرض عليـه بحـير المسكيُّ ، فقال لمصعب : الحمد لله الـذي ابتلانـا بالأسر وابتـلاك بأن تعفـو عنّا ، هما منزلتان : إحداهما رضاء الله ، والأخرى سخطه ، من عفا عفـا الله عنـه وزاد عزّاً ، ومَنْ عـاقب لم يأمن القصـاص ، يـا ابن الـزبـير نحن أهـل قبلتكم وعـلى ملّتكم ولسنا تُـركاً ولا ديلماً ، فـإن خـالفنـا إخـوانـنـا من أهـل مصرنا . فإمّا أن نكون أصبنـا وأخطأوا ، وإمّا أن نكون أخـطأنا وأصـابوا ، فاقتتلنا بيننا كما اقتتل أهلُ الشام بينهم ثمّ اجتمعوا ، وكـما اقتتل أهـلُ البصرة واصطلحوا واجتمعوا ، وقد ملكتم فأسجحوا ، وقد قدرتم فاعفوا . فـما زال بهذا القول حتى رقّ لهم الناس ومصعب وأراد أن يخلّي سبيلهم .

فقام عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث فقـال : أتخلّي سبيلهم ؟ اخـترْنا أو اخترْهم . وقام محمّد بن عبد الرحمن بن سعيد الهَمْـدانيُّ فقال مثله ، وقـام أشرافُ الكوفة فقالوا مثلها ، فأمر بقتلهم ، فقالـوا له : يـا ابنَ الزبـير ، لا تقتلنا واجعلنا على مقدّمتك إلى أهل الشام غداً ، فما بكم عنّا غنًى ، فإن قُتلنا لم نُقتل حتى نُضْعِفهم لكم ، وإن ظفرنـا بهم كان ذلـك لكم . فأبَى عليهم . فقال بحير المسكيّ : لا تخلطْ دمي بدمائهم إذ عصَوْني . فقتلهم .

وقال مسافر بن سعيد بن نمران الناعطي : ما تقول يا ابن الزبير لـربّك غداً وقد قتلتَ أُمّـةً من المسلمين حكّمـوك في أنفسهم صبراً ؟ اقتلوا منّـا بعدّة مَنْ قتلنا منكم ، ففينا رجال لم يشهدوا موطناً من حربنا يوماً واحداً ، كانوا في السواد وجباية الخراج وحفظ الطرق . فلم يسمع منه وأمر بقتله .

ولما أراد قتلهم استشـار مصعبُ الأحنفَ بن قيس ، فقـال : أرى أن تعفـو ، فإنّ العفـو أقرب للتقـوى . فقال أشرافُ أهـل الكـوفـة : اقتلهم ، وضجّوا ، فقتلهم ، فلمّا قُتلوا قال الأحنف : ما أدركتم بقتلهم ثأراً ، فليته لا يكون في الآخرة وبالاً .

وبعثت عائشةُ بنتُ طلحـة امرأة مصعب إليـه في إطلاقهم ، فـوجدهم الرسول قد قُتلوا .

ثمّ إنّ مصعباً دعا أمّ ثابت بنت سَمُرة بن جُنْـدَب امرأة المختـار وعُمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاريّة امـرأتـه الأخـرى فـأحضرهمـا وسـألهـما عن المختار . فقالت أمّ ثابت : نقول فيه بقولك أنت ، فأطلقها ، وقالت عُمرة : رحمـه الله ، كان عبـداً لله صالحـاً ، فحبسهـا ، وكتب إلى أخيـه عبـد الله بن الزبير : إنّها تزعم أنّه نبيّ ، فأمره بقتلها ، فقُتلت ليلاً بين الكوفـة والحيرة ، قتلها بعضُ الشُّرَط ضربها ثلاث ضربات بـالسيف وهي تقول : يـا أبتاه ! يـا عـترتاه ! فـرفع رجـل يده فلطم القـاتل وقـال : يا ابن الـزانية عـذّبتَهـا ! ثمّ تشحّطت فماتت . فتعلّق الشُّرطيُّ بالرجـل وحمله إلى مصعب ، فقال : خلّوه فقد رأى أمراً فظيعاً .

ولما قُتل المختار كان عمـره سبعاً وستّـين سنة ، وكـان قتله لأربع عشرة خلت من رمضان سنة سبع وستّين .

قيـل : إنّ مصعباً لقي ابن عمـر فسلّم عليه وقـال له : أنـا ابن أخيك مصعب . فقال له ابن عمر : أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة غير ما بدا لك . فقال مصعب : إنّهم كانوا كَفَرة فَجَرَة . فقال : والله لو قتلتَ عدّتهم غنماً من تراث أبيك لكان ذلك سرفاً .

وقال ابنُ الزبير لعبد الله بن عبّاس : ألم يبلغك قتْل الكذّاب ؟ قـال : ومَن الكذّاب ؟ قال : ابن أبي عبيـد . قال : قـد بلغني قتل المختـار . قال : كأنّك أنكرتَ تسميته كذّاباً ومتوجّع له . قال : ذاك رجـل قتل قتَلَتنـا وطلب ثأرنا وشفى غليلَ صدورنا وليس جزاؤه منّا الشتم والشماتة [1].

نادر شاه الإفشاري .

بعد انقضاء عهد الشاه عباس الصفوي الكبـير ساءت سيـاسة خلفـائه وأهملوا تدبير أمـور مملكتهم وإدارتها ، وسـاروا سيرة المستبـدين المستكبرين ، وبلغ الفسـاد والإنحـلال الـروحي في بـلاط الملك إلى حيث أصبـح سقـوط الصفويين أمراً متوقعاً مسلماً به .

أخذ المتمردون من كل ناحية يقومون بحركات انفصالية . وبلغ الجهل وفساد التربية بالناس إلى طريق الإنحـطاط والفناء . ونسيت الفنـون الحربيـة والتـنـظيـم العسكـري وأهمـل الجيش ، حتى كـانـت سنـة ١١٠٦ هـ (١٦٩٤ م) ، وهي السنة التي اعتلى فيهـا الشاه سلطان حسين ابن الشاه سليمان الصفوي عرش المملكة ، سنة إعلان اضمحلال السلالة الصفويـة . فقد عمت الفتن أنحاء الـدولة وعـدم الناس الأمـان والراحـة ، إذ كان هـذا الشاه عاجـزاً غير كفء للحكم . وفي عهـده استولى الـروس عـلى كثـير من إيالات الشمال والشمال الغربي من إيران .

قال « الشوفاليه جان شاردان » السائح الفيلسوف الفرنسي في مذكراتـه يصف أوضاع إيران في تلك الحقبة :

« لن يتقـدم الإيـرانيـون خـطوة عن مكـانهم ، لأنهم يـرون أن الحيـاة الناعمة هي قبل كل شيء . لقد خسروا خصالهم الحربية وغـرقوا في اللذائـذ والشهـوات ، لا يرون لهم فـائدة في التحـركات العـظيمة واقتحـام المصاعب وتجشم المشقـات إلى غاية عليـا . من أجْـل ذلـك مـا إن انقضت مـدة قليلة وحلت سنة ١١١١ هـ حتى كانت قبـائل « البلوش » في « كـرمان » وطـوائف « الغلجائيين » الأفـاغنة في « قنـدهار » والملك محمـود السيستاني في خـراسان والعثـمانيون في شـمال إيران وشـمالها الغـربي والتركـمان في « جرجـان » وشمالي خراسان والروس في « جيلان » يثـيرون الفتن ويخلون بالأمن ويحكمـون حكماً مستقلاً كل الإستقلال » .

وفي تلك الحقبة بعث الأمـبراطـور الـروسي « بـطرس الأكـبر » بعثـة جاسوسية برئاسة « أرتمي فولينسكي » إلى إيران بصورة تجار . ثم رفعت هـذه البعثـة إلى الأمبراطـور تقريـراً جاء فيـه أن إيران أصبحت عـلى شفـا منحـدر السقـوط والإضمحلال . وأخـذوا الروس يثـيرون عليها القبـائـل الكـرجيـة والداغستانية واللزكية .

كـانـت قبيلة « الغلجـائيـين » تسكن في « قنـدهـار » ونـواحيهـا وقبيلة

(١) ابن الأثير .

« الأبداليين » تسكن في « هرات » ونواحيها . والمدينتان تابعتان يومئذ لإيران . والقبيلتان من أصل إيراني . وبينهما خصومات وحروب . ولكن كانتا كلتاهما تشغبان على الحكومة المركزية وتثوران عليها . وكان « أورنك زيب » أمبراطور الهند المغولي يساعدهما ويساندهما على إيران .

وفي تلك السنة بعث الشاه حسين الصفوي حاكماً حازماً إلى « قندهار » . وهو من أصل كرجي اسمه « جرجين خان » . يقول المؤرخ الإنكليزي العقيد « السيرجان مالكم » سفير انكلترا في بلاط « فتح على شاه » القاجاري : « كان هذا الحاكم من أشجع رؤساء إيران وأحسنهم تدبيراً » . وقد استطاع أن يضبط الأمور فيها ، واعتقل رأس الفتنة « ميرويس » أحد رؤساء « الغلجائيين » وبعث به إلى أصفهان العاصمة فسجنه الشاه الصفوي(١) . ولكنه استطاع أن يخدع الشاه الأبله فأطلقه ، وأذن له بالسفر إلى مكة . وهناك حصل من علمائها على فتاوى ورسائل بأن السنيين يجوز لهم عند الضرورة أن يشهروا السيف على الشيعة دفاعاً عن أنفسهم . ثم عاد إلى أصفهان . واستطاع أن يحمل الشاه على الإذن له بالعودة إلى « قندهار » . وهناك دبر مكيدة قتل فيها حاكمها « جرجين خان » ، ثم أطلع أهالي « قندهار » على فتوى علماء مكة فأثارهم وهجم في سنة ١١١٢ هـ على مقر الحامية الإيرانية والكرجية فقتل فريقاً منهم وطرد الباقين من « قندهار » ونصب نفسه حاكماً عليها . وقام « الأبداليون » بعمل مشابه في « هرات » وتسلطوا عليها . وكان أمبراطور الهند يساعد القبيلتين ويساندهما في هذه الثورة ، إذ كان يطمع في ضم « قندهار » وغيرها إلى أملاكه .

وفي سنة ١١٣١ هـ احتل إمام مسقط جزائر البحرين . وتسلطت طوائف « البلوش » على إيالتي « كرمان » و« لار » وهاجموا « بندر عباس » وخربوها . وعمت الفتن « كردستان » و« لرستان » .

وفي سنة ١١٣٤ هـ ثار إقليم « شيروان » (شمال إيران الغربي) ، وساعدت الدولة العثمانية هذه الثورة . وتهيأت روسيا لتحقيق مطامع قديمة لها في جنوب بلادها .

وفي ١٢ من المحرم سنة ١١٣٥ هـ كان محمود الأفغاني رئيس قبيلة « غلجائي » يحاصر أصفهان عاصمة المملكة الإيرانية ويضطر الشاه حسين الصفوي الضعيف العاجز إلى التسليم وأن ينزع التاج عن رأسه ويضعه بيده على رأس الغازي الأفغاني . ثم حبسه هذا في داخل القصر وظل مسجوناً فيه سبع سنوات ، ثم قتله الأفاغنة بعدها .

وروى « السيرجان مالكم » أن محموداً الغلجائي هذا ارتكب بعد احتلاله أصفهان ، وجلوسه على عرش الصفويين فظائع رهيبة في أصفهان وغيرها ، من قتل ونهب وتخريب . من ذلك قتله مائة وأربعة عشر رجلاً من رؤساء القزلباش . وقتل بيده هو وواحد أو اثنين من خواصه أبناء الشاه ، وهم واحد وثلاثون أميراً في إحدى ساحات القصر الملكي ، وغير هؤلاء كثير ، بلا ذنب منهم يحمله على ذلك . بل إنه قبض على مائتي طفل صغير وقتلهم خارج المدينة . ونجا من هذه المذبحة « طهماسب ميرزا » ولي العهد إذ

كان في « قزوين » . فلما بلغه خبر خلع أبيه أعلن توليه منصبه في ١٤ صفر سنة ١١٣٥ هـ . وكان محمود الأفغاني في أثناء ذلك يواصل احتلال المدن الإيرانية ويطارد الشاه الجديد .

وفي سنة ١١٣٦ هـ استولت روسيا على مدن القفقاس و« داغستان » و« طوالش » و« قراجة داغ » و« أردبيل » و« دربند » و« أنزلي » (بندر بهلوي) و« كرجستان » و« تفليس » و« باكو » والإيالات الساحلية على بحر تزوين ، وهي « جيلان » و« تنكابن » و« مازندران » .

واحتل العثمانيون « إيروان » والقسم الغربي من القفقاس و« تبريز » و« أرومية » و« كردستان » و« كرمانشاهان » و« لورستان » و« خوزستان » إلى شاطىء الخليج الفارسي .

وفي سنة ١١٣٨ هـ عقدت الدولة العثمانية والدولة الروسية معاهدة بينهما بأن تكون ناحية التركمان وسواحل غربي « مازندران » على بحر الخزر إلى ملتقى نهر « كر » ونهر « أرس » للدولة الروسية . وتكون « كرجستان » و« كنجه » و« أذربيجان » و« كردستان » و« كرمانشاهان » والعراق و« خوزستان » للدولة العثمانية .

وفي أوائل سنة ١١٤٢ هـ ، في أيام حكم الشاه « طهماسب » الثاني ابن الشاه حسين ، كان العثمانيون قد استولوا على كل « كرجستان » و« أرمينيا » و« أذربيجان » وقسم من إيالة « داغستان » وقسم من إيالة « شيروان » (القسم الآخر من هاتين الإيالتين استولى عليه الروس) وأكثر عراق العجم وكل كردستان و« همذان » و« كرمانشاهان » .

وفي سنة ١١٤٤ هـ . عقد الشاه « طهماسب » معاهدة بينه وبين العثمانيون تقضي بأن تكون « كنجه » (جنوب داغستان) و« تفليس » و« إيراوان » و« نخجوان » (أذربيجان) والقسم الأكبر من إقليم « داغستان » وإقليم « شيراوان » (جنوبي داغستان غربي بحر الخزر) للعثمانيين .

وفي سنة ١١٤٥ هـ . عقد الشاه « طهماسب » معاهدة بينه وبين روسيا تقضي بأن تجلو روسيا عن كل الإيالات التي تستولي عليها ما عدا النواحي الواقعة في شمالي نهر « كر » .

وإلى كل هذا كانت دسائس السلاطين والحكام لا تنفك تحيط بالشاه حسين ثم بخليفته الشاه « طهماسب » وتتلاعب به من كل جانب ويذهب ضحيتها المخلصون والناصحون ويطلق العنان للخونة والفاسدين .

وإلى ذلك كان قطاع الطرق والسلابون يعيشون بالأرض فساداً على هواهم ، وغارات الأزابكة والتتر وغيرهم تتوالى على إيران .

مولد نادر شاه

وأصله ونشأته

وفي ٢٨ من المحرم سنة ١١٠٠ هـ الموافق ٢٢ نوفمبر سنة ١٦٨٨ م ، أي في أيام تلك الفتن ، ولد نادر شاه في قرية « دستجرد » الواقعة في الشمال الشرقي من إيران في سهول « درجز » الخصبة ، مشتى قبيلة « قرقلو » ، قبيلة نادر شاه .

قال اللورد « جورج غورزن » : « هذا الإقليم كان لا ينفك تستغرقه

(١) على أن بعض المؤرخين الإيرانيين يرى في جرجين خان حاكماً ظالماً ، وان الشاه أخطأ بارسال حاكم غير مسلم إلى منطقة إسلامية متشددة (ح) .

الفتن السياسية والحركات العسكرية ، ويعد مكاناً استراتيجياً مهماً تتوالى فيه الأحداث حتى أصبحت حالته المعتادة هي الحرب والغارات والخصومات .

وقبيلة « قرقلو » ، قبيلة نادر شاه ، هي أحد فرعين كبيرين تنقسم إليها قبيلة « أفشار » التركية ، وكانت تقيم ، مع قبائل أخرى من الأتراك ، في الشمال الشرقي من إيران ، ثم انتشروا في أكثر من ناحية من نواحي تلك البلاد . ولكن الأرجح ، بناء على قول بعض الثقات من المؤرخين ، أن قبيلة « أفشار » هذه تنتمي إلى « الأشكانيين » الأشداء الذين حكمت سلالتهم إيران من سنة ٢٥٠ قبل الميلاد إلى سنة ٢٢٦ بعد الميلاد ، أي ما يقرب من خمسة قرون . ولكن اضطرار الإفشاريين إلى معاشرة الأتراك مدة طويلة أنساهم لغتهم الأصلية فتكلموا بالتركية .

وكانت ولادة هذا القائد العبقري في خيمة من خيام قبيلة « قرقلو » هذه . وأبوه يدعى « إمام قلي » ، رجل مغمور خامل الذكر ، فقير شديد الفقر . وكان فرّاء على ما يظن . وسمى ابنه « ندرقلي » أو « نادر قلي » باسم جده . ولم يلبث الأب أن توفي بعد قليل من ولادته[1] ، وعمر نادر أربع سنوات أو ست سنوات .

وكان لقبيلة « أفشار » هذه مع غيرها من قبائل الترك الأخرى يد طولى في إقامة ملك الصفويين . انضموا إلى عسكر مؤسسه الشاه إسماعيل الأول الصفوي المعروفين باسم « قزلباش » وحاربوا معه وساندوه في نشر المذهب الشيعي ، وكانوا من أشد أنصار هذا المذهب .

ولما بلغ نادر السابعة عشر من عمره أسره الأزابكة في إحدى غاراتهم على تلك النواحي ، وكانوا يغيرون عليها في كل سنة ، وأسروا معه أمه ، بعد أن أبلى في محاربتهم بلاءً حسناً وخاطر بنفسه مظهراً شجاعة خارقة . وتوفيت أمه في الأسر ، وبقي هو فيه أربع سنوات استطاع بعدها أن يفر .

قاسى في مطلع شبابه فقراً كان يضطره إلى الإستدانة ليحصل على قوته الضروري . وأحس ، وهو في هذه السن ، أن سلوك طريق أبيه في الحياة لا يتفق وعلو همته وطاقاته ، فسعى كثيراً إلى الإلتحاق بخدمة « بابا علي بك كوسه أحمد لو » ، أحد رؤساء قبيلة « أفشار » وحاكم « أبيورد » (خراسان) حتى تمكن من ذلك هو وأخ له اسمه إبراهيم في سنة ١١٢٢ هـ . فشارك المحاربين في قمع الفتن والمنازعات الكثيرة التي كان يثيرها التركمان والأكراد والأزابكة والتتر وقبيلته هو ، قبيلة « أفشار » نفسها . فعرف بالإقدام والشجاعة وتجلت مواهبه العسكرية الفائقة ، وتوالت انتصاراته على المغيرين وقطاع الطرق فأحبه « بابا علي بك » وأكرمه وقربه إليه حين أنه زوجه بابنته . وأخذ يوكل إليه مهمات الأمور من عسكرية وغير عسكرية فيقوم بها خير قيام . وبعث به أكثر من مرة إلى مشهد إلى والي خراسان ليؤدي إليه رسائل ويقوم بمهمات مختلفة . وبعث به مرة إلى العاصمة أصفهان إلى الشاه سلطان حسين الصفوي لمثل هذه الغاية .

وترقى في خدمة رئيسه حتى وصل إلى درجة حاجب في حاشيته . وأعجب به كثير من فتيان القبيلة فأحبوه وأخلصوا له الصداقة والنصرة ، ونظم منهم كتيبة مسلحة بقيادته أخذت تدفع المغيرين والغزاة ولا سيما التركمان والأزابكة وتنتصر عليهم في غالب الأحيان . وظل أربع سنوات متوالية لا يغتر عن الحرب والمقاومة حتى قطع دابر المعتدين فلم يجرؤوا بعدها على غزو الأفشاريين . وانتشر صيته في كل مكان وأصبح اسمه يبعث الرعب في قلوب المغيرين من التركستانيين والأزابكة .

وفي أعقاب هذه السنوات الأربع احتل بلدة « كلات » ، من بلاد خراسان ، واستولى على قلعتها ، وهي قلعة منيعة . وقصة ذلك هي أن حاكم تلك البلدة كان من حساد نادر يخشى تفوقه وتقدمه فأراد اعتقاله بحيلة ، فطلب منه أن يلتحق هو وفرسانه بخدمته ، ليتوصل بذلك إلى وضع يده عليه ثم اعتقاله . فلم يعتن نادر بطلبه وأهمله . فعاد ودعاه إلى وليمة . فأجاب نادر دعوته وهو يسيء الظن به . وذهب مع فرسانه إلى « كلات » ودخل إلى مكان الوليمة مع نفر قليل منهم ، وترك الباقي كميناً في خارج القلعة . ثم هجم على الحاكم فاعتقله ودخل الذين كانوا في الخارج وراءهم فهجموا على حامية القلعة واعتقلوا رجالها ، فتم لهم احتلال « كلات » . وبذلك أقام نادر لنفسه أساس إمارة صغيرة في هذه البلدة . ثم أخذ يجمع أنصاراً له من قبيلته وغيرها حتى اكتملت له عدة منهم اتخذوا من « كلات » مقاماً لهم ومن قلعتها مقر قيادته العسكرية .

ويروى ، في جملة ما يروى عن هذا العبقري ، أنه لما عرف بما نزل بالأمة الإيرانية من مصائب وويلات جاءه إلهام بأن عليه أن ينجي إيران مما نزل بها نجاة قاطعة ، وأن يجعل من قلعة « كلات » مقر قيادته العسكرية . ولذلك جمع حوله رجال القبائل المقيمة في تلك النواحي من الأفشاريين والأكراد وغيرهم ، وأقام في هذه القلعة ليتم مهمته التاريخية هذه . .

وتابع نادر غزواته حتى استولى على جميع البلدان والقرى الواقعة في السفوح الشمالية من جبال « هزار مسجد » .

عند حاكم مشهد

وفي سنة ١١٣٦ توفي « بابا علي بك » وترك أمواله إرثاً لنادر . ولكن نادراً لم يستطع أن يتخلف حماه في مقامه لما قام به حساده ومنافسوه من دسائس وما أوجدوه في القبيلة من خلافات ، وتعذر عليه البقاء في « أبيورد » . ووقعت خلافات بين الأفشاريين والأكراد ، ورحل كثير من رؤساء الأفشاريين إلى مشهد والتحقوا بالملك محمود السيستاني حاكم الولاية ليكيدوا عنده لنادر . وكان محمود هذا خارجاً على الشاه الصفوي مستقلاً بالحكم في خراسان ويرى نفسه أحق بالتاج من الصفويين لأنه كان يعتقد أنه من سلالة الصفاريين .

وأراد الملك محمود أن يتقوى بنادر وجيشه فاستدعاه إلى مشهد لينضم إليه . وكان نادر عارفاً بسعي رؤساء الأفشاريين به عند محمود . ولكنه قبل دعوته غير هياب ، وهيأ خيلاً وذخائر وذهب إلى مشهد وانضم إلى عسكره وقبل بأن يلازمه ، وهو ينوي إسقاطه . وأخذ يتقرب إليه ويتحين الفرص ويهيء الوسائل إلى ذلك .

---

(١) روى أحد المؤرخين أن نادر شاه لما وصل إلى مقام الملك بنى مسجداً في المكان الذي ولد فيه ، وبنى في جوانبه ثلاث مآذن غشاها بصفائح الذهب ، ورفع في أعلاه سيفاً من الذهب ، يرمز بذلك إلى أن السيف قد ولد في هذا المكان . ولما انتهى بناء المسجد وتزيينه قال المعمار الذي بناه لنادر شاه : هذا البناء يناسبه أن يكون تاريخ الكتابة التي تنقش عليه مطابقاً لتاريخ ولادة الشاه . فضحك نادر شاه وقال : لما ولدت لم يكن في « كلات » كلها و « أبيورد » كلها مثل هذا المقدار من الذهب الذي أنفق على هذه التزيينات ، فأي شيء كانت ثروة أسرتي ! وعليه يجب أن يكون التاريخ هو اليوم الذي اكتمل فيه بناء المسجد « كلات » و « أبيورد » بلدتان من إقليم « درجز » في خراسان . قضى فيهما نادر أيام نشأته وشبابه) .

وكان من رؤساء الأفشاريين الذين التحقوا بالملك محمود اثنان من أشد منافسي نادر وحساده هما « قليج خان » و « إمام قلي » . ولكن سعيهما بنادر عند الملك لم ينفعهما إذ كان الملك معجباً به يرى فيه قائداً عسكرياً شجاعاً عالي الهمة ، فلم يصغ إلى سعاياتهما . وكان نادر على علم كامل بنواياهما وسعاياتهما فترفق وتلطف في تصرفاته على نحو جنبه الوقوع في شرهما وأبعده عن أذاهما . ومع ذلك اضطر في نهاية الأمر إلى قتلهما بتدبير بلغ فيه غاية المهارة ، ثم فر عائداً إلى « أبيورد » و « كلات » .

وقصة ذلك هي أن نادراً تظاهر بأنه لا يعرف شيئاً عن نواياهما ، وخدعهما بأن صادقهما وأراهما من نفسه الإخلاص والمودة . ثم اقترح عليهما تدبير مؤامرة لإسقاط الملك محمود واستخلاص الحكم من يده لأنفسهم . فطاب لهما هذا الإقتراح واتفقوا على أن يغتالوا الملك ويوقعوا بعسكره في احتفال كان مقرراً أن يقام في ميدان سباق الخيل وأن يتسابق فيه نادر والملك محمود . وجعلوا علامة الهجوم أن يمسك نادر عنان حصان محمود . ولكن اتفق أن نادراً لم يستطع أن يمسك العنان حين أراد ذلك فحبطت خطتهم . وظل الملك محمود لا يدري شيئاً عن هذه المؤامرة ، وعاد بعد الإحتفال مع حاشيته وعسكره إلى مشهد .

حرب الملك محمود

ولكن نادراً أيقن بأن رفيقيه في المؤامرة لن يظلا ساكتين وأنهما سينتهي بهما الأمر إلى إفشائها لمحمود ومن ثم يتوصلان إلى إهلاك نادر لما يبطنان من حقد عليه وحسد له ، فسعى هو إلى اهلاكهما قبل أن يتمكنا منه . فدعا هما يوماً إلى الصيد في مكان قريب من مشهد . وهناك انفرد كل منهم عن الآخر في مطاردتهم للصيد . فما كان من نادر إلا أن تبعهما ، كلاً على حدة ، وقتلهما . ثم فر من هناك إلى « كلات » و « أبيورد » . وهناك أخذ يجمع الرجال والعتاد لمحاربة الملك محمود ، فأجابه جمع كبير أمّروه عليهم .

أما الملك محمود فبلغ به الغضب مبلغاً عظيماً حين علم بمقتل الزعيمين الأفشاريين وفرار نادر فبدأ محاربته وقتاله . ولكن نادراً انتصر عليه في أول معركة خاضها قرب بلدة « قوشان » ، فهزم حملته ، وكانت تعد ستة آلاف مقاتل وغنم ذخائرها وعتادها . وتوالت بعد ذلك هجمات الملك محمود عليه في أماكن متعددة فانتصر فيها نادر كلها ، وقضى أيضاً على عدة من حركات التمرد قامت في تلك النواحي ، حتى أصبح اسمه يلقي الرعب في قلوب أعدائه . وبقي عليه القضاء على الملك محمود وحكومته في مشهد .

ومما يدل على شهامة نادر حادثة وقعت في مجرى إحدى المعارك التي خاضها في قتال المتمردين ، إذ كان يحاصر قلعة تحصن فيها أحد المتمردين من زعماء الأفشاريين . وهي أن قافلة من تجار خوارزم كانت تجتاز تلك النواحي قاصدة إلى مشهد بحراسة رجال موكلين من قبل الملك محمود . فوقع خلاف بينهم وبين رجال القافلة فأغاروا عليها ونهبوها وقتلوا بعض رجالها . فبعث والي خوارزم إلى نادر التماساً يستنجد فيه على المعتدين لإعتقالهم واسترجاع أموال القافلة منهم . فتلقى نادر طلبه بالعطف والأريحية وتعهد له بقضاء حاجته . ثم قام بمطاردة المعتدين حتى اعتقلهم واسترجع أموال القافلة منهم وسلمها إلى أصحابها وبذل ما في وسعه لإرضائهم .

الإتصال بالشاه طهماسب

وحصل أول اتصال بين الشاه طهماسب الصفوي ونادر في سنة ١١٣٩ فقد بعث الشاه ، وكان في مازندران ، مندوباً من قبله للتحقق من أوضاع نادر وأحواله ، بعد أن انتشر صيته في الآفاق . فتلقاه نادر بالإكرام والإجلال ، وحسّن له أن يقوم الشاه بمهاجمة مشهد واحتلالها واعتقال الملك محمود ، وقال له إنه حاضر لمساعدته .

وقد أثرت شخصية نادر في مندوب الشاه تأثيراً عظيماً . وبناء على تقريره الذي رفعه إلى الشاه عيّن الشاه نادراً حاكماً على « أبيورد » . فلما أبلغ المندوب مرسوم الشاه إليه طلب من المندوب أن يحمل الشاه على التوجه بقواته إلى خراسان . فعاد المندوب فأبلغه أن الشاه قد تحركت ركابه متوجهاً إلى مشهد وأنه يرغب في ملاقاته ـ وكان نادر في طريقه إلى مشهد ـ فتوقف عن الزحف متهيئاً لاستقبال الشاه . فلما وصل التحق به .

وحين أصبح من رجال الشاه أبدى غاية الذكاء والحنكة والصبر والتيقظ في إحباط المؤامرات والدسائس والفتن التي كان يدبرها الحساد والمنافسون والإنتهازيون لإسقاطه والحيلولة بينه وبين تطلعاته العظيمة ، فنجح نجاحاً عجيباً في وقاية نفسه من تلك الشرور التي كان يعج بها ذلك البلاط الفاسد ، وإزاحة حساده ومنافسيه من طريق تقدمه وتفوقه ، حتى أصبح في مدة قصيرة صاحب المقام الأول بين قواد الجيش ومستشار الشاه الخاص .

وكان هذا الشاه كأبيه لعبة في أيدي الوزراء والحكام ، متقلباً ضعيف الرأي ، قد يرفع أحداً إلى أعلى المراتب ثم لا يلبث في نزوة من نزواته أن يرمي به جانباً كشيء مهمل . ولم يكن نادر بمنجى من هذا المصير لولا ما أبداه من دهاء في معاملة هذا الشاه . وآل به الأمر ، بعد أن أزاح من طريقه كل منافسيه ، إلى أن جمع زمام الأمور في يده وجعل الشاه بمعزل عن شؤون الأمر والنهي ، وعهد بالمناصب الحساسة إلى أنصاره وحصل لنفسه على منصب وزير التشريفات ولقب « طهماسب قلي » أي « غلام طهماسب » وهو لقب يعني أنه من أخص خواص الشاه .

انكسار محمود واحتلال مشهد

وبعد أن خاض معارك رهيبة تجلت فيها شجاعته وعبقريته الحربية على أكمل وجه تمكن من التغلب على الملك محمود ودخل مدينة مشهد مظفراً في ١٦ ربيع الثاني سنة ١١٣٩ .

ولما دخل نادر مدينة مشهد أمر بتغشية أيوان مقام الإمام علي الرضا (ع) بصفائح الذهب وبناء منارة أخرى تقابل المنارة القديمة وتغشيتها بالذهب ، وذلك وفاء بيمين كان قد حلفها .

والتجأ محمود إلى إحدى حجر الإمام الرضا (ع) . وأبقى عليه نادر لم يقتله .

تغير طهماسب

ولكن طهماسب ، في تقلبه وميوعته ونزواته ، لم يلبث أن انقلب على نادر وأخذ يصغي إلى وشايات حساده وينصاع إلى تحريضهم إياه على نادر . وكان مبدأ ذلك أن نادراً بعث رسولاً من قبله إلى بلدة « قوشان » ليعقد قرانه على بنت أحد رؤساء الأكراد ، وكان قد خطبها باقتراح من الأكراد ، قبيل احتلال مشهد ، لتكون هذه المصاهرة وسيلة إلى التصالح ورفع الاختلافات وثارات كانت بينه وبينهم . ولكن طهماسب كان يريدها لنفسه من قبل ذلك ، فمنع أهلها من تزويجها بنادر . فلما وصل رسول نادر إلى « قوشان »

طرده أكراد البلدة فعاد إلى مشهد خائباً . فغضب نادر غضباً شديداً إذ فوجىء بسلوك الأكراد على هذا النهج العدائي . فهيأ جيشاً وتوجه إلى « قوشان » بمعية الشاه طهماسب لتأديب الأكراد . فلما قارب البلدة خرج إليه أخو البنت وأراه الأمر الذي أصدره الشاه إليهم بشأنها . فلما دخل الليل انفصل طهماسب عن المعسكر وذهب إلى « قوشان » . فلما علم نادر بذهاب الشاه تقدم وحاصر البلدة . فخرج إليه جماعة من مسلحي الأكراد كانوا من أنصار الشاه فكسرهم واضطرهم أن يعودوا إلى البلدة . ثم فك الحصار عنها احتراماً للشاه وعاد إلى مشهد .

فلما أقام الشاه في « قوشان » وأقام نادر في مشهد خلا الجو للبلاطيين من حاشية الشاه ورؤساء العشائر للكيد لنادر . فحرضوا الشاه على أن يأمر الحكام في مختلف الأقاليم بأن ينجدوه على نادر لأنه يريد الفتنة . فانصاع لهم وكتب إلى الحكام والرؤساء أمراً بالثورة عليه . وكان الملك محمود أحد الذين كتب إليهم الشاه بهذا المعنى . وكان محمود في معية نادر فأطلعه على أمر الشاه هذا . وكذلك حرضوا الشاه على أن يعقد قرانه على بنت ذلك الزعيم الكردي التي كانت مخطوبة لنادر .

أما نادر فقد أغضبه عمل الشاه ونفاقه وتقلبه ، فتوجه بأقصى ما يستطيع من السرعة بجيشه إلى « قوشان » فحاصرها وأوقع بالأكراد المناصرين للشاه وأتباعه هزيمة منكرة ، فلم يجد طهماسب حينئذ بداً من مصالحة نادر . ووعد بأن يعود إلى مشهد بعد عودة نادر إليها . وفي عيد النوروز من سنة ١١٣٩ هـ وصل طهماسب إلى مشهد فاستقبله نادر استقبالاً لائقاً بالملوك وأمر بإقامة حفلات الأنس والسرور مدة أسبوع احتفاء بقدومه .

ثورات وفتن

ولكن الفتن والثورات لم تلبث أن قامت في مختلف أنحاء الشمال . فثار عليه الأكراد مرة ثانية وثار التتر والتركمان وغيرهم ، فبعث إليهم نادر بجيش بقيادة أخيه إبراهيم خان . ثم اضطر هو نفسه إلى التوجه إلى « أبيورد » لنجدة أخيه ، وقد حاصره الثوار في مضيق هناك ، فنجح في فك الحصار عنه وفر الثوار فتبعهم إلى مسافة طويلة . ثم لم يجد بداً من العودة إلى مشهد ليحول دون قيام ثورة هناك .

ثم ثار التتر في « مرو » بتحريض من الملك محمود ، وثار الأكراد في « قوشان » وغيرها . ويرى بعضهم أن ثورة الأكراد هذه كانت بتحريض من الشاه طهماسب نفسه . فبعث نادر بأخيه إبراهيم إلى فريق منهم وتوجه هو في صحبة طهماسب إلى فريق آخر . ولكن طهماسب انفصل عنه في أثناء الطريق وقصد إلى « نيسابور » للإستجمام . وقد تمكن نادر من قمع تلك الفتن كلها بسرعة فائقة ، ثم عاد من فوره إلى مشهد .

ومع أن تمرد الأكراد بدأ بامتناعهم عن تزويج بنت الزعيم الكردي لنادر وتبع ذلك ما تبعه من حرب وسفك دماء فإن الأكراد ، بعد انتهاء هذه الحرب ، حملوا الفتاة إلى مشهد في موكب فخم وزفوها إلى نادر ! وبهذه المصاهرة وضع الأكراد يدهم في يد نادر وأصبحوا حلفاءه .

ولما كان التتر قد ثاروا بتحريض من الملك محمود السيستاني فقد قتله نادر وقتل معه أخويه الملك « اسحق » والملك « محمد علي » وقامت ثورات في أماكن أخرى استطاع أن يخمدها بمثل تلك السرعة والدراية بفنون الحرب .

محاربة الأفغان

بعد ذلك توجه نادر إلى محاربة الأفاغنة . وكانوا يحتلون العاصمة أصفهان كما مر . وكان محمود الأفغاني رئيس طائفة « الغلجائيين » الذي تنازل له الشاه حسين الصفوي عن العرش وتوجه بيده بتاجه قد تمادى في الطغيان حتى اختلت قواه العقلية واضطر الأفاغنة أنفسهم إلى تنحيته عن العرش وتنصيب ابن عمه « أشرف علجائي » ، وكان مسجوناً في سجن محمود هذا ، في مكانه . وفي سنة ١١٣٧ قتله أشرف واستقل بالعرش .

وفي الثاني من صفر سنة ١١٤٠ هـ بدأ نادر حرب الأفاغنة . وافتتح حملته هذه بالهجوم على بعض الثائرين المتمردين في خراسان فهزمهم واحتل مدنهم وقلاعهم . وقتل الناكثين منهم الذين استأمنوه فأمنهم ثم غدروا به ، واستولى على أموالهم . وفي إحدى هذه الوقائع ، في محاصرته بلدة « سنجان » كاد نادر يقتل إذ انفجر مدفع على بعد بضعة أقدام منه ، فقتل المدفعي وبضعة جنود ، وسلم نادر .

وبعد أن احتل « سنجان » جاءه خبر أن جيشاً أفغانياً من « الأبداليين » عدته بين سبعة آلاف وثمانية آلاف جندي قد خرج من « هرات » ووصل إلى « باخرز » و « نياز آباد » في طريقه إلى إنجاد أهالي « سنجان » . فتهيأ لقتالهم .

وكان عسكره متعباً فرأى أنه لا يستطيع ، وهو على هذه الحال ، أن يحارب كما يجب أن تكون الحرب . وفوق هذا كان اسم الأفغان يبعث الرعب في نفوس جنوده بسبب انتصاراتهم المتوالية على الإيرانيين . فلم يُخرج عسكره إلى القتال بل أمرهم بالتزام خندق « سنجان » لا يغادرونه . واختار من بينهم خمسمائة فارس من المجربين ، وحمل بهم على الأفاغنة حملة ماهرة . وبعد أربعة أيام بلياليها من الكر والفر ، لم يأذن فيها لأحد من جنده بالحرب غير هؤلاء الفرسان الخمسمائة ، رد المغيرين على أعقابهم ففروا عائدين إلى « هرات » . وعاد هو إلى مشهد لم يتبعهم إلى « هرات » إذ رأى أن ظروفه لا تمكنه من ذلك .

بعد هذه الواقعة أخذت العلاقات بين طهماسب ونادر تسير من سيء إلى أسوأ ، ووزراء الشاه يسعون بكل وسيلة ممكنة إلى توسيع شقة الخلاف بينهما .

وخالفه طهماسب في التخطيط لحرب الأفغان ، ثم اتفقا على خطة لها . ولكن حاشية طهماسب أقنعته بقطع صلته بنادر والإنصراف عما بينهما من تعاون ففعل . وطلب من نادر أن يتولى هو وحده قيادة الحملة على « هرات » ، فقبل اقتراحه ولكنه تريث في السير لعلمه أن خصومه من الوزراء وأصحاب النفوذ يدبرون مؤامرة لإيقاع الخلاف في جيشه . أما طهماسب فغادر مشهد إلى « سبزوار » .

ثم وصل خبر إلى نادر بأن « الأبداليين » الأفاغنة قاموا بهجوم آخر ووصلوا إلى مكان يقع على الطريق بين طهران ومشهد ، فلم يجد بداً من السير إليهم على الفور . ولكنه عرف ، وهو في طريقه إليهم ، أن طهماسب يهاجم أتراك محلة « بو جاري » وهم من أنصار نادر . فبعث إليه نادر التماساً يرجوه فيه الإنصراف عن محاربة أتباعه هؤلاء ، وأن يتعاونا معاً على حرب الأفاغنة . فأجابه طهماسب بأن أمره بالحضور إليه لوضع الترتيبات اللازمة لهذا التعاون . إلا أن طهماسب ، مع ذلك ، ظل يتابع هجومه على أنصار

نادر واحتل إحدى قلاعهم . فعرف نادر أن في الأمر مؤامرة عليه . ويقول محمد حسين قدوسي في كتابه « سيرة نادر » إن هذه الساعة كانت أشد أيام نادر حساسية . ومن ثم انصرف عن متابعة السير إلى حرب الأفاغنة ، وتوجه إلى « سبزوار » حيث يقيم طهماسب ، بناء على طلبه . وقبل أن يصل إليها بلغه أن طهماسب عمم على نواحي خراسان أمراً بالإمتناع عن إطاعة أوامر نادر وأتباعه . فلما وصل إلى « سبزوار » وجد أبوابها قد أغلقت في وجهه . فلم يجد بداً من ضربها بالمدافع ثم احتلالها بالقوة . أما طهماسب فلم يجد لنفسه مخرجاً غير مصالحة نادر . ثم حلف له يميناً أن لا يعود إلى مخاصمته أبداً . وبعد يومين أرسله نادر إلى مشهد ووكل أحد أتباعه بملازمته بأشد المراقبة . ثم عاد هو إلى مشهد منفصلاً عنه .

ولكن لم يكد يستقر به المقام في مشهد حتى ثار التركمان وبعض الأكراد في نواحي مختلفة . فبعث إليهم بجيش بقيادة أخيه إبراهيم خان ورجل آخر . ثم اضطر هو نفسه إلى أن ينجدهما ، فسار إلى الثائرين وأوقع بهم وشردهم . وقد صبر في هذه الحملة على شدائد مضنية من وعورة الطرق وشدة البرد والثلج والجليد . وعلم أن أخاه ورفيقه قد قصرا في الحرب فسجنهما مدة ، ثم أطلق سراحهما .

احتلال هرات

ثم بعث سفيراً باسم الشاه « طهماسب » إلى بلاط روسيا يطلب جلاء الروس عن « جيلان » . وانصرف إلى تهيئة قواته لاستئناف حرب الأفاغنة . واتخذ في هذا السبيل تخطيطاً يدل على ذكاء وتفكير عسكري فائقين . وكان يرى منذ حملته الأولى التي هزم فيها الأفاغنة الأبداليين عند « سنجان » ، أن يبدأ بمهاجمة « هرات » وإخضاع الأبداليين قبل مهاجمة أصفهان العاصمة وإنقاذها من الأفاغنة الغلجائيين الذين يحتلونها . وكان طهماسب يرى عكس هذا . فخالفه نادر إذ كان يرى أن ابتعاده هو وطهماسب من مشهد يتيح الفرصة للأبداليين لمهاجمتها واحتلالها . فالصواب البدء بالأبداليين في « هرات » قبل الغلجائيين في أصفهان .

وفي الرابع من شوال سنة ١١٤١ هـ تحرك جيش نادر ، وعدة رجاله ٢٥ ألفاً ما بين فارس وراجل ، إلى « هرات » ، وتحرك من « هرات » إلى ملاقاته جيش الأبداليين ، وعدة رجاله ١٥ ألفاً ما بين فارس وراجل . والتقى الجمعان عند مدينة « كافر قلعة » - وهي اليوم اسمها « إسلام قلعة » تابعة لأفغانستان - حيث سبق أن التقى قبل عشر سنوات جيشا الصفويين والأبداليين ودارت بينهما معركة انهزم فيها الصفويون شر هزيمة .

وبعد معارك طاحنة دارت بين جيش نادر وجيش الأبداليين انهزم الأبداليون وطلبوا الصلح . وبعثوا من قبلهم ثلاثة من رؤسائهم يحملون رسالة من قائد جيشهم إلى نادر جاء فيها :

« لقد كانت طائفتا الغلجائيين والأبداليين ، وما زالتا ، من رعايا الدولة الإيرانية الشاهنشاهية . وقد شرع الغلجائيون الشريرون الخيانة بأن تسلطوا أولاً على « قندهار » ثم أصفهان . ولكن طائفة الأبداليين كانت دائماً تحارب الغلجائيين وتخاصمهم ، إخلاصاً منها للدولة الشاهنشاهية . لهذا نلتمس من قائد إيران القادر أن يعفو عما سلف من ذنوبنا وينزل عقوبته بزعماء الغلجائيين جزاء سلوكهم الفظ بما ارتكبوه من خيانة ونكران للجميل . وطائفة الأبداليين تضع في عنقها ربقة طاعة العبودية لهذا القائد الشجاع .

وهي حاضرة لتكون فداء في سبيل تقدم القوات الإيرانية المظفرة » .

فقبل نادر التماسهم وعفا عنهم بشرط أن يسلموه مدفعيتهم . وفي اليوم الثاني وفد إلى معسكره ثلاثون رجلاً من رؤساء الأبداليين يحملون إليه شيئاً كثيراً من التحف والهدايا . فأكرمهم وخلع عليهم ، وجعل قائد جيش الأبداليين « اللهيار خان » حاكماً على « هرات » . وأقام فيها شهرين ثم عاد إلى مشهد .

ومع أن هذه الحملة لم تكن حاسمة في الناحية العسكرية إلا أنها كانت بعيدة الأثر في الناحية المعنوية ، إذ أنها أعادت إلى الإيرانيين ثقتهم بأنفسهم وأبعدت عن أذهانهم أسطورة أن الأفاغنة لا يهزمون .

تحرير أصفهان

بعد هذه المعركة الرائعة استطاع نادر وعسكره أن يفكروا بعمل أعظم منها ، وهو طرد الأفاغنة الغلجائيين من أرض إيران وإجلاس طهماسب على عرش المملكة في أصفهان .

وكان « أشرف » الغلجائي المتسلط في أصفهان على وضع سيء . فقد تورط في محاربة العثمانيين بسبب سوء تصرفه . وأرسل إليه « أحمد باشا » والي بغداد العثماني في سنة ١١٣٩ رسالة يهدده فيها ويخبره بأنه قادم إلى حربه ليخلص الشعب الإيراني المتمدن من حكم الأفاغنة المتوحشين ، وإعادة الشاه حسين إلى عرش إيران . وفي هذه الحرب اضطر « أشرف » إلى التخلي عن قسم من أرض إيران للعثمانيين . وتورط « أشرف » أيضاً في محاربة الروس . وفي صيف سنة ١١٤٢ هـ شاع في أصفهان أن « حسين سلطان » ابن عم « أشرف » - وكانت بينهما ثارات - يجمع العسكر في « قندهار » لمحاربة « أشرف » . وفي هذا الوقت تواترت الأخبار على أصفهان أن نادراً وطهماسب ، بعد أن أوقعا بالأبداليين تلك الهزيمة الكاسحة ، قد توجها إلى أصفهان لمهاجمته . فاضطرب « أشرف » اضطراباً شديداً ، وحشد كل ما عنده من قوة وأسرع بها إلى حرب نادر .

وكان نادر ، بعد عودته من « هرات » إلى مشهد قد عبأ جيشه لمحاربة الأفاغنة . ولكنه قبل مسيره عقد اتفاقاً بينه وبين طهماسب تعهد فيه طهماسب بأن يعهد إليه ، بعد تحرير أصفهان وطرد الأفاغنة من إيران ، بالولاية على إيالات خراسان ومازندران وجرجان ، مكافأة له على خدماته العظيمة .

وفي ١٨ صفر سنة ١١٤٢ هـ غادر نادر وطهماسب مشهد بجيشهما ، وعدته ثلاثون ألفاً بين فارس وراجل ، قاصدين مدينة « سمنان » من ولاية « دامغان » في غرب خراسان ، وكان « أشرف » يحاصرها . فترك عندها قسماً من جيشه يديم الحصار وسار هو بالقسم الآخر إلى « خاور » و « دامغان » لملاقاة جيش نادر وطهماسب .

والتقى الجمعان عند بلدة « بسطام » ودارت هناك أول معركة بينهما . وقاتل فيها من جيش أشرف مقدمته من الفرسان . فتغلب عليهم نادر وردهم على أعقابهم ، فعادوا إلى « سمنان » ، إلى جيش « أشرف » .

وتابع نادر تقدمه حتى وصل إلى قرب نهر يعرف باسم « مهماندوست » في صباح يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة ١١٤٢ . وهناك دارت معركة بين الفريقين اتبع فيها نادر تكتيكاً عسكرياً بارعاً ضعضع به صفوف الأفاغنة ، وقتل فيها حامل لواء « أشرف » ، فاضطر الأفاغنة إلى

الفـرار وتركـوا ذخائـرهم وأسلحتهم غنيمة لنـادر . وقـدر الكـاتب الفـرنسي « أوتر » عدد الجيش الأفغاني في هذه المعركة بخمسين ألفاً وقدر « هانوي »(١) عدد الجيش الإيراني بخمسة وعشرين ألفاً ، وقـدر « كوكـل » وكيل « شركـة الهند الشرقية » الإنكليزية في إيران على عهد نادر ، عدد القتلى باثني عشر ألفاً من الأفاغنة وأربعـة آلاف من الإيرانيـين . وأراد الإيرانيـون تعقب المنهزمـين فمنعهم نادر إذ لم تكن لهم فائدة في تعقبهم .

وبعد بضعة أيام بعث طهماسب ونادر برسول إلى القسطنطينية ليـطلب من العثمانيين الجلاء عن الولايات الإيرانية التي احتلوها . ولكن الرسول توفي في تبريز قبل وصوله .

ثم تابعا طريقهما إلى « سمنان » . وفي مسيرهما هذا ذكّر نادر طهـماسب بما سلف بينهما من وقائع مُرّة كدرت صفو العلاقة بينهما .

وتـراجـع « أشرف » عن « سمنـــان » إلى « ورامـين » . وفي نـــواحي « سمنان » دارت معركة بين نادر وجيش أفغاني كان قادماً من طهران لنجـدة « أشرف » نجّى فيها نادر جيشه من كمين مخيف . وكـان عملاً رائعـاً دل على شـدة تيقظه وتبصره في الأمـور وبراعـة تكتيكه العسكـري . وانتهت المعركـة بفوز الإيرانيين وفرار الأفاغنة ، وذلك في ٢١ ربيع الأول سنة ١١٤٢ هـ .

وتتبع نادر الأفاغنة إلى « ورامـين » حيث يقيم « أشرف » فلم يجد هـذا بدأ من الفرار بقواته إلى أصفهان .

وقبـل أن يتابـع نادر سـيره إلى أصفهان كف يـد طهماسب عن العمـل وبعث به إلى طهران ، وكان الأفاغنة قد جلوا عنها .

أمـا « أشرف » فإنـه ، بعد أن وصـل إلى أصفهان منهـزماً ، قـام فيهـا بـأعمال بلغت غـايـة الـوحشيـة . فقـد قتـل حـوالي ثـلاثـة آلاف من العلماء والأعيان ، وأمر رجـاله بـالإغارة عليهـا بالسلب والنهب وإحـراق الأسواق ، واعتقل موظفي الشركات الإنكليزية والهولندية المقيمـين فيها وسجنهم خشيـة أن يساعدوا نـادراً ، وظلوا مسجونـين سبعة عشر يـوماً إذ سهـل لهم الحراس سبيل الفرار .

وكـان أحمد بـاشـا والي بغـداد العثماني قـد أرسـل إلى « أشرف » الغلجـائي ، بناء عـلى طلب منه ، مـدداً من الـرجـال والمدافـع . ثم غـادر « أشرف » أصفهان مع قواته وعسكر في ناحية « مورشـه خورت » في الغـرب الشمالي من أصفهان .

وأما نادر فتابع سيره إلى أصفهان حتى وصل إلى معسكر الأفاغنة فهاجمه ونشبت معـركة رهيبـة بلغت إلى القتال بـالسلاح الأبيض وقـام فيها الأفـاغنة بحملات شديدة . ولكن الدائرة دارت عليهم في النهاية ، ففر « أشرف » بمن بقي من جنوده عائداً إلى أصفهان ، وتـرك أسلحته وكثيـراً من الأسرى في يد نادر ، وكان بين الأسرى جماعة من العثمانيين فعاملهم نـادر بالحسنى ثم أطلق سراحهم .

ولما وصل « أشرف » إلى أصفهان سارع إلى تهيئة وسائل الفرار وصـادر كـل ما في المدينة من الـدواب ليحمل عليهـا النساء والأطفـال وذخـائـره من الجواهر والأموال . وقبل فراره قتل الشاه حسين الصفـوي ، وكان سجينـاً في قصره .

ودخـل نادر أصفهـان ظافـراً في الثاني والعشرين من ربيـع الثـاني سنـة ١١٤٢ هـ . وشرع أول شيء بتـطهير المدينة من آثـار الأفاغنـة . وأمر بهـدم البناء الذي أقيم على قبر محمود الغلجائي الأفغاني وجعل مكانه مزبلة .

ثم أبلغ نبأ انتصاره إلى « طهماسب » ودعاه إلى أصفهان ، فعاد إليها في الثامن من جمادى الأولى سنة ١١٤٢ هـ ، بعد غيبة طالت مـدة ثماني سنـوات تقريباً ، واستعاد لنفسه منصب أبيه وأجداده . ولكنه وجد قصر أبيه خربـاً . ولم يجـد أحداً من نسـاء القصر سوى امـرأة واحدة تلقتـه واحتضنته فـرحـانـة مستبشرة ، وإذا بـه يتبين أن هـذه العجـوز هي أمـه ، وكـانت قـد نجت من الأفاغنة بـأن جعلت من نفسها خـادمة فلم يفـطنوا إليهـا . وبهذا سلمت من الموت . وكانت أصفهان كلها قد أصبحت خراباً وغاب عنهـا أكثر سكـانها ما بـين قتيل وهـارب . ولـما بلغ خـبر انكسـار أشرف إلى الأفـاغنـة المقيمـين في « كرمان » عمـدوا إلى تخريبهـا ثم فروا منهـا . إلا أنه كـان لهذه الإنتصـارات المتوالية أثر معنوي بالغ في نفوس الإيرانيـين ، إذ ارتفعت معنويـاتهم وعادت إليهم ثقتهم بأنفسهم .

تحرير شيراز

وبعد أن استراح نادر وجنده وهيأ ما يلزم لمتـابعة الهجـوم سار في أقسى أيـام الـبرد إلى شـيراز لتعقب « أشرف » في الثـالث من جمادى الثـانيـة سنـة ١١٤٢ هـ . فتلقـاه « أشرف » بعشرين ألف مقـاتـل من خـيرة المقـاتلين . ودارت بـين الفريقـين معركـة هائلة ، استبسـل فيها « أشرف » وأظهـر خـبرة عسكرية فائقة ، ولكن الدائرة دارت عليه فعجز عن متابعة المقاومة . وبلغت خسائره من الرجال أكـثر من خمسة آلاف بـين قتيل وجـريح وأسير . عندئـذ بعث إلى معسكـر نادر بثـلاثـة سفـراء من كبـار رجـالـه يلتمسـون منـه وقف الحرب ، فأجـابهم نادر إلى طلبهم بشرط أن يـطلق « أشرف » سراح من بقي حياً من أسرة الشاه حسين ومعهم سائر الأسرى والمعتقلين الإيرانيين . فأجابه « أشرف » إلى طلبـه وأرسل إليـه جميع هؤلاء ولكنـه رفض تسليم نفسـه إلى نادر . وحرضه قواده على أن يفر بمن بقي من رجـاله إلى « قنـدهار » ففعـل . وعلم نادر بذلك فانطلق إلى تعقبه فأدركه عند جسر « فسا » قريباً من شيراز ، فأمر مقدمته من الفرسان وعددهم خمسمائة فارس بـالهجوم عـلى مؤخرة جيش « أشرف » وعدتهم خمسة آلاف ونيف ، ووقعت بينهما معركـة أسر الإيرانيـون فيها جماعة منهم وغرق آخـرون في النهر وقتـل « بير محمـد خان » شيخ محمود الغلجـائي وأشرف ومرشـدهما ، وسملوا عيـون جمـاعـة من قـوادهم . فعـاد « أشرف » يـطلب مصـالحـة نـادر . فقبـل بشرط أن يسلم « أشرف » نفسـه إليه ، فرفض « أشرف » وفر متوجهاً إلى « لار » في جنوب إيران .

مقتل أشرف ونهاية الأفاغنة

وظل نادر في شيراز ، ومنها عمم على جميع النواحي أن تغلق كل المـدن الإيرانية أبوابها في وجه الأفاغنة . وأراد الأفاغنة أن يستعينوا بالعرب المقيمـين في موانىء الخليج على الهرب بـالبحر إلى بلدان الخليـج العربيـة ، ولكن نادراً أمر موظفي « شركة الهند الشرقية » بالإمتناع عن حمل الهـاربين عـلى سفنهم ، وأنذر الشيوخ الذين في المرافىء بأن يوقعهم هم وعائلاتهم في الأسر والعبـودية إذا ساعدوا الأفاغنة عـلى الهرب . وأراد أخ لأشرف ، وكـان يحمل كثيـراً من

(١) تاجر انكليزي سكن إيران في عهـد نادر شـاه من سنة ١١٥٦ هـ إلى سنـة ١١٦١ هـ وألف كتاباً نفيساً في تاريخ نادر .

الجواهر ، ورفاق له من الأفـاغنة أن يستعينـوا بهؤلاء الشيوخ عـلى الهرب إلى بعض البلدان العربية الـواقعة عـلى الخليج فـامتنعوا . ولكن أحـد الشيوخ ، ويدعى أحمد المدني ، قبل أن يعطيهم سفينة تحملهم إلى هناك فانطلقوا بها إلى « رأس الخيمـة » . إلا أن عرب عُـمان قتلوا أكثرهم واستعبـدوا من بقي منهم حياً .

وانطلق « أشرف » من « لار » شرقاً مع ألفين من رجاله وعـدة نساء . ولكن رجاله أخذوا يتناقصون بالموت من الجوع والتعب حتى لم يبق منهم معـه غير ثلاثـة . ثم قتل في صحـراء « بلوشستان » الشرقيـة . قتله أحـد رؤسـاء « البلوش » . ويقول « مالكم » إن القاتل قطع رأسه وبعث به إلى نادر ومعـه ماسة كبيرة كان يضعهـا على عضـده . وفي رواية أخرى عن « الميرزا مهـدي خـان » كاتب نـادر وعن « مارتـين فـرنـج » وكيـل « شركـة الهنـد الشرقيـة » و « محمـد خـان » رئيس تشريفـات « أشرف » ـ وقـد رافقـه حتى قتـل ـ أن « أشرف » وهو في حال فراره إلى « قندهـار » تلقته في بعض نـواحيها قـوة من عسكر ابن عمه عدوه « حسين سلطان » فقتلوه وجماعة من أصحابه .

وبهذا استطاع نـادر أن يحقق أعظم انتصـاراته وينتهي إلى هـذا النجاح البـاهر بـالقضاء عـلى الجيش الأفغاني وتحـرير إيـران من طغيان هـذا الغـازي الفظيع . وقد استمر احتلال الأفاغنة لإيران سبـع سنوات ذهب ضحيـة فيها مليونان من الإيرانيين بين قتيل وأسير وخربت أجمل مدنها وأحلى عماراتها .

معاودة غزو هرات

وانصرف نـادر بعـد ذلـك إلى معـالجـة أمـور العثـمانيـين فســافـر إلى « أذربيجان » لهذه الغاية . وفيما هو يحـاول هناك حـل تلك المشاكـل بالحسنى وصله تقرير من مشهد من ابنه « رضا قلي ميرزا » أن الأبداليـين في « هرات » عادوا فنقضوا عهدهم الذي عاهدوه عليه ، وأنهم عازمون على غـزو مشهد . هذا وقد أقدم الأبداليون بالفعل في الثالث من شوال سنة ١١٤٣ هـ على طرد حـاكم « هرات » الـذي سبق أن عينه نـادر لهـا . وسـاقـوا حملة عـلى مشهـد وعسكـروا قريبـاً منها . فتـوجه فـوراً من أذربيجان إلى خـراسان . وقبـل أن يبلغها كان الأفاغنة قد كسروا الجيش الإيراني المدافع ، وكـان يقوده إبـراهيم أخو نادر ، وذلك لخطأ في التكتيك ارتكبه إبراهيم .

إلا أن نادراً تلقى تقريراً آخر من ابنه أن الأبداليين انصرفوا عن مشهـد عائدين إلى « هرات » لشغب الغلجائيـين عليهم ، فانصرف نـادر ، موقتـاً ، عن المضي إلى مشهـد وتوجـه إلى قمـع حـركـات بعض المتمـردين في نـواحي أخرى .

ثم أعد عدته لمواجهة الأبداليين في « هرات » نفسهـا ، فتوجـه إليها . فلما علم الغلجائيون بمسيره هبوا إلى مساعدة الأبـداليين ، تـاركين خـلافاتهم جانباً لمقاومة العدو المشترك .

وبعـد معارك رهيبـة دارت في نواحي « هـرات » تغلب عليهم واحتـل المدينة في غـرة رمضان سنـة ١١٤٥ هـ ، بعد أن حـاصرها عشرة أشهـر وكاد يقتل في محاصرته لها .

ثم انصرف إلى غزو الأفغانيـين في نواحي أخـرى فهزمهم واحتـل بلدة « فراه » . وفيما هـو مشغول بهـذه الحروب جـاءته الأخبـار بأن العثمانيين قـد تغلبوا على الشاه « طهماسب » في « كوريجان » بالقرب من « همذان » وأنه وقع على معاهدة صلح بينه وبينهم .

وبعد احتلال « هرات » نقل ستين ألفاً من الأبداليين إلى نواحي مشهد و « نيسابور » و « دامغان » ، ونقل أيضـاً إلى تلك النواحي ستـين ألف عائلة من قبيلة « أفشار » قبيلته . وقبل ذلك . يوم كان في « أذربيجـان » ، نقل مـا بين خمسين ألفاً وستين ألفاً من أسرها إلى خراسان . منهم إثنا عشر ألف أسرة من قبيلة « أفشار » . واختار ستة آلاف شاب من الأذربيجـانيين فجنـدهم في جيشه .

احتلال قندهار

كـان نادر ، منـذ أن أجلى الغلجـائيين عن وسط إيـران وجنوبهـا ينوي تطهير إيالة « قندهار » من الأفـاغنة ويتحـين الفرصـة لذلـك . وحانت هـذه الفـرصة بـانشغال العثمانيين والـروس عنه بحـرب وقعت بينهما ، وتمكنـه من القضاء على حركات التمرد . فجهز جيشاً من ثمانين ألف مقاتـل ، وسار بـه من أصفهان العاصمـة قاصـداً « قندهـار » ، في السابـع عشر من شهر رجب سنـة ١١٤٩ هـ ، وصحب معه جماعـة كبـيرة من أمراء البختيـاريين والكـرج رهائن ، ولكن بعنوان متطوعين في الظاهر .

واحتل في مسيره هذا قبل وصوله إلى مـدينة « قنـدهار » ، بعض المـدن والقلاع وأوقع بحامياتها . فلما وصل إلى « قندهار » أقام معسكره قريباً منها . وبنى هنـاك مدينـة كبيرة أحـاطها بـأسوار عـظيمة وأقـام فيها سـوقاً ومسجـداً وحماماً ، وسماها « نادر آباد » .

وبدأ هجومـه على « قنـدهار » في التـاسع من شـوال سنة ١١٥١ هـ . وقام بالهجوم الحاسم صباح يوم الجمعـة الثاني من ذي الحجـة سنة ١١٥١ . واختار من رجاله نخبة من الشجعان ليكونوا مقدمة الهجوم عـلى أول برج من أبراج المدينـة واحتلالـه . وقال لهم : من دخـل منكم البرج فـاتحاً فله جـائزة ألف « نادري » (نقد) وإن تراجعتم فسأجعلكم طعمة للكلاب . وكـان من أشد المتطوعين للهجوم « ملا » (رجل دين) اسمـه « الملا آدينـه مستوفي » . فاحتار نادر في أمره وقال له : أنت رجل دين فما أنت والحـرب ، وهي ليست من شـأنك ولا عـادتك ؟! فقـال الملا : جعلت فـداك . ستـرى إن شـاء الله بعينك ! .

وبدأ الهجوم بمعركة رهيبة انتهت بتضعضع المـدافعين الأفغـان فلم يجد قائدهم « سلطان حسين » ـ وهو زعيم الغلجائيين وابن عم « أشرف » الـذي مـر ذكره ـ بـداً من التسليم . فبعث بكبرى أخـواته وأسمهـا « زينب » ومعها جمـاعة من رؤسـاء الغلجائيـين إلى نادر يـطلبون منـه الأمان لـه . فأكـرم نادر وفادتهم وأحسن استقبالهم ، وأمن « سلطان حسين » وأفراد عائلته .

ثم أعطى جنده الجوائز الذهبية التي وعدهم بها ، وخص « الملا آدينه » بأكبر جائزة منها إذ كان من أشد المهاجمين شجاعة . وأمر بهـدم المدينـة وأجلى أهلها إلى « نادر آباد » وجعلها مـركز الإيـالة . وأقـام فيها مـدة شهرين بعـد الفتح . وبذلك محا لطخة عار الهزيمة التي أوقعها محمود الغلجائي وجنـده قبل ستة عشر عاماً بالإيرانيين . واستطاع أن يسترد ما اغتصبوه من أرض إيران ، مع تنزيه نفسه عن مثل ما ارتكبـه الأفاغنـة يومئـذ من إيذاء الأبـرياء وسفـك دمائهم ونهب أموالهم .

وبعد أن تم له فتح « قندهار » هاجرت طوائف الأبداليين القـاطنين في

« نيسابور » وأماكن أخرى من خراسان إلى « قندهار » وهاجر الغلجائيون القاطنون في « قندهار » إلى خراسان ، ودخل بضعة آلاف منهم في حرس نادر .

غزو الهند

في ربيع سنة ١١٥١ هـ بدأ نادر بغزو الهند ، وكان يحكمها المغول التيموريون . غزاها لتأديب أمبراطورها « محمد شاه » إذ كان يجير المتمردين الفارين من وجه نادر ويؤويهم ويساعدهم ويحرضهم على الثورة ، غير مصغ إلى إنذارات متكررة وجهها إليه نادر بأن يمتنع عن ذلك ، حتى أنه استبقى عنده سفيراً كان قد بعث به إليه نادر في تلك السنة لهذه الغاية ، فلم يأذن له بالعودة إلى إيران . وسبق أيضاً أن قتل أحد أعوانه من الأفاغنة سفيراً لنادر كان قد أرسله إليه ، وفي عودته من الهند اعتقله ذلك الأفغاني وقتله . وكانت لنادر أيضاً غاية أخرى من غزو الهند ، غاية أبعد من هذا ، وهي أن يغنم من ثروات الهند الضخمة ما يجبر به خسائر إيران في تلك الحروب المتطاولة الدائمة .

كان الجيش الذي أعده لغزو الهند يتألف من ثلاثة آلاف ومائة ألف جندي ، سار به من « نادر آباد » فاحتل أولاً « غزنة » سلماً ثم « كابل » بعد معارك جزئية انتصر فيها على الأفاغنة المقاومين ، ثم أقبل أعيان المدينة وحكامها يستقبلونه ويستسلمون إليه مرحبين .

وفي أثناء سيره هذا جاءه رسل من الهند يحملون رسالة من « محمد شاه » يسأله فيها عن سبب سوقه هذا الجيش نحو الهند . فأجابهم نادر بقوله : سأجيب محمد شاه على هذا السؤال بنفسي في عاصمة الهند !

ثم انطلق حتى عبر حدود الهند من إقليم السند ، وأخذ يحتل مدنه مدينة مدينة ، بعضها صلحاً وبعضها حرباً .

ومما يدل على ذكائه وسرعة خاطره أنه لما اعترضه نهر السند ، وهو واسع العرض جداً ، جمع ما وجده في أيدي الناس من سفن وقوارب ليبني منها جسراً لعبور النهر . ولكن الحبال التي كانت عنده لربط السفن لم تكفه . فأمر بجز أعراف الخيل وشعر أذنابها وفتلها حبالاً ، وبذلك وجد حاجته من الحبال وبنى الجسر .

ومن مآثره أنه كان ، بعد انتصاره في كل معركة ، يؤمن أهل المدن المفتوحة ، ويمنع جنده من التعدي على أحد ، ويعفو عن قوادها العسكريين الذين قاوموه ، حتى الذين اشتدوا في القسوة والشراسة وهم يقاومونه . بل كان يعيد حكامها إلى مناصبهم التي كانوا فيها .

وبعد أن فتح مدينة « لاهور » نادى نفسه آمراً على كل الهند . ووصله ، وهو في « لاهور » ، أن « محمد شاه » أمبراطور الهند يحشد قواته لملاقاته بالحرب . فبعث إليه نادر برسالة أعلن له فيها أنه لا يقصد الهند بسوء . وذكره بأن الهند قاست على يد الأفاغنة أشد مما قاسته إيران من الشر . وذكره بسوء معاملته للسفراء الإيرانيين الذين كان يبعث بهم إليه . وختم رسالته بإنذار « محمد شاه » بأنه إذا حارب الجيش الهندي الجيش الإيراني فإن الإيرانيين سيؤدبونه كما يجب أن يكون التأديب . وإن سالمهم نجا من العقاب .

وجرت المعركة الأخيرة الفاصلة في ناحية تعرف باسم « كرنال » في أواسط ذي القعدة سنة ١١٥١ هـ . وحشد فيها « محمد شاه » ثلاثمائة ألف جندي وألفي فيل حربي وخمسمائة مدفع .

وروى « هانوي » أن الهنود ربطوا سكاكين بخراطيم الفيلة ، وقد دربت على أن تضرب بها في الحرب ، هذا والخيول من شأنها أيضاً أن تجفل من رؤية أجسامها الضخمة . فأمر نادر بتهيئة كيزان تملأ نفطاً ومواد قابلة للإشتعال . وحين تدور المعركة توقد هذه الكيزان ويلقى بها في جيش العدو بين الفيلة فتفزع منها وتفر .

وفي هذه المعركة أمر نادر أيضاً ، حين حميت الحرب ، بإشعال النار في التبن الذي تحشى به رحال الجمال التي تحمل المدافع ثم الدفع بالجمال نحو كتيبة الفيلة في جيش العدو . فلما أشعلوا النار في الرحال وأحست الجمال بحرارتها هبت واقفة مذعورة فطردوها نحو الفيلة . فوقعت بينها وهي تقفز وتتراكض هنا وهناك وتهدر بأصوات مرعبة والنار تنطلق من ظهورها ، فارتاعت الفيلة وفرت من مكانها المقرر في المعركة ، وانحازت إلى مكان بعيد متجمعة بعضها إلى بعض .

وانتهت تلك المعركة الهائلة بانتصار نادر وفرار الهنود . وقدر بعضهم عدد قتلاهم فيها بعشرة آلاف وقدره آخرون بثلاثين ألفاً . وقدر عدد القتلى من الإيرانيين بألفين وخمسمائة ، والجرحى بخمسة آلاف .

وصلى نادر بعد هذا الفتح صلاة شكر وتلا دعاء ، وأعطى قواد عسكره جوائز . وغير اسم ابنه الثاني « مرتضى قلي خان » باسم « نصر الله قلي خان » تذكاراً لهذا النصر العظيم .

الصلح

وأراد قواد جيشه متابعة الزحف فرفض وقال لهم : إن محمد شاه لا يلبث أن يستسلم إلينا .

وبالفعل طلب الهنود الهدنة في مساء ذلك اليوم ، وهو السادس عشر من ذي القعدة سنة ١١٥١ هـ ، وحضر إلى معسكر نادر مندوبان من قبل « محمد شاه » مفوضين منه بإمضاء شروط الهدنة بما يريان . وتم الإتفاق بين الطرفين على أن يعود نادر إلى إيران بهذه الشروط :-

١ - يدفع الأمبراطور إلى إيران مبلغ خمسة ملايين روبية (نقد هندي) غرامة حربية .

٢ - يدعو نادر محمد شاه إلى وليمة يقيمها له في معسكره غداً ويوقع فيها على وثيقة الإتفاق ثم يعود إلى معسكره .

٣ - يلقي جنود الجيش الهندي سلاحهم .

٤ - تسلم المدفعية الهندية والعتاد الحربي الهندي إلى الجيش الإيراني .

٥ - الجيش الإيراني متعب يحتاج إلى الراحة . ولذلك يجب أن يذهب إلى العاصمة الهندية للإستجمام مدة من الزمن .

وبناء على ذلك أمر « محمد شاه » بتسليم كل أسلحة الجيش الهندي إلى الجيش الإيراني . وأجاب الدعوة إلى وليمة نادر ، فحضر إلى معسكره في موكب فخم وحاشية كبيرة من رجاله وحرسه ، فخرج إلى استقباله جماعة من فرسان الجيش الإيراني ، وتلقاه « نصر الله ميرزا » ابن نادر شاه ، وكان هو المعين للقيام على ضيافته ، بكل احترام وتعظيم ، وقادوه إلى الخيمة الخاصة

التي نصبت له ، وخرج نادر نفسه إلى خارج الخيمة لاستقباله ، ووضع يده في يده ودخل به إلى الخيمة فأجلسه إلى جانبه .

وبعد المجاملات أخذ نادر يوبخه على معاملته السيئة له ولسفرائه ، ويلومه على ضعفه وإهماله شؤون مملكته ، ثم قال له : لن أسلب منك ملك الهند . ولكنك ، إذ اضطررتني بلا مبالاتك وأثرتك إلى قطع طريق طويلة وبذل نفقة فاحشة ، وكان جيشنا منهكاً بالسير ، يعوزه الطعام وغيره من اللوازم ، أرى من الضروري حضوري إلى عاصمة الهند والإقامة فيها بضعة أيام يرتاح فيها الجيش ونتسلم عوض خسارات الحرب كما تم الإتفاق . ثم أدعك وشأنك تتدبر أمورك .

ثم تناولا الطعام معاً . وأعطى نادر « محمد شاه » صحفة طعامه بعد أن أكل منها شيئاً وأخذ صحفته ليطمئنه إلى أن الطعام غير مسموم . ثم أعيد إلى معسكره محروساً بحرس نادر .

دخول دهلي

وفي غرة ذي الحجة سنة ١١٥١ هـ سار نادر شاه وأمبراطور الهند من « كرنال » قاصدين العاصمة « دهلي » . وكان موكب نادر يتقدم موكب « محمد شاه » بما يقرب من ثلاثة كيلو مترات .

وتوقف نادر شاه في ضواحي « دهلي » في « باغ شليمار » حيث فرشت طريقه إليها بالنفيس من المفروشات ، وأعد مكان إقامته فيها بتجهيزات بلغت غاية الفخامة والأبهة . وسبقه « محمد شاه » إلى « دهلي » لإعداد وسائل الضيافة . وفي التاسع من ذي الحجة سنة ١١٥١ هـ سار نادر من « باغ شليمار » إلى « دهلي » فدخلها في ذلك اليوم في موكب عظيم من الفرسان والمشاة عليهم الألبسة المزينة الفاخرة ومظاهر الخيلاء والزهو . ودخل نادر من الباب الخاص بالملوك لا يفتح لغيرهم ، وأطلقت المدافع تحية له . وأنزل في القلعة الخاصة بسكنى « محمد شاه » زيادة في تعظيمه وتكريمه .

ثم سلم حاكم المدينة مفاتيح خزائن المملكة ومفاتيح قلاعها ومخازنها إلى موفد نادر شاه ، وقدمت إليه هدايا غالية . وأعلن هو أن يلتزم بكل ما عاهد عليه « محمد شاه » في « كرنال » ، ومن ذلك إبقاؤه على عرش الهند . فشكره « محمد شاه » وقدم إليه كل ما في الخزائن الملكية من جواهر وأثاث وذخائر أسلافه من السلاطين .

وأمر نادر شاه قواده بأن يحسنوا معاملة أهالي المدينة ، وأنذر من يخالف منهم بعقاب شديد .

وخطب باسمه في المساجد ، وضربت باسمه نقود .

فتنة رهيبة

ولكن حدث في اليوم الثالث من وصوله أن شاع في المدينة أن نادراً قد قُتل أو أن « محمد شاه » قد سُجنه . وعلى أثر ذلك ثار فريق من أهالي المدينة وهجموا على جنوده فأوقعوا برجال « قزلباش » مذبحة عظيمة . وتضعضعت معنويات المسلحين الإيرانيين لسماعهم نبأ مقتل نادر فلم يستطيعوا مقاومة . وقدر عدد من قتل من الإيرانيين في ذلك اليوم بثلاثة آلاف .

أما نادر فلم يصدق الخبر أول الأمر ، واتهم جنوده بأنهم اختلقوه ليجعلوه ذريعة لهم إلى نهب المدينة . فلما تحقق من صحة الخبر أمر قواده بحشد الجنود لإخماد الثورة . ولكنه أوصاهم بأن لا يمسوا الأبرياء بسوء ، وأن يقتصر عملهم على حفظ النظام وضبط المدينة .

وفي صباح الغد ارتدى ثوباً أحمر اعتاد أن يجعله علامة على الغضب ، وامتطى حصانه وخرج بنفسه مع نخبة من جنده الأشداء وقصد إلى مركز الثائرين . وقيل إنه ، وهو في سيره هذا ، أطلقت عليه رصاصة من أيوان أحد المساجد فأخطأته وأصابت أحد ضباطه فقتلته . فاشتد غضب نادر وصعد إلى سطح المسجد ونادى جنده بأن لا يبقوا على أحد حياً في كل مكان قتل فيه جندي من « قزلباش » .

وانطلق جنوده في الأسواق والأزقة ينفذون أمره فقاموا بمجزرة عامة رهيبة . ثم نهبوا الأسواق والبيوت ، وهدموا وأحرقوا كثيراً من الأبنية ، ونادر يقف في المسجد شاهراً سيفه ينظر بنفسه إلى ما يجري .

واستمرت هذه الغارة الهائلة ست ساعات إلى أن أرسل « محمد شاه » أحد وزرائه وآخر من خواصه إلى نادر يتشفعان إليه ويلتمسان منه العفو والمسامحة . فأجابهما إلى طلبهما واستدعى حاكم المدينة وأمره أن يصحب جماعة من الحرس ويطوفوا في الشوارع يأمرون الجنود بوقف الغارة . وقد امتثل الجنود الأمر فوراً ، وهذا يدل على أن نادراً كان مسيطراً سيطرة كاملة على عسكره . يقول المؤرخ عبد الكريم البخاري : « إن إطاعة الجند لهذا الأمر إطاعة فورية في إبان الغارة والفتنة أمر من الأعاجيب » . وأمر أيضاً بإعادة كل الأسرى إلى أهاليهم . وقدر بعضهم عدد القتلى بأربعين ألفاً ، وبعضهم بعشرين ألفاً ، وبعضهم بثمانية آلاف .

بعد ذلك عقد نادر قران ابنه « نصر الله ميرزا » على إحدى بنات العائلة التيمورية المالكة ، وأقيم لذلك عرس عظيم بين معالم الزينة ، والأضواء تشمل المدينة كلها ، وأهدى « محمد شاه » إلى صهره شيئاً كثيراً نفيساً من الجواهر والتحف ، وأنعم على الضباط والعسكر الإيرانيين بمبالغ كبيرة من المال .

وكان من عادة المغول أن يكتبوا في وثيقة الزواج سلسلة نسب العريس إلى سبعة جدود . فطلبوا من العريس « نصر الله ميرزا » أن يذكر أسماء جدوده متسلسلين على هذا النحو . فجاء إلى أبيه ونقل إليه طلبهم هذا . فقال له نادر : قل لهم إنك ابن السيف وحفيد السيف ونتيجة السيف . وهكذا سلسلْ لهم أسلافك سيفاً سيفاً إلى سبعين جداً لا سبعة !

ثم انصرف بعض رجال نادر إلى إحصاء الغنائم . وأمرهم بمعاملة الناس بالحسنى واجتناب كل ما من شأنه أن يؤذي شعورهم . وبلغت الغنائم مبلغاً لا يتصور من النفاسة والكثرة ، منها مبالغ ضخمة من النقد ومنها « تخت طاووس » الشهير ولا يمكن تقديره بثمن ، ومنها ثلاث ماسات هي ماسة « كوه نور » (جبل النور) الشهيرة وتسمى « ملكة الماس » ، وهي اليوم في لندن ، وماسة « درياي نور » (بحر النور) وهي اليوم في إيران ، وماسة « أورلوف » ، وهي اليوم في موسكو . ومن هذه الغنائم ستون ألف مخطوطة ثمينة .

وفي السادس عشر من ذي الحجة سنة ١١٥١ هـ بعث مع حامل بريده إلى إيران أمراً بإعفاء جميع الولايات الإيرانية من دفع الضرائب إلى مدة ثلاث سنوات ، وجعل ذلك حلوان انتصاره في الهند . وأنعم على جنوده وخدمه بجوائز مالية كثيرة وخلع عليهم خلعاً ثمينة .

معاهدة الصلح

وفي صباح ٢١ ذي الحجة حضر ، بأمر من نادر شاه . إلى قصر « محمد شاه » في « باغ شليمار » كل عظماء الدولة والجيش الإيرانيين والهنود . وحضر « محمد شاه » ووزراؤه مشاة . وهناك أمضى الملكان « معاهدة شليمار » المعقودة بينهما ، بحضور رؤساء الجيش الإيراني ووزراء الهند ورجال بلاطها وحكام محافظاتها وعلمائها . فلما وقع الملكان على المعاهدة صاح الجميع « شاد باش » ، ثم انقضى المجلس . وهذا نص المعاهدة :

« سبق أن أرسل وزراء صاحب الجلالة ، بهرام الصولة ، مريخ السطوة ، بطل الزمان ، سلطان سلاطين الأوان ، ملك ملوك العالم ، ظل الله ملاذ المسلمين ، إسكندر العظمة ، سَمْكِ السرير ، السلطان العادل المنصف والملك السماوي الفطرة ، نادر شاه أفشار خلد الله ملكه وسلطانه ، سفراء كباراً إلى هذا البلاط لتسوية بعض الأمور . وكنا نحن أيضاً نرغب في الوفاق . وبعد ذلك قدم أيضاً محمد خان تركمان من قندهار للتذكير . ولكن وزراءنا وممثلينا ماطلوا أولئك السفراء وأخروا جواب رسالة صاحب الجلالة المعظم . ومن هذه الطريق حصل نقار وسار جيشه المظفر إلى حدود الهند وتلاقينا في نقاط مختلفة وفي صحراء كرنال . فانعقدت حرب عارمة . ومن هناك طلعت ، بتقدير إلهي ، شمس الانتصار والظفر من مشرق إقباله الذي لا يزول . وإذ كان صاحب الجلالة جمشيد القدرة المعظم منبع الرأفة والفتوة فقد حصلت مسرة الملاقاة بالإعتماد على شهامته والإتكال على صحبته وحصلت بهجة الحديث في محفل كالفردوس . وبعد ذلك ترافقنا إلى شاه جهان (دهلي) . وهناك عرضنا على نظره خزانة سلاطين الهند وجواهرها لنفيسة وأهديناها كما يليق إليه . وقبل صاحب الجلالة المعظم بعضها بالتماس منا ، وأبقى عرش الهند وتاجها في تصرفنا من علو همته وفرط محبته والتفاته إلى عظمة السلالة الجرجانية وشرف شجرة طرخان . وفي إزاء هذه الملاطفة التي لا تصدر من أب إلى ابنه ولا من أخ إلى أخيه نضع في تصرف دولة إيران العلية خمسين ومائة كرور تومان (الكرور : خمسمائة ألف) خسائر الحرب وكل الأملاك الواقعة في غرب نهر آت تك وماء السند ونالاسنك وهو شعبة من شعب نهر السند يعني بيشاور وملحقاتها وإيالة كابل وغزنة وكوهستان وأفغانستان وهزارجات ودربندها مع قلعة بكرسنك وخداداد وأراضي دربندها ومساكن الجوكيين والبلوش وغيرها وإيالة تنه قلعة رام وقرية تربين وبلدة رشن وسموالي وكترا مع كل الأراضي والقرى والقلاع والبنادر من ابتداء منبع نهر آت تك إلى نالاسنك حيث مصب النهر في البحر وكل القلاع والبلدان التي يحيط بها نهر آت تك وفروعه أي أن كل الأماكن الواقعة في غربي نهر آت تك وتلك النواحي وغربي نهر السند ونالاسنك هي جزء من أملاك هذا الملك القوي الشوكة . ومن هذا التاريخ فصاعداً يدخل عماله وموظفوه النواحي المذكورة ويتصرفون بها ويتولون الحكومة والولاية عليها وعلى أهلها . وعلى عمالنا وموظفينا إخلاء النواحي المذكورة وأن يعدوها خارجة عن أملاكنا ويعلموا أن كل حقوقهم الحالية والماضية هناك قد سقطت . وقلعة لهري بندر وكل الأملاك الواقعة في شرقي نهر آت تك ونهر السند ونالاسنك هي كما في السابق جزء من سلطنة الهند . في باغ شليمار - مؤرخة في ١١ المحرم الحرام سنة ١١٥٢ هجرية - محمد شاه التيموري - نادر شاه أفشار » .

وفي الثالث من صفر سنة ١١٥٢ هيأ نادر شاه مجلساً ملوكياً بالأبهة والفخامة ، ودعا إليه « محمد شاه » وسائر أعيان الهند . فلما استقر بهم المقام أخذ بيده تاج سلطان الهند ووضعه على رأس « محمد شاه » ونطّقه بسيف وخنجر مرصعين ، وألبسه ، جرياً على عادة سلاطين الهند ، وشاحاً مرصعاً بالجواهر . فشكره « محمد شاه » بهذه الكلمة :

« لقد أعطاني شاهنشاه إيران تاج مُلْك الهند وعرشه ، فكان ذلك منه سماحة وعلو نفس . وإن إعادتها إلي يجعل الأسرة الجرجانية ترفع رأسها عالياً . وأنا أيضاً أعلن على مشهدكم جميعاً أني لشكر هذا الجميل الذي لا نظير له ، أسلم الدولة الإيرانية الشاهنشاهية إلى الأبد الأراضي الواقعة على ضفة نهر السند اليمنى ، من بحر عمان إلى منبع نالاسنك ، مع كل مدن تلك الأرض وقلاعها وسهولها وجبالها » .

فرد عليه نادر بكلمة نصحه فيها بالإهتمام بشؤون مملكته وتقوية جيشه وضبط حساباته والضرب على يد المتلاعبين من الوزراء ورجال البلاط . وقطع له عهداً بأن يسارع إلى نجدته كلما وجد حاجة إلى ذلك . ثم أصدر أمراً بالتوقف عن سك النقد والخطبة باسمه وجعلهما مجدداً باسم « محمد شاه » .

عودة نادر إلى إيران

ولما فرغ نادر من أعماله في الهند عزم على العودة إلى إيران . فبعث بجماعة من النجارين والسفانين إلى كابل وبلخ ليصنعوا له سفناً تحمل جنوده على نهر « جيحون » إلى غزو تركستان وخوارزم . وحمل معه جماعة كبيرة من البنائين والنحاتين والصاغة إذ كان ينوي أن يبني في إيران مدينة كدهلي ، كما حمل معه جماعة من علماء الهند وأكابرها .

وفي الثامن من شهر صفر سنة ١١٥٢ هـ ترك « دهلي » ، وكان قد أقام فيها ثمانية وخمسين يوماً ، في قافلة هائلة فيها ألوف من الدواب ، أفيال وخيل وجمال وبغال . وحملت الذخائر في ثلاثة عشر ألف صندوق . وامتطى نادر حصاناً عراقياً واعتمر بقلنسوة حمراء مرصعة ولف على عنقه شالاً كشميرياً أبيض ، واجتاز شوارع « دهلي » مزهواً مختالاً ، ينثر الروبيات بكلتا يديه على رؤوس الناس .

وقاسى في عودته شدائد صعاباً من الحر والعواصف والأمطار الغزيرة والفيضانات ومقاومة قطاع الطرق ، ومات بهذه العوامل كثير من رجاله . ولما وصل إلى نهر يعرف بنهر « شهناب » هطلت أمطار غزيرة ، وكان جيشه يعبر النهر على جسر أقيم عليه من السفن . فلما عبر منهم إلى الضفة الأخرى ما يقرب من نصفهم كانت حواميل المطر السائلة في النهر قد طغت طغياناً عظيماً فتضعضع الجسر ، وهو ينوء بتلك الأحمال الثقيلة من الرجال والعتاد ، وانشق فهوى في الماء أكثر من ألفي جندي وغرقوا . وفي اليوم الثاني جرف التيار كل سفن الجسر . واضطر نادر إلى إقامة جسر آخر جمع سفنه من تلك النواحي ، واستغرق ذلك أربعين يوماً .

وكان يرافقه حاكم « لاهور » ، فسلم هناك من كان معه من الأسرى الهنود وأمره بالعودة بهم إلى بلادهم ومساعدتهم وتسليمهم إلى أهلهم ، ثم الذهاب إلى « لاهور » مركز عمله .

وجاءه خبر من خراسان ، وهو في طريق عودته ، أن والي خوارزم اغتنم فرصة غيبته في الهند فأخذ يجمع جيشاً من الأزابكة والأتراك لغزو خراسان ، فعزم على مهاجمة تركستان .

ولما وصل إلى « حسن آباد أتك » بعث برسولين أحدهما إلى السلطان العثماني والآخر إلى القيصر الروسي وحملهما إليهما هدايا نفيسة من الجواهر، ليعلماهما بنبأ فتحه بلاد الهند .

وتابع نادر سيره قاصداً « كابل » . واعترضه في طريقه ، في بعض الجبال وفي مضيق خيبر بعض طوائف الأفاغنة الشجعان بمقاومة شديدة أريق فيها كثير من الدماء ، فتغلب عليهم وقتل منهم كثيراً ، ثم صالحهم ، وانضم فريق منهم إلى جيشه .

ووصل إلى « كابل » في غرة رمضان سنة ١١٥٢ هـ ، فخرج إلى استقباله كل أعيانها ورؤساء قبائل الأفاغنة وجمهور كبير من سائر رجالها ، وأظهروا له كل مظاهر الإجلال والإحترام . وتجند في جيشه أكثر من أربعين ألف أفغاني من « بيشاور » و « كابل » و « هزاره » ونواحي أخرى وأرسلوا إلى « هرات » ينتظرونه فيها .

إلا أن نادراً اضطر إلى تأديب أحد العصاة الأقوياء ، هو حاكم « خداداور » السند . فجهز حملة كلفته خسائر جسيمة في الأرواح والأموال بسبب البرد ووعورة الطريق ونهوض المقاومين إلى محاربته من كل جانب في طريقه ومنع الناس الأقوات عن جيشه . ولكنه استطاع أن يقهرهم حتى وصل إلى مقر العاصي فظفر به . ويرى « مينورسكي »[1] أن حملة نادر شاه هذه تعد من أروع أعمال حياته . وأسر نادر العاصي وقيده وحمله معه إلى أحد المنازل ثم عفا عنه ، إذ إنه أحسن السلوك حتى رضي عنه ، وأطلق سراحه ، بل إنه أعاده حاكماً على قسم من ولايته التي كان والياً عليها ، وأخذ عليه عهداً بأن يبعث إليه بمبلغ معين من المال وعدد من الجند واستبقى عنده اثنين من أبنائه رهينتين .

ومن هناك سار قاصداً « نادر آباد » حيث استهل حملته على الهند ، فوصلها في السابع من صفر سنة ١١٥٣ هـ ، بعد أن غاب عنها في تلك الحملة مدة سنتين .

وفي العاشر من ربيع الأول سنة ١١٥٣ هـ دخل إلى « هرات » قادماً من « نادر آباد » فمكث فيها ستة عشر يوماً .

غزو تركستان

ثم سار إلى تركستان لتأديب المتمردين والأخذ بثارات سابقة . فلما ابتعد عن « هرات » مسافة أمر ببناء قلعة حصينة هناك . فقال له أحد رجاله : إذا كان الشاه يتسلط على كل إيران والهند وأفغانستان وكرجستان فما حاجته إلى قلعة حصينة ؟! فأجابه نادر : ألتزمُ الحيطة أن يخرج علي عدو من الداخل لأن العدو الداخلي أشد خطراً من العدو الخارجي .

ولما وصل إلى نهر « جيحون » كانت السفن التي سبق أن أمر ببنائها جاهزة لنقل الجند . وبدأ ببخارى بمعركة انتهت إلى انتصاره على جيش ملكها فاستسلم إليه على نحو ما استسلم « محمد شاه » في الهند . فأحسن نادر معاملته وعفا عنه . ولما دخل بخارى خطب باسمه في المساجد وضرب النقد باسمه . ومنع نادر جنده من التعدي على الناس ونهبهم ، ورتب دوريات من الحرس للقيام على تنفيذ هذا الأمر . وهكذا أصبحت قواته تسيطر على إقليم ما وراء النهر كله ، من شرقي بخارى وشمالها الشرقي إلى « سمرقند » .

ثم بعث بجيش إلى « سمرقند » لإخضاع إحدى الطوائف المتمردة . وأمر قائد هذا الجيش أن يذهب ، بعد إتمام مهمته ، إلى مشهد وأن يحمل معه إليها بلاطة قبر « تيمور » وأبواب مدرسة « سمرقند » المصنوعة من الشبهان . ولكن نادراً لما عاد ، بعد ذلك ، إلى مشهد ندم على نقل هذه الأشياء إليها ، وأمر بردها إلى « سمرقند » وإعادتها إلى أمكنتها التي كانت فيها .

وأدخل في جيشه ثلاثين ألفاً من الأزابكة وأمر عليهم أحد أقارب ملك بخارى . ثم خلع على الملك خلعة فاخرة ، وتوجه بيده ملكاً على بخارى .

غزو خوارزم

وبعث نادر من بخارى بثلاثة رسل إلى والي خوارزم يستدعيه إليه ويطلب منه ترك الخصومة والإنقياد إلى طاعته ، إذ كان هذا الوالي معانداً له شديد المراس . فلما أبلغ الرسل إليه رسالة نادر غضب وقتلهم .

فلما علم نادر بقتلهم ذهب إلى مشهد . ومنها هيأ جيشاً سار به إلى خوارزم . وكان عليه أن يعبر جسراً على نهر « جيحون » عند « شير حاجي » . وكان والي خوارزم قد بادر إلى تهيئة جيش عظيم أرسله سريعاً إلى موضع الجسر ليهدموه قبل وصول نادر إليه . ولكن نادراً أبدى يقظة وهمة عجيبين في إدراكه لخطتهم وسبقهم إلى الجسر ، فعبره قبل أن يصلوا إليه .

وكانت القوات التي لاقته في بلاد خوارزم على درجة عظيمة من الشجاعة والكثرة والتهيؤ . ولكنه استطاع أن يهزمها في جميع المعارك التي خاضها بحسن تدبيره ودقته في اختيار الأماكن والحالات التي تصلح للحرب والتي لا تصلح لها . وقتل والي خوارزم ، ولكنه ، كعادته ، منع جنده من التعدي .

وفي مدينة « خيوه » من ذلك الإقليم حرر من الأسر ما لا يقل عن عشرة آلاف خراساني كانوا أسرى فيها وفي غيرها من بلاد خوارزم ، وأحسن إليهم وزودهم بالمال والخيل والطعام ، وبعث بهم إلى خراسان ، وبنى لهم هناك مدينة في شمال « أبيورد » شبيهة بمدينة « دهلي » عرفت فيما بعد باسم « خيوه آباد » وأسر جماعة كبيرة من أهالي « خيوه » وبعث بهم معهم ليكونوا أرقاء في خدمتهم انتقاماً لهم من أسرهم . وحرر أيضاً عشرة رجال من الروس كانوا أسرى هناك . ومنح كل واحد منهم حصاناً وخمسين روبلاً روسياً ليتمكنوا من العودة إلى بلادهم ، وجعلهم في رعاية رومي عهد إليه بمرافقتهم إلا بلادهم وأهلهم .

وطلب إحضار جميع الأجانب الموجودين هناك فأحضروا ، وكان بينهم اثنان من الإنكليز كتبا بعد ذلك تفاصيل هذا اللقاء . وسأل هؤلاء الأجانب من أعمالهم فأجابوا بأنهم تجار . فأبدى لهم كثيراً من العطف والبشاشة وقال لهم : لكم الحرية بأن تتاجروا أينما شئتم من البلاد التي أحكمها . وإن مسكم أحد بضر وقصر رجالي في إنصافكم منه فارجعوا إلي مباشرة .

العودة إلى خراسان

ثم غادر « خيوه » قاصداً « مرو » في الرابع من شوال سنة ١١٥٣ هـ . وفي « مرو » قام بأعمال عنيفة قاسية . فعزل واليها وأقام آخر في مكانه ، وقتل جماعة من المعاندين ، منهم رئيس اسمه « رحيم خان » اشتهر عنه أنه يحرض

(١) فلاديمير مينورسكي مؤلف كتاب « تاريخ نادر شاه » . أقام عدة سنوات في إيران . وكان أستاذ الأدب الفارسي في جامعة لندن .

« رضا قلي ميرزا » ابن نادر شاه على طلب منصب الملك لنفسه .

ثم انطلق إلى « دستجرد » مسقط رأسه ، وكان قد بنى فيها عمارة فخمة باسم « مولود خانه » تذكاراً لولادته فيها ، ونصب في أعلاها سيفاً من الذهب . ثم سار إلى « كلات » فأودع في خزائنها ما حمله من كنوز الهند وجواهرها ، وبنى فيها قبراً لنفسه من مرمر أسود حمله إليها من « مراغة » وكان مقداراً كبيراً ، وجمّل قلعتها بحديقة أنيقة . ثم زار المدينة الجديدة « خيوه آباد » وتفقد سكانها من الأسرى السابقين بمقادير كبيرة من اللباس والطعام والنقود .

ومن « كلات » ذهب إلى « أبيورد » ومنها إلى مشهد فوصلها في آخر شوال سنة ١١٥٣ هـ . وكان يعد مشهد بمنزلة عاصمة لأمبراطوريته ويفضلها على أصفهان . وأهدى مقام الإمام الرضا (ع) هدايا عظيمة ، منها فرش كثير من الحرير وأربعة عشر قنديلاً من الذهب الخالص ، وبنى في صحن المقام حوضاً كبيراً من المرمر الأبيض النفيس جلبه من « هرات » ، وشرط على من حمله منها أن يكون المرمر جاهزاً للبناء في مدة اثني عشر يوماً .

وكان ملوك إيران يفحصون ، حيناً بعد حين ، حسابات الولايات . ولكن هذه الحسابات لم تكن تضبط يومئذ في دفاتر مخصوصة ، بل كان الموظفون يجبون الضرائب على هواهم ويحتفظون بقسم منها لأنفسهم ويوصلون الباقي إلى خزانة الدولة . وهكذا كان الأمر في زمان نادر . فقام بمحاسبة موظفي الجباية محاسبة دقيقة . فتبين له أنهم تلاعبوا فيها ، فغضب وقتل جماعة من المسؤولين عن هذا التلاعب .

حرب نادر والعثمانيين

بدأ نادر بمحاربة العثمانيين سنة ١١٤٢ هـ . فبعد أن طرد الأفاغنة من شيراز في تلك السنة عزم على إخراج العثمانيين أيضاً من أرض إيران ، إذ أن مفاوضتهم لم تأت بنتيجة وظلوا يحتلون بعض المدن الإيرانية لا يجلون عنها . فجند جيشاً من خمسة وعشرين ألفاً ، بين فارس وراجل ، ومدفعية ، وسار به من شيراز نحو « همذان » في ١٨ شعبان سنة ١١٤٢ هـ .

فأغار أولاً على « نهاوند » تبييتاً في ٤ رمضان من تلك السنة وأباد حاميتها من العثمانيين وفر قائدهم « عثمان باشا » إلى « همذان » . ثم تتبع العثمانيين فهزمهم عند « ملاير » ، وكانت عدتهم تسعة وأربعين ألفاً ، قتل منهم حوالي سبعة آلاف ، وفر الباقون إلى « همذان » . فتتبعهم إليها واحتلها بلا مقاومة ، إذ كان قائدهم « عثمان باشا » كان قد فر بجنده إلى بغداد ، وترك ذخائره وعتاده الحربي غنيمة للجيش الإيراني . وتتبعهم نادر إلى « كرمانشاهان » فاحتلها . وعزم أن يسير منها إلى إيالة « أذربيجان » لطرد العثمانيين منها .

وفي أثناء ذلك وصل خبر حملة نادر على العثمانيين إلى القسطنطينية فأعلنت الدولة العثمانية الحرب على الدولة الإيرانية رسمياً ، وكان ذلك في السابع من المحرم سنة ١١٤٣ هـ .

وسار نادر إلى محل تمركز العثمانيين في « ميان دوآب » في الجنوب الشرقي من بحيرة « أرومية » . وكانت عدة جيشه قد أصبحت مائة ألف مقاتل . فرأى العثمانيون أن لا قبل لهم به ففروا إلى « مراغة » من غير أن يطلقوا رصاصة واحدة . فتتبعهم نادر واحتل « مراغة » ومدناً أخرى في تلك النواحي ، وغنم كثيراً من المعدات وأسر كثيراً من الجند وفر العثمانيون إلى ناحية قريبة من تبريز ، فتتبعهم حتى احتل تبريز في ٢٨ المحرم سنة ١١٤٣ هـ .

وكان جيش عثماني آخر بأمرة قائد اسمه « رستم باشا » قادماً لنجدة العثمانيين في تبريز ، وهو لا يعلم بخروجهم منها واحتلال نادر لها . فخرج إليه الجيش الإيراني وأوقع به هزيمة شديدة وأسر قائده وجماعة كبيرة من ضباطه . ثم بعث نادر بسفير من قبله إلى القسطنطينية يقترح على السلطان العثماني عقد معاهدة هدنة بين الدولتين .

وعامل نادر أسيره « رستم باشا » وضباطه الأسرى بالحسنى ثم أطلق سراحهم . وخف مسرعاً إلى خراسان .

وأوقعت انتصارات نادر تشويشاً في العاصمة العثمانية ، إذ أخذ البلاطيون وأصحاب النفوذ يتهم بعضهم بعضاً بالتقصير وسوء التدبير في سوق الجيش إلى إيران . وقُتل الصدر الأعظم وخُلع السلطان أحمد وبويع السلطان محمود ، وقامت ثورة في ألبانيا فشغل ذلك الدولة العثمانية عن متابعة محاربتها لإيران . كما أن نادراً عدل عن متابعة الحرب ، بعد أن كان ينوي تعقب العثمانيين إلى « نخجوان » و« إيروان » ، وذلك لأخبار وصلته من مشهد بأن حرباً أهلية بين الأبداليين قد نشبت في « هرات » ، وأن الموالين له منهم قد أخرجوا منها . وأن الثائرين على وشك الهجوم على مشهد . ولذلك أسرع عائداً إلى خراسان .

خلع الشاه طهماسب

أسرع نادر إلى خراسان ليقمع ثورة الأبداليين على حين كان الشاه طهماسب يلهو في أصفهان . ثم تمادى فقام بعمل جنوني إذ عزل نادراً عن قيادة الجيش وجعل قيادته في يده . وقرر أن يقتصر عمل نادر على إدارة أمور خراسان فقط ، ولا حاجة إليه في استرجاع النواحي الإيرانية التي استولى عليها العثمانيون والروس . ثم جهز جيشاً من ثمانية عشر ألفاً ، وبدأ محاربة العثمانيين في جمادى الآخرة سنة ١١٤٤ هـ ليخرجهم من أرض إيران الشمالية الشرقية . وخرج من أصفهان قاصداً « همذان » . ومنها بعث رسولاً إلى القسطنطينية لتهنئة السلطان محمود ، السلطان الجديد ، بجلوسه على لعرش ، وبعث بمندوب آخر إلى أحد اللزكيين من أعوان الدولة العثمانية في حدودها الجنوبية ، ولكن اللزكي ضرب عنق المندوب الإيراني وبعث برأسه إلى القسطنطينية ، إذ كان عارفاً بنوايا طهماسب .

وذهب طهماسب إلى تبريز فعزل حاكمها الذي عينه نادر ونصب في مكانه أحد خواصه . ثم قصد بجيشه إلى « نخجوان » و« إيروان » فحاصرهما . ولكنه اضطر إلى التراجع إذ نفدت مؤونته . ثم انتهت محاولاته كلها إلى الهزيمة ، واسترد العثمانيون النواحي التي كان نادر قد استخلصها منهم وتابعوا تقدمهم في أرض إيران ، وعاد الشاه طهماسب إلى أصفهان منهزماً . وقد قتل من جيشه خمسة آلاف جندي ، واضطر إلى عقد معاهدة صلح بينه وبين العثمانيين تقضي بأن تكون كل الأراضي الواقعة في شمالي نهر « أرس » إلى « كرمان شاهان » ملكاً للعثمانيين . وعقد معاهدة أخرى في مدينة « رشت » بينه وبين روسيا تقضي بأن تتخلى إيران عن ولاية « باكو » وداغستان للروس .

وفي هذه الأثناء وصل إلى أصفهان رجل قال إن اسمه « إسماعيل ميرزا » وأن أخو الشاه طهماسب وأن أحد خدم القصر نجاه من القتل يوم قتل

محمود الغلجائي أبناء الشاه حسين حين احتلاله أصفهان . وبعد تحقيقات قام بها البلاط اعترف الشاه طهماسب بأخُوّته . ولكن حدث بعد مدة وجيزة أن تآمر جماعة من الوزراء والفقهاء ونساء الشاه على أن يخلعوا طهماسب ويولوا « إسماعيل ميرزا » هذا منصبه . إلا أن الشاه طهماسب عرف بالمؤامرة فقتل « إسماعيل ميرزا » وكل جماعة المؤامرة .

وأما نادر ، وكان يومئذ في نواحي « هرات » مشغولاً بقمع الثورة ، فقد غضب حين بلغ إليه نبأ هزيمة الشاه طهماسب ، وبعث بواسطة السفير العثماني ، رسالة شديدة اللهجة إلى السلطان العثماني جاء فيها « إن معاهدة الشاه طهماسب ليست لها قيمة سياسية . فإما أن يعيد كل الأرض الإيرانية أو فليتهيأ للحرب » .

وبعث برسالة إلى « أحمد باشا » والي بغداد العثماني بأنه قادم إلى بغداد في القريب العاجل . وبعث رسولاً إلى أصفهان أبلغ عزمه إلى رجال البلاط . وبعث برسالة قاسية إلى وزراء الشاه وأنبهم تأنيباً شديداً على الطريقة التي نظروا بها إلى معاهدة الصلح . وأذاع بياناً عاماً وجهه إلى رؤساء إيران وأشرافها وشعبها ، وكتب فيه أن سيفه قد سخر ، بعون الله المتعالي ، مدناً وإيالات كثيرة . فاحتلت قلعة هرات ، وانكسر الأبداليون ، ووضع غلجائيو قندهار في أعناقهم نير العبودية ، وسقنا ستين ألف عائلة منهم إلى خراسان . وندد بمعاهدة الصلح واعتبرها مهينة لشرف إيران وكرامتها مجحفة بحقوقها ، وأعلن رفضه لها . وقال إن الحرب ستبدأ بعد عيد الفطر وستنفذ مرحلة مرحلة . وأعلن في ختام البيان أن كل من تخلف عنه سيحرم من جميع الإمتيازات الدينية وتقع عليه العقوبة الإلهية وينفى من جماعة المسلمين ويعد من الخوارج .

وكان نادر لا يزال في « هرات » . فلما انتهى من قمع الثورة وأقر الأمور هناك في يد أعوانه وأنصاره ، عاد إلى مشهد في الخامس عشر من شهر رمضان سنة ١١٤٤ هـ . ثم بعث بوفد من قبله إلى أصفهان إلى الشاه طهماسب ، كان من جملة مهمته أن يلتمس من الشاه ملاقاته في قم أو طهران . وأمر من معه من رؤساء الأبداليين بتهيئة جيش منهم يكون مستعداً للإغارة في وقتها ، وأمرهم أن يطوفوا بهذا الجيش حول مقام الإمام الرضا (ع) للتبرك .

ثم سار إلى طهران مع ستين ألف جندي ليلاقي الشاه طهماسب حسب طلبه السابق . ولكن الشاه رفض الخروج من أصفهان ، فسار نادر تواً إليها . فلما وصلها أدى مراسم التشريفات اللازمة للشاه ثم دعاه إلى مسكنه إلى وليمة يقيمها على شرفه ، وهيأ لها على أكمل وجه كلّ ما يقتضيه هذا المقام من آداب وسنن . ثم أخذ يتحدث إلى الضباط الحاضرين عن الشاه طهماسب وسأل مستنكراً : لماذا خان الشاه وطنه بتوقيعه على معاهدتي بغداد ورشت ، معاهدتي العار والذل ؟! وقال أيضاً : في هذه المعاهدة لم يأتوا على ذكر أحد من الضباط الإيرانيين الذين وقعوا أسرى في يد العدو ! ومن العار أن نتخلى عن إخواننا هؤلاء ونتركهم في يد العدو ! فأثار هذا الخطاب غضب الضباط وحميتهم وتوجهوا كلهم باللوم والتقريع إلى الشاه .

ثم حضر الشاه طهماسب وأذن للأعيان ورجال البلاط بالحضور ، وأمر بإعداد الشراب وإحضار المطربين وتهيئة أسباب الأنس . فقام نادر بإنفاذ الأوامر ملتزماً كل الإلتزام آداب الضيافة ممتثلاً بمنتهى التهذيب لكلّ ما يأمر به الشاه .

وظل الشاه ثلاثة أيام متواصلة يلهو ويلعب ويعب الخمر مع رجال البلاط وأمثالهم من الفاسدين . وعرف الجميع ، من رؤساء الجيوش وضباطها أن الشاه طهماسب ظل يشرب الخمر حتى فقد عقله

وحينئذ عقد نادر مجلساً من رؤساء الجيش و « قزلباش » بحثوا فيه حالة الشاه واتفقوا كلهم على أنه عاجز عن الإستمرار في الحكم . وشهدت أيضاً جماعة كبيرة من أهل أصفهان بأنه غير أهل للملك ، واتفقوا كلهم على وجوب خلعه وإجلاس ابنه « عباس ميرزا » على عرش المملكة الإيرانية ، وكان ابنه هذا لا يزال طفلاً رضيعاً في الشهر الثامن من عمره . وأبلغوا قرارهم هذا إلى الشاه فاستعفى من منصبه . فأمر نادر بإرساله وجميع حرمه وخدمه إلى مشهد تحت مراقبة شديدة ، يرافقه خمسة آلاف جندي .

وفي اليوم السابع من ربيع الأول سنة ١١٤٥ هـ توّج الشاه عباس الثالث الصفوي في قاعة من أحد القصور الملكية على هذا النحو : وضع مهد الأمير الطفل الرضيع في القاعة ، ووضع نادر على رأسه شارة الملك وإلى جانبه سيف الشاه ، ثم أديت له التشريفات المتبعة . وأقيمت في المدينة احتفالات الفرح والإبتهاج سبعة أيام بلياليها وخلعت الخلع الفاخرة على الأمراء والأعيان .

وكان من الطبيعي أن ينصب نائب عن صاحب العرش الجديد إلى أن يبلغ سن الرشد . ولم يكن أحد أليق من نادر بهذا المنصب . وبهذا استغنى نادر عن لقب « طهماسب قلي » الذي منحه إياه الشاه طهماسب سنة ١١٣٩ هـ ، واتخذ لنفسه لقب « وكيل الدولة ونائب السلطنة » . وأبلغ نبأ الإنقلاب الجديد إلى الدولة العثمانية والدولة الروسية . وجعل إقامة الشاه الجديد في « دار السلطنة قزوين » .

استئناف محاربة العثمانيين

ثم سار نادر إلى قمع ثورة محلية فقضى عليها . وتوجه بعدها إلى استئناف محاربة العثمانيين . فسار إلى « كرمانشاه »[1] وحاصرها في التاسع من شهر جمادى الآخرة سنة ١١٤٥ هـ ، فقاومه العثمانيون قليلاً ثم اضطروا إلى الجلاء عنها فاحتلها . ومنها سار إلى « خانقين » وحدود العثمانيين في العراق . وسلك طريقاً لم يكن العثمانيون يتوقعون أن يسلكها فلم يلتفتوا إلى تحصينها . وانحرف عن الطريق المألوفة التي أقام فيها العثمانيون تحصينات قوية ، وهاجمهم في مواقع أخرى غيرها ، فانتصر عليهم وقتل منهم كثيرين وأسر كثيرين ، منهم أحد الباشوات كان حاكماً على إقليم هناك . وبعث بقوة إلى « كركوك » فحاصرتها .

وتابع سيره إلى بغداد فحاصرها في الثاني من شهر رمضان سنة ١١٤٥ هـ ، ووجه قوة احتلت سامرا والحلة وكربلا والنجف ومدناً أخرى من العراق .

ووافق حلول عيد النوروز اليوم الثالث من شهر رمضان من تلك السنة ، وبغداد في الحصار . فأقام نادر احتفالاً في معسكره وخلع على رؤساء العسكر خلعاً كثيرة . وأراد السخرية من « أحمد باشا » والي بغداد العثماني ، فبعث إليه ببضع قرب مملوءة بعصير البطيخ ، فرد عليه « أحمد باشا » بأن أرسل إليه أرغفة من أحسن خبز بغداد . وكان يفصل عن جيشه في كل

(١) كرمانشاه ، وكرمانشاهان : اسم واحد .

أسبوع أو أسبوعين حوالي عشرة آلاف جندي ، ويعيدهم في الخفاء ليلاً إلى الوراء من حيث جاؤوا ، فيبتعدون بضعة كيلو مترات ويمكثون هناك حتى الصباح ، إذ يعودون إلى المعسكر في جلبة وضوضاء رافعين رايات كثيرة . يفعل ليوهم العدو أنها نجدات وإمدادات جديدة وصلت لمساعدة الجيش الإيراني .

ولم يحل آخر المحرم من سنة ١١٤٦ هـ حتى أصبح المحصورون عاجزين عن تحمل الحصار ، فبعث « أحمد باشا » رئيس ديوانه ومحافظ بغداد سفيرين من قبله إلى نادر لمفاوضته في موضوع تسليم المدينة .

ولكن حدث في هذه الأثناء أن جاءت نجدة عظيمة من العثمانيين عدتها مائة ألف جندي يقودها « توبال عثمان باشا » ، وهو من أعاظم العسكريين العثمانيين ، لمساعدة المحصورين في بغداد . وكانت هذه النجدة ، وهي في طريقها إلى بغداد ، قد رفعت الحصار عن « كركوك » وأرجعت عنها الجيش الإيراني المحاصر الذي كان نادر قد سيره لحصارها ، وهو في طريقه إلى بغداد . ومن ثم رجع « أحمد باشا » عن تسليم المدينة وثبت للحصار .

ولما قرب « توبال عثمان باشا » من بغداد بعث إليه نادر برسالة قال فيها إنه حاضر لمحاربته أينما شاء . ولكن القائد العثماني اعتقل الرسول ولم يجب على الرسالة . وسار نادر بجيشه ، ليلة السادس من صفر سنة ١١٤٦ هـ ، بعد أن أبقى قوة تديم الحصار ، من خط المحاصرة نحو الشمال حتى التقى بالجيش العثماني على بعد ١٨٠ كيلو متراً من بغداد على شاطىء دجلة ، حيث دارت معركة رهيبة ، انتهت بانتصار العثمانيين . وجرح فيها نادر وخسر شيئاً كثيراً من العتاد والرجال . وقدر عدد القتلى من الإيرانيين بثلاثين ألفاً والأسرى أكثر من ثلاثة آلاف ، ومن العثمانيين بأكثر من عشرين ألف قتيل . ودخلت القوة المنجدة بغداد وغيرها من المدن التي احتلها الإيرانيون .

ووصلت أنباء هزيمة نادر إلى إيران فجرأت خصومه وأنصار الشاه طهماسب على الخروج عليه .

إعادة الكرة على العثمانيين

أما نادر فتلقى هذه الهزيمة بثبات واتزان . وكان يقول إن انكسار إيران كان مقدراً من الله ، ولا راد لقدره . وانصرف مرة ثانية إلى جمع قواته وتجديد جيشه ، فبعث ، وهو في طريق العودة إلى إيران ، بأمر إلى حكام الإيالات الإيرانية كلها أن يقوموا بتجميع الأسلحة والمهمات الحربية ، وأن تتمركز كل القوى والتجهيزات في مدينة « همذان » . وعزل بعض حكام الولايات .

وفي الثامن والعشرين من صفر سنة ١١٤٦ هـ ذهب إلى همذان ليشرف بنفسه على تفاصيل التجهيزات العسكرية . وأنعم على الجنود الذين شاركوا في محاربة العثمانيين بمبلغ كبير من المال . وانتهى من مهمته هذه على أحسن وجه في مدة شهرين . وفي الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ١١٤٦ هـ تحرك نادر بجيشه الجديد من « همذان » قاصداً إلى « كرمانشاه » .

وقد تغلب الإيرانيون على العثمانيين في أول معركة جرت في نواحي « كركوك » . وقتل في هذه المعركة « توبال عثمان باشا » قائد الحملة . وقطعوا رأسه ورفعوه على رمح وبعثوا به إلى نادر علامة على النصر . فلما رآه نادر غضب غضباً شديداً من إقدام جنده على قطع رأس هذا العسكري الشجاع والقائد المجرب . ثم وضع الرأس مع بدنه في تابوت بين مظاهر الإحترام والتجليل ، وبعث به في رعاية « عبد الكريم أفندي » قاضي العسكر العثماني وكان أسيراً عنده ـ إلى بغداد حيث دفن عند قبر أبي حنيفة .

ثم أمر أحد قواده ، وكان يعسكر قريباً من سامراء ، باحتلال الحلة والنجف وكربلا . وسار هو بثلاثين ألف جندي إلى بغداد . واحتل ، وهو في طريقه إليها ، السليمانية وكركوك والموصل وكردستان العثمانية . ووصل إلى بغداد في الثامن من جمادى الآخرة سنة ١١٤٦ هـ . ثم انصرف عنها لطرد العثمانيين من قلاع احتلوها في الشمال ، واحتل في طريقه « أربيل » ، ثم عاد إلى محاصرة بغداد .

وبعد بضعة أيام من وصوله إليها بعث إليه الوالي العثماني « أحمد باشا » في الخفاء مندوباً أراه وثائق رسمية تخول الوالي عقد معاهدة صلح بينهما بما يراه الوالي . وعرض عليه أن يعيد العثمانيون إلى إيران كل الأراضي التي استولوا عليها في مقابل انصراف الإيرانيين عن محاربتهم . وتم الإتفاق بينهما على ذلك ووقعا على معاهدة به في شتاء سنة ١١٤٦ هـ . وسلم العثمانيون إلى نادر الإيرانيين الذين كانوا في أسرهم ، وقدموا إليه هدايا لائقة . وطلب الوالي مهلة مدة شهرين للحصول على موافقة دولته على المعاهدة .

ثم زار نادر العتبات المقدسة في الكاظمين وكربلا والنجف وانصرف عائداً إلى إيران .

ولكن تبين لنادر فيما بعد أن العثمانيين لا يريدون الصلح وأنهم ينوون الإحتفاظ بما استولوا عليه من أرض إيران ونقض المعاهدة المعقودة بينه وبين والي بغداد . فتابع محاربتهم ومحاربة أعوانهم في أذربيجان وكرجستان والقفقاس ، ونواحي أخرى ، واستولى على مدن وأقاليم هامة مثل « شماخي » عاصمة إقليم « شيروان » الواقع في ساحل بحر قزوين الغربي و « إيروان » و « قارص » و « تفليس » وإقليم « داغستان » وغيرها . وفي مطلع سنة ١١٤٨ هـ تمكن من عقد معاهدة بينه وبين روسيا تعهدت روسيا فيها بالجلاء عن « بادكوبا » و « دربند » . وجلت عنها بالفعل ، وانتهى بذلك احتلال الروس لشمال إيران بعد أن دام ثلاث عشرة سنة . وفي الخامس عشر من جمادى الأولى سنة ١١٤٨ هـ كان نادر قد استخلص إقليم القفقاس من أيدي العثمانيين والروس وسيطر عليه كله . وأخمد ثورات في يران وأفغانستان والخليج واحتل جزائر البحرين .

وفي التاسع من جمادى الآخرة سنة ١١٤٩ هـ عاد إلى أصفهان ، فاستقبل بالزينات ومظاهر الفرح والإجلال . ثم أخذ يتهيأ لغزو « قندهار » حتى فتحها سنة ١١٥١ هـ كما مر سابقاً .

غزو داغستان

وفي هذه السنة ، سنة فتح « قندهار » ، كان أخوه « إبراهيم خان » في إقليم داغستان يغزو متمردين من « اللزكيين » فقتل في هذا الغزو . وقطع نادر على نفسه عهداً بأن ينتقم له من « اللزكيين » . فأعد جيشاً لذلك وخرج به من مشهد في ١٦ ذي الحجة سنة ١١٥٣ هـ ، ومعه ابنه الأكبر « رضا قلي ميرزا » ، قاصداً وادي « جرجان » الواقع في نواحي « مازندران » . وفي هذا الوادي قاسى مشقات كبيرة في عبور نهر « جرجان » ، إذ طغى النهر بسيل عظيم ، فغرق فيه جماعة كبيرة من جنده ومئات من البغال التي تحمل الزاد والذخائر . وذهب الماء ببعض خيم الحرس الذين يحرسون خيمة نادر نفسها . فخشي أصحابه أن يصل الماء إلى خيمته ، ولكنه رفض أن ينقلها إلى

مكان أرفع . وظل هادئاً متكئاً على مسنده فيها ينظر إلى السيل حوله غير مكترث له .

وفي هذه الأثناء وصله تقرير من قائد جيش كان قد سيره إلى داغستان أن « اللزكيين » تهيأوا للحرب في السفوح الجنوبية والشمالية من جبال القفقاس . ونشبت معركة شديدة انتهت بانهزام « اللزكيين » واحتل الإيرانيون أماكنهم . فبعث بخلع ثمينة إلى ضباط الجيش ومكافآت مالية للجنود الأفاغنة ، وكانوا يحاربون مع الإيرانيين ، ثم وصله تقرير آخر أن القوات الإيرانية حملت على « اللزكيين » مرة ثانية في مكان آخر وانتصرت عليهم .

محاولة اغتيال نادر

ولما انخفض سيل الماء تابع نادر سيره إلى طهران . فلما وصل إلى غابة تعرف بغابة « سوادكوه » على مقربة من قلعة اسمها « أولاد » أطلقت عليه رصاصة من وراء شجرة على بعد عشرين قدماً منه فأصابته بجرح بسيط في يده وأصابت حصانه فقتلته . ولم يمكن العثور على مطلق الرصاصة . وكان ذلك في ٢٨ صفر سنة ١١٥٤ هـ . ولما وصل إلى طهران أبقى فيها ابنه « رضا قلي ميرزا » - وكان قد أصبح يسيء الظن به - ثم تابع سيره إلى قزوين .

وكان منذ مدة يشكو اعتلالاً في صحته . وقد صحب معه من الهند طبيباً اسمه « علوي خان » . وفي قزوين أذن لهذا الطبيب ، بناء على وعد سابق منه ، بأن يتركه ويذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج . وأصبح اعتلال صحته يزداد يوماً بعد يوم ، ويؤثر في حالاته الروحية والعصبية .

متابعة الحملة على داغستان

ومن قزوين تابع مسيره إلى إقليم داغستان . وفي أول جمادى الأولى سنة ١١٥٤ هـ كان قد أصبح في قلب هذا الإقليم . وفي الخامس من شعبان من تلك السنة دخل « دربند » على شاطىء بحر الخزر الغربي .

ولكن حملته هذه منيت بنكبات كثيرة من برد وسيول ووعورة طرق ونفاد مؤونة وأصيبت بهزائم عسكرية شديدة .

وكان قد أقام معسكره في نواحي « دربند » فسماه « إيران خراب »(١) لكثرة ما لقي من البلاء . ثم وقع في عسكره الطاعون . وكاد هو نفسه يقتل وكانت نجاته كالمعجزة . بل وصل بعض المتمردين إلى خيمته نفسها وخطفوا بعض نسائه وسرقوا بعض الأثاث . وبلغ غضبه من هذه الحادثة إلى أن قتل جماعة من حرسه من ضباط وجنود . وبذل ممثل الدولة الروسية في إيران جهداً كبيراً ليثنيه عن متابعة الحملة لأنها ستفضي بإيران إلى عواقب وخيمة فلم يصغ إليه .

رجوع نادر من داغستان

ثم بعث بقوة من جيشه لفتح مدينة « آوار » وهي مفتاح الدخول إلى داغستان ، فأوقع « اللزكيون » بحملته هزيمة شديدة وكبدوها خسائر جسيمة . فغضب نادر إلى حد أنه قتل جماعة من ضباط تلك القوة ، ثم قاد حملة ثانية بنفسه ، ولكن « اللزكيين » اضطروه إلى التراجع أيضاً . ورأى أن جميع الظروف غير مؤاتية ، فانصرف عن متابعة الغزو . وقد حصل في هذه الغزوة على بعض الإنتصارات ، واحتفظ ببعض القلاع ، ولكنها انتصارات جزئية لا تساوي الخسائر التي تكبدها . وحطت نتائج هذه الغزوة من شأنه ومقامه .

وكان نادر قد بعث في السابق برسالة إلى السلطان محمود العثماني يطلب فيها الإعتراف بالمذهب الشيعي الجعفري والسماح لأتباعه بإقامة الجماعة إلى أحد أركان الكعبة أسوة بغيرهم من أهل المذاهب . فجاءه ، وهو في معسكره ذاك ، سفير من قبل السلطان العثماني وأبلغ إليه أن السلطان يرفض هذا الطلب . وبلغه أيضاً أن الدولة العثمانية بعثت بحشود عسكرية عظيمة إلى حدود إيران . فلم يجد بداً من الإنصراف إلى محاربة العثمانيين . فغادر داغستان في الخامس عشر من ذي الحجة سنة ١١٥٥ هـ متوجهاً نحو الجنوب .

استئناف محاربة العثمانيين

فلما استقر في إيران جهز جيشاً من ٣٧٥ ألف جندي . وفي سنة ١١٥٦ هـ بعث بقسم منه إلى العراق لاحتلال سامراء والحلة والنجف ومدن أخرى من أمهات المدن في بلاد ما بين النهرين فاحتلها بلا مقاومة ، وبعث قسم آخر إلى البصرة فحاصرها . وسار هو بجيش إلى إقليم « شهرزور » (كردستان) فاحتله بلا مقاومة . ثم احتل مدينة « كركوك » ، ولم يتابع زحفه منها ، إذ كان قد بعث إلى السلطان العثماني ، بواسطة « أحمد باشا » والي بغداد ، برسالة يقترح فيها عليه إيقاع الصلح بين الدولتين ، وكان يأمل أن يوافق السلطان على هذا الإقتراح ، فلا يضطر إلى متابعة الزحف . ولكن خاب أمله . فقد تلقى ، وهو في « كركوك » جواب رسالته من السلطان بالرفض ، وجاء في هذا الجواب أن شيخ الإسلام العثماني أفتى بأن قتل الإيرانيين وأسرهم مباح لأن مذهبهم مخالف لدين الإسلام . وفي هذا الوقت بعث السلطان العثماني بأمر إلى والي الموصل بأن يستميت في الدفاع عنها .

فلم يجد نادر بداً من الزحف ، فسار إلى الموصل ، واحتل جميع البلدان الواقعة على طريقه إليها بلا مقاومة تذكر . وكان في جملة ما احتله محلة « كارمليس » ، وهي المكان الذي تغلب فيه الإسكندر الكبير على « داريوش » سنة ٣٣١ قبل الميلاد . واعترضه « اليزيديون » عبدة الشيطان بمقاومة شديدة انتهت بانهزامهم . فلما وصل إلى الموصل ضرب عليها الحصار . ونشبت معركة هائلة ثبت فيها الطرفان ثباتاً شديداً . وذلك في الثامن من شعبان سنة ١١٥٦ هـ .

معاودة الصلح

وفيما المعركة دائرة وصل إلى معسكر نادر مبعوث من قبل السلطان لعثماني يحمل منه رسالة إليه يقول فيها : لا مفاوضة حتى تترك القوات لإيرانية أرض العثمانيين . فقبل نادر بذلك ، وتوقف في الثاني من رمضان سنة ١١٥٦ هـ عن التقدم ، وفك الحصار عن الموصل وتراجع بجيشه إلى « كركوك » و « قره تبه » . ثم انحدر إلى الجنوب لزيارة العتبات المقدسة في العراق وتهيئة المقدمات لعقد مؤتمر ديني سني شيعي في النجف للتوفيق بين الطائفتين . وهناك اجتمع بوالي بغداد وقال إنه مستعد لمفاوضة والي الموصل وإيقاف الحرب منتظراً مقترحاتهم للصلح . وبدأ بين إيران والدولة العثمانية

(١) كلمة « خراب » في هذا الإسم وضعها في مقابل كلمة « آباد » التي يجعلونها جزءاً من أسماء كثير من البلدان ، ومعناها « معمورة » مثل « نادر آباد » أي « معمورة نادر » . وإذ كان قد لقي كثيراً من النكبات في هذه الغزوة سمى هذا المعسكر « إيران خراب » لا « إيران آباد » .

عهد جديد من المجاملات . وتبع ذلك فك الحصار عن البصرة .

عودة إلى الحرب

إلا أن نادراً أيقن بأن السلطان العثماني لا ينوي الموافقة على معاهدة الصلح ، فاستأنف محاربة العثمانيين ، وحاصر « قارص » في سنة ١١٥٧ هـ . وفيما هو يحاصرها عاد العثمانيون فطلبوا الصلح . فانصرف عنها استجابة لهم ، وذهب للإقامة في نواحي « إيروان » ، فوصلها في الثاني عشر من جمادى الآخرة سنة ١١٥٨ هـ . وفي هذا السفر شعر بأعراض مرض شخصه الطبيب بأنه مبادىء استسقاء . واشتد به المرض حتى عجز في بعض المنازل عن ركوب الخيل فحملوه على المحمل المعروف بالتختروان .

ولكن العثمانيين عادوا فأصروا على الحرب ، فعاد نادر إلى مهاجمة « قارص » ، ونشبت معركة شديدة عندها ، انتهت بانهزام العثمانيين ، فتراجعوا إلى المدينة يتحصنون في داخلها . وفيما هو يدير هذه المعركة تلقى خبراً من ابنه « نصر الله ميرزا » بأنه انتصر على العثمانيين انتصاراً باهراً في نواحي الموصل . فازدادت عزيمته شدة . وبلغه أن وقع في « قارص » شغب في عسكر العثمانيين على قائده ، وأنه قد قتل أو مات غماً . وفي ذلك الوقت أمر نادر بإقامة احتفال فخم لعقد قران ابنه الثالث « إمام قلي ميرزا » وقران « إبراهيم خان » ابن أخيه القتيل « إبراهيم خان ظهير الدولة » . ثم احتل المدينة .

وقتل في معركة « قارص » هذه من العثمانيين اثنا عشر ألفاً وأسر ستة عشر ألفاً . وكان بين القتلى ثلاثة باشوات وجماعة من كبار الضباط . وعامل نادر الأسرى بالحسنى وأوكل العناية بالجرحى إلى أحد رؤساء الجيش العثماني . وبعث بالأسرى إلى طهران وتبريز .

ثم بعث برسالة ودية إلى السلطان محمود العثماني جاء فيها : « يصرف النظر عن الإقتراح الذي سبق بشأن المذهب ، إذ أوجد بين الشعبين المسلمين ضغينة وسفك دماء . ومن الآن فصاعداً تبقى صداقة الشعبين المتجاورين صداقة رساخة » . ثم ذهب إلى أصفهان العاصمة في السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١١٥٨ هـ .

وفي أثناء حروبه هذه استطاع قواده وحكامه أن يقضوا على عدة ثورات عنيفة نشبت في نواحي بلاد الكرج والأكراد والقفقاس وشيروان وغيرها . واستقامت الأمور فيها . وانضم كثير من جنود الثوار إلى جيشه . وكذلك قامت ثورات عنيفة في إيران نفسها فقضى عليها قواده العسكريون .

عوامل سلبية

وكان الباعث على هذه الثورات أحياناً تذمر الناس من قسوة طرأت على أخلاق نادر بسبب مرضه والمشقات التي تحملها ، فكلف الناس ما لا يطيقون من الضرائب وتعسف جباته في تحصيلها . واستغل خصومه وحساده من الرؤساء نقمة الناس فخرجوا عليه ونصرهم كثير من الأهالي .

وكان من جملة الخارجين عليه ابن أخيه « علي قلي خان » وقد رباه نادر في حجره وأحسن إليه بعد مقتل أبيه « إبراهيم خان » في داغستان . أرسله إلى « سيستان » ليقمع ثورة قامت فيها فانضم إلى الثوار . وكان نادر قد صادر أموال أبيه إبراهيم وفرض عليه ضريبة مائة ألف تومان ، فنقم عليه لذلك . وانتشر نبأ خروج « علي قلي خان » على عمه بسرعة في كل أنحاء إيران وآزره خلق كثير خرج بهم إلى « هرات » فوصلها في أواسط ربيع الثاني سنة ١١٦٠ وانضم إليه كثير من أهل تلك النواحي . وأصبح بعد ذلك يعمل على استخلاص تاج إيران لنفسه .

تتويج نادر

في الثامن من شهر رمضان سنة ١١٤٨ هـ بعث نادر برسائل إلى حكام بلاده وأعيانها وعلمائها يقول فيها إن مساعيه لاسترداد الأراضي والمدن المغتصبة كانت تمنعه حتى الآن من إقرار حكومة منظمة في المملكة . وأخبرهم أنه سيحضر قريباً إلى « تبريز » أو « قزوين » ويدعو الحكام ورؤساء قوات الأمن وعُمد المدن وسائر المسؤولين عن أُمور الحكم ، إلى الإجتماع هناك لوضع النظام لحكومة تبسط قوانينها على جميع أنحاء البلاد . وهذا ما يعرف اليوم باسم « الجمعية التأسيسية » . وأعلمهم في تلك الرسائل أنه ، بعد إتمام هذا العمل ، سيترك الحكم ويعتزل في ركن من خراسان .

كان قد خلع الشاه طهماسب عن العرش ، بعد إقدامه على محاربة العثمانيين بدون علم من نادر ، وانهزامه في تلك الحرب واضطروه إلى مصالحتهم بمعاهدة جائرة سنة ١١٤٤ كما مر ، ونصب مكانه ابنه « عباس ميرزا » ، وهو طفل رضيع ، وأصبح نادر بعد ذلك في منصب « نائب السلطنة ووكيل الدولة » فله الإمارة على إيران كلها . ثم أغار على الأراضي التي استولى عليها العثمانيون في غرب إيران فأخرجهم منها ، وأضاف إلى أرض إيران قسماً من كردستان والعراق العربي . وفي أوائل سنة ١١٤٧ هـ أغار على القفقاس ، فما حل شهر رمضان من سنة ١١٤٨ هـ حتى كان قد استخلص أراضي ذلك الإقليم كلها من تسلط الروس والعثمانيين وتسلط الأمراء المحليين ، وأخضع المتمردين في مختلف نواحي بلاده ، وبذلك استرد كل الأرض الإيرانية المغتصبة ، وبلغ غاية القدرة والسيطرة في الحكم . فرأى أن الوقت وقت إحراز منصب الملك .

فدعا إلى اجتماع شامل يعقد في « دشت مغان » ، سهل في جنوب أذربيجان يقع بين نهر « كر » ونهر « أرس » . وأمر بتهيئة مكان واسع للإجتماع وتجهيزه باثني عشر ألف منزل بعضها خيام وبعضها حُجر من القصب والخشب ، وبناء حمامات ومساجد وسوق وغيرها من اللوازم ، ومنزل فخم له ولحاشيته ، وجناح خاص لنسائه ، وتهيئة ألبسة فاخرة له ولحاشيته وجنده .

وفي ٢٩ رمضان سنة ١١٤٨ هـ الموافق ٢٥ كانون الثاني سنة ١٧٣٦ م وصل نادر إلى مكان الإجتماع في « دشت مغان » ، وقد بدا المكان في منتهى الأبهة والزينة والإتساع . وبدأت التشريفات واستقبال المدعوين من حكام وأمراء جيش وأعيان وعلماء وسفراء وروحانيين ووفود من ممالك ودول مختلفة . وكان بين الحضور السفير العثماني والسفير الروسي والكاثوليكوس الأرمني « أبراهام الكرتي » ، وكان نادر قد تعرف عليه في نواحي « قارص » في إحدى حروبه والعثمانيين . وقد كتب هذا الكاثوليكوس كتاباً في تاريخ نادر شاه ووصف اجتماع « دشت مغان » هذا وصفاً مفصلاً دقيقاً . وقد قُدر عدد الحضور بمائة ألف .

وفي الثاني من شوال سنة ١١٤٨ هـ أمر نادر ممثلي الولايات بالإجتماع والتشاور فيما بينهم لاختيار من يرونه الأنسب لمقام السلطنة . وقال إنه ، وقد أعانه الله فحرر أرض إيران من تسلط الأعداء واستطاع أن يبعد الأجانب إلى

خارج جدودها ، تجعله الشيخوخة ومتاعب الحرب المتتابعة بحاجة إلى الراحة ، فهو يرغب في أن يذهب إلى خراسان ويقيم في قلعة « كلات » ، ويقضي بقية عمره في دعاء الواحد الأحد لنفسه ولهم . فليختاروا « طهماسب ميرزا » (الشاه المخلوع) لمقام الملك . فإن لم يريدوه فليختاروا من شاؤوا من الأسرة الصفوية .

وبعد المشاورة أجمعوا على الجواب بأنهم لا يرون أليق منه بهذا المنصب . ولكنه امتنع عن القبول وامتنعوا هم عن التراجع عن ترشيحه . ودام الأخذ والرد بينه وبينهم بضعة أيام ، إذ أذعن لطلبهم وقبل بأن يملك . ولكنه اشترط عليهم شروطاً أهمها وعمدتها الإمتناع عن كل ما يؤذي شعور أهل السنة ، وأنذر من يخالف هذا الأمر بالعقوبة الشديدة . ونبههم إلى وجوب اعتبار أهل الدولة العثمانية إخواناً لهم يجمع بين الأمتين جامع الإسلام ويحقن كل منهما دم الأخرى ، وأن لا حروب بينهما بعد اليوم ولا سفك دماء ولا عداوة ، وليس إلا المودة والإخاء ، فإلههم واحد ونبيهم واحد وقرآنهم واحد .

فرد عليه ممثلو الإيالات بالإيجاب والقبول لجميع شروطه . ثم حُرر محضر بهذا الإجتماع وقع عليه المجتمعون كلهم . وتاريخ المحضر هو « ٤ شوال المكرم سنة ١١٤٨ هـ » . ثم ألبس نادر التاج ، وأقيمت معالم الفرح والإحتفال في غاية الزينة والأبهة .

وبعد التتويج بعث نادر بالشاه عباس الصفوي الذي كان قد توج ، وهو طفل رضيع بعد خلع أبيه ، إلى خراسان عند أبيه طهماسب .

المؤتمر السني الشيعي

لما عرض السلطان محمود العثماني على نادر شاه سنة ١١٥٦ هـ ، بواسطة « أحمد باشا » والي بغداد ، الصلح بشرط رجوعه عن أرض العثمانيين ، وقبل نادر بذلك ، انصرف عن محاصرة البصرة ، وتوقف عن التقدم في أرض العثمانيين في الثاني من رمضان سنة ١١٥٦ هـ ، وتراجع بجيشه إلى « قره تبه » بالقرب من « كركوك » . ثم ترك جيشه معسكراً فيها ، وذهب إلى العراق لزيارة العتبات المقدسة . فلما وصل إلى بغداد استقبله السفير العثماني والوالي العثماني « أحمد باشا » وسائر رجال الدولة العثمانية الذين في بغداد .

ثم زار مقام الإمام موسى الكاظم والإمام محمد التقي عليهما السلام في « الكاظمية » من ضواحي بغداد . وزار مقام الإمام أبي حنيفة في بغداد ، عبر إليه دجلة هو ومرافقوه على سفن أعدها لهم الوالي العثماني وزينها زينة أنيقة مترفة . وفي أول شوال سنة ١١٥٦ هـ زار العتبات المقدسة في كربلا . وتبرعت زوجته « رضية بيغوم » بنت الشاه حسين الصفوي بمبلغ كبير لتعمير العتبات وترميمها .

وبعد مدة قصيرة ذهب إلى النجف ، وفي ركابه علماء من إيران والأفغان وبلخ وبخارى ، وسائر البلاد الإيرانية . وهناك أمر بتغشية مقام الإمام علي بن أبي طالب عليه السّلام بالذهب .

وكانت له غاية أخرى من هذه الزيارة هي القيام بعمل حاسم لتحقيق اتحاد أهل السنة والشيعة . وهي أمنية قديمة في نفسه سعى إليها أكثر من مرة ، ونبه إليها بالتفصيل في خطابه يوم تتويجه في « دشت مغان » سنة ١١٤٨ هـ . وكان يجعلها دائماً عمدة شروطه لمصالحة العثمانيين . ومن أجل ذلك طلب عقد مجلس في النجف يشترك فيه أهل السنة والشيعة يتألف ممن معه من العلماء وعلماء الديار المقدسة من بلاد ما بين النهرين ، للنظر في المسائل التي هي موضع الإختلاف وإيجاد حل لها[1] .

فاجعة ولي العهد

كان في نفس نادر شاه شيء من ابنه الأكبر ولي عهده « رضا قلي ميرزا » ، لسوابق تلكأ في بعضها عن إنفاذ أمر أبيه وعانده في بعضها .

وفي شهر رجب سنة ١١٥١ هـ اختاره لمنصب نيابة السلطنة ومنصب قيادة الجيش الإيراني .

وفي تلك السنة سار نادر إلى غزو الهند وبقي ولي عهده في إيران نائباً عنه . وقبل مسيره أوصاه بأشياء وبين له حدود سلوكه وتصرفاته . وكان مما أوصاه به المحافظة على الشاه طهماسب ، وكان في الإقامة الجبرية في مدينة « سبزوار » مع ابنه الشاه عباس الطفل وابن آخر أصغر منه اسمه إسماعيل ، وأن يختار حراسهم من المؤتمنين .

ولكن « رضا قلي ميرزا » سار في غيبة أبيه سيرة على خلاف ما أوصاه به . فاستبد استبداداً أوقع الرعب في قلوب الناس . واتخذ لنفسه من مظاهر الأبهة والترف شيئاً كثيراً . وعزل بعض خواص أبيه عن مناصبهم بتحريض ممن كانوا يتلمقونه من خصومهم وخصوم أبيه فينخدع بهم .

وفي سنة ١١٥٢ هـ انتشرت شائعة قوية في إيران أن نادراً لقي حتفه في الهند ، وأن وباء قاتلاً وقع في عسكره . فحسّن أحد ندماء ولي العهد ، واسمه « محمد حسين خان القاجاري » له أن يحتاط لنفسه فيقتل الشاه طهماسب وولديه ، خوفاً من أن يغتنم أنصار الصفويين فرصة موت نادر فيثوروا عليه ليعيدوا الملك إليهم . فقبل كلام هذا القاجاري وبعث به هو نفسه إلى « سبزوار » فقتلهم ثلاثتهم على نحو فظيع . وكان عمر الشاه عباس يومئذ ثماني سنوات وأخوه إسماعيل أصغر منه . وكان « رضا قلي ميرزا » متزوجاً من « فاطمة سلطان بيغوم » أخت الشاه طهماسب . فلما بلغها نبأ مقتل أخيها وابنيه انتحرت . والظاهر أنهم قتلوا سنة ١١٥٣ هـ .

ولما عاد نادر من الهند ورأى ما اتخذه ابنه من مظاهر البذخ والسلطان على خلاف ما أوصاه به وعلم بمقتل الشاه طهماسب وولديه غضب وازداد شكه في نوايا ولي عهده وأحزنه مقتل الشاه والطفلين ، فعزله من ولاية العهد وجعلها لابنه « نصر الله ميرزا » .

وبعد مضي سنة من إطلاق الرصاصة على نادر في غابة « سوادكوه » سنة ١١٥٤ هـ ، وهو في طريقه إلى داغستان ، عرف الجاني وقبض عليه واعترف بذنبه . فلما سئل عن المحرض له على ذلك نفى أن يكون قد حرضه أحد ، وأصر على أنه أقدم على محاولة القتل من تلقاء نفسه . فوعده نادر بالعفو عنه إن هو أقر باسم المحرض . عندئذ ذكر اسم « رضا قلي ميرزا » . ولكن الرأي الغالب عند المؤرخين ، ومنهم الأب « لويس بازن » والدكتور « ليرش » وهما من أوسع المؤرخين اطلاعاً على تاريخ إيران ، أن « رضا قلي ميرزا » بريء من هذه التهمة ، وأن الجاني إنما ذكره لينجي نفسه من القتل

---

(١) ذكرت التفاصيل في ترجمة علي أكبر ملاباشي في المجلد الثامن من (أعيان الشيعة) فلا نعيدها هنا .

بناء على وعد نادر له . وقد وفى نادر بوعده فلم يقتله وإنما اكتفى بإعمائه .

وفي تلك السنة ، سنة ١١٥٤ هـ ، كان نادر عرضة لأزمة نفسية ، بسبب انكساراته في داغستان واشتداد مرضه بعد أن تركه طبيبه الهندي ، وكان ينتفع به ويعتمد عليه ، وتوالي المشقات عليه في حروبه المتصلة ، وطول مقاساته شدائد الحر والقر وغير ذلك من العوامل الطبيعية القاسية ، والحوادث المؤلمة التي وقعت في إيران في أثناء غيابه في الهند والشيخوخة ، كل ذلك جعل مزاجه عكراً عصبياً . فحكم بلا روية بإعماء عيني ابنه « رضا قلي ميرزا » . فاستدعاه من طهران إلى معسكره الذي أقامه في داغستان على شاطىء بحر قزوين وسماه « إيران خراب » قريباً من مرفأ « دربند » . والظاهر أن إنفاذ ذلك الحكم المشؤوم قد وقع في ذلك المعسكر . وأعميت عينا الأمير التاعس بحضور أبيه وجماعة من رجاله في خريف سنة ١١٥٤ هـ الموافقة سنة ١٧٤٢ م .

ولكن نادراً عاد فندم ندماً شديداً بعد إنفاذ الحكم . فما كان منه إلا أن بادر إلى قتل جماعة من رجاله كانوا حاضرين إجراء الحكم ، لأن أحداً منهم لم يلتمس منه العفو عن ابنه وينبهه إلى عاقبة هذا العمل . وبلغ منه الغم مبلغاً شديداً ، فاعتزل في خيمته ثلاثة أيام لا يغادرها .

وكانت عاقبة الأمير الأعمى أن قتله وإخوته وأبناءه ابن عمهم « علي قلي خان » سنة ١١٦٠ هـ ، بعد مقتل نادر .

مقتل نادر

كان نادر ، في الأساس ، جندياً ، وأكثر مهارته تجلى في القيادة العسكرية . ولكنه كان أيضاً سياسياً كفأ وإدارياً حازماً مدبراً لا يترك كبيرة ولا صغيرة من شؤون ملكه إلا راقبها . لا يسمح لنفسه بإهمال شيء مهما قل شأنه . لا يمل من كثرة العمل ولا يجبن عن اقتحام الصعاب ، بل يجد متعة في معالجة المشاكل والإجتهاد في حلها ، حتى أصبح موضع الحمد والثناء من أمته ، قادراً على تملك قلوبهم وتصريفهم كيفما شاء . ولكن أكثر اهتمامه كان منصرفاً إلى التطلع نحو الفتوحات العسكرية فقل اهتمامه بشؤون الإدارة . ومع ذلك كان قد قام بمأثرة عظيمة هي إحدى مآثره الكثيرة ، إذ استطاع أن يبسط النظام والإستقرار على كل نواحي ملكه ، وضبط أمور الإدارة بكل دقة ، وعاقب المخالفين والمتلاعبين بلا هوادة ، وحصن الحدود الشمالية الشرقية في وجه حملات الغزو المتتابعة ، حملات التركمان والأزابكة وقبائل « أفشار » والأكراد وسائر القبائل المتمردة ، وما زال يضعفها شيئاً فشيئاً حتى استأصل شأفتها .

ومن مفاخره ما أقدم عليه من خطط ثورية جديدة. من ذلك سعيه قصارى جهده إلى رفع الإختلاف من بين أهل السنة والشيعة . ومنها نبذه طريقة الصفويين التي كانت متبعة في تربية أمراء البيت المالك ، وهي أن يظلوا قعيدي القصر يتقلبون في حياة الرفاه والراحة إلى يوم تسلمهم زمام الحكم .

ومع أن مهاراته العسكرية قد أوصلت إيران إلى ذروة العظمة وحررتها من حكم الأجانب فإن قلوب رعاياه لم تلبث أن أخذت تبتعد عنه شيئاً فشيئاً لاستقلاله برأيه وفرض الضرائب الثقيلة ، خصوصاً في أواخر عمره . وزاد في نفور الناس منه إبادة ابنه للأسرة الصفوية على ذلك النحو الفظيع .

ظل نادر في صحة جيدة ومزاج سليم إلى سن الخمسين . ففي هذه السن اعتل جسمه وأثرت العلة في روحيته تأثيراً سيئاً . وقبل حملته على الهند أصيب بمرض في معدته جعله متشائماً . ولم يفده طب الإيرانيين فاستدعى أطباء أجانب . وعاينه في الهند طبيب حاذق اسمه « علوي خان » فانتفع به وصحبه معه إلى إيران وأصبح طبيبه الخاص يرافقه أينما ذهب . ثم فارقه سنة ١١٥٤ هـ وسافر إلى مكة لأداء فريضة الحج ، فازدادت حالة نادر الصحية سوءاً . فلما حلت سنة ١١٥٦ هـ حتى كان قد تغير تغيراً عظيماً ، وظهرت عليه أعراض عصبية شديدة . وكان حكمه على ابنه بذلك الحكم المشؤوم ثم ندمه حيث لا ينفع الندم قد جعله في حالة مزاجية شديدة الخطر . فأصبح دائم الغضب ، وصدرت منه تصرفات مستغربة ، منها أنه ، بعد أن كان قد أمر بإعفاء الإيرانيين من الضرائب إلى ثلاث سنوات ، لم يلبث أن ألغى هذا الأمر .

يقول « هانوي » :

« كان رسله إلى تحصيل الضرائب كرسل العذاب واللعنة في نظر الناس . وإلى هذا كان لا ينفك يضيف إلى الملايين التي كنزها في « كلات » مبالغ أخرى من النقد والمجوهرات . ويقيناً لو أن فتح خزائنه التي في « كلات » وبذل من ملايين النقود التي حصل عليها من الهند لجعل من عسكره سنداً له . ولم توجد دواع للتذمر . وواصلت إيران فائزة سعيدة عهده المجيد الذي حققه إلى آخر سلسلته الطويلة » .

قلما اهتم نادر في أواخر عمره برفاه رعاياه ، ولا فكر في توسعة المصادر المادية لأمبراطوريته . وانصرف إلى جمع المال والعتاد لتجهيز قواته العسكرية العظيمة . ولما استوى على عرش السلطنة كانت إيران تقاسي عجزاً وفقراً شديدين بعد المعارك الطويلة التي خاضتها في محاربة الأفاغنة والعثمانيين . وكان نادر يستطيع ، وقد عاد من الهند يحمل الملايين من النقد ، أن يعفي الإيرانيين من دفع الضرائب إلى مدة سنين طويلة . ولكنه ، بدلاً من ذلك ، أخذ ينفق أمواله الضخمة تبذيراً ، وازداد قسوة في فرض الضرائب . وأخذ التجار والفلاحون يتذمرون من هذه الضرائب الباهظة وتكليفهم سد حاجات القوات العسكرية . وكان أمراً عجيباً أن لا يدرك رجل على مثل هذا الذكاء الحاد أنه بإقدامه على مثل هذه الأمور إنما يسعى إلى الخيبة . وكل الدلائل تدل على أن تضعضع قواه الفكرية الذي عراه في السنوات الأخيرة من ملكه كان السبب في هذا الخبط .

وفي سنة ١١٥٧ هـ كان يسير إلى غزو « إيروان » في أذربيجان فأصيب وهو في الطريق إليها بمرض شديد أعجزه عن متابعة السير ، حتى أنهم اضطروا إلى حمله في بعض الطريق على محمل « التختروان » . وعالجه الطبيب حتى تحسنت حاله .

ثم اتصل به الأب « لويس بازن »(١) ، وكان طبيباً ، فلازمه إلى آخر أيام حياته ، وانتفع به . ولكنه بدا في آخر سنة من عمره منكسر النفس مغموماً . وتمادت به هذه الحال حتى كان في الشهرين الأخيرين من عمره قد خرج عن حالته المعتادة كلياً .

---

(١) الأب « لويس بازن » فرنسي كان مبشراً ، وكان طبيباً أدخله نادر في خدمته وانتفع بطبه حتى أصبح أول أطبائه . وقد بعث هذا الأب إلى رئيسه في فرنسا بتقارير تضمنت معلومات ثمينة عن حياة نادر شاه .

كتب كاتب نادر « الميرزا مهدي خان » في كتاب له في تاريخ نادر شاه ما معناه :

« ظل نادر مثال الشهامة في السلطان والسيطرة والعدالة والرفق بالعاجزين إلى يوم عاد فاتحاً من خوارزم ثم توجه إلى داغستان فلم يكن توفيقه في حروبه في ذلك الإقليم كاملاً . واستولت عليه الوساوس والأوهام فأعمى عيني كبير أبنائه ولي عهده رضا قلي ميرزا ثم ندم . ومن شدة الغصة تغيرت أحواله وأصبح ذا مزاج غاضب . وزاد في تغيير أحواله أنه ، إذ كان ينوي أن ينصرف من داغستان ودربند إلى احتلال القسطنطينية ، قامت في إيران فتن وثورات في نواحي مختلفة ، قتل فيها فريق من خيرة رجاله . فازدادت انفعالاته العصبية حدة وأدى ذلك إلى نفور الناس منه وابتعادهم عنه . وبلغت به هذه الحال إلى أن أصبحت أفعاله وحركاته غير طبيعية . وأخذ يوقع بموظفي الضرائب عقوبات قاسية . وزاد في نقمة الناس عليه قسوة التدابير التي كان يتخذها لمنع الثورات ، والظلم الذي كان يرتكبه الجباة .

« وفي أوائل الشتاء من سنة ١١٥٩ هـ جاء نادر إلى أصفهان فأقام فيها بضعة أسابيع . وألمت به وعكة ، وهو يقاسي تلك المتاعب الروحية والبدنية من مشقات العمل الطويل والحروب المتوالية وما لقيه من نكران للجميل ومن أكاذيب حاشيته ، وخروج ابن أخيه « علي قلي ميرزا » عليه ، وقد رباه بعد مقتل أبيه في حجره ورعايته . وكان قد بعث به إلى سيستان لإخماد ثورة قامت هناك ، فإذا به هو نفسه يثور عليه . فجعل كل ذلك نادراً حاد المزاج سيء الخلق . وفرض على الأجانب المقيمين في إيران ضرائب ثقيلة .

« وفي سنة ١١٦٠ هـ غادر أصفهان إلى يزد وكرمان . وفي طريقه كان يقمع المتمردين بشدة . ثم تابع سيره إلى مشهد . فاجتاز صحراء لوت القاحلة ، ومات كثير من جنده فيها جوعاً وعطشاً .

« فلما وصل إلى طبس ، وهي أول مدن خراسان في الجنوب ، دعا إليه أبناءه وأحفاده ، وكان قد أحضرهم إليها قبل ذلك . فاستعرضهم ودقق النظر فيهم . ثم عرض عليهم أن يكون التاج والعرش للأرشد منهم . وكانوا كلهم يخشون أن يكون أبوهم قد نصب لهم فخاً ليوقع بهم . فامتنعوا كلهم عن القبول محتجين بصغر السن وقلة التجربة » . ا هـ .

وقال الأب « لويس بازن » الفرنسي طبيب نادر في إحدى رسائله التي بعث بها إلى رئيسه ، في كلامه عن قدوم نادر إلى مشهد في تلك الرحلة :

« لما وصل نادر إلى مشهد عمت خشيته كل الناس ، من محليين وأجانب وحكام وضباط وجنود . وبدثت المؤامرات السرية عليه من كل جانب . حتى أقاربه كانوا ينظلمون . وأخذ هو يشك في حاشيته . وصعب عليه إلى حد بعيد انصراف كثير من الجند عنه . ودعا بعض حكام المدن إلى الحضور عنده ، وعاقبهم عقاباً شديداً وفرض عليهم أن يجمعوا له مبالغ ثقيلة من المال .

« ثم سافر إلى كلات فتفقد العمارات التي كان قد أمر ببنائها ، ومنها خزانات الأموال ، فأودع فيها مما غنمه من النقود والجواهر والمفروشات الثمينة وما أشبه ذلك شيئاً لا يقدر ثمنه . وقد استعمل في إنشاء هذه العمارات حجارة كبيرة جلبت من مراغة وبلغ وزن بعضها من ستة عشر طناً إلى عشرين طناً » . ا هـ .

ثم جهز جيشاً ليقمع ثورة قام بها الأكراد في بلدة « قوشان » . وكأنما كان يشعر بالخطر الذي يهدده وأسرته ، فبعث ، قبل أن يغادر مشهد ، بأولاده إلى « كلات » ليكونوا في مأمن إن حدث شيء . وسار حتى وصل إلى « فتح آباد » على بعد اثني عشر كيلو متراً من « قوشان » فعسكر فيها .

وذكر الأب « لويس بازن » طبيب نادر ، وكان في صحبته في « فتح آباد » يومئذ :

« كأنما كان نادر عالماً بالمصير المشؤوم الذي كان مقدراً عليه في هذا المكان . فقد ربط في حرمه حصاناً مسرجاً مهيأ دائماً للركوب . وعزم أكثر من مرة على الفرار إلى كلات . ولكن حراسه حالوا بينه وبين الفرار ، ونبهوه إلى ما للفرار من عواقب مشؤومة ، وعاهدوه على أن يبذلوا دماءهم حتى آخر قطرة من أجل المحافظة على حياته . وما زالوا به يطمئنونه حتى عدل عن الفرار » . ا هـ .

وكان في مقدمة المحرضين عليه قريبه « محمد قلي خان أفشار » قائد حرسه الخاص و « صالح خان قرقلو أفشار » مدير شؤون البلاط . وكان حرس معسكره يتألف من أربعة آلاف أفغاني يوالونه كلهم ويبطنون العداوة للإيرانيين . فأحضر عنده رؤساء الأفاغنة واختلى بهم ، وقال لهم : أنا غير راض عن حرسي الخاص . أما أنتم فإن شجاعتكم وصداقتكم أمر مسلم به عندي . وإني آمركم بأن تقبضوا غداً على ضباط حرسي كلهم وتقيدوهم ، فمن قاومكم منهم اقتلوه بلا تردد . وأوصاهم بالتيقظ في المحافظة على حياته ، إذ هو لا يعتمد على أحد غيرهم . فأجابوه بالسمع والطاعة . وانصرفوا متهيئين لإنفاذ أمره .

وبدا نادر في ذلك اليوم في منتهى القلق والإضطراب على خلاف المعهود منه ، وكان لا ينفك يتردد بين حرمه ومجلسه لا يستقر به مكان . ولا يجرؤ أحد من جلسائه على سؤاله عن السبب . إلا أن أحد خواصه المقربين من أصحاب الدالة عليه تجرأ فسأله عن سبب قلقه واضطرابه . فاختلى به نادر وقال له :

« لقد رأيت حلماً أقصه عليه فلا تبح به لأحد :

« في أول أمري ، قبل أن يهبني الله هذه الدولة ، أرسلني بابا علي بيك كوسه أحمدلو حاكم أبيورد إلى أصفهان في مهمة . فسرت إليها ومعي بضعة نفر . فلما وصلنا إلى هذا المنزل ، فتح آباد ، نصبنا خيمة صغيرة في هذا المكان الذي ينتصب فيه الآن هذا الفسطاط الملوكي . فلما نمنا رأيت في ما يرى النائم أن شخصاً يناديني أن أحضر إليه . فلما حضرت إليه قال لي : هيا معي فإن الحضرة تطلبك . فسرت معه حتى بدا لي في الصحراء مكان مرتفع ، يجلس في أعلاه اثنا عشر رجلاً من الأجلاء ، قد أزهرت الصحراء بنور وجوههم . فقدمني ذلك الشخص وقال : هو حاضر . فقال أحد أولئك الأجلاء ، وكان أكثرهم جلالاً ، لآخر منهم : أحضر ذلك السيف . فامتثل لأمره وأحضر السيف إليه . فطلب مني أن أتقدم فامتثلت . فنطّقني بالسيف وقال : إنّا أعطيناك رياسة إيران ، فاسلك بعباد الله مسلك الروية . ثم أذن لي بالإنصراف . فلما أفقت كتمت الرؤيا لم أقصصها على أحد . وما زلت أتقدم وأعمالي تتم وفق المراد حتى بلغت إلى هذه الدولة الموهوبة من الله .

« وفي الليلة البارحة رأيت في نومي ذلك الشخص نفسه الذي أخذني

إلى مجلس أولئك الاثني عشر العظام . أقبل إلي وجرني جراً عنيفاً بمنتهى الشدة إلى مجلسهم ذاك ، وأوقفني مواجهاً لهم . فلما وقع نظر ذلك العظيم الذي نطّقني بالسيف عليّ عبس ، وقال : جرد هذا الذي لا كفاءة له من السيف لأنه ليس أهلاً له . وعبثاً حاولت الاحتفاظ بالسيف ، وانتُزِع مني جبراً ، ثم طردوني . فأنا لا أستطيع استقراراً ولا طمأنينة منذ استيقظت من النوم . فلو أني ذهبت إلى قلعة كلات وقضيت فيها يومين أو ثلاثة ، ولم يحدث شيء ، لزال عني الكدر وعاودني السرور » .

فنصحه صاحبه بأن لا يخاف من هذا المنام ، وطمأنه إلى أن لا مجال للمقارنة بينه وبين أعدائه . فهم مقهورون لا استقرار لهم . وقال : إن قلعة كلات قريبة ، ولا بأس عليك من أي طريق سلكتها إليها . فقال له نادر : ما أعرفه أنا لا تعرفه أنت ولا غيرك .

ثم دخل إلى حرمه لينام في خيمة إحدى زوجاته ، اسمها « جوكي » (شوقي) وهي قاجارية . وقال لها : إن النعاس غلب علي . ولكني لا أستحسن النوم . فإذا رأيتني استغرقت في النوم فأيقظيني . ثم أغفى .

وكان رؤساء الأفاغنة على أهبة الإستعداد ينتظرون يوم الغد . ولكن حديث نادر إليهم علم به جاسوس عليه ، فنقله إلى عدويه « محمد قلي خان أفشار » قائد الحرس الملكي و « صالح خان » قرقلو أفشار » مدير شؤون البلاط . فتعاهدا على أن يقضيا على عدوهما المشترك ليلاً ، وأن لا يتخلى أحدهما عن الآخر ، وكتبا بذلك عهداً خطياً . ثم عرضا الأمر على بعض من يثقون بهم من أصدقائهم فوافقوهم ووقعوا على وثيقة العهد ، وفيهم واحد قاجاري واثنان أفشاريان . ثم عرضوا الوثيقة على ستين رجلاً من رفاقهم من رجال البلاط فوقعوا عليها وتهيأوا جميعاً لقتل نادر .

وفي تلك الليلة ، ليلة الأحد ١١ جمادى الآخرة سنة ١١٦٠ هـ دخلوا بعد منتصف الليل إلى مخيم حرمه . وكان أول الداخلين « صالح خان أفشار » و « محمد خان قاجار » . ووجد صالح حارساً هناك فبادر إليه فأطبق بيده على فمه وأمسك به وقال له : إن أنت دللت على الخيمة التي ينام فيها نادر نجوت وإلا خنقتك . فأشار الحارس بعينيه إلى خيمة « جوكي » . عندئذ خنقوا الحارس وتقدموا إلى الخيمة . ولكنهم لم يجرؤوا ، أول الأمر ، على دخولها رهبة وتهيباً . ثم تجرأ « محمد خان قاجار » و « صالح خان » وبضعة رجال آخرين على التقدم ، فشقوا الخباء بخنجر ودخلوه . وكانت « جوكي » زوجة نادر مستيقظة . فلما رأت سوادهم أمسكت برجل الشاه وهزته ، فهب واقفاً . ولما وقع نظره على « صالح خان » شتمه وجرد سيفه وهجم عليهم فقتل اثنين منهم . ولكن قدمه عثرت بطنب الخيمة فوقع على الأرض . وقبل أن يتمكن من النهوض عاجله « صالح خان » بضربة سيف وقعت على كتفه فقطعت يده . ووقف صالح مدهوشاً لا يجرؤ على الإجهاز عليه . فتقدم « محمد خان قاجار » إليه واحتز رأسه .

وأمر صالح حملة البنادق من رجاله أن لا يسمحوا لأحد من حرس المعسكر بترك مكان حراسته ولا يجيزوا لأحد الدخول إلى الحرم ولا الخروج منه . فإن خالفهم أحد قتلوه ، ليبقى الحادث مكتوماً إلى الصباح .

وأغار الجناة على حرمه فنهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم من الجواهر . وأسرعوا من الحرم إلى خيام وزرائه ، وكانوا ثلاثة ، فقتلوا اثنين منهم .

ومع كل الاحتياطات التي اتخذها المتآمرون فإن الخبر ذاع في تلك الليلة نفسها ، ولكن لم يُصدق . وفي الصباح ، إذ صح الخبر ، أخذ الناس وجنود « قزلباش » وغيرهم ينهبون المعسكر وينصرفون إلى بلادهم . فما حان وقت الظهر من ذلك اليوم حتى كان المعسكر وما فيه من أثاث أثراً بعد عين .

أما حرس المعسكر من الأفاغنة فإنهم لما سمعوا بالخبر انطلقوا إلى الخيمة التي قتل فيها نادر فوجدوا ستة آلاف جندي من « قزلباش » يسدون عليهم الطريق ، ثم انضم إلى « قزلباش » أربعة آلاف جندي آخرين . ولكن الأفاغنة استطاعوا أن يجدوا لهم طريقاً إلى داخل الخيمة . فلما رأوا جثة نادر أخذهم الأسف واليأس ، ثم خرجوا فتلقاهم جنود « قزلباش » بالحرب ، ودارت معركة سال فيها كثير من الدماء ، استطاع الأفاغنة بعدها الخلاص فانطلقوا نحو « قندهار » .

وهكذا كانت عاقبة رجل من أعظم الرجال في تاريخ إيران . يقول « السير جان مالكم » :

« لم يبلغ أحد من سلاطين آسيا إلى عظمة هذه الفتوحات . والنصر الذي أحرزه في الهند جدد عزة إيران ورفعتها القديمين ، وأعلى صوت أبنائها . وزاد فتحه بخارى في قوة المُلْكِ والأمة وأبعد صيتها . وما أبداه من كرم في وهبه التاج لشاه بخارى وسلطان الهند يدل على أنه كان يعتقد أن عماد اقتداره إنما هو في صيت السيف وحسن التدبير ، لا في سعة الملك وبسط السلطان » .

وقائع وعبر

وكان « علي قلي خان أفشار » ابن أخي نادر يقيم في « سيستان » مع المتمردين على عمه . وقد سبق أن طلب التاج لنفسه . فلما بلغ إليه خبر مقتل نادر أعلن نفسه ملكاً على إيران وسار إلى مشهد . وانضم إليه عسكر « قزلباش » والأفشاريون . فلما وصل إلى مشهد جلس على عرش السلطنة في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١١٦٠ هـ ، أي بعد مضي ١٦ يوماً على مقتل نادر .

ثم بعث بحملة من البختياريين إلى « كلات » حيث يقيم أبناء نادر شاه . فحاصروها ثم احتلوها . وقبضوا على أولاد نادر وأحفاده . فأمر « علي قلي خان » بقتلهم . فقتلوا كلهم ، وفيهم خمسة أطفال أعمارهم بين الرابعة والثانية عشرة ، وفيهم « رضا قلي ميرزا » ابن نادر شاه الأعمى مع ثمانية عشر شخصاً من أبنائه وأحفاده ، ما بين طفل وشاب . ولم يبق على أحد منهم سوى « شاهرخ ميرزا » ابن « رضا قلي ميرزا » ، وكان في الرابعة عشر ، وضعه سراً في السجن وأشاع أنه قتل . وقد استحياه ليتدبر عاقبة أمره على هذا النحو : إن استتب له الملك ورضي به الناس قتله . وإن رفضه الناس ولم يستو أمره أخرج شاهرخ من السجن وأجلسه على العرش ونصب نفسه وصياً عليه ونائباً عنه ، لظنه أن الناس لن يرفضوا ملكاً من سلالة نادر .

وساير الشاه الجديد « محمد قلي خان أفشار » رئيس حرس نادر الخاص ورأس المؤامرة عليه ، وتلطف به مدة ، ثم اعتقله وسلمه إلى نساء حرم نادر فقطعنه قطعة قطعة !

ولكن « علي قلي خان أفشار » ، وقد أصبح يدعى « علي شاه » لم يلبث أن خرج عليه أخ له اسمه « إبراهيم خان » وطالب بالتاج لنفسه ، وأعلن الحرب على أخيه ، فهزمه وقبض عليه رجال « إبراهيم خان » فأعموا عينيه وقيدوه وسلموه إلى أخيه .

ثم اتفق أهالي مشهد ورؤساء العسكر في خراسان على مبايعة حفيد

نادر « شاهرخ ميرزا » المسجون فأخرجوه من السجن ونصبوه شاهاً على إيران . وقد استطاع هذا الشاه الجديد أن يقبض على « إبراهيم خان » فأعمى عينيه ثم قتله . وسلم « علي شاه » والأعمى إلى حريم نادر فقطعنه قطعة قطعة !

ثم ثار جماعة على « شاهرخ شاه » فخلعوه وأعموا عينيه وسجنوه ، ونصبوا في مكانه على العرش سبطاً للشاه سليمان الصفوي . ولم يدم ملك هذا سوى أربعين يوماً ، إذ عادوا فخلعوه وقتلوه ، وأعادوا « شاهرخ » الضرير إلى العرش !

ثم حدثت انقلابات وفجائع أخرى لا مجال لذكرها هنا .

قبر نادر شاه

دفن نادر شاه في مشهد . وكان قد بنى في حياته لنفسه قبراً فيها وقبراً في « كلات » . والظاهر أنه إنما فعل ذلك احتياطاً لاحتمال أن لا يستطاع دفنه في إحداهما فيدفن في الأخرى .

وقد هدم قبره ابن أخيه « علي قلي خان » بعد إعلان نفسه شاهاً على إيران ، وسمى نفسه « علي شاه » . ثم أعيد بناؤه في ملك « شاهرخ شاه » حفيد نادر . فلما ملك القاجاريون هدموه وهدموا أيضاً العمارات الفخمة التي بناها نادر في « كلات » ومنها ذلك المسجد الأنيق . وهي اليوم أطلال بالية ، وظل قبره منهدماً إلى هذا العصر ، إذ بنوا له قبراً ورفعوا تمثالاً .

نقش خاتمه

وكان نقش خاتمه :

« لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار » .

« نادر العصر أنا وبلطف الحق عبد الثمانية والأربعة أنا »[1] .

بعض خصائصه وتطلعاته

من أبرز الأمور في سيرة نادر شاه حرصه الدائم على تهيئة الأسباب لتوحيد السنيين والشيعة في مجتمع إسلامي واحد ، وتجاوز الحدود القومية والمذهبية والقبلية التي تفرق بين المسلمين ، إلى أمبراطورية إسلامية موحدة تتآخى فيها قومياتهم وقبائلهم ومذاهبهم الدينية .

وخطابه الذي تلي على الجمهور بعد حفل تتويجه ، ورسائله إلى السلطان العثماني ، ومعاملته الأسرى العثمانيين بالحسنى ثم إطلاق سراحهم ، وحسن معاملته للأفاغنة السنيين ، بعد غزوة لهم وغلبته عليهم في « هرات » و « قندهار » و « كابل » وغيرها ، مع كل ما أوقعوه بالإيرانيين من نكبات وظلم وقتل وتخريب ، وحرصه على أن يكون جيشه مزيجاً من أهل السنة والشيعة ، ونقله طوائف من الأفشاريين والبختياريين والأذربيجانيين والأفاغنة والعراقيين إلى خراسان ليحصل تمازج واختلاط بين أبناء تلك الطوائف ، ودأبه على تنبيه الشيعة ، بمنتهى الشدة ، إلى وجوب الإمتناع عن كل ما يؤذي شعور أهل السنة ، وتهديده المخالفين بالعقاب الشديد ، كل ذلك كان توجيهاً إلى ذلك السبيل .

والمؤتمر السني الشيعي الذي عقده في النجف والمحضر الذي حرر بوقائع هذا المؤتمر ووقع عليه ممثلو أهل السنة وممثلو الشيعة كان يرجو أن يكون الخطوة الحاسمة إلى هذه الغاية .

ومن ثم كان في محاربته العثمانيين يجعل عمدة شروطه عليهم للصلح رفع الإختلاف من بين أهل السنة والشيعة . ولو استجاب له العثمانيون لوقوا العالم الإسلامي من كثير من الفواجع والكوارث ورفعوا المسلمين إلى مكانة عزيزة .

وكانت حروب نادر شاه كلها من أجل استرداد أرض بلاده المغتصبة ، وحماية بلاده من دسائس الأجانب الطامعين فيها ، وإخضاع الإنفصاليين والعصاة . ولكنه كان دائماً يفضل أن يحقق ذلك بالصلح والتفاهم ، فلا يتوسل إليه بالحرب إلا مضطراً . وما من مرة اقترح فيها العدو عليه الصلح إلا وقبل بلا تردد ولو كان ذلك العدو قد سلف منه نقض لعهود الصلح .

وكان هادئاً ثابتاً في مقابلة المخاطر . ومن مظاهر ذلك أنه لما أطلقت عليه الرصاصة في غابة « سوادكوه » فجرحته في يده جرحاً بسيطاً وقتلت حصانه ، تظاهر بالموت ليحمل مطلق الرصاصة على الاكتفاء بها ، إذ يكون همه المبادرة إلى الفرار ، فلا يثني بغيرها . ولو رآه سالماً لثنى .

ومن ذلك أنه لما كان في طريقه إلى غزو داغستان أقام معسكره مرة على مقربة من نهر « جرجان » . واتفق أن طغى النهر بسيل عظيم وجرفت حواميل الماء كثيراً من الجند والدواب والمعدات ، بل جرف السيل خيام حرسه من حوله ، وأصبحت خيمته نفسها معرضة للسيل ، ولكنه رفض أن ينقلها إلى مكان أعلى ، وظل جالساً على متكئه ينظر إلى السيل هادئاً مطمئناً .

أما نظرته إلى مهمة السلطان الحاكم فتتضح من هذه الكلمة التي تضمنها أحد مراسيمه . قال :

« ظاهر للعالمين أن وجود أمثالنا ، نحن العباد الترابيين الذين وصلوا إلى مقام الرياسة في ظل الخالق ، إنما هو من أجل إعانة الضعفاء والمرؤوسين ومواساتهم ، عملاً بفحوى « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

شهادات

كتب « نابليون بونابرت » في رسالته إلى « فتح علي شاه » القاجاري :

كان نادر شاه محارباً عظيماً استطاع أن يحصل على قدر كبير من القوة ، يخشاه طلاب الفتنة ويدهش منه مريدو السوء من جيرانه . تغلب على أعداء وطنه ، وتملّك عزيزاً .

وقال السائح الفرنسي الفيلسوف « الشوفاليه جان شاردان » في كتابه له في رحلاته :

قل نظير نادر في كفاءته وخبرته . وهو ، إلى ذلك ، رجل حسن السليقة متقن لعمله . يكافىء العاملين الجادين ، شديد في تنبيهه للمتراخين المقصرين . قد أثبت في كل مقام قام فيه كفاءة وإتقاناً للعمل كما يجب أن تكون الكفاءة والإتقان . ولما أصبح مقرباً إلى بلاط الشاه دله على ما يجب عمله لتمييز المتملقين المجرمين عن غيرهم ، والطريق التي يجب اتباعها لمجازاتهم وإبعادهم عن البلاط .

وقال المؤرخ الإنكليزي « جيمس فريزر » معاصرنا نادر شاه في كتابه « تاريخ نادر شاه أفشار » :

(١) لم يقل « الإثني عشر » لأن الأصل الفارسي منظوم شعراً . ومراعاة الوزن والقافية قضت بأن يقول « الثمانية والأربعة » .

لما كان نادر في الهند فاتحاً أمر جنوده بأن لا يأسروا هندياً ، عسكرياً كان أو غير عسكري ، رجلاً كان أو امرأة ، إلا أن يكون أحدهم قد اشترى رقيقاً أو تزوج بامرأة بعقد شرعي . فمن اشترى رقيقاً فعليه أن يحصل على سند من البائع يشهد بأنه قد باع رقيقه مختاراً . ومع هذا لا يجوز لأحد من الإيرانيين أن يحمل معه إلى إيران الرقيق ولا الزوجة الشرعية إلا برضاهما . ومن خالف هذا الأمر فماله ودمه مباحان . وكان بعض رؤساء عسكره قد تزوجوا بنساء هنديات . فلما تحركت ركابه من دهلي علم أن هؤلاء النساء يرغبن عن مرافقة أزواجهن إلى إيران ، فأمر فوراً بردهن إلى أهلهن .

وقال فيه أيضاً في كلام له عن وقائع نادر :

عجيب أن يحدث مثل هذه الوقائع الغريبة من رجل لا مال له ولا نفر !

وقال :

كان نادر متسامحاً عظيم التسامح ، منطلق اليد والقلب . وفي شبابه بلغ به الإعدام والفقر بحيث كان يضطر إلى الإقتراض . فلما شوهد يأوي إلى مثواه الخاص قبل منتصف الليل . ولا يمكث فيه أكثر من خمس ساعات . وقبل طلوع الشمس يكون قد انكب على العمل . طعامه بسيط قليل . وقد تشغله كثرة عمله اليومي عن الطعام بالمرة ، ويكتفي بقليل من الحمص المحمص ـ وكان يحمله في جيبه دائماً ـ وقليل من الماء . ولا يستغرق طعامه من الوقت أكثر من نصف ساعة ، ينصرم بعده تواً إلى العمل .

وقال المؤرخ الإنكليزي « إدوار براون لكهارت » في كتابه « تاريخ نادر » :

كان نادر في التكتيك الحربي أعلى بمراتب من نابليون والإسكندر وتيمور وفردريك . وجنوده صفوة أكثر تجربة وأشجع من جنود نابليون . ومن أعظم أعماله وأظهرها أنه أوجد في مجال حكمه أمناً واستقراراً لا سابقة لهما . وذاد عن حدود إيران الشرقية الغزاة المتوحشين وقطاع الطرق ، حتى عادت خراسان مرة أخرى موضع اهتمام أهل التجارة وطلاب السلام .

وقال :

كان نادر واحداً من أعاظم نوابغ العالم العسكريين بما هو جندي لا نظير له وقائد عسكري عظيم . وإذ كان من أسرة مغمورة ، وهو إلى ذلك ، لم يتلق تعليماً ولا توجيهاً تربوياً من أحد ، فلا شك بأن نبوغه العسكري وروحه الحربية هبة إلهية .

وقال :

نبوغ نادر في معركة « مهيا ندوست » يبعث على الإعجاب ، لا من جهة القيادة والإصابة فقط ، بل من جهة دقة المراقبة في نظم للعسكر وتحقيق انضباطهم بما لا نظير له أيضاً . ويمكن القول بحق إن حنكة قوات نادر ، ولا سيما انضباطهم ، كان لها آثار كالمعجزة . وما نفخه هذا النابغة العظيم في نفوس الجند من روح الشجاعة والإقدام جعل الإيرانيين ، وقد كانوا إلى ذلك اليوم يحسون في قلوبهم برعب عظيم من قساوة قلوب الأفاغنة وإقدامهم ، في غاية الشجاعة والثبات ، بل أثبتوا أنهم محاربون أكفاء يخشى جانبهم . ومع ما كان عليه نادر من ثقة عجيبة بنفسه بما هو قائد عظيم ، كانت له القدرة على أن يحمل جنوده على التسليم بخبرته وكفاءته .

وكان الأب « لويس بازن » مبشراً ، وكان طبيباً يداوي نادراً . وقد بعث إلى رئيسه في فرنسا بتقريرين مطولين جاء في أحدهما :

مع أن نادراً ولد في عائلة من العائلات الدنيا في المجتمع ، فكأنما ولد ليكون قائداً . فقد جمعت فيه الطبيعة كل الصفات والخصوصيات التي تؤهله لأن يكون آمراً وقائداً عسكرياً عظيماً . تلك الصفات التي تنقص كثيراً من الملوك . وقلما تجد في التاريخ نابغة أقوى وأنفذ لباً وشجاعة من نادر . كانت كل خططه واسعة ، يهيء للفوز بمقاصده كل الوسائل اللازمة بمنتهى البراعة والدقة .

وقال اللورد « غرزن » :

ما مضى على سقوط الأسرة الصفوية غير عشرين عاماً حتى وجدنا أنفسنا نواجه فاتحاً إيرانياً متقدراً جعل من آسيا المركزية ساحة للكر والفر ، وقلب الممالك والأباطرة .

وكتب « وليم كوكل » وكيل « شركة الهند الشرقية » الإنكليزية في إيران أيام نادر شاه :

الموهبة العسكرية العجيبة عند هذا القائد مع حسن الطالع قد جمعا بين محبيه وأولئك الذين كانوا يخشونه ، وأوقعا الخوف في أعدائه والرعب في نفس الشاه .

وقال :

من أدل الدلائل على سعة فكر نادر وصحة أحكامه مخالفته سنة من سبقه من الملوك وسائر أمراء الشرق في حجب أبنائهم داخل الحرم مع النسوان والخصيان إلى يوم يتولون الحكم .

وقال :

مبلغ مهارة نادر وسرعته في تشخيص المواضع الضعيفة من عدوه ، وتفننه في حماية جنده أمر لا يصدق . وكان إذا تراجع أحد قواده بلا مسوغ علاه بالعصا وظل يضرب على رأسه حتى يقع على الأرض . وحينئذ يوكل القيادة إلى مأموره الذي تحت يده .

وقال الجنرال الروسي « كيشيشوف » في كتابه « حملة نادر شاه إلى الهند » .

السبب الأول في انتصارات نادر وتقدمه هو بعد همته ودرايته . ولا شك أن نادراً قد حرر وطنه من نير الأجانب واستعبادهم ، وأضعف العثمانيين إلى حد بعيد بجيوشه التي قادها إلى محاربتهم ، وأوجد في الوقائع الأوروبية تحولات عظيمة . وفي الشرق زلزل قواعد الأمبراطورية المغولية في الهند وجعل سقوطها أمراً مسلماً به . وانتهى إلى إعلاء إيران من حضيض الذل إلى أوج الرفعة والعظمة ، وحولها من دولة ضعيفة إلى دولة من أقوى الدول . وإذ كان نادر يصرف أكثر أوقاته ، بل كل أوقاته ، في قيادة القوى العسكرية والتفنن في تجهيزها وتسييرها ، فقد أوكل أمور الدولة الإدارية إلى معاونيه . كان كلما استتب السلام والإستقرار عاد إلى الإنهماك في تهيئة المقدمات لحرب أخرى ، ومن ثم ينسى غيرها من شؤون الدولة ، فلا يهتم بها ، إذ كان يشغله عنها حبه الشديد للحرب .

وقال :

إلى ذلك الوقت لم يكن التاريخ قد ذكر أن القائد العام للجيش يحضر ميدان الكر والفر جنباً إلى جنب مع أفراد العسكر وينطلق في المعركة متقدماً أوائل الجند .

ونقل الجنرال السير « برسي سايكس » في كتابه « تاريخ إيران » عن « هُـانوي » ، وهو تاجر إنكليزي سكن في إيران في عهد نادر ، من سنة ١١٥٦ هـ إلى سنة ١١٦١ هـ :

نرى أمرءاً ذا أصل ونسب غامضين لا يمكن تبينها إلا بصعوبة . وقد قاد أحداثاً بعزم وثبات ، وبنى حياته الحافلة على أساس من البصيرة والنظر في العواقب والتفكير الواقعي . والخطط التي وضعها بالتأمل والتبصر ، لتحقيق مستقبل سعيد مقبل له ، أنفذها في مجال الفرص السانحة بهمة لا تفتر . من أجل ذلك أصبح ، كغيره من الفاتحين قبله ، يخيف آسيا . لقد أصبح ، ولا شك ، الأمر الناهي على الشرق ، المتحكم في مصائر أهله .

وقال العقيد السير « جان مالكم » سفير إنكلترا في بلاط « فتح علي شاه » القاجاري ، في كتابه « تاريخ إيران » .

شجاعة نادر وإقدامه في الحروب ومروءته وفتوته في معاملة الأعداء ، وأعمال عظيمة أخرى ، تستحق الثناء والتقدير .

وكان نادر معروفاً بقوة صوته . وكان صوته كبير التأثير في جنده إذا صاح بهم في الحرب . وروى السير « جان مالكم » عنه هذه الفكاهة قال :

كان السلطان محمود العثماني يعرف أن نادراً معجب بجهارة صوته . فأرسل إلى بلاط سفيراً اشتهر في البلاد العثمانية بجهارة صوته . فلما استقبله نادر في بلاطه تبارياً في قوة الصوت ، فتفوق السفير عليه ، وأقر نادر أن منافسه أقوى صوتاً منه واثنى عليه . فلما أراد السفير الإنصراف قال له نادر وهو يودعه : أبلغ السلطان محموداً عن لساني أني ، إذ اكتشفت أن في مجال حكمك رجلاً واحداً فقط ، وأنك ، مع هذا ، اخترت هذا الرجل الواحد لبلاطي ، فأنا سعيد مسرور للغاية .

وقال السياسي الروسي المعروف « سيرجي ديميتروفتش كولينزين » سفير روسيا في بلاط نادر شاه في تقرير رفعه إلى دولته :

إن قائد قوات إيران بلغ به الإعجاب بالنفس وعزة النفس إلى حيث يصعب أن يذعن لتوصيات غيره[١] .

القاضي ناصر الدين ناصر بن أبي جعفر الإمامي الديلمي الأصل القزويني من الفقهاء في القرن السادس للهجرة وأكابر علماء الشيعة في عصره .

لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته . أخذ العلم من فضلاء قزوين . ذكره الشيخ عبد الجليل القزويني في كتابه النقض الذي ألفه في حدود سنة ٥٦٠ ضمن أعاظم علماء عصره[٢] وذكره منتجب الدين بن بابويه في الفهرست[٣] ونقل عنه الحر العاملي في أمل الآمل ج ٢ ص ٣٣٣ وذكره أيضاً صاحب رياض العلماء في ج ٥ ص ٢٣٥ والحائري الأردبيلي في جامع الرواة ج ٢ ص ٢٨٨ .

يقول عبد الحسين الصالحي : فُصِّل عن تاريخ أسرته العلمية العريقة آل الإمامي في قزوين والديلم في ترجمة أبي جعفر محمد بن علي الإمامي الديلمي ولعل المترجم له نجله .

(١) ملخص عن محمد حسين قدوسي صاحب (نادر نامه) .

(٢) أنظر النقض ص ٢١١ : تحقيق الدكتور السيد جلال الدين المحدث طهران منشورات انجمى آثار ملي .

(٣) الشيخ منتجب الدين علي بن بابويه الرازي الفهرست ص ١٢٧ تحقيق الدكتور السيد جلال الدين المحدث قم منشورات المكتبة المرعشية .

نركس بنت الشيخ محمد صالح بن الشيخ الملا محمد الملائكة ابن الشيخ محمد تقي بن الشيخ محمد جعفر بن الشيخ محمد كاظم البرغاني القزويني الحائري آل الصالحي .

ولدت حدود سنة ١٢٤٠ وتوفيت في كربلاء حدود سنة ١٣٢٢ .

من ربات الذكاء والفطنة وسعة الإدراك ، محدثة عالمة متفقهة بصيرة بالكلام حافظة للقرآن الكريم عالمة بتفسيره وتأويله عابدة من الناسكات الزاهدات في الدنيا .

أخذت النحو والصرف والمنطق والعلوم العربية وفنون الأدب عن أختها الشهيرة قرة العين ثم تخرجت في الفقه والأصول والتفسير على والدها الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وعمها الشهيد الثالث المستشهد سنة ١٢٦٣ وأخذت العرفان وسائر العلوم عن عمها الآخر الشيخ الملا علي البرغاني والفلسفة عن الأخوند الشيخ الملا آغا الحكمي القزويني وأخيها الشيخ الميرزا عبد الوهاب البرغاني . ولما بلغت سن الرشد زفوها إلى ابن عمها الشيخ جعفر ابن الشهيد الثالث من أعلام عصره[٤] ورزقت منه خديجة وسكينة اللتين كانتا فقيهتين عالمتين ، من فواضل نساء عصرهن ولم تخلف أولاداً ذكوراً . هاجرت مع زوجها إلى كربلاء وتصدّرت للتدريس والوعظ والإرشاد ، وكانت تميل إلى الشيخية وفي أواخر عمرها انقطعت للرياضة والتبتل والعبادات حتى توفيت في كربلاء ودفنت في الرواق الشرقي قريب من قبر السيد كاظم الرشتي[٥] .

ميرزا نظام الدين ابن مير أمين الدين حسين دستغيب الشيرازي .

ولد سنة ٩٩٧ وتوفي سنة ١٠٢٩ في شيراز .

هو من السادات الدستغيبية في شيراز ، اشتهر باسم نظام دست غيب . كان إلى شاعريته من كبار الخطاطين في خط النستعليق ، وعلى (عِزّى فيروز آبادي) في شيراز تلقى المران على الشعر . وكان عِزّى ملماً بالأدب العربي نظماً ونثراً ، فربى المترجم ونمّاه في الشعر وكان موهوباً فاستوعب ما تلقاه واشتهر وهو لا يزال في عنفوان شبابه . له ديوان يحتوي على ثلاثة آلاف بيت من الشعر ، ويقول صاحب كتاب (ميخانه) انها أربعة آلاف لا ثلاثة ، وكان قد نظم ما في هذا الديوان وهو لم يتجاوز الثمانية والعشرين من عمره .

وله ديوان محفوظ في المكتبة البريطانية يحتوي على ألفي بيت مشتملة على الغزل والترجيعات ورسالة الساقي والتركيبات وقصائد في مناقب الأئمة عليهم السّلام . وهذا الديوان جمعه (الحيّان) سنة ١٠٣٠ أي بعد سنة واحدة من وفاة الشاعر[٦] .

(٤) أنظر نقباء البشر في القرن الرابع عشر : ج ١ ص ٢٨٢ .

(٥) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٦) تاريخ أدبيات إيران .

هشام بن الحكم .

مـرت ترجمتـه في المجلد العاشر من (الأعيـان) . وننشر عنه هنـا هذه الدراسة بقلم السيد محمد رضا الجلالي :

لقد تعدّدت الفِرَق التي عُدَّ هشام بن الحكم منها .

فبينما يصرّح الأكثرون بأنّه من الشيعة باعتباره واحداً من كبار المتكلّمين وفق هذا المذهب ، بل من المنظّرين لعقـائده ، ومن رواة حـديثه ، ومن حَمَلة فقهه ، والخصومُ ينبزونه بأنّه « رافضيٌ » على هذا الأساس ، نجد مَنْ عَدَّه في « الغُلاة » و « المجبّرة »[(١)] و « الجَهْميّة »[(٢)] و « المشبّهة »[(٣)] و « الحلوليّـة »[(٤)] و « الدهريّة »[(٥)] و « الديصانية الثنوية »[(٦)] إلاّ أنّ مـا أكّد عليـه أكثر خصـومه هو كونه من « المجسّمة »[(٧)] .

وقد نَسبوا إليه ـ في مجال التجسيم ـ أُمـوراً واضحةَ البُـطلان ، حتّى إنَّ بعضَهم نَسَبَ إليه تجويز « المحال الذي لا يتردّدُ في بُطلانه ذو عَقْل »[(٨)] .

ونقلوا عن النظّام قوله : إنّ هشاماً قال في التشبيـه ـ في سنة واحـدة ـ خمسة أقاويل[(٩)] .

ولوضوح بُطْلان هذه الـدعاوي ، حيث أنّ هشـاماً أرفـع شأنـاً من أنْ يُوصَم بمثل هذه التُرّهات ، وهو المتصدّي لمناظـرة كبار العلماء ، فـإنّا نُـرجىء التعقيب عليها وعلى أمثالها إلى مجالٍ آخر .

وعـلى كلّ ، فـإنّ (التجسيم) أصْبحَ السمةَ المشهورةَ التي تُـذْكَرُ مـع هشام ، ويحاول خصومه إلصاقها بـه ، أو اتّهامه بها ، ولقـد عبّروا عن هـذه التُهمة بعباراتٍ تقشعرُّ منها جلود المؤمنين الموحّدين ! !

وقـد اتّفقوا في النقـل عنـه أنّـه قـال : البـاريء جـلّ ذكـره « جسمٌ لا كالأجْسام » وكـأنّهم لخّصوا التهمـة في هذه الجملة ، وجعلوهـا دليلاً عـلى ما ادّعَوْه عليه من التجسيم !

ولذلك ، فإنّا نركّز البحث عنها هُنا ، تحت العناوين التالية :

١ ـ مَصْدَرُ المقولة :

نُقِلَتْ هذه المقولةُ عن هشام ، في مصادر عديدة لمؤلّفين قدماء :

١ ـ الـرجـال ، للكشّي ؛ فقـد ذكـر بسنـده عن عبـد الملك بن هشـام الحنّـاط ، قـال : زَعَمَ هشـام بن الحكم : أنّ الله « شيء لا كـالأشيـاء » وأنّ الأشياء بائنةٌ عنه ، وهو بائنٌ عن الأشياء .

وزَعَمَ : إنَّ إثبـات « الشيء » أنْ يقـالَ : « جسم » فهـو « جسم لا كـالأجسـام » « شيء لا كـالأشيـاء » : ثـابت مـوجـود ، غـير مفقـودٍ ، ولا معدوم ، خارج عن الحدّيْن : حدّ الإبطال ، وحدّ التشبيه[(١٠)] .

٢ ـ الكـافي ، للكليني ؛ فقد روى بسنده عن الحسن بن عبد الـرحمن الحمّاني ، قال : قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السّلام : إنّ هشام بن الحكم زَعَمَ : أنّ الله « جسم ، ليس كمثله شيءٌ » . .[(١١)] .

فـإنّ مؤدّى « ليس كمثله شيْء » هو نفس مؤدّى « لا كـالأجسـام » من دون أدنى تفاوت ، وسيأتي توضيح هذه الجهة .

٣ ـ وقال الشيخ المفيد : لم يكن في سلفنا مَنْ تَدَيَّنَ بالتشبيـه من طريق المعنى ، وإنّما خالف هشامٌ وأصحابُه جماعةَ أصحاب أبي عبد الله عليه السّلام بقوله في « الجسم » فزَعَمَ : إنّ الله تعالى « جسمٌ لا كالأجسام »[(١٢)] .

٤ ـ وقال السيد الشريف المـرتضى : فأمّـا ما رُمِيَ بـه هشام بن الحكم من القـول بالتجسيم ، فـالـظاهـر من الحكـايـة عنـه القـول بـ : « جسم لا كالأجسام »[(١٣)] .

وبهـذا يثبت صدور هـذه المقولـة من هشام ، لأنّ كبـار أعلام الشيعـة نقلوها عنه . وقد نقلها علماء سائر الطوائف ، كما يلي :

وقد نقلها علماء سائر الطوائف ، كما يلي :

٥ ـ قال أبو الحسن الأشعريّ ـ صاحب المذهب ـ : حُكيَ عنه [أي : عن هشـام] أنّه قـال : هو « جسم لا كـالأجسـام » ومعنى ذلـك : أنّـه شيءٌ موجود[(١٤)] .

وفي مـوضع آخـر ، عند ذكـر الإختلاف في التجسيم ، عـدّ الفـرقـة الأولى : « الهشامية » ونقل عن هشام أنّه قال : هو « جسم لا كالأجسام » .

ثمّ عنون للفرقة الثانية بقولـه : يزعمـون أنّ ربّهم « ليس بصورة ، ولا كالأجسام » ، وإنّما يذهبون في قولهم : « إنّه جسم » إلى : « أنّه موجود » ولا يُثبتون الباريء ذا أجزاء مؤتلفة ، وأبعاض متلاصقة[(١٥)] .

فالملاحظ : أنّ ما نسبه إلى الفرقة الثانية لا يختلف عمّا تحتويه المقولة التي نقلها عن هشام في ذكر الفرقة الأُولى ، ولا عمّا نقله عنه في الموضـع السابق ، وإنّما هو هـو بعينه ، بـلا أدنى بتفـاوتٍ ، عـدا التقـديم والتـأخـير ، وبعض التوضيح .

٦ ـ وابن أبي الحـديد المعتـزلّي ـ بعد أنْ نقـل أنواع التُهم المـوجّهـة إلى هشام ـ قال : وأصحابه من الشيعة يدفعـون ـ اليومَ ـ هـذه الحكايـات عنه ، ويزعمون : أنّـه لم يَزِدْ عـلى قولـه : إنّه « جسم لا كـالأجسام » وأنّـه إنّما أراد بإطلاق هذا اللفظ عليه : إثباته[(١٦)] .

(١) تـأويل مختلف الحـديث : ٤٨ ، والأنسـاب ـ للسمعـاني : ظ ٥٩٠ . ولسـان الميزان ٦ / ١٩٤ . والملل والنحل ١ / ١٨٥ .
(٢) هامش الفهرست ـ للنديم ـ : ٢٢٤ .
(٣) الملل والنحل / ١٨٤ ، والأنساب ـ للسمعاني ـ : ظ ٥٩٠ .
(٤) تاريخ الفرق الإسلامية ـ للغُرابي ـ : ٣٠٢ .
(٥) التنبيه والردّ ـ للملطي ـ : ٢٤ .
(٦) الإنتصار ـ للخيّاط ـ : ٤٠ ـ ٤١ .
(٧) مقـالات الإسلاميـين ـ للأشعـري ـ ١ / ٢٥٧ ، ولسان الميزان ٦ / ١٩٦ . ولهـج بهـذه التهمة أكثر المتأخّرين !
(٨) لسان الميزان ٦ / ١٩٤ .
(٩) مقالات الإسلاميين ١ / ١٠٤ ، وانظر : تلبيس إبليس ـ لابن الجوزي : ٨٣ .

(١٠) اختيار معرفة الرجال : ٢٨٤ الفقرة ٥٠٣ .
(١١) الكـافي ، كتاب التـوحيـد ، بـاب ١١ ج ١ ص ٨٢ ح ٧ . رواه الصـدوق في التـوحيـد ، باب ٦ ، ح ٨ ، ص ١٠٠ .
(١٢) الحكايات : ١٣١ ، الفصول المختارة : ٢٨٥ .
(١٣) الشافي ـ للسيد المرتضى ـ : ١٢ .
(١٤) مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٥٧ .
(١٥) مقالات الإسلاميّين ١ / ١٠٤ .
(١٦) شرح نهج البلاغة ٣ / ٢٢٤ و٢٢٨ .

وقد نُسبت هذه المقولة إلى آخرين غير هشام :

٧ ـ قال ابن أبي الحديد : وأمّا مَنْ قال : إنّه « جسم لا كالأجسام » على معنى أنّه بخلاف « العَرَض » الذي يستحيل أنْ يُتَوَهّمَ منه فِعْلٌ ، ونَفَوْا عنه معنى الجسميّة ، وإنّما أطلقوا هذه اللفظة لمعنى : أنّه « شيءٌ لا كالأجسام » و « ذاتٌ لا كالذوات » .

فأمرهم سَهْلٌ ، لأنّ خلافهم في العبارة ؛ وهم : عليّ بن منصور ، والسكّاك ، ويونس بن عبد الرحمن ، والفضل بن شاذان .

وكلّ هؤلاء من قدماء رجال الشيعة(١) .

ونُسِبَت المقولة إلى أشخاصٍ ينتمون إلى فِرَق أُخرى :

٨ ـ قال ابن أبي الحديد ـ بعد ذكر ما نقلنا عنه ـ : وقد قال بهذا القول « ابن كرّام » وأصحابه(٢) .

ونسبت إلى داود الحواري(٣) .

٩ ـ قال الشهرستاني ـ في « مشبِّهة الحَشْويّة » نقلاً عن الكعبيّ ، عن داود الحواري ـ رئيس « الحواريّة » أنّه يقول : إنّ الله سبحانه « جسم » ولحم ، ودم ، وله جوارح وأعضاء . . .

وهو مع هذا « ليس جسماً كالأجسام » ولا لحماً كاللحوم . . . وكذلك جميع صفاته .

وهو سبحانه لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، ولا يشبهه شيء(٤) .

ومع قطع النظر عن التناقض بين صدر هذا النقل وذيله ، فإنّه يدلّ على وجوده المقولة « جسم لا كالأجسام » في ما نُقل عن داود .

ونقِلَت المقولة ، بالمعنى ، منسوبةً إلى قائلين لها :

١٠ ـ ذكر الأشعريّ في اختلافهم في الباريء تعالى هل هو في مكانٍ أوْ لا ؟ فقال : وقال قائلون : هو « جسم خارج من جميع صفات الأجسام » ليس بطويل ، ولا عريض ، ولا عميق ، ولا يوصف بلونٍ ، ولا طعمٍ ، ولا مجسّةٍ ، ولا شيءٍ من صفات الأجسام(٥) .

وحُكيت المقولة عن غير المعتزلة :

١١ ـ قال صاحب كتاب « فضيحة المعتزلة » : أيُّما أشْنَعُ ؟ القولُ بأنّ الله « جسم لا يشبه الأجسام » في معانيها ، ولا في أنفسها ، غير متناه القدرة ، ولا محدود العلم ، لا يلحقه نقصٌ ، ولا يدخله تغييرٌ ، ولا تستحيلُ منه الأفعالُ ، لا يزال قادراً عليها ؟ أم القول . . .(٦) .

وجاءت المقولة غير منسوبة :

١٢ ـ فيما ذكره الدوّاني على العقائد العضدية ، قال : ومنهم ـ أيْ : من المشبِّهة ـ مَنْ تَسَتَّر بالبَلْكَفَة ، فقال : هو « جسم لا كالأجسام » وله حيّزٌ لا كالأحياز ، ونسبتُه إلى حيّزه ليست كنسبة الأجسام إلى أحيازها ، وهكذا « ينفي جميع خواصّ الجسم » عنه ، حتى لا يبقى إلّا اسم « الجسم » .

وهؤلاء لا يُكَفَّرون ، بخلاف المصرّحين بالجسميّة(٧) .

١٣ ـ فيما ذكره القاضي عبد الجبّار المعتزلي من إبطال المعتزلة لقول من زعم : أنّ الله تعالى « جسمٌ لا كالأجسام » قياساً على القول بأنّه تعالى « شيءٌ لا كالأشياء »(٨) .

ولكن سنذكر أنّ مقولة « جسمٌ لا كالأجسام » هي عند هشام بمعنى « شيء لا كالأشياء » وتُساويها في المعنى ، فالدليل عليها ـ عند هشام ـ واحد .

وعلى هذا فيمكن أن تُعْتَبَر مصادرُ « شيء لا كالأشياء » مكملةً لمصادر مقولة « جسم لا كالأجسام » .

ومن الغريب أنّ البغدادي ـ صاحب « الفَرْق بين الفِرَق » ـ لم ينقل هذه المقولة عن هشام ، مع نقله جملةً من أشنع ما نُسِبَ إليه في بعض مصادرها السابقة !

وأظن أنّه إنّما عَمَدَ إلى ترك ذكر هذه المقولة ، لأنّها تحتوي على ما يَنْسِفُ كلّ تلك الأكاذيب المفتعلة ، والأباطيل المنسوبة إلى هشام ، كما سيتّضح في هذا البحث .

٢ ـ مصطلح هشام في كلمة « جسم » :

« الجسم » : في العرف اللغويّ يدلّ على تجمُّع الشيء ، وتكتُّله في الوجود الخارجي(٩) .

وهذا بالطبيعة يقتضي وجود الأبعاد من الطول والعرض والعمق في ما يُطلق عليه هذا اللفظ .

ويراد منه في العرف العامّ : مجموعة البَدَن ـ لإنسان أو حيوان ـ متكوِّنَةً من أعضاء وجوارح .

وبعد أنْ دخلت الفلسفةُ الأجنبيّة بلاد الإسلام . استُحدِثَ لكلمة « الجسم » تفسير فلسفيّ هو : ما شغل حيّزاً ومكاناً .

وقد اختلفت كلماتُ المتكلّمين في معنى « الجسم » اختلافاً كبيراً حيث يطلقونه في كتبهم ، وتجري على أَلْسنتهم .

قال ابن رشيد : الكرّاميّة زعموا : أن معنى « الجسم » هو أنّه « قائم بنفسه »(١٠) .

والأشاعرة ذهبوا إلى أنّ « الجسم » : ما كان مؤلَّفاً .

ورأي المعتزلة : أنّ « الجسم » ما كان طويلاً ، عريضاً ، عميقاً .

(١) شرح نهج البلاغة ٣ / ٢٢٨ .
(٢) شرح نهج البلاغة ٣ / ٢٢٨ .
(٣) لقد اختلفت المصادر في إيراد هذا اللقب ، وقد ورد « الحواري » في بعض المواضع ، و « الجواربي » أو « الجواري » في مواضع أخرى ، والخوارزمي في مواضع ثالثة ، فليلاحظ .
(٤) الملل والنحل ١ / ١٠٥ ، وانظر : تاريخ الفرق الإسلامية ـ للغرابي ـ : ٣٠٠ ـ ٣٠١ .
(٥) مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٦٠ .
(٦) الإنتصار ـ للخيّاط ـ : ١٠٧ .
(٧) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : ٥٣٢ .
(٨) شرح الأصول الخمسة : ٢٢١ ، وانظر : في التوحيد ـ تكملة ديوان الأصول ـ : ٥٩٦ .
(٩) معجم مقاييس اللّغة ـ لابن فارس ـ ١ / ٤٥٧ .
(١٠) ديوان الأصول : ٥٩٥ ، ولوامع البيّنات ـ للرازي ـ : ٣٥٩ .

وهذا هو رأي المجسّمة أيضاً(١) .

وقد اصطلح هشام بن الحكم وتلامذته في « الجسم » معنىً خاصاً .

قال السيّد أبو القاسم الخوئي ـ معقّباً على مقولة « جسم ، ليس كمثله شيء » ـ : إنَّ نفي المماثلة يدل على أنّه لا يُريد من كلمة « الجسم » معناها المفهوم ، وإلّا : لم يصحّ نفيُ المماثلة ، بل يُريد معنىً آخرَ غير ذلك(٢) .

فما هو ذلك المعنى المصطلح ؟

وهل يصحّ لهشام أن يصطلح لنفسه معنىً يخالف العرف ؟

وما هو الدليل على صحّة هذا التصرّف ؟

ولا بُدّ ـ قبل الدخول في هذه المباحث ـ من التذكير بأنّ معرفة مصطلح كلّ مذهبٍ ، ضروريٌّ جدّاً لفهم مقاصده ، وإمكان معارضته ، لأنّ أساس ذلك المذهب إنّما يدور على محور مصطلحاته ، ولا يصحّ ـ في عُرف العلماء ـ أنْ يُحاسَبَ أحدٌ إلّا على ما أظهره من مراده على مصطلحه ، كما لا يجوز لأحدٍ أنْ يحاسِبَ الآخرين على أساس ما اتّخذه هو مصطلحاً لنفسه ، بخلاف الآخرين .

وقديماً قيل : « لا مُشَاحّةَ في الإصطلاح » .

أمّا صِحّة الإصطلاح الخاصّ ، فيُمكن معرفتها من خلال ما يلي :

١ ـ قال القاضي عبد الجبّار المعتزليّ : قال شيوخنا : لو أنّ أهل اللّغة بدا لهم في العربيّة على الوجه الذي تواضعوا عليه ؛ وغيّروه حتى يجعلوا « قديماً » مكان « مُحْدَث » و « عالماً » مكان « جاهل » و « طويلاً » مكان « قصير » كان لا يمنع(٣) .

٢ ـ وقال : قال شيوخنا : لو تواضع قومٌ على تسمية كلّ موجود : « جوهراً » أو « جسماً » على تسمية « القائم بنفسه » بذلك ، لَحَسُنَ منهم وصفُ القديم تعالى بأنّه « جسم » إلّا أن يحصل نهيٌ سمعيٌ عن ذلك(٤) .

أقول : أمّا مسألة النهي الشرعي ، فلا مدخلَ لها في صحّة التواضع وعدمها ، وسيأتي البحث عن توقيفيّة أسماء الله تعالى ، في نهاية البحث .

وأمّا الفرد أو الجماعة الّذين يصحّ منهم الإصطلاح والتواضع الخاصّ ، فهم في عبارة القاضي الأولى « أهل اللّغة » وليس المراد بهم علماء اللّغة ، اللغويّون الّذين تخصّصوا بمعرفتهم بها بالدراسة والبحث كعِلْمٍ من العلوم ، بل المراد بهم أهل اللسان الّذين نشأوا عليها ونطقوا بها كلُغةٍ لهم ، ومنهم انطلقت مفرداتها ، وأُخذت تراكيبُها ، وتألّفت قواميسها ، فقد كان لهؤلاء الحقّ في أن يضعوا ـ من البداية ـ لكلّ معنىً لفظاً يدلّ عليه ، ينتخبونه على حسب سلائقهم وما يقارن الوضع من الأمور ، باعتبار أنّهم آباء اللّغة وأولياؤها ، ولو كانوا يضعون الأسماء على غير ما يُعرف اليوم لها من المعاني ، لما كان ممتنعاً .

أمّا بعد ما حصل من التواضع ، وما تمّ إثباته في متن اللّغة ، فليس لأحدٍ من المتخصّصين بعلم اللّغة تغييره عمّا وُضع عليه ، وتبديله عمّا ثبت سماعه منهم أو قياسه عنهم .

وعبارة القاضي الثانية : تنظر إلى أهل الإختصاص بالعلوم ، ولم يذكر الخصوصيّات المشترط توفّرها في القائم بوضع الإصطلاح الخاصّ .

والذي أراه أنّ ذلك مشروط بأمرين :

الأول : أن لا يكون التواضع الجديد على نقيض المعنى اللغويّ ، ولا معارضاً له بالتبايُن .

فلو اشتركا في بعض الأفراد ، أو ارتبطا بعلقةٍ مجازية ، صحّ التواضع على غير المعنى اللغويّ ، ومن هنا يعلم : أنّ كون القائم بالوضع الجديد عارفاً بلُغة التواضُع ، ليُحقّق هذا الشرط ، هو أمر أساسيّ ، كما لا يخفى .

الثاني : أنْ يكونَ التواضُع الجديد مبتنياً على دليل منطقيّ ، قابل للتصوُّر ، بأنْ لا يكون منافياً لضرورة العقل ، أو قضيةٍ وجدانية .

قال الشيخ محمد عبده ـ في توقيفيّةِ أسماء الله ـ : الألفاظ التي لا تُفْهِمُ إلّا الكمال ، ولا تشوبُ ظاهرها شائبةُ النقص ، فيجوزُ إطلاقها على الله تعالى ، بلا حرجٍ .

وأضاف : ولكلّ قومٍ أنْ يصطلحوا في ذلك على ما شاءوا ، كيف ؟ ولنا أنْ نستدلّ على إثبات صفاتٍ كماليّة للواجب تعالى ، ثمّ نعبّر عنها بمشتقّ ؟(٥) .

ومن هُنا ، فإنّ لهشام بن الحكم الحقّ في أنْ يصطلحَ معنى خاصّاً لكلمة « جسم » فيطلقها ، إذا توفّر فيه الشرطان ، ولا يمنع منه إلّا موضوع « توقيفيّة أسماء الله تعالى » . التي سنتحدّث عنها في نهاية البحث ، أمّا هنا فيجب أن نعرف « مصطلح هشام » ثمّ « الدليل على اختياره لهذا المصطلح » .

أمّا مصطلحه :

فقد ذكروا : أنّ « الشيء » عنده لا يكون إلّا « جسماً »(٦) ونقلوا عنه : أنّه زَعَمَ : أنّ إثبات « الشيء » أن يُقال : « جسم »(٧) .

وقالت فرقة من المعتزلة : لا « شيء » إلّا « جسم »(٨) .

وقال الأشعري ـ في الإختلاف في الدقيق ، و « الجسم » ـ :

٩ ـ هشام بن الحكم ، وكان يقول : أُريد بقولي : « جسمٌ » أنّه « موجودٌ » وأنّه « شيءٌ » وأنّه « قائمٌ بنفسه »(٩) .

هكذا جمع الأشعري بين هذه التفسيرات الثلاثة ، في مصطلح هشام في « الجسم » ، وظاهر ذلك أنّها كلّها متساوية ، وتعطي مفهوماً واحداً .

وقد عرفت أنّ « الشيء » و « الجسم » واحد عند هشام ، كما نسب

---

(١) ديوان الأصول : ٥٩٥ .
(٢) معجم رجال الحديث ١٩ / ٣٥٨ .
(٣) المغني ـ لعبد الجبّار ـ ٥ / ١٧٢ .
(٤) المغني ـ لعبد الجبّار ـ ٥ / ١٧٣ .
(٥) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والمتكلّمين : ٦٠٤ .
(٦) الفَرْق بين الفِرَق : ٦٧ .
(٧) اختيار معرفة الرجال : ٢٨٤ رقم ٥٠٣ .
(٨) مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٤٥ .
(٩) مقالات الإسلاميّين ٢ / ٦ ، وطبعة ريتر : ٣٠٤ .

الأشعري ذلك إلى المشبّهة[(١)] .

وأمّا تفسير « الجسم » بـ « القائم بنفسه » :

فقد ذكره عبد الجبّار ، فقال : وأمّا أن يكون [التجسيم] عن طريق العبارة ، يجوز أن يقول : إنّ الله تعالى « جسم » ليس بطويل ، ولا عرّيض ، ولا عميق ، و « لا يجوز عليه ما يجوز على الأجسام » من الصعود ، والهبوط ، والحركة ، والسكون ، والإنتقال من مكان إلى مكان ، ولكن أسمّيه « جسماً » لأنّه « قائم بنفسه »[(٢)] .

ونسبه الشهرستانيّ إلى الكرّاميّة ، فقال : أطلق أكثرهم لفظ « الجسم » عليه تعالى ، والمقاربُون منهم قالوا : نعني بكونه « جسماً » أنّه « قائم بذاته » وهذا هو « الجسم » عندهم[(٣)] .

وقال الشهرستاني أيضاً : وقد اجتهد محمّد بن الهيصم في إرْمام مقالة أبي عبد الله [ابن كرّام] في كلّ مسألة ، حتى ردّها من المحال إلى نوع يُفْهم فيها بين العقلاء ، مثل « التجسيم » فإنّه قال : أراد بـ « الجسم » : « القائم بالذات »[(٤)] .

وأمّا تفسير « الجسم » بـ « الموجود » :

فقد نسبه الأشعري ـ في موضع ـ إلى هشام ، فقال : زعم هشام بن الحكم أنّ معنى « موجود » في الباريء تعالى أنّه « جسم » لأنّه « موجود » : « شيء »[(٥)] .

ونسب إلى قوم : أنّ معنى « الجسم » .... هو « الشيء الموجود » وأنّ الباريء لّما كان « شيئاً موجوداً » كان « جسماً »[(٦)] .

وذكر الجوينيّ ما نصّه : معنى « الجسم » : « الموجود » وأنّ المعنى بقولنا : إنّ الله « جسمٌ » أنّه « موجودٌ »[(٧)] .

ونقل الأيجيّ هذا التفسير عن بعض الكرّاميّة ، ونقل التفسير السابق عن آخرين منهم ، فقال : ذهبَ بعضُ الجهّال إلى أنّه « جسمٌ » فالكرّاميّة قالوا : هو « جسمٌ » أيْ « موجودٌ » وقوم قالوا : هو « جسمٌ » أيْ « قائم بنفسه »[(٨)] .

وهكذا نجد التفاسير الثلاثة « للجسم » قد جمعها الأشعريّ في عبارة واحدة ، ونسبها إلى هشام ، وكأنّها بمعنى واحد : الشيء ، والموجود ، والقائم بنفسه .

هذا ، ومن ناحية أُخرى نجدهم يفسّرون كلّ واحدٍ من هذه الثلاثة بالمعنى الآخر :

قال ابن حزم ـ في معنى قولنا « شيء » ـ : إنّه « الموجود » ثم قال : إنّ

(١) مقالات الإسلاميّين ٢ / ١٨٠ .
(٢) شرح الأصول الخمسة : ٢١٨ .
(٣) الملل والنحل ١ / ١٠٩ ، ولوامع البيّنات ـ للرازي ـ : ٣٥٩ .
(٤) الملل والنحل ١ / ١١٢ .
(٥) مقالات الإسلاميّين ٢ / ١٨٢ .
(٦) الشامل في أصول الدين : ١٦٦ ـ طبعة ريتر ـ الاسكندرية ، وانظر : مذاهب الإسلاميّين ١ / ٧٢ .
(٧) مقالات الإسلاميّين ١ / ١٢٤ .
(٨) المواقف ـ بشرح السيّد الشريف ـ : ٤٧٣ .

قالوا : هو « الموجود » صاروا إلى الحقّ[(٩)] .

وقال الأشعري ـ في معنى : أنّه تعالى « شيء » ـ : قال قائلونَ : معنى أنّ الله « شيء » : معنى أنّه « موجود » وهذا مذهب من قال : لا « شيء » إلاّ « موجود »[(١٠)] .

وقال الرازيّ : من قال : المعدوم ليس بشيء ، قال : الموجود شيء ، فهما لفظان مترادفان ، فإذا كان « موجوداً » كان « شيئاً »[(١١)] .

وذكر ـ في معنى : أنّه « موجود » أقوالاً ، منها :

٤ ـ « موجود » بمعنى : أنّه « شيء » .

٥ ـ « موجود » بمعنى : أنّه « قائم بنفسه »[(١٢)] .

واحتمل القاضي عبد الجبّار ـ في معنى « قائم بنفسه » :

١ ـ أنّه « موجود » .

٢ ـ أو « موجود باقٍ » .

٣ ـ أو « لا يحتاج وجودهُ إلى محل ومكان »[(١٣)] .

وقضيّة قياس المساواة أن يقال : إنّ المعاني الثلاثة : الشيء ، الموجود ، القائم بنفسه ، هي بمعنى « الجسم » كما نسب إلى هشام أولاً .

والحقّ أنّ مصداقها ـ على مصطلح هشام ـ واحد ، وإن اختلف مفهوم كلّ عن الآخر ، وإنّما الإختلاف بالإعتبارات الدخيلة :

فباعتبار صحّة الخبر عنه ، وتعلّق العلم به وإثباته ، يُسمّى « شيئاً » .

وباعتبار تحقّقه ، واتّصافه بالوجود ، يُسمّى « موجوداً » .

وباعتبار استقلاله في التحقّق ، يُسمّى « قائماً بنفسه » .

وقد اعترف تلامذة هشام بهذا المصطلح ، وأنّ إطلاق « الجسم » على الباريء سبحانه بمعنى « الشيء » .

قال ابن أبي الحديد : وأمّا من قال : إنّه « جسْمٌ لا كالأجسام » على معنى أنّه بخلاف « العَرَض » الذي يستحيل أنْ يُتَوَهَّم منه فِعْلٌ ، ونَفَوْا عنه معنى الجسميّة ، وإنّما أطلقوا هذه اللفظة لمعنى أنّه « شيء لا كالأشياء » فأمرهم سَهْلٌ ، لأنّ خلافهم في العبارة ، وهم علي بن منصور ، والسكّاك ، ويونس بن عبد الرحمن ، والفضل بن شاذان ، وكلّ هؤلاء من قدماء رجال الشيعة[(١٤)] .

ومن المعقول ـ في العادة ـ أنْ يمثّل التلامذة آراء أُستاذهم[(١٥)] .

فهشام قد اصطلح للجسم معنىً خاصاً هو « الشيء » .

وأمّا مناسبة هذا المعنى ، للمعنى المفهوم لُغةً :

فلأنّ المعنى اللُغويّ ـ كما مرّ ـ هو : تجمّع الشيء وتكتّله في الخارج ،

(٩) الفصل ٥ / ٤٣
(١٠) مقالات الإسلاميّين ٢ / ١٨٠ .
(١١) لوامع البيّنات ـ للرازي ـ : ٣٥٧ .
(١٢) مقالات الإسلاميّين ٢ / ١٨٥ .
(١٣) المغني ـ لعبد الجبّار ـ ٤ / ١٨٠ .
(١٤) شرح نهج البلاغة ٣ / ٢٢٨ .
(١٥) هشام بن الحكم ـ لنعمة ـ : ٦٩ .

وهذا يحتوي على طرفين : الأول : أن يكون ذا أجزاء متكتّلة . الثاني : أنْ يكون متحققاً في الخارج ، فما كان ذا أجزاء وتحقّق في الخارج ، اشترك مع معنى الجسم اللُّغوي في كِلا الأمرين .

وإنْ لم يكن مادّة ، وليس له أجزاء ، وإنّما لـه تحقُّق في الخارج ، فهـو « شيء » بحقيقـة الشيئية ، وهي التحقّق والثبوت في الخارج ، واشـتراكه في هـذا مع « الجسم » يصحّحُ إطلاق « الجسم » عليـه في عبارة المقـولـة ، ولا يحتاج إلى مادّة ، ولا تحيّز ، ولا غيرذلك من خواصّ الأجسام .

وقد اعترض الشيخ الصدوق على هذا التواضع ، فقـال : إنْ لم يُرجـع منه [أيْ من إطلاق « الجسم » عـلى الباريء] إلاّ عـلى التسمية فقط ، كـان واضعـاً للإسم في غـير موضعـه ، وكان كمن سمّى الله عـزّ وجـلّ إنسـانـاً ، ولحماً ، ودماً ، ثم لم يُثبت معنـاها ، وجعـلَ خلافَـه إيانـا على الإسم ، دونَ المعنى[1] .

أقول : وحاصل اعتراضه في أمرين :

١ ـ في أنّ هذا من باب وضع اللفظ في غير موضعه .

فإنْ كان مراده أنّه استعمال للّفظ في غير ما وُضِعَ له ، فلم يُرِدْ بـه المعنى الحقيقي ، فهذا مع وضوحه ، ليس مخـالفاً ، إذا كـان استعمالاً مجـازياً عـلى أساس علقةٍ مجازية ، كما شرحنا ، لصحّة المجاز بالوضع العامّ .

وليست فيـه مخالفـةٌ لأصل عقـلائيّ معلوم ، ولا معـارضـةَ فيـه لفـرع شرعيٍّ مستدلّ عليه ، كما ذكر السيّد الشريف المرتضى ، حيث قال : فأمّـا ما رُمِيَ بـه هشام بن الحكم من القـول بالتجسيم ، فـالظاهـر من الحكايـة عنه القول بـ« جسم لا كالأجسـام » ولا خلافَ في أنّ هـذا القول ليس بتشبيـهٍ ، ولا ناقضٍ لأصْلٍ ، ولا معترضٍ على فرع[2] .

وليس محرّماً على أحد أنْ يصطلح لنفسه لفـظاً يضعه عـلى معنىً خاصّ في نظره .

نعم ، بما أنّ الموضوع يتعلّق بأسماء الله تعالى فهو يرتبط بمسألة تـوقيفية هذه الأسماء وذلك خارجٌ عن المخـالفة الـوضعية ، وسيـأتي الحديث عن تلك المسألة .

٢ ـ في تمثيله بما ذكر من الألفاظ ، واستهجان إطْلاقها على الباريء .

فالفرق بين تلك الألفاظ وبـين لفظ « الجسم » واضح ، حيث إنّ تلك الألفـاظ لا تطلق بحقيقتهـا على الله كـما هو واضـح ، وليس لها معنى مجـازيّ قابل للإطلاق عليه تعالى ، يستحسنه الطبع ، فإطلاقها عليـه تعالى مستهجن لما في معانيها الحقيقية من الحقارة والسقوط .

مـع أنّه يعـترض عليه بـإطلاق كلمـة « شيء » التي وضـع هـشام لفظ « الجسم » بمعناها ، وسيأتي الكلام فيها .

والقاضي عبد الجبّـار ذكر من أطلق اسم « الجسم » عن طـريق العبارة وقال : أُسمّيه « جسماً » لأنّه « قائم بنفسه » . فاعترض عليه بقوله : فإنْ كانَ خـلافه من هـذا الوجـه ، فالكـلام عليه مـا ذكرنـاه من أنّ الجسم إنّما يكـونُ طويلاً ، عريضاً ، عميقاً ، فلا يُوصف به القديم تعالى[3] .

أقـول : وهذا خـروجٌ عن منهج المعـارضة العلميّة ، لأنّه خـروج عن مصطلح المعارِض ، وقد ذكرنا سابقاً أنّ المناقشة لا بُدّ أن تبتنيَ عـلى المصطلح الخاصّ الذي قصده المعارض ، ولا يجوز محاسبة أحدٍ عـلى ما لم يصطَلِحْه ولم يتواضع عليه ، فلا « مُشاحّة في الإصْطلاح » . إلاّ أن يكون اعـتراضه عـلى أصل الإصطلاح ، وقد أثبتنا عدم مخالفته لشيء كما سيأتي ذكر الدليل عليه .

* * *

٣ ـ أصْل هذه المقولة .

إنّ هـذه المقولـة تبتني أساسـاً على القـول بأنّ البـاريء تعـالى « شيء » وهشام زعم أنّ إثبات « الشيء » أن يقال : « جسم » .

وعلى ذلك تكون مقولـة « جسم لا كالأجسـام » مأخـوذةً من « شيء لا كالأشياء » وبمعناها .

وأقدمُ نصّ شيعيّ احتوى على المقولـة نقلاً عن هشـام تضمّن التسويـة بينهما :

عن عبـد الملك بن هـشـام الحنّـاط : قـلت لأبي الحسـن الـرضـا عليه السّلام : زعمَ هشام بن الحكم : أنّ الله « شيء لا كالأشياء » وأنّها بائنة عنه ، وهو بائن من الأشياء ، وزعم أنّ إثبات « الشيء » أن يقال : « جسم » فهو « جسمٌ لا كالأجسام » : « شيءٌ لا كالأشياء » ثابت موجود[4] .

وكـذلـك ابن أبي الحـديـد فـرض إطلاق هـذه المقـولـة : « جسم لا كالأجسام » لمعنى أنّه « شيءٌ لا كالأشياء »[5] .

ومن قـال بالتسـاوي بين « شيء » و « جسم » وأجـاز إطـلاق « شيء » على الباريء تعالى ، يقول : إنّه تعالى « شيء لا كـالأشياء » فـلا بُدّ أنْ يقـولَ بمقولة « جسم لا كالأجسام » من جهة المعنى ، وإن تعبّد بالتوقيف فهـو ممنوع من جهتهِ لا من جهة المعنى ، وذلك أمر آخر .

أمّا إطلاق اسم « الشيء » على الباريء تعالى فقد عنون المتكلّمون له ، واختلفوا فيه على مقالتين :

فقال جَهْم ، وبعض الزيديّة : إنّ البـاريء تعالى لا يُقـال له « شيء » لأنّ الشيء هو المخلوق الذي له مثل[6] .

وأورد الرازي احتجاج جهم على مقالته بالقرآن ، والمعقول :

أمّا القرآن ، فآيتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شيءٍ ﴾ [سورة الـرعد (١٣) الآية (١٦)] .

فلو كـان تعالى يُسمّى بلفظ « الشيء » لـزم بحكم هذا الـظاهر كـونـه خالقاً لنفسه ، وهو محال .

---

(١) التوحيد ـ للصدوق ـ : ٣٠٠ رقم ٦ .
(٢) الشافي ـ للمرتضى ـ : ١٢ .
(٣) شرح الأصول الخمسة : ٢١٨ .
(٤) اختيار معرفة الرجال : ٢٨٤ رقم ٥٠٣ .
(٥) شرح نهج البلاغة ٣ / ٢٢٨ .
(٦) مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٣٨ .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [سورة الشورى (٤٢) الآية (١١)] .

ومِثْلُ مِثْلِهِ هو « هو » فلمّا ذكر أنْ ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ لزم أنْ لا يكون هو مسمّىً باسم « شيء » .

وقول مَنْ قال : « الكافُ زائدة » باطلٌ ، لأنّ هذا ذكر : هذا الكاف خطأٌ وفاسدٌ ، فمعلومٌ أنّ هذا لا يليق بكلام الله تعالى .

وأمّا المعقول :

فهو : أنّ أسماء الله تعالى دالّةٌ على صفات الكمال ونعوت الجلال ، وقال : ﴿ وَلِلّٰهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [سورة الأعراف (٧) الآية (١٨٠)] .

واسم « الشيء » لا يُفيد كمالاً ، ولا جلالةً ولا معنىً من المعاني الحسنة ، فثبت أنّ كُلّ ما كان من أسماء الله تعالى وَجَبَ أنْ يُفيدَ حُسْناً ، ولفظ « شيء » لا يُفيد حُسْناً ، فوجَبَ أنْ لا يكونَ لِلّهِ تعالى[1] .

ولم يحاول الرازيُّ الإجابةَ على كلام جَهْمٍ هذا ، فلنذكر ـ نحنُ ـ ما يبدو لنا فيه من المغالطة والفساد :

أمّا عن احتجاجه بالآية الأُولى :

فجوابُه : أنّ ذلك الخطابَ لا يشملُ المتكلّم به وهو الله تعالى شأنه ، لأنّ مادّة « الخلق » الواردة فيه تقتضي انصراف مؤدّاه إلى ما سواه جلّ ذكره ، وهذا كما لو قال أحدٌ : « من لَبس ردائي عاقبته » حيث أنّه لا يشمل المتكلّم نفسه ، لفرض أنّ الرداء هو له ، والغرض من إيراد هذا القول منع الأغيار من التصرّف في الرداء .

فكذلك الآيةُ الكريمةُ إنّما سيقت للدلالة على قُدْرة الله على ما سواه ، واستيلائه على كلّ شيء ممّا عداه ، لأنّه خالقُ كُلّ شيء ، فهي منصرفة عنه هو جَلّ جلالُه :

ويدلّ على هذا المعنى ، ما رُوِيَ عن الإمام أبي جعفر محمد الباقر ، والإمام أبي عبد الله جعفر الصادق عليهما السّلام ، قالا : كُلّ ما وقع عليه اسم « شيء » ـ ما خلا الله عزّ وجلّ ـ فهو مخلوقٌ ، و ﴿ اللّٰهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ تبارك الذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[2] .

والجواب عن احتجاجه بالآية الثانية :

إنّ زيادة الحروف ليس من باب الخطأ ، ولا فساد فيه ، بل « إنّما زيدتْ لتوكيد نفي المثل ، لأنّ زيادة الحرف بمنزلة إعادة الجملة ثانياً ، قاله ابن جنّي »[3] .

فالزيادة أُسلوب عربيّ ، يؤدّي دوراً بلاغيّاً رائعاً هو الأليق بكلامه تعالى .

وأمّا الجواب عن احتجاجه الذي سمّاه معقولاً ، فمن وجهين :

الأوّل : أنّ المراد بالتسمية ، ليس هو تعيين الإسم الخاصّ عليه تعالى ، بل المراد إطلاق اللفظ عليه ، وبهذا يختلف عن الأسماء الحُسْنى ، فلا يسري حكمها عليه ، فالله ، بما أنّه موجود ثابت ، فكما يطلق على كلّ ثابت أنّه « شيء » فهو ـ تعالى ـ كذلك .

الثاني : أنّ الأسماء الحسنى ، تلك ، المذكورة لله تعالى ، تدلّ على ما فيها من المعاني الحسنة ، باعتبار أنّها أوصاف ، وأمّا ما يدلّ منها على مجرّد الذات الربوبيّة فلا دليل على دلالته على ذلك إلّا من جهة إضافته إليه جلّ ذكره .

وإطلاق « شيء » على فرض وروده من قبيل الثاني .

وقد وردَ إطلاق اسم « الشيء » على الباريء تعالى :

١ ـ فقد سُئِلَ الإمام الصادق عليه السّلام عن الله ، ما هو ؟

فقال : هو « شيء بخلاف الأشياء » أَرْجِعُ بقولي « شيء » إلى إثبات معنى ، وأنّه « شيء » بحقيقة الشيئيّة ، غير أنّه لا جسم ، ولا صورة[4] .

٢ ـ وسُئِلَ الإمام الجواد عليه السّلام : أيجوز أن يقال : إنّ الله عزّ وجلّ « شيء » ؟ .

قال : نعم ، يُخرجُه عن الحدَّيْن : حَدّ التعطيل ، وحَدّ التشبيه[5] .

وقد استدلّ الرازيّ عليه بأُمورٍ من القرآن ، واللُّغة ، والإجماع :

أمّا القرآن : فقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّٰهُ ﴾ [سورة الأنعام (٦) الآية (١٩)] .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [سورة القصص (٢٨) الآية (٨٨)] .

قال : المراد بوجهه : ذاتُه ، فقد استثنى ذاته من لفظ « الشيء » والاستثناء خلافَ الجنس خلافُ الأصل .

وأمّا اللُّغة : فهي أنّ من قال : المعدوم ليس بشيءٍ ، قال : الموجود هو « الشيء » فهما لفظان مترادفان ، فإذا كان « موجوداً » كان « شيئاً » .

ومن قال : المعدوم شيء ، قال : الشيء : ما يصحّ أن يعلم ويخبر[6] عنه ، فكان « الموجود » أخصّ من « الشيء » وإنْ صَدَقَ الخاصُّ صَدَقَ العامُّ ، فثبت أنّه تعالى مُسَمّىً بالشيء[7] .

وأمّا الإجماع : فالأَوْلى أنْ يقال : أجمع الناس ـ قَبْلَ ظهور جَهْمٍ ـ على كونه تعالى مسمّىً بهذا الإسم « الشيء » والإجماع حُجّةٌ[8] .

وقال الأشعري : قال المسلمون ـ كلُّهم ـ إنّ الباريء « شيء لا كالأشياء »[9] .

(١) لوامع البيّنات ، المطبوع باسم « شرح أسماء الله الحسنى » للرازي : ٧ ـ ٣٥٨ .
(٢) التوحيد ـ للصدوق ـ : ١٠٥ ـ ١٠٦ . ب ٧ . ح ٣ و ٤ و ٥ .
(٣) مغني اللبيب ـ لابن هشام ـ : ٢٣٨ .

(٤) التوحيد ـ للصدوق ـ : ١٠٤ ، ب ٧ . ح ٢ .
(٥) التوحيد ـ للصدوق ـ : ١٠٤ ب ٧ ح ١ ، وص ١٠٧ ح ٧ .
(٦) كذا الصواب ، وكان في المصدر : « يحسر » ولا معنى له ، لاحظ التعريفات للجرجاني : ٥٧ وانظر : الحكايات : ١٢٢ و ١٤٤ .
(٧) لوامع البيّنات ـ للرازي ـ : ٣٥٧ .
(٨) لوامع البيّنات ـ للرازي ـ : ٣٥٨ .
(٩) مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٣٨ .

وقال الناشيء : إن الباريء « شيء » موجودٌ في الحقيقة ، وإنّ الباريء « غير الأشياء » والأشياءُ غيره في الحقيقة[١] .

وقال عبد الله بن كلّاب : إنّه تعالى موجودٌ لا بوجود ، و « شيء » لا بمعنىً له كان شيئاً[٢] .

وزعم الكعبي في (مقالاته) : إن المعتزلة اجتمعت على أنّ الله عزّ وجلّ « شيء لا كالأشياء »[٣] .

وقال أبو الحسين الصالحي ـ من المعتزلة ـ في صفات الله معنى قولي : « إنّ اللّهَ عالم لا كالعلماء » و « قادر لا كالقادرين » و « حيٌّ لا كالأحياء » إنّه : « شيء لا كالأشياء » .

وكان يقول : إنّ معنى « شيء لا كالأشياء » معنى « عالم لا كالعلماء »[٤] .

وقال بعضهم : لا أقول : العلم شيء ، ولا أقول : الصفاتُ أشياء ، لأنّي إذا قلتُ : الباريء « شيء » بصفاته ، استغنيتُ عن أنْ أقولَ : صفاته أشياء[٥] .

وقال ابن حزم الظاهريّ : إنْ قالوا لنا : إنّكم تقولون : إنّ الله عزّ وجلّ « شيءٌ لا كالأشياء » ؟ .

قلنا : . . . لفظة « شيء » النصّ جاء بها ، والبرهان أوجبها[٦] .

وقال الرازي : « الموجود » و « الشيء » هما من صفات الله الذاتية ، المراد منها الألقاب الدالّة على الذات[٧] .

وقد استدلّ الجبّائي على ذلك : بأنّ الشيء : سِمة لكلّ معلوم ، ولكلّ ما أمكنَ ذكره والإخبار عنه ، فلمّا كانَ اللّهُ عزّ وجلّ معلوماً ، يمكن ذكره والإخبار عنه ، وجب أنّه « شيء »[٨] .

وهشام أخذ مقولة « شيء لا كالأشياء » من كلام الإمام الصادق عليه السّلام الذي نقلناه ، حيث أجاب من سأله عن الله تعالى : ما هو ؟ فقال : هو « شيء بخلاف الأشياء » .

فإنّ هشاماً هو راوي ذلك الحديث عن الصادق عليه السّلام[٩] .

وإذا صحّ إطلاق « الشيء » على الله جلّ ذكره ، فهو حَسب اصطلاح هشام لا يكون إلّا « جسماً »[١٠] كما مرّ مفصّلاً .

وإذا ثَبتَ أنّ الله « شيء لا كالأشياء » فهو عند هشام ، ومن قال بمصطلحه : « جسم لا كالأجسام » .

ولقد جهد المعتزلة الفصل بين المقولتين ، والحكم بعدم الملازمة بينهما :

قال القاضي عبد الجبّار : فإن قيل : أليْسَ عندَكُم أنّه تعالى : « شيءٌ لا كالأشياء » وقادر لا كالقادرين ، وعالم لا كالعالمين ، فهلّا جازَ أنْ يكونَ « جسماً لا كالأجسام » ؟ .

قيل له : إنّ « الشيء » اسم يقع على ما يصحُّ أنْ يعلم ويخبر عنه ، ويتناول المتماثل والمختلف والمتضادّ ، لهذا يقال في السواد والبياض : أنّهما « شيئان » متضادّان ، فإذا قُلنا : إنّه تعالى « شيء لا كالأشياء » فلا يتناقض كلامُنا ، لأنّا لم نُثبت بأوّل كلامنا ما نفيناه بآخره ، وكذا إذا قُلنا : إنّه تعالى قادرٌ لا كالقادرين ، وعالم لا كالعالمين ، فالمراد به أنّه قادر لذاته ، وعالم لذاته ، وغيره قادر لمعنى ، وعالم لمعنى .

وليس كذلك ما ذكرتموه ، لأنّ الجسم هو : ما يكون طويلاً عريضاً عميقاً ، فإذا قلتم : إنّه « جسم » فقد أثبتّم له الطول والعرض والعمق ، ثم إذا قلتم : « لا كالأجسام » فكأنّكم قلتم : ليس بطويل ولا عريض ولا عميق ، فقد نفيتم آخراً ما أثبتّموه أولاً ، وهذا هو حَدّ المناقضة ، ففارَقَ أحدُهما الآخر[١١] .

وقد ذكر الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده مثل هذا الكلام بعينه ، وأضاف : وإذا كان قد قام الدليل على أنّه ليس « جسماً » فلا يصحّ القول : إنّه « جسم لا كالأجسام » لأنّ حكم الأجسام واحدٌ[١٢] .

والجواب : إنّ « الجسم » عند هشام وفي مصطلحه ، وعند من يطلق مقولة « جسم لا كالأجسام » على الباريء تعالى ، هو بمعنى « الشيء » وليس بمعنى « ما له الطول والعرض والعمق » كما فرضه المعتزلة حتى يرد عليه ما ذكروه ، فكلامهم هذا كلّه خروج عن مصطلح هشام .

وإذا كان « الجسم » بمعنى « الشيء » فكما يصحّ إطلاق مقولة : « شيء لا كالأشياء » على الباريء باعتبار أنّ حقيقة الشيئية مشتركة بين الباريء وسائر الأشياء ، وإنّما يمتاز الباريء عنها بخاصّية وجودية لا توجد فيها ، فهو تعالى « شيء » بخلافها ، ولا تشبهه ولا يشبهها ، فمن جهة إثبات الشيئية له ، خرج عن حدّ التعطيل ، ومن جهة نفي المثيل له تعالى خرج عن حدّ التشبيه ، فثبت له تعالى التنزيه الكامل ، من دون تعارض بين صدر المقولة وذيلها .

فكذلك مقولة « جسم لا كالأجسام » على مصطلح هشام ، فإنّ الجسمية ـ بمعنى إثبات الشيئيّة بحقيقتها ـ ثابتة للباريء تعالى ، مشتركة بينه وبين غيره من الأجسام ، فإثباتها له يخرجه عن حدّ التعطيل ، ونفي المماثلة بينه وبين الأجسام ، يخرجه عن حدّ التشبيه ، وهو التنزيه الكامل ، من دون معارضة بين صدر المقولة وذيلها .

فظهر أنّ ما ذكروه غير وارد على هشام ، إذ أنّهم أوردوا ذلك على مصطلحهم في الجسم ، وهو : ما له الطول والعرض والعمق ، لا على مصطلحه في « الجسم » وهو : « الشيء » .

(١) مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٤٠ .
(٢) مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٣٠ .
(٣) مقالات الإسلاميّين ٢ / ١٨٠ ـ ١٨١ ، والفَرْق بين الفِرَق : ١١٥ ، ومذاهب الإسلاميّين ١ / ٥٠ .
(٤) مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٢٨ .
(٥) مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٣١ .
(٦) الفصل ٢ / ١١٨ ـ ١١٩ .
(٧) لوامع البيّنات ـ للرازي ـ : ٤٧ .
(٨) مقالات الإسلاميّين ٢ / ١٨١ .
(٩) التوحيد ـ للصدوق ـ : ١٠٤ ، ب ٧ ، ح ٢ .
(١٠) الفَرْق بين الفِرَق : ٦٧ .
(١١) شرح الأصول الخمسة : ٢٢١ .
(١٢) في التوحيد ، تكملة ديوان الأصول : ٥٩٦ .

وهذا منهم خروج عن أبسط مناهج البحث والجدل الصحيح .

وأمّا قولهم : وإذا كان قد قام الدليل على أنّه ـ تعالى ـ ليس جسماً ، فواضح أنّه مصادرة على المطلوب ، إذ أنّ هذا هو محلّ البحث والنزاع فكيف يؤخذ شرطاً تترتّب عليه النتيجة التي ذكروها .

ثُمّ إنّ الأدلّة التي أقامها المتكلّمون على نفي الجسميّة عن الباريء تعالى ، كلّها مبتنية على أنّ المراد بالجسم هو ذو الأبعاد ، وقد ذكروها في كتبهم .

ولهذا ، لا يرد شيء منها على المقولة ، بل نصّ كثير منهم على أنّ المقولة على مصطلح هشام لا تدلّ على التجسيم المعنوي ، وليس فيه مخالفة لأصل ، ولا اعتراض على فرع ، سوى مسألة توقيفية الأسماء التي سنفصّل ذكرها في نهاية البحث .

٤ ـ دليل هشام على اختيار هذا المصطلح

نُقِلَ استدلالُ هشام على اصطلاحه في الجسم ، في رواية يونس بن ظبيان ، قال : دخلت على أبي عبد الله عليه السّلام ، فقلت له : إنّ هشام بن الحكم يقول قولاً عظيماً ! إلّا أنّي أختصر لك منه أحرفاً : يزعم أنّ الله « جسم » لأنّ الأشياء شيئان : جسم ، وفعل الجسم ، فلا يجوز أن يكون الصانع بمعنى الفعل ، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل(١) .

ومراده : أنّ الموجودات على قسمين :

إمّا أعراضٌ ، وقد عبّر عنها هشام بكلمة « الفعل » وهو ما لا يستقلّ في وجوده ، بل يحتاج إلى محلّ يعرض عليه أو يصدر منه .

وإمّا ذوات ، وقد عبّر عنه بكلمة « الجسم » وهو ما يستقلّ في وجوده .

والباريء جلّ ذكره ، لا يكون إلّا من الموجودات المستقلّة بالوجود ، وبما أنّ الأعراض لا تسمّى عند هشام « أشياء » والذوات عنده هي الأشياء ، وقد عرفنا من مصطلحه أنّ الشيء عنده يسمّى بالجسم .

والباريء ليس عَرَضاً ، بل ذاتٌ ، ويُسمّى « شيئاً » فإذَنْ يُطلق عليه اسم « جسم » !

هذا ما نفهمه من استدلال هشام في هذه الرواية ، وهو الذي فهمه تلامذة هشام ، وقد نقله ابن أبي الحديد عنهم ، فقالوا : إنّه « جسم لا كالأجسام » على معنى أنّه بخلاف العَرَض الذي يستحيل أن يتوهّم منه فِعل ، ونَفَوْا عنه « معنى الجسميّة »(٢) .

فنفي معنى الجسميّة ، يدلّ على أنّ المراد بقولهم « جسم » مجرّد الاسم ، وإذا انتفى عنه معنى الجسميّة ، وهي التكتّل الخارجيّ المقتضي للأبعاد ، كان « الجسم » في مقابل العَرَض ، وبمعنى الذات المتقوّمة بنفسها ، وهذا في مصطلح هشام هو « الشيء » المرادف لكلمة « الجسم » .

وهذه الفكرة معروفة عن هشام ، بكل مقدّماتها :

فكأنّ يقول : إنّ الأفعال صفات الفاعلين ، ومعانٍ لهم ، وليست بأشياء ولا أجسام(٣) لأنّ الشيء عنده لا يكون إلّا جسماً(٤) .

فهشام لا يرى العَرَض « شيئاً » بل يرى ما يقابله « شيئاً » و « الشيء » عنده هو « الجسم » والباريء لا يكون عَرَضاً ، بل هو ذاتٌ ، فهو « جسم » أي « شيء » مستقلّ الوجود .

وكذلك كان هشام يرى أنّ « الحركة » ليست « جسماً » لأنّها « فعل » و « الفعل » عَرَض ليس بشيء .

ذكر ذلك في مناظرته لأبي الهذيل العلّاف الذي كان يرى الحركة « جسماً »(٥) .

وقد نقل القاضي عبد الجبّار شبهة للقائلين بالتجسيم ، وهي أنّهم قالوا : المعقول : إمّا الجسم ، وإمّا العَرَض ، والقديم تعالى يستحيل أن يكون عَرَضاً ، فيجب أن يكون جسماً(٦) .

فنجد في هذا الإستدلال نفس العناصر التي وجدناها في الإستدلال المنقول عن هشام ، فقد جُعل فيه « الجسم » مقابل « العَرَض » وكان في استدلال هشام مقابل « الفعل » .

والفِعل ، والعَرَض ، مشتركان في أنّها ليس لهما وجود مستقلّ بل الفعل نوع من العَرَض ، والذي يقابلهما هو الموجود الذي له استقلال في التحقّق والوجود ، وهو المسمى بـ « الذات » وبـ « الشيء » وفي اصطلاح هشام بـ « الجسم » .

وحيث أنّ القديم تعالى ليس عَرَضاً وليس فعلاً ، بل هو موجود مستقلّ في الوجود ، قائم بذاته ، وبنفسه ، ولا يحتاج في وجوده إلى محلّ يقوم به أو فيه ، وهو « شيء فهو مرادف ـ عند هشام ـ لكلمة « جسم » .

وليس مفاد ذلك التجسيم المعنوي الذي يدّعيه « المجسّمة » بل هو إطلاق للفظ « الجسم » بمعنى « الشيء » ، ولا محذور فيه سوى موضوع توقيفية أسماء الله تعالى ، وسيجيء .

ومن هُنا نَعرفُ أنّ القاضي قد حرّف هذا الإستدلال ، وصوّره استدلالاً على التجسيم المعنويّ ، باعتباره الجسمَ المفروض في الإستدلال مقابلاً للعَرَض ، قسماً من الجوهر ، فلهذا فرض في جوابه عنه وجود قسم ثالث ليس بجسم ولا عَرَض ، وأنّه هو ذات معلوم أو يمكن اعتقاده ، وهو القديم تعالى(٧) .

لكنّ المقابلة المفروضة في الإستدلال بين العَرَض والجسم ، توحي أنّ المراد بالجسم هو ما يستقلّ في الوجود وإلّا لم تصحّ المقابلة ، كما لا يصحّ الحصر ، فكيف يصحّ الإستدلال ، وكيف يفرض غفلة المستدلّ عن ذلك ؟ مع فرط وضوحه ؟

وليس له وجه صحّةٍ إلّا ما ذكرنا ، وحاصله : أنّ المعقول ـ والمراد به

(١) التوحيد ـ للصدوق ـ : ٩٩ ، ب ٦ ، ح ٧ : والحكايات ـ للمفيد ـ : ١٣٢ .
(٢) شرح نهج البلاغة ٣ / ٢٢٨ .

(٣) مقالات الإسلاميّين ١ / ١١٣ ، والفرق بين الفرق : ٦٧ .
(٤) الفَرْق بين الفِرَق : ٦٧ .
(٥) مُروج الذهب : ٥ / ٢٠ رقم ٢٩١٧ .
(٦) شرح الأصول الخمسة : ٢٢٥ .
(٧) شرح الأصول الخمسة : ٢٢٥ .

ما يمكن فرضه موجوداً ـ إمّا أنْ يكون مستقلاً بنفسه في الوجود ، أو يكون غير مستقل ، والأول هو الذات ، ويسمّيه المستدلّ « جسماً » والثاني هو العَرَض ، والباريء تعالى لا يكون عَرَضاً ، فهو « الجسم » .

والمراد بالعَرَض عند هشام هو « المعنى » وهو لا يراه « شيئاً » كما عرفت[1] .

لأنّ العَرَض هو ما يعرض غيره في الوجود ، ولا يجب لُبْثه كَلُبْث الأجسام[2] .

وهذه الحقيقة قد استدلّ عليها القاضي نفسُه ، في بيان استحالة كون الباريء تعالى « عَرَضاً »[3] .

وظهرَ أنّ مراد هشام من « فِعل الجسم » في استدلاله هو العَرَض ، المقابل للجوهر ، في اصطلاح الفلاسفة .

والقاضي عبد الجبّار استعمل كلمة « فعل الجسم » بمعنى آخر ، واستعمله في الإستدلال على أنّ الله تعالى لا يجوز أنْ يكونَ جسماً ، وقد فسّره أبو رشيد بأنّ المقصود من « فعل الجسم » : إحداثه واختراعه[4] .

وهذا تفسير للفعل بمعناه اللُغوي ، وإضافته إلى مفعوله ، كما أنّ مراده بالجسم هو المعنى المتداول ، وعلى هذا فلا يرتبط باستدلال هشام ولا مصطلحه في كِلتا الكلمتين : « الجسم » و « فعل الجسم » .

وقد التزم بنفس استدلال هشام من علماء عصرنا الشيخ مُحمّد عبده المصريّ ، فقال : إنْ أُريد من « الجوهر » القائم بذاته ، ومن « العَرَض » القائم بغيره ، لكان الباريء « جوهراً » وصفاته « عَرَضاً » . ولا منع إلاّ من جهة الإطلاق الشرعيّ ، حينئذٍ[5] .

فإنّ جعله « الجوهر » ـ المفسَّر بالذات ـ في مقابل « العَرَض » هو مثل مقابلة « الجسم » بمعنى الشيء القائم بالذات في مقابل « العَرَض » في كلام هشام .

وهذا أيضاً يبتني على اصطلاح خاصّ في معنى « الجوهر » كما أنّ ذاك كان مبتنياً على اصطلاحٍ خاصّ في معنى « الجسم » .

وإلاّ فالجوهر بمعنى ما له ماهيّة ، لا يمكن إطلاقه على الباريء جلّ ذكره .

وهشام بقوله « جسم » وإطلاقه على الباريء تعالى ، لا يُثبتُ أيةَ مادّة له تعالى ، ولا أنّه ماهيّة ، بل ـ كما ذكرنا ـ أراد بهذه اللفظة التعبير عن كونه تعالى « شيئاً » بحقيقة الشيئيّة ، وهو « الموجود » و « القائم بنفسه » فلا يصحّ عنده التعبير عنه تعالى بالجوهر . ويشهد لذلك أنّ هشاماً كان ممّن يُنكر الجوهر الفرد .

قال الأشعري ـ وهو يتحدّث عمّن يزعم ـ : أنّ الجزء يتجزّأ أبداً ، ولا جزء إلاّ وله جزء ، وليس لذلك آخرٌ إلاّ من جهة المساحة ، وأنّ لمساحة الجسم آخِراً ، وليس لأجزائه آخِرٌ من باب التجزّؤ ، والقائل بهذا القول هشام بن الحكم وغيره[6] .

فكلّ جوهر ـ عند هشام ـ لا بُدّ أن يكون متألّفاً من أكثر من جزء ، وكلّ متألّفٍ متحيِّز ، وكلّ متحيّزٍ لا بُدّ أنْ يكون يمينُه غير يساره ، وقدّامه غير خلفه ، وكلّ ما يتميّز أحد جانبيه عن الآخر ، فهو منقسمٌ ، وكلّ منقسمٍ فليس بـ « أحد »[7] .

والله جلّ ذكره يقول : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [سورة التوحيد (١١٢) الآية (١)] .

وكما أنّ صدر المقولة « جسم لا كالأجسام » يُثبت وجود الباريء تعالى ، فهو إخراج له عن حدّ التعطيل ، فكذلك ذيلها ينفي عنه تبارك ذكره كلّ شبه للأجسام ، ومماثلة بينه وبينها ، فهو إخراج له تعالى عن حدّ التشبيه ، كما تدلّ عليه الآية الكريمة : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

فهذه الآية نفت عن وجوده تعالى المماثلة لغيره من الأشياء ..وممّا يدلّ على أنّ قوله في ذيل المقولة : « . . لا كالأجسام » هو بمعنى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ هو وجود هذه الآية مكان ذلك الذيل في مورد نقل كلام هشام ، في حديث الحمّاني : إنّ هشام بن الحكم زَعَمَ أنّ الله ﴿ جِسْمٌ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[8] .

وهذا الذيل ضروريّ لتكميل التنزيه ، كما عرفت ، ولذلك قال ابن حزم : لو أتانا نصٌّ بتسميته تعالى « جسماً » لوجب علينا القول بذلك ، وكُنّا حينئذٍ نقول : إنّه « لا كالأجسام »[9] .

٥ ـ المقولة لا تدلّ على التجسيم

قد ثبت أن المقولة حسب مصطلح هشام لا تدلّ على عقيدة التجسيم ، بل تدلّ على التنزيه الكامل عن حَدَّيْ التعطيل والتشبيه ، وغاية ما تدلّ عليه أنّ هشاماً كان يُطلق اسم « الجسم » على الباريء تعالى ، وغرضه إثبات وجوده ، وأنّه « شيْءٌ » « قائم بنفسه » وليس « عَرَضاً » .

نعم تبقى المقولة مخالفةً لمسألة توقيفيّة أسماء الله تعالى ، وذاك أمر آخر سيأتي ذكره في نهاية البحث .

وقد صرّح المحقّقون من العلماء بعدم دلالة هذه المقولة على اعتقاد التجسيم :

١ ـ منهم الشيخ المفيد فقد ذكر ما نصّه : لم يكن في سلفنا من تَدَيَّنَ بالتشبيه من طريق المعنى ، وإنّما خالف هشامٌ وأصحابُه جماعةَ أصحاب أبي عبد الله عليه السّلام بقوله في « الجسم » فزعَمَ أنّ الله « جسمٌ لا كالأجسام »[10].

فنفيه التشبيه من طريق المعنى ، يشمل هشاماً وغيره ممّن اتُّهِمُوا بذلك ، والتشبيه من طريق المعنى هو التجسيم الحقيقي ، ويقابله تنزيه

(١) اللمع ـ للأشعري ـ : ٣ ـ ٣٤ .
(٢) مذاهب الإسلاميّين ١ / ٤١٧ .
(٣) شرح الأصول الخمسة : ٢٣١ .
(٤) أنظر الاستدلال وتوضيحه في : ديوان الأصول : ٥٩٧ .
(٥) الشيخ محمد عبده : ٥٣١ .

(٦) مقالات الإسلاميّين ١ / ١٢٤ .
(٧) اللوامع الإلهية ـ للفاضل المقداد ـ : ٨٧ ، وانظر : الفصل ـ لابن حزم ـ ٥ / ٦٦ .
(٨) التوحيد ـ للصدوق ـ : ١٠٠ ، ب ٦ ، ح ٨ .
(٩) الفصل ٢ / ١١٨ ـ ١١٩ .
(١٠) الحكايات : ١٣١ .

الباريء تعالى عن كونه جسماً كالأجسام ، أمّا التجسيم الذي قال به هشام فهو « التجسيم اللفظي » ومن جهة العبارة ، والمراد به إطلاق اسم « الجسم » فقط عليه تعالى .

وقد يستفاد ذلك من تعبير الشيخ المفيد : إنّ هشاماً خالف « بالقول في الجسم » لا إنّه خالف « في القول بالجسم » الذي هو مذهب المجسّمة .

والحاصل أنّ المفيد ينسب بهذه العبارة إلى هشام قولاً قاله في « الجسم » واصطلاحاً خاصاً به في تفسير الجسم ، أطلقه بذلك على الباريء ، مخالفاً لجميع الطائفة في هذا ، لا أنّه قال بالجسم .

وإلّا لكان كلام المفيد متناقضاً صدراً وذيلاً .

ويؤيّد ما ذكرناه أنّ المفيد قال في مقام آخر : كان هشام بن الحكم شيعيّاً ، وإنْ خالفَ الشيعةَ ـ كافّةً ـ في أسماء الله تعالى[1] .

حيثُ يحصر مخالفة هشام في موضوع الأسماء ، والمعروف هو خلافه في « الجسم » هل يسمى به الباريء أوْ لا ؟

٢ ـ وقال الشريف المرتضى : فالظاهر من الحكاية عنه القول بـ « جسم لا كالأجسام » ولا خلاف في أنّ هذا القول ليس بتشبيه ، ولا ناقض لأصل ، ولا معترض على فرع ، وأنّه غلط في عبارة ، يرجع في إثباتها ونفيها إلى اللغة[2] .

وواضح أنّ الشريف جعل المقولة من باب إطلاق لفظ « جسم » على الباريء باعتبار تفسيره بغير ما هو في اللّغة ، وجعل المسألة لغوية ، وهذا كافٍ في إخراج البحث فيها عن علم الكلام .

مضافاً إلى أنّ نفي كونها تشبيهاً ، أو ناقضةً لأصل ، يدلّ بوضوح على عدم كونها دالّة على اعتقاد التجسيم ، وإلّا كانت متناقضة لأصل التوحيد .

٣ ـ وقال القاضي الأيجيّ ، والسيّد الشريف ، في المواقف ، وشرحه : (إنّه تعالى ليس بـ « جسم ») وهو مذهب أهل الحقّ (وذهب بعض الجهّال إلى أنّه « جسم ») ثم اختلفوا :

(فالكرّاميّة) أي بعضهم (قالوا : هو « جسم » أي : موجود) .

(وقوم) آخرون منهم (قالوا : هو « جسم » أي : قائم بنفسه ، فلا نزاع معهم) على التفسيرين (إلّا في التسمية) أي إطلاق لفظ « الجسم » عليه[3] .

٤ ـ وقال ابن أبي الحديد : من قال : إنّه « جسمٌ لا كالأجسام » على معنى أنّه بخلاف « العَرَض » الذي يستحيل أنْ يتوهّم منه فعلٌ ونَفَوْا عنه « معنى الجسميّة » وإنّما أطلقوا هذه اللفظة لمعنى أنّه « شيء لا كالأشياء » و « ذات لا كالذوات » فأمرهم سَهْلٌ ، لأنّ خلافهم في العبارة .

والمتعصّبون لهشام بن الحكم من الشيعة في وقتنا هذا يزعمون أنّه لم يقُلْ بالتجسيم المعنويّ ، وإنّما قال : إنّه « جسمٌ لا كالأجسام » بالمعنى الذي ذكرناه[4] .

وكلامه واضح في إنّ المقولة أُطْلِقَ فيها اسم « الجسم » على الباريء على أنّه بمعنى « شيء » لا بمعنى ذي الأبعاد ، حتى يكون تجسيماً معنوياً .

لكن نسبة هذا التفسير للمقولة إلى خصوص الشيعة في وقته غير صحيح :

لأنّ هذا التفسير قد نُسِبَ إلى تلامذة هشام من قدماء الشيعة ، وقد سبق أنْ قلنا : إنّ تلامذة الرجل لا يبعد أنْ يكونوا معبّرين عن رأي أستاذهم ، وخاصّة إذا لاحظنا اتّفاقهم على ذلك .

٢ ـ أنّ هذا التفسير لمقولة هشام مبتنٍ علىٰ مصطلح هشام ، وقد مضى نقله عن جمع من العلماء الّذين ذكروا آراء هشام ، فلا معنى لجعله قولاً للشيعة في عصره فقط !

٥ ـ وقال الدوّاني ـ في شرحه على العقائد العضديّة ـ : ومن المشبّهة من تستّر « بالبَلْكَفَة » فقال : هو « جسمٌ لا كالأجسام » وله حيّزٌ لا كالأحياز ، ونسبته إلى حيّزه ليست كنسبة الأجسام إلى حيّزها ، وهكذا ينفي جميع خواصّ الجسم منه ، حتى لا يبقى إلّا إسم « الجسم » ..

وهؤلاء لا يكفّرون[5] .

أقول : فقد صرّح في النهاية بأنّ المراد من « الجسم » هو مجرّد الاسم ، لا المعنى ، وصرّح بعدم كفر قائلي المقولة ، ولو كانت دالّة على التجسيم المعنوي ، لكانوا كفرةً بلا خلاف .

لكنّه قد أدخل في كلامه ما لا يطابق هذا التصريح :

١ ـ قوله : « وله حيّزٌ لا كالأحياز ، ونسبتهُ إلى حيّزه ليست كنسبة الأجسام إلى حيّزها » .

وهذه إضافة منه نسبها إلى أصحاب المقولة ، ولم نجدها مضافة إلى المقولة في شيء من مصادرها مطلقاً ، وهي غلط تنافي تفسيرهم للمقولة ، وذلك :

لأنّ مرادهم بالجسم ـ كما صرّح به الدوّاني أخيراً ـ هو مجرّد الاسم ، ومعناه ـ كما مرّ مفصلاً ـ هو : الشيء ، وقد نفوا بقولهم « لا كالأجسام » كلّ خواصّ الجسم ـ كما اعترف به الدوّاني أيضاً ـ فما معنى قوله « وله حيّز » ومن أين نسب إليهم إثبات الحيّز ، إنْ كانوا قد نَفَوا عنه كلّ خواصّ الأجسام ؟ أَلَيْس الحيّز من خواصّها المنفيّة ؟

فلو كان يقول ـ نقلاً عنهم ـ : إنّه « جسم لا كالأجسام » ليس له حيّز ولا أبعاد وهكذا ينفي جميع خواصّ الأجسام حتى لا يبقى إلّا مجرّد اسم « الجسم » لكان تفسيراً جيّداً للمقولة حسب تفسيرهم .

والحاصل أنّ قوله : « وله حيّز . . . » يناقض تصريحه بكون المقولة تجسيماً لفظياً وعدم كفر قائليها .

٢ ـ قوله : « مَنْ تستّر بالبَلْكَفة » .

٣٧ ، طبع تبريز .

ما بين الأقواس هو عبارة المواقف .

(٤) شرح نهج البلاغة ٣ / ٢٢٨ .

(٥) الشيخ محمد عبده : ٥٣٢ .

وهذه الكلمة مصدرٌ جَعْلي من قولهم : « بلا كَيْفٍ » وقد استعمل السلفيّون من العامّة ذلك ، حيث أثبتوا لله ـ جلّ وعلا ـ أعضاءً ، كاليد ، والرِجْل ، والعَيْن ، وسائر الجوارح وهكذا الاستواء ، والنزول ، وما أشبه .

وخروجاً عن تشبيهه تعالى بالخلق ، قالوا : إنّ هذه الأعضاء هي « صفاتٌ » خبرية لله تعالى شأنه .

وإذا سُئلوا عن حقيقة هذه الصفات ؟ قالوا ـ مثلاً ـ : لله يدٌ بلا كيف .

وقد اشتهر عنهم قولهم : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة[1] .

فالبَلْكَفَة ، من مصطلحات الصفاتيّة ، وقد أصبحت عقيدة الأشاعرة من بعدهم ، وصار مذهباً لأهل السُنّة ، وانتقلت سمة الصفاتيّة إلى الأشعرية[2] .

فقد تهرّبوا من الإجابة بتكميمهم الأفواه ، وتستّروا عن التشبيه الذي تدلّ عليه أسماء بادّعائهم « اللاّ كيف » .

ولذلك قال الشاعر فيهم :

قد شبّهوهُ بخَلْقه وتخوّفوا خوفَ الورى فتستّروا بالبَلْكَفَة

لكنّ الدوّاني غالَطَ ، واعتبر قول القائل : « لا كالأجسام » بَلْكَفَةً ، مع أنّ المنفي في هذه المقولة ليس هو الكيف ، وإنّما المنفيّ صريحاً هو التشبيه ، ومع ذلك فالدوّاني يعتبر المقولة « تشبيهاً » .

فما أوضح هذا التهافت ؟!

وإذا كان لفظ « جسم » بمعنى « شيء » دلّت المقولة على ما تدلّ عليه الآية الكريمة : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ ﴾ [سورة الشورى (٤٢) الآية (١١)] ـ كما سبق أن شرحناه ـ فهل يعتبر الدوّاني هذا ـ أيضاً ـ بَلْكَفَةً ؟!

٦ ـ وصرّح ابن حزم بأنّ المقولة لا مانع فيها إلاّ من جهة توقيفية الأسماء ، فقال : ومن قال : إنّ الله تعالى « جسم لا كالأجسام » فليس مشبّهاً[3] لكنّه أَلْحَدَ[4] في أسماء الله تعالى : إذ سمّاه عزّ وجلّ بما لم يُسَمِّ به نفسَه[5] .

وقال : إنْ قالوا لنا : إنّكم تقولون : إنّ الله عزّ وجلّ حيٌّ لا كالأحياء ، وعليم لا كالعلماء ، وقادر لا كالقادرين ، و « شيءٌ لا كالأشياء » فَلِمَ مَنعتم القول بأنّه « جسم لا كالأجسام » ؟ .

قيل لهم ـ وبالله التوفيق ـ : لولا النصُّ الوارد بتسميته تعالى بأنّه حيٌّ ، وقدير ، وعليم ، ما سمّيناه بشيء من ذلك ، لكنّ الوقوف عند النصّ فرض ، ولم يأت نصٌّ بتسميته تعالى « جسماً » ولا قام البرهان بتسميته « جسماً » بل البرهان مانع من تسميته بذلك تعالى .

ولو أتانا نصٌّ بتسميته تعالى « جسماً » لوجب علينا القول بذلك ، ركُنّا ـ حينئذٍ ـ نقول : إنّه « . . . لا كالأجسام »[6] .

وهذا صريح في أنّ المانع من إطلاق لفظ « جسم » هو التوقيف ، لعدم وروده في النصّ ، وأنه لو أُطلِقَ لزم إضافة ذيل المقولة عليه .

وأمّا قوله : بل البرهان مانع من تسميته بذلك تعالى ، فليس بصحيح :

أولاً : لو كان هناك مانع غير التوقيف ، لما صحّ إطلاقه عليه تعالى بمجرّد ورود النصّ به ، كما فرضه هو .

وثانياً : إنّ البرهان لا دخلَ له في أمر الألفاظ والتسميات ، لأنّ ذلك من شؤون اللُغة والوضع ، لا البرهان والعقل ، كما سيأتي توضيحه في مسألة توقيفيّة الأسماء ، إن شاء الله .

ثم إنّا لم نقف على بُرهان عقلي على عدم صحّة إطلاق اسم « الجسم » عليه تعالى ! نعم ، قد تمّ البرهان على نفي التجسيم عنه تبارك وتعالى ، وأين هذا من التجسيم اللفظيّ !؟ .

والحاصل : أنّ المقولة لا تدلّ على التجسيم ، بل تدلّ على التنزيه عن حدّ التعطيل ، وعن حدّ التشبيه ، فإطلاق النفي في قوله « لا كالأجسام » صريح في نفي كلّ أشكال التماثل والمشابهة بين البارىء تعالى وبين الخلق ، وهذا بنفسه قرينة على صرف معنى « الجسم » عن المفهوم اللُغويّ والعرفي ، إلى مصطلح هشام ، وإرادة « الموجود » أو « الشيء » أو « القائم بالذات » فلا تكون المقولة إلاّ تعبيراً عن إثبات وجود البارىء ونفي كلّ تشبيه بخلقه عنه .

وقد احتوى أقدم نصّ نُقل فيه كلام هشام هذا ، على أنّه زعم : أنّ إثبات « الشيء » أن يقال : « جسم » فهو « جسم لا كالأجسام » : « شيء لا كالأشياء » .

ثم أضاف : ثابت ، موجود ، غير مفقود ، ولا معدوم ، خارج عن الحدّين : حدّ الإبطال ، وحدّ التشبيه[7] .

وهذا هو الغاية في البعد عن اعتقاد التجسيم ، ونهاية التمسّك بالتنزيه .

وقد ورد في الحديث نفي القول بالتجسيم عن هشام ، فيما رواه علي بن إبراهيم القمي ، قال : حدّثني أبي ، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر ، عن علي بن موسى الرضا عليه السّلام ، قال : قال : يا أحمد ، ما الخلاف بينكم ، وبينَ أصحاب هشام بن الحكم في التوحيد ؟

فقلت : جعلت فداك ـ قلنا نحن بـ « الصورة » للحديث الذي روي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم رأى ربّه صورة شاب .

وقال هشام بن الحكم بـ « النفي للجسم » .

فقال : يا أحمد ، إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا أُسْرِيَ به إلى السماء ، وبلغَ عند سِدْرة المُنْتهى ، خرق له في الحُجُب مثلُ سَمّ الأبرة ،

(١) الملل والنحل ١ / ٩٣ . ولنا بحث طويل معهم في هذه المصطلحات ، وموقف حاسم في عقائدهم هذه ، وفّقنا الله لنشره .
(٢) الملل والنحل : ١ / ٩٣ وقبلها .
(٣) في المصدر : « مشتبهاً » وهو غلط ، كما لا يخفى .
(٤) الإلحاد في الشيء : إدخال ما ليس منه فيه .
(٥) الفصل ٢ / ١٢٠ .
(٦) الفصل ٢ / ١١٨ ـ ١١٩ .
(٧) اختيار معرفة الرجال : ٢٨ رقم ٥٠٣ .

فرأى من نور العظمة ما شاء الله أن يرى ، وأردتم ـ أنتم ـ التشبيه ؟! .

دَعْ هذا ، يا أحمد ، لا ينفتح عليك ، هذا أمرٌ عظيم(١) .

ثمّ نفي التجسيم ، وعدم إرادة المعنى اللغوي من كلمة « الجسم » بل اعتباره ـ على اصطلاح هشام ـ بمعنى « الشيء » و « الموجود » مع تكميله بنفي التشبيه في قوله « . . . لا كالأجسام » يقتضي نفي « الصورة » عن الباريء ، لوضوح أنّ « الصورة » من لوازم الأجسام وقد نفاه قوله « لا كالأجسام » .

كما أنّ الإمام الرضا عليه السّلام جعل كلام هشام ومن تبعه في مقابل التشبيه في الرواية التي احتوت على مقولته ، وهي أول نصّ شيعي جاءت فيه ، وإليك نصّها :

قال عبد الملك بن هشام الحنّاط : قلت للرضا عليه السّلام :

زعم هشام بن سالم : أنّ الله عزّ وجلّ صورة ، وأنّ آدم خُلق على مثال الربّ .

وزعم يونس مولى آل يقطين ، وهشام بن الحكم : أنّ الله « شيء لا كالأشياء » ، وأنّ الأشياء بائنة منه ، وهو بائن عن الأشياء ، وزعما : أنّ إثبات « الشيء » أن يقال « جسم » فهو « جسم لا كالأجسام » : « شيء لا كالأشياء » ثابت ، موجود ، غير مفقود ، ولا معدوم ، خارج عن الحدَّيْن : حدّ الإبطال ، وحدّ التشبيه .

فبأيّ القولين أقول ؟!

فقال عليه السّلام : أراد هذا الإثبات .

وهذا شبّه ربّه تعالى بمخلوق ، تعالى الله الذي ليس له شبيه ، ولا عدل ، ولا مثل ولا نظير ، ولا هو في صفة المخلوقين .

لا تقل بمثل ما قال هشام بن سالم .

وقل بما قال مولى آل يقطين وصاحبه(٢) .

وكلام الإمام الرضا عليه السّلام ـ مضافاً إلى توضيحه مراد هشام ، وتقريره لهذا المراد ـ يدلّ على بُعْد معتقد هشام عن كلّ تشبيه ، ومنافاته لما قاله هشام بن سالم .

وقد ذكر المفهرسون أنّ لهشام بن الحكم كتاب « الردّ على هشام بن سالم »(٣) .

كما أنّ مقابلة هشام ، للبزنطي القائل بالصورة ـ في رواية القمّي ـ تدلّ بوضوح على أنّ هشاماً كان لا يقول « بالصورة » .

وكذلك « الرؤية » فإنّها داخلة في خواصّ الأجسام ، التي نفاها هشام بقوله : « . . . لا كالأجسام » .

وقد صرّح هشام بأنّ « الرؤية » من لوازم « الجسميّة » في مناظرته لأبي الهذيل العلّاف ، فقال له : إذا زعمت : أنّ الحركة تُرى ، فلِمَ لا زعمت أنّها تُلْمَسُ ؟

(١) تفسير القمي ١ / ٢٠ .
(٢) اختيار معرفة الرجال : ٢٨٥ رقم ٥٠٣ .
(٣) لاحظ : رجال النجاشي : ٤٣٣ رقم ١١٦٤ والفهرست للطوسي : ٢٠٤ رقم ٧٨٢ ، والفهرست ـ للنديم ـ : ٢٢٤ .

قال العلّاف : لأنها ليس بجسم ، فيلمسُ ، لأنّ اللمس إنّما يقع على الأجسام !

قال هشام : فقل « إنّها لا تُرى » لأنّ الرؤية إنّما تقع على الأجسام(٤) .

فإذا نفي هشام خواصّ الأجسام عن الباريء بقوله : « . . . لا كالأجسام » فهو ينفي رؤية الباريء تعالى قطعاً .

ولذا لم يُنقل عنه القول بالرؤية إلّا ما حكاه بعض خصومه من المعتزلة .

قال الشيخ المفيد : فأمّا نفي الرؤية عن الله عزّ وجلّ بالأبصار ، فعليه إجماع الفقهاء والمتكلّمين من العصابة كافّةً ، إلّا ما حُكِيَ عن هشام في خلافه(٥) .

والذي حكى هذا القول الشاذّ هو القاضي عبد الجبّار ، فقال : وأمّا هشام بن الحكم وغيره من المجسّمة فإنّهم يجوّزون أنْ يُرى في الحقيقة ويُلْمَس(٦) .

مع أنّا عرفنا مصطلح هشام في « الجسم » وأنّه أطلقه على معنى « الشيء » و « الموجود » و « القائم بنفسه » ونفى عنه خواصّ الأجسام بقوله « لا كالأجسام » وعلمنا أنّ ذلك يقتضي نفي هشام لـ « الصورة » و « الرؤية » .

والقاضي ـ نفسه ـ اعترف بأنّ معاني « الشيء » و « الموجود » و « القائم بنفسه » لا تؤدي إلى « التجسيم » ولا تلازم القول بـ « الرؤية »(٧) .

وقد اعترف القاضي ـ أيضاً ـ بأنّه : لا أحد يدعي أنّه يرى الله سبحانه إلّا من يعتقده « جسماً » « مصوّراً بصورة مخصوصة » ويعتقد أنّه يَحِلُّ في الأجسام(٨) .

فإذا وجدنا هشاماً ينفي حقيقة الجسم ، وينفي الصورة ، وينفي كلّ لوازم الأجسام ، فكيف ينسب القاضي إليه القول بالرؤية التي هي من أظهر خواصّ الأجسام ، وألزم لوازم القول باعتقاد التجسيم ؟!

ومن الغريب أنّ بعض الكُتّاب غَفَلَ عن كلّ ما ذكرناه من الحقيقة ، فنقل كلام المفيد في نفي القول بالرؤية عن الطائفة كافة إلّا ما حكي عن هشام ، وقال : فإنْ صحّت الحكاية والنسبة (!) فهي نتيجة لقوله : إنّ الخالق « جسم لا كالأجسام » لأنّ القول بكونه « جسماً » يُفضي إلى القول بجواز الرؤية .

لكنّ هذه الحكاية لم تثبت بطريق مقبول(٩) .

وقد عرفت بأنّ هشاماً لم يرد بكلمة « الجسم » ما هو المفهوم الظاهر منه ، حتى يكون مُفضياً إلى الرؤية ، بل أراد « الشيء » و « الموجود » وهذا

(٤) مروج الذهب ٥ / ١٢ رقم ٢٩١٧ .
(٥) الفصول المختارة ٢ / ١٢١ . وأوائل المقالات : ٥٩ .
(٦) المغني ٤ / ١٣٩ .
(٧) المغني ٤ / ١٨٠ .
(٨) المغني ٤ / ٩٩ .
(٩) هشام بن الحكم استاذ القرن الثاني ـ لعبد الله نعمة ـ : ١٤٨ .

باعتراف القاضي عبد الجبّار ـ صاحب الحكاية والنسبة ـ لا يقتضي القول بالرؤية .

وقد صدر هذا من الكاتب نتيجة عدم وقوفه على مصطلح هشام ، وعدم تدقيقه في أبعاد هذا المصطلح ، ولنا لقاءٌ معه في القسم الآتي من هذا البحث .

ثمّ إنّ جميع ما أورده المحقّقون من الفلاسفة والمتكلّمين من البراهين والأدلّة على نفي التجسيم عن الله تبارك وتعالى مبتنٍ على نفي التأليف والتركيب والتحيّز والحاجة والجزء ، وما أشبه ذلك ، عن وجود الباريء جَلّ وعزّ ، لأنّ جميع ما ذُكِر هو من سمات الممكنات ، والله تعالى واجب الوجود .

ومن الواضح أنّ شيئاً من ذلك لا يرتبط بمسألة اللفظ وإطلاق كلمة « جسم » بمعنى « الشيء » عليه تعالى .

وأمّا مسألة توقيفيةِ أسمائه تعالى ، فهذا أمر آخر ، سيأتي التفصيل فيه ، بعون الله .

٦ ـ مواقف الكلاميّين من المقولة :

لقد عرفنا خلال عرضنا لمصطلح هشام مواقف العلماء الناقلين لذلك من المقولة ، ورأينا هنا أن نستعرض تلك المواقف في نظرة سريعة :

أمّا الأشاعرة :

فقد صرّح رئيس مذهبهم أبو الحسن الأشعري بأنّ هشاماً قال : هو « جسم لا كالأجسام » ومعنى ذلك : أنّه « شيء موجود »[١] .

وهذا واضح في تفسيره المصطلح بما لا يدلّ على التجسيم المعنويّ ، فإنّ مَنْ يعبّر عن الله تعالى بأنّه « شيء موجود » لم يذكر بكلامه هذا إلّا إثبات وجود الله تعالى ، دون أن يعبّر عن كون الله تعالى له صفة الجسميّة أو غيرها ، فكذلك المقولة التي تدلّ على معنى « شيء موجود » كما فسّرها الأشعريّ .

مضافاً إلى أنّ ذيل المقولة يدلّ على نفي تشبيهه بالأجسام كلّها ، فهو أصرح ، في عدم التجسيم المعنويّ .

وقد صرّح الأشعري في مورد آخر بأنّ الذي يقول في الباريء : « جسمٌ » بمعنى أنّه « موجود » : لا يثبت الباريء ذا أجزاء مؤتلفة ، ولا أبعاض متلاصقة[٢] .

فهذا ـ على مصطلح هشام ـ صريح في نفي المعنى اللغوي للجسم الدالّ على الأبعاد والأجزاء وتألّفها في الوجود .

وأصرح من ذلك قوله : وقال قائلون : هو « جسم خارج من جميع صفات الأجسام » ليس بطويل ، ولا عريض ، ولا عميق ، ولا يوصف بلون ، ولا طعم ، ولا مجسّة ، ولا شيء من صفات الأجسام ، وأنّه ليس في الأجسام ، ولا على العرش[٣] . . .

وهذا النصّ ، وإنْ لم يفسّر فيه الجسم بما اصطلح عليه هشام ، إلّا أن

(١) مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٥٧ .
(٢) مقالات الإسلاميّين ١ / ١٠٤ .
(٣) مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٦٠ .

قوله : « خارج من جميع صفات الأجسام » إلى آخر العبارة ، لازم لذلك ، بل هذا هو توضيح لذيل المقولة : « . . . لا كالأجسام » كما هو واضح ممّا تقدّم ذكره مكرّراً .

ومع هذا ، فالأشعريّ ينسب إلى هشام القول بأنّ ربّه في مكان دون مكان ، تعالى الله عن ذلك ، وكذلك ينسب إليه أقاويل تنافي هذه المقولة منافاة ظاهرة ، ويضيف على مقولته أقبح ما يقال في هذا المجال ، ممّا لا يخفى على عاقل ، فكيف يخفى ذلك على الأشعري المتغافل !؟

هذا ، وقد اعترف كبارُ الأشاعرة ، المتقدّمون والمتأخرون ، بعدم دلالة المقولة على التجسيم ، كما نقلناه عن الأيجي ، والجويني ، والدوّاني ، والرازي ، وعبده .

وأمّا الظاهريّة :

فقد عرفنا من أشهر شخصيّة علميّة فيهم ، وهو ابن حزم الظاهريّ تصريحه بأنّ : من قال : « جسم لا كالأجسام » فليس مشبّهاً ، لكنّه أَلْحَدَ في أسماء الله تعالى ، إذْ سمّاه عزّ وجلّ بما لم يُسَمِّ به نفسه[٤] .

مع أنّه يوافق على مقولة « شيء لا كالأشياء »[٥] .

وقد عرفنا أنّ مقولة « جسم لا كالأجسام » هي مرادفة لمقولة « شيء لا كالأشياء » وبمعناها على مصطلح هشام في « الجسم » .

وأمّا المعتزلة :

فقد أبدوا معارضة شديدة للمقولة ، باعتبارهم أكثر الناس عداءً لهشام ولما ينسب إليه من آراء .

وذلك لأنّه الرجل القويّ الذي كان يقف في وَجْههم وهم في أوج قدرتهم وعزّتهم ، « فكان الشخصيّة القويّة الذي ناظرهم وناظروه »[٦] وهو الوحيد الذي اضطرّ الخصوم للإعتراف له بأنّه « صاحب غور في الأصول »[٧] وبلغ من القوّة بحيث قالوا في حقّه : « لا يجوز أن يُغفل عن إلزاماته على المعتزلة ، فإنّ الرجل وراء ما يُلْزِم به على الخصم »[٨] .

وقد ذكر الشهرستاني أنّ هذه المقولة إنّما أوردها هشام في إلزام أبي الهذيل العلّاف بالذات ، وهو من كبار المعتزلة المعاصرين لهشام ، وله معه مناظرات عديدة .

والمعتزلة مع إجماعهم على مقولة « شيء لا كالأشياء »[٩] ومع أنّ بعضهم وافق على كُبرى « لا شيء إلّا وهو جسم »[١٠]، إلّا أنّهم أغفلوا مصطلح هشام ، وعارضوا المقولة ، وغالطوا في حملها على غير مصطلح هشام ، وقد أوضحنا سابقاً مواقع المغالطة في كلماتهم .

(٤) الفصل ٢ / ١٢٠ .
(٥) الفصل ٢ / ٨ ـ ١١٩ .
(٦) ضحى الإسلام ـ لأحمد أمين ـ ٣ / ٢٦٨ .
(٧) الملل والنحل ١ / ١٨٥ .
(٨) الملل والنحل ١ / ١٨٥ .
(٩) مقالات الإسلاميّين ٢ / ١٨٠ ، وانظر موضع التعليقة رقم ٧٩ .
(١٠) مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٤٥ .
(١١) راجع (ص ٣٩) من هذا البحث .

لكنّ الجبّائي ـ وهو من كبارهم ـ كان يزعم : أنّ العقل إذا دلّ على أنّ الباريء « عالِم » فواجب أن نسمّيه « عالماً » وإنْ لم يُسَمِّ نفسه بذلك ، إذا دلّ العقل على المعنى ، وكذلك سائر الأسماء(١) .

فهو على هذا ملزَم بالموافقة على المقولة ، على مصطلح هشام ، ولكن لم أجد تصريحاً له بذلك .

لكنّ واحداً من المعتزلة صرّح بالحقّ في شأن المقولة ، وهو ابن أبي الحديد ، الذي صرّح بأنّ المقولة « جسمٌ لا كالأجسام » إذا كانت على معنى : أنّ الله تعالى بخلاف العَرَض الذي يستحيل منه الفِعل ، فهو نفي لمعنى الجسميّة ، وإنّما أطلقوا هذه اللفظة لمعنى أنه « شيء لا كالأشياء » وأمرهم سهل ، لأنّه خلاف في العبارة(٢) .

هذه مواقف عمدة المذاهب الإسلامية التي لها رأي في المباحث الكلامية ، من الّذين يخالفون هشاماً في المعتقد ، وخاصة في المذهب ، وكما رأينا فإنّهم متّفقون على عدم منافاة مقولة هشام للحقّ ، ولا اعتراض لهم على المقولة من حيث المعنى .

لكنّهم بالرغم من ذلك نسبوا إلى هشام أنواعاً من التهم البشعة ، والخرافات المنافية لأبسط القواعد العقلية ، سعياً في تشويه سمعته بين المسلمين الموحِّدين ، وتضييعاً لأثره في الفكر والعقيدة ، وإخفاء لعظمته في تاريخ العلم والثقافة الإسلامية في عصورها المبكّرة .

ومن هنا نعرف السبب في إغفال البغدادي صاحب « الفَرْق بين الفِرَق » لهذه المقولة عند ذكره لآراء هشام الكلامية ، فلم يذكرها مطلقاً ، مع شهرتها عن هشام ، بينما أبدى حقداً وبُغضاً في جمع كلّ خرافة وباطل وكذب ، ونسبة ذلك إلى هذا المفكّر الموحّد !

٧ ـ موقف الشيعة من المقولة :

أمّا الشيعة ، الذين ينتمي إليهم هشام ، فقد عرفنا اتّفاقهم قدماء ومتأخّرين على أنّ المقولة لا تدلّ على التجسيم المعنويّ ، وإنّما أريد من كلمة « الجسم » معنى آخر ، غير مدلوله اللُغويّ المتفاهم ، وقد أوضحنا أنّ المعنى الآخر قد اصطلح عليه هشام وأصحابه وتلاميذه ، وأرادوا من كلمة « الجسم » معنى « الشيء » و « الموجود » .

وقد صرّح الشيخ المفيد ، والسيد المرتضى ، بأنّ هشاماً لم يُخالف في مقولته « جسم لا كالأجسام » التوحيد ، ولا يَرِدُ عليه إلّا إطلاقه لفظ « الجسم » على الباريء تعالى وإنْ كان بمعنى « الشيء »(٣) .

وقد ذكر ابن أبي الحديد : أنّ هذا المعنى هو الذي التزمه من قدماء الشيعة : عليّ بن مَنْصور ، والسكّاك ، ويونس بن عبد الرحمن ، والفضل بن شاذان(٤) .

وكذلك صرّح كثير من علماء الطائفة ، وآخرهم السيد الخوئي الذي قال في كتاب رجاله بعدم إرادة هشام من كلمة « الجسم » معناها المفهوم ، بل أراد معنىً آخر(٥) .

ولكنّ الذي يَحُزّ في النفس أنْ يتعرّض للموضوع مَنْ لم يأخذ له أُهبته اللازمة ، ممّن ينتمون إلى مذهب هشام ، فغرّتهم كثرة الأقاويل التي اختلقها كُتّاب الفرق والمقالات ، ومؤرّخو المذاهب والقضايا الإعتقاديّة ، وملأوا بها الصحائف ، فلم تفسح لهؤلاء مجالاً للتأمُّل في الموضوع بدقّةٍ وعمق ، من خلال مصادرنا المأمونة لتمييز الصحيح من الفاسد ، أولاً ، والتوصُّل إلى الحقّ الذي أراده هشام ، ثانياً ، فوقع هؤلاء في الفخاخ التي نصبّها أولئك الحاقدون ، وما سطّروه في صحائفهم السوداء ضدّ هشام .

وأكثر ما نجد تناقل كُتّاب العصر لما لفّقه الخصوم عن معتقدات هشام ، ممّا يُنافي أبسط قواعد الإيمان والإسلام .

وناقل الكفر وإنْ لم يكن كافراً ـ كما يُقال ـ إلّا أنّ تمريرها بالنقل ، من دون تعرّض لها بالنقد أو تزييف نقاط الضَعْف ، أو تبيين أوجه المغالطة فيها ، جريمة لا تغتفر ، فضلاً عن أنْ يُبديَ المؤلّف رأياً يُعارض الحقّ ، وينسبه إلى هشام ! أو يتناقل تلكم الأكاذيب من دون نسبتها إلى مختلقيها ، وكأنّ الناقل يفرضها من مسلّمات التاريخ أو العلم !

فبما يعتذر منْ يعدّ في المذاهب مذهباً باسم « الهشاميّة » ينسب إليه الغلوّ والتشبيه ؟!

مع العلم بأنّ مؤلّفي الفِرَقْ ومؤرّخي المذاهب من الشيعة لم يذكروا فرقةً بهذا الاسم أصلاً ، فضلاً عن ينسبوا إليها تلكم التهم ؟!

ولو نَقَلَ ذلك عن مصادر المخالفين لهشام في المذهب ، لكفانا مؤونة هذه الكلمة المؤلمة !

أمّا هشام ، فلن تؤثّر في عظمته هذه التصرّفات ، ولم تُخفِتْ نورَ الحقّ الذي التزم به كثرةُ التشويش عليه ، سواء من فعل الخصوم الحاقدين ، أو من نقل أبناء طائفته الغافلين أو المتساهلين .

ولقد رأيتُ من واجبي أن أستعرض ما جاء في كتاب « هشام بن الحكم أُستاذ القرن الثاني في الكلام والمناظرة » ممّا وجدته مخالفاً لما ثبت عن هشام من آراء ، وما توصّلتُ إليه من حقائق .

ومع أنّ مؤلّف هذا الكتاب كان متنبّهاً إلى خطورة الموضوع ، وصعوبة البحث فيه ، إذ يقول : مع اعترافي بأنّ ذلك محاولة نموذجيّة قد لا تبلغ من العمق والشمول ما لا يطلبه حديث رجلٍ كهشام ، ولا يتّسع كثيراً للإيضاح ، ذلك لأنّه لم يَحْظَ بعناية المترجمين(٦) .

ومع ما يعهد من مؤلّفه من معرفة وحسن نيّة وجهد علمي . لكنّه ـ مع هذا كلّه ـ وقع للأسف في شباك الأُخطبوط المعادي لهشام !

ونحن نذكر هنا ما يرتبط بمبحث التجسيم فقط !

في انتخاب المصادر :

فهو ينقل عن مصادر متأخّرة جدّاً ما نقلوه عن مصادرَ قديمة ، من دون

(١) مقالات الإسلاميّين ٢ / ١٨٥ ، وانظر : مذاهب الإسلاميّين ١ / ٥٠٠ .
(٢) شرح نهج البلاغة ٣ / ٢٢٨ .
(٣) الحكايات : ١٣١ ، وأوائل المقالات : ٤٣ ، والشافي ـ للمرتضى ـ : ١٢ .
(٤) شرح نهج البلاغة ٣ / ٢٢٨ .
(٥) معجم رجال الحديث ١٩ / ٣٥٨ .
(٦) هشام بن الحكم : ٨ ـ ٩ .

أنْ يُتابع القضايا ، ويُراجعها في مصادرها الأصليّة .

فمثلاً : يَعْتبر المؤلّف هشاماً تلميذاً لأبي شاكر الديصاني ، وقد ذكر مستنداً لهذا الإعتبار ، وهو أربعة نصوص ، أحدها منقول عن البرقيّ ، والثاني في رواية عن الإمام الرضا عليه السّلام ، ثم الثالث عن ابن الخيّاط المعتزليّ ، والرابع عن ابن تيميّة الحرّاني ، ثم قال : وبعد هذا ، فإنّ جميع النصوص المذكورة متّفقة على أنّ هشاماً كان على صِلةٍ تامّةٍ بهذا الديصانيّ ، وعلاقةٍ وثيقةٍ به[1] .

أقول : وليس شيء من هذه النصوص الأربعة حجّة على ما يُريد المؤلّف إثباته ، فالنصّان : الثالث والرابع ، هما كلمتان لرجلين من ألدّ خصوم الشيعة ، وممّن شنّعوا على هشام بالخصوص ، وممّن لم يتّقوا الله في نسبة ما هَوَتْ نفوسهم إلى هشام وأتباع أهل البيت عليهم السّلام ، ويشهد بذلك كتاباهما « الانتصار » للخياط ، و « المنهاج » لابن تيميّة ! ثم متى صارت أقوال الخصوم حُجّة في حقّ خصومهم ؟! وكيف صار اتّفاق هذين الرجلين دليلاً على اتّهام هشام ؟![2] .

وأمّا النصّ الأول : فقد نقله المؤلّف عن المامقاني في تنقيح المقال ٣ / ٣٩٥ .

وقد نقله المامقاني عن ابن داود الرجاليّ الحلّي ، ولمّا راجعتُ « الرجال » لابن داود وجدته ناقلاً له عن البرقيّ ، فراجعت رجال البرقيّ ، فوجدت فيه : وفي كتاب سعد : له كتاب ، وكان من غلمان أبي شاكر الزنديق ، جسميٌ ، رؤيٌ .

وقد علّق محقّق الكتاب على هذه العبارة بأنّ في نسخه تصحيفاً[3] .

ولم يُمَيَّز في كتاب البرقيّ أنّ قوله : « وكان من غلمان ... إلى آخره » منقول عن سعد ، أو هو من كلام البرقيّ نفسه ؟ فإنْ كان منقولاً عن سعد ، فمن هو « سعد » هذا ؟

فإنْ كان هو سعد بن عبد الله الأشعريّ القميّ ! الذي له كتاب « رجال الشيعة »[4] فهو في كتابه الآخر المسمّى بـ « المقالات والفرق » لم يذكر عن هشام شيئاً ، إلّا أنّه عدّه في مَنْ ذكرهم من « وجُوه أصحاب جعفر بن محمد ، وأهل العلم منهم والفقه والنظر ، وهم الّذين قالوا بإمامة موسى بن جعفر عند وفاة أبيه »[5] .

ثم إنّ ابن داود الذي نقل عن البرقيّ تلك العبارة ، ناقش مضمونَها في القسمين من رجاله :

فقال في القسم الثاني : هشام بن الحكم : لا مِراء في جلالته ، لكنّ البرقيّ نقل فيه غمزاً ، لمجرّد كونه من تلاميذ أبي شاكر الزنديق ، ولا اعتبار بذلك[6] .

وقال في القسم الأوّل ـ بعد نقل عبارة البرقيّ المذكورة ـ : مع أنّي لا أستثبتُ ما قاله البرقيّ قدحاً فيه ، لأنّ حال عقيدته معلومٌ ، وثناءُ الأصحاب عليه متواتر ، وكونه تلميذ الزنديق لا يستلزم اتّباعه في ذلك ، فإنّ الحكمة تؤخذ حيث وُجِدَتْ[7] .

ثم إنّ المامقاني ـ بعد أنْ نقل ذلك ـ ذكر في دفع ذلك أمرين :

١ ـ أنّ رجال البرقيّ ، الموجود عنده ، خالٍ عن ذكر تلمذة هشام لأبي شاكر ، أولاً .

٢ ـ أنّه قد ورد في أخبار كثيرة مناظرته لأبي شاكر ، واحتجاجه عليه في التوحيد ، على وجهٍ يعلم عدم كونه تلميذاً له ، ثانياً[8] .

والحقّ أنّ المامقاني قد تبرّأ من مضمون تلك العبارة .

والمؤلّف ، كيف يصرفُ النظر عن كلّ هذه المناقشات ، وينقل تلك العبارة ، ويعتبرها نصّاً دالاً على ما يُريد إثباته من تلمّذ هشام للديصانيّ ؟!

وأمّا النصّ الثاني ، فهي رواية عن الإمام الرضا عليه السّلام ، نقلها عن المامقاني أيضاً[9] .

لكنّ المامقاني نقل الرواية تلك عن الكشّي ، وهي موجودة في رجاله[10] .

وقد ذكر المامقاني : أنّ الرواية قاصرة سنداً .

بالنظر إلى أنّ في السند : « عن بعض أصحابنا » وهم لا يعتبرون بمثله .

هذا ، مع أنّ النصّ الموجود في رجال الكشّي هو : ... من غلمان هشام ، وهشام من غلمان أبي شاكر .. وليس في الرواية : « ... هشام بن الحكم » وهكذا نقله المامقاني .

ولكنّ المؤلّف أضاف كلمة « ابن الحكم » على متن الرواية ، من دون إشارة إلى عدم وجودها في المصدر ، ولا في مصدر المصدر !

هذه قيمة النصوص التي اعتمد عليها المؤلّف في دعواه الخاطئة ، أي كون هشام تلميذاً للديصاني ، ومع هذا يسلّم للدعوى ، ويبني على هذه النصوص بناءً مهزوزاً ، هُنا وفي ما يلي من صفحات كتابه ، ويستنتج آراءً خاطئةً ينسبها إلى هشام ، ويقول بملء فيه : إنّ هذه الآراء وصلتْ إلى هشام ، من أثر الفكر الرواقي ، من طريق أبي شاكر الديصاني !

ويقول : بل من الجائز أنْ تكون نزعتُه « الحسيّةُ » ، « المادّية » هي أصداءً للنزعة الرواقيّة ، انعكست في تفكيره بواسطة الديصانيّة[11] .

وهذا كلّه مبنيٌ على وَهْمٍ خاطىء ، مصدره تلك النصوص التي عرفنا عدم حُجّيّتها ، وعدم قابليتها لإثبات تلك الدعوى !

وبنفس الأسلوب يدّعي أنّ هشاماً اعتنق مذهب جَهْم بن صفوان ،

(١) هشام بن الحكم : ٤٨ ـ ٤٩ .
(٢) أنظر ما ذكره القاسمي في كتاب « تاريخ الجهمية والمعتزلة » ص ٣٠ وما بعدها ، حول التساهل في نقل الآراء والمذاهب ، وما يجب أن يعتمد في ذلك .
(٣) رجال البرقي : ٣٥ .
(٤) لاحظ : رجال النجاشي : ... ، والفهرست ـ للطوسي ـ .
(٥) المقالات والفرق ـ لسعد ـ : ٨٨ رقم ١٦٨ .
(٦) رجال ابن داود ـ القسم الثاني ـ : ٦٠ .
(٧) رجال ابن داود ـ القسم الأول ـ : ٢٠٠ رقم ١٦٧٤ .
(٨) تنقيح المقال ٣ / ٢٩٥ .
(٩) يلاحظ أنّه راجع إلى تنقيح المقال ٣ / ٢٩٥ بينما الرواية مذكورة في ص ٢٩٩ من المصدر .
(١٠) اختيار معرفة الرجال : ٢٧٨ رقم ٤٩٧ .
(١١) هشام بن الحكم ... : ٥٠ ـ ٥١ .

ويستند إلى نصوص ، لا تخلو من مناقشات ، ولكنّ المؤلّف لم يلاحظ فيها شيئاً ، ويقول : فهشام ، إذَنْ ، من دُعاة الجهميّة ، ناظر على طريقتها ، متحمّساً لها[1].

ويستند أخيراً إلى الشَّبَهِ الموجودِ بين بعض آراء هشام وبين آراء الجهميّة ، التي ذكرها مؤلّفو كتب الفِرَق ، ويقول : من البعيد أنْ يكون ذلك عَفْواً واتّفاقاً[2].

ولا بُدّ أن نسألَه هُنا : بماذا يفسِّرُ الاختلافَ بين هشام وبين جهم في آرائه الأخرى ؟! هل يعتبرها عَفْواً أو اتّفاقاً ؟!

مع أنّ الموارد التي ادّعى موافقة هشام لجهم فيها ، والتي تمثّل بها كشاهد على دعواه ، ليس الأمر فيها كما زعم ، بل هناك مخالفة بين رأييهما لم يدقّق فيه المؤلّف ، فقد ادّعى ـ نقلاً عن مقالات الإسلاميّين ، للأشعريّ ، ص ١٠٨ ـ أنّ هشاماً نسب إليه القول : « بأنّ الله لا يجوز أن يعلم الشيء قبل خلقه ، وأنّ الأشياء لا تُعْلَم قبل كونها . . . » ثم يقول : وهذا الرأي نفسه للجهم[3].

أقول : هَبْ أنّ هشاماً يوافق الجهم إلى هذا الحدّ ، لكن هل تنتهي المسألة إلى هنا ؟ كلّا ، بل ، إنّ هشاماً يخالف جهماً في نهاية المسألة نفسها : فجهم يدّعي فيها : « أنّ علم الله مُحْدَثٌ ، هو أحدثَه ، فعَلِمَ به ، وأنّه غير الله »[4].

لكنّ هشاماً يقول : إنّ الله يعلم الأشياء بعلم ، وأنّ العلم صفة له ، ليستْ هي هو ، ولا غيره ، ولا بعضه ، ولا يجوزُ[5] أنْ يقال في العلم : « إنّهُ مُحْدَثٌ أو قديم » لأنّه صفة ، والصفة عند هشام لا توصف[6].

ومن الواضح أنّ من خالف أحداً في جزء دعواه ، سواءً في جزء الصغرى ، أو جزء الكبرى ، فهو مخالفٌ له في النتيجة !

فكيف تخفى هذه البديهيّة على المؤلّف .

والغريب أنّه جعل نفس هذا الأمر الذي اختلف فيه هشام والجهم مثالاً آخر لما يدّعيه من توافقهما في الرأي ! وبعد أن نقل كلام هشام في العلم ، وتصريحه بأنّه « لا يقال فيه مُحْدَثٌ ولا قديم » يقول : ونجد في هذا شَبَهاً بقول الجهم حين يستدلّ على ذلك فيقول : « إذا ثبت حدوثُ العلم فليس يخلو : إمّا أن يحدث في ذاته تعالى ، و . . . . »[7].

(١) هشام بن الحكم . . . : ٥١ .
(٢) هشام بن الحكم . . . : ٥١ .
(٣) هشام بن الحكم . . . : ٥١ ـ ٥٢ .
(٤) مقالات الإسلاميّين ٢ / ١٦٤ .
(٥) وذكره في المصدر ـ أيضاً ـ في ١ / ١٠٨ بلفظ « فيجوز أن يقال : العلم محدَث أو قديم ، لأنّه صفة ، والصفة لا توصف . . . » .
وقد طبعها المحقّق الألمانيّ (هـ ، ريتر) : « فيجوزَ » بالنصب ، كي يكون منصوباً بأنْ مقدّرة جواباً للنفي في « ليستْ . . . » ومعناه : فلا يجوز ، كما جاء في الموضع التالي من المصدر .
لكنّ المحقّق المصريّ (عبد الحميد) طبعها : « فيجوزُ » فناقض معنى الجملة السابقة ، ومعارضاً للموضع الآخر الذي صرّح فيه بقوله « لا يجوز » كما أثبتنا في المتن ، فلاحظ .
(٦) مقالات الإسلاميّين ٢ / ١٦٣ ، والملل والنحل ١ / ١٨٥ .
(٧) هشام بن الحكم . . . : ٥٢ .

فانظر كيف يكون الشَّبَهُ بين مَنْ ينفي الحدوث والقدم ، وبين مَنْ يفرض الحدوثَ ويتكلّم على أساسه ؟!

والأغرب أنّ المؤلّف لمّا ينقل قول هشام : ليس يخلو القديم من أن يكون لم يزل عالماً لنفسه ، كما قالت المعتزلة ، أو عالماً بعلم قديم ، كما قالت الزيديّة ، أو عالماً على الوجه الذي أذهب إليه[8].

يقول : ويقصد بالوجه الذي يذهب إليه : أنّ العلم حادث[9].

ويقول ـ بكلّ جراءة ـ : فرأي هشام هنا مشتقٌّ من رأي جَهْم بكامله !

أقول : لكن عرفت أنّ القول بحدوث علم الله هو رأي جَهْم فقط ، وأمّا رأي هشام فهو أنّ العلم صفة ، وهي لا توصف بحدوث ولا قدم ! فهو يُنكر حدوث العلم ! فكيف يجْرُؤ المؤلف على هذا التصريح الخطير !

لا أجد جواباً لهذا ، إلّا أن أقول للمؤلف : « ما هكذا تُورَدُ يا سَعْدُ الإبِلُ » .

ولو شاء المؤلّف أنْ يرى بأُمّ عينه اختلافات هشام والجهم ، فليقرأ في « مقالات الإسلاميين » للأشعري :

١ ـ أنّ الجهم يزعم أنّ الحركة جسمٌ ، ومحالٌ أن تكونَ غير جسم[10].

٢ ـ أنّ هشاماً يقول : الحركات وأمثالها ليستْ أشياءً ولا أجساماً[11].

وهذا ما عثرنا عليه في طريق بحثنا ، ولم نتصدّ له ، ولعلّ البحث المقصود يدلّنا على الكثير جدّاً . وكيف كان ، فهذا يكفي في تَفْنيد مزاعم المؤلّف ، ودعواه مكرّراً أنّ هشاماً كان ديصانيّاً أو جهميّاً حتّى بنى على ذلك كثيراً من اتّهاماته الصعبة ضدّ هشام .

كما يقول عند تعرّضه لموضوع « التجسيم » في رأي هشام : فالنزعة الحسّيّة بادية على شيء من آرائه ، فهو يجسّم الأعراض ، والجوّ ، حتى الخالق تعالى ويُضيف : وقد رجّحنا وصول هذه الفلسفة إلى هشام من طريق الديصانيّة . . . وبخاصة أنّ هشاماً صحب أبا شاكر الديصانيّ ، ولازمه حتى عُدَّ من غلمانه ، كما سبق[12].

ويقول بعنوان « ذاته » ـ بعد نقل الأقوال المتعارضة في نسبة التجسيم إلى هشام ـ ما نصّه : وإنّنا إذ نقفُ بين هذه النصوص المتضاربة ، لا يمكننا أن نُنزِّه هشاماً عن القول بالتجسيم[13].

ثم يستدلّ على ذلك بقوله :

١ ـ إنّ حكاية التجسيم عنه مستفيضة .

٢ ـ إنّ الصدوق روى في كتابه « التوحيد » ما يشعر بذلك .

٣ ـ إنّ المفيد نسب إليه مقولة « جسم لا كالأجسام » .

ثم يؤكّد على أنّ هشاماً كان جهميّاً ديصانيّاً ، ويصل إلى هذه النتيجة :

(٨) هشام بن الحكم . . . : ١٢٨ نقلاً عن الإنتصار ـ للخيّاط ـ : ١٠٨ .
(٩) هشام بن الحكم . . . : ١٢٨ .
(١٠) مقالات الإسلاميّين ٢ / ٣٢ .
(١١) مقالات الإسلاميّين ١ / ١١٣ .
(١٢) هشام بن الحكم . . . : ٩٩ .
(١٣) هشام بن الحكم . . . : ١٢١ .

وعلى ذلك ، يمكننا أنْ نقول : إنّ هشاماً كان يذهب إلى أنّ الله تعالى « جسمٌ لا كالأجسام » وذلك قبل أن يدين بمذهب الصادق . . . ولكنّه بعد ذلك رجع .

واعتبر رأيه هذا جمعاً بين الناسبين التجسيم إليه ، وبين النافين لتلك النسبة عنه ، ويقول : فكِلا الفريقين ، المتشيّع عليه ، والمتشيّع له ، قد يكون على صواب(١) .

وواضح أنّ شيئاً من أدلّته تلك لا تُثبت مدّعاه ، ولا يصحّ ترتيب هذه النتيجة الخاطئة عليه :

فالحكايات المستفيضة : تنحلُّ إلى أكثرية اختلقتها أهواء خصوم هشام ، واصطنعتها أغراضهم ، وصاغتها أحقادهم ، فلا قيمة إثباتية لها على التحقيق ، ولا تقاوم الجدل والبحث العلمي .

وتنقسم إلى مجموعة أخرى معرّضة للإحتمالات والترديدات ، والتفسيرات المبعِّدة لها عن إثبات ما يريده المؤلف .

فهل يسمّى مثل هذا استفاضة ؟! وهل تكون مثل هذه الإستفاضة حجّةً على شيء ؟!

نعم ، هي بمجموعها تدلّ على ثبوت قضية في حقّ هشام ، بنحو المعلوم الإجمالي ، لكنّ جزئيّات هذه القضية ومفرداتها غير واضحة من خلال تلك الحكايات المستفيضة ، والقدرُ الثابتُ الصحّةِ منها هو أنّ هشاماً أطلق تلك المقولة : « جسم لا كالأجسام » على الباريء جلّ وعلا ، وقد عرفتَ أنّها ـ في مصطلح هشام ـ لا تدلّ إلّا على التنزيه المحض والتوحيد الكامل .

وأمّا الروايات التي نقلها الصدوق ، فلا دلالة في شيء منها على التزام هشام بالتجسيم المادّي لله تعالى شأنه ، وإنّما احتوى قسم منها على أنّ له قولاً في « الجسم » ، وهذا لا يدلّ على أكثر من إطلاق اسم « الجسم » . وقسم آخر بُيِّنَ فيه مصطلح هشام ، أو تكرار لمقولته ، ولم نجد فيها ما يتضمّن نسبة التجسيم المادّي إلى هشام(٢) .

وأمّا كلام المفيد ، فليس هو إلّا نقلاً للمقولة عن هشام ، وهو مدار بحثنا هذا ، وقد عرفت أنّها لا تدلّ إلّا على التوحيد والتنزيه ، فكيف يستدل به المؤلّف على مدّعاه ؟!

ويتعرّض المؤلّف لمسألة التجسيم المنسوب إلى هشام تحت عنوان « الأعراض » ويقول : لكنّ هشاماً خالف ما هو المعروف في الأعراض ، فقد نسب إليه الشهرستاني والأشعري والبغدادي وابن حزم الأندلسي ؛ القول بأنّ الألوان والطعوم والرائحة أجسام(٣) .

وأشار في الهامش إلى مصادر عديدة ، منها : الفصل ـ لابن حزم ـ (٥ / ٤٢) ، وقد كان هذا الكتاب أمامي عند مطالعتي لهذا الكلام ، وفتحته (في نفس الجزء ، والصفحة) فعجبتُ لمّا لم أجد في هذا المكان إلّا قول ابن حزم ـ السطر ٩ ـ .

(١) هشام بن الحكم . . . : ١٢٣ .
(٢) هشام بن الحكم . . . : ١٢٤ ، وسنذكر في نهاية هذا البحث أكثر تلك الروايات ونوضّح محاملها .
(٣) هشام بن الحكم . . . : ١٦٢ .

قال أبو محمد : وقد اختلفَ الناسُ في المعدوم ، أهو شيء أم لا ؟

فقال أهل السُنّة ، وطوائف من المرجئة ، والأشعرية ، وغيرهم : ليس شيئاً ، وبه يقول « هشام بن عمرو الفوطي » أحد شيوخ المعتزلة .

وقال سائر المعتزلة : المعدوم شيء ، فقال : عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخيّاط : إنّ المعدوم جسم في حال عدمه إلّا أنّه ليس متحرّكاً ولا ساكناً ولا مخلوقاً ولا مُحْدَثاً في حال عدمه(٤) .

ثم نظرت في الصفحة حتى آخرها فلم أجد ذكراً لهشام بن الحكم ، ولا في صفحات سابقة ولا لاحقة عليها !

ولو ساهمنا المؤلّف ، في ذكره اسم هشام بن الحكم بدل هشام بن عمرو ، فهل له عُذْرٌ في أنّه ذكر الحديث عن مطلب الأعراض : اللّون ، والطعم ، الرائحة ، نقلاً عن هذا المصدر ، في تلك الصفحة ، ولم نجد لها ذكراً فيها ؟!

فهل اعتمد طبعة أُخرى من الكتاب ؟! وهو لم يذكر فهرساً لطبعات مصادره ؟!

ثم ماذا عن المصادر الأُخرى ؟ وعن المطالب الأُخرى ؟ وعن أرقام الصفحات والمجلّدات ؟ فهل مثل هذا الكتاب يعتمد عليه كمصدر أمين ؟!

ولولا أنّ بعض المغرضين قد استند إلى ما في هذا الكتاب من آراء حول هشام ، وجعله دليلاً على نسبة التجسيم المادّي إليه !!

ولولا التخوّف من أنْ يُصبحَ ما جاء في الكتاب ـ من آراء خاطئة ـ شاهداً لمن تسوّل له نفسه اتّهامَ هشام بما لا يليق من أباطيل !!

لولا كلّ ذلك ، لما تعرّضنا لما فيه ، لبُعد المدّة التي مضت على طبعه ، ولعلّ كلمتنا هذه تُوقِفُ المؤلّفَ على ما في كتابه ، فيحاول أن ينقّحه ، ليؤدّي هدفه ـ الذي لا بُدّ أنْ يكونَ خيّراً ـ بأفضل ممّا كان عليه ، ويقطع الطريق على من يسيء الاستفادة منه من المغرضين .

ولقد ألجأنا إلى هذا التعرُّض استشهاد بعض المؤلّفين بما جاء فيه على اتّهامه لهشام بالتجسيم المادّي متبجّحاً بأنّه لم يبق في ساحة هذا الاتّهام وحيداً بعد أن كان مؤلف كتاب « هشام بن الحكم . . . » يذهب إلى مثل ما ذهب إليه ، ويقول بنفس مقالته .

بالرغم من أنّ هذا المؤلف لم يعتمد في كتاباته إلّا على مصادر ضعيفة ، ومقدّمات سخيفة ، فبنى عليها نتائج موهومة ، تصوّر أنّها حقائق ثابتة .

فهذا مؤلّف كتاب « الصلة بين التشيُّع والتصوّف » مع قربه من مصادر تراث الشيعة ومعرفته بعلمائهم ، تراه يخبط في كتابه هذا خبط عشواء لا يهدي سبيلاً !

وفي خصوص هشام بن الحكم يحاول أن يتفلسف لإثبات أقبح ما أُتّهم به من أعداء التشيُّع وخصومه ، ألا وهو « التجسيم المادّي » .

ولئن عَجَزَ أُولئك الحاقدون من إثبات هذه التهمة بصراحة واضطُرّوا ـ من حيث أرادوا أوْ لا ـ إلى الإعتراف ببراءة هشام منها ، إلّا أنّ هذا حاول أنْ

(٤) الفصل ٥ / ٤٢ س ٩ فما بعدها .

يصوّر القضيّة بشكل معقول ! هيّن ! طبيعيّ !

وقد حاول توفيق الفكيكي أنْ ينبّهه إلى الصواب من خلال تصويب بعض أخطائه التي لا يهمّنا منها سوى موضوع التجسيم ، إلاّ أنّه زاد على أخطائه في كتاب « الصلاة . . . » خطأً أفحش ، في ردّه على الأستاذ الفُكيكي فيما نشره في مجلة « الإيمان » الصادرة في النجف .

ولعلاقة ذلك بموضوع البحث رأينا التصدّي له ، فنقول :

أمّا ما ذكره في ردّه على الأستاذ الفكيكي ، فهذا نصّه :

إنّ هذا المتكلّم [يعني هشام بن الحكم] فَلْسَفَ التجسيمَ قبل ظهور نفي الصفات عند أبي الهُذَيل العلاّف المعتزلي (المتوفى ٢٣٥) [كذا] بحيث حصل منه نظرية هي إلى التجريد أقرب ، وذلك دون نقض المعنى المادّي ، الذي يفهم من آيات التشبيه .

وجاء ذلك من استغلال فكرة النور التي كانت من تراث الشيعة .

فجعل هشام النور المدى الأقصى الذي يمكن تشبيه الأجسام به ، واعتبره « جسماً لطيفاً » .

ثم جعل ما ليس بمادّة ـ كالعلوم ، والحركات ـ أجساماً .

وبذلك[1] المعنى المجرّد بالكائن المجرّد في لطافة الجسم .

وانحلّ الإشكال ، وصارت الجسميّة لله اعتباراً عقليّاً ، وأمراً ذهنيّاً ، خالصاً ، ليس إلى تلمسُّه سبيل ، كما أنّ العلم والحركات أجسام لا تُلْمس .

وذلك لأنّ الله تعالى ـ بقول هشام ـ : « جسم لا كالأجسام » و « صورة[2] لا كالصور » تماماً كما هو « عالم بعلم ، وعلمه ذاته » التي يستشهد بها المعتزلة ، دليلاً على التجريد والتنزيه .

فأيّ ضَيْرٍ بعدُ في أنْ يكون هشامٌ مجسّماً عقليّاً ؟ يقدّم الدليل على أنّ المادّة المعنيّةَ إلهيّةٌ لا تدرك بالحواسّ ؟

وأين الإشكالُ ، إذَنْ ؟

ثم قال : يبقى شيءٌ مهم جداً ، هو أنّني لم أنفرد بهذا الرأي في هشام ، وإنْ عرضتُ له على عَجَلٍ في رسالتي التي فرغتُ منها سنة (١٩٥٨) فقد توصّل إليه الشيخ عبد الله نعمة بعد دراسة واستقصاء في كتاب برأسه يدور حول « هشام بن الحكم . . . » طبع لبنان (١٩٥٩) .

ثم أخذ بنقل كلام الشيخ نعمة بطوله[3] .

أقول : إنّ الكاتب قد ادّعى على هشام دعاوي طويلةً عريضةً ، ولم يقدّم على واحدٍ منها دليلاً أو شاهداً ، وهي :

١ ـ أنّ هشاماً أثبت نظريّته على أساس عدم نقض المعنى المادّيّ الذي يفهم من آيات التشبيه .

٢ ـ استغلال هشام لفكرة النور ، وجعله النور المدى الأقصى الذي يمكن تشبيه الأجسام به .

٣ ـ اعتبار هشام للنور جسماً لطيفاً .

٤ ـ جَعْلُ هشام ما ليس مادّة ـ كالحركة والعلم ـ جسماً لطيفاً .

٥ ـ بَدَّلَ هشام المعنى المجرّد بالكائن المجرّد ، في لطافة الجسم .

٦ ـ صارت الجسميّة اعتباراً عقليّاً خالصاً ، ليس إلى تلمُّسه سبيل ، كما أنّ العلمَ والحركاتِ أجسام لا تلمس .

٧ ـ لأنّ الله تعالى ـ بقول هشام ـ : « جسم لا كالأجسام » و « صورة لا كالصور » تماماً كما هو عالم بعلم وعلمه ذاته ، التي يستعملها المعتزلة دليلاً على التجريد والتنزيه .

٨ ـ إقامة الدليل على أنّ المادّة المعيّنة إلهيّة لا تدرك بالحواسّ .

وإليك تفصيل مناقشتنا لهذه الدعاوى :

١ ـ إنّ هشاماً بنى نظريّته على أساس عدم نقض المعنى المادّي المفهوم من آيات التشبيه .

فيه بحثان :

الأول : إنّ الربط بين مقالة هشام وبين رأيه في آيات التشبيه ، وأنّ تلك الآيات والمعنى المادّي المفهوم منها كانت مؤثّرة في نظريته في التجسيم !

وهذا ما لم أجده في أيّ مصدر من المصادر التي تعرّضت لمقولة هشام ، أنْ ذُكر فيه ارتباط نظريّة هشام برأيه في آيات التشبيه ، فلم تذكر تلك الآيات في سياق مقولته ، حتى يمكن فرض الربط بينهما . هذا من جهة .

ومن جهة أُخرى : فإنّ مقولة هشام المحتوية على ذيل : « . . . لا كالأجسام » تنفي كلّ تشبيه ـ على الإطلاق ـ بين الخالق والمخلوق ـ كما سبق أن أوضحناه مفصّلاً ـ وهذا وحده يدعو إلى الإعتقاد بأنّ هشاماً لا بُدّ أن يكون من أهل تأويل تلك الآيات ، وعدم فهم المعنى المادّي منها .

وقد يشير إلى هذا أيضاً عدمُ نقلهم خلافاً عن هشام ، للطائفة الشيعية التي تلتزم بالتأويل كما هو واضح في مقامه .

الثاني : إنّ نظريّة هشام في « الجسم » مبنيّة على المعنى المادّي ، وعدم نقضه !

إنّ مصطلح هشام في « الجسم » وهو « الشيء » بحقيقة الشيئيّة التي هي « إثبات الذات » و « الموجود » و « المستقلّ بالنفس » كما أثبتناه مفصّلاً ، يعني : أنّ هشاماً ينزّه الباريء جلّ ذكره عن كلّ ماهيّة مادّيّة موجودة في أيّ جسم طبيعي آخر .

فكيف يجوز أن ننسب إليه إدخال « المعنى المادّيّ » في نظريّته حتى على فرض « اللطافة »!؟

وفي هذه النقطة بالذات ، يختلف ما قصده الكاتب عمّا ثبت عن هشام في تفسير مقولة « جسم لا كالأجسام » حيث لم نجد في كلمات الكاتب ـ كلّها ـ ذكراً ولا إشارة إلى مصطلح هشام في « الجسم » ذلك الذي تناقلته كافّة المصادر ، وقرّرته وأكّدت نسبته إلى هشام !

ومن هذه النقطة يبدأ انحراف الكاتب عن التوجيه الصحيح لمقولة هشام ، كما سنُثبته في النقاط التالية :

(١) كذا وردت هذه الكلمة في المصدر ، ولعلّها تصحيف من « وبَدَّلَ » فلاحظ .
(٢) المطبوع في المصدر : « وصوت » .
(٣) مجلّة « الإيمان » النجفية ، السنة الأولى ، سنة ١٣٨٣ هـ ، العدد ٧ ـ ٨ ، ص ٦٠٤ .

٢ ـ استغلال هشام لفكرة النور ، وجعله النورَ المدى الأقصى الـذي يمكن تشبيه الأجسام به .

إنّ الكاتب لم يفسّر في كتاب « الصلة . . . » (فكرة النور) ولكنّه في كتاب « الفكر الشيعيّ » ذكرها بقوله : إنّ حركة الغلوّ شرعت للتصوّف (فكرة النور الإلهي) الـذي ينتقل عن طريق الأنبياء والأئمّة من الله إلى قادتهم[١] .

وأعاد نفس الجملة في حديثه عن الشلمغاني[٢] .

وذكر أنّ الحلاج وصف النور الإلهي بالشعشعاني[٣] .

ولم يذكر مصدراً يذكر فيه النور مرتبطاً بنظرية هشام في التجسيم !

لكنّي وجدتُ ذكر النور في عرض حديثهم عن هشام في المصادر التالية :

قال الحميري : قال هشام بن الحكم من القطعيّة ـ ومن قال بقوله ـ : هو شيء جسيم ، لا طويل ولا عريض ، نور من الأنوار . . .[٤] .

وقال ابن أبي الحديد : وأصحابه من الشيعة يدفعون ـ اليوم ـ هذه الحكايات عنه ، ويزعمون أنّه لم يزد على قوله : « جسم لا كالأجسام » وأنّه إنّما أراد بإطلاقه هذه اللفظة عليه « إثباته » وصدّقوا عنه أنّه كان يطلق عليه كونه « نوراً » لِقول الله سبحانه : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره . . . » [سورة النور (٢٤) الآية (٣٥)][٥] .

وهذا بمجرّده ، لا يقتضي أن تكون هناك ـ عند هشام خاصة ـ فكرة النور ، ولا أن تكون هذه الفكرة من تراث الشيعة ، دون باقي المسلمين !!

فالفكرة ـ إن صحّ التعبير ـ موجودة في الآية القرآنية ، و« النور » أطلق على الباريء تعالى بنصّ القرآن ، وأهل السُنّة وأصحاب الحديث يلتزمون بإطلاق « النور » عليه تعالى استناداً إلى نفس الآية[٦] وكذلك بعض كبار المعتزلة[٧] .

فمن أين أصبحت هذه الفكرة شيعيّة خاصة ؟!

ثم من أين جاء الكاتب بدعوى أنّ هشاماً استغلّ هذه الفكرة في سبيل نظريّته في التجسيم ؟!

وإذا جاء شيء في حقّ الحلّاج والشلمغاني وأمثالهما ، فهل يحقّ لأحد أن ينسبه إلى كلّ الشيعة ؟!

نعم ، إنّ ابن أبي الحديد نسب إلى هشام بن سالم ـ وليس ابن الحكم ـ القول بأنّ الله « نور » على صورة الإنسان ، مع أنّه أنكر أن يكون « جسماً »[٨] .

(١) الفكر الشيعي : ٢٦ .
(٢) الفكر الشيعي : ٢٠٢ نقلاً عن معجم الأدباء ١ / ٢٣٥ .
(٣) الفكر الشيعي : ٣١٢ ، نقلاً عن الفهرست ـ للنديم ـ : ١٩٠ .
(٤) الحور العين : ١٤٨ .
(٥) شرح نهج البلاغة ٣ / ٢٢٤ .
(٦) مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٦٠ .
(٧) مقالات الإسلاميّين ٢ / ١٩٢ .
(٨) شرح نهج البلاغة ٣ / ٢٢٤ .

ونسب الشهرستاني ذلك إلى محمد بن النعمان مؤمن الطاق[٩] .

فنسبة ما ذكره الكاتب إلى هشام بن الحكم دعوى عريضة ، لم تذكر في أيّ مصدر .

مع أنّ هذه النسبة تعني أنّ هشاماً كان بصدد تشبيه الذات الإلهيّة بالجسم النوري ، بينما مقولة هشام « جسم لا كالأجسام » ـ كما عرفنا ـ بصدد تنزيه الباريء ـ سبحانه ـ من كلّ شَبَهٍ بالأجسام ، سواء الأجسام اللطيفة أو غيرها ، ونفى عنه كلّ خواصّ الأجسام من الموادّ أو الأعراض ، فنسبة الكاتب اللطافة ، أو المعنى المادّيّ ، إلى هشام ينافي ذلك ويناقضه ، ويعارض ما ثبت نسبته إلى هشام .

٣ ـ ٥ ـ اعتبار هشام للنور « جسماً لطيفاً » .

وجعلَ هشام ما ليس مادةً ـ كالعلوم والحركات ـ أجساماً .

وبدّل المعنى المجرّد بالكائن المجرّد في لطافة الجسم .

إنّ نسبة هذه الأفعال : (الاعتبار) و(الجعل) و(التبديل) إلى هشام ، انفرد بها هذا الكاتب حيث لم نجد لها أثراً في المصادر المتوفّرة للبحث عن هشام ، بل ما وقفنا عليه من المصادر يدلّ على ضدّ النسبة الثانية :

فقد صرّحتْ كتبُ المقالات بأنّ هشاماً نفى أنْ تكونَ الحركاتُ أجساماً :

قال الأشعري : حكي عنه أنّه قال : هي [أي أفعال الفاعلين] معانٍ وليست بأشياء ولا أجسام ، وكذلك قوله في صفات الأجسام ، كالحركات ، والسكنات ، والإرادات ، والكراهات ، والكلام ، والطاعة ، والمعصية ، والكفر ، والإيمان[١٠] .

بل الذي قال بأنّ الحركة جسمٌ ، هم معارضو هشام وخصومه ، كجهم[١١] وأقرب إلى ذلك النظام الذي قال : إنّ الصوت جسم[١٢] وفرقة من المعتزلة التي زعمت : أنّ كلام الله جسمٌ ، وأنّه مخلوق[١٣] ومن قال منهم برؤية الأعراض[١٤] .

وأمّا ما نسبه إلى هشام من تبديل المعنى المجرّد بالكائن المجرّد : فلم يذكر الكاتب أنّه من أينَ أخذه ؟ هل وجده في مصدر ؟ أو أنّه أخذه من آراء أُخرى لهشام فاستنبط هذا منها ؟

كما أنّه لم يذكر وجه هذا التبديل ! فإنّ المعنى المجرّد هو موجود ذهني لا يمكن تحقّقه في الخارج ، والكائن المجرّد هو موجود خارجي وإن كان جسماً لطيفاً ، فما معنى تبديل هذا بذاك ؟ وما هو دليله ؟!

وهكذا يُسَطّر الكاتب مقدمات من نسج خياله ، وينسبها إلى هشام ، ليبني عليه رأيه المنهار ، وينسبه ـ بكل صلافةٍ ـ إلى هشام .

٦ ـ صارت الجسميّة اعتباراً عقلياً خالصاً ، ليس إلى تلمّسه سبيلٌ ،

(٩) الملل والنحل ١ / ١٨٧ .
(١٠) مقالات الإسلاميّين ١ / ١١٣ ، والفرق بين الفرق : ٦٧ .
(١١) مقالات الإسلاميّين ٢ / ٣٢ .
(١٢) مقالات الإسلاميّين ٢ / ١٠١ .
(١٣) مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٤٥ .
(١٤) مقالات الإسلاميّين ٢ / ٤٦ .

كما أنّ العلم والحركاتِ أجْسامٌ لا تُلْمس .

إنّ الإشكال على التجسيم هو أنّ مقتضاه العرفي أن تكون للجسم أبعادٌ ثلاثة على الأقلّ : الطول والعرض والعمق ، أو التأليف والتركيب والتجزّؤ ، وهذا هو الجسم باصطلاح المجسّمة والمعتزلة ، على ما عرفت .

ولو اعتبرت الجسميّة أمراً عقلياً ، كان هذا اصطلاحاً آخر في الجسم فلا بُدّ له من دليل اعتبار .

والكاتب كما أنّه لم يذكر دليلاً على هذا الاعتبار والإصطلاح فهو لم يذكر قبل ذلك واحداً من المصادر كان قد ذكر ذلك منسوباً إلى هشام .

وإذا جعل الكاتب هذه النتيجة حتميّة على أساس المقدّمات السابقة وخاصّة أنّ هشاماً يرى أنّ الحركات أجسام ، فقد عرفت عدم صحّة نسبة شيء من تلك المقدّمات إلى هشام ، خاصة هذه المقدّمة ، فإنّه خالفها بالقطع !

مضافاً إلى أنّ أساس هذا التفسير لنظريّة هشام هو أنّه يرى من ذات الباريء « مادّة معيّنة » وهو ما لم يَقُلْه هشام ، بل يُنافي مقولته منافاة قاطعة ، كما سيأتي .

وهذا بخلاف ما التزمناه من اصطلاح هشام في « الجسم » بمعنى « الشيء » فمضافاً إلى شهرته عنه ، وإقامته الدليل عليه ، كما سبق أن فصّلناه ، فهو بمعنى « شيء لا كالأشياء » المقولة التي التزمها كلّ المسلمين ـ عدا الشاذين ـ وهو يعبّر عن مجرّد وجود الذات الإلهية ، منزّهاً عن كلّ خواصّ الأجسام ، فهو خارج عن حدّ التعطيل وحدّ التشبيه ، كما قلنا .

٧ ـ التعليل بأنّ الله تعالى « جسمٌ لا كالأجسام » و « صورةٌ لا كالصُوَر » تماماً كما هو « عالم بعلم ، وعلمه ذاته » التي يستشهد بها المعتزلة دليلاً على التجريد والتنزيه . . . .

أقول : هذا التعليل منقول عن هشام في إلزام أبي هذيل العلّاف ، كما نقله الشهرستاني ، قال : هشام بن الحكم ، صاحب غور[1] في الأُصول ، لا يجوز أن يُغْفَلَ عن إلزاماته على المعتزلة ، فإنّ الرجل وراء ما يلزم به على الخصم ، ودون ما يظهره من التشبيه ، وذلك أنّه ألزم العلّاف ، فقال له : إنّك تقول : الباريء تعالى « عالم بعلم ، وعلمه ذاته » فيشارك المحدَثات في « أنّه عالم بعلم » ويُباينها في « أنّ علمه ذاته » فيكون « عالماً لا كالعالِمين » فلِمَ لا تقول : « إنّه جسم لا كالأجسام » و « صورة لا كالصور » وله « قدر لا كالأقدار » إلى غير ذلك[2] .

بيان الإلزام في هذا الكلام : أنّ أبا الهذيل التزم من بين المعتزلة ، بأنّ الله يعلم الأشياء بعلم هو ذاته[3] .

ولكنّ هشاماً يقول : إنّ الله يعلم الأشياء بعلم ، وعلمه صفة له ، ليست هي هو ، ولا غيره ، ولا بعضه[4] .

فاختلفا في أنّ علم الله عين ذاته ، كما يقول العلّاف ؛ أو صفة للذات ، كما يقول هشام .

فإذا كان علم الله عين ذاته ، اختلف عن علم المخلوقين لأنّ علمهم صفة لهم ، فإطلاق « عالم » على الباريء يختلف عن إطلاق « عالم » على المخلوقين ، لاختلاف « العلم » بالحقيقة في الموردين ، والحاصل أنّ كلمة « العلم » عند إطلاقها على الباريء تعالى ليست بمعنى العلم المفهوم عند المخلوقين ، بل معناه أمر آخر خاصّ بالله تعالى ، ومع هذا يصحّ إطلاق « عالم » على الباريء تعالى ، إلّا أنّه لا بُدّ أن يقال : « لا كالعالِمين » حتى يُنفي عنه أيُّ شَبَه بالمخلوقين في علمه وعالِميّته .

فإن كان هذا التغيير في معنى « العلم » والإصطلاح على إرادة الذات منه ، كافياً لصحّة إطلاق اسم « عالم » عليه ، فليكن إطلاق « جسم » عليه تعالى كذلك ، بصرفه عن معناه اللُغوي العرفي ، وإرادة أصل « الشيء » و « الموجود » منه صحيحاً ، فيقال : إنّه « جسم لا كالأجسام » .

وإن لم يكن هذا التواضع كافياً ، فلا بُدّ أن لا يصحّ « عالم لا كالعالِمين » !!

فالعلّاف إمّا أن يلتزم بكون علم الله ليس عين ذاته بل هو صفة مثل علم سائر العالِمين ، فهو تنازل عن رأيه في العلم !

أو يلتزم بإطلاق « جسم لا كالأجسام » على الباريء تعالى من دون حَرَجٍ ، وهذا اعتراف بصحّة مقولة هشام في الجسم !

وقد عُرف من شرحنا هذا أنّ هشاماً لا يمكن أن يقيس مقولته « جسم لا كالأجسام » على قول العلّاف « عالم بعلم ، وعلمه ذاته » ! وذلك :

١ ـ أنّ هذا مخالف لرأي هشام في العلم !

٢ ـ أنّ هذا ليس فيه أيُّ إلزامٍ على العلّاف ، فكيف يذكره الشهرستاني بعنوان أنّه إلزام !

كما عُرف من خلال حديثنا أنّ قول : « عالم بعلم ، وهو ذاته » ليس من كلام المعتزلة كلّهم بل هو من كلام العلّاف فقط ! وقد خالفه فيه هشام وجماعة من المعتزلة أيضاً .

٨ ـ فأيّ ضَيْرٍ ـ بعدُ ـ في أن يكون هشام مجسّماً عقلياً ، يقدّم الدليل على أنّ « المادّة المعينة » إلهيّة ، لا تدرك بالحواسّ ؟

وأينَ الإشكالُ إذَنْ .

أقول : إنّ كان المراد من التجسّيم العقلي ، هو التجسيم المادّي ، لكون الذات الإلْهيّة عنده مادّةً معيّنةً لا تدرك بالحواسّ ، كما هو صريح كلامه هنا ، وهو الأمر المبنيّ على المقدّمات التي ذكرها الكاتب ورتّبها للتوصّل بها إلى هذه النتيجة !

فهذا ما لم يقُلْه هشام ، بل هذا معارض لما في مقولته من التجريد والتنزيه عن كلّ خواصّ الأجسام ، ومنها « المادّة » .

مع أنّ تلك المقدّمات غير تامّة ، كما سبق أن قلنا .

وأمّا الضَيْر في هذه التهمة ، فلا يتّجه منه إلى هشام أيُّ سوء ، لأنّ

(١) كذا بالغين المعجمة في طبعة المصدر ، الموجودة بهامش الفصل ، لكنّ المطبوع في المصدر الذي راجعناه « عور » بالعين المهملة ، فهل هو خطأ مطبعيّ ؟!

(٢) الملل والنحل ١ / ١٨٥ .

(٣) مقالات الإسلاميّين ١ / ٢٢٥ و٢٤٣ .

(٤) مقالات الإسلاميّين ٢ / ١٦٣ .

نسبة باطل هذه التهمة إلى حقّ هشام بن الحكم كنسبة الحجر إلى البحر في قول الشاعر :

لا يَضُرُّ الْبَحْرَ أمْسى زَاخِراً أنْ رَمى فيهِ غُلامٌ بِحَجَرْ

وكفى ما أوردنا دليلاً على أن الكاتب لم يفهم مراد هشام ، ولا وقف على مصطلحه !

وأمّا : أينَ الاشكال ؟

فيقال له : إنّه كامن في عدم قدرتك على الخوض في موضوع كهذا ، حسّاس ، لم تَخْبُرْه أبداً ، ولم تعرف كيف تستخدم مصادره ، ولا لك قدرة على فهم عباراتهم ، وكلماتهم ، ثم تعتمد أساساً على مصادر الأعداء وتحاول أنْ تنسب ما فيها إلى هشام من دون مناقشة أو تفنيد .

ولو نظر هذا الرجل في مصادرنا الموثوقة ، لوجد أنّ قضيّة « التجسيم » قد انتفت فلم يبق أيّ أثرٍ للمادّة في كلمة « الجسم » لما وضعت على غير معناها المفهوم ، وأريد منها معنى « الشيء » فليس هناك إلاّ ذكر للربّ بلفظ « الجسم » وهذا هو المفهوم من مقولة « جسم لا كالأجسام » حسب تفسيرنا لها ، على مصطلح هشام .

وأمّا مناقشة الكاتب في كتابه « الصلة بين التشيّع والتصوّف . . . » فهذا نصّ عبارته :

أمّا التجسيم الذي قال به هشام فلا داعي للإفاضة فيه ، ونكتفي من ذلك بأنّه قد بني على فكرة منطقية تقول : « إنّ بين معبوده ـ أي هشام ـ وبين الأجسام تشابهاً ما بوجهٍ من الوجوه ، ولولا ذلك لما دلّت عليه » [الملل والنحل ١ / ٢٠٨] وينتهي إلى أنّه « لا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبهه شيء » [الملل والنحل ١ / ٢٠٨] يضاف إلى هذا أنّ أبا الحسن الأشعري ، لمّا ذكر تجسيم هشام بن الحكم لله وأنّ له طولاً وعرضاً ، أردف ذلك بقوله : « على المجاز دون التحقيق » [مقالات الإسلاميّين : ١٠٢] . وأدخل من هذا في بعد هشام بن الحكم عن التجسيم المادّي لله ما ذكره علي بن إبراهيم القمي من اختلاف هشام وأحمد بن محمد بن أبي نصر ، في كيفية رؤيته (كذا) النبي لله في المعراج ، فقال الآخر : نحن نقول بالصورة للحديث الذي روى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رأى ربّه في صورة شابّ ، وقال هشام بالنفي للجسم . . . » [تفسير علي بن إبراهيم : ١٩] . وقد حاول الشيعة ، قدماء ومُحْدَثين ، أن ينفوا عن هشام بن الحكم القول بالجسمية بكلّ ما أُوتوا من قوّة ، غير أنّ الحجة أعيتهم ، ومن هنا اعترف الشيخ المفيد بقوله بالجسميّة ، وقرن الشيعة ذلك بحكايتهم رجوع هشام عنها ، وكان ذلك غاية ما بذلوه من جهد ! [نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، للدكتور علي سامي النشّار ، ط ٢ ، مصر ١٩٦٤ ، ص ٢٤١] .

وذكر الشيخ عبد الله نعمة في هشام أنّه « في آرائه الموجودة بين أيدينا اتّجاه مادّيّ ، ونزعة حسيّة قلّما تخفى . . . . ثم هو يغرق في نزعته الحسّيّة حتى حُكِيَ عنه القول بأنّ الجوهر جسم رقيق . . . » [هشام بن الحكم ، بيروت ١٩٥٩ ، ص ٩٨ ـ ٩٩] .

وكذلك فعل الدكتور محمد جواد مشكور في تحقيقه لكتاب « المقالات والفرق » لسعد بن عبد الله الأشعري [طهران ١٩٦٣ ، ص ٣٢١] .

وقد أخذ توفيق الفكيكي في شأن هشام بن الحكم برأي الشيخ المفيد وأصرّ على نفي التجسيم عنه دون دليل واضح [أُنظر نقده للطبعة الأولى من هذا الكتاب في مجلة « الإيمان » النجفية ، السنة الأولى ، العددين الخامس والسادس ، ١٩٦٤ ، ص ٣٩٨ ، ٤٠٥] .

ومن الغريب أنّ تهمة التجسيم لم تنفَ عن هشام على أيدي الشيعة وإنّما فعل ذلك أهل السُّنّة ، فأبو الحسن الأشعريّ وابن حزم الظاهريّ قدّما المادّة الكلامية لهذه البراءة ، والدكتور علي سامي النشّار وضعها على أساس منطقي فلسفي مؤدّاه « أنّ الفعل لا يصحّ إلاّ من جسم ، والله فاعل ، فوجب أنّه جسم » وأنّ « معنى الجسم أنّه موجود » وكان هشام يقول : أُريد بقولي : « جسم » أنّه موجود ، وأنّه شيء ، وأنّه قائم بنفسه [نشأة الفكر الفلسفي ، ص : ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٥٦] . ويختم الدكتور النشّار ذلك بحكمه من « أنّ الجسم عند هشام بمعنى الموجود ، فكلّ موجود جسم . . . » « والله موجود ، فهو جسم ، لكنّه لا كالأجسام » [ص ٢٤٦][(١)] .

١ ـ قوله : فكرة منطقية تقول إنّ بين معبوده [أي هشام] وبين الأجسام تشابهاً ما بوجهٍ من الوجوه ، ولولا ذلك لما دلّت عليه .

أقول : إنّ هذا الكلام نسبه الأشعري[(٢)] والشهرستاني[(٣)] إلى هشام بن الحكم ، نقلاً عن ابن الراوندي .

وأضاف الشهرستاني في موضع آخر إليه قوله : الأعراض لا تصلح أن تكون دلالة [كذا ، والصواب دالّة] على الله تعالى ، لأنّ منها ما يثبت استدلالاً ، وما يستدلّ به على البارىء تعالى يجب أن يكون ضروريّ الوجود لا استدلالاً[(٤)] .

لكن هذه المقالة ـ بعين اللفظ ـ منقولة عن هشام بن عمرو الفوطي ، فقد ذكر الشهرستاني في فرقة « الهشامية » من المعتزلة ، ما نصّه :

ومن بدعه في الدلالة على البارىء تعالى قوله في الأعراض لله لا تدلّ على كونه خالقاً ولا تصلح دلالات ، بل الأجسام تدلّ على كونه خالقاً[(٥)] .

وليس هذا أول خلطٍ لهم بين الهشامَيْن : ابن الحكم ، وابن عمرو الفوطي .

مع أنّ نسبة هذه المقالة إلى هشام بن الحكم لا يناسب مقولته المعروفة المذيّلة بقوله « . . . لا كالأجسام » حيث ينفي فيها كلّ شبه بين الخالق والمخلوق .

والعجيب أنّ الكاتب يقول : « وينتهي إلى أنّه لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، ولا يشبهه شيءٌ » .

فكيف ينتهي القول بالشبه بينهما إلى القول بعدم الشبه ، أليس هذا « خُلْفاً » كما يقول المناطقة ؟!

مع أنّ هذا ليس هو النهاية في رأي هشام ، بل هو يرى ذلك من

(١) الصلة بين التشيّع والتصوّف : ١٤٣ .
(٢) مقالات الإسلاميّين ١ / ١٠٣ .
(٣) الملل والنحل ١ / ١٨٤ .
(٤) الملل والنحل ١ / ١٨٥ .
(٥) الملل والنحل ١ / ٧٢ .

البداية ، أليس هو الذي ينفي كلّ شَبَهٍ بين الخالق والمخلوق في مقولته : « جسم لا كالأجسام » ! التي هي أشهر ما نقل عنه في هذا المجال ؟!

٢ ـ قوله : وأدخل من هذا في بُعد هشام بن الحكم عن التجسيم المادّي لله ، ما ذكره علي بن إبراهيم القمي . . .

أقول : فلماذا لم يعتمد الكاتب وأمثاله على هذه الرواية لتكون أساساً واضحاً لرأي هشام في التجسيم ، فينفوا عنه التجسيم المعنوي مطلقاً ، وهو مدلول مقولته « جسم لا كالأجسام » كما أوضحناه ؟!

والكاتب لم يهمل هذه الرواية فقط بل خالفها ونسب إلى هشام القول بأنّ « المادّة المعيّنة إلهيّة » لا تدرك بالحواسّ ، كما نقلنا كلامه عن مجلة « الإيمان » النجفيّة .

٣ ـ قوله : وقد حاول الشيعة ـ قدماء ومحدثين ـ أن ينفوا عن هشام بن الحكم القول بالجسميّة ، بكلّ ما أُوتوا من قوّة ، غير أنّ الحجّة أعيتهم !

أقول : إنّ الكاتب لم يُحاول ـ أولاً ـ إثبات القول بالجسميّة على هشام من طريق الشيعة ، حتى تصحّ له مطالبتهم بحجّة على النفي . فإنّا لم نجد عند الشيعة نسبة التجسيم المطلق إلى هشام وأنّه قال بالجسميّة المعنوية ، حتى يحتاجوا في نفيها عنه إلى حُجّة ، بل غاية ما في الأمر أنّ الخصوم ـ وخاصّة المعتزلة ـ اتّهموا هشاماً بأشكال من التجسيم ، وقد يتناقضون في ما نسبوه إليه ، وإنْ كان أقوى وأصرح ما نسبوه هو القول « بجسم لا كالأجسام » .

وقد أجمع كافّة أهل الفرق على عدم دلالة ذلك على التجسيم المعنوي ، بل غاية ما يُفيده هو التجسيم اللفظي والأسمي ، كما فصّلناه .

فمن أين جاء جزم الكاتب وأمثاله بثبوت القول بالتجسيم لهشام ، حتى يُحتاج لنفيه إلى حجّة ؟!

٤ ـ قوله : ومن هنا اعترف الشيخ المفيد بقوله بالجسمية .

أقول : هذا من موارد تحريف الكاتب وأُستاذه للحقيقة ، حيث نقلوا عن الشيخ المفيد هذا الإعتراف ، بينما كلامه لا يدلّ على ذلك ، فهو في هذا الصدد يقول : وإنّما خالف هشام بن الحكم كافّة أصحاب أبي عبد الله عليه السّلام بقوله في الجسم[1] .

ومعناه : أنّ لهشام قولاً في « الجسم » مخالفاً به الآخرين ، وهذا القول في الجسم ، هو ما اصطلحه فيه من إرادة « الشيء » منه .

فأين هذا من القول بالجسميّة ؟!

وإذا كان النشّار ـ المصري ، أُستاذ الكاتب ـ إلى هذا الحدّ من الجهل باللّغة العربية ، فليس له الحقّ بالتدخّل في معالجة كلمات العلماء ، فهو لا يميّز الفرق بين « القول في الجسم » و « القول بالجسم » !

٥ ـ قوله : وقرنَ الشيعة ذلك بحكايتهم رجوع هشام عنها ، وكان ذلك غاية ما بذلوه من جهد .

أقول : إنّ حكاية الشيعة للرجوع ليس لما توهّمهُ الكاتب من ثبوت اعتقاد هشام بالتجسيم ، وإنّما ذلك من جهة مخالفة هشام للحقّ في ما التزمه بالنسبة إلى إطلاق اسم الجسم على الباريء ، مع أنّه لم يرد ذلك في الشرع ، فأسماء الله تعالى توقيفية . كما سيأتي بيان ذلك في الفقرة التالية .

٦ ـ قوله : وذكر الشيخ عبد الله نعمة .

أقول : قد ذكرنا ملاحظاتنا على أقوال الشيخ ، في كتابه .

٧ ـ قوله : وكذلك فعل الدكتور . . .

أقول : لم يكن هذا الدكتور بصدد التحقيق والتدقيق فيما يُثبته ، بل هو يحاول جمع ما في المصادر وسردها تباعاً من دون نقدٍ لها ، فليس ذكرها دليلاً على قبولٍ أو ردّ .

٨ ـ قوله : وقد أخذ الأُستاذ توفيق الفكيكي . . . .

أقول : يكفي في فضل الأُستاذ الفكيكي أنّه قد نبّهك على بعض أوهامك ، وخاصّة في نسبتك إلى الشيخ المفيد الإعتراف بأنّ هشاماً قال بالجسمية ، ولكنّك أبيت التنبُّه إلى أنّ المفيد لم يعترف بمثل ذلك ، وأنّه إنّما نَسَبَ إلى هشام خلافاً في التجسيم اللفظي فقط .

ولقد تقاعست عن الرجوع إلى المصادر إلى حدّ أنّك تقول : من الغريب أنّ تهمة التجسيم لم تنف عن هشام على أيدي الشيعة ، وإنّما فعل ذلك أهل السُّنّة ، فأبو الحسن الأشعري ، وابن حزم الظاهري ، قدّما المادّة الكلامية لهذه البراءة !

إنّ تهمة التجسيم ، وبالصورة التي نسبتها أنت وسلفك العامّة إلى هشام ، لم ترد في شيء من المصادر الموثوقة عند الشيعة ، حتى يكونوا بحاجة إلى نفيها ، فأنت تغالط بهذه العبارة ، وتريد أن تظهر أنّ الشيعة قد وافقوا على أصل التهمة ولكنّهم لم ينفوها ! بل تزعم أن الشيخ المفيد اعترف بها ! وكأنّك قد فرغت من هذا الإثبات وأنت منتظر للنفي منهم .

كلا ، فإنّ من أثبت التهمة ضدّ هشام ليس إلاّ خصومه ، ممّن لم يتّقوا الله في شيء ، وليسوا أُمناء على شيء ، بل كلماتهم متضاربة ومتناقضة إلى حدّ السقوط ، ولم يَثْبُتْ شيء من تلك الاتّهامات ضدّ هشام بطريق واحد من علماء الشيعة ، سوى أنّه أطلق مقولة « جسم لا كالأجسام » التي لم تدلّ على ما نسب إليه ، بل دلّت على التنزيه والتوحيد .

وقد اعترف جميع أهل المقالات بأنّ المقولة لا تدلّ على التجسيم المعنويّ المؤدّي إلى الكفر ، وفي مقدّمتهم كبار الشيعة القدماء ، وأعاظم الشيعة المتأخرين .

فظهر أنّ المادة الكلامية لبراءة هشام موجودة في مقولته ، وفي اصطلاحه في « الجسم » أنّه بمعنى « الشيء » وليس أول من قدّمها هم العامّة ، بل إنّهم هم أول من قدّم التهمة ضدّ هشام وأعلنوها عليه حرباً شعواء ، مبناها الاتّهام الباطل ، والتحريف للحقائق .

وإذا وجب أن يُحاسَبَ أحدٌ في هذا المجال ، فهم هؤلاء الّذين ملأوا صحفهم باتّهام هشام ، وذكروا في حقّه خرافات لا يفوه بها مليٌّ فضلاً عن مسلم موحّد مثل هشام ، مع وقوفهم على مصطلح هشام في « الجسم » الذي يصلح أساساً لبراءته عن وصمة « التجسيم » .

ولو كانوا يعتقدون ـ حقّاً ـ ببراءة هشام ، لما تناقلوا كلّ تلك الاتّهامات الشنيعة ، أو لتراجعوا عنها بكلمة .

---

(١) الحكايات : ١٣١ .

والعجيب أنّ الكاتب لا يحاسبهم على تصرّفاتهم المشبوهة هذه ، ويريد أن يحاسب الشيعة ـ ظلماً ـ على ما لم يقصّروا فيه !

٩ ـ قوله : والدكتور سامي النشّار وضعها على أساس منطقي فلسفي مؤدّاه « إنّ الفعل لا يصحّ إلّا من جسم ، والله فاعل فوجب أنّه جسم » وأنّ معنى « الجسم » أنّه « موجود » . . . إلى آخره .

أقول : ليس الدكتور النشّار هو الذي وضع هذا الأساس لنظريّة هشام ، بل هشام نفسه وضع هذا الأساس واستدلّ به على اصطلاحه في « الجسم » بمعنى « الشيء » و« الموجود » ، كما ذكرناه سابقاً مفصّلاً ، وقد تناقلته المصادر القديمة .

وهذا دليل آخر على تقصير الكاتب في تتبّعه ، وخاصّة للمصادر القريبة منه ، واعتماده الأساسي على فكر الغربيّين وأعداء التشيّع ، وإلّا فهذا كتاب الكشّي من المصادر الأصيلة ، وكذلك كتاب « التوحيد » للشيخ الصدوق ، وهو في متناول يده ، ويحتوي على أهمّ ما يرتبط بالموضوع ، فلماذا يتركه ويلجأ إلى كلمات النشّار وأمثاله .

ولئن أخفى النشّار مصدره الذي استقى منه هذه الفكرة الفلسفية ، فإنّ وجود ذلك لا بُدّ أن يكون مدعاة للكاتب إلى أن ينصرف عن إصراره على أن يجعل من هشام رجلاً يقول بالتجسيم للباريء ، بمعنى اعتبار المادّة المعيّنة إلهية ، لا تدرك بالحواسّ ، كما انتهى إليه في مجلة « الإيمان » النجفية .

٨ ـ موقف الأئمّة من مقولة هشام :

إنّ لأئمّة أهل البيت عليهم السّلام مواقف حاسمة في الدفاع عن الحقّ ، وبيان الحقيقة ، وفي خصوص مجال التوحيد والتنزيه ، وقد أفصحوا عن ذلك بأقوال صريحة ، قاطعة ، محكمة ، جمعتها صحف أصحابهم ، ومؤلّفات أوليائهم ، وحفظتها صدور قوم مؤمنين ، وهم يتلونها على المنابر ، وفي المجالس ، على ألسنة المبلّغين رسالات الله ، فتطمئنّ بها قلوب رجالٍ صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

فهذا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم يقول ـ وهو يخاطب الّذين قالوا : إنّ الله يحلّ في هياكل رجال كانوا على هذه الصور ـ : أخطأتم الطريق وضللتم ، أما أنتم فقد وصفتم ربّكم بصفة المخلوقات ! أوَ يحلّ ربّكم في شيء ، حتى يحيط به ذلك الشيء ؟! فأيّ فرق بينه ـ إذَنْ ـ وبين سائر ما يحلّ فيه من لونه ، وطعمه ، ورائحته ، ولينه ، وخشونته ، وثقله ، وخفّته ؟؟ ولِمَ صار هذا المحلول فيه محدَثاً ، وذلك قديماً ، دون أنْ يكونَ ذلك محدَثاً وهذا قديماً ؟!(١) .

وهذا أمير المؤمنين الإمام علي عليه السّلام قد سبق كلّ الموحّدين في التوحيد الكامل ، والتنزيه الشامل ، في خطبه وبياناته ، والمعتزلة ـ المدّعون للسبق في ذلك ـ اعترفوا بأنّ خطب الإمام عليه السّلام في بيان التشبيه وإثبات العدل أكثر من أن تحصى .

قال يحيى بن حمزة العلوي ـ من أئمّة الزيديّة ـ : وأعظم كلامه ما حواه كتاب « نهج البلاغة » وقد تواتر نقله عنه ، واتّفق الكلّ على صحّته ، وقد أورد فيه من الترغيب والترهيب ، والتخويف والتقريب ، والمواعظ والزجر ، وخلاص التوحيد ، وصريح التنزيه ، ولطائف الحكم ، ومغاصات الأفهام ، ما يبهر القرائح ، وتُحار في إتقانه العقول ، ويذهل الفهم(٢) .

فمن خطبه له : أوّل الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال تصديقه توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كلّ صفةٍ أنّها غير الموصوف ، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثنّاه ، ومن ثنّاه فقد جزّأه ، ومن جزّأه فقد جهله ، ومن أشار إليه فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه ، ومن قال : فيم ؟ فقد ضمّنه ، ومن قال : علام ؟ فقد أخلى منه ، كائنٌ لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كلّ شيء لا بمزايلة(٣) .

وفي خطبة أُخرى : الحمد لله الذي لا يموت ، ولا تنقضي عجائبه ، . . . ولم تقع عليه الأوهام فتقدّره شبحاً ماثلاً ، ولم تُدركه الأبصار فيكون بعد انتقالها حائلاً . . .(٤) .

وفي ثالثة : الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد ، ولا تحويه المشاهد ، ولا تراه النواظر ، ولا تحيط به السواتر ، الدالّ على قدمه بحدوث خلقه ، وبحدوث خلقه على وجوده ، وباشتباههم على ألّا شَبَهَ له(٥) .

وقال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السّلام : من كان ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، كان نعته لا يشبه نعت شيء فهو ذاك(٦) .

وقال عليه السّلام : إلهي يدك قدرتك ، والتقدير على غير ما به وصفوك ، وإني بريء يا إلهي من الّذين بالتشبيه طلبوك ، ليس كمثلك شيء إلهي ، ولن يدركوك ، وظاهر ما بهم من نعمك دليلهم عليك لو عرفوك ، وفي خلقك يا إلهي مندوحة أن يتناولوك ، بل سوّوك بخلقك ، ومن ثم لم يعرفوك ، واتّخذوا بعض آياتك ربّاً فبذلك وصفوك ، تعاليت عمّا به المشبّهون نعتوك(٧) .

وقال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام ـ في جواب من قال : ما هو ؟ ـ : هو شيء بخلاف الأشياء ، أرجع بقولي « شيء » إلى إثبات معنى ، وأنّه « شيء » بحقيقة الشيئيّة ، غير أنّه : لا جسم ، ولا صورة ، ولا يُحسّ ، ولا يُجسّ ، ولا يُدرَك بالحواسّ الخمس ، لا تدركه الأوهام ، ولا تنقصه الدهور ، ولا يغيّره الزمان . . . هو سميع بصير ، سميع بغير جارحة ، وبصير بغير آله .

وقد روى هذا الحديث : هشام بن الحكم(٨) .

وفيما قرّره الإمام علي بن محمد الهادي عليه السّلام من الدين ، الذي عرضه عليه عبد العظيم الحسني : إنّ الله تبارك وتعالى واحد ، ليس كمثله

(١) الاحتجاج ـ للطبرسي ـ : ٢٧

(٢) مشكاة الأنوار ـ للعلوي ـ : ٥ ـ ١٧٦ .

(٣) نهج البلاغة : ٢٣٩ ـ ٤٠ ، الخطبة ١ ، والاحتجاج ـ للطبرسي ـ : ١٩٩ ، وانظر : مشكاة الأنوار : ١٧٧ .

(٤) التوحيد ـ للصدوق ـ : ٣١ .

(٥) نهج البلاغة : ٢٦٩ الخطبة ١٨٥ ، مشكاة الأنوار : ١٧٦ .

(٦) بلاغة الإمام علي بن الحسين عليهما السّلام : ١٦ .

(٧) بلاغة الإمام علي بن الحسين عليهما السّلام : ١٧ .

(٨) التوحيد ـ للصدوق ـ : ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

شيء ، خارج عن الحدّين : حدّ الإبطال وحدّ التشبيه ، وإنّه ليس بجسم ولا صورة ولا عَرَض ولا جوهر ، بل هو مجسِّم الأجسام ، ومصوِّر الصور ، وخالق الأعراض والجواهر ، وربّ كل شيء(١) .

وقال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السّلام : . . . لا تضبطه العقول ، ولا تبلغه الأوهام ، ولا تُدركه الأبصار ، ولا يحيط به مقدار ، عجزت دونه العبارة ، وكلّت دونه الأبصار ، وضلّ فيه تصاريف الصفات ، احتجب بغير حجاب محجوب ، واستتر بغير ستر مستور ، عُرف بغير رؤية ، ووُصف بغير صورة ، ونُعت بغير جسم ، لا إله إلّا الله ، الكبير المتعال(٢) .

وقال الإمام الصادق عليه السّلام : . . . تعالى الله عمّا يصفه الواصفون المشبِّهون الله تبارك وتعالى بخلقه ، المفترون على الله ، . . . فانْفِ عن الله البطلان والتشبيه ، فلا نفي ، ولا تشبيه ، هو الله ، الثابت الموجود ، تعالى الله عمّا يصفه الواصفون . . .(٣) .

والشيعة استهدَوْا بهدي أئمّتهم عليهم السّلام في ذلك ، فهم يعتقدون بالتوحيد الكامل ، والتنزيه الخالص ، للخالق تعالى ، عن كلّ تجسيم أو شبه بخلقه .

كما أنّهم يقولون بتوقيفيّة أسمائه تعالى ، فلا يطلقون اسماً عليه تعالى إلّا ما ورد به الشرع المقدس .

قال الصدوق : أسماء الله تبارك وتعالى لا تؤخذ إلّا عنه أو عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، أو عن الأئمّة الهُداة عليهم السّلام(٤) .

وقال الشيخ المفيد : لا يجوز تسمية الباريء تعالى إلّا بما سمّى نفسه في كتابه ، أو على لسان نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم ، أو سمّاه به حججه من خلفاء نبيّه عليهم السلام ، وكذلك أقول في الصفات ، وعليه تطابقت الأخبار من آل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وهو مذهب جماعة من الإمامية وكثير من الزيديّة(٥) .

وقد خالف الجبّائي ـ من المعتزلة ـ في ذلك ، فكان يزعم أنّ العقل إذا دلّ على أنّ الباريء عالمٌ ، فواجب أن نسمّيَه عالماً ، وإنْ لم يُسمّ نفسه بذلك ، إذا دلّ على المعنى ، وكذلك في سائر الأسماء .

وخالفه البغداديّون ـ من المعتزلة ـ فزعموا أنّه لا يجوز أنْ نسمّيَ الله عزّ وجلّ باسم قد دلّ العقل على صحّة معناه إلّا أن يسمّي نفسه بذلك(٦) .

وقد كانت هذه المسألة بالخصوص سبباً لانفصال أبي الحسن الأشعري عن المعتزلة ، حيث ناظر أُستاذه الجبّائيّ فيها ، فقال الأشعري : إنّ طريقي في مأخذ أسماء الله الإذنُ الشرعيّ ، دون القياس اللُغوي(٧) .

وبهذا انضمّ الأشاعرة إلى غيرهم من المسلمين في توقيفية الأسماء .

(٣) التوحيد ـ للصدوق ـ : ٨١ .
(٤) التوحيد ـ للصدوق ـ : ٩٨ .
التوحيد ـ للصدوق ـ : ١٠٢ ح ١٥ .
التوحيد ـ للصدوق ـ : ٣٠٠ رقم ٦ .
أوائل المقالات : ٥٨ .
(٦) مقالات الإسلاميّين ٢ / ١٨٥ .
(٧) مذاهب الإسلاميّين ١ / ٥٠١ .

وقد ذكر الغزّالي في هذا الباب تفصيلاً ، وهو يتحدّث عن اسم « الجسم » وهذا نصّه :

ندّعي : أنّ صانع العالم ليس بجسم ، لأنّ كلّ جسم فهو متألّفٌ من جوهرين متحيّزَيْن . . . ونحن لا نعني بالجسم إلّا هذا .

فإنْ سمّاه « جسماً » ولم يُرد هذا المعنى ، كانت المضايقة معه بحقّ اللغة ، أو بحقّ الشرع ، لا بحقّ العقل : فإنّ العقل لا يحكم في إطلاق الألفاظ ونظم الحروف والأصوات التي هي اصطلاحات(٨) .

وقال في موضع آخر : العقل عندنا لا يوجب الإمتناع من إطلاق الألفاظ ، وإنّما يُمنع عنه : إمّا لحقّ اللُغة ، وإمّا لحقّ الشرع :

أمّا حقّ اللُغة : فذلك إذا ادّعى أنّه موافق لوضع اللسان ، فيبحث عنه ، فإن ادّعى واضعه له أنّه اسمه على الحقيقة ، أي واضع اللُغة وضعه له فهو كاذب على اللسان ، وإن زعم أنّه استعاره ، نظراً إلى المعنى الذي به شارك المستعار منه ، فإن صلح للاستعارة لم يُنكر عليه بحقّ اللُغة ، وإنْ لم يصلح قيل له : أخطأت على اللُغة ، ولا يستعظم ذلك إلّا بقدر استعظام صنيع من يُبعد في الإستعارة ، والنظر في ذلك لا يليق بمباحث المعقول .

وأمّا حقّ الشرع ، وجواز ذلك وتحريمه ؛ فهو بحثٌ فقهي يجب طلبه على الفقهاء ، إذ لا فرق بين البحث عن جواز إطلاق الألفاظ من غير إرادة معنىً فاسد ، وبين البحث عن جواز الأفعال .

وفيه رأيان :

أحدهما : أن يقال : لا يطلق اسم في حقّ الله تعالى إلّا بالإذن ، وهذا لم يرد فيه إذن .

وثانيهما : أن يقال : لا يحرم إلّا بالنهي ، وهذا لم يرد فيه نهي .

فيُنْظَر : فإنْ كان يُوهم خطأً ، فيجب الإحتراز منه ، لأنّ إيهام الخطأ في صفات الله تعالى حرام .

وإنْ لم يُوهم خطأ لم يحكم بتحريمه .

فكِلا الطريقين محتمل .

ثم الإيهام يختلف باللُغات وعادات الإستعمال ، فرُبّ لفظٍ يُوهم عند قومٍ ، ولا يُوهم عند غيرهم(٩) .

وأجمع ما رأيتُ بهذا الصدد ما ذكره الشيخ الشهيد ، ونقله الكفعمي ، وهذا نصّه : هنا فائدة يحسن بهذا المقام أنْ نُسْفِرَ قِناعَها ، ونحدِر لفاعَها ، وهي :

أن الأسماء التي وردَ بها السمعُ ، ولا شيء منها يُوهِم نقصاً يجوز إطلاقها على الله تعالى إجماعاً .

وما عدا ذلك ، فأقسامه ثلاثة :

الأول : ما لم يرد به السمع ويوهم نقصاً فيمتنع إطلاقه على الله تعالى إجماعاً ، كالعارف ، والعاقل ، والفطِن ، والذكيّ . لأنّ المعرفة قد تُشْعر بسَبْقِ فكرةٍ ، والعقل هو المنع عمّا لا يليق ، والفطنة والذكاء يُشْعِران بسرعة

(٨) الاقتصاد ـ للغزّالي ـ : ٢١ .
(٩) الاقتصاد ـ للغزّالي ـ : ٢٠ ـ ٢١ .

الإدراك لِما غاب عن المُدْرِك .

وكذا المتواضع : لأنّه يُوهم الذلّة ، والعلامة : لأنّه يوهم التأنيث ، والداري : لأنّه يوهم تقدّم الشكّ .

وما جاء في الدعاء من قول الكاظم عليه السّلام ـ في دعاء يوم السبت ـ « يا مَنْ لا يعلمُ ولا يدري كيفَ هُوَ ؟ إلاّ هُوَ » يوهم[1] جواز هذا ، فيكون مرادفاً للعلم .

الثاني : ما ورد به السمعُ ، ولكنّ إطلاقه في غير مورده يُوهم النقص ، فلا يجوز ، كأنْ يقول : يا ماكر ، ويا مستهزىء ، أو يحلف به .

قال الشهيد رحمه الله في قواعده : ومنع بعضهم أن يقول : « اللّهمّ آمْكُرْ بفلان » وقد وردَ في دعوات المصباح : « اللّهمّ استهزىء به ولا تستهزىء بي » .

الثالث : ما خلا عن الإيهام ، إلاّ أنّه لم يرد به السمع ، كالنجيّ ، والأريحيّ .

قال الشهيد رحمه الله : والأَوْلى التوقّف عمّا لم يثبت التسمية به ، وإنْ جاز أن يطلق معناه عليه[2] .

إذا عرفت ذلك ، فنقول :

قال الشيخ نصير الدين أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي في فصوله :

كلّ اسم يليق بجلاله ، ويناسب كماله ممّا لم يرد به إذنٌ يجوز إطلاقه عليه تعالى ، إلاّ أنّه ليس من الأدب ، لجواز أن لا يناسبه تعالى من وجهٍ آخر[3] .

قلت : فعنده يجوز أنْ يُطلقَ عليه الجوهر ، لأنّ الجوهر قائم بذاته ، غير مفتقر إلى الغير ، والله تعالى كذلك .

وقال الشيخ عليّ بن يوسف بن عبد الجليل في كتابه « منتهى السؤول » : لا يجوز أنْ يطلقَ على الواجب تعالى صفةٌ لم يرد في الشرع المطهّر إطلاقها عليه ، وإنْ صحّ اتّصافه بها معنىً ، كالجوهر ، مثلاً ، بمعنى القائم بذاته ، لجواز أن يكونَ في ذلك مفسدة خفيّة لا نعلمها ، فإنّه لا يكفي في إطلاق الصفة على الموصوف ثبوت معناها له ، فإنّ لفظيّ : « عزّ » و « جلّ » لا يجوز إطلاقهما على النبيّ صلّى الله عليه وآله وإنْ كان عزيزاً جليلاً في قومه ، لأنّهما يختصّان بالله تعالى ، ولولا عناية الله ورأفته بعباده ، في إلهام أنبيائه أسماءه ، لَما جَسَرَ أحدٌ من الخلق ولا يَمّ ، في إطلاق شيء من هذه الأسماء والصفات عليه سبحانه .

قلت : هذا القول أَوْلى من قول صاحب « الفصول » المتقدّم آنفاً ، لأنّه إذا جاز عدم المناسبة ـ ولا ضرورة داعية إلى التسمية ـ وجب الإمتناع ما لم يرد به نصٌ شرعيّ من الأسماء ، وهذا معنى قول العلماء : « إنّ أسماء الله تعالى توقيفيّة » أي موقوفة على النصّ والإذن الشرعيّ[4] .

وأمّا موقف هشام من مسألة الأسماء :

(١) كلمة « يوهم » ساقطة من نسخة المصباح ، وواردة في قواعد الشهيد .

(٢) القواعد والفوائد : ٢ / ١٧٦ ـ ١٧٨ .

(٣) الفصول النصيرية : ١٧ ـ ١٨ .

(٤) المصباح ـ للكفعمي ـ : ٨ ـ ٣٣٩ .

وبعد أن عرفنا أنّ هشاماً لم يخالف الحقّ في مسألة التوحيد والتنزيه ، ولكنّه كان له رأي خاصّ في كلمة « الجسم » حيث كان يطلقها على الباريء تعالى على معنى « شيء موجود » في مقولته : « جسم لا كالأجسام » فهي عنده بمعنى « شيء لا كالأشياء » ، فخلافه منحصر في إطلاق اسم « الجسم » على الباريء من دون إرادة معناه المعروف .

وعرفنا ـ أيضاً ـ أنّ أعلام الشيعة وكافّة الفرق الإسلامية اعترفوا بعدم دلالة هذه المقولة على التجسيم المعنويّ لله تعالى .

لكن ، بما أنّ الحقّ في الأسماء أنّها توقيفية ، فلا يجوز إطلاق أي اسم على الباريء تعالى إلاّ بتوقيف ، وورود إذنٍ من الشرع بذلك ، وقد اتّفقت كلمة المسلمين ، إلاّ من شذّ ، على ذلك كما ذكرنا .

وقد تفرّد هشام من بين الطائفة بمخالفته في كلمة « الجسم » حيث اصطلح لها معنى « الشيء » فأطلقها على الباريء تعالى في مقولته .

فأصبح لذلك مورداً للنقد الشديد من قبل الأئمّة عليهم السّلام والعلماء ، وتركّز نقدهم له على هذه النقطة بالذات ، يعني مخالفته للطائفة في إطلاق الإسم على الباريء تعالى ، كما قال المفيد : كان هشام بن الحكم شيعيّاً وإن خالف الشيعة كافّة في أسماء الله تعالى[5] .

ففي حديث محمد بن الفرج الرخجي ، قال : كتبت إلى أبي الحسن عليه السّلام ، أسأله عمّا قال هشام بن الحكم في « الجسم » ؟ وهشام بن سالم في « الصورة » ؟ .

فكتب عليه السّلام : دع عنك حيرة الحيران ، واستعذ بالله من الشيطان ، ليس القول ما قال الهشامان[6] .

فالملاحظ أنّ المنسوب إلى هشام في كلام الراوي هو « القول في الجسم » لا « القول بالجسم » ـ ومعناه : أنّ له مقالة في لفظ « الجسم » وأنّه يعني به غير ما هو المفهوم المتعارف منه .

وإلاّ ، فالذي يقول بالتجسيم الإعتقادي ، فهو يقول : إنّه جسم كالأجسام ، بينما هشام يقول : إنّه لا كالأجسام .

والحاصل : أنّ الفرق واضح بين القول في الجسم ، وبين القول بالجسم ، كما أشرنا سابقاً .

ويمكن استفادة التركيز على هذه الجهة ـ أي كون خلاف هشام في مسألة اللفظ ـ من قول الإمام عليه السّلام : « ليس القول ما قال الهشامان » حيث جعل التركيز في النفي على القول ، فلاحظ .

ويدلّ على أنّ الروايات المتهجّمة على هشام ، إنّما تنظر إلى قضيّة مخالفة هشام في الأسماء واللفظ ، أنّها احتوت على المقولة ، ثم عقّب فيها الإمام عليه السّلام بما ذكره عن التجسيم ، كما في حديث الحمّاني قال : قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السّلام : إنّ هشام بن الحكم زعم : أنّ الله « جسم ، ليس كمثله شيء » عالم ، سميع ، بصير ، قادر ، متكلّم ، ناطق ، والكلام والقدرة والعلم تجري مجرى واحداً ، ليس شيء منها مخلوقاً .

(٥) أوائل المقالات : ٤٣ .

(٦) التوحيد ـ للصدوق ـ : ٩٧ ح ٢ .

فقال : قاتله الله ، أما علم أنّ الجسم محدود ، والكلام غير المتكلّم ، معاذ الله وأبرأ إلى الله من هذا القول ، لا جسمٌ ، ولا صورة ، ولا تحديدٌ ، وكلّ شيء سواه مخلوق ، وإنّما تكون الأشياء بإرادته ومشيئته من غير كلام ، ولا تردُّدٍ في نَفَس ، ولا نطق بلسانٍ[1] .

فإنّ المقولة على مصطلح هشام لا تدلّ على التجسيم المعنويّ ، كما أثبتنا مفصّلاً ، فلا يكون كلام الإمام عليه السّلام متوجّهاً إلى هذه الجهة ، بل إلى جهة المخالفة في كلامه ، وهي مشكلة إطلاقه اسم الجسم على الباريء تعالى .

وكذلك رواية يونس بن ظبيان ، قال : دخلتُ على أبي عبد الله عليه السّلام فقلت له : إنّ هشام بن الحكم يقول قولاً عظيماً ، إلاّ أنّي أختصر لك منه أحرفاً ، يزعم : أنّ الله جسمٌ ، لأنّ الأشياء شيئان : جسم وفعل الجسم ، فلا يجوز أن يكون الصانع بمعنى الفعل ، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل .

فقال أبو عبد الله عليه السّلام : ويله ، أما علم أنّ الجسم محدود متناهٍ ، والصورة محدودةٌ متناهيةٌ ، فإذا احتمل الحدّ احتمل الزيادة والنقصان ، وإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً .

قال : قلتُ : فما أقولُ ؟

قال : لا جسم ، ولا صورة ، وهو مجسّم الأجسام ، ومصوّر الصور ، لم يتجزّأ ، ولم يتناه ، ولم يتزايد ، ولم يتناقص[2] .

لو كان كما يقول ، لم يكن بين الخالق والمخلوق فرق ، ولا بين المنشيء والمنشأ ، لكن هو المنشيء ، فرق بين من جَسَّمه وصوّره وأنشأه ، إذ كان لا يشبهه شيء ، ولا يشبه شيئاً[3] .

فكلام الإمام عليه السّلام « ويلَهُ . . . إلى آخره » مذكور بعد دليل مصطلح هشام الذي هو الأساس لمقولته ، وقد عرفنا أنّ المقولة لا تدلّ إلاّ على التجسيم اللفظي والإسمي ، فمقصود الإمام عليه السّلام الإستنكار على هشام أن يستعمل كلمة الجسم ـ ولو على مصطلحه ـ اسماً للباريء تعالى ، مع أنّ المفهوم العرفي العامّ للكلمة هو المحدود المتناهي !

ورواية الصقر بن أبي دلف ، قال : سألتُ أبا الحسن [الهادي] علي بن محمد بن علي بن موسى الرضا عليهم السّلام عن التوحيد ، وقلتُ له : إنّي أقول بقول هشام بن الحكم ؟

فغضب عليه السّلام ثم قال : ما لكم ولقول هشام ! إنّه ليس منّا مَنْ زعم أنّ الله عزّ وجلّ « جسم » ونحن منه براءٌ في الدنيا والآخرة .

يابن أبي دلف : إنّ الجسم محدَث ، والله محدِثه ومجسّمه[4] .

حيث جعل المدار فيها على « قول هشام » وقد عرفنا أنّ قوله هو التجسيم الإسمي دون المعنوي .

ولعلّ ما ورد في الروايات من نسبة القول بالجسم [بنحو مطلق] إلى هشام ، من أثر عدم درك بعض الرواة لمقولة هشام بشكلها الدقيق وتصوّرهم أنّه يقول بالتجسيم المنصرف إلى الحقيقي ، وعرضهم ذلك على الأئمّة عليهم السّلام ، فكان ذلك يستدعي هجوم الأئمّة على ذلك ، وعلى المنقول عنه الذي هو هشام[5] .

وكذلك يمكن حمل الروايات المتضمّنة لاختلاف الأصحاب في الجسم والصورة ، على تنازعهم في إطلاق لفظي « الجسم » أو « الصورة » عليه تعالى لا القول بأنّه جسم أو صورة[6] .

لوضوح كون هذا القول كفراً مُخرِجاً عن الملّة ، فكيف يمكن أن يقع في الطائفة نزاع كبير في ذلك ، وهو لم ينقل عن أحد من رجال الشيعة ، كما نقل عن بعضهم القول بإطلاق اسم « الجسم » .

ثم إنّ روايةً نقلها الكشّي ، تحدّث فيها عن مخاصمة جمع من كبار الأصحاب فيما اختلفوا فيه من التوحيد وصفة الله عزّ وجلّ ، فكتب أحدهم إلى أبي الحسن موسى الكاظم عليه السّلام يحكي له مخاطبتهم وكلامهم ويسأله أن يعلّمه : ما القول الذي ينبغي أن ندين الله به من صفة الجبّار ؟

فأجابه في عرض كتابه : إنّ الله أجلُّ وأعلى وأعظم من أنْ يُبْلَغَ كنه صفته ، فصِفوه بما وصف به نفسه ، وكفّوا عمّا سوى ذلك[7] .

فالظاهر من السؤال والجواب ، هو أنّ البحث والمناظرة والخلاف الواقع بين الأصحاب إنّما كان في إطلاق الصفات على الله تعالى .

وهذا القدر من تصرّف هشام ، في لفظ « جسم » ولو بالتواضع والإصطلاح لم يكن مستساغاً من شخصية علميّة عظيمة مثل هشام ، لأنّ شخصاً مقتدراً قد تسنّم القمّة الشمّاء في علم الكلام ، والمناظرة ، وهو منسوب إلى مذهب الشيعة ، مذهب أهل البيت عليهم السّلام لا بُدّ أنْ لا يغفل عن أنّ الأعداء مترصّدون له ولأمثاله من أنصار الحقّ ، لاقتناص أيّة كلمة ، ليُقيموا الدنيا ولا يُقعدوها ، ويجعلوا من الحبّة قُبّةً ـ كما يقول المثل ـ ويُغروا بنا كلابهم ، ويُثيروا علينا غوغاءهم ، ويتّهموا كلّ الطائفة ، من أولها إلى آخرها ، حتى الأئمّة الأطهار سلام الله عليهم دعائم العدل والتوحيد .

فكان لا بُدّ لهشام أن يتأبّى من استعمال هذه الكلمة لأنّها مدعاة لاتّهامه بالتجسيم ، ومغرية للجهلة بالهجوم عليه ، وعلى الطائفة التي ينتمي إليها .

فمع أنّا عرفنا أنّ المقولة « جسم لا كالأجسام » ليست إلاّ دليلاً على التنزيه ، نافية لحدّ التعطيل وحدّ التشبيه ، وبالرغم من اعتراف كافّة الفرق الإسلامية بأنّها لا تدلّ على التجسيم الحقيقي ، وإن دلّت على التجسيم اللفظي الإسمي ، فمع كلّ هذا نجد أنّ أصحاب الفرق قد حاكوا تلك الحكايات البشعة ضدّ هشام ونسبوها إليه زوراً وبهتاناً ، واختلقوا مذهباً وهميّاً نسبوه إليه باسم « الهشاميّة » ، إلى آخر التّرهات التي يندى لها الجبين .

فلأجل مثل هذه الغفلة من هشام ، هذه الغفلة التي سبّبت للأئمّة عليهم السّلام هذه المشاكل ، وللطائفة هذه العراقيل والاتّهامات ، ممّا كانت في غنىً عنه ، لجأ الأئمّة عليهم السّلام إلى توجيه العتاب الشديد إلى هشام

(١) التوحيد ـ للصدوق ـ : ١٠٠ ح ٨ .
(٢) إلى هنا أورد المفيد في الحكايات : ١٣٢ .
(٣) التوحيد ـ للصدوق ـ : ٩٩ ح ٧ .
(٤) التوحيد ـ للصدوق ـ : ١٠٤ ح ٨ .
(٥) التوحيد ـ للصدوق ـ : ٩٨ ح ٤ و٩٩ ح ٦ .
(٦) التوحيد ـ للصدوق ـ : ١٠٠ ح ٩ و١٠١ ح ١٢ و١٣ و١٤ .
(٧) اختيار معرفة الرجال : ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ح ٥٠٠ .

ومحاسبته على ذلك حساباً عسيراً ، دفعاً للاتّهامات الواردة على الشيعة .

كما أنّ ما ذكره الأئمّة عليهم السّلام فيه توجيه للأمّة إلى الحقّ في عقيدة التوحيد ، ونفي التجسيم عن ساحة عقيدتهم ، وفي كثير منها توجيه بشكل أو آخر إلى أنّ فعل هشام إنّما كان مصطلحاً خاصّاً به ، وأنّ إطلاقه كلمة « الجسم » كان على خلاف رغبة الشارع وإذنه ، دون أن يكون له قول بالتجسيم الحقيقي .

ومهما يكن سبب تصرّف هشام هذا ، وسبب صدور هذه المقولة منه ، فإنّ تسبيبها لمشاكل على الطائفة ممّا لا يرتاب فيه ، وهي زلّة منه بلا ريب .

إلّا أنّ من الأعلام من يعتقد أنّه قد رجع حقّ عن التجسيم بالاسم .

قال الشيخ المفيد : وقد روي أنّه رجع عن القول بعد ذلك[١] .

وقال الكراجكي : وأمّا موالاتنا هشاماً فهي لما شاع منه واستفاض من تركه القول بالجسم الذي كان ينصره ، ورجوعه عنه ، وإقراره بخطئه فيه ، وتوبته منه[٢] .

وقد يؤيّد هذا بما روي عن هشام بن الحكم أنّه سأل أبا عبد الله عليه السّلام عن أسماء الله عزّ وجلّ واشتقاقها ؟

فقال له : « الله » مشتق من « إله » و « إله » يقتضي مألوهاً ، والاسم غير المسمّى ، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً ، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك وعبد الاثنين ، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك « التوحيد » .

أفهمت يا هشام .

قال : قلت : زدني .

قال : لله عزّ وجلّ تسعة وتسعونَ اسماً ، فلو كان الاسم هو المسمّى لكان كُلّ اسمٍ منها هو إلهاً ، ولكن الله عزّ وجلّ معنىً يُدَلّ عليه بهذه الأسماء وكلّها غيره .

يا هشام ، الخبزُ اسم للمأكول ، والماءُ اسم للمشروب ، والثوبُ اسم للملبوس ، والنارُ اسم للمُحْرِق .

أفهِمتَ يا هشام فَهْماً تدفع به عنّا وتناقر أعداءنا والملحدين في الله والمشركين مع الله عزّ وجلّ غيره .

قلت : نعم .

فقال : نفعك الله به ، وثبّتك ، يا هشام .

قال هشام : فو الله ما قهرني أحدٌ في التوحيد حينئذٍ حتى قمت مقامي هذا[٣] .

ولا يُظَنّ بهشام : أن يكون بعد هذا الحديث الشريف ممّن يُصرّ على القول في التجسيم بمصطلحه الخاصّ ، أي التجسيم اللفظي الإسمي .

وكذلك دعاء الإمام عليه السّلام له بالثبات ، فإنّ ذلك لا يمكن أن يكون لمن يخالف النصوص ويلتزم بالتجسيم اللفظي المخالف لمسألة توقيفية الأسماء ، كما شرحناه .

مضافاً إلى أنّ ما ورد في مدح هشام على لسان الأئمّة والعلماء حتى المعاصرين يدلّ على عظمة هشام ، وقوّته في العلم والعمل ، بما لا يصحّ معه فرض مخالفته في أمر الأسماء إلى حدّ العتاب !

فهذا المدح يكشف عن رجوعه إلى الحقّ حتى في أمر الأسماء ، ذلك الموضوع الذي أدّى إلى حزازةٍ استُنكِرتْ على هذا المفكّر العملاق ، فبرّأ بالتوبة المنقولة ساحته عن كلّ تهمة وشبهة .

وقد أفصحت نصوص مادحة له عن أكثر من ذلك :

فقد قال المفيد : هشام بن الحكم كان من أكبر أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السّلام ، وكان فقيهاً ، وروى حديثاً كثيراً ، وصحب أبا عبد الله عليه السّلام وبعده أبا الحسن موسى عليه السّلام ، وبلغ من مرتبته وعلوّه عند أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السّلام ، أنّه دخل عليه بمنى ، وهو غلام ، أول ما اختطّ عارضاه ، وفي مجلسه شيوخ الشّيعة . . . فرفعه على جماعتهم ، وليس فيهم إلّا من هو أكبر سنّاً منه ، فلمّا رأى أبو عبد الله عليه السّلام أنّ ذلك الفعل قد كبُر على أصحابه قال : هذا ناصرنا بقلبه ، ولسانه ، ويده[٤] .

وروى المفيد عن الصادق عليه السّلام أنّه قال لهشام : مثلك من يكلّم الناس[٥] .

وقال المرتضى : وممّا يدلّ على براءة هشام من هذه التهم : . . . ما روي عن الإمام الصادق في قوله عليه السّلام : هشام بن الحكم رائد حقّنا ، وسابق قولنا ، المؤيِّد لصدقنا ، والدامغ لباطل أعدائنا ، من تبعه وتبع أثره تبعنا ، ومن خالفه ، وألحد فيه فقد عادانا وألْحد فينا[٦] .

وقال ابن النديم : هشام بن الحكم . . . من جلّة أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السّلام ، وهو من متكلّمي الشيعة الإمامية ، وبطائنهم ، وممّن دعا له الصادق عليه السّلام ، فقال : أقول لك ما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لحسّان ؛ لا تزال مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك »[٧] .

وفي هذا الحديث إيماء إلى زلّة هشام في مسألة اللفظ ، التي تبرّأ منها برجوعه ويدلّ على ذلك بوضوح ما قاله زميله علي بن إسماعيل الميثمي ـ لمّا بلغه مطاردة الخليفة هارون العبّاسي لهشام ـ : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، على ما يمضي من العلم إنْ قُتِلَ ، فلقد كان عضُدَنا وشيخَنا ، والمنظورَ إليه بيننا[٨] .

ولئن استغلّ الأعداءُ بعَمْد ، وبعضُ المُغَفّلين من دون قَصْد ، ظاهر المقولة في التهجّم على هشام ، فالأمل أن نكون قد وُفّقنا في هذا البحث لأنْ نُبدي جانباً من عظمة الرجل ، وبراءته من كلّ ما اتّهموه به ، بشرحنا للمقولة ، على مصطلحه .

(١) الحكايات : ١٣١ .
(٢) كنز الفوائد ـ للكراجكي ـ : ١٩٧ .
(٣) التوحيد ـ للصدوق ـ : ٢٢٠ ح ١٣ .

(٤) الفصول المختارة : ٢٨ .
(٥) تصحيح الاعتقاد : ٢١٨ ، والشافي ـ للمرتضى ـ : ١٢ .
(٦) الشافي ـ للمرتضى ـ : ١٢ ، ومعالم العلماء : ١٢٨ رقم ٨٦٢ .
(٧) الفهرست ـ للنديم ـ ـ التكملة ـ : ٢٢٤ ، وانظر : الشافي ـ للمرتضى ـ : ١٢ .
(٨) اختيار معرفة الرجال : ٢٦٣ رقم ٤٧٧ .

الحاج وداي العطية .

ولـد في الشامية سنة ١٣١٠ (١٨٩٢ م) . وتـوفي سنة ١٩٨٣ م عن ٩٢ سنة .

قال الدكتور حسين علي محفوظ :

سكن كـربلاء في مـطلع العقد السـابع من القـرن الماضي ، منـذ سنـة ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) ونسبـه هكـذا : « الحـاج وداي عـطيـة آل غضبـان آل مشيمش » ، وكلمة (آل) ولفظ (آل) و « ابن » بمعنى واحد عند عشائر الفرات والجنوب في العراق .

هـو من رؤساء الحميـدات في قضاء الشـامية . ومن أهم عشـائر هـذه البلدة الأخرى : بنو حسن ، وآل عـلي ، وآل بديـر ، وآل فتلة ، والكرد ، والعـوابـد ، وآل شبـل ، والخـزاعـل ، وآل زيـاد ، وكعب ، جبشـة ، وآل عياش ، وبنو سـلامة ، وخفـاجة . إضـافة إلى السـادات وهم (٢٩) بطنـاً وعشيرة .

سكنت الحميدات أرض الرغيلة وما يجاورها في الشامية منذ زمن غـير قريب . وهم من بني مالك القبيلة العربية المعروفة في تاريخ العراق والمتفق المعرقة في الأصالة والنسب والمشيخة . وقد ذكر (بني مالـك) النسابـة السيد مهدي القزويني المتوفى سنة ١٣٠٠ هـ في كتابه (أنساب القبائل العراقية) .

وقد ذكر (بني مالك) أيضـاً المؤرخ الباحث عبـاس العزاوي في الجـزء الـرابع من (عشـائر العـراق) كما خصص فصـلاً للحميـدات أشـار فيـه إلى مشيمش من بيوتات الرئاسة ، والأخوة الأربعـة الرؤسـاء من هذا البيت وهم الحـاج ودّاي وأخـوانـه الحـاج رايـح ، والحـاج سـوادي ، وأبـا ذر ، وعبد الكاظم .

كان الحاج وداي نسابة راوياً واعياً محيطاً بالأخبـار والروايـات والنقول والنصوص والقصص والأنساب والسـلاسل والطبقات والوفيات .

روى جانباً من الأخبار والحوادث والمعلومات عن العديـد من المعمرين والمطلعين والمتتبعين أحصى منهم في آخر تاريخ الديوانية (٩٥) رجلاً . ذكـر اسماءهم وأنسابهم وأمكنتهم وأعمارهم وحدد تواريخ وفياتهم . وهو فصـل في غاية الأهمية ونهاية الإمتاع .

ألّف عدداً من الكتب عرفت منها تاريخ (الحوادث والـوقائـع المهمة في الفـرات) و (عشائـر الفرات) و (مشجـرات العلويين ورؤسـاء العشائـر في الفـرات) و (العشائـر ورؤسـاء العشـائـر في الفـرات) و (العشـائـر والأسر العلوية في الفرات) وكتاب (وفيات الرؤساء والزعماء) ومجمـوعات مشجـرة في الأنسـاب في مجلدات ودفاتـر كثيرة ضخمـة ، وقد طبـع من مؤلفاتـه كتاب (تاريخ الديوانية قديماً وحديثاً) سنة ١٩٤٥ في ٣٩٦ صفحة . وكراسة (على هامش العراق بين احتلالين) في نقد الجزء الخامس من كتاب (تاريخ العراق بين احتلالين) .

اهتم بالفرات ، والفرات يمثل جانباً مهماً جداً من تاريخ الأمـة وتاريـخ العراق وحضارة العراق . وقد فاز سكانه بمعانقة البادية والجزيرة والصحراء . وهو صلة العراق بجزيرة العرب أم العراق . وقـد قامت عـلى ضفتيه عشرات المدن والقرى المباركة والبلدان يعود تاريخ بعضها إلى تاريخ العـراق القديم . ويعود بعضها إلى بدايات الفتح وأيام الدول العربية والإسلامية .

تعتبر مؤلفات المترجم له في تاريخ الفـرات مخازن عـامرة بـالمعلومات ، وأرشيفاً حافلاً بصور الوثائق والأسانيد والتواريخ ، وبحـوراً تطمـو بالأخبـار وتـزدحم بالحـوادث والمعارف والنقـول يحتاج البـاحث والمتتبـع إلى كـل فقـرة فيها .

والحق أن كتـاب (تاريـخ الديـوانية) يعـد نموذجـاً كـامـلاً للتـواريـخ المحلية . وقد مـلأه المؤلف بسيل من المعلومـات لو أن جمـاعة من البـاحثين فرغوا لها ما استطاعوا جمع بعضها في عشرات السنين .

استوعب الكتاب تاريخ البلد فحقق لفظ (الحسكة) أولاً . وهي اسم الموضع الذي تقوم عليه (الديـوانية) الحـالية . وبـيّن أخبار الحسكـة هذه في المصادر والمراجع وأن الكتب وصفت الحسكة بأنها من أحسن ضياع العراق في سنة ١١١٧ هـ ـ ١٧٠٥ م . وتابع تاريخها اعتباراً من أول القـرن الثاني عشر . وإليها ينسب (الشعر العامي) المعروف الذي يسمى (الحسكة) .

يعود تاريخ الديوانية في هذا الكتاب إلى زمن حمـد آل حمود المتـوفى سنة ١١٩٢ هـ . ويرجع تاريخ رئاسته إلى حوالي سنة ١١٦٠ هـ . و (الديوانية) في كلام الأعراب هي المضيف المبني بالآجر والطين . والمضيف عندهم لا بـد أن يتخذ من القصب والحصر .

وقـد بين أن الإشـارات إلى الديـوانية في الكتب والـرحـلات من سنـة ١١٦٨ هـ ـ ١٧٥٤ م . وكان اسمها الأول (ديوانية خـزاعة) ثم جـردت عن الإضافة واكتفي بلفظ الديوانية .

وفصل تاريخ الديـوانية في أيـام الدولـة العثمانيـة . وفي زمن الاحتلال البريطاني ، وفي العهد الوطني .

ولم أر كتاباً يقارب هذا الكتـاب في كثرة المعلومـات والوثـائق والأنساب والأخبـار . ويمثل فصـل الأسر والبيوت نهايـة الدقـة والإحاطـة والأستقصـاء والتتبع الشامل العميق .

وأثبت المؤلف المصـادر في قـائمـة مفصلة تحتـوي عـلى عشرات الكتب المخطوطة والمطبوعـة والوثـائق والمجاميع والمجلات والسـالنامـات والدواوين والجرائد القديمة والألواح والسجلات أثبتها في (٨٣٥) فقرة فضلاً عن أسماء الأشخاص الذين سألهم وأخذ عنهم أطرافاً من معلومات الكتاب .

تـرك خـزانـة عـامـرة بنخبـة من الكتب النـادرة والمؤلفـات والمعتـبرة ، والمصادر القيمة ، وعدداً من المؤلفات النفيسة تحتوي على أصول مهمة جديرة بـالإعتماد ، ووثـائق فريـدة قمينة بـالتوثيق . وقـد تحدث المـترجم عن نفسـه قائلاً :

نشأت في كنف والدي بيت رياسة معروف لقبيلة مشهورة بالفرات وقد أرسلني والـدي الشيـخ عـطيـة إلى الكتـاتيب لتعلم القـراءة والكتـابـة ، ثم تتلمذت على الشيـخ علي أصغـر الشيرازي فـأخذت عـلى يده العلوم الـدينية والعربية وزاد أقبـالي على المعـرفة فكنت أكـثر التردد عـلى النجف وأختلف إلى أعلامها وعلمائهـا وكنت منذ صغـري أتتبع حـوادث القبائـل وأسأل عن آثـار الأوائل وذلك عن فطرة طبيعية لا يسوقني إليها إلا حبّ الأطلاع .

أبو محمد يحيى بن أبي الحسين محمود (الذي ادعى الخلافة في نيسابـور وبويع له المتوفى سنة ٣٣٩) ابن أبي جعفر أحمد الملقب بزبارة (لأنه كـان إذا غضب يقال : زبر الأسـد) ابن محمد الأكـبر بن عبد الله المفقـود ابن الحسن

المكفوف ابن الحسن الأفطس ابن علي الأصغر ابن الإمام زين العابدين بن علي بن أبي طالب عليهم السّلام ، البيهقي النيسابوري .

المعروف بشيخ العترة ، نقيب النقباء بنيسابور ومتكلم الشيعة وفقيههم في عصره ومن مشاهيرهم في القرن الرابع الهجري .

أمه طاهرة بنت الأمير علي ابن الأمير طاهر بن الحسين ، كما جاء في (عمدة الطالب ص ٣٤٧ .

توفي سنة ٣٧٦ .

أخذ العلم والحديث على جماعة من أعلام أسرته بني زبارة المعروفين بالفضل والفقاهة والرئاسة في نيشابور وبيهق وأفاضل علماء عصره في تلك النواحي حتى نبغ في جميع أبواب العلم وانتهى إليه كرسي التدريس ورياسة المذهب في خراسان . قال شيخ الطائفة أبي جعفر محمد الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ في الفهرست : (يحيى العلوي يكنى أبا محمد من بني زبارة من أهل نيشابور جليل القدر عظيم الرياسة متكلم حاذق زاهد ورع له كتب كثيرة في الإمامة وغيرها . . . لقيت جماعة ممن لقوه وقرأوا عليه)[١] . وقال النجاشي بعدما سرد نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السّلام : (. . . أبو محمد كان فقيهاً عالماً متكلماً سكن نيشابور وصنف كتباً . . .) ثم ذكر مؤلفاته[٢] .

وقال النسابة السيد عزيز الدين أبي طالب إسماعيل المروزي المتوفى سنة ٦١٤ هجرية في كتابه الفخري : (. . . يحيى الفقيه المتكلم الكاتب العالم المحدث الأديب الدين الرئيس . وظفر أبو المنصور الأعرج العالم الفاضل العابد الذكي الجواد الفارس ، وعقبه قوم كثير بنيسابور علماء وفضلاء وشعراء . . . ثم ذكر أمهما وقال طاهرة بنت محمد بن الحسين بن طاهر بن عبد الله بن طاهر ذي اليمينين بن طلحة بن الطيب بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق مولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهم السّلام .

وأمها أسماء بنت عبد الله بن محمد بن الطيب بن طلحة بن الطيب بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق)[٣] وجاء بعض الإختلاف في ذكر أسماء أباء أمه عما ذكره ابن عنبة . وما ذكره صاحب كتاب الفخري أدق .

وذكره ابن الفندق المتوفى سنة ٥٦٥ في كتابه تاريخ بيهق[٤] وأثنى عليه ثناء كثيراً وذكر ابن عنبة المتوفى سنة ٨٢٨ وذكر أولاده فقال : (. . . أبو محمد يحيى نقيب النقباء بنيشابور وكان يلقب شيخ العترة . . . أمه طاهرة بنت الأمير علي بن الأمير طاهر بن الأمير عبيد الله بن طاهر بن الحسين . . . ثم ذكره أولاده قائلاً : واعقب أبو محمد يحيى بن أبي الحسين محمد النقيب من أبي الحسين محمد وحده ومنه في أربعة رجال وهم الأجل العالم أبو القاسم علي ، وأبو الفضل أحمد ، والحسين جوهرك وأبو علي محمد وأمهم أجمع عائشة بنت أبي الفضل البديع الهمداني الشاعر ولكل منهم جلالة ورياسة)[٥] .

وقال الإمام فخر الرازي في الشجرة المباركة : (أما محمد أبو الحسن الأديب ابن أحمد زبارة فعقبه من ثلاثة يحيى الفقيه المتكلم المحدث الرئيس بجرجان . وظفر أبو منصور الأعرج العابد الذكي الجواد والحسين أبو عبد الله قيل انقرض عقبه .

أما يحيى المتكلم فعقبه من رجل واحد : محمد أبو الحسين النقيب بنيسابور وكان عالماً أديباً سخياً)[٦] .

قال تقي الدين الحسن الحلي المعروف بابن داود في رجاله (يحيى أبو محمد العلوي من بني زبارة من أهل نيسابور ثقة جليل القدر عظيم الرئاسة متكلم حاذق زاهد ورع له كتب كثيرة في الإمامة وغيرها)[٧] .

وقال الأردبيلي الحائري في جامع الرواة : (يحيى بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السّلام أبو محمد كان فقيهاً عالماً متكلماً يسكن نيشابور إلا أن فيما حضرني من نسخة يحيى بن أحمد بن محمد ولم يكرر بن علي لكن ما أثبتنا هو الموافق لما في عمدة الطالب)[٨] قال شيخنا في طبقات أعلام الشيعة : (يحيى العلوي أبو محمد من بني زبارة كما في الفهرست وجاء بقية نسبه في النجاشي والخلاصة وإن اختلفا في ذكر بعض الأجداد دون بعض وهو متكلم فقيه من أهل نيسابور له كتب كثيرة . . . وفي نسخ النجاشي الموجودة يحيى بن أحمد بن محمد ولكن في الخلاصة ورجال ابن داود جاء يحيى بن محمد بن أحمد بن محمد فيظهر أنهما أخذاه من النسخ القديمة الصحيحة من النجاشي ووقع اسقاط أبيه محمد من النسخ المتأخرة ولذا لم يذكر اخلافاً من النجاشي ويكنى أبوه بأبي الحسين كما في العمدة وبأبي علي كما في أسانيد الصدوق . . .)[٩] وقال العلامة الحلي المتوفى سنة ٧٢٦ : (يحيى العلوي المكنى أبا محمد من بني زبارة من أهل نيشابور جليل القدر عظيم الرياسة متكلم حاذق زاهد ورع له كتب كثيرة في الإمامة وغيرها)[١٠] ومر شقيقه السيد أبو منصور ظفر العالم المحدث في نيشابور .

يقول عبد الحسين الصالحي : لقد أكدت لنا جميع المصادر أن له مؤلفات كثيرة أشهرها كتاب مسح الرجلين كبير ، كتاب أبطال القياس ، كتاب التوحيد وسائر أبوابه ، كتاب الأصول ، كتاب الإمامة كتاب الفرايض ، كتاب الإيضاح في المسح على الخفين .

السيد عماد الدين يحيى بن السيد ركن الدين أبي منصور هبة الله بن أبي الحسن علي بن أبي جعفر محمد الحسيني الزباري البيهقي من أحفاد أبي جعفر أحمد بن محمد الزبارة بن عبد الله المفقود ابن الحسن المكفوف ابن الحسن الأفطس ابن علي الأصغر ابن الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السّلام .

(١) أبي جعفر محمد الطوسي : الفهرست ص ٢٠٩ تحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم الطبعة الثانية نجف ١٣٨٠ هجرية .

(٢) أبو العباس النجاشي : رجال النجاشي ص ٣٠٩ بمبى الطبعة الحجرية الأولى سنة ١٣١٧ هجرية .

(٣) السيد عزيز الدين إسماعيل : الفخري في أنساب الطالبيين تحقيق السيد مهدي الرجائي ص ٨٠ ـ ٨١ قم منشورات مكتبة المرعشية .

(٤) أبو الحسن علي البيهقي المعروف بابن الفندق : تاريخ بيهق ص ٥٤ ـ ٥٥ طهران الطبعة الأولى موسى دانش .

(٥) ابن عنبة : عمدة الطالب ص ٣٤٧ الطبعة نجفية منشورات الحيدرية .

(٦) الإمام فخر الرازي : الشجرة المباركة في أنساب الطالبية تحقيق السيد مهدي الرجائي ص ١٧٣ قم منشورات المرعشية .

(٧) تقي الدين الحسن الحلي المعروف بابن داود : رجال ابن داود ص ٣٧٦ تحقيق سيد جلال الدين الحسيني طهران الطبعة الأولى .

(٨) الشيخ محمد علي الأردبيلي الحائري : جامع الرواة ج ٢ ص ٣٣٩ الطبعة الأولى .

(٩) الشيخ آغا بزرگه الطهراني : نوابغ الرواة في رابعة المئات ص ٣٣٢ الطبعة الأولى بيروت ١٣٩٠ هجرية ـ ١٩٧١ م .

(١٠) الحسن بن يوسف حلي المعروف بالعلامة الحلي : رجال العلامة الحلي ص ١٨١ الطبعة النجفية ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م .

ولد ليلة الثلاثاء السادس من رجب سنة ٤٧٧ وتوفي يوم الاثنين ١٢ ذي القعدة سنة ٥٣٢ .

من أعلام عصره أديب شاعر مشارك في أنواع العلوم فقيه متبحر رئيس أخذ العلم وفنون الأدب على رجال أسرته آل الزبارة المعروفة بالفضل والعلم والرياسة في بيهق . ذكره ابن الفندق المتوفى سنة ٥٦٥ في كتابه تاريخ بيهق الذي ألفه سنة ٥٦٣ وقال ينظم باللغتين العربية والفارسية ولم يذكر شيئاً من شعره وأثنى عليه بما تعريبه : (... الزاهد الورع وله ثروة علمية كثيرة وأشعار بالعربية والفارسية وكانت أمه بنت الشيخ الرئيس الزكي علي بن أبي نعيم أحمد بن محمد ...)[١] وتخلف بابنه جلال الدين محمد المولود في شوال سنة ٤٦٩ ويستفاد من كلام ابن الفندق أن للمترجم له ديوان شعر بالعربية وديوان شعر بالفارسية ومر ذكر أخيه السيد عزيز العالم الفاضل الأديب الشاعر[٢] .

الشيخ أبو الفرج يعقوب بن إبراهيم البيهقي .

كان حياً في ذي القعدة سنة ٤٠٣ .

من أكابر علماء الشيعة فقيه متبحر أديب متضلع أخذ العلم وفنون الأدب من السيد علم الهدى الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٠٦ وأجازه السيد المرتضى إجازة مؤرخة في ذي القعدة سنة ٤٠٣ هجرية أن ينقل عنه كيف شاء وهذه الشهادة دليل على تبحره في الأدب والنحو والعلوم العربية وأشار إلى الإجازة شيخنا الذريعة ضمن الإجازات للسيد علم الهدى الشريف المرتضى فقال : (إجازته للفقيه أبي الفرج يعقوب بن إبراهيم البيهقي بخطه في سنة ٤٠٣ في أول الجزء الثاني من ديوان المرتضى نسخته العتيقة عند داعي الإسلام السيد محمد علي في حيدر آباد الدكن كما في تذكرة النوادر)[٣] ونقل صورة الإجازة في الجزء التاسع من الذريعة عند ذكر ديوان علم الهدى الشريف المرتضى[٤] ثم ترجم للمترجم له في كتابه طبقات أعلام الشيعة فقال (يعقوب بن إبراهيم أبو الفرج البيهقي المجاز من السيد المرتضى علم الهدى كما وجد بخطّه على الجزء الأول من ديوانه بهذه الصورة : [قرأ عليّ الفقيه أبو الفرج يعقوب بن إبراهيم البيهقي أدام الله توفيقه قطعة كبيرة من ديوان شعري واجزته لرواية جميعه عنّي فليروه كيف شاء . وكتب علي بن الحسين بن موسى الموسوي بخطّه في ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة][٥] ولم أقف على تاريخ ولادته ووفاته كما لم أجد له ترجمة في كتب التراجم ولم يذكره المؤرخون الذين كتبوا عن تاريخ بيهق[٦] .

تنبيه إلى خطأ في المجلد الثالث

١ - أبو الحسن كوشيار بن لبان جاء اسمه في آخر الصفحة السابعة ثم جاءت ترجمة السيد إبراهيم بن محسن في أول الصفحة الثامنة . ثم في أول الصفحة التاسعة اكملت ترجمة أبو الحسن كوشيار . فما جاء في آخر الصفحة السابعة يجب وضعه في أول الصفحة التاسعة .

٢ - في الصفحة السادسة ورد اسم آمنة بنت فتح علي خان . والصحيح أن الإسم هو : آسية .

(١) أبو الحسن علي بن زيد البيهقي المعروف بابن الفندق : تاريخ بيهق تحقيق أحمد بهمنيار ص ٥٧ طهران الطبعة الأولى منشورات موسى دانش .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٣) الشيخ آغا بزرك الطهراني : الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج ١ ص ٢١٦ بيروت دار الأضواء .

(٤) نفس المصدر : ج ٩ القسم الثالث ص ٧٣٥ .

(٥) الشيخ آغا بزرك الطهراني : النابس في القرن الخامس ص ٢٠٧ .

(٦) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

ملحق بالمستدركات

صلاح الدين الأيوبي

قلت فيما ذكرته في ملحق المجلد الثاني من (المستدركات) أن صلاح الدين الأيوبي أنهى الحرب مع الصليبيين بعد معركة حطين واعترف بوجودهم فيما في أيديهم من بلاد ، وزاد على ذلك بأن أعاد إليهم حيفا ويافا وقيسارية ونصف الرملة وغير ذلك حتى لقد صار لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكا إلى صور ، بل صارت لهم فلسطين إلا أقل القليل ولم يكن لهم ذلك من قبل . يقول ابن شداد في كتابه (الاعلاق الخطيرة) وهو يتحدث عن حيفا (ص ١٧٧ ـ ١٧٨) : « لم تزل في أيدي الفرنج إلى أن فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثلاثة وثمانين ، فلم تزل في يده إلى أن نزل عنها للفرنج فيما نزل عنه لهم في المهادنة التي وقعت بينه وبينهم ، وذلك سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، ثم لم تزل في أيديهم » .

وهكذا قال عن بقية المدن التي أعادها صلاح الدين إلى الصليبيين مما مر ذكر بعضه في ملحق المجلد الثاني ولا نعيده هنا .

لماذا فعل صلاح الدين ذلك ؟ لماذا أعاد إلى الصليبيين ما استرده منهم بعد معركة حطين ؟! . .

ذلك أن الخليفة العباسي الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢) كان قد تخلص من السلاجقة واستقل بحكم الخلافة ، واصبح يسيطر على مملكة واسعة لها قوتها وبأسها ، ولها جيشها الضخم المتحفز للقتال ، والذي انتصر على جميع المتمردين في الداخل وقمع ثوراتهم حتى لقد وصفه الشاعر ابن البنية بشعر يقول فيه :

ملك إذا التطمت صفوف جيوشه	أيقنت أن البر بحر مزبد
انفت صوارمه الجفون فاصبحت	بالنصر في قمم الخوارج تغمد

والواقع أنه قد بدأ ببنيان هذا الجيش منذ عهد الخليفة المسترشد بالله (٥١٢ ـ ٥٢٩) حتى لقد بلغ تعداد المقيم منه في بغداد في عهد الناصر (١٥٠) ألفاً ، وقد خاض ذلك الجيش معارك كثيرة في خلال (٤٧) سنة هي مدة خلافة الناصر اسقط فيها دولاً وأنشأ دولاً أخرى ، واحتل أقطاراً ومدناً وأغاث إمارات وممالك وولايات .

لم تنه معركة حطين الوجود الصليبي في البلاد ، ولا كانت المعركة الفاصلة يومذاك ، بل ظل للصليبيين وجودهم القوي .

وهنا رأى الخليفة الناصر أن ينجد صلاح الدين بما لديه من قوى كبيرة كانت كافية للقضاء نهائياً على الصليبيين ، وقطع دابرهم فارسل إلى صلاح الدين يخبره باستعداد جيش بغداد للزحف إلى فلسطين ومعاونته على استئصال شأفة الصليبيين والقضاء النهائي على وجودهم .

وهنا ارتكب صلاح الدين نفس ما ارتكبه حين طلب إليه نور الدين أن يزحف بالجيش من مصر ، ويزحف نور الدين بالجيش من الشام فيحصر الصليبيين بين الجيشين ، فرفض صلاح الدين ذلك لأنه في حالة النصر على الصليبيين وزوالهم يصبح صلاح الدين تابعاً فعلياً لنور الدين وعاملاً من عماله . أما في حالة وجود الصليبيين فهو مستقل بحكم مصر ، وليس لنور الدين عليه سلطة فعلية ، مما فصلناه فيما تقدم في ملحق المجلد الثاني من (المستدركات) وذكرناه كذلك في ترجمة طلائع بن رزيك في المجلد الأول ، فلا نعيد تفصيله هنا .

لقد رفض صلاح الدين طلب الخليفة الناصر انجاده بالجيس العراقي القوي لأن انتصار هذا الجيش على الصليبيين والقضاء عليهم سيقوي نفوذ الخلافة في فلسطين وبلاد الشام كلها ، ويصبح صلاح الدين مجرد وال تابع للخليفة في بغداد ، لذلك أسرع لأنهاء حالة الحرب مع الصليبيين وسلّم بوجودهم وخضع لشروطهم بإعادة فلسطين كلها إليهم ـ ما عدا القدس ـ فعل كل ذلك ليتجرد لمقاتلة الجيش العراقي إذا أصر الناصر على إرسال هذا الجيش لقتال الصليبيين .

وقصة طلب الناصر إرسال جيشه لقتال الصليبيين ورفض صلاح الدين لذلك ذكرها فيمن ذكرها من المؤرخين : مؤرخ هو أقرب الناس لصلاح الدين ، حتى لقد كان بمثابة (سكرتير) شخصي له ، هو عماد الدين الأصفهاني صاحب كتاب (الفتح القسي في الفتح القدسي) ، ذكر ذلك في الصفحة ١٧٦ من طبعة مطبعة الإتحاد بالقاهرة .

وقد تعلل صلاح الدين في رفضه بأن قواد جيشه غير موافقين على ذلك لأنهم ملّوا الحرب .

ولكن صلاح الدين الذي زعم أن قواده قد ملّوا الحرب ، كان يعد لحرب جديدة ولكن لغير قتال الصليبيين ، ولغير تخليص البلاد منهم .

لقد أعاد فلسطين إلى الصليبيين ورفض انجاد الجيش العراقي له لانقاذ

البلاد من الإحتلال الصليبي ، وراح يفتش عن مكان آخر يقاتل فيه ، لأن انقاذ الوطن الإسلامي من الصليبيين يحد من نفوذه ويقلل من هيمنته ، أما القتال في مناطق أخرى فإنه يزيد من نفوذه ويكثر من هيمنته ، فإذا ضمن ذلك فليبق الصليبيون في بلاد الشام .

ولو أن المناطق الأخرى التي عزم على القتال فيها هي مناطق أجنبية ، يريد ادخالها ضمن المناطق الإسلامية لهان الأمر . ولكن صلاح الدين الذي سالم الصليبيين وأنهى الحرب معهم واعترف بوجودهم ، ثم زاد على ذلك فأعاد لهم ما كان قد أخذه منهم .

صلاح الدين هذا عاد يخطط لغزو البلاد الإسلامية وسفك دماء المسلمين تحقيقاً لمطامعه الشخصية .

ترك الصليبيين في أمان ، واتجه لترويع المسلمين الآمنين ، ولكن الله الرحمن الرحيم أنقذهم منه ، ونجاهم من السيوف التي أعدها لذبحهم توسيعاً لملكه ، ومداً لسلطانه .

قال ابن الأثير وهو يتحدث عن وفاة صلاح الدين :

« كان قبل مرضه قد أحضر ولده الأفضل علياً وأخاه الملك العادل أبا بكر واستشارهما فيما يفعل ، وقال قد تفرغنا من الفرنج وليس لنا في هذه البلاد شاغل ، فأي جهة نقصد ، فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط لأنه كان قد وعده إذا أخذها أن يسلمها إليه . وأشار ولده الأفضل بقصد بلد الروم التي بيد أولاد قلج ارسلان وقال هي أكثر بلاداً وعسكراً ومالاً وأسرع مأخذاً وهي أيضاً طريق الفرنج إذا خرجوا على البر فإذا ملكناها منعناهم من العبور فيها . فقال : كلاكما مقصر ناقص الهمة ، بل أقصد أنا بلد الروم ، وقال لأخيه تأخذ أنت بعض أولادي وبعض العسكر وتقصد خلاط فإذا فرغت أنا من بلد الروم جئت إليكم وندخل منها آذربيجان ونتصل ببلاد العجم فما فيها من يمنع عنها ، ثم أذن لأخيه العادل في المضي إلى الكرك وكان له وقال له فجهز واحضر لنسير . فلما سار إلى الكرك مرض صلاح الدين وتوفي قبل عوده » اهـ .

يقول صلاح الدين : لقد تفرغنا من الفرنج . وليته كان قد تفرغ منهم باستئصالهم مستعيناً عليهم بالجيش العراقي ، ولكن تفرغ منهم بمصالحتهم وترك البلاد لهم ، وإعادة ما أخذه منها إليهم .

لقد تفرغ منهم بذلك وراح يحاول الإنشغال عنهم بالمسلمين ، ولكن عزرائيل كان قد تفرغ له ، فحال بينه وبين الإيغال في الآثام .

الذكريات

يرى القارىء بعد تمام هذا المجلد صفحة من حياة المؤلف ، لا هي بالسيرة الذاتية ولا هي بالمذكرات ، وإنما هي انطباعات عن بعض ما مر به في هذه الحياة . ففضل أن يطلق عليها اسم (الذكريات) .

وقد كان في النية أن تتضمن ما يشمل الأيام كلها حتى كتابة هذه السطور ، ثم تطبع مع آخر مجلد من (المستدركات) . ولما تبين أن نهاية (المستدركات) غير معلومة الأمد ، وأنها حتى الآن مستمرة ، لذلك بادرت إلى إيداع قسم منها مع هذا المجلد ، وتركت الباقي - وبعضه لم يدون بعد - إلى الآتي من (المستدركات) .

وقد كان التعجيل في نشر ما ينشر هنا هو أن العمر ماش إلى الغروب ، ولا يعلم إلا الله ساعة هذا الغروب الدانية ، فحفظاً لهذه (الذكريات) من الضياع بادرت إلى تسجيل ما هو مسجل في آخر هذا المجلد ، وهو ما سيراه القارىء في الصفحات التالية . ولعل الله يسمح بتدوين الباقي في نهاية مجلدات المستدركات .

حسن الأمين

الذكـريـات فـي حياة حسـن الأميـن

ولدت سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) في دمشق وانتقلت مع الأسرة سنة ١٩١٤ بعد إعلان الحرب العالمية الأولى إلى بلدة شقرا (جبل عامل) حيث ترعرعت وتكامل صباي .

لا أعي من أواخر الحرب العالمية الأولى إلا أشباحاً غير مترابطة لا أستطيع أن أؤلف منها حدثاً متكاملاً . فأنا مثلاً أذكر انتقالنا من دمشق إلى جبل عامل . ولكنني لا أذكر تفاصيل هذا الانتقال ، ولا ما جرى لنا في الطريق ولا كيف وصلنا إلى شقرا في جبل عامل ثم أنا أعي أن أخي الأكبر كان في سن الجندية وأنه سعي له ليكون معلماً في شقرا وبذلك يعفى من الجندية ، كما أذكر أن رجلاً استؤجر ليتولى مكانه أكثر الأوقات إذ كان يضيق ذرعاً بتعليم الأطفال ، وأذكر أننا تلقينا شيئاً من التعليم عند هذا المعلم المستأجر وأننا كنا نجلس أمام المعلم على الحصير المؤلف من البردي المعروف في جبل عامل بالبابير .

كما أذكر نزوحنا أنا وأخ وأخت لي من شقرا إلى مقام صدِّيق « بتشديد الدال » هرباً من وباء الكوليرا ، ولكن لا أذكر مقامنا هناك ولا عودنا .

على أن الصورة تأخذ في ذهني بالوضوح شيئاً فشيئاً ابتداء من نهاية الحرب . فإنه يصح لي أن أقول ، أن أحداثي لا يمكن أن تسجل إلا ابتداء من سنة ١٩٢٠ لتذكري للكثير من تفاصيل تلك الأحداث مما يمكن تسجيله والحديث عنه .

فمما لا أنساه أبداً تلك الطلقات النارية المتتابعة التي أخذت تنبعث من أحد بيوت بني عمنا ونحن في شقرا نهاراً بصورة مثيرة بدون انقطاع ، فمضينا إلى مصدر الرصاص المنطلق فوجدنا قريبنا يطلق النار من بندقيته مبتهجاً مسروراً ، مما جمع الناس عليه ، ففهمنا أن حدثاً ضخماً قد وقع في دمشق ، كان من صداه هذه الطلقات ، وأن هذا الحدث هو شيء عظيم للبلاد . ولم أكن أدرك في تلك السن حقيقة الاستقلال وحقيقة الحركات الوطنية ، ولكنني كنت مدركاً أن الفرنسيين يحتلون البلاد وأن هذا شيء منكر .

وكان الحدث الضخم هو إعلان الاستقلال السوري في الثامن من آذار سنة ١٩٢٠ وتتويج الأمير فيصل ملكاً على المملكة العربية السورية !

في مدرسة القرية

بنهاية الحرب العامة الأولى تتضح الصور في ذهني وتتكامل خطوطها جلية بارزة ، ولعل مما يسجل من تلك الصور هو مشاهد من الحياة الدراسية القروية ، فقد أقبل في أوائل الاحتلال معلم حكومي على شقرا ، فكان أول معلم يعين لمدرستها بعد انتهاء الحرب ، وكنا ـ على ما أذكر ـ جلوساً فيما يسمى في شقرا بساحة المدارس مع بعض كبار بني عمنا وصغارهم ، إذ أقبل رجل غريب معمم بعمامة بيضاء ومرتد بزة خاكية اللون مفصلة على الطراز الذي اعتاده المعممون في لبس الحلل المدنية تحت عمائمهم ، وهي ذات معطف طويل وبنطال ككل البناطل المعروفة وصدرية ككل الصداري ولكنها بدون رباط عنق .

أقبل هذا الرجل الغريب على الحلقة فكان طبيعياً أن يقف أهلها لرد تحيته على الطريقة العاملية ، متساءلين في أنفسهم عمن يكون هذا الطارق . ولم يلبث أن أعلن عن نفسه بأنه المعلم المعين لمدرسة شقرا ، وأن اسمه محمد علي الحوماني .

دخلنا مدرسة الحوماني ، وكان هذا الرجل أبعد ما يكون عن العمل الجدي منصرفاً إلى ما جبل عليه من النميمة والدس والفتنة بين الناس وإثارة الضغائن والأحقاد ، لذلك قلَّت الفائدة منه لمن يريد الفائدة ، ومع أن كونه شاعراً وعلى إطلاع حسن على اللغة العربية كان يمكن أن يؤثر في تلاميذه ويثير مواهبهم ويصقل معارفهم فإن الفائدة منه كانت ضئيلة ولم يخلف في أي واحد من تلاميذه أثراً محسوساً .

لا أظننا أكملنا السنة في مدرسة الحوماني التي خرجنا منها بدون طائل سوى تحسين الخط بعض التحسين . وكان سبب ترك المدرسة أننا انتقلنا إلى دمشق وذلك أن الفرنسيين قرروا أن يسوقوا حملة لإخضاع الجبل وتتابعت أنباء استعداداتها وكان الوالد في دمشق ، فقرر الأخ الأكبر انتقالنا جميعاً إلى دمشق حيث أن ذلك ادعى إلى الطمأنينة .

إلى القنيطرة فدمشق

كان السفر إلى دمشق على الدواب فقد مضينا على ظهورها من شقرا مجتازين وادي السلوقي في عرضه وصاعدين في وادي الاصطبل مروراً بالقرب من قرية حولا فهونين ، ثم هبوطاً إلى الحولة فوصولاً منها إلى بانياس ، ولا أذكر إذا كنا قد بتنا في بانياس أم لا ، وأحسب أنه لم يكن ممكناً قطع الطريق في مرحلة واحدة فلا بد أن نكون بتنا في أحد المنازل ، وذلك لا يكون إلا في

بانياس . ومن بانياس وصلنا إلى القنيطرة .

وكانت القنيطرة في ذلك الوقت في حركة جياشة تغص بالجند والناس ، إذ أنها كانت آخر مدينة على الحدود بين المنطقة العربية المستقلة والمنطقة المحتلة من الفرنسيين في الساحل والمنطقة المحتلة من الانكليز في فلسطين . فكانت لذلك منطلقاً لكثير من التحركات .

وبتنا في القنيطرة في أحد الخانات التي كانت وحدها منازل للمسافرين ومن القنيطرة واصلنا السفر إلى دمشق لا على الدواب هذه المرة ، بل تركنا الدواب في القنيطرة وعاد بها مرافقونا إلى شقرا ، وأخذنا نحن إحدى العربات الكبيرة المستطيلة المتعددة المقاعد ، والمجرورة بالخيل ، والتي كانت هي الوسيلة الوحيدة للمواصلات السريعة إذ لم تكن السيارات قد انتشرت بعد .

وبعد هذا التاريخ بسنة أو سنتين كانت هذه المركبات لا تزال في هذا الطريق ، وإن تكن السيارات قد بدأت تشق سبلها فيه ولكن بقلة وندرة . ذلك أننا عدنا من دمشق إلى القنيطرة مع الوالد وأخي الأصغر وتلميذ الوالد الشيخ علي الجمال . عدنا إلى القنيطرة في طريقنا إلى جبل عامل فركبنا نفس المركبة وحللنا القنيطرة ، ولكن لا في الخان هذه المرة ، بل في منزل امرأة قروية عاملية كانت تسكن القنيطرة في بيت بسيط ، وكانت تؤجر بعض غرفه إما للطارئين أو للمقيمين وهو بيت هزيل قروي بكل ما في القروية القديمة من معنى .

نزلنا في هذا البيت على أمل السفر في الغد على الدواب المستقدمة من شقرا سالكين نفس الطريق السابق ولكن الأمل لم يتحقق وطالت إقامتنا في القنيطرة أسابيع . ذلك أن وسيلة إعلام شقراء بإرسال الدواب إلى القنيطرة كانت بإرسال برقية من دمشق إلى صور وهي آخر مركز يصل إليه خط البرقيات يومذاك . ومن صور ترسل البرقية مع بعض الذاهبين إما إلى شقرا أو إلى قرية مجاورة ومنها إلى شقرا . والمسافة ما بين صور وشقرا تتراوح بين الثماني والعشر ساعات ركوباً على الخيل أو غيرها من الدواب أو مشياً على الأقدام . وكانت صور تحفل دائماً بالقرويين الذين يعودون إلى بلادهم بعد أن يكونوا قد باعوا منتوجات أرضهم من قمح وشعير وعدس لتجار صور . هذا في الصيف ، ولا تخلو صور خلال السنة من واردين إليها بين الحين والحين من القرى إما لمراجعة دوائر الحكومة أو لقضاء حاجاتهم . ومع واحد من هؤلاء العائدين من صور كانت ترسل البرقيات الواردة إلى صور والموجهة إلى القرى .

وكان والدي يعتمد في إرسال برقياته على الشيخ عز الدين علي عز الدين الذي يتولى إرسال البرقية إلى شقرا . وكانت برقية طلب الدواب من شقرا قد وصلت الشيخ عز الدين فأرسلها مع واحد من عملائه من أهالي مركبا التي تبعد أكثر من ساعتين عن شقرا . ولكن الرجل لم يوصل البرقية . ووصلنا نحن القنيطرة ولم تصل الدواب وطال الانتظار والدواب لا تصل وأقبل عيد الأضحى فقضيناه في القنيطرة . وفي صبيحة العيد مضينا مع والدي إلى أرض فضاء في طرف القنيطرة حيث ازدحم المصلون من الشراكسة لأداء العيد فشاركناهم الصلاة .

ولما طال الانتظار صدف والدي رجلاً من بلدة الخيام ذاهباً إلى بلده البعيد عن شقرا فاستأجره الوالد ليمضي من الخيام إلى شقرا برسالة بطلب الدواب ، ولكن هذا الآخر مضى ولم يبلغ ما اؤتمن على إبلاغه وطالت إقامتنا في منزل (أم نمر) وهو منزل لا تحمد الإقامة فيه . ولما بلغ اليأس مداه فتش الوالد عن حل للمشكلة فعلم أن فلاحين من قرية عين فيت القريبة من القنيطرة يحضرون العنب من قريتهم منقولاً على الحمير لبيعه في القنيطرة ثم يعودون فارغين إلى قريتهم . فاستأجرنا حميرهم لتقلنا إلى هونين أول بلدة في جبل عامل من الطرف الشرقي المطل على الحولة . ولم يكن لا من اللائق ولا من المريح ركوب الحمير . وإنما هي الخيل التي تستعمل في مثل هذا الانتقال ، ولكن كان لا بد مما لا بد منه فركبنا حمير أهل عين فيت وبتنا ليلة في بانياس في خان فيها معد للنزلاء ، ثم صعدنا إلى هونين .

والواقع أن دخولنا في تلك الحال إلى هونين كان شيئاً عجيباً غير متوقع ، فلم يكن يخطر لأهل هونين أن هذا الموكب القادم إلى بلدتهم على ظهور الحمير هو موكب السيد محسن الأمين . وأنه نفسه يسير على رأس هذا الركب الهزيل . وقد زاد الأمر غموضاً أن السيد كان يجلل عمامته ورأسه بعباءته السوداء الرقيقة (الخاشية) فلا يبين من ملامحه شيء . حتى إذا اجتاز الركب مداخل القرية وتقدم إلى وسطها نزع الوالد عباءته عن رأسه وترجل وترجلنا معه ومضينا ، وهنا صاح أحد الناظرين إلى الموكب : هذا السيد محسن . فتراكض الناس إليه دهشين . وانطلقنا إلى أحد المنازل .

ثم نعود بعد هذا الاستطراد إلى مواصلة الكلام :

في دمشق

في هذه الفترة كانت دمشق تغلي كالمرجل ، فالفرنسيون طامعون بها يتحينون الفرص للانقضاض عليها وتحطيم الاستقلال الذي قام فيها . والوطنيون يحاولون تدعيم الاستقلال والمحافظة عليه ولن أتحدث عن تاريخ تلك الفترة إلا في القليل منها ، وإنما سأعرض فيما يأتي انطباعاتي عنها كطفل كان يرى مشاهدها عن كثب بقدر ما تسمح له أوضاعه . فمن ذلك مثلاً أن بعض العامليين قد وصلوا دمشق بعد وصولنا بمدة ، فراراً من الحملة الفرنسية التي كانت قد انطلقت إلى الجبل للقضاء على العصابات المتمردة ، تلك الحملة التي كانت تأخذ البريء بجريرة العاصي . وسكن بعض هؤلاء العامليين في نفس حينا .

كان العرب في تلك الفترة يعيشون حلمهم الأكبر منتشين بما هم فيه من استقلال وتطلع إلى الوحدة ثم بدأت الآمال تنهار والحقائق المرة تتجلى واحدة بعد الأخرى ! .

ثم جاء إنذار الجنرال غورو للحكومة الاستقلالية يوضح الصورة ويجلو الواقع المر ويضع حداً لكل الأحلام .

ففي اليوم الرابع عشر من تموز سنة ١٩٢٠ تلقى الملك فيصل لا بصفته ملكاً لسوريا بل بوصفه قائد جيش الحجاز المحتل لسوريا إنذاراً يهدم كل الأماني . وقبل أن نشير إلى نص الانذار ننشر هذا البيان الذي ألقته الحكومة الاستقلالية أمام المؤتمر السوري (الذي كان بمثابة المجلس النيابي) وذلك بعد أن وضحت النيات الاستعمارية . ويتجلى في هذا البيان ما كانت عليه الأفكار في تلك الأيام وما كان يجول في نفوس القادة .

وأحسب أن هذا البيان ألقي حوالي منتصف حزيران سنة ١٩٢٠ أي

قبل حوالي شهر من إرسال الانذار (١٤ تموز ١٩٢٠) .

« أيها السادة . إننا نعتبر بأنه من واجبنا أن نطلعكم على الحالة في هذه الساعة الحرجة .

إنكم تعلمون أن سياسة الوزارة كانت وما زالت أساساً لعملنا كما أنكم تعلمون أن هذه السياسة التي وافقتم عليها تتضمن الابقاء على علاقات الصداقة مع الحلفاء وخاصة مع فرنسا وبريطانيا . وأن عملنا الدائم كان تحقيقاً لتلك الرغبات التي أبدتها البلاد بواسطتكم .

لقد بوشر بالمفاوضة ، واستمرت على أحسن الشروط . وكما تعلمون تلقينا قرار مؤتمر (سان ريمو) الذي يعترف بأن سوريا تؤلف دولة مستقلة ، كما أعلمتنا بريطانيا - من جهة أخرى - بطريقة شبه رسمية ، بأنها زيادة على ذلك تعترف بصاحب الجلالة فيصل ملكاً على سوريا .

لقد قررنا في هذه الأوقات أن نرسل بعثة إلى أوروبة لإتمام المفاوضات والحصول على حل نهائي طبقاً لرغباتنا الوطنية ، كما أن رغبتنا أيضاً أن نثبت للعالم وللدول بأننا لا نعادي أحداً ، ولا نعارض قرارات مؤتمر الصلح ، بعد أن تعهد بالمحافظة على شرفنا واستقلالنا .

لقد أبدى صاحب الجلالة رغبته بأن يتوجه بنفسه إلى أوروبة ، ليحصل على حل سريع للقضية ، وبفضل الاحترام الذي يتمتع به لدى رجالات الدول المتحدة ، فإننا على ثقة تامة ، وأمل مكين بأن نزف قريباً إلى الشعب أخباراً سارة .

ولكن فجأة برزت الحالة الخطرة الحاضرة التي نبسطها لكم . أراد الجنرال غورو لأسباب نجهلها أن يغتنم مناسبة حشد جيوشه لكي يعارض ، أو يمنع سفر صاحب الجلالة . فأبلغ مندوبنا بعض الشروط التي قال أنه يريد أن يطلبها منا والتي لم نتسلم نصها الرسمي حتى الآن ولذلك لم نتمكن من أن نبلغكم إياها ولا أن نعتبرها رسمية ما لم نتبلغ نصها المكتوب رسمياً .

إن بعض هذه الشروط هي على كل حال مخالفة ليس فقط لرغبات البلاد وتصميمها الثابت على الاستقلال ، ولكنها مخالفة أيضاً لروح القرارات المتخذة في (سان ريمو) وللتعهدات الموقعة من فرنسا لأن في قبول هذه الشروط تقويضاً لسيادة البلاد واستقلالها من أساسه التي اعترفت بها الدول في سان ريمو .

حشد الجنرال غورو جيوشاً على حدود المنطقة الشرقية لجهتي الشمال والغرب ومن المحتمل أن يكون هذ الإجراء دعماً للطلبات التي تقدم بها ، والتي لم يصلنا نصها الرسمي ، كما سبق وقلنا هذا عدا عن أنه أرسل جيوشاً فرنسية إلى رياق . ولقد أبلغ حاكم زحلة العسكري قائد قواتنا في رياق : بأنه احتل عسكرياً هذا المركز ، كما أن الجنرال غورو أعاد إقامة القوة الفرنسية التي احتلت معلقة زحلة في السنة السابقة ثم من جهة أخرى أبلغنا الكولونال كوس باسم الجنرال غورو بأنه احتل المركزين المذكورين بسبب وجود قواتنا في (مجدل عنجر) . ولكن من المعلوم أن مركز مجدل عنجر كان أقيم للمحافظة على الأمن العام في الجوار منذ بدء الاحتلال وأنه عزز أخيراً بعد حشد الجيوش الفرنسية على حدودنا .

وعليه اعترضت حكومتنا على هذه التدابير التي اتخذها الجنرال غورو ، والتي لا تتفق مع التحالف وطالبت بعرض المسألة على الدول أولاً . كما أننا نعلن الأمة والعالم أجمع - من على هذا المنبر - بأننا لا نريد إلا السلم ، والمحافظة على شرفنا واستقلالنا ، وأننا لا نقبل بأية شروط مقيدة .

ثانياً - أننا نرفض كل شكوى يظن معها أو يكون فيها مجال للظن ، بأننا نرغب في تعكير علاقات الصداقة التي تربطنا بحليفتنا أو بحلفائنا .

ثالثاً - أننا لا نرفض التفاوض وأننا على استعداد للمباشرة به ، وأن بعثتنا التي يرأسها الملك فيصل هي على أتم الاستعداد للسفر إلى أوروبة لمواصلة المفاوضة . وأننا نقبل بكل حل لا يسيء إلى شرفنا ولا إلى حريتنا وعلى أن يكون قائماً على الحق .

رابعاً - وأخيراً أننا على أتم الاستعداد والتصميم للدفاع عن شرفنا وحقوقنا بجميع القوى التي أنعم الله علينا بها » . « انتهى » .

اليوم كالأمس

وأننا حين نقرأ هذا البيان ونتدبر ألفاظه ومعانيه ومراميه ، لا يسعنا إلا التصفيق للذين تقدموا به والذين تبنوه وأيدوه . فهو يعلن الموقف الذي يجب أن يقفه أي شعب يهدد في استقلاله وحريته ويتعرض لغزو استعماري شرس . وهو الكلمة الفاصلة التي يجب أن ترد بها أية أمة كريمة على المتطاولين إلى النيل من كيانها والانتقاص من إرادتها . لا سيما إذا كانت هذه الأمة كالأمة العربية العريقة . . .

ولكننا ونحن نعيد تلاوة هذا البيان ، وندقق في كل حرف من حروفه لا نستطيع أن نسترسل في التصفيق لأصحابه ، بل لا نستطيع إلا الوقوف موقف المؤنّب الصارخ في وجوههم : ماذا أعددتم لتحقيق هذه الأحلام ، وماذا بيّتم للصمود بوجه الغزاة ؟ . وماذا كان عندكم غير الكلام ترسلونه بلا حساب ، وغير الحماسة الفارغة من كل قوة وجوهر ! . .

وأننا ونحن نعيش حاضر أمتنا المنكوبة اليوم بعزّتها وكرامتها ، المفجوعة بأرضها وترابها ، المرزوءة بشعب من شعوبها .

إننا ونحن نعيش اليوم هذا الحاضر المرير ، كما عشناه من أوّله منذ العام ١٩٤٧ يوم بدت طلائع الشر الصهيوني الرهيب ، ومنذ وضحت نيات التهام فلسطين والقضاء على شعبها . ومنذ بدأ التنادي لدرس وسائل درء الخطر ، وحفظ الوطن ! . فعقدت المؤتمرات وزخرت المنتديات ، وتدفقت الأقوال الحماسية والتطمينات الكلامية .

منذ مؤتمر بلودان وقراراته السرية ، ثم منذ التهيّؤ للحرب لمنع التقسيم ، ثم منذ دخول الحرب والخروج منها بالعار والشنار ! .

منذ أول يوم ، وما كان يعقب كل ندوة ومجتمع ومؤتمر من تصاريح وأقوال ! .

إذا جمعنا الخطب والبيانات والقرارات . وقارناها بهذا البيان البليغ الفصيح الذي ألقته حكومة الأتاسي الاستقلالية على برلمانها حين ساور الاستقلال الخطر ، وأطل على الأمة أبشع ليل في تاريخها الحديث ! . .

إذا أجرينا هذه المقارنة ، فإننا نرى أنه منذ أكثر من خمسين سنة من

نحن وإرزاء ونكبات وتجارب فإن كلمات المسؤولين هي نفس الكلمات وتعهداتهم هي نفس التعهدات وحماستهم نفس الحماسة ! .

ثم النتيجة نفس النتيجة! .

إنك حين تقرأ هذا البيان وتعيد قراءته وتنسى تاريخ صدوره وموضوع صدوره ، إنك لتحسب أنه واحد من هذه البيانات ! لتي اعتدت قراءتها بعد مؤتمرات القمة أو بعد اجتماعات وزراء الخارجية أو وزراء الدفاع أو رؤساء الأركان .

بل أنك لتحسبه صادراً بعد هزيمة حزيران وما أسموه بحرب الأيام الستة ، ويخيل إليك أنه يتحدث عن قرار مجلس الأمن والتمسك به والخوف من معارضته ! . . والحرص على كسب الرأي العام العالمي بتبني السلام ! . والتشبث بالكلمات اللينة ا لتي تصدر من هنا وهناك ! . .

أليس البيان يتضمن الإصرار على (الإبقاء على علاقة الصداقة مع الحلفاء وخاصة مع فرنسا وبريطانيا) في حين أن بريطانيا كانت تحتل العراق وتقاتل أهله ، وكانت قد وهبت فلسطين لليهود ! . . وفرنسا هي التي تحشد جيوشها للقضاء على الاستقلال ! . .

تماماً : كما ظل يعلن اليوم رجالنا عن حرصهم على صداقة أمريكا ، وكما يدعو من يدعو فينا على التشبث بهذه الصداقة ! . .

ثم أليس يعلن البيان عن التعلق بالأوهام والاستبشار بكلمة وهمية صدرت من قوي ؟ . .

أليس يقول البيان : (. . . أعلمتنا بريطانيا بطريقة شبه رسمية ، بأنها تعترف بصاحب الجلالة فيصل ملكاً على سوريا) ! . .

في حين كانت بريطانيا تتآمر مع فرنسا على اقتسام التركة ، بعد وأد الاستقلال ، فأخذت بريطانيا ما عرف بإسم شرق الأردن ، وأخذت فرنسا الباقي ! . .

ثم ألا يعلن البيان تمسكه بقرارات مؤتمر سان ريمو ، تماماً كما نعلن اليوم تمسكنا بقرار مجلس الأمن ، في حين أن أس البلاء كان في قرار مؤتمر سان ريمو ! .

ثم ألا يعلن البيان ثقته بأن المفاوضات تحل المشكلات ! .

أي كما نأمل اليوم بما أسميناه (الحل السلمي) ! وألا يعلن البيان تعجبه واستنكاره مخالفة الجنرال غورو لروح القرارات المتخذة في سان ريمو ! . . كما نعلن اليوم تعجبنا واستنكارنا لمخالفات إسرائيل لا لروح القرارات المتخذة في هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، بل لنصوصها الصريحة ! . .

وأخيراً : ألا تعجبك هذه الحماسة المعبرة عن العزة القومية الواجبة في الشعوب : إننا على أتم الاستعداد والتصميم للدفاع عن شرفنا وحقوقنا بجميع القوى التي أنعم الله علينا بها !! .

هذا التعبير الذي يبدو أن سياسيينا منذ سنة ١٩٤٧ حتى اليوم قد استعاروه بنصه وروحه ! . . لا سيما بعد ٥ حزيران وحرب الأيام الستة ! . .

في الوقت الذي كانت حكومة الاستقلال تلقي هذا البيان ، كانت البلاد غارقة في فوضى لا مثيل لها . ولم يكن أحد يفكر في إعداد خطة المواجهة ، ولم يكن أحد يفكر بأن فرنسا قد خرجت من الحرب هازمة لألمانيا ، وأنها لا تقاوم بالبيانات ، بل لا بد من الإعداد والتفتيش عن السلاح لا في ساعة وقوع المعركة ، بل قبلها بسنين ! . .

وأن كل ذلك يقتضيه إخلاص لا حد له ، وعقول كبيرة وأنظار بعيدة ، ترسم وتخطط وتنفذ ! . .

وهذا ما كان العرب يومذاك ـ كما هو اليوم ـ بعيدين عنه كل البعد ! . ويظهر أنهم سيظلون بعيدين عنه إلى وقت لا يعلمه إلا الله ! .

العاصفة

صبيحة أحد الأيام جالت في سماء العاصمة طيارة فرنسية وألقت على المدينة ألوف المنشورات التي لا أزال أذكر تناثرها من الطائرة وتهاويها في الفضاء هابطة إلى الأرض . وكان في تلك المنشورات تثبيط للعزائم ممزوج بالتهديد والوعيد .

وكنا بعيد وصولنا إلى دمشق قد انتقلنا إلى منزل مؤقت في أقصى الصالحية بسفح الجبل لأن إصلاحاً كان يجري في منزلنا في حي الخراب . وكنا مساء كل يوم نمضي إلى الصالحية للمبيت . وأذكر أننا لم نكد نتجاوز جسر بردى وننطلق صاعدين إلى الطريق الموصل إلى مداخل الصالحية ثم نصل إلى المستشفى العسكري حتى رأينا هرجاً ومرجاً وسمعنا طلقات الرصاص مما استحال معه دوام السير إلى الصالحية فأبنا راجعين . ولم أكن أعي تماماً حقيقة ما يجري . ولما وعيت بعد ذلك بسنين علمت أن الأمر كان ثورة جامحة اضطرمت على أثر ما علم الشعب أن الحكومة القائمة اضطرت لقبول الإنذار الفرنسي الموجه إليها من الجنرال غورو والمحتوي على مطالب كثيرة منها تسريح الجيش المرابط في مرتفعات مجدل عنجر ، فسرح الجيش وعاد أفراده بسلاحهم إلى دمشق معلنين حقيقة ما يجري . فثار الشعب دفاعاً عن الاستقلال وانطلقت جموعه تهاجم مستودعات الأسلحة وأهمها داخل القلعة ووقع الاشتباك بين الشعب وحكومته ! .

ولكن الفرنسيين ادعوا عدم وصول جواب حكومة دمشق في الوقت المحدد فواصلوا زحفهم إلى دمشق التي لم يكن احتلالها من بين المطالب الفرنسية المشتمل عليها الإنذار . لما رأت حكومة دمشق ما يجري عادت فقررت المقاومة لئلا تتيح للفرنسيين دخول دمشق دخولاً سلمياً دون دفاع . .

نص الإنذار

ننشر فيما يلي نص الإنذار الذي وجهه الجنرال غورو بإسم فرنسا إلى الملك فيصل لا باعتباره ملكاً لسوريا ، بل باعتباره أميراً حجازياً يقود جيشاً من جيوش الحرب ويحتل جزءاً من البلاد المفتوحة ، ونلاحظ أن الجنرال يسمي الجيش العربي السوري بالجيش الشريفي نسبة إلى اللقب الأول الذي كان يطلق على الملك حسين وابنه الملك فيصل ، كما يسمي الحكومة بالحكومة الشريفية بهذا الاعتبار نفسه ، أي أن فيصلاً هو الشريف فيصل ابن الشريف حسين وليس له إلا هذه الصفة .

وقد أرفق الجنرال إنذاره برسالة ، يستهل بها الإنذار :

يـا صاحب السمـو أتشرف بأن أرسـل مذكـرتي المؤرخـة ١٤ يـوليـو ، أقدمها إلى سموكم الملكي وأناشـد أخلاقكم السـامية ووطنيتكم الصحيحـة وشعوركم الودي نحو فرنسا أن تقبلوها .

لقد برهنت فرنسا من جهتها على إخلاصها لسوريا بقبولها لمهمة إرشاد الدولة الجديدة وقيادها بنـزاهة . ولـذلك أريـد أن أظن أن سموكم الملكي سيصغي إلى صـوت الحكمـة في معـالجـة هـذه القضيـة الخطيرة فـلا يتضـامن مـع حكومة لا تمثل سوى الأحزاب المتطرفة من الشعب .

ولا أفكـر أنني قـادر عـلى أن أعـول في تنفيـذ الضـمـانـات التي تشرفت بطلبها على سموكم إذا تولت ذلك الحكومة فبقاؤها في مناصبها ينطوي على معنى العداء لفرنسا وقد بذلت جهودها لجر بـلادكم إلى الحرب وإلقـائها في أتون بلاياها ولن يعصمها سوى تصرف سموكم الملكي وحده .

وهذا نص الإنذار :

« بإسم الحكومة الفرنسية ، لي الشرف بأن أعرض على سموكم الملكي لآخر مرة ، موقف هذه الحكـومة إزاء السلوك الـذي سلكته حكـومة دمشق منذ مطلع هذا العام .

« سـادت السكينة سـوريا إبـان الإحتلال الإنكليـزي ولم يتعكـر صفـو الأمن ويبدأ الاضطراب فيها إلا لما حلّت جنودنا محل الجنود البـريطانيـة وقد أخذت هذه الاضطرابات تزداد من ذلك الحين .

ولقـد أثرت هـذه الاضـطرابـات في رقي سـوريـا ونـظامهـا السيـاسي والإداري والإقتصـادي أكثر من تـأثيرهـا في سلامـة جنـودنـا وفي الإحتـلال الفرنسي في المنطقة الغربيـة . فحكومـة دمشق تحمل كـل التبعة أزاء سكـان سـوريا الـذين عهـد مؤتمـر الصلح إلى فـرنسا بـأن تمتعهم بحسنـات إدارة مؤسسـة عـلى الإستقـلال والنـظام والتسـاهـل والـثروة ، وأن أمـاني الـولاء والتعـاون التي أظهرتهـا فرنسـا لسموكم بتـأييـدهـا حقـوق السكـان الـذين يتكلمون العربيـة على اختـلاف مذاهبهم ويقـطنون القـطر السوري بحكم أنفسهم كأمة مستقلة قـد أجاب عليهـا سموكم معـترفاً بـأن لسكان سـوريا مصلحـة كبيرة في طلب المشـورة والمساعـدة من دولة كبـيرة لتحقيق وحدتهم وتـنظيم شؤون الأمة نـظراً للتضعضـع الـذي أصـاب البـلاد من الإرهـاق الـتركي والأضرار التي نتجت عن الحـرب ، وتلك المشـورة والمسـاعـدة ستسجلهـا عصبة الأمم عندما تتحقق بـالفعل . وقـد دعا سمـوكم الملكي فـرنسا إلى القيـام بهذه المهمـة باسم الأمـة السوريـة . ولما كنتم تفـاوضـون الحكومة الفرنسية في شهر يناير الماضي وكانت العصابات الخارجة من دمشق تجتاح المنطقة الغربية أرسل إلي مسيو كلمنصو البرقية الآتية :

« عندما بلغني خبر هجوم البدو في جنوب سـوريا وشـمالها قلت لـلأمير فيصل أنني اتفقت معه مؤقتاً على بعض المبـادىء وأنني أحافظ أتم المحـافظة على كلامي ولكن يجب أن يقابل خطتي هذه بمثل ما فيها من الإخلاص وأن يجعل سلطته محـترمة عـلى أنصاره فـإذا لم ينفذ هـذان الشرطان تنفيـذاً دقيقاً فـالحكومـة الفرنسيـة تستأنف العمـل بحريـة وتستعمل القـوة لتأييـد النظام واحترام الحقوق التي لها من المؤتمر » .

والبيان الآتي يوضح جلياً كيف أن حكومة دمشق لم تنقـطع عن انتهاج الخطة معاديـة ومخالفـة تمـام المخـالفـة لسيـاسـة التعـاون التي رمى إليهـا رئيس الوزراء وتعهدتم بتطبيقها .

١ ـ عداء جلي حلى قواتنا :

إن إصرار حكومة دمشق على رفض السماح للسلطة الفرنسية بـاستعمال سكة رياق ـ حلب الحديدية هو عمل عدائي بحت . فالحكومة لا تجهل أن تلك السكة لا بد منها لإعاشة إحدى فرقنا الفـرنسية في الشمـال وتمكينها من القتـال وهذه الفـرقة تقـاتل قـوات معاديـة تابعـة لتركيـة التي انتزع الحلفـاء الظافرون سوريا من ربقتها ودفاعاً عن حدود حكـومة سـوريا الجديـدة التي يجب أن تربطنا بها روابط المصلحة وعرفان الجميل .

أن حكومة دمشق هي التي وضعت مبدأ تنظيم العصابات واستخدامها ضد جنودنا المحتلة . وهذا المبدأ أعلنه قائد الفرقة الثالثة في حلب صراحـة يوم ١٣ ابريل بالقول الآتي :

« لما كنا لا نستطيع أن نعلن الحـرب رسمياً عـلى الفرنسيـين يجب علينا أن نملأ البلاد بـالعصابـات التي تجهز عليهم تـدريجياً وسيقـود ضباطنـا هذه العصابات فإذا استشهد أحدهم تعيل الحكومة عائلته » .

وإليك الأدلة الآتية على دقة تنفيذ هذه الخطة :

في ١٣ كـانون الأول ديسمـبر سنة ١٩١٩ هـوجم مـوقعنـا في تـل كلخ بتحريض السلطة الشريفية في حمص وفي أواخر ذاك الشهر ذبح بدو محمـود الفـاعور الـذي قلتم لي يا صـاحب السمو الملكي أنـه صـديقكم الشخصي مسيحيي مرجعيون وهجم على جنودنا في ١٤ يناير رافعاً العلم الشريفي .

وفي ٢٥ منه سنة ١٩٢٠ تحقق وجود الجنود الشريفية بين الذين هاجمـوا جنـودنا تحت قيـادة ثريـا بك (بـركات) في قـريق خان ثم في الحـمام . وفي حزيران ـ يونيه ثبت وجود أميرالاي ويوزباشي وستـة ملازمـين و٣١٧ رجلاً من الجيش الشريفي بين العصابـات التي كانت تعمـل في ساحـة مرجعيـون وثبت استعمال معدات مأخوذة من الجيش نفسه وهي أربعة رشـاشات ثقيلة وثلاثة خفيفة وخمسون صنـدوق ذخيرة وظهـر أيضاً اشـتراك محرضي المـنطقة الشرقية في الإضطرابات التي امتازت بمـذابح (عـين إبل) وفتنـة الشيعة في شهر حزيران ـ يونيو .

ثم أن منـظمي العصابـات محـترمـون كـل الإحترام في دمشق لا سيـما صبحي بركات الذي لا يجهل أحد إساءته إلينا .

وعندما لم تكن العصابات ترسل من المنـطقة الشرقيـة كانت الفتنـة تثار في المنطقة الفرنسية ذاتها .

وبهذه الأعمال وقعت اعتداءات عديدة على المسيحيـين لا سيما في جسر القـرعون في ٢٩ كـانون الأول ـ ديسمـبر حيث تقع التبعـة على الضـابـطين الشريفيين واجد بك وتحسين بك . .

وقد سوعد الشيخ صالح (العلي) بطل الفوضى والبغضاء لنا مساعـدة مؤثرة مستمرة في جبال النصيرية .

ومن الممكن تعـداد كثير من هـذه الأمثلة وقد عـرضنـاهـا على سمـوكم الملكي في حينها .

٢ ـ سياسة حكومة دمشق العدائية :

رأى سموكم الملكي إدخال أشخاص مشهورين بعدائهم لفرنسا في حكومة دمشق وكان تأثير المحيط شديداً عليكم حتى أنكم لم تتمكنوا من السفر في الوقت المناسب تلبية لدعوة مؤتمر الصلح ، وقد تألفت الوزارة من أناس من تلك الفئة التي لا تقتصر خطتها على إهانة فرنسا ورفض مساعدتها بل تتناول المجلس الأعلى الذي منح فرنسا الانتداب لسوريا .

إن رفض انتداب فرنسا رفضاً باتاً في ١٨ أيار الماضي هو خطة عمياء تجر نتائجها المصائب على سوريا .

٣ ـ التدابير الإدارية ضد فرنسا :

إن التمنع الإقتصادي الظاهر في رفض ورق النقد السوري الجديد الذي أصدره البنك السوري لحساب فرنسا ومنع جميع المعاملات الشرقية هو دليل جديد على عداء مضر بمصلحة البلاد .

وكذلك منع نقل الحبوب إلى المنطقة الفرنسية مبتدئاً من حماه فدمشق فحلب ، ثم أن السلطة الشريفية اجتازت حدود المنطقة الشرقية وتقدمت تدريجياً داخل المنطقة لتظهر أنها توسعت توسعاً يقصد به إخراجنا .

ففي شهر آذار مارس وضع مخفر شريفي في الخالصة ثم رفع العلم الشريفي على القدموس بعد ذلك بقليل وفي نيسان جعلت حكومة حلب القصير قضاء شريفياً . ثم نصب قائمقام شريفي في جسر الشغور .

٤ ـ أعمال عدائية موجهة رأساً إلى فرنسا :

إن من كان صديقاً لفرنسا أو موالياً لها في المنطقة الشرقية يكون مشتبهاً به من السلطة ويعامل معاملة سيئة في أغلب الأحيان .

(وبعد أن يذكر الإنذار بعض الأمثلة يعود فيقول) :

وعدد سكان المنطقة الشرقية الذين أكسبهم عداؤهم لنا عطف الحكومة عظيم جداً .

إن بث الدعوة ضد فرنسا في المنطقة الغربية قد ألبسته حكومة دمشق أشكالاً خبيثة أرادت السلطة الفرنسية أن تغمض عينها عنها لأنها قررت اتباع سياسة التساهل إلى النهاية .

وآخر هذه الأعمال وأظهرها شراء القسم الأعظم من أعضاء مجلس الإدارة باثنين وأربعين ألف جنيه مصري .

ولقد ألقت مخافرنا القبض على هؤلاء الأعضاء في ١٠ تموز يوليو بينما كانوا ذاهبين إلى دمشق لبيع بلادهم منكرين الأماني التي أعرب عنها مواطنوهم بالإجماع تقريباً منذ عهد بعيد .

إن صحافة دمشق التي تفرط الحكومة في شد أزرها تواصل دائماً حملاتها على كل ما هو فرنسي وتقبح السلطة المحتلة في المنطقة الغربية وترد كل مساعدة تعرضها فرنسا على سوريا وتهينني أقبح إهانة .

٥ ـ الإعتداء على الحقوق الدولية :

بمقتضى هذه الحقوق يجب على قائد جيش الحجاز المحتل قطراً سوريا لا بد أن يظل عثمانياً إلى أن يقتضي تنفيذ المعاهدة بتغييره أن لا يعمل بغير هذه الصفة وأن يحافظ على الحالة الراهنة وهو حارسها . ولكنه تصرف عكس ذلك متخذاً صفة السيادة العليا وقد تقرر التجنيد الإجباري ونفذ منذ كانون الأول سنة ١٩١٩ مع أن البلاد لا تزال بلاداً أجنبية وهذا العبء الثقيل الذي لا يجدي نفعاً قد أكره عليه الشعب حتى في المناطق التي لها شكل خاص كالبقاع . ونفذ في أناس مستثنين منه كاللبنانيين والمغاربة المقيمين في المنطقة الشرقية . ولاقى هذا التجنيد الباطل مقاومة نزيهة أدت في بعض الأحيان إلى إراقة الدماء .

ثم أن المجلس الملقب بالمؤتمر السوري الذي تألف واجتمع بصورة غير قانونية يسن القوانين بل يحكم بإسم حكومة ودولة لم يعترف بوجودها . وفضلاً عن ذلك فقد قدم اللقب الملكي لسموكم الملكي بدون حق ولا وكالة مما وضعكم كما عبرتم عن ذلك في موقف التمرد على مؤتمر الصلح .

ولم تحترم الامتيازات الأجنبية فإن أحد رعايانا الأمير مختار الذي يمثل أسرة كبيرة اشتهرت منذ القدم باتصالها بفرنسا قد أوقف إيقافاً معيباً .

وليست الاتفاقات السياسية محترمة أيضاً . فإن لواء من الجيش الشريفي أرسل إلى مجدل عنجر رغم الإتفاق الذي تم في كانون الأول الماضي مع المسيو كليمنصو والذي يقضي أن لا تحتل في البقاع قوة شريفية أو فرنسية .

٦ ـ الأضرار التي أصابت فرنسا وسوريا من ذلك :

لم تستطع السلطة الفرنسية حتى الآن أن تنظم البلاد التنظيم الذي ننتظره منها لأنها اضطرت إلى صرف قواها وجهودها لقمع الفتن المتوالية ومواصلة المفاوضات السياسية الجديدة العقيمة مع حكومة دمشق ، فهي والحالة هذه غير مسؤولة عن هذا التأخير بل تتحمل العبء العسكري والمالي الذي تقضي به الحالة التي أوجدتها حكومة دمشق ولا يمكن إلا أن تؤثر على التكاليف في الميزانية السورية سواء بفقد الدخل الذي ينشأ عن استمرار الفوضى أو الإشتراك في نفقات السيادة التي تلحق بها في المستقبل .

ولقد بلغت حالة الفوضى التي أوجدها مثيرو الفتن في البلاد حداً دعا إلى استجلاب قوات كبيرة أعظم عدداً مما يدعو إليه استبدال جنود إنكليزية وأن هذه الأسباب تدل دلالة كافية على أنه لا يمكن بعد الآن أن نعتمد على حكومة جاهرت فرنسا إبان السكينة بالعداء كل المجاهرة وأخطأت نحو بلادها خطأً عظيماً بظهورها عاجزة عن تنظيمها وإدارتها .

لذلك ترى فرنسا أنها مضطرة لأخذ الضمانات التي تكفل سلامة جنودها وسلامة السكان التي نالت من مؤتمر السلم مهمة الوكالة عليهم فأتشرف بأن أبلغ سموكم الملكي أن هذه الضمانات هي كما يأتي :

١ ـ التصرف بسكة رياق ـ حلب الحديدية لإجراء النقليات التي تأمر بها السلطة الفرنسية ويؤمن هذا التصرف بأن يراقب مفوضون عسكريون فرنسيون جميع ما ينقل في محطات رياق وبعلبك وحمص وحماه وحلب تعضدهم قوة مسلحة مخصصة للمحافظة على المحطة واحتلال مدينة حلب التي هي نقطة مواصلات هامة لا يسعنا أن نتركها تسقط في يد الترك(١) .

(١) كانت السلطات السورية قد رفضت أن تسهل للجنرال غورو استعمال السكة الحديدية لارسال القوات والمؤن والذخائر إلى كيليكية حيث كانت الجيوش الفرنسية مشتبكة في

٢ ـ قبول الإنتداب الفرنسي :

إن هذا الانتداب يحترم استقلال أهالي سوريا ولا يناقض مبدأ الحكم بسلطة سورية تستمد قوتها من إرادة الشعب ولا يتضمن سوى معاونة بشكل مساعدة وتعاون مع الدولة المنتدبة دون أن يتخذ مطلقاً شكل استعمار أو إلحاق أو إدارة تنفذ رأساً .

٣ ـ قبول الورق السوري :

تصبح هذه العملة وطنية في المنطقة الشرقية فتلغى جميع الأحكام المتعلقة بالبنك السوري في المنطقة الشرقية .

٤ ـ تأديب المجرمين الذين كانوا أشد عداء لفرنسا . (ويعدد الإنذار بعضهم) .

وهذه الشروط تقدم جملة ويجب قبولها جملة أيضاً بلا أدنى فرق خلال أربعة أيام تبتدىء من نصف ليل ١٠ تموز (أي ١٤ منه الساعة ١٢ ليلاً) وتنتهي في ١٧ منه الساعة ٢٤ (أي الساعة ١٢ ليلاً) .

فإذا جاءني علم من سموكم قبل هذا الموعد بقبول هذه الشروط فيجب أن تكون قد صدرت أوامركم في الوقت نفسه إلى المراجع اللازمة لكي لا تعارض جنودي الزاحفة لاحتلال المواقع المعينة ، ثم أن قبول الشرط الثاني والثالث والرابع يجب أن يؤيد رسمياً قبل ١٨ منه ، أما تنفيذها بالتمام فيكون قبل ٣١ منه الساعة ٢٤ (نصف الليل) .

وإذا كان سموكم الملكي لا يشعرني في الوقت اللازم بقبول هذه الشروط أتشرف بأن أبلغه أن الحكومة الفرنسية تكون مطلقة اليد في العمل . وفي هذه الحالة لا أستطيع أن أؤكد أن الحكومة الفرنسية تكتفي بهذه الضمانات المعتدلة . ولا تقع على فرنسا تبعة المصائب التي تحل بالبلاد فهي قد برهنت على تساهلها من زمن طويل وفي الآونة الأخيرة . فحكومة دمشق هي التي تتحمل جميع أعباء مسؤولية فصل الخطاب الذي لا أنظر إليه إلا آسفاً ولكني مستعد له بمتانة لا تتزعزع .

جماهير الحرب

وأذكر الآن مناظر السناجق[(١)] مرفوعة أمام الجماهير ودقات الطبول التي اندفعت في الأزقة والشوارع تؤلب الناس ليتجمعوا للقتال . كما أذكر جماهير المتطوعين ذاهبة (بعراضاتها) إلى محطة البرامكة لتركب القطار الحديدي إلى أقرب محطة للجبهة الجديدة في ميسلون وهي (الهامة) حيث يواصلون السير من الهامة إلى ميسلون على أقدامهم . وكان يطيب لي مرافقة الذاهبين إلى المحطة بأهازيجهم الحماسية وهتافاتهم المدوية . وقد ظلت صور بعض الوجوه منطبعة في ذهني فكنت أشاهدها بعد مر السنين في دمشق فأتذكر الزحف إلى محطة البرامكة .

بعد معركة ميسلون

ولا أعي ما جرى بعد ذلك تمام الوعي ، غير أنني أتذكر منظر رجال الشرطة وقد عصبوا زنودهم اليمنى بعصابات بيضاء مكتوب عليها كلمة « بوليس » وهم يتنقلون في الشوارع . وقد علمت بعد ذلك أنه بعد الهزيمة في ميسلون وانهيار الحكم الوطني وترقب دخول الفرنسيين دمشق كان لا بد من هذا التدبير ليظل رجال الشرطة محافظين على الأمن دون أن يثيروا ريبة الفرنسيين بلباسهم العسكري وسلاحهم من المسدسات .

وكما شهدت زحف الجماهير إلى محطة البرامكة ، فإنني أذكر الاستقبال الفخم الذي أعده بقايا صنائع الأجنبي للجنرال غورو في دخوله إلى دمشق لأول مرة وكيف حشدوا الناس على مدخل دمشق وفي (المنشية) فدخل الجنرال دمشق دخول الفاتحين حقاً تستقبله جماهيرها المكتظة ولم يكتفوا بذلك ، بل أن (أبو شكري الطباع) ورفاقاً له فكوا خيول عربة الجنرال وجروا العربة بأنفسهم بدل الخيل . وكان الطباع يعتذر بعد ذلك بأن قريباً له كان محكوماً بالإعدام ، ورجا بهذا التصرف إنقاذه ! .

كما أذكر منظراً من مناظر تلك الأيام ، وهي أننا كنا نسير مع والدي إلى دعوة على العشاء ، وأن واحداً سلم على والدي ثم انفرد به ناحية وأسر له بشيء ولما عاد الوالد كان وجهه يطفح بشراً على غير عادته في تلك الأيام الكئيبة . ولما انتظم المجلس في الدار المدعوين إليها أقبل خلال الليل رجل أسر للوالد بكلام أعاد إلى وجهه الكآبة .

ثم علمت بأن ما بعث البشر في وجهه أول الأمر هو أن الرجل أسر إليه بأن الجنرال غورو قد اغتيل وهو في طريقه من دمشق إلى القنيطرة لزيارة محمود الفاعور شيخ عرب الفضل في الجولان الذي كان قد أعد له

= محاربة القوات التركية الكمالية، وكانت نتيجة ذلك أن شعر الفرنسيون بحرج مركزهم في كيليكية فاتفقوا مع مصطفى كمال على الجلاء عنها واسترداد قواتهم منها، ودفعوا بها فجأة إلى سوريا. ويروي بعضهم أن بعض الفئات كانت تدعو إلى تعاون سوريا وتركيا الكمالية لمقاتلة الفرنسيين حتى النهاية وحملهم على الاعتراف باستقلال سوريا، وقد سافر يوسف العظمة وسعيد حيدر إلى إعزاز على الحدود التركية وتباحث كل منهما مع مندوبي الحكومة الكمالية في إنشاء تعاون عسكري بين الحكومتين، فوعدوه بأن يطلعوا حكومتهم على اقتراحاته ويبلغوه الجواب، ولكن المدنة التي عقدتها فرنسا مع الأتراك أوقفت المباحثات عند ذلك الحد .

وقد كان امتناع الحكومة الوطنية في دمشق عن فتح السكة الحديدية أمام الفرنسيين للوصول إلى قتال الأتراك نابعاً من الأصالة الوطنية العربية التي أبت مساعدة الفرنسيين على الأتراك المقاتلين في سبيل بلادهم . وتناسى العرب كل ما عانوه من فظائع الاتحاديين الأتراك خلال الحرب ورجعوا إلى ما يمليه عليهم شعورهم الوطني البحث متجاهلين حتى مصلحتهم في عدم إغضاب الفرنسيين .

على أنني سمعت من رضا الركابي نفسه الذي كان في ذلك الحين رئيساً للوزارة الاستقلالية الأولى ـ سمعت منه بعد ذلك بسنين ـ أنه كان من رأيه التحالف مع الفرنسيين في هذا الموقف الذي تجمع فيه المصلحة بين الفرنسيين والعرب ، وأن لا مجال للعواطف أمام الحقائق. وأن حكومته استقالت لعدم الأخذ برأيه، فخلفتها وزارة الأتاسي التي يتحدث عنها الجنرال غورو. ويبدو أن الأتراك استغلوا مفاوضة السوريين لهم فأطلعوا الفرنسيين على ذلك، فكان أن تحالف الفريقان وانسحب الفرنسيون من كليكيا موجهين قواهم كلها لقتال السوريين.

ولا شك أنه كان للتزاحم الانكليزي الفرنسي أثر في ذلك، فإن الانكليز كانوا أعوان اليونانيين في غزوهم للأناضول، فرد الفرنسيون بتأييد الأتراك.

(١) هذه السناجق كانت موجودة في كل حي وتوضع في أكبر مساجد الحي أو عند قبر ولي مدفون في الحي. ويبدو أن هذه السناجق تعود إلى العصر الأيوبي. ويتكون (السنجق) من قطعة قماش كبيرة جداً ذات بطانة. يحمل الواحد منها الرجل القوي في الحي من وسطها بعمود ويعينه في الحمل آخرون من اليمين واليسار بحبال ربطوها وسط العمود وأطراف (السنجق) لينتشر السنجق انتشاراً كاملاً فيقرأ الناس، ما عليه من آيات وأدعية واستنفارات.

وقد سرق معظم هذه (السناجق) ونقلت إلى بلاد الغرب.

احتفالات حاشدة وأن ما أعاده إلى الكآبة في الليل هو أن الجنرال قد نجا من محاولة الاغتيال .

في المدرسة العلوية

بعد يومين أو ثلاثة من وصولنا إلى دمشق دخلت المدرسة العلوية ، وأحسَب أني كنت في الصف الثالث الابتدائي ، وكنت على مستوى حسن مع طلاب الصف ما عدا شيئين اثنين هما اللغة الفرنسية والحساب . فقد كنت لم أدرس شيئاً من الفرنسية كما أن موهبتي في الحساب كانت في منتهى الضعف فضلاً عن معلوماتي . وقد كان علي أن أدرس أضعاف ما يدرسه التلاميذ في اللغة لأستطيع مجاراتهم وكان ذلك فوق الطاقة ، لذلك بقيت ضعيفاً في اللغة متعباً في متابعة دراستها . أما الحساب فقد كانت مشكلته أعصى من أن تحل لأن فقدان الموهبة فيه لا يجدي معه أي درس أو تعب . ولا أزال أذكر أنه خلال بقية سني الدراسة الإبتدائية كان يصادف درس الحساب أول ساعة من صباح يوم السبت . فكنت من هم التفكير في اليوم المقبل لا أستمتع بأي استجمام في عطلة يوم الجمعة ، حتى إذا دنا أصيل الجمعة وبدأ النهار يتقلص وينقضي تراكمت علي متاعب التفكير في الصباح



في المدرسة العلوية سنة ١٣٤٠ هـ

الآتي وما يحمله من درس الحساب ، فلا يكاد الظلام ظلام يوم الجمعة يطبق حتى أحس بأنه قد أطبق على نفسي .

وقد ظللت حتى اليوم أتضايق من جمع عددين أو طرحهما أو قسمتهما أو ضربهما ولا بد من أن أقع في الخطأ . وقد كان أكثر ما يخجلني هو أنني إذا دفعت أكثر مما هو المطلوب مني على أن يعاد إلي الباقي ثم حسبت ما أعيد إلي وجدته ناقصاً وراجعت الدافع فيعاود العد فيجده صحيحاً ! . . لذلك أصبحت لا أعد ما يعاد إلي ، أو ما يدفع إلي رأساً . وقد استغل هذا الأمر فيّ نادل في أحد مطاعم بغداد حين أقمت فيها لفترة ، فقد لاحظ أني لا أعد ما يعيده إلي وتكرر ذلك ، فإذا بي أكتشف بعد حين أنه ينقص من حقي أشياء يحتفظ بها لنفسه !

على أنني إذا كنت مقصراً في الفرنسية والحساب متعباً بهما ، فقد كنت متقدماً في اللغة العربية والتاريخ مستعذباً لهما مرتاحاً إليهما . وكذلك في درس الهندسة .

وقد كان يتولى إدارة المدرس العلوية في أول دخولنا إليها مدير تقليدي من قدامى الرجال ، وصدف أن مرض وتغيب ، فوافق تغيبه حادث حدث للأستاذ أديب التقي . إذ كان مديراً لمدرسة (البحصة) الإبتدائية في دمشق . وكان الشعور العام معادياً للإفرنسيين ، فانفجر هذا الشعور بين تلاميذه في أحد الأيام وساعد بتصرفاته على هذا الانفجار مما ساء السلطات فأقالته من إدارة المدرسة الحكومية . ثم انتهى الأمر إلى أن عين مديراً للمدرسة العلوية . فكان ذلك حدثاً فريداً في حياة هذه المدرسة كما كان ذا أثر بعيد في توجيهي الدراسي والفكري . فأنا مدين لإثنين في حياتي الثقافية هما والدي ثم أديب التقي .

كان أديب التقي فذاً في الرجال ، ذا خلق مستقيم وإدارة حازمة وفكر نير ، وكان إلى ذلك أديباً من أقوى أدباء العرب . وإذا كنت أستطيع أن أمسك القلم اليوم وقبل اليوم فإن له في ذلك الفضل الكبير . لقد تولى بنفسه تدريسنا ثلاثة دروس : الإنشاء والمحفوظات والتاريخ . فكان لنا من دروسه الثلاثة هذه خير موجه في الأدب والوطنية والبحث . وقد وعيت بفضله ـ على صغر سنّي ـ أموراً ما كان لي أن أعيها لولا توجيهه . .

لقد عرف بدرس الإنشاء كيف يثير فينا الحس الأدبي وكيف يسير بنا في دروب الكتابة ، وكيف يقوم أقلامنا ويثقف أسلوبنا . وعرف بنفس الدرس وبدرس المحفوظات والتاريخ كيف يثير فينا إلى جانب هذا كله الحس الوطني والثورة على الانتداب والنقمة على الغاصبين .

لقد كنت متأثراً بمظاهر الثورة العاملية التي شهدت بعض فصولها خلال الإقامة في شقرا ، ثم ازددت تأثراً بمظاهر الاستقلال بدمشق ثم بمظاهر الهزيمة بميسلون وما تلاها من انهيار الاستقلال . ولكن ذلك لم يؤلف في ذهني صورة كاملة لمعاني الوطنية والثورة على الاستعمار فلم أكن في مثل تلك السن لأتبين حقيقة ما جرى وما يجري ولكنني في أعماقي كنت متأثراً بكل ذلك . فإذا بأديب التقي يقدح في نفوسنا الشرارة الكامنة ويركز الصورة غير المتكاملة فتبدو لنا جلية واضحة ! .

جاءنا في أحد دروس الإنشاء في يوم مرَّت فيه في سماء دمشق طيارات فرنسية ، وكان مرور الطيارات في ذلك الحين يعتبر حدثاً مثيراً . ولم تكن العيون والأفكار قد ألفت رؤيتها ، فإذا امتد الدوي المنذر بوصولها اشرأبت الأعناق إلى السماء لتتطلع بتعجب عميق إلى هذا الجرم السابح في الفضاء ، الراكض في السماء !

دخل أديب التقي علينا وطلب إلينا أن نكتب موضوعاً عنوانه (عند

مشاهدتي الطيارة) ويقصد بذلك أن ندون شعورنا عندما نشاهد طيارة . وكان شعورنا شعور أطفال لا يبتعد عن التصورات الصبيانية ، فلا أذكر الآن ماذا كتبنا .

وبعد أن اطلع أديب التقي على ما كتبنا جميعاً ، طلب إلينا أن نأخذ أقلامنا ونهيء أوراقنا ثم أملى علينا قطعة تعتبر آية من آيات البيان ومرجلاً من مراجل الوطنية . وكم آسف أن لم يبق في ذهني منها سوى مقطعها الأخير ، وكفى به دليلاً عليها ، وكان المقطع الآتي : .. فما كان أشد خفقان قلبي أسى حين أوحت إلي سمتها أنها أجنبية ... ليت لنا طيارات أيضاً .

هذه القطعة كانت الشرارة التي أوقدت في نفسي جذوة الوطنية ، وأثارت في عقلي العزة القومية .

ولا أزال حتى الآن أحفظ في ذاكرتي بعض ما لقننا إياه للاستظهار فمن ذلك مختارات من قصيدة الشبيبي (دمشق وبغداد) ومطلعها :

ماذا بنا وبذي الديار يراد   فقدت دمشق وقبلها بغداد

وكلها على هذا النسق الوطني المثير ، فضلاً عن بلاغة الشعر وقوته .

وكذلك مختارات من قصيدة شوقي في سقوط أدرنة :

يا أخت أندلس عليك سلام   هوت الخلافة عنك والإسلام

إلى غير ذلك من هذا وأشباهه الباعث على شيئين : على تذوق أرقى الشعر ، وعلى التغني بالوطن .

مصر والسودان

ومن التأثر بهذا انطلقت وأنا في الدراسة الإبتدائية أمام الزعماء المصريين الفارين يومذاك من وجه الإنكليز في مصر ، انطلقت بذاك الجواب الذي هزهم هزاً .

فإنه على أثر اغتيال لستاك باشا القائد الإنكليزي للجيش المصري أيام رئاسة سعد زغلول للوزارة المصرية اتهم بعض زعماء الوفد وشبانه بأنهم هم المتآمرون على القائد فقبض على من قبض عليهم وفرّ من استطاع الفرار ولجأوا إلى دمشق .

ولا أدري الآن سبب زيارتهم للمدرسة العلوية ، وربما كان ذلك رداً لزيارة المدير الذي يمكن أن يكون قد زارهم فردوا له الزيارة في المدرسة ، ولا أعرف الآن أسماءهم ما عدا واحداً منهم هو الدكتور محجوب ثابت ، وسبب حفظي لإسمه ، أن منظره كان متميزاً فيهم بسبب لحيته الكثّة وجسمه الممتلىء ! .

دخلوا علينا غرفة الدرس يصحبهم المدير ونحن في درس الجغرافيا فكان من الطبيعي أن تكون أسئلتهم في هذا الدرس . فاختار أحدهم تلميذاً وقال له : عدّ لي مدن القطر المصري . فارتبك التلميذ واضطرب وظهر عليه العي . فأسرعت أرفع يدي استعداداً للاجابة فتوجه السائل بالسؤال إلي فانطلقت معدداً : القاهرة ، الإسكندرية ، الخرطوم ! .

ولم أكد أذكر اسم الخرطوم حتى صاح الدكتور محجوب بصوته الجهوري :

إيه ... إيه ... إيه ... إيه الخرطوم ، الخرطوم دي في السودان .

فبادرته قائلاً : نحن نعتبر مصر والسودان بلداً واحداً . ولأجل أن نعرف وقع هذا الجواب على الزعماء المصريين يجب أن نعرف أن الشعار الأول للكفاح المصري كان يومذاك وحدة مصر والسودان .

فأثار الزعماء المصريين أن يعي تلميذ صغير السن حقيقتهم الوطنية ويهتف بشعارهم القومي وهم بعيدون عن بلدهم .

ولا أزال حتى الآن أتمثل في ذهني دموع الدكتور محجوب ثابت وقد تحدرت على وجنتيه ولحيته .

الخطاب المرتجل

وعدا عن درسي الإنشاء والمحفوظات فقد خصص أديب التقي بعد ظهر الإثنين من كل أسبوع لتعويدنا الخطابة بعد تمريننا على الكتابة ، فكان بعد ظهر الإثنين ميدان للخطباء من التلاميذ يعرضون فيه مواهبهم وينمونها بتوجيه أديب التقي الذي كان يستمع مع مجموع الأساتيذ والتلاميذ إلى ما يلقى على منبر المدرسة ، ثم يعلق على ما ألقي مشيراً إلى الحسنات والسيئات لتقويم الخطباء وتثقيفهم .

وقد كان يتخذ من هذا المنبر أيضاً وسيلة لتنمية الروح الوطنية ، ولا أزال أذكر أن أحد الخطباء من التلاميذ استعمل خلال كلامه كلمة (الشعب السوري) ، فهب أديب التقي ينعي على الطالب هذا الإطلاق قائلاً : أن لا شعب إلا الشعب العربي .

ومن هذا وأمثاله كان إحساس الطلاب بقوميتهم وتأثرهم بوطنيتهم ينموان ويتفاعلان في الوجدان والنفس .. في مثل ذاك الجو الإرهابي الإستعماري الذي فرضه الفرنسيون على البلاد بعد معركة ميسلون وما تلاها من سنين .

ولم يكن فينا من يحاول الارتجال في مثل تلك السن ، ولم نكن نجرؤ على مثل هذه الخطوة ما دمنا مستطيعين كتابة ما نريد أن نقوله .

ولكن في إحدى الرحلات المدرسية التي كانت تنظم بين الحين والحين إلى بعض القرى ، دعينا إلى الغداء على أن نتناوله بعد تأدية صلاة الجمعة في مسجد البلدة . وعلمنا أن أمام المسجد سيرحب بنا خلال خطبة الجمعة لذلك عهد إلي بإعداد كلمة تناسب الرد على ترحيب الخطيب ، فكتبت كلمة موجزة ووضعتها في إحدى جيوبي على ما اعتقدت ، ولكن يبدو أنني إما قد أخطأت فتركتها في مكان آخر أو أنها وقعت بعد ذلك من جيبي دون أن أدري .

وفي الموعد المعين ذهبنا إلى المسجد المكتظ بالناس وصعد الخطيب المنبر وألقى خطبته مرحباً بضيوف البلدة ، وبعد انتهائه مباشرة هببت إلى المنبر العالي ووقفت على ذروته ، ومددت يدي لآخذ الورقة المعدة لهذا الموقف ، وكانت الأبصار كلها شاخصة إلي متهيئة إلى ما سيقوله هذا التلميذ الصغير .

ولكنني لم أجد الورقة وفي لمحات مددت يدي إلى كل جيوبي عبثاً ، فهالني أول الأمر الموقف . ولكنني ملكت روعي وسيطرت على نفسي وانطلقت في كلام ارتجالي كان عماده ما لا يزال عالقاً في ذهني مما هو مكتوب في الورقة .

فشجعني هذا بعد ذلك على الارتجال واستسهلته ومضيت به بعد ذلك في حياتي كلها .

دمشق يومذاك

كانت مدينة دمشق في تلك الحقبة من مطالع القرن تعيش فترة إنتقالية ، في عاداتها وتقاليدها الاجتماعية ، ما بين المحدث والقديم الذي كان في أواخر أيامه وكانت وسائط النقل في المدينة تتنوع بين الترامواي وعربات الخيل والسيارات على قلتها وندرتها ، وهي للخاصة من القوم أما سيارات الأجرة فكانت معدودة ومخصصة للإنتقال بين المدن دمشق ـ بيروت على الأغلب ، لأن طريق دمشق ـ حلب كانت بالقطار . ودمشق تلك الحقبة كانت في أحيائها وطراز بيوتها من أندر مدن العالم . وكان بعض القديم من بيوتها قائماً كما كان منذ عقود كثيرة من السنين . وقد زرت دمشق قبل أسبوع وأدهشني بقاء حينا وبعض الأحياء الأخرى على ما كان فيها من أزقة ودخلات ، تعادل ما يسمونه في بيروت « الزواريب » . أما البيوت فأمرها عجيب إذا رأيتها من الخارج فستظن إنك أمام خرائب لكن عند دخولك إليها ستفاجئك باحاتها الواسعة بما تحتويه من أشجار ونباتات مزهرة وأحواض ، إلى بركة في وسط الباحة . وحتى بيوت الفقراء كانت تحتوي على بحرة وأشجار ونباتات مزهرة ولا بد في كل بيت من وجود ما يسمونه «ليوان» يقع في وسط المنزل ويفضي إلى أرض الدار أو فسحتها ، وهذا الترتيب للبيوت كان يتوخى على الأرجح ، تعويض النساء عن عدم التنزه في المنتزهات العامة ، إذ بجلوسهن في الليوان يشرفن على البحرة وأحواض (الزريعة) والأشجار . ومنذ أواسط الثلاثينات بدأ الناس يخرجون من هذه البيوت ، حتى الفخمة منها ، إلى بيوت السكن الحديثة ذات الطوابق الكثيرة . إلا أن الفقراء ومتوسطو الحال بقوا في تلك البيوت التي لا تزيد طوابقها عن اثنين الأرضي منهما للإقامة في الصيف للرطوبة فيه ، لأن المياه تحيط دمشق من كل جانب ، إلا أن النوم يكون في الطابق العلوي صيفاً وشتاء بسبب شدة الرطوبة . ومن أعقد وأغرب ما في دمشق نظام توزيع المياه على أحيائها وبيوتها منذ القديم . وهو نظام دقيق ومحكم التنظيم ويستلزم أخصائيين لشرحه . ففي كل زقاق من أزقة دمشق كان يوجد ما يسمى « الطالع » وهو جرن مقفل تنصب فيه المياه الآتية من المركز الأساسي الذي يغذي المدينة . ولهذا الجرن فرضات متساوية على حافته الدائرية ، منها تتغذى البيوت بالمياه بالتساوي وإلى مياه « الطوالع » ، كان في كل منزل دمشقي قديم بئر تستخرج منه مياه الاستعمال بالمضخة اليدوية . وإلى البحرة القائمة في أرض الدار ، كانت هناك بحرة ثانية تقوم في المطبخ ، لا أدري من أين كانت تتزود بالمياه . . . كأن دمشق كانت مدينة للمياه .

أزياء ، مقاه وفرنسيون

كان الغالب على ملبس الجمهور الدمشقي حتى في أوساط الأثرياء من كبار التجار وزعماء الأحياء ، إرتداء « القمباز » وما يغلب على القنابيز هو حياكتها في دمشق . ولا بد من شد وسط الرجل بزنار عريض . وفي لباس الرأس ، ولا سيما بين التجار ، كان الطربوش ملفوفة عليه عمامة مطرزة صفراء اللون تعرف بـ « الغباني » . على أن الأبناء من طلاب المدارس كانوا يلبسون اللباس المحدث ، بينما بقي الأبناء الكبار السن ، الذين لم يتسن لهم متابعة الدراسة ، على أزياء آبائهم ، لكن من غير لف طرابيشهم بالعمامة .

وهكذا كان البيت الدمشقي يحتوي ثلاثة أنواع من الملابس . وفي عهدنا بدأ التطور يظهر في تخلي الآباء عن العمامة واكتفائهم بالطربوش ، كما تخلى الأبناء الكبار عن القمباز لصالح لباس إخوانهم الصغار المحدث ، إلى أن تخلى الآباء عن اللباس التقليدي لصالح الزي الرسمي المعروف الآن . أما ملابس النساء فكانت واحدة موحدة تلتزمها الجدة العجوز كما الفتاة الشابة ، أو البنت التي بلغت الست السنوات . والملاءة السوداء كانت تغطي الجميع ، والنقاب الأسود يحجب الوجوه ، إلا أن ما يختلف بين النساء هو ما تحت الملاءة من ملابس .

والملاهي لم تكن معروفة في دمشق ، إلا تلك المخصصة للرواد من الفرنسيين والأجانب والبعض من الدمشقيين ممن تطبعوا بطباعهم . وبيروت كانت تزدحم بالدمشقيين أيام الجمعة من كل أسبوع ، وعلى الأغلب منذ ما بعد ظهر نهار الخميس حتى صباح السبت الباكر . وكان لانتقال الدمشقيين إلى بيروت سببان : إستيراد السلع من التجار ، واللهو والعبث في ملاهي بيروت التي كانت تستقبلهم ليلتين كاملتين ، إذ يجدون فيها ما لا أثر له في دمشق . أما المقاهي الدمشقية فكانت كثيرة وتزدحم بالرواد في الآصال والأماسي ، ولا سيما بعد أن شق شارع بغداد وقامت على جانبيه بعض المقاهي الحديثة النظيفة الشبيهة بالمنتزهات . أما قلب الأحياء وأطرافها فكانت تحوي مقاهي الفقراء . وكانت شلل من الطلبة الدمشقيين ، ممن تؤثر في « ميزانيتهم » القروش الخمسة ، ترتاد هذه المقاهي وتساوم أصحابها على الجلوس فيها خلال الإستعداد للإمتحانات من الصباح حتى المساء للمذاكرة لقاء خمسة قروش من دون طلب أي شيء من المقهى . أما المطاعم الدمشقية فكانت محدودة وتقدم المآكل الدمشقية المحلية الفاخرة . ومن أشهرها كان « مطعم أسدية » في قلب سوق الحميدية الذي كانت تكثر فيه محلات بيع (البوظة) غير المعروفة إلا في دمشق . والعابر سوق الحميدية كان يرى باعة البوظة ينهالون بمخابيطهم الخشبية الكبيرة على ما في داخل الأواني النحاسية . وكانت هذه المحال تمتلىء بالناس ، وفيها فقط كنت تشاهد النسوة يتناولن البوظة في زاوية من المحل من تحت أنقبتهن السوداء . نقول (البوظة) لأنه الإسم المعروف في لبنان للحليب المجمد . أما في دمشق فكان اسمه (القيمق) .

وأبناء الجالية الفرنسية من ضباط ومستشارين ، ومن إليهم ، كانوا لا يختلطون بالأهالي الذين ينفرون منهم وكانت للفرنسيين حياتهم الخاصة . ومن شدة كره الناس لهم كان يتجنبون الظهور في الشوارع والأماكن العامة ، خصوصاً في الأحياء . أما إقامتهم فكانت على أطراف دمشق ، وفي حي الصالحية على الغالب ، وبالقرب مما سمي بالجسر الأبيض كان يقوم بيت المفوض السامي الذي كان مقره الأساسي في بيروت .

من تقاليد دمشق

من الذكريات الدمشقية الجميلة في ذلك العهد سهرات الأدوار في ليالي الشتاء . فقد كان هناك تقليد دمشقي إجتماعي يسمى (الدور) وذلك أن أرباب كل حرفة من الحرف أو أية جماعات أخرى يرتبط بعضها ببعض بروابط ما . كان يلتقي أفرادها في ليالي الشتاء في بيت أحدهم في ليلة معينة من الأسبوع فيظل هؤلاء يتنقلون طوال فصل الشتاء من بيت في الأسبوع إلى بيت آخر في الأسبوع التالي حتى يأتي (الدور) على آخر

بيت ، ثم يعود فيبتدىء (الدور) من جديد .

كان لكل حي (أدواره) ولكل صنف من الناس (أدواره) ، فيكون التلاقي في (الدور) فرصة لمن قد لا يتلاقون إلا في (الدور) ، كما يكون وسيلة لبحث ما يطرأ من الشؤون العامة والخاصة .

وكانت أدوار حي الخراب ثلاثة أدوار (دور) للكهول والشيوخ وهم على الأغلب من التجار . و(دور) للشبان وأكثريتهم إما من التجار أو أبناء التجار . و(دور) ثالث لمحبي الثقافة والأدب الراغبين في الاستزادة من المعرفة .

أما ما يجري في (الدورين) الأولين فإن الدور الأول يغلب عليه طابع الجدّ ، وكثيراً ما يتعدى الجد إلى التنكيت وتبحث فيه شؤون الحي وأهمها شأن المدرسة العلوية وما تشكو منه أو ما يؤدي إلى تقدمها .

وأما (الدور الثاني) فيغلب عليه طابع التنكيت والقيام ببعض الألعاب المشتركة والتسليات الطريفة ، ثم يكون للجد مكانه ، وأهم ما يشغل أهله هو أمر المدرسة أيضاً . وأطرف شخصية كانت في هذا الدور هي شخصية توفيق شمس المنكّت البارع الظريف الذي أصبح بعد ذلك مختاراً لحي الخراب .

وأما (الدور) الثالث فقد كان معيناً له ليلة الأربعاء وكان رواده أقل عدداً بينهم شبه الأمي وشبه المتعلم والمثقف والعالم . ولكنهم كلهم يشتركون في أنهم أذكياء متفهمون راغبون بالمعرفة .

وكان منهجه أن يتلى فيه كتاب من كتب التاريخ أو الأدب ، ويناقش ما يتلى أو يوضح . وكان لا بد من تلاوة شيء من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد . كما كان ينشد فيه الشعر الجيد من بعض ذوي الأصوات الجيدة على الطريقة المعروفة في جبل عامل والعراق . وأطرف شخصية في هذا (الدور) كانت شخصية إبراهيم اللحام (أبي توفيق) .

وكان لا بد في (الدورين) الأول والثالث من حضور الوالد ، أما (الدور) الثاني فلا يحضره إلا إذا كان حضوره ضرورياً للبت في بعض الأمور .

وقد أنتج (الدور) الثالث الكثير من الشعر الطريف كان ناظموه الوالد وأديب التقي وأحمد صندوق ، كما أنتجت ذكراه قصيدتين جميلتين للوالد ولأحمد صندوق إذ أرسل الوالد بعد إقامة طويلة في جبل عامل قصيدة يحن فيها إلى دمشق ويذكر ليالي الأربعاء . فأجابه أحمد صندوق بقصيدة من رويها وقافيتها كانت تخليداً (لليلة الأربعاء) كما أن لأحمد صندوق أكثر من قصيدة في الحديث عن ليلة الأربعاء .

ومن أطرف ما جرى في إحدى الليالي أن اقترح أحدهم أن يفرض على كل واحد من الحاضرين أن ينشد شيئاً من الشعر على طريقة الإنشاد المعروفة . وكانت معظم الأصوات منكرة ، مما أدى إلى ضحك طويل .

وكنت أنا صبياً يصطحبني والدي معه لحضور ما يحضره لا سيما (دور) ليلة الأربعاء . وقد أثرت فيَّ ليالي الأربعاء تأثيراً كبيراً وانطبع في ذهني منها من المعلومات ومن الشعر ما استفدت منه كثيراً .

لقد زال (الدور) فيما زال من التقاليد الدمشقية الشعبية .

في أزقة دمشق

كانت المدرسة العلوية تجاورنا ، بل كان أحد جدرانها يلاصق بيتنا ، لذلك كنت أتباطأ في الذهاب إليها صباحاً ، فلا أمضي حتى أسمع صوت (الصفارة) معلناً التجمع لدخول الصفوف وعند ذلك أهب لأخذ كتبي ودفاتري فأصل المدرسة في دقائق تكون كافية لانتظامي بين التلاميذ الداخلين إلى صفوفهم .

والمدرسة والبيت يقعان في (دخلة الشرفا) وقد يقال لها (دخلة السِّيدا) بتشديد السين المكسورة وفتح الياء ، وهي عبارة عن ممر ضيق غير نافذ ، ينتهي (بدخلة) أخرى أكثر ضيقاً وأقصر مسافة تكاد تكون مظلمة في النهار .

ويبدو أن الاسم (الشرفا) قد التصق بها لأن سكانها كانوا من السادة الأشراف ، وهم في أكثريتهم من آل مرتضى وإن كانت منذ عرفناها غير مسكونة إلا من بيتين منهم فقط . أما البقية فهم من آل اللحام ، ثم من آل بيضون وبيت واحد من آل الجمال . وكان ألصق الجيران بنا الحاج مهدي (أبو أحمد اللحام) ، الذي كثيراً ما كنت ألقاه بجسمه المربوع الممتلىء وعمامته (الغباني) منطلقاً في الصباح بوجه يشع إيماناً وتقى وابتسامة تفيض سماحة وبشراً فيملأ نفسي حبّاً له وتعاطفاً معه . .

ولطالما خرجنا من (دخلة الشرفا) ومشينا متجاوزينها ومنطلقين إلى يميننا اجتيازاً لزقاق المدار ، ثم منحرفين إلى اليمين ماشين في الشارع الجديد المنشأ خلال الحرب العامة الأولى ، ثم منتهين إلى السوق . وهو السوق الذي يبدأ من باب الجابية ثم ينتهي (بباب شرقي) (الباب الشرقي) . وخلال امتداده الطويل هذا يتكيف تكيفات عديدة ويتسمى بأسماء مختلفة . فهو منذ باب الجابية سوق مسقوف تقوم على جانبيه المتاجر المنوعة وبعد أن يكون اسمه سوق مدحت باشا يصبح اسمه في امتداده مأذنة الشحم ، ثم ينتهي سقفه ، ولكنه هنا في مأذنة الشحم يبدل متاجره ، فبعد أن كانت في سوق مدحت باشا متاجر عامة ، تصبح في أوائل مأذنة الشحم بعد مدخل سوق البزورية سوقاً لاستيراد أبناء الغوطة والمرج ، مما يطلق على أصحاب متاجره اسم (الجرّادين) (بتشديد الراء) ثم يصبح فيما يلي ذلك سوقاً خاصاً بحي مأذنة الشحم ينزله اللحامون والعطارون والخبازون والسمانون ومن إليهم ، حي مأذنة الشحم : الحي الذي تتفرع أزقته منطلقة على يمين القادم من باب الجابية ، وتوغل في الإنطلاق حتى تتصل بحي الشاغور وغيره .

أما عن يسار القادم من باب الجابية فتتفرع أسواق عديدة يصل بعضها بين هذا الشارع الطويل وبين سوق الحميدية في تعاريج وأزقّة وأحياناً (دخلات) . وأشهر ما يتفرع عنه هو سوق (البزورية) .

وكل هذه الأسواق والأزقة الكبير منها والصغير ، والطويل والقصير ذات طابع دمشقي أصيل يميزها عن غيرها في كل البلدان ، ويسبغ عليها من الروح الدمشقية العريقة صفاء جميلاً وحلاوة طيبة .

فلله تلك الدروب ابتداء من دخلة الشرفا إلى زقاق المدار إلى الشارع إلى السوق إلى مأذنة الشحم إلى سوق مدحت باشا إلى باب الجابية . إلى ما تفرع عنها وامتدّ منها من مسارب ومداخل ومخارج .

العراضات

لله تلك الدروب التي طالما غصّت (بالعراضات) الدمشقية الحماسية التي لا يشبهها شيء في الدنيا بما فيها من حداء (شامي) وفتوة عربية . العراضات التي تسير من حي إلى حي حتى إذا قاربت حدود الحي المجاور هتف هاتفها الرفيع الصوت بالتحية متجاوبة معه جمهرة الرفاق .

ويا ما أعذب ذلك الصوت الهادر :

أبلي السلام عليكم : (أي : قبل كل شيء السلام عليكم) .

حتى إذا دوى الصوت في مسامع أبناء الحي المقصود تجمع من أمكن تجمعهم على جانب الشارع وهتف هاتفهم :

يا مرحبا
فيجيبه المجتمعون حوله :
بلّي جاي (باللذي هو آت)
أهلا وسهلا
بلّي جاي

ولا يلبث أن يهرع على الصوت أكثر أبناء الحي تاركين أعمالهم أو بيوتهم للمشاركة بالترحيب بالقادمين ويكون القادمون نوعين : أما ضيوف عابرون في طريقهم إلى حي آخر ، ففي هذه الحالة إذا قاربوا تجاوز حدود الحي هتف هاتفهم ، مودعاً ، ويتجاوب معه جميع رفاقه :

خاطركم رايحين نروح ، استروا ما شفتو منّا

فيجيب أبناء الحي بصوت واحد :

مع السلامة يا ضيوف وبالله تتمسُّوا عنا (تقضون المساء عندنا) .

وإما أن يكون القادمون مدعوين إلى الحي نفسه ولن يتجاوزوه إلى غيره . وهذا يكون إما أجابة دعوة إلى حفلات المولد النبوي ، أو لزيارة حجّاج الحي العائدين حديثاً ، أو إجابة دعوة إلى حفلة زفاف كبيرة مما يعرف في العرف الشعبي باسم (تلبيسة) . أو للصلح بين متخاصمين .

وفي هذه الحالة لا يكاد القادمون يلجون الحي حتى يتقدم إليهم اثنان من أهل الحي المزور من أبطال (لعبة السيف والترس) التي كان الدمشقيون يبرعون بها كل البراعة . فيبدأ الاثنان متبارزين بسيفيهما وترسيهما لدقائق وقد يتقدم معهما ثالث يكون غالباً بسيفين بدون ترس فيقف بيْنها ليضاربهما معاً ، وشرطه أن يكون من أبرع المضاربين ، ويعرفونه في الحي باسم (أبو سيفين) ، وفي كل حي من يلقب بأبي سيفين .

وتستمر لعبة أبناء الحي بضع دقائق ثم تنتهي ليتقدم أبرع أبناء الحي بسيفه فينتدب له من أبناء الحي الزائر أبرعهم ، فيقدم له المزورون ترساً ـ لأن العادة جرت أن لا ينقل الضيوف معهم أتراساً ـ فتبدأ المضاربة بين الحيين وتفتتح بهذا النص :

صحايف الله والرسول وعلي بن أبي طالب .
ثم صحايف عالم الحي (ويسمونه باسمه) .

ثم صحايف وجهاء الحي وعائلاته المشهورة (ويسمونهم بأسمائهم) .

ثم صحايف أهل الحي كبير وصغير (ويعبّر عن الحي بلفظ « الحارة ») .

ويختتم ذلك بعبارة : (بيّض الله وشُو) « وجهه » إذا كان المذكور واحداً .

وتستبدل كلمة « وشُو » بكلمة « وشّهم » إذا كانوا جماعة .

وفي هذه اللحظة ينطلق رصاص المسدسات من الفريقين بغزارة.محاولاً كل من الفريقين أن يكاثر الفريق الآخر برصاصه مما يمكن اعتباره نوعاً من (عرض العضلات) .

ثم تبدأ المضاربة بالسيف والترس ، وتنتهي على الأغلب بانتصار لاعب الحي المزور ، بنوع من التفاهم الضمني على ذلك لعرف سائد بين الأحياء كلها .

وبعد انتهاء الزيارة وعند عزم الضيوف على العودة إلى حيّهم يتجمعون وتبدأ (العراضة) من جديد فيهتف هاتفها متجاوبة معه جميع الأصوات الزائرة المودعة :

خاطركم رايحين نروح استروا ما شفتو منّا .

فترد أصوات المضيفين الجماعية : (مع السلامة والدرب سلطاني) ومدلول عبارة (سلطاني) هنا : أن الدرب سهلة سليمة مأمونة ، كالدروب المنسوبة إلى (السلطان) .

سقى الله أيام (العراضات) التي أحسب أنها زالت مع ما زال من التقاليد الشعبية الدمشقية الجميلة .

ولله تلك الدروب التي طالما غصّت بالمظاهرات الوطنية نقمة على المستعمرين واستقبل فيها الشبّان الدمشقيون الرصاص بصدورهم ، وتهاووا على الصعيد صرعى الكفاح الوطني .

تلك المظاهرات التي أقضت مضاجع الفرنسيين وحرمتهم لذة الاستقرار .

السيران

من زقاق المدار إلى الشارع إلى السوق إلى مأذنة الشحم إلى باب الجابية إلى شارع النصر إلى شارع الحجاز انطلاقاً إلى خارج دمشق ، إلى الربوة . طالما مشت بنا المركبات المجرورة بالخيل فاجتزنا ذلك الوادي الجميل بين فروع بردى المتدفقة ثم انتهينا إلى مجلس من مجالس الربوة ففرشنا (السجادات) واشتعل السماور ودارت أكواب الشاي ثم انتظمت المائدة المحمولة (بالمطبقيات) من البيوت ، تلك (المطبقيات) ذات الصحون العميقة التي يوضع بعضها فوق بعض ثم تغطى من أعلاها بغطاء وتشد من جانبيها شدّاً محكماً بما يربطها من أسفلها إلى أعلاها .

تلك (المطبقيات) التي تحمل ألوان الطعام الدمشقي اللذيذ من البيوت الكريمة السخية فتتنوع المائدة في (السيران) وتكثر ألوانها وقد لا يحمل الطعام في (المطبقيات) بل يتكفل أحد أصحاب (السيران) بدعوة رفاقه ونقل الطعام إليهم إما من صنع بيته ، أو ـ على الأغلب ـ بأن يكون الطعام من (الصفيحة) . المصنوعة عند اللحام والمنضجة في الفرن

والمنقولة مع علب اللبن الخشبية الأسطوانية إلى مكان (السيران) حيث تكون وقعة دمشقية عريقة تتميز ملاحم دمشق وأفرانها باتقان صنعها ! .

هاتان هما الطريقتان الوحيدتان في صنع الطعام . أما جمع المال من الجميع بالتساوي للإنفاق على (السيران) فذلك ما ينكر فعله الدمشقيون ويتهمون به أهل حلب ويعيبونهم به . وإذا أشاروا إلى شيء من ذلك قالوا : (عشرة حلبية) .

ويتنوع أصحاب (السيارين) فأما أن يكونوا أصحاباً متجانسين على تباعد ما بين أعمالهم وطبقاتهم . وأما أن يكونوا مجموعة من أصحاب الدكاكين المتجاورين . أو مجموعة من أصحاب حرفة واحدة كتجار سوق البزورية أو تجار سوق العصرونية أو السكرية أو الرواسة (بائعي رؤوس اللحم) والحبالة (بائعي الحبال) وغيرهم ، هذا فضلاً عن (السيارين) العائلية التي تضم البيت كله : ربّ البيت وربّته وأبناءهما .

وقد يدعو صاحب العمل عمّاله جميعاً إلى (سيران) يضمه وأولاده مع عماله كلهم. وقد تقوم مدرسة كاملة بمديرها ومعلميها وتلاميذها (بسيران) يجمعهم جميعاً .

وقد يحدث أن يقوم أبناء حي بأكثرية رجالهم (بسيران) مشترك يضمهم كلهم معاً .

وفي هذه الحالات الثلاث وأشباهها لا بد من قضاء نهار كامل في السيران يمتد من الصباح إلى المساء .

وكان الناس يستزيدون من طعامهم المنقول معهم إلى (السيران) لتوقع ضيف طارىء وليشركوا في طعامهم من يجدونه في البساتين ـ إذا كان السيران في بستان ـ من فلاحين أو ضامنين أو مرابعين في حين يتسابق هؤلاء في تقديم الألبان والفواكه والخضار لنزلائهم .

وكثيراً ما يشتري الضيوف هذه الأشياء من هؤلاء وينقلونها معهم حبّاً بمنفعة أصحابها .

على أننا ونحن في معرض الحديث عن ولائم السيران لا بد لنا من أن نشير إلى الولائم التي كان يولمها صاحب العمل في بيته لعمّاله جميعاً ، وغالباً ما تكون في الشتاء فيقوم أهل بيته بإعداد الطعام بأنفسهم لضيوفهم ويتولى صاحب البيت مع أولاده خدمة ضيوفهم .

ثم يعد بعض الطعام ليرسل مع فقراء المدعوين إلى بيوتهم .

سيران الربوة

حتى إذا أمسى المساء في (سيران) الربوة ودخل الليل كانت مشاهد (العربيات) أي المركبات وهي تمضي إما قادمة من المدينة لتعود بأهل (السيران) ، أو ذاهبة بهم من الربوة إلى المدينة ـ كانت مشاهد (العربيات) بفوانيسها الضئيلة المتلألئة وأصوات أبواقها المتتابعة وبما تبعثه ضربات الحوافر ودوران العجلات من أصوات . كانت بكل ذلك ـ ونحن نطل عليها من عل ـ شيئاً جميلاً عذباً طالما سحرني في الربوة وأنا طفل وأنا يافع وأنا شاب ! .

لقد زالت (العربيات) فيما زال من الأمور الدمشقية .

تقاليد السيران

(والسيران) هو من المظاهر الدمشقية المتميزة وكان الدمشقيون على اختلاف صنوفهم يعتبرونه جزء من حياتهم الرتيبة ، وقد يقومون به في الصباح مبكرين فيجتمعون ذاهبين إلى أحد المتنزهات القريبة حيث يحملون معهم طعام الصبوح فيتناولونه هناك تحت الشجر على ضفاف الماء ، لا سيما في أيام الربيع بين زهر المشمش المتفتح ، ثم يعودون إلى بيوتهم من (الصبحية) ثم يمضون إلى أعمالهم . وأكثر ما يكون (السيران) في الأصال حيث تلتقي المجموعات المتجانسة فتمضي كل مجموعة إلى مكان تقصده إما إلى بساتين الغوطة وما جاور دمشق من ماء ورياض أو في الربوة إما على ضفة الماء أو بعيداً حيث تختار مكاناً مطلاً على الوادي فتبسط على الأرض ما تحمله من مفارش وتمضي فيها يسليها من أحاديث أو ألعاب خفيفة وتظل هكذا حتى الساعات الأولى من الليل حيث تبدأ (العربيات) بنقل العائدين فتصل (العربية) إلى موقف تحت مكان جلوس جماعة السيران وتطلق (مزمارها) في طلقات متتابعة يعلم منها الجالسون أن عربيتهم قد وصلت ، ويكونون هم قبل ذلك قد هيّأوا أنفسهم للعودة ، إذ أن مجيء (العربية) يكون على ميعاد معين . هذا عن الذاهبين في (العربيات) أما الذاهبون مشياً على الأقدام فيملؤون الطريق زرافات ووحداناً . وليس السير مشياً هو بقصد توفير المال دائماً . بل كثيراً ما يكون زيادة بالاستمتاع بالطبيعة وإعمالاً للرياضة الجسدية .

وكان يتميز (سيران) جماعة الوالد بأنه لا بد فيه من إنشاد الشعر على الطريقة العاملية العراقية ، وكان إنشاد الجماعة محصوراً تقريباً بأديب التقي والشيخ علي الجمال ، وكان لا بد من نقل دواوين الشعر بين ما ينقل من أدوات السيران ولا بد من أن يكون بين هذه الدواوين ديوان الشريف الرضي ، وربما اقتصر عليه وحده .

وأول ما سمعت شعر الشريف الرضي وأنا طفل ، إما في ليالي الأربعاء ، أو في (السيران) . ومع أن بين جماعة (السيران) كما في جماعة ليلة الأربعاء من هم شبه أميين ، فقد كانوا ذوي قابليات تستوعب ما تسمعه ولطول المران في ليلتي الأربعاء وفي (السيارين) أصبحوا يستحسنون الحسن من الشعر ويهتزون له ويطربون ! .

أما (سيارين) الأعياد فإنها تستمر طيلة أيام العيد وتقصد إلى الأماكن البعيدة العامرة في الفيجة أو عين الخضرا أو الهامة أو دمر أو حتى الزبداني وقراها ، حيث يمكن المبيت هناك طيلة أيام (السيران) . .

وفي أحد سيارين عيد الفطر صحبت الوالد وجماعته إلى عين (الخضراء) وكانت لا تزال على طبيعتها . ومضى الوالد في أحد الأيام مصعداً في الجبال وتبعه الأكثرون ثم بدأوا يتراجعون تعباً وفرقاً ، ولم يصل إلى أعلى الجبل غيره وكان المساء قد دنا في العودة فلقي شدائد كثيرة .

وحال المرأة في السيران كان كحالها في الأماكن العامة الأخرى بملاءتها وبرقعها الأسودين . إلا أن حضورها نزهات السيران كان قليل الحدوث . وعلى الرغم من غرام الدمشقيين بسيرانهم فإن نساءهم كانت محرومة منه . ومن شدة غرامهم بالسيران كانوا لا يكتفون بنزهات العصارى والعطل، بل أن فريقاً منهم كان يجتمع للذهاب إلى السيران في الفجر الباكر قبل الذهاب

إلى العمل ـ كما تقدم ـ وفي أماكن هذه التنزهات الصباحية نذكر اسم (الأحد عشرية) .

الشارع واليهود

من دخلة الشرفا كنا نخرج فإذا انتهى طريقنا القصير فيها فإننا في نهايتها ندور إلى اليمين فنفاجأ أول ما نفاجأ بدكان علي المبيض القائمة على الزاوية تماماً في أول زقاق المدار ، فنراه واقفاً في نقرة الدكان وتحت قدميه قدر من قدور النحاس التي يعهد إليه بتبييضها وهو يدور في القدر ضاغطاً بقدميه فيه ليعود ناصع البياض ! وقد لا يكون الأمر أمر قدر بل أمر مواعين صغيرة فعند ذلك يعالجها بيديه ! .

على أنه مهما كان الذي يعالجه ، وسواء كانت قدماه هما العاملتين أم يداه هما العاملتين ، فإن شفتيه لا تتعطلان أبداً ، بل تشاركان في العمل دائماً ، تشاركان إما القدمين وإما اليدين ، تشاركان لا بتبييض النحاس ، بل بالغناء الدائم المستمر ! .

لقد انقضى عهد علي المبيِّض فيما أحسب وطوى الزمن قدور النحاس وآنية النحاس ! .

وإذا كانت قدور (الضغط) وغير قدور الضغط قد حلّت محل قدور النحاس ، واستغنى الناس عن (المبيِّضين) ، فمن ترى حل محل علي المبيِّض في دكانه الصغير في أول زقاق المدار ؟ . وأيّاً كان هو الذي حل محله ، فلا أحسب أن شيئاً قد حلَّ محل أغانيه ، أو صوتاً يمكن أن يشغل النفس بمثل ما كان يشغلها صوت علي المبيِّض . . وبعد علي المبيِّض نجد أمامنا طريقين : طريقاً على اليد اليسرى هو مدخل حارة اليهود ، حيث تتشعب هنا الأزقّة والدخلات والدروب .

أما طريق اليد اليمنى فهو طريق زقاق المدار المنتهي إلى الشارع ، وقد مرَّ ذكر هذا الشارع دون تسمية ولم يكن له في تلك الأيام اسم ولم يكن معروفاً إلا بإسم الشارع ، فيقال مررت في الشارع وجئت من الشارع ، وذلك أنه كان الشارع الوحيد في تلك المنطقة ، إذا كان المقصود من الشارع ما شقّ حديثاً ووسّع فيه القديم . وأنا لا أعي شق هذا الشارع إذ أنه شق خلال الحرب وإنما أعي أنه كان لا يزال فيه بيوت متهدمة أطرافها لشق الشارع وكانت لم تبن بعد . ويبدو أنه كان زقاقاً ضيّقاً وسّعه الأتراك في أواخر عهدهم خلال الحرب ، وهو في صميم حي الخراب ، ولما كان شقّه قد جرى خلال الحرب ، والناس في شاغل بفقرها وغربة شبابها ، فقد طال أمد إعادة تعمير ما تهدم من بنيانه ، وكان معظم المالكين من المسلمين الفقراء فاغتنم اليهود هذه الفرصة وأخذوا يشترون الدور المتهدمة ويعيدون بناءها بشكل حديث حتى عمر الشارع بهم وأصبحوا فيه كثرة . ولم يعد المسلمون يملكون إلا النزر القليل . أما ما تفرع عن الشارع ، فقد ظلَّ على حاله (دخلات) متداخل بعضها ببعض، وأزقة قديمة وبيوت عتيقة ظلّت لأصحابها المسلمين . وكان أهم ما يتفرع عنه في وسطه (القساطلية) ، وكان من أبرز سكانها آل صندوق الأسرة العريقة بالذكاء والتقوى . والتي خرج منها في عصرنا مؤرخ وكاتب وشاعر مجيد هو الأستاذ أحمد صندوق وفقيه المعي أديب هو الشيخ محمد علي صندوق .

وتتفرع عن الشارع دخلة معظم سكانها فرع من آل مرتضى يعرفون ببيت الحنفي كان أبرزهم السيد عباس الحنفي الذي كان على قسط وافر من الشهامة والذكاء وحسن الخلق وحلاوة الحديث وعذوبة المنطق ، وكان من أبرز عناصر ليلة الأربعاء و (السيارين) .

سيطر اليهود على الشارع ، وكان هذا الشارع وسيلة الخروج بسكناهم من حارتهم القديمة ذات التعاريج والأزقة والدخلات على طريقة أزقة دمشق القديمة، وأصبح يعج بهم في الأماسي لا سيما في ليالي السبت ، شبّاناً وشابّات يتنزهون فيه . جيئة وذهاباً ، بينما يجلس الكهول والشيوخ نساء ورجالاً على أبواب بيوتهم .

واستقووا بالإحتلال الفرنسي ، فكان الاحتكاك بينهم وبين أهل حارة الخراب مستمراً .

وحاول مرة الحاخام الأكبر أن يتودد لأهل الحارة ففاجأ والدي في أحد الأعياد برسول يشعر بأنه قادم على أثر الرسول لزيارة والدي وتهنئته بالعيد ولم يكد الرسول ينصرف حتى خرج والدي من البيت ، فجاء الحاخام فلم يجد أحداً .

وبالرغم من أن هذا التصرف كان جافّاً ، وكان متنافياً مع أخلاق والدي ، فقد كان لا بد منه في رأي الوالد ، لأن معنى قبول زيارة الحاخام في العيد واستقباله في البيت أن الوالد سيضطر لمبادلته الزيارة في عيدهم ، ثم تتكرر الزيارات والاتصالات . وكان هذا عند والدي أمراً لا يمكن أن يقع ، في الوقت الذي كشفت فيه الصهيونية قناعها وأسفرت عن حقيقتها وكان اعتقاده أن كل يهودي صهيوني .

وبعكس ذلك فقد كانت الزيارات متبادلة بين الوالد وبين بطريرك الأرثوذكس المجاور حيّهم أيضاً لحارة الخراب ، وكان البادىء بالزيارة البطريرك الكسندروس طحان مع لفيف من المطارنة وذلك عند عودة الوالد من إيران والعراق ، ثم بادله الوالد الزيارة في إحدى المناسبات وتكرر ذلك أكثر من مرة .

واستمر الاحتكاك والتحدي بين اليهود وأبناء الحي وبلغ أشده حين أراد اليهود إطلاق اسم أحد كبار رجالهم على الشارع بالتفاهم مع الفرنسيين وألصقوا لوحة في رأس الشارع تحمل الاسم ، فاقتلعها ليلاً أهل (الحارة) إلى أن جاء الحكم الوطني العام ١٩٣٧ فتقرر تبديل إسم حي الخراب وإطلاق إسم حي الأمين عليه تكريماً من الحكم الوطني لوالدي ، وتبعاً لذلك أصبح إسم الشارع شارع الأمين .

بعد الاحتلال

كان دخول الفرنسيين دمشق وهدمهم الحكم الوطني الذي قام فيها صدمة رهيبة ناءت بها سوريا وقتاً طويلاً ، وصمت الناس على الاحتلال ومضى الزمن في مسيرته هيناً ليناً كأن شيئاً لم يحدث ، وكأن الكارثة لم تكن بمثل هذا الروع . وحسب من حسب أن ما يسمى بالانتداب قد ركّز دعائمه وأن التجزئة قد ثبتت . وأن سوريا العربية الباسلة قد قرت على الهوان، وأن دولة دمشق ودولة حلب اللتين قامتا على أنقاض المملكة العربية السورية ، ودولة العلويين ودولة جبل الدروز قد استقر كيانها ! . .

لا سيما وأن دمشق المتمردة قد تطامنت وألقت بيديها طائعة بعد ميسلون فرأى فيها غورو ما لم يكن يظن إنسان أن غورو سيلقى مثله من

استقبال جماهيري صاخب ، إذا كان قد أعده المتملقون ، فإنهم على كل حال قد نجحوا في إعداده النجاح الذي لم يكونوا يحلمون به .

ولا أستطيع الآن أن أصف حقيقة شعور الجماهير لأنني لم أكن يومذاك في وعي يمكنني معه الإحساس بما يحمله الشعب من إحساس حقيقي .

ولكنني أذكر تماماً أن وزارة علاء الدين الدروبي التي تألفت بعد يوم ميسلون ، والتي أصبحت تحكم البلاد في ظل الفرنسيين ، أذكر أنها جوبهت بأول ثورة عليها وعلى الفرنسيين . ولم تكن هذه الثورة من صنع دمشق ، ولا من صنع غيرها من المدن الكبرى ! .

لقد كانت تلك الثورة ثورة القرى والأرياف ، وبالتحديد ثورة حوران . فإن صدى الاحتلال ، وصدى انهيار الاستقلال كان مدوياً في حوران ، لا سيما وأن الملك فيصل كان قد تركز أولاً في الكسوة على الطريق الموصل إلى حوران ثم في درعا عاصمة حوران . وربما لاح له في ذلك الوقت أن يتخذ من موقعه هذا قاعدة لقتال الفرنسيين . ولكن طيارات الفرنسيين أنذرت بمناشيرها الحورانيين بما سينالهم من شر إذ استجابوا لفيصل . وكان أن صمم فيصل على التوجه إلى حيفا ثم أوروبا . ولكن غضبة (الحوارنة) لم تسكن وثورتهم لم تهدأ ، فأرسل الفرنسيون رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي ووزراءه لإقناع (الحوارنة) بالاستسلام فكان الجواب قتل علاء الدين الدروبي وبعض وزرائه ونجاة من نجا بالاختباء في شر مختبأ . واستطاع وزير الداخلية عطا الأيوبي الفرار ولكن إلى حيفا لا إلى دمشق .

كان الوفد مؤلفاً من كل من رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي وعبد الرحمان باشا اليوسف رئيس مجلس الشورى وعطا الأيوبي وزير الداخلية والشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ عبد الجليل الدرة .

وبوصولهم إلى محطة خربة الغزالة التي تبعد عن درعا خمسة وعشرين كيلومتراً ، انقضّ على القطار جمع تتعالى أهازيجه ويرتفع حداؤه فخيل للوفد أن الجمع جمع استقبال وتحية ، ثم لم يلبثوا أن أدركوا الحقيقة فحاول الدروبي الاحتماء بين ركاب الدرجة الثالثة ولكنه اكتشف فقتل ، وفر عبد الرحمان اليوسف إلى دار المحطة فعرف وقتل أيضاً ونجا الآخرون متوارين فارّين . .

فجردت السلطة حملة على حوران قضت على الثورة بعد التخريب والتقتيل وفرضت غرامة باهظة .

جرى ذلك في محطة خربة الغزالة التي كانت مقراً لفريق من التجار الدمشقيين الذين يبدو أنه كانت لهم مشاركة فعالة فيما جرى .

وكانت ثورة حوران أول ما جابه الفرنسيين من تمرد وعصيان . وظلت أصداؤها تتجاوب في أذهاننا ونحن في تلك السن .

وهذه الثورة هي صورة عن الفوضى التي كانت تتخبط فيها البلاد وانعدام التنظيم والتوجيه والتخطيط .

فقد كانت البلاد كلها شعلة من الوطنية الثائرة على الفرنسيين ولكنها كانت كسفينة تتلاطمها أمواج المحيط بلا قائد ولا حكيم ولا مدير . فمنذ حل الفرنسيون فيما أسموه المنطق الغربية ، بدأت الاضطرابات الموضعية غير المرتكزة على قاعدة ثابتة مدبرة فكان يسهل على الافرنسيين إخمادها وتدمير أهلها كما حدث في حركات الجبل العلوي وجبل عامل وغيرهما ، قبل سقوط دمشق وكما حدث في ثورات الشمال وثورة الحوارنة بعد سقوطها فلو أن جميع هذه القوى ادخرت للساعة الحاسمة ، ساعة الصدام الذي لا بد منه مع المستعمرين لواجه هؤلاء قوى ضارية منظّمة مترابطة تثور عليهم في وقت واحد يشغلهم في كل مكان ويريهم ثورة رهيبة لا يستطيعون ضربها بمثل السهولة التي ضربوا بها ما ضربوه .

ويبدو أن أهل الحل والعقد كانوا حتى اللحظات الأخيرة يطمعون بنوع من التفاهم ويرون أن الأمور لا تنتهي إلى صدام مسلح ، فلم يعدوا للأمر عدتُه ولا واجهوه بتنظيم دقيق ولا كان لهم نظر بعيد .

فبينما كانت الاضطرابات تعم المنطقة المحتلة بلا ترتيب ولا قيادة ، لم يفكر العسكريون في دمشق بفقدان السلاح وفقدان الذخيرة إلا في الساعات الأخيرة أو بالأحرى في اللحظات الأخيرة ! .

فياسين الهاشمي الذي كان العسكري الأول آنذاك والذي كان معهوداً إليه بالإشراف الكامل على شؤون الجيش وسلاحه . لم يعرب عن حقيقة تسليح الجيش إلا بعد وصول إنذار الجنرال غورو ، ثم انسحب من المسؤولية وآثر العزلة ! .

يروي محمد علي العجلوني الذي كان شاهد عيان : أن ياسين الهاشمي صارح الملك فيصل في الساعات الأخيرة أن الجيش السوري لا يستطيع الثبات فنياً سوى بضع ساعات .

ويروي يوسف الحكيم الذي كان شاهد عيان أيضاً : أن الضباط أركان الجيش أبلغوا مجلس الوزراء أن العتاد الحربي لدى الجيش لا يزيد عن مئتين وسبعين طلقة لكل بندقية حربية وثمانين قنبلة لكل مدفع من المدافع السبعين .

ولا أدري لماذا لم يكتشف هؤلاء العسكريون هذا قبل آخر لحظة . ولماذا لم تكن الحكومة قد درست أمر جيشها وهي في سعة من الوقت ؟! .

منذ الساعات الأولى لقيام الحكم العربي الاستقلالي في دمشق اتجهت الأنظار إلى العسكري الأول بين العرب في ذلك الحين ياسين الهاشمي فعهد إليه بالشؤون العسكرية كلها . وكان أول ما عمله أن حل جيش الثورة الذي فتح دمشق وسرّح ضباطه . دون أن يكون قد اعتمد خطة معينة واثقاً من نجاحها لإنشاء جيش جديد ، فبدأ التخبط العسكري منذ تلك الأيام . ثم اختطف الإنكليز ياسين الهاشمي بعد أن دعوه لتناول الشاي في مقر القيادة العسكرية في المزة وأرسلوه معتقلاً إلى الرملة بفلسطين .

فعلوا ذلك وهم يتهيؤون للجلاء عن دمشق ، بل قبل أن يجلوا بساعات . ثم أعادوه بعد بضعة شهور .

وكان قد خلفه في القيادة العسكرية يوسف العظمة فكان له رأي ـ على ما قيل ـ يختلف عن رأي ياسين الهاشمي في الإعداد العسكري .

ومهما يكن من شيء فإن ياسين الهاشمي لم يتذكر أن يكشف على مستودعات أسلحة الجيش إلا في الأيام الأخيرة التي سبقت معركة ميسلون ، حيث رجعوا إليه في تولي القيادة فكشف على مستودعات السلاح

وقال أن لا سلاح يعتد به لدى الجيش . ومن العجيب أنه طيلة سنتين اثنتين من ١٩١٨ إلى ١٩٢٠ لم يتنبه أحد إلى حقيقة السلاح الموجود والسعي لإيجاد غير الموجود ! .

تماماً كما حدث العام ١٩٤٨ حين صمم العرب على قتال الصهيونيين ثم اكتشفوا أنهم بحاجة إلى كل شيء ، بعد أن كانت قد سدت في وجوههم مصادر كل شيء ! .

وظلت الأمور في تخبط بلا تخطيط ولا إعداد حتى جاء اليوم الذي لا يجدي فيه إلا العمل ، وكانت وسائل العمل في هباء .

ومن العجيب أن أحداً لم يفكر منذ الأيام الأولى لجلاء الأتراك بالمستقبل البعيد وبإمكان الصدام مع الفرنسيين ووجوب الاستعداد لهذا الصدام ! . مع أن طلائع الصدام قد أتت منذ أول ساعة حين طرد الفرنسيون الحكام الوطنيين في الساحل وأسفروا عن مطامعهم في الساحل والداخل ! .

ويبدو أن حال القوم يومذاك كان كحالنا اليوم ، كانوا يأملون بما اصطلحنا على تسميته (بالحل السلمي) ، ثم انتهى بهم الأمل إلى ما انتهى . ولا يزال فينا اليوم (١٤ تشرين الأول ١٩٧٢) وبعد خمس سنوات من حدوث ما أسموه (حرب الأيام الستة) ، وبعد قيام المستعمرات في كل مكان فيما احتله اليهود بعد تلك الحرب ، وبعد تصريحاتهم العلنية الصريحة بأنهم باقون حيث هم ، لا يزال فينا من يطمع بالحل السلمي .

اليوم كالأمس

هذا ما وعته ذاكرتي من أحداث تلك الأيام وما انطبع فيها مما شاهدته بعيني ومما أمكن أن يعيه فكري الطفل . وقد عرفت بعد ذلك ، بعد أن أدركت ووعيت حقيقة ما جرى مما أجمله فيما يلي :

أقبل قادة العرب من كل مكان إلى دمشق بعد الجلاء التركي . فبعضهم جاء مع فيصل كالضباط العراقيين والبعض الآخر توافد إليها لأنها أصبحت مقر العمل العربي ومطمح آمال العرب وقاعدة أول بقعة مستقلة في بلاد الشام وغير بلاد الشام بعد الحكم الأجنبي الطويل .

فكان فيها رجال العراق ورجال لبنان ورجال الساحل ورجال فلسطين(١)، كما كان فيها بعض من كان قد نزح إلى مصر من السوريين . والتقى الجميع بآمال ضخمة وأماني بعيدة يحسبون أن ساعة الدولة العربية الكبرى قد دنت ، وأنهم مؤسسوها وباعثو رفاتها .

كيف لا وجيشهم العربي الزاحف من قلب الحجاز هو المنتصر حليف المنتصرين ، وملء حقائبهم وعود مؤكدة ومواثيق وثيقة .

كان العرب يعيشون تلك الأيام التي بدأت عام ١٩١٨ ثم انتهت يوم الرابع والعشرين من تموز ١٩٢٠ أزهى أيامهم وأعذب أحلامهم . وكانوا في غمرة هذا الفرح لا ينظرون إلى البعيد ولا يحسبون حساباً للغدر والختل .

(١) كان الأردن جزء من سوريا.

ثم بدأت الحقائق تنجلي قليلاً قليلاً فالحاكم العربي الذي ذهب إلى بيروت ورفع علمه على صروحها عاد مطروداً من الفرنسيين ، وأنزل العلم ذليلاً ! . .

والحكام الوطنيون الذين عينوا أنفسهم في مناطقهم الساحلية معلنين الاستقلال لم يلبثوا أياماً بل ساعات ثم دحرجوا عن كراسيهم .

وتقلص حجم الرقعة المستقلة حتى انحصر فيما عرف بعد ذلك بإسم المنطقة الشرقية وهي لا تعدو دمشق وحمص وحماه وحلب وما يتبعها وينضوي إليها ! .

ولكننا إذا نظرنا إلى العرب يومذاك نراهم في واقع هو أفضل ألف مرة مما صار إليه واقعهم المعنوي بعد ذلك .

كان الحديث يومذاك عن العرب وعن القضية العربية والتوق كله إلى الوحدة الشاملة . ولم يكن للإقليمية مكان ! .

فهذه بقعة صغيرة من بلاد الشام أميرها ثم ملكها حجازي(٢) ورئيس برلمانها مصري لبناني الأصل(٣) وقائد جيشها عراقي(٤) ووزير داخليتها لبناني(٥) ووزير خارجيتها فلسطيني(٦) وحكام مناطقها وضباط جيشها مزيج من كل أرض عربية . لا يدور بخلد أحد أن يسأل أحداً عن بلده أو أن يجد في ذلك موضعاً لاستغراب ومكاناً لتساؤل ! .

أليس الجميع عرباً ؟ . أليسوا كلهم رجال قضية واحدة فهم جميعاً في أرضهم وجزء من وطنهم ؟ .

ثم هذا الترفع عن الطائفيات وعدم النظر إلى دين الشخص أو مذهبه . فهذه أول حكومة عربية تقوم في البلد الإسلامي العريق دمشق وتشمل سيادتها الأرض السورية الداخلية التي لا يبلغ فيها المسيحيون ١ من ١٢ فتتكون من حاكم عسكري سني دمشقي هو رضا الركابي ورئيس للشورى الحربية سني بغدادي هو ياسين الهاشمي ورئيس للعدلية ماروني من دير القمر هو اسكندر عمون ورئيس للمالية أرثوذكسي من الشويفات هو سعيد شقير ورئيس للأمن العام أرثوذكسي طرابلسي هو جبرائيل حداد ورئيس للخارجية أرثوذكسي دمشقي هو توفيق شامية ورئيس للصحة بروتستانتي من مواليد عبيه هو موصلي باشا .

خمس رئاسات أو بالأحرى خمس وزارات من سبع يشغلها مسيحيون ، أربعة منهم من لبنان وواحد من دمشق(٧) .

ومحكمة الاستئناف المدنية التي تطبق مجلة الأحكام العدلية المستمدة من الشريعة الإسلامية ، محكمة الاستئناف هذه تتألف من ثلاثة قضاة كلهم

(٢) فيصل.
(٣) رشيد رضا.
(٤) ياسين الهاشمي.
(٥) رضا الصلح.
(٦) سعيد الحسيني.
(٧) فور انسحاب الأتراك ودخول الجيش العربي بقيادة فيصل إلى دمشق تألفت أول حكومة عربية لم يسم اعضاؤها بالوزراء بل سموا رؤساء : رئيس العدلية ، رئيس الداخلية . . . إلى آخره . وبعد تتويج فيصل تألفت الحكومة الدستورية وأطلق على أعضائها اسم الوزراء .

مسيحيون ، بينهم اثنان من لبنان هم : نجيب الأميوني من حاصبيا رئيساً وأسعد أبو شعر من دمشق عضواً وفايز الخوري من الكفير (حاصبيا) عضواً .

أما اليوم وبعد أن استقلت البلاد العربية وقامت فيها دول وحكومات فإننا لا نطمح أن يعامل العربي في أي قطر عربي بمثل ما يعامل به أبناء ذلك القطر ، بل أن أكثر ما نطمح إليه هو أن يسمح العرب للعرب بدخول أقطار العرب بمثل ما يسمح به الأوربيوت بعضهم لبعض .

وأن تعامل حكومات العرب بعضها بمثل ما يتعامل به الأصدقاء والجيران في كل مكان بلا شحناء ولا تباغض ولا تقاتل ! .

إنني وأنا أكتب هذه السطور أقرأ بلاغاً لحكومة عربيه تباهي به أنها أسقطت لحكومة عربية أخرى طيارة وعطلت كذا دبابات وقتلت كذا رجالاً ! . . هذا والحكومتان تحملان إسماً واحداً ولكن تنتمي إحداهما إلى الشمال والأخرى إلى الجنوب ! .

وأسمع صيحات التشاتم والتشاجر تتعالى من ها هنا وها هنا ! .

أقرأ وأسمع وأرى ، في نفس الحين الذي أقرأ فيه كلاماً للمرأة العجوز غولدا مايير تهدد وتتوعد وتهزأ وتسخر ! .

وإذا كان من غير المستغرب في هذا العصر أن ترئس امرأة أية حكومة ، وإذا كان في العالم اليوم إلى جانب (الرئيسة) غولدا مايير رئيستان أخريان في الهند وسيلان . فإن من الايغال في الإذلال المعنوي أن يكون المهدد المتوعد الهازىء الساخر بالعرب أجمعين وملايينهم المائة والعشرين وجلالاتهم وفخاماتهم وسياداتهم هو امرأة عجوز ! .

والآن وأنا أكتب هذه الذكريات في خريف العام ١٩٧٢ أي بعد مرور اثنين وخمسين سنة على تلك الأحداث . وبعد أن شهدت الأمة العربية ما شهدت ومرّ بها ما مر .

الآن أقرأ وصفاً للضياع الذي كان فيه العرب يومذاك والتمزق الذي كانوا يعيشونه وهم يواجهون مرحلة من أخطر مراحل وجودهم . أقرأ وصفاً كتبه واحد ممن حضروا تلك الفترة وعانوها كل المعاناة .

الآن أقرأ ما كتبه أسعد داغر وهو يتحدث عن واقع العرب في تلك الفترة الحرجة :

« ولكن زعماء العرب ومفكريهم بعد أن رفعوا شعور الأمة إلى هذا المستوى العالي لم يحسنوا الاستفادة منه . إما لنقص في التجربة أو ضعف في العزيمة أو خلاف في الآراء أو تنافس بين الأفراد أو لكل هذه الأسباب مجتمعة في وقت واحد . فبدلاً من أن توضع خطة سياسية بعيدة المدى تتولى تنفيذها يد حازمة . . . لجأوا إلى الراحة وقضوا أوقاتهم الثمينة في بحث النظريات العقيمة غير حاسبين للمستقبل أقل حساب فكانت النتيجة أن انقسموا على أنفسهم شيعاً وأحزاباً » .

ولو أن إنساناً أراد أن يصف حال العرب اليوم بعد اثنين وخمسين سنة وهم يواجهون الصهيونية ، هل كان يمكن أن يكتب غير هذا القول ؟! .

الهمود

ثم همدت سوريا ما عدا معارك إبراهيم هنانو في الشمال ومعارك صالح العلي في الجبل العلوي ، ثم انتهى كل شيء !! .

ولقد كان عجيباً أن تقر دمشق بعد كل تلك الحماسة وأن تستطيب الدعة بعد كل ذاك الاضطراب ، ولكن الحقيقة أن الاحتلال فرق شمل المناضلين ، فتفرقوا فراراً من الفرنسيين في كل مكان أو انزوى منهم من انزوى ستراً للعيون المترصدة .

ثم بدأ الشمل يجتمع ، وبدأ بعض الراحلين يعودون ، ثم أخذوا يتداولون ويجتمعون ويتهامسون ، ثم بدأوا يجهرون بعض الجهر .

أصبح الانفجار مؤكداً ، ومواد الوقود جاهزة لا تحتاج إلا إلى الشرارة التي تذكيها .

وكان قد حدث على أثر الاحتلال ومجيء الجنرال إلى دمشق ، ثم عزمه على تلبية دعوة محمود الفاعور شيخ عرب الفضل في الجولان واتجاهه بطريق القنيطرة إلى مقر محمود الفاعور . حدث أن بضعة شبان من المناضلين قد كمنوا له في الطريق وأطلقوا على موكبه الرصاص محاولين اغتياله بعمل بطولي ، وكان يرافقه حقي العظم الذي كان قد نصبه الفرنسيون حاكماً لدولة دمشق . فلم يصب غورو وإنما أصيب مرافقه الضابط فقتل وأصيب رفيقه حقي العظم برصاصة فجرح جرحاً طفيفاً ، كما مرت الإشارة إلى ذلك من قبل .

ثم قامت أحداث محدودة لم تلبث أن خمدت أو أخمدت كحادثة مدرسة البحصة التي عبّر فيها التلاميذ عن نقمتهم وأدّت إلى إقالة مدير المدرسة أديب التقي . وذلك أن الطلاب حطموا صورة الجنرال غورو التي أمرت السلطات برفعها في المكاتب الحكومية وتغاضى أديب التقي عن ذلك فكان ما كان .

وأخيراً انطلقت الشرارة التي كان لا بد أن تنطلق ومسّت البارود الهامد فانفجر انفجاراً مدوياً .

الصيحة الأولى

كانت المناسبة وصول المستر كراين في زيارة لدمشق في شهر نيسان ١٩٢٢ ، والمستر كراين هو رئيس لجنة الاستفتاء التي جاءت إلى سوريا ولبنان في أعقاب الحرب العالمية الأولى وكان كراين هذا متودداً للعرب مظهراً الصداقة لهم ، فجاء في تلك الفترة يزور البلاد التي جاءها في يوم من الأيام مستفتياً وأسبغ عليها من عواطفه ما أرضاها ، فرأت دمشق أن تكرمه وتطور التكريم ففجر ما كان هامداً في النفوس من النقمة العارمة والثورة الجيّاشة فانطلق الخطباء ينددون بالانتداب ويعلنون نقمتهم على رجاله وينادون بالاستقلال ويحيونه ، فتجاوب الناس معهم ، ودوى في أجواء دمشق لأول مرة بعد ميسلون صوت الحرية وتعالى نداء الاستقلال .

ثم كان توديع كراين ، فانقلب التوديع إلى مظاهرة وطنية صخابة ، كانت الأولى من نوعها في وجه الفرنسيين . وكان المحركون لكل ذلك والمسببون له هم الدكتور عبد الرحمن شهبندر وسعيد حيدر وحسن الحكيم ومن إليهم من شبان وإخوان .



عند التخرج من المدرسة العلوية بالشهادة الإبتدائية

فرأى الفرنسيون أن يأخذوا الأمر بالشدة وأن يخمدوا الصوت قبل أن ينتشر في كل الآفاق فاعتقلوا الثلاثة واعتقلوا معهم من كان من أعوانهم . فجاءت النتيجة عكس ما أمل الفرنسيون إذ كان اعتقال هؤلاء مثيراً للمظاهرات ، مؤلباً للجماهير ! .

وكلما اتسع الاعتقال اتسع نطاق المظاهرات ، ولا أزال أذكر مشهد المصفحات الفرنسية وقد اخترقت سوق الحميدية ماضية إلى قرب مدخل المسجد الأموي ، حيث كان المتظاهرون يتجمعون أكثر ما يتجمعون هناك .

وانتهى الأمر بمحاكمة الثلاثة ومحاكمة آخرين معهم والحكم عليهم بالسجن مدداً مختلفة وإرسالهم إلى جزيرة أرواد ليقضوا مدة الحكم هناك .

وقد بقوا في سجون أرواد حتى الثامن عشر من تشرين الأول العام ١٩٢٣ حيث أطلق سراحهم .

وهكذا كان هؤلاء الثلاثة كما عبّر عنهم بعد ذلك نجيب الريّس الذي كان رفيقهم في سجون أرواد : أصحاب الصيحة الأولى .

أول مقال

ومضت الأيام وأنا لا أزال أواصل الدراسة الابتدائية في المدرسة العلوية ثم أوشكت على إنهائها ، وفي الصف الأخير منها (الصف السادس) يومذاك كتبت أول مقال نشرته لي مجلة العرفان .

فقد طورتني دروس الإنشاء التي كان يتولاها أديب التقي ، وكتبت يوماً موضوعاً شعرت أنه أرضى الأستاذ ، فعدت وبيّضته وطلبت إليه أن يرسله إلى مجلة العرفان ، فاستجاب أديب التقي لذلك ، وأرسله لصاحب العرفان كما هو قائلاً في تقديمه ما لا أزال أذكر بعضه : « هذه سانحة من سوانح التلاميذ أرسلها لكم على علاتها » .

وكان من فضل الشيخ عارف الزين وتشجيعه أن نشرها (على علّاتها) وما أوضحها من علّات كما تبين لي بعد ذلك ! .

وهكذا فتحت لي مجلة العرفان باب الكتابة وجعلتني أؤمن بأني أستطيع أن أكتب وأنشر . ثم تكرر الأمر أكثر من مرة ، وكل ما كان ينشر انما ينشر (على علّاته) !! .

ذكرى الثامن من آذار

كانت الأحكام التي صدرت على الدكتور شهبندر وسعيد حيدر وحسن الحكيم ورفاقهم أحكاماً بالسجن مدداً مختلفة أقصاها عشرين سنة وأقلها خمس سنين .

ولم تلبث الحركة أن هدأت والمظاهرات أن انقطعت ، ولا أذكر أنه حدث بعد ذلك أي حادث وطني ، فيما عدا ما كانت تتململ به النفوس دون أن تبرزه أو تبوح به . وراق الفرنسيين هذا الركود وأرضاهم هذا الهمود فأطلقوا سراح مسجوني أرواد بعد حوالي سنة ونصف السنة ، فعادوا جميعاً إلى دمشق . ولم يعودوا ليستسلموا ، فما هي إلا برهة قصيرة حتى عاودوا الحركة وعاد الناس يجهرون بما كانوا يضمرون ، وبدأ التململ يتخذ مختلف المظاهر . ثم كان أن بدأ العمل المنظم فأصدر أحد أبرز معتقلي أرواد سعيد حيدر بالاتفاق مع شقيقه يوسف حيدر جريدة المفيد . فكانت هذه الجريدة الصوت الوطني المتعالي والتف حولها شيوخ الكفاح وكهوله وشبّانه فكانت لسانهم الناطق . بل كانت مدرسة الوطنية الناجحة ! .

وأعترف بأني كنت من أصغر تلاميذها وأنها لقّنتني من الدروس ما كان له أعظم الأثر في حياتي وأنها علّمتني ما لم أنسه وأنضجت في ذهني الفكرة الوطنية وأوضحت أمامي طريق الكفاح ! .

لقد كانت مقالات سعيد حيدر نبراساً وهّاجاً ينير السبل أمام التائهين ، وكان قلمه المحرك للهمم المثير للعزائم ! .

ولم تكن المفيد بمستطيعة أن تقول كل شيء ، ولا كانت قادرة على أن تصرح بجميع ما يجب التصريح به ، والدعوة إلى كل ما تريد أن تدعو إليه ، لأن سيف التعطيل الإداري كان مسلطاً فوق رأسها يهددها عند أول بادرة ! . .

لذلك كانت تلجأ إلى الرمز ، وما كان أوضح هذا الرمز عند النفوس المتعطشة إلى كل كلمة وطنية .

ولن أنسى أبداً ما كتبه سعيد حيدر بتوقيع « س . . . » وما صوّر به في المفيد بقلمه في صباح الثامن من آذار ! . .

وما صباح اليوم الثامن من آذار؟ أنه صباح اليوم الذي أعلنت فيه سوريا استقلالها التام الناجز وصرخت بوجه الدنيا متحدية قوى الإستعمار بأنها تريد أن تعيش حرة سيدة نفسها ! . .

ولم يلبث الحلم السعيد أن عاش بضعة شهور فقط ، ولم يلبث الاستقلال أن هوى في يوم ميسلون ! .

وجاءت ذكرى الثامن من آذار والإستعمار الفرنسي يجثم بكل شراسته على صدر الوطن الجريح ! .

جاءت الذكرى العظيمة فكان لا بد لجريدة المفيد وسعيد حيدر من أن يحتفل بها احتفالاً يليق بجلالها ! . احتفالاً يوقظ النفوس ويلمس القلوب ، ويوقظ الغافي ويهز الهامد ، بل يثير ويستنفر ! .

يفعل كل ذلك دون أن يثير ريبة المستعمرين أو يلفت أنظارهم لما يريد فيبطشوا بالمفيد!

ولقد كان للمفيد وسعيد حيدر ما أرادا وخرج مقاله في صباح ٨ آذار قطعة أدبية رائعة وجذوة وطنية لاهبة ملهبة ! .

وكرمت دمشق بلسان سعيد حيدر وقلمه ، كرمت ذكرى ٨ آذار أنضر تكريم وأزكاه ، أعنف تكريم وأقساه ، كرّمت هذه الذكرى لأول مرة بعد ثلاث سنين من دخول الفرنسيين دمشق وسيطرتهم على الوطن ! . كرمتها بالرمز والتلميح ، لأنها لا تستطيع البوح والتصريح ! .

وأذكر أن سعيد حيدر ختم مقاله بهذين البيتين لمهيار الديلمي :

اذكرونا مثل ذكرانا لكم	رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا إذا غنى بكم	شرب الدمع وعاف القدحا

لم تكن مقالات سعيد حيدر وحده هي التي تضج بها المفيد ، بل كانت كذلك مقالات أخيه يوسف حيدر ومقالات نجيب الريس الذي اكتشفته المفيد وقدمته لقرّائها محرراً ناشئاً ، وعهدت إليه بأن يكتب كل يوم (حديث اليوم) . ولا ننسى أن أرواد كانت قد جمعت بين سعيد حيدر والفتى الناشىء نجيب الريّس ! .

وإذا كانت مجلة العرفان أول مجلة أكتب فيها ، فقد كانت المفيد أول جريدة أسطر فيها بعض الكلام ، لم يكن ما كتبته فيها مقالاً ، بل كان تعليقاً محدود السطور على بعض تصرفات الجنود الفرنسيين ! .

ثم يدور الزمن وتقوم الثورة السورية ويهاجر سعيد حيدر فيمن هاجر من الرجال فراراً من مطاردة الفرنسيين بعد أن كان من أكبر المسؤولين عن قيام الثورة ، ثم تلجئه الأقدار إلى اسطمبول في حياة من أقسى ما يمكن أن يمر على إنسان . ويصبح نجيب الريس يوماً من الأيام ألمع صحفي سوري ويستقل بجريدة القبس ويطلع كل يوم على القراء بمقاله الافتتاحي مختوماً أبداً ببيت من الشعر . ويلاحظ قراء القبس بين فترة وأخرى أنهم يقرؤون فيها يقرؤون في مواضيع القبس رسالة صادرة من اسطمبول متوجة بهذه العبارة : بقلم مكاتب كبير . ولم يكن المكاتب الكبير سوى سعيد حيدر المحكوم من جديد بالإعدام من الفرنسيين ، والعائش شريداً في اسطمبول عيشاً لا أمر ولا أنكد ولا أكثر شظفاً منه ! . .(١) .

الاتحاد السوري

كان تقسيم سوريا إلى خمس دول مهزلة من مهازل الاستعمار أقدم عليها الجنرال غورو إمعاناً في الإرهاق والتمزيق وتشتيت القوى . وقد كانت أهزل من أن يقبلها عقل إنسان ، أو يقرها مجتمع متحضر ! .

وقد أدرك غورو بعد حين الأبعاد الحقيقية التي تصم فعلته أشنع الوصمات ، فحاول أن يتلافى ذلك فأصدر في الثاني والعشرين من حزيران سنة ١٩٢٢ قراراً بإنشاء اتحاد بين دول ثلاث من دول سوريا ، هي دولة دمشق ودولة حلب ودولة العلويين ، وكان لواء اسكندرون يدخل ضمناً مع هذا الاتحاد باعتبار ارتباطه بدولة حلب . واستثنى غورو دولة جبل الدروز من الدخول في الاتحاد .

وظل الأمر كذلك حتى سافر غورو إلى فرنسا في تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ وحدثت في فرنسا أحداث أدت إلى استقالته .

وظلت المفوضية الفرنسية بلا مفوض حتى أوائل نيسان سنة ١٩٢٣ حيث عين الجنرال ويغان مفوضاً جديداً ، فوصل بيروت في التاسع من أيار ١٩٢٣ .

وفي الخامس من كانون الأول ١٩٢٤ أصدر ويغان قراراً بإلغاء الاتحاد السوري وإعلان الوحدة بين دولتي دمشق وحلب وأخرج منها دولة العلويين .

وجاء دمشق وخطب في (المنشية) في حفل عام معلناً الوحدة ، متبسطاً في خطابه تمنياً ، وملمحاً إلى الأمجاد العربية السالفة .

ويتناول سعيد حيدر الخطاب في جريدة المفيد تحليلاً وتفنيداً في سلسلة مقالات بعنوان : (الجنرال يتكلم) وبتوقيع (س . . .) .

مع الجنرال ويغان

وكان لي حادث طريف مع الجنرال ويغان ، ذلك أنه دعي إلى زيارة جبل عامل عندما كنا نقضي الصيف في شقرا . وحشدت لهذه الزيارة جماهير الناس مشاة وفرساناً على أن يكون اللقاء على ينابيع رأس العين في صور حيث يتناول هناك طعام الغداء .

فذهبت مع الذاهبين فارساً مع فرسان من بني عمنا ، حيث قضينا ليلتنا في صور ، وكنت قد بيّت أمراً أردت أن أكسب فيه هذه المناسبة التي حشر فيها الناس حشراً في حيث لا يصح أن يحشروا ، أردت أن أكسبها فيه معنى يزيل ما في هذا الاحتشاد من تزلف واستخذاء ! .

وكنت خلال متابعتي الدراسة في المدرسة العلوية قد أخذت شيئاً من اللغة الفرنسية . فكتبت كلمة باللغة العربية ضمنتها مطالب معينة هي من صميم حاجة البلاد ، وأشرت إلى ما تشكوه البلاد من حرمان وجور . وذهبنا في الليل إلى صيدلي في صور أو طبيب ، مما لا أتحققه الآن ، وطلبنا إليه أن يترجم لنا هذه الكلمة الموجزة إلى اللغة الفرنسية . فلما قرأها قال : أنا أخجل بلغتي الفرنسية أمام الجنرال ، فأنا لا أتقن الترجمة الصحيحة الفصيحة ، فقلنا له : لن تكون أنت مسؤولاً عن الترجمة ، بل هي ستنسب إلي ، فاستجاب لنا . وقضيت الليل في حفظ النص الفرنسي عن ظهر قلب ، ثم تابعت ذلك في الصباح .

ومضينا إلى رأس العين مع الماضين ، وهناك كان الحشد الكثيف ، وقد أعدت مائدة للجنرال وحاشيته وبعض الرسميين . ولم يكد يجلس الجنرال على المائدة ، حتى تقدمت الصفوف إلى أن صرت غير بعيد عن مجلسه ، فأثارت هذه الحركة انتباهه وانتباه الناس كلهم ، وحاولت أن أتكلم . فإذا بي قد أنسيت النص الفرنسي الذي قضيت الليل والصباح في استظهاره ، ولم يفتح الله علي منه بكلمة ! .

---

(١) وكانت المرة الأولى التي حكم فيها سعيد حيدر بالإعدام هي اثر دخول الفرنسيين دمشق فاضطر للفرار، ثم شمله العفو العام الذي أعلنه الفرنسيون. فعاد إلى دمشق فلم يلبث أن حكم بالسجن في أرواد. ثم عاد إلى دمشق فلم يلبث أن كان النافخ في شرارة الثورة السورية لتتأجج ضراماً عارماً ، فيحكم بالإعدام من جديد ! . .

وكانت الأنظار كلها متجهة إلى هذا الصبي متسائلة عما يريد أن يفعل ! . فلم أرتبك ، إذ كان أقل ارتباك أو تضعضع سيحيل الأمر إلى مهزلة تنتهي بإبعادي عن مكاني على أسوأ حال . لذلك توكلت على الله وانطلقت بما أعرفه من كلمات فرنسية محدودة معبراً فيها عن بعض ما أريد قوله » فقلت ما معناه مخاطباً الجنرال :

« إنك لا تستطيع أن تذهب إلى أبعد من صور لأن طريق السيارات ينتهي بصور ، وإذا استطعت الوصول بإحدى الوسائل إلى ما هو أبعد من صور . فإذا مرضت هناك فلا طبيب يعودك . وإذا كان لك ولد هناك فلا مدرسة تأويه . نريد طرقاً ومدارس وأطباء » . والحقيقة أنني كنت أريد المطالبة بأكثر من هذا ولكنني عجزت عن الاسترسال في المطالب باللغة الفرنسية فسكت عند هذا الحد .

وقد انفعل الجنرال وحاشيته لهذا الكلام كل الانفعال وأثر في نفسه أبعد التأثير ، فأشار إلى رئيس غرفته المدنية المسيو (جيسكار) بأن يحضرني إليه ، فأسرع آخذاً بيدي إلى الجنرال ، الذي ربت على كتفي مبتسماً ومشجعاً ، ثم خاطبني بكلام لم أستطع متابعته وفهمه . وأدرك ذلك بعض من كان في حاشيته قريباً منه فأسرع يترجم لي كلام الجنرال ، فإذا به يقول أيهم تفضل أولاً ، الطريق أم الطبيب أم المدرسة ؟ .



الصورة التي أخذها مسيو جيسكار

فقلت : الطريق لأنها هي ستأتي بالمدرسة والطبيب . فقال ستأتي الطريق . ولكن أين هي قريتك ؟ . قلت يجب أن تنتهي الطريق لا في قريتي بل في بنت جبيل .

واندفع رئيس غرفته يصورني صورة فتوغرافية ولا أدري أكان ذلك منه أم بإيعاز من الجنرال . وسألني عن عنواني ليبعث لي بالصورة . فأعطيته عنواني في المدرسة العلوية في دمشق .

وقد أضاع هذا الذي جرى ـ أضاع على منظمي الاحتشاد المتزلفين به المستغلين للشعب السائقين له سوق الأنعام لتحقيق مآربهم ، أضاع عليهم رونق ما قصدوه وأفسد عليهم مخططهم ، وضاعوا في خضم ما جرى ! .

ولم نلبث أن عدنا إلى دمشق ، فإذا بي أتلقى الصورة وهي المنشورة مع هذا الكلام ، ومعها تحية من رئيس غرفة الجنرال باسم الجنرال ووعد بتحقيق شق الطريق .

وكنت يوماً أسير في سوق الحميدية بدمشق ، فإذا بي وجهاً لوجه أمام المسيو جيسكار الذي عرفني قبل أن أعرفه مع أنني كنت في صور أرتدي الكوفية والعقال ، وكنت في دمشق أرتدي الطربوش ، فأقبل علي مندفعاً مصافحاً ، وقال لي أن الجنرال هنا فهلم معي لزيارته ، فانطلقنا في سيارته إلى حيث كان ينزل الجنرال قرب الجسر الأبيض في الصالحية ، فإذا بالجنرال يعرفني فيقبل عليّ مرحباً مشجعاً .

ويبدو أنه أدرك ضعفي باللغة الفرنسية فنادى مترجماً له قال لي عن لسانه أنه قد أمر بإنفاذ تعبيد الطريق .

وبالفعل بدىء بالتعبيد ، ولكن المنفذين كانوا يتباطؤون به حتى أوصلوه بعد جهد إلى جويّا . وظل الطريق متوقفاً في جويّا زمناً طويلاً ، على أننا بعد أن كنّا نصل بالسيارات إلى صور ونأخذ الدواب منها إلى شقرا . صرنا الآن نصل إلى جويّا ، وبذلك قربت شقة الطريق .

وبعد عهود وعهود أكمل الطريق إلى بنت جبيل .

وحشد الناس لاستقبال الجنرال هو مثال لما كان المستغلون المتسلطون يتعاملون به مع الشعب سواء في العهد التركي أو العهد الفرنسي ثم في عهد الاستقلال .

فقد كانت السلطات تطلق يد رجل واحد في المنطقة كلها ، فتعطي من يريد إعطاءه وتمنع من يريد منعه . ويقوم في كل قرية من يطلقون عليه اسم (الأفندي) يكون هو يد المتسلط الأكبر في محيط القرية التي يقيم فيها ، وتكون أدوات الحكومة من جباة ودرك تحت تصرفه ، فينال بالضر من يخالفونه وبالنفع من يطيعونه . ثم هو ينفذ أوامر سيده الكبير الذي يعاونه بدوره على تركيز تسلطه . وهكذا يتجمع النفوذ في يد واحدة عليا توزع هي النفوذ على يد في كل قرية .

متابعة الحركة الوطنية

وكنت أتابع الحركة الوطنية من خلال مطالعاتي لجريدة المفيد التي كانت تصلنا بانتظام ، والتي كانت تصاب بتعطيل السلطات لها بين حين وآخر ، مما كان يبهظها مالياً ، ولكنها ظلت صامدة مستمرة . فكنت أتابع ما يجري في البلاد وما يفكر به الوطنيون مما كنت أقرأه يومياً في المفيد .

أول احتفال بذكرى ميسلون

وكما جاءت ذكرى ٨ آذار فاحتفلت بها المفيد احتفالاً بيانياً بليغاً ـ كما مرّ ـ وكانت تلك هي المرة الأولى بعد الاحتلال التي يتعرض فيها متعرض للذكر ٨ آذار . كذلك جاءت الآن ذكرى اليوم الآخر المعاكس ليوم ٨ آذار ، اليوم الذي هدم فيه استقلال سوريا في ميسلون يوم ٢٤ تموز . وكان أديب التقي قد نظم بعد معركة ميسلون نشيداً رمزياً لتحية هذه الذكرى ، لم يذكر فيه اسم ميسلون ولا إسم يوسف العظمة ، بل جعل عنوانه أمين الشهيد ، فيه وصف لمعركة وقتال واستشهاد رجل أطلق عليه اسم أمين ، وجاء في ختام النشيد :

وصّى رفاقه وحيّاهم تحية الحزين
يقول أما قدّر الله وعدتم سالمين
قولوا لأهلي قد قضى تحت القنابل « أمين »
قضى شهيداً غازياً قد أدرك الفوز المبين

فـلـتـعش الأمـة ولـيـحـيـى الـوطـن دومـاً حـصـين

وكنّا نحن في المدرسة العلوية نحفظ هذا النشيد ونعلم أن المقصود بأمين الشهيد هو يوسف العظمة ، وأن ما جاء فيه من الحديث عن المعركة والعساكر كان المقصود به معركة ميسلون .

ولم يكن النشيد يثير ريبة الفرنسيين ، لما فيه من غموض المقصد لغير العارف . وكان أديب التقي قد طبع هذا النشيد مع مجموعة أناشيد سمّاها أغاريد التلاميذ ، ومن هنا سار النشيد إلى كل مدرسة والكل يعلم ما هو ومن هو المقصود بالنشيد . ولم يكن في ذلك الوقت الحرج مستطاعاً أكثر من هذا .

وجاء يوم ٢٤ تموز سنة ١٩٢٤ بعد ذاك الكبت المرهق ، وجاءت الذكرى وقد آن أوان الاحتفال بها علناً على رؤوس الأشهاد بعد مرور أربع سنوات على المعركة .

ولا أدري الآن بمن كان اتصالي ولا كيف عرفت بأنه تقرر تحدي الفرنسيين والذهاب إلى ميسلون والاحتفال بالذكرى على قبر يوسف العظمة نفسه وفي ميسلون نفسها ، ولكنني أذكر أنني بعد الظهر كنت في المرجة ملتقياً باثنين من رواد الاحتفال لا أذكر الآن من هما وأننا كنّا نفتش عن اثنين آخرين ليملآ معنا السيارة التي ستقلنا إلى ميسلون .

وبعد لحظات وجدناهما ومضت بنا السيارة إلى ميسلون حيث وجدنا غيرنا قد سبقنا ، وحيث تتالى وصول السيارات حتى اجتمع بضع مئات من الشبان والكهول . وكنت أصغر الجميع سنّاً . وكان أبرز الحاضرين الدكتور خالد الخطيب أحد معتقلي أرواد الذي مرّ ذكرهم .

وكان الدكتور خالد جمرة من الجمرات الوطنية الذكية المتلألئة ، وقد أعطاه الله بسطة في الجسم والعقل ، ووهبه صوتاً جهورياً مؤثراً وأداة خطابية فاعلة .

وتقدم قارىء للقرآن يتلو بصوت رخيم آياً من الذكر الحكيم فيها : وأأسفا على يوسف ! .

ثم برز الدكتور خالد الخطيب يرتجل خطاباً استمده من نار ميسلون ودمها ، وكفى بذلك . .

ثم انبرى الجميع ينشدون بصوت واحد نشيد (أمين الشهيد) وهنا فوجئت بتغلغل النشيد في جميع الأوساط الوطنية وأن كل من في دمشق وربما في غير دمشق أيضاً يحفظون النشيد ويرددونه ! .

وصحيح أن النشيد كان رمزياً ليس فيه إسم يوسف ولا إسم ميسلون ولكن قيمته كانت في أنه مكتوب بمداد تحس أنه من تراب ميسلون وأنفاس يوسف العظمة ! .

وقد كان صغر سني وما يبدو علي من مظاهر الانفعال والتأثر سبباً في أن الجميع كانوا يحيطونني بعطف وحنان ويدفعونني إلى التقدم إلى جانب الضريح أثناء الاحتفال ، حيث كان التزاحم للوصول إليه ملموساً .

وكان بعض الحاضرين قد أحضروا معهم طاقات الورد وبعض الأكاليل ، أما الأكاليل فوضعت على القبر وأما الطاقات فبقيت محمولة



أول احتفال بذكرى معركة ميسلون

بأيدي أصحابها . وتأثر أحد حاملي الطاقات بمنظري فأسرع يقدم لي طاقة الورد التي كانت معه لأحملها بيدي .

ويبدو أنه كان مقرراً أن يخطب الدكتور خالد الخطيب وحده ، لذلك لم يتكلم أحد فيها عدا نصوح الخرسا الذي استأذن بإلقاء بعض المقترحات . .

ثم انتظم الجميع في موكب واحد عاد في مجموع سياراته فدخل دمشق دخولاً حماسياً أثار تصفيق المشاهدين وذكرهم باليوم الرهيب ! .

هكذا جرى أول احتفال بيوم ميسلون بعد مرور بضع سنين على أحداثه . وهكذا مر أكبر تحد للفرنسيين في ذلك الوقت .

أما خالد الخطيب فقد التحق بعد ذلك بالثورة السورية ، ثم مات بعيداً عن وطنه ، ولم يعد إلى بلده حماه إلا جثّة هامدة ! .

وأما نصوح الخرسا فلم أعد أسمع عنه بعد ذلك شيئاً .

كان الاحتفال بيوم ميسلون مؤثراً في نفسي إلى حد أنطقني لأول مرة بالشعر ، فلما عدنا من ميسلون نظمت أبياتاً لا أزال أذكر صدر مطلعها وهو : (سلاماً أيها الثاوي سلاما) .

أول مظاهرة

بلفور صاحب الوعد الذي وهب فيه فلسطين لليهود ، والذي لا يوجد في تاريخ العرب الحديث وربما القديم من هو أشد إجراماً ، وأعظم إيذاء للعرب منه ! .

بلفور هذا دعاه اليهود ليشهد احتفالهم بافتتاح جامعتهم العبرية في القدس ، دعوه تكريماً له وتقديراً لما أداه لهم . وجاء بلفور فمر بمصر مجتازاً إياها إلى فلسطين ، ولم يثر وصوله إلى مصر أي شيء ولم يقابل بأي تحرك أو احتجاج ، إذ كانت مصر إذ ذاك بعيدة عن الحس العربي لا يعنيها في شيء بلفور ووعده وتحركاته . ولولا أن نفراً من الفلسطينيين ورفاقاً لهم مضوا إلى محطة القطار الذاهب إلى فلسطين والمقل لبلفور فهتفوا هتافاً ضعيفاً ضاع في زحمة الوداع الرسمي وضجيج الحياة الصاخبة لولا هذا لما كان لمرور بلفور في مصر ونزوله القاهرة أي صدى احتجاج أو غضب وشتان بين الأمس واليوم في تحسس مصر العربي . ووصل بلفور فلسطين فقابله العرب بالسخط مضربين متظاهرين ، وقد كان من حقه أن لا يخرج من فلسطين حيّاً ، ثم ها هو في دمشق ! .

إن مروره في مصر تحد للشعور العربي أي تحد ، ثم أن تجوله في فلسطين إيغال في التحدي ! .

وظل يوغل في التحدي هابطاً إلى دمشق ، نازلاً في العاصمة العربية الباسلة ، وقبلت دمشق التحدي وخرجت إلى بلفور ، خرجت إليه بالقلب العربي المؤمن والدم الشامي الفائر ! .

خرجت إليه بكل عراقتها ، ومشت بكل أصالتها ، واندفعت في الليل بمظاهراتها (وعراضاتها) شيباً وشباناً وفتياناً وصبياناً تحاول أن تقتحم عليه فندقه على ضفاف بردى ! .

ومشى النذير إلى الفرنسيين فأخرجوا بلفور من الفندق قبل وصول المظاهرات ومشوا به في طريق بيروت دالينه على الطريق إليها . . .

واستمرت دمشق طول الليل تغلي كالمرجل ، وتجددت المظاهرات في النهار ، ولم يكن لي نصيب في الاشتراك بمظاهرات الليل ، ولكنني قمت في الصباح منطلقاً مع المنطلقين حتى بلغنا أواسط شارع النصر ، وهناك هاجمنا فرسان المغاربة بخيولهم وسيوفهم شاقين بها صفوف المتظاهرين ، ضاربين بالسيوف على الشمال واليمين . وتشتتت المظاهرة بعد أن كادت ضربة سيف تلامس وجهي لولا إلقائي بنفسي على الشجيرات الممتدة في قلب الشارع .

وهكذا لم يستطع بلفور أن ينعم بالقرار في دمشق ولا استطاع أن يتخذ من ثراها مهجعاً ولو ليلة واحدة .

وكانت هذه المرة الأولى التي أشارك فيها بالمظاهرات مشاركة عملية وأسير فيها مع السائرين وكان ذلك في أوائل سنة ١٩٢٥ على ما اذكر . ثم كانت لنا بعد ذلك مع المظاهرات أحاديث وأحاديث ! . .

قراءات

ولا بد لي أن أشير هنا إلى أني كنت أتوق إلى مطالعة كل ما هو جديد من الكتب ، فعدا الصحف اليومية التي كانت محصورة على الأغلب بجريدة المفيد ، وعدا المجلات الشهرية التي كانت هي الأخرى محصورة بمجلة العرفان ، فقد كنت أدخر كل ما أستطيع إدخاره من المال القليل الذي كان يصل إلي لشراء الكتب الحديثة . فمما قرأته في تلك السن . كتاب مذكرات جمال باشا ، وما رأيت وما سمعت للزركلي ، وملوك العرب للريحاني . وهذا الكتاب الأخير كان له في توجيهي النثري أعظم الأثر ، وتأثرت به إلى أبعد حدود التأثر ، إذ حبّب إليّ أدب الرحلات وعندما بدأت أجرب كتابة هذا النوع من الأدب كان أسلوب الريحاني فيه يجذبني فأحاول احتذاءه منفعلاً بتعابيره وطريقته . إلى أن أولعت بعد ذلك بالرحلات وكتابة انطباعاتي فيها بأسلوب مستقل .

وقد كان من فضل هذا الكتاب أن حملني على تسجيل معظم رحلاتي حتى توفر لي من ذلك كتاب كامل نشر كله مقالات متفرقة ، وأرجو أن يتاح لي جمعها وطبعها معاً[1] .

وإذا كنت قد أشرت من قبل إلى فضل أديب التقي في تثقيف قلمي ودفعي إلى الكتابة ، فإنني أود أن أشير هنا إلى أن الفضل في تحقيق ذلك كان لمجلة العرفان التي احتضنت قلمي وكان لا يزال غضاً طرياً ، وشجعتني ما وسعها التشجيع . وأولى رحلاتي نشرت في العرفان ، ثم تتابع نشرها فيها ، وما كان لها أن تنشر في غيرها لأسباب منها : أنني أنا نفسي لم أكن لأجرؤ على بعث ما أكتبه لغير العرفان ، ثم لنوعية الرحلات ، إذ كانت رحلات محدودة المكان والزمان ، لا تهم غير قارىء العرفان في الغالب .

ولما توسعت الرحلات وانتشرت في كل مكان وأصبحت شيئاً مذكوراً ، ظللت وفاء للعرفان وصاحبها لا أنشرها إلا فيها على الأكثر .

ومن مطالعاتي المبكرة تلك الأيام التي كان لها أبعد الأثر في نفسي . ووجهتني بعد ذلك إلى التوغل في دراسة التاريخ الإسلامي ، هو ما كنت أطالعه في كتب والدي التي كان ينشرها في ذلك الحين وأخص منها كتابه المجالس السنية الذي كنت أقرأه حين صدوره ملزمة ملزمة ، وربما قابلت معه التجارب التي تأتيه من المطبعة (البروفات) ، فتنطبع في نفسي الأحداث ويشوقني ذلك للشغف في قراءة أمثالها . وقد بلغ الأمر في اطمئنان والدي إلي ، أن اضطر مرة للسفر إلى بيروت بينما كان يطبع الجزء الثاني من كتابه المجالس السنية فعهد إلي أن أتولى ـ وأنا في تلك السن ـ تصحيح التجارب وإعادتها إلى المطبعة ، فقمت بالمهمة أحسن قيام ، وعاد والدي بعد أيام ورأى العمل مستمراً لم يتوقف في غيابه .

وأذكر أن مما أثر في نفسي خلال قراءتي للمجالس ، قصة مصرع حجر بن عدي ، وقصة الحضين بن المنذر وما قاله فيه أمير المؤمنين من الشعر يوم صفين ، إذ كانت مع الحضين راية ربيعة ، وكان شاباً صغير السن ، فزحف بالراية فأعجب علياً زحفه فقال فيه هذه الأبيات التي هي من الشعر القليل الثابت أنه لأمير المؤمنين ، والتي استظهرتها حين قراءتها :

لمن راية حمراء يخفق ظلها	إذا قيل قدمها حضين تقدما
فيقدمها في الصف حتى يزيرها	حياض المنايا تقطر الموت والدما
تراه إذا ما كان يوم عظيمة	أبى فيه إلا عزة وتكرما
جزى الله قوماً صابروا في لقائهم	لدى البأس خيراً ما أعف وأكرما
وأحزم صبراً حين يدعى إلى الوغى	إذا كان أصوات الرجال تغمغما
ربيعة أعني أنهم أهل نجدة	وبأس إذا لاقوا خميساً عرمرما

وكذلك فقد كان لقراءتي كتاب (الإمامة والسياسة) يد في انجذابي إلى التاريخ وانفعلت كل الانفعال لقراءتي فيه قصة وقعة الحرة . وظللت أتابع قراءة كل ما تقع عليه يدي من كتب التاريخ في مكتبة والدي .

وعدا ذلك فقد شغفت بقراءة الشعر واستظهاره ، وبدأت أعد دفاتري لتسجيل ما استحسنه من الشعر ، فاستظهرت منه في تلك السن قدراً صالحاً . وإني لآسف أن كل تلك المجاميع التي دونتها قد ضاعت .

ومما لا يزال عالقاً في ذهني من مستظهرات تلك الأيام قصيدة لخير الدين الزركلي الذي كان فيمن اضطروا لهجر البلاد بعد معركة ميسلون واستقر في مصر ، والتقى فيها بعادل أرسلان فتطارحا الشعر الوجداني الرقيق المعبر عن شوقهما لوطنهما وحنينهما إلى بلدهما ، وشعورهما بالغربة والوحشة ، وتحسرهما على ما آل إليه أمر أمتهما .

فقد نشرت جريدة المفيد قصيدة الزركلي وجواب أرسلان فمما أحفظه

(١) طبع الكتاب بعد ذلك باسم: (من بلد إلى بلد).

من قصيدة الزركلي منذ ذلك الحين وأكتبه الآن من ذاكرتي هذه الأبيات :

العين بعد فراقها الوطنا   لا ساكنا ألفت ولا سكنا
ريانة بالدمع أقلقها   أن لا تحس كرى ولا وسنا
والقلب لولا أنة صعدت   أنكرته وشككت فيه أنا
يا طائراً غنى على غصن   والنيل يسقي ذلك الغصنا
زدني وهج ما شئت من شجني   إن كنت مثلي تعرف الشجنا
أذكرتني بردى وواديه   والطير آحادا به وثنا
واحبة أسررت من كلفي   وهواي فيهم لاعجا كمنا
ما كنت أحسبني مفارقهم   حتى تفارق روحي البدنا
يا موطنا عبث الزمان به   من ذا الذي أغرى بك الزمنا
عطفوا عليك فأوسعوك أذى   وهم يسمون الأذى منا
وحنوا عليك فجردوا قضبا   مسنونة وتقدموا بقنا
كم ذا أغالبه ويغلبني .   دمع إذا كفكفته هتنا

ومن قصيدة عادل أرسلان :

يا خير مهلا لا تثر شجنا   حسبي وحسبك لوعة وضنا
النيل ماء الشرق قاطبة   لكنهم قد كدروه لنا

ولقد حببت إلي هذه القصيد شعر خير الدين الزركلي ، وخير الدين نفسه وصرت أتابع شعره فوقع لي منه قصيدته الدالية التي نظمها في أعقاب يوم ميسلون والتي يقول فيها :

غلت المراجل فاستشاطت أمة   عربية غضبى وثار وقود
ولقد رأيت جموعها وثابة   لو كان يدفع بالصدور حديد

على أننا لم نلبث أن فوجئنا بهجوم النجديين على الحجاز وإسقاطهم الملك حسين وإخراجه من بلاده . وقد كان الحسين يمثل في نظرنا الصمود العربي الأصيل في وجه المطامع الاستعمارية . وكان عناده ورفضه التسليم بواقع الانتداب الانكليزي في فلسطين وما وراءه من وعد بلفور مع ما يهدده من غضب الانكليز من خسران للملك .

كان هذا الصمود من الحسين مثار إعجابنا وموضع تقديرنا ، لذلك كان سقوطه صدمة قوية لنا ، فإذا بالزركلي يشمت بالحسين ، ويحمله وزر مغاضبة ولده عبد الله له ، فينظم قصيدة مطلعها :

صبر العظيم على العظيم   جبار زمزم والحطيم

هذه القصيدة التي قالت عنها مجلة العرفان يومذاك : « . . . وبداد التشفي وقلة النصف نظمت قصيدة الزركلي » .

فكرهنا الزركلي وأعرضنا عن شعره .

ولكن لم تلبث الثورة السورية بعد ذلك أن اشتعلت فإذا بالزركلي شاعرها الغريد . وإذا بي أعود لاستظهار شعر الزركلي ولحب الزركلي ، وهو حب اتصل بعد ذلك ، إلى أن لقيته بعد سنين وسنين فزاد اللقاء الحب حباً .

وتنتهي الثورة السورية فيلجأ بطلها سلطان الأطرش وعادل أرسلان إلى النبك في صحراء الجوف . وهناك في ذلك المنتأى الكئيب يفاجأ عادل أرسلان بموت أخيه نسيب فيرثيه بقصيدة تصل إلي فأستظهرها ، وفيها يقول :

نفى النوم ما هاج الضمير المناجيا   أفي الغيب ما أخشى وإلا فماليا
وذي تلعات النبك لاقت نواظري   تمثل فيها ضاحك الروض باكيا
على النخلات الخمس يطغين في الضحى   يشرن إلى المشتاق أن لا تلاقيا
تمايل من هوج الرياح كأنها   نوادب يحثين التراب بواكيا
بلى قد مضى والقلب يهفو لذكره   نسيب وخلى آهل الربع خاليا
فيا نائياً أواه لو أن نظرة   تزودتها من قبل أن صرت نائيا
ويا جدثا فوق الشويفات مشرفا   بروض من الريحان ريان عاليا
طواك على الرمح الرديني خالق   وأغمد فيك السيف عضبا يمانيا
وكنت أرجيها رسالة واله   على أمل اللقيا فكانت مراثيا
فيا لك من شعر سداه مدامع   ولحمته نفس تذوب قوافيا
تحول قسرا في النسيب مراثيا   ويا ليت لي ألفاظه والمعانيا
شقيقك من يعرفك يعرف مصابه   ويرثي له راثيك حالا وآتيا
رأبت صدوع الدهر في مواسيا   وكنت لنفسي بالتعهد آسيا
بدرت لأمر كنت تعرف سره   وتجعل منه للرجال مناحيا
ولولاه لم أصبر على البعد ساعة   فعفوك عن بعدي سنينا ثمانيا
تطلعت أبغي من ذري الشوف نظرة   فأعيت وقد أبعدت فيها المراميا
رمونا بديناميت حتى تقلقلت   جبال على حوران كانت رواسيا
فما غيروا القلب الذي كان مخلصاً   ولا أوهنوا العزم الذي كان ماضياً
ودبوا بأبراج الحديد كأنها   سلاحف ما يمشين إلا تهاديا
دوارع يلقاها الفتى وهو حاسر   يصادمها بالفأس جذلان حاديا
فبينا تراها زاحفات أذابها   أسافلها صارت عليها أعاليا
تواريخها مسطورة في متونها   متونا بأفعال الظبي وحواشيا
أقول لمن يبلو لدى الخطب صبرنا   ترى الصبر فينا شيمة وتواصيا
ونركب للغايات قبل خيولنا   من العزم والإقدام جرداً مذاكيا

هذا بعض ما لا أزال أتذكره من تلك القصيدة الفريدة .

وقد نشرتها أول ما نشرتها جريدة الجامعة العربية في القدس وعنها نقلها جبران التويني في جريدته الأحرار وقدم لها بمقدمة طيبة ومن الأحرار أخذتها وحفظتها .

وفي صحراء النبك ألتقى من جديد خير الدين الزركلي وعادل أرسلان . وعاد الزركلي من هناك فأرسل لعادل قصيدة يقول فيها :

إلى بطلي فخر العروبة عادل   مجير الحمى والفارس الندب سلطان
إلى عصبة تأبى الغضاضة خيلها   وفرسانها أكرم بخيل وفرسان

فأجابه عادل بقصيدة يقول فيها :

بقية أبطال لو أن زمانهم   تقدم لم تسمع بعبس وذبيان
قرأت لهم شعر الزركلي فيهم   فهز بهم من نجدة أي أغصان
وهموا فلولا حكمة لا أذيعها   سمعت الوغى ما بين حوط وعرمان
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   وليس بسوريا مقر « لغملان »

ومن المؤسف أن شعر عادل أرسلان قد ضاع فلم يوجد بين أهله وعشيرته من يجمعه وينشره ، كما أن شعر الزركلي مطوي على الرفوف لا ينشر ولا يذاع .

الاصطياف في جبل عامل

في خلال ما مرّ من الأحداث كانت الأسرة تنتقل في أغلب الأعوام إلى جبل عامل في الصيف . وإذا كنت قد تحدثت عن انتقالنا في إحدى المرات من دمشق إلى جبل عامل عن طريق القنيطرة وكان هذا الانتقال في العربات حتى القنيطرة ، ثم على الدواب من القنيطرة إلى شقرا ، فإنني أقول هنا أننا صرنا في عهد انتشار السيارات وتكاثرها لذلك أصبحت الرحلة من دمشق إلى بيروت تتم في السيارة وأحياناً في القطار . وبالرغم من بطء قطار دمشق ـ بيروت فقد كان مألوفاً في السفر إلى بيروت لأن السيارات لم تبلغ من الكثرة حداً يلغي السفر في القطار .

أما بالنسبة لنا فإن تكاثر السيارات قد سهّل لنا الانتقال فيها من بيروت حتى صور . وبذلك لم يعد السفر بطريق القنيطرة ذي موضوع لأن المسافة منها إلى شقرا على الدواب سفر طويل . وبسلوكنا طريق بيروت ـ صور كان علينا أن نأخذ الدواب من صور حتى شقرا .

لذلك كنا نأخذ سيارة تضم العائلة كلها إلى بيروت أو نأخذ القطار بدل السيارة . ثم نأخذ السيارة من بيروت إلى صور . وفي صور نبيت ليلتنا .

وكان الوالد يختار منزل الشيخ عز الدين علي عز الدين . وهو رجل على جانب كبير من الشهامة والكرم والنبل . وهو سليل أسرة علمية دينية من أشهر أسر جبل عامل .

وتكون قد وصلته برقية من الوالد ليرسلها إلى شقرا لتكون الخيل جاهزة في صور . وفي الصباح نأخذ الخيل مواصلين السير في الآكام والجبال والوهاد ممضين ما لا يقل عن سبع ساعات بين صور وشقرا .

مفوض سام جديد

نقل الفرنسيون مفوضهم السامي الجنرال ويغان . وجاء مفوض جديد هو الجنرال ساراي ووصل في ٢٢ كانون الأول ١٩٢٤ . وكنت أتابع الأحداث أكثر ما أتابعها من خلال جريدة المفيد كما مر .

جاء ساراي ، وبدت تصريحاته باعثة للأمل ، كما أعلن عن إجراءات جديدة كانت تبدو فيها عقلية جديدة تختلف عن السابق . وظهر بتصرفات في لبنان جعلت فريقاً من الموالين للفرنسيين على حذر منه ، ثم على نفرة ومقاومة .

وكانت الأوضاع في دمشق قد أخذت بالتبلور ، وبدأ فريق من الوطنيين العاملين يستقطبون الرأي العام ويتكتلون ويجتمعون . وشجعت تصريحات ساراي وتصرفاته على التجمع والتذاكر . فكان أن تألف وفد دمشقي للذهاب إلى بيروت ونقل المطالب الوطنية للمفوض الجديد .

وعاد الوفد متفائلاً وكان مما دعاهم إليه المفوض هو تأليف الأحزاب ، فكان لهذه الدعوة أثرها البالغ .

وتدارس الوطنيون الوضع فقرروا تأليف حزب سياسي وطني يقود الحركة الوطنية ويعمل على تنظيمها .

وكانت حوادث (كراين) التي تقدم ذكرها قد بلورت الزعامة الوطنية ، وكان للذين اعتقلوا في أرواد ثم عفي عنهم وعادوا إلى دمشق مكان الصدارة ، وكان يتقدمهم ثلاثة عبد الرحمان شهبندر وسعيد حيدر وحسن الحكيم . فكان هؤلاء الثلاثة زعماء الحزب الجديد الذي أطلق عليه اسم (حزب الشعب) وانتخب عبد الرحمان شهبندر رئيساً له وإحسان الشريف أميناً عاماً ، ثم أصبح حسن الحكيم هو الأمين العام واحتفل الحزب بإنشائه احتفالاً شعبياً خطب فيه فيمن خطب فارس الخوري الذي كان من أبرز رجال الحزب .

واستقطب الحزب كل المتحسسين بالفكرة الوطنية المتحمسين لها وأصبحت جريدة المفيد لسان الحزب دون أن تسمي نفسها بذلك .

وكانت تصل إلينا أنباء لبنان وما يلاقيه سراي من مقاومة عنيفة من الأكليروس الماروني ومن يقول بقوله ، حيث امتنع ساراي عن أن يخص البطريرك الماروني بما كان يخصه به أسلافه وامتنع عن ابتدائه بالزيارة ، وأعلن أن في لبنان كذا من رجال الدين فلن يقضي وقته في زيارتهم .

وكان قد عزل حاكم لبنان الفرنسي وعين مكانه حاكماً فرنسياً جديداً يقول بقوله ويرى رأيه . وكانت إتجاهات ساراي ومعاونيه إتجاهات لا نقول إنها أقرب إلى تشجيع العمل الوطني ، بل يمكن القول أنها غير شرسة في مقاومته ، وكان أبعد عن الروح الاستعمارية المتغطرسة لولا الظروف الفريدة التي انفجرت فجأة كما سيأتي .

والحملة اللبنانية على ساراي كان يقودها صنائع الاستعماريين الفرنسيين وبعض المتعصبة الحقودين الذين رأوا في تصرفات ساراي شيئاً لم يألفوه من قبل . ويؤسفني أن أذكر أن ما ينسب إلى أصحاب بعض الصحف اللبنانية من مواقف في مواجهة حاكم لبنان الجديد (كايلا) ، ليست في بواعثها مما يشرفهم ، فقد كان ميشال زكور يصدر مجلة المعرض الأسبوعية فتصدت للسياسة الجديدة التي بدأها ساراي وأخذ يطبقها (كيلا) ، ولم يكن تصديها هذا عن دوافع وطنية ، بل عن دوافع إقليمية طائفية ضيقة لا تشرف أصحابها .

وإلا فأين كان ميشيل زكور وأين كانت المعرض في عهد غورو أو ويغان ؟ .

كنت أتابع أخبار حزب الشعب بشغف شديد ، وأقرأ مقالات نجيب الريّس اليومية في حديث اليوم في جريدة المفيد ومقالات يوسف حيدر التي كان يكتبها كل يوم ومقالات شقيقه سعيد حيدر التي كانت تظهر بين الحين والحين . ولكن الجريدة لم تسلم هذه المرة أيضاً من التعطيل ، وأذكر أنه جاء الصيف صيف سنة ١٩٢٥ والمفيد معطلة . وأن موعد سفرنا إلى جبل عامل قد حل والمفيد معطلة .

إلى جبل عامل

وتركنا دمشق هذه المرة في سيارة مضت في طريق بيروت ثم انحرفت قبل الوصول إلى بيروت واصلة إلى صيدا ، ولا أدري الآن من أين انحرفت السيارة ، وما هو الطريق الذي سلكته فأوصلها إلى صيدا ووفر عليها مسافة كان لا بد لها من قطعها لتصل إلى بيروت ثم تخرج منها إلى صيدا . ومن صيدا وصلنا إلى صور . ولم نبت هذه المرة فيها في منزل

الشيخ عز الدين بل واصلنا السير على الخيل إلى قرية طير دبا حيث مقر الشيخ حسين مغنية وهناك حللنا لنعاود السير في صباح الغد إلى شقرا .

وكان والدي والشيخ حسين مغنية ألفين متحابين وصديقين متلازمين درسا في بنت جبيل معاً في مدرسة الشيخ موسى شرارة ، وسافرا إلى النجف معاً ، وعاشا هناك عشر سنين معاً ، وعادا من النجف معاً ، فاستقر الوالد في دمشق ، واستقر الشيخ حسين في قرية طير دبّا .

وكان الشيخ حسين إنساناً فريداً بعلمه وهديه واستقامته ، وأصبح في جبل عامل علماً باذخاً ، ورجل دين يمثل أنبل ما في الدين من فض الخصومات والترفع عن الدنايا والسعي في الخير وخدمة الناس .

وكنت في كل مر أراه فيها سواء في طير دبّا أو شقرا أمتلىء من رؤيته شعوراً بحبه واحترامه ، وأشعر بانعطاف روحي إليه وأستمتع بحديثه ومجلسه أقصى ما يمكن أن يستمتع من هو في مثل سنّي .

بتنا في بيت الشيخ حسين مغنية ، ولم تكن هي المرة الأولى التي نبيت فيها في بيته وننزل ضيوفاً عليه . وقد كان بيته من أكرم البيوت وأنصعها ، وهو ككل بيوت الجبل المعروفة لا بد فيه من العدد الوافر من الحشايا وما إليها من وسائل النوم ليكون على استعداد دائم لاستقبال الضيوف النازلين .

والبيوت المضيافة كانت متهيئة دائماً لمثل هذا ، وكثيراً ما يتعاون الناس على تسهيل أمور بعضهم البعض في مثل هذه الحالات . فربما نزل عدد من الضيوف كان من الكثرة بحيث لا تستوعبه وسائل النوم العتيدة . وهنا يكون من المألوف أن يستعير المضيفون من خلصائهم في القرية ما يرون أنهم بحاجة إليه من الحشايا وتوابعها .

وربما مررت في موضع آخر بشيء من تقاليد الضيافة القروية الكريمة .

لا تتضح الآن في ذهني معالم الطريق كلها من صور حتى شقرا ، ولا أستطيع تعداد المراحل التي كنا نمر بها طيلة الست الساعات أو السبع التي كنا نمضيها على ظهر الخيل في ذلك الطريق . وقد أنساني الدهر تفاصيلها على كثرة ما عبرتها .

غير أنني أذكر أنه كان لا بد لنا بعد الخروج من قرية طير دبّا من المرور بقرية معركة ، ولا أزال أتذكر أنه كان على جانب الطريق قرب معركة بضع شجرات من التين متفردة عن الكروم ، كنا لا نحجم عن أن نقطف ونحن عابرون بعض أثمارها اليانعة .

ثم أنني أذكر من مراحل الطريق (عين الراموح) التي كنا نجتازها غير متوقفين . ويخيل إليّ أننا كنا نمر قريباً من عين دير كيفا . غير أنني لا أتحقق إلا أننا كنّا ننتهي إلى وادي السامر مارّين قبله بعين الجرانيف قرب قرية خربة سلم ، ثم بالزياتية وهي مكان لعدد من شجر الزيتون .

على أنني أتذكر أننا كثيراً ما صعدنا أو هبطنا (عقبة الطبّالة) الملاصقة لخربة سلم . ولا أدري الآن هل كنّا نصعدها ذاهبين إلى صور ، ونهبطها قادمين منها . أم أن مرورنا بها كان في سفرات أخرى ؟ أرجح الرأي الأخير .

وكانوا يعللون لنا اسم (عقبة الطبالة)، أنها كانت المكان الذي يستقبل فيه (الطبالون) بطبولهم الحكام الاقطاعيين العائدين إلى مقرهم . وبعضهم كان يقول أنها مأخوذة من كلمة طبل (بتشديد الباء) وذلك أنها لشدة ارتفاعها وصعوبة ارتقائها ، كانت تحمل العاجزين على التطبيل . وفي الإصطلاحات العاملية العامية ، أن يقال (طبل فلان) بتشديد الباء ، أي : أعيا وعجز عن السير .

وبعد اجتياز وادي السامر كنا نصعد الثنية واصلين إلى بير حميد . وهناك تلوح لنا شقرا . ثم نهبط من بير حميد واصلين إلى الوادي المتصل بوادي نحلة ، والذي هو جزء منه ، فنقطع الوادي الضيق في عرضه صاعدين في العقبة الكأداء . وبمجرد دخولنا إلى الوادي نكون قد صرنا في أرض شقرا ، ويتتالى صعودنا حتى نصل إلى العين الفوقا أو (عين الفوقا) كما يطلق عليها هناك ، ويكون المنتزه وعينه إلى يسارنا ، ثم نكون بين كروم التين ماشين إلى المنازل .

وهذه البقعة من (عين الفوقا) والمنتزه إلى كروم التين ما قبل حريبة وبعد حريبة إلى ما يليها وينحدر عنها ويتفرع منها تتصل بالنفس بأعذب الذكريات وأحلاها ، مما سيطول الحديث عنه في الآتي من القول في الذكريات العاملية .

على أنه لا بد هنا من كلمة في وادي السامر الذي مرّ ذكره . ويلفظونه هناك بفتح الميم . وأحسب أن أصل الكلمة بدون ألف بعد السين ، فيكون : (وادي السمر) .

وهذا الوادي يقع بين عدة قرى بين أهلها تواصل وتواد ، فربما كان ملتقى للكثيرين منهم في ليالي الصيف والربيع حيث يسمرون فيه ، فأطلقوا عليه اسم (السمر) .

وهو وادٍ يكاد يربط بين (شقرا) و (الصوانة) ، ولا يفصله عن الصوانة إلا (خلة الدالية) حيث ينتهي الوادي قبلها في خلة السيدة وزيتونات الزياتية ، ثم يصل السائر منها إلى (خلة الدالية) فيصعدها واصلاً إلى الصوانة .

أما من ناحية شقرا فينتهي الوادي قبيل (بير حميد) ، حيث يصعد الصاعد منه في الثنية إلى بير حميد ، ثم يهبط إلى الوادي الموصل بأرض شقرا .

فهو إذن الطريق المستقيم الواصل بين القريتين ، ولا يوجد بينهما طريق يحمل إسماً مستقلاً يدانيه بالطول وبعد المسافة ، بل أن الأسماء الأخرى تشغل جزءاً لا يذكر أمام حيزه . وبذلك كثر ترديده في شقرا وفي الصوانة على السواء . لما يربط بين أهل القريتين من روابط القربى في أسرة من

الأسر التي تتوزع بين القريتين ، وهي الأسرة التي ينتمي إليها صاحب هذه الكلمات .

لله تلك العهود التي كان لا يمضي يوم فيها إلا وإسم وادي السامر مذكور فيه ، ولله تلك الرحلات الجميلة بين القريتين أيام الربيع والصيف ! . ولله تلك الساعات التي يقال فيها في شقرا : (سيّاد الصوانة) هنا فتنعقد الحلقات وتعلو الضحكات وتطول الأحاديث ! . .

بل ربما كان بمجيؤهم ومجيء غيرهم من أفراد الأسرة من عثرون ومجدل سلم مبعثاً لكثير من الشعر الطريف الذي يمثل الحياة العاملية بكل ما فيها من ترف وشظف وجد ولعب ! .

وقد ضاع كل ذاك الشعر فيما ضاع من التراث العاملي لأن أحداً لم يعن بتدوينه وإنما تلي بوقته ، وسجل في وريقات ، ثم ضاع ! .

وأذكر من هذا أبياتاً من قصيدة قيلت في بعض من قدموا من عثرون والصوانة ، راكبين على خيل ربطوها ، ثم غابوا فلم يعودوا على العشاء عند مضيفهم الذي كان ينتظرهم ، فقال فيهم قصيدة لا أزال أحفظ منها هذه الأبيات :

خذوا القواديش لا تبقوا القواديشا ... ولا تخلوا لنا الجرد (المفاليشا)

وفيها يقول :

لو أن (سلعا وباريشا) لنا بلد ... عفنا لأجلكم سلعا وباريشا
ولو فعلتم كهذا الفعل في بلد ... ألقوا عليكم (برابيشا برابيشا)

والذي يعرف المصطلحات العاملية ويعرف ما تعنيه كلمة (المفاليش) و (البرابيش) يدري ما في هذا الشعر من طرافة ! . .

وسلعا وباريش قريتان في جبل عامل .

شقرا

ووصلنا إلى شقرا على أمل العودة إلى دمشق في نهاية الصيف دون أن ندري ما كان يخبئه القدر للبلاد كلها ، ودون أن نعلم أن مجيئنا هذه المرة يختلف في مصيره عن كل مرة .

وكان أشد ما يملأ نفسي همّاً هو انقطاعي عن تتبع الحركة الوطنية تتبعاً كاملاً بسبب انقطاع وصول الجرائد إلي وندرة الحصول عليها .

وإذا وقع وحصلت على بعضها كان الحصول متأخراً .

ثم أن الجرائد التي كانت تصل هي جرائد بيروت ولم يكن منها في ذلك الحين من يمثل الفكرة الوطنية إلا جريدة الحقيقة لصاحبها كمال عباس التي كانت تمثل الدعوة الإستقلالية العربية أبلغ تمثيل ، وإلا جريدة الأحرار التي كان المشرف الفعال عليها جبران تويني . وكانت الأحرار قد أصدرتها شركة مساهمة فيها جبران تويني وترك تحريرها له . وكان صدور هذه الجريدة حدثاً صحفياً ضخماً ، إذ أن التويني كان صحفياً موهوباً فطور الصحافة البيروتية تطويراً كبيراً وقفز بها قفزات جعلت منها شيئاً جديداً لا سابقة له في البلاد .

وفضلاً عن التطوير في التحرير والتبويب ، فقد كان التويني يتفرد بماشاة الصف الوطني والترويج له والدعوة إليه . وكانت جريدته صدى للحركات الوطنية في سوريا ولبنان على السواء .

وهو أول من اتخذ للجرائد مراسلين في الخارج ، فاختار نجيب الريّس مراسلاً له في دمشق . وصارت رسالة دمشق تحمل أخبار التحركات الوطنية فتنشر في الأحرار موزعة في كل مكان . وكنت إذا سافر مسافر من شقرا فإن أعظم ما أوصيه عليه هو أن يحضر لي معه في عودته جريدة .

على أن ما فاتني من متابعة الاطلاع على الجرائد اليومية كنت أعوضه بعض التعويض بمتابعة الإطلاع على مجلة العرفات التي كانت تصلنا شهرياً . فقد كانت تسد جزءاً من الفراغ الذي صرنا فيه من انعدام المطالعة اليومية للصحف . . .

الثورة

لم نكد نستقر في شقرا ، ولم نكد نحصل على بعض الصحف حتى رحنا نطالع فيها طلائع تحرك ضخم في سوريا . وأخذت الأنباء منقولة على الشفاه ، ومحمولة من مكان إلى مكان تصل إلينا ، وفيها ما يشعر بأن جبل الدروز غاضب على السلطات الحاكمة .

ولم نكن نستطيع أن نعي حقيقة ما يجري لأن الصحف لا تحمل الأنباء الصريحة ، كما أن ما تتداوله المجالس التي نحضرها لم يكن واضحاً كل الوضوح .

ومن ذلك أن رجلين دمشقيين جاءا إلى شقرا كنت أعرف أحدهما لأنه كان من صحابة والدي المقربين إليه ولم أكن أعرف الآخر ، ولم أكن قد رأيته من قبل ، ثم اختلى الرجلان بوالدي خلوة طويلة لم ندر ما دار بينهما وبينه فيها من أحاديث وبات الرجلان في شقرا وفي الصباح الباكر غادراها عائدين إلى دمشق دون أن نعرف شيئاً عن مهمتهما . ثم عرفنا بعد ذلك أن مهمتهما كانت إبلاغ والدي عما يجري من إعداد للثورة والتشاور معه في شؤون هذا الإعداد .

ثم تتابعت الأنباء شيئاً فشيئاً فعرفنا أن الثورة الفعلية قد نشبت في جبل الدروز ، وأن المعارك مشتعلة . وفجأة وصلت إحدى الصحف البيروتية وفيها النداء البليغ الذي أذاعه سلطان الأطرش داعياً السوريين جميعاً إلى حمل السلاح والثورة على الانتداب .

وقد تكررت فيه كلمة : إلى السلاح . . .

وعلقت الصحيفة على النداء قائلة بما معناه : أن الحقيقة كما هو معلوم أن القوم ثاروا لغير هذا الهدف . وأحسب الآن أن الصحيفة قالت أنها تنقله عن جريدة المقطم المصرية ، وأن التعليق كان للمقطم نفسها .

وبت متلهفاً على تتبع أنباء الثورة ، ولم يكن الفرنسيون قد أعلنوا الرقابة على الصحف بعد ، لذلك كانت الصحف تنشر كل يوم ما يبلغها من أخبار . ثم علمت بما جرى للجنرال ميشو وحملته وما انتهى إليه أمر جيشه من الهزيمة النكراء .

ثم أخذت أخبار الثورة تتوضح وتتجلى على أبرز حال . وأريد أن

أسجل هنا بأنه كان لجبران التويني ولجريدة الأحرار الفضل بتعميم أنباء الثورة بشكل صريح . وكان نجيب الريس لا يزال مراسلاً في دمشق فكان يمدها بالأخبار الثورية فتفتح الأحرار صدرها على أوسع ما يمكن .

ولم تكن تصلني الأحرار بانتظام ، ولكن ما كان يصلني منها كان ينعش نفسي ويرضي شعوري ! .

ثم علمنا أن الفرنسيين أطبقوا على قادة حزب الشعب في دمشق ففر منهم من فر وقبض على من قبض عليه . وكان إعلان الثورة قد اتفق عليه بين زعماء الجبل وبين وطنيي دمشق بعد أن تعهد هؤلاء بالانضمام إلى الثورة في حالة بدء الزحف ، وتواعد الدمشقيون على اللقاء في الغوطة والوصول إلى الجبل ، فخرج من خرج وعلى رأسهم الدكتور عبد الرحمان شهبندر وسعيد حيدر وحسن الحكيم وقبض الفرنسيون على من بقي وبينهم يوسف حيدر صاحب المفيد ونجيب الريّس محررها الأول ومراسل الأحرار في دمشق . كما قبضوا على الوطنيين في غير دمشق ونفي الجميع إلى جزيرة أرواد .

وأذكر من أخبار الثورة في تلك الأيام تقدم فرسان الدروز إلى دمشق ، ثم إعلان الفرنسيين صدهم بالطائرات والمصفحات بعد اعترافهم بأنهم لم يكونوا بعيدين عن دمشق .

وتوالت أحداث الثورة وتوالت انتصاراتها ، وبدأت تعم البلاد وتمشي من بلد إلى بلد . وكنت حينذاك أحس بفيض من الزهو يملأ نفسي لما كان ينزل بالفرنسيين من هزائم .

ثم وضحت صورة الثورة أمام أبصارنا وعرفنا من حقيقة معارك الجبل ما لم نكن قد سمعنا عنه إلا القليل . فقد كانت هزيمة الجنرال ميشو هزيمة كبرى ذبح فيها جيشه أو تشرد واستولى الثوار على المدافع وكل الأسلحة وأضحت فرنسا في البلاد بلا جيش يرد عنها الهزائم .

ومشت الثورة إلى الغوطة وانضم إليها الدمشقيون والغوطيون ، وتألق اسم حسن الخراط الحارس الدمشقي البسيط وأصبح بطل معارك الغوطة وزعيم عصاباتها ، ينازل الفرنسيين ويرعبهم .

واستضعف الثوار قوة الفرنسيين فقرروا اقتحام دمشق ، واقتحموا بالفعل ونفذوا إليها من كل جانب ، وقصدوا إلى مقر الجنرال ساراي من قصر العظم قرب البزورية حيث كان يبيت طيلة أيام الثورة وحاولوا أسره ولكنه استطاع النجاة قبيل وصولهم . ثم أمر مدافعه المنصوبة على القمم المطلة على دمشق أن تصب حممها على المدينة الباسلة ، فانهالت القنابل تحرق وتدمر ، قنابل المدافع وقنابل الطائرات .

ووصلتنا الأخبار بتفاصيلها ، وعلمنا فيما علمناه أن حينا قد كان عرضة للقنابل ، وأن (دخلة الشرفا) نفسها أصابتها النار الغاشمة ، وأن صحاباً لنا من الجيران قد فقدوا أبناءهم وأطفالهم ! . .

ثم إذا بالثورة تطل علينا نحن ، وإذا بها تغدو على مقربة منّا ، فقد تقدم الثوار بقيادة زيد الأطرش واحتلوا وادي التيم ونزلوا حاصبيا ومشوا إلى كوكبا فقاومتهم فصاولوها فنالها ما ينال من يقف مثل موقفها . فاستغل الفرنسيون وأذنابهم الحادث وعملوا على تشويه وجه الثورة الناصع ، وأثاروها طائفية بشعة ! . .

وفي يوم كنّا في شقرا نستطلع الأخبار ، ونتوقع الحوادث فإذا بنا نشاهد عن بعد دخاناً كثيفاً يتعالى في الجو ويمتد ثم يمتد إلى العلاء فحدس الحادسون بأن جديدة مرجعيون تحترق . وقد صح حدسهم ، فإن ضابطاً لبنانياً أرعن كان يقود قطعة مما سماه الفرنسيون (القناصة اللبنانية) وهم جنود لبنانيون تطوعوا في الجيش الفرنسي - إن هذا الضابط أبى إلا المقاومة في الجديدة . ولكنه لم يلبث أن هزم هو وقناصته ودخل الثوار الجديدة دخول المنتصرين مما أدى إلى إحداث الحرائق التي شهدنا دخانها من تلك المسافة البعيدة .

وقد آلمتنا أحداث كوكبا والجديدة . وأذكر أن شاعراً متفرنساً نظم مقطوعة يحيي بها كوكبا ويحمل على الثوار نشرتها له مجلة المعرض، لا أزال أذكر ختامها وهو هذا البيت :

أوشئت تشهد معقل الأبطال فاقصد «كوكبا»

فأثارني ذلك فرددت عليه بمقطوعة جعلتها في تحية مجدل شمس التي كان أبناؤها في طليعة الثوار :

إن رمت تظفر بالألى ... بذلوا النفوس وما غلا
من كل أروع باسل ... متن الفخار قد اعتلى
يحمي بصفحته إذا ... حمي الوطيس المعقلا
يرد الوغى وشعاره ... إما الممات أو العلى
أو شئت تشهد معقل ... الأبطال فانح « المجدلا»

ومن البديهي أن مقطوعتي لم تظهر إلا لبعض الأصدقاء .

أما مجدل شمس التي سميتها معقل الأبطال ، فهي اليوم ترزح تحت الاحتلال الصهيوني ! .

ألا : سلام على تلك الأيام التي كانت البلاد تضطرم فيها بنار الثورة : نار الإباء والشهامة والبطولة والشمم .

سلام على تلك العهود التي حمل فيها الشعب الأعزل ما تيسر له من سلاح ومضى يذود عن شرف بلاده وكرامة وطنه ويقاتل في سبيل حريته واستقلاله مناضلاً أعظم قوة عسكرية في ذلك العصر . القوة التي هزمت قبل بضع سنوات قوة ألمانيا الجبارة وعطلت آلتها الحربية ! .

الشعب الذي لم ينتظر مؤتمرات القمة ، ولا ثرثرة الثرثارين ، ولا بيانات الجبناء ، وبلاغات المتخاذلين . بل نادى : إلى السلاح ! . وما كان سلاحه إلا بنادق متباينة ومسدسات متغايرة صمد بها في وجه المدفع والرشاش وقاتل بها الدبابة والمصفحة . وهزم بها (الجنرالات) .

سلام على تلك الأيام ، والبلاد تنوء بالاستعمار ، وترزح تحت الانتداب . ولكنها تقاتل وتحارب ! . .

ولا سلام على هذه الأيام ، والبلاد تنعم بالاستقلال ولكنها تستكين للسلم الذليل ! .

وفي هذه الفترة كانت قد بلغت الثورة أوجها وسيطر الثوار على ما يقرب من نصف سوريا ، وها هم الساعة يطلعون على لبنان ويوغلون فيه ، حتى لقد كتبت المعرض مقالاً عنوانه : هل نحن على بركان ؟! .

وكثرت الإشاعات وتوالت الإرهاصات ، لقد بدت طلائع تحركات في الشوف ، إذا كانت ذات صبغة فردية ومحاور محدودة ، فقد كانت ذات دلالة كبرى . وبدا أن الخطوة التالية بعد مرجعيون هي النبطية . . .

على أنه من ناحية ثانية كانت الإمدادات الفرنسية قد وصلت بطريق البحر وانطلقت في اتجاه جنوب لبنان لصد المد الثوري ، وكانت إمدادات قوية يحسب لها كل حساب .

ولكن الموقف الحاسم الذي أوقف تقدم الثوار ، ثم ردّهم عن مرجعيون نفسها ، كان الفشل الذي أحاق بهم في محاولتهم احتلال قلعة راشيا الوادي ، حيث كانت تقيم قوة فرنسية حاصرها الثوار ، ثم حاولوا الصعود إلى القلعة على السلالم التي نصبوها ، فكانوا كلما احتشدوا على السلم حصدتهم الرشاشات فتهاووا صرعى إلى الأرض . ومع ذلك فقد استطاع فريق منهم الوصول إلى القلعة ودخولها مما أرعب الفرنسيين . وكانت النجدات الفرنسية تسرع في الوصول إلى القلعة فتقدمت طائرة ألقت برسالة فوق القلعة ، ولكن الريح حملتها إلى الخارج فسقطت بعيداً عن القلعة . وكانت راهبة لبنانية قد رأتها تسقط فالتقطتها وحملتها إلى من في القلعة . ويبدو أن الثوار ترفعوا عن أن يتصدوا لامرأة تحاول اللجوء إلى القلعة ، لا سيما وهي في ثياب الراهبات ، فتركوها .

وكان في الرسالة دعوة للمحصورين إلى الصمود لأن النجدات أصبحت وشيكة الوصول إليهم . وهكذا صمد الفرنسيون بعد أن كادوا يستسلمون ، ثم فوجىء الثوار بالجند ينقض عليهم من الخارج بينما النار تنصب عليهم من الداخل ، فكان ذلك كافياً لتشتتهم ، بعد أن أبدوا من البطولات ما كان خليقاً ببني معروف الأنجاد ، وما هو إلى الأساطير أقرب منه إلى الحقائق لما فيه من البسالة المنقطعة النظير ، والاستهانة بالموت استهانة رائعة ! . .

وكانت معركة راشيا هذه حدّاً فاصلاً في تاريخ الثورة ، أخذت بعده تتراجع تدريجياً . ولو قدر للثوار الفوز بالسيطرة على القلعة واقتحامها لكان للثورة شأن أي شأن . . .

وقد جاءت أنباء راشيا تملأ نفسي همّاً وأسى ظلا يطغيان عليها يوماً بعد يوم ، لأن أنباء الانتصارات كانت تمتزج بأنباء الفشل ، حتى عاد الأمر بعد ذلك كله فشلاً وتراجعاً .

وفي هذه الأثناء شاع شعر الشاعر القروي رشيد سليم الخوري وشعر الياس فرحات الثوريين وحفظنا قصائدهما عن ظهر قلب ، بل ويمكن القول أني سمعت باسم القروي لأول مرة مع سماعي لقصيدته العينية إذ كنت في صيدا لأمر خاص ، وفي إدارة مجلة العرفان اطلعت على القصيدة ونقلتها معي وأذعتها في جبل عامل ، فانتشرت في كل مكان فيه .

وإليك ما وعته الذاكرة من تلك القصيدة التي خاطب فيها سلطان الأطرش :

خففت لنجدة العاني سريعا ... غضوباً لو رآك الليث ريعا
وحولك من بني معروف جمع ... بهم ويدونهم تفني الجموعا
كأنك قائد منهم هضاباً ... تبعن إلى الوغى جبلاً منيعا
ألم يلبس عداك (التنك) درعاً ... فسلهم هل وقى لهم ضلوعا
ومذ هطل الرصاص عليك سحا ... كوسمي جليت به ربيعا
وثبت إلى سنام التنك وثبا ... عجيباً علم النسر الوقوعا
وكهربت البطاح بحد سيف ... بهرت به العدى فهووا ركوعا
كأن به إلى الافرنج جوعا ... وسيفك مثل ضيفك لن يجوعا
تكفل للثرى بالخصب لما ... هفا برقا فأمطرهم نجيعا
فخر الجند فوق «التنك» صرعى ... وخر التنك تحتهم صريعا
فيا لك غارة لو لم يذعها ... أعادينا لكذبنا المذيعا
ويا لك «أطرشا» لما دعينا ... لثأر كنت أسمعنا جميعا

كيف ثارت الثورة

الواقع أن نوايا الجنرال ساراي لم تكن من السوء إلى الدرجة الذي أظهرتها الأحداث التي رافقت وجوده في سوريا ولبنان ، وحين نريد أن ننصف فإن علينا القول بأنه شتّان بينه وبين سلفيه غورو وويغان . ويكفي أنه طلب إلى الوطنيين الذين قابلوه أن ينظموا صفوفهم أولاً وأن يؤلفوا حزباً سياسياً يوحد كلمتهم ويحدد مناهجهم . ويكفي أنه لم يتوقف أبداً في إجازة حزب الشعب مع علمه بماضي رجاله وأهدافهم الاستقلالية .

ولكن الأمور سارت بعد ذلك بعكس هذا الاتجاه ، وتطورت الأحوال إلى الحد الذي جعل من ساراي جزّاراً من جزاري سوريا ، دون أن يقصد ذلك أو يتعمده . .

ولا شك أن لحاشية السوء التي كانت تحيط بالجنرال والتي لم يكن في تصوره التخلص منها ولا في علمه شيء من نواياها ، هذه الحاشية التي صورت له الأمور على غير حقيقتها ، ولم تشأ أن توضح له ما يجب إيضاحه ، وأن تبين المحاذير التي ستنجم عن بعض التصرفات . بل على العكس ، ربما تكون هي التي قادته إلى المزالق التي وجد نفسه فيها ، والتي دهورته إلى أسوأ مصير . .

قلنا فيما تقدم أن غورو أعلن جبل الدروز دولة منفصلة عن سوريا ، ولإرضاء الدروز عيّن الجنرال حاكماً منهم للجبل هو الأمير سليم الأطرش ، ثم لم يلبث أن مات ، فعين الفرنسيون مكانه ضابطاً من ضباطهم الرعناء المهووسين ، ممن يبدو أنهم نشأوا وسادوا في حكم المستعمرات وألفوا الغطرسة والإذلال . فسار في حكم جبل الدروز سيراً كله شطط ورعونة وشراسة وإرهاق ، مما كان له أسوأ الأثر في نفوس الدروز الأشداء . . ولم تفد الشكاوى بل زادته غطرسة وتجبُّراً .

وحين جاء ساراي ، رأى زعماء الدروز أن الوقت مناسب للمطالب بتنحية كاربيه ، ولكن الأمل في نفوسهم كان ضعيفاً ، وكانت الحركة الوطنية بعد تأليف حزب الشعب قد انتظم أمرها ، وبدأت الاتصالات وتوسعت المناهج والخطط ، فكان أن عقد اجتماع تمهيدي في أوائل شهر أيار سنة ١٩٢٥ في أحد البيوت الدمشقية حضره فريق من زعماء الجبل مع فريق من قادة الوطنيين في دمشق بحث فيه بتوحيد جهود العاملين ، وأشير فيه لأول مرة إلى القيام بثورة مسلحة .

ويبدو أن الفكرة لقيت تجاوباً عند زعماء الجبل فتلا هذا الاجتماع إجتماع آخر موسع ضم معظم رجالات الجبل بمن فيهم شيخ مسيحي الجبل

(عقلة القطامي) تعاهد فيه الجميع على العمل يداً واحدة لا من أجل تنحية كاربيه فحسب بل من أجل الوحدة والاستقلال ، واختمرت في النفوس فكرة الثورة وتقرر أنها هي الطريق الوحيد للوصول إلى الحق .

وفي ١٥ أيار سافر الكابتن كاربيه بإجازة إلى فرنسا ، وقد رأى زعماء الجبل وجوب الاتصال بالسلطات الفرنسية لوضع حد لطغيان كاربيه والخلاص من الوضع القائم فأمّ وفد منهم دمشق ومنها أبرقوا للجنرال ساراي طالبين موعداً لمقابلته . ثم قصدوا إلى بيروت ولكن ساراي رفض مقابلتهم ، وبعد توسطات أحالهم على الأمين العام ، فلم يصنع شيئاً فعادوا محنقين .

وتتالت الأحداث فلجأ ساراي إلى أمر مشين ، إذ بعث بتاريخ ١١ تموز إلى مندوبه في دمشق ليدعو إليه عدداً من الزعماء الكبار باسم التفاوض وإنهاء الأمر حتى إذا وصلوا اعتبرهم مسؤولين عن كل ما يمكن أن يحدث في الجبل ، ثم أبقاهم بيديه رهائن يعتقلهم في أحد المعتقلات . .

وهكذا تم له ما أراد فنفى بعضهم إلى تدمر وبعضهم إلى الحسكة . . على أن أخطر الزعماء (سلطان الأطرش) أبى القدوم إلى دمشق وبذلك ظل في منجاة من الاعتقال .

وحسب الفرنسيون أنهم يستطيعون القبض على سلطان فجهزوا حملة صغيرة يناهز عددها المائتي جندي وضابط بقيادة النقيب نورمان ، فهاجمهم سلطان في الثاني والعشرين من شهر تموز ١٩٢٥ أي بعد خمس سنين من يوم ٢٤ تموز ١٩٢٠ يوم معركة ميسلون . فلم يثبت الفرنسيون لسلطان فأبيدوا . ثم جمعوا قواهم كلها في قلعة السويداء وتقدم سلطان إلى السويداء فدخلها وبدأ حصار قلعتها .

ولكن كان على ساراي أن يفك الحصار عن قلعة السويداء فجهز حملة بقيادة الجنرال ميشو أيقن أنها كافية لإنهاء التمرد والتغلب عليه . ومن بلدة أزرع تقدمت الحملة وعددها سبعة آلاف جندي مجهزة بكل أدوات القتال ، ومشت في أول آب ١٩٢٥ متجهة إلى السويداء فلاقاها بنو معروف ببسالتهم المعروفة فلم تصمد لهم وكان نصيبها نصيب حملة نورمان على فرق ما بين الحملتين من حيث العَدد والعُدد .

وغنم الثوار من سلاحها ما كان لهم عتاداً يعز مثيله لا سيما من المدافع بذخائرها .

وكان في هذه الحملة جل ما يملك الفرنسيون من قوى فلو واصل الثوار زحفهم إلى دمشق لدخولها منتصرين .

وبالرغم من التكتم الشديد الذي حاول الفرنسيون به إخفاء حقيقة النصر الباهر الذي أحرزه الثائرون فقد تسربت أنباء هذه المعركة إلى كل مكان ، ووصلتنا أخبارها .

وبعدها أدرك ساراي أنه كان مخطئاً في سوء معاملته لرجالات الجبل فحاول مفاوضتهم واسترضاءهم وأطلق المعتقلين منهم في تدمر والحسكة منذ ١٣ تموز فعادوا إلى الجبل .

ثم أرسل وفداً من دروز لبنان إلى الجبل لوضع حد للأعمال الثورية وفي نفس الوطت طلب من فرنسا تعزيزاً عسكرياً . وقد التقى في الجبل نوعان من الوافدين نوع لبناني يمهد للسلام ونوع دمشقي يدعو لاستمرار القتال . وفي الوقت الذي كاد السلم أن يتحقق وصل الدمشقيون فرجحت كفة القتال .

مفوض سام جديد

بعد فاجعة دمشق وقصفها بالطيران والمدافع وتشعب الأمور وامتداد الثورة قررت الحكومة الفرنسية استدعاء ساراي ، وأرسلت بدلاً منه لأول مرة منذ الاحتلال الفرنسي مفوضاً مدنياً ليعالج الأمور ويصلح ما فسد منها ، هو دوجوفنيل . وفي نفس الوقت كانت الإمدادات الفرنسية يتوالى وصولها قادمة بطريق البحر إلى بيروت ومنها مرسلة إلى مختلف المناطق .

وقدم جوفنيل معرجاً على مصر ليقابل من بها من السوريين للتفاهم والتفاوض ولكن لم يكن لذلك من نتيجة . ثم وصل بيروت في أول كانون الأول ١٩٢٥ وقامت محاولات للتفاوض والتوفيق ومضى وفد لبناني دمشقي للاتصال بالثائرين فقصد درعا ومنها إلى عرى والتقى بالزعماء الذين عرضوا أدنى ما يمكنهم قبوله . وتألف وفد دمشقي للإتصال بالمفوض في بيروت ، وحدد مطالبه ، ولكن هذا الاتصال لم يؤد إلى شيء . وهنا أعلن رئيس الاتحاد السوري استقالته فعجز المفوض عن إيجاد خلف له ، لذلك أعلن تعين فرنسي حاكماً لسوريا . ثم حاول المفوض أن يفصل بين قضية جبل الدروز والقضية السورية لمخاطبة الدروز رأساً ولكن المحاولة لم تثمر . وحاول أن يجري انتخابات في سوريا ففشل ، وكان يبدو متخبطاً لا يدري ما يصنع .

ولستر الإخفاق قرر الاعتماد على العمل اللبناني فقرر إعلان الجمهورية اللبنانية واستبدال رئيس لبناني لها بالحاكم الفرنسي وإنشاء مجلس شيوخ إلى جانب المجلس النيابي وإعطائها كل بهارج الجمهوريات دون حقائقها . واعتقد أنه بهذه المظاهر الجمهورية يمكن أن يغري الثائرين . ولكنه لم يصل إلى أية نتيجة فرأى من الأفضل له أن يعود من حيث أتى . فغادر البلاد في الثامن والعشرين من شهر نوّار ١٩٢٦ .

موقف مجلس لبنان من الثورة

عندما وصل الثوار إلى أطراف لبنان واشتبكوا مع القوات الفرنسية ثم تقدموا داخل لبنان اجتمع المجلس التمثيلي اللبناني في أول كانون الأول ١٩٢٥ وأصدر قراراً باقتراح النائب شبل دموس خالفه كل من النواب : فؤاد أرسلان وعمر بيهم وعمر الداعوق وجميل تلحوق .

وهذا نص القرار :

« لما كانت حوادث العصيان التي ابتدأت في جبل حوران قد تطاير شررها إلى الأطراف الجنوبية الشرقية من لبنان فتناولت حاصبيا وراشيا وما يتبعهما من القرى المجاورة فألحقت بالبلاد ضرراً فادحاً بالأموال والأرواح .

ولما كانت هذه الحوادث في قرانا التي على الحدود غير مستندة إلى مبدأ يبررها .

ولما كانت حكومة لبنان المحلية غير مجهزة بجيش نظامي يرد غزوات الطامعين وكانت على ثقة تامة من حماية الدولة المنتدبة للبلاد عند الحاجة قياماً بعهدها الذي قطعته مع جمعية الأمم .

ولما كانت قوة الجندرمة المحلية على قلة عددها قد قامت بواجبها أثناء مهاجمة الحدود . ولما كان لبنان بانفصاله سياسياً عن جارته سوريا وجبل الدروز يرغب في البقاء في عزلته وحياده التامّين . ويعتبر تصدّي الخوارج لمهاجمة أطرافه تعدّياً على استقلاله وافتراء محضاً على حريته ومصالحه فإن هذا المجلس يقرر ما يلي :

١ ـ إن هذا المجلس يعتبر هجوم الثوار على حاصبيا ومرجعيون وراشيا تعدياً على استقلال لبنان وحرية سكانه .

٢ ـ يرفع هذا المجلس شكره بالنيابة عن البلاد إلى الدولة المنتدبة الكريمة لما قامت به حتى الساعة من التضحيات بالأرواح والأموال للذود عن حياض لبنان والعمل على سلامة سكانه وضمان استقلاله .

٣ ـ يقدر مفاداة الجندرمة اللبنانية حق قدرها ويثني على ثباتها وشجاعتها .

٤ ـ يؤكد هذا المجلس للدولة المنتدبة بقاء البلاد على ولائها لها ومحبتها التقليدية غير المتزعزعة .

٥ ـ يطلب هذا المجلس من دولة الحاكم إبلاغ الدولة المنتدبة هذا القرار بالصورة الرسمية .

الحليشة

وصلنا إلى شقرا في مطالع الصيف ، وللصيف في القرى العاملية حياة شيقة حلوة . فمنذ تبدأ حقول (القطانة) بالإصفرار ، ثم تيبس تلك الأباطح المكسوة بنبات العدس والباقية والكرسنة . يبدأ في القرية موسم (الحليشة) ، وهو أول موسم من مواسم الحصاد ، ولكن هذا الحصاد لا يقتضي له مناجل ومقاطع ، ولا زنود قوية وسواعد فتية ، بل أن الأيدي الناعمة هي التي تتولى حصاد حقول (القطانة) وذلك لقصر سيقان العدس والباقية والكرسنة وضعف تكوينها وسهولة اقتلاعها . لهذا تتولى (الحليشة) فتيات القرية لا فتيانها ، وصباياها لا شبّانها ، وقد يشارك بذلك عجائزها لا شيوخها ! . .

فأنّى صعدت في الذروات ، وأنّى صوبت في الوهدات ، وأنّى أصغيت في الأسناد والأصواح والسفوح ، فإنك ستسمع أبداً أصوات الصبايا منطلقة بالأغاني القروية الجميلة ! .

ها هنا تنطلق النفوس المكبوتة التي أضواها الحب فلم تستطع التعبير عنه في المجالس والندوات ، ها هنا تنطلق معبرة عنه تعبيراً شاعرياً أخّاذاً ، ها هنا يتنوع الشعر فهو إما رمزي خجول يأخذ بالكنايات والتوريات أو صريح واضح ، ولكن صراحة مهذبة خجلى ! . .

ها هنا تنطلق الأصوات بأغانيها العاطفية على مداها الواسع لا تحدها الجدران ، ولا توقفها السدود ، بل أن لها في البر المديد ما تظل تدوي به ما شاء البر لها أن تدوي !

يا لروعة أيام (الحليشة) في القرية ، وقد اصفرت الحقول ، ويبست الزروع ، واستحالت البراري الواسعة من مروج خضراء ، إلى سهوب صفراء ، لتنطلق فيها الأيدي الناعمة باجتثاث سيقان العدس والباقية والكرسنة ، راكضة ركضاً ومتلاحقة تلاحقاً ومتوثبة توثباً ! .

ويا لبهجة تلك الأرض ، وقد علت فيها أغاني الصبايا وصيحات الفتيات ، ويا لعظمة القروية العاملة ، وقد انقلبت من ناعمة مستكينة ، إلى جبارة صاخبة تدق بقدميها الأرض وتقتلع بيديها الزرع ، وهي في كل ذلك عاطفية شائقة مشوقة ! . .

الأيدي الناعمة ! . لا ليست ناعمة تلك الأيدي التي تعمل في الحقل وفي الغابة وفي الكرم وعلى البيدر وفي التنور ! . . . إنها قاسية قسوة الحياة في هذه القرى ، إنها صلبة صلابة العيش في هذه الجبال ! . .

ولكنني في حياتي كلها ما لمست يداً ، كانت في نفسي أرق من تلك اليد القاسية ، ولا احتويت كفا كان في وجداني أكثر نعومة من ذلك الكف الصلب ! . . ولا هفوت إلى حسن كان في عيني أروع من ذلك الحسن العامل المجهد المكدود ! . . ولا خفق قلبي بوجد كان أكثر إلهاماً من الوجد بتينك العينين الشاردتين في مدى الحقول ، الهائمتين على ذروات الجبال وجنبات الأودية ! . .

الحصيدة

فإذا انطوت (الحليشة) وعادت حقول (القطانة) جرداء إلا من (أغمار) الزرع اليابس ، وصارت صامتة خرساء لا تسمع فيها إلا صوت الذكريات ! .

فإن حياة جديدة تنتظر جوانب أخرى من جوانب القرية ، وإن حقولاً أخرى لا تزال خضراء يانعة تتهيّأ أن تيبس وتصفر . وتكون سواعد الشبان وزنود الفتيان قد تهيّأت وهيّأت مناجلها ، ثم لا تبرح أن تمضي مع تألّق الفجر وتبلج النور وتراكم الندى إلى الحقول اليابسة الصفراء ممسكة بسيقان القمح اليابس المصفر ملء أيديها اليسرى ، معملة فيها بأيديها اليمنى مناجلها ، فإذا بالحياة تدب في ذاك الجهاد وذاك النبات ! . وإذا بالأرض الصامتة الخرساء تنقلب إلى حركة عارمة وصيحات متعالية ومناجاة متتابعة وأفراح متضاحكة ! .

إنه عرس الحقول يحييه هؤلاء الفتيان بسواعدهم القوية وأكفّهم الشديدة وأجسامهم المديدة ! .

إنه عرس الحقول يتعالى فيه الشدو وتنفجر الحماسة وتفور القوة وتتجلى الحياة على أشرف مُثُلها وأنبل أهدافها ! . .

وهل أشرف من هذا العرق المتجمع حبيبات على هذه الجباه الشامخة والمتساقط ذرات على هذا التراب الطيب ! .

وهل أنبل من هذه الأكف تجمع من الأرض غذاء أهل الأرض ! .

الرجيدة

وبعد (الحليشة) و (الحصيدة) تجمع الزروع المحصودة كتلاً صغيرة تسمى كل كتلة منها (الغمر) (بضم الغين وتسكين الميم) وتترك إلى حين ، إلى الوقت الذي ينتهي فيه موسم الحصاد وتكون جميع الحقول مهيّأة لنقل الزروع الحصيدة منها ، وعند ذلك يخرج الفلاحون مع إطلالة الفجر ، حيث يكون الندى متراكماً فوق كتل الحصيد فتغدو به طرية لا تتساقط سنابلها بالتحريك ، فيعود التجميع من جديد تجميعاً أكبر وتكتيلاً أضخم ، وعند ذلك تسمى الكتلة إسماً جديداً هو (البندك) ، فيجمع كل

بندكين متوازيين بحيث يترك بينهما مربض للجمل ، ثم تشد (البنادك) بحبال (البابير) المنقوع بالماء ليلين ، ثم يؤتى بالجمال ليحمل كل جمل بندكين بعد بندكين ، ناقلاً (البنادك) إلى البيادر وهذا ما يسمى بإصطلاح القرية (بالرجيدة) .

وقبل ذلك ، وقبل إطلال الصيف تكون تجارة الجمال قد راجت في كل القرى ، وتكون قوافل الجمال المعدة للبيع قد أصبحت تنتقل من قرية إلى قرية ليشتري الشارون ما يعدونه (لرجد) البنادك . . .

وهذه القوافل يتاجر بها تجار متخصصون يذهبون كل عام قبيل الصيف إلى دمشق القريبة من البادية ، حيث يفد الأعراب بجمالهم إليها فيقفونها في أسواقها الخاصة في الميدان ، فيقبل التجار بأموالهم لشرائها ، ثم يعودون إلى الجبل كل بما اشترى فيدورون على القرى للبيع . .

وقد كان للجمل شأن أي شأن في القرية ، فصاحب الجمل هو كصاحب الشاحنة اليوم ، فعلى جمله (يرجد) ، وعلى جمله تنقل الأغلال إلى صور وغير صور لتباع هناك إلى التجار ، ثم يعود الجمل محملاً بما أعده أصحاب الدكاكين الصغيرة في القرية ، أو بما أوصى عليه غير أصحاب الدكاكين مما يسد حاجاتهم اليومية وغير اليومية .

وصور هي أقرب ما يقصده الجمالون في الرحلات البعيدة وإلا فقصدهم صيدا مألوف وكذلك قصدهم بيروت . وحتى بعد شيوع استعمال السيارات ظل للجمل شأنه حيناً في الوصول إلى صيدا وبيروت ! .

واليوم لا (رجيدة) بين الحقول والبيادر إلا في النادر النادر ، واليوم لا جمال تقطع الطريق بين شقرا وصور . بل اليوم لا رغاء للجمل يتعالى في دروب القرية وعلى بيادرها وفي حقولها ! . .

بل نكاد نقول أن لا (حليشة) ولا (حصيدة) إلا في بعض حقول القرية وجزء من أرضها الواسعة . لأن الأرض لم تعد تسد بغلاتها حاجة الناس ، بعد أن تطور الناس وتطورت حاجاتهم ، ولأن الناس لا يستطيعون تطوير نتائج الأرض بوسائلهم الخاصة تبعاً لتطور الحياة والحاجات ، ولأن الحكم والمسيطرين على الحكم ليسوا بالمستوى المخلص الواعي الذي ينهض بالأرض وأصحاب الأرض ! .

لذلك هجرت الأرض وعادت بوراً لا تمتد إليها يد بزرع ولا حصد ، والذين كانوا يعملون فيها ارتحلوا عنها إلى حيث يفتشون عن الرزق الأوسع فنجح بعضهم ولم ينجح أكثرهم ! .

وحين ترسل ببصرك من شقرا نفسها فتتطلع اليوم إلى (المنارة) التي اشتراها اليهود وكانت بالأمس القريب قطعة من جبل عامل ! . كانت أرضاً جرداء وحقولاً لا تخضر إلا في الشتاء والربيع ، حين تتطلع إليها اليوم فترى العمارات المتلألئة والغابات النضيرة والأرض الشجيرة والمياه الغزيرة ، تراها كذلك في الصيف والشتاء والربيع والخريف ، تدرك من الحقائق ما يمزق نفسك أسى وأسفاً ! . وتعلم ما جناه ويجنيه على الأمة من تسلطوا عليها حاكمين ، ومن وثبوا على رزقها متسلطين ، ومن تركوها للفقر غانمين ! .

اليوم لا أغاني الفتيات تتعالى من بين (أغمار) العدس ، ولا شفاههن تتحرك صداحة من خلال (شمائل) (الباقية) ، ولا تلك الأودية تتجاوب بأناشيد الهوى المكبوت مترنحة بأرق الألحان ! .

واليوم لا أهازيج للفتيان تدوي في السفح وعلى القمة وخلال الوادي ! .

لقد عاد كل شيء صامتاً أخرس ، وآبت الحياة إلى الهمود والركود ! .

البيادر

وفي البيادر تتجمع (البنادك) مثنى مثنى وتتراكم الواحد إلى جنب الآخر حتى تغص بها تلك البقعة التي كانت طوال العام خالية خاوية ، فإذا بها في الصيف تضج بالحركة والحيوية ، قد نصبت فيها خيام الرند (الغوردل) ، فسهر فيها الساهرون ونام النائمون . أما في النهار فإن أصوات الصبيان على نوارجهم تملأ الآذان بترجيعها الحلو ، وقد جلس أو وقف كل واحد منهم على النورج وبيمناه مقود يوجه به الثورين ساحبي النورج ، وبيسراه عود يحركه على جلد الثور المتباطىء أو المتحرف ، حتى إذا مل رتابة الساعات أرسل في الجو صوتاً رقيقاً بأهزوجة مخصوصة للبيادر بحيث تصلح للحوار ، فإذا سمعها جاره الأقرب رد عليها مقطعاً بمقطع ! .

حتى إذا أخذ وجه (الطرحة) بالأندراس جاء الرجال يقلبونها بالشواعيب ! .

وكانت البيادر في شقرا يشغل معظمها القسم الشمالي من الأرض المتصلة بالعمران ، ويشغل بعضها القسم الغربي الجنوبي ، وبعضها وهو الأقل القسم الشمالي الشرقي .

ولحكمة عملية أقيمت (عين الناقة) قريبة من البيادر الشمالية والشمالية الشرقية لتكون مورداً للبقر العامل على البيادر الغربية أما البقر العامل على البيادر الشرقية الشمالية فيرد البركة .

والبيادر الشمالية التي تشمل معظم زروع القرية ، وتقوم عليها أغلال كبار الفلاحين هي في الصيف (برلمان) القرية ودار الندوة فيها ، فهناك وسط البيادر وتحت الجوزة العريقة يلتقي الشيوخ وبعض الشبان فيتدارسون شؤون قريتهم إن كان هناك من شؤون ، ويتحادثون ويتنادرون إن لم يكن لديهم من شؤون . أما في الليل فحيوية القرية كلها تنتقل إلى البيادر ، إذ تعود خيامها مسكن الفلاحين الذين يحرسون فيها غلالهم . ولعل الأصح أن نقول أن حيوية القرية تتقاسمها في ليالي الصيف كل من البيادر والسحاري والكروم ، وهي في معظمها متقاربة متصلة ومن هنا كانت حياة هذه البراري في الصيف متشابكة متداخلة .

وللبيادر الشرقية الشمالية هي الأخرى ندوتها ومجالسها ورجالها ، أما البيادر الشمالية الشرقية فلقلة من فيها ولقربها من الغربية فلا ندوة خاصة بها ، بل أن رجالها يشاركون الغربيين في ندواتهم ومجالسهم ! .

لقد أدركت شيوخ القرية على البيادر الغربية وأدركت أمثالهم على البيادر الأخرى .

وجالستهم وأنا صبي ويافع وشاب ، فربما نسيت كل المجالس والأندية وغابت عني مع الزمن كل الأصوات فيها وانطوت من ذهني كل الصور عليها . أما أولئك الشيوخ شيوخ شقرا ، ومجالسهم على البيادر وسامرهم في الحي ، فلن أنساهم أبداً !! .

ولشدة تأثري بحيوية البيادر أيام موسمها ، ثم لشدة تأثري بانتهاء موسمها أذكر أنني في إحدى السنين نظمت قصيدة أودّع فيها البيادر وأقف على أطلال القمح وآثار الخيام وذكريات الناس ، لا أذكر سوى بيتين منها ، وقد أنستني الأيام سائرها ، ومع أنها من شعر الصبا غير الناضج فما أسفت على شيء كما أسفت على أني لم أحفظها بين أوراقي لتكون صورة حيَّة من صور المواقف العاطفية . أما البيتان فهما :

خلت البيادر بعد طول عجيج ومحت بها الأيام كل ضجيج
لا سامر الأحباب ثمة سامر أنساً ولا ليل الهوى ببهيج

أما اليوم فقد خلت البيادر بعد طول عجيج ، لا خلواً إلى حين ، بل خلواً في كل حين ! .

وعادت تلك البقعة جزءاً من عمائر القرية وامتلأت بالمنازل ، واقتلعت الجوزة وانطوت الندوات وغابت المجالس والأسمار ! .

الكروم والسحاري

أما ليالي الصيف في القرية ، الليالي الإضحيانة ، فهي ليالي الكروم أولاً وليالي السحاري ثانياً . فمنذ أوائل الصيف ينتقل الكثير من الحياة إلى كروم التين ، فتنصب فيها خيام الرند المعروف هناك باسم (الغوردل) أو الملول والسنديان . على أن الرند هو الأصل لاتساع أوراقه وكبرها بالنسبة إلى أوراق الملول والسنديان . وهذه الخيام نوعان منها ما هو طبقة أرضية تمهد الأرض أمامها لتكون صالحة لنشر التين عليها ليجف وييبس فيكون منه مؤونة الشتاء . والخيمة هي المأوى الذي يفيء إليه أصحاب الكرم أو ضامنوه ، ففيها يقيلون وفيها يبيتون . وقد تكون بعض الخيام مرتفعة عن الأرض ومقامة على قواعد عالية من جذوع الشجر فتسمى عند ذلك (السرير) .

فإذا عسعس الليل أشعلت القناديل أمام الخيام وتحلق السامرون في أفنيتها متحاورين متنادين ، وانتقل جزء كبير من حياة القرية إلى الكروم حيث الهواء الطلق والنسيم العليل والأفق الرحيب ! .

فإذا تنفس الصبح امتدت الأيدي إلى ثمار التين الناضجة تقطفها لتمتلىء بها السلال القصبية الصغيرة والكبيرة ، فبعضها يحمل إلى البيوت فاكهة شهية ، وبعضها يطرح للتجفيف غذاء لما يأتي من الأيام .

أما السحاري (جمع سحرا) فهي حقول الكوسى والخيار والقثاء والبطيخ التي تنصب فيها الخيام هي الأخرى مقيلاً للقائلين ومبيتاً للبائتين ومنزلاً للضيوف المستجمّين .

السحاري وكروم التين في حريبة ووادي الملول ووردة والدواوير وعقبة عين الحمرا وشواثا وجل زكو . . . زالت إلا بقايا لا تجمع سامرا ، ولا تؤلف مجلساً ولا تلفت انتباهاً .

فلا القناديل تنير دجى الليل البهيم ، فتجذب ببصيصها الضئيل النفوس قبل العيون ، ولا « الشبابات » ترن في أجواز الغسق فيلج رنينها القلوب قبل الآذان ! .

عودة القطيع

وفي أماسي الصيف يعود الرعاة بقطعانهم إلى القرية . يعود قطيع البقر مجتازاً بالبركة حيث ترد الأبقار من مائها لترتوي طيلة الليل بما شربت في المساء ، ثم يمضي الرعاة على رأس القطيع وعلى آخر القطيع بعصيهم الطويلة ذات الشعب مجتازين بمقبرة القرية الشرقية وشاقين الطريق الطويل منها بين البيوت الشمالية ، وما هو أن ينحصر القطيع بين جدران البيوت حتى يغدو لوقع أظلافه ضجيج مسموع بعد أن كان هذا الضجيج يتلاشى في الفضاء الواسع قبل الولوج بين الجدران التي تحصره بينها فيصل إلى الآذان برتابته المشوشة . وكثيراً ما كنت أكون في الغرفة اللصيقة بالطريق فأصغي إلى القطيع يدب بأظلافه على الأرض فيثير الغبار ويثير الضجيج معاً ، وينتهي السير إلى (الصيرة) وهي أرض فضاء مسورة بجدران ينحصر بينها القطيع طوال الليل ! .

وما هو أن يصل القطيع إلى (الصيرة) حتى تبدأ القرويات بالوصول إليها لتأخذ كل قروية بقرتها أو بقراتها إلى المنزل حيث تحلبها ثم تعيدها إلى (الصيرة) بين أترابها من البقر حيث يبيت الجميع حتى إطلالة الفجر ومع الفجر يعاود الكل الرحلة إلى المروج من جديد يتقدمهم ويسوقهم الرعاة بعصيهم الطويلة ذات الشعب ! .

وعلى خطوات القطيع ، وعلى حفيف وقع أظلافه كنت أستيقظ كل صباح ! .

ولعل من أطرف طرائف القرية أن انطلاق القطيع وإياب القطيع هما مما يحدد به الزمن في القرية ، وقطيع البقر يطلقون عليه اسم (العجّال) (بتشديد الجيم). لذلك يقولون مثلاً : وصل فلان تحويلة (العجال) وسافر فلان سرحة (العجال) ! . . ومن العجيب أن (السرحة) (والتحويلة) لا يتبدل زمانها ولا يتقدم ولا يتأخر ، بالرغم من فقدان الساعات في أيدي الرعاة لذلك كانت من أصح ما يحدد به الزمن ! . .

ولتحديد الزمن في القرية طرفة أخرى : أنهم يحددونه (بمعالاة المجدرة) وذلك أن (المجدرة) المؤلفة من العدس والبرغل والزيت والبصل هي الوقعة الأصيلة في القرية لأن ما تؤلف منه هو من نتاج القرية نفسها ومما يحصل عليه كل بيت ، فهي أرخص طعام وأكثر توفراً ! . وهل يطلب الفلاح الفقير في طعامه إلا الرخص والتوفر ؟! .

ولا بد في معظم البيوت من أن (يعلّى) قدر المجدرة على الموقد في المساء لتكون المجدرة حاضرة على العشاء ، وبالتكرار صار ميعاد (معالاتها) محدوداً معروفاً لا يحتاج تعيينه إلى الساعة ، بل صار هو الساعة التي تعين الزمن ! . لذلك يقال مثلاً : وصل فلان : معالاة المجدرة ! .

وتحديد الزمن بسرحة العجال وتحويلة العجال ومعالاة المجدرة دليل على ندرة الساعات وافتقادها إلا في الأقل الأقل من البيوت ، أو بالأحرى دليل على الفقر والفاقة ! .

« ولصيرة العجال » في القرية شأن آخر ، فبعد أن يمضي الليل في الظلام وتمضي ساعاته الأولى ، يكون البقر قد أفرغ ما في أحشائه من بقايا الحشيش الذي تغذى به طيلة النهار . وهنا يقبل على (الصيرة) بعض النسوة لجمع الأرواث ثم لتيبيسها لتكون وقوداً للطبخ أو الاصطلاء . ويحاول النسوة جهدهنّ أن لا يثرنَ البقر لئلا يغضب الرعاة النائمون على ما مهدوه في جدران الصيرة . . ولكن البقر كثيراً ما يثور من حركات النسوة

فيقوم ويجول ويقعد فيستيقظ الرعاة ويدور التلاسن بين الرعاة والنسوة وتقوم المشاجرة ويعلو الصياح ! .

هذا الذي ذكرته عن « العجال » إنما يكون كذلك خلال الصيف وربما بعض الخريف . أما حين يبدأ الجو بالاكفهرار وتبدأ نذر المطر ، فلا مكان « للعجال » في الصيرة ، ولا سير له مجتمعاً في أزقة القرية . إذ أن (الصيرة) دائماً مكشوفة كما أن مراقد الرعاة فيها مكسوة بالأغصان اليابسة وحدها . لذلك فإن مكان تجمع (العجال) في الشتاء هو في أعلى المقبرة الشرقية قرب زيتونة الفرسي العادية العمر ، حيث يبكر الرعاة بالوقوف في العراء منتظرين إقبال الناس بأبقارهم فيسوق كل إنسان أو إنسانة بقرته إلى موقف الرعاة حيث تتجمع الأبقار كلها ، ثم يسوقها الرعاة إلى المراعي . وفي المساء يعودون بها حتى مداخل البلدة وهناك يتخلون عنها فتنطلق كل بقرة إلى بيت صاحبها وهذا كله في أنائي البقر . أما الذكران فمأواها البيت صيفاً شتاء لأنها في الشتاء تعد للحراثة عليها فتعلف ليلاً بالكرسنة والباقية فضلاً عن التبن ، ثم تساق في الصباح إلى الحقل للحراثة . وفي الصيف تعد (لتدرس) عليها أكوام الزرع اليابس .

والمكان الذي تبيت فيه الأبقار في البيوت شتاء هو نفس الغرف الواسعة التي يبيت فيها أهل البيت ، ويتميز مكان أهل البيت بأنه يرتفع قليلاً عن مستوى الأرض ، ويترك المنخفض للأبقار وغيرها من الدواب . وهكذا يتعايش الإنسان والحيوان ، أو بالأحرى الفلاح والحيوان في القرى في غرفة واحدة وبيت واحد .

ويعلل الفلاحون أنفسهم بأن هذه المشاركة من بواعث الدفء في الغرفة الواسعة التي تضم العائلة كلها مع حيواناتها ! . ويا له من دفء بائس تبعثه أنفاس الأبقار ! .

المعزى والغنم

وفي المساء أيضاً تعود قطعان الماعز والغنم مع رعاتها ، ولكن عودتها لا تشبه عودة قطيع البقر . فبقر القرية كله يجتمع في (عجال) واحد ويذهب كله معاً ويعود كله معاً . .

أما الماعز والغنم فقطعان متعددة يكون كل قطيع مملوكاً لمالك واحد يشاركه الراعي في ملكيته . والذين يملكون عدداً محدوداً يبدأ من واحدة فأكثر يضمون ما يملكون إلى القطيع الكبير . ويسمون أصحاب (العرة) بتشديد الراء تمييزاً لهم عن أصحاب (الشلعة) . إذ كما أطلق القرويون على قطيع البقر اسم (العجال) أطلقوا على قطيع الماعز أو الغنم اسم (الشلعة) . وإذا كانت(صيرة العجال) ملك القرية كلها ، فإن لكل صاحب شلعة (صيرة لشلعته) مملوكة منه .

وإذا كانت عودة (العجال) عودة هادئة لا تثير إلا وقع الأظلاف على الأرض ، فإن عودة (شلعات) المعزى والغنم عودة شعرية عاطفية ! .

فمنذ تقبل (الشلعة) على القرية وتجد الأمهات ريح السخال يتعالى ثغاؤها جياشاً بأروع صور الأمومة ! .

فما من عنزة أو غنمة لها أولاد تنتظرها إلا وترسل ذاك الصوت العاطفي الشعري الذي لا تدري أهو نداء أو هتاف أو إعلام ، أو هو مزيج من هذا كله ! . فتشتبك الأصوات كلها متعالية من ها هنا وها هنا فتشكل مجتمعة مظهراً من أجلى مظاهر الشوق والحنين والحدب والعطف ، تعبر فيه هذه العجماوات أصدق تعبير وتبين فيه أوضح إبانة ! . .

فإذا دنا القطيع من مقره وأصبح على قيد خطوات من (الصيرة) وسمعت السخال ثغاء الأمهات ردت عليها بثغاء أشجى ونداء أرق ! .

ألا لله تلك الأماسي الشاعرية العاطفية التي لم يبق منها اليوم إلا بقايا ! . .

الصيف في القرية

كان لحياة الصيف في القرية الذي تحدثت عنه فيما سبق جانب آخر لا يخصها وحدها بل يعم الجبل كله . فكروم التين في شقرا كروم محدودة ليست لأكثر من سد حاجة الناس بالتين كفاكهة صيفية بحتة . وهذا لا يمنع أن الكثيرين كانوا يعدون التين لفصل الشتاء بعد تيبيسه في الصيف ولكن لا تين شقرا ولا تين غيرها من القرى البعيدة عن الساحل كان يعتبر من التين الجيد القابل للإدخار للشتاء . وإنما كان التين الجيد هو تين القرى الساحلية . ومنذ أن تبدو طلائع الصيف ويصبح موسم التين قريب الحلول تتهيّأ صبايا القرية للذهاب إلى (الساحل) حيث يمكثن هناك طيلة موسم التين . تذهب الصبايا كل إلى القرية الساحلية التي اختارتها حيث يعملن هناك في كروم التين قطفاً ونشراً وتيبيساً . لذلك تتحول كروم التين في الساحل إلى مجامع قروية جياشة حيث لا يخلو بيت من أن يملك شيئاً من شجر التين أو يعمل في شجر التين ، وتنصب الخيام في الكروم وتنتقل إليها أسر بكاملها من بيوت القرية ، ينضاف إليها الفتيات العاملات القادمات من القرى الجبلية . فتدب في تلك الكروم حياة زاهية نضيرة متألقة ، وتشيع في تلك السهوب روح من الإنشراح والمرح والنشاط .

وفي ظلال التين تنشد أحلى أغاني الغرام ، وفي ضوء القمر تتفتح أعذب أماني القلوب فتموج الدنيا كلها بالبهجة والحبور .

ولما تأخذ أشجار التين بالإقفار من الثمار ، ويأخذ الصيف بالإقلاع من تلك الديار ، يأخذ النزلاء بالتهيؤ للرحيل . ثم تقفر الأشجار وينأى الصيف ، وتمضي الفتيات عائدات إلى (الجبل) وفي جيوبهن ما ادخرن من مال وعلى دوابهن أو على رؤوسهنّ ما جمعن من تين يابس يدخر لأيام الشتاء .

أما اليوم فقد انقضى صيف التين . واستؤصلت أشجاره في الساحل وعفى الزمن على ذاك اللون من الحياة العاملية لأن التين اليابس بوسائل تحضيره البدائية لم يعد مجدياً وصار لبنان كله يستورد التين اليابس من كل مكان ، لأن التين في كل مكان استحدثت لصنعه الوسائل الحديثة، وأصبح صناعة من الصناعات ! .

الماء

وكان من أوجع ما تعانيه القرية العاملية خلال الصيف هو أمر الماء . فالينابيع في الجبل قليلة جداً . وحين توجد في قرية من القرى ـ على قلة ما توجد ـ فإنما توجد بماء قليل لا يكاد يفي بحاجة القرية . وكان الناس يعالجون هذا بإنشاء العيون المصطنعة والبرك المفتعلة فهم يختارون أماكن

معينة في ظاهر القرية يحفرون فيها الأرض بشكل دائري لتكون الحفرة مجمعاً لماء المطر يسمى (العين) . ولما كان في كل قرية أكثر من عين واحدة لذلك كان لا بد من إطلاق إسم معين على كل عين .

ولا يستفاد من ماء هذه العيون إلا خلال الشتاء ، وربما إلى أوائل الربيع ، حيث تفد إليها صبايا القرية وقد حملن الجرار على رؤوسهنّ فيردن العين ناقلات منها الماء بالجرار . ولا بد في كل عين من درج حجري تهبط الصبايا درجاته كلما هبط الماء . وهذه العيون عيون قديمة العهد لا يعرفها الناس إلا هكذا وربما عنَّ لأحدهم أحياناً أن ينشيء عيناً جديدة يطلق عليها اسمه وهذا قليل الحدوث .

ثم هناك في كل قرية مجمع كبير للماء يطلق عليه اسم (البركة) تتدفق إليه سيول الشتاء فتملأه ليكون مورداً لمواشي القرية وأبقارها وخيولها وحميرها ، ولري مزارع الدخان . ثم هو مكان غسل الأواني ، ومكان غسل الثياب .

وإذا كان ماء العيون سائغ المنظر لأنه ينقل جديداً ، فإن ماء البرك ماء تعاف منظره العيون وهو مملوء بما يتولد فيه لقذارته من أنواع حيَّة تعيش فيه طوال العام .

وإذا كان ماء العيون يسد بعض الحاجة خلال الشتاء ، فقد كان لا بد من سبيل لسد الحاجة كلها خلال بقية فصول السنة . لذلك عمدت معظم البيوت إلى إنشاء آبار فيها ففي كل بيت بئر تتجمع فيها مياه الأمطار خلال الشتاء ليكون مشرباً لأهل ذاك البيت خلال السنة .

وهكذا تظل الأمور سائرة والناس راضية . ولكن المحنة الكبرى حين يتأخر هطول المطر وتأخذ مياه الآبار بالنفاد ، ثم تنفد ! . فعند ذلك يفتش الناس عن الينابيع في القرى البعيدة فيقصدونها بدوابهم لينقلوا منها ما يسد بعض حاجاتهم ! .

وحين تبدأ مياه أقرب الينابيع البعيدة بالتضاؤل ، لكثرة ما ينقل منها ، يقيم أهل القرية النواطير لمنع الغرباء من ارتياد العين . وعند ذلك يفتش العطاشى عن ينابيع أكثر بعداً ! .

ففي شقرا مثلاً كان الأهلون يبدأون بنقل الماء من (عيون الخان) الواقعة في سهل الخان تحت تبنين إلى شرقها والمملوكة لأهل تبنين . ثم يتقدمون إلى عين المزراب في غرب تبنين ، ثم ينتشرون بعد ذلك في كل مكان بحثاً عن الماء ! .

العيون منتزهات القرية

عيون القرية المجموعة من ماء المطر هي في أيام الصحو منتزهات القرية ، فما هو أن ينبت العشب على حوافيها المدورة ويمتد حول تلك الحوافي على مساحات غير واسعة ، وما هو أن تخضر تلك الجوانب بما نبت عليها من العشب . ثم ما هو أن ينقطع المطر ويطول انقطاعه أياماً ينشف فيها العشب وتجف الأرض حتى تصبح حوافي تلك العيون مقصد رواد الاستجمام ومنطلق هواة الاستمتاع بالهدوء والسكون .

وأكثر ما تكون تلك العيون في مواقع طبيعية مشرفة على ما انحدر تحتها من سفوح أو ما انبسط أمامها من حقول ، مما يزيد من جاذبيتها للمتنزهين .

وعيون شقرا المشهورة هي ثلاثة : (عين الحمرا ، وعين الفوقا ، وعين التحتا) .

ووصفت الأولى بالحمرا لأنها تقع في أرض ترابها أحمر . أما الثانية والثالثة : فإن الأولى وصفت (بالفوقا) لأنها أعلى من الثانية التي هي أسفل منها ، والتي يوصلها بها خط مستقيم يمر عبر الكروم والحقول يمتد من الفوقا إلى التحتا .

ويختلف رواد هذه العيون والمتنزهون فيها : أما الوقورون فأكثر ما يقصدون (عين الفوقا) لأنها أبعد عن البلد ولا تقصد من الواردات إلا بعد أن تنضب أو تكاد (عين التحتا) فيبقي أهل الوقار فيها على وقارهم ، فلا تخدش هذا الوقار رؤية أسراب الصبايا متهاديات على طريق العين ثم واصلات إليها بجرارهن الجميلة المنبطحة على رؤوسهن فارغة في الورود ، والمستقيمة المتعالية مملوءة على تلك الرؤوس في الصدور . ومن لا يبالون بالوقار ، أو من ليس شأنهم الوقار ، يقصدون أكثر ما يقصدون (عين التحتا) .

وقد يتناول القادمون طعام الغداء إذا ذهبوا ظهراً أو قبل الظهر . وقد يتناولون الشاي إذا ذهبوا عصراً أو أصيلاً ، وقد لا يتناولون لا هذا ولا ذاك ، بل يقتصرون على التحدث والتنادر وفي مجالس الوقار لا بد من الشّاي ، ولا بد من منشد للشعر العربي الأصيل يرتله على الطريقة العاملية العراقية الأصيلة ترتيلاً جميلاً يكسب الشعر تأثيراً في النفوس ، ويثير فيها الاستمتاع بأطايب القول .

وكان أعلى المنشدين صوتاً وأنداهم ترتيلاً وأعمرهم حنجرة ، في عهدنا هو السيد محمد حسين خلف ، الذي كان إذا انطلق في إنشاده الشعر يدوي صوته الدوي المعجب المثير .

وكنا في تلك السن نتنازع (العينين) (الفوقا والتحتا) فإذا صحبنا أهل الوقار كنا على (الفوقا) وإذا انفردنا كنا على (التحتا) .

على أن (لعين الحمرا) شأناً آخر فهي أبعد العيون كلها عن القرية ، لذلك كان قلما يقصدها المتنزهون ، إذا كانوا كلهم من شقرا . ولكنها مكان مناسب لالتقاء متنزهين من أكثر من قرية تتوسط عين الحمرا المسافة بينها جميعاً ، فيتواعدون على الالتقاء عليها . وهي الأخرى ملتقى أهل الوقار . . .

ومن طرائف لقاءات هذه العين أنها كانت يوماً مقصداً للسيد محمد محمود الأمين العالم الزاهد مع رفقة له ذبحوا عليها ديكاً وكان غيرهم من أصحابه قد قصدوا متنزهاً آخر هو (بركة المرج) . وكانوا قد ذبحوا هناك لطعامهم عنزاً ، فبلغهم ما جرى على (عين الحمرا) فأرسل شاعرهم السيد هاشم عباس إلى السيد محمد أبياتاً منها :

أم أين من ذا المرج عين أصبحت	«حمراء» ذات قذى لها بجفون
فكأنما القوم الأولى حجوا لها	لم يأنفوا من موضع التعفين
وعهدتهم شم الأنوف وما أبوا	نتناً أتى من مائها المحقون
فأعجب لهم حلوا بسفح مضيقها	يتقاسمون الديك بالسكين
ما كان ديككم كعنز محمد	يكفي مشين تتابعت بمشين

وعلى ذكر السيد محمد محمود الأمين هذا أقول : أنه كان وجهاً أصيلاً من وجوه هذا الجبل يجمع إلى الزهد حب الاستمتاع بجمال الطبيعة . وقد

حمله ذلك على أن خص أرضاً له تناوح (عين الفوقا) فسماها المنتزه وحفر فيها عيناً ، فكانت ملتقى النخبة في الأصال الجميلة ، وعلى رأسهم هو بألمعيته وطيب مجلسه .

وأحسب أن الذي دعاه إلى إيجاد العين هو الرغبة في البعد عن رؤية الواردات إلى العين بجرارهن ، مع حب الاستمتاع بالطبيعة . . .

وبالفعل لم تكن عين المنتزه مقصداً للواردات ، بل كن يكتفين بالوصول إلى (عين الفوقا) غير البعيدة عن عين المنتزه .

وفي يوم من أيام الربيع أرسل السيد محمد إلى والدي أبياتاً يقول فيها :

ما ترى الأرض أينعت بالأقاحي ... والأزاهير في جميع النواحي
وبها العندليب يشدو بلحن ... مطرب للنفوس والأرواح
فقد العزم واقتعده ذلولا ... ـ يا زعيم الكرام ـ سلس الجماح
وتعجل فإننا في انتظار ... قبل تشويشها بلفح الرياح
ولك الاختيار في أي أرض ... أنت تهواه يا حليف السماح

وصحيح أنه جعل له الاختيار في المكان ، ولكن المكان كان معيناً أما (عين التحتا) فهي خارجة من هذا الاختيار حتماً ، وأما (عين الحمرا) فهي بعيدة لا بد في الوصول إليها من هبوط عقبة ثم صعود هذه العقبة في الرجوع .

(وعين الفوقا) وعين المنتزه متجاورتان ، ولكن الثانية أخلى ، إذن فهي المعينة ، لذلك أجابه والدي بأبيات قال فيها :

إنني للدعاء منك ملبٍّ ... وإلى ما طلبته ذو ارتياح
وقد اخترت أرض (منتزه) ... النفس محلاً لنزهة وانشراح

الشتاء في القرية

يقبل الشتاء على القرية حاملاً الري والخصب وممهداً للرزق والعيش ، وما من شيء في القرية يعدل ذاك المطر المتساقط من السماء نعمة وراء نعمة . . .

فالإنسان يترقبه ليطمئن أول ما يطمئن على أرواء الأوام ، ثم لينبت له الزرع ويحفظ الضرع لذلك عبروا عن المطر بالخير فإذا دعوا الله بأن يبعث الخير فإنما يعنون بالخير المطر فإذا تأخر الخير عن موعده عمت الكآبة الوجوه وملأ الهم النفوس ، والتجأ الناس إلى الله يسألونه الرحمة بهم والإشفاق عليهم .

والفلاحون يبدؤون الزراعة أول ما يبدؤون قبل إقبال المطر أملاً بأن يأتي بعد ذلك هاطلاً بأمواهه الريا . ويسمون الزراعة قبل المطر : الزراعة على (عفير) وهذه الزراعة المبكرة التي هي زراعة القمح ، هي أكثر الزراعة تأثراً بتأخر المطر ، وبتقدمه معاً .

فإذا جاء المطر مبكراً كانت مواسم (العفير) أكثر المواسم إقبالاً وأعظمها إنتاجاً . وإذا تأخر المطر كان نصيبها الإدبار ، وأحياناً الاندثار . .

ومن هنا كانت نوعاً من المغامرة ، ولكنها مغامرة لا بد منها ولا غنى عنها . وهي نوع من التسليم للقضاء والقدر الذي يفعل ما يشاء . وتأخر المطر فيها نوعان : إما أن يتساقط مبكراً ولكن بكميات غير كافية ثم ينقطع هطوله أمداً طويلاً فيوقع الفلاح بذلك في الكارثة . لأن المطر القليل المتساقط أول الأمر يكون كافياً لإنبات حبات القمح بحيث تطل من تحت التراب خضراء زاهية ، ثم لا تجد ما ترتوي به فتموت فيضطر الفلاح لتجديد الزراعة بعد المطر وبعد خسران ماله وأتعابه .

والنوع الثاني أخف ضرراً وأقل خطراً ، وذلك بأن تخضر الأرض بزروعها ، ثم يتأخر هطول المطر تأخراً لا تكون معه الزروع ماتت ولكن ضعفت ، فإذا جاء المطر قبل الموت عادت تستأنف الحياة ولكن ضعيفة كليلة ، وكان نتاجها بالتالي ضعيفاً ممحلاً . . .

أما النعمة الكبرى ، فهي أن يهطل المطر مبكراً وابلاً ثجاجاً متتابعاً لأكثر من يوم وليلة ، فيحصل بذلك ما يدعونه (الريَّة) فيقولون : (أروت الدنيا) ويطمئنون عند ذلك لموسم (العفير) . (وللرية) عند الفلاحين حدود يعرفونها هم ، ولا أعلم أنا عن تفاصيلها أكثر من اسمها . ويوم (الرية) يصبح تاريخاً للسنة ، تؤرخ به أحداثها ، فيقال : تزوج فلان بعد (الرية) بشهرين مثلاً ، وتوفي فلان بعدها بشهور ، إلى غير ذلك من التواريخ المتصلة بشؤون القرية وأهلها .

وكذلك يقولون : مثلاً : تأخرت (رية) هذه السنة عن (ريَّة) السنة الماضية أو تقدمت عليها .

وعندما يوغل فصل الشتاء في التقدم توغل السماء بالمطر الغزير مما قد يظل متواصلاً أياماً متتابعة وربما أسابيع ، تواصلاً لا يضعف ولا يهي ، بل يظل على قوته وعنفه مصحوباً بالرياح والرعود والبروق ويسمى عند ذلك (العيانة) ، فيقال : استمرت (العيانة) كذا يوماً أو كذا أسبوعاً . وكثيراً ما منعت (العيانة) الناس من الخروج من بيوتهم وحرمتهم من التواصل والتزاور فيقول في ذلك الشاعر ابن شقرا :

منعتنا عن الوصال جوار ... نشرت فرعها على الآفاق
لابسات سود البرود حداداً ... يوم جد المصيف بالانطلاق
مرسلات ودقا إثر ودق ... من جفون مغرورقات المآقي

أو يقول :

بين جزر من البروق ومد ... هدرت في السما شقاشق رعد
وغوادي السحاب وهي ثقال ... طوت الأفق بين نص ووخد
ربما يسرع المروع اختشاء ... وهو في حالتي عناء وجهد
فارتوى عاطش وأينع روض ... وازدهى في ردائه المستجد
قد قعدنا عن الوصال اضطراراً ... رب بعد يكون عن غير عمد

وأيام (العيانات) أيام مشهودة في القرية فعندما تتلبد السماء بالغيوم وتنذر بهطول المطر ثم يبدأ يتساقط ، يحاذر الناس ، أول ما يحاذرون من تساقط الدلف داخل البيوت لذلك يهرعون جميعاً إلى أسطحة المنازل حيث يعالجونها (بالحديلة) ، ذلك أن الأسطحة هي من تراب ، وهذا التراب يتشقق بالجفاف فإذا هطل المطر تخلل الماء الشقوق ، وبدأت نقاط منه تهبط إلى داخل الغرف . والحديلة تكون بالمحدلة وهي حجر أسطواني الشكل منقور من طرفيه بمقدار ما يدخل فيه طرفا (الماعوص) . و (الماعوص) عودان من خشب متصلان برأسيهما ومنفرجان بعد ذلك بحيث يشكلان زاوية

حادة تنتهي بطرفين معكوفين يوضعان في نقرتي (المحدلة) فيشدانها من طرفيها بحيث تتماسك في (الماعوص) فيجرها الرجل أو المرأة أحياناً أو يدفعها أمامه فتنجر أو تندفع بثقلها على التراب وقد بلله المطر مما يساعد على سد الثقوب وتفادي الدلف . . .

وساعات (الحديلة) ساعات طريفة جداً ، إذ يصعد على كل سطح من سطوح القرية إنسان ، فتغدو الأسطحة كغابة متحركة من الناس ، ثم يتعالى من دوران الحادلين (بالمواعيص) صرير يسمع من الطريق ، فلا ترى العينان سوى شخوص تتحرك مسرعة ، ولا تسمع الأذنان سوى صرير ورنين . فإذا توالى المطر وعاد الطل وابلاً مغرقاً تراكض الناس هابطين من الأسطحة إلى داخل المنازل .

ولكن هل تغني (الحديلة) فتمنع تساقط الدلف ؟ . . إنها في الكثير من الأحيان لا تغني كل الغناء ، فيكون لا بد من تساقط الدلف ، ولكن بنسب مختلفة بحسب العناية بالأسطحة وقلة العناية بها ، وقصة الدلف هي الأخرى قصة طريفة : فعندما تسقط النقطة الأولى يسرع أهل البيت فيضعون تحتها إناء ، ثم تتابع النقاط المتساقطة ويتتابع وضع الأواني ، وتبعاً لذلك تضيق الرقعة السليمة فيبدأ السكان بالانكماش والتجمع فيما لا يزال سليماً . وقد يعم الدلف فينطوي الناس على أنفسهم في الزوايا . ويصبح لتساقط الدلف على الأواني التي تمتلىء ثم تفرغ ثم تمتلىء ، يصبح تساقط الدلف عليها مصدراً لأصوات رتيبة متتابعة متكاثفة كأنها نغم واحد . .

ولما كان كل شيء في جبل عامل محركاً لقرائح الشعراء ، فقد كان للدلف أثره في الشعر العاملي فمما قال فيه شاعر من شقرا :

الدلف قد أودى بنا وقعه   يا رب خلصنا من الدلف
وسقف بيتي لم يزل واكفا   فهو يباري السحب بالوكف
كأنما تنور نوح غدا   يفور بالماء من السقف
وكلما قلت كفى ما جرى   منك علينا قال لا يكفي
كأنما الغيث إذا ما همى   يتلو عليه وقعة (الطف)
كأنه وهو بلا صبوة   صب بكى من فرقة الألف
قد ملأ البيت جميعاً ولم   يقنع بثلث لا ولا نصف
وصرت أحتاج إلى زورق   يسوقه الملاح للجرف
منهمر تنقر قطراته   في الأرض كالنقر على الدف
من عن يميني وشمالي ومن   فوقي وقدامي ومن خلفي
وكلما السقف بكى أصبحت   ترقص بين اللهو والقصف
تحسبها أصوات من سبحوا   في عدد يربو على الألف
وكلما قلت انتهى وكفها   وانقشعت زادت على الضعف
لست وإن أطنبت في وصفها   أبلغ منها منتهى الوصف
ما زلت مما نابني حائراً   أصفق بالكف على الكف
وبت ليلي قلقاً ساهراً   لا أغمض العين ولا أغفي

ولقد انتهى الدلف وقصص الدلف ومشاكل الدلف ، وزالت الأسطحة الترابية ، وحلت محلها أسطحة (الإسمنت) ، وانقضى عهد المحادل . . .

ليالي الشتاء

ليالي (العيانة) في الشتاء تحبس الناس في بيوتهم ملتصقين (بالدواخين) ، (والداخون) هو موقد النار الذي يصطلي به الناس في القر ، دافعين البرد عن أنفسهم بما يؤججون فيه من نيران ، وما يوقدون من حطب .

والداخون يقام دائماً في زاوية الغرفة ، حيث يمتد كعلبة مثلثة الجوانب تبدأ من علو حول المتر عن الأرض مرتفعة حتى سقف الغرفة حيث يكون السقف مثقوباً بمقدار سعة الداخون فيندفع الدخان من الثقب الكبير متعالياً في الجو .

وما دام (الداخون) محصوراً في الزاوية فحرارته لا تمتد إلى كل جوانب الغرفة ، بل لا تكاد تشمل إلا جوانب الزاوية وكل ما تفعله في سعة الغرفة أن تمتص القليل القليل من البرودة المتعاظمة ، لذلك تكون السهرة هي في الجلوس حول (الداخون) على شكل قوس ينحني حتى يلاصق طرفاه جانبي الزاوية وبذلك يصطلي الجميع بالتقرب من النار المضطرمة .

أما من يفوز بالجلوس على أحد جانبي الزاوية تماماً (في القرنة) فهو الفائز الأكبر في تلك السهرات الشتائية الباردة ، إذ يكون حظه عدا الاصطلاء هو أن يجلس مستنداً إلى الجدار ولا يفوز بهذا المغنم إلا اثنان يشكلان نهاية القوس البشري .

فإذا كانت السهرة عائلية بحتة ، فالجنبان لرب البيت ولربته وحدهما ، وإذا غابا عن السهرة أو غاب أحدهما ، إما لوجوده في غرفة أخرى أو في منزل مجاور ، تسابق الآخرون على الفوز (بالقرنة) ، ومن سبق لا يغادرها إلا أن يبلغ اضطراره حداً لا يقاوم .

وحول (الداخون) تقص الأقاصيص على الأطفال أو تتنوع الأحاديث ، وتتبادل الآراء . . .

وإذا كان رواد الغرفة أكثر من أن يتسع لهم قوس (الداخون) يكون لا بد من وضع (منقل) وسط الغرفة تنتقل إليه بعض (الأحطاب) التي تكون بدأت تشتعل في (الداخون) وهذا النقل يلازمه تعالي الدخان في الغرفة تعالياً طاغياً ، وعندما تبدأ الدموع تتساقط من العيون بفعل الدخان يردد الجالسون المثل القروي العاملي (دخان يعمي ولا برد يضني) . . .

على أنه قد يستعمل الفحم أحياناً وسط الغرفة ، ويكون هذا في البيوت الميسورة . . .

أما وقود (الداخون) فهو نوعان : إما خشب الزيتون اليابس الذي لم يعد يصلح للحياة فيقطع ويدخر للشتاء ، وهذا أفضل أنواع الحطب . وإما الحطب المستورد من بقايا الأحراش . وكانت هذه كلها خارج شقرا . إذ أن أحراش شقرا قد أبيدت ولم ندرك نحن منها شيئاً ، وكان الشيوخ يتحدثون عن بقاياها التي أدركوها .

وأقرب مكان كان يقصد للحطب من شقرا هو حرش قرية حولا الممتد في وادي السلوقي شمالاً وجنوباً أو في وادي الاصطبل شرقاً . وحرش وادي الاصطبل هو الحرش الذي مر فيه ابن جبير ووصفه وصفاً جميلاً .

ونقل الحطب من الأحراش يكون على رؤوس صبايا القرية ، حيث ينطلقن في مطالع الصيف سرباً وراء سرب إلى الوادي الجميل حيث يفترض فيهن أن يجمعن ما يبس وتساقط أو كاد من الأغصان . ومع أن هذا محظور عليهن لأنهنَّ من قرية غير قرية الحرش فقد يتساهل به نواطير الأحراش . ولكنهنَّ لا يتقيدن بذلك إذ كثيراً ما امتدت أيديهن إلى الأغصان الغضة اليانعة فيأخذن يقطعنها ، مغتنمات غياب الناطور أو ابتعاده .

وكم من مشاكل تقع بينهن وبين النواطير وكم من متاعب جرها التحطيب من (الوعر) . (والوعر) هو الاسم الذي يطلق في القرى على الحرش ، فإذا قيل ذهبنا إلى (الوعر) فالمقصود هو الحرش .

فمن يمر في مطالع النهار في وادي السلوقي سائراً بين تلك القلل الشجيرة والتلال النضيرة . ومن يجتاز في متوع الضحى بهاتيك المرابع ، تملأ مسامعه أغاريد الصبايا وقد عكفن على الحطب جمعاً أو قطفاً ، حتى إذا اجتمع لكل واحدة ما يقوى رأسها على حمله ، كتلت ما جمعته كتلة أسطوانية الشكل مديدة الحجم ، وربطتها بحبال (البابير) ثم تناولتها بكلتا يديها ورفعتها إلى رأسها ومشت تدق الأرض بقدميها في خطوات وئيدة تتمثل فيها أشرف خطوات يخطوها إنسان .

وهل أشرف من خطوات هذه الفتيات اللواتي يمشين إلى العمل منذ الصباح برؤوس مرفوعة ووجوه متعالية يبسطن الأنامل منقبات عن الأعواد ويطوين السواعد حاملات للأحطاب .

يمشين من الوادي وقد أخذ الصمت يرين عليهن بعد الغناء الطويل ، حتى إذا بلغن عقبة (السكيكة) وانطلقن فيها مصعدات ، أخذ العرق يتصبب من تلك الوجوه الجميلة بما ناءت به الرؤوس من حمل ، وما أعيت به الأقدام من تصعيد . يمشين صامتات قارات ، ولكن في صمتهن أبلغ بيان . . .

وفي القرى المحرومة من الأحراش ، أو البعيدة عنها قد يستعاض عن الحطب بالبلّان ، ولكن البلّان لا يستعمل للاصطلاء لسرعة هبوبه فسرعة هموده ، ولكنه يستعمل لنار المطابخ . وكما أن الصبايا ينقلن الحطب من الوديان ذات الأشجار ، كذلك ينقلن البلّان على رؤوسهن من الوديان ذات البلّان . والتقى مرة شاعر بفتاة تنقل البلّان على رأسها من وادٍ يسمى (وادي عراجا) في بلدة الخيام فأنشد :

تـه دلالا بـلّان وادي عـراجـا حيث أصبحت للمليحة تاجا

لقد انقضى عهد الداخون فلا تسابق إلى (القرنة) ولا تحلق حول النار . وانتهى زمن الحطب فلا هبوط إلى الوادي ولا صعود في العقبة . . .

لقد حلّ (المازوت) مشكلة البرد وحلت مدافئه محل (الدواخين) . . .

دروس النحو

كان والدي حريصاً على اتقاننا اللغة العربية وقواعدها ، كما كان حريصاً على أن نتابع دراسة الفقه مع متابعة الدراسة الابتدائية في الوقت نفسه . فكنت ونحن في دمشق ألتقي في الصباح الباكر قبل ابتداء الدروس في المدرسة العلوية ـ ألتقي بنفر من التلاميذ الدمشقيين عند والدي حيث نتلقى عليه دروس النحو في الكتب القديمة . فبعد حفظنا للاجرومية ثم دراستنا كتاب (القطر) . صرنا ونحن في الصف الابتدائي الأخير نتلقى الدروس في كتاب (الألفية) شرح ابن الناظم . فنحفظ النص الشعري ثم ندرس الشرح . وننهي الدرس قبل أن يحين موعد (دوام) المدرسة .

وكان والدي يحرص أثناء ذلك على تلقيننا بعض القصائد العربية القديمة التي يختارها بنفسه لنستظهرها ثم نتلوها أمامه ليتأكد من أننا استظهرناها . فمما استظهرته في تلك الفترة (لامية العرب) وأبيات قتيلة بنت الحارث التي ترثي بها أخاها النضر بن الحارث بن كلدة الذي أسر يوم بدر ثم قتل .

وكنّا عند انتقالنا في الصيف إلى شقرا ، يظل والدي حريصاً على أن نتابع الدروس خلال إقامتنا في شقرا . وفي الانتقال الأخير الذي طال وطال بسبب ظروف الثورة السورية ظللنا ندرس الألفية ونحفظ شعرها . وكنت أشترك في هذه الدروس أنا وأخي جعفر . وكان جعفر متبرماً بهذه الدروس ، يقبل عليها لا عن رضا ورغبة ، ويود لو تخلص منها .

وكانت لنا في شقرا خلال الربيع أيام نقضيها في التنزه في البرية جماعة يلتقي فيها كل أتراب الأسرة ممن هم في مثل سنّنا أو أكبر قليلاً أو أصغر قليلاً . فنقصد مجتمعين أحد الأماكن البعيدة عن القرية حيث نقضي النهار بكامله في تسلية ولعب . وكثيراً ما كنا نتواعد مع رفاق لنا من أبناء قرية (حولا) حيث يوافوننا إلى (دوبيه) الواقعة بين شقرا وحولا . فنتخذ من القلعة وجوارها متنزهاً لنا طول النهار ويصنع الغذاء جماعياً في المتنزه وهو على الغالب (مجدرة) يتولى طبخها بعض العارفين من الرفقة .

وفي يوم التقينا في (دوبيه) وأمضينا النهار وتغذينا المجدرة ، وكان يوماً أنسنا فيه كل الأنس . ولما عدنا استوحى جعفر من ذلك اليوم قصيدة طريفة لا أزال أذكر منها :

يا من يقضي عمره ويضيع منه أكثره
بين الدفاتر والمحا بر قلّ أن لا تنظره
حب القراءة دأبه أقصى مناه (الشحبره)
ماذا يفيد تعلم الغلم عندي مسخرة
لا سيما النحو الذي ما فيه إلا النحوره
أشجى فؤادي درسه وكداك قلبي مرمره
لو جئت إحدى السيدات وقد لزمت القنعره
أدمتك من قبقابها وعلتك منها (الكندره)
ربح الذي دوما غدا في غير أنس لم تره
قل للذي لا يرعوي لنصيحتي ما أحمره
لو كنت تبصرنا وقد سرنا بقصد (الكزدره)
نبغي مكاناً لائقا بجنابنا كي نعبره
كان المقام بقلعة مهجورة ومكركره
فيها أقمنا يومنا من أنسه ما أقصره
إن كنت تسأل ما الطعا م أقول كان (مجدره)
لكنها ممتازة محمرة (ومذرذره)
وكثيرة أيضاً وقد ملأت فناء الطنجره
والكل منّا جائع والحال منه مكدره

أسـنـانـنـا مـسـنـونـة وكـذا الـكـروش مـهـيره
حـتى إذا نـضـج الـطـبـيـخ عـلـت لـذاك (الهـوبـره)
وكـذا الـنـفـوس استـبشرت من بـعـد (عـوف الـتزكـره)
مـا كـنـت تـسـمـع حـين نـأ كـل غـير صـوت الـشـخـوره
حـتى حـسـبـنـا أنـه بـلـغ الـطـعـام الحـنـجـره
ثـم انـكـفـأنـا راجـعـين كـما أتـيـنـا الـقـهـقـرة
هـذا حـديـث ذهـابـنـا أغـنـاك عـن أن تحـضره
إن كـنـت فـيـه مـقـصرا فـإلى الـرفـاق المـعـذره

وبلغت القصيدة والده فضحك لها طويلاً وأعلن إعفاء جعفر من حضور درس الالفية . ولقد أفادتني هذه الدروس في قابل أيامي سواء منها دروس النحو أو دروس الفقه . على أني لم أكن أقبل عليها إقبالاً كاملاً ولم أكن أعطيها ما يجب أن تعطى من عناية واهتمام . وإنما كنت أتابعها مسايرة مني لوالدي وتنفيذاً لرغباته . ثم أدركت بعد أن وعيت تمام الوعي كم كنت مخطئاً بقلة عكوفي على تلك الدروس وعدم الانكباب عليها . فإن ما ظل عالقاً في ذهني منها أراني كم كان يمكن أن تكون فائدة الكثير والأكثر .

الإعلان في القرية.

كان إذا احتيج في القرية إلى إبلاغ الأهلين جميعاً أمراً من الأمور التي تتعلق بهم كلهم من شؤونهم العامة أو الخاصة . استخدمت لذلك المناداة العامة من على سطح مسجد القرية أو أي مكان عال آخر ويكون ذلك ليلاً حيث يقف ناطور القرية فيبدأ المناداة قائلاً :

يا أهل البلد أجمعين
أولكم محمد وثانيكم علي
وثالثكم فاطمة بنت النبي

ويكون هذا القول تمهيداً لما يريد أن يقوله ولفتاً للأسماع واجتذاباً للآذان .

ثم يشرع بعد ذلك بإبلاغ ما يراد إبلاغه .

على أن هناك إعلانات خاصة تتعلق بالمعلنين أنفسهم وتجري لمصلحتهم . وهذا يحصل مثلاً بأن يكون اليوم يوماً مطيراً يتعذر معه المكث خارج البيوت . ويكون أحد القصابين قد أعد ذبيحة لبيع لحمها . والعادة في الأيام العادية هي أن يجري ذلك في (الساحة) التي هي سوق القرية ومجتمعها ، حيث يلتقي جميع أصحاب الحاجات بما فيهم المفتشون عن اللحم .

ولكن حين يتعذر الخروج والمكث تحت المطر لا يستطيع القصاب تعليق ذبيحته في الساحة ، ولا يدري الناس إذا كان اللحم موجوداً أم لا ، ولا من هو القصاب الذي ذبح اليوم . في هذه الحالة ، يرسل القصاب ولداً أو ولدين يغتنمون فرصة انقطاع المطر لفترات فيجولون أزقة القرية صارخين :

يا الله على اللحم . . . عند السيد ابراهيم عاشور . . . (مثلاً) .

وعندما يتعالى النداء يرهف الناس آذانهم ليستوعبوا ما يقال . فحين يفهمون يهرعون للتزود باللحوم وأكثر ما يكون النداء على اللحم ، وقد يكون لغير اللحم .

طبقات القرية

الطبقية في القرية العاملية لها مفهوم غير المفهوم الذي يمكن أن تدل عليه عند إطلاق كلمة طبقية . فهي طبقية ولكنها ليست ذات امتيازات إجتماعية تتمتع بها طبقة دون طبقة بل هي طبقية تدل على طبيعة العيش وإمكانية الحياة .

فمعظم القرى مملوكة لمجموع أهلها ، وقد تكون فيها ملكيات كبيرة لأسرة من الأسر ، ولكنها ملكيات لا تحول دون تملك الآخرين . ومع ذلك يظل فريق دون تملك للأرض . ومن هنا جاء تقسيم الناس في القرية .

فمعظم القرى يقسم سكانها إلى أربعة أقسام ملاكين ، فلاحين ، شكرجية ، فلتية .

أما الملاكون فهم الذين يملكون الأرض ولا يعملون فيها وإنما يعمل الفلاحون ويكون لكل فريق نصيب من غلة الأرض ويسمى هؤلاء الفلاحون (المرابعون) لأن حصتهم لقاء العمل هي ربع المحصول . والفلاحون هم نوعان : نوع يملك الأرض ويعمل فيها بنفسه ، ونوع لا يملك الأرض فهو يعمل في أرض الملاكين . وأما (الشكرجية) فهم الذين لا يملكون الأرض ويعملون في مصالح أخرى ولكنهم يستأجرون الفلاحين وأدواتهم ليزرعوا لهم في أرض الملاكين ما يسمونه (شكارة) يكون من نتاجها أكثر ما يحتاجونه من قمح وبرغل . وأما (الفلتية) فهم الذين لا يملكون الأرض ولا يعملون مرابعين ولا أجراء ولا يزرعون (شكاير) .

ومن هؤلاء يكون العمال الزراعيون في الحرث والحصد ، والعمال غير الزراعيين كعمال البناء .

العرس في القرية

الزواج في القرية هو على الأعم زواج حب ، ويندر أن يكون زواج مصلحة أو زواج صدفة . فالناس يعرفون بعضهم بعضاً وينشؤون متلاقين إما على البركة أو على طريق العين أو في الحقل أو في (السهرة) وما دامت القروية شريكة في العمل تقوم بسهم وافر من الجهد سواء أيام الزرع بنثرها بذور الفول والذرة في الحقل وراء زوجها العاكف على محراثه ، أو أيام الصيف باجتثاثها سيقان العدس وأشباه العدس عند (الحليشة) أو بالتقاطها ما تساقط من سنابل القمح وجمعها (شمائل) عند (الحصيدة) . ما دامت القرويات قسيمات العمل في الحقول والبيادر والكروم و (السحاري) . فإن الاختلاط محتوم والتعارف مفروض ، وسفور الوجوه قائم . . .

ومن هنا كان زواج القرية على الأعم زواج حب . . . وقد يطول وقد يقصر زمن الحب ، وقد يلاقي زواج الحب عراقيل يصمد معها الحب حتى يتجاوزها .

وتبدأ الشكليات بإيفاد كبير في القرية للخطبة ، فإذا لقي الاستجابة ، ذهب من يحدد موعد القران ويسمونه في القرية (العقد) . وينطلق فريق من أقارب (العريس) على بيوت القرية يدعون الناس لحضور القران وهو إما أن يكون عصراً أو ليلاً .

وفي الموعد المحدد يلتقي الرجال في مكان من منزل (العروس) . ويمضي (فقيه) القرية أو عالمها متصدراً المجلس . وإذا كان أهل العريس على شيء من الوجاهة لم يقنعوا بالفقيه أو العالم المحلي وإنما يستدعون المرجع الكبير في البلاد . ولم تكن (شقرا) تستدعي أحداً لأن المرجع كان فيها دائماً وكان يدعى إلى غيرها من المدن والقرى .

وبعد أن يكتمل الجمع يدعى الفقيه من بين الرجال للذهاب إلى الغرفة الموجودة فيها (العروس) مع أهلها وأترابها والمدعوات من نساء القرية ، ويرافقه أقرباء العروس كأعمامها وأخوالها أو غيرهم وهناك يجلس وحده مقابل العروس محاطاً بالأقرباء وقوفاً . ثم يبدأ بالطلب إليها أن توكله بإجراء عقدها . ويكون الطلب بصيغة معينة تنتهي عادة بقوله : (فإن كنت راضية فقولي نعم) . وربما استبدل كلمة : (فقولي أنت وكيلي) بكلمة : (فقولي نعم) .

وهنا تبدأ مسرحية طريفة : فبالرغم من أن الفتاة تكون على أحر من الجمر في انتظار هذه اللحظات لتصبح قرينة لمن تحب ، وبالرغم من أنه لم يعد من كلفة بينها وبين الفتى المنشود ، فإنه لا بد من إظهار الدلال والتمنع والتظاهر بالخجل وعدم التسرع . فيظل السؤال بدون جواب ويرين الصمت على الفتاة . فيعاد السؤال من جديد ولكن لا جواب .. ويعاد السؤال للمرة ا لثالثة . وقبل أن يطرح هذه المرة تُنبه الفتاة إلى أن هذه هي آخر مرة ، وأن عليها الآن أن تجيب . وبالفعل فإنها تجيب بنعم ، سواء كان السؤال مطروحاً عليها بشكل : (فقولي : أنت وكيلي) أو بشكل : (فقولي : نعم) . لأن (نعم) أكثر اختصاراً وأقل كلفة .

على أن بعض الفتيات ترفض أحياناً أن تجيب عند طرح السؤال عليها لثالث مرة ، وتظل مصرة على الصمت حتى المرة الخامسة . . .

وعندما تلفظ كلمة (نعم) يكون على باب المنزل حامل بندقية صيد فما أن يقال له : (وكّلت) حتى يطلق البندقية في الهواء معلنة لسكان القرية أجمعين أن (التوكيل) قد حصل .

ثم ينتقل (الوكيل) مع صحبه إلى مجلس الرجال . وهنا إما أن يطلب إلى (العريس) أن يوكّل أحداً عنه ، أو أن يتولى هو الإجابة بنفسه ، ردّاً على صيغة العقد بقوله : (قبلت) .

ومع أن لفظ (زوجتك) هو وحده كاف لإتمام الزواج ، فإن العاقدين يضيفون على هذه الصيغة صيغاً عديدة بألفاظ مختلفة ولكنها لا تخرج في الحقيقة عن مفهوم الصيغة الأولى .

ويختم العاقد صيغة الإيجاب والقبول بقوله : (مبارك إن شاء الله) . إيذاناً بإنهاء كل شيء . وهنا ينطلق البارود للمرة الثانية . . .

ويقبّل العريس يد الفقيه العاقد . ثم يدور على الحاضرين فيقبّل أيدي الشيوخ منهم ويصافح غيرهم أو يقبّلهم ويقبّلونه . . .

ومن طريف ما حدث في مناسبة من هذه المناسبات أن قروياً ينظم الشعر قد أحب فتاة فلم يوفق للزواج بها فكان مما قاله واصفاً حاله هذا البيت :

عشية أصغت للعذول مطيعة وقالت لشيخ السوء (أنت وكيلي)

وعندما يقبل الليل تقام الأفراح مستمرة ثلاث ليال ، تعقد في كل ليلة فيها حفلة (الدبكة) صاخبة ضاجّة ، تضرب الأقدام بها الأرض على نفخات (المجوز) أو (الشبابة) ضرباً قوياً عنيفاً متهادياً ويشترك في الحفلة الواحدة فتيان القرية وفتياتها معاً ولكن لا مختلطين ، بل يشكل الفتيان قوساً في الحلقة والفتيات قوساً آخر يرتبطان معاً بفتاة بأول قوس الفتيات وبفتى بآخر قوس الفتيان هما وحدهما اللذان تتشابك أصابع يديهما معاً في مسيرة الحلقة المتواصلة .

أما بقية الأيدي ، فأصابع الفتى تتشابك مع أصابع الفتى وأصابع الفتاة مع أصابع الفتاة . . .

وأعذب ما في الدبكة حين تنبري صاحبة أعذب صوت بين الفتيات فتغني الأغاني القروية منطلقاً معها صوت المجوز أو صوت الشبابة باللحن نفسه . وتبلغ العذوبة ذروتها حين تتولى ذلك لا فتاة واحدة بل فتاتان ينبعث صوتاهما معاً بغناء واحد . . .

المطاحن

في تلك الأيام لم تكن المطاحن الآلية معروفة وكانت المطاحن المدارة بالماء هي التي تتولى طحن القمح . والماء الذي يمكن أن يدير المطاحن لم يكن قريباً من معظم القرى . وكان أقرب ماء إلينا في شقرا هو ماء وادي الحجير الذي تفور ينابيعه أيام الشتاء دفّاقة غزيرة ، وتظل كافية طيلة فصل الربيع بعد أن تكون قد بدأت تغور يوماً بعد يوم[1] وبعد نضوب الحجير يبعد أصحاب القمح بقمحهم من وادي الحجير إلى مُطاحن الليطاني التي تظل تدور على مدار السنة . لذلك كان (للطحن) شيء من الأهمية تقتضي التهيّؤ له وإعداد (الدواب) ، وكان الأمر عبارة عن رحلة إلى وادي الحجير يقضي فيها الذاهبون ليلة خارج قريتهم ، ويؤلفون موكباً مؤلفاً من عدة حمير ربما التقى سائقوها على موعد وربما على غير موعد . وكان في الحجير عدة مطاحن تحمل كل مطحنة إسماً معيناً متداولاً على أوسع نطاق في أوساط القرية ، إذ ما من بيت إلا وله في واحدة من هذه المطاحن المنتشرة في الوادي الجميل نصيب .

وعودة موكب (الطحين) له في البيت لا سيما عند صغاره شيء من البهجة ، إذ أن العائدين يحملون معهم إلى البيت نوعاً من الأرغفة لا يصنع إلا هناك ، يطلق عليه اسم (المشاطيح) واحدها (مشطاح) . وهي من الخبز السميك غير المألوف في القرية التي لا تعرف إلا الخبز الرقيق (المرقوق) المخبوز على (الصاج) . وقد لا تكون (المشاطيح) أفضل من (المرقوق) ولكنه طلب التنوع ، والرغبة في غير المألوف .

وخبز القرية نوعان : الأعم الأغلب وهو ما يصنع في البيوت حيث (يرق) العجين ويمدد على الأكف النسائية بحركات سريعة متعاقبة ، ثم يطرح على (الكارة) ، وهي غلاف مدور على سعة الرغيف ، من نسيج ، محشو بقطع النسيج . ومن (الكارة) يطرح على (الصاج) المحمي بالنيران الموقدة تحته .

(١) الحجير بلفظ تصغير حجر: واد طويل عميق مبدؤه من آخر وادي السلوقي ومنتهاه نهر الليطاني قرب قرية القاقعية يخرج فيه إذا كثر المطر نبع ماء من جانب حجر كبير- ولعله ينسب إليه ـ من الحول إلى الحول ، وقد يجف أو لا يخرج من قلة المطر ، عليه أرحية كثيرة (خطط جبل عامل) .

وهناك حالات استثنائية يعجن فيها العجين في البيوت ، ثم يرسل إلى (التنور) ممزوجاً به سمسم وكمّون وزيت مما يجعله متميزاً عن الخبز البسيط . وشرط الخبز في التنور أن يرسل مع العجين كمية من الحطب تكفي لإنضاجه ، إذ أن التنور لا يقدم الحطب وفي هذه الحالة تكون الأرغفة شبيهة (بالمشاطيح) أي سميكة غير رقيقة ، ولكنها تختلف عن (المشاطيح) بشيئين اثنين : بالتسمية أولاً ، لأن الرغيف هنا يسمى (بعقة) لا (مشطاحاً) ثم بالشكل إذ أن (المشطاح) طويل ممتد ، وأما (البقعة) فمدورة غير متسعة .

والتنّور الشهير في شقرا كان تنّور (جميلة) ، فطالما حملت إليه أوعية العجين من البيت ، وطالما عادت نضيجة شهية ، وطالما ترقبنا عودها لنتخاطف (البقعات) حارة ثم لنلتهمها دون أن نضيف إليها أي شيء .

والتنور يختلف عن الفرن ، في أنه نقرة في الأرض مطلية بالكلس توقد في قعرها النار حتى تحمى من أسفلها إلى أعلاها ، فتتناول (جميلة) أو ابنتها (صفية) قطع العجين الممدَّد بعض التمديد وتضعها على الكارة ثم تمد يدها بها إلى جانب من جوانب التنور فتلصق عليها العجين ، ويظل ملتصقاً حتى ينضج . . .

وعدا عن خبز (البقعات) ، فمما يصنع في التنّور (الكعكات) ويتميز عن البقعات بأن العجين ممزوج بالحليب والسكر ، وتوضع كل قطعة منه في قالب خاص يكسبها خطوطاً وتخاريم منوعة ولا يصنع الكعك إلا في العيد .

البرغل

البرغل في القرية شيء أساسي وجزء من حياة القروي ، بل هو عماد قوته اليومي وركيزة غذائه على مدار السنة . فمنه تصنع (المجدرة) ومنه تصنع (الكبة) على اختلاف أنواعها ابتداء من (الكبّة النية) إلى (الكبّة بالصينية) إلى (كبّة اللبنية) إلى الأقراص المقلية إلى غيرها . . .

ومنه يصنع الطعام الذي يطلق عليه اسم (البقلة) وهو صنوف . فإذا أطلق اسم البقلة دون أن يضاف إلى إسم آخر عني به طبيخ البرغل مع مجموعة من الأعشاب البرية الخضراء . وهذا لا يكون إلا شتاء ، وذلك عندما يبدأ تساقط المطر وتبدأ الزروع والأعشاب بالإطلال من تحت التراب . فعند ذلك تخرج فتيات القرية وقد أخذت كل واحدة منهن سلة بيسارها وسكّيناً بيمينها ، وينطلقن في البراري يفتشن عمّا نجم من العشب البرّي حيث يخترقن الأرض بسكاكينهنّ على جذور الأعشاب مقتلعات للأعشاب من جذورها ومالئات بها سلالهنّ . وليست كل عشبة تصلح لذلك ، فبعض الأعشاب لا تؤكل . والفتيات يعرفن ما يؤكل وما لا يؤكل ويحسن انتقاء ذلك . وهذا الخروج إلى البرية واقتلاع الأعشاب والعودة بها إلى البيت يعرف بإسم (السليق) فيقال : خرجت فلانة إلى (السليق)[1] وذهبت (تسلّق) بتشديد اللام (والسليق) المجموع ينظف ويقطع ويطبخ مع البرغل مضافاً إليه قطع البصل وزيت الزيتون فيخرج من ذلك طعام (البقلة) .

(١) السليق اسم لعملية جمع الأعشاب، واسم للأعشاب المجموعة.

وقد يضاف اسم (البقلة) إلى صنف آخر مطبوخ مع البرغل ، فيقال (بقلة حمص) أو (بقلة فول) إذا كان المطبوخ مع البرغل حمّصاً أو فولاً .

وسواء أكان الطعام (بقلة) أو بقلة فول أو بقلة حمص فهو أبداً خال من اللحم . وبذلك يكون نتاجاً قروياً محضاً مما أنبتته أرض القرية وعملت في إنباته يد الفلاح . لذلك فهو قليل التكاليف رخيص الثمن .

والبرغل يستعمل أيضاً مطبوخاً وحده أو مضافاً إليه من قطع البصل وهو بذلك يقوم مقام الأرز ، ويكثر في هذه الحال أن يطبخ معه نوع من المرق المؤلف من اللحم وبعض الخضار ، كما يصنع حين طبخ الأرز . ويسمى البرغل المطبوخ في هذه الحالة (صايت) . وأكثر ما يكون هذا في الولائم . وأدركنا من يطبخون (الصايت) ثم يجللونه بطبقة من الأرز غير كثيفة فإذا أزيلت بدا البرغل تحتها . ويفعلون هذا تجمّلاً . .

وأدركنا من روى لنا أن الأرز لندرته وغلاء ثمنه بالنسبة لثروة الفلاح ، كان يعتبر دخوله بيوت الفلاحين نتيجة ضرورة مؤذية . ذلك أنه كان يوصف طعاماً للمرضى ، وكانت الفلاّحة إذا ذكرت الأرز في مجتمع أعقبت ذكره بقولها : (الله لا يدخله بيتكم) . . .

هكذا نرى أن حياة الفلاح في القرية تدور على البرغل وأنه الطعام اليومي الذي لا مناص منه ، على مختلف الأسماء التي تطلق على مطبوخه . .

ومن هنا كانت مواسم البرغل في القرية مواسم حافلة .

أن للبرغل في القرية موسمين : الموسم الأول هو موسم (سلقه) ، فبعد أن تنتهي البيادر ويجمع القمح وينقل إلى البيوت ، يبدأ الاستعداد لانتاج البرغل . ففي كل قرية من يمتلكون (الخلاقين) جمع (خلقينة) . (والخلقينة) وعاء نحاسي ضخم كروي الشكل عميق القعر كبير المحيط حتى ليكاد يكون حوضاً . وصاحب (الخلقينة) هو الذي يتولى سلق القمح وإعداده ليكون برغلاً ، لقاء أجر معلوم هو حصة من البرغل نفسه ، وعملية السلق تبدأ بأن تركز (الخلقينة) على موقد كبير يتسع لها ثم تثبت عليه تثبيتاً محكماً ، وعندما يراد سلق القمح تملأ الخلقينة ماء ويوضع فيها القمح وتوقد تحتها النيران إلى أن ينضج القمح فيفرغ من الخلقينة ، وينشر في الشمس إما في مكان يعده صاحب الخلقينة نفسه ، أو على أسطحة أصحاب البرغل ، ويظل في الشمس إلى أن يجف وييبس وعند ذلك يرفع إلى البيوت ويجرّد منه اسم القمح ، ويصبح اسمه برغلاً ، وينتظر فيه الموسم الثاني وهو موسم (الجراشة) .

ومن الطريف هجوم العصافير على القمح المنشور على الأسطحة فهي فرصة ثمينة للعصافير أن ترى الأسطحة وقد تلألأ عليها القمح في نور الشمس فتتنادى من كل مكان للانقضاض على السطح والفوز بالتهام أقصى ما تستطيع التهامه من هذا الغذاء اللذيذ ، فتراها وقد أقبلت رفاً بعد رف وحطّت على السطح مستعدة للغنيمة التي لا تكون دائماً باردة ، بل هي على الأغلب حامية ، إذ أن أصحاب الأسطحة لا بد لهم من أن يضعوا على السطح ولداً تكون مهمته مطاردة العصافير بما تصل إليه يداه ، وهنا تبدأ المعركة ، فبينما الولد يطارد العصافير من أمام يكون غيرها منقضّاً من وراء أو من اليمين أو من الشمال . . .

وخلال موسم السلق تكون القرية في حركة دائمة متصلة ، فمن ناقلين قمحاً إلى الخلاقين بالأكياس على الدواب ، ومن عاملين في الخلاقين ومن ناقلين القمح مسلوقاً من الخلاقين إلى الأسطحة ، وهذا يجري بالأوعية النحاسية منقولة على رؤوس الفتيات .

والذي كان يعنينا نحن الأطفال من موسم (السلق) أننا كنا نحصل فيه على (الإلبة) (بكسر الهمزة وسكون اللام وفتح الناء) (والإلبة) الإسم الذي يطلق على القمح بعد نضجه بالسلق وقبل أن يجف ، فهي الإسم الذي يتوسط القمح والبرغل . وفي هذه الحال يكون القمح ناضجاً طرياً يسهل مضغه ويعذب طعمه ، فيستحضر الأطفال الأواني الصغيرة ويذهبون بها إلى قمح أهلهم المسلوق حيث تملأ لهم من (الإلبة) .

وهنا يكتفي بعضهم بأكل (الإلبة) منفردة ، ولا يكتفي غيرهم بذلك بل يضيفون إليها السكر الناعم فتصبح (الإلبة) محلاّة . . .

والموسم الثاني للبرغل هو موسم (الجراشة) . ولم تكن المطاحن الآلية قد عرفت بعد ولا يمكن نقل البرغل إلى مطاحن الحجير أو الليطاني ، لأن هذه غير معدّة لمثل هذا الأمر لأن لطحن البرغل طريقة معينة هي غير طريقة طحن القمح ، فالثاني يغدو طحيناً في حين أن الأول يظل خشناً وعلى أنواع من الخشونة .

لذلك كان في كل بيت (جاروشة) معدّة لطحن البرغل ، وهذا (الجرش) لا يجري إفرادياً ولا يقوم به كل بيت لقضاء حاجته الخاصة ، لأن مجموع ما (يجرشه) البيت تضيق به جاروشة واحدة لذلك كان لا بد من التعاون في ذلك بين بيوت القرية كلها ، فإذا عزم أحد البيوت على (جرش) برغله بعث يدعو بيوت القرية للمساهمة في عملية (الجرش) فتقبل صبايا البيوت وقد حملن (الجواريش) على رؤوسهنّ منقولة إلى بيت الداعي ، وحيث أن (الجاروشة) تحتاج لأكثر من يدين لإدارتها ولا بد من أن تتعاون أربع أيد أو ست أيد ، لذلك يقبل من البيت المدعو جميع (صباياه) ويلتقي الجميع ليلاً في أوسع غرف البيت حيث تكون قد فرشت الغرفة فراشاً يستطيع تلقي (الجريش) . وهناك تصف الجواريش واحدة جنب الأخرى حتى تمتلىء بها الغرفة وتضاء السرج وتجلس (الصبايا) متحلقات حول الجواريش ، ثم تدير أيديهنّ الجواريش مترنمات بالأغاني القروية ، ومنطلقات بالعمل والإنشاد أتم انطلاق . . .

ولا ينتهي الهزيع الأول من الليل حتى يكن قد أنهين ما أعد (للجراشة) وقمن بنفض أذيالهنّ مما علق بها من آثار البرغل المجروش ، ثم تقدم الحلويات وما أعد للضيافة .

كانت ليالي (الجراشة) من ليالي القرية المشهودة ، والقريب من مكان (الجراشة) يتحسسها بجوارحه وهو يصغي إلى ضجيج (الجواريش) ممزوجاً بأصوات الفتيات في تلك الليالي القروية الماتعة . .

بنات آوى (الواوية)

من الأصوات التي كانت مألوفة في القرية هي أصوات بنات آوى ، فما هو أن يسدف الليل حتى تتجاوب الأودية والرحاب بأصوات بنات آوى صارخة في الظلمة الداجية ، أو الليلة الأضحيانة لا فرق في الحالتين . .

وما هو أن تسمع كلاب القرية أصوات (بنات آوى) حتى تجاوبها رادة عليها رداً عنيفاً . وإذا كان نباح الكلاب هو تهديد ووعيد وإنذار ، فما من أحد يعرف الحكمة التي تتوخاها بنات آوى بالإعلان عن نفسها بهذا الصياح العجيب ، والإشارة إلى وجودها بهذا النداء الغريب . على أن بعض (فلاسفة) القرية فسَّر ذلك بأنه نوع من استكشاف قوى العدو ومعرفة حقيقة هذه القوى ومدى فعاليتها ، وذلك بما تجيب به الكلاب من نباح يكثر أو يقل بحسب كثرتها أو قلّتها . . .

وعندما يتعالى هتاف (ابن آوى) الخبيث فإن أول ما يتبادر إلى ذهن القروي هو ذكر دجاجاته ، ففرائس (بنات آوى) هي دائماً الدجاجات . ومهما حصنها صاحبها ، ومهما أحاط (القن) بما يحسب معه أن الاقتحام أصبح متعذراً ، ورغماً عن وجود الكلب ، الحارس الأمين ، فسيظل (الواوي) يجد منفذاً يصل منه إلى (قن الدجاج) والفوز بصيد ثمين . . .

وإذا كانت (بنات آوى) تتصايح في أول الليل ، فهي تسكت حينما تهجع العيون ، ففي تلك الساعات تدركها الحكمة ويعود إليها التعقل وتمتلكها الرزانة ، فلا تعود تعلن عن وجودها وتدل على مكانها ، بل تأخذ بالتهيُّؤ والاستعداد للتسلل إلى (قن الدجاج) محاذرة أشد ما تحاذر أن لا تثير انتباه الكلاب ، لتمرق إلى غايتها آمنة مطمئنة ، وكثير ما نجحت خططها في استغفال الكلاب واقتحام الدجاج بلا خوف منها ، ولكن الويل لها إذا أحس الكلب (بواوٍ) قريب منه ، ثم فاجأه بالهجوم عليه ، فإن معركة (الواوي) معه خاسرة حتماً ، لا يخرج منها إلا مهشماً ممزقاً دامياً . . .

أما إذا استطاع الإفلات والركض هارباً من الكلب وعدا الكلب وراءه ، فإن الكلب لن يدركه أبداً ، وسيظل هو أسرع من الكلب ، ويظل راكضاً حتى يصبح في الحقول الواسعة المترامية ، فيرجع عنه الكلب خائباً . . .

وهنا يؤلف القرويون ما يشبه المثل ، بأن يقولوا : أن سائلاً سأل (الواوي) لماذا تستطيع دائماً النجاة من براثن الكلب إذا حاول اللحاق بك ؟ . فأجاب (الواوي) : لأنني أركض لنفسي والكلب يركض لغيره . . .

وكما كان يسطو (الواوي) ليلاً على الدجاج فكذلك كثيراً ما كان يسطو الذئب على الغنم والمعزى في حظائرها فيفوز بفريسته جاراً لها إلى البراري . . .

والكلب هنا لا يستطيع مقارعة الذئب لذلك لا يدخل معه في معركة أما ما يعمله فهو أن يوالي النباح عنيفاً صارخاً ليوقظ النائمين ، فيهبوا لحماية ماشيتهم . . .

لقد صمتت (بنات آوى) ، ولم يعد يسمع لها صياح في محاجر القرية وحقولها الدانية ، وأمنت الدجاجات فلم تعد تبيت قلقة مروعة ، وانعدمت الحاجة إلى الكلاب ، فلم يعد لها ذاك المجد باعتبارها الحراس الشجعاة . فتوارت عن القرى وغابت عن بيوتها .

أشياء كثيرة تبدلت في القرية ، وحالات عديدة زالت فيها من

الوجود ، فلم يترك هذا التبديل وهذا الزوال إلا ذكرى ضئيلة خابية ، وإلا خيالات تأخذ في الامحاء يوماً بعد يوم .. ولكن كرّ الأيام وتعاقب السنين ، لا يمكن أن يطمس ذكرى أشياء وحالات أخرى . . .

لا يمكن أبداً أن يطمس ذكرى الإقبال على القرية في الليالي وقد صمت كل شيء ، وهدأت كل حركة ، إلا أصواتاً لم تصمت ، وحركات لم تهدأ ، أصواتاً تشق أجواز الفضاء إلى الآذان في هدأة الليل ماشية إلى البعيد البعيد ، فتكون إشارة الأمن وشعار الوصول . . . أصواتاً إذا كانت غير مرضية من قريب فإنها تبعث الرضا كل الرضا في الليل البهيم من بعيد . . .

تلك هي أصوات كلاب القرية التي طالما سمعناها على ظهور الخيل ، ماشين إلى القرية في اعتكار الظلام . . .

لم ينته وجود الكلاب في القرية كل الانتهاء ، بل لا يزال لها وجود محدود . ولكن النوع تبدل والعمل تحول . . .

والكلاب الموجودة اليوم في القرية هي كلاب الصيادين ، كلاب تنام في الليل مع النائمين ، وتهدأ مع الهادئين . وبعد أن كانت مهمة الكلب حماية الضعفاء ورد المعتدين ، صارت كيد الضعيف وعضد المعتدي . . .

سباق الخيل

كانت الخيول كثيرة في القرية ، وكانت هي وسيلة الانتقال من قرية إلى قرية أخرى ، وبعض الخيول كان يعد (لدراسة) سنابل القمح ، ولكن هذا النوع قليل ، (فدراسة) السنابل على البيادر تتولاها ثيران البقر التي كانت تولت زراعتها . على أن خيول الدراسة حين توجد لا تكون من النوع الأصيل ، فالأصائل لا تستعمل لغير الركوب .

واجتماع عدد من الأصائل في القرية تكون نتائجه أن تقام في القرية ميادين السباق أصيل كل يوم في الكثير من أيام السنة . وأسلوب هذا السباق هو أن ينقسم الفرسان إلى صفين متقابلين ، فيبرز من هذا الصف فارس بفرسه قاصداً الصف الآخر ، ولا يكاد يدنو منه حتى يلوي عنان الفرس راجعاً بأقصى سرعته ، فينتدب له فارس يعدو بفرسه وراءه متسابقين ، حتى إذا دنا الفارس من صفه انضم إليه ، ولوى الآخر عنان الفرس راجعاً فيتعقبه فارس من الصف ، وهكذا بين كرّ وفر طوال الوقت .

وقد كان اقتناء الخيول موضع تباه وتنافس بين البارزين في القرية ، كل يحاول أن يقتني الأكثر أصالة والألطف شكلاً والأسرع ركضاً ، وكان ذلك من دلائل الوجاهة ، فلا بد في (التوجه) في القرية من اقتناء الفرس . . .

على أن أعظم ميادين السباق كانت تعقد في الأيام الحاشدة حيث يشترك في السباق فرسان أكثر من قرية واحدة ، وذلك أيام الأعراس الكبرى حيث تدعى إلى حضور عقد الزواج قرى بكاملها ، فتقدم القرية بعلمها ورجالتها وفرسانها وصباياها في موكب واحد وما أن يطل الموكب على القرية الداعية حتى يأخذ فرسانه بالتباري على ظهور الخيل جائلين في كل رحبة ، ويأخذ الرجالة بإطلاق أصواتهم بحدائهم الجميل الذي كانوا يسمونه (الرويد) ، حيث يتقدمهم اثنان من ذوي الأصوات العامرة بهتاف يردده الجمهور بصوت واحد ومن ورائهم الصبايا بهتافات أخرى . . . وما أن تسمع القرية الداعية صوت (الرويد) يقترب منها ، حتى تنطلق بجمهورها لاستقبال القادمين (برويد) مقابل فإذا التقت القرى المدعوة كلها ، عقدت كل قرية حلقة للدبكة وحدها ، فيما يجتمع فرسان كل القرى منقسمين إلى صفّين متقابلين .

وكثيراً ما كنّا ننطلق من شقرا في موكب من الفرسان في زيارة لقرية أخرى بمناسبة من المناسبات في موكب جميل وقور هادىء . على أنني ما كنت فارساً معدوداً ، فبالرغم من أننا كنا نقتني دائماً فرساً أصيلة وكنت كثير التنقل عليها ، فإنني لم أكن أشارك بالميادين ودخول الحلبات ، وإذا شاركت كنت بيّن الضعف ، وذلك لأن الفروسية يقتضي لها مران دائم منذ الصغر . ولم يتيسر لي ذلك بسبب نشوئي في دمشق ، وعدم تفرغي للخيل إلا خلال الصيف . ولما طالت إقامتنا في شقرا خلال الثورة السورية وبعدها لم أتفرغ لذلك فظللت غير ملم بالأصول غير متمرّس بما يجب أن يكون . . .

لقد انقرضت الخيول من القرى انقراضاً كاملاً . وانقرضت الدعوات الجماعية للأعراس الكبرى ، وصمت (الرويد) ، وإن ظلّت الدبكة تطل بين الحين والحين إطلالات ضعيفة . . .

الحركة الوطنية

أخذت الثورة السورية تتلاشى يوماً بعد يوم ، وإذا كنت لم أنسَ أن آخر بطل من أبطالها كان عز الدين الجزائري الذي حاول اقتحام الغوطة من جديد بعصابته التي لا تعدو العشرات فتلقاه الفرنسيون وانجلى القتال عن مصرعه وتشتت رجاله ونزح سلطان الأطرش إلى الأزرق ثم إلى صحراء النبك وتفرق بقية الزعماء بين مصر والعراق والأردن وتركيا . وكان أكثرهم في مصر ، وانجلى الأمر عن شقاق مؤلم انشطر فيه القوم إلى فريقين يتشاتمان ويتبادلان التهم على صفحات الجرائد .

وجاء مفوض فرنسي جديد هو المسيو بونسو وأعلنت فرنسا العفو عن فريق من الثائرين فعادوا إلى الجبل ودمشق وغيرهما . وأعلن بونسو قيام مرحلة جديدة ودعا إلى انتخاب مجلس تأسيسي يضع دستوراً لسوريا تدخل فيه عهداً لا يشبه عهودها السابقة . وتكتل الوطنيون السوريون وجمعوا صفوفهم فكان ذلك ميلاد الكتلة الوطنية التي قادت سوريا بعد ذلك في نضالها مع الفرنسيين حتى آخر عهودهم .

ورحنا ونحن في جبل عامل نرقب ما يجري في دمشق وسوريا كلها فأسفرت النتائج عن فوز الكتلة الوطنية بأغلبية مقاعد المجلس التأسيسي وسيطرتها على قيادة المجلس . .

ولما بدىء بوضع الدستور وتتالت مواده مادة بعد مادة ثم انتهى وضعه أسفر الفرنسيون عن نواياهم ، إذ جاء الدستور دستوراً استقلالياً واضحاً مما لم يقبله الفرنسيون وطلبوا تعديل بعض مواده وهي ست مواد كانت هي جوهره وروحه وفي تعديلها كما يريد الفرنسيون تكريس للإنتداب واعتراف قانوني بوجوده .

ولما طال الأخذ والرد وأصر كل فريق على موقفه ، راح الفرنسيون يؤجلون جلسات المجلس ثم حلّوه حلاً نهائياً . . .

وعادت سوريا إلى الكفاح من جديد وقامت المظاهرات في جميع المدن

السورية واشتبكت بالفرنسيين واعتقل الشبّان والطلاب وسجنوا وعذبوا .

وكانت الأخبار تصلنا فننفعل بها انفعالاً كاملاً دون أن نستطيع المشاركة العملية . لأن الرأي العام عندنا لم يكن مهيّأً لأية مشاركة من هذا القبيل ، ولأن الفرنسيين قد تسلطوا على البلاد عن طريق وجاهات خلقوها أو دعموها وجعلوها تتحكم بمصائر الناس ومضارهم ومنافعهم .

في النباطية

وفي يوم من الأيام مضيت من شقرا إلى النباطية ـ وكثيراً ما مضيت إليها ـ فركبت الفرس من شقرا مصطحباً معي رجلاً ليعود بها ، فمررنا بالبركة في طرف القرية الشرقي لنهبط عقبة السكيكة .

والبركة في شقرا ـ كما في كل القرى ـ من أطرف ما في القرى ، فهذا الماء الآسن المتجمع خلال الشتاء مما يتدفق سواء من أزقة القرية أو خارج القرية من فيوض المطر ، والمتكون حوضاً واسعاً راكداً ، إنما يصلح في القرية لكل شيء في حين أنه في الواقع لا يصلح لشيء .

ولأي شيء يمكن أن يصلح ماء ركد في حيز معين فتولد فيه ما لا يعلمه إلا الله من صنوف الأحياء التي يمكن أن تتولد في الماء الراكد الآسن ، مما تراه العين صغيراً وكبيراً أسود وأحمر ومن كل لون . أو مما لا تراه العين أصلاً . . .

ولكنه كما قلت يصلح في القرية العاملية لكل شيء : إنه أولاً وقبل كل شيء مورد لكل ما في القرية من خيول وحمير وبقر وغنم وماعز ، وما أكثر ما في القرية من هذه الصنوف .

ثم هو مشرع لشيئين اثنين أساسيين من حاجات القرية اليومية ، فيه تغسل أواني البيوت جميعاً . في هذا الماء القذر تنظف أواني القرية . . .

ومنه تغسل ملابس القرية ، فمنذ الصباح الباكر تنظم الأثافي وتوقد فيها النيران وتوضع عليها القدور فيسخن الماء ويغلى به ما حملته القرويات من منازلهن أثواباً وملاحف وكل ما حفل به البيت القروي مما يتسخ فيغسل . . .

فإذا أقبلت صباحاً من القرية هابطاً إلى الشرق في اتجاه البركة ، أبصرت الدخان يتعالى من جميع أطرافها الدائرية من مواقد الغسيل . . .

وهذا الماء نفسه هو مسبح القرية يتدرب فيه صبيانها على السباحة ثم يتقنها فيه فتيانها وشبّانها .

ومن هذا الماء تروى مشاتل (الدخان) ، ثم أغراس الدخان . . . وفيه ينقع البابير الجافليلين فيصلح لربط (البنادك) وغير البنادك ولعل له منافع أخرى غابت عن معرفتي ، فمن منافعه ـ فيما أذكر ـ أنه مغتسل للموسوسين الذين لا يطمئنون لصحة الغسل الترتيبي فيقصدون البركة ليغتسلوا ارتماساً ، صيفاً وشتاء . . .

ومغتسل لغير الموسوسين ممن تضطرهم قلة الماء في بيوتهم فيغتسلون في البركة ليوفروا الماء . . أقول : مررنا بالبركة صباحاً ، ومواقدها عامرة وقدورها متضرمة وتجاوزناها إلى مطلع عقبة السكيكة واصلين إلى وادي السلوقي ومنه إلى وادي الحجير حيث ينتهي عند مشارف الليطاني . ومن هناك عبرنا جسر القاعقعية على نهر الليطاني حيث يفترق الطريق الموصل إلى النباطية إلى شعبتين فأما أن يسلك السالك طريق (القاقعية) ، وأما أن يسلك طريق (زوطر) ولا بد في كلا الطريقين من تسلق عقبتين كؤودين ، فأما العقبة الأولى فأقل مشقة ، ولكن طريقها الأطول في الوصول إلى النباطية . وأما الثانية فإنها جبل شامخ متدرج في الارتفاع تدرجاً عامودياً مضنياً ، ولكن طريقها في النهاية هو الأقصر . لذلك كنا في ذهابنا إلى النباطية نسلك طريق عقبة زوطر مصعدين على ظهور الخيل تصعيداً بطيئاً مقلقاً ، حتى ننتهي إلى قرية زوطر فنجتازها عابرين في السبل الموصل إلى النباطية فلا نصلها إلا بعد حوالى سبع ساعات من خروجنا من شقرا .

وأذكر أننا كنا عندما نصل إلى مرتفع مشرف على النباطية حيث تبدو لنا منه البلدة فجأة ، ندرك أننا في المرحلة الأخيرة من سفرنا هذا وهنا ننزل عن الخيل فنبدل ملابسنا أو على الأصح بعض ملابسنا ونترك ما كان علينا ، لما كان يمكن أن يكون قد لحقه من أوضار خلال الطريق من عرق الخيل وغير عرق الخيل ، ثم نمضي إلى النباطية واصلين رأساً إلى (الخان) حيث نودع الدواب فيه لنعود عليها بعد يوم أو أيام إذا كانت عودتنا قريبة ، أو لنعيدها مع من يكون قد صحبنا من الرجالة ، إذا كانت إقامتنا ستطول ، أو أننا سنغادر النباطية إلى صيدا أو بيروت أو غيرها في غيبة طويلة .

والنباطية كانت مقراً لاثنين من أعلام جبل عامل علماً وخلقاً وأدباً ووطنية ، هم الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر . وكنا حين نجيء النباطية فأول شيء نفكر فيه هو حضور مجلس الشيخ أحمد رضا الذي تلتقي فيه نخبة من رجال النباطية كل يوم إما عصراً وإما ليلاً ، أو بالأحرى عصراً وليلاً هناك في منزله الكريم على الجادة قريباً من ساحة البلدة العامة . المنزل المحاط ببستان البرتقال الأخضر والمسقوف بقطع (القرميد) الأحمر والممتد طولاً بطبقة واحدة تضم غرف المنزل الداخلية ، وأولاً وقبل كل شيء في المدخل غرفة (الشيخ) الخاصة بمكتبته وسريره بحيث يغمض عينيه ليلاً ، فيكون آخر ما يشاهد رفوف الكتب ، ثم يفتحها صباحاً ، فيكون أول ما يشاهد تلك الرفوف ، ثم يعيش نهاره محاطاً بها والقلم بيده والورق تحت بصره . . . إلا أن يفاجأه اثنان اختلفا على حد في أرضهما ، أو تنازعا على شأن من شؤونهما ، فيهب معهما مستجيباً هاشا باشا . . .

هناك في منزله تحت أغصان شجرة الياسمين النضيرة بزهرها الأبيض العابق المتفتح ، وأغصانها الخضر الظليلة ، وحول الحوض المترع بنافورته الصغيرة المتشامخة .

وما هو أكثر نضارة وأفوح أرجاً وأروى على الظمأ : حديث الشيخ أحمد رضا وخلقه وعلمه وأدبه .

مجلس الشيخ أحمد رضا تحت شجرة الياسمين وحول حوض الماء ، كان ندوة من أزهى الندوات العربية وأكثرها خصباً وأبعدها أثراً . وإذا كان قد قدر لكثير من الندوات في شتى بلاد العرب أن يشار إليها ويكتب عنها وينتشر ذكرها فإنه لم يقدر لندوة الشيخ أحمد رضا أن تنال شيئاً من هذا الحظ .

بل أن منزل الشيخ أحمد رضا الذي طالما ضم أفضل العلماء وأعذب

الشعراء وألبق المحدثين ، والذي كان منبعاً للوطنية وملتقى لرجالها . أن هذا المنزل الذي يمثل صفحة من أنقى الصفحات في تاريخ جبل عامل ، بل في تاريخ لبنان وتاريخ العرب العلمي والأدبي والنضالي ، إن هذا المنزل الذي كتب فيه الشيخ أحمد رضا معجمه (متن اللغة) وأبحاثه في التاريخ والفقه والأدب ، إن هذا المنزل قد أزيل من الوجود ، وأصبح أثراً بعد عين كما يقول الأقدمون .

وكان من حقه على بلدته وعلى بلاده كلها أن يحفظ أثراً من آثارها التاريخية ومتحفاً من متاحفها الوطنية .

فسلام على الشيخ أحمد رضا حيّاً وميتاً ، وسلام على منزله صرحاً عامراً وطللاً دائراً . . .

كان أبرز رواد مجلس الشيخ أحمد رضا : تربه وزميله ، بل أخوه الذي لم تلده أمه الشيخ سليمان ظاهر ، وقد عاش هذان الشيخان منذ وعيا الحياة أخوين في الله والعلم والحقّ . عاشا معاً طالبين فعالمين فمكافحين .

عاشا معاً حياة حافلة بأشرف ما تحفل به حياة الرجال من علم وعمل وإخلاص . وكان لا يذكر أحدهما إلا ويذكر الآخر معه ، حتى لقد استعيض عن تسميتهما بإسميهما عند ذكرهما فكان يقال : جاء المشايخ وذهب المشايخ ، وقال المشايخ وفعل المشايخ . فيفهم السامع أن المقصود هو الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر .

وكانا يكمّل أحدهما الآخر ، فكلاهما شاعر كاتب مؤرخ لغوي ، ولكن الصفة المتفوقة في الشيخ سليمان ظاهر (الشاعر) وفي الشيخ أحمد رضا (اللغوي) .

وعلى الرغم من أنهما كانا على مزاجين مختلفين فإنهما في حياتهما الطويلة كلها لم يتكدّر ما بينهما بندرة من التكدر ، بل ظلاّ في كل لحظة من تلك الحياة المعطاء الجوادة على أصفى ما يكون الأصفياء ، وأشهى ما يكون المتحابّون .

وتوفي الشيخ أحمد رضا قبل الشيخ سليمان ظاهر بسنين ، فظل الشيخ سليمان ما عاش طويل الكآبة عميق الحزن مستشعراً الوحدة ، مفرداً بين الجماهير .

أيها الشيخان ، بل أيها المشايخ كما كان يحلو للناس أن يتحدثوا عنكما . . .

إذا كان لكل منكما عشرات السجايا التي تكفي كل واحدة منها لتضع الرجل أكرم موضع فأحسب أن من أجل سجاياكما أن كنتما كما تحدث القرآن عن أهل الجنة :

﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غلّ إخوانا على سرر متقابلين ﴾ .

أيها الشيخان :

كم يطيب لي الحديث عنكما وأكتفي اليوم من ذلك بقول شوقي : وهو يرثي صديقاً له :

(يا ليت شعري هل قلت الذي أجد)

جئت النباطية في تلك الفترة وكانت قد تألفت فيها جمعية بإسم (جمعية النهضة العاملية) ضمت عصبة من الشباب النباطي ، فكانت أول جمعية من نوعها بعد (جمعية المقاصد الخيرية) التي أسسها الشيخ أحمد والشيخ سليمان ظاهر منذ شبابهما فأقامت مدرستين : مدرسة للبنين ومدرسة للبنات ، فعاشت الجمعية طيلة حياتهما ، ثم بعد وفاتهما واستطاعا بنزاهتهما أن يوجدا لها أملاكاً جمّة ذات موارد غزيرة .

ولقد علمت عند وصولي للنباطية بأن جمعية (النهضة العاملية) تتهيّأ لإقامة حفل تكريمي لأحد شباب المنطقة لمناسبة نيله (إجازة الحقوق) من معهد دمشق .

وكان نيل إجازة الحقوق يعتبر في ذلك الوقت في جبل عامل حدثاً يستحق بأن يشاد بصاحبه ويدعى الناس للاحتفاء به . .

ورآني الداعون إلى الحفل ، فشاؤوا أن أكون في عداد المتكلمين . ولم يكن في ذهن أحد أن أحداً من الخطباء سيتجاوز فيما يقوله الحديث عن المحتفى به وما إلى ذلك من شؤون . ولكنني قد كنت منفعلاً بأحداث دمشق ، وما يجري في سوريا كلها من صراع بين الوطنيين والفرنسيين ، ومتأثراً بالمظاهرات والاعتقالات ، متأسفاً على أن لا أكون قد شاركت في شيء مما يتأجج في ديار الشام فصممت على أن يكون خطابي مستوحى من صميم الأحداث السورية ، وعلى أن أجعل منه قنبلة تنفجر في ذاك الحفل ، فتصيب شظاياها من تصيب . . .

وقد كان ذلك فالقيت كلمة مكتوبة بدأتها بالحديث عن موضوع الاحتفال فاتخذت من تخرج المحتفى به من معهد حقوق دمشق سبيلاً للحديث عن دمشق وما يجري فيها . . .

فران على الجميع صمت رهيب هو مزيج من الدهشة والخوف والاستنكار والاستحسان ، وقد كنت أطالع كل ذلك في وجوه السامعين . . .

ونزلت عن المنبر وعدت إلى مكاني واتخذت من الأطراق وسيلة للتخلص من العيون الشاخصة إليّ بشتى بواعث الشخوص . . .

وأذكر أن الخطيب الذي تلاني خرج إلى المنبر متعثراً وبدا في كلامه متلجلجاً ، وظهر عليه أنه يخشى أن يؤخذ بجريرتي ويشرك في مسؤوليتي . . .

وانتهت الحفلة وعدت إلى طبيعتي ووقفت مع الواقفين استعداداً للخروج ، ومن الطبيعي أن يتصافح الخارجون ، فرأيت كيف تجنبني حتى أمس الناس صلة بي . . .

مرّ الحادث خلافاً لما توقع الناس ولما توقعت أنا نفسي ، ما خلا العتاب ممن ينتمون إلى منظمي الحفل على أن ورطتهم في هذا الأمر ، وأنهم يتوقعون شرّاً لا يدرون كيف سيقع .

ولكن الشر لم يقع وحرصت على أن أبقى في النباطية أكثر من يوم لأكون ماثلاً لكل سؤال . وبدا لنا بعد ذلك أن السلطات لم يكن في ذهنها حدوث ما حدث ، لذلك لم تحرص على إرسال المخبرين المتجسسين ، وأن أحداً من الحاضرين لم يتبرع بالإبلاغ ، لذلك ظل الأمر محصوراً ضمن إطار محدود ولم يترك ذيولاً . . .

السيد طعّان خليل

لم تكن النباطية وحدها هي المكان البعيد الوحيد الذي نقصده على ظهور الخيل في أسفارنا، فعدا عمّا يجاورنا من قرى كان أبعد ما نقصده هو صور وجديدة مرجعيون . وتكلمت فيما تقدم عن سفرنا بين صور وشقرا .

أما جديدة مرجعيون فقد كنّا نقصدها في حالتين : إحداهما أنه بعد ما تم شق الطرق الموصلة بين الجديدة فبانياس فالقنيطرة التي كانت الطريق تصلها بدمشق ، فإننا صرنا أحياناً نختار في الذهاب إلى دمشق والمجيء منها طريق الجديدة فالقنيطرة آخذين السيارات من الجديدة حتى القنيطر ثم منتقلين إلى سيارات أخرى تنقلنا من القنيطرة إلى دمشق .

ومرّ فيما تقدم أننا كنا من قبل نركب الدواب حتى القنيطرة ، ومنها نأخذ العربات المجرورة بالخيل أولاً ، ثم السيارات بعد ذلك . وفي غير أسفارنا إلى دمشق كنّا نقصد الجديدة لأن شقرا كانت في فترة طويلة تتبعها إدارياً ، فكان لا بد لنا من الذهاب إليها أحياناً لمتابعة بعض المهام فتمضي بنا الخيل منحدرة في عقبة السكيكة ، فوادي السلوقي ، ثم منحرفة إلى اليمين في الطريق المؤدي إلى (مركبا) مارّين بما يسمى (قدّام مشعرون) ، ماضين صعداً حتى نصل إلى (مركبا) فنمر في طرف البلدة دون أن نعرّج عليها . ثم نوغل في السير مضياً إلى بلدة (عديسة) . وهنا يختلف الأمر . فإما أن يكون خروجنا من شقرا مبكرين في الصباح ، ومعنى ذلك أننا سنصل الجديدة في مرحلة واحدة دون التعريج على (عديسة) ، وإما أن نكون قد تعمدنا الخروج من شقرا عصراً أو أصيلاً ، ومعنى ذلك أننا مصممون على أن نقسم الطريق إلى مرحلتين ، تكون إحداهما عديسة ، وفي هذه الحال فإن المنزل الكريم الذي سنحل به هو منزل السيد طعان خليل .

ومنزل السيد طعّان خليل يقوم على الجادة وكأن الشاعر إنما عناه بقوله :

نصبوا بمدرجه الطريق قبابهم   يتسابقون على قرى الضيفان

فما هو أن نقبل على المنزل حتى يتلقانا السيد طعان بقامته المديدة ووجهه المشرق وترحيبه الصميمي .

كان السيد طعان يمثل في (عديسة) الصورة التي رسمها العرب في شعرهم ونثرهم للعربي الجواد المضياف الذي يرى إكرام الضيف أجل المزايا . وما قرأت بيتاً من الشعر العربي في الضيافة وأربابها إلا وتمثل أمامي السيد طعان وبيته وأخلاقه .

إنني أحسه مثلاً وأنا أقرأ :

بشاشة وجه المرء خير من القرىٰ   فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك

فالبشاشة أول ما كان يطالعك به السيد طعان ، البشاشة التي تشعرك بمقدار السرور الذي أدخلته عليه وأنت تنزل ضيفاً عليه ، البشاشة المنبعثة من القلب صوراً على الوجه .

ثم بعد ذلك : الذكاء الفطري والحديث العذب والخلق الرضي والود الصافي .

كان بيت السيد طعان في (عديسة) ملتقى لضروب شتّى من الناس ، قد لا يربط بينهم إلا لقاؤهم على قصد ذاك البيت في غدوهم ورواحهم ، ولطالما التقى فيه على غير موعد الخصوم المتنافرون ، والأضداد المتنافسون ، والأعداء المتزاحمون .

والذين لا يجمعهم مكان ، ولا يظلهم سقف واحد ، كان المكان الذي يجمعهم ، والسقف الواحد الذي يظلهم هو مكان السيد طعان ، وسقف غرف بيت السيد طعان . . .

فلطالما تشاكس نافذان في قرية ، أو غير نافذين ، ثم مضيا إلى (الجديدة) يشكو أحدهما الآخر ، أو ليستعدي كل منهما السلطة على مشاكسه ، ثم إذا بهما يلتقيان مساء ذاهبين أو آيبين على مائدة السيد طعان وعلى ما هيّأ لهما من أرائك ، وبسط لهما من حشايا ووسائد .

كل هذا والسيد طعان رقيق الحال قليل المال . . .

لقد مضى السيد طعان وخلت منه (عديسة) ، وقبل أن يمضي السيد طعان وقبل أن تخلو منه عديسه خلا الطريق من الخيل ، وانقضى عهد التنقل على ظهورها ، فصرنا نمر بعديسة في السيارة ، ولم يعد من حاجة للضيافة ، ولا من ضرورة للمبيت عند السيد طعان ، ولكنني ظللت طول حياة السيد طعان ومروري بعديسة أُلزم سائق السيارة بالوقوف على باب المنزل الذي طالما وقفنا عليه مجهدين وحللناه متعبين ، فكان لنا ملاذاً من الجهد ، ومراحاً من التعب . كنت أُلزم سائق السيارة بالوقوف على بابه ثم ألج المنزل الكريم محيياً صاحبه العزيز جالساً إليه بعض الوقت ، فلا يفوتني أن أحس ملامح المرارة على قسمات وجهه ، لأن الضيوف اليوم غيرهم بالأمس ، لأن كوباً من الشاي أو رشفة من القهوة تكفي لقراهم . . .

البقاء في شقرا

كان استمرار الثورة السورية سنتين واستمرار وقوع المعارك في قلب دمشق سبباً لاستمرار والدي والعائلة في الاقامة في شقرا ، وبعد أن مضى ما يقرب من سنة على قيام الثورة ، وبدا أنها ستطول إلى مدى لا يعلمه إلا الله ، لم يصبر والدي على البعد عن مكتبته ، وهو الذي اعتاد الجلوس إليها ليلاً نهاراً ، لا سيا وقد كانت لديه مخططات لتدوين بعض مؤلفاته ، وأهمها في ذلك الحين كتابه (كشف الارتياب) ، لذلك أرسل إلى دمشق يطلب أن يرسلوا إليه إلى شقرا مكتبته كلها ، فشحنت المكتبة من دمشق إلى بيروت بالقطار ، ومن بيروت إلى صور بالسيارة ، ومن صور إلى شقرا على ظهور الجمال .

وكان وصول المكتبة إلى شقرا باعثاً على استقرار الوالد فيها ، فانتهت الثورة خلال سنتين ، فلم يفكر بالعودة إلى دمشق ، فما دامت كتبه عنده ، وما دام مطمئناً إلى سير مشاريعه في دمشق سيراً مطرداً بما كان قد أعد لها من جمعيات تشرف عليها ، فلم يكن له باعث قوي على ترك شقرا .

وهكذا توالت علينا الأيام في شقرا ، واستفادتي الثقافية الوحيدة فيها هي ما كنت أتلقاه على والدي من دروس اللغة العربية ، ودروس الفقه الإسلامي ، وكان المستقبل أمامي مجهولاً ، بل قاتماً ، إذ لم يكن لدي ما أتجهز به لهذا المستقبل ، وكنت أتوق لترك شقرا بأي وسيلة ، ولم تكن لي أية وسيلة .

وإذا بي أتلقى دون سابق طلب أو رغبة قراراً بتعييني مساعداً قضائياً لمحكمة النباطية الشرعية ، وذلك أن أحد النافذين كان قد زارنا في شقرا وعرف تضجري من الإقامة فيها على ذلك الشكل ، فاستصدر مرسوماً بتعييني في تلك الوظيفة ، ففوجئت بذلك ، ولم تكن هذه الوظيفة لتحقق شيئاً مما أبتغيه في الحياة ، بل كانت تبدو وكأنها قد حدّدت مصيري بما لا يمكن أن أرتضيه لقابل أيامي .

وقد كانت لي مطامح ثقافية بعيدة فإن طول جلوسي إلى جانب والدي سواء في مكتبته ، ورؤيته عاكفاً ليلاً نهاراً على القلم والورق والكتاب ، وانتشار كتبه في أنحاء العالم الإسلامي ، كل ذلك ركّز في نفسي الطموح الثقافي وحده ، وكان أكثر ما يستهويني الإطلاع على التاريخ ، وأسس هذا الاستهواء في نفسي شيئان : قراءة ما قرأته في مكتبة والدي ، ثم الدروس التي كان يلقيها علينا أستاذ التاريخ في الدراسة الإبتدائية في المدرسة العلوية (أديب التقي) فقد كان إلى جانب إدارته للمدرسة يتولى فيها درس التاريخ ودرس الإنشاء ـ كما تقدم ـ وكان هو نفسه مؤلفاً في التاريخ المدرسي ، مشبعاً بالحس التاريخي العميق ، بارعاً في إلقائه وترسيخه في الذهن ، فكان لهذين العاملين الأثر الكبير في ميولي التاريخية .

وعندما انتميت بعد ذلك إلى الجامعة السورية ، لم يكن لي بد من الانتماء إلى معهد الحقوق ، لأنه كان هو وحده الموجود ـ عدا معهد الطب والصيدلة ـ ولم يكن في الجامعة معهد للآداب والتاريخ ، ولو كان ذلك موجوداً لانتميت حتماً إلى معهد التاريخ ولما درست الحقوق .

التردد في قبول الوظيفة
ثم القبول

عندما فوجئت بقرار تعييني مساعداً قضائياً لمحكمة النباطية الشرعية ، صممت لأول وهلة على الرفض تصوراً مني أن هذه الوظيفة قد حدّدت مصيري غير المرضي مني ، ثم لم ألبث أن تأرجحت بين القبول والرفض ، ذاك أن مجرد تصور الخروج من شقرا ومن حياة الضجر والقلق التي أعيشها فيها كان كافياً لرجوعي عن الرفض وميلي إلى القبول . ثم عاد التردد استقراراً على القبول ، مقتنعاً أن هذه الوظيفة لن تسد أمامي باب المستقبل ، بل يمكن أن أجعل منها مفتاح ذلك المستقبل ، وهذا ما كان .

ومن هنا أستطيع أن أقول أن تلك الوظيفة الصغيرة ذات الراتب القليل القليل ، وذات المركز الاجتماعي الهزيل ، والتي كنت أخجل بها أمام المعارف والأصحاب فأتوارى منهم . إن تلك الوظيفة هي التي أوصلتني إلى ما وصلت إليه ، وهي التي حققت لي المطمح الثقافي الكبير في إصدار (دائرة المعارف الإسلامية الشيعية) و (الموسوعة الإسلامية) ، والتحقيقات التاريخية التي شفيت بها الغليل من مزوّري التاريخ والعابثين به .

فلو لم أخرج تلك السنة من شقرا ، ثم أسعى لمتابعة الدراسة الثانوية ، ثم أؤدي امتحان الجامعة وأدخلها ـ كما سيأتي ـ ، لما علم غير الله أي مصير سيّء كان يمكن أن أصير إليه . ففي السنة التالية لدخولي الجامعة ألغي امتحان الجامعة ، وصار على كل طالب لدخولها أن يحمل شهادة القسم الثاني من البكالوريا ، وهو ما كان من المستحيل أن أحققه .

في النباطية

كان قاضي المحكمة الشيخ محمد رضا الزين ، وهو إنسان دمث الأخلاق طيّب الذات لطيف المعشر ، وكان لنا من قبل صديقاً وفيّاً مخلصاً ، فلم يكن من صعوبة في العمل معه ، وكان الراتب خمساً وعشرين ليرة ورقية ، وهو راتب زهيد لا يسد حتى الحاجات الضرورية ، لذلك كان عليّ أن أتكيف مع هذا الراتب ، مصمماً على عدم الاستمرار في عملي إلا بمقدار ما أجد سبيلاً للانطلاق في الميدان الذي أرغب فيه ، وكان هذا الميدان محصوراً في متابعة الدراسة الثانوية للالتحاق بالجامعة . ولم يكن ذلك بالأمر السهل ، بل كان يبدو أن دونه خرط القتاد ـ كما يقول الأقدمون ـ إذ كان قد مضى على إنهاء دراستي الابتدائية سنوات انقطعت فيها عن متابعة الدراسة ، ولو أنني واصلتها لكنت الآن في نهاية الدراسة الثانوية ، فكيف لي أن أستدرك ما فاتني ، وهل من المعقول في هذه السن أن أبدأ الدراسة الثانوية في الصفوف مع الصغار ؟! .

ثم أن هناك مشكلة كبرى كانت تبدو مستحيلة الحل ، هي ذات شقّين : الأول وهو الأخطر ، أن اللغة الفرنسية صارت أساساً في نيل شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا) ، وليست اللغة وحدها هي المفروضة بل أدبها أيضاً . وكانت كل معرفتي باللغة الفرنسية هو القليل الذي تلقيناه في الدراسة الابتدائية ، فكيف أنجح في نيل الشهادة الثانوية وأنا على هذا الجهل باللغة الفرنسية ، وكيف يتسنى لي دراسة اللغة وآدابها في فترة وجيزة ، وهب أن مدرسة قبلتني فهل من المعقول أن أستطيع متابعة الدراسة والنجاح في النهاية ؟ .

والشقّ الثاني هو شق طريف كل الطرافة ، وهو أنني لست ذا ذهن رياضي بحيث أنه كان يشق عليّ جمع عددين أو ضربها أو طرحها ، فإذا كان من الممكن مثلاً أن أجدّ في دراسة الدروس الأخرى ، وهو ما كنت مستعداً له كل الاستعداد ، وأن أنال فيها أعلى الدرجات ، فلم يكن ذلك ممكناً في دراسة الحساب والجبر ، لأن هذين الدرسين لا يجدي فيهما الجد ، ولا يفيد الانكباب ليلاً نهاراً على مطالعتها ، لأنها شيء لا يخضع للمطالعة والمتابعة ، بل للقابلية والموهبة ، وقابليتي وموهبتي فيهما عدم في عدم ! . .

ولكن لا بد من تحصيل الشهادة الثانوية ودخول الجامعة ! . فلنعلق الآمال على المجهول ولنتّكل على الله لعله يجد لنا مخرجاً .

والواقع أن كل شيء كان ينفي وجود هذا المخرج ، وأن التفكير فيه كان ضرباً من الأحلام التي لا يمكن أن يعتمد عليها الواقعيون العمليون ! . .

ومضت الأيام في المحكمة الشرعية رتيبة ، وكان العمل فيها قليلاً ، والدعاوى لا تشغل إلا حيّزاً ضيّقاً من الوقت ، وكنت أعمل أنا لا على أساس الاستمرار ، بل على أساس أنها أيام معدودة لا بد من تمضيتها قبل الوصول إلى الطريق المنشود .

لذلك كان غريباً كل الغرابة عند الناس أن ينصرف موظف في حكومة تخضع للانتداب الفرنسي ، أن ينصرف إلى أعمال تتعارض مع هذا الانتداب وتقاومه ، فقد استطعنا تكتيل فريق من تلاميذ البلدة الذين كانوا يواصلون دراساتهم الثانوية في بيروت ، وكانوا كلهم تلاميذ مدرسة واحدة

هي (الكلية الإسلامية) ، وكانوا يحضرون أيام العطل إلى النباطية ، فألتقي بهم وننظّم سهرات ولقاءات كان الحديث فيها لا يتعدى الحديث الوطني الحماسي ، ولم يلبث الصيف أن جاء وانقطعوا عن الذهاب إلى بيروت ، وعادت اللقاءات يومية ، وعاد الحديث الوطني أكثر تشعباً وتواصلاً ، وقد كنّا نخرج إلى ظاهر النباطية ، فننشد الأناشيد الحماسية الثورية التي توري الهمم وتحفز العزائم . ثم رفعنا علم الاستقلال العربي السوري المربع الألوان ذا النجمة البيضاء وسط لونه الأحمر ، وهو العلم الذي كان من قبل علم الثورة العربية ، ثم أضيف إليه عند إعلان استقلال سوريا بملكية الملك فيصل بن الحسين ، نجمة سباعية ، ثم طوي بعد قضاء الفرنسيين على الاستقلال السوري واحتلالهم البلاد ، وأصبح رفعه جريمة من الجرائم السياسية الكبرى .

اقترحت أن نرفع هذا العلم في اجتماعاتنا لا سيما في ظاهر البلد ، فجمع أحد الرفاق ألوانه وشدّه إلى رمح خشبي طويل ، وأحضره إلينا ملفوفاً على رمحه ، فاحتفلنا بنشره احتفالاً حماسياً صاخباً ، وكان قد كثر عددنا ، ولم يبق محصوراً في التلاميذ وحدهم ، بل انضم إلينا بعض الفتيان واليافعين وشاركونا في اجتماعاتنا وساهموا في لقاءاتنا .

وهنا لا بد من الإشارة إلى أمر هام ، وهو أن جميع رفاقنا التلاميذ كانوا تلاميذ مدرسة وطنية واحدة ، فكانوا متآلفين لا تفرق بينهم المناهج المدرسية المختلفة التوجيه ، وكان من أبناء البلدة تلميذ واحد يتلقى دراسته في الجامعة الأمريكية ، ولما حاولنا ضمه إلى صفّنا لم يستجب إلى ذلك ، وبقي وحده منفرداً بعيداً عن مجموعة تلاميذ بلدته ، فأدركت عند ذلك سبب تشعب الاتجاهات والميول في لبنان ، فإن انقسام المدارس بين توجيه فرنسي أو إنكليزي أو أمريكي ، وبين يسوعي وعلماني وإسلامي وكاثوليكي وبروتستنتي كان يقسم التلاميذ ويسير بهم في إتجاهات متباينة متعارضة ، في حين أن بلاد الدنيا كلها تسيطر الدولة فيها على التعليم في منهج واحد وتوجيه واحد ، فيتخرج الرجال وطنيين أولاً ذوي ميول واحدة ، وإذا اختلفوا فإنما يختلفون في كيفية تنفيذ تلك الميول .

الجهر بعد الاخفات

ظلّت اجتماعاتنا ولقاءاتنا في أوائل الصيف محصورة فينا ، ثم رأينا بعد أن أصبحنا كتلة ذات عدد لا بأس به ، أن نجهر بين الناس بما لا زلنا نخفت به بينهم ، ولا نجهر بها إلا بيننا ، وفكرنا في إيجاد المناسبة ، فإذا بها تأتينا على رجليها ، فقد كان بيننا وبين ذكرى المولد النبوي بضعة أيم فرأينا أن نعلن الاحتفال بمرور هذه الذكرى احتفالاً جماهيرياً شاملاً ، فنظمنا أنفسنا في ليلة المولد وحشدنا فيها كل من نستطيع حشده من الرفاق ومن غيرهم فكنا جمهوراً لا بأس به ، وبدأنا مسيرتنا في الليل فانضم إلينا الفضوليون ومن راقتهم هذه المسيرة ، فإذا بنا جمعاً كثيفاً يخترق شارع النباطية العام من أول البلدة هازجاً منشداً متحمساً ، وكنّا كلما تقدمنا في السير ازداد عددنا حتى اخترقنا البلدة وانتهى بنا المسير إلى الطرف الآخر من البلدة ، ثم عدنا راجعين إلى الساحة العامة حيث تفرقنا متواعدين على اللقاء عصر الغد في الحسينية في حفلة خطابية تمجّد هذه الذكرى المجيدة ، وكنا قبل ذلك قد وزّعنا الدعوات لحضور هذه الحفلة على الناس .

وقد فكّرنا أول الأمر بأن نرفع أمام مسيرتنا علم الاستقلال العربي السوري ، ثم عدلنا عن هذه الفكرة لأنها ستلفت الأنظار إلى غاياتنا ، وتنبه عملاء الانتداب الفرنسي إلى أهدافنا ، وقررنا أن نؤخر رفعه إلى مناسبة أخرى .

وفي عصر اليوم الثاني احتشد الناس في الحسينية حتى غصّت بهم على رحبها ، ودعونا إلى الخطابة في الحفلة الشيخ أحمد رضا ، وتكلم بعض الشبان ، وختمت أنا الحفلة بخطاب حماسي عنيف ، فكانت المسيرة الليلية والحفلة النهارية شيئاً جديداً على البلدة لم تألفه في مرور ذكرى المولد النبوي . وكان من أغرب ما رآه الناس أن موظفاً حكومياً يقف هذا الموقف ، ولا يخشى على وظيفته غير عالمين أن هذا الموظف يعدّ الأيام لينهي حياة الوظيفة وينطلق في طريقه الجديد الذي لم تتضح له معالمه بعد .



مع علم الاستقلال الذي رفعناه

ثم رأينا أن قد آن لنا أن نرفع علم الاستقلال رفعاً علنياً ، فقد عرفنا أن رياض الصلح كان يزور قرية له من قرى النباطية هي قرية الشرقية ، وأنه سيمر عائداً في النباطية ، وكان رياض ممن يعملون يومذاك في الحقل الوطني ، فقررنا أن نشعره بوجودنا ، فخرجنا في أربع سيارات رافعين العلم الاستقلالي على ساريته العالية ، وانتظرنا رياض في ظاهر النباطية ، فلما وصل إلينا أوقفنا سيارته فنزل منها وكان يرافقه محمد جابر وهو من المختصين به من رجالات النباطية ، فخطبت أمامه خطاباً وطنياً حماسياً ، ثم شيعناه بساراتنا رافعين في السيارة الأولى علم الاستقلال يخفق أمام عيون القرويين الذاهبين والآيبين والمقيمين حتى قرية حبّوش . ومنها عدنا ومعنا محمد جابر الذي لم يخف عنا ذعر رياض من رفع علم الاستقلال ، وقال أن رياضاً قال له : أن رفع العلم مخاطرة ، فاخترقنا بسياراتنا شارع النباطية العام منشدين الأناشيد الحماسية والعلم في المقدمة يتماوج عالياً شامخاً ، والناس تتجمع على جوانب الشارع لترى ما هذا الذي يحدث .

لم يمر هذا الحادث مروراً سهلاً ، بل كان له ما بعده ، فقد كان وقوفنا في ظاهر النباطية على مفترق طريق يؤدي إلى بلدة نافذ قوي ، وكان وقوفنا

لا يبعد كثيراً عن قرية النافذ الذي كان ككل النافذين في ذلك الوقت يستند نفوذه على صداقته للسلطة ومماشاته لها ، وكان يعتبر أكبر النافذين وأقربهم إلى السلطة وأوسعهم اتصالاً بالناس ، وكان على عداوة شخصية متأصلة لرياض الصلح ترجع إلى أيام الحرب العالمية الأولى ، فرأى في فعلتنا تحدياً عارماً له ، أولاً لشدّة عداوته لرياض ، ثم لما في فعلتنا من استهتار بالسلطة ومجاهرة في عدائها ، وهو ما كان هو ضامناً عكسه ، فكنا فيها فعلنا دالّين على تقلص تأثيره في الناس ، وأن تقريب السلطة له ولأمثاله ليس معناه السيطرة على الشعب والتكفل بعدم رفع صوته في وجه السلطة .

فقام النافذ ولم يقعد وهاج وماج وتهدّد وتوعّد ، وأرسل إليّ أنه يعتبرني مسؤولاً عمّا حصل ، وأن أقل ما سينالني هو الاقتلاع من الوظيفة ، وأن تحقيقاً سيجري مع المشاركين ، وأن الاعتقال والسجن سيكون جزاءهم الأكيد .

ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً فقد جاءه من ينصحه بأن النباطية تعتبر من معاقله ، وأن جمهورها من أنصاره وفيهم من هم من خلص أصدقائه وأعوانه ، وأنه ليس بين هؤلاء أحد إلا وله ابن أو أخ قد اشترك في مظاهرة التحدي هذه ، وأنه إنما سيؤذي جماعته إن حرّض السلطة على أولادهم وإخوتهم ، وبذلك سينقلبون عليه ويؤذي نفسه . أما فيما يتعلق بي فقد أخبروه بأن إقالتي ستثير عليه من تضره إثارتهم ـ ولم يكن يعلم أني أنا نفسي سأقيل نفسي بعد أسابيع ـ ، لذلك اضطر إلى السكوت على مضض وكظم غيظه ونقمته ، وكل ما فعله أنه أنّب المنتمين إليه على ما فعله أبناؤهم وإخوتهم تأنيباً عنيفاً .

بصيص من النور

أخذت شهور الصيف تمضي وأيامه تتقلص ، وبدأ العام الدراسي يدنو وأنا لم أهتد بعد إلى الطريق الذي يمكن معه الحصول على شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا) ، وكان شبح اللغة الفرنسية والجبر يتراءى لي رهيباً حائلاً بيني وبين سلوك أي طريق ، فقررت الذهاب إلى دمشق ، لتلمس ما يمكن أن يزحزح اليأس الذي يكاد يسيطر عليّ ، فإذا بي أكتشف بصيصاً من النور ما لبث أن أصبح شعاعاً مضيئاً ينير بعض جوانب الطريق .

ذلك أني عرفت أن الجامعة السورية لا تشترط في غير السوريين الذين يريدون الانتماء إليها أن يكونوا حائزين على شهادة القسم الثاني من (البكالوريا) الحكومية ، بل يكفي أن يكون طالب الدخول حاملاً شهادة إنهاء الدراسة الثانوية من أية مدرسة ثانوية ، وأنه في حال حصوله على هذه الشهادة يمكنه الاشتراك في امتحان عام تجريه الجامعة لحاملي هذه الشهادة ، وهو امتحان لا يختلف في مواده عن مواد القسم الثاني من (البكالوريا) الحكومية إلا في اللغة الفرنسية حيث تخلو مواد هذا الامتحان من مادة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية ، ومن الفرنسية إلى العربية . وأن مدرسة أهلية في دمشق قد خصصت صفاً من صفوفها الثانوية أسمته (صف الجامعة) يقصده غير حاملي الجنسية السورية ، وحاملو الجنسية السورية من الحائزين على شهادة القسم الأول من (البكالوريا) الحكومية ، إذ أن الجامعة تعاملهم معاملة غير الحاملين للجنسية السورية فتقبل اشتراكهم في امتحانها دون حصولهم على القسم الثاني من (البكالوريا) الحكومية .

وهكذا كثر المنتمون إلى (صف الجامعة) ، وكان معتبراً أبناء المنطقة التي أسموها منطقة (العلويين) من غير حاملي الجنسية السورية ، إذ كانت لهم حكومة مستقلة عن الحكومة السوري حكمها حكم (لبنان) . ومن هنا احتشد عدد غفير من التلاميذ في هذا الصف كان فيهم عراقيون أيضاً .

ومن حسنات هذا (الصف) أنه يقبل كل طالب انتماء اليه ، دون أن يثبت أنه قد تدرّج في دراسته الثانوية من صف إلى صف حتى وصل إلى الصف النهائي ، فكل طالب انتماء يُقبل ، وهو في النهاية مسؤول عن نفسه في الامتحان الذي تقيمه هذه المدرسة في نهاية العام الدراسي ، والذي تمنح الناجحين فيه شهادة إنهاء الدراسة الثانوية .

وقد أغرى هذا التصرف غير الأكفاء ، ولكن هؤلاء بدؤوا يتسللون منذ الأسابيع الأولى الواحد بعد الآخر ، متخلين عن الدراسة ، مقتنعين أن الأمر ليس بالسهولة التي تخيلوها .

وقد كان عمل المدرسة عملاً تجارياً بحتاً تقصد به اجتناء الربح فقط حيث كان يحتشد في قسمها الداخلي العدد الكثير من التلاميذ الذين يعودون عليها بأموال أي أموال . ولكن هذا القصد التجاري قد أفاد الكثيرين من الأكفاء الذين لم تقدر لهم الدراسة الثانوية المنتظمة ، فأمكنهم اختصارها بالانتماء إلى هذا الصف الذي كانت مواده في الحقيقة تشمل مواد الدراسة الثانوية في جميع مراحلها .

لقد كان هذا الحل بصيصاً من النور ـ كما قلت ـ فإذا أمكن الانتماء إلى (صف الجامعة) ومتابعة الدراسة فيه ، فكيف تحل عقدة اللغة الفرنسية وعقدة (الجبر) ؟ صحيح أن المطلوب فيه من اللغة الفرنسية هو أخف بكثير من المطلوب في امتحان (البكالوريا) الحكومية ، ولكن الصحيح أيضاً أن هذا الأخف هو الأثقل على من لا يعرف من اللغة الفرنسية إلا القليل القليل ، بل أقل من القليل . ويكفي أن يكون فيه أداء امتحان في الأدب الفرنسي وتاريخه . ولكنني إتّكلت على الله وانتميت إلى (صف الجامعة) تاركاً للأقدار أن تمهد الحلول للعقدتين اللتين تبدوان وكأن لا حل لهما .

دراسة ثانوية

وكان من المصادفات الحسنة أن فوجئنا بأن أستاذ اللغة العربية وآدابها هو الشاعر خليل مردم ، وكنت أعرف عن شعره الشيء الكثير ، ولما التقيته في الصف وتابعت دروسه الأولى بدا لي رجلاً على شيء كثير من طيب الذات وعذوبة الحديث وصفاء النفس فضلاً عن الكفاءة ، مما يجعله من أقرب الناس إلى القلب وأحبهم إلى طالب العلم ، ولقد أفادنا في الدروس القليلة التي حضرناها عليه ، ما لو استمر لكانت فائدته كبيرة .

ولكنه تخلّى عن تدريسنا بعد أقل من شهر من ابتدائه به ، وذلك أن عددنا كان كبيراً جداً ، مضافاً إلينا طلاب القسم الثاني من البكالوريا ، الذين كانوا يتابعون نفس الدرس ، وكان يفرض علينا كتابة مواضيع لا بد له من قراءتها وتصحيحها ، وكان ذلك فوق طاقته ، وفوق طاقة أي أستاذ لكثرة عدد التلاميذ ، لذلك إعتذر عن تدريس هذه المجموعة الكثيرة الأفراد ، غير المتجانسة والمختلفة الكفاءات . واقتصر على تدريس تلاميذ



١٩٣٠ ١٣٤٩ محرم

أثناء الدراسة الثانوية سنة ١٩٣٠

صف القسم الثاني من البكالوريا . وبذلك حرمنا من متابعة دروس خليل مردم فحرمنا من فوائد كثيرة .

ولقد نلت من تشجيعه في تلك الفترة القليلة ما أذكره دائماً ، ذلك أنه في أول درس (إنشاء) طلب إلينا أن نكتب عن حياتنا الأدبية وتفكيرنا فيها وميولنا ، فكتبت فيمن كتب ، فجاء في الدرس الثاني وسأل من منكم حسن الأمين ؟ . فوقفت وإذا ما كتبته في يده ، فقال : إن هذا أحسن ما كُتب في هذا الموضوع وإني أهنئك عليه . . .

والواقع أنني لم أغترر بهذا الكلام ولم أزه به ، فليس معنى أن ما كتبت كان أحسن ما كتب التلاميذ ، أنه شيء جيد ، بل ربما كان أقل رداءة مما كتبه الآخرون . . .

وأذكر أن ما كتبته كان مطولاً بلغ عدة صفحات ، وإني ختمته بالاعراب عن سروري بأن يكون أستاذ الأدب العربي عندنا هو شاعر الشام وأديب الفيحاء « الخليل » ثم تمثلت بقول الشاعر :

كانت مسامرة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وفي الحقيقة ليس هذا الثناء عليه هو الذي حمله على مقابلة الثناء بالثناء ، ولا أنا كنت متملقاً له فيما كتبت ، فقد كان ما كتبته معبراً عن حقيقة شعوري تجاهه .

ولقد جاءنا بعد خليل مردم من لم نحمده ولا استفدنا منه ، وكنت أنا معتمداً على نفسي في دراسة الأدب العربي .

دروس الجبر

وجاء أول درس في الجبر ، وكان أستاذ الدرس معتاداً على وجود الجهلاء في الصف ، فأول شيء قاله أن سأل عما إذا كان فينا من لم يدرس الجبر قبل الآن ، فخجلت من الاعتراف بذلك وظللت صامتاً ، ولا شك أنه كان هناك غيري ممن خجلوا فصمتوا ، ولكنه كان هناك واحد لم يجبن عن الاعتراف بالحقيقة ، فرفع يده مقرّاً بجهله ، فكان بذلك على الأستاذ أن يبدأ بتدريس الجبر من أوّله . ولكن سواء أبدأه من أوله أم آخره ، فلم يكن ذلك شيئاً مفهوماً لدي وكان عليّ البحث عن حل ، فوجدته بتناول درس خصوصي خارج المدرسة ، وكنت لا أستطيع احتمال مصاريف جديدة تقتضيها أجرة المدرس ، ولكن كان لي صديق حميم هو من أهل هذا الفن وكان يسرّه أداء أي شيء يعينني على النجاح في مهمتي فتطوع بإعطائي دروس الجبر بلا أجر ، فعكفت عليها عكوف النهم إليها وتابعتها متابعة الظمآن الراكض وراء الماء فإذا بي بعد حين أحلّ كل معادلاتها ، مكتفياً من ذلك بوضع الحل دون الدخول في التفاصيل من ضرب وطرح وقسمة ، لأن ذلك مما لا أقوى عليه . وهكذا اطمأننت إلى (الجبر) . ولكن لم تحل ساعة الامتحان بعد ذلك ودخلنا القاعة المعدة له في الجامعة ، حتى تملكتني الرهبة المطبقة ، فلم أستطع إقناع نفسي بأني يمكن أن أحل معادلات الجبر ، وضاعت مني كل ثقة بالنفس في هذا الأمر ، وعدت إلى حقيقتي التي تعجز عن أي عمل حسابي مهما خفّ أمره .

في هذه الزعزعة النفسية والتضعضع الفكري جلست على المقعد أنتظر السؤال المطروح ، وقد كان في الحقيقة من أهون ما كنت قد حللته أيام الدراسة الخاصة ، ولكن شتّان بين تلك الأيام المفعمة بروح الصمود والأمل ، وبين هذا اليوم الذي واجهت فيه الحقيقة الماثلة : حقيقة حلّ المسألة الجبرية ، والتعامل مع الأرقام في امتحان حكومي يهيىء صاحبه لدخول الجامعة ! . .

لقد انهار كل شيء ولم يبق إلا ذلك الفتى المشلول الفكر أمام الأعداد الحسابية ! . ولم يكن في مقدوري أن أخط كلمة أو أن أدون رقماً وبقيت هامداً يتمثل لي (الصفر) الذي سيوشح ورقتي الامتحانية البيضاء التي لن يمسسها اسوداد منقذ . . .

وفجأة امتدت يد حانية ، كانت تعلم مشاكلي مع الأرقام ، وعجزي عن استيعاب أي شأن من شؤونها ، وتعرف أني لا أتأخر في هذا المضمار كسلاً وقلة درس ، بل فقداناً للموهبة ليس إلا ، وكان يعز عليها أن أضيع بسبب علة لا يد لي في تجنبها ، وكانت تحسن الظن فيما يمكن أن يكون مني في يوم من الأيام .

كانت هذه اليد الحانية قد أعدت نفسها لمثل هذه الساعة الرهيبة التي أعيشها وحسبت حسابها ، فكانت متهيئة للطارىء الصاعق الذي يوشك أن ينقض عليّ ، فلم تلبث أن تدخلت في اللحظة المناسبة ، تدخلاً إذا كان معدوداً في النظام غير مشروع ، فهو في المدى الانساني الرائع مشروع أي مشروع . . .

وهكذا انطوى شبح (الجبر) ، وخرجت من قاعة الامتحان وأنا لا أكاد أصدق أني قد نجوت من الهول .

اللغة الفرنسية

قلت أنني لجأت في أمر (الجبر) إلى مدرّس خاص ، وكان قد بقي أمر اللغة الفرنسية ، وإذا كان من المعقول أن يُدرس الجبر في فترة شهور ، فهل من المعقول أن تُتقن هذه اللغة ، ثم تتقن آدابها وتاريخ شعرائها ومفكريها في مثل تلك الشهور ؟ لم يكن ذلك معقولاً أبداً ، وحرت في الوصول إلى المخرج ، ولكن تبين أني لست وحدي الذي أعاني من هذا الهم المقيم المقعد ، وأنه قد سبقني إلى معاناته سابقون ويزاملني في معاناته الآن آخرون . . .

واهتدينا إلى الطريق الذي سلكه من تقدمنا ، وهو أن هناك استاذاً قديراً متخصصاً في هذا الأمر ، فهو يعد ملخصات للشعراء الفرنسيين المطلوب أداء الامتحان في حياتهم وأدبهم ، ويتولى تدريس التلاميذ هذه الملخصات على أن يفهموا معانيها المترجمة إلى العربية ، ثم يفرض عليهم

استظهارها واتقان إملائها ، بعد أن يكون قد قسمها أقساماً كل قسم لدرس واحد يتلو فيه التلميذ عليه ما استظهره فيقوّم له ما يحتاج إلى التقويم ، ويصحّح ما يحتاج إلى التصحيح ، فلا يأتي وقت دخول امتحان الجامعة حتى يكون التلميذ قد استظهر ذلك كله استظهاراً متقناً ، فإذا طرح السؤال وهو دائماً عن شاعر من الشعراء صب التلميذ على ورقة الامتحان ما كان قد استظهره صبّاً متلاحقاً دون توقف ، فيوصله ذلك لا إلى التخلص من (الصفر) فقط ، بل إلى نيل قليل من الدرجات تكون كافية بضمها إلى درجات ما يتقنه من الموضوعات الأخرى لانجاحه ، وقد كنت أنا لا أطلب إلا التخلص من الصفر ، لأني كنت واثقاً بأن ما سأناله من موضوع الأدب العربي ومن موضوع التاريخ وحده كاف لضمان نجاحي ، بشرط أن لا أنال (صفراً) في موضوع من الموضوعات الأخرى ، ولم يكن (الصفر) متوقعاً لي إلا في الجبر والأدب الفرنسي ، وبهذه الطريقة أنجو على الأقل من الصفر في الأدب الفرنسي .

وتابعنا الدرس على هذا النسق ، وكنا أربعة ، اثنان سوريان من مدينة حماه ، واثنان لبنانيان أحدهما أنا . ولما جاء وقت الامتحان الجامعي لم يكن له في نفسي شيء من الرهبة ، ولا كنت مبالياً أية مبالاة ، لأن الأمر هنا أمر جد واجتهاد ، لا أمر موهبة لا ينفع في فقدانها أي جد وأي اجتهاد . ولم يكن قد نقصني شيء من الجد والاجتهاد طوال العام .

ودخلت القاعة وجلست على المقعد لا أنتظر أية مفاجأة ، ولا أتوقع أية نازلة ! .

ولم يخطر لي أن الشاعر العربي كان قد قال : (وتقدّرون فتضحك الأقدار) ، وهب أن هذا القول قد خطر في بالي فأية أقدار يمكن أن تضحك الآن من تقديري ؟ .

ليس هنا تقدير ، بل هنا واقع راهن : لقد استظهرت كل ما يفيدني في الجواب على أي سؤال يمكن أن يطرح علينا الآن : سيطرح علينا سؤالان ، علينا أن نختار الجواب على واحد منهما ، ولن يعدو كل من السؤالين الطلب عن كتابة سيرة واحد من الشعراء ، والتعريف بشعره وأدبه وفكره ، وهذا ما إتقنته كل الإتقان حافظاً له عن ظهر قلب ، وما عليّ عند طرح السؤال سوى أن أنطلق إنطلاقاً لا توقف فيه ولا تأمل يعيقه ، ولا تفكر يبطئه .

صحيح أن ما أستظهره ليس مطولاً ، ولكنه ليس موجزاً إيجازاً مخلاً ، فقد كثّف لنا الأستاذ المادة تكثيفاً يجعلنا على تخوم الإجادة . . .

أتضحك الأقدار الآن وفي هذه الساعة ؟ ولماذا تضحك الأقدار ؟ . إنه الجد كل الجد ، الجد الذي لا مجال معه للضحك ، بل لا مجال معه حتى للبسمة الخفيفة !! .

بل أنا الآن الذي أضحك من الأقدار التي حالت بيني وبين اتقان اللغة الفرنسية فتغلبت عليها بهذا الأسلوب اللطيف : أسلوب استظهار خلاصة للمادة المطلوبة ! .

كنت أجلس على المقعد غير مشغول الذهن بشيء يكدره ، وإذا بالصاعقة تنقض عليّ انقضاضها المروع المدمر . وإذا بي أسمع لاضحك الأقدار ، بل قهقهتها الصاخّة ! . أتضحك من الأقدار ؟! .

ها هي الأقدار تواجهك الآن فأجرؤ على الضحك منها ! .

لقد كان المتعارف في إمتحانات الجامعة في الأدب الفرنسي أن يطرح اسم الشاعر المختار ويطلب إلى التلاميذ الكتابة عنه ، ودرسنا طوال العام على هذا الأساس واستظهرنا ما استظهرناه معتمدين على هذا العرف .

ولكن الأقدار كانت لنا بالمرصاد ، فقد شاء المستشار الفرنسي لوزارة المعارف أن يطوّر إمتحانات الجامعة في الأدب الفرنسي ابتداء من هذا العام ، وذلك بأن يجعلها تدور لا على الإدلاء بما يعرفه التلميذ عن الشاعر وشعره ، بل على استنتاجات تحليلية فكرية ، لا يقدر عليها إلا المتضلعون بالأدب الفرنسي ، وأين أنا من ذلك ؟!

لقد ألقي السؤال الأول فلم أفهم منه شيئاً حتى ولا كلمة واحدة ، ثم ألقي السؤال الثاني ففهمت منه ثلاث كلمات يفهمها حتى أشباه الأميين : لقد فهمت منه كلمة : (روسّو) وكلمة (ڤولتير) وكلمة (فلسفة) ! . .

لقد كنت قبل اليوم لا أستوعب المدلول الحقيقي لكلمة : (أسقط في يده) ، ولا أتفهم وضع من تطلق عليه . أما في هذه الساعة فأنا الصورة الواضحة لمن أسقط في يده ! . . .

وضعت كل الضياع وشلّت الصدمة كل تفكيري وبقيت لفترة هامداً فوق المقعد همود القانطين ، ولم ألبث أن توكلت على الله ، وقلت في نفسي ما دام قد ورد في السؤال اسم (روسّو) وإسم (ڤولتير) فلا شك أنه يتعلق بشيء منهما ، فلأفرغ هنا كل ما اختزنته في صدري عنهما ، فلا بد أن تجيء جملة لها علاقة بالسؤال تنجيني من نيل الصفر ، وهكذا كان فانطلق قلمي دون توقف يملأ الصفحات التي في يدي كلاماً فرنسياً ، الله وحده يعلم ماذا سيقول عنه مصحح هذه الأوراق ، أظنه سينسبني إلى الغباء حين يقارن بين السؤال وبين هذا الكلام الذي يشبه في نظره الهذيان ! .

ولكن أظن في الوقت نفسه أنه ستأخذه الشفقة على هذا الغبي الذي يهذي ويهذي فلا يجعل نصّيبه منه (الصفر) . على أنه من يدري فربما كان قاسي القلب فيغيظه هذا الغباء وهذا الهذيان الذين شغلا وقته دون طائل فينتقم ممن أغاظه فيجعل جزاءه : (الصفر) ! . .

وإذا كنّا قد سلمنا للأقدار واعترفنا بأنها تضحك منّا حين نحسب أنها في صميم الجد ، ثم يعنّ لها فتجدّ حين نحسب أنها في صميم الضحك ! . . فلنسلم الأمر لها تلعب بنا كيف تشاء .

ويبدو أن الأقدار قد اكتفت بما ضحكت ، فألانت قلب المصحّح فلم يوشّ صفحاتنا السوداء بصفره الوضّاء ! . . .

ومن طريف ما حدث أنه كان يجلس في المقعد الذي وراء مقعدي أحد خريجي معهد (الفرير) في بيروت وهم من هم في اللغة الفرنسية وآدابها فرآني أعكف على الورق كتابة متصلة دون توقف ، في حين أنه يقتضي للإجابة شيء من التبصّر والتركيز والاناة ، فحسب أني نابغة من النوابغ في الأدب الفرنسي لا أحتاج إلى ما يحتاج إليه أمثاله من الروية ، بل أن كفاءتي العظيمة تجعلني أنطلق هذا الإنطلاق المتتابع ، ثم زاده في هذا الاعتقاد أنه رآني أملأ ست صفحات كاملة ، في حين أن الجواب لا يمكن أن يعدو

الثلاث الصفحات على أكثر تقدير. فشاقه أن يتعرف على هذا النابغة في الأدب الفرنسي وأن يسترشده في شؤونه فانتظرني في الخارج عند باب القاعة، فلما خرجت تلقاني وعرّفني بنفسه. ثم سألني: عن أي السؤالين كتبت فقلت: عن السؤال الثاني. فقال: أنه كتب عن نفس السؤال، وأنه لم يستطع أن يملأ أكثر من ثلاث صفحات في حين ملأت أنا ست صفحات بسرعة فائقة!.

فقلت له: أنه سؤال مهم جداً يجب التوسع في الإجابة عليه. فقال: أنه بدأ يشك بسلامة جوابه، ثم أراد أن يزداد إيضاحاً وشرحاً فتهربت منه وانطلقت مسرعاً.

وعندما نجحنا ودخلنا الجامعة فتشت عنه لاأبلغه الحقيقة، فلم أره بين الناجحين، فعرفت أنه لم يكتب له النجاح وأنه فشل ولكن في غير الأدفب الفرنسي طبعاً.

رفيقي يقبض عليّ

ومضت الدراسة في المدرسة الثانوية رتيبة مع متابعة درسي الجبر واللغة الفرنسية خارجها. ومما حدث في هذه الأثناء: عزمي على المشاركة العملية في نضال الانتداب الفرنسي، وكان سبيل ذلك المساهمة في إعداد المظاهرات وتنظيمها ثم السير في صفوفها تحريضاً وتوجيهاً، ونزلت إلى الميدان وجاءت أولى المناسبات، وصادف أن كانت في شهر رمضان، فكان علينا اغتنام فرصة تجمع الناس ليلاً في المسجد الأموي، فخطبنا فيهم وهجناهم للخروج في مظاهرة صاخبة فاستجابوا، وكنت مع من كان في طليعة المظاهرة، وسرنا في سوق الحميدية لنخرج منه إلى شارع النصر، وكانت هذه أول تجربة لي في المظاهرات، لذلك كانت خبرتي فيها قليلة، ولم أكن أعلم أن عيون الفرنسيين مبثوثة محكمة البث في صفوف المتظاهرين تراقب المسؤولين عن التحريض والتهييج حتى إذا تشتتت المظاهرة بعد اصطدامها بقوى السلطة انقضوا على المحرضين فقبضوا عليهم وساقوهم إلى السجن فالمحاكمة.

وكان الذين سبقونا قد وقعوا في هذه التجارب، لذلك كانوا يحكمون انتقالهم في صفوف المتظاهرين فلا يلبثون في مكان واحد سوى دقائق لا تلفت النظر، ويظلون يتنقلون فهم طوراً في المقدمة وطوراً في الوسط وطوراً في المؤخرة. تارة في هذا الصف وتارة في صف آخر وبذلك تضيع آثارهم فلا تتعرف عليهم عيون الجواسيس المنتشرين في كل ناحية من نواحي المظاهرة.

وكنت من بين الأغرار الذين لا خبرة لهم في هذه الشؤون، لذلك ثبت في موقعي في المقدمة مثيراً مهيجاً، مؤلفاً للشعارات، ثم ارتأيت ـ وقد بلغت الحماسة أقصاها ـ أن نأخذ نحن الذين في الصف الأول بأيدي بعضنا البعض فنشكل سلسلة متماسكة تثبت عند الاصطدام المترقب بعد الخروج من سوق الحميدية الضيق والوصول إلى شارع النصر المتّسع الذي يستطيع فيه الجنود أن يصولوا ويجولوا مهاجمين المتظاهرين.

وظللت ممسكاً بيد شاب كان يبدو على كثير من الحماسة والاندفاع، ورحت أتشاور معه على تدبير الصمود عند اشتباكنا بالجنود، ولبثنا كذلك إلى أن خرجنا من سوق الحميدية، وكان الجنود ينتظروننا في الشارع وبدأت المعركة، وظللنا نتدافع إلى أن وصلنا إلى نهاية الشارع قريباً من محطة الحجاز، وهناك استطاعوا تفريقنا، وعدنا شراذم مشتتة، وانطلقت وحدي، فإذا بثلاثة يسرعون إليّ، ويقول أحدهم: (هذا هو أبو البدلة البيضا)، وكنت أرتدي في تلك الليلة بزة بيضاء. فانقضّوا عليّ وأمسكوا بي، فإذا أحدهم ذلك الشاب الذي كنت أمسك بيده طول الوقت والذي كان يبدو متحمساً كل التحمس!.

وساقوني مع من قبضوا عليهم إلى السجن حيث بقينا فيه ليلة واحدة، حوّلونا بعدها إلى المحكمة، وكان الذي ينظر في هذه الأمور قضاة وطنيون، فكانوا يحكمون بتبرئة الموقوفين، بعد أن يوجّهوا إليهم النصح بالكف عن هذه التصرفات.

فتنبّه الفرنسيون لهذا الأمر، فأصدروا قانوناً قاسياً سمّوه (قانون قمع الجرائم) يحاكم بموجبه المتّهمون أمام محاكم فرنسية، وتقضي مواده بأن كل من يرى موجوداً في مكان المظاهرة حتى وإن لم يثبت أنه كان مشاركاً فيها يجب أن يحكم عليه بالسجن، ولا يجوز أن يكون الحكم أقل من سبعة أشهر.

ولو كان هذا القانون موجوداً يوم حوكمنا لكنا قضينا في السجن سبعة أشهر على أقل تقدير.

ومن ذلك اليوم صرت حريصاً كل الحرص على التخفي بين المتظاهرين فلا يُرى مكاني بارزاً. وأذكر أننا بعد أن دخلنا معهد الحقوق، وحاول الفرنسيون فرض المعاهدة التي عرفت بمعاهدة (الشعباني)، وكان لا بد من تهييج الشعب لمقاومتها. وكان مسكن المفوض السامي الفرنسي عندما يكون في دمشق بالصالحية، كما كانت منازل عملاء الفرنسيين هناك، فصممنا ـ نحن بضعة طلاب في معهد الحقوق ـ على وجوب تسيير مظاهرة صاخبة تصل إلى منزل المفوض السامي نفسه وبيوت عملائه، وكان ذلك متعذراً إذا كان مكان انطلاق المظاهرة من قلب المدينة، لأن المسافة بعيدة بين مكان انطلاقها وبين هدفها، فيمكن تشتيتها قبل وصولها إلى الهدف، لذلك فكرنا بتشكيل مظاهرة تنطلق من الصالحية نفسها لتصل بسرعة إلى منزل المفوض السامي، وكان تشكيل مثل هذه المظاهرة صعباً جداً، إن لم نقل أنه مستحيل، لعدم إمكان حشد جمع كثيف تتشكل منه المظاهرة في الصالحية.

وبعد التفكير رأينا أن تكون المظاهرة ليلاً وأن تنطلق بعد صلاة العشاء من مسجد (الشيخ محيي الدين) حيث يكون المصلّون فيه نواتها، ثم يتجمع عليهم الناس شيئاً فشيئاً خلال مسير المظاهرة. فضلاً عن أن هذا المكان بعيد عن تفكير السلطة بحدوث مظاهرات فيه، لذلك سيربكها انطلاق مظاهرة منه كانت لا تظن أبداً أن ذلك ممكن الحدوث.

وانطلقنا إلى المسجد قبيل صلاة العشاء، وتقاسمنا الأدوار ـ وكنّا خمسة ـ فعهدنا إلى عبد القادر الميداني أن يصعد فور انتهاء الصلاة إلى المنبر فيحرض المصلّين، وكان سبب اختياره أنه كان ذا صوت رهيب، إذا أطلقه ينطلق كأنه الرعد المدوّي. وتقاسمنا نحن الأربعة زوايا المسجد فأخذ كل واحد منّا مكانه في زاوية، فما أن تعالى صوت عبد القادر بالنداء حتى صحنا بأعلى أصواتنا من كل زاوية: الله أكبر، وكررنا الصيحة فنفذت إلى

قلوب المصلّين فإذا بكل واحد منهم يصيح : الله أكبر ، ثم خرجنا من المسجد بين المجتمعين فيه بين صياح : الله أكبر ، وصياح بسقوط المعاهدة ، ومشينا في الأزقة التي كانت تضيق أحياناً وتتسع أحياناً ، وكلما خطونا خطوة انضم إلينا جماعة ولم نبلغ الشارع العام المؤدي إلى قصر المفوض السامي حتى كانت الحشود قد تكاثفت ، ومن الطبيعي أنني هذ المرة لم أمسك بيد أحد يقودني بعد ذلك إلى السجن ، ثم وجّهنا المظاهرة في الاتجاه الموصل إلى القصر ، ولما اطمأننا إلى ذلك أسرع كل منّا ركضاً إلى (الترامواي) الهابط إلى المدينة .

ولما رآنا أحد المتظاهرين نصعد مسرعين إلى (الترامواي) صاح بأعلى صوته بحيث سمعناه واضحاً : (وين حمّيتوها وهربتو) !! .

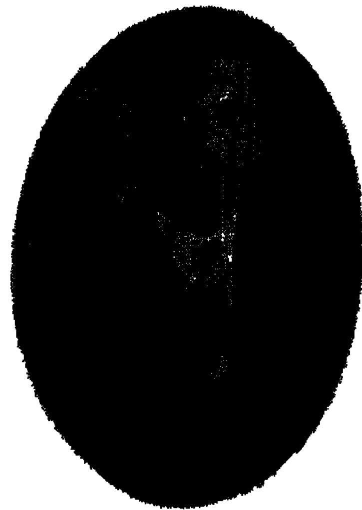
لقد كان هذا الصائح طريفاً جداً ، وصادقاً جداً ، فقد (حمّيناها) وهربنا فعلاً ! . لأن شبح قانون قمع الجرائم كان يطاردنا ، ولأن تخيّل سبعة أشهر سجن كان يحث خطانا على الهرب السريع ! . .

وبعد القبض عليّ في المظاهرة الأولى لم أقع في أيدي عمال السلطة مرة ثانية لأنه لم يعد يستهويني تماسك الأيدي في المظاهرات ! .

في الدراسة الثانوية

وأخذ العام الدراسي يتوالى يوماً بعد يوم ، وأخذ يوم الحسم يدنو شيئاً فشيئاً، ومن طرائف الدراسة أن مدرّس التاريخ كان عجوزاً من بقايا ضباط الجيش العثماني المتقاعدين ، ونشأ نشأة تعليمية بعيدة عن جو اللغة العربية ، فهو بالرغم من أنه دمشقي عريق كان يتعثر في النطق خلال الدرس باللغة الفصحى فيأتي بجمل تدعو إلى الضحك ، فكان من تعابيره مثلاً ما قاله أحد الملوك الفرنسيين ، فقد أورده المدرّس بهذا اللفظ . إن تلك التاج يؤلمني ! .

ومن طرائف ما جرى لنا معه أنه كان يطلب منّا في كل درس أن نكون مستعدين للاجابة في الدرس المقبل ، ومن الأكيد أننا لم نكن كلنا مستعدين للإجابة ، فكان متروكاً للتلميذ الذي ينادي المدرّس اسمه من ورقة أمامه كانت تحتوي أسماء التلاميذ جميعاً ، كان متروكاً للتلميذ إذا كان غير مستعد للجواب ، أن يرد على النداء بكلمة : (غير موجود) ، فكان المدرّس يضع إشارة أمام إسمه ليعلم غيابه .



عند إنهاء الدراسة الثانوية سنة ١٩٣٢

وصدف يوماً أن معظمنا ، بل ربما كنا كلنا غير مستعدين للجواب ، وكان الصف غاصّاً بالتلاميذ ، فكان كلما نودي على إسم يجيب التلميذ بنفسه : غير موجود . . . إلى أن امتلأت الورقة بأسماء التلاميذ الغائبين ، بينما كان الصف ممتلئاً بهم ! . .

دخول الجامعة

وأقبل يوم امتحان (الجامعة) وجرى لي فيه في درسي الجبر واللغة الفرنسية ما قصصته على القارىء من قبل ، وانتهى الأمر بالنجاح ودخلت الجامعة ، وتحقق الأمل الذي كنت أظنه غير ممكن التحقيق ! ولم أشعر ببهجة تشبه البهجة التي عرفتها يوم إعلان النتيجة ، وإن كانت أيام البهجات أقل من القليل ! .

وكان من عوامل التنغيص عقوق العاقين ، وجحود الجاحدين ، ولؤم اللؤماء ! . وحسبك أن واحداً من أولئك كنت ملازماً له أيام الاضطهاد والقلّة ، لا يأنس إلاّ بي ، حتى إذا انقطعت عنه مضطراً يومين متتابعين أرسل يبحث عني ويتساءل عن سبب انقطاعي . وصعدت وإياه يوماً إلى (الترامواي) وسيلة النقل الشعبية الوحيدة في بيروت ثم هبطنا وسرنا مشياً على الأقدام في أوائل الليل لزيارة بعض أقربائه فمررنا تحت قصر عامر كان يشع بأنوار الكهرباء ، ويزدحم الطريق المؤدي إليه بسيارات الزائرين ، وكان رجلاً لا يستطاب مجلسه ، فقلت للرفيق السائر معي على قدميه : إني لأعجب كيف يجد هذا الرجل من يجالسه ، فضلاً عن أن يزدحم مجلسه ! . فأجابني رفيق أيام النضال والاضطهاد قائلاً : أتعجب من أن يزدحم مجلسه بالناس وقد باع بالأمس أرضه الواسعة لليهود في فلسطين ، فقبض مئات الألوف وامتلأ وطابه بالمال ، وأصبح يرجى ويخشى ؟ أتعجب من ذلك ؟ لا ، لا تعجب فليس هنا مكان العجب ، بل العجب أن أجد أنا القليل المال ، أنا الذي لا يرجى ولا يخشى ، أن أجدك أنت تمشي إلى جانبي وتصلني في منزلي ! . .

وتدور الأيام فإذا هذا الذي كنت أزامله في ركوب (الترامواي) وفي السير على الأقدام في شوارع بيروت ، والذي كان يكبر صلتي له في منزله حيث لا يرجى ولا يخشى ، والذي طالما استمدني عند الشدائد ، إذا به في يوم من الأيام لا يسير في الشوارع على قدميه ، بل يسير في السيارة الضخمة الفخمة التي يرف عليها العلم ! . . بينما كنت أنا لا أزال أواصل السير على قدميّ في رحلة الحياة الطويلة الشاقّة ، ولما جاء يوم كنت في حاجة لنجدته ، كان هو في عالم آخر يزهو بالأعوان والأنصار الجدد الذين لا يزاملونه في السير على الأقدام ، وكان إنجاده لي لا يزيد في سلطانه ، وعدم إنجاده لا يقلل من أعوانه فزوى وجهه وتجاهل الإنجاد ! .

طالما سرت على قدميّ مع رياض الصلح ، وطالما زاحمنا الناس معاً في (ترامواي) بيروت ، حتى إذا انتقل هو من السير على القدمين ومن ركوب الترامواي إلى ركوب (الكاديلاك) ، لم يعد يذكر الماضي ومن كان فيه وما كان فيه .

وقد كانت آخر الأيام الشعبية مع رياض الصلح ، يوم تقررت الانتخابات النيابية سنة ١٩٤٣ وهي السنة التي تم فيها الاستقلال ، وكان يتنازع النفوذ في لبنان : الانكليز والفرنسيون . ومن هنا كان لا بد من أن

تكـون الانتخـابـات حـرة لأن لا سلطة واحـدة تستـطيـع أن تحسم الأمـور لمصلحتها . وكان رياض الصلح حائراً لا يدري ما يفعل ، أيرشّح نفسه في بـيروت ، أم يـرشـح نفسـه في جبـل عـامـل (أي مـا أطلقـوا عليـه اسم الجنوب) ؟ . .

لقد كان يصده عن الترشيح في بيروت أنـه كان يخشى أن يتـالب عليه المسيحيون مع خصـومه من المسلمـين فيسقطوه ، لأن المسيحيـين يرون فيـه الرجل القوي ، وأهم من ذلك فإن قريبه سامي الصلح عازم على الـترشيح في بـيروت ، ولسـامي قـواعـد شعبيــة متينـة ، فلم يكن من المعقــول أن يـترشـح صلحيان في قائمة واحدة ولا أن يتقارعا في قائمتين متضادتين .

وكان يصده عن الترشيح في جبل عامل أن لا قاعدة شعبية له فيه حتى ولا في مدينة صيـدا المعتبرة مـدينة أسرتـه ومدينـة أبيه من قبله ومـدينته هـو نفسه ، وذلك لأنه هجرها ولم تبق له ركيزة فيها .

وكنت إذ ذاك أعمـل في القضاء في محكمـة (النبـاطيـة) ، فـأرسـل إليّ يـطلب حضوري إلى بـيروت بأسرع مـا أستـطيـع من الـوقت ، فجئتـه في الحال ، فخلا بي في منزله وعرض عليّ المـوقف وحيرتـه فيه ،

فقلت لـه : هل ستكـون الانتخـابـات حرة ، أم هنـاك مجـال لتـدخـل السلطة ؟ . فقال ستكون الانتخابات حرة مئة بالمئة فابد رأيك بناء على هذا الأساس .

فقلت له : إذا كنت موقناً بأن الانتخابات ستكون حرّة فلا تتردّد لحظة واحدة في الترشيح في جبل عامل ، فإن لك فيه قواعد شعبية تجهلها أنت ، وستتفـانى نحن أصدقـاءك في تأييـدك والدعـوة إليك ، وسيستجيب النـاس وسمعتك وسمعة أسرتك طيبة وستنجح بإذن الله .

وكان المتنافسـان الرئيسيـان يومـذاك في جبل عـامل همـا أحمد الأسعـد وعـادل عسيران ، وكـان أحمد الأسعـد مرشـح الفرنسيـين ، وعـادل عسـيران مـرشح الإنكليـز ، وكانـا عدوّين لـدودين ، يسعى كل منهمـا لتـأليف لائـحة تنافس لائحة عدوه ، فقلت له : أن الأمر سيكون أهـون مما تتصـوّر ، لأن الموقف في نظري هو كالآتي :

إن كلًّا من أحمد الأسعد وعادل عسيران يتهيب المعركة لأن أحداً منهما لم يجرّب بعد قوّته الذاتية ، فأحمد الأسعد نجح في الانتخابات المـاضية لأنـه كـان واحداً من جمـاعة ضمتهم السلطة الفـرنسية في قـائمة واحـدة نجحوا جميعاً لأن السلطة فرضتهم . وعادل عسيران سقط في تلك الانتخـابات لأن مزاحمه في القائمة كان كبير الأسرة عمّه نجيب .

إن هذا التهيّب من المعركـة يجعل الاثنـين أحمد وعـادل قابلين بسهـولة للدخول في قائمـة واحدة إذا وجـد من يعرف كيف يمهّـد الطريق لـذلك ، فكل منهما لا يطمح الآن لأكـثر من أن يفوز هـو نفسه ولا يهمـه الآخرون ، وانضمامهما في قائمة واحدة ينهي المعركـة ويضمن لكل منهما الفوز ، والأمـر يحتاج إلى رجل لبق يدخل بينهما ، وهل في الدنيا من هو أكثر لبـاقة منـك ، فأقدم ولا تتردد .

فتهلل وجهه بشراً وانزاح عن صدره الحمل الثقيل .

وطلب إليّ أن أبقى إلى جـانبـه عصر ذلـك اليـوم والليلـة والنهـار القادمين ، لعل الأمر يحتـاج لأن يستوضحني في بعض التفـاصيل ، وهكـذا كان . ثم تم الأمر كما قدّرته .

فنجح أحمد وعادل في قائمة واحدة كان فيها رياض .

سنة وبعض السنة مضى على ذلك ، كان فيها رياض الصلح قد أصبح رئيساً للوزارة وصار الآمر الناهي ، وعاد راكب (الكاديـلاك) بعد ركـوب الترامواي ، وأصبح عشير الرؤساء ورفيق الوزراء وخليط النواب ! . .

بعد سنة وبعض السنة كان رياض الصلح يشيح بـوجهه ويلوي عنقـه وتتمعّر طلعته ثم يدير ظهره أمام الاستنجاد به . . .

لقد مرَّ في خاطري شريط الذكريات منذ اللقاء الأول برياض في ظاهـر النباطية يـوم تحديث السلطات والنـافذين في تكـريمه حتى سـاعة الاستنجـاد هذه .

ولم تكن هـذه أولى غـدرات ريـاض الصلح بـأصـدقـائـه ، ولا آخـر غدراته ، فقد تبيّنَ أنه مطبوع على الغدر ، وعلى ما هو شر من الغدر .

يوم الانتخاب في دمشق

مضت دراسة الحقوق مضياً رتيباً ، وتآلفنا هناك بضعة طلاب لا يزيـد عددنا على العشرة ، متخذين لنـا منهجاً ، فيـه أن نلتقي في المنازل لقـاءات أسبوعية لا تخلو من التسليـة البريئـة ، وأهم ما فيهـا تنظيم الكفـاح الوطني ومقاومة الإفرنسيين ، فإذا ألمّ بالبلاد حادث كان علينا أن نحزم أمرنـا ونقود فيه جبهة فاعلة تقرر وتقتحم .

ومما يذكر مما كانت مشاركتنا فيه فعّالة ، هو يوم قـرر المفوض الفـرنسي (بونسو) إجراء انتخابات عامة في سوريـا في ٢٠ كانـون الأول سنة ١٩٣١ تمهيداً لتصفية القضية الوطنية بتزوير الانتخابات وإخراج مجلس نيابي مطواع يقر معاهدة معدة لا تختلف عن الانتـداب إلا بالإسم ، وهي المعـاهدة التي عرفت يومذاك بإسم (معاهدة الشعباني) نسبة لوزير الداخلية شاكر نعمت الشعباني الذي تبنّاها وتعهّد تصديقها من المجلس .

وجاء يوم الإنتخاب وأعدّ الفرنسيون عدّتهم للتزوير في سـوريا كلهـا ، وأعد الطلاب عدّتهم للمعركة ، وقضينا ليلة يوم الإنتخاب نجـول من حي إلى حي نشحذ الهمم ونستفز النفوس ، وفي الصباح كنّـا نتوزع في الأحيـاء حول مراكز الاقتراع ، وقد كان كـل شيء مهيًّا للمعـركة ، ولا تحتـاج النار العتيدة إلا إلى عود من الكبريت لتضطرم اضـطرامها المـروع . وقد كـان ، فبدأ[١] الهجوم عـلى المراكـز وأخذ الـرصاص يـدوّي من بنادق الجنـود حماة المراكز ، وانطلقت الجموع فى شـوارع دمشق مهدّدة متـوعدة ويـدأ الصدام

---

(١) عن الانصاف أن نذكر أن الذي أشعل عود الكبريت هو زكي الخطيب الذي كان يومذاك من أركان الكتلة الوطنية وأحد مرشحيها، فقد جاء مبكراً إلى مركز الاقتراع وجلس وراء الصندوق وأبى أن يتزحزح عن مكانه، ولم يفد معه أي جهد، ولما صاولوه قال لهم: لقـد كتبت وصيتي قبل أن أخرج من بيتي، ثم خرج إلى المجتمعين في الخارج وقال لهم: لقـد بدأ التزوير فاحموا انتخاباتكم، فاشتعلت النار.
ثم انفصل بعد ذلك زكي الخطيب عن الكتلة عندما أحكم جميل مردم قبضته عليها.

عنيفاً ، وكان مكاني من المعركة بالقرب من محطة الحجاز ، وكنّا قد وصلنا إليه دون مقاومة تذكر ، وكانت قوة الجند تعسكر على جسر بردى الموصّل بين آخر شارع الحجاز وأول الشارع الصاعد إلى طريق الصالحية ، وكانوا يقفون هناك متأهبين لصد المظاهرة الزاحفة منه لتصل إلى (السراي) المقيم فيها وزير الداخلية والجهاز الحكومي كله، فإذا بهم يفاجئون بنا نزحف من محطة الحجاز هابطين للوصول إلى نفس الهدف . وكان سلاح المتظاهرين الحجارة التي تفرّغ لتجميعها وإحضارها فريق من الفتيان لا تتعدى أعمار أكثرهم الرابعة عشرة فما دونها ، وكان يدهشنا ما نرى منهم ، ونتساءل كيف كان يتسنى لهم جمع ما يجمعون من الحجارة ، وكيف يتأتى لهم بعد جمعها نقلها وتوزيعها على الجبهات المتعددة .

إنها دمشق . . . دمشق البطلة . . . دمشق التي لا يعرف حقائقها إلا من خبرها . . . دمشق التي أقضت مضاجع الفرنسيين على مدى وجودهم فيها . .

لقد كنت من موقفي قرب محطة الحجاز أشاهد المعركة على الجبهة المقابلة ، فكانت مشاهد لا يمكن أن تنمحي من الذهن بسالة وتفنناً وكرّاً وفرّاً ، كان المتظاهرون يكرّون على الجند بالحجارة كرّاً عنيفاً ، فإذا تقدّم الجنود ممهدين لتقدمهم بإطلاق الرصاص ، انكفأ المتظاهرون غير منهزمين بل متغلغلين في الأزقة الجانبية المتفرعة من الشارع الكبير ، فيخلو هذا الشارع منهم تماماً ، فلا يجد الجنود أمامهم من يقاتلونه فيعودون إلى موقعهم على شاطىء بردى، فإذا رآهم المتظاهرون قد عادوا وتوقفوا عاودوا الكرّ عليهم بالحجارة ، فيعود الجنود إلى مهاجمتهم ، ويعودون هم إلى إخلاء الشارع والتغلغل في الأزقة الجانبية .

أما عملنا نحن على الجبهة المقابلة فكنا إذا رأينا الجنود يتقدمون مهاجمين كرزنا نحن عليهم بالحجارة ، فإذا ارتدّوا عن رفاقنا إلينا ارتددنا نحن إلى مواقعنا متباعدين عنهم إلى الشوارع الفرعية .

وظل الأمر على هذه الحال كرّاً وفرّاً إلى أن رأينا من موقفنا منظراً عجيباً ، ذلك أن ضابطاً فرنسياً تقدم منفرداً رافعاً بيده اليمنى منديلاً أبيض أخذ يلوّح به ماشياً وحده صوب المتظاهرين الذين لم يتعرضوا له بسوء ، وتقدم بعضهم منه وبدا لنا أن الجميع يتحاورون ، ثم لم يلبث المتظاهرون أن توقفوا عن كل حركة فمشى الجنود منسحبين ، فلم ندر ماذا جرى ويجري ، وأسرعنا بعد انسحاب الجنود إلى أصحابنا فعلمنا منهم أن الضابط أنبأهم بأنه تلقى أوامر بوقف التعرض للمتظاهرين والانسحاب إلى الثكنات .

ولم تلبث أن انتشرت التفاصيل ، فإن المفوض الفرنسي (بونسو) المقيم في بيروت عندما بلغه نبأ ما جرى في دمشق تملكه الهلع وأيقن أن ذلك مقدمة ثورة شاملة ، فأسرع في الحال إلى إعلان إيقاف عملية الانتخاب وإبطال ما جرى منها ، ولم يكن يومذاك إذاعة تنقل القرار ، فعلقت صور عنه على جدران الشوارع والأحياء وعرفه الناس جميعاً ، فانقلبت المظاهرات الحربية إلى مهرجانات سرور وابتهاج ، وكان يوم من أيام دمشق المعدودة في تاريخها النضالي الباسل .

ولا بد من الأشادة برجال الدرك السوريين الذين كانوا عندما يتلقون الأمر بالهجوم وإطلاق الرصاص ، كان رصاصهم ينطلق أكثر ما ينطلق في الهواء متظاهرين بتنفيذ الأوامر ، في حين أنهم كانوا يجنبون رصاصهم أجساد الناس ، لذلك لم تكثر الإصابات ، وكان عدد القتلى دون العشرة .

وفي اليوم الثاني خرجت دمشق عن بكرة أبيها تشيع الشهداء إلى قبورهم ، وكان يسير في طليعة حاملي النعوش شيخ معمم بعمامة بيضاء يحمل على يديه جثة طفل يبدو أنه في حوالي الخامسة من سني حياته ، فكان منظره يستنزف الدموع من عيون المشاهدين ويثير عظيم النقمة على الفرنسيين الذين قتلوا فيمن قتلوا : الأطفال .

ثم تبين لنا بعد ذلك أن هذا الطفل كان قد مات في المستشفى موتاً طبيعياً ، وأن هذا الشيخ قد تعمّد إثارة النفوس على الفرنسيين فأخرج جثة الطفل مع نعوش القتلى فكان له ما أراد .

وكنت في ذلك الحين أنظم الشعر بين آونة وأخرى فأوحت لي معركة الانتخابات بقصيدة ضاع أكثرها ولم يبق في ذاكرتي منها إلا هذه الأبيات .

بذلوا ليوم الانتخاب جهودا	ضمنوا لأنفسهم بها التأييدا
وعدوا فما حفظوا الوعود ولا رعوا	فينا بيوم الانتخاب عهودا
قد أوقدوها فتنة نارية	كانوا لها عند اللقاء وقودا

ومنها :

باتوا سروراً ناعمين بليلهم	ودمشق باتت تشتكي التسهيدا
ترنو مفجعة إلى فتيانها	تستنجد الشم الاباة الصيدا
فتدافعوا متواثبين وأقبلوا	متسارعين إلى المنون ورودا
لله يومهم غداة تقدموا	تتلو الوفود إلى النزال وفودا
من كل أعزل يتّقي ببنانه	وبصدره يستقبل البارودا
يرمي الحجارة صارخاً بجموعهم	فيرد جمعهم النظيم بديدا
ولرب طاوية على أشجانها	وارت يداها في التراب وحيدا
دفعت بفلذتها لمعترك اللظى	وأبت عليه أن يعود طريدا
أبني دافع عن بلادك أنه	ليقر عيني أن أراك شهيدا
أحل على النيران حملة ضيغم	واستقبل الخصم الشديد شديدا

وقد أسفت لضياع معظم أبيات القصيدة ، وأنه لم يبق في ذاكرتي منها إلا هذه الأبيات ، فالمناسبة التي نظمت فيها القصيدة من أغلى المناسبات في حياتي .

نتائج الانتخابات

أعلنت نتائج الانتخابات في بقية المناطق السورية فإذا بمرشحي الفرنسيين يفوزون في كل مكان ما عدا أفراداً محدودين استطاعوا التغلب على التزوير .

يفوزون حتى في حلب قلعة إبراهيم هنانو وسعد الله الجابري وعبد الرحمان الكيالي ، واستطاع الفرنسيون أن يسقطوا قائمتهم وينجحوا قائمة العملاء وعلى رأسها صبحي بركات .

فلم يتصد الشعب في حلب بمثل ما تصدى في دمشق ، فلم تقم في الأولى ثورة عارمة كما قامت في الثانية ، واقتصر الأمر فيها على الغضب ،

مجرد الغضب والاحتجاج ، مجرد الاحتجاج ، وهما لا يردعان ظالماً ولا يكبحان مستعمراً ، والأمر كما قال أبو تمام : (السيف أصدق أنباء من الكتب) .

وإذا لم يكن السيف متيسراً فقد أثبتت الحجارة أنها يمكن أن تحل محله ، وأن تكون (أصدق أنباء من الغضب والاحتجاج) ! .

وحاولت حلب بعد ذلك وبعد أن تم أمر الانتخاب وأعلنت النتائج وانتهى كل شيء ، وبعد أن رأت ما أدّت إليه ثورة دمشق ، حاولت حلب أن تقتفي أثر دمشق ، فقامت فيها المظاهرات الصاخبة واشتعلت فيها المعارك الدامية ، ولكن ما تم قد تمّ ، ولم يكن من الممكن إعادة عقرب الساعة إلى الوراء ، فذهبت محاولات حلب سدى ، ولو أن ما فعلته حلب بعد الانتخابات فعلت بعضه قبل الانتخابات لتغير الأمر وتباينت النتائج .

ولك أن تتساءل لماذا ثارت دمشق ولم تثر حلب ، مع أن في حلب شعباً لا يقل وطنية وشجاعة عمن في دمشق ، ومع أن في حلب قادة أبطالاً صلبين ، وحسبك أن يكون فيهم ابراهيم هنانو وسعد الله الجابري وعبد الرحمان الكيالي ، وفي حين كان في دمشق رجل مثل جميل مردم ! .

كيف قدّر لحلب إبرهيم هنانو وسعد الله الجابري وعبد الرحمان الكيالي أن تتأخر عن دمشق جميل مردم ؟! .

إنني أجيب : كان ذلك لأنه كان في دمشق عصبة من الطلاب نذروا أنفسهم لوطنهم العربي ، ونظموا أمورهم تنظيماً دقيقاً ، وتحسبوا لكل شيء ، ثم انبثوا في الأساط الدمشقية ليلة الانتخابات يشرحون ويحرضون ويجمّعون ، ثم انطلقوا في الصباح في كل مكان يؤلبون ويرتبون ، حتى إذا اجتمعت الجماعات قادوا خطواتها قيادة واعية مضحية فتقدموها في اقتحام الهول فاستجابت لهم ، فكان ما كان .

وربما ساعد على أن يكون في دمشق ما كان ، أنه كان فيها (الجامعة السورية) التي تستطيع أن تكتّل الطلاب وتصهرهم معاً مما لم يكن مثله في حلب ، إذ لم تكن فيها جامعة بعد .

انتخابات جديدة

وقد كان لا بد للافرنسيين من أن يحددوا يوماً جديداً لإجراء انتخابات دمشق ، وقد كان ، وتعين يوم الانتخاب وبدأت المداولة بأسماء المرشحين وإدارة المعركة المقبلة . وهنا يبرز دور جميل مردم .

لم يكن بين رجال الكتلة الوطنية في دمشق رجل قوي ، وإن كان فيهم المخلصون .

لذلك خلا الميدان لجميل مردم الداهية المتماسك الألعبان ، المستعد للتلون بألف لون .

ولم يكن من همّ جميل مردم التفكير بالنضال والكفاح ، بل كان من همّه الوصول بأهون سبيل ، وأقل تعب . وقد صار الحال الآن إلى أن يكون هو المقرر الأقوى لقرارات الكتلة الوطنية في دمشق فعوضاً عن أن يستغل النصر الدمشقي الثوري ، فيقود انتخابات دمشق القادمة إلى نصر شعبي كاسح ، أخذ يفاوض الفرنسيين على أن يكون لمرشحيهم مكان في القائمة الدمشقية الوطنية ، لئلا يكون هناك معركة انتخابية متعبة ، فيدخل هو المجلس على رأس القائمة دخولاً مريحاً ، مع ما في ذلك من كسب ودّ الفرنسيين الذين سيحتاج إليه - كما تبين بعد ذلك - في الأيام القادمة ، وليثبت لهم حسن نواياه فيطمئنوا إليه . وهكذا كان ! . . .

فإذا بالقائمة الوطنية تعلن وبين مرشحيها محمد علي العابد وحقي العظم ، نعم حقي العظم ! . . وإذا لم يكن للأول السجل الأسود الذي للثاني ، مما جعل الناس ينسون اسمه فلا يستفظعون ذكره أمام إسم حقي العظم ، فقد كان لوجود إسم هذا الآخر في القائمة الوطنية وقع الصاعقة في جميع أوساط المخلصين .

فحقي العظم صنيعة الفرنسيين وعميلهم ورجلهم الأول ، والذي أقاموه على أنقاض الحكم الاستقلالي بعد يوم ميسلون حاكماً لدولة دمشق ، والذي كان مجرد ذكر اسمه يثير في النفوس التقزز والقرف والإنكار ، حقي العظم هذا عضو مرشح في القائمة الوطنية ! . . .

وتساءل الناس هل قامت ثورة دمشق ، وسفكت فيها الدماء الزكية التي سفكت من أجل أن يكون حقي العظيم نائباً عن دمشق ؟! ومحمد علي العابد أيضاً ؟! .

هكذا يريد جميل مردم وكان له ما أراد ! . .

وجاء يوم الانتخاب ولم يكن للقائمة مزاحمون أشداء ففازت بأعضائها جميعاً وفيهم محمد علي العابد وحقي العظم . . .

وحاول جميل مردم وأعوانه أن يعتبر الناس فوزها فوزاً وطنياً باعتبارها قائمة الكتلة الوطنية وأن يحملهم على الابتهاج الشعبي ، ولكن هيهات . . .

وآن للمجلس النيابي أن يجتمع وكان فيه ثلاث تجمعات : تجمع وطني يبلغ عدد نوابه سبعة عشر نائباً من أصل ثمانية وستين نائباً هم مجموع نواب المجلس .

وتجمعان يضمان النواب الذين عملت على إنجاحهم السلطة الفرنسية ، على رأس أحدهما صبحي بركات ، وهو يضم نواب حلب وأقضيتها ، وعلى رأس الثاني حقي العظم وهو يضم نواب بقية المناطق وهم خليط يجمعه الخضوع للسلطة الفرنسية .

وكان أمام المجلس مهمة كبرى هي إبرام المعاهدة التي أعدها الفرنسيون ، على أن عليه أولاً أن ينهي أمراً أولياً هو انتخاب رئيس له ، ثم انتخاب رئيس للجمهورية ، ثم يلي ذلك اختيار رئيس للوزراء .

وكان للفرنسيين رجلان هما صبحي بركات وحقي العظم ، وكان عليهم أن يختاروا واحداً منهم لرئاسة الجمهوري ، وكان يطمح إليها الاثنان معاً ، وكان الفرنسيون يريدون أعرق الرجلين في خدمتهم ، وأبعدهم صيتاً في الخيانة ، وهو حقي العظم . ولكن صبحي بركات لم يسلم لهم في ذلك . وأخذ التنافس والتزاحم مأخذهما ، فأراد صبحي بركات أن يثبت قوته وسيطرته على العدد الأكثر من النواب فرشح نفسه لرئاسة المجلس ، وعضده في ذلك النواب الوطنيون ففاز بالرئاسة .

وهكذا هزلت الحركة الوطنية حتى أصبحت مساهمة في ترجيح فوز مرشح للسلطة الفرنسية على مرشح آخر لها .

وبدا للفرنسيين واضحاً أن صبحي بركات سيفوز برئاسة الجمهورية بتأييد النواب الوطنيين له ، وكان الشرخ قد وقع بينه وبين الفرنسيين بترجيحهم حقي العظم عليه ، وإن لم ينقطع الأمر بينه وبينهم .

وهنا بدأت المناورات والمداورات فأسفر الحال عن الإتفاق على حل وسط يضمن للفرنسيين رئيساً لهم ويبعد المتنافسين المحسوبين عليهم عن التخاصم والتزاحم ، على أن توفر رئاسة الوزراء لحقي العظم ، بعد أن توفرت رئاسة المجلس لصبحي بركات . وهكذا قسموا الرئاسات الثلاث بين رجالهم بمعاونة النواب الوطنيين الذين أوصلهم جميل مردم إلى هذه المواقف ، وكان ذلك من حظ محمد علي العابد الذي جاءته رئاسة الجمهورية في ١١ حزيران ١٩٣٢ من حيث لا يحتسب . وتحققت أمنية جميل مردم فأصبح وزيراً للمالية في وزارة حقي العظم .

وفي ذلك يقول الشاعر السوري المبعد عن سوريا خير الدين الزركلي مخاطباً النواب الوطنيين الذين كانوا يقولون أن من أهدافهم من المشاركة في هذه الأمور الحصول على العفو عن المبعدين السوريين ، من قصيدة لا أزال أستظهر منها :(١)

تبارك الله أحسنتم بفعلتكم ... كل الرئاسات في أيدي المراثيس
ما كان أغناكم عن خوض معترك ... ترأست فيه أذناب الفرنسيس
تالله لا خير يرجى من نيابتكم ... وإنما هي رزق للمفاليس
ولا رئاسة في أيدي ثلاثتكم ... وإنما هي نقش في القراطيس

***

أبات (مردم) من أوزار أمته ... يسعى إلى الغنم سعياً غير معكوس
يرضى بما لاح من صيد ومن قنص ... والكيس في الكف غير الكف في الكيس

***

يا طالبي العفو عنّا هونوا وقفوا ... وجنبوا أمرنا من كل تلبيس
إنّا لنصبر ما عاش الزمان على ... غير الهوان فعيشوا في الفراديس

ثم اضطر جميل مردم بضغط هاشم الأتاسي وإبراهيم هنانو مجتمعين على الاستقالة من وزارة حقي العظم في ٦ نيسان ١٩٣٣ .

يوم المعاهدة

وبعد الانتهاء من أمر الرئاسات واصل المجلس اجتماعاته ليحقق الغاية التي انتخب من أجلها وهي إقرار المعاهدة التي أعدها الفرنسيون ، وعُين يوم عرض المعاهدة على المجلس ، وكان الفرنسيون واثقين من النتيجة فأكثرية نواب المجلس مؤلفة من الأشخاص الذين جاءوا بهم إلى النيابة .

(١) تحدث فارس الخوري عن جميل مردم فقال: «كان جميل مردم يتصرف بالمصاريف المستورة على هواه وربما يخصص نفسه بمعظمها إن لم يكن كلها فقد كان يحب المال حبّاً جمّاً، ويمد يده إليه عن أي طريق. دخل الحكم سنة ١٩٣٦ يلاحقه الدائنون في كل مكان بإشعارات الحجز على أمواله وخرج مليونيراً (الصفحة ٤٠١ من كتاب: فارس الخوري وأيام لا تنسى).

وقرر الطلاب إفساد أمر المعاهدة ، واستطاعوا في اليوم السابق ليوم عرض المعاهدة على المجلس أن يجمعوا معظم طلاب معهد الحقوق وطلاب معهد الطب في مسيرة يمرون بها على النواب فرداً فرداً للضغط عليهم ضغطاً معنوياً باستثارة كوامنهم الراكدة من بقايا شهامة ووطنية ، وكان النواب موزعين على فنادق المدينة ، فمشينا بجمعنا إلى حيث ينزل كل واحد منهم ، وكان بعض الفنادق يضم اثنين أو ثلاثة أو أربعة ، فنطلب لقاء من نعرف أنه في الفندق فلا يسعه إلا الاستجابة لطلبنا ، فينبري الخطباء منا إلى تبيان شرور المعاهد ، ثم يناشدون النائب بأن لا يلقى الوطن المصير السيء على يديه ، ويذكرونه بلعنة التاريخ التي ستلحقه وبالعار الذي سيصيب أبناءه وأحفاده ، فلا ينتهي الخطيب من كلامه حتى تكون كل كوامن الخير قد انطلقت في نفس النائب ، وحتى يكون قد نسي أن الفرنسيين هم الذين جاءوا به إلى النيابة، فيعاهدنا بصوت متهدج بأنه لن يوافق على المعاهدة ، وكان بعضهم لا يستطيع حبس دموعه .

وأذكر أننا التقينا بمجموعة من نواب العشائر في فندق واحد ، وكان هؤلاء النواب من أهم الركائز الذي يستند إليها الفرنسيون ، فقابلوا مجيئنا أول الأمر بشيء من الاستنكار ، والاستهانة بهؤلاء الأولاد الذين يتطاولون إلى ما لا يعنيهم ، فحاولوا عدم الإصغاء إلينا والترفع عن الدخول في مناقشات معنا ، فلم نزل بهم حتى سمعوا ما نريد أن نقوله ، وانتهى الأمر بأن وقف أبرز واحد فيهم (مجحم بن مهيد) وسلّ سيفه من غمده وقال بلهجته البدوية ما معناه : والله يا أولادي أنني لا أستطيع مخاطبتكم بمثل هذه الألفاظ التي تتكلمون بها ، ولكني أقول لكم أن من يجرؤ على الموافقة على المعاهدة لن يكون له إلا هذا السيف . فكان بهذا القول أبلغ خطيب . . .

وقصدنا إلى الفندق الذي ينزل به أحد نواب حلب (هنري هندية) ، فرفض أول الأمر الخروج من غرفته لمقابلتنا ، وأمام إصرارنا وتلويحنا بالتهديد والوعيد ، خرج (ببيجامته وروبه) ووقف في أعلى الدَّرَج ونحن في البهو الذي في أول الدرج فقال بلغته العامّية ما معناه : ما أنتم وهذه الشؤون . فلم ندعه يتم كلامه بل صعدنا الدرجات راكضين اليه فولى هارباً يتملكه الذعر ، واقتحمنا غرفته فلم نجده بها ، ولم نعلم أين اختبأ ، فاكتفينا بذلك .

وعدا هذا النائب فقد تمرد على طلبنا أربعة نواب آخرين من مجموع النواب ، وكان تمرد ثلاثة منهم ممزوجاً باللين والملاطفة والتظاهر بالاحترام ، فأخذنا نجادلهم فأبوا أن يعدوا برفض المعاهدة . فعند ذلك لوّحنا لهم بالانتقام من كل من يوافق على المعاهدة وتركناهم .

أما الرابع فقد حاول أن يقف موقف هنري هندية فانتهى به الأمر إلى الفرار والتواري . ويؤسفني أنني لا أتذكر أسماء هؤلاء الأربعة لأسجل عليهم هذا الموقف .

وانتهت جولتنا وفي يقيننا أننا قد حققنا ما نبغيه ، وقد كان كذلك ، فلما عقدت الجلسة في اليوم الثاني أدرك الفرنسيون بأن المجلس سيرفض المعاهدة فأصدروا قراراً بفضّ المجلس وإيقاف جلساته قبل أن تبدأ المناقشة .

ثورة حمرا

ومن الذكريات الشعرية في تلك العهود التي تعبّر عما كانت تعتمل به نفوسنا من حماسة وأمل وتطلع أذكر هذه الأبيات التي نظمتها في ساعة من تلك الساعة المفعمة بالشعور الثوري الوطني :

سنقلب هذه الدنيا ... فنجعل بطنها ظهرا
سنملأ من جنود العرب منها السهل والوعرا
سنملك بعد تشريد ... وترويع بها الأمرا
سنخضب من دم الإفرنج منها البر والبحرا
سنملأها بنا عدلاً ... كما ملئت بهم جورا
سنُطلع من بريق البيض في ليل الدجى فجرا
سنشعلها على ظلم الفرنجة ثورة حمرا

مع دي مارتيل

على أثر المظاهرات الدامية التي قام بها العرب في فلسطين والتي مشى على رأسها زعيم فلسطين موسى كاظم الحسيني احتجاجاً على السياسة الصهيونية . وعلى أثر مجزرة يافا التي سقط فيها نفر من رجال العرب المتظاهرين صرعى برصاص الانكليز ، قامت في دمشق المظاهرات الاحتجاجية الصاخبة ، فاصطدم المتظاهرون بالشرطة فوقع القتلى والجرحى . وكان قد خطب بالمتظاهرين زكي الخطيب وأحمد الشهابي وغيرهما . فأصدر المفوض السامي الفرنسي الكونت دي مارتيل وكان حديث عهد بالبلاد ، بلاغاً كله تهديد ووعيد ، واعتقل زكي الخطيب ورفقاه في سجن القلعة ، فأضربت دمشق أياماً ، وصدرت البيانات الاحتجاجية ، فاجتمع طلاب الحقوق في منزل أحدهم وكلفوني بأن أرد بإسمهم ، فوضعت هذا البيان ووزع على الصحف فحذفت بعض مقاطعه عند نشره . وذلك في خريف سنة ١٩٣٣ :

تابع طلاب الحقوق في دمشق بدهشة بلاغ فخامتكم المنشور في الصحف المحلية ، وقد استغربوا كل الإستغراب هذه اللهجة الشديدة تواجه بها البلاد في مفتتح عهد يقال أنه عهد جديد يختلف عن العهود السابقة ، فإذا كانت فخامتكم تعتقد أن مثل هذه اللهجة يمكن أن توهن عزائم السوريين فتصرفهم عن تطلاب حقهم المنشود فقد ضللتم في ذلك السبيل . فالسوريون الذين درسوا وقائع الثورة الفرنسية دراسة وافية وتلقنوا تعاليم رجالها بما فيها من صبر وثبات لن تضعفهم لهجات الوعيد وعبارات التهديد . والطلاب السوريون وطلاب الحقوق منهم بخاصة ، وهم الذين تلقوا على مقاعد الدرس آراء علماء فرنسا في دحض نظريات (نيتشه) التي لا ترى الحق إلا في أفواه المدافع وعلى رؤوس الحراب وفوق أشلاء الضعفاء - لا يسعهم إلا أن يعجبوا كل العجب من هذا التناقض بين آراء علماء فرنسا وبين أعمال سياسييها الذين يزعمون أنهم إنما هبطوا سوريا لإرشادها وتدريبها على الحرية والاستقلال !! . .

يا فخامة المفوض ،

إن سوريا العربية التي قطعت شوطاً بعيداً في الثقافة والتي قدمت على مذابح الاستقلال زهرات شبابها والتي يلوح لها من خلال الأجيال ماضيها اللامع بكل ما فيه من قوة وجلال لن يثني من أعنتها بيان تهديدي وبلاغ إرهابي ، بل أن ذلك لينفخ فيها روح الحماسة والكرامة ويدفعها للعمل الاستقلالي المستمر .

لقد كنّا نترقّب أن لا تستند بلاغاتكم إلى أشخاص تدفعهم وظائفهم لاتهام الناس وتشويه الحقائق تبريراً لأعمالهم وزلفى لأسيادهم . فقد جاء في البلاغ (أن المتظاهرين هاجموا مخفر باب توما بتأثير الخطب التي ألقيت في المسجد) ، في حين أن المتظاهرين كانوا مسالمين لم يهاجموا أحداً ولم يطلقوا ناراً ، وفي حين أن الخطب دعت الناس إلى عدم العنف . وقد أثبتت المشاهدة والتقارير الطبية أن الشهداء أصيبوا في ظهورهم مما يدل على أن رجال الشرطة هم المعتدون .

أما قولكم : « أن اعتداءات كهذه لا يمكن أن تغطى تحت ستار مظاهرة تضامن وتأييد بمناسبة حوادث تقع خارج البلاد ، بل هو تحد للسلطة ليس في الوسع احتماله » ، فقد عرف أن ليس هناك اعتداءات ، ولم تكن غاية المتظاهرين مهاجمة المخافر والاستيلاء على الذخائر - كما زعم البلاغ - بل أرادوا الإعراب عن شعورهم بمظاهرة سلمية فقوبلوا بالنار والرصاص . والحوادث التي تظاهروا لأجلها ليست خارج بلادهم ، بل هي في قلب بلادهم فإن فلسطين جزء الشام الذي لا يتجزأ .



عند التخرج من معهد الحقوق سنة ١٩٣٤

وقد ألقيتم في بلاغكم المسؤولية على أشخاص معينين أمرتم بتعقبهم في كل حالة . ومعنى ذلك أنكم لم تتركوا المجال فسيحاً للقضاء ليستلهم من حقيقة الواقع لا من الأوامر الصادرة إليه . وقد كان اعتقال الأستاذ زكي الخطيب وإخوانه نتيجة فعلية لهذا الأمر .

فطلاب الحقوق الذين يؤلمهم مخالفة نصوص القوانين وانتهاك الحريات يلفتون نظر فخامتكم إلى جميع ذلك ويؤيدون بيانهم بإعلانهم هذا النهار إضراباً يشمل جميع فروع الجامعة السورية .

زيارة أحمد رامي

خلال دراسة الحقوق زار دمشق الشاعر المصري أحمد رامي فأقيمت له حفلات فيها ، وقد حييته بهذه القصيدة :

وطن العروبة لا تلين قناته   وبنو القريض الشاعرون حداته
هاجوا الغفاة النائمين عن الحمى   فاستيقظت لصدى القريض غفاته
ولرب شاعر أمة مهضومة   بعثت بأمته الابا أبياته
يبكي على الحق السليب بعبرة   شعرية فتثيرها عبراته
يا نازلاً والشعر يعبق نشره   من ردنه فتهزنا نفحاته
السفح مفتر إليك تضاحكت   أصواحه وتهللت هضباته
حيتك بالزهر النضير تلاعه   واستقبلتك بوردها ربواته
يحنو الخلاف به عليك مرحباً   ويؤهل الوادي ومنعطفاته
بردى وأي تحية مسكيّة   بعثت إليك مع الصبا ضفاته
حنّت خمائله إليك تشوقاً   وحنت عليك بظلها دوحاته
غنيته الشعر الطروب فصفقت   أمواهه وتأرجت نسماته
سر الجمال تراه حول ضفافه   والسحر ما برزت به غاباته
تحنو الغياض على الوفود وتنحني   بظلالها وثمارها شجراته
ترد الحسان على الضفاف سوافراً   عن كل وجه أشرقت قسماته
يحلو لها الوادي وعذب نسيمه   ويروقها بردى ومخضلاته
فتمر بالوادي فتأتلق الربى   وتطيب من أعرافها جنباته
من كل فاتنة تورد خدها   وتألقت في ثغرها بسماته
إنيزل بضفته ورجع منشداً   شعراً تهيج قلوبنا نغماته
حدث عن النيل الشقيق فنيلكم   تشتاقه وتحبه أخواته
ما باله يجفو العروبة إنها   تدمي قلوب بني أبيه جفاته
لهفي على بردى تكدر ماؤه   بعد الصفاء وصوّحت جنّاته
لا الخيل في يوم الرهان خيوله   وكلا ولا تلك الظباة ظباته
سله عن المجد الذي عصفت به   غير الزمان فنكست راياته
واليوم تغزى أرضه من بعدما   بلغت أقاصي المغربين غزاته
سله عن الميدان أين جنوده   يوم النضال وأين عنه حماته
صرح تهاوت للحضيض بنوده   وتناثرت فوق الثرى شرفاته
يا ويح قلبي كم يكابد حسرة   حتى تكاد تذيبه حسراته
يشكو تباريح الزمان وربما   أجّت بأطراف اليراع شكاته
أترى تعود ليعرب أمجادها   ويعود فيها ملكها وبناته

وداع الدروس

وأخيراً أنهينا السنوات الثلاث في معهد الحقوق سنة ١٩٣٤ ، وخرجنا إلى الحياة العامة نكافح فيها الزمن وصروفه وأحداثه . وقد ودعت عهد الدراسة بهذه القصيدة :

حسبي وحسبك ما لقيت وما بي   فلقد أذبت فتوتي وشبابي
علقت آرابي عليك ولا أرى   أني سأظفر منك بالآراب
وسهرت فيك الليل أجرع دونه   مر العذاب وما سواك عذابي
كم ليلة ليلاء بت أجوزها   بحشا مروعة ووجه خابي
متلفعاً ببرد الهموم مقلباً   بأنامل الفزع الممض كتابي
قلق أحاط بيقظتي فأحالها   صوراً مروعة من الارهاب
وعدا على نومي فما عقد الكرى   إلا على أشباحه أهدابي
أرنو لمطّلع الصباح بمهجة   حرى وقلب بالهموم مشاب
يا أيها الليل الطويل أتنجلي   عن فجر ترويع وصبح عذاب
أم تحمل البشرى فتنعش معشراً   سئموك خدن متاعب وصعاب
أوهت جسومهم الدروس وأعملت   في كل قلب مثل حد الناب
وقفوا على الأبواب وقفة هالع   يترقبون تفتح الأبواب
يا خيبة الآمال ثم لفاشل   جم العناء وضيعة الأتعاب
فشل تذوب له النفوس مضاضة   وتطيش منه رواسخ الألباب

***

اليوم لا «فحص» نبيت لأجله   متقلبين على الغضا اللهاب
واليوم ودعنا الدروس بحسرة   لمودع لا يرتجي لاياب
لهفي على تلك العهود وليتها   عادت بما فيها من الأوصاب
إني لأذكرها فأذكر عندها   خير الرفاق وأفضل الأصحاب
أيام تجمعنا على صفو الهوى   متآلفين شمائل الأحباب
نرتاد (دمر) ضاحكين إلى الربى   (ونروح أسرابا إلى أسراب)
ونؤم من بردى الرياض نضيرة   فوّاحة الأعراف والأطياب
يا أيها النهر المرقرق لا ذوت   في ضفتيك نواضر الأعشاب
مهوى القلوب على وهادك والربى   ومنى النفوس بمائك المنساب
قد كدروك على الاباة فما لهم   من وردك الصافي نمير شراب
لا تستطاب لذي الأباء متالع   في ضفتيك ولا تشوق روابي

***

ولت ليالي «الامتحان» واقفرّت   تلك الملاعب من جموع صحابي
لا الدار بعدهم تلذ لسامر   فيها ولا تحلو الرياض لصابي
من للبشاشة والكياسة بعدهم   من للهوى والبشر والترحاب
من للحماسة يستثير كمينها   من للتظاهر ثم والاضراب
المسجد الزاهي يحن لفتية   شم الأنوف غطارف انجاب
قاموا بليلهم على أعواده   يستنفرون شمائل الأعراب
شدوا بكل مصابر مستبسل   ومشوا بكل مواثب غلّاب(٢)

أوّل المعارك الوطنية

كانت أول المعارك الوطنية بعد التخرج من معهد الحقوق تلك المعركة التي أعدت للصدام لأول مرة في جبل عامل بالافرنسيين بعد استقرارهم في البلاد .

ففي الإنتخابات اللبنانية سنة ١٩٣٤ وكنت لا أزال طالباً في معهد

(٢) راجع أخبار المظاهرات والاضرابات وما جرى في المسجد فيما مر من الكلام.

الحقوق قدّم الفرنسيون مرشحيهم لتلك الإنتخابات ، وتقدم في كل المناطق مرشحون معارضون سقط أكثرهم وفاز بعضهم ، إلا في جبل عامل فإنه لم يترشح معارض واحد ، ـ وكان لجبل عامل نائبان فقط ـ ففاز مرشحا الفرنسيين بما يسمى (بالتزكية) .

وكنا ونحن في دمشق نتحرق لأن منطقة جبل عامل هي وحدها التي لم تجر فيها معركة انتخابية ، ولم يجرؤ مرشح فيها على أن يتحدى الفرنسيين .

ثم حدث في السنة التالية (١٩٣٥) وكنت قد تخرجت من معهد الحقوق أن توفي واحد من نائبي جبل عامل ، فإذا بنا وجهاً لوجه أمام المعركة التي كنا بالأمس نتألم لعدم وقوعها ، فقبلنا التحدي وصممنا على إشعالها ، وكان لا بد لنا من أن نتذاكر في الأمر مع بعض العناصر الوطنية الفاعلة في بيروت ، أو بالأحرى مع رياض الصلح .

وكان أهم الأمور هو إيجاد المرشح التقليدي الذي يقبل بترشيح نفسه معارضاً لمرشح الفرنسيين ، وكان ذلك أمراً بالغ الصعوبة ، ولم يكن من المستحسن تجاوز المرشحين التقليديين إلى مرشح شاب يفاجأ به الناس ، لذلك كان لا بد من المرشح التقليدي .

وقد تداولنا أكثر من إسم فتبين أن من يمكن خوض المعركة به هو أحد اثنين : يوسف الزين أو عبد اللطيف الأسعد . وكانت هناك عوامل عديدة تحول دون ترشيح الأول ، فانحصر الأمر بالثاني .

فتقرر في آخر لقاء لي مع رياض الصلح[1] أن أذهب لمقابلة عبد اللطيف الأسعد وأقنعه بالحضور إلى بيروت ، وعند حضوره يمكننا إقناعه مشيرين فيه رواسب فروسية يمكن أن تكون عالقة في نفسه من ماضي بعض رجال أسرته القدامى ، فذهبت أول الأمر إلى صيدا لأستفسر عن مكان وجوده ، فإذا بي أعلم أنه موجود في صيدا نفسها ، فأسرعت إليه في دكان حلاّق في بوابة صيدا الفوقا فتلقاني بالترحاب وشكرني على أنني أشدت بجدّه الأعلى ناصيف النصّار في خطاب تأبيني كنت قد ألقيته منذ شهر وكان قد حضره ولم يتسن له رؤيتي بعد الخطاب ليشكرني على ما قلت ، وها هو يغتنم فرصة هذا اللقاء ليؤدي هذا الشكر . وبعد تبادل المجاملات ، قلت له أراك في صيدا فماذا تفعل ؟ أجاب : إني أريد أن أرشّح نفسي للإنتخابات وقد جئت أستأذن المستشار الفرنسي (بشكوف)[1] في ذلك لعله يأذن لي ، وموعدي معه بعد ساعة . فقلت له فإن لم يأذن لك ؟ قال : أذهب وأقعد في بيتي . فقلت له : لقد سمعتني قبل شهر أشيد على المنبر بجدّك الشهيد ناصيف النصار بعد موته بأكثر من مائتي سنة ، فهل تظن أن جدّك هذا لو كانت سيرته أن يذهب فيستأذن طغاة الحكام في تصرفاته فإن أذنوا له فعل ، وإن لم يأذنوا ذهب فقعد في بيته ، هل تظن أنه لو كانت سيرته هذه السيرة ، أكان يشاد بذكره على المنابر بعد مائتي سنة من موته ؟ .

فصمت بعض الصمت ثم قال لي وما أستطيع أن أفعل إن لم أفعل ذلك ؟ .

فقلت له : إنك سليل الأسرة التي كان لها أكبر الشأن في جبل عامل وأخرجت من أخرجت فيه من الرجال الذي سادوه عشرات السنين ، ويكفيك منهم ناصيف النصار وحمد المحمود ، وأنت اليوم حامل ميراث تلك الأسرة ، ومن هو بشكوف ؟ إنه دعي من أدعياء الفرنسيين سلّطوه على البلاد ، أيليق بوريث ناصيف النصار أن يسمع له ويطيع ؟! .

فشعرت أن هذا الكلام قد حرّك كوامنه ، فقال لي : أشر عليّ .

فقلت له أنك ذاهب بعد قليل لمقابلة بشكوف فلا تكلمه مستأذناً ، بل قل له : إني مصمم . ترشيح نفسي للإنتخابات ، وجئت من باب اللياقة أخبرك بذلك .

وليكن كلامك له بنبرة عالية فيها العزة والشموخ ، وتمثل نفسك وأنت تكلمه بأنك خليفة ناصيف النصار .

ثم قلت له : إذا أراد أن يناقشك فارفض مناقشته ، وقل له : لم أجيء لمناقشتك بل جئت لأخبرك بالأمر الواقع وها أنا منصرف لتنظيم معركتي الإنتخابية . فتحمّس عبد اللطيف وقال : سأفعل ذلك .

---

(١) كان شبان آل الصلح في ذلك الوقت الأشقاء عادل وكاظم وتقي الدين وعمادهم المتصدون لنضال الفرنسيين المعرضين أنفسهم لغضبهم وانتقامهم ، وقد ورثوا عن والدهم عقارات ومزارع كان يمكن أن تجعل منهم أثرى الأثرياء لو أنهم احتفظوا بها واستكانوا إلى الراحة والهدوء. ولكن وطنيتهم وإخلاصهم للقضية العربية كلها أبيا عليهم إلا التجرد للجهاد الوطني فحاربهم الفرنسيون في أرزاقهم ، فما زالوا يبيعون ما يملكون قطعة وراء قطعة حتى باعوا جميع ما يملكون وأنفقوا أثمانه في الكفاح الوطني الطويل، وحسبك أنه كان من أملاكهم في بيروت منطقة (الروشة) فباعوها بأبخس الأثمان، ثم أصبح ثمن الشبر من ترابها يعادل ثروة، كما باعوا مزارعهم في جبل عامل، وعاشوا عيش الكفاف.

ولما تحقق الاستقلال الذي تفانوا في سبيل تحقيقه، وافتقروا من أجل إنجازه كان جزاؤهم من أمتهم وممن وثبوا على مغانمها جزاء سنمار. فإذا بشارة الخوري الذي قضى حياته كلها مطية للفرنسيين يحكم بإسمهم وينفذ أوامرهم، ثم أصبح هو وزمرة من عملاء الاستعمار أصبحوا في غفلة من الزمن وبدعم من الانكليز يسمون أنفسهم أبطال الاستقلال، إذا بشارة الخوري هذا وهو رئيس لجمهورية الاستقلال !! يحول بسلطانه دون البطل الاستقلالي المناضل كاظم الصلح وبين الوصول إلى النيابة فينجح صلاح البزري .

ويفشل كاظم الصلح ، وينجح بعد ذلك في بيروت أحد النكرات ويفشل تقي الدين الصلح . ولما اجتمعت بعد زمن عدة عوامل ضاغطة كان لا بد معها من تكليف تقي الدين بتولي رئاسة الوزراء كان المسؤولون يبدون وكأنهم يمنون عليه بذلك. وقد عمل تقي الدين في رئاسة الوزارة بذهنية رجل الدولة لا بذهنية المتسلط، فكان من أول ما فكر فيه إنشاء مجلس أعلى للثقافة، وقد نفذ فكرته فألف المجلس من نخبة من رجال الفكر، وإبعاداً للفكرة عن كل الاستغلال، فقد جعل أعضاء المجلس متطوعين في عملهم لا يتناولون أي راتب أو تعويض مما لم يعهد له مثيل فيما سمي بالجمهورية اللبنانية، إذ كانت تتخذ مثل هذه الأمور وسيلة لإثراء الأتباع والأنصار كما جرى من قبل فيما سمي بالمجلس الأعلى للسياحة.

ولكن الأمر لم يطل فوضعت العراقيل في وجه تقي الدين فآثر الاستقالة، وانتهى باستقالته أمر مجلس الثقافة.

---

(١) هو الطاغية الفرنسي الذي كان أول أمره مستشاراً في صور؛ ترقى فصار مستشاراً في صيدا فطغى وبغى وفيه أقول:

والمفتاء لأوطان ممزقة   يبهى ويأمر فيها العلج بشكوف
انظر إليه تراه بينهم ضبعاً   فظاً وهم بين أيديه خواريف
يا للرجال أما في القوم ذو وشم   يأبى الهوان أما في القوم غطريف

وكان وقت مقابلته لبشكوف قد دنا فأسرع ذاهباً إليه وانتظرته في دكان الحلاّق .

فما هو غير قليل حتى عاد بمثل ما ذهب به من الحماسة ، وقال لي : لقد طبّقت تعليماتك حرفياً وتركت بشكوف يغلي غلياناً من الغيظ ، فما هو العمل الآن ؟ وكيف لي بتحمل غيظ المستشار وغضب الإفرنسيين ؟ . .

فقلت له : وهل أنت أول من غاظ المستشار وأغضب فرنسا ؟ ألا ترى ما يجري في سوريا ؟ ألا ترى زعماءها يجاهرون الفرنسيين بالعصيان والتمرّد ، فماذا استطاعت فرنسا بكل جبروتها أن تفعل بهم ؟ لقد نفت بعضهم لبعض الوقت ثم اضطرت إلى إعادتهم ، فعادوا معززين مكرّمين من مواطنيهم . وأنت لست دونهم ومواطنوك ليسوا دون مواطنيهم . . .

فقال : وكيف نتصرف الآن ؟ فقلت له : الرأي أن نذهب الآن إلى بيروت ، وهناك سنلتقي بذوي الرأي ونستمع إلى آرائهم ، ونتكل على الله ونبدأ بإشعال المعركة . فشعرت أن الأمر قد هاله ، فصمت صمتاً طويلاً ، ثم قال امهلني إلى ما بعد الظهر .

فخشيت أن تهمد حماسته ويتردد ، وأن يقابل بعض الانهزاميين الخانعين فيثنوه عن عزمه . فقلت له : لا مجال للإمهال ، وعلينا أن نغتنم كل ساعة للعمل الجدي ، فهلم بنا إلى بيروت ، فاستجاب ومشى معي بخطوات بطيئة وهمة فاترة مستهولاً ما هو مقدم عليه .

وأخيراً كنا في السيارة متجهين إلى بيروت ، وكنت قد اتفقت مع أحد الأصدقاء أنه بمجرد أن يرانا نصعد السيارة ، يتصل بالهاتف بمنزل رياض الصلح ببيروت ويخبره بتوجهنا إليها .

وكان لعبد اللطيف في بيروت ابن أخت هو في الوقت نفسه صهره يسكن بيتاً متواضعاً في محلة البسطة فذهبنا إليه رأساً . ولما استقر بنا المقام وقبل أن يسألني عن الخطوة التالية قلت له : أن فتى من آل الصلح قد توفي ، ويصادف هذا المساء يوم أربعينه ، فالرأي أن نذهب إلى منزلهم معزين مشاركين في ذكرى الأربعين .

وكنت أعلم سلفاً بالصعوبة التي تنتظرني في إقناعه بتنفيذ هذا الاقتراح ، لأن عداء مستحكماً كان بين كامل الأسعد شقيق عبد اللطيف وبين رضا الصلح عميد آل الصلح ، ومع أن الاثنين كانا قد انتقلا إلى رحمة الله منذ سنين ، فإن من المفروض أن تكون العداوة موروثة .

وصح ما توقعته فاستنكر هذا الاقتراح استنكاراً صارماً ، وقال كيف يمكن أن أبدأ آل الصلح بالزيارة ! ولا سيما رياض ابن رضا وبيننا وبينهم ما تعلم ؟! .

فلم أزل في محاورته وتقريب الأمور إليه وتذكيره بأن الدنيا تغيرت وأن لنا كل المصلحة في هذه الزيارة فيما نحن مقدمون عليه . فَلاَن وقال لي ضاحكاً : لقد هورتني منذ مقابلة بشكوف ولا بد لي من السير معك في هذا التهور إلى النهاية لنرى إلى أين ستوصلني في النتيجة . . .

وكان من المتفق عليه أن يستقبل في المنزل بحفاوة وأن يكون جماعة من وجهاء أحياء بيروت وفريق من الشبان حاضرين وأن يرحب الجميع به .

وفي أوائل الليل ذهبنا إلى منزل رياض الصلح فلقي هناك من التكريم والترحيب ما أرضى كبرياءه ، وأثار سروره فبدا منشرحاً كل الانشراح .

وبعد أن أقمنا حوالي الساعة ، التفت إليّ مشيراً بأن قد آن لنا أن نغادر المنزل ، وكان الناس قد أخذوا بالانصراف ، فهمست في أذنه بضرورة البقاء لأن إجتماعاً سيضمنا مع بعض النخبة بعد انصراف الجمهور لندرس الخطوات التالية . وهكذا كان ، فلما لم يبق سوى المطلوب بقاؤهم التف حوله الحاضرون وذاكروه فيما هو مقدم عليه وشجعوه ووضعوا أنفسهم في تصرفه .

وقد كان لا بد من جمع بعض أقربائه حوله لئلا يشعر في نفسه في أنه وحيد ، وكان من يمكن جمعهم هم ابنه أحمد وابنا أختيه أحمد الناصيف ورياض التامر . وكان ابنه أحمد في ذلك الحين شيئاً مهملاً لا يحس أحد بوجوده ، وكان يسكن في بيروت في مكان على سطح فندق السنترال ، فصار يحضر اجتماعاتنا ويرافق أباه في تنقلاته ، ثم تبين بعد ذلك أن الإفرنسيين اتصلوا به وجعلوا منه جاسوساً على أبيه وعلينا فكان ينقل إليهم أخبار كل تحركاتنا . والذي كشف المسألة ، أنه تقرر إقامة حفلة لعبد اللطيف الأسعد في منزل محمد مطر وهو أحد العامليين الساكنين في بيروت . ولم يعلم بهذا القرار سوى رياض الصلح وعبد اللطيف وابنه أحمد وأنا ، وتفرقنا ليلاً كل إلى منزله على أن يتم الاتصال بصاحب المنزل غداً .

وفي الساعة الثامنة صباحاً كان صاحب المنزل يستدعى إلى مديرية الأمن العام الفرنسي ويقال له أن حفلة ستقام في منزله لعبد اللطيف الأسعد ، وأن هذا يثير عليه غضب السلطات ، وأنه إذا وافق على إقامة الحفلة فلا يلومنّ إلا نفسه .

فأبدى لهم استغرابه وأنه لا علم له بشيء من هذا . فقالوا له : اسأل رياض الصلح أو حسن الأمين فعندهما الخبر اليقين .

وحوالي الساعة التاسعة والنصف كان يوافينا إلى منزل رياض الصلح ويقص علينا ما جرى مبدياً استعداده لتحمل مسؤولية الحفلة فأعفيناه من إقامة الحفلة ، وبقينا حائرين فيمن أوصل الخبر إلى إدارة الأمن العام بهذه السرعة ، ومن هو المطلع على كل خطواتنا .

فإذا بنا أمام الحقيقة المرة ، وإذا بأحمد بن عبد اللطيف يتجسس على أبيه ، مضافاً إلى مهمته الأخرى وهي العمل على تثبيط عزيمة أبيه ومحاولة تثنيه عن خوض المعركة .

وقبل ذلك عندما قررنا أن ينتقل عبد اللطيف إلى جبل عامل ليعلن هناك عزمه على ما عزم عليه ، وأن ينقل الخبر بنفسه إلى العامليين وأن يكون طريقه على النباطية، وهناك يوافيه ولده أحمد وابن أخته رياض التامر بمجموعة من الفرسان تنتقل معه من النباطية ماراً بها على أكبر عدد من القرى ، فيدخلون القرية بخيولهم المطهمة وحدائهم الفروسي الحماسي ، فيثيرون العزائم ويستفزون النفوس .

وقسمت منطقة (بلاد بشارة)[1] أي ما يقع جنوب نهر الليطاني إلى قسمين : قسم يقصده رياض وقسم يقصده أحمد فيجمع كل منهما ما يستطيع جمعه من الفرسان ـ وكانت القرى يومذاك مملوءة بالخيل ـ ثم يسلك

(١) هي المنطقة التي يكثر فيها أصدقاء آل الأسعد.

رياض طريق وادي السلوقي فوادي الحجير فجسر القاقعية فعقبة زوطر وصولاً إلى النباطية .

ويسلك أحمد طريق تل النحاس فجسر الخردلة ثم صعوداً إلى كفر تبنيت فالنباطية . ثم يدخل الاثنان النباطية كل من ناحيته بالأهازيج الحماسية المثيرة المتحدية ، ثم يصطحبون جميعاً عبد اللطيف منطلقين معه بموكبهم الفروسي إلى الطّيبة . ويومذاك أطلقنا الحداء الذي اشتهر بعد ذلك في جبل عامل ، والذي كان على الفرسان أن يرددوه وفيه ما فيه من التحدي العنيف لبشكوف بخاصة ، ولفرنسا كلها بعامّة .

ولقد اعتبره بعض الناس تحدياً جزافياً مضحكاً ، ولكنه كان يومذاك أفضل ما ينشد وخير ما يهتف به في مثل الظروف التي كنّا فيها ، وإذا كانت البلاغة ـ كما قالوا ـ مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فلم يكن في تلك الفترة أبلغ من ذلك النشيد :

بشكوف خبّر دولتك سلطاننا عبد اللطيف
باريس مربط خيلنا ورصاصنا يوصّل جنيف

ولكن أحمد الأسعد أفسد الخطة كلها ، فما أن وصل بفرسانه إلى تل النحاس ، وكان فيه مخفر للدرك حتى استوقفه رقيب المخفر وقال أنه مكلف بأن يرجوه بأن يتصل هاتفياً بصيدا . ودخل أحمد إلى الهاتف . وروى الرقيب بعد ذلك ما سمعه : بأنه كان يسمع صوت أحمد وهو يقول : أمرك . . . أمرك . . . ويكررها بين فترة وفترة .

وأخيراً قال : لا يكون إلا ما يرضيك .

وخرج أحمد إلى فرسانه وقال لهم : لقد تبدلت الخطة وعليكم التفرق إلى قراكم .

ثم اختار اثنين منهم وطلب إلى أحدهم أن يسرع فيلاقي رياض التامر قبل وصوله إلى النباطية ويطلب إليه وإلى فرسانه العودة من حيث أتوا . ويقصد الثاني أباه عبد اللطيف في النباطية ليطلب إليه العودة إلى بيروت .

ولما لقيت رياضاً بعد ذلك ولمته على عودته ، قال لي أنه فهم أن ذلك تقرر باتفاق الجميع ، وأنه لو لم يستنتج هذا الاستنتاج وعلم أن المصدر هو أحمد لواصل سيره إلى النباطية .

ثم تبين بعد ذلك أن الذي كلم أحمد هو محافظ صيدا أسعد عقل ، ولم يدر أحد بتفصيل الحديث الذي كان طويلاً بينهما ، ولم يظهر منه سوى كلمة : أمرك ، ولا يكون إلا ما يرضيك التي سمعها رقيب الدرك .

ومن ذلك اليوم بدأ أحمد يتجسس على والده وعلينا ، ويثبط عزائم والده ويحاول أن يثنيه عن إكمال الطريق .

قلت فيما تقدم أنه كان لا بد من جمع بعض أقرباء عبد اللطيف حوله، وأنه كان ممن يمكن جمعه هم ابنه أحمد وابنا شقيقتيه أحمد الناصيف ورياض التامر . وبالفعل فقد رافق هؤلاء الثلاثة في أول الأمر عبد اللطيف .

أما ابنه أحمد فقد رأينا ما كان موقفه ، وأما ابن شقيقته أحمد الناصيف فلم يلبث أن نكص على عقبيه وتخلى عن خاله . وبقي ابن شقيقته الآخر رياض التامر صامداً مع خاله لم يثنه وعد ولا وعيد ، ملازماً له في حله وترحاله . وكان مثل هذا الموقف في تلك الأيام التي كان فيها مجرد ذكر اسم (بشكوف) كافياً لدب الذعر فيمن يعتبرون أنفسهم من الشجعان ـ كان مثل هذا الموقف من رياض التامر نوعاً من البطولة .

رحم الله رياض التامر ما كان أطيب شمائله وأصفى حديثه وأشجع قلبه وأسمى وفاءه وأعذب مجلسه .

رحمه الله بقدر ما كان نائياً عن الصغائر مولعاً بالفضائل . . .

ونحن لم نتوقع أن ينجح عبد اللطيف في الانتخاب ، لأن في يد السلطة كل الوسائل لإسقاطه مهما نال من أصوات الناخبين ، وكان كل همّنا أن لا يفوز مرشح السلطة بالتزكية ، وكل خوفنا أن لا ترى السلطة معارضاً يقف في وجهها .

على أن النتيجة فاقت ما توقعنا فقد لقي عبد اللطيف من الإقبال عليه ومن التحمس له في أوساط الشعب ما لم يكن منتظراً . ولأول مرة لا يبالي الجمهور غضب السلطة فيخرج على إرادتها .

وهكذا نجحت الحركة كل النجاح ، وانكسرت حدّة بشكوف .

على أن بشكوف لم يسكت فعول على الانتقام من القرى التي تحمست لعبد اللطيف، فسلط عليها رجال الدرك ينكلون بأهلها، وراحوا يتفننون بذلك فمن غرامات مالية تفرض على الناس ، ومن سجن واضطهاد وإذلال .

ووصلتنا أخبار ذلك إلى بيروت ، فكتبت نص برقية وعرضتها على عبد اللطيف ليوقعها ، وكانت بهذا النص :

فخامة المفوض السامي .

لم يكف بشكوف أن زوّر الانتخابات لإنجاح مرشحه حتى عمد اليوم إلى التنكيل بالناس وإرهاقهم وحجز حرياتهم والانتقام منهم سالكاً في كل ذلك مسلك كاربييه في جبل الدروز .

فسألني عبد اللطيف من هو كاربييه هذا ؟ فقلت : هو الضابط الفرنسي الذي كان حاكماً لجبل الدروز فطغى فيه مما كان السبب في الثورة الدرزية الشهير على الفرنسيين سنة ١٩٢٥ . فأعجبه ذلك ووقّع البرقية في الحال .

وعملت نسخاً من البرقية تصل إلى الصحف البيروتية كلها لعل واحدة تجرؤ فتنشرها ، فلم تنشرها إلا جريدة واحدة ، وذلك أنها كانت قد عزمت على التوقف نهائياً بعد أيام . فأقدمت على نشر البرقية مما أمكن إيصالها إلى الناس في جبل عامل .

وأذكر أننا زرنا في اليوم الثاني لإرسال البرقية أحد الصحفيين في إدارة جريدته فقال : لما وصلتني البرقية كادت يدي ترتجف وأنا أمسك بها .

إذ أن البرقية كانت تهديداً بالثورة المسلحة .

ثم كنت مضطراً لترك بيروت والذهاب إلى دمشق لأني كنت أتابع التدرج في المحامات الذي لا بد منه بعد نيل إجازة الحقوق . وبعد شهر من وصولي إلى دمشق علمت أن الخانعين المتزلفين وفي طليعتهم أحمد

الأسعد ابن عبد اللطيف نفسه حملوا عبد اللطيف على زيارة بشكوف مما كان يعتبر توبة عما جرى ! . .

ولكن كان المقصود من الحركة قد حصل واهتزت هيبة بشكوف وأمكن إيجاد معارضة مناهضة للفرنسيين .

مرة أخرى مع عبد اللطيف الأسعد

تلقيت وأنا في دمشق رسالة من عبد اللطيف الأسعد يرجوني فيها أن أحضر إلى بيروت لمقابلته لأمر هام ، وقد أكد هذا الرجاء كل التأكيد . وعيّن لي المكان والزمان الذين ألقاه فيهما . فكان لا بد لي من الذهاب إلى بيروت لأرى ماذا يريد عبد اللطيف .

ووصلت في الوقت المحدد ، فوجدت عبد اللطيف الأسعد وابنه أحمد ومعهما رجلان آخران إخوان هما (ر . ب) و (م . ب) ، فتعجبت من التقاء هؤلاء الأربعة في مكان واحد مع أن لا رابطة بين الرجلين الأخوين وبين عبد اللطيف وابنه ، ولكن عجبي زال حين بادرني عبد اللطيف بقوله : أنه لا ينسى الأيام التي صحبته فيها والتي كانت مشرفة له ، وأنه لا ينسى ما بذلته من جهد في سبيله لذلك فقد عزم على أن أكون وكيله ووكيل شركائه فيما يريدون بيعه من أراض شاسعة واسعة ، ثم شرح الأمر قائلاً : لقد عزمنا على بيع المنارة وهونين وما يلي ذلك من مساحات ممتدة من قمة الجبل حتى سهل الحولة إلى شركة صهيونية وأن هذين الحاضرين هما السمساران . ولما كان مالكو الأرض هم عديد من الشركات ورثوها عن جدّهم خليل الأسعد ، كما يشاركهم في بعضها آل الخوري ، لذلك طلبت الشركة أن يوكل الجميع وكيلاً عنهم يجري معاملات البيع باسمهم ويقبض بإسمهم ويسجل بإسمهم . وأنه (أي عبد اللطيف) قد طلب من جميع الشركاء أن أكون الوكيل لائتمانه إياي ، ووفاء لي على ما عملته من أجله ، وأنه أصرّ على أن لا تكون أجرة هذا التوكيل هي ما تعورف عليه ، بل تكون مبلغاً كبيراً ، وأن السمسارين قد قبضا عربوناً لهذا البيع وسيُدفع لي حالاً هذا المبلغ من أصل العربون المقبوض .

وهنا قال أحد السمسارين أن المبلغ عنده وإني أستطيع أن أقبضه متى شئت . وكنت في ذلك الوقت في ضيق مالي شديد اضطررت معه لأن أستدين نفقات السفر إلى بيروت من أحد أصدقائي الدمشقيين . ولكنني لم أكد أسمع هذا القول من عبد اللطيف الأسعد ومن السمسار حتى انتفضت غاضباً وصحت في الحاضرين : إني لا أسمح لنفسي بأن أقيم لحظة واحدة في هذا المجلس الدنس . ثم خرجت .

وبسبب رفضي قبول التوكيل تردد عبد اللطيف في اختيار وكيل آخر وظل في تردده أكثر من شهر ، ثم إذا به يصاب بشلل في جنبه فينقل إلى المستشفى ولا يلبث أن يموت .

وبعد موته أقنع ابنه أحمد الورثة بأن يكون هو الوكيل عن الجميع ، وهكذا كان ، فباع باسمه وإسم موكّليه تلك الأراضي للصهاينة (١) .

وبعد استقلال لبنان سنة ١٩٤٣ وخروج الفرنسيين منه أصبح أحمد بائع الأرض للصهاينة وزيراً في الوزارات التي كان يؤلفها رياض الصلح وغيره ، ثم أصبح رئيساً للمجلس النيابي . كما أصبح أحد السمسارين الأخوين وزيراً عدة مرات ، ينادى باسمه بين الزعماء .

كما كان أحمد الأسعد نفسه في إحدى المرات عضواً في الوفد اللبناني الذي ذهب برئاسة رياض الصلح لحضور أحد اجتماعات الجامعة العربية التي كانت تعقد في القاهرة للبحث في شؤون فلسطين المغتصبة من الصهاينة .

في العراق

العام ١٩٣٨ كان الشيخ محمد رضا الشبيبي وزيراً للمعارف العراقية في وزارة جميل المدفعي التي ألفها بعد اغتيال بكر صدقي وسقوط وزارة حكمت سليمان . وقد كان وجود الشبيبي في وزارة المعارف عاملاً في انتقالي إلى العراق للتدريس في معاهده . وكان لا بد من هذه الخطوة . فأنا عندما دخلت معهد الحقوق في الجامعة السورية لم يكن في ذهني العمل في المحاماة بعد التخرج لعدة عوامل منها : أن المحامات يقتضي التفرغ لها تفرغاً كاملاً مما كان سيشغل كل أوقاتي فيصرفني عن تنفيذ ما كنت أشغل به ذهني من البحث التاريخي بعد أن استهواني هذا البحث كل الاستهواء . ومنها أن التفوق في المحاماة في لبنان كان لا يمكن لمن لا يجيد اللغة الفرنسية ، فإن كثيراً من الأحداث كان أمر الفصل بها يعود إلى ما سمي بالمحاكم المختلطة ، وهي المحاكم التي تتألف من قضاة فرنسيين ولبنانيين ويرئسها الفرنسيون ومنها محكمة التمييز ، والمرافعات في هذه المحاكم باللغة الفرنسية التي كانت معتبرة لغة رسمية في جميع دوائر الحكومة حتى في مجلس النواب . ومعنى ذلك أن المحامي الذي لا يجيد اللغة الفرنسية لن يكون في الصفوف الأولى من المحامين ، وأن ذلك محصور بخرّيجي معهد الحقوق في الجامعة اليسوعية في بيروت ، ولم يكن بإمكاني التسليم بالقيام بعمل لا يكون باب التفوق فيه مفتوحاً أمامي .

ومنها أن طبعي بعيد عن الإنغماس في مشاكل الناس وخلافاتهم والانشغال بخصوماتهم ، وهي خصومات يبعثها التكالب المادي ، وأنه إن صح أن المحامي يستطيع أحياناً أن ينقذ بريئاً أو يرد حقاً سليباً فإنه في كثير من الأحايين سيدافع عن مجرم وسيناصر ظالماً ويدعم مغتصباً . ولم أكن أحتمل أن يكون عماد حياتي قائماً على هذا الأساس .

وكنت أتذكر دائماً ما رواه (اتلي) أحد رؤساء حزب العمال البريطاني ومترئس وزاراته من أن الذي صرفه عن المحاماة بعد أن كان قد بدأ العمل فيها ناجحاً ، أنه في أوائل عهده في المحاماة دافع عن متّهم بجناية كان قد أقنعه بأنه بريء واستطاع تبرئته مما اتّهم به ، ثم تبيّن له أن صاحبه مجرم عريق في الإجرام .

لهذا كله لم يكن في ذهني أن أعمل محامياً ، وفي الوقت نفسه كانت الأبواب الأخرى مسدودة أمام أمثالنا في عهد الانتداب الفرنسي ، ولم يكن في إمكاني الإنصراف إلى ما يستهويني من الدراسات والبحوث لا سيما

(١) كان معظم هذه الأراضي داخلاً ضمن فلسطين، ومساحة منه ضمن لبنان، وكانت إسرائيل لم تقم بعد، وكان همّ الصهاينة شراء أقصى ما يستطيعون شراءه من الأرض العربية. ولما قامت إسرائيل بعد ذلك وأريد تحديد حدودها مع لبنان أصرّ اليهود على أن تكون حدود دولتهم على مستوى الأرض التي اشتروها مما هو داخل في لبنان وبذلك =

= استولوا على ما يقرب من ثلث أراضي قرى: عديسة، ومركبا، وحولا، وميس، وبليدا، وعيترون، استولوا عليه اغتصاباً بحجة تسويه الحدود. كل ذلك بسبب ما ارتكب أحمد الأسعد.

التاريخية منها ، فرأيت في التدريس في معاهد العراق ما يقربني مما أحاوله .

لذلك ذهبت إلى العراق مرتاحاً منشرحاً ، فكان أن عهد إليّ التدريس في ثانوية مدينة الحلة المنشأة في نفس العام .

في الحلة

وكان العراق يستقدم معظم مدرسيه من مصر إذ كانت حكوماته تنشىء في كل عام مدارس جديدة ، لذلك كانت محتاجة في كل عام إلى مدرسين جدد ، فكانت تواصل استدعاء المدرسين من الخارج وكان اعتمادها في ذلك على مصر .

ومن طريف ما كان يجري أحياناً أن المدرسة كان يصلها من المدرسين العدد الذي تحتاجه دون أن يراعى الاختصاص فيجد مدير المدرسة أمامه مثلاً مدرّساً للغة الإنكليزية في حين أنه يحتاج إلى مدرس للتاريخ فيضطر إلى أن يسد فراغ التاريخ بغير المختص بالتاريخ .

وهناك قصة تروى عن مدرّس لبناني عهد إليه بتدريس التاريخ وهو لا صلة له بهذا العلم ، فكان من مواضيع تدريسه موضوع الدولة البويهية فكان يلفظ كلمة (بُوَيْه) المضمومة الباء المفتوحة الواو الساكنة الياء ، كان يلفظها مضمومة الباء ويجعل الواو حرف مد ، والياء مفتوحة والهاء ساكنة (بُويَهْ) . وكذلك يلفظ كلمة (المغول) المفتوحة الميم ، المضمومة الغين ، والتي واوها واء مد ، كان يلفظها مكسورة الميم ساكنة الغين مفتوحة الواو ساكنة اللام (مِغْوَلْ) .

ولما جئت مدينة الحلة كان مدير الثانوية عبد الوهاب الركابي وهو من أكفأ رجال المعارف ، إداري حازم جيد الثقافة على جانب من طيب الذات وحسن الخلق وإنصاف الناس .

جئت أنا على أساس أني مدرّس للأدب العربي ، ولكن المدير وجد أن لديه شواغر في الأدب العربي وفي التاريخ الحديث وفي الاقتصاد ، فقسم دروسي بين هذه الثلاثة .

وقد وقع اختياري لمدينة الحلّة موقعاً حسناً في نفسي ، فأسرتنا في الأصل عراقية من الحلة نفسها أو من ضواحيها جاء جدّنا الأعلى منها إلى جبل عامل واستقر في شقرا .

وإلى الحلّة ينتمي العلاّمة الحلي والمحقق الحلي وصفي الدين الحلي والسيد حيدر الحلي والسيد جعفر الحلي وغيرهم ، وهي أسماء تتردد كثيراً في بيوتنا ومجالسنا ، لذلك وجدتني مسروراً بأن أكون في منابت أولئك الرجال وفي الأرض التي خرجت منها أسرتنا .

ولم تخيب الحلّة اغتباطي بوجودي فيها ، فقد كان يغلب على سكانها الاتصاف بالصفات الحسنة ، وكان كل من اتصل بهم يبعث الاتصال به الثناء عليه ، فضلاً عن وجود مجموعة طيبة المعشر أنيسة المجلس نيّرة الفكر .

لذلك كانت أيامي في الحلة وتلك السنة الدراسية التي أمضيتها فيها من أمتع أيامي وأعذبها .

والحلّة فضلاً عن ذلك من أجمل المدن بفراتها ونخيلها ورياضها



في ثانوية الحلة سنة ١٩٣٩

وبساتينها ، مما كان مبعثاً للشعر والنثر في نفسي فكان مما قلته فيها قصيدة فقدت مني وأتذكر منها هذه الأبيات :

ظل على شط الفرات ظليل   ومرابع فتانة وحقول
ليست تملّ العين رائع حسنها   إذ كل حسن غيرها مملول
وزها الفرات لرائديه وأمرعت   في ضفتيه تنائف وسهول
تحلو على الأجراف ثمة بكرة   ويطيب في ظل النخيل أصيل
يا صاحبي قفا فثمة موقف   في الجسر فوّاح الأريج ظليل
تترقرق الأمواه فيه دوافقاً   فيروق مجرى دافق ومسيل
ويلذ للوارد عذب نسيمه   وتشوقهم فيه صبا وقبول
مناظر الشط الجميلة كم حلا   في جانبيك لرائديك مقيل
كم وقفة في الجسر عاطرة الشذى   والماء رهو والنسيم عليل
طال الوقوف بنا عليك عشيةً   إن الوقوف على الجمال يطول

***

يا نازلين على لشآم وإنكم   بينْ الجوانح في الفؤاد نزول
ما لذّ ورد للمشوق ولا ارتوى   من بعدكم للمستهام غليل
يهتاجه الزهر النضير إليكم   ويهزه في الرافدين نخيل
أو ما تزال على كروم (حربية)   ترد الملاح عشية وتقيل
وهل العيون الدافقات كعهدنا   تجري على خضر الربى وتسيل
إني ليصيبني الخزام على النوى   ويشوقني الزيتون والملّول
وجد على شحط المزار مبرح   وشجى بطيات الضلوع دخيل

والواقع أن الفترة التي قضيتها بين التخرج من معهد الحقوق سنة ١٩٣٤ وبين وصولي إلى الحلة سنة ١٩٣٨ كانت فترة ركود في إنتاجي الكتابي ولا أستطيع أن أعد منها شيئاً يذكر .

وكان عهدي الجديد خصباً في هذا الانتاج افتتحته بمقال في وصف الرحلة من دمشق إلى بغداد ، وكان هذا أول مقال لي في أدب الرحلات الذي كنت مولعاً به مطالعة وطامحاً إلى الكتابة فيه ، ثم تتابعت بعده مقالات الرحلات التي كنت أقوم بها داخل العراق مما يؤلف جزءاً كبيراً في

كتاب رحلاتي الذي أصدرته بعد ذلك وسمّيته (من بلد إلى بلد) .

وكانت ثاني المقالات في وصف رحلة قمت بها مع الطلاب من الحلّة إلى سامراء .

وعدا القصيدة اللامية التي مرّ ذكرها نظمت قبلها قصيدة كانت من وحي أول عيد يمرّ علي وأنا بعيد عن الوطن والأهل ومنها :

أطل علينا كالح الوجه خابيا ... يثير شجوننا في الضمير سواجيا
أطل فلا القلب الطروب كعهده ... طروب ولا غرّ الليالي كما هيا
يهيم بحوراء اللحاظ ويجتلي ... على طلعة العيد الحسان الروانيا
لقد حال ذاك البشر غمّا وبدلت ... ضواحك نفسي في الحياة بواكيا
فلا العيد بساماً يهيج صبابتي ... ولا الحسن وضّاء يثير غراميا
تلفّت للعيد المطل فلم أجد ... على جنبات العيد إلاّ مآسيا
ورائي من الأشواق ثم مفاوز ... وبحر من الأشجان طام أماميا
تلفّت من شط الفرات فراعني ... على جنبات الشط ألا لا تلاقيا
لئن لذّ للوراد عذب فراتهم ... فإن فؤادي فيه ما زال ظاميا
يحن لماء البركتين ويشتهي ... مشارع في تلك الذرى ومساقيا
له الله خفاقا على غارب النوى ... يصارع أياماً ويشكو لياليا
لقد شفه بعد المزار وهاجه ... إلى شجرات الرند إن ليس دانيا
فيا شجرات الرند في سامق الذرى ... سقيت على البعد الغمام الغواديا
فما راقني بعد (الدواوير) مربع ... ولا اعتضت عن (وادي السلوقي) واديا
ولا شاقني من بعد (غرة) مبسم ... يشوق ولا هاج الغرام فؤاديا
سقى (الحومة) الخضراء صوب سحائب ... وروى هطول المزن ثم (الدغاليا)
مرابع يطلعن (السكوكم) أبيضاً ... ويزهين (بالدحنون) أحمر قانيا
نناجي مغانيها النضيرة لو وعت ... على منتأى الدار المشوق المناجيا
ونسأل عنها الركب هل كان زاهراً ... ربيع الحمى فيها وهل كان زاهيا

والدواوير ، ووادي السلوقي والحومة ، والدغالي : أماكن في شقرا ، والسكوكم والدحنون من أزاهيره البرية .

وللمقايسة بين هذا الانتاج الشعري في الحلّة وبينه بعد التخرج من معهد الحقوق يكفي أن تعلم أن آخر قصيدة كنت قد نظمتها كانت وداعاً للدروس عند التخرج ثم انقطعت بعدها عن الشعر إلى أن كانت القصيدة اللامية ـ ثم اليائية في الحلة .

وكذلك الحال في النثر . ولا يزال من أحب ما كتبته من النثر إلى نفسي ، قطعة عاطفية كتبتها في الحلّة عند سماعي في المذياع زجلاً لعلي الحاج مذاعاً من بيروت يقول فيه :

عطشان وقلبي محروق ... أسقيني من إبريقك ميّا

وقد ضممت هذه المقالة إلى كتاب (من بلد إلى بلد) ، وهي وإن لم تكن من أدب الرحلات ولكنها لصيقة به .

وصرت بعد ذلك لا يصدر جزء من أجزاء مجلة العرفان الشهرية إلا ولي فيه مقال ، أما في الأدب العربي أو في أدب الرحلات ، ومما نشرته فيها في تلك الفترة دراسات عن الشاعر ابن هاني الأندلسي ، وهي فيما أحسب أول دراسات تنشر عن هذا الشاعر المظلوم . وكذلك دراسات عن الشاعر ابن زيدون نشرت في بعض المجلات البيروتية .

وممن عرفتهم في الحلة متصرفها السيد سعد صالح ، وهو من رجال الأمة العربية المعدودين ، فقد نشأ عصامياً وكوّن نفسه بنفسه ، وكان يجمع الذكاء الوقاد والموهبة الأدبية والخطابية والحنكة السياسية والرأي الراجح والوطنية الصادقة . وكان كل ما فيه يؤهله للزعامة الشعبية النافذة . ولما احتيج إليه ليكون وزيراً للداخلية رفض قبول الوزارة ما لم تطلق حرية تشكيل الأحزاب فكان له ما أراد . ولما استقال من الوزارة وانصرف إلى المعارضة المنظمة كانت قد تهيأت له كل وسائل القيادة الشعبية الراسخة وأصبح ينظر إليه نظرة الزعيم الذي أخذت تتجمع حوله القلوب ، وبينما هو يخطو خطواته المتتابعة انقضّ عليه داء عضال بدأ يهدّه طيلة سنتين هدّاً بطيئاً ولكن متمكناً ، ولم تنجح في مقاومته علاجات العراق وأوروبا ، حتى انطفأ سراج سعد في غير أوانه ! فانطفأت بانطفائه شعلة مروؤات ونخوات وأريحيات وألمعيات .

ومن الطرائف في الحلة أن الحي الذي سكناه أنا وزميلان مصريان كان اسمه حي (التعيس) ، ولا أدري من هو هذا التعيس الذي أطلق الحليون لقبه على هذا الحي ، ولا ما هو نوع تعاسته ولا ما هي أسبابها .

ولو كنا ممن يتشاءمون من الأسماء والمناظر على الصورة التي يتهمون ابن الرومي بها لرفضنا أن يكون منزلنا في حي (التعيس) ، ولكننا لم نكن كذلك ورضينا بأن نقيم في المكان الذي كان يوماً مصدراً لتعاسة الناس .

وإنصافاً لهذا الحي فإننا نشهد أن التعاسة لم تطرقنا فيه ، بل كنا على الكثير من السعادة والبشر ، وهو الجو العام الذي كانت تضفيه علينا الحلة سواء من حيث جمالها الطبيعي الناضر ، أو من حيث أصالة أهلها في خلال الخير .

موت الملك غازي

ومن ذكريات الحلة أننا فوجئنا في صباح ٤ نيسان سنة ١٩٣٩ بنبأ مصرع الملك غازي مصرعاً مروعاً ، وكان لغازي حب في نفوس الناس وكانوا يعقدون عليه آمالاً كبيرة ، لذلك كان لموته في عنفوان شبابه صدى حزن عميق أثار الجماهير أي إثارة .

وبعد مرور ثلاثة أيام على وفاته أقيمت له في الحلة حفلة حافلة دعيت إلى الخطابة فيها ، فألقيت كلمة أنقلها هنا ليرى القارىء كيف كنّا نفكر في تلك الأيام . وقبيل وفاة غازي كانت الأضطرابات في سوريا قائمة على الفرنسيين ، وقد انتصر العراقيون لإخوانهم في بلاد الشام فعقدوا الاجتماعات وقدموا الإحتجاجات وأقاموا المظاهرات .

وكانت للملك غازي محطة إذاعة خاصة في قصره (قصر الزهور) كان يشرف عليها بنفسه وكانت صدى لكفاح السوريين تنشر أخبارهم وتثير هممهم . وفي يوم من الأيام ألقى منها أحد المدرسين السوريين خطاباً حماسياً أستصرخ فيه الملك غازي ، فكان يكرر في خطابه نداء : يا غازي . . . يا غازي . . . مستنصراً به على الفرنسيين ، مستنجداً به للسوريين . وفي اللحظة التي أنهى فيها الخطيب خطابه تعالى صوت في المذياع : لبيك . . . لبيك .

وكانت مواقف غازي الوطنية ومجاهرته بالعداء للإنكليز وللفرنسيين معاً ، هذه المجاهرة التي كانت تتجلى أكثر ما تتجلى في إذاعة (قصر الزهور) تحرج الحكومة العراقية وتثير غضب الإنكليز . لذلك شاع يومذاك أن موت غازي لم يكن طبيعياً وأن أمراً دبّر للتخلص منه .

وهذه هي كلمتي في حفلة تأبين الملك غازي :

إنني يا سادة باسم تلك العصبة من الفتيان النضر الذين يهوون تحت الرصاص في بلاد الشام أنحني أمام هول الفاجعة في العراق ، وأنني بإسم ذاك الدم الموار على سهول الغوطتين وفي محاني النيريين أخشع أمام دم الغازي .

وإنني من أعماق القلب أحيي هذا الجمع الكريم وأحيي هذه الأرض الطيبة وأشكر الظرف الذي ساقني إليها فتعرفت إلى هذه الوجوه النيرة والطلعات المشرقة .

بالأمس هب العراق يواسي الشام في فجيعتها ، وتدافع بنوه غضباً للظلم النازل بها ، فما أدري إن كان في موقفي هذا بعض المقابلة بالمثل .

ولكن كلّا يا سادة : فإن غازي لم يكن للعراق فحسب ، فابن الشام شريك ابن العراق في هذا المصاب ، وغازي قبل أن يكون ولي عهد العراق في حياة أبيه كان ولي عهد الشام . وفيصل قبل أن يكون ملك العراق كان ملك الشام ، فموقفي بينكم ليس إلا موقف المفجوع بمليكه لا موقف المعزّي لإخوانه .

إنكم لتسمعون تلك الصيحات النارية التي تدوي بها بطاح الشام ، وترون ذاك الصراع الدموي فوق ثرى بردى .

إنها صيحات الشعب الأنوف يأبى أن يمد يديه للأغلال ورجليه للأصفاد . إنها أصوات فتيان العرب الغطاريف يأنفون ذلة الاستعباد وعار الهوان ، قد أجمعوا أمرهم على الوثبة ، فإذا فاتتهم الحياة الشريفة فلن يفوتهم الموت الشريف .

لقد قيل قديماً :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

فإذا ما حدّثتكم حديث الجهاد فقد كابدتم هذا الجهاد وعانيتموه وبرزتم فيه ، فأخوانكم اليوم لا يزالون من حيث ابتدأوا يناضلون المستعمر بالدم والمال ، ولقد كان لهم من أبي الغازي ثم من الغازي بعده حصناً حصيناً وسنداً معيناً ، ولقد تعالى صياحهم بالأمس : واغزياه مستصرخين ، ثم تلفتوا فصاحوا : واغزياه . . . ولكن متفجعين ، فشتان بين الصيحتين ! . . .

يا فتيان العراق : إن أمتين كبيرتين هما اليوم حديث العالم ، كانتا حيناً من الدهر وكل واحدة منها قبائل وشعوب ، فهبت في إحداهما (بروسيا) وهبت في الثانية (بيدمنت) فقادت الأولى المانيا إلى وحدتها الجبارة ، وقادت الثانية إيطاليا .

وإننا نحن العرب الطامحين إلى مملكتنا الكبرى نتلفت إلى القطر العربي الذي يستطيع أن يمثل في العرب دور بروسيا في المانيا وبيدمنت في إيطاليا فلا نجده إلا في العراق .

لقد كانت سوريا تستطيع أن تكونه ، ولكن سوريا الشهيدة رماها الله بعدو جاهل ظل على حربها طوال عشرين عاماً حرباً لا تهدأ .

فسوريا لا تستطيع ذلك ما دامت وفي كل واد منها دم مطلول وثأر مطلوب .

فليس في الميدان اليوم إلا العراق . إن حدودكم ليست في قلب الصحراء على أبواب الرطبة ، إن حدودكم على ساحل البحر المتوسط ، وليس مرفأ بغداد هو البصرة : إن مرفأ بغداد هو بيروت وحيفا .

يا فتيان العراق : ليست المملكة المؤلفة من خمسة ملايين هي المملكة التي تروي الظمأ القومي وترضي الطموح الوطني ، بل هي المملكة التي تضم العشرة الملايين ثم عشرات الملايين ، هي المملكة التي تضم العراق وسوريا وفلسطين أولاً ، ثم البلاد العربية جميعاً ثانياً .

فهذه كانت أمنية فيصل وأمنية الغازي . وإذا كان فيصل الأول وشبل فيصل الأول قد ماتا قبل أن يرياها ، فإن فيصلاً الثاني سيراها إن شاء الله (انتهى الخطاب) .

تعيين الوصي

ولما كان ولي العهد فيصل قاصراً كان لا بد من تعيين وصي له يتولى شؤون الملك . وكانت أنظار الناس كلها متجهة إلى الأمير زيد عم غازي باعتباره أكبر رجل في الأسرة سناً وتجربة وقرابة ، ولكن فوجىء الناس بتعيين عبد الإلّه خال فيصل .

وقد تبين أن الأمر جرى على هذه الصورة : كان رئيس الوزراء يومذاك هو نوري السعيد وله بحكم منصبه وبحكم أشياء أخرى القول الفصل في هذا الموضوع وكان هواه مع عبد الإلّه لا حباً بعبد الإلّه ، بل لأنه كان يرى في الأمير زيد رجلاً متمرساً بالحياة لا يسلس القياد ، بينما يرى في عبد الإلّه شاباً غرّاً من السهل تطويعه ، ولنوري السعيد مطامعه في السيطرة على حكم العراق ، وهذه السيطرة لا تتم بوجود رجل قوي الشكيمة مجرب كالأمير زيد .

وقيل يومذاك أن لنوري السعيد تجاربه مع الأمير زيد أيام كانا يعملان معاً في دمشق بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .

ولما كان نوري السعيد لا يستطيع التظاهر بالانفراد في اختيار الوصي لذلك دعا رؤساء الوزراء السابقين وبعض من إليهم من غيرهم وطرح عليهم أمر اختيار الوصي ، فكان الجميع مع اختيار الأمير زيد ، ما عدا طه الهاشمي الذي اعترض بشدة على هذا الاختيار محتجّاً لذلك بأن الأمير زيداً أيام كان وزيراً مفوضاً في أنقرة أحب زوجة موظف تركي وبادلته الحب فسعى لتطليقها من زوجها وتزوجها ، فلا يجوز أن يكون الوصي على عرش العراق زوجاً لمثل هذه المرأة . . .

فاقتنص نوري السعيد هذا الرأي وأعلن ميله إليه ، ثم دعم رأيه بأن للملكة عالية أم فيصل رأيها الذي يجب احترامه في هذا الاختيار ، وأنها أبلغت إليه بأن غازي كان قد أسرّ إليها بأنه إذا طرأ عليه طارىء فإنه يختار عبد الإلّه للوصاية على فيصل .

وسواء أصح ما زعمه نوري السعيد من رأي غازي أم لا يصح ، فمن

الطبيعي أن يكون ميل الملكة عالية إلى أخيها أكثر من ميلها إلى عمّها ، فاجتمع رأي نوري ورأي عالية إلى حجة طه الهاشمي ، وأيقن الحاضرون بأن نوري مصمم على اختيار عبد الإله فكان أن طلبوا إلى نوري أن يبقى أمر آرائهم سراً لئلا يُغضبوا عبد الإله عليهم وكل منهم يطمح بالتقرب إلى من ستؤول إليه الوصاية على عرش العراق ، وبالرغم من أن نوري وعدهم بذلك فإن الأمر لم يبق سراً .

ومن تصاريف القدر العجيبة أن الأمر انتهى بين عبد الإله ونوري السعيد إلى التنافر والتخاصم، وصار لهذا جماعته ولهذا جماعته، حتى أن مرشحي السلطة للإنتخابات النيابية - حين يكون نوري رئيساً للوزراء - كانوا قسمين : مرشحي البلاط ، كما كانوا يسمونهم ومرشحي الحكومة .

كما أن الأمر انتهى بين طه الهاشمي وعبد الإله إلى الشر ، ويكفي أن نشير هنا إلى ما ذكره كامل الجادرجي في مذكراته عن الاجتماع الذي دعي إلى حضوره رؤساء الوزراء السابقون ورئيس الوزراء العامل مصطفى العمري مساء الثالث من تشرين سنة ١٩٥٢ والذي حضره أيضاً رؤساء الأحزاب المعارضة: طه الهاشمي رئيس الجبهة الشعبية، ومهدي كبّة رئيس حزب الاستقلال ، وكامل الجادرجي رئيس الحزب الوطني الديموقراطي .

قال كامل الجادرجي في الصفحة ٥٥١ من مذكراته :

« إجتمعت بطه الهاشمي ومهدي كبّة فاتفقنا على أن نكون مستمعين أكثر منا متكلمين وأن يقتصر بحثنا فيما إذا اضطررنا إلى الإجابة المسهبة على شرح المذكرات التي قدمناها » .

وبعد أن يستعرض الجادرجي أقوال الآخرين في الاجتماع المذكور يقول :

« وتكلمت أنا وشرحت وجهة نظر الحزب التي جاءت في المذكرة شرحاً مسهباً نوعاً ما كما مهدي كبّة . . . ثم تكلم طه الهاشمي فقال : من منكم أو منّا كان حراً في تأليف وزارته ؟ ومن منّا كان حراً في الكثير من أعماله ؟ . إن الحكم يجب أن يكون بعيداً عن الاستغلال ، ثم استدرك بقوله : إننا جميعاً لم نبتعد عن استغلال النفوذ فيجب أن ينتهي هذا الدور . . .

وكان قد تكرر خروج الأمير من الاجتماع وعودته إليه ، فلما عاد أخيراً إليه قال : كلكم تكذبون متى أنا تدخلت في أمور الدولة ؟ متى أبديتم النصح لي ولم أسمع ؟ . متى استغليت نفوذي ؟ .

ثم وجه الخطاب إلى طه الهاشمي قائلاً : أنت تتهمني باستغلال النفوذ . أنت كذّاب ، أنت استغليت ضعفي في الوثبة وكتبت في الجرائد ذلك المقال ضدي كان كله كذباً . أنت كذّاب . تقول أنه سيقع في العراق مثل ما وقع في مصر . أنا لا أخاف ذلك . أنا لا أهتم بهذه الأمور . . .

ثم دخل الأمير مع طه بمشاجرة حول أمور وقعت سنة ١٩٤١ فأنكرها طه فقال الأمير : ما أقوله هو الصحيح أنت تكذب . أنت كذّاب . . .

وقد أراد طه أن يترك القاعة - عندما بدأ الأمير بتوجيه الإهانات إليه - ولكن الأمير صرخ بوجهه قائلاً : إجلس إجلس . . . لا تخرج . . . تحمل ما سأقوله لك ، فأطاع الهاشمي الأمير طاعة عسكرية وجلس » .

وكذلك فإن الملكة عالية نفسها بدت وكأنها نادمة على ما ورطت به أخاها في وصاية العرش بعد أن ساءت الحالة العراقية وما عرض لعبد الإله من مشاكل ومتاعب واتهامات ونقمة لا سيما بعد الحركة التي عرفت بحركة رشيد عالي الكيلاني واضطرار عبد الإله إلى اللجوء إلى قاعدة الحبانية وانتقاله بعد ذلك إلى الأردن ، ثم عودته إلى بغداد إثر فشل الحركة ، وما بدا به من أنه عاد في ظل الجيش الإنكليزي . ثم ما توالى بعد ذلك من انتفاضات شعبية لم تهدأ ، مما جعل عبد الإله وكأنه المسؤول عن كل ذلك .

وكانت عميدة معهدنا (أمت السعيد) على صلة وثيقة بالملكة عالية وبعبد الإله وبقية الأميرات إذ أنه كان قد عهد إليها بتعليمهم والإشراف على تربيتهم أيام طفولتهم فظلت لصيقة بهم بعد ذلك تقضي أوقاتاً كثيرة في مجالسة الملكة عالية والأمير عبد الإله .

وكنت موضع ثقة العميدة واعتمادها في المعهد ، فكانت تحدثني في جلسات خاصة عن كثير من شؤون الأسرة المالكة . ومما قصته عليّ : أن الملكة عالية كانت تتألم لأخيها موقعة اللوم على نفسها بأنها كانت السبب في تحمله مسؤولية الوصاية وما جرّته عليه .

ومما حدثتني به العميدة: أن عبد الإله كان شديد التألم من مواقف عمه الأمير ثم الملك عبد الله ، وأنه كان يقول : أن عمّي يورطنا في تصرفاته فيتصرف هو ونحمل نحن جميعاً تبعة تصرفاته ، وأن عبد الإله كان أحياناً يضرب جبهته بيده غيظاً من عمه عبد الله ويصرخ مستنكراً ، ولكنه يكتم ذلك عن الناس .

وكان سبب خلاف عبد الإله مع نوري السعيد ، إنكاره على نوري الاستسلام الكامل للإنكليز ، وعندما كان يهم باقصاء نوري - وقد أقصاه في بعض الحالات - كان الإنكليز يفرضونه عليه فرضاً .

وأذكر أنه عندما دخلت الجيوش العربية فلسطين سنة ١٩٤٨ كان الملك فيصل مع والدته في لندن يتابع دراسته ، وكانت ترافقهم هناك العميدة أمت السعيد ، وكانت تراسلني من لندن إلى بغداد ، ومما فهمته من رسائلها أن عالية كانت مغتبطة كل الاغتباط من حماسة أخيها عبد الإله لدخول الجيش العراقي إلى فلسطين ومن خطابه في قطعات الجيش العراقي الزاحفة خطاباً عاطفياً حماسياً مؤثراً .

كما كانت مغتبطة من قبل من ذهاب أخيها إلى القاهرة ومساهمته في إقناع المصريين في المشاركة في الحرب مساهمة كانت فعالة ، بما في ذلك من تضحية شخصية منه بلقاء الحاج أمين الحسيني في حين أن عبد الإله يعتقد - عن صواب - أن مصائبه في اضطراره للجوء إلى قاعدة الحبانية ثم الذهاب إلى الأردن ، ثم الظهور في العودة إلى بغداد كمن هو عائد بفضل الحراب البريطانية ، إن مصائبه هذه كان سببها الرئيسي الحاج أمين .

وكان اغتباط الملكة عالية بمواقف أخيها هذه يرجع إلى أنها ستكون عاملاً في تقريبه من الشعب .

وقد كتبت إليّ العميدة أمت السعيد فيما كتبت من لندن أن أبعث

إليها بقصاصات من الصحف التي تتحدث عن مواقف عبد الإله لا سيما الصحف غير العراقية ، كما سألتني في بعض رسائلها أن أكتب لها عما أتصوره عن موقف الرأي العام العربي من عبد الإله في هذه الظروف .

ولم أكن أشك في أن كل ما كتبته العميدة كان بطلب من الملكة عالية ، وأن الملكة كانت تطلع على رسائلها لي وعلى أجوبتي لها .

ولعدم شكّي بذلك كنت أتعمد مصارحتها بالحقائق ، فكان في بعض ما كتبت إليها : أن مواقف الأمير تلقى صدى حسناً ولكن ليس من السهولة ولا بهذه السرعة يمكن أن يزول من النفوس ما كان عالقاً بها - سواء بالحق أو بالباطل - من تأثير الدعايات القوية المؤثرة . وأن ثقة الناس واكتساب حبهم وعطفهم تحتاج إلى أعمال بطولية متتابعة . . .

وكان من حسن حظ الملكة عالية أنها ماتت قبل أن تشهد ما حل بابنها وأخيها بعد ذلك .

استطراد لا بد منه

وما دمنا في الحديث عن حرب سنة ١٩٤٨ ودخول الجيوش العربية إلى فلسطين فلا بد من إشارة موجزة إلى بعض الأضاليل التي نشرت فانتشرت عن تلك الحرب والتي تريك أن التاريخ زيف في زيف وأن الناس كتبوه حسب أهوائهم ، ويكتبونه الآن حسب أهوائهم وسيظلون يكتبونه حسب أهوائهم . . .

وأنه إذا قيل من قبل أن التاريخ يكتبه المنتصرون ، فإننا نستطيع أن نقول اليوم بأن التاريخ يكتبه لا المنتصرون فحسب . بل يكتبه الأبرع في الادعاء والأقوى في البث والأنشط في النشر والأوسع حيلة في التضليل والأمهر في الاستهواء .

لقد كتب يومذاك عن موقف الجيش العراقي ما كتب من الشر المريع واتهم قادته بما اتهموا به ، وانتشرت كلمة (ماكو أوامر) التي نسبت إلى أولئك القادة زاعماً من اخترعها أن القادة العراقيين كانوا يجيبون بها من يطلب اليهم التقدم .

إن ما فعله الجيش العراقي وما أُنكر على ذلك الجيش ما فعله ، وما أشاعه المشيعون عنه ، وما سجّله المسجلون وأذاعه المذيعون وكتبه الكاتبون مما لا يزال منتشراً بين الناس حتى اليوم وسيظل هو الحقيقة بين الناس حتى آخر يوم .

أن هذا وحده هو الدليل على زيف كل ما كتبته كتب التاريخ عند من عرفوا حقائق ما جرى للجيش العراقي في ذلك الوقت .

وقد كنت بحكم اتصالي الوثيق بالسفارة اللبنانية يومذاك - إذ كان سفيرها المناضل الوطني والمفكر العربي كاظم الصلح - مطلعاً على كثير من الحقائق والمفاوضات ، وإني لآسف كل الأسف إني لم أسجل في تلك الفترة الأحداث اليومية حدثاً حدثاً . ولم أكتب وقائعها واقعة واقعة ، وبذلك ضاع كثير من الأمور التي لو سجلت يومها لكان فيها جلاء ما لم يجل من الحقائق ونقض ما برز من الأضاليل .

وقبل الدخول في هذا الموضوع لا بد لي من الإشارة العابرة إلى موضوع آخر هو وثيق الصلة بموضوعنا ، وهو الحقيقة في تحول مصر من الابتعاد عن العروبة إلى الاقتراب منها ثم الدخول في صميمها والمشاركة في حروبها ، فقد تجوهل الرجال الذين حققوا ذلك ونسي مدونوا التاريخ ما فعله أولئك الرجال . لأن التدوين كان في أيدي من يكرهونهم ويريدون الغض منهم . . .

ومن حقي هنا أن أقول إني لم أكن أحب أكثر أولئك الرجال ، وإني كنت في عواطفي من خصومهم ، لا لشيء سوى إنكاري عليهم تصرفاتهم الأخرى ، ولقد سرني سقوط من سقط منهم .

ولكن ذلك لا يمكن أن يحولني عن تسجيل ما لهم من فضل وحفظ ما لهم من حق . وإذا كنت قد عاديتهم في الحق ، فإني أنصفهم في الحق . . .

فأنا مثلاً كنت ولا أزال معجباً (بالوفد) ورئيسه مصطفى النحاس ، مقدراً كل التقدير لنضاله الوطني وقيادته الشعب المصري في الحرب على الإنكليز وعلى استبداد الملك فاروق .

فأنا وفدي متحمس للوفد مناضل عنه في حين أن لا صلة عملية لي بنجاحه أو فشله ، ولا صلة شخصية بأحد من رجاله . ولكن متابعتي لمسيرة الوفد ورئيسه مصطفى النحاس جعلتني (وفدياً) وأنا في لبنان ككل الوفديين في مصر .

وبهذه الروح وحدها ، وبهذا الخط وحده أنصفت وسأظل أنصف أعداء الوفد الألداء فيما فعلوه من خير .

فأنا أكره علي ماهر ، وهذا الكره متسبب عن عدائه للوفد ورئيسه مصطفى النحاس ودسه الدسائس عليه ، ولما كان هذا هو مصدر الكره ، فإذا فعل علي ماهر فعلاً حسناً فإني أسجله له وأحييه من أجله .

وكذلك الملك فاروق ، ولكن هذا لا يمنعني من أن أنصف فاروقاً حيث يجب إنصافه .

لقد نسب الناسبون إلى من نسبوا إدخال مصر في الحظيرة العربية ومشاركتها في معارك العرب وإعلانها أنها جزء من الأمة العربية ، ومع أن فضل هؤلاء في هذا الموضوع لا ينكر أبداً بل هو موضع تقدير كبير ، فإن من الحق أن نقول أنهم ليسوا هم من فعل ذلك ، بل جاءواهم ووجدوا مصر في قلب الأمة العربية وفي صميم معاركها ، فاستمروا في هذ المسار وأكسبوه كثيراً من البريق .

إن أول من تبنى قضية فلسطين من المصريين واعتبرها جزءاً من همه وموضوعاً أصيلاً من مواضيعه الكفاحية هو مصطفى النحاس عندما كان رئيساً للوزارة المصرية سنة ١٩٣٧ . وكانت مصر قد عقدت معاهدتها مع بريطانيا ودخلت عصبة الأمم ، فأوعز النحاس لمندوب مصر في العصبة أن يتبنى قضية فلسطين في جلسات العصبة ويدافع عنها .

ولأجل أن نقايس بين موقف مصطفى النحاس وبين وقف من جاءوا بعده يكفي أن نقول أنه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أخذ الإنكليز يصفّون مخلفات الحرب ويتخلصون منها ببيعها بأبخس الأثمان . وكان من ذلك فرقة مدرعات كاملة عرضوا على إسماعيل صدقي رئيس الوزارة المصرية يومذاك

أن تشتريها الحكومة المصرية . وكان من أسموا أنفسهم (السعديين) مشاركين في تلك الوزارة وكان رئيسهم محمود فهمي النقراشي عضواً فيها ، فرفض إسماعيل صدقي هذا الطلب ، وقال لماذا نشتري فرقة مدرعات فنحن لن نحارب أحداً . قال هذا لأن فلسطين لم تكن في ذهنه أبداً .

وهكذا ضاعت الصفقة البخسة الثمن من العرب لأن إسماعيل صدقي وحكومته لا يرون لهم علاقة بفلسطين . ويقدّر بعض العسكريين العرب ما كان يمكن أن يكون لهذه الفرقة المدرعة من نتائج حاسمة لو أنها دخلت مع الجيش المصري في معاركه في فلسطين مع اليهود .

هكذا كانت نظرة بعض المصريين والحكم المصري لفلسطين ، وهكذا رأوا أن الجيش المصري لا يحتاج إلى فرقة مدرعات بخسة الثمن لأنه لن يحارب أحداً .

ولكن النحاس كان يرى عكس ذلك في تبنيه قضية فلسطين .

وإذا كانت خطوة النحاس هي الخطوة الأولى ، فقد خطت مصر في عهد الحكم المسيطر عليه فاروق الخطوة الكبرى نحو عروبة مصر واعتبار شعب مصر جزءاً من الأمة العربية التي تعتبر قضية فلسطين قضيتها .

ففي أوائل سنة ١٩٣٩ وقد بدت طلائع الحرب العالمية الثانية وبدا أن لا بد من وقوعها ، أراد الإنكليز أن لا يدخلوا تلك الحرب ، وهم في عداء مستحكم مع العرب ، بسبب قضية فلسطين ، فدعوا إلى مؤتمر في لندن يتمثل فيه جميع العرب ليكون الحل - إذا وقع الحل - حلاً عربياً جماعياً .

ولما كان النحاس قد أدخل قضية فلسطين في صلب القضايا المصرية وأصبحت مصر من العرب المسؤولين عنها ، فقد دعيت مصر إلى حضور هذا المؤتمر مثلما دعيت كل الحكومات العربية . وكان فاروق هو المسيطر على الحكم المصري في تلك الفترة ، وقد كانت هذه السيطرة تتم له حين يستطيع إقصاء الوفد عن الحكم والاتيان بوزارة منتمية إلى (أحزاب الأقلية) كما كان يعبر عنها يومذاك وهي حزب الأحرار الدستوريين وحزب السعديين ومن إليهم التي تصل إلى الحكم بإرادة فاروق بعد تزوير الإنتخابات والتلاعب بإرادة الشعب .

ولكي يبدي فاروق إهتمامه بهذا المؤتمر وتبنيه له انتدب له فيمن انتدب اثنين ينتميان إليه شخصياً ويمثلانه هو بالذات أكثر مما يمثلان الحكومة ، وهما الأمير محمد عبد المنعم أحد أمراء العائلة المالكة وابن الخديوي السابق عباس حلمي وجعله رئيساً للوفد ، وكان سبب اختياره له أن وفدين عربيين آخرين هما الوفد اليمني والوفد السعودي كان يرئس كلاً منهما أمير من أمراء العائلة المالكة فأراد أن يبزهما في تبني القضية الفلسطينية وأن يدل بأنها من اهتمام أسرته المالكة بالذات .

والرجل الثاني الذي اختاره هو رئيس الديوان الملكي علي ماهر ، وبذلك كان حضور فاروق الشخصي في الوفد حضوراً بارزاً .

وإذا كان الأمير محمد عبد المنعم هو رئيس الوفد فإن المحرك الفعلي له هو علي ماهر ، وقد كانت مواقف علي ماهر في إدارة الوفد مواقف عربية أصيلة بارعة .

ومن مواقفه يومذاك أن الإنكليز عرضوا على العرب أن يسمحوا بدخول ٧٥ ألف يهودي إلى فلسطين خلال خمس سنوات وبعد ذلك تمنع الهجرة .

وكانت قضية هجرة اليهود إلى فلسطين هي أهم شيء في نظر العرب ، فرفض الوفد الفلسطيني هذا العرض بشدة فسايرته الوفود العربية كلها في هذا الرفض ، والوحيد الذي قبل العرض ولم يساير الوفد الفلسطيني كان علي ماهر ، وأدى الأمر إلى حصول تشاد بينه وبين الوفود العربية ، ولكنه ما زال بهم حتى وافقوه .

ويقول علي ماهر فيما تحدث به بعد فشل المؤتمر وانفضاضه : « كنت أريد أخذ إمضاء بريطانيا على صك رسمي يحدد الهجرة ويغلق أبواب فلسطين ، ولا خوف بعد ذلك على البلاد . . فلما قلنا للإنكليز أننا نوافق على اقتراحكم ونقبل هجرة العدد الذي تطلبونه ، إذا بهم ينكلون ويعلنون فض المؤتمر ، وبذلك صحت نظريتي في الانكليز » .

والحقيقة أن الإنكليز كانوا يريدون أن ينسبوا فشل المؤتمر إلى العرب فعرضوا الاقتراح المذكور لاعتقادهم أن الوفد الفلسطيني سيرفضه وستسايره الوفود العربية ، وهذا ما حصل ، ولكن علي ماهر أفسد خطتهم ، وأظهر أنهم هم الذين لا يريدون حل قضية فلسطين إلا وفق ما يريد اليهود .

أما الخطوة الكبرى نحو تعريب مصر وإبرازها عربية صريحة ، واعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية فهي الخطوة التي خطاها مصطفى النحاس يوم كان رئيساً للوزراء سنة ١٩٤٣ . فدعا الحكومات العربية إلى ما أسماه (مفاوضات الوحدة العربية) ، وهي أول مرة ينطق بها مصري بهذه الجملة (الوحدة العربية) باعتبار مصر جزءاً من تلك الوحدة .

نطق بها النحاس لا في مجلس خاص ولا في تصريحات عابرة ، بل نطق بها باعتباره رئيساً للوزارة المصرية ، وكان نطقه بها في مجلس ممثل للشعب المصري .

ففي ٣٠ اذار سنة ١٩٤٣ ألقى صبري أبو علم وزير العدل المصري في مجلس الشيوخ باسم مصطفى النحاس بياناً رسمياً قال فيه وهو يتحدث عن دعوة الحكومات العربية للمفاوضات : « . . . وانتهيت من دراستي إلى أنه يحسن بالحكومة المصرية أن تبادر باتخاذ خطوات رسمية في هذا السبيل فتبدأ باستطلاع آراء الحكومات العربية المختلفة فيما ترى من آمال ، كل على حدتها . ثم تبذل جهودها للتوفيق والتقريب بين آرائها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، ثم تدعوهم بعد ذلك إلى مصر معاً في اجتماع ودي لهذا لغرض حتى يبدأ المسعى للوحدة العربية . . . » .

ومن الطريف في هذا الموضوع أن النحاس في بيانه هذا وهو يدعو للوحدة العربية ، سمى العرب : (الأمم العربية) . إذ ختم بيانه بقوله : « وإني أسأل الله أن يلهم السداد قادة الأمم العربية . . . » .

وذلك من رواسب الماضي الذي كان يعتبر العرب أمماً لا شعوباً يجمعها جميعاً إسم (الأمة العربية) . ويبدو أنه وُجد من نبه إلى هذا الأمر فقد زالت بعد ذلك كلمة : (الأمم العربية) وحلّت محلها كلمة (الشعوب العربية) .

ومما يجب ذكره أن النحاس اعتبر فلسطين كواحدة من الدول العربية ،

فدعا مندوباً عنها للمشاورة والمذاكرة كـأي مندوب لأي دولـة عربيـة . وقد جرى هذا لأول مرة .

وإذا كان الأمر قد انتهى بعد ذلك إلى قيام الجامعة العربية لا (الوحدة العربية) ، فذلك لعوامل من أهمها العامل اللبناني .

ولكن يكفي النحاس أنه أقام الجامعة العربية التي كانت بـرغم عيوبهـا المظهر البارز لأمة عربية واحدة منها مصر .

أما إدخال مصر في صميم العمـل العربي الـواحد إلى حـدّ إراقة الـدم المصري إلى جـانب الدمـاء العربيـة الأخرى المـراقة في سبيـل هدف واحـد وقضية واحدة فقد كان العامل فيه هو الملك فاروق .

أقول هذا ، وأنا من أشد الناس مقتاً لفاروق ، ومن أكثرهم استبشـاراً بزوال عرشـه ، ولكني كما مقتـه في الحق فإن الحق وحـده هو الـذي يحملني على إنصافه حيث يجب الانصاف .

وذلك أنه عندما قرر العرب دخـول جيوشهم إلى فلسـطين سنة ١٩٤٨ أعلن النقـراشي رئيس الوزارة المصريـة أن مصر لا شأن لهـا بـذلـك ، وأن أقصى مـا يمكن أن تفعله هو أن تـرسل قـطعـة من جيشهـا إلى الحـدود مـع فلسطين كنوع من المظاهر التأييدية المعنويـة لا أكثر من ذلـك . وفي خريف سنة ١٩٤٧ ، وخلال دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة بدا الاتجـاه نحو تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهوديـة فيها ، فكـان على العـرب أن يعملوا في ميدانين : ميدان هيئة الأمم المتحدة لمنع اتخاذ قرار بالتقسيم ، وهذه المهمـة كانت موكولة إلى وفود الدول العربية وما يقومون به من اتصالات مع وفـود الـدول المختلفـة أعضـاء الهيئة[1] . أمـا الميـدان الثـاني فهـو ميـدان القـوة العسكـريـة في حـال إقـرار التقسيم ، أي أن يحـال بـالحـرب دون تحقيق التقسيم وقيام دولة اليهود ولدرس الوسائل المؤدية إلى إحراز القوة العسكرية المطلوبة دعي مجلس جامعة الدول العربية إلى عقد دورة لبحث الأوضـاع السياسيـة وشتى نواحي القضية الفلسطينية ومناقشات الجمعيـة العامـة للأمم المتحـدة بشأنها ، وبصورة خاصة لدراسة موضوع الدفاع عن فلسطين .

وانعقـد مجلس الجامعـة في ٧ تشرين الأول ١٩٤٧ في عـاليـه بلبنـان ، وحضرتـه وفود عن جميع الدول العـربيـة عـلى أعـلى المستـويـات فيهم عـدد من رؤساء الوزارات ووزراء الخارجية والدفاع .

وعندما تنـاول المجلس بالبحث مـوضوع الـدفاع عن فلسـطين تحمس عدد من أعضاء الوفود لا سيـما صالـح جبر رئيس الـوزارة العراقيـة ورئيس الـوفد العـراقي ونادوا بـوجوب تـدخل الجيـوش العربيـة النـظاميـة لانقـاذ فلسـطين . وفي غمـرة الحـماسـة التي ســادت المجلس وقف محمـود فهمي النقراشي رئيس وزراء مصر ورئيس وفدها إلى الجامعة حينذاك وقال مخاطبـاً المجلس :

« أرجو من الإخوان الإتّزان والتفكير السليم وأن لا يقـرروا اليوم أمـراً لا يستـطيعون تنفيـذه غداً . إني أرجـو من حضرات المجتمعين وبصـورة خـاصـة من أعضـاء وفد فلسطين أن يعلموا بأن مصر لن تتدخل عسكرياً في فلسطين ولن تخوض غمار حـرب دفاعـاً عنها ، ولكنهـا مستعدة أن تسـاهـم مع سـائر الـدول العربيـة في عملية جـدية ومعقـولة للدفـاع عن فلسطين وإنقـاذها . أقـول هذا بصراحة وصدق لكي لا ينخدع أحد بمظاهـر الحماسـة التي انطلقت في هذا المجلس » .

وظل هذا رأي النقراشي وحكومته .

ثم تـوافد بعض قـادة العرب إلى مصر للتـداول مع حكـومتها في هـذا الأمر ، فكان أن حسم الملك فاروق الموضوع بأن أرغم النقراشي وحكومتـه على تبديل موقفهما ، وكما قلنا من قبل فإن حكومات (أحزاب الأقلية) كان فاروق هو الـذي يفرضهـا على الشعب ، وكـان هو المـوجه والحـاكم الفعلي فيها ، فلم يسع النقراشي وحكومته إلا الخضوع لأوامر فاروق .

(١) يحسن هنا أن نشير إلى موقف السعوديين في هذا الموضوع : يـروي فارس ا لخوري الذي كان مندوب سـوريا في هيئة الأمم المتحدة عنـدما عـرضت قضية فلسـطين على الهيئة، وكانت أمريكا تحمل لـواء الدعـوة إلى تقسيم فلسطين وقيام دولة اليهـود، وكان العـرب يناضلون لمنع ذلك ـ يروي فارس الخوري في مذكراته أنه حـين كان يحـاول إقناع رؤسـاء وفود الدول بتأييد حق العرب في فلسطين ومنع التقسيم ـ قال له مندوب كـولومبيا : لماذا تسـألوننـا الوقـوف إلى جانبكم وقضيتكم في يـدكم . إن هذا الـرجل وحـده، وأشـار إلى فيصل بن عبد العـزيز السعـودي لو ذهب إلى البيت الأبيض وهـدّد بقطع البـترول وكان جاداً في تهديده لانقلبت سياسة أمريكا رأساً عـلى عقب ولوقفت منكم محـايدة إذا لم تقف مؤيدة . إن القضية في أيديكم وحدكم وأنتم تدركون هذه الحقيقة فلماذا تتجاهلونها ؟!

ويستطرد فارس الخوري فيقول بـأنه اجتمـع أكثر من مـرة بالأمـير فيصل بن عبـد العزيـز رئيس وفد بلاده لدى الأمم المتحدة وقال له أرجوك أن تكتب إلى والدك برجائنا وإلحاحنا بقطع البترول عن أمريكا، والأفضل لو يقطعه فعلاً مع التهديد بعـدم إعادة ضخّـه ما لم تصن الحقوق العربية صيانة كاملة في فلسـطين . وأنه أكـد للأمـير فيصل أن هـذا العمل سوف يساعد إلى حد كبير في جعل الأمريكان يفكرون ألف مرة ويترددون قبل أن يقـدموا على عمل فيه إجحاف بحقوق عرب فلسطين .

ويقـول فارس الخـوري أنه التقى بعـد أيام بفيصـل وسألـه عن جواب والـده على ذلـك الاقتراح فأرسل يديه في الهواء علامة اليأس .

وينهي فارس الخورق كلامه بقوله : فكان أن خسرنا قضية فلسطين (فارس الخوري وأيام لا تنسى ، الصفحة ٣٠٥) .

وقد كانت هذه مواقف السعوديين في كـل أدوار ثورت فلسـطين وأحداثهـا ، فمما يـرويه المناضل الفلسطيني أكرم زعيتر في يومياته عن ثورة فلسطين سـنة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ أنه بلغ من تنكر عبد العزيز بن السعود لفلسطين وثوارها أن منع جريدته (أم القـرى) التي تصدر في مكة حتى من مجرد ذكر أخبار الثورة وأخبار رجـالها فقـد قال أكـرم زعيتر في الصفحـة ٤٢٦ من كتابه ما نصه :

« أتابع منذ مدة جريدة أم القرى التي تصدر في المملكة السعوديـة . وقد اشتهيت أن أقـرأ =

= فيها كلمة واحدة عن فلسطين وثورتها . وكنت قـد أشرت إلى هذا بـاستغراب في جـريدة العمل القومي ، ولفت نظر الأستاذ محمد علي صاحب الشورى المقروءة في البـلاد العربيـة إلى هذا ، فكتب في (شوراه) عدة مرات .

«وكتبت في العمل القومي تحت عنوان (جائزة) كلمة أنهيتها بقولي : اني أقـدم جائـزة هي اشـتراك سنة في هـذه الصحيفة أو في أي صحيفة أخـرى لمن يكتشف كلمة فلسـطين في جريدة أم القرى .

«واليوم قرأت في العدد ١٤٥٦ من جريدة النهار (بيروت) المؤرخ في ١١ آب ١٩٣٨ مقالاً افتتاحياً بقلم صاحبها الأستاذ جبران التويني ، حياه الله جعـل عنوانـه : (بعد زيـارة وزير المستعمرات لفلسطين ، أم القرى تنشر أخبار الحرب في إسبانيـا والصين ولكنهـا لا تنشر حرفاً واحداً عن مآسي فلسطين) .

«وقـد ختم الأستاذ التـويني مقالـه بقولـه : أمامنـا العدد الأخـير من أم القرى وقـد ملئت صفحاته الثمان بأخبار نجد والحجاز وأخبار الحرب في الصين والحـرب في اسبانيـا ، وليس فيه كلمة واحـدة عن المآسي التي تقع في فلسطين ، أفـلا تستحق فلسطين العـربية في نـظر أم القرى أن تذكر حوادثها على الأقـل كما تـذكر حـوادث اسبانيـا والصين ، ومـاذا يقول الناس عندما يشهدون هذا الإهمال الفاضح لعرب فلسطين في جـريدة تصـدر في معهد العروبة ؟» .

وصرح فاروق تصريحاً قوياً في هذا الشأن ، وكان مما قاله ما معناه : أن موقفنا من دول العالم سيكون حسب موقف كل منها من قضيتنا وحربنا .

وكان تصريحه هذا ـ ويؤسفني أني لا أحتفظ بنسخة من نصه ـ يبرزه ملكاً عربياً كأعرق الناس في العروبة وأشدهم التزاماً بكل أمر من أمورها حتى دخول الحرب من أجل ذلك .

ومن المؤسف أن موقف فاروق هذا استغل بعد ذلك لمحاربة سمعته أبشع استغلال فنسب إليه ما سموه بقضية (الأسلحة الفاسدة) وزعمو أنه هو الذي دبّر أمرها واشتراها مع علمه بفسادها جنياً للمال . وصدقهم الناس وتداولتها صحافتهم ومجالسهم في كل مكان ، ونسي هؤلاء الباحثون أن أمجاد الجيش المصري حين يحقق أمجاداً بانتصاراته هي أمجاد لفاروق قبل أن تكون أمجاداً لغيره ، وأن محن ذلك الجيش هي محن لفاروق . وأن أمجاداً كهذه الأمجاد لا يبيعها فاروق ولا غير فاروق ممن هو في منزلته أو دون منزلته بحفنة من الجنيهات ، وأن تلك المحن لا يشتريها أي إنسان لنفسه مهما كان شأنه .

هكذا يكتب التاريخ لا سيما تاريخ العرب والإسلام في كل زمان ! . . .

أقول هذا ، ويعلم الله أنني من أشد الناس مقتاً لفاروق ـ كما كررت القول ـ ومن أكثرهم استبشاراً بسقوط عرشه ، ولكن الحق فوق كل شيء فإذا مقتنا فاروق لسيئاته ، فعلينا أن لا ننكر حسناته .

ومن مواقف فاروق العربية التي تذكر له تدبيره لجوء عبد الكريم الخطابي بطل ثورة المغرب على الإسبان ، تدبير لجوئه إلى مصر . وقد روى محمد علي الطاهر قصة هذا اللجوء لإحدى الصحف بما نلخصه فيما يلي :

عزمت فرنسا سنة ١٩٤٧ على نقل الأمير عبد الكريم وأسرته من منفاهم في جزيرة (رونيون) في المحيط الهادي إلى جنوب فرنسا . يقول الطاهر : في ذات يوم أظنه ٢٣ أيار (مايو) سنة ١٩٤٧ تلقيت برقية من صديق لي في عدن هو السيد حسين الأهدل يقول فيها : أن الأمير عبد الكريم الخطابي أبحر من عدن إلى فرنسا في باخرة ذكر اسمها ، فتأملت تلك البرقية وأخذت أتصور صوراً شتى لغرض صديقنا من إرسالها . . .

ثم يقول الطاهر : كلفت أحد أصدقائي وهو يشتغل في القصر الملكي كاتباً عند رئيس الديون ، بأن يستفهم من هنا وهناك أين يسهر الملك فاروق في ذلك المساء ومتى يعود ، وفي أي قصر ينام في تلك الليلة ، فعاد وهو يقول أن الملك سيسهر كعادته في (مربع الأوبرج) ويغادره حوالي الثانية صباحاً إلى قصر القبة . .

وفي منتصف الليل أبرقت إلى الملك فاروق بقصر القبّة أقول له أن الأمير عبد الكريم الخطابي مجاهد الريف العظيم وأسير فرنسا سيمر بقناة السويس في الباخرة (كاتومبا) يوم ٣٠ أيار ١٩٤٧ . ثم ناشدت الملك فاروق أن ينقذ الأمير وأسرته من الأسر ، وأن ينزله في كنفه .

ويسترسل الطاهر قائلاً :

وفي صباح اليوم التالي طلبت من صديقي أن يذهب إلى مدير قصر القبّة ويستفهم منه عن مصير البرقية . وبعد ساعات عاد وهو يقول أن الملك فاروق وصل بعد الثانية صباحاً فوجد رئيس الحرس ينتظره ، فسلمه البرقية . وأن فاروق قال : ابعثوا إلى رئيس الوزراء ورئيس الديوان الملكي بأن يحضرا قبل الظهر لمقابلتي .

ويكمل الطاهر حديثه : أترك الكلام عما جرى بعد ذلك للوزير كريم ثابت المستشار الصحافي للملك فاروق لأنه كان يعيش في صميم القصر . وكانت حكومة الثورة قد سجنت كريم ثابت بعد ترحيل فاروق فخطر لها أن تستفيد من معلومات كريم ثابت عن أمور الملك الداخلية فطلبت منه أن يدوّن لها أهم ما كان من ذلك التاريخ ، فكتب ذكرياته فنشروها في جريدة الجمهورية تباعاً . وقد قال عن قضية الأمير عبد الكريم في العدد الصادر في ٢ أيار (مايو) ١٩٥٦ ما نصّه :

. . . . فلولا برقية تلقاها الملك فاروق لما عرف أن عبد الكريم سيمر بمصر إلا بعد مروره بها ، أو لما خطر له أن يقدم على ما أقدم عليه . فقد أبلغه مرسل البرقية أن عبد الكريم بطل المغرب سيمر بالسويس يوم كذا في الباخرة كذا في طريقه من منفاه إلى فرنسا واستحلفه باسم العروبة والجهاد في سبيل الله أن يعمل على إنقاذه وإنزاله في مصر واستضافته فيها ليعيش هو وأهله تحت حماية مصر وضيافته .

وكذلك عرفت البرقية الملك فاروق بالنبأ والخطة التي تتبع لإنقاذه في آن واحد ، فأعجبته الفكرة وقرر تنفيذها فوراً ، فدعا إليه الأميرالاي محمد حلمي حسين وأمره أن يقابل الأمير عبد الكريم سراً عند وصول باخرته إلى ميناء السويس ، ويبلغه أنه أوفده إليه ليقترح عليه الالتجاء إلى مصر والاحتماء بملكها .

واتصل حلمي بك بالقصر الملكي تلفونياً من السويس وأبلغه أنه اجتمع بعبد الكريم وكاشفه بموضوع مهمته خلسة فوعده بالتفكير فيه والرد عليه عند وصول الباخرة إلى بور سعيد .

وفي بور سعيد صعد الأميرالاي حلمي حسين بك إلى الباخرة مرة أخرى ـ وكان قد سبقها بالقطار ـ ليقف على رأي الأمير الخطابي ، فقال له الأمير أن رأيه استقر على قبول دعوة الملك مع الشكر والامتنان . وعند ذلك لقنه حلمي بك تفاصيل التمثيلية التي مثلت بعد ذلك لكي تستطيع السلطات المصرية أن تقول أن عبد الكريم وشقيقه الأمير محمد وضعاها أمام الأمر الواقع بالتجائهما للملك (انتهى) . .

ومن الظلم الفاحش ما جرى على من بقي ممن شاركوا فاروق في مسؤولية إدخال مصر في تلك الحرب ومنهم إبراهيم عبد الهادي الذي أعقب النقراشي في رئاسة الوزارة المصرية .

كانت أولى التهم الموجهة إلى إبراهيم عبد الهادي بهذا النص :

« أتى أعمالاً تعتبر خيانة للوطن وضد سلامته في الداخل وساعدت على تمكين الاستعمار بالبلاد ، وذلك أنه خلال سنة ١٩٤٨ أثناء تولّيه رئاسة ديوان الملك السابق عمل على تنفيذ أهوائه بأن زجّ جيش مصر في معركة فلسطين قبل أن يتخذ الجيش إهبته لخوض غمارها » .

وفي هذا اعتراف صريح بأن فاروق هو الذي أدخل جيش مصر في معركة فلسطين .

ومع أنني أنظر إلى إبراهيم عبد الهادي خلال توليه الحكم نظرة ملؤها الكره والتقريع لما جنت يداه من مظالم ومغارم واعتبر سجنه بعض ما يستحقه من دهره ، فإنني أنكر على من عدوا مشاركته في مسؤولية إدخال مصر في الحرب الفلسطينية تهمة يجب أن يسأل عنها وأن غلقوا ذلك بغلاف عدم الاستعداد للحرب .

وعلى هذا الأساس يجب أن يحاكم جميع من يخسرون الحروب بحجة أنهم دخلوا الحرب دون الاستعداد لها .

وإذا كان الذين أشركوا مصر في حرب سنة ١٩٤٨ يجب أن يحاكموا على هذا الأساس ، فما هو الشأن إذن في الذين استُدرجوا بطيشهم ورعونتهم وغوغائيتهم وخفتهم وقصر نظرهم إلى حرب سنة ١٩٦٧ .

هذا استطراد كان لا بد منه ونحن نمر بذكر حرب سنة ١٩٤٨ وموقف العراق منها .

بعض الحقائق

قلت أن حكومة النقراشي دخلت الحرب بغير إرادتها ، وكان من سوء الحظ أن قيادة الجيش المصري عهدت إلى (المواوي) وهو كما قيل عنه قد يصلح لكل شيء ولكن لا يصلح لقيادة تلك الحرب ، فكان همه التقدم وإذاعة البلاغات عن توغل جيشه في فلسطين تاركاً وراءه المستعمرات اليهودية الحصينة ، وقد أدت خطته إلى توزيع الجيش هنا وهناك وجعله قطعاً مشتتة يبعد بعضها عن البعض الآخر مما سهل على اليهود الانقضاض على تلك القطع تعاونهم مستعمراتهم المنتشرة وراء الجيش المصري ، مما أضاع على هذا الجيش بسالة ضباطه وجنوده وجعلها عبثاً .

ولما استبدلوا بالمواوي بعد ذلك القائد فؤاد صادق الذي كان كفوءاً في القيادة استطاع أن يصمد بجيشه صمود الأكفاء .

وقد استغل النقراشي هزائم الجيش المصري ليتخلص من الحرب فتلقت منه الحكومة العراقية برقية مطوّلة تعرض الواقع دون أن تحدد المطالب ، بل أحاطت ذلك بغموض مقصود مما كان موضع استغراب ، ولا شك أن الحكومات العربية الأخرى تلقت مثل هذه البرقية ، ولكن لا شك أيضاً أن المقصود بالبرقية هو العراق أولاً لأن قوته كانت هي الأولى .

وقد كانت الحكومة العراقية تشرك في كل الشؤون الفلسطينية خلال الحرب السفير اللبناني كاظم الصلح ، ومنه عرفت أمر البرقية وما تلاها من أحداث .

فبعد تلقي البرقية عقدت الوزارة العراقية جلسة برئاسة الأمير عبد الإله دعت إليها فريقاً من الخبراء العسكريين وشهدها جانبياً كاظم الصلح وبعد طول تذاكر تقرر الرد على البرقية بما معناه : أننا لم نعرف ما هو المطلوب منّا ولا ما ستقرره مصر في هذا الشأن لنحدد موقفنا ، وقد افترضنا ثلاثة احتمالات (وهنا يذكرون الاحتمالين الأولين) ، ثم يصلون إلى الإحتمال الثالث وهو مواصلة القتال ، ويقولون (العراقيون) أن هذا رأينا الذي نشير به ، ولئلا يطول الوقت بتبادل البرقيات فإننا أعددنا العدة لكل الإحتمالات ومنها الاحتمال الثالث فصدرت الأوامر إلى قطعات جيشنا في فلسطين ليكون على تمام الإهبة لانجادكم حيث تطلبون ، كما بدأنا هنا بإعداد نجدات لإرسالها فوراً إلى فلسطين . وفي اللحظة التي نتلقى بها جوابكم ينفذ كل شيء .

وكنا نحن ننتظر في السفارة اللبنانية القرار العراقي وإذا بالسفير يصل حاملاً الينا صورة عن نص البرقية .

وأكرر القول هنا أنني في تلك الأيام لم أهتم بتسجيل النصوص والوقائع ، ولكنني أؤكد كل التأكيد أن نص البرقية لا يخرج عن المحتوى الذي ذكرته .

وبعد أن اطمأننا إلى ما جرى مضينا إلى منازلنا وفي الصباح كان كاظم الصلح يتصل بوزارة الخارجية ليعرف الجواب المصري ، ومضى النهار دون أن يصل الجواب ، ثم لم نلبث أن عرفنا أن حكومة النقراشي أذاعت من إذاعتها في القاهرة نص برقيتها زاعمة أنها بقيت بدون جواب ، فدهشنا لذلك ، وأدركنا أن النقراشي يمهد للانسحاب من الحرب متذرعاً بخذلان العرب له ، وأنه حين أرسل برقيته كان يحسب أن الجواب العراقي سيكون مائعاً فيتمسك به ويجعله من مبررات استسلامه ، ولكن لما وجده حازماً صارماً تجاهله وزعم أنه لم يتلق جواباً .

وبالفعل لم تطل الساعات حتى أعلن النقراشي قبول حكومته للهدنة واستعدادها للمفاوضات وذهب وفدها إلى رودس وجرى ما جرى[1] .

الجيش العراقي المظلوم

كان قرار دخول الجيوش العربية إلى فلسطين لإبطال التقسيم والحؤول دون قيام الدولة اليهودية منعشاً لآمالنا فعلقنا تلك الآمال على الجيوش المتحفزة وعلى ما يمكن أن تحققه من نصر يحفظ للعرب وطنهم وشرفهم .

ولقد طلب مني أحد الأصدقاء من الضباط العراقيين أن أنظم نشيداً ينشده جنوده في زحفهم المرتقب ، وليدرك القارىء مدى ما كانت تجش به نفوسنا من طموحات النصر أذكر هذا النشيد هنا وهو :

تل أبيب جاءك اليوم العصيب
لن نؤوب أو يواريك اللهيب

* * *

لا قرار في الديار أو يوافيك الدمار
الفرار للبحار سدت اليوم الدروب

* * *

الجنود في الحدود لن تحيد أو تبيد
سنعيد بالحديد حقنا الماضي السليب

* * *

يا علم لا تضم وترنح في القمم
فالهمم كالضرم والحفاظ كاللهيب

* * *

(١) في سنة ١٩٤٩ صرح عبد الرحمان الرافعي وزير التموين في حكومة حسين سري أنه لم يكن من مصلحة مصر الحرب مع اليهود وأن الجامعة العربية كانت ضرراً على مصر.

إن لي من علي صولة المستقتل
فأحل تنجل غمرة الهول الرهيب

* * *

الرجال كالرمال في السهول والجبال
القتال النضال كلنا داع مجيب

* * *

لن يسود لن يسود في فلسطين اليهود
يا أسود للحدود دونكم تل أبيب

* * *

تل أبيب تل أبيب جاء اليوم العصيب
لن نؤوب أو يواريك اللهيب

وزحفت الجيوش وتوهجت مع زحفها آمالنا ، وتعلقت قلوبنا بكل خطوة تخطوها ، ولم يخف بعض أصحابنا عدم ثقتهم بما يجري ، وكانوا يخشون مكر اليهود وطول استعدادهم لهذا اليوم ، كما كانوا يتخوفون من سطحية العرب وهوجهم في مثل هذا الموقف ، ويتحدثون عن خطوات اليهود المدروسة المحكمة منذ حلت طلائعهم في فلسطين ، وعن ارتجالات العرب في كل ما فعلوا . . .

كان بعض أصحابنا يقولون هذا بجمجمة وتخافت وبحسرة وألم . ولكن الناس ـ جميع الناس ـ ونحن منهم ، أُخذوا أول الأمر بما يذاع عن التقدم والتوغل ، ولم يُؤخذوا بالحذر والتخوف .

ثم أخذت الأنباء تتوالى وفيها ما يريب ، ثم صار فيها ما يخيف ، ثم صار فيها ما يبعث على اليأس .

وأذكر أني كنت أسير يوماً في شارع الرشيد على قدمي ، وصدف أن كان مروري أمام أحد المتاجر في اللحظة التي كانت فيها إذاعة الشرق الأدنى تبدأ بإذاعة الأخبار ، فتوقفت لأستمع أخبارها ، فإذا أول خبر تذيعه هو احتلال اليهود لمدينة (جنين) ، ولن أنسى أبداً وقع هذا الخبر عليّ .

وفي المساء كنّا نستمع إلى أخبار إذاعة بغداد ، فإذا بصوت المذيع يجلجل معلناً أن (جنين) في قبضة القوات العراقية ، وأن هذه القوات تطارد العدو في أنحاء (المثلث) ، واسم المثلث في ذلك الحين يعني ما يعنيه اليوم إسم (الضفة الغربية) ، وهم يقصدون به مثلث نابلس ، جنين ، طول كرم .

وبالرغم من أن الإذاعة العراقية كانت رصينة إلى حد ما ، فلم تكن تكثر من التبجج الباطل ، وكانت أخبارها أقرب إلى الثقة بها ، فإننا حسبنا أول الأمر أن هذا الخبر يراد به تهوين النازلة بالإدعاء بحصول ما لم يحصل . . . هذا فضلاً عن أن أخبار إذاعة الشرق الأدنى كانت دائماً هي المصدر لأخبار الحرب الحقيقية باعتبارها غير منتمية لأحد الفريقين .

وهي إذاعة قوية أنشأها الإنكليز في قبرص وحشدوا لها طاقة كبرى : إخبارية وثقافية ، فكانت هي المسيطرة على مسامع المتعطشين إلى الأخبار ، فلم يكن من المعقول أن تذيع خبر سقوط جنين في حين أنها لم تسقط .

ثم لم تلبث الحقائق أن انجلت : فلم تكن إذاعة الشرق الأدنى كاذبة ، ولا كانت إذاعة بغداد هي الأخرى كاذبة .

وذلك أن اليهود فاجأوا جنين بقوات كثيفة ولم تكن فيها إلا حامية عراقية لا يتجاوز عدد أفرادها العشرات فاستطاع اليهود النفاذ إلى مداخل جنين مما اعتقد معه مراسلو الشرق الأدنى أنها سقطت بأيديهم .

ولكن الحامية العراقية القليلة العدد ظلت تتصدى لليهود وتعيق تقدمهم ، وفي الوقت نفسه أرسلت استغاثة إلى القائد العراقي عمر علي الذي كان يسير بقواته في اتجاه آخر . وتلقى عمر علي الاستغاثة فغير اتجاهه وأسرع إلى جنين فتلقاه اليهود بقواتهم ، وصمد لهم عمر علي بقواته وتصارعت القوتان بالأسلحة النارية ثم تغامستا بالحراب .

وتلألأت الحراب العراقية وتضرجت بالدم ، دم اليهود التي طالما اشتاقت هذه الحراب لأن تتضرج به ، وجاءتها الساعة التي وضعتها وجهاً لوجه أمام أعدائها الألداء المتوحشين ، وهذه هي فرصتها لتنتقم لمجازر دير ياسين ، ولتعيد إلى الشرف العربي شموخه ورفعته ، ولن تضيع هذه الفرصة أبداً . . .

وأحسن البطل عمر علي قيادتها وأحسنت هي الاستجابة له . وانجلى الأمر عن الهزيمة الماحقة لليهود بعد أن ارتوى الصعيد العربي بدمائهم وانتثرت جثثهم في أطرافه من كل ناحية .

وخاب أمل اليهود في الاستيلاء على الضفة الغربية ، فسلمها الجيش العراقي للعرب سنة ١٩٤٨ عربية خالصة ، وأعادها اليهم عزيزة مكرمة . ثم سلمها العرب لليهود سنة ١٩٦٧ ذليلة مهانة . . .

ومن مآسي الدهر العربية أو مهازله أو فواجعه أو ما شئت من نعوت أن البطل عمر علي ، بطل إنقاذ الضفة الغربية ، وحامي حمى جنين ونابلس وطول كرم ، سيق بعد ذلك في يوم من الأيام مقهوراً مصفداً منكوس الرأس ليحاكمه السفيه (المهداوي) .

في دار المعلمين الريفية

لم يستطع مرور الزمن أن ينسيني أيام الحلّة ، وكنت قد صممت على أن أتابع حياتي التدريسية فيها ولا أنتقل منها إلى مكان آخر ، ولكنني فوجئت في ابتداء العام الدراسي الثاني بنقلي إلى دار المعلمين الريفية التي تقع في منطقة الرستمية من ضواحي بغداد فلم أشأ أن أعترض على ذلك ، فواصلت العمل فيها ، وكانت تقع على ضفة نهر (ديالى) في موقع جميل تحوطه المروج الخضراء والشجر الغضيض .

وكما أوحت الحلّة شعراً فقد أوحت مثله (الرستمية) ، وكان كله حنيناً إلى الأوطان والأحباب .

وإذا كانت القصيدة اليائية المتقدمة المنظومة في الحلّة تفيض أسى ولوعة ، فالحقيقة أنها لا تمثل حياتي في الحلّة التي كانت بشراً وسروراً وبهجة ، ولكنها تمثل فترة معينة من تلك الحياة ، هي فترة وصولي الأولى إلى الحلّة إذ كان لم يمض شهر على وصولي إليها حتى أتى العيد وكنت لم أمتزج بأحد من أهلها فشعرت بالغربة الأليمة والشوق الشديد والوحدة الموحشة ، فكانت تلك القصيدة من وحي ذلك كله .

وإني لأظلم الحلّة إذا كانت القصيدة اليائية تمثل حياتي فيها ، وإنما تمثلها بعض التمثيل القصيدة اللامية التي آسف لفقداني لبعض أبياتها .

ومن وحي شواطىء (ديالى) في الرستمية هذه الأبيات :

سقت سرح (الدواوير) الغوادي ... وجاد رياضها المطر السكوب
تحب النفس مغناها ويهوى ... مسارحها الفؤاد ويستطيب
فكم راق العيون بها شروق ... وطاب على محانيها غروب
وفي تلعاتها كم رف ثغر ... وكم خفقت بواديها قلوب
يعاودنا إذا خطرت حنين ... وإن ذكرت يهيج بنا وجيب
أسرح التين هل في الواد شاد ... وهل في السفح غريد طروب
وهل تمشي إليك على الليالي ... (سروب الغيد تتبعها سروب)
أتزهو بعدنا ثم المغاني ... أيحلو السفح والوادي الخصيب
خلت تلك الخيام فلا محب ... يعاطيه الهوى فيها حبيب
وعطلت المرابع بعد أنس ... وصوح بعدنا الروض العشيب
ذكرناكم على شطي (ديالى) ... فطاب لنا بذكركم النسيب
وكنتم في النوى ريحان قلب ... على شحط النوى وجداً يذوب
نأيتم فالمنازل موحشات ... وبنتم فالربيع بها جديب
لئن طابت لياليكم فليست ... لياليـنا لبعدكم تطيب
وأن تردوا المناهل صافيات ... فإنا في مناهلنا نلوب
إذا عذب الفرات لوارديه ... يغص به على النأي الغريب

وكذلك كان مما أوحت به (الرستمية) بعد فراقها والرحيل عنها هذه القطعة التي فقد بعضها ولم يبق منها إلا هذا الذي أذكره هنا ، وهو حنين إليها وإلى ديالى خاصة وإلى العراق عامة :

دالت الدنيا علينا يا ديالى ... فهجرنا «الشط» والماء الزلالا
وتركنا في محانيك انظلالا ... وارفات تملأ الوادي جمالا
كم أطلنا في النوى عنها السؤالا ... وسهرنا الليل شوقاً وهياما

***

أين في «الفيحاء» عن عيني النخيل ... أين وادي دجلة أين السهول
وديالى العذب فياضاً يسيل ... أين بغداد وشاطيها الجميل
يا ليالي الشط والنأي طويل ... أذكري ما عشت صبا مستهاما

***

أين عن عيني وادي «الرستمية» ... أين سحر الصبح فيها والعشية
أين روضات مغانيها الندية ... ولييلات محانيها الوضية
لم تزل نفسي على البعد وفية ... تعشق الشط وتهوه مقاما

وأحسب أن هذه أول مرة يذكر فيها ديالى والرستمية في الشعر العربي .

كانت دار المعلمين الريفية طرفة من الطرائف فيها يجتمع المئات من التلاميذ القادمين اليها من كل قرية في العراق ، من زاخو إلى الفاو كما يعبرون في العراق. فيهم العربي القادم من الشمال والجنوب[1] والوسط . وفيهم التركي القادم من منطقة كركوك وفيهم الكردي القادم من كردستان . وكان تدريس قواعد اللغة العربية وآدابها لهذه المجموعات مهمة من أشق المهمات ، ولكنها في الوقت نفسه تشتمل على أنواع من الطرف المضحكة .

وكان التلاميذ الأكراد والأتراك يأتون إلينا وكل محصولهم من اللغة العربية هو أنهم أصبحوا يحسنون النطق بها ، وكان علينا أن نعلم هؤلاء قواعد اللغة العربية وآدابها . وهنا كانت المشاق وما يتخللها أحياناً من الطرف .

وقد حدثنا أحد زملائنا من مدرسي اللغة العربية أنه اختار للاستظهار قصيدة الشاعر المصري علي الجارم التي يقول في مطلعها : (بغداد يا بلد الرشيد) وأنه بعد أن فسّر للتلاميذ ألفاظها وشرح معاني أبياتها ، وأكد في الشرح على معنى (لوح الوجود) الوارد ذكره في القصيدة، وسأل التلاميذ هل فهمتم معنى لوح الوجود فأجابوا بالإجماع : نعم . فاطمأن لذلك ، ثم خطر له ليزداد اطمئناناً أن يسأل أحد التلاميذ هذا السؤال : أين هو لوح الوجود ؟ وصدف أن كان المسؤول تلميذاً كردياً ، فأجابه التلميذ : موجود في الأدارة .

ويعني بالإدارة مكتب المدير .

ومثل هذا كان يحصل دائماً .

على أننا نظلم التلاميذ الأتراك والأكراد إذا اعتبرناهم وحدهم في هذا المستوى من المعرفة باللغة العربية وآدابها . فقد كان بين التلاميذ العرب من هو أعرق في الجهالة من هؤلاء . والتلاميذ الأكراد والأتراك معذورون لأن اللغة ليست لغتهم . ولكن ما عذر التلاميذ العرب ؟ .

لقد كان جهدنا منصباً على أن يعرف هذا الخليط من التلاميذ مواقع الرفع والنصب والجر من الأسماء ، ومواقع الرفع والجزم والنصب من الأفعال ، وقد كانت هذه المهمة من أصعب المهام وأشقّها ، وكانت تحتاج منّا إلى صبر وجلد وتحمل ، وكنا بهذا الصبر والجلد والتحمل نحقق الكثير من النجاح، ومن الطبيعي وهذا الحال حالنا وحال تلاميذنا أننا كنا نبتعد بهم عن تعقيدات النحو لأنها ستحملهم على كره هذا الدرس واستثقاله وتنفرهم منه ، بينما كنّا نسعى لتحبيبه إليهم وجعلهم يألفون دروسه ، وأما في الأدب فقد كنا نختار لهم من الشعر ما كان سهل الفهم واضح المعنى صريح الألفاظ .

مدرسة الفقراء

لقد كانت دار المعلمين الريفية مدرسة الفقراء ، والقرويين منهم بصفة خاصة ، فهؤلاء لم يكن باستطاعتهم بعد أن يتمّوا دراستهم في قراهم ، أن يتحملوا الإنفاق على أنفسهم خارج قريتهم ليتابعوا الدراسة الثانوية ، لذلك كانوا يقبلون إلى دار المعلمين الريفية التي تتكفل بمساكنهم وطعامهم وملابسهم .

ثم تضمن لهم بعد أربع سنوات تعيينهم في القرى معلمين براتب خمسة دنانير لكل منهم . وقد كان الوصول إلى قبض هذا الراتب حلمهم الذهبي

(١) كما كان فيها تلاميذ من اليمن وحضرموت.


في دار المعلمين الريفية

الـذي يتشوقـون إلى تحقيقه ، فـالواحـد منهم الذي ولـد في الفقر ونشأ فيه وأمضى طفولته وصباه محروماً ، والذي لم تجتمع لأبيه في يوم من الأيام خمسة دنانير كتلة واحدة . كان حلمه كما كان حلم أهله أن يروا في آخر كل شهر خمسة دنانير تنهل عليهم متدافعة بين أيديهم .

وإذا كان بين هذا الخليط العجيب من التلاميذ من ذكرنا من أمره ما ذكرناه فقد كان فيهم العديد من المتفوقين بل النوابغ . وقد كان يحزّ في نفسي أن أتصور ضياع هذه المواهب غداً في حياة القرى النائية وفي تعليم صبيانها ، فأخذت على نفسي إنقاذ من أستطيع إنقاذه منهم . وقد كان طريق فريق منهم معبداً ، وهم الأذكياء من غير أصحاب المواهب الأدبية ، فلم يكن عليهم إلا أن يصبروا أنفسهم على تحمل الفقر سنين أخرى ، وأن يرضوا بالتخلي عن قبض خمسة دنانير في كل شهر عما قريب ، وأن يرجئوا ذلك إلى مدة أبعد كي يقبضوا لا خمسة دنانير ، بل أضعافها ، وذلك بأن يتقدموا إلى امتحانات الشهادة المتوسطة التي يؤهلهم النجاح فيها إلى دخول دار المعلمين الابتدائية ، الإعلى درجة ، والأكثر راتباً عند التخرج منها .

ثم إذا كانوا يستطيعون أن يكونوا أكثر صبراً وتحملاً ، أن يتقدموا إلى امتحانات الشهادة الثانوية عند تخرجهم من دار المعلمين الابتدائية ، التي يؤهلهم نجاحهم فيها إلى دخول دار المعلمين العالية (الجامعية) وبذلك يصبحون مدرسين في المدارس الثانوية ذات الرواتب المرتفعة .

وفي هاتين المرحلتين سيكون مضموناً لهم المسكن والمأكل المجّانيين ، على ما هو عليه الحال في دار المعلمين الريفية .

ثم إذا وطنوا النفس على الصبر الأطول وجدوا واجتهدوا فقد يرسلون في بعثات علمية حكومية إلى الخارج فيرجعون بشهادة الدكتوراه التي يصبحون بها أساتذة جامعيين .

لقد أغرى هذا الحال فريقاً قليلاً فوطدوا العزمْ على تحقيق ما يدعو إليه ، فوصل بعضهم إلى دار المعلمين الابتدائية وتخرج منها ، ولكنه لم يطق الصبر أكثر من ذلك فوقف عند هذا الحد . وواصل بعضهم السير وراض نفسه على الصبر ، فتخرجوا من دار المعلمين العالية .

وصبر الأقل الأقل منهم فعادوا بشهادات الدكتوراه من جامعات أوروبا وأمريكا .

وقد كان من ألطف ما صادفني أن بعض من عرفتهم تلاميذ في دار المعلمين الريفية عرفتهم فيما بعد وهم طلاب في دار المعلمين العالية أيام تدريسي فيها بعد ذلك .

أما أصحاب المواهب الأدبية ، فقد كان الأمر مهم صعباً كل الصعوبة ، ولم أتمكن إلا من إنقاذ واحد منهم فقط . وقد كان فيهم من يمكن أن يكون في قابل أيامه من أبرع الكتاب سواء في الصحافة أو القصة أو الأدب أو تاريخ الأدب .

ومشكلتهم أنهم إذا أرادوا التخلي عن دار المعلمين الريفية ، فلم يكن أمامهم مواصلة الدراسة في دار المعلمين الابتدائية ثم دار المعلمين العالية ، بل كان عليهم أن يبدؤوا في شق طريقهم الأدبية منذ الآن ، وذلك بأن يلتحقوا بمؤسسة صحفية تكتشف مواهبهم تدريجياً حتى يكون لهم فيها المكان المؤهلين له ، وهذا لم يكن ميسوراً ، وكان إذا تيسر لا ينتج إلا راتباً قليلاً لا يكفي النفقات اليومية ، وهذا ما لم يكونوا يجرؤون على الإقدام عليه .

ولكثرة ما واصلت تشجيع أحدهم صادق الإزدي جاءني في يوم من الأيام وقال أنه وجد عملاً في إحدى المؤسسات الصحفية براتب شهري قدره ثلاثة دنانير ولكنه عمل لا يتصل بالكتابة في الصحيفة بل ببعض شؤونها الأخرى ، لذلك قرر رفضه لأن الدنانير الثلاثة لا تعني شيئاً في الحياة البغدادية التي عليه أن يحياها ولأن عمله لن يكون تحريرياً تبرز فيه مواهبه .

فأنكرت عليه رفضه ، وقلت له اذهب الآن فاقبل العمل بشرط أن تبدأ منذ الأسبوع الأول من مباشرتك العمل بأن تكتب فيما يتصل بالشؤون الصحفية ، وتقدم ما تكتبه إلى رئيس التحرير رأساً ، وأؤكد لك أنه ما أن يتأكد رئيس التحرير بأنك صاحب هذه الكتابة حتى ينقلك إلى التحرير في الجريدة وحتى يتضاعف راتبك ثم يتضاعف .

وبالفعل فإن راتب الدنانير الثلاثة لم يكن إلا شهراً واحداً ، إذ أصبح في الشهر الثاني خمسة ثم تضاعف وتضاعف ، ثم جاء وقت أصبح فيه صادق الأزدي رئيس تحرير جريدة من أكبر جرائد بغداد ، وفي الوقت نفسه كان صاحب مجلة أسبوعية سياسية من أكثر المجلات رواجاً وشهرة .

والوفاء العراقي الأصيل كان في صميم صادق الأزدي فلقد لقيت من وفائه ما هو حري بابن الرافدين دجلة والفرات . . .

ومن بين الذين أعياني أمرهم كان غانم الدباغ ، فإن غانم هذا كان أديباً موهوباً لا سيما في القصة ، وقد حاولت إنقاذه من المصير الذي سيصير إليه معلماً قروياً منبوذاً في قرية قصية موحشة تقتل فيها النفس قبل المواهب ، وقد عزّ عليّ أن تخسر العربية مثل هذا الكاتب المبدع ، فحاولت شتى المحاولات دون جدوى .

وكان من أهم عوامل الفشل هو جبن غانم نفسه ، وهو جبن لا يلام عليه ، فقد كان يصعب عليه التخلي عن الحياة المطمئنة التي يحياها الآن

خلياً من هموم المطعم والمسكن والملبس . . . التخلي عن ذلك إلى المجهول . . . وقد كان شبح الفقر الذي ظلّ يلاحقه منذ ولد إلى هذه الساعة ، كان هذا الشبح يلوح له في الأفق القريب والبعيد فيرتجف رعباً منه فينهار كل طموحه .

وتخرج غانم الدبّاغ من دار المعلمين الريفية وعيّن معلماً في قرية من قرى الموصل وراح يتناول الدنانير الخمسة في آخر كل شهر ، وتركت أنا العراق في المرة الأولى ، ثم عدت إليه بعد سنتين . وكان إسم غانم الدبّاغ لم يفارق مخيلتي ، فكان أول ما فكرت به أن أعرف مصير هذا الكاتب المبدع ، وكان كل ما أعرفه عنه أنه يعيش في قرية من قرى الموصل ، ولكن لا أعرف في أي قرية هو . فأرسلت له رسالة جعلت عنوانها باسم مدير معارف الموصل ورجوته فيها أن يتفضل بإرسالها إلى صاحبها ، ففعل ، وجاءني جوابُ غانم ، فإذا هو في قرية إسمها (الموالي) ، وأن لقبه صار معلم أول ، بعد أن كان مجرد معلم . وأنني أنشر هنا نص هذه الرسالة لما فيها من دلالات وذكريات :

الموالي (من قرى الموصل)
في ٣١ / ١ / ١٩٤٧
أستاذي :

تحية طيبة . حمل إلي البريد رسالتك وأنا في شوق لها ، وحملت لي سطورها هذا الخط الحبيب إلى نفسي والذي كثيراً ما هداني إلى محجة الصواب أيام الدراسة . . . وكيف لا يهفو قلبي إلى ذكراك وهي عاطرة في ذهني كعطر الأنسام ، وشهد الله أن ضميري ليحمل آلاماً ثقالاً من هذا الذي قد لا يكون عقوقاً ، ولكنه نوع من الإهمال الذي يسيطر على مجرى حياتي في شتى صورها وألوانها . . . فليس غيابك أمداً خارج العراق ورجوعك إليه ، ولحاقي وراء خبز الحياة في أطراف الصحارى، ليس كل هذا قد محا الصورة الهادئة الوديعة المستقرة في ذاكرتي عنك . . لا والله ، وليشهد قلمي المضطرب الآن ، بين يدي أنه خطّ لك رسائل ولكن لأقرأها أنا فقط . . .

وحياتي !؟ حياتي في هذه البقعة المقفرة !؟ أنها فراغ هائل عميق وجسد يتهافت على بعضه ، ونفس حائرة في طواياها بين الضجر والألم وقد خلقت منها المقادير حلقة مفرغة لا تستقر على حال من الهدوء والطمأنينة ، وأيام الصبا والشباب تذهب بها دورة الزمان المجنونة نحو الفناء والإضمحلال لتستقر بها في ظلمات من الحيرة المبهمة والقلق الصامت المكتوم ! .

لا يؤنسني فيها إلا ألحان المزمار . . . فهذا أعرابي يناجي صاحبته على أنغامه والقرية نائمة على الظلام . . إن هذا الصوت الذي ينساب في أنغام ساذجة ليشجيني كما يؤلمني أنه يفتح في القلب جراحات عميقة ينكأها في الصميم ، أنه يكاد يرهق سمعي ويهد أعصابي المكدورة . . .

وأيام الشتاء تقبل على القرية ، ما أفظع لياليها ! وأنا بين جدران أربعة يعبق في جوها أريج الطين وعطر الأرض النفاذ ، وقد فغرت ثقوب الكوخ أفواهها ، والريح ترسل عويلاً يمتد ويتلوى في أنين خافت . . والليل مظلم كئيب يقطع سكونه نباح الكلاب ثم تذوب أصواتها بعيداً في الفضاء . .

السكون العميق يلفّني ، ويطغى على حواسي ، ويبعث في أذني هذا الوشيش الناعم الذي ليس إلا صدى الرهبة العميقة ، وتحت ضربات الريح العابثة يئن الباب وقد كلت أخشابه المتداعية فيرسل صريراً خافتاً . . . لقد نامت القرية وهجع سمّارها ، وذو القلب المعنّى لا يهجع ، والقلم لا ينقطع عن الصرير فيخط ذوب هذه النفس الحبيسة . . . !

وأحسبني أطلت عليك وأثقلت في ثرثرة قد لا تكون في الواقع إلا صدى لما أعاني ، وإلا شكوى أبثها لمن يتسع قلبه الكبير لشكاتي . . .

لقد هصرتني هذه الأعوام الثلاثة وأحالتني بشراً تبدو على فمه البسمة الكئيبة ، وينشج قلبه بالبكاء . . وبكاء القلب من أمر البكاء . .

أيامي هنا يا صفي القلب ، ضنىً للقلب والعقل والروح . . وكبت للرغبات وموت للآمال . . أيامي تضيع بين دمي من البشر تقسو حتى في نظراتها . .

ولا يجيب صراخي المكبوت إلا صداه المعذب ، ولا أسمع إلا قهقهات القدر تتسع وتتضخم في تهاويل بشعة ، فتحيلني إلى صخرة صمّاء وقد تبلدت في نفسي عواطف الانسان الشاعر ، وشاب قلبي الفتى في غير أوانه . . .

أشعر كأن جسمي وروحي معاً يريدان الإنطلاق من هذا الجحر الأعتم يريدان العالم الحر الفسيح ، يريدان الحياة بين الناس ، بين أنس الصداقة ، بين لهو الخلق وصخب البشر . . ولكن !!

لم يبق في جعبتي من لذة العيش وأحلامه الرغيدة إلا هذه الذكريات أسدر سابحاً في بيدائها التي عفت عليها الأيام . . أناجيها إذ أخلو إلى نفسي ، وأستعيدها فترق لها روحي وتطيب ، نعم لم يعد لي من لذة الحياة وهناءة العمر ، إلا هذه اللحظات التي عبرت شاطىء حياتي كالوهم ، وقد أتساءل أحياناً أعشت فيها حقاً !؟ . .

المفتش

في يوم من الأيام دخل علينا الصف مفتش اللغة العربية بهجت الأثري ، دخل بجسمه الطويل ولكن غير العريض وبعمامته البيضاء المشدودة على الطربوش الأحمر وبنظّارته المتلألئة ، دخل متعاظماً يتكلف الوقار والهيبة ، فكانت اسئلته للتلاميذ أسئلة لا يراد بها إلا التظاهر بالعلم والتفوق وإلا محاولة أن يجد ثغرة ينفذ منها إلى التجريح ، وإلا أن يجد وسيلة يقول فيها أنه كتب تقريراً .

وكان مركب النقص عند هذا الفريق من المفتشين الذين لم يعرفوا شيئاً من الدراسات الحديثة ، والذين يعلمون أنهم دون من (يفتشونهم) علماً وتجربة ، والذين نشؤوا على حب الاستعلاء دون أن تكون لهم كفاءات الاستعلاء ، كان مركب النقص هذا عندهم يحملهم على ركوب المراكب الخشنة والتعامل بغلظة وفظاظة محاولة لستر نقصهم .

لم يجد بهجت الأثري ما يسأل به التلاميذ من مواضيع النحو إلا

الإعلال والإبدال وأمثال ذلك من المواضيع المربكة التي كنا نتجنب الخوض فيهـا مع التـلاميذ لئـلا يتيهوا فيـما لا يجوز أن يتيهـوا فيه ، وكنـا نمرّ بهـا في تدريسنا لماماً ونتجاوزها دون التعمق والإيغال. لأنه كـان حسبنا من أولئك التلاميذ أن يصلوا معنـا إلى اتقان المرفوعـات والمنصوبـات والمجرورات والمجزومات . أمـا متى تقلب الواو يـاء ، ومتى تقلب الواو والياء همزة أو ألفاً ، ومتى تقلب الواو والياء تاء ، مضـافاً إلى أمـور الإبدال ، فقـد كنـا نعتبرها أموراً ثانـوية مشـوشة لأذهـان التلاميـذ بدون طـائل ، وأنـه ينبغي العناية بها مع التلاميذ الذين يتقنون قواعد اللغة إتقاناً جيداً لا مع التلاميـذ الذين يجهلون أبسط قواعـد اللغة . وقـد كان بـين التلاميـذ من لهم قابلية تفهم تلك الأمور وكانوا قلة ، فكنت أخصهم بأوقات خارج أوقات الدرس أشرح لهم فيها ما لا يفيد شرحه لمجموع التلاميذ .

قلت أن بهجت الأثـري لم يجد من مسـائل النحـو ما يسأل به إلا تلك المشـاكل ، هـذا في النحو وأما في الأدب فقـد كـان أمـره أعجب وأغـرب وأضحك : لقد كان سؤاله الوحيد أن اختار تلميذاً وصـدف أن كان كـردياً من النـوع الـذي يجيب عن مكـان (لـوح الـوجـود) ، أنـه في الإدارة ، وسأله : هل للشمس حاجب ؟ .

لقد تاه المسكين أي تيهان ، إنهم لم يدرسوه في دروس الأدب العربي ما إذا كان للشمس حواجب وعيون وآذان وآناف أم لا . فما هذه الورطة ؟ .

لقد كان صاحبنا المفتش الهمام يقصد على ما يبدو بيت الشعر الـوارد في قصيدة البحتري التي يصف بها بركة سامـراء والتي يقول فيهـا : (وحاجب الشمس أحياناً يضـاحكها) ، فبـدلاً من أن يسأل التلميـذ عن معنى البيت وينتظر تفسيره له ، لم يجد وسيلة ليقال أنه كتب تقـريراً أو أبـدى رأياً ، ولا طـريقاً للغمـز واللمز سـوى هذا الأسلوب في السؤال الـذي كان مـوقناً بـأنه سيربك التلميذ فيكون ذلك منفذه إلى ما يبغي .

وكما دخل بهجت الأثري متعاظـماً متشامخاً ، خرج وقـد ازداد تعاظمـه وتشامخه .

ومن الـطريف أن الدكتـور زكي مبارك ، وقـد كان يـوماً مفتشـاً للغـة العربية اعترف في بعض ما كتبه بما كان يتعسف به أساتذة هذه اللغة إرضاء لحافز التسلط في نفسه ، وأورد أمثلة طريفة على ذلك .

ولكن إذا غلب حافز التسلط على الدكتور مبارك فإن وراءه دكتوراه من جـامعة القـاهرة ودكتـوراه من جامعـة الصوربـون . ووراءه كتـاب (النـثر الفني) وأمثـاله ، فـماذا وراء بهجت الأثـري ؟ .

من أيام دار المعلمين

ومن أيام دار المعلمين المعـدودة يوم الفيضـان الرهيب الـذي طغى فيه ماء نهر ديالى حتى أغرق معسكر الرشيد المجاور لنا ثم أخذ يمشي إلينا مهدداً لنا بالغرق ، وقد كان لنزلاء المعسكر منفذ إلى بغداد أنقذهم من الموت غرقاً أما نحن فقد أصبحنـا محصورين بـالماء من كـل جوانبـا ولا منفـذ لنـا حتى جـاءت ساعـات أيقنـا فيهـا بـالهلاك لـولا أن المـاء اتجهت قـوتـه بـاتجـاه (الزعفرانية) فمشى إلينا ضعيفاً متباطئاً مما أنجانا منه .

وفي حالات اليأس تلك وقف واحد منّا وأخذ ينشد قصيدة ما لـك ابن الريب التي رثى نفسه بها ، وهي التي يقول فيها :

فليت الغضـا لم يقطع الـركب عرضـه ... وليت الغضـا ماشى الـركـاب لياليـا
تـذكـرت من يبكي عـلي فلم أجـد ... سـوى السيف والرمح الرديني بـاكيا
وأشـقـر خنـذيـذ يجـر عنـانـه ... إلى الماء لم يـترك لـه الـدهـر سـاقيـا

فقلت له : لا ينبغي أن نرثي أنفسنا بشعر غيرنا ، بل علينا أن نرثي أنفسنا بشعرنا ، وأخذت أرتجل قصيدة طريفة أهملها من كتبها ، ولم يبق عالقاً منها في ذهني سوى هذين البيتين :

فليت طـريق النهـر لم تجـر فـوقـه ... ميـاه تـريـك المـوت أحمـر قـانيـا
تـذكـرت من يبكي عـليّ فلم أجـد ... سـوى الكتب والأقلام حـولي بواكيا

في القضاء

وفي هذه الأثناء كانت الحرب العالمية الثانية قـد أعلنت وحلت الهزيمـة بفرنسا وفقدت سيطرتها الفعلية على سوريا ولبنان واضطرت إلى الموافقة على قيـام حكم يضعف فيه نفـوذ المستشارين الفرنسيين ويكـون للوطنيـين فيـه الكثير من التأثـير ، لـذلـك رغبت في دخول القضـاء ، فكان أن عينت حـاكماً لمحكمة (النباطية) .

وقد تمت هزيمة فرنسا بذلك الشكل المهين وأنا في بغداد ، فكانت أنباء تـوالي الهزائم الفرنسية ومعها القـوى الإنكليزيـة تبعث في نفـوسنـا الفـرح العظيم ، ثم كانت الهزيمة النهائية التي سلمت فيها فرنسـا ووقع منـدوبوهـا على التسليم ، فبلغ سرورنا مداه .

وكـانت شماتتنا بالغـة بالجنـرال (غـامـلان) القـائـد العـام للجيـوش الفرنسية ، الذي كانت فرنسا قـد عينته سنة ١٩٢٦ قائـداً عامـاً لجيشها في سوريا ولبنان ليخمد الثورة السورية . وكان لما ناله من الذل والعـزل أطيب الوقع في نفوسنا[1] ، فنظم أحد رفاقنا الظرفاء أبياتاً بـذيئة الألفـاظ لا يمكن ذكـرها هنـا ، ولكنها مضحكـة ، فيها الشـماتة بفـرنسا والهـزوء بهـا ، ومن أطرف ما فيها ذكر دخول إيطاليا الحرب بعـد تضعضع فـرنسا ، فقـد ذكر ذلك ببيت واحد يغرق السامع فيه بالضحك بعد أن يتحمل بذاءة ألفاظه ، وكان فريق من اللبنانيين يلقب فرنسا بلقب الأمم الحنون لذلك جاء مـطلع الأبيات هكذا :

أكلت أمك الحنون . . . . ها ... ودهـاهـا مـن هتـلر مـا دهـاهـا

ورأى أن لا بأس بذكر البيت المتعلق بدخول إيطاليا الحرب بعد تبديل كلمتين فيه :

(نـالهـا) من أمـام وجهـاً لـوجـه ... وأتى (الـدوتشي) (فنـال) قفـاهـا

والضمير في (نالها) يعود إلى هتلر . والدوتشي هو لقب موسوليني .

وإذا كنت أبيح لنفسي ذكر هذين البيتين وفيهما ما فيهما فذلـك لتصويـر مـا كان يعتلج في النفـوس تجاه فـرنسا وأفـاعيلها في سـوريـا ولبنـان . وإني

(١) في الجنرال غاملان هذا يقول أحد الشعراء الثوار خلال الثورة السورية:
الا لـيت شـعـري هـل أبيـتـن لـيلة ... ولـيس بـسـوريـا مـقـر لـغـمـلان

لأكتبها وأنا خجل كل الخجل ، طالباً من القارىء الوقور أن يقدر ظروفنا يومذاك . . .

وجئت (النباطية) التي تكاد تعتبر قاعدة جبل عامل ، وإذا بي وجهاً لوجه أمام مشاكل سخيفة وقضايا تافهة هي شغل الناس الشاغل ، وإذا علي أن أنغمر في هذه المشاكل وأنشغل في هذه القضايا ، وإذا هي عملي اليومي ليلاً نهاراً ، نهاراً بسماع أقوال أصحابها ، وليلاً بتدوين الأحكام .

وإذا بقلمي الذي اعتاد أن يدوّن خواطري وأفكاري ودراساتي ، يدون ما لا صلة له بذلك ، يدوّن نتيجة الخصام على الأرض والتقاتل في القرية ، والتشاكس بين المتزعمين .

وإذا بي لا أجد فسحة لقراءة كتاب في التاريخ وبحث في الأدب وقصيدة من الشعر ، وإذا علي بدلاً من ذلك أن أقرأ الكتب الجافة والمجلات السمجة : كتب القوانين ، ومجلات أحكام المحاكم . فضاقت نفسي بذلك .



في ثوب القضاء

لا سيما وأن منطقة النباطية كانت مجالاً لتنافس ثلاث أسر متنافسة على وجاهة البلاد ومتزاحمة على مقاعدها النيابية ، وكان لكل أسرة أنصارها المتصارعون يومياً والمتعادون دائماً والمتقاتلون أسبوعياً .

دعاوى طريفة

وكان الأمر لا يخلو أحياناً من دعاوى طريفة وأخرى مضحكة . فمن ذلك دعوى خلاصتها أن عاملاً يشتغل في حيفا أرسل مع أحد أبناء بلدته (سترة) لأخيه الموجود في البلدة والذي كان هو الآخر يشتغل في حيفا ، وقد رأى ناقل السترة أن يتجمل بها في القترية قبل أن يسلمها لصاحبها فلبسها وصار يخرج بها وعرفها الناس عليه وفيهم المرسلة إليه . وبعد شهر أوصلها إلى صاحبها ، فلما رآها عرف بها (السترة) الملبوسة من المرسلة معه فأقام عليه دعوى يطالبه بتعويض عن الأيام التي لبس بها السترة ، وكان لا بد من تعيين جلسة للنظر بالدعوى ، فلما رأيتها أمامي حسبت أن الباعث عليها غضب فوري لا يلبث أن يزول فيرجع المدعي عن دعواه ، لذلك ابتدأت بها ووجهت إلى المدعى عليه كلمة تأنيب على تصرفه بما ليس له ، وحسبت أن في ذلك ما يكفي لرضا المدعي فينتهي الأمر .

ولكن تبين أن المدعي جاد كل الجد في دعواه وأنه قد سمى شهوده في حال إنكار المدّعى عليه استعمال (السترة) ، ولم تفد كل محاولاتي في رجوعه عن دعواه . وطال الأخذ والرد ، وأمامنا سيل من الدعاوى علينا إنهاؤها .

وكان علينا للسير في الدعوى أن نستدعي الشهود وأن نعين خبيراً يحدد ما يستحقه المدّعي من تعويض ، وكان ذلك أمراً مضحكاً .

وثار غضبي بشكل لم أعهده في حياتي ، لا سيما على منصّة القضاء التي كنت أتغلب فيها على كل ما يثير الغضب خوفاً من تصرف يبعثه الغضب، ففتحت في الحال تحقيقاً سألت فيه المدّعى عليه هل سافرت إلى فلسطين بجواز سفر فقال : لا .

وسألت المدّعي : ألم تسافر قبل اليوم إلى فلسطين ؟ فقال سافرت أكثر من مرة . فقلت : هل كان معك جواز سفر في آخر مرة ؟ فقال : لا .

وبذلك يجب محاكمتهما بتهمة اجتياز الحدود بصورة غير قانونية .

فقلت للمتداعيين انتظرا إلى ما بعد انتهاء الفصل بالدعاوى لإكمال التحقيق معكما ، فانتظرا .

ولما انتهيت من الدعاوى ثابت إليّ نفسي وتذكرت أن الأمر سينتهي بكل منهما إلى حبس شهر ودفع غرامة خمسين ليرة بعد إحالة دعوى أحدهما على محكمة بنت جبيل لأنه اجتاز الحدود من منطقتها ، ودعوى الآخر على محكمة مرجعيون . وكان ما سجل في المحضر قد سجل ولا يمكن تبديله ، فأصبح همّي الآن إنقاذهما من السجن والغرامة ، وبعد تفكير قليل رأيت أن أجعل تاريخ اجتيازهما الحدود في زمن يشمله العفو الذي كان قد صدر قبل مدة .

وفي أثناء ذلك لقيا من أفهمهما ما سيلقيان من السجن والغرامة ، فلما دخلا عليّ الواحد بعد الآخر ، قال المدعي : لقد تنازلت عن الدعوى ، وقال المدّعى عليه إني مستعد أن أدفع التعويض .

ولكن كان ما كتب قد كتب .

ولما سألت كلًّا منهما عن تاريخ عبوره الحدود حدد التاريخ الصحيح ، وهذا التاريخ لم يكن مما يشمله العفو . فقلت : لا ، إنك عبرتها بالتاريخ الفلاني . وسجلنا ذلك .

ولم يسعهما الاعتراض ، وهما لا يعلمان السر في تغيير التاريخ ، وربما حسباه إمعاناً في أذاهما .

ومن طرائف دعاوى الاختلاف على الإرث هذه الدعوى التي تريك مدى ثروات الفلاحين وقيمة ما يتركونه من تركات يتنازع عليها بعدهم الورثة :

فقد أقامت فاطمة مدلج دعوى على مواطنتها عليا حسن من قرية كفر رمان تطالبها فيها بحصّتها من مخلفات زوجهما المشترك يوسف أحمد حمزة . ومن العجيب أن هذا الزوج الذي سترى مقدار ما خلفه من ثروة لم يكن قانعاً بزوجة واحدة ، بل كان له زوجتان .

أما المدّعى به فهو كما جاء في ورقة الدعوى : ما جرى تحريره بمعرفة محكمة النباطية الشرعية وهو : بقرة شراكة مناصفة مع داود سليمان في مزرعة الجرمق (أي نصف البقرة لداود سليمان ، ونصفها الثاني لزوج صاحبة الدعوى) .

حمارة شراكة مع البصار مناصفة ، طنجرة كبيرة مع غطاها ، طنجرة عربية بدون غطا ، وثلاثة لحف وثلاث فرش ، لكن صغير للعجين (لكن : بفتح اللام بدون مد ، وفتح الكاف) هو (الوعاء الذي يعجن فيه العجين) ، وطاستان صغيرتان ، وصحن ، وكيلة حليب ، وكرسي قش ، وخمسة فناجين قهوة بدّاوية ، وإبريق شاي ، وثلاثة فناجين شاي ، وغلّاية قهوة ، وجاروشة ، وغربال ، وخرج شعر .

ومن طرائف الدعاوى الجزائية دعوى مستوحاة من البلاغات الحربية التي كانت تصدرها الدول المتحاربة ، إذ كنا في عنفوان الحرب العالمية الثانية ، وهذا نصّها :

أن المدّعى عليهم قاموا بهجوم عام ، من الجهات الأربع بتاريخ نهار الأحد الواقع في ١٧ تموز الساعة السابعة زوالية صباحاً ، على الحاكورة الشرقية المزروعة من قبلي . وبهذا الهجوم السريع والمفاجىء سيطروا على الحاكورة وأخذوا يقلعون البطاطا والبندورة واللوبيا والباذنجان . . . إلى آخر ما جاء في الدعوى .

ولو أن بلاغاً صادراً عن مقر أحد الجنرالات في هذه الحرب ، لما كان أكثر دقة في تعيين الزمان والمكان وتصوير نوعية الهجوم . . . من هذا البلاغ الإدعائي الطريف .

ولكن إذا كانت البلاغات الحربية تنتهي دائماً برد المهاجمين على أعقابهم ، وتكبيدهم أفدح الخسائر ، وإذا كانت تحاول أن تضع أصحابها مواضع المنتصرين ، فإن هذا (البلاغ) من مصلحته أن يكون متواضعاً معترفاً بالهزيمة :

فالمهاجمون عادوا جميعاً ظافرين ! . . . وإذا كانت المصلحة الحربية تذكر دائماً القيام بهجوم معاكس . فإن مصلحة صاحب هذا (البلاغ) لا تذكر إلا الاستسلام وكثرة الجرحى .

وتلقيت يوماً بلاغاً من رقيب مخفر الدرك في إحدى القرى لأتخذ ما يقتضي إتخاذه من إجراءات جزائية بحق من وردت أسماؤهم فيه .

وإذا عنوان البلاغ هكذا : (حفل غناء ورقص بدون إجازة) .

ولقد دهشت لهذا العنوان واستغربت أمره ، فإنه لم يبلغني أن أم كلثوم ولا محمد عبد الوهاب ولا غيرهما قد حضر أحد منهم إلى قرية من قرى هذه المحكمة للطرب والغناء . ولم أسمع أن أحداً دعا إلى حفلة راقصة في هذه الدساكر المنتشرة على رؤوس التلال وسفوح الجبال . بل الذي أعرفه أن أهالي هذه الضياع لهم من شقائهم وسوء علاقاتهم مع حكوماتهم ما يصرفهم عن التفكير في شؤون الرقص والطرب ! .

إذن ما شأن حفلة الغناء والرقص التي يذكرها محضر الدرك ؟ .

أتراها فتحاً جديداً في الحياة القروية غاب عنّا أمره ؟! .

وأين كنت أنا لأطير إليها ولو كانت مخالفة للقانون ؟ . . .

ورحت أقرأ المحضر فإذا فيه ما يلي بالحرف الواحد :

« أثناء وجودنا أمام المخفر سمعنا ضوضاء وغوغاء ، فتوجهنا فشاهدنا ما يزيد على الأربعمائة شخص من رجال ونساء جالسين على الكراسي ومنهم ناس على الحجارة والقسم الآخر واقفون . وهناك ثلاثة رجال من الغجر ومعهم امرأة غجرية يعزفون على آلات الطرب وينقرون على الطبول والدفوف والمرأة ترقص ومقيمين بذلك حفلة غناء ورقص ، وذلك قرب مقهى عبد النبي . فطلبنا صاحب المقهى فحاول الاختفاء ولدى سؤاله عما إذا كان لديه رخصة بإحياء هذه الحفلة أجاب سلباً . وبناء على ما ذكر صار تنظيم هذا المحضر » .

وبهت عندما أنهيت قراءة هذا المحضر ، وعرفت ما هي الحفلة التي عناها ، وهذه خلاصة الحكاية :

مرّ جماعة من الغجر المتجولين في القرى ، فنقروا على الدفوف وضربوا بالطبول ، فاجتمع عليهم أهل القرية وفرحوا بما رأوه وسمعوه من رقص وعزف وغناء . فتساءل صاحبنا رقيب مخفر الدرك عمّا إذا كان لدى صاحب المقهى الذي اجتمع الناس بقربه رخصة بإحياء هذه الحفلة « حفلة الغناء والرقص » كما سمّاها ، فخشي صاحب المقهى العواقب فتوارى في بادىء الأمر ، ثم استسلم صاغراً ذليلاً ليحاسب على جريمته الشنعاء . . . وهي اجتماع الناس لمشاهدة الرقص والاستماع إلى الغناء بجوار مقهاه دون أن يكون معه إجازة ، مع أن أكثرهم باعتراف المحضرين إما واقفون على أقدامهم أو جالسون على الحجارة . . .

وسألت عمّا جرى في ذلك اليوم المشؤوم في القرية الوادعة ، فعلمت ما يلي :

حين قبض البواسل على صاحب المقهى لمحاسبته دبَّ الذعر في أهل القرية المجتمعين هناك فلاذوا بالفرار ، وخاف الغجر فأمعنوا في الركض . . . وانفخت الدفوف وتفرق العشّاق . . .

وهكذا تحولت الحفلة البريئة اللطيفة إلى حزن . . .

وأعجب صاحبنا رقيب المخفر بنفسه لأنه كان أميناً على تطبيق القانون . . . حريصاً على إبادة الرقص والغناء والفرح . . . إذا كانت بدون رخصة . . .

وكثرت التوسلات ، وعظم الرجاء ، ليصفح ويعفو ويغفر . . . ولكنه أبى ورفض وثبت في رفضه وإبائه . . . فتشتت الناس وساق « المخالف » سوق المجرمين ليرتدع كل من يفكر بعد ذلك بأن يفرح أو يغني أو يضحك . . .

شهود الزور

ومن المؤسف أن شهادة الزور كانت متفشية ، وكان ذلك من أعظم ما يضللني ويجعلني أتردد في الأحكام المستندة إلى شهادة الشهود ، فما يدريني أن هؤلاء الشهود يشهدون بحق أو بباطل ، وفي دعوى واحدة جاء ثمانية شهود يشهد كل أربعة منهم بما يناقض شهادة الأربعة الآخرين .

فقد كان موضوع الدعوى يتعلق فيما إذا كانت الأرض مزروعة حمصاً أو قمحاً ، فشهد أربعة بأنها كانت مزروعة قمحاً وشهد أربعة بأنها كانت مزروعة حمصاً ، فكيف تطمئن إلى مثل هذه الشهادات التي تتكرر في كل يوم .

وقد عمدت إلى الاتصال باثنين من الفقهاء الموثوقين عندي هما الشيخ علي حلاوي في قاقعية الجسر ، والشيخ محمد علي نعمة في حبّوش ، فكنت أبعث فأسألهما سراً عما يعلمان من أمر الشهود ، وهذا أشبه بما كان يعرف في القديم بتزكية الشهود . فكان يخبرني كل منهما بما يعلم من أمر الشاهد المسؤول عنه ، وكانت لهما اتصالات بالقرى المجاورة لقريتيهما ويعرفان الكثير من أحوالها .

بيوع الأرض

ومما واجهني في الأيام الأولى لبدء العمل فأربكني كل الإرباك هو أن بيوع الأرض في قرى جبل عمل يتم تسجيلها على ورقة يوقعها البائع ، ويوقع معه فقيه القرية وثلاثة أو أربعة من القرية بصفتهم شهود على البيع ، فتصبح هذه الورقة البسيطة أوثق وثيقة .

وجاءت الحرب العالمية الثانية فارتفع سعر الأرض وهبطت قيمة العملة الورقية فكشر الطامعون من البائعين عن أنيابهم فتقدموا بدعاوى يطالبون بها باسترداد الأرض واستعدادهم لإعادة ما قبضوه من الثمن . وكان هذا البيع باطلاً في نظر القانون ، لأن بيع الأرض لا يتم بهذه الطريقة البسيطة، بل له شروط غير مجتمعة في هذه البيوع القروية .

فكيف أسمح لنفسي أنا بأن أحكم برد الأرض المباعة إلى بائعها ، وسلبها من مشتريها بعد أن يرد إليه الثمن الذي أصبحت قيمته أقل من نصف ما كانت عليه أيام البيع .

وفكرت في أول الأمر بأن أحكم بصحة البيع وأترك لمحكمة الاستئناف أن تبطل حكمي فتكون هي التي حكمت لا أنا . ولكني لم أجد في هذه الطريقة حلاً معقولاً .

وبعد أسبوع من بدء عملي في القضاء كان أمامي أكثر من عشرين دعوى في هذا الموضوع معظمها من قرية انصار ، فأجلت هذه الدعاوى إلى أكثر من شهر لعلّي أجد في هذه المدة حلاً . ووجدت الحل فالقانون كان معرباً عن القانون الفرنسي ، وفيه نص بأن الأرض تنتقل من مالك إلى مالك فيما تنتقل به (بمفعول العقود). والشارع الفرنسي حين وضع القانون كان ينظر إلى الواقع الفرنسي حيث تجري عقود بيع الأرض في الدوائر الحكومية وبموجب عقود ووثائق حكومية ، لا في ديوان فقيه القرية وبموجب وثيقة قروية تحمل تواقيع الفقيه وبعض أهل القرية . لذلك لم يقيد العقد بأي قيد .

وما دام (مفعول العقود) غير مقيد بشيء وغير مشترط فيه شيء ، فهذا عقد صريح واضح . وليس العقد إلا إيجاباً وقبولاً ، والإيجاب والقبول هما أساس هذه الورقة القروية التي يستند إليها هذا المشتري القروي .

وصدرت الأحكام على هذا الأساس ، ولكي أضمن عدم وجود ثغرة فيها تنفذ منها محكمة الإستئناف ، فقد عللت كل حكم تعليلاً دقيقاً مفصلاً ، مبيناً فيه فيما بيّنت تقاليد القرى وعرفها في مثل هذه البيوع . وقد كشفت لي هذه الدعاوى عن حقائق كثير من الناس المتظاهرين بالصلاح ، فقد كان بعضهم في أول من طالب بإعادة الأرض إليه .

وجاءني أحدهم وكان ذا مظهر وقور من عمامة وجبة ولحية وسن متقدمة ، فاستقبلته في المنزل ظانّاً أنها زيارة شخصية ، ولكن تبين أنه هو الآخر يريد استرداد أرضه معللاً ذلك بأنه باع الأرض وأرسل بثمنها ولده إلى أفريقيا مهاجراً في طلب الرزق ، وأن ابنه لم ينجح في مهجره ، كأن مشتري الأرض مسؤول عن نجاح ابنه وعدم نجاحه .

ورحت أنتظر قرارات محكمة الأستئناف ، فإذا بها تقر أحكامي ، فارتحت عند ذلك كل الإرتياح .

ثم إذا بي أفاجأ بشيء جديد : ذلك أن معظم المشترين كانوا قد بدؤوا يسيئون الظن بالناس ، ويشعرون بأن طلائع ضياع الثقة قد أطلت ، وأن الزمن آخذ بالتغير ، لذلك احتاطوا لحفظ حقهم بأن ضاعفوا ذكر الثمن في ورقة البيع . فإذا كان الثمن الحقيقي مثلاً ألف ليرة ، ذكروه في ورقة البيع ألفي ليرة ، وذلك زجراً للبائعين عن أن يقدموا على طلب إعادة الأرض إليهم خوفاً من دفع الثمن المضاعف الذي أقروا في الورقة بأنهم قبضوه .

ولكن هذا الاحتراز لم يفد شيئاً لأن ثمن الأرض قد ازداد أثناء الحرب أكثر من الضعف ، كما أن النقد الورقي قد هبطت قيمته ، لذلك فإن البائع كان مستعداً لأن يدفع ضعف ما قبضه من ثمن أرضه على أن يستردها .

لقد فوجئت بأن هؤلاء البائعين قد أقاموا دعاوى جديدة يقولون فيها بأنهم لم يقبضوا ثمن أرضهم المسجل في ورقة البيع كاملاً ، وأنهم يطلبون تحليف الشهود اليمين بأنهم دفعوا هذا الثمن بتمامه .

وقد كان هذا تدبيراً شيطانياً بارعاً ، ورأيت أنا أن المشترين سيكونون بين أمرين : إما أن يحلفوا يميناً كاذبة فينجوا من دفع ثمن الأرض مضاعفاً ، أو أن يتورعوا من حلف هذه اليمين فيغرموا المال .

ولكنني وجدت الحل لذلك بأن حددت نص اليمين على هذا الشكل : (احلف بالله العظيم أن ذمتي بريئة من ثمن هذه الأرض) .

وقد حاول أحد المحامين الاعتراض على هذا النص ، ولكني لم أبال به ، وهكذا نجا المشترون من دفع ثمن ما اشتروه مرتين ، ونجوا من حلف اليمين الكاذبة .

وعلى ذكر اليمين ، فقد حدث مرة أن وقعت في إحدى القرى وقعة دامية استعمل فيها السلاح الناري وأدى الأمر إلى وقوع جرحى خطرين ، فحضر من صيدا قاضي التحقيق والمدعي العام وبعد أن بدءا التحقيق في القرية القريبة من النباطية جاءا يكملانه في مكتبي واستدعي الشهود والمدعى عليهم واحداً واحداً . وكان قاضي التحقيق يحلّف الشهود اليمين المعتادة ، فيحلفوها ، والله أعلم بعد ذلك بصحة شهادتهم أو زورها .

وكنت أعرف أنا أن الكثيرين يرون أن اليمين التي يحلفها الشاهد هي يمين باطلة ، لأن لا يمين شرعاً على الشهادة ، وحالف اليمين في مثل هذا

الموقف ليس منكراً ليصح تحليفه اليمين ، لذلك كانوا لا يبالون بأن يحلفوا يمين الشهادة ، ثم يشهدوا بما يشاءون مستهينين بشهادة الزور ، ومن يستهين بشهادة الزور لا تهمه تلك اليمين .

وبدأ أحد الشهود يؤدي شهادة خطرة ستؤدي إذا كانت كاذبة إلى إتهام بريئين تهماً جنائية كبيرة . وكنت شبه موقن بأنه يشهد زوراً فاقترحت على المدعي العام وعلى قاضي التحقيق بأن يوقفا الشاهد عن إكمال شهادته ، وأن يتركا لي تحليفه يميناً خاصة يكمل بعدها شهادته فوافقا على ذلك .

فقلت له قل : إني بريء من الله ورسوله محمد بن عبد الله ومن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء والحسن والحسين وباقي الأئمة الاثني عشر إذا كان ما أشهد به غير صحيح .

فبدا عليه الإضطراب والتململ والتردد ، ولما رأى المدعي العام وقاضي التحقيق ما بدا عليه أصرّا بأن يردد ما أقوله له ، ففعل . ثم ظهر التراجع واضحاً فيما يدلي به .

وبعد ذلك صار المدعي العام وقاضي التحقيق بعد أن يحلّفا الشاهد اليمين المعتادة يطلبان إليّ أن أحلّفه اليمين الخاصة .

وهذا نظير ما ذكره محمد سيرجية عما جرى له عندما كان قاضياً للتحقيق في أدلب حينما شكك بشهادة الشهود في إحدى القضايا فسأل أحد العارفين بأحوالهم قائلاً له : كيف تجرّأ الشهود على حلف اليمين الكاذبة أمامي ، فكان جواب المسؤول : « إحنا البدو نعتبر أن الحكومة عدوة لنا وقد جرى العرف عندنا على جواز الحلف كذباً أمام الأعداء وهم موظفو الحكومة ، ولو كان ذلك على القرآن العظيم ، فإذا شئت أن تكتشف الحقيقة فيجب عليك أن تحلّف الشهود اليمين التي يقدسونها وبالطريقة التي تعارفوا عليها . وفي هذه الحالة يجب أن يحلفوا أمامي بصفتي زعيم عشيرتهم اليمين التالية : « وحق العود والرب المعبود وسليمان بن داود اللي صبغ العبيد واللي لينّ الحديد واللي رفع السما من غير عمود » .

ويقول القاضي سيرجيه أنه فعل ما أشار به زعيم العشيرة فذكر الشهود عند ذلك الحقيقة ورجعوا عن شهاداتهم السابقة .

خلافات القرى

وكانت إحدى القرى مشهورة بنزاعات أهلها المنقسمين إلى أسرتين متنافستين ، وكانت الدعاوى بينهم لا تنقطع ، وقل أن يخلو أسبوع دون أن يكون لدى المحكمة دعوى من تلك القرية .

وجاءنا يوماً أن شجاراً عنيفاً عاماً حدث فيها اشترك فيه جميع رجال الأسرتين وأدى إلى جرحى كثيرين ، فذهبت ومعي ضابط الدرك وبدأت بإجراء التحقيق ، ثم أمرت بتوقيف كل من ورد ذكره في التحقيق وفي الطليعة رئيسا الأسرتين ، وشمل التوقيف معظم رجال الأسرتين ، ولم أستثن من التوقيف إلا الشيوخ وسقنا الجميع إلى سجن النباطية وكان عبارة عن غرفة واحدة .

وبعد أن صار الجميع في السجن قلت لهم : لن تخرجوا من هنا إلا متصالحين ، فأصروا على عدائهم أسبوعاً واحداً ، ولما ضاق بهم الأمر في السجن أخذوا يتعاتبون ثم انتهى بهم الأمر إلى المصالحة التامة ، فأرسلوا إليّ أن تمّ الصلح بيننا فأفرجت عنهم ، ومنذ تلك الحادثة لم نعد نسمع شيئاً عن خلافاتهم وانقطعت دعاواهم عن المحكمة .

مبدأ وطني

وكان من مشاكلي في المحكمة ، شكل عقائدي لا قضائي ، هو أننا كنّا في ذلك الوقت لا نؤمن بالكيان اللبناني ، وكنا نرى أن منطقتنا (جبل عامل) قد ألحقت به غصباً وبالقوة الفرنسية ، وكانت أهدافنا الوحدة السورية في المرحلة الأولى ، ثم الوحدة العربية في المرحلة الثانية .

لذلك لم نكن نقر تسمية جبل عامل باسم (لبنان الجنوبي) أو (الجنوب) باعتباره جنوب لبنان ، ونرى أن كلمة (الجنوب) تعني عندنا جنوب الجزيرة العربية أي اليمن .

وعندما توليت أمر محكمة النباطية كان لا بد لي من أن أرسل بين الوقت والآخر مذكرات إلى المدعي العام الذي كان لقبه (مدعي عام لبنان الجنوبي) أو إلى غيره من الدوائر التي كانت تحمل كلها صفة (لبنان الجنوبي) أو (الجنوب) .

وكان مما لا يتفق مع مبادئي الوطنية أن أعترف باسم (لبنان الجنوبي) أو (الجنوب) إسماً لجبل عامل وأن أسجل هذا الإعتراف على أوراق رسمية موقعة مني .

ولم يطل أمر إيجاد الحل ، فكانت رسائلي الموجهة إلى المدعي العام تصفه بهذه الصفة : (مدعي عام صيدا) ، وكذلك الموجهة إلى غيره من الدوائر الرسمية .

ولم ينتبه أحد إلى ذلك وظل الأمر مستمراً حتى تركت محكمة النباطية .

ثم عدنا بعد ذلك نؤمن بلبنان العربي المنضم إلى الجامعة العربية ، وإن ظللت حتى الساعة أرفض استبدال اسم (الجنوب) بإسم (جبل عامل) ، وقد عبّرت عن هذا الرفض في كثير مما كتبته في الصحف ، وليس لهذا الرفض علاقة بالكيان اللبناني ، بل هو حرص مني على هذا الإسم التاريخي الذي عاش على الزمن منارة من منارات العلم والأدب على أنه كان لي في هذا الموضوع مشكل آخر ، فقد كنت أبعث بمقالات إلى مجلة الرسالة المصرية ، ومن الطبيعي أن أوقع تلك المقالات مضيفاً إلى التوقيع إسم البلد الذي أقيم فيه وهو (النباطية) . وقد كان أسم (النباطية) وحدها لا يعني شيئاً لقراء الرسالة خارج لبنان ، فلا بدّ في التعريف بها من ذكر إسم القطر الكائنة فيه ، وقد كان محرماً عندي أن أذكر النباطية مضافة إلى لبنان ، وفكرت طويلاً في هذا المشكل ، وأذكر أن المقال الأول المعد لإرساله إلى مجلة الرسالة بقي مطوياً عندي أكثر من شهر لأجد الحل . وأخيراً جازفت بأن ذكرت النباطية مقرونة بإسم (بلاد الشام) . ولم ينتبه أحد من (الرسميين) لذلك لأن هؤلاء ليسوا من قرّاء مجلة الرسالة .

من الأحكام

ومن طرائف الأحكام القضائية التي أصدرتها الحكم التالي :

وهذا نصه :

أساس ٢١٩

قرار ٢٣٤

المدعي الحق العام

المدعى عليه علي يوسف الحايك ـ عدشيت

باسم الشعب اللبناني

في المحاكمة العلنية تبين أن ما نسب إلى المدعى عليه علي يوسف الحايك من عدشيت هو أنه كان يحرث الأرض على رأس بقر وحمار ، وأن في هذا عدم رفق بالحمار ينطبق على القرار ٣٠١٦ .

وحيث أنه قبل أن تعلن العقوبة التي يستحقها المدعى عليه ، علينا أن نرجع إلى النص القانوني الذي استند إليه الدرك في تجريمهم للمدعى عليه ، فإن المادة الأولى من القرار ٣٠١٦ تصرح بأنه يعاقب من ثمانية إلى ستة أشهر ، وبجزاء نقدي من ليرتين إلى خمس وعشرين ليرة ، كل من يسيء معاملة حيوان بلا ضرورة ، أو بإتيان عمل غير جائز للبلوغ إلى غاية مقبولة ، سواء كان بضربه أو بتعذيبه وكل من يحمل حيواناً على القيام بعمل يفوق مقدرته أو يؤلمه إلى آخر ما جاء في المادة المذكورة .

فهل ينطبق هذا النص القانوني على عمل المدعى عليه ؟ .

إن هذه المحكمة تجيب على هذا بكلمة « لا » ، وهي مطمئنة إلى هذا الجواب . فالمادة القانونية تنص على أن يكون هناك إساءة للحيوان ، وأن تكون هذه الإساءة بلا ضرورة ، فهل في الحراثة على الحمار إساءة إليه ؟ .

إذا كان المشترع يقصد الإساءة المعنوية ، أو بعبارة أوضح الإهانة ، فلا شك أنه ليس في الحراثة على الحمار إهانة له ، بل ربما كان فيها تكريم له ، وذلك يرفعه عن مستوى بني جنسه الحمير وقرنه إلى فصيلة أعلى هي البقر ! .

ومهما يكن من أمر ، فمن ذا يستطيع أن يقول أن وضع النير على العنق هو أكثر إهانة من الركوب على الظهر ؟ وإذا كان المشترع يقصد الإساءة المادية ، فأغلب الظن أن لا فرق عند الحمار بين أن توقره بالأحمال الثقيلة ، وبين أن تشد إليه المحراث . بل ربما كانت الثانية أقل مشقة وأخف كلفة . وعلى كل فمرجع ذلك إلى الحمار وحده وما دام الحمار عاجزاً عن إيضاح هذه النقطة فتظل موضع شك وفي حالة الشك لا بد من مراعاة جانب المدعى عليه .

وحيث أن الشرط الثاني الذي تشترطه المادة إلى جانب الإساءة ، هو أن تكون الإساءة بلا ضرورة . ونحن نفهم من الضرورة أنها هي التي تلجىء الإنسان إلى الإقدام على ما أقدم عليه . فأية ضرورة ملجئة أكثر من ضرورة هذا الهرم ، ذي الأطمار البالية والفقر المدقع ، وأية ضرورة أعظم من ضرورة هذا الفلاح المتهدم الذي يعلن في المحكمة أنه فقد ثوره ، فعجز عن شراء غيره ؟ [illegible]

وحيث أنه يظهر أن ما رأيناه هذه الفقرة لا تنطبق على حال المدعى عليه ، [illegible]

فهل تنطبق عليه الفقرات الأخرى [illegible]

أن الفقرة الثانية تنص على أن يأتي الإنسان عملاً غير جائز لبلوغ غاية مقبولة .

وحيث أن القانون لم يحدد الجواز وعدم الجواز . ولم يوضح كيف يكون العمل جائزاً ، فنحن لا نستطيع أن نقول أن عمل المدعى عليه غير جائز ، بل نرى فيه الجواز كل الجواز : فلاح فقير يموت ثوره ، ولا يملك نقوداً ، بل يملك حماراً ، فينتدب حماره العتيد مكان ثوره الفقيد ، إلى أن يفرجها الله عليه ، فيفرجها هو على الحمار . فأي شيء في هذا غير جائز ؟ .

وحيث أنه بقي علينا أن نرى الفقرة التي تقول: «كل من يحمل حيواناً على القيام بعمل يفوق مقدرته أو يؤلمه » . ومن ذا الذي يستطيع أن يبين لنا ما إذا كانت الحراثة تفوق مقدرة الحمار أو تؤلمه أم لا ؟ فالحمار الذي يحمل أثقل الأحمال وأضخم الرجال ، لا يمكن أن تفوق الحراثة مقدرته . والحمار الذي لا تؤلمه الحبال المشدودة لا تؤلمه كذلك الخشبات المدودة ! .

وحيث أن المحكمة فضلاً عما تقدم ، ترى للقضية وجهاً آخر ، فهي تتساءل : أيهما في نظر القانون أبعد عن الرفق ، أهو أن تقذف بهذا العجوز إلى ظلمات السجن ، أم أن يحرث هو على الحمار .

أما هذه المحكمة ، فترى إنقاذ جسم هذا الشيخ الفقير من الحبس وجيبه من الجزاء ، أقرب للرفق من إنقاذ الحمار من الحراثة ، ما دام الحمار إذا لم يحرث ، فسيحمل . وترى أن حبّات من القمح يزرعها المدعى عليه على حماره ، فتخرج سنابلها وتؤتي أكلها ، فيكون فيها في هذه الأيام السود لقمة لجائع وبلغة لفقير ، هي أجدى على القانون وعلى المجتمع من إلقائه في السجن وتغريمه بالجزاء وإراحة حماره ! .

لذلك ، حكمت ببراءة المدعى عليه حكماً وجاهياً ، قابلاً الإستئناف ، وأعطي وأفهم علناً .

الحاكم : حسن الأمين

في طريق الإستقالة

وفي خلال العمل في محكمة النباطية كأن الصهاينة نشطين في عمليات تهريب اليهود إلى فلسطين ، ذلك أن الإنكليز كانوا يسمحون للصهاينة بإدخال عدد محدود من اليهود يبلغ عشرات الألوف كل عام ، وهذا ما كان يسمى يومذاك بالهجرة القانونية ، ولكن الصهاينة كانوا يعملون على إدخال المهاجرين إلى فلسطين زيادة عن العدد المسموح به ، وذلك بتهريبهم عبر الحدود البرية من لبنان ، فتنبهت لذلك ، ومع أن سلطتي في المنطقة هي سلطة قضائية بحتة ، ولا سلطة إدارية لي لأتدخل في هذا الموضوع فقد صممت على أن أحارب هذا التهريب بكل وسيلة ، وكانت السلطة الإدارية يومذاك تتمثل بضابط للدرك ، ولم يكن هذا الضابط ممن يهتمون بهذه الأمور ، ولكنني استطعت أن أحمله على التعاون معي في مقاومة تهريب اليهود ، وطلبت إليه أن ينظم (دورية) ليلية تراقب مداخل النباطية ، لأن الطريق الوحيد للمهربين هي طريق النباطية ، ففعل الضابط ذلك ، وفي أول ليلة تولت فيها (الدورية) عملها قبضت على قافلة من السيارات كانت منطلقة باليهود إلى الحدود الفلسطينية ، وكان بينهم يهود من أوروبا ويهود من العراق ويهود من سوريا نساءاً ورجالاً وشباناً ، فأوقف الدرك

القافلة وساقوا الجميع إلى السجن بمن فيهم اللبنانيون سائقوا السيارات التي كانت تقل اليهود .

وبكر الضابط إلى منزلي ليخبرني بما جرى وليقول أنه كان عند حسن ظنّي فنفذ جميع تعليماتي .

ومن العجيب أنه لم يكد الضابط يخرج حتى فوجئت وأنا على باب منزلي برجلين غريبين كانا على وشك الدخول عليّ إلى المنزل ، فتقدم أحدهما وعرف بنفسه بأنه صاحب فندق شهير في بحمدون وقال أن رفيقه عراقي ، فحسبت الرجل العراقي ممن سمع بي أيام إقامتي في العراق وأنه جاء يزورني ، إذ كثيراً ما كنت أسعد بزيارة بعض العراقيين ممن عرفتهم في العراق وممن لم أعرفهم ، فحسبت القادم واحداً منهم فهممت بالعودة إلى المنزل ، ولكنني شعرت بأن صاحب الفندق ورفيقه مرتبكين جداً وأنهما يحاولان الكلام ، ولا أدري كيف أحسست في الحال بأن الأمر يتعلق بالقافلة المقبوض عليها ، فاستفسرتها فاعترفا بذلك . ولوح الفندقي بالمال فطردتها طرداً قبيحاً .

والذي حيّرني هو أن القافلة قبض عليها حول انتصاف الليل ، فكيف بلغ الخبر لليهودي في الفندق وكيف استطاع هو والفندقي الحضور خلال هذه المدة القصيرة . فأدركت خطر الشبكة الصهيونية وامتداد جذورها وتنظيم أمورها التنظيم الرهيب .

ومضيت إلى المحكمة فوجدت أمامي ملف القضية وكان الضابط قد نظمه وتركه بتصرفي . ولم أكد أبدأ بقراءته حتى طُرق الباب ودخل عليّ صديق حميم ، فعجبت من دخوله ، وكانت عادتي منع موظفي المحكمة أن لا يسمحوا بدخول أحد عليّ صباحاً ، أيّاً كان طالب الإذن بالدخول، وذلك أني علمت بأن بعض محترفي الوجاهة في القرى كانوا يوهمون المتداعين بأنهم يستطيعون التوسُّط لهم عندي في دعاواهم ، فكانوا يغتنمون فرصة وجودي في الصباح قبل خروجي إلى كرسي الحكم فيدخلون عليّ ولا يتكلمون بشيء سوى المجاملات والإستفسار عن الصحة والراحة وما أشبه ذلك حتى إنهم لا يجلسون بل أن الواحد منهم يتكلم بمثل هذا الكلام ثم يمضي مسرعاً ، فيقابل أحد المتداعيين ويطمئنه بأنه توسّط لديّ في قضيته فإن جاء الحكم لصالحه أوهمه بأن ذلك كان نتيجة توسّطه ، وإن لم يجيء لصالحه قال له أن القضية صعبة جداً .

ولقد رابني دخول هؤلاء عليّ في الصباح وبعد التحرّي علمت الحقيقة فمنعت أياً كان من الدخول عليّ في الصباح ، لذلك بدوت ممتعضاً من دخول هذا الصديق ، فقال أنه وجد صعوبة في الدخول عليّ وأن الموظفين لم يسمحوا له بالدخول إلا بعد أن أقنعهم بأنه ذاهب إلى دمشق وإني ربما رغبت بأن أوصيه بشيء لوالدي . ثم دخل في الموضوع بدون مقدمات وقال بأنه مفوض بأن يدفع لي مبلغاً ضخماً حدّده ، وأن هذا المبلغ قابل للزيادة فيما إذا تساهلت في قضية اليهود ، فطردته شر الطرد .

وقبل الإفاضة في الحديث عما جرى ، لا بد لي من أن أوضح للقارىء أن أي تساهل في شأنهم لا يخشى معه من أية مسؤولية .

وإني لو اطلقتهم في الحال وحدّدت يوماً يحضرون فيه جلسة محاكمتهم ، لما كان في ذلك أي مؤاخذة ، وإن أردت أن اتشدد قليلاً فأطلقهم بكفالة كان ذلك صحيحاً أيضاً .

ومع رغبتي في التشديد عليهم كنت أعلم أن إمكانية هذه الرغبة محدودة جداً ، وأني لو حكمتهم بأقصى العقوبة وهو ثلاثة أشهر ومائة وخمسين ليرة لبنانية على كل واحد منهم لأمكنهم استئناف الحكم ، وبذلك يخرجون عن يدي ، وكنت واثقاً أن محكمة الإستئناف ستطلقهم بمجرد وصولهم إليها . لذلك أردت أن أستعمل أقصى ما يسمح به لي القانون من التشديد عليهم قبل أن يطلق غيري سراحهم ، وكانت وسيلتي الوحيدة لذلك هي أن أقرر محاكمتهم موقوفين فيبقون في السجن حتى يوم محاكمتهم والحكم عليهم ، وبعد ذلك فليفعل بهم غيري ما يشاء .

وكما دهشت لسرعة وصول الخبر إلى ذويهم في بحمدون دهشت لسرعة اهتدائهم إلى إسم صديقي النباطي واختياره هو بالذات للتوسط لديّ . وأدركت أن الشبكة الصهيونية ستتسع وتمتد ولن تتركني هادئاً لحظة واحدة ، لذلك أسرعت في الحال إلى الإتصال هاتفياً بالمدعي العام في صيدا فيكتور عيسى ولم يكن مع الأسف ممن يثيرهم ذكر اليهود والصهيونية ، لذلك لم آت على ذكر هذا الإسم ، بل أثرت في نفسه المنطق القانوني فقط فقلت له أننا في منطقة الحدود التي يكثر فيها تهريب الناس إلى الخارج ، وأن تحت يدي الآن قافلة كانت تحاول اجتياز الحدود تهريباً وإني رأيت أن أتشدد مع أفرادها فقررت محاكمتهم ومحاكمة أدلائهم وسائقي السيارات موقوفين فهل أنت موافق على ذلك ؟ . فقال نعم ما تصنع وضروري أن تتشدد في الموضوع .

سألته هذا السؤال وسمعت منه هذا الجواب وأنا أعلم علم اليقين بأنه بعد أيام سيكون في طليعة من يطالبني بالتساهل معهم ! . .

ولم يمض يومان على توقيفهم حتى انهالت عليّ التدخلات من كل جانب وجاءتني الوساطات والبطاقات والرسائل من بيروت ممن لم يكن يخطر ببالي أن يتوسطوا في مثل هذه الأمور ، بل في غيرها من الأمور ، واشتد الضغط من كل ناحية .

وكنت في كل يوم أزداد علماً بمدى امتداد الأخطبوط الصهيوني ومدى أحكام أمره في كل ناحية .

وفي اليوم الخامس من توقيفهم صحّ ما توقعته فاتصل بي مدعي عام صيدا هاتفياً وكلمني بشيء من الخجل طالباً إليّ التساهل وإطلاق سبيل الموقوفين بكفالة ! . .

فأجبته بكل هدوء بأني لا أرى ذلك وسأحاكمهم موقوفين . . . ومضى يومان آخران كان الضغط فيهما لم ينقطع ، وإذا بالمدعي العام يعاود الإتصال بي مصراً على التساهل ، وهنا تركت هدوئي وتكلمت بكثير من الصخب وقلت له : ليس معنى اتصالي بك من قبل أني مقيد برأيك ، وقد أبديت رأيك أولاً ثم بدّلته ثانياً ، وأنا لست ملزماً بالعمل بالرأي الثاني .

فأجابني بكل صراحة : أن بيروت تضغط عليّ لأكلمك وأنا أفعل بناء على ضغطها ، ولم أسأله عمّن يعني ببيروت ، بل قلت له : أنني غير مستعد للإصغاء لهذا الضغط ، وأقفلت سمّاعة الهاتف .

وبعد يومين كانت بيروت نفسها تتنازل فتكلمني : فلما نوديت إلى الهاتف حدست بأن الطالب هو بيروت ، وإذا بالمتكلم مدعي عام الاستئناف وقال بأنه يكلمني بلسان الرئيس الأول ألفرد ثابت .

واصطلاح الرئيس الأول كان يطلق على رئيس محكمة التمييز ، ولم يكن يومئذ ما اصطلح على تسميته بعد ذلك (مجلس القضاء الأعلى) المؤلف من مجموعة قضاة كبار ، بل أن صلاحية هذا المجلس كانت كلها بيد من يسمى (الرئيس الأول) لذلك كان ذكر إسمه مخيفاً ، لقوة سلطته واتّساع صلاحياته ، وكان اسمه أوقع في نفوس القضاة من إسم وزير العدلية ، لأن وزير العدلية ليس بدائم في وزارته فهو يتبدل بتبدل الوزارات وما كان أكثر تبدلها في لبنان . أما الرئيس الأول فهو القابع الدائم فوق كرسيه . . .

وطال النقاش بيني وبين مدعي عام الاستئناف ، ولم أتزحزح عن موقفي ، ثم قال : أن الرئيس يريد أن يكلمك بنفسه ، وبدا صوته أول الأمر هادئاً حيياً ، ولما لم ألن عاد مرتفعاً على شيء من الوقاحة ، فارتفع صوتي على صوته ولكن على شيء من التهذيب . ثم أقفل السماعة .

وكنت قد حدست بما سيجري فدعوت ضابط الدرك ليكون الشاهد على المحادثة ، وذلك أنه كان للهاتف اليدوي يومذاك سماعتان يتكلم المتكلم من إحداهما ويسمع في وقت واحد ، ويضع الثانية على أذنه الأخرى ليكون الصوت أكثر وضوحاً ، فأعطيت السماعة الأخرى إلى الضابط فكان يسمع كل ما يقال ، ولما ارتفع صوتي على صوت الرئيس الأول هال الضابط هذا الارتفاع ـ وهو الموظف المتدرج في وظيفته من رتبة إلى رتبة ، والمعتاد على الإنصياع لرؤسائه ـ هاله أن يرتفع صوتي على صوت الرئيس فأخذ يشدّني من سترتي ويقول لي راجياً : طوّل بالك . . . طوّل بالك . . .

ومنذ ذلك اليوم توقف سيل الضغوط ، ولم أعين جلسة للمحاكمة إلا بعد ورود السجلات العدلية التي كان علينا طلبها من بيروت ، فلما وصلت حددت موعد الجلسة ، وجاء يوم المحاكمة فكان يوماً مشهوداً في النباطية احتشد فيه الناس ليروا النتيجة بعد أن شاع أمر الضغوط ، كما حضر عدد من محامي بيروت وصيدا للدفاع ، ومما أسفت له حضور من كنت أعتقد أنهم لا يمكن أن يكونوا مدافعين عن الصهاينة . وكان قد مضى على توقيف المدعى عليهم أكثر من شهر ، وكان هذا أكثر ما أستطيع فعله ، ثم أصدرت الحكم على كل واحد من الجميع بأقصى العقوبة وهو ثلاثة أشهر ومائة وخمسين ليرة لبنانية . وكان بين الموقوفين فتى عراقي من آل شماش وهي أسرة من أغنى أغنياء بغداد فلما سمع الحكم أخذ يبكي ، والله وحده يعلم كم تفعل الدموع في نفسي ، وكيف أضعف أمامها وأحنو على أصحابها مواسياً مشاركاً ، والله وحده يعلم أي قلب بين جنبي ، قلب ينفعل للمهمومين وينفطر للموجعين . . .

ولكن الدمع المترقرق هذه المرة من العيون الصهيونية كان له في نفسي أثر غير الأثر الذي عرفته من قبل ، ولأول مرة في حياتي أجد للدمع مثل هذا الشعور اللطيف ! . . ماذا ؟! أتبدلت إنسانيتي ؟! أتحجرت عاطفتي ؟! أعدت رجلاً غير الرجل الأول الحسّاس المرهف الحسّ ؟! .

أبعد أن كنت أبكي للدموع ، عدت أنا نفسي أثير الدموع ! .

وتطلعت في حناياي ، وجلت في أعماقي ، وتلفت في خاطري ، وحدقت في وجداني ، فرأيت أني لا أزال ذاك الرجل العريق في إنسانيته ، الرجل الذي يبكي للباكين ! .

الرجل الذي لا يطيق احتمال الدمع في عيني إنسان ، بل يحس وكأنه شهب من نار تنصب على جوانحه ! .

وأدركت للتو أن إنسانيتي وحدها هي التي جعلتني أستطيب الدمع هذا النهار ! . وإنني وأنا أفجر الدموع في هذه العيون الصهيونية إنما أحاول أن أحبسها في عيون الألوف من العرب الذين سيبكيهم هؤلاء الأوغاد على أرضهم وأهلهم .

وبمجرد صدور الحكم استأنفه المحامون ، فكان علينا أن نرسل المحكومين موقوفين إلى صيدا ، وشاقني أن أتتبع أمرهم . وكان الفصل صيفاً ، ورئيس محكمة صيدا وأعضاؤها متفرقون في مصايفهم بسبب العطلة القضائية ، فواحد في بلدة سير الضنّيّة في الشمال وواحد في بلدة روم في الجنوب ، وآخر في البترون ، ويسحر ساحر جمعوهم في نفس اليوم من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، فلما اجْتمعوا نظروا في طلب إخلاء السبيل المقدم إليهم من المحكومين الموقوفين فقرروا بالإجماع إخلاء سبيلهم فانطلقوا أحراراً يعاودون محاولة الوصول إلى فلسطين ، وقد وصلوا إليها ـ ولا شك ـ مع من وصلها . . .

وهنا قررت أن أستقيل من القضاء .

وبينا أنا أتهيأ لتقديم الإستقالة وألملم أوراقي وأستجمع أموري صدر قرار بنقلي إلى محكمة زحلة فانتدبني رئيسها لأشغال محكمة راشيا ، ثم أرسلت استقالتي ولم أنتظر قبولها ، بل تركت العمل بمجرد إرسال الاستقالة .

وفي خلال ترددي على راشيا نظمت القصيدة التالية :

على القنن الشماء في الثلج نازح ... تناغاديه أبكار الأسى وتراوح
وفي التيم من عليا البقاع متيم ... رمته براشيا الخطوب الفوادح
وحط به في لجة البعد والنوى ... زمان كما يهوى اللئام منافح
على التيم تضويني الهموم فاغتدي ... وفي الصدر من جمر الصبابة لافح
وأنظر حولي لا حبيب أبثه ... هواي ولا خل بهمي أصارح
لك الله يا قلبي أمضتك صابرا ... سوانح هم في النوى وبوارح
غرام وشوق واضطهاد وغربة ... أصخر أصم هذه أم جوانح

***

تطلعت أبغي من أحباي نظرة ... فحالت جبال دونها وأباطح
وأشرفت من شم الرعان فهزني ... لعينيك شوق يا (هنيدة) فاضح
وأطللت في التيم البعيد فراعني ... على التيم أني عن ديارك نازح
متى تسنح الغيد الحسان استفزني ... إليك من الغيد الحسان سوانح
وإن هبت الأنسام صبحاً أثارني ... إليك من الأنسام في الصبح نافح
وإن لاح بدر التم أهفو لأنه ... بحسنك بدر التم في الليل لائح
وإستاف أعراف الخزامى لأنها ... بطيبك أعراف الخزامي فوائح

واعشق في الدوح الطيور لأنها   بصوتك في الدوح الطيور صوادح
على كل روض من صباك مشابه   وفي كل حسن من سناك ملامح
أبثك في التيم البعيد خواطري   وأشكو تباريح الهوى وأطارح
وأهوى على التيم البعيد لو أنني   إليك مع الركب المغذين رائح
تكاد بوادي التيم من لوعة الأسى   تغالب عيني الدموع السوافح
تطول ليالينا على التيم أنها   ليال بأوقار الهموم روازح
وما كان وادي التيم في النفس زاهراً   ولكنه في النفس أسود كالح
شعاب حباها الله خير محاسن   ولكنها عند المشوق مقابح
تطل على الوادي الثلوج نواصعاً   فتشرق في الوادي الذرى والبطائح
وتلمع في السفح الصخور كأنها   دراري في سود الربى ومصابح
وتمرع بالزرع السهول نضيرة   وتعبق بالأطياب فيها الروائح
لقد كنت قبل اليوم بالحسن شاديا   ولكنني في التيم بالحسن نائح
فهيهات أن تحلو لعيني ساعة   مطالع حسن في القرى ومسارح
ستخمد في التيم الجميل نفوسنا   وتجمد عن وصف الجمال القرائح

إلى مصر

وكانت استقالتي في أواخر شهر شباط سنة ١٩٤٥ وكانت قد بلغت أخباري أصدقاء لي في العراق فدعوني إلى الحضور إلى بغداد، فأجبتهم ، ولكنني فضلت أن يكون ذلك في مفتتح السنة الدراسية . وكنت لم أزر مصر بعد فرأيت أن أقضي ما تبقى من شهور السنة حتى أوائل الصيف في مصر .

فسافرت من دمشق في القطار إلى حيفا ، ومنها انتقلت إلى القدس فيافا ، ثم إياباً إلى حيفا .

وفي تلك الرحلة أدركت حقيقة التغلغل الصهيوني في فلسطين ومقدار ما أعده اليهود من وسائل للإستيلاء عليها . كما أدركت الفوضى العربية في مقاومتهم ، والتنظيم في جهودهم وحياتهم ، فكان حزني عظيماً على قطعة من وطني استحكم فيها أمر هؤلاء الغرباء الذين ينذر وجودهم بشر مستطير . . .

واستأنفت السفر بالقطار من حيفا إلى القاهرة فعبر بنا صحراء سيناء حتى انتهينا إلى قاهرة المعز الباذخة .

وفي القاهرة آثرت العزلة والاستمتاع بمعالم المدينة ، والتغلغل في الأوساط الشعبية المصرية وما فيها من ظرف وطرافة .

وكان أول الظرفاء صاحب الفندق الذي آواني لليلة واحدة ، وذلك أنني سألت قبل سفري صديقاً دمشقياً أقام فترة في مصر عن فندق أنزل به فأعطاني إسم (فندق ريش) .

فلما وصلته كان مظهره الخارجي لا بأس به ، ولكنني لما دخلته تبين لي عدم صلاحه ، ولما كنت متعباً بعد ليلة في القطار ، رأيت قضاء ليلة فيه على أن أغادره في الصباح .

فطلبت من صاحبه إعطائي غرفة بسرير واحد ، فأجاب بأن لا غرفة عنده بسرير واحد . فقلت أن أستأجر السريرين معاً ، فأبى ذلك متعللاً بأنه إذا رفض قبول أحد زبائنه فسيذهب إلى فندق آخر يعتاد بعد ذلك عليه فيفقد هو أحد زبائنه الدائمين . فاستسلمت للأمر الواقع على أمل أن لا يأتي أحد . ولكن لم أكد أستلقي على الفراش حتى فوجئت بقادم لم يكد يغمض عينيه حتى اندفع بشخير رهيب فلم أنم طول الليل .

وفي الصباح عنفت صاحب الفندق على ذلك وذهبت فحجزت غرفة في فندق الكونتيننتال وعدت إلى فندق ريش لأخذ متاعي .

فسألني صاحب الفندق عن الفندق الذي سأنتقل إليه فأخبرته بأنه فندق الكونتيننتال ، وسألته أليس هو أحسن من فندقك ؟ .

وهنا بدت النكتة المصرية ، فأجاب : الكنيف هناك أحسن من هنا . ثم قلت له : ثم لا يوجد هناك من يشخُر .

فقال : حتى لو كان يشخُر ، دا شخيره يبقى مزيكة .

وفي فندق الكونتيننتال لاحظت أن أحد المولجين بالمصعد يبدو على عكس زملائه عابساً صامتاً لا يجامل الزبائن لا بإشارة ولا بكلمة .

فاستغربت أمره وخطر لي أن أستطلع أحواله ، فسألته يوماً أنت إسمك إيه ؟ فبدا الغضب على وجهه لهذا الفضول ، ولكنه لم يستطع إلا الإجابة ، فقال بنفور : محمد .

وفي صباح اليوم الثاني فاجأته قائلاً بكل رقة : صباح الخير يا محمد . فلان قليلاً ، وأجاب : صباح الخير . ولكن الغضب والنفور لم يفارقاه لحسبانه ذلك فضولاً مغيظاً .

ولاحظت أنه يحمل دائماً في يده جريدة أو مجلة . وكانت جرائد الصباح تصلني دائماً إلى الغرفة فحملتها معي. وفاجأته كما بالأمس قائلاً : صباح الخير يا محمد ، خذ هذه الجرائد واقرأها .

فلان كل اللين ، وأجاب : صباح الخير . شكراً . وشعرت أن هذا الكلام صادر من أعماق قلبه .

وفي الغد سبقني هو بقول : صباح الخير ، وأخذ الجرائد شاكراً .

ثم صرنا صديقين حميمين وتبين لي أنه على جانب كبير من الذكاء وخفة الروح والإطلاع .

وكانت نقمته وعبوسه بسبب ما يراه في الفندق الكبير من بطر وكبرياء واستعلاء وتأمّر ، في حين أن نصيبه من الفندق خدمة البطرين المتكبرين المستعلين المتأمرين .

وكانت الحرب العالمية الثانية في أيامها الأخيرة ، وكان رئيس الوزارة المصري في ذلك الوقت أحمد ماهر . وكان محمد هذا يكرهه كرهاً شديداً . وفي يوم من الأيام أعلنت مصر الحرب على ألمانيا أسوة بغيرها من الدول التي أخذت تتسابق لإعلان الحرب لكي يكون لها مكان في مؤتمر السلم القادم .

فاغتاظ محمد غيظاً شديداً من إعلان الحرب على ألمانيا ، فسألته ولماذا هذا الغيظ ؟ .

فأجابني بهذا الجواب الحكيم الرائع

ده لا حرب دين ولا حرب وطن ، إللي يموت فيها يموت فطيس .

وفي المساء اغتيل أحمد ماهر ، فسألت محمداً عن الأخبار فاختصر الموقف بهاتين الكلمتين : اتلخبطت خالص .

وقد كانت له تعليقات على نزلاء الفندق وتحركاتهم هي غاية في الطرافة والحكمة والسخرية .

فمن ذلك أني كنت أجلس غير بعيد عن المصعد ، فخرجت من المصعد الهابط ثلاث سيدات تجر كل منهن وراءها كلباً بمقود ، فأيقنت أنه لا بد لمحمد من تعليق على هذا المشهد . فسألته : إزّاي الحال يا محمد ؟ .

فقال :

ولا مؤاخذة من سيادتك ، زيّ ما انت شايف ، نطلّع كلاب وننزّل كلاب (بتشديد اللام في نطلّع ، والزاء في ننزّل) .

وفي القاهرة نظمت القصيدة التالية :

صورتها

أصورتها أين الجبيبة والهوى   وأين ليالي الدل والبسمات
أصورتها أين العشايا زواهراً   وأين تلاقينا على الشرفات
وأين على الشبّاك مجلى جمالها   ومشرقها الوضاء في الغرفات
غداة تثنى في الرحاب طروبة   وتختال في أترابها الخفرات
وترنو بعينيها إليّ صبّابة   فتكسر من لحظي ومن نظراتي
أصورتها أين الخمائل غضة   وأين سنا الأحباب في الربوات
وأين على الروضات مطلع سربهم   ومسراهم الزاهي إلى الحرجات
أصورتها لم يبق غير تصور   لفتنة عينيها وللوجنات
لقد أطبق الهم المبرح وانطوى   فؤادي على الأشجان والحسرات
أراك فتهتاجين كامن لوعتي   وتذكين من وجدي ومن لهفاتي
وانظر عينيها عليك هوامداً   وعهدي بها بالحب مؤتلقات
أصورتها ما كنت ناقعة الحشا   إذا ثارت الأشواق مضطرمات
فأين كلألاء الصباح جبينها   وأين شذا أعرافها العطرات
وأين من النائي البعيد خدودها   وأين الثنايا الغر مبتسمات
وأين كمخضل الورود شفاهها   تروي غليل القلب بالقبلات
لقد كنت أشكو الوجد وهي قريبة   فكيف أداوي الوجد في غرباتي
وكانت على قرب المزار مروعة   فكيف وقد صرنا معاً لشتات
هنيدة ! . . أن تأسي علي فإنني   فقدت بأدواء الزمان أساتي
وأن تحملي همّ الفراق فإنها   تقضي على الهم الطويل حياتي
يراوغني الدهر اللئيم لعلها   تلين ، ولكن لن تلين قناتي
عدمنا على الدهر الكرام فما به   سوى معشر غلف القلوب جفاة
يوارون بالترحيب كامن غدرهم   ويخفون لؤم النفس بالبسمات
تضيع لديهم كل نفس عزيزة   ويشقى بهم في الناس خير اباة

***

تلفت أستجلي جمال أحبتي   على البعد فارتدت أسى لفتاتي
وددت لو أن الصبح يحمل عرفهم   إليّ مع الأرواح والنسمات
وإني على النوادي أطالع حسنهم   والمحهم في السفح والذروات

***

ذكرتك في (النيل) البعيد فلم يطب   على (النيل) ليلي ساهراً وغداتي
وشارفت أزهار الربى فتجهمت   بعيني أزهار الربى النضرات
وطالعت في السهل النخيل فما حلا   لبعدك عني منظر النخلات
لأنت على الصبح الجميل جماله   وأنت سنا الآصال والغدوات
إذا الفتيات الهيف رنحها الهوى   لويت عناني عن هوى الفتيات
وإن غرّد الشادي اقضّ مضاجعي   وأذكى صباباتي وهاج شكاتي
فهل كنت بعدي بالغدير ملمة   وهل جزت بالوادي وبالشجرات
وهل نعمت منك الرياض بنظرة   وطالعتها بالبشر والبسمات

القاهرة آذار سنة ١٩٤٥

إلى العراق مرة ثانية

وقبيل ابتداء السنة الدراسية سافرت إلى بغداد .

كانت أسر عراقية محافظة تتجنب إرسال بناتها إلى التعليم العالي المختلط ، فتقرر إنشاء فرع لهذا التعليم يقتصر القبول فيه على الطالبات فقط ، وأطلق عليه اسم معهد الملكة عالية واخترت لأكون أستاذاً في هذا الفرع . فكان عهدي الثاني في العراق

من ذكريات معهد الملكة عالية

من ذكريات معهد الملكة عالية المظاهرة الرائعة التي قام بها طالباته عندما بدت بوادر تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ وشاركهنّ فيها طالبات الثانوية القريبة من المعهد . فقد تجمع الطالبات في باحة المعهد وعزمن على القيام بالمظاهرة وأصررن على أن أكون معهنّ ، ولخشيتي أن يندس في المظاهرة بعض المندسّين فيفسدون غايتها لم أجب طلب الطالبات ، ولكنهن أصررن على أن أكون معهن كل الإصرار وكانت حماستهنّ فوق أن تقاوم ، فقلت لهنّ سأسير معكنّ ، ولكني في هذه الحال سأكون المسؤول عن كل ما يجري في المظاهرة ، ولا أحسب أن فيكنّ من ترضى بالإساءة إليّ ، لذلك سنحدد الشعارات فلا تتعدى فلسطين وقضيتها ، ونحدد طرق السير فلا تتعدى شارع الرشيد وما إليه ثم الوصول إلى دور السفارات التي أيدت العرب في هيئة الأمم المتحدة ورفضت التقسيم . فكان صوتهنّ واحداً بالموافقة ، وقلت سأسير أنا في أول المظاهرة فحيث اتجهت تتجه المظاهرة ، على أن يكون السير في صفوف منظّمة . وهكذا كان .

وكنت بين الحين والآخر أترك المقدمة وأرجع إلى الوراء لملاحظة الهتافات ، فإذا ما توجست منه قد وقع ، إذ سمعت صوتاً يصرخ : ماذا تريدون ؟ فتجيبه بضعة أصوات : الحرية والخبز .

فأسرعت نحو صاحبة الصوت وبمجرد وصولي إليها كان صوتها قد انطلق : ماذا تريدون ؟ وكنت قد صرت وراءها تماماً ، فاهويت بكفّي على رقبتها صائحاً : نريد أن تخرسي .

وإذا بها تراني فخجلت وانطوت على نفسها .

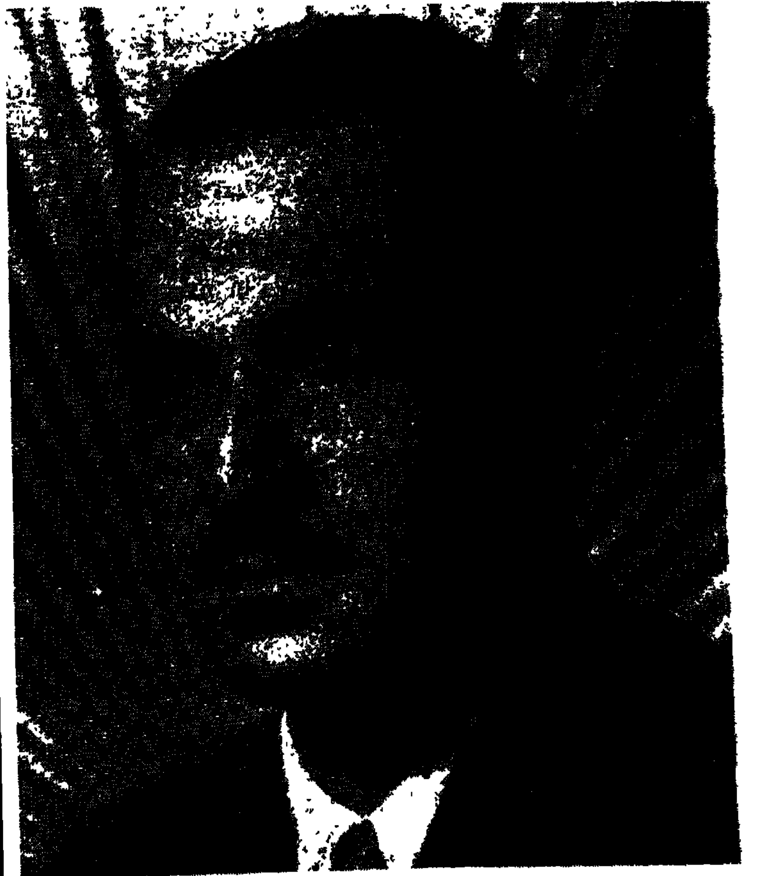
وكان من السفارات التي وصلنا إليها : السفارة التركية ، لأن تركيا يومذاك أيدت العرب في رفض التقسيم ، ولن أنسى حماسة الطالبات التركيات المنتميات إلى محافظة كركوك أمام السفارة التركية عندما وقعت

عيونهن عليها وهتافاتهن العالية باللغة التركية بمجرد أن رأين العلم التركي يرفرف عليها .

وطلبت إلى إحداهن أن تخطب باللغة التركية بإسمنا شاكرة تركيا وأن تطلب إلى السفير رفع هذا الشكر إلى حكومته ، ففعلت .

ومن وحي تلك المظاهرة وشدة تأثري بها كانت القصيدة التالية :

ردد عليّ حديثهنه   وأعد لسمعي ذكرهنه
يا من يسائل كيف هنه   أوما رأيت جموعهنه
لما مشين غواضبا   يذكي العزائم مشيهنه
متوثبات لا تلين   على الخطوب قناتهنه
أكرم بهنّ وقد نفرن ثوائراً   أكرم بهنه
هجن الحماسة فالتظت   منا النفوس المستكنه
ومشت رجال للنزال   يثيرها إنشادهنه
إيه فلسطين الشهيدة   لو سمعت هتافهنه
وشهدت في سوح الكرامة   والإباء نداءهنه
يدعون للحرب العوان   وللفتوح رجالهنه
ويثرن بأس الثائرين   إلى النضال ببأسهنه
إيه فلسطين الشهيدة   لو شهدت دموعهنه
يبكين لا جزعاً ولكن   الأسى يهتاجهنه
فيلذن بالدمع الغزير   يرد غرب همومهنه
قرّي عيونا إنهن   بنات يعرب انهنه
الوائبات إلى الظبى   الثائرات إلى الأعنه
هنّ الحمائم يبعث الشجو   الكمين هديلهنه
فإذا غضبن فهنّ لبوات   يصنّ عرينهنه



في معهد الملكة عالية

هنّ الحرائر مثل ماء   المزن طهراً خلقهنه
وكما يضوع المسك طيباً   في المحافل ذكرهنه
هنّ الكرائم حي في يوم   الفخار كرامهنه
قد أنجبوهم للعلى   فازدانت العليا بهنه
إني سأذكر ما حييت   على الزمان جهادهنه
ومعاهداً قد زانها   آدابهنّ وعلمهنه
هيهات تنسيني الليالي   المنسيات دروسهنه

ومن تلك الذكريات أن طالبتين من طالبات مدينة الموصل تخرجتا من المعهد وذهبتنا إلى مدينتهما على أمل التعيين في التدريس ، وكانتا من الأوائل المتفوقات ، فإذا بهما تصطدمان بما يصطدم به كل الناس في البلاد العربية - وربما في غيرها - بالوساطات النافذة التي هي أكثر فعلاً من التفوق والتقدم ، فتعينت رفيقاتهما المتأخرات عنهما كل واحدة منهنّ في بلدتها ، وعرض عليهما التعيين في أماكن نائية .

وإذا بي أفاجأ بوصول الرسالة الآتية إليّ . وأني لأذكرها بحروفها لما تدل كل جملة فيها على أسلوب معين ومعنى معين :

حضرة الفاضل أستاذنا السيد حسن الأمين الأكرم ،

بعد التحية والسلام والسؤال عن صحتك وأحوالك متمنين لك حياة طيبة تحف بالنعيم والرفاه ،

إننا خريجات معهد الملكة عالية لهذا العام . لقد ضاقت بنا الأحوال وانسدت أمامنا الأبواب من جهة تعييننا ، وقد لاقينا من الصعوبات أشدها في هذه المدة ، فلجأنا إلى حضرتك الفاضلة لتسعفنا بهذه القضية وتمد يد المساعدة إلينا . والواقع الذي شجعنا على إرسال كتابنا هذا هو سمو أخلاقك وصفاء قلبك وحنانك لأخوي تجاهنا .

وها نحن لا نزال رهن الدار غير ملتحقتين بمدرسة ما . مع العلم أننا المتقدمات ، ومن حق المتقدمات التقدم ولا سيما الثانية والثالثة ، مع العلم أن معظم المتخرجات اللواتي معنا قد عينّ بمراكز ألويتهن . أينَ العدالة أيها الأستاذ أن تتعينّ المتأخرات وتؤخر المتقدمات ؟ .

أين العدالة وأين نجدها ؟

عندما نراجع الدوائر المختصة يقدمون لنا قضائين واقعين في أقصى الحدود العراقية قرب الحدود الإيرانية والتركية . أهذا هو جزاء المتقدمات ؟

أمثال . . . (وهنا تذكران أسماء بعض الطالبات المتأخرات) قد عين في مركز لواء كركوك منذ شهرين . أما نحن فيعدوننا من يوم إلى يوم . ولم نحصل على فائدة من هذا الإنتظار ، واتضح لنا أخيراً أن وعدهم فاشل وأصبح لا أمل للتعيين عندنا .

فنرجو من أستاذنا الفاضل أن يسعفنا وينجدنا في هذا الموقف الحرج ويسعى لتعييننا في مدارس مدينتنا (الموصل) أسوة ببقية رفيقاتنا ، وجزاء لانتظارنا وتفوّقنا ولك منّا جزيل الشكر وفائق الإحترام .

٩/ ١٢/ ١٩٤٦   طالبتاك المخلصتان لطفية مجيد لاوند
فاطمة أحمد سلطان

لقد رأيت في هذه الرسالة ضرباً من الوفاء لا تكليفاً بمهمة متعبة ، لذلك تقبلتها بكل ترحيب وعزمت على إنجاد الفتاتين مهما كلفني ذلك من جهد ومراجعة ، بل وتوسل .

لقد كان شيئاً طبيعياً أن ترسل مثل هذه الرسالة إلى أستاذ عراقي في المعهد ، فالطالبتان عراقيتان ، والأستاذ العراقي أولى بأن يُستنجد به في هذا الإهتضام . . .

أما أن تستنجد الطالبتان العراقيتان الموصليتان بأستاذهنّ اللبناني لإنقاذهما من مأزقهما فهو غير الطبيعي وغير المنتظر .

ولكن هذا ما وقع ! . . لقد كان الوفاء وحده ، الوفاء العراقي الأصيل هو الدافع لذلك .

إنني نشرت الرسالة بنصها ، مع ما فيها من ثناء عليّ ، وهذا ممجوج عندي ، ممجوج أن ينشر الإنسان بنفسه الثناء على نفسه ، وقد يرى القارىء في الكلام الآتي شيئاً من الثناء على النفس وهو أشد مجاجة عندي . ولكني متحمل لهذه المجاجة لأنها ستوصلني إلى ذكر ما أكبره من الوفاء العراقي .

لقد تذكرت هاتان الطالبتان وهما في محنتهما ما كانت تلقاه الطالبات مني من الرعاية لأمورهنّ والعناية بشؤونهنّ ، فكانت رسالتهما إعلاناً لذلك ، وكان تكليفي دليلاً على أنهما تحفظان لي ذلك .

ومن هنا قلت أني فهمت الرسالة وفاءاً لا إشغالاً لي بما ينبغي أن يشغل به غيري .

فانطلقت متّصلاً بكل من له تأثير من أصدقائي ، فكانوا يستغربون اهتمامي بطالبتين موصليتين هذا الاهتمام الشديد ، بل أن نافذاً عراقياً في وزارة المعارف لم يتردد بأن يتكلم بما يدل على أن من الفضول أن يهتم أستاذ لبناني بطالبتين عراقيتين .

ولم يكن الأمر سهلا ومضى الوقت ولم نصل إلى النتيجة ، ولم أجب الطالبتين على رسالتهما لأني أردت أن يكون الجواب مقروناً بالنجاح .

ولم تحسب الطالبتان عدم إجابتي لهنّ إهمالاً مني ، ولا خطر لهما أن طول المدة ناتج عن عدم العناية بأمرهما . لذلك أرسلتا رسالة أخرى كلها أمل واستحثاث .

ولما تحقق ما نريده كتبت لهما جواباً وقلت لهما لن يطول الأمر أكثر من يومين أو ثلاثة حتى يصلهما أمر تعيينهما . وقد كان ذلك .

وكانت إحداهما : لطفية غير قوية في النحو ، وكان يربكها التمييز بين (لا) النافية للجنس و (لا) النافية للوحدة . فلم أزل بها في الدرس حتى استقام الأمر لها ، لذلك ختمت كتابي متسائلاً ممازحاً : كيف حال لطفية الآن مع (لا) ؟ .

فجاءني منهما جواب تقولان فيه :

لقد تحقق رجاؤنا بفضل مساعيك فشكراً لك على عنايتك بأمرنا وألف شكر . ابتدأنا بمباشرة العمل يوم ٣١ / ١٢ / ٤٦ .

ثم تسترسلان في ثناء طويل ، وأخيراً تختتمان رسالتهما قائلتين : إن لطفية لا تزال تتذكر (لا) النافية للجنس و (لا) النافية للوحدة والفرق بينهما وهاك أمثلة على ذلك :

لا النافية للجنس : لا خير في علم لا ينتفع به .

لا النافية للوحدة : لا رجل في البيت بل رجلان .

ومن تلك الذكريات أن المتخرجات كن يطلبن إليّ أن أسجل لهن كلمة تبقى ذكرى لعهد الدراسة ، كما كان بعض من لم يتخرجن يطلبن مثل ذلك . فمما سجلته للمتخرجات هذه الكلمة :

« لطفية المفتي من الطالبات اللواتي أذكرهن بكل خير لما تجلى لي فيها من الروح الأدبية الصحيحة ، فقد لفت نظري لأول مرة عندما كلفتها مع رفيقاتها وكنّ في الصف الأول أن يصفن سفرهن وعودهنّ في عطلة العيد ، فكتبت عن ذلك قطعة جميلة . ولم أكن أحسب أن فيها موهبة شعرية حتى فاجأتني في أواخر هذا العام بشعر فيه كل مزايا الشعر الصحيح .

على أن لطفية تجمع في شخصها المتناقضات ، فهي تنثر وتنظم ، ولكن بينها وبين سيبويه وقواعد سيبويه عداء مستحكماً فهي لا تبالي أن ترفع المنصوب وتنصب المرفوع ، وهي بقدر ما تتذوق الأدب وتهضمه ، لا تتذوق النحو ولا تهضمه ! . . .

وإذا ما تذكرت دائماً نثرها العذب وشعرها الحسن ، فإني إلى جانب ذلك سأتذكر دائماً أجوبتها النحوية الطريفة التي لا تربطها بالنحو رابطة ولا تجمعها به صلة ! . . وسأذكر دائماً أيام الصف الثاني (الفرع الإنكليزي) ، صف لطفية وزميلاتها ، وما كان في ذلك الصف من خُلق كريم وأدب رفيع وكسل متواصل . . . » اهـ .

ومما سجلته لغير المتخرجات هذه الكلمة :

« تصرمت الأعوام وتوالت الأيام ، وها هي السنة الثالثة في معهد الملكة عالية آخذة بالإنسلاخ ، وعمّا قريب تنقضي السنة الرابعة فينتشر هذا الجيل الكريم من الفتيات بعد أن يكون قد عبَّ من موارد العلم ما عبّ ، وغداً لا يبقى من كل هذه السنوات إلا أطياف تتراءى من وراء الزمن ، فأية أحاسيس يمكن أن تلتمع في الذهن لمن قدر له أن يقف من هذا الجيل الصاعد موقف المعلم ؟ .

غداً عندما نعود فنضرب في آفاق الأرض وقد أصبح لكل منّا وجهة هو موليها ، غداً عندما يفصلنا عن تلميذاتنا ما لا يحصى من الأبعاد والأزمان، غداً سنتذكر أنه كان لنا في سالف الأيام تلميذات جمعن إلى رصانة الخلق رجاحة العقل ، وضممن إلى التهذيب العلم الجم ، وسنذكر أنه كان لنا بعض اليد في إعدادهنّ لمستقبلهنّ العتيد ، غداً ستكون هذه الذكرى من أحب الذكريات إلى خواطرنا .

وإذا كنت لن أنسى أيام العراق ما حييت فإنني لن أنسى - على الأخص - أيام معهد الملكة عالية ، ولن أنسى أن فتياته اللواتي ملأن نفسي ثقة بمستقبل الفتاة العربية وأفعمن جوانحي إعتزازاً بها وإكباراً لها . وقد كانت نجلاء الخطيب في الطليعة .

وإذا كان لي ما أحثها عليه فهو أن لا تهمل موهبتها الأدبية وأن تعمل على استكمال قريحتها النثرية والشعرية .

ولا عجب أن تجيد وهي سليلة بيت طلع منه الشعر والأدب » ا هـ .

آخر الذكريات

قبل يومين من تاريخ كتابة هذه الذكريات كانت آخر ذكرياتي في معهد الملكة عالية ، وعندما أقول من يومين ، فليس معنى ذلك أن تاريخ هذه الذكرى يعود إلى ما قبل يومين ، بل أن تاريخها يعود إلى سنين بعيدة ، فكم قد مضى من سنين على تركي معهد الملكة عالية ، وكم تقلبت بي الأحوال بعد مغادرتي العراق . ومع ذلك فإن هذه الذكرى تعود إلى ما قبل يومين :

في مطلع السنة الدراسية الثانية في معهد الملكة عالية كان عدد طالبات الانتساب إلى المعهد أكثر مما يستطيع المعهد استيعابه في الصف الأول ، لذلك تقرر تأليف لجنة تتولى غربلة طالبات الانتساب من حاملات شهادة الدراسة الثانوية .

وتألفت اللجنة من ثلاثة أساتذة عراقي ومصري ولبناني هو أنا مع وجود عميدة المعهد .

وعهد إليَّ بسكرتيرية اللجنة فكان بيدي السجل الذي نكتب فيه أسماء المقبولات . وكانت طريقتنا في الغربلة أن نطرح أسئلة عامة على الطالبة نختبر بها شخصيتها وذكاءها وعمق ثقافتها وإطلاعها العام إلى أمثال ذلك .

ودخلت إحدى الطالبت فسألناها عن اسمها فقالت : م . س . ع ، ولا أريد هنا أن أصرح باسمها إذ لعلها تطّلع صدفة على ما أكتبه هنا وأنا لا أريد أن تعرف حقيقة ما جرى بشأنها ، ولا بد لي من أن أقول أنها لم تكن على شيء من الجمال ، فطرحنا عليها ما شئنا من الأسئلة فإذا بها تجيب أعلى إجابة ، وإذا بها كذلك تتوقد ذكاء ، وبرزت شخصيتها القوية منذ ساعة دخولها .

ولما كان في اسمها الذي ذكرته حرف (س) إذ أن إسم أبيها سلمان فقد ظهر أنها لا تستطيع أن تنطق (السين) نطقاً صحيحاً ، بل تلفظها وكأنها (ثاء) .

ولما خرجت أخذت القلم لأسجل اسمها بين المقبولات بعد أن أدّت ما طلب إليها أداؤه أحسن أداء ، لاعتقادي أنها ستكون مقبولة بالإجماع ، إذ كانت طريقتنا أن نقرر القبول أو الرفض بأكثرية الأصوات ، وكانت العميدة تفضل عدم الإشتراك بالتصويت وتترك لنا نحن الثلاثة أن نقرر ما نشاء ، وحتى هذه اللحظة لم تختلف آراؤنا فكانت قراراتنا بالإجماع .

ولما أخذت القلم استعداداً لتسجيل إسمها اعترض الأستاذ العراقي بشدة ، وقال أن فيها عيباً يمنع قبولها وذلك أنها لا تحسن النطق بالسين نطقاً صحيحاً ، وهي ستغدو في المستقبل مدرسة في التدريس الثانوي وعيبها هذا سيقلل من احترام الطالبات لها فيجب رفضها .

وانضم الأستاذ المصري إلى الأستاذ العراقي لا لشيء إلا لأنه في رأيه الأقوى فهو ابن البلد وأنا الغريب عن البلد ، فتأييده للعراقي أضمن لمصلحته .

وأصررت أنا على قبولها وقلت لهما : لقد أدّت ما طلب منها تأديته أحسن أداء ، فما ذنبها إذا كان الله قد خلق في لسانها هذا العيب ؟ ثم إن تركان مستقبلها وأنتم ترون أنها غير مقبولة للزواج على الأرجح ، أترميانها في الشارع وهي الذكية المثقفة أحسن ثقافة ؟ .

وقلت لهما عن عيبها : أن كفاءتها ستغطي هذا العيب ، وقد كان في لسان أحد أساتذتنا في الجامعة عيب أشد من هذا العيب ، ذلك أنه وهو مسترسل في الكلام يصاب فجأة بما نسميه نحن (الوأوأة) إذ يعجز عن النطق وتظل شفتاه تتحركان بتصويت (وأ ، وأ ، وأ) ، ويستمر ذلك لحظات وأحياناً دقائق . ولكن كفاءته كانت فوق أن يؤثر عليها هذا الضعف وأقوى من أن تقلل من احترامه في نفوسنا .

فلم يلتفتا لذلك وأصرا وأصررت ، وأكملنا عملنا وخرجنا ، وخرجا هما ، وهما يعتقدان بأن الأمر قد انتهى وأنها رفضت بأغلبية الأصوات ، وخرجت أنا وأنا مصمم على قبولها بالرغم من كل شيء ، إذ أن رفضها كان جريمة أعظم من أن يتحملها ضميري ، وكنت مستعداً للإستقالة من عملي في التدريس إذا كان لا بد من رفضها لأنني لا أقوى أبداً على أن أكتب بيدي قرار رفضها ، وصممت على تحمل مسؤولية قبولها ولو أدى الأمر إلى إغضاب العميدة . وكانت الوسيلة إلى ذلك هي أن أضع إسمها مع المقبولات وأتخذ في الحال إجراءات إعلان أسماء المقبولات مما يجعل الجميع أمام الأمر الواقع الذي لا يستطيع أحد نقضه .

فأول ما فعلته أن طلبت إلى أحد الفراشين أن يعلق القائمة على باب المعهد كما هي العادة ، ثم أرسلت نسخاً عنها إلى الصحف وإلى الإذاعة .

وفي المساء كان المذياع يذيع أسماء المقبولات وفيهن (م . س . ع) ، وفي الصباح كانت الصحف تنشر أسماءهنّ وفيهنّ اسمها .

ولكن ذلك لم يلفت الأستاذ العراقي فلم يسمع الإذاعة ولا قرأ الصحف ، وإنما استرعى انتباهه في الصباح رؤية القائمة معلقة على الباب فقرأها فإذا بالإسم الذي أصرّ على رفض قبول صاحبته موجود بين الأسماء فدخل صائحاً معربداً قائلاً بأن هذه فوضى وعدم احترام للنظام ، ومثل هذا الكلام ، وكنت أنا أسمع صياحه مرتاح الضمير قرير العين .

وكل ما كنت أحاذره هو غضب العميدة وما يجره من مشاكل ومتاعب ، ولكن تبين أن العميدة كانت في قرارة نفسها راضية عما فعلته بعد أن شهدت بنفسها كفاء (م . س . ع) لذلك سكتت ولم تعلن الرضا ولا أظهرت الغضب . وفي نهاية العام الدراسي وإعلان نتائج الامتحان كانت (م . س . ع) الأولى بين جميع الطالبات في مختلف فروع الدراسة .

ومضت الأيام وكرّت الأعوام ونسيت أسماء جميع الطالبات وغابت صورهنّ عن ذهني ، إلا إسماً واحداً هو (م . س . ع) وإلا صورة واحدة هي صورتها وهي تستمع إلى محاضراتي في الدروس بإصغاء واستيعاب .

وما زالت الأيام تكر والأعوام تمضي ، وإذا بي أقرأ وأنا في بيروت قبل يومين من كتابة هذه السطور خبراً في مجلة بغدادية بأن (م . س . ع) قد نالت الدكتوراه بدرجة جيد جداً من جامعة بغداد .

وداع العراق نثراً

يوم عزمي على ترك العراق كتبت في الصحف ما يلي :

منذ أربع سنوات عندما تناءت عن عيني مشاهد الشام وغابت معالم السهول والجبال واحتوتني الصحراء بوحشها تلفّت إلى الوراء منشداً :

فقلت لقلبي حين خف بـه الهوى	وكـاد من الوجـد الممض يـطير
فـهـذا ولما تمض لـلبين لـيلة	فـكيف إذا مـرت عليـك شهـور
وأصبـح أعـلام الأحبـة دونها	مـن الأرض غـول نـازح ومسير

ورحت أمعن في القفر الأجرد واجماً مكروباً ، وطفقت أمشي في البيد ساهماً مطرقاً أفكر فيما أنا مقدم عليه من عمل جديد ونأي مديد حتى طلعت (الرطبة) بأضوائها المتلألئة فكانت ابتسامة الصحراء القطوب وضحكة الأمل الخابي بل كانت بادرة الخير في هذا السفر المضني . وقد أشرقت نفسي لإشراق الرطبة فحسبته إشراق الراحة بعد العناء والنور بعد الظلام ولم أدرِ أنه إشراق عهد من أعذب عهود حياتي وتألق زمن من أحلى أزمان عيشي حتى بدت نخلات (الرمادي) وتلألأت صفحة (الفرات) وأطل سواد (الفلوجة) ولمعت مآذن (الكاظمية) وظهرت معاهد بغداد وماجت غوارب دجلة وزخر شارع الرشيد فكانت حياتي العراقية التي ينطوي الزمن ولا تنطوي من ذهني وتنمحي الأيام ولا تنمحي من خاطري ويتلاشى العيش ولا تتلاشى من ضميري ! .

أربعة أعوام في العراق نزلت فيها بغداد والحلة وجبت فيها كربلاء والنجف والكوفة وعفك والديوانية والناصرية ورحلت إلى البصرة وأبي الخصيب والقرنة والفاو وشاهدت الرافدين من ملتقاهما حتى مصبهما وتنقلت في الغراف وحواضره ونزلت بعقوبة وكركوك وأربيل والسليمانية والموصل بل تغلغلت في صميم الأرياف والقرى فبت في العنبكية ووصلت إلى شفاثا والأخيضر .

أربعة أعوام في العراق توالت علي فكانت أزهر صفحة في دهري وأنضر صورة في ذهني وأجمل مشهد في نفسي وعندما آذنت هذه السنون بالزوال ومالت إلى الانطواء وعندما ختمت حياتي العراقية ومشيت أعاود قطع الصحراء آيباً كما عاودته ذاهباً - إذا بي وقد (تناولت عن عيني مشاهد العراق وغابت معالم السهول والجبال واحتوتني الصحراء بوحشتها) ألتفت إلى الوراء منشداً :

ولـو قـال لي الغـادون مـا أنت مشتـه	غـداة جزعنـا الرمـل قلت أعـود
أتـطلب يـا قلبي العـراق من الحمى	ليهنـك من مـرمى عليـك بعيـد
تـرى اليـوم في بغـداد أنـديـة الهوى	لهـا مبـدىء من بعـدنـا ومعيـد

وإذا بي بعد أربع سنين عند تركي (الرمادي) وتخليفي ورائي سواد الفرات أقف نفس الموقف الأليم الذي وقفته عند تركي (ضمير) وتخليفي ورائي خضرة الغوطة وإذا بالحنين الذي ملك علي نفسي وأنا أفري الصحراء قاصداً العراق يملك علي نفسي وأنا أفري الصحراء عائداً من العراق وإذا بالشوق الذي أضناني وأنا أهجر الشام وأؤم العراق يضنيني وأنا أهجر العراق وأؤم الشام وإذا بي لا أكاد أدري أين هو ترابي أفي قمم (قاسيون) وذروات لبنان وسهول الغوطة أم هو في قمم (حمرين) وسهول (الرافدين) وإذا بي لا أكاد أعلم أين هم أهلي وصحبي أعلى ضفاف الليطاني وبردى والحجير أم على ضفاف الفراتين وديالى والغراف ، فإذا ما حنَّ الناس إلى أرضهم وأهلهم جننت إلى أرضين وأهلين وإذا ما اشتاقوا بلادهم وقومهم اشتقت بلادين وقومين .

لقد غابت بغداد عن عيني ولكن بغداد لا تغيب عن نفسي فلا أزال أرى دجلة متدفقاً بين الرياض والمروج ولا أزال أبصر نخيلها متمايلاً مع النسائم والأرواح ولا تزال صورها الحلوة تتعاقب في خاطري غضة طرية الألوان .

ولقد انطوى العراق عن ناظري ولكن العراق لا ينطوي من ذهني فلا أزال أشاهده ناضر الصفحة زاهر الجبين ولا أزال أتطلع إلى الرافدين يشقان أديمه الأخضر ولا أزال أطل على ضفافهما الكاسية العامرة فأرى الدوح الفارد والأيك الدائح وأنظر جموع الفتيان وصفوف الشيوخ والكهول .

لقد بعد العراق عن بصري ولكن العراق لن يبعد عن قلبي .

وداع العراق شعراً

ثم نشرت القصيدة التالية :

إني عـهـدتـك في النـوى متجلدا	هيهـات هـذا اليـوم أن تتجلدا
أرق الـدمـوع فلست أول شـاعـر	يبكي الأحبـة والـديـار تـوجـدا
لمن الـدمـوع تصـونها إن لم تكـن	لفـراقـهـم ولـن تجـود بهـا غـدا
ودع شـذا بـغـداد ودع دجـلـة	والألمعيـة والبسـالـة والنـدى
لن تبصر النخـل النضيـر ولن تـرى	في الجـزرتين سنـاءهـا المتـوقـدا
هفت النـواظـر للعـراق فلم تبـن	خضر الضفـاف ولا النخيل بهـا بـدا
نـأت الـرصـافـة واختفت أعـلامها	والكـرخ عن عيني أوغـل مبعـدا
بغـداد غـابت وانـطوى نخـل الربى	والشمـل شمـل الأوفيـاء تبـددا
هيهـات بعـد اليـوم وجـدك ينقضي	هيهـات شـوقـك أن يلين ويـبردا
تلك الضفـاف وكم مـرحت بـظلها	شغفـاً وكم حن الفؤاد وكم شـدا
النخـل كـالـوسنـان أسبـل جفنـه	والنهر كـالسكـران هـاج معـربـدا
والـورد كـالجـذلان يبسـم ثغـره	والـطير كـالـولهـان يهتف منشـدا
والـظل كـالهيمـان مـد ذراعـه	شـوقـاً وعـاوده الحيـا فـترددا
قـل لـلأحبـة والـديـار بعيـدة	هيهـات قلبي بعـدكم أن يسعـدا
الصبـح يعلم كم هفـوت مـروعـاً	والليـل يـدري كم سهـرت مسهـدا
هـذا الـفؤاد المستـهـام بحبكـم	هيهـات يخمـد حبـه إلا الـردى
بيني وبينكـم القـفـار قصيـة	مـا أطـول المسرى علي وأبعـدا
مـا زلـتـم أدنـا إليَّ ولم تـزل	أيـامـكـم أهـنـا الـذي وأرغـدا
تلك الشـواطىء مـا نسيت عهودهـا	تلك الخمـائل مـا جحـدت لهـا يـدا
يـا نخـل مـا أبهـاك عنـدي منظرا	يـا مـاء دجـلـة مـا ألـذك مـوردا
سـأظـل أرسـل في هـواك قصـائـدي	سـأظـل بـالحب الـوفي مغـردا
سـأظـل بـالنخـل النضـير متيـمـا	سيـظل قلبي في الهـوى متبغـددا

نخيل العراق

ثم القصيدة التالية :

حي النخيـل سهـولـة وهضـابـا	والشـاطئين مضـاربـا وقبـابـا
وامـلأ من الحسن البهي نـواظـرا	ظمـأى إلى الحسن البهي سغـابـا
تهـواه في نـور الخـميـلـة وادعـا	وعـلى العبـاب مـواثبـا غـلابـا
ظـلا عـلى الـوجنـات رف ومنهـلا	وعـلى الشفـاه الحـالمـات سرابـا

هذا النخيل وما أدركت عهوده ألا أدركت أحبة وصحابا
كم قد وقفت عليه أتلو حسنه شعرا وأقرأ ضفتيه كتابا
يوحي الحياة جمالها وجلالها والعيش حربا والزمان غلابا
يعلو على هوج الرياح وينتخي كالثائرين مطامحا ورغابا
ويرق عاطفة ويعذب مبسما ويطيب ظلا وارفا ورحابا
ودنا فكان على البسيطة روضة وعلا فكان على السماء سحابا
ولكم نزلناه فكان على الأسى بشرا وكان على الأوام شرابا
هذا النخيل تباركت عذباته ما كان أروع حسنها الخلابا
تسمو على هام الفضاء غدائرا وترف في عين السما أهدابا
وتميس في كف النسيم عرائسا وتصول في أيدي الرياح حرابا
يا نخل طبت على السهول مناظرا وعذبت في أرج الصبا أطيابا
وفتنتني فإلى ظلالك ينتمي قلبي وتهوي نظرتي إعجابا
وملأت نفسي في الحياة بشاشة ولطالما ملئت أسى وعذابا
أهوى على التلعات فجرك والضحى والبدر سال على الغصون وذابا
وأهيم بالشاطي النضير وأشتهي في الضفتين ربيعك المخصابا
كم قد هفت نفسي إليك وناشدت في البعد نهرك دافقاً والغابا
يا نخل وافاك الربيع وأقبلت أسراب حسن تقتفي أسرابا
قد عاد للربوات ناضر حسنها وزهت رباع كنّ أمس يبابا
النهر يشدو للرياض قصائدا تنسي المغرد لحنه المطرابا
ويسير بين الضفتين مغمغما ويمر مذعور الخطى وثابا
والزورق الغافي ترنحه الصبا فتمايل الأعطاف فيه طرابا
أهلا بمنضور الربيع ومرحبا بالزهر ينسج للرياض ثيابا
ويعيد للأرض الموات حياتها ويرد للدنيا صبا وشبابا
أيقظ على النخلات غافية الشذا واستنهض الأزهار والأعشابا
واذع لنا سر الورود نضيرة وانشر لنا النسرين والعنابا
أطلع لنا في كل أرض روضة وبكل أفق من سناك شهابا
يا نخل قد طال الفراق فهل ترى بعد الفراق لنا إليك إيابا
سنظل نذكر في رباك صحابة هيهات نبغي بعدهم أصحابا

أعذب أيام حياتي

إن أيام التدريس في العراق كانت أعذب أيام حياتي ، ولم أر قبلها أو بعدها أياماً تضاهيها في ذلك ، سواء ، عهد التدريس الثانوي في ثانوية الحلة ودار المعلمين الريفية ، أو عهد التدريس الجامعي في معهد الملكة عالية ، ودار المعلمين العالية . أستثني من ذلك الأيام التي بدأت فيها أجزاء (دائرة المعارف الإسلامية الشيعية) تبرز إلى الوجود جزءاً بعد جزء ، ثم اكتملت بمجلداتها الكبار ، ثم طبعت طبعتها الثالثة .

لقد فاقت أيام (دائرة المعارف) بسعادتها كل الأيام إذ حققت فيها حلم الحياة ، ولا أزال أنعم بسعادة تحقيق هذا الحلم وأطمح إلى الاستزادة منه ، بما أضيفه كل آن من زيادات على ما أنجز .

وسبب عذوبة أيام التدريس العراقية ثلاثة أشياء :

أولاً : مطابقة العمل في التدريس لميولي سواء منها الأدبية أو التاريخية . .

ثانياً : ما انطبع عليه العراقيون من الوفاء . وهو الخصلة التي تسمو على كل خصلة في الإنسان ، فما رأيت كالعراقي وفاء ، والوفاء ينير النفس مهما أدلهم فيها من ظلام . وأنا الذي ذقت العقوق والجحود والغدر في وطني أمَرّ مذاق ، لم يكن يحلو في نفسي شيء كالوفاء .

ثالثاً: ما لقيته ممن تعاملت معهم من تقدير للإخلاص في العمل والكفاءة فيه ، وما داموا هم مخلصين أكفاء فقد كان طبيعياً أن يقدروا الإخلاص والكفاءة .

حين يكون تعاملك مع المدراء : عبد الوهاب الركابي ، وجعفر الخياط ، ورشيد سلبي ومع العميدة (أمة السعيد) ، فلن تشعر أبداً بالغبن .

ولكن حين يكون تعاملك مع الفرد ثابت ، وأنيس صالح ، وفكتور عيسى ، فستشعر بالغبن ، فتسعد وأنت مدرس بعيد عن وطنك ، وتشقى وأنت قاض في صميم وطنك .

أضحكتنا ورب ضحك بكاء فترة من زماننا عمياء
خلقت من خشارة الناس رهطاً عرفت بعد خلقه الآباء
لمة من بني الشوارع عاشت حيث عاش الأعيار واللقطاء
حشرات طلعن من طبقات الأرض لما استتبت الظلماء
وجراثيم حين لامسها الما ء تفشى من سمهن الوباء

وشتان بين أن يكون وزير الوزارة التي ينتمي عملك اليها رجل مثل الشيخ محمد رضا الشبيبي ونجيب الراوي ، وبين أن يكون رجل مثل حبيب أبو شهلا .

وما أسعدك يوم يكون النافذ في محيطك الذي تعيش فيه رجل مثل سعد صالح ، وما أشقاك يوم يكون هذا النافذ مثل أحمد الأسعد وعادل عسيران .

وكذاك اعتلاء من ليس أهلاً للمعالي مصيبة وبلاء
كيف لا ترقبن كل عثار من قصير عليه طال الرداء
مطرق إن مشى كمن شغلته لحلول المشاكل الآراء
لو تصفحته وجدت ثياباً فوق جسم كأنه المومياء
[illegible]باً كالسباخ [illegible]ل خير جل ما في جرابه الكبرياء
[illegible]رجو من المغايض زهراً ونبات المغايض الحلفاء
وكذا يبطر الرخاء خفيف الوزن من حيث لم يسعه الإناء
رب داء ترى من العار شكواه وشكوى يثنيك عنها الإباء

لقد كانت العميدة أمة السعيد والمدراء عبد الوهاب الركابي وجعفر الخياط ورشيد سلبي : الواحات الخضر في صحراء حياتي الوقيد .

وكان الشيخ محمد رضا الشبيبي والشيخ علي الشرقي وسعد صالح ونجيب الراوي : الظلال الوارفة التي طالما وقتني لوافح الهجير .

الا طبتم وأنتم أحياء في دوركم ومكاتبكم ، الدور والمكاتب التي كانت فيها كلمة : (أهلاً وسهلاً) أشهى من الماء الخَصِر للظامىء الحران ، والتي كانت تنبعث من أعماق قلوبكم لا من مظاهر شفاههم .

وطبتم وأنتم أموات في أجداثكم، الأجداث التي انطوت على أشرف ما تنطوي عليه الأجداث من شهامة ومروءة ونخوة .

وإذا كان قد حال بيني وبينكم بعد الديار ، ثم المقابر التي احتوتكم وستحتويني ، فلن يحول شيء دون أن أردد ذكركم بالجميل وأنا حي ، وأن تردده هذه الأوراق على الدهر وأنا ميِّت .



بعد العراق

البحث والتأليف

كنت خلال إقامتي في النباطية أغتنم بعض أوقات الفراغ فأكتب بعض البحوث التاريخية والأدبية وأنشرها في مجلة (الرسالة) القاهرية الأسبوعية ، وكانت يومذاك أوسع المجلات العربية انتشاراً ، ومما نشرته فيها مناقشتي لعباس محمود العقاد في بعض ما ورد في كتابه (عبقرية الإمام) ، وقد بلغ من دقة تلك المناقشة وصوابها وتهذيب عباراتها ، أن العقاد المعروف بعناده مع من ينتقده وشدته على من يناقشه ، وعدم تحمله لأية ملاحظة ـ أن العقاد هذا سلّم لأول مرة في حياته الأدبية ، وربما لآخر مرة ـ سلّم بصواب ما اعترضت به عليه في العدد التالي من مجلة الرسالة الصادر في ١٠ كانون الثاني ١٩٤٣ ، وجعل عنوان ردّه (خلاف يستحق الإختلاف) ، وهذا العنوان وحده كاف بتسليم العقاد بصحة ملاحظاتي .

وصدف أن نشرت الرسالة في نفس العدد الذي نشرت فيه مقالي ـ نشرت مقالاً للعقاد يرد به على شيخ أزهري كان قد ناقشه في بعض ما ورد في كتابه (الصديقة بنت الصديق) ، فحمل العقاد على ذلك المناقش حملة شعواء بقلمه الجبار ، فقال بعض أصدقائي مخاطباً لي: انتظر دورك في العدد القادم ! . . . فرددت : لا أحسب ذلك واقعاً ، لأني أظن أن العقاد إنما كان يهاجم منتقديه لأنه يستشعر من خلال كلامهم التعريض به والإقلال من شأنه ، ويعتقد فيهم سوء النيّة لا حب الوصول إلى الحقيقة ، لذلك كان يعاملهم بما يعاملهم ، وأظنه هذه المرة سيلمس العكس ، وسترون . . . وصح ما توقعته فكان جواب العقاد منصفاً كل الإنصاف . . .

وواصلت وأنا في بغداد النشر في الرسالة وفي الصحف العراقية ومجلة العرفان اللبنانية

واستمرت حياتي الجديدة في بغداد أربع سنين دراسية : رأيت بعدها أن عليّ أن لا أفارق والدي بعد أن بلغ تلك السن العالية وبدأ الضعف يتسرب إلى جسمه ، فلزمته معاوناً له في إعداد موسوعته الكبرى (أعيان الشيعة) حتى توفي بعد سنتين (سنة ١٣٧١ = ١٩٥٢) .

الإنصراف إلى البحث والتأليف

ألقت وفاة والدي عليّ عبئاً ثقيلاً ، فقد وجدت أمامي موسوعة (أعيان الشيعة) وقد وصل فيها الوالد إلى نهاية حرف السين في خمسة وثلاثين جزءاً وترك بقية المواد مسودات أكثرها مشوش ، وبعض التراجم لم يكتمل ، وبعضها لم يكتب أصلاً ، فعكفت على تنسيق المسودات وضمها بعضها إلى بعض وإلى إكمال ما لم يكتمل من الترجمات ، وكتابة ما لم يكتب منها . وبعد كفاح أكثر من أربع سنين نشرت الجزء السادس والثلاثين من (أعيان الشيعة) مبدوءاً بحرف الشين ، وكان المفترض أن يتواصل السير مطرداً ، ولكنه كان كثير التعثر لما يعترضه من الصعوبات المالية ، وظللت أكافح وأناضل حتى كمل (أعيان الشيعة) . ثم خرج بعد ذلك بطبعته الحديثة الأنيقة .

وكنت مع ذلك عاكفاً على مواصلة البحوث التاريخية متخذاً من مجلة (العربي) الكويتية أوسع المجلات العربية انتشاراً ، مجالاً لقلمي مظهراً خفايا التاريخ الإسلامي ومصححاً كثيراً من الأغلاط الشائعة التي هي على عكس ما اشتهرت به ، متناولاً بعض البحوث التي تنشر بما فيها من الأضاليل، بالنقد والنقض ، وظل الدكتور أحمد زكي رئيس تحرير (العربي) يحثّني على المتابعة إذا استشعر مني تباطؤاً ، إلى أن توفي الدكتور أحمد زكي وقامت الأحداث اللبنانية سنة ١٩٥٧ وانقطع خروج الرسائل البريدية من لبنان طيلة سنتين كاملتين فانقطعت صلتي بمجلة (العربي) . كما أخرجت كتاب (الغزو المغولي) وهو أول دراسة مستوفاة لتلك الأحداث التاريخية الرهيبة حوى من التفاصيل والإيضاحات والتصحيحات ما جعله من أوسع المراجع للإطلاع على عصر الطاغيتين جنكيز وحفيده هولاكو .

كما أصدرت (الموسوعة الإسلامية) وقد أردت منها أن تكون مرجعاً موجزاً يسهل الرجوع إليه سواء لطالب العلم وللعالم والباحث .

وقد عنيت بتدوين رحلاتي فأخرجت من ذلك كتاباً سمّيته (من بلد إلى بلد) . واهتممت بتاريخ (جبل عامل) الأدبي فأخرجت في هذا الموضوع كتاب باسم (عصر حمد المحمود والحياة الشعرية في جبل عامل) .

كما أن لي ديواناً شعرياً لا يزال مخطوطاً .

دائرة المعارف
الاسلامية الشيعية

على أن أهم منجزاتي هو إصدار دائرة المعارف الإسلامية الشيعية التي كان الدافع لإصدارها هو قراءاتي في (دائرة المعارف الإسلامية) التي كتبها المستشرقون بعدة لغات أجنبية ثم ترجمها المصريون إلى اللغة العربية ، فقد رأيت في دائرة المعارف هذه من الأخطاء الفظيعة التي كان الدافع إليها سوء

النية ككل ما كتبه (لامانس) اليسوعي البلجيكي[1] ، والأخطاء التي كان الدافع إليها الجهل وقلة الإطلاع مما كتبه غيره من المستشرقين .

ورأيت أن مترجمي دائرة المعارف إلى اللغة العربية قد علقوا على الأخطاء المتعلقة بغير الشيعة بما يصححها ، وتركوا الأخطاء المتعلقة بالشيعة بدون أي تعليق ما عدا تعليقاً واحداً للشيخ أحمد محمد شاكر في بُحث التقية كان منصفاً فيه كل الإنصاف .

بل أن بعض المعلقين المصريين لم يكتفوا بشرور المستشرقين ، بل زادوا تلك الشرور شروراً بما افتروا به في تعليقاتهم عن الشيعة .

والعجيب فيهم أنهم استعانوا ببعض شيوخ الخوارج كالشيخ ابراهيم طفيش ليعلقوا على ما كتب بشأن الخوارج ، ولم يفكروا بالإستعانة ببعض علماء الشيعة ليعلق على ما كتب بشأن الشيعة ، مع أن ما كتبه لامانس وغير لامانس عن الشؤون الشيعية وعن رجال الشيعة هو الأحق بالتعليق لفظاعة ما فيه وعظم افتراءاته .

هذا فضلاً عن مواضيع شيعية يجب أن تكتب وتبحث في دائرة المعارف ، ولكنها لم تكتب ولم تبحث .

وعندما أخذت في تدوين تعليقاتي وجدت أنه قد تجمع لدي مادة غزيرة فحرت كيف أنشرها ، وأخيراً قررت أن أصدر (دائرة المعارف الإسلامية الشيعية) ، فصدرت وطبعت حتى الآن ثلاث طبعات .

وهنا لا بد من الرد على الذين ظلوا يأخذون عليّ تخصيصي المواضيع الشيعية التاريخية بالعناية ، ويرون في ذلك أمراً مذهبياً ، وأكتفي في الرد عليهم بإعادة نشر مقطع من الحديث الطويل الذي أدليت به لمجلة (العالم) ، وهو المقطع المتعلق بهذا الموضوع وهو :

وهنا لا بد لي، من أن أشير إلى من طالما اعترضوا على اندفاعي للدفاع عن حقائق اعتبروها شيعية ، ورأوا في ذلك إتجاهاً مذهبياً . لهؤلاء أقول : أن الدفاع عن تلك الحقائق لم يكن لأنها شيعية ، بل لأنها حقائق ، مجرد حقائق زيفها المزيفون جهلاً أو عمداً ، فكان دفاعي عن الحقيقة وحدها . والدليل على ذلك أني دافعت بنفس الحماسة والاندفاع عن حقائق زيفت ولم يكن لأصحابها علاقة بالشيعة كحقيقة الملك المظفر قطز بطل معركة عين جالوت . ففي أذهان الناس جميعاً أن قائد المعركة هو الظاهر بيبرس . وآخر ما قرأته من ذلك كتاب فيليب حتي وآخر ما سمعته من أسابيع هو قول أستاذ تاريخ في بلد عربي ، سأل المتسابقين في التلفزيون عن إسم قائد معركة عين جالوت فعجزوا عن الإجابة ، فقال لهم : هو الظاهر بيبرس .

وهذا القول لا نصيب له مطلقاً من الحقيقة التاريخية . ومن المؤسف أن كل ما يتعلق بمعركة عين جالوت قد شوّه تماماً . والذي قاد المعركة بل الذي لولاه لما جرت أصلاً ليس الظاهر بيبرس أنه الملك المظفر قطز . والواقع أنني لم أتحمس لأحد كما تحمست للملك المظفر قطز ولم أكتب عن أحد أربع مقالات كما كتبت عنه وهو ليس بشيعي ولا علاقة له بالشيعة . بل لأن هذا الرجل ظلمه التاريخ والمؤرخون بصورة فظيعة . لقد أهملوه تماماً في حين أنه هو الذي لولاه لما جرت معركة عين جالوت وهو الذي قادها وهو الذي انتصر فيها ! .

وهذا مثل على تزوير الحقائق التاريخية وعلى ظلم المؤرخين للرجال من أمثال الملك المظفر قطز. وأنا عندما تبينت لي هذه الحقائق التي أوردها على سبيل المثال كان لا بد من أن أتحمس للملك المظفر قطز وإعادة الاعتبار إلى موقفه وقراره وقيادته وانتصاره في معركة عين جالوت . مع أنه ـ كما قلت ـ ليس بشيعي فالانتصار للحقيقة وحده هو الدافع .

بشارة الخوري في مذكراته

نشر بشارة الخوري مذكراته بإسم (حقائق لبنانية) ، وقد حاول في هذه المذكرات الظهور بمظهر البطل ، ولكنه عجز عن إخفاء الحقائق ، فلا بد له من الاعتراف بأن الفرنسيين إختاروه أداة لتنفيذ سياستهم الاستعمارية في البلاد فعينوه أميناً عاماً لحكومة لبنان ، وهو يعترف بأن لا قيمة لما يقرره إذا لم يوافق عليه حاكم المنطقة الفرنسي الكولونيل نياجر .

وعندما يصل إلى ذكر اعتقال الفرنسيين لأعضاء مجلس الإدارة الذي كانوا حقيقة طلاب استقلال ، ورأوا بصفتهم النيابية الممثلة للشعب اللبناني تمثيلاً صحيحاً أن يجاهروا بطلب هذا الاستقلال وأنهم غير مستطيعين ذلك في ظل الحراب الفرنسية في وطنهم ، فقرروا التسلل إلى دمشق ومنها إلى حيفا ليركبوا البحر إلى أوروبا مطالبين بالإستقلال فاكتشف الفرنسيون أمرهم فاعتقلوهم .

عندما يصل بشارة الخوري إلى ذكر هذه الحادثة ـ وكان يومذاك في خدمة الفرنسيين أميناً عاماً لحكومة لبنان ـ يقول :

« اطلعت على الوثيقة التاريخية التي ضبطت مع الأعضاء المعتقلين ، ولا شك أني كنت أوقّع عليها بيدي لولا احتواؤها على وجوب الخروج من لبنان والتوجه إلى دمشق لملاحقة المطالب الواردة فيها مما يثير اللبس » .

بمثل هذا الدجل يريد بشارة الخوري أن يبرر خدمته للإستعمار الفرنسي في الوقت الذي كان الأحرار يناضلون من أجل الإستقلال .

ونحن نقول له : وماذا منعك من أن توقع وثيقة أخرى لا تحتوي على وجوب الخروج من لبنان وتواجه بها الفرنسيين وأنت في بيروت دون الذهاب إلى دمشق ؟! .

إن الذي منعك أنك كنت في خدمة الفرنسيين ورجلاً من رجالهم المؤتمرين بأمرهم والمنفذين لسياستهم .

---

(1) كتب فردينان توتل اليسوعي في العدد الصادر في ٢٠/٥/٨٧ من جريدة النهار البيروتية بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاة لامانس ما يلي: «كتب الأب هنري لامانس (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧) عن رجال الحملات الصليبية فذكر الفلمند أجداده من شدوا الرحال إلى الأراضي المقدسة جنوداً وأمراء وخرجوا من سهول الشمال البلجيكي، فهجروا الآل وتركوا المال وتفرقوا، ووجهتهم الجهاد في سبيل الله واليوم الآخر.
وإن تلك العاطفة النبيلة التي دفعت السواد الأعظم من رجال الغرب إلى قبر المسيح إنما هي التي دبت في قلب الفتى، وأوحت إليه التضحية بحياته وبما فيها من مواهب منّ بها الرحمان عليه، ليسير جندياً، لا بالسيف والرمح، شأن الصليبيين، ولكن بالقلم، فيفتح فتوحات العلم» (انتهى).
هذا ما كتبه اليسوعي فردينان توتل عن اليسوعي لامانس. ولم يكن كلام أصدق في وصف مهمة لامانس من هذا الكلام. فالمهمة التي جرد الصليبيون سيوفهم لتحقيقها، هي المهمة نفسها التي جرد لامانس قلمه لتحقيقها. ومن ذلك جميع ما كتبه في دائرة المعارف الاسلامية.

سياسات لبنانية

كان من سوء حظ لبنان أن الذين قفزوا فيه إلى السلطة واستولوا على زمام الحكم في عهد الاستقلال كانوا ممن قضى حياته السابقة في خدمة الاستعمار الفرنسي مستهدفاً مصالحة الشخصية ، لا يفهم من المنصب إلا أنه مغنم شخصي يجب أن يفوز فيه بأكثر ما يمكن من المغانم ، وأن فكرة (الدولة) والتخطيط لإنشائها وتركيز قواعدها على أسس سليمة تكفل تطورها من حسن إلى أحسن ، أن هذه الفكرة لم تكن في ذهن أحد منهم .

وفي الطليعة من هؤلاء بشارة الخوري الذي سار في ركاب الفرنسيين منذ حلّوا في البلاد ، فتدرج في وظائفهم من أمين عام إلى قاض إلى وزير للداخلية إلى رئيس للوزراء يأتمر في كل ذلك بأوامرهم وينتهي عما ينهون عنه ، ويطبق سياستهم الإستعمارية التي سموها (الإنتداب) . ولم يُعرف في طول تلك الفترة أن كلمة (الإستقلال) خرجت من فمه ، أو عنَّ له مفهومها على بال . وظل كذلك إلى أن انتهى الأمر إلى أن يتنافس مع إميل إده على منصب رئاسة الجمهورية التي كانت في ذلك الحين مجرد وظيفة كبيرة تابعة لإدارة المفوض السامي الفرنسي ، وراح هو وإميل إده يتسابقان على كسب رضا (ده مارتيل) وما يمثل منصبه من تسلط فرنسي ، ولا يستطيع بشارة الخوري أن يزعم أنه كان له يومذاك برنامج يختلف عن برنامج منافسه ، أو أن له شروطاً تباين شروطه ، أو أنه نطق بكلمة واحدة تتنافى مع الإستسلام للفرنسيين . فقد كان هو وإميل إده فرسي رهان في تنفيذ المخططات الإستعمارية توصلاً إلى المناصب والنفوذ .

وكان لا بد للمفوض السامي الفرنسي (ده مارتيل) من أن يختار بين رجليه الإثنين المتنافسين ، وكان ده مارتيل هذا مستهتراً وكان متعلقاً بزوجة أحد القناصل في بيروت ، واستطاع إميل إده أن يضمن تأييدها ففرضته على ده مارتيل ، وماذا يهم ده مارتيل إذا كان إميل إده رئيساً للجمهورية أو كان بشارة الخوري ما دام كلي واحد منهما طوع إشارته ، ولكن إذا كان في اختيار أحدهما إرضاء للفاتنة الجميلة ، فعند ذلك يكون الأفضل هو اختيار من تختاره وهكذا كان ففاز إميل إده على بشارة الخوري .

ويئس بشارة الخوري من المنصب ، ومع ذلك فلم يخرج عن عبوديته للفرنسيين ، وكل ما فعله أنه كان يردد كلمة (الدستور) ، وأي قيمة لدستور في ظل الحكم الاستعماري ، وما فائدة العمل بالدستور الذي وضعه الفرنسيون وعملاؤهم إذا كان على العامل به أن ينفذ في العمل به إرادة الفرنسيين ؟! .

وكان ترديده لكلمة الدستور مخرجاً لتخبطه بعد فشله في منافسة إميل إده ، ولو أنه كان هو الذي اختاره (ده مارتيل) لما عنت له كلمة الدستور ولا خرجت من شفتيه ، وكان حلالاً كل الحلال أن يسير كما سار إميل إده . ولو أن إميل إده كان هو الفاشل لوجد هو الآخر شيئاً يتشبث به ويدعيه ! . .

وما دمنا قد تعرضنا للمنافسة بين إميل إده وبشارة الخوري ، وذكرنا كيف أن الفصل في اختيار رئيس الجمهورية كان في أيدي الخليلات الجميلات ، فإننا نرى أن نذكر شيئاً مما يتعلق بذاك الأمر قدّر لنا أن نشارك فيه ، نذكره لنرى كيف كانت تقرر مصائر الأمور .

لقد كنت في تلك الأيام مرتبطاً في العمل الوطني برياض الصلح وكنا نعمل في خط واحد لمقاومة الفرنسيين ومحاربة انتدابهم ، وكان رأينا متّفقاً فيما يتعلق بانتخابات رئاسة الجمهورية ، وهو أن لا مصلحة وطنية تدفعنا لتأييد أحد المرشحين ما دام منهجهما واحداً : هو الاستسلام للفرنسيين ، فوقفنا في أول الأمر موقف المتفرجين ، ثم لما تبين أن قرار دي مارتيل قد استقر على اختيار إميل إده ، ارتأى رياض الصلح أن نناصر بشارة الخوري نكاية بدي مارتيل ، فلم أوافقه أول الأمر على هذه الفكرة ، ثم لما رأيت أن في رأيه بعض المنطق عزمنا على خوض المعركة إلى جانب بشارة الخوري لا لشيء إلا أن في ذلك نوعاً من المعاكسة للسلطة الفرنسية .

وكانت تربط رياض الصلح بنائب طرابلس أمين المقدم رابطة قربى وصداقة متأصلة ، فأرسل له من ينبئه بأنه واقف إلى جانب بشارة الخوري وأنه يأمل من قريبه وصديقه الحميم أن يكون له الموقف نفسه .

فأقر أمين المقدم رياض الصلح عيناً وأرسل إليه أنه ليس من المعقول أن يكون له موقف يناقض موقفه ، وأنه يستطيع أن يطمئن إلى ذلك وأن يطمئن من يشاء . واتصل رياض ببشارة الخوري وأنبأه أنه حين يحسب أنصاره فله أن يحسب منهم أمين المقدم .

ثم أخذت الأمور تتبلور وأخذ الكر والفر يجريان من هنا وهناك حتى استقر الحال على تعادل الكفتين . وكان المجلس مؤلفاً من خمسة وعشرين نائباً ، فإذا إلى جانب إميل إده اثنا عشر نائباً ، وإلى جانب بشارة الخوري نفس العدد ، وبقي كل منهما يحتاج إلى نائب واحد ليفوز بالرئاسة ، وكان النائب المجهول الموقف ، والذي لا يدري أحد إلى من سينضم فيرجح الكفة هو أمين المقدم . وكان بشارة الخوري مطمئناً إلى وعد رياض الصلح ، ورياض الصلح مطمئناً إلى وعد أمين المقدم ، ولما لم يبق لحلول يوم الانتخاب إلا أيام ، أرسل رياض الصلح إلى أمين المقدم طالباً إليه وجوب الحضور إلى بيروت ، فأجاب أمين أنه سيحضر صباح بعد الغد .

وخطر لرياض الصلح ولجماعة بشارة الخوري أن يرسلوا إليه من يتلقاه قبل الوصول إلى بيروت وأن يوصلوه رأساً إلى بيت رياض ، فتولى هذه المهمة النائب محمد العبود وخرج يلتقي أمين المقدم .

وجئنا إلى بيت رياض مبكرين بانتظار وصول أمين المقدم ، ومر الضحى وارتفع النهار ولم يصل أمين المقدم ، ومر الظهر وصرنا على مشارف الأصيل ولم يصل أمين ، وطال انتظار محمد العبود ومن معه فملوا الانتظار وجاءوا بعد الأصيل وحدهم إلى بيت رياض ، وكثر التساؤل عما أخّر أمين المقدم ، وبينما نحن في حيرة من الأمر ، إذا بقادم حوالي الغروب ، يفاجئنا بأن أمين المقدم هو الآن في بيت إميل إده ، وقد وصل إليه بعيد شروق الشمس مصحوباً ببعض أعوان إميل إده الذين رافقوه من طرابلس ومضوا به رأساً إلى بيت إميل إده ، ومنعوا أياً كان من الإتصال به فضلاً عن الإصرار على عدم خروجه من البيت . . .

ثم تبين أن المساعي قد حوّلته إلى صف إميل إده ، واختلف في تحديد هذه المساعي فقيل أنها الضغط الفرنسي ، وقيل أنها المال ، وقيل أنهما معاً . .

وخاف إميل إده من أن يتبدل رأي أمين المقدم تبديلاً جديداً ، لذلك حجزه في البيت ومنع من أن يتصل به أحد .

وأسقط في يد بشارة الخوري ويئس من الفوز ، وكان لم يبق لموعد الإنتخاب سوى يومين فقط . وهنا خطر لأحد أصدقاء رياض الصلح من أبناء النباطية رأي هو أنه يمكن استجلاب بهيج الفضل إلى صف بشارة الخوري إذا أمكن أن يؤمن له مبلغ كبير من المال ، وقال أن بهيجاً ضعيف الشخصية وفقير فيمكن إغراؤه بالمال ، ولما عرض رياض الفكرة عليّ أشرت برفضها ، وقلت فيما قلته في تعليل أسباب الرفض : أن ضعف شخصية بهيج الفضل الذي يراه المشير سبباً في قبوله العرض ، أراه أنا سبباً في رفضه له ، وذلك أن موقفاً كهذا ، وانقلاباً كهذا الانقلاب الحاسم من صف إلى صف يحتاج إلى أعصاب قوية ، وإرادة حازمة ، وإلى رجل يستطيع إتخاذ المواقف الحاسمة ، وبهيج الفضل عكس ذلك تماماً .

وأصرَّ الحاضرون على تنفيذ هذه الخطة وصادفت هوى في نفس رياض ، فلم يكن بد من تنفيذها ، فأرسل رياض رجلاً من قبله إلى بيت بشارة الخوري ا لذي ظل يتابع اجتماعاته الليلية مع جماعته في منزله ، وقال لهذا الرجل أن يقابل خالد شهاب ويعرض عليه الفكرة .

فعاد الرسول يقول أنهم مستعدون أن يدفعوا مبلغاً إذا كان بهيج الفضل مستعداً أن ينتخب بشارة الخوري ، وأنهم يدفعون أقلّ إذا وضع ورقة بيضاء أوغاب عن الجلسة .

فلما جاء هذا الجواب بقي التفكير بمن يفاتح بهيج الفضل بذلك ، وكان بهيج محتجزاً مع المحتجزين في بيت إميل إده وممنوعاً من الإتصال بأحد أو اتصال أحد به . وذلك أن إميل إده خاف من الضعاف وتأثير المؤثرين عليهم فأبقاهم بضعة ليال في بيته يأكلون وينامون ولا يخرجون . . .

فقال أحد أبناء النباطية أن للدكتور بهجت الميرزا الطبيب في النباطية تأثيراً قوياً على بهيج الفضل وأنه وحده يستطيع إقناعه ، وأردف هذا القول بقول آخر : وهو أن فلاناً ـ يعنيني ـ هو الذي يستطيع إقناع الدكتور بهجت الميرزا بالقيام بهذه المهمة .

فرفضت أنا أول الأمر هذا التكليف ، ولكن رياضاً ما زال بي ملحاً على إجابة هذا الطلب حتى اضطررت إلى الموافقة طالباً أن يصحبني رياض التامر الذي كان حاضراً في المنزل .

فاستأجرت ورياض التامر سيارة توصلنا إلى النباطية وتنتظرنا فيها ثم تعيدنا إلى بيروت على أن ندفع لصاحبها خمس ليرات ورقية . وجئنا الدكتور بهجت الميرزا ، وتركت لرياض التامر أمر محادثته وإقناعه وكان رياض ذكياً فاحسنَ الحوار واقتنع الميرزا بالمجيء معنا والقيام بالمهمة ، وعدنا به إلى بيروت وأنزلناه من السيارة في مكان يقصد منه إلى بيت إميل إده ، وقصدت ورياض التامر بيت رياض الصلح ، ولما نزلنا من السيارة مددت يدي إلى جيبي وأخرجت محفظة نقودي لندفع أجرة السيارة فلم يكن فيها إلا ليرة واحدة ، وكان رياض قد فعل ما فعلت فلم يكن عنده أكثر مما عندي ، فحرنا في الأمر ، وكان لا بد لنا من الدخول على رياض الصلح فصعدنا إليه فاستطال سائق السيارة غيابنا فأطلق بوق سيارته إطلاقاً متتابعاً فأدرك رياض الصلح الأمر فقال : السائق لم يأخذ أجرته ؟ . كم هي الأجرة ؟ . قلنا خمس ليرات . فإذا برياض الصلح نفسه لا يملك هذا المبلغ ففكر هنيهة ونادى خادمة منزله وقال لها اذهبي إلى فلان ـ وكان من آل دوغان صاحب دكان قريبة من منزل رياض ـ واستديني لي منه خمس ليرات ، فذهبت وعادت بالليرات الخمس .

وهكذا ونحن نحاول أن نلعب بمقدرات البلد ، وأن نرشو بألوف الليرات الذهبية ، كنا لا نملك خمس ليرات ورقية ! . .

أما ما كان من أمر بهجت الميرزا فإنه عاد إلينا خائباً ، ولم نسأل عن سبب خيبته ، هل لأنهم منعوه من الإنفراد ببهيج الفضل ، أم لأن بهيجاً رفض العرض .

ولما تم بعد ذلك انتخاب إميل إده كنت ورياض الصلح نخرج في صباح ثاني يوم الانتخاب من منزله فلما بلغنا المنعطف الموصل إلى محطة الناصرة ، إذا بنا نرى أمين المقدم مقبلاً في إتجاهنا ، فلما وصل إلينا قال لرياض أنه قادم لزيارته ، وكنا غير بعيدين عن منزل رياض فعاد معه إلى المنزل ، وتركتهما أنا وغبت أكثر من ساعة وعدت إلى منزل رياض فأخبرني بأن أمين المقدم جاءه معتذراً وأنه قال له : أنني حين كتبت اسم إميل إده وذهبت لأضع ورقتي في صندوق الاقتراع مررت بمقعد إميل إده وأريته الورقة وقلت له أني أنتخبك لأن رياض الصلح أمرني بذلك . . .

ولم يخب رياض الصلح في موقف كما خاب في هذا الموقف . فهو لم يكن يريد أن يتظاهر بمناصرة بشارة الخوري ، ولكن خصوم بشارة عرفوا ذلك ، كما أن أنصار بشارة اتهموه بأنه لم يكن مخلصاً في مناصرته لهم وأن أمين المقدم لا يمكن أن يخرج على إرادته .

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، وكانت هزيمة فرنسا وسيطرة الإنكليز وحلولهم محل الفرنسيين في سوريا ولبنان مع مشاركة لجماعة ده غول . وكان الإنكليز قد صمموا على إقامة (إسرائيل) على أن يرضوا السوريين واللبنانيين بإقامة حكم وطني فيهما ، فآثروا التعاون مع بشارة الخوري في لبنان ، ولو أن إميل إده هو الذي فشل في الوصول إلى رئاسة الجمهورية في عهد دي مارتيل لكان هو الذي يختاره الإنكليز ، ولمثّل الدور الذي مثّله بعد ذلك بشارة الخوري . ولكن صحّ في بشارة الخوري قول : وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

والخلاصة أن بشارة الخوري وصل إلى رئاسة الجمهورية ، وكان الحكم الاستقلالي ففهمه بشارة الخوري تسلطاً شخصياً ولم تعن له فكرة (الدولة) بباله ، ولم يفكر لحظة واحدة في التخطيط لها ، بل انصبَّ همّه على كسب الأعوان والأنصار الذين يستطيع بهم إطالة حكمه وتركيز تسلطه . وكان طريقه في ذلك ذي شعبتين : الأولى أن يضمن في المجلس النيابي مجموعة يستطيع بها أن يسيطر على المجلس . والثانية أن يضمن في الأوساط الشعبية مجموعة تدعمه عند الحاجة إلى الدعم الشعبي .

وفكر طويلاً في السير في الشعبة الأولى فهداه التفكير إلى أن اختار فريقاً من النواب الذين لا مطامح لهم إلا استغلال النفوذ فاستصفاهم لنفسه وأطلق أيديهم في مناطقهم يفعلون ما يشاؤون ، يقربون من يشاؤون ويسدون من يشاؤون ، يعطون من يشاؤون ويمنعون من يشاؤون . لا سيما

ثلاثة منهم كان أحمد الأسعد أحدهم .

أما في السير في الشعبة الثانية فكانت إغداق الأموال على المحاسيب والأنصار وإباحة أموال الدولة لهم ، وإليك مثالاً عمّا عرفناه مما كان يجري :

فقد حدّثني أحد كبار المقاولين الذين كانوا يتعهدون تنفيذ مشاريع الدولة الكبرى في شق الطرق ، وهو بقاعي أنه أُعلن عن إجراء مناقصة لمشروع ضخم تقدر نفقاته بالملايين ، فتقدم كعادته للإشتراك في المناقصة ، فجاءه بعض المنتمين إلى الحكم يطلب إليه بأن لا يشترك ، فقال كيف لا أشترك وهذا عملي ، فقال : إني أنصحك بأن لا تشترك ، فقال : إني لا أقبل نصيحتك وسأشترك ، فتركه ومضى . . .

وفي اليوم الثاني استدعاه وزير الأشغال العامة وكرر عليه النصيحة فأبى قبولها ، فقال الوزير ـ وكان يومئذ أحمد الأسعد ـ : إني أقول لك بصراحة تامة : أنك إذا أصررت على الاشتراك في هذه المناقصة ، فستحرم منها حتماً ، وستحرم في المستقبل من الاشتراك في أية مناقصة ، وسنجد ألف وسيلة لحرمانك .

فتململ المقاول وتضجر واستنكر . فقال له الوزير : افهم ما أقول لك ، ولأنك شيعي مثلي ويهمني أمرك ولا أريد لك أن تخسر المقاولات في المستقبل فإني أزيدك صراحة : إن لمسؤول كبير في الدولة رجلاً يريد أن يغدق عليه مبلغاً كبيراً من المال ، وهذه أفضل طريقة لتحقيق ذلك ، فيتقدم وحده للمناقصة بدون منافس ، وبذلك يحصل على المال بأسلوب قانوني لا مؤاخذة فيه . . . أفهمت الآن ؟ فقال : لقد فهمت . . . ثم انسحب من المناقصة ، ورسا المشروع على المحظوظ وحده ، وفاز بالملايين بأسهل طريقة ! . .

أحمد الأسعد وعادل عسيران

قلنا أن بشارة الخوري إختار فريقاً من النواب لا سيما ثلاثة للسير في الشعبة الأولى من طريقه وأن أحد أولئك الثلاثة كان أحمد الأسعد .

وهنا لا بد من بعض الحديث عما كان من أمر هذا الشخص وأمر منافسه عادل عسيران ، وعمّا عاثا به في جبل عامل ، وما جنياه على هذه البقعة العزيزة .

ومن العجائب أن سلفي هذين الاثنين وهما كامل الأسعد عمّ أحمد الأسعد ، وعبد الله عسيران والد عادل عسيران قد اتفقا على الخيانة فارتكبا مجتمعين جريمة من أقذر الجرائم هي وشايتهما أثناء الحرب العالمية الأولى بالزعيم العربي المناضل عبد الكريم الخليل عند جمال باشا وترتيبهما من يشهد عليه ويدينه ، مما أدى إلى شنقه مما ليس هنا مكان تفصيله .

ثم اختلف خلفاهما حين آل الأمر إليهما على اقتسام الغنائم والاستئثار بالأسلاب وتنابذا وتعاديا في ذلك ، فشقي بهما جبل عامل وضاعت حقوقه واهتضم أهله وامتهنت كرامته على أيديهما .

لقد سلّط بشارة الخوري أحمد الأسعد على جبل عامل وحكّمه في البلاد والعباد ووضع كل قوى السلطة في خدمته للانتقام من كل من يقف في وجهه .

فكان من فظائع بشارة الخوري أنه سلّط على بقعة مليئة بذوي المروءة والنخوة والشهامة وكرم النفس ، سلّط عليها من هو صفر من هذه الصفات :

لولا زمان خؤون في تصرفه ودولة ظلمت ما كنت إنسانا

***

شر العصور وفي العصور تفاوت عصر به تتقدم الأوغاد

ولم تكن أي معاملة تجري في دوائر الحكومة لأي إنسان إذا لم يأت بتوصية من أحمد الأسعد ، فطغى هذا وبغى ، وقد كان يمكن أن يستغل هذا الموقف لمصلحة البلاد وأهلها ، ولكنه كان أتفه من أن يفكر في ذلك ! .

وبينما لم يستطع أحمد الأسعد في أول إنتخابات حرة تجري في البلاد في ظل الحكم المزدوج إنكليزياً وفرنسياً خلال الحرب العالمية الثانية لم يستطع إلا أن يكون واحداً من قائمة تضم ستة نواب ، ولكي يتضح لك الأمر يكفي أن تعلم أن القائمة كانت تضم كلاً من محمد الفضل وعلي العبد الله وعادل عسيران وكاظم الخليل ورشيد بيضون ، وليس بين هؤلاء واحد يمكن أن يكون محسوباً على أحمد الأسعد ، بل كان كل واحد منهم مستقلاً بنفسه عن الآخرين . بينما كان الأمر كذلك في أول إنتخابات حرة ، إذا بالأمر ينتهي بعد أن سلط بشارة الخوري أحمد الأسعد على البلاد والعباد أربع سنوات إلى أن الذي جاء في الإنتخابات الحرة منفرداً ، يجيء في هذه الإنتخابات على رأس قائمة من المطاويع ينجح كل أفرادها ويسقط خصومه كلهم ! . . .

وعندما سقط بشارة الخوري وجاء عدوه كميل شمعون ، قرب إليه عادل عسيران منافس أحمد الأسعد ، وسلّطه على البلاد والعباد تسليط بشارة الخوري لأحمد الأسعد ، وإذ بأحمد الناجح على رأس قائمة في انتخابات بشارة الخوري ، يسقط في انتخابات كميل شمعون ، وينجح عادل عسيران .

وكما طغى وبغى أحمد الأسعد في عهد بشارة الخوري ، طغى وبغى عادل عسيران في عهد كميل شمعون .

وضاعت البلاد ومصالحها وكرامتها وكرامة أبنائها بين الطاغيين الباغيين .

وقد كان في جبلة عادل عسيران في الأصل جبروت وتكبر وعجرفة وغرور ، ثم جاءه المنصب فزاده ذلك على هذه الصفات استعلاء على الناس ، لذلك تحاماه كل من يحس بكرامته وشخصيته ، مثلما تحاموا منافسة أحمد الأسعد .

وقد اضطر أحد الكرام بعد أن أوقعه الزمن في متاعب لم يكن له قبل بها ، لأن يلجأ إلى عادل عسيران مستنجداً به ، وكان هذا الكريم شاعراً فعاد بخيبته من عجرفة عادل واستعلائه وجبروته ، عاد ناظماً هذه الأبيات الثلاثة :

علقت آمالي على عادل فلم أجد عدلاً وإحسانا
أوقفني الدهر على بابه والدهر قد يوقف أحيانا
فرحت استعطف ذا غلظة وأسأل اليسر «عسيرانا»

وهذا هو شأن العامليين يكون الشعر حاضراً عندهم في كل ما ينوبهم من أحداث .

ولم تكن هذه الأبيات الثلاثة هي كل ما قاله شعراء جبل عامل في عادل عسيران ، فقد سبق له أيام كان مضطهداً من بشارة الخوري أن كان يصاحب الشاعرين موسى الزين شرارة وعبد الحسين عبد الله ، فلما تولى كميل شمعون وزال عنه الاضطهاد وأصبح رئيساً للمجلس النيابي ، صدف أن كان الشاعران يقفان معاً ، فإذا بهما يريان سيارة عادل عسيرن مقبلة باتجاههما ، فكان من الطبيعي عندهما أن يحييها متذكراً مواساتهما له في أيامه الماضية ، ولكنه مرّ دون أن يلتفت إليهما ودون أن يتنازل فيحييهما ولو من بعيد ، فارتجل عبد الحسين هذين البيتين :

أيا سيارة المغرور سيري ففي مسراك (طنّ) من غرور
لقد مر (الرئيس) ولم يسلم على موسى ولا العبد الفقير

وكما كان عادل عسيران موضوعاً للشعراء العامليين، كان كذلك أحمد الأسعد ، ويؤسفني أن لا يحضرني الآن شيء مما قيل فيه[1] .

ومما يختلف فيه أحمد الأسعد عن عادل عسيران أن أحمد الأسعد كان مقراً بقدر نفسه فلا يتفيهق ولا يتشدق بالوطنية، في حين أن عادل عسيران كان في أول المنتخبين لمرشح الصهاينة ومرشح رئيسهم (بيغن) لرئاسة الجمهورية اللبنانية (بشير الجميّل) ، فعل ذلك عادل عسيرن لأنه توهّم أن النفوذ الإسرائيلي سيبقى هو المسيطر ، فمصالحه تقضي بالسير في الركاب الإسرائيلي .

ثم لما عرض ما سمي باتفاق (١٧ أيار) على المجلس النيابي ، كان عادل عسيران في أول المسارعين إلى الموافقة عليه ، وهو الإتفاق الذي يعترف بإسرائيل ويقر الصلح معها ويحكم نفوذها على لبنان .

ثم لما جلا الإسرائيليون عن لبنان واستعاد السوريون نفوذهم عليه إذا بعادل عسيران منتخب مرشح الصهاينة لرئاسة الجمهورية والمعترف بإسرائيل الداعي إلى الصلح والتعامل معها وأحكام نفوذها على لبنان ، إذا بعادل عسيران هذا ، يعود متشدقاً متفيهقاً بالوطنية .

ولم يسكت الشبّان الوطنيون المناضلون على فعلة عادل عسيران فهاجموا مكتبه في بيروت مع مكاتب وبيوت غيره من رموز الخيانة وأحرقوها .

ندوات أدبية في شقرا

كانت قد أقيمت في بلدة شقرا حسينية كبيرة رحبة ، فرأيت أن نتخذ منها قاعة محاضرات ، فكنت بين الفينة والفينة أدعو أبناء القرى المجاورة إلى حضور محاضرة فيها تتعلق بتاريخ جبل عامل الأدبي والسياسي .

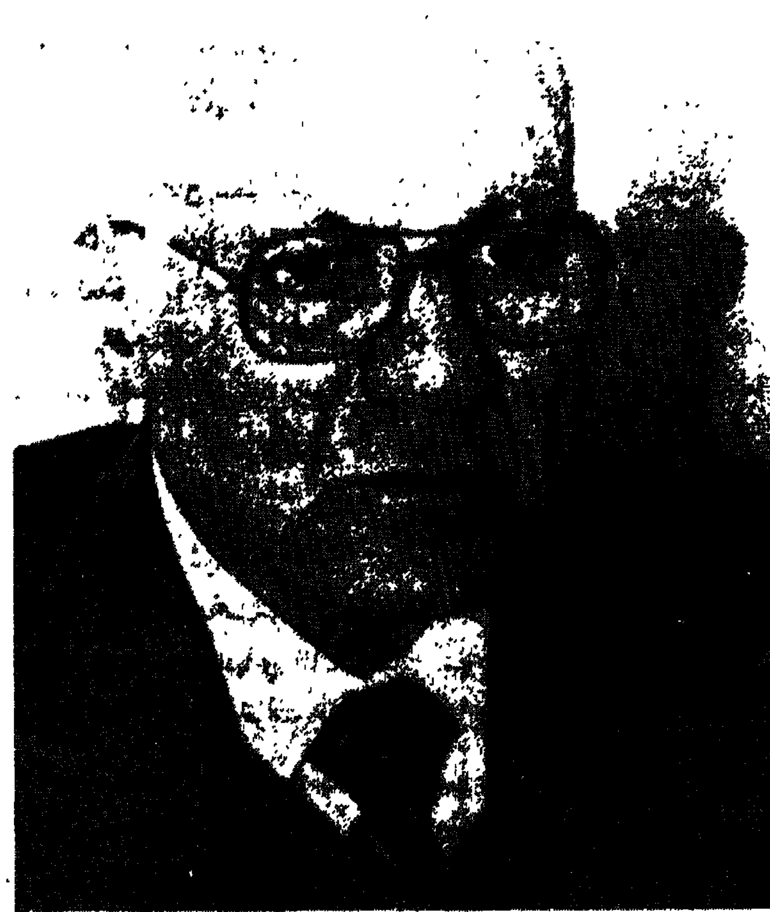
وفي إحدى المرات دعوت إلى مهرجان شعري عاملي احتفالاً بمرور ألف عام على ذكرى الشريف الرضي . فاحتشد لذلك مجموعة من شعراء جبل عامل الشبّان ، وتوسعنا في الدعوة لحضوره توسعاً كبيراً ، وكان مأمولاً أن يكون من أعمر المهرجانات الشعرية العربية وأبعدها صدى .

وقبل اليوم الموعود لإقامة المهرجان بيوم واحد ، وبينما كنت في الصباح في بيروت أعدّ حقيبتي للذهاب إلى شقرا للإشراف على إعداده إذ بأنباء الصباح تذيع أن اجتياحاً إسرائيلياً للحدود قد بدأ ، وأن الاجتياح قد تجاوز قرى الحدود موغلاً في أعماق الجبل ، وكانت شقرا فيما شمله الاجتياح ، وهكذا تعطل المهرجان ، وكنت قد أعددت كلمة الافتتاح وأعقبتها بالقصيدة التالية :

شقراء ما برح الهوى غلابا شقراء ما زالت نواك عذابا
هذي التلال الخضر كم لذ الهوى فيها وكم عذب النضال وطابا
(والحومة) الخضراء والوادي وما ضمت خياماً في الذرا وقبابا
وظلال (شوّاثا) ومن ساروا بها (أسراب حسن تقتفي أسرابا)
شقراء أن تغب الجسوم فإنما شوق الأحبة في النوى ما غابا
يتلفتون لعل في أرج الصبا من واديك على الصباح ملابا
ولعل منك على البعاد تحية ولعل منك على الكتاب جوابا
شقراء ما زلنا بحبك فتية متوقدين حماسة وشبابا
إن شاب هذا الشعر هماً فالهوى غض وقلبي في المنى ما شابا

***

شقراء كرمت (الرضي) وطالما كانت رباعك للرضي مثابا



بعد سنين من بدء العمل في دائرة المعارف الاسلامية الشيعية .

---

(١) مما يذكر لراشد عسيران شقيق عبد الله عسيران وعم عادل أنه وقف موقفاً نبيلاً كله رجولة وشهامة حين أرادته السلطات التركية أن يشهد على عبد الكريم الخليل ورضا الصلح أمام المجلس العرفي في عاليه، فقد أبى أن يتهمهما ونفى ما نسب إليهما وأصرّ على براءتهما. وقد كان اعتماد السلطات في تسميته للشهادة أنه شقيق عبد الله، وعلى أن عداء شديداً كان قائماً في صيدا بين آل الصلح وآل عسيران. ولكن راشد عسيران أبى إلا أن يكون رجل المروءة والنبل فتمرد على السلطات ووقف إلى جانب الأحرار.
وكم لهذا الرجل الذي عاش في الظل من مكرمات. . .

كم غـرد الشـادي بـه ولكم هـفت | في نـاديـك قـلوبـنـا إعـجـابـا
فهنـا عـلى الـذروات رف قصيـدة | وهنـاك في الندوات شـع كتـابـا
وهنـا تـرقـرق بـالهـوى أغـرودة | وهنـا تـألـق بـالإبـاء شـهـابـا
في الـليـل لـلسـمار منـه منـادم | يجـلو الهـمـوم ويطرد الأوصـابـا
ويـعيـد لـلقلب المشتّ يـقيـنـه | ويـرد لـلغـاوي هـدى ومتـابـا
هـو في الهدايـة والتقى علم الـدرا | وهـو المجيب إذا الصريـخ أهـابـا
هـو في القريض منـارة الساري إذا | عـمّ الـظلام وكـل نـور غـابـا
هـو في الإبـاء إذا النفـوس تخـاذلت | طـود يـظل إلى الـعـلى وثـابـا
شقـراء كـرمت الـرضي وطـالمـا | كـان الـرضي لكـل فضـل بـابـا
تـلك الحجـازيـات والـغـرر الـتي | كـانـت لـكـل مـتـيـم محـرابـا
شـقـراء كـم غـردتهـا أنـشـودة | وتـلـوتهـا في الـنـاديـين خـطابـا
ولكـم بـكيـت لـدمعـه في كـربـلا | يـرثي الهدى والأهـل والأصحـابـا
أهـلاً بـألـويـة القـريض ومـرحـبـا | بـالـوافـدين أحبـة وصحـابـا

في المؤتمرات العلمية

دعيت للمشاركة والمحاضرة في بعض المؤتمرات العلمية منها :

١ ـ المؤتمر العلمي العالمي الذي دعت إليه جامعة خراسان في مدينة(مشهد) لمرور ألف سنة على ميلاد أبي جعفر الطوسي وقد حضرته وفود من أنحاء العالم الإسلامي ومن المستشرقين وأساتذة الجامعات الغربية المهتمين بالدراسات الإسلامية وحضره من المغرب علال الفاسي السياسي المعروف ، وقد بالغ منظمو المؤتمر في تكريمه والعناية به ، وخرجوا على الأصول المتبعة في مثل هذه المؤتمرات بأن يتولى رئاسة كل جلسة واحد من وفود البلدان المدعوة ، فجعلوه رئيساً دائماً للمؤتمر . ولكنه مع ذلك لم ينسَ أنهم يخالفونه في المذهب فلم يسلموا منه . فقد حاضر في إحدى الجلسات عالم كندي متخصص بالدراسات الإسلامية فأبدى إعجابه ببعض الأفكار الشيعية ، فأغضب هذا الكلام علالاً فلم يملك نفسه من أن يعلق على كلام المحاضر محاولاً نقضه .

وصادف في إحدى الجلسات أن كانت في يوم جمعة ، وقبيل حلول موعد الصلاة طلب أحد العلماء الإيرانيين الحاضرين رفع الجلسة لأداء صلاة الجمعة فرفع علال الجلسة وطلب إلى الحاضرين الإلتقاء جميعاً لحضور الصلاة فذهبنا جميعاً ومعنا علال وكان بيننا مندوب يماني وكان مسروراً بهذا المؤتمر ومشاركته فيه ومتعاطفاً كل التعاطف مع منظميه ، وكان مرتاحاً كل الإرتياح للإنتباه لموعد صلاة الجمعة ، وكان علّال قد ألفه فكان يبوح إليه بالكثير مما في نفسه ، ومما أسرَّ به إليه أنه بعد الإنتهاء من صلاة الجمعة عاد إلى الفندق فأعاد صلاته .

هذا وفي مذهب علّال الفاسي أن الصلاة تصح وراء البرّ والفاجر ولكنها لم تصح عنده وراء الإمام الشيعي .

وقد كان وقع كلام علّال أليماً في نفس صديقه اليماني ، فلم يستطع إخفاءه عني .

لقد نجح المؤتمر كل النجاح ، وكان موضع إعجاب جميع المنصفين ، وكان للشيخ محمد واعظ زاده الخراساني أمين عام المؤتمر فضل كبير في هذا النجاح .

٢ ـ الملتقى التاريخي الذي دعت إليه وزارة الثقافة التونسية لدراسة التاريخ الفاطمي ، وانعقد هذا اللقاء في مدينة (المهدية) العاصمة الفاطمية التي بناها الخليفة الفاطمي عبد الله المهدي ، وسمي لقاء (القاضي النعمان) وهو عالم الدولة الفاطمية وقاضيها .

وقد حدث لي شيء طريف في وصولي إلى العاصمة تونس . فقد حددت للسفارة التونسية في بيروت يوم سفري بعد أن طلبوا مني ذلك ليخبروا به تونس ، وليكون مندوب منهم في وداعي . وكنا في تلك الأيام نعيش الأحداث اللبنانية الأليمة ودوي الرصاص ينطلق من كل مكان ، وفي فترة هدأ فيها الدوي وكان ذلك قبل الموعد المحدد لسفر الطائرة بساعتين ، رأيت أن أبكر في الذهاب إلى المطار فذهبت وأنهيت معاملات السفر ثم مضيت إلى قاعة المسافرين . وبعد ذلك جاء مندوب السفارة فلم يجدني بين المسافرين المتهيئين لإنهاء معاملاتهم ، فاعتقد أني عدلت عن السفر في هذا اليوم فرجع إلى السفارة دون أن يرسل (التلكس) إلى تونس منبئاً بموعد وصولي[1] . ولما هبطت في مطار تونس لم أجد أحداً في انتظاري فتعجبت من ذلك ورأيت شرطياً فقصصت عليه الأمر فمضى بي إلى رئيسه في مخفر المطار الذي رحب بي واتصل بمحافظ المطار ـ كما يسمونه هناك ـ فدعاني إلى مكتبه ولا أدري مع من تهاتف ، ثم قال لي بكل أدب : أنهم يسألون هل معك بطاقة الدعوة ، فسألته مع من تهاتفت ؟ فقال مع رؤسائه . فقلت أن الأمر لا يتعلق برؤسائك ، إنه يتعلق بوزارة الثقافة .

وكان قد مضى علينا أكثر من ساعتين في أخذ ورد ، وكان المساء قد دنا ، ولا أحد من وزارة الثقافة بمكتبه ، ولا أدري بمن أتصل بعد ذلك ، ثم قال لي : بعد قليل يكون هنا مندوب وزارة الثقافة وهم يأسفون جداً لما حصل ، ثم وصل المندوب معتذراً متعجباً من عدم وصول الخبر إليهم ، ثم مضى بي إلى الفندق ، وقال أن مكان انعقاد الملتقى هو مدينة المهدية وستأتي في صباح الغد سيارة لتوصلني إلى المهدية .

وفي الصباح سافرت إلى (المهدية) وانزلونا في فندق (المهدي) . وكان التونسيون الذين لقيتهم سواء في العاصمة أو في المهدية على أعلى درجات التهذيب واللياقة والكياسة .

ولقد شعرت في المهدية وفي فندق المهدي بانشراح نفساني كبير ، وعدت إلى الماضي البعيد إلى العصور الأولى للدولة الفاطمية لا سيما عصر الخليفة العظيم المعز لدين الله وعصر شاعره المبدع محمد بن هاني الأندلسي .

هذه الدولة التي لم تلق دولة من ظلم الناس مثلما لقيت ، ويكفي أن أعدى أعدائها هم الذين كتبوا تاريخها فسعوا إلى طمس فضائلها وتشويه محاسنها واختلاق المساوىء لها .

وكنت عندما أسير في شوارع المهدية وأتذكر أن هذه الدروب كانت دروب المعز وهذه المسالك هي التي كان يسلكها ، وأنه من هنا انطلق لتحقيق الوحدة العربية الكبرى التي حققها هو ومن تلاه ، محاولاً أن يعيد بها وحدة العالم الإسلامي .

ثم أتذكر كيف أن الجيش الفاطمي قد استرد من البيزنطيين ما احتلوه في شمال بلاد الشام ، ثم ردّهم في محاولاتهم المتكررة لاحتلال بلاد الشام

(١) عرفت ذلك بعد رجوعي إلى بيروت.

كلها ، ثم صدّهم مرتين عن محاولتهم الوصول إلى القدس .

وأتذكر الأسطول الفاطمي العظيم الذي أصبح سيد البحر المتوسط فهزم البيزنطيين في البحر كما هزمهم الجيش في البر .

وأتذكر قصائد ابن هاني في وصف المعارك البرية والبحرية وانتصاراتها العظيمة ، لا سيما قصيدته في وصف الأسطول ، وقصيدته في معركة (المجاز) .

وأتذكر أن كل ذلك كان انطلاقه الأول من هنا من المهدية ، من بين هذه البيوت المتراصّة حولي ، ومن على هذه الطرق الممتدة أمامي .

ثم أتذكر ذلك الوهج العلمي المتألق الذي شعّ على العالم الإسلامي من قاهرة المعز والذي عبر عنه المؤرخ المصري الدكتور محمد كامل حسين بقوله في بعض ما قال : (فالقاهرة الفاطمية أصبحت مطمح أنظار العلماء ، ومحط رحال الطلاب . وفي العصر الفاطمي استطاعت مصر أن تنتزع زعامة العالم الإسلامي في الحياة العلمية) .

وأتذكر أن الشعاع الأول لكل ذلك قد انبثق من هنا من هذه المدينة التي أسير الآن في دروبها .

ثم أتذكر ما جناه الجانون على ذلك التاريخ بأحقادهم وعصبياتهم وافتراءاتهم ، فيتجاذبني في المهدية عاملان : عامل الزهو بوقوفي على مرابع الفاطميين الأولى ، وعامل الأسى على ما انصب على تاريخهم المجيد من ظلم وبغي .

وانعقد اللقاء في جلسته الأولى ، وكانت السفارة التونسية قد سلمتني قائمة بعناوين الموضوعات التي ترى وزارة الثقافة أن يبحثها المحاضرون ، فاخترت منها هذا العنوان : (المهدية قاعدة حكم وعقيدة) .

وجعل المشرفون على اللقاء محاضرتي المحاضرة الأولى حيث افتتحوا بها الملتقى ، فتحدثت فيها بإيجاز لا يسمح الوقت بأكثر منه عن المهدية قاعدة الحكم والعقيدة مدعماً أقوالي بما لا يستطاع نقضه من الوثائق التاريخية الثابتة .

ولم تكن قاعة المحاضرات واسعة لأن الدعوة كانت مختصة بطبقة معينة من المثقفين لا سيما في التاريخ . وأشهد أن الحاضرين قابلوا المحاضرة بمنتهى التقدير وصفقوا لها طويلاً معترفين بحقائقها المجلوة أمامهم ، وقد جرى بعدها نقاشات طويلة كانت تستزيد التفصيل في بعض ما أوجزت به فأزيد تفصيلاً وإيضاحاً .

وكان بين شهود الملتقى وزير الداخلية طاهر بلخجة لأنه من أهل المهدية ، فدعانا إلى وليمة فخمة ، وتنوع الحديث فقلت موجهاً الكلام إليه في الدرجة الأولى : أنه لشيء مسر أن تنتبه تونس إلى تاريخ الفاطميين فتحاول إنصافه ومن أولى منها بذلك ، وعسى أن يكون هذا اللقاء الخطوة الأولى في سبيل الانصاف .

فلم يعجبه هذا الكلام ورد عليه : بأن في الأمر سلبيات وإيجابيات . فلم أشأ أن أسأله عن هذه السلبيات لأني أعرفها حق المعرفة ، وهي سلبيات لا يمكن تحويلها إلى إيجابيات بعد أن ترسخت في النفوس مهما كان لديك من حجج دامغة . وأدركت عقم البحث فسكت .

ودعانا والي المهدية إلى وليمة حضرها رئيس الجمهورية الحبيب بورقيبة ، وكنت قد لقيته سنة ١٩٤٧ في بغداد في حفلة تكريم أقامتها له نقابة المحامين حين كان يطوف البلاد العربية في سبيل استقلال تونس فتحادثنا هناك ملياً وقارنا بين الاستعمار الفرنسي في سوريا ولبنان وبينه في تونس ، وقلت له يومذاك : أرجو أن نلتقي في تونس وقد نالت استقلالها . وكان الفرنسيون قد رفضوا إعطائي سمة دخول (فيزا) عندما طلبتها وأنا في باريس ، فقلت له : سيأتي اليوم الذي أطلب فيه هذه السمة من السفارة التونسية وأدخل تونس .

ولم أشأ ونحن على المائدة وكنا نجلس متقابلين أن أذكره بهذا لأنه اليوم في عالم آخر لا يذكر فيه شيئاً من ذلك الماضي .

وتذكرت ما جرى للأديب العراقي مشكور الأسدي الذي كان في القاهرة طالباً في جامعتها عندما كان الحبيب بورقيبة لاجئاً إليها ، شريداً معدماً يكاد لا يجد قوت يومه ، وكيف أنهما تحابّا وتصافيا فكان الحبيب يلزمه ولا يفارقه لا سيما على وجبات الغداء التي لم تكن تتجاوز يومياً صحناً من الفول المدمس الذي كان الحبيب يرى حصوله عليه نعمة يتمنى دوامها .

وقد كان مشكور الأسدي مغتبطاً بما صار إليه رفيقه القديم من رئاسة ونعيم ونفوذ ، وكان يمني النفس بأن يزور تونس يوماً ليرى رفيق البؤس في أسعد أيامه .

وجاءت الفرصة وذهب مشكور في مهمة صحفية فأعرض عنه الحبيب وتجاهله ، لأن رؤيته له ومجالسته تذكره بالأيام السود وهو لا يريد أن يتذكرها .

٣ ـ مؤتمر أدباء العرب ومهرجان الشعر العربي الذين انعقدا معاً في بغداد ، وقد دعيت إليه شاعراً لا ناثراً فألقيت فيه قصيدة بإسم لبنان هي الآتية :

حب يظل على المدى متجددا	وهوى يعود به الوفاء كما بدا
بغداد يا حلم النفوس إذا هفت	شوقاً ويا لحن المحب إذا شدا
الوجدُ فيك كما عهدت ولم يزل	شوق الأحبة ما عرفت توقدا
من رافديك كما تبسم دجلة	عبر الضحى وكما الفرات تنهدا
بالحب بالعهد الوثيق وبالوفا	صغنا القلوب مودة والأكبدا
كم كان طيفك للأحبة مسعفا	إن لج شوقهم وذكرك مسعدا
هذي العروبة في مواكب زحفها	هبت إليك تجمعا وتحشدا
صوت من الأدب الرفيع يشدهم	ونداء صدق في حماك ترددا
صوت (الرضي) إذا ترنم بالهوى	وإذا استجاش إلى الوغى وإذا حدا
صوت تردده الشعاب وتنتخي	قمم الجبال تحفزا وتوعدا
للثأر للمجد المهيض لساعة	في ضفة الأردن تنتظر العدا
يا هاتفاً في الواد عزّ مجيبه	ومنادياً في السفح طال به الندا
من ضفة الأردن يصرخ داعيا	ومن المهامه والذرا مستنجدا
من مطلع (النقب) العزيز مذللا	بَيد العدا ومن الحمى مستعبدا
من أربع هانت فلا متصبر	بعد الهوان بها ولا متجلدا
يا هاتفاً ما اليأس يخفت صوته	ومناديا للثأر ما نادى سدى

لن يشرب النقب الرحيب ويرتوي — يوماً بغير دم اليهود مبددا
تلك الربوع المعرقات عروبة — تأبى لها النخوات أن تتهودا

هذا العراق وما رأيت كمجده — أبقى على مر الزمان وأخلدا
سل في البيان العبقري أمثله — من رتل الآيات فيه وجودا
البصرة الفيحاء أبصر ثغرها — في ظلمة التاريخ يلمع فرقدا
وجرير يهتف بالغرام وينثني — صوت الفرزدق بالمفاخر منشدا

كانت على الأيام أسطع كوكب — علما وأزهاه تقى وتعبدا
أني لأسمع في الخيال هتافها — وأرى مواكبها تؤم المربدا
والكوفة الخضراء ألمح وجهها — عبر الزمان نضارة وتوردا
في كل زاوية تريك حضارة — وبكل ركن ثم تبصر معهدا
رعت البيان فضيلة ومحبة — وحوته حين حوته في الدنيا هدى
يا كوفة الجند استطالت عزة — وشأت طريفاً في الحياة ومتلدا
جددت سالفة المنابر شاعرا — فذ القويض وناثرا متفردا
من قبتيك ومن منارات العلى — شعت على الكون الهداية فاهتدى
حييت أرضك مهطعا إجلالها — ولثمت تربك خاشعاً متعبدا
متخيلاً نور (الامام) ، ووجهه — جلّ بمشرقه الضلال وبدّدا
أعلى ميادين الكفاح بطولة — وأنار داجية الظلام تهجدا
أرنو إلى الأطلال علّ بها سنا — من نور غرته وعلّ بها صدى
إني لأستوحي الطلول فخارها — شرف الكتاب ومجده والسؤددا
والألمعيون استفاض حديثهم — بحرا تدفق بالمعارف مزبدا
متحلقين على الحقيقة ما رأوا — في دهرهم إلا الحقيقة مقصدا
ذكرى (علي) في رحابك غضة — وسبيل نهجك لا يزال موطدا
لا تتركي القصد القديم فربما — كان القديم تقدما وتجددا

وفي هذا المهرجان لقيت الشعر اليماني الزيدي ابراهيم الحضراني فأنست به كل الأنس ، وعرفت منه الكثير من شؤون اليمن ، ومما عرفته شيوع قصيدة (الأزرية) هناك وأن الكثيرين يحفظونها عن ظهر قلب وقد أنشدني هو ما يحفظه منها .

كما أنشدني قصيدة تمثل حنين اليمنيين إلى النجف ومن في ثراه وأتذكر منها هذين البيتين :

آن أن تلثم الشفاه البقاعا — بعد أن شاقت القلوب سماعا
قد رضعنا هوى مغانيك أطفا — لاً وهمنا بها أيفاعا

٤ ـ المؤتمر الإسلامي العالمي الذي دعا إليه الداعي الفاطمي محمد برهان الدين أمام البهرة في بومباي بالهند .

والبهرة هم بقايا الحكم الفاطمي الذين انتقل معظمهم إلى الهند واستقروا فيها وصار اسمهم (البهرة) ورئيسهم سلطان البهرة . والسبب في تخليهم عن إسم (الإسماعيليين) ، أن الذين انشقوا عن الفاطميين بقيادة الحسن الصباح ، ثم خرجوا عن العقيدة الإسلامية بإلغائهم الواجبات الإسلامية وإدخالهم في عقيدتهم ما يتناقض مع الإسلام ، والذين عرفوا في الماضي بإسم (النزاريين) ، ثم في هذه العصور بإسم (الأغاخانيين) ـ إن هؤلاء قد انتحلوا اسم الإسماعيليين واشتهروا به



مع داعي دعاة البهرة محمد برهان الدين

وأصبحوا لا يعرفون إلا به ، وهم على ما هم عليه من العقائد المتناقضة مع عقائد الفاطميين وإسلامهم ومذهبهم ، لذلك رضي بقايا الحكم الفاطمي بإسم (البهرة) ابتعاداً عن النسبة إلى من انتحلوا إسم الإسماعيليين .

والحقيقة أن هؤلاء الإسماعيليين (النزاريين) (الأغاخانيين) كانوا من أكبر العوامل التي استغلها المستغلون لتشويه عقيدة الفاطميين ، إذ نسبوا إليهم عقائد النزاريين في حين أن النزاريين كانوا أعدى أعداء الفاطميين وفي حين أن عقيدتهم ظهرت بعد زوال الفاطميين .

وكانت دعوة سلطان البهرة لعقد هذا المؤتمر الإسلامي الكبير محاولة لتبيان حقيقتهم ، فحشدوا له من استطاعوا حشده من كبار رجال الفكر الإسلامي وحسبك أنه كان من حاضريه شيخ الأزهر الحالي واثنان من شيوخه السابقين ومفتي الديار المصرية ، مضافاً إلى المصريين الآخرين من أساتذة جامعيين ومثقفين ومقرئين ، إلى غيرهم من أمثالهم من وفود البلاد الإسلامية والعربية .

ولكن الحقيقة أن كل ذلك لم يفد شيئاً فالأموال الكثيرة التي أنفقت والجهود الكبيرة التي بذلت لم تغير من التهجم على كل ما يمت إلى التشيع بصلة ، فقد كنت أسمع بأذني ما كان يتناول به بعض الضيوف العرب لا



مع شقيق داعي دعاة البهرة الدكتور نجم الدين

سيما من أبناء الخليج مضيفيهم من الطعن والتجريح وسيء القول . وصدف أن واحداً من هؤلاء الضيوف شاقه أن يحضر صلاة الجماعة في مسجد البهرة مؤتماً بسلطان البهرة نفسه فرأى من صلاتهم وخشوعهم وتسبيحهم ما أعاده إلى فطرته السليمة فعبر عن ذلك في كلمة ألقاها في أحد الإجتماعات قائلاً فيها ما معناه : أنه تخيل نفسه يصلي مؤتماً بكبير من كبراء أئمة المسلمين السالفين .

وبعد انتهاء الإجتماع والعودة إلى الفندق لقي من تأنيب الآخرين وتقريعهم له على هذا الكلام ما كنت أسمعه بأذني ، ولم يفد دفاعه عن نفسه بأنه كان أمام مشهد إسلامي رائع يجلو حقيقة البهرة الفاطميين لا ما يتقوله عليهم المتقولون وأنه رأى من واجبه أن يعلن الحقيقة كما هي بعد أن رآها بنفسه . .وكان الرد عليه بأن مجرد حضوره إلى مسجدهم وصلاته معهم هو شيء لا يغتفر ، فكيف بثنائه عليهم .

وفي إحدى الجلسات العامة للمؤتمر وقف الشيخ صبحي الصالح اللبناني على منصة الخطابة وراح يتحدث بلا مناسبة عن القرآن وتفسير القرآن متعالياً حتى لقد قال الدكتور أحمد الحوفي المصري الذي كان يجلس بجانبي ما الداعي لهذا الكلام الآن وهل نحن تلاميذ أمامه ليتكلم بهذا الأسلوب .

ثم انتقل الصالح فجأة إلى مهاجمة مضيفيه دون أن يسميهم ملقباً إياهم بالباطنيين . ثم قال وهو يتحدث عن تفسير القرآن : إن زنادقة الفرس الذين عبثوا بالقرآن باسم تفسير القرآن . . .

ولم يصل إلى هذه الكلمة حتى كان صبري قد نفد ، ولم يعد من مجال للسكوت فقفزت بسرعة إلى المنصة التي يقف عليها وصحت به : اسكت إننا نعرف من تعني بزنادقة الفرس ، إن هؤلاء الذين تسميهم زنادقة الفرس قد أخرجوا للعالم الإسلامي في القديم تفسيرين للقرآن هما التبيان ومجمع البيان . ثم أخرجوا في هذا العصر تفسيراً ثالثاً هو الميزان وأنا أتحداك أن تجد في كل ما كتب المسلمون من تفاسير ما هو خير من هذه التفاسير .

ثم قلت له : أننا الآن في آخر الجلسة ولا يتسع الوقت للإفاضة في



في الثمانين من العمر عند صدور الطبعة الثالثة من دائرة المعارف الاسلامية الشيعية وبدء العمل في مستدركاتها

القول ، وسأريك غداً أن كلامك هو الزندقة . ونزلت .

وفي الليل جاءني الدكتور نجم الدين شقيق سلطان البهرة وطلب إليّ أن أكتفي بما كان وأن أصبر كما صبروا وأتحمل كما تحملوا ، وقال إنه قدرنا فماذا نصنع . فنزلت عند طلبه واكتفيت بما كان .

وقد برهن البهرة في هذا المؤتمر عن كفاءة في التنظيم وعن تعاون وتعاضد عظيمين وعن كرم في الإنفاق والبذل فنفقات المؤتمر كانت باهظة لا تقوم بمثلها إلا الدول .

وكانت مناظرهم داخل الفندق شيباً وشباناً ذاهبين آيبين مشرفين على الصغيرة والكبيرة ، واضعين أنفسهم في تلبية طلبات الضيوف ، كانت مناظرهم تدعو إلى إحترامهم وحبهم .

على أن الشيء غير المحبب إلى النفس هو تعاظم سلطان البهرة مما يوصله إلى حد العجرفة الممجوجة .

٥ ـ الموسم الثقافي الذي كانت تدعو إليه سنوياً وزارة الإعلام والثقافة في دولة الإمارات العربية المتحدة ، وكان يدعى إليه كل عام واحد ممن تختارهم تلك الوزارة ليحاضر في العاصمة (أبو ظبي) وفي الجامعة بمدينة (العين) ، وكنت ممن دعوا فألقيت هناك محاضرتين تاريخيتين .

٦ ـ مؤتمر نهج البلاغة الذي انعقد في طهران . ومن حسن المصادفات أنني إلتقيت فيه كلاً من الشيخ محمد نجف والشيخ مهدي الأنصاري والشيخ محمد رضا الأنصاري . والأول منهما من أحفاد الشيخ محمد طه نجف أحد كبار أعلام النجف في عصره ومن أساتذة والدي عندما كان طالباً في النجف ، وقد كان والدي يردد ذكره دائماً في مجالسه مثنياً عليه كل الثناء ، ذاكراً تلمذه عليه بكل خير . ولقد سررت بلقاء حفيد أستاذ والدي لا سيما وهو على صفات تليق بمن ينتسب إلى ذاك الجد الكريم وكذلك كان سروري بلقاء الأنصاريين بعد أن عرفت أنهما من سلالات الأشعريين الذين عمرت بهم (قم) علماً وإيماناً وكفاحاً ، وكان هذان الأشعريان الأخوان صورة عما حدثنا عنه التاريخ عن أسلافهما من العلم والإيمان والشهامة والإخلاص وحسن الخلق .

٧ ـ مؤتمر قداسة الحرم وأمنه المنعقد في طهران . وقد حضرته وفود من جميع أنحاء العالم الإسلامي ما عدا بعض البلاد العربية ، وقد تجلت فيه الرابطة الإسلامية العميقة التي تشد المسلمين بعضهم إلى بعض بجميع ألوانهم ولغاتهم ، فكانوا في هذا المؤتمر يبدون أمة واحدة تجمعها عاطفة واحدة وآمال واحدة .

وكان من أبرز مظاهره سيادة اللغة العربية بين وفود إفريقيا السوداء ، فرأينا وفد نيجيريا مثلاً يلتقي وفد السنغال فتكون كلمة : السلام عليكم فاتحة اللقاء ، ثم يتحاوران بلغة القرآن .

٨ ـ مؤتمر الشهيد السيد حسن المدرس الذي انعقد في طهران بمناسبة مرور خمسين عاماً على استشهاده .

٩ ـ مؤتمر الفكر الإسلامي السادس المنعقد في طهران ، وكان موضوع بحوثه : (حقوق الإنسان في الإسلام) .

مع الناشرين

باشرت طبع ونشر مخطوطات أعيان الشيعة بما تجمع لدي من مال قليل ، واستمررت هكذا مواصلاً النشر في فترات قد تتقارب وقد تتباعد بحسب ما يتيسر من المال .

وكان لا بد لي في هذه الحال من التعامل مع أصحاب المكتبات بائعي الكتب ومشتريها ، سواء منهم من كان في لبنان أو العراق أو إيران . وقد تكشفت لي في التعامل مع هؤلاء أعجب الأعاجيب من استحلالهم أكل المال الحرام ، فالواحد منهم لا يحجم عن ذلك ما استطاع إليه سبيلاً .

وعلى العكس منهم أصحاب هذه المهنة من الغربيين ، فقد تلقيت يوما طلباً من مكتبة في مدينة (وسبادن) في ألمانيا تطلب فيه إرسال عدة مجموعات من الكتب ، فأعرضت عن إجابة الطلب بعد تجاربي مع من طلبوا أمثال هذ الطلب في لبنان والعراق وإيرن ، فإنم بعد أن يصلهم ما يطلبون يمتنعون عن إرسال الثمن ، مطمئنين إلى أن من يطالبهم بعيد عنهم لا يصل إليهم .

وبعد مضي فترة حدثت صديقاً لي ذي تجارب في هذا الموضوع ، فحثني على إرسال ما تطلبه مكتبة (وسبادن) ، لأنها بمجرد أن تستلم الكتب المطلوبة سترسل الثمن في الحال ، وهكذا كان ، وتكررت طلباتها وتكررت إجابة هذه الطلبات .

ثم وقع لي حادث غريب إذ أنني تلقيت طلباً من مكتبة جامعة برنستن في أمريكا فأرسلت لها ما طلبت فأرسلت لي الثمن ، ثم عاودت الطلب فأرسلت لها أيضاً ما طلبت ، وكان ثمن ما طلبته في المرة الثانية أكثر من ضعف ثمن ما طلبته في المرة الأولى . وكانت الطلبات تأتي موقعة من (رودلف ماخ) ومكتوبة بلغة عربية سليمة . وانتظرت وصول الثمن فلم يصل ، فأرسلت رسالة تذكير ، فلم أتلق أي جواب وتكرر التذكير وتكرر الامتناع عن الإجابة .

وحدثت صديقاً لي أقام فترة في أمريكا بهذا الأمر ، فقال لي : إن رودلف ماخ هذا هو يهودي ، فعند ذلك زال العجب .

وأستطيع أن أقرن هذا اليهودي الأمريكي بمن يتظاهرون بالورع ويتسمّون بالأسماء الدينية من الناشرين بائعي الكتب ومشتريها متخذين من تلك الأسماء وسيلتهم لخداع الناس بمظاهرهم وأسمائهم . فمن سموا مؤسستهم (الدار الإسلامية) في بيروت ، وزيد فرحات الذي أطلق لحيته وضخّم عمامته ومن تسمى بإسم سيف الله في قم وأشباههم هم قرناء (رودلف ماخ) اليهودي الأمريكي ، وقس على ذلك . . .



في ظل المكتبة

قصائد منوعة

أشواق

يا ويح قلبي كم يلقى وكم يجد ... وكم تكابد هاهذه الكبد
لمن أرتّل أشعاري وأنظمها ... ومن يقرض أبياتي وينتقد
كتمت حبك في صدري فضاق به ... صدر بجمر نواك اليوم يتقد
أن تغف عينك عن همي فإن لها ... عيناً يطول عليها بعدك السهد
الدار بعدك لا تحلو مطالعها ... ولا يطيب لعيني في الهوى البلد
والكون بعدك لا حسن ولا أرج ... للمستهام ولا نعمى ولا رغد
يا سرحة الحب لا ماء الصبا غدق ... بعد الرحيل ولا طير الهوى غرد
هذه الحياة فلا ظل ألوذ به ... على الهجير ولا ريا فأبترد
أين المرابع بالسمار حافلة ... وأين أحبابنا من بعدنا قصدوا
هل شاقهم بعدنا للحب شائقة ... يوماً وهل وجدوا بعض الذي نجد
وددت لو طالعت عيناي مطلعهم ... وشاهدت في الربى الروض الذي شهدوا
وإنني في الجبال الشم أرقبهم ... وإنني أرد الماء الذي وردوا

هيهات يعذب عيشي بعد بينهم … أو أستطيب غراماً بعدما بعدوا
أين (الرويس) وروضات الحمى آنفا … والذروتان وصداح الربى الغرد
وثغر (ظمياء) خلف الروض مبتسم … وشعرها الجعد حول الوجه منعقد
ووجنتاها وقد مال الدلال بها … كالجمرتين بنار الحسن تتقد
يا شط دجلة والذكرى تؤرقنا … قد طال فيك على أشواقنا الأمد
هل في ظلالك للأشجان مطرح … أم في ضفافك للحران مبترد
ضاقت علي سهول الرافدين جوى … بعد الأحبة والآكام والنجد
واستوحش الشط لا تروي مناهله … قلباً يلوب ونفساً كاللظى تقد
يا من حفظنا على بعد عهودهم … لا ينسينكم أيامنا البعد
القلب في الحب لا يهفو لغيركم … ولا يشير سواكم شوقه أحد

بعقوبة

« هي مدينة عراقية تقع على ضفة نهر ديالى ويخترقها فرع منه يسمى نهر خريسان (تصغير خرسان) » .

هيا بعقوبة الزهر … ويا ريحانة الدهر
أحب جمالك الشعري … وأعشق جوك العطري
أفيئي . الحسن ريانا … ومدّي الظل فينانا
فقد ترويين ظمآنا … يعاني غلة العمر
ديالى نهرك العذب … عليه رفرف الحب
وطاب الزهر والعشب … على حافاته الخضر
أزاهير وأثمار … وروضات وأنهار
وفي الضفات سمار … تناجي مطلع البدر
على روضاتك الفيح … نضت أشجانها روحي
وفي الأجراف والسوح … نضت أشجانها روحي
أحب ربيعك الضافي … ومورد مائك الصافي
ألا يا ليت ألافي … معي في ضفة النهر
أيا مجلى الأزاهير … ويا مغدى الشحارير
ويا مثوى المغاوير … عليك تحية الشعر

ذكريات شعرية

ومن ذكريات بغداد تلك الأيام هذه الذكرى الشعرية في ساعة من ساعات الأصيل على ضفاف دجلة في الكرادة الشرقية :(٢)

كرادة الشرق البهيج تألقي
حول الضفاف الزاهرات وأشرقي
هيجت أشجان الفؤاد الشيق
لما طلعت بكل حسن مونق
يا ليت أحبابي بسفحي جلق
يدرون ما يلقىٰ المحب وما لقي



كم يستطاب على شواطيك السمر
وتلذ لي فيك الأصائل والبكر
كم يستثير كوامني ضوء القمر
ويهيج تحناني الظلام المعتكر
ما أجمل الصفصاف والنخل النضر
متدلياً بالزهر يعبق والثمر



حول الضفاف أزاهر تتفتق
ومفاتن تجلى وحسن يشرق
وعلى العباب مراكب تتألق
ومواكب تشدو هوى وتصفق
يا نهر : كم يحلو عليك الزورق
مترنحاً بيد النسائم يخفق



النهر منضور الضفاف مُنَوّر
تزهو عليه الباسقات وتثمر
والليل معطار النسائم مقمر
يلهو الجمال بضفتيه ويسمر
سمراء رنحها الدلال وأسمر
يلويهما كالغصن حب مسكر



ما أروع الشط المرقرق ساجيا
طوراً وطوراً بالأواذي طاغيا
كم كان في الهم الطويل عزائيا
ولكم لمست بضفتيه شفائيا
ما أعذب الملاح يغدو شاديا
ويروح في الليل البهيم مناجيا



ملاح : يا حلو الشمائل أنشدِ
ما شئت من لحن الغرام ورددِ
يشاجني في الليل زورقك الندي
ويبل شدوك غلة القلب الصدي
أنا سامع بفؤاديَ المتوجد
فاهتف بلحنك في الضفاف وغرد



أنا في الضفاف على شجوني مفرد
لا طلعة تحنو عليّ ولا يد
الأمس أضواني فهل يضوي الغد
أفكلما خلق الأسى يتجدد
يا ليل هل يدري هناك المُنْجِد
إني بوادي الرافدين مسهّد

---

(١) المقصود أن اليهود أقاموا قصورهم على قبورنا.
(٢) الكرادة الشرقية من ضواحي بغداد.

على عباب البحر الأبيض المتوسط

ذكرتكم والهم في الليل مركب   ونفسي على جمر الأسى تتقلب
ومن دوننا بحر إذا ثار موجه   تخال الجبال الراسيات توثب
أأحبابنا نمشي على الهم بعدكم   ونألف أشجان الحياة ونصحب
وعهدكم ما الان في البعد عهدنا   بل إنه في البعد أمضى وأصلب
تطالعنا الذكرى على كل وجهة   فندنو وإن شط المزار ونقرب
رمتنا على هوج البحار مقادر   تصعد ما شاءت بنا وتصوب
إذا ما ظلام الليل أرخى سدوله   علينا وعم الكون في البحر غيهب
وزمجرت الأمواج غضبى ثوائراً   وما جد أواذي تضج وتصخب
وأقفرت الدنيا فلا السفح ناضر   ولا النهر رقراق ولا الروض معشب
ورحنا على الأمواج نطفو وتارة   نخال بأنا للحضيض سنرسب
ذكرتكم في وحشتي وتلفتت   لأرضكم عيناي تشكو وتعتب
أأحبابنا النائين لا كانت النوى   ولا كان يوم عنكم نتغرب
ذكرتكم والبحر بيني وبينكم   فكدت لذكراكم من الوجد أنحب
طلعنا بأثينا على الصبح نجتلي   محاسن ما أبقى الزمان المخرب
فلاحت على (الاكربل)[1] منها مشاهد   يحار لها فكر اللبيب ويعجب
وذكرني الشام الحبيبة موقف   على قمة «الاكربل» عال وملعب
فحن فؤادي المستهام وهزني   إلى أرض أحبابي خيال محبب
وعدنا إلى اللجات نسبح فوقها   حيارى بقفر مالنا فيه مهرب
إذا ما مضى الصعب الممض رأيتنا   نحاذر أن يأتي على الأثر أصعب
إذا ما تلفتنا على اليم لم نجد   سوى لجج يعيا بهن المجرب
فأنا تضيق النفس فيها وتارة   ألذ من الحلم النضير وأرحب
وطوراً تراها العين أشأم منظر   وطوراً تروق الناظرين وتعجب
ومالت إلى الغرب الغزالة ترتمي   على شفق كالنار أو هو أعجب
وسارت فبحر باللجين مفضض   يشع وافق بالنضار مذهب
وذابت على الأمواج فالماء جمرة   شرارتها نجم يند وكوكب
ذبيحة حد السيف فالكون واجم   لمأتمها والأفق منها مخضب
وصرنا على بحرين ماء وظلمة   يسيرنا فلكان وجد ومركب
توالى علينا الهم لا الماء ينقضي   ولا الصبر يأتينا ولا الليل يذهب
إذا ما انتهى يوم علينا تعاقبت   ليال وأيام تمض وتكرب
ومرت على الليل البهيم «صقلية»   كما مرّ بالإشراق والزهو موكب
تفيض على الشطين نورا وبهجة   فتزهر ضفات وتلمع أهضب

فيالك مرأى في «مسينا»[2] كأنه   على ظلمات البحر أهلٌ ومرحب
تبسم ثغر الليل فيه وطالما   توالى على الأدلاج وهو مقطب
وطالعنا الصبح الأغر بجذوة   على فوهة البركان[3] تلظى وتلهب
تسيل كما سالت من العين عبرة   يؤججها بالوجد قلب معذب
ثلاثة أيام تمر ولا نرى   سوى الماء يعوي في البحار وينعب
فأين الجبال الشم نأوي لظلها   وأين الفرات العذب نسقي ونشرب
وأين سهول الغوطتين نضيرة   وأين على بغداد صبح ومغرب
رباع على قلبي ألذ من الهوى   وأشهى من النعمى وأندى وأطيب
ألا أيها البحر المديد تحية   يشيد بها قلبي وفاء ويطنب
صحبناك لا قالين عهداً تصرمت   عليك لياليه يلذ ويعذب
فعذراً إذا ما ملت النفس فالجوى   يمض مشوقاً والتنائي يعذب
أننسى على الأمواج صبحاً كأنه   وجوه الحسن البيض بل هو أعذب
وعصراً جلاه للنواظر مبدع   أظل له أني تلفت أعجب
وانسام ليل حين تسري ندية   نهيم لمسراها وننشى ونطرب
ألا أيها البحر المديد أذاكر   صحاباً تغنوا بالجمال وأعجبوا
تلاقوا كما مرت رؤى فمشرق   طوته الليالي هائماً ومغرب
صحبناك حراً لا يهون ولا يني   على غمزت الدهر والحر يصحب

على السين

فؤادي لن تراع ولن تلويا   فقد هم المسافر أن يؤوبا
غدا يا قلب نقطعها جبالا   منضرة ونطويها سهوبا
غدا نلقى الربوع غدا نراها   ونبصر ثمة الوجه الحبيبا
ألا تلهيك يا قلبي الليالي   تفيض بشاشة ورؤى وطيبا
تطلع هل ترى ألا ضحوكا   والا لاهيا فيها طروبا
نزلت (السين) لا يروي غراما   وجئت (الألب) لا يهدي نسيبا
نحن إلى الربوع ورب صحب   تناسوا أونسوا العهد القريبا
نحن «إليهم» في «السين» نضوا   وتذكرهم بباريس كئيبا

ليلة سهاد

طال السرى وبشير الفجر ما بانا   يا ويح طرف يقضي الليل يقظانا
يهفو إلى نخلات الشط ناضرة   ويشتهي الرند والصفصاف والبانا
إذا استقرت عيون الناس روعه   في الليل أن حبيب النفس قد بانا
يا ساهرين لياليكم على دعة   ما زلت بعدكم بالهم سهرانا
إرنو لأرضكم والبعد دونكم   فاستحيل تباريحا وأشجانا

إلى جدت والدي

مشوق على (باريس) روعه البعد   وأورت حناياه الكآبة والوجد
إذا ضحك السمار هاجت شجونه   وإن شدت الأوتار يبكيه ما يشدو
يحن إلى الأحباب شطت ديارهم   ويهفو إلى الأوطان غيبها البعد
تثير مآسيه على الشام تربة   ويشجيه ما يشجيه في جلق لحد
فيا نائياً لم ينسني النأي طلعة   تفيض بها النعمى ويزكو بها السعد
ويا غائباً ما غبت عني ساعة   ولا انطوت الذكرى ولا انصرم العهد
حرام على قلبي السرور وإنما   يطيب له من بعدك الهم والسهد
ويا جدنا في الشام أنت لي الهوى   وأنت لي النجوى وأنت لي القصد

هواجس بارانا Parana

« بارانا نهر جميل يخترق مدينة الروساريو الأرجنتينية فتتمثل فيه أروع

(١) الأكروبول في أثينا ومن قمته يرى الناظر أثينا تحته كما يرى دمشق من قاسيون.
(٢) مضيق مسينا.
(٣) بركان سترومبلي.

مناظر الطبيعة . وقد وقفت عليه ساعات ، وكنت قادماً إلى الأرجنتين من بغداد :

يا قلب روعك النوى ما روعا … تغفو على سفر وتصحو مزمعا
في كل يوم فرقة لو أنها … مرت على قلب الصفا لتصدعا
طال النوى يا ويح أيام النوى … ما كان أقساها علي وأوجعا
كم لذت بالبدر المنير أبثه … شكوى النوى لو أنه يوما وعى
ولكم أطفت على الضفاف مناجيا … ولكم لجأت إلى الصبا متضرعا
وتفجر القلب الجليد تشوقا … واستسلم العزم الأبي توجعا
والليل كم عريت فيه عواطفا … موجتها لولا التجلد أدمعا
حييت « بارانا » المرقرق والدجى … بغلائل القمر المنير تبرقعا
وسلاسل الأنوار مرت مثلما … مر الخيال الحلو ليلاً مسرعا
والساهرون مضوا على غلوائهم … يتمايلون على الشواطىء رتعا .
والساهرات كأنهن كواكب … منثورة أو كنّ منها أسطعا
أشواطىء « الباران » ما أزكى الربى … وشي الربيع صدورهن فأبدعا
تلك الخمائل قد ذكرت بحسنها … حسنا بدجلة كان أزهى مطلعا
إن رفت الأشجار حولك غضّة … وترقرق النهر الخصيب وأمرعا
وطلعت بالحسن المدل كأنما … شطاك بالغيد النواهد رصعا
فلقد أثرت بي الحنين وطالما … حنّ الفؤاد لدجلة وتطلعا
أنا إن هفوت إلى رمالك ساعة … وشممت عرف نسيمك المتضوعا
لم أنس دجلة والهوى ولياليا … كانت ألذ من النعيم وأمتعا
ذاك النخيل على الضفاف كأنه … سرب الحسان على الضفاف تجمعا
أطلقن للنسمات خضر ذوائب … وأبحن للأطيار ثغرا أمنعا
حييت « پارانا » تحية شاعر … يهوى الجمال ويستجيب إذا دعا
النهر والروض النضير سميره … والطير بالشجو المثير مرجعا
والسحر في نجل العيون وفي اللمى … والطهر في الخد الأسيل مشعشعا
أشواطىء « الباران » حسبك في الهوى … إن قد شربت هواك جاما مترعا
كم قد لويت عن الغرام أعنتي … وثنيت طرفي عن رؤاه ترفعا
يا غادة « الباران » أذكيت الهوى … لولاك هذا القلب ظل ممنعا
أسلمت للعينين صعب مقادتي … ومشيت للخدين أسعى طيعا
إن ضاق فهمي عن لغاك فإنما … قلبي يعي ما كان قلبك قد وعى
أشجى الأغاني ما يردد حبنا … أشهى الأماني ما نعيش لها معا
قلب ببارانا وشاطىء دجلة … ما زال بالحب العنيف موزعا

إلى نيليدا شرارة

هي شاعرة أرجنتينية من أصل عربي من جبل عامل ، عايشت قضية العرب (فلسطين) وتحمست لهم في صراعهم مع الصهيونية وتغنت ببطولتهم وأمجادهم حتى كانت الكارثة عام ١٩٤٨ وضاعت فلسطين فانقلبت يائسة منهم ناقمة عليهم . ولما التقيتها في مدينة (الروساريو) ، كانت تشكو مرّ الشكوى وتوجهت إليّ بعدة قصائد إسبانية ترجمت لي إلى اللغة العربية ، فتوجهت للشاعرة بهذه القصيدة :

غنيت بالشعر آفاق الهوى طربا … وللكرامة هجت الشرق والعربا
قمرية الدوح أنت اليوم شادية … أم أنت لبوة غاب تنتخي غضبا
لا يوهننك ما أودى بموطننا … فيوم ثارتنا الحمراء قد قربا
هذي فلسطين إن نامت فوارسها … وكوكب العز فيها بالهوان خبا
فلا وعمرك لم تخمد عزائمنا … ولا نزلنا على حكم العدا رهبا
هيهات نهجع عن (حيفا) مصفدة … أو أن ننام عن (اللطرون) مغتصبا
غدا نطالع بالرايات قانية … (عكا) ونفتح (باب الواد) و (النقبا)
أما وحقك أنا لم نزل عربا … ملء الأكف ندى ملء النفوس إبا
هبّت علي من (الروسار) نافحة … كانت ألذ من الأحلام عرف صبا
وهيمنت في حنايا النفس خافقة … تذكي الفؤاد وتوحي الشعر والأدبا
وطالعتني في الأسحار هازجة … فكدت ألمس من زهوي بها الشهبا
(نيليد) فيك من الأعراب واشجة … أكرم بها حسباً أعظم بها نسبا
كم قد وفيت لها أسمى الوفاء فما … هانت لديك ولا أنكرتها سببا
أذكيت شعرك بالآمال واثبة … حتى قرأنا على أبياتك اللهبا
وصحت بالعرب والآفاق داجية … صوتا ينير لنا الأجيال والحقبا
أثنيت بالنثر والأشعار معجبة … وكنت أنت بنا الإكبار والعجبا
الموعد (القدس) يا (نيليدا) ثائرة … (واللد) مضطرماً (والواد) مضطربا
فنضدي الزهر للأبطال ظافرة … ونظمي الشعر بشراً وانثري الخطبا

وحدة
في جزير برمودا

وحدي أقلب ناظري هنا … وأسائل المجهول أين أنا
الحلم مرّ فليت لي جفنا … من بعده يستعذب الوسنا
والأغنيات هوت وما اكتملت … ألحانهن ولا انتظمن غنا
يا طلعة كانت لنا أملاً … غضاً وكانت في النوى وطنا
مدت إلي يداً تطوقني … والكون بالأحلام طوقنا
والخد رفّ فما تشاء شذا … والثغر شعّ فما تشاء سنا
المهرجان وأين سورته … مرّت وأين مضت رؤاه بنا
عيناك حالمتان تسعره … وجداً وتنديه هوى وهنا
ويفيض صدرك بالحنان فما … أشكو الجوى إلا هفا ودنا
المهرجان مضى فليت لنا … من بعده أملاً وليت لنا
وحدي أقلب ناظري هنا … وأسائل المجهول أين أنا
وحدي أغالب لوعة غلبت … وحدي أصارع بالأسى الزمنا
يا ليت أحبابي وقد بعدوا … يدرون ما يلقى الحبيب هنا
سكنت حواشي الليل غير أسى … في صدري الحران ما سكنا
أرنو لعل على الدجى حلماً … قلب الحبيب له هناك رنا
هذا الجمال ولست أنكره … ما كان قلبي فيه مفتتنا
أجد الربى والبحر منفرداً … والغيد والأمواج والسفنا
قفراً يضج بخاطري شجناً … صحراء تزخر لوعة وضنا

رعشات

أطل الصباح ولم ترجعي … وأظلم ليلي ولم تطلعي
تكاد إذا هاجت الذكريات … تفجر من لوعة أدمعي
رويت فؤادي هوى عارماً … أظل الحياة به حالما

فأنى رنوت وأنى مشيت ... أرى وجهك المشرق الباسما
إلى المهرجان مشينا معاً ... نخال النجوم لنا مهيعا
ونحسبها حلماً شارداً ... ولحناً بثغر الهوى ممتعا
خبا النور وانتثر السامر ... وغاب الندي فلا حاضر
ولا خدك الحلو يحنو علي ... ولا نهدك القلق الثائر
رأيتك فاهتز قلبي جوى ... ومرّ بنفسي خيال النوى
سأرحل عنك بعيداً فمن ... يهدهد بعدك هذا الهوى
جفونك نديانة بالدموع ... وفي شفتيك النداء الصريح
وقلبك يصرخ هل من رجوع ... ويعلم قلبك أن لا رجوع
يداك تلوح خلف القطار ... وعيناك تشخص عبر القفار
وصوتك أخفاه عني المدى ... ولم يبق منك سوى الأذكار
مضيت على لوعتي مطرقاً ... أرى أن ليل الأسى أطبقا
وأن العهود العذاب انقضت ... ولم يبق من أمل في اللقا
سأنأى إلى عالم مبهم ... ودهر كليل الأسى مظلم
وحسبي حين تضج الهموم ... وتطغى الفواجع أن تبسمي
سأنأى وحبك يهدي خطاي ... وطيفك في البعد يذكي هواي
سأسأل عنك الدجى والصبا ... ليشرق ليلي وتزكو صباي
سأنأى ولم ترومنك العيون ... ولا بحت يوماً بحبي الكمين
سأنأى ويبقى الهوى نغمة ... على الثغر أوحلماً في الجفون
أيمضي الزمان ولا نلتقي ... ويظما هوانا ولا نستقي
وتبقين في الغرب هيمانة ... وأمشي بشوقي إلى المشرق
ساوهي بحبك عزم السنين ... نجي الهيام أليف الحنين
ترفين في خطرات الخيال ... فأهتف بإسمك هل تسمعين ؟؟
سأرنو إليك وراء الغيوب ... سأسأل عنك الضحى والغروب
سأسأل عنك الربى والشذا ... سأسأل عنك الصوى والدروب
سأسأل أين مضت سادره ... وأين استقلت بها الهاجره
سهرت على حبها ذاكراً ... كما سهرت ليلها ذاكره
سأحيا بحبك غض الجنان ... رحيب الحياة نضير البيان
سيبقى غرامك في الخالدين ... ويفنى الزمان وأهل الزمان
سأرنو لعل سناك يبين ... وأعلم أن السنا لا يبين
سأهتف باسمك أن ترجعي ... وأعلم أنك لا ترجعين

الصحارى

إني لتصبيني الصحارى سمحة ... وتروقني فيها الظبى والأينق
ويهيج وجدي الليل في تلعاتها ... ويهزني فيها الصباح المشرق
وتثيرني والنخل أتلع جيده ... عصفورة فوق النخيل تزقزق
ومواكب يشدو جرير حولها ... طرباً ويهتف بالفخار فرزدق
وتشوقني والذاريات عواصف ... نار القرى بين البيوت تحرق
شبت لمقرورين يصطليانها ... « أعشى » أضر به السرى « ومحلق »
والطلعة السمراء لوحها الضحى ... ولوى معاطفها الغرام المحرق
وربابة الراعي الطروب ونغمة ... يشدو بها في الليل صب شيق
وتثير أشواقي وتبعث صبوتي ... أطلال رامة والنقا والابرق
وأحن للعرب الذين تحدروا ... منا فسادوا في الورى وتفوقوا

الحنين إلى الرويس

سقيا لأيام الرويس فطالما ... كانت لأدواء الفؤاد دواء
نلقى الجمال الغضّ في ذرواته ... وعلى السفوح الماء والخضراء
ويشوقنا الأصباح في أفيائه ... ونطيب حول كرومه إمساء
قد جئته قلباً ينوء بدهره ... همّاً ويرزح شقوة وعناء
عبست له الدنيا فلم يرَ باسماً ... للناس إلا أن يكون رياء
رضي الشجون من الحياة صحابة ... ومن الزمان همومه خلطاء
حتى إذا برز الرويس وأقبلت ... دنياه تزخر متعة ورجاء
بعثت هوى القلب القديم وهيجت ... للحب فيه الوجد والبرحاء
وجلت لنا الحسن الرفيع واطلعت ... في كل أفق كوكباً وضّاء
يتألق الجبل الأشم به سناً ... والسفح والوادي الأغن سناء
وطلعت يا ظمياء في مرح الصبا ... وجهاً أغرّ ومقلة نجلاء
وكسوت ذروات الرويس بشاشة ... وملأت واديه الظليل هناء
ودعوت للحب المبرح والجوى ... قلباً خلياً من هواك فجاء
أحببت أفياء الرويس وإنما ... أحببت من حبي لك الأفياء
فالليلة القمراء فيه لم تكن ... إلا بوجهك ليلة قمراء
والروضة الغناء ما كانت لنا ... إلا بحسنك روضة غناء
لم يحل لولاك الرويس ولم يطب ... أرضاً ولم يعذب لدي سماء
قد كنت بهجته وكنت رواءه ... فسما بعيني بهجة ورواء
تمشين في الأرجاء عاطرة الشذا ... فتعطرين بعرفك الأرجاء
ويطل وجهك في السجوف كأنما ... ألق السعادة في السجوف تراءى
وأراك في غسق الزمان فأجتلي ... نور الضحى من مقلتيك أضاء
يا أيها الجبل الأشم أسامع ... نجوى يرددها الفؤاد وفاء
إني لأطرح في ذراك كآبتي ... وأرد عن قلبي بك البأساء
وأحب سفحك ما حييت وأشتهي ... بعد الرحيل تلالك الزهراء
وتهيجني ظمياء فيك ملاحة ... وتثير أشواقي لها إغراء
كانت ليالينا عليك ضواحكا ... أبداً وأيام الهوى غراء
أرشفتنا العذب الزلال على الظما ... ومنعتنا الإكدار والأقذاء
ولبست في واديك غرّ مباهجي ... وعرفت تحت ظلالك السراء
إن تحبني العيش الرغيد فلن أني ... أشدو بذكرك في الحياة غناء
وأرتل الشعر الرفيع منمقاً ... بجمالك الإنشاد والإنشاء

حنين

أتذكر سمراء (الفراتين) أم سلت ... عهود محب ما تناسى لها عهداً
أقام على الذكرى يناجي خيالها ... ويسأل عنها الروض والنهر والوردا
ويلمح في الأشعار طيف جمالها ... ويقرأ فيها اللحظ والثغر والخدا
أتعلم سمراء (الفراتين) أنني ... وفيت لها قرباً ولم أسلها بعدا
تراءت على الدنيا فكانت رواءها ... وكانت بها النعمى وكان بها الرغدا

صخرة

هي يا فؤادي صخرة صمّاء ... لا ظلها دان ولا الانداء
لمعت على حر الأوام كأنها ... بهجير عيشك واحة خضراء

ورأيتها في البيد فارتد الظما   ريّاً وشاعت بسمة ورجاء
ألق يذوب عليه من نور الضحى   قبس ومن زهر الربيع رواء
أضنتك يا قلبي القفار محيلة   وشجتك أشباح بها نكراء
حتى إذا أبصرتها قلت المنى   رفت وقلت تبلجت نعماء
هي يا فؤادي صخرة صمّاء   لا ظلها دان ولا الأنداء
فاظمأ كما شاء الهوى فبريقها   وقد ودفق ظلالها رمضاء
يا صخرة الوادي النضير وطالما   قد سال من قلب الصخور الماء
وضننت لا ظل ولا أنداء   وقسوت لا ماء ولا خضراء

أشواق

سلي الليل هل أشجاه غير ملاحني   وهل هزّه إلا هواي وتهيامي
وهل غرّد الوادي بغير قصائدي   وهل نضّرت أدواحه غير أنغامي
سلي الليل ريان النسائم هل روت   نسائمه شوقي إليك وآلامي
ذكرتك يا « ظمياء » فيه مسهداً   فكنت على الذكرى نشيدي وإلهامي
وطارت إلى الشطين نفسي ورفرفت   على النخلات الخضر روحي وأحلامي

يوم جلا الفرنسيون عن لبنان ونحن في بغداد

أأبحر القوم عن لبنان وابتعدوا   أغادروا الشاطيء الساجي وما قفلوا
أين المعاقل بالأعتاد زاخرة   وأين حولهم الأجناد والخول
وأين زهوهم بالجيش منتصراً   في «ميسلون» وما تاهوا وما جذلوا
وأين «روجيه» يرمي النار مغتبطاً   بأن جلق بالنيران تشتعل
يهتاجه الحقد نشواناً فإن خمدت   فيها الحرائق أذكاها له الثمل
وهزّه البشر والنيران طاغية   على المقاصير والبارود يعتمل
والبيض مرهفة والخيل مرسلة   والجند سادرة في الهول تقتتل
وللقواذف أنى ترتمي حمم   وللمدافع أنى تنتحي شعل
تساءل القوم لما جاش جائشهم   أللشآم بما ترمى به قبل ؟
أتسكتين على العدوان ضارعة   للظالمين أتستخذي أتنخذل
وأقبل الناس يلقون الوغى كشفاً   ويصطلون مناياها وهم عزل
فأسفر الصبح والطغيان مندحر   والظالمون بصبر الشام قد خذلوا
أنا صمدنا لهم في الروع لا خور   عند اللقاء ولا جبن ولا وجل
فاليوم نهتف والدنيا مهللة   يا للبشائر إن القوم قد رحلوا
يا ساري الريح والأفراح قائمة   ماذا وراءك كيف الصحب ؟ ما فعلوا ؟
عج بالرياض التي طابت مطالعها   ولذ للعين منها مربع خضل
واحمل إلينا من الذروات نافحة   تروى بعاطرها الأشواق والغلل
كيف الأحبة في الوادي وسامرهم   كيف الشواطيء والكثبان والقلل
أنى تطيب ليالينا وقد بعدوا   عن العيون وأنى تعذب الأصل
أنا لنذكرهم والشوق مضطرم   والقلب مضطرب والدمع منهمل
ونستديم هواهم إن هم قطعوا   ونستزيد هياماً إن هم وصلوا
ما كان يشغلنا عن ذكرهم طرب   بعد الفراق ولا يهتاجنا غزل
هيهات بعدهم نهفو لغيرهم   أو أن تثير هوانا الأعين النجل
أيذكرون ليالينا التي سلفت   أم عادهم بعدنا النسيان والملل

وفاء

وفينا وإن كان الوفاء عذاباً   ألا ضل من خان العهود وخابا
تراءى لنا الينبوع ثراً ولم نكن   لنحسب تلك البارقات سرابا
ولاح فأحيا في الهجير جوانحا   ظماء إليه في الهجير سغابا
يموج على الصحراء رياً وروضة   ويلمع في الليل البهيم شهابا
حدونا إليه الركب أنضاء غلة   تراه وقد عزّ الشراب شرابا
وسرنا إليه والمهامه دونه   يزيد بعاداً إن نزده طلابا
تضيق ليالينا فإن لاح ماؤه   بدت فيه آفاق الحياة رحابا
ونيأس في الدنيا فإن عنّ ذكره   تعود لنا الدنيا منى ورغابا
ألا يا صفاء النبع هل جفت الربى   وهل عادت الروضات فيك يبابا
وهل صوّح الوادي فلا الطير حوما   عليك ولا أهل الصفاء طرابا
ألا يا صفاء النبع والنبع دافق   يسيل كما سال النضار مذابا
ويجري على الرضراض ورداً ونرجساً   ويسري إذا هبّ النسيم ملابا
أنلقى عليك الحسن همّاً وكربة   ونبصر أضواء الجمال ضبابا
أتكدر يا نبع الصفاء لظاميء   وتلقي على الروض النضير حجابا
وتنضب إذ همّ المشوق برشفة   وتيبس إذ عاد المشوق وآبا
أنبع الصفاء الثر لا زلت دافقاً   تفيض فتوناً في الهوى وشبابا
ولا زال نوار الخمائل ناضراً   عليك وأغصان الربيع رطابا
سنرعاك يا نبع الصفاء أحبة   وفيين إن لان الأنام صلابا
إذا ذكروا السلسال فاضت قلوبهم   حنيناً ورفت لوعة وعذابا
فلا تذكر الغدر الممض فربما   لقيت من الوافين فيك عجابا
سلام على الينبوع لا جف ماؤه   ولذّ على ورد الهيام وطابا
وإن ينضب الينبوع يوماً فإننا   سنرويه من ماء الوفاء عبابا

حماسة وأمل واستنجاد

العام ١٩٤٨ كنّا في بغداد وكانت البلاد العربية تضطرم اضطراماً بما شاع عن العزم على تقسيم فلسطين وإقامة الدولة الصهيونية .

وتتابعت أخبار معارك العرب الفلسطينيين مع الصهاينة دفاعاً بطولياً عن وطنهم العزيز . كما تتابعت أخبار الحماسة السورية ، وكانت النفوس تفور بالأمل وتتفجر بالعزائم . فكانت هذه القصيدة من وحي كل ذلك :

ردّت على مباهج الأعياد   وطوت حدادي بعد طول حدادي
بشرى تجاوبت الربى بحدوها   ومشت على الأغوار والأنجاد
طلعت من الشامات تهزج بالهنا   وتضج بالتغريد والإنشاد
غنّت بها مصر وردّد صوتها   طرباً ندي الصيد في بغداد
وتهللت بطحاء مكة وازدهت   بالبشر ثم حواضر وبوادي
وتألقت في قاسيون مرابع   خضر وضجت بالسرور نوادي
الناعمات الغيد بعد وجومها   متضاحكات للحياة شوادي
يهتفن للحرب العوان ثوائراً   ويهجن بأس الفتية الإنجاد
فيجيبهن رصاص أبطال الحمى   متتابع الأبراق والأرعاد
فتميد في البر المديد جباله   ويسيل بالنيران قلب الوادي
يا ليتني في الشام ارتاد الذرى   وأهيم في الأجزاع والأسناد
استاف عرف أحبتي وأراهم   متسابقين لغارة وطراد
وأشارك الغازين فيها غزوة   عربية الإصدار والإيراد
أغدو على الثكنات ثم مصاولاً   وأروح بين الخيل والأجناد

أمطالع النسمات ما هبّت صبا ... إلا ذكرت بها نسيم بلادي
وتطلعت نفسي إلى ذرواتها ... وهفا لواديها البهيج فؤادي
وتمثلت لي الصافنات مغيرة ... وسمعت صوت الجحفل المتنادي
يمشي لنابلس الأبية صارخاً ... القوم قومي والبلاد بلادي
أحمي بنيران المدافع حقها ... وأذود عنها بالرصاص العادي
من يستبيح حماي من يسطو على ... حقي ومن يلوي رفيع عمادي
صمتاً فقد نطق الرصاص وحسبنا ... أن الرصاص إلى القتال ينادي
في سفح نابلس لهيب معارك ... وعلى جبال القدس صوت جهاد
كل يلوذ بنخوة عربية ... كل يردد صرخة استنجاد
يا ثائراً بالنار يحمي أرضه ... ويذب عنها جاهداً ويفادي
لم يستكن للغاصبين ولم يدع ... علجاً يدوس مراقد الأجداد
أنشدتني لحن الرصاص وربما ... أشجّاك في ليل الوغى إنشادي
قد صغت فيك الشعر حراً ثائراً ... يذكي الجبان ويستهيج الهادي
أرنو إليك فمن لظاك قصائدي ... نظمت ومن قاني دماك مدادي
إن فاتني بالأمس يومك أنني ... أهفو إليك بعدتي وعتادي
فلعل لي يوماً بجنبك يرتوي ... فيه من الثارات قلبي الصادي
ولعلني ألقاك في رهج الوغى ... ولعلني أمشي إلى استشهادي
ردد على الأسماع أنغام الظبي ... نارية الترجيع والترداد
قل للغفاة عن القتال ألم تروا ... ماذا يراوح (قدسكم) ويغادي
أألموت في كف اللئام وأنتم ... حولي ولم يهززكم استنجادي
أأرد عن وردي أأقتل صابراً ... بيد اليهود أتستباح بلادي
يا نائمين على الحرير وما دروا ... أنّا ننام على فراش قتاد
متلفعين دم المعارك ما لنا ... إلا الحصا في القفر ظهر وساد
نغدو على النيران يذكيها لنا ... غدر اللئام وخسّة الأوغاد
ونبيت لا ندري أنصبح بعدها ... أم أن عين الموت بالمرصاد
يا نائمين وما دروا أنا هنا ... لسنا نذوق اليوم طعم رقاد
إخواننا والدهر فرق بيننا ... مدوا لنا منكم يد الإنجاد
هذي منازلنا الشوامخ ترتمي ... هدماً على الفتيات والأولاد
تتصاعد الأنّات في جنباتها ... وتطيح بالهامات والأعضاد
هيوا إلينا بالبنادق بالظبي ... بالمال بالأرواح بالأعتاد

ربيع السيوف

وجاء الربيع والمعارك تترى في فلسطين ، والفلسطينيون يقاتلون ، ونحن نعيش في بغداد نفس الأمل والحماسة والاستنجاد ، وبغداد والعراق كله يتلظى إباء وحمية ، فجاءت هذه الأبيات وكأنها متممة للقصيدة السابقة :

حيّيت طالعة الربيع وإنما ... أزكى ربيعينا ربيع جهاد
ثارت به يافا وهبّت غزّة ... وتصايح الأجناد بالأجناد
قومي ربيعهم السيوف وعيدهم ... في كل واد صرخة استشهاد
زانت دماؤهم الجبال ونضرت ... أشلاؤهم وجه التراب الصادي
سل عنهم ريا السهول وطيبها ... وغضارة الأغوار والأنجاد
هل غير محمر الدماء زهورهم ... وغناؤهم غير الرصاص الشادي
لو أنهم ملكوا السلاح لنازعوا ... جبارة الدنيا زمام قياد
أربيع طبت ففي نسيمك عبقة ... من صوت كل مناضل ذواد
وعلى رياضك من جراحة يعرب ... في القدس طاقات من الأوراد
أربيع لن تهتاج غير حماستي ... بجمالك الزاهي وغير ذيادي
هيهات تلويني إليك مشاهد ... خضر وقومي للقتال تنادي
لا الزهر فواح العبير يهزّني ... في الواديين ولا النسيم الغادي
يا منشداً غر القصائد هاتها ... من فيك شعراً ملهب الإنشاد
حدث عن الأبطال عن غزواتهم ... عن كل مقدام وكل جواد
حدث عن الوطن الذبيح وأهله ... كم يستغيث ويرتجي وينادي

آمال

وجاء قرار مجلس الأمن بالتقسيم ، وقال العرب « كلا » وأعدوا العدّة للتدخل العسكري بعدما ناضلوا بالقول في مجلس الأمن :

أعيا البيان وخاب فيك المنطق ... النار أجدى في الكفاح وأصدق
طيبي فلسطين الأبية واسلمي ... وطناً له يعنو الزمان ويطرق
لا تيأسي فعلى يمينك فيلق ... ملء الربى وعلى يسارك فيلق
اليعربيون الأباة تواثبوا ... من كل فج للوغى وتدفقوا
يهتاجهم للبأس أروع مشئم ... ويهزهم للأريحية معرق
نسلتهم الصحراء أبطالاً إذا ... ساروا إلى غاياتهم لم يلحقوا
قولوا لمن ملأ الزمان تشدقاً ... بالعدل أين العدل يا متشدق
أمن العدالة أن تقسم أرضنا ... ويباد فيها قومنا ويمزقوا
وتبيت ترتع في حماك مسودا ... وحماي للشذاذ نهب مطلق
أيبيحهم وطني الكريم وأمتي ... متزلف لنوالهم متملق
أين المواثيق العذاب وأين ما ... قد نمقوا فيها وما قد زوقوا
صبراً فلسطين الصبور لقد دنا ... يوم يمض الظالمين ويرهق
المغرب الأقصى المروع هاجه ... أن تستضامي عنوة والمشرق
ستثور مصر والعراق ومكة ... ستهب عمان إليك وجلق
ستغص بالقتلى السهول وترتوي ... شم الجبال من الدماء وتغرق
يا نسمة الشام الحبيبة هدهدي ... روحاً بصالية الجوى تتحرق
أنا في هواي بجلق متبغدد ... وعلى الفرات ودجلة متدمشق
فتحملي من (قاسيون) نوافحاً ... يشفى بعاطرها الفؤاد الشيق
واتلي علي من الحمية قصة ... يزهو بها وجه الإباء ويشرق
أمشت دمشق إلى النضال أأقبلت ... منها الزواحف والخيول السبق
أسرت إلى الثغر المنيع أأسرعت ... للفتح تحتوش العدى وتطوق
يا نسمة الشام الحبيبة علّلي ... قلباً على الوجد المبرح يخفق
يرنو إليك وشوقه متضرم ... ملء الضلوع ودمعه مترقرق
هبي علي من الجبال لعلني ... استاف عرف الظاعنين وانشق
الواردي ماء الفرات وما دروا ... أنّا نغصّ على الفرات ونشرق
والعاتبين وما دروا أنّا الهم ... أوفى على العهد القديم وأوثق

حديث الرزايا

وأطلت أخبار الرزايا فاستسلمت حيفا ثم يافا وتتابع الاستسلام ، ولكن الأمل ظل يعيش بتهيؤ الجيوش العربية لدخول فلسطين :

بانفحة من رياض الواد طالعة … ونسمة حملت ريا فلسطينا
تروي حديث الرزايا عن منازلنا … وتحملَ الدمع من أجفان أهلينا
عن مطلع النار في (حيفا) وما شربت … أرض (الجليل) دماء من أضاحينا
من السفوح من الذروات دامية … من المروعين فيها والمذودينا
ما كان عزفك إلا صرخة حملت … للثائرين هتاف المستثيرينا
ولا أريجك إلا الحقد مضطرماً … ولا عبيرك إلا النار تذكينا
أن يلونا الغدر عن آمالنا زمناً … أو يثننا الوهن حيناً عن أمانينا
ففي الجوانح عزم من فواجعنا … وفي النفوس عرام من مآسينا
تلك المرابع كم طافت فوارسنا … فيها وكم رغمت فيها أعادينا
وكم هتفنا على ذرواتها مرحاً … وكم رتعنا على الضفات شادينا
وكم صبونا بها حباً وعاطفة … وكم جنينا بها ورداً ونسرينا
وكم أطافت بها أكبادنا شغفاً … وكم أرقنا دموعاً من مآقينا
تلك المرابع نفنى دون حوزتها … ونستميت بها في الهول غازينا
قل للميادين والأيام غالبة … نظار نملأ بالقتلى الميادينا
ونفعم الجو طيارين إن نفروا … إلى السماء أحالوها براكينا
نظار تطلع في الدنيا كتائبنا … على المعاقل تجتاح الصهاينا

مناجاة حيفا بعد استسلامها

أحيفا الأبية طال النزوح … فكيف الشطوط وكيف السفوح
أهانت على الخطب ملتاعة … أدانت لفاتحها المستبيح
إذا هبّ في الليل منك الهواء … ذرفنا عليك دموع الإباء
ولذنا بأسيافنا ثائرين … وسرنا فلا ننثني للوراء
يلبيك منّا الكمي العنيد … ويهتف بإسمك صوت الشهيد
ونصرخ في الهول مستقتلين … سنحفظ أوطاننا أو نبيد
لئن عثرت ببنيك الجدود … وكانوا الاباة وكانوا الأسود
فصبراً توافيك أسيافنا … لوامع تفرى هوادي اليهود
سنرجع بعد الغياب الطويل … فتشرق حيفا ويزهو الجليل
فصبراً تصبحك أعلامنا … خوافق فوق الربى والسهول
يهوذا خسئت فلست لنا … نظيراً نخضب منه القنا
سياط الاسار وذلّ السبا … على عارضيك وعار الخنا
لئن حكم الدهر أن تعتدي … خصيباً بمد يد المعتدي
فزلة هذا الزمان اللئيم … ستغسلها كفنا في غد

يا نخل دجلة والفرات

أهلاً بإشراق الملاك … قد كان حلماً أن أراك
يا عاشق الليل الطويل … تباركت فيه رؤاك
تهوى النجوم لو أنها … لثمت على شغف ثراك
وعنادل الروض النضير … تود لو كانت صداك
بوركت ما عشق الدجى … ووفى له أحد سواك
يا عاشق الليل الطويل … وما سلوت وما سلاك
أتقر موجتك الطليقة … والدجى عان هناك
هيهات ما جلى الدجى … إلا شعاع من سناك
كلا ولا عبق القريض … العذب إلا من شذاك
إن الذي خلق البيان … العبقري له اصطفاك
من لي على درب القريض … بأن أسير على خطاك
لم تمل إلا السحر شعراً … حينما تملي يداك
غرّد فإن قلوبنا … تشدو المنمق من غناك
أهلاً بسلسال القريض … العذب يجري في مداك
يا نخل دجلة والفرات … لكم هفوت إلى لقاك
وتطلعت نفسي إليك … لعلها يوماً تراك
يا نخل دجلة ما نسيت … على النوى أبداً هواك

كنا في باريس عندما ذاع أن العرب كسروا احتكار السلاح ، وأنهم اشتروه من الشرق بعد أن منعه عنهم الغرب ، وأن وفداً غربياً جاء يعالج الأمر ويسأل العرب ماذا يريدون وأن الغرب في ضجة من هذا الأمر :

يستفهمون وقد بحّت حناجرهم … ويسألون وقد أعيوا وقد تعبوا
ما تطلبون؟ وقد كنّا نطالبهم … حتى مللنا وحتى ملّنا الطلب
تلك (اللقيطة) شدتم من دعائمها … حتى استقامت على أجداثنا القبب(١)
هذي حرابكم منها هم طعنوا … وذي سيوفكم منها هم ضربوا
النار في شرفات القدس لاهبة … وفي شوارع حيفا القتل والسلب
دور الأعزة في يافا وفي صفد … ذلّت لفاتحها الأطلال والخرب
تهفو لغائبها شوقاً وعاطفة … حتى تكاد بها الأحجار تنتحب
وتستكين إلى الشكوى مناجية … وترتجي عودة النائي وترتقب
في دير ياسين ثأر لا تنام له … منّا العيون ولا ينسى له طلب
عزلاً نقابل بالأجساد ناركم … لا الصبر يعصمها منكم ولا الهرب
واللاجئون على الأبواب ما طعموا … إلا الهوان بأيديكم وما شربوا
ثاراتنا الحمر فيكم كاللظى حنقاً … وحقدنا المر كالبركان يلتهب
هذا السلاح الذي تحمى بوارقه … يوم الكريهة ما خطوا وما كتبوا
هبّت على النخوات الحمر ثائرة … وجلجل البأس فيها والتظى الغضب
وماجت البيد بالتكبير وانطلقت … بعد الهوان إلى ثاراتها العرب

حماسة ورثاء

كان الإعداد يجري في دمشق للقتال في فلسطين سنة ١٩٤٨ ونحن في العراق فإذا بدمشق تفاجأ بوباء الكوليرا :

أيروع أمنك يا دمشق وباء … وتمضك الأوجاع والارزاء
« لا در درك يا زمان أهكذا » … ختلا تغال الحرة الشماء
أكذا تموت الأسد في آجامها … أكذا تبيد على الكناس ظباء
تهوي الفوارس ما نضت سيفاً ولم … يرفع لها فوق الخميس لواء
وتطيح واهية العزائم بعدما … رجفت بماضي عزمها الغبراء
يا ويح قلبي كيف قومي في الحمى … كيف الأحبة ثم والعشراء
إني لأذكرهم على أهوالها … فيكاد يغلب ناظري بكاء
كانت تثير مفاخري أبناؤهم … واليوم تبعث حسرتي الأنباء
أمشارف الشامات هل أرج الذرى … زاك وهل ريا السفوح رخاء
أعلى الظلال الوارفات بشاشة … وعلى المروج الحانيات رواء

(١) المقصود بالقبب قصور الأعداء التي قامت فوق أجداث العرب.

هل في محاني الغوطتين كعهدنا ... للواردين مباهج وهناء
أم نابها الداء الممض وراعها ... قدر يروع إذا أتى وقضاء
تلك البطولة كم زهت بجمالها ... سوح الوغى وتباهت الهيجاء
كم رفرف النصر الممنع فوقها ... كم ذل حول قبابها الأعداء
تلك البطولة في دمشق فريسة ... للموت تنهش قلبها الأدواء
وا لهفتاه لثائرين تحملوا ... للحرب عن أوطانهم وتناءوا
يتلفتون وفي الصدور لواعج ... تذكي الهموم وفي النفوس مضاء
يتساءلون عن الديار ورزئها ... كيف الأبوة بعد والأبناء
حتى إذا ثار النضال تواثبوا ... للنار لا خور ولا اعياء
صبراً دمشق وما استكنت لظالم ... يوماً ولا هانت بك العلياء
ذل الطغاة على حماك وسمتهم ... خسفاً به يتصاغر الكبراء
بأس على الهول المروع صابر ... وحمية ملء الحمى وإباء
قد كان شعري في بنيك حماسة ... واليوم شعري في بنيك رثاء

شاكية

ويح الحياة أأنت اليوم شاكية ... هم الحياة وهذا الحسن ظمآن
أوجهك العذب أشجان مبرحة ... وقلبك الغض بالآلام بركان
ظمياء والشعر مثل السحر منطلق ... من فيك والحسن في عينيك فتّان
وفي جبينك من نور الصبا ألق ... وللجمال على خديك ألوان
أتحزنين ومنك البشر مطلعه ... وتظمئين ومنك الكون ريان
وتشتكين تباريح الأسى ولكم ... زالت ببسمتك الغراء أحزان

عودي

عودي إلي فصوت الحب يدعونا ... ونغمة الشعر لم تبرح تنادينا
تهوى الرياض على شوق تواعدنا ... ويشتهي السفح والوادي تلاقينا
سنملأ الكون شعراً من صبابتنا ... ونترع الدهر عطراً من تناجينا
عودي إليّ فلم أبرح كما علمت ... هذي النجوم محباً فيك مفتوناً
ألقى الجمال على عينيك مزدهراً ... وفي جبينك أستجلي التحاسينا

غضب ورضا

لما التقينا على نار من الغضب ... تذكى الجوانح بالتقريع والعتب
قالت أأنت نجي الليل والشهب ... أنت المعنّى بنا أم أنت ذو الطرب
تشدو بشعرك لا وجد ولا حرق ... على الغرام ولكن فتنة الأدب
أنت الفراشة من زهر إلى ثمر ... طول الحياة ومن جد إلى لعب
أنا الفراشة يا ظمياء هائمة ... وليس وجهك غير النور واللهب
ثم افترقنا وبسمات الرضا نغم ... في الثغر أو حلم نديان في الهدب

الخامس من حزيران

حدثت حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧ وأنا في مدينة كراتشي فكان من وقع أنبائها هذه القصيدة :

جل المصاب عن البكاء فكفكفي ... دمع الذليل وعبرة المستضعف
يا أمة هانت فكم من شامت ... في يومها الداجي وكم من مشتف
لهف العروبة والعروبة جذوة ... أورى على الحدثان من أن تنطفي
للثائرين استسلموا المذلل ... للشامخين تذللوا المعنف
لمقاتلين تقصفت هاماتهم ... في القدس تحت الراعد المتقصف
للمطعمين استطعمت راحاتهم ... واستعطفت في الروع من لم يعطف
للمسجد الأقصى لمحراب الهدى ... للطائفين على البراق لعكف
خفت الأذان على المآذن وانطوى ... في المسجد الأقصى نداء المصحف
وهوى على المحراب خفق نعالهم ... وطغى على الترتيل صوت المعزف
لا تلكم الجمع الحسان ولا صدى ... آياتها للعابد المتقشف
يا أمة نامت على أحلامها ... أودى اليهود بعزك المتغطرف
وهويت من وقفات مجدك والعلى ... لامض مما عرف الورى من موقف
شدّي على الغمرات لا تستيئسي ... وامضي على الهبوات لا تتوقفي
أن يعنف الخطب الملم فداوه ... من عزمك الماضي بخطب أعنف
يا نشء يا أمل النفوس ويا سنا ... ما أنفك يبرق في الظلام المسدف
لا تجزعن فرب يوم عاصف ... تختال فيه بكل سيف مرهف
ولرب يوم للعروبة ثائر ... ولرب يوم بالفخار مفوف
القدس يجار بالشكاة مذلة ... ويهود بالنصر المؤزر تحتفي
والمسجد الأقصى يطأطىء راغماً ... والقوم قومك بالتصايح تكتفي
يا نشء جد فلا اصطبار ولا ونى ... يا نشء لا تغرر ولا تتعسف

ايلات . . .

بعد فاجعة الخامس من حزيران ١٩٦٧ كنت في لندن فحملت لنا الأنباء خبر اشتعال الدارعة اليهودية (ايلات) بالنار المصرية ، في عرض البحر وهي تحاول الدخول في المياه العربية :.

ايلات ! . . صوتك في الظلام الأبعد ... أورى من العزمات ما لم يخمد
نار تشب على البحار كأنها ... في الخندس الداجي منارة معبد
سالت على الأمواج تحرق أهلها ... وتريهم أن القيامة في غد
نار ولا نار المجوس كرامة ... ولظى ولا برد النعيم المخلد
خشعت لها النفس الكريمة وارتوى ... بعد الأوام بوهجها القلب الصدي
هي أن قنت إلى الإله محجتي ... ولها - على الإسلام - طول تعبّدي
أيلات ! . . أي يد رمتك بنارها ... نار الجحيم وأي همة سيد
للخير ، للضيف الملم ، لنخوة ... للهول ، للبأس الشديد لمعتد
ردتك عن باب الكرامة وارتمت ... بالنار توقد فيك ما لم يوقد
وأرتك ما لم تبصري في غارة ... يوماً وما لم تشهدي في مشهد
نذر من الثارات إن هبت غداً ... وردت بإسرائيل أشقى مورد
إيلات ! . . أي المغرقين قذفتهم ... في اليم بين محرق ومبدد
صفر من النخوات إلا أنهم ... ملء البرود نذالة المتهود

عزاء . .

ذكرتك في تباريح المصاب ... ووجهك بعد ذاك النور خابي
ذكرتك والأسى يذوي شباباً ... فداه بكل نازلة شبابي
فليت جراح قالبك في فؤادي ... وليت عذابك المضني عذابي
أيا ألق الرجاء بليل يأسي ... ويا أسنى الأماني والرغاب
لقد كنت البشاشة في حياتي ... وأنت اليوم همي واكتئابي

صامتة

لا تصمتي فبياني منك منبثق ... ومن عيونك وحي الشعر منطلق
كم قد شكتك ليالي الوجد صامتة ... وكم أفاض الأسى واسترسل القلق
لا تصمتي ولغات الحب ناطقة ... أحنا الأحبة من أن عوتبوا نطقوا
رفت عليك صباباتي وما برحت ... بنار حسنك هذي النفس تحترق
ناجيت قلبك أستجلي كوامنه ... لو أن قلبك في شكواه ينطلق

من الذكريات

في السابع من تموز سنة ١٩٩٠ نشرت جريدة السفير البيروتية ترجمة قصيدة للشاعر الصهيوني افرايم تسيدون هذا نصها :

« لن نحاور »

يا مردخاي غور
سأقص عليك قصة
حتى لو تخلت المنظمة عن ميثاقها
حتى لو حول ياسر عرفات
اسمه في احتفال رسمي
ليكون موشيه
وحتى لو تخلى الفدائيون عن أسلحتهم وعقيدتهم
وأرسلوا بطاقات التهنئة
لكل بيت يهودي
في رأس السنة العبرية
حتى لو شاركتنا المنظمة
في بناء المستوطنات لليهود القادمين الجدد
وحتى لو أعلنوا أمام الملأ
ان الضفة الغربية أرض يهودية
وحتى لو قامت نساء فتح
بنسج قبعات الصوف لجنود اسرائيل
وحتى لو استقبل أهالي الضفة
جماعات غوش امونيم بالأغاني
والزغاريد وحتى لو اعترفوا بالدولة اليهودية
وقدموا لنا كل أموال التبرعات التي يتلقونها
وحتى لو التزم ياسر عرفات أمام الملأ
بأننا الذئب وهم الغنم
وحتى لو نقلوا اللاجئين إلى القطب الشمالي
ورفعوا رايات الهزيمة أياماً وليالي
وحتى لو تحولت سيوفهم
إلى أقلام ومساطر
فلن نجالسهم أبداً
ولن نحاور

فرددت عليه بالقصيدة التالية :

لا سلم

لا سلم حتى تستباح دياركم ... بشبا القواضب والبنادق والمدى
وتدك بالبارود تل ابيبكم ... ويعود مغناها لظى متوقدا
ونسردكم في الخافقين اذلة ... ونعيدكم أنّى تكونوا اعبدا
بالفيلق العربي يزحف هادرا ... ويكر في رهج المعامع منشدا
ثارات يعرب لن تطل دماؤها ... ولظى الحفائظ لن يبوخ ويخمدا
شدوا ففي حيفا المراح على السرى ... غلسا وان على ثراها الموعدا
أن يظمأ الوطن الجريح فلن ترى ... إلا دماهم للعطاشى موردا
يا شاعر السوءات دون فارتقب ... يوما من الولايات مرّا اسودا
لا .. لن تحاور بل تكمم صاغراً ... وتقاد للجلاد، ثم مصفدا

مؤتمرات القمة

في أواخر شهر أيار سنة ١٩٩٠ عقد في بغداد ما يسمونه مؤتمر القمة فعلقت على عقده بهذا المقال :

يوم وصل اليهود إلى ضفة القناة سنة ١٩٦٧ فيما اسموه بحرب الأيام الستة ، ووقفوا هناك متطلعين إلى ما وراء القناة من سهوب شاسعة وآفاق بعيدة كانت في متناول أيديهم فيما يحسبون ، لو أنهم تجاوزوا هذا الماء الفاصل بينهم وبينها وما كان أسهل عليهم أن يتجاوزوه بعد أن تمزق كل شيء ، وانهارت القوى . . . القوى كلها ما كان منها مادة صلدة تموج وتمور على وجه الصعيد ، أو كان معنى كامناً في الصدور !

يوم وصل اليهود إلى ضفة القناة بجيشهم المنتشي بخمرة النصر الهين وجلسوا يستريحون هناك ، كان كبراؤهم يجلسون على مقاعدهم وراء مكاتبهم ينتظرون رنين الهواتف المؤذنة بالاستسلام لهم ، والمعترفة بالواقع المرير الذي ضاع معه كل شيء .

ولكن الهواتف لم ترن وطال صمتها ، وإذا بالصوت الذي حسبوه سيصلهم ذليلاً خانعاً على سماعات الهواتف ، إذا به يجلجل في الآفاق صارخاً في وجوههم بلاءاته الثلاث : لا . . . لا . . . لا . كانت لاءات قمة (الخرطوم) يومذاك هي التي تتمثل فيها شمائل العرب : شمماً وحمية وقوة عزم ورسالة . كانت هي مظهر هذه الأمة الممتدة بعشرات ملايينها من المحيط إلى الخليج . . . كانت هي الرد الحاسم على الذين تباشروا بوصولهم إلى جدار هيكل سليمان ليخطوا الخطوة التالية التي تحتويهم من النيل إلى الفرات .

الرؤوس التي نكسها صدى انات الهزيمة على رمال سيناء وصخور الجولان عادت ترفعها صرخات النخوة في أجواء الخرطوم .

وانتظر العرب ، وانتظروا فإذا باللاءات تتقلص وإذا بـ (لا) الأولى تتحول إلى (نعم) .

ولم ينتظروا تحول (اللاءين) الاخريين إلى (نعمين) ، إذ أن التحول الأول محاهما .

وواجه هذا الوطن في تاريخه سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) يوماً كيوم وصول اليهود إلى ضفة القناة في سنة ١٩٦٧ .

بل لنا أن نقول أن ذاك اليوم سنة ١٢٦٠ كان أشد هولاً من يوم سنة ١٩٦٧ فإذا كان اليوم الثاني نتج من هزيمة واحدة فإن اليوم الأول كان ناتجاً من سلسلة هزائم متتابعة أضاعت الوطن في معظمه ولم تبق لبنيه امتداداً يلوذون به ليتهيأوا للكرة على عدوهم ، لم تبق لبنيه امتداداً إلا رقعة هيهات أن تحمي وتجير .

كان الوطن يومذاك في مواجهة الغزو المغولي المدمر الذي اجتاح الوطن الكبير بلداً بعد بلد حتى بلغ أبواب مصر نازلة طلائعه في مدينة (غزة) .

وعند ذلك أرسل (هولاكو) ، إلى حاكم مصر الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي انذاراً رهيباً حمله واحد وأربعون رجلاً من رجاله الغلاظ الشداد ، هذا نصه : « إن الله تعالى قد رفع شأن جنكيزخان وأسرته ، ومنحنا ممالك الأرض برمتها ، وكل من يتمرد علينا ويعصي أمرنا يقضى عليه مع نسائه وأبنائه وأقاربه والمتصلين به وبلاده ورعاياه ، كما بلغ ذلك أسماع الجميع . أما صيت جيشنا ، الذي لا حصر له فقد بلغ الشهرة كقصة رستم واسفنديار .

فإذا كنت مطيعاً كخدم حضرتنا ، فأرسل إلينا الجزية ، وأقدم بنفسك لطلب الشحنة ، وإلا فكن مستعداً للقتال » .

هذا هو الانذار المخيف الذي حمله الواحد والأربعون مغولياً إلى الحاكم المصري ، وهذا هو التهديد المروع الذي وصل إلى القاهرة .

وقد كانت كل جملة في هذا الانذار صحيحة صادقة ، فقد دانت لهم ممالك الأرض ، وكل من تمرد عليهم قضي عليه وخربت بلاده . وكبراء الناس قد صاروا خدم الحضرة المغولية .

وهبط الوفد مصر جباراً متكبراً ، يزلزل بروعته العزائم ويوهي الهمم . هبط مصر وهبط معه تاريخ أسود من الانتصارات الكاسحة ، وماض بشع من التسلط المهول ، كانا كافيين للتسليم والخذلان .

كان الأمر أخطر من أن يقطع به انسان واحد ، وكانت مصر آخر معقل ، فإذا هوت لم تقم بعدها قائمة . لذلك لم يجرؤ رجل فرد ، مهما أوتي من سداد الرأي وقوة العزم أن ينفرد بالقرار .

وهنا كانت الدعوة إلى ما يمكن أن نسميه (مؤتمر قمة) ، مؤتمر قمة لا بمقاييسنا في هذا العصر ، بل بمقاييس ذلك الزمان .

لم يكن المدعوون إليه من أصحاب الجلالة والفخامة والسمو والسيادة ، ممن لم يكن لهم وجود يومئذ ، بل كان المدعوون إليه حكام المناطق المصرية ، وأمراء الجيش ، مضافاً إليهم من انهزموا أمام المغول من حكام البلاد الأخرى ولجأوا إلى مصر .

دعا إلى مؤتمر القمة هذا ، ملك مصر سيف الدين قطز . وقد حفظت لنا بعض المصادر ما يمكن أن نسميه محضراً لما جرى من النقاش والتداول في الجلسة الوحيدة التي عقدها المؤتمرون .

افتتح المؤتمر الملك المصري متكلماً بصراحة يقتضيها الموقف الخطير الذي وصلت إليه البلاد ، فقال :

« لقد توجه هولاكو من طوران إلى إيران بجيش جرار ، ولم يكن لأي مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته ، واستولى على جميع البلاد ، ثم جاء إلى دمشق ولو لم يبلغه نعي أخيه لألحق مصر بالبلاد الأخرى ، ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي (كيتو بوقا) ، وهو كالأسد الهصور والتنين القوي في الكمين ، وإذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته ، فيجب أن تتدبروا الأمر قبل فوات الفرصة » .

لقد كان الملك سيف الدين قطز يعرف أن أكثر المؤتمرين انهزاميون قد استولت عليهم الرهبة من المغول ، وأنهم ميالون إلى التسليم ، ولم يكن هذا من رأيه ، بل كان رأيه المقاومة والقتال ، وخشي إذا طرح الأمر على التصويت أن ينتهي التصويت إلى صالح الانهزاميين .

لذلك بدا من كلمته أنه هو الآخر ميال إلى التسليم ، فاطمأن الانهزاميون إلى قراره ، فلم يحزموا أمرهم ويكتلوا قوتهم بل ظل موقفهم مائعاً بعض كما سنرى في الآتي من القول :

وقد كان في المؤتمرين رجل واحد قوي النفس ، لم تؤثر في قوته انتصارات المغول المتتابعة ، ولا أضعف يقينه التهديد والوعيد ، فلما لمس لينا في موقف رئيس المؤتمر ، ولمح في كلمته امارات الانهزام النفسي ، تصدى له بقوة وحزم . هذا الرجل هو ناصر الدين القيمري الذي رد على كلمة الرئيس بما يلي :

« ان البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر هي الآن كلها في قبضة هولاكو ، فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان فليس في ذلك عيب وعار ، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل . انه ليس بالانسان الذي يطمأن إليه ، وهو لا يفي بعهده وميثاقه ، فانه قتل فجأة خورشاه ، وحسام الدين عكة ، وصاحب اربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق ، فإذا سرنا إليه فسيكون مصيرنا مصيرهم » .

فلم يرد أحد من الانهزاميين على ناصر الدين القيمري وتركوا أمر مصاولته إلى رئيس المؤتمر بعد أن صار في ظنهم أنه في صفهم .

وبالفعل تولى الرئيس بنفسه الرد على القيمري . وانحصر النقاش في المؤتمر بين الاثنين القويين : سيف الدين قطز ، وناصر الدين القيمري .

فرد الرئيس على القيمري قائلاً :

« ان كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع . وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً ويباباً . وقد قضي على جميع من فيها من حرث ونسل ، فلو اننا تقدمنا لقتالهم فسوف تخرب مصر خراباً تاماً كغيرها . وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا ، واحداً من ثلاثة : الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن . أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ، وذلك لأنه لا يمكن أن نجد مقراً لنا إلا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة » .

يبدو الملك سيف الدين قطز من هذا الكلام على أعلى مستوى من الحنكة والدهاء السياسي ، بل يبدو دبلوماسياً قديراً يعرف كيف يناور ويحاور ، ثم يحتفظ بالموقف السليم الثابت لآخر لحظة ، هي اللحظة الحاسمة .

لقد قال ان أمامهم ثلاثة خيارات : الجلاء أو التسليم أو الحرب . ثم برهن أن الجلاء غير ممكن ، وقد كان عليه بحسب ظاهر الحال أن يبين رأيه في الخيارين الآخرين ، ولكنه لم يفعل .

انه أراد أن لا يفاجيء الانهزاميين برأيه في وجوب المقاومة لئلا يهبوا في وجهه هبة واحدة وهم أكثرية الحاضرين :

بل ترك ذلك لناصر الدين القيمري ليزداد الانهزاميون اطمئناناً إلى موقفه هو .

لقد أسقط هو الخيار الأول (الجلاء) ، فكان لزاماً على ناصر الدين القيمري أن يتولى اسقاط خيار التسليم ، وقد كان ذلك ، فرد القيمري قائلاً بحزم وثبات :

« وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم إذ أنه لا يوثق بعهودهم » .

وهنا التفت الرئيس إلى الانهزاميين ليقولوا كلمتهم ، فقالوها ولكنهم

شفعوها بكلام أبطل مفعولها . وكان ذلك نتيجة المناورة البارعة التي قام بها الرئيس العظيم سيف الدين قطز ، والتي أوهم فيها الانهزاميين أنه من رأيهم .

كان جواب الانهزاميين رداً على كلمة القيمري متوجهين بها إلى رئيس المؤتمر : .

« ليس لنا قدرة ولا طاقة على مقاومتهم ، فمر بما يقتضيه رأيك » .

لقد كانوا يعتقدون أنهم بكلمتهم هذه يسلحون الرئيس بسلاح قوي ليقرر التسليم مستنداً إلى رأي الأكثرية ، وكانوا يتصورون أنه ينتظر كلمتهم هذه لتكون حجته فيما يعزم عليه من الخضوع للمغول .

لقد كان في الواقع ينتظر كلمتهم ليحزم أمره في القرار ، ولكنهم وقعوا في الشرك الذي نصبه لهم ببراعته ودقة مخادعته . لم ينتبهوا أنه استدرجهم لتكون كلمتهم ذات شقين ، وأنه أصبح حراً في أي شق شاء من هذين الشقين .

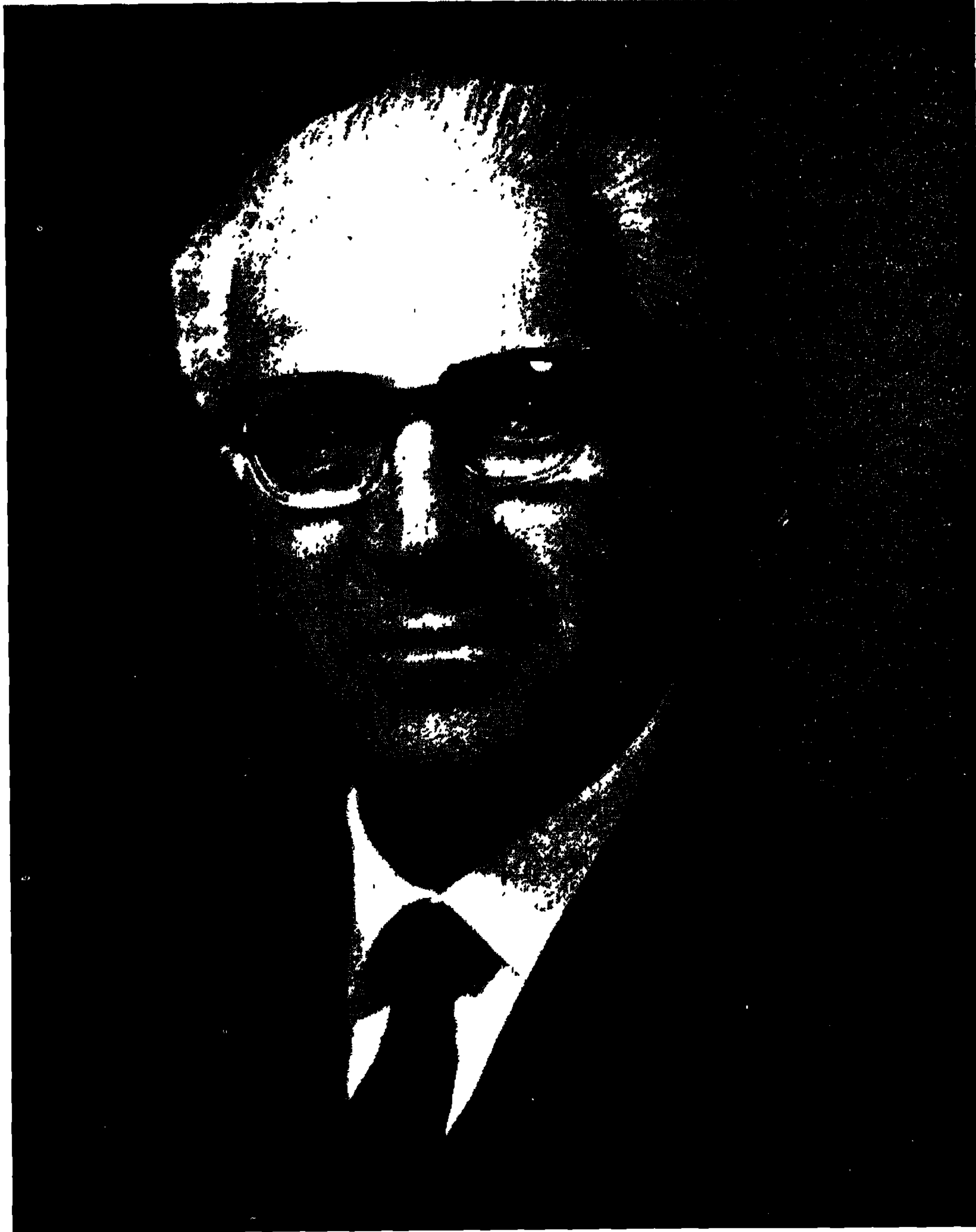
لقد قالوا بالتسليم ، وفي الوقت نفسه قالوا له : « فمر بما يقتضيه فأمر بما يقتضيه رأيه ، فقال :

« ان الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال ، فإذا ظفرنا فهو المراد وإلا فلن نكون ملومين أمام الخالق » .

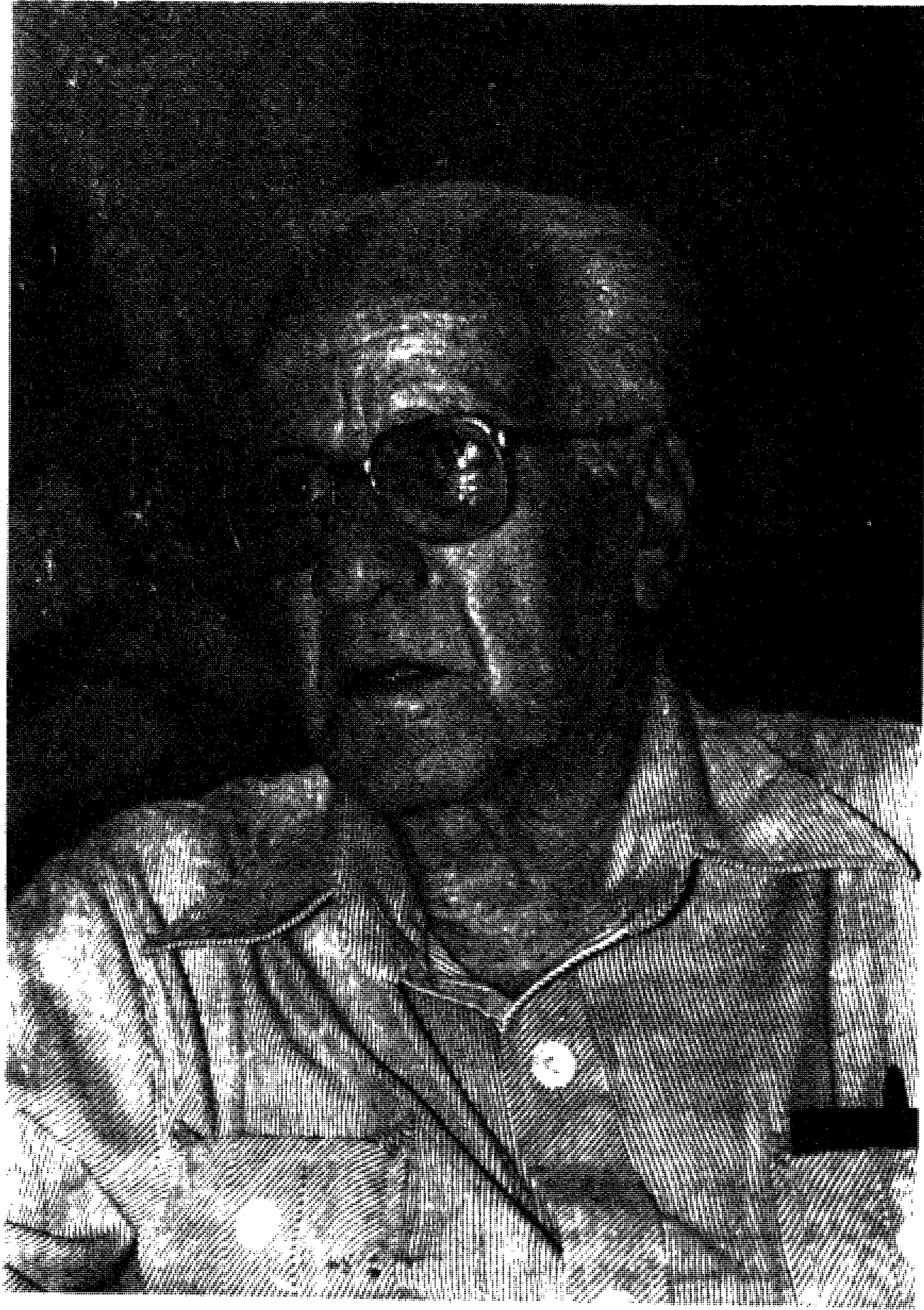
أمام هذا الجواب الحازم صمت الانهزاميون ، ألم يقولوا له : « مر بما يقتضيه رأيك » . انه ينفذ ما طلبوه إليه .

إذا كان مؤتمر الخرطوم سنة ١٩٦٧ قد انجلى عن ثلاث (لاءات) ، امحت كلها مع الأيام ، وصار يحل محلها في كل مؤتمر (نعم) ، فيكون جواب الأعداء عنها : (لا) .

إذا كان الأمر كذلك فإن مؤتمر القاهرة سنة ١٢٦٠ أوجز الجواب بـ(لا) واحدة ، لم يكتبها بالحبر الذي تمحوه الأيام ، بل كتبها بالدم الذي لا تمحو الأيام ما يكتب به . كتبتها سيوف (عين جالوت) .



في أوائل أيام العمل في دائرة المعارف سنة ١٩٦٦



عند الوصول بدائرة المعارف إلى المجلد السادس سنة ١٩٩٠

الفهـرس